موسى الشابندر

ذِكرياتٌ بَغْدادِيّة

العِراق بَين الاحتِلال وَالاستِقلال



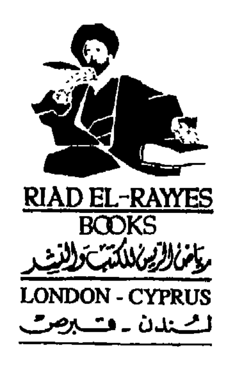
ذِكرَياتٌ بَغدَادِيّة

العِرَاق بَين الاحتِلال وَالاستِقلال

موسى الشابندر

ذِكرياتٌ بغدادِيّة

العراق بين الاحتلال والاستقلال



RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS
لندن - قبرص

A MEMOIR OF BAGHDAD

IRAQ BETWEEN
OCCUPATION AND INDEPENDENCE

by

MOUSSA SHABANDAR

First Published in the United Kingdom in 1993

56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ

P.O.Box:7038 -
LIMASSOL - CYPRUS

British Library Cataloguing In Publication Data Available

ISBN 1-85513-199-4

الطبعة الاولى، ايار مايو ١٩٩٣

محتويات الكتاب

القسم الثاني
سنوات الهجرة

القسم الثالث
نصيبك يصيبك

القسم الرابع

السجن والمحاكمة

القسم الخامس
الفرج بعد الشدّة

القسم السادس
النشاط الدبلوماسي

تمهيد

مضى ما يقارب من خمسين عاماً عندما بدا والدي رحمه الله أول كلمة من مذكراته. وكانت الصفحة الأولى من تلك المذكرات رسالة موجّهة إليّ يشرح فيها العوامل التي دفعته إلى كتابتها وقد طلب مني في آخر تلك الرسالة أن أقوم بنشرها إظهاراً للحقيقة وشرحاً للواقع الذي مرّت به البلاد.

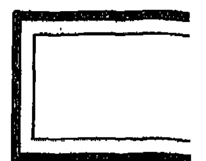
وحرصاً مني في الحفاظ على جوهر هذه المذكرات بكل تفاصيلها ووفاء للأمانة التي حمّلني إياها في رسالته تلك، أبقيت على أسلوب المذكرات بكل ما تحتويها وخصوصاً تلك الأجواء المتعددة التي يصورها بطريقته الخاصة لمختلف مراحل حياته فلم أتعرض إلى نصوصها بالتنقيح إلا ما ندر بل تركتها كما هي وكما جاءت في المخطوطة بصرف النظر عن الاعتبارات الاجتماعية أو السياسية أو العائلية.

إني آمل أن تساهم هذه المذكرات (مع غيرها من الوثائق التي تتعلق بتلك الحقبة من تاريخ العراق) بفتح طاقة جديدة تلقي النور على ما كابده أبناء هذا البلد الصابر في بناء وإنشاء ذلك الوطن بل تشحذ من همم أبنائه وهم يعانون الأمرّين من حصار وضيق اقتصادي وسياسي ومعنوي فرض عليهم. ولعل في طوايا هذه المذكرات ما يساعد العراقيين على تحمُّل معاناتهم، كما تحمّل آباؤهم من قبلهم، عندما جاهدوا في سبيل قيام وطن حر ومستقل.

ولا بد لي من أن أعيد هنا ما سطّره والدي رحمه الله: «إلى كل من ضحى ويضحي في سبيل الحفاظ على مصير وكرامة هذه الأمة العظيمة الصابرة المجاهدة... نهدي هذا الكتاب».

والله من وراء القصد.

محمود موسى الشابندر
لندن ١٩٩٣



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب هذه السيرة الذاتية المرحوم موسى محمود الشابندر هو أحد أفراد ذلك الرعيل الفذ من رجالات العراق الذي عمل منذ مطلع هذا القرن وحتى الجزء الأخير من منتصفه على بناء كيان مستقل وإنشاء دولة وحكم مستقر في العراق وذلك بعد انهيار الحكم العثماني وتسابق دول الغرب على اقتسام وتوزيع الشرق العربي فيما بينها كجزء من ثمار النصر الذي سجلوه على ألمانيا القيصرية سنة ١٩١٨ وخروج الدولة العثمانية مفككة الأوصال مختلّة الأطراف ودار السلطنة وعاصمة الخلافة بين الخصوم والأعداء.

وكان قدر ذلك الرعيل وتلك النخبة من العراقيين أن تعمل على جمع قواها وتتمسك بكل ما ملكت من إيمان وعقيدة لبدء صراعها الشاق والمرير مع القوة المحتلة وهي لا تملك من الوسائل غير المنطق والحجة والاقناع والمناورة ومع خصم تربع على الموقع الأول في مصير العالم عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وصال وجال فيه حتى قيام الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩.

ولئن قيض لتلك النخبة قائد ومعلم عبقري المواهب نادر المثال يأخذ بيدها ويجمع شملها ويحثها على السعي للوصول إلى أقرب شكل من الاستقلال والوحدة الوطنية، فإن المرحوم الملك فيصل الأول القائد والمعلم لم يكن قادراً على ملء دوره التاريخي لولا صدق وإخلاص وأمانة ذلك الرعيل سواء في العمل الظاهر أو الباطن مع الملك القائد.

وقد أثمرت تلك الجهود المضنية بدخول العراق عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ وإنهاء الانتداب البريطاني كخطوة أساسية نحو الاستقلال والحرية.

تلك الفترة الزمنية من تاريخ العراق تستحق دراسة موسعة وجهداً عملياً صادقاً لكشف ذلك الجزء من تاريخ المنطقة وردّات الفعل التي تطورت وعملت على الإسراع في سير الأقطار العربية الأخرى نحو التخلص من الهيمنة الغربية ونيل الحقوق الطبيعية لشعوبها.

وأهميتها تكمن كذلك وفي نفس الخطورة في القواعد التي تبلورت والتي قامت الدولة الفتية عليها ويسرت لها بناء مجتمع عصري يقوم على المساواة بين مختلف فصائله ويضمن لها حرية التعبير وتوفير الفرص الاجتماعية والاقتصادية لكافة طبقاته.

فقد عمل هؤلاء القوم وسلاحهم اللين والإقناع والانصاف للتغلب على ما كان يشغل البلاد من انقسامات طائفية ونزاعات عرقية في داخلها ومد وجزر في حدودها الجغرافية مع جيران قل أن يرضوا بالقليل بل زاد الأجنبي من مواقفهم تصلباً وشدة لغايات اقلها تعطيل السير في كافة أرجاء المنطقة العربية نحو التجمع والاعتماد على الموارد الذاتية ـ خلقياً ومادياً ـ لتحقيق الشخصية العربية المتمثلة بالاستقلال والوحدة.

وإن أهمية دراسة كهذه قد تكشف أيضاً ما حققه رجال البلاد حينئذ من حلول موفقة تتجلى اهميتها في وقتنا هذا وقد أحاقت بالأمة تلك الأخطار نفسها وحمل خصوم جُدد وآخرون في الماضي القريب سلاح الانقسام الطائفي والدعوة العرقية مجدّداً والغاية لا تتعدى التجزئة لحفظ النفوذ الأجنبي وإبقاء السيطرة الاقتصادية مستمرة على الكيانات المتعددة.

كل ذلك يشكل سلاحاً فعالاً إذا سها أبناء الأمة ومفكروها عن مدى خطره وخضعت القلة منهم للأطماع الشخصية والنزوات المحلية المؤقتة.

فبالفطرة السليمة والنية الصادقة تمكنت تلك العصبة من رجال الأمة ـ وعلى راسهم الملك القائد ـ ولفترة قصيرة ١٩٢٠ ـ ١٩٥٨ من أن تلم بما يعانيه العالم حينئذ من اختلاف وتضارب في الاجتماع والاقتصاد العالميين فاختطت طريقاً وسطاً في إلبناء حمل في طياته خير ما في النظامين ـ الشرقي والغربي ـ من قواعد تخدم ولا تهدم وتجمع ولا تفرق فاقامت مجانية التعليم في جميع مراحله وسيّرت البعثات الدراسية إلى الخارج من دون تمييز، بل على أساس متين من صحة المواهب والمؤهلات العقلية وتملكت وسائل النقل والمواصلات الكبرى باسم الدولة وتفرغت لوسائل الإنتاج الكبرى فاقامتها لتقف حائلاً دون نشوء فئة متميزة تعلو بنفوذها وفتحت ابواب مصارفها أمام حقلي الزراعة والصناعة لتطوير البنية اللازمة للعمران ووسّعت الخدمات الصحية والاجتماعية ـ بالمجان ـ ومن البداية لكافة افراد الشعب. كل ذلك النمو والتطور في زمن كانت موارد البلاد ضيقة إلى حدٍ بعيد. ومن ثم فلم تغفل عن فتح باب الاجتهاد والعمل للفرد العراقي في ظل نظام اقتصادي حر ومتوازن واصول سياسية مشتقة من الدستور الدائم تكفل حرية التعبير وصيانة الفرد والأحزاب. ومهما اعترى تلك الفترة من ضعف ونقص ـ وهو امر لا مناص منه في كل مجتمع ـ فإنها لا تزال مثلاً يُشار إليه منذ عالم الستينات وحتى وقتنا الحاضر.

ولئن تمكن العراق حينئذ أن يستبق الاشتراكية فيقدم الخدمات العامة من دون أن يخنق الحريات وأن يمارس الاقتصاد الحر من دون تطرف فلا شك عندي أن الباحث المدقق في تاريخ العراق الحديث سيجد أن الحكم حتى سنة ١٩٥٨ اشاد دولة عصرية وفي فترة تقل عن اربعين عاماً يسّرت للسلطات المتتابعة جني ثمار تلك الجهود الشاقة ومكّنتها من التوسع في مجالات اخرى.

تلك إذاً هي بعض معالم المجتمع العراقي الذي كرّس المرحوم الشابندر وإخوانه سنين حياتهم العاملة لبنائه وسيجد القارىء للمذكرات أن ذلك يشغل القسم الأكبر والأهم منها.

رحم الله الشابندر وإخوانه وطيّب ثراهم.

*****

السيرة الذاتية هذه مرآة صادقة لشخصية الكاتب، الذي آثر الانصراف إلى الخدمة العامة ـ

وبطلب من المرحوم فيصل الأول ـ على الانصراف إلى حياة خاصة تحمل في طياتها الدعة والاستقرار والتمتع بالأسباب المادية الوفيرة التي نشأ فيها وورثها فيما بعد.

وهو بسيط العبارة في التدوين غزير المعنى في تحليله لمختلف المواقف السياسية لرفاقه الذين شاركهم العمل عبر السنين المتتابعة، وقد شمل ذلك آراءهم السياسية وتصرفاتهم كأشخاص. وتراه يفعل ذلك باتزان واعتدال العالم المحقق وإدراك وتفهم الأخ المشفق الذي يلمس قوة وضعف الفرد ـ أياً كان ـ في حياته الخاصة او العامة.

ويرافقه هذا الاعتدال في احلك فترات حياته التي قضاها في المعتقلات والسجون أثناء الأربعينات وهو يعاني المرض والعزلة والاغتراب. بل ان روح التسامح والدعابة كثيراً ما تطغى على ما كان يقاسيه من مرارة ويأس لازماه لوقت طويل فيما بعد.

وبرزت تلك الصفات بشكل خاص في مقالاته الأدبية الاجتماعية والتي سطّرها بقلم «ابو شرارة» وخلال فترة طويلة من الزمن في صحف بغداد. وتجده فيها الناقد المعتدل وصاحب الدعابة الأديب الأنيق والمعلم المتواضع الذي لا يجرح خصماً ولكنه لا يتسامح في إخفاء الحقيقة.

وقد يسّرت له تلك الصفات الأدبية مركزاً مرموقاً في الأوساط الخاصة والعامة فكثيراً ما كان يُنادى بـ «أبو شرارة» للدلالة على عمق تاثير كتاباته على قرائها.

وقد اختط لنفسه في تلك الرسائل اسلوباً خاصاً به يجمع بين بلاغة الفصحى وعذوبة احسن ما في اللهجة البغدادية من مفردات ليسرد أفكاراً ونظريات سياسية واجتماعية كان شغوفاً بوضعها أمام القارىء وبشكل مثير ـ فيه الدعابة والحكمة ـ وينم عن اطلاع واسع على التراث الشعبي والأدبين العربي والعالمي ويهدف إلى إقامة مجتمع أفضل يحافظ على تراثه ولا يفرط في قيمه.

وحملت تلك الرسائل المرحوم الملك فيصل الأول على أن يخاطبه وهو يستقبله في برن بسويسرا قائلاً: «لازم تاتي إلى بغداد يا موسى ونحن نحتاجك بان تخدم بلادك خدمة فعلية ولا يكفي الجلوس في لوزان وكتابة المقالات».

وقد جمعها ـ وقبل وفاته ـ في كتاب أطلق عليه اسم «الشرارات» سنة ١٩٦٧، وهي سنة النكسة المعروفة وخصص ريعها للمجهود الحربي.

والمذكرات بالاضافة إلى أهميتها السياسية تعطي صورة نادرة للمجتمع البغدادي في مطلع هذا القرن من خلال سرد كامل لحياة أسرة مرموقة وشؤونها الخاصة والعامة. فهي تفصل وبدقة العادات والتقاليد السائدة حينئذ وتؤلف سجلاً للحوادث والظروف التي ألمت بالمدينة وبعائلته في تلك الفترة الحرجة والروابط التي جمعت بين أفراد العائلة الواحدة ومع من حولها من مختلف طبقات المجتمع لا تميز بين صغير أو كبير، غني أو فقير، كل ذلك بأسلوب تغلب عليه الصراحة التامة وبشكل غير مألوف في السيرة الذاتية العربية او الشرقية وعلى الأخص فيما يتعلق بأفراد عائلته أو أصدقائها الكثر.

وسبب تلك الصراحة ـ على ما أعتقد ـ يعود في الدرجة الأولى إلى شخصية المرحوم الشابندر التي جبلت على سرد الحقيقة مهما صعبت وإلى ثقافته الخاصة التي مزجت ـ وبنجاح ـ بين تراثها الشرقي ومفاهيم العصر الحديث كما اختبرها في العالم الغربي بنفسه.

فقد اقتبس من الغرب ما اعتبره صالحاً ورفض ما رآه سيئاً لمجتمعه ومن دون تردد. إذ يسّرت

له دراسته الجامعية في المانيا وسويسرا ومن ثم العمل الدبلوماسي في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الخبرة اللازمة والوقت الكافيين لذلك الموقف المعتدل والذي يعد ضرورة لمن يعمل في الحياة العامة لبلده.

فتراه مثلاً يصف ببساطة تلك النعم والرفاهية التي نشأ فيها ولكنه لا يتردد ـ وفي نفس الصراحة ـ في إظهار امتعاضه ورفضه لقساوة وخشونة تصرف الآباء مع أولادهم وأهل دارهم. وهو نهج سار عليه الكثيرون من الآباء في حياتهم الخاصة وحتى زمن قريب.

وموقفه من الغرب وحضارته مثل آخر، ويستحق بعض التعليق، وإن كانت المذكرات مليئة بشروح وتفاصيل دقيقة.

فالشابندر يشعرك بشغفه بالحياة الأوروبية القائمة على الرتابة واحترام حقوق الأفراد وحرية التعبير. ولكنه في الوقت ذاته لا يخدع نفسه بماهية التقدم المادي الغربي وتغلب الأثرة والأنانية على أفراد المجتمع الغربي وشعوبه وتسرب هذه الظواهر السلبية إلى سياساته الداخلية والخاصة.

فتراه ينحي باللائمة وبعبارات قاسية على الحضارة الأوروبية التي جعلت السعي وراء احتلال ونهب موارد الشعوب الأخرى منتهى غاياتها واستعمالها السلاح في ذلك حين تفشل الوسائل الأخرى. ولذلك ينقد وبحرارة سياسة هتلر وحزبه النازي الذي عمل على إثارة الحرب العالمية الثانية وما تبع ذلك من دمار وخراب أصاب الجميع ومن دون أي تمييز.

ويعالج وفي نفس الأسلوب ما لحق العرب من مصائب وآلام منذ أن نكث الغرب وبالأخص بريطانيا ـ بالوعود والمواثيق التي قطعت للعرب أثناء الحرب العالمية الأولى وما جرّت من ويلات على العالم العربي اتخذت أشكالاً مختلفة من وصاية أو انتداب أو حكم مباشر ابتدعت في أروقة مؤتمر فرساي وعصبة الأمم. وما تبع ذلك من رفض تام ومقاومة ـ بالسلاح والعصيان المدني ـ في أرجاء العالم العربي لتلك الهيمنة وذلك التعسف.

ولعل المرحوم الشابندر استبق ما نراه اليوم من ظواهر اجتماعية في الغرب تشير إلى ابتعاده عن القيم الروحية في حضارة الانسان التي ورثها وعمل على تطور بعض اقسامها وبشكل مثير ومن ثم اقبل وبسرعة ليواجه الأزمات التي تحمل في طياتها عناصر الاضمحلال والتفكك من جراء ذلك الابتعاد.

تحتل القضية الفلسطينية صفحات متعددة ولا عجب ان تشغل قلبه ولبّه كما شغلت وستبقى شاغلة قلب كل عربي ومسلم حتى تعود حقوق شعبها المشرد الذي اخرج من مدنه وقراه كاملة، وقد وجد الشابندر في تواطؤ الغرب والشرق على إقرار التقسيم مثلاً حياً على عمق الانتهازية الغربية وانعدام الوازع الخلقي في حضارة الغرب القائمة.

ما حدث من نزاع ثم اصطدام بين الحكم العراقي وبريطانيا سنة ١٩٤٠ يحتل جزءاً مهماً من المذكرات. فالشابندر شارك في وزارة رشيد عالي الكيلاني ولمس عن قرب أسرار وتطور الأمور التي انتهت بالاصطدام المسلح بين البلدين. وعليه، فإن ما يلقيه من اضواء وشروح لتلك الفترة الصعبة والعصيبة من تاريخ العراق يعتبر جديداً وذا اهمية خاصة لصدوره عن وزير الخارجية حينئذ. ومرة اخرى يلمس القارىء في سرد تلك الأحداث الصراحة التامة والنقد الذاتي والعام بموضوعية تهم الباحثين ولا تحمل الاثارة أو التمييز السياسي.

فهو يدون ـ كعضو في الوزارة ـ ما رآه وما قام به الآخرون وحسب ما أملاه عليه ضميره من غير تردد ولا وجل. وبذلك يضيف فصلاً جديداً إلى تاريخ تلك الفترة من الزمن بعد قيام الحرب العالمية وإلقائها بساسة العراق في أزمة خانقة بين شقّي الرحى ـ شق مع الحلفاء والآخر مع خصومهم.

وسيلقى القارىء وضعاً موجعاً لما مر به موسى الشابندر ورفاقه من مصائب ومحن وما لحقهم من تشريد ونفي واعتقال بالإضافة إلى ذل ومهانة شملا ساسة اجتهدوا فلم يصبهم التوفيق. بل سيعجب من صلابة إيمانهم وعمق عقيدة اغلبيتهم وهم يمرون بأحرج الساعات في حياتهم.

ويخفف من وقع تلك الصفحات المريرة ما اضافه المرحوم الشابندر إليها من دعابة في أوقات الشدة ووصف موسع لمختلف الأفراد الذين مارسوا دوراً بارزاً على مسرحها.

تلك فترة كان لها وطء شديد وقوي وهي فترة قاسية صودرت فيها أملاكه وتردت صحته وهو الذي لم يكن سليم البنية منذ شبابه. ولكن سرعان ما يسترد بعدها عزيمته ونظرته الايجابية إلى الأمور ولا يسمح للمرارة ان تشغل حياته الخاصة أو العامة. بل نجده مرة اخرى متفائلاً يعمل من جديد على تحقيق الأهداف القومية والاجتماعية العربية وعلى الأخص بعد سنة ١٩٤٧ وبداية المحنة الكبرى في فلسطين وما تبعها من مساع متعددة للوحدة والاتحاد بين مختلف الأقطار العربية.

إذ عاد الشابندر ليشارك في مد الجسور بين أطراف هذا العالم الذي أحبه وكرس له حياته العامة من خلال عمله ثانية كوزير للخارجية وسفير لبلاده في العالمين العربي والغربي وحتى قيام أحداث سنة ١٩٥٨.

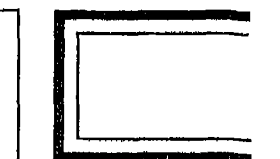
وحق له في نهاية المطاف ان يشتكي من تقلبات الزمان وصروف الدهر. رحم الله أبا محمود ورفاقه. فقد اجتهدوا وعملوا: على بناء وطن يجمع وحكم ينشر المعرفة والعلم ويطور أسباب الحياة باتزان وبصيرة. وذلك ما لن يغفله التاريخ يوماً.

فيصل الدملوجي

لندن ١٩٩١

القِسْمُ الأوّل

البدايات الأولى



ولدي العزيز محمود،

في اليوم الثالث من شهر نيسان/إبريل سنة ١٩٤٤ أتيت مع أمك وأختك لتراني في سجن «أبي غريب» ولما فتح السجّان الغرفة التي كنت مسجوناً فيها دخلت ماسكاً بيد أمك وكان أثر الخوف ظاهراً على وجهك والاستغراب باد في عينيك.. نظرت إليّ نظرة طويلة معصومة ثم التفت إلى أمك تسألها:

«هذا بابا؟ ليش شعره أبيض؟ ليش نايم هنا؟ ليش ما يجي للبيت؟».

هذه كانت كلماتك عندما رأيتني لأول مرّة في حياتك. ومن حقك يا بني أن تسأل كل هذا. لماذا يكون أبوك في هذا المحل المخيف المحاط بالأسلاك الشائكة وبالجنود والحراب؟

لماذا يسكن أبوك في هذه الغرفة الصغيرة القذرة التي لا يدخلها النور ولا الهواء؟

قلنا لك ما قلنا في حينه، تطميناً لك ورداً على أسئلتك، ولربما اقتنعت بما قلنا.

وبعد أن ذهبتم وأغلق السجان الباب شعرت بأن كلماتك تركت جرحاً دامياً في قلبي فأخذت أردد سؤالك وأقول في نفسي:

أنا هنا يا ولدي الحبيب لأنني آثرت مصلحة بلادي على مصلحتي الخاصة ولأنني في ساعة خطرة فكرت في مستقبل وطني دون أن أفكر في مستقبلي ومستقبلك، ولأنني كنت أعتقد أن الخدمة في سبيل الوطن هي فوق خدمة النفس وخدمة الأبناء والأهل. أردت الصالح فاتهمت بالإساءة، وتمسكت بالسلم فكنت ضحية الحرب، وابتغيت الخير فغطست بالشر، وحاولت دفع الرزية فكنت في وسطها...

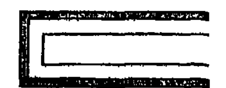
هذا هو جرمي. وإن كان عليّ أن ارفع معذرة فإنها لكم، أنتم أولادي وأهلي. لأنني اسأت لنفسي واسأت لك ولأختك وأمك.

وستمر الأيام والسنون، وستصبح أنت يا محمود بفضل الله رجلاً من رجال هذا الوطن، وطن آبائك وأجدادك، هذا الوطن الذي صار أبوك ضحية في سبيل الدفاع عن كرامته. وقد

تسمح لك الظروف يومـاً بإظهـار الحقيقة التي تغلبت اليـوم عليها الأهـواء والسياسـة والأحقاد فطمرتها وشوهتها.

ورأيت ان اكتب شيئاً عن حياتي وعن اشتغالي بالسياسة ليس من بـاب الدفـاع عن النفس، وإنما لتطّلع أنت على حقائق الأمور ولعلك تجد في حديثي بعض السلوى وبعض العبر.

مارس ١٩٤٥
مستشفى الكرخ
بغداد



دورة الطفولة الأولى

هذه دورة الضباب الكثيف إذ لا يتذكر منها الإنسان إلّا بعض الشرارات من هنا وهناك ولا ينطبع في فكر الطفل إلّا ما يسبب له الرعب والخوف أو الألم ويجعله يشعر بوجوده في الحياة.

شعرت لأول مرة بوجودي في الحياة عندما ضربني أخي شاكر على وجهي..

كم كان عمري؟ سنتين أو ثلاث أو أربع سنوات؟ ـ لا أعلم ـ ولكنني اذكر جيداً كيف وأين حدث ذلك.

كنا جالسين في عربة صغيرة وكان يدفع بها أحد خدامنا في عقد الصخر (الآن شارع المأمون). لا اذكر لماذا ضربني أخي شاكر ولا أذكر شيئاً عنه قبل ذلك «الكف» ولا من بعده، ولكني اعلم جيداً أني خفت خوفاً شديداً من الضربة ومن الصوت الذي أولدته في أذني.

وأرى في عين ذاكرتي، أمام غرفة جدي، في بيتنا القديم، زجاجات كبيرة وصغيرة وأواني بيضاء غريبة الشكل.. وأسمع «جدو وجعان» عندما أردت أن أركض أو العب.. ثم أرى نفسي واقفاً فوق «الدكّه» في «المجاز» ومدخل البيت مزدحم بالنساء يبكين ويصرخن ويلطمن وأرى جيداً بينهن «فاطمة» مربيتي الكردية وهي تعيِّط وتضرب على وجهها بيديها وأرى بين ذلك الازدحام رجالاً يحملون صندوقاً طويلاً مغطى «بشال» ويخرجون به إلى الطريق فترجع النساء إلى داخل البيت ثم تأتي فاطمة وتحملني وهي تبكي وتدخلني إلى الحرم...

وفي كل ذلك افهم أن «جدو مات» ولكني لا استطيع أن أدرك معنى الموت...

وقد توفي أخي شاكر قبل ذلك بمدة ولا أتذكر شيئاً عن ذلك ولكني كنت أشعر ان «شاكر ماكو» وان «جدو ماكو» وأن هناك حزناً كبيراً في البيت...

وبصورة أوضح مما سبق أتذكر سقوطي من أعلى السلم إلى ادناه!

كان في دارنا القديمة سلّمان متقابلان ينتهيان عند الحوش بفسحة صغيرة مربعة أمام باب «بيت الحطب» وبيت الحطب هذا مخزن كبير مظلم ومرطب تلتجيء إليه القطط عند المطاردة. شاهدت يوماً قطّاً كبيراً يدخل بيت الحطب وأنا في أعلى السلم.. فحاولت النزول وراء القط فما شعرت إلّا وأنا اتدحرج ويضرب رأسي بدرجه فأنقلب رأساً على عقب وأضرب برأسي الدرجة الثانية وأستمر بهذا التدحرج حتى شعرت بأن لا نهاية له! ثم وجدت نفسي متربعاً في الفسحة الصغيرة أمام بيت الحطب ابكي وأصرخ ولم يكن بكائي من الألم والرضوض وإنما من الخوف ومن عملية السقوط العجيبة...

واذكر يوماً كنت جالساً على حصير في الحوش فرأيت شيئاً يتحرك فحاولت أن امسكه أو ربما مسكته ـ وإذا بصرخة عالية أجفلتني، وإذ بالمربية فاطمة تحملني وتركض.. وكانت تلك حية

صغيرة... أتذكر أن لونهـا كان اصفـر وأنني لم أخف منها عنـدما رأيتهـا ولكن خفت من صرخة فاطمة وركضها...

*

ومما أتذكره بصورة واضحة نوعاً ما هو يوم ولادة أختي زهـرة. أخذتني جـدتي إلى الغرفـة الكبـيرة (الأرسى) وهناك رأيت جـدتي «عدّولـه» تحمل طفـلاً صغيراً أحمـر اللون فـأرتني الطفل وقالت: «هذه أختك. شوف شلون حلوه». وفي تلك الايام كنت مرتبطاً بجـدتي كل الارتبـاط وكانت هي الشخص الوحيد الذي أحبه وهي أيضاً كانت تحبني كثيراً. كنت أنام في غـرفتها وأجلس إلى جانبها دائماً. وكنت أشعر بحبور ولذّة عندما كنت اضع رأسي على ركبتيهـا واغفو. وكـانت جدتي نشيطة وحادة المزاج وكان الجواري والخدم يرتجفن خوفاً منها إذا غضبت وأخذت تصرخ وتسب وتشتم، وفي تلك الحالات كنت لا أحب أن أراها، أو أكون جنبهـا لا سيما عنـدما يـأخذ الغضب منها مأخذه فيصفر لونها ويرتجف القسم الأسفل من وجهها.

* * * * *

وبعد جدتي كنت أحب «دادا نادر»، وهي جارية حبشية كانت كرئيسة للجواري وأقدمهن في البيت. كانت تقصّ علينا قصصـاً لطيفة فيهـا الجن و«السعلوه». وبـالرغم من خـوفي من الجنون «والسعلوات» كنت اصغي بشوق كبير إلى تلك «السوالف» ونشأت وأنا أخاف من الظلمة وأتصور الجن يلاحقني في كل زاوية من زوايا البيت من تأثير قصص «دادا نادر» وغيرها.

ولم أتذكر أكثر من هذا حول «دادا نادر» وماذا حل بها ـ ولكن علمت فيما بعد بأنها مرضت وتوفيت بعد وفاة جدي بمدة وجيزة.

البيت القديم

بيتنا القديم الذي ولدنا فيه هو في محلة جديد حسن باشا في زقاق يتصل بعقد الصخر (الآن شـارع الجسر القديم أو شـارع المأمـون) ويسمى ذلك الشـارع هكذا، لأنـه في تلك الأيـام كان الشارع الوحيد المبلط بالصخر وربما ذلك الاهتمام آتٍ من أن ذلك الشارع يتصل بالجسر الوحيد الذي يربط الصوبين. ويسمى ذلك الشارع أو المحلة «دنكجية» نسبـة إلى محلّات تهبيش الـرز وهذه هي عبارة عن حوانيت فيها حفر وآلات خشبية بدائية ويقـوم بعملية تهبيش الـرز عمال من الاكراد الفيولية.

ينقسم بيتنا إلى قسمين أو بالأحرى إلى دارين كبيرين: الحرم والديوانخانه ـ أو الديوه خانه ـ يفصل الطريق الضيق بينهما على أنهمـا يتصلان بممـرات تمتد فـوق العقد تسمّى «مـا بين». فهنالك «ما بين» يوصل الطَرَمات وآخر يوصل السطوح بين الدارين.

هكذا كانت بيوت «الأكابر» في ذلك الزمن. محلة جديد حسن باشا كانت تعتبر محلة «الأكابر والخاندانيه» إذ ان أكثر سكانها كانوا من التجار وكبار الموظفين والعـائلات القـديمة المعـروفة ـ فهنالك بيت طابور اغاسي حسن بك (والـد أحمد مختـار بابـان وزير العـدلية الآن) وبيت شـاكر افندي وبيت الجلبي وبيت شمس الدين افندي الألوسي وبيت فؤاد افندي سنيه إلخ...

نحن في هذا البيت القديم ثلاثة صبيان: وأنا أكبرهم ويأتي محمد ابن عمتي بعدي ثم أخي إبراهيم. أما أختي زهرة فكانت صغيرة ولا تشترك معنا باللعب. كنا نلعب في وسط الدار ـ الحوش ـ أو فوق السطح ولم يسمح لنا باللعب في الطريق مثل الأولاد الآخرين. بعدنا يأتي مكي ابن عمتي فهميّة ويشترك معنا ولكن كان يزعل أكثر الأحيان ويترك اللعب ولم تكن علاقتنا من هذه الناحية على ما يرام. نحن الثلاثة كنا دائماً متفقين نشأنا نحب بعضنا بعضاً وبقينا هكذا والحمد لله إلى يومنا هذا.

في البيت عندنا مربيات كرديات. ومربيتي كانت فاطمة ومربية محمد خديجة ومربية إبراهيم مَصْرَى وكانت هناك كردية أخرى اسمها عيشة قامت بتربية أخي شاكر ثم تركت بيتنا ونحن صغاراً لا نذكر متى تركتنا.

كنا نقضي أكثر أوقاتنا في الحرم نلعب مع خديجة ومصرى أو مع بعض الصبيان والبنات الذين يأتون مع الزائرات نهاراً أو مساءً. كنا نلعب «حرامية»: ينام الكل ثم يأتي «الحرامي» يمشي مشية الحرامية ولما كان «البصوان» أو الناطور في باب الغرفة هو أيضاً نائماً يدخل «الحرامي» الغرفة ويسرق ثم يفيق النائمون ويقبضون على السارق. ولعبة «الخطار» كانت لعبة مرغوبة كذلك، يبقى قسم منا جالساً في الغرفة يمثل أهل البيت ويأتي القسم الآخر كضيوف. فنتسالم ونتكلم ويقدم أهل البيت للضيوف سكاير وهي عيدان من الحصران ثم يقدمون الشاي وهو ماء في فناجين صغيرة... كم كان يجري كل ذلك بجد واهتمام!

ولما كنت أكبر الأولاد سناً كنت أقوم بترتيب الألعاب وتقسيم الأدوار وكنت أستبد بهم أحياناً وأعتدي عليهم.

ومن الامتيازات التي كنت أتمتع بها أن أذهب إلى الديوانخانه مساءً وبعد أن أبقى برهةً من الزمن في الديوان عند والدي أذهب إلى غرفة الخدم (القهوه جاغ) كما كنا نسميه. وهي غرفة صغيرة فيها موقد القهوة وفيها تستحضر الناركيلات وفيها يجلس الخدم ـ خدم البيت وخدم الضيوف. لأن كبار الضيوف كانوا يأتون وخادمهم يحمل فانوساً أمامهم. وحملة الفوانيس هم عادةً رؤساء الخدم أو «الآغوات».

كنت انبسط كثيراً في مجلس القهوة جاغ لأن الخدم والآغوات عندهم حكايات وقصص فيها عفاريت وجنون مما يقشعر منه البدن فهذه كانت من نوع حكايات دادا نادر ولكنها أطول وألذ للسمع.. وبعضها قصص واقعية.

اتذكر أن أحمد اغا ـ وهو خادم بيت شاكر افندي ـ أخذ يقص على الآخرين بأنه في أحدى ليالي الصيف كان نائماً في حوش الديوانخانه فأفاق على أصوات غريبة عجيبة تأتي من البئر... فتح عينيه واستعوذ بالله من الشيطان... ثم ماذا يرى؟ يرى شمعة مولعة تخرج من البئر وتطوف بالدار وتدخل في السرداب ثم تظهر من السرداب وتطوف باطراف الحوش ثم تدخل البئر... ثم ينتقل الحديث إلى الطنطل... فيقول أحد الخدم بعد القسم والأيمان أنه في ليلة مظلمة من ليالي الشتاء كان عائداً إلى بيته فرأى طنطلاً يقطع أمامه الطريق وقد وضع رجلاً على الحائط والأخرى على الحائط المقابل ولكن من حسن الحظ كان معه ابرة فاخرجها وقال بسم الله الرحمن الرحيم فلما رأى الطنطل الابرة غاب عن الأبصار.

وبعد قصة الطنطل يذكر خادم ثالث مسألـة القطط السود وأنـه ذات مرّة رأى قطـة سوداء تدخل السرداب فدخل بعدها وسد الباب لأنه أراد أن يمسكها ولكنه فتش عليها فلم يجد لها أثراً فتعجب وقد زاده استغراباً أنه وجد في السرداب صخرة كبيرة لم تكن هناك فأخذ الصخـرة ورمى بها في الحوش وإذا بها تنقلب إلى قطة سـوداء وتهرب ومن يـومه اقسم بـأن لا يتحرش بـالقطط السوداء.

كنت استمع لهذه الاحاديث وقلبي يرتجف خوفاً. ومن الغريب أنني بالـرغم من الخوف كنت اتلذذ بسماع تلك القصص واتطلب المزيد من سماعها..

كيف رأيت الجن

إن الخوف من الجن كان يلازمني وينغص عيشي. كنت أخاف من الظلمة ولا أدخل السراديب أو بعض الغرف الفارغة لوحدي وكان أخي إبراهيم «يوقف لي» أي أنه يرافقني في مثل تلك المحلّات. وكنت اتعجب كيف لا يخاف إبراهيم وهو أصغر مني. وكنا أنا ومصرى أكثر أهل البيت خوفاً من الظلمات والقطط السود...

كنت أتخيل الجن في كل زاوية من زوايا البيت ويوماً من الأيام رأيت جنياً بعيني! وكان ذلك في الشتاء. كنت نائماً في غرفة جدتي وفراشي ملتصقاً بفراشها إذ كنت أمسك بيدها قبل أن أنام... ذات ليلة أفقت من نومي في منتصف الليل. كانت جدتي نائمة والسكوت كان عميقاً... فتحت عيني فرأيت هناك في وسط الغرفة شيئاً تجمد له دمي من الخوف... رأيت رأس خروف وله عينان كبيرتان متحلقتان تنظران إليّ... غطيت رأسي باللحاف وأخذ العرق يتصبب من جسمي وبعد مدّة رفعت طرفاً من اللحاف ونظرت... نعم هذا رأس خروف معلق في الهواء لا يتحرك. يشبه رؤوس الخراف التي يضعها بائعو الباجة أمام حوانيتهم... ولكن هذا رأس أسود وله عينان كبيرتان براقتان... غطيت رأسي سريعاً باللحاف وجمعت أطرافي حتى كاد حنكي يصل إلى ركبتي وبقيت أرتجف خوفاً وأنا حائر في أمري... أردت أن أوقظ جدتي ولكن الخجل منعني لا سيما وانها كانت دائماً تلومني على شدة خوفي.. ثم إذا افاقت هي فلا بد وان الجني سيغيب، فكيف أثبت لها أنه ظهر بشكل رأس خروف! كم بقت هكذا لا أدري. ساعة أو ساعتين أو أكثر؟ لا أعلم ولكني أعلم بأنني لم أشعر خوفاً في حياتي بمثل ذلك الخوف... وبعد مدّة سمعت جدتي تتحرك.. ثم سمعتها تقوم وتتوضأ... فحمدت الله وشعرت بأن الحياة قد عادت إليّ. فرفعت جانباً من اللحاف لأرى ما هنالك.. فالظلام كان خفيفاً والفجر آتياً. نظرت إلى وسط الغرفة. ولم يكن هناك خروف ولا رأس خروف وإنما كان هناك في وسط الغرفة دفاية «منقلة» وعليها ابريق تضع فيه جدتي الماء لأجل الوضوء.

لم أكلم أحداً بما رأيت خوفاً من الجان. لانهم يسمعون ما يقال عنهم، إن شراً وإن خيراً. وقصة رأس الخروف أثبتت خوفي واصبحت لا أتردد في تصديق القصص. وازداد خوفي من الظلمات ومن الجن والشياطين. ولم استطع أن افسّر قصة رأس الخروف «بالمنقلة والابريق» إلاّ بعد سنوات عديدة... ولكن أثر الخوف من الظلمات ومن المحلات المهجورة بقي معي ولم يستطع على إزالته لا الدرس ولا العلم ولا المنطق ولا العقيدة بعدم وجود ما يسمى بالجن والشياطين...

«حادث رأس إبراهيم»

كنت ذات ليلة في «القهوه جاغ» استمع لأحاديث الخدم وقصصهم وبينما نحن كذلك سمعنا طرقاً قوياً على باب المابين ثم سمعنا امرأة تصرخ بأعلى صوتها: «يا رجال تعالوا! يا رجال الحقوا» فاسرع الضيوف يتقدمهم والدي وتبعهم الخدم فهرع الجميع إلى الحرم هذا يحمل فانوساً وآخر عصاة ومنهم من سل سلاحه وأظهر مسدسه!... هل حصل حريق في الحرم؟ أم هجمت لصوص؟

لا يعلم أحد بما حدث لأنهم لم يسمعوا سوى أصوات استغاثة الخادمات في الحرم... وبعد لحظات وجدت نفسي لوحدي فأخذني الخوف وصرت أبكي... ولكن أحد الضيوف وهو المرحوم الاسطا صالح الخياط عاد إليّ وحملني وصار يمشي في الطارمة ويطمنني. وبعد بضع دقائق عاد الرجال من الحرم منهم من يضحك ومنهم من يسب ويشتم الخادمة التي صرخت وسببت كل ذلك الارتباك...

وعندما فهمت القضية كفّيت عن البكاء وذهبت إلى الحرم لأرى أخي إبراهيم ـ بطل الحادثة. أما الحادثة فهي: كان إبراهيم ومحمد ومكى وغيرهم يلعبون في الغرفة الكبيرة وأراد إبراهيم أن يأخذ شيئاً من تحت الدولاب وهي خزانة ثياب كبيرة وضخمة. فأدخل رأسه تحت الخزانة ولما أراد أن يسحب نفسه عصي رأسه تحتها فأخذ يبكي ولما رأى الأولاد الآخرون ذلك خافوا وهربوا تاركين إبراهيم ورأسه محصور تحت الدولاب. ولما سمعت النساء بكاءه هرعن لانقاذه فلم يتمكن أحد منهن على ذلك لأن الدولاب كان ثقيلاً لا يتزحزح وهنا هرعت «خالة بدعة» (سيأتي ذكرها فيما بعد) إلى المابين واستنجدت بالرجال فاسرع هؤلاء وانقذوه.

وكانت هذه الحادثة مهمة في يومها إذ كاد إبراهيم يختنق تحت الخزانة وصرت أشعر بألم في قلبي كلما تصورت إبراهيم في ذلك الوضع يتخبط لوحده لينقذ نفسه ومنذ ذلك الحادث صرت أيضاً أشعر بحنان خاص نحو إبراهيم... ولكن في نفس الوقت بقينا زمناً نذكر الحادث ونضحك... ولم نزل حتى الآن نذكر هذه المسألة عندما يدور الحديث حول أيام الطفولة فحادثة رأس ابراهيم كأنها رأس تاريخ لتلك الأيام.

اللالة

يظهر أننا وصلنا إلى مرحلة جديدة من دور الطفولة... فصرنا نسبب ضجّة و«دوخة» في الحرم وأصبحت مربياتنا عاجزات عن حفظ النظام والسكينة فتقرر إيداعنا ولو لقسم من النهار إلى عناية اللالة أي الخادم المربي... وأول لالة أتانا كان رجلاً كردياً اسمه «علي مردان» وأبرز شيء فيه أنه يتكلم العربية المكسّرة وأنه كان مصاباً بالرمد إذ كانت عيناه «ملتهبة وحمره» وكانت الدموع تتساقط منهما على طول!... والمطلوب من هذا اللالة الغريب أن «يدير باله» علينا عندما نلعب في الديوانخانه ولا يتركنا نذهب إلى الحرم قبل وقت الغداء... وقد اكتشف علي مردان هذا طريقة عملية لتطبيق هذا المنهج... فعندما كان يريد الذهاب إلى السوق أو إلى بيته كان يحملنا ويضعنا فوق «عيار الماي»، وهو خزان كبير في حوش الديوانخانه وكنا نبقى هناك أنا وإبراهيم ومحمد فوق هذا الوكر الغريب حتى يعود فينزلنا عنه وبتلك الطريقة كان يمنعنا من أن نلعب أو نذهب إلى الحرم وفي الوقت نفسه يستفيد هو من الوقت ويذهب إلى حيث يشاء.

كنا نفرح كثيراً عندما يأخذنا علي مردان إلى التنزه... من ذلك التنزه أنه يذهب بنا أحياناً إلى «الطوله» نتفرج على الخيل والدجاج وبعدها نذهب إلى رأس الجسر نتفرج على الشط و«الكفف» والجسر ولكن الذّ نزهة كانت في بيته عند زوجته وأولاده. وبيته هذا كان عبارة عن غرفة مظلمة في إحدى دور «النزل» في محلة باب الاغا. أتذكر أن زوجته كانت قصيرة وعوراء وكانت تأخذ منا ما لدينا من دراهم لتشتري لنا بها «قرص نعناع» وكانت تغلي لنا الشاي في سماور من تنك وكنا نلعب مع ابنه حسن إلى ان يحضر الشاي... وكانت الاستكانات مثلجة والملاعق «مزنجرة» والشاي لونه غريب وطعمه أغرب ولكن أذكر أننا كنا نشربه بلذّة وكنا نرغب كثيراً في الذهاب إلى بيت علي مردان...

لا أتذكر كم بقي عندنا علي مردان ولكنني أتذكر أنه كان عندنا عندما حصل ختاننا إذ كان ابنه حسن بين الأولاد الذين جرى ختانهم معنا وبعد بضع سنوات عندما صرنا نذهب إلى المدرسة كنا نشاهد علي مردان في الطريق يحمل مكنسة كبيرة لأنه صار كناساً في البلدية وكان يأتي أحياناً ليرانا بعد أن يكنس «دربونتنا» فيأخذ ما قسم الله من دراهم ومن أكل أو لبس لأولاده.

الختان

تبدأ مشاكل الحياة مع بدايتها وتزيد وتتوسع وتتشعب مع نمو الإنسان. بعد مشاكل المربيات واللالا واجهنا قضية جديدة وهي قضية الطهور.. ولم تكن مسألة الختان بسيطة وهينة مثل ما هي الآن، بل انها كانت تعد من أكبر الحوادث السارة بالنسبة إلى العائلة وتعد بمثابة رأس تاريخ بالنسبة إلى الصبيان أنفسهم.

وللختان مراسم ومناهج تتوسع وتتقلص بنسبة وضع العائلة ومكانتها ولذا كانت افراح الختان كأفراح الزواج وقد تزيد عليها بعض الأحيان وكانت تعد من الأمور الاجتماعية التي تقرّب ما بين الأصدقاء والعوائل وتشرك الاصدقاء والجيران بالولائم والأفراح وتكون وسيلة لتبادل التهاني والهدايا وتوطيد روابط الصداقة بين العوائل.

أسبوع الطهور من الأيام التي لا ينساها الأطفال. ابتدأنا باحضار الملابس وكان لكل يوم من أيام ذلك الأسبوع بدله خاصة. وكان في كل يوم ولائم للرجال في الديوانخانه وللنساء في الحرم ونحن كنا نسرح ونمرح بين الحرم والديوانخانه كما نشاء ونلعب مثلما نريد. وكان لكل مساء منهج خاص: مولد للرجال مولد للنساء ـ ذكر مصري، شالغي بغدادي ـ تياترو (جوق سوري مع راقص يرتدي لباس راقصة ويظهر كالفتاة ـ وكان ذلك بدعة جديدة في بغداد) وإلى جانب ذلك كل يوم (موسيقى وأبو طبل، وميدان عبيد) في النهار.

أصبحت محلتنا في هرج ومرج ونحن مع أصدقائنا متمتعون بحرية مطلقة وبلعب وفرح مستمر وهكذا دام الحال سبعة أيام. وفي اليوم السابع لبسنا بدلة «الكالا» المزركش: زبون كچرات، هميان، كلبدون، عبا كلبدون.. كل شيء كان جديداً وكل شيء جميلاً ولكن الخوف أخذ يدب في قلوبنا لأن اليوم السابع يوم الطهور قد أتى...

كانت الموسيقى تعزف وأبو طبل يدق وميدان العبيد على قدم وساق. كل ذلك في الحوش الكبير ونحن مع اصدقائنا جالسون على كراسي في **الطارمه** نتفرج... نتفرج ولكن القلق كان يمتزج فينا مع الفرح... ثم أتى والدي ومعه طاهر جلبي وبعض الأقارب فأخذوا محمداً من بيننا وارتفعت أصوات الموسيقى والطبل، وأخذت النساء المجتمعات في إحدى الغرف تبكين فرحاً... ثم رجع والدي ومعه الجماعة فأخذوني إلى غرفة «العمليات» وكان عزت بك الجراح مستعداً بانتظاري فأمسك بي أحد الحاضرين وأجلسني جلسة خاصة حيث لا أستطيع أن أتململ.. وجلس أمامي عزت بك. شعرت بألم شديد وسريع ثم حملوني ووضعوني في السرير وبعد مدّة أتوا بإبراهيم ووضعوه في السرير الثاني واستمرت الموسيقى والطبل واستمرت العمليات... فما عدانا نحن الأربعة إبراهيم ومحمد ومكي وأنا، جرى ختان أربعين صبياً من أولاد الفقراء ـ وهذه كانت عادة طيبة تقوم بها العوائل الكبيرة فيشترك الأغنياء والفقراء بأفراح اطفالهم...

بقينا في السرير بضعة أيام وكنا طول هذه المدّة في عناية الجميع وكانت الهدايا تتوالى

علينا... ثم أتى يوم الحمـام. فذهبنـا إلى حمام القـاضي ومعنا جمـاعة كبـيرة من ضمنهم والدي وطاهر جلبي وعزت بك والاسطا صالح الخياط والاسطا فتحي المزين... وكان خوفنا من عـزت بك كبيراً. وبقينا مدّة لا نرتاح من صوت الموسيقى ولا نريد أن نرى وجه عزت بك..

المدرسة

يظهر أن الإنسان خلق ليظلم نفسه بنفسه ومن أسباب ذلك الظلم بالنسبة إلى الأطفال هو التعليم بدون شك.. من دون الخلق رأى الإنسان بأنه يجب عليه أن يتعلم وأن يقضي حياته بالتعلم والتعليم وذهب البشر إلى أن العلم هو العامل الوحيد لنجاح الإنسان كي يدفع الظلم عنه وكي يظلم غيره...

قد حان لنا وقت دخول معترك الحياة فأخذنا نتعلم القراءة والكتابة وصرنا نذهب إلى المدرسة. كنا نذهب في بادىء الأمر أنا ومحمد ثم بعد مدّة صار إبراهيم أيضاً يأتي معنا. أما المدرسة فكانت بالقرب من بيتنا وتسمّى مكتب خوجه علي افندي وخوجه علي افندي هذا كان رجلاً عجوزاً وقوراً. له لحية كبيرة بيضاء وعمامة كبيرة وكان تقياً ومحترماً يقبل الأولاد يديه ويقوم له الناس مسلِّمين عليه عندما يمر بالطريق. أما النساء فكنّ يعتقدن بأنه وليّ من أولياء الله يلتمسن منه الدعاء والشفاء ويؤكدن بأن «نفسه» أحسن من أدوية الأطباء وعقاقير العطارين... وكان علي افندي يكتب لهن اسماء الله الحسنى والأدعية على الكاسات فيشربن ماءها مع ما فيه من حبر ويأخذن منه أوراقاً مختومة بختمه وباسم الله فيضعن الورقة بالماء ثم يشربن دفعاً لوجع الرأس والحمى. وأتذكر أن أكثر السيدات اعتقاداً بخوجه علي افندي كانت والدة عمتي سياره أي جدّة شاكر وإبراهيم وموسى آل شاكر افندي ـ فهذه كانت دائماً تحمل عدداً من الأوراق المختومة وتتبرع بمعالجة الناس بها وأتذكر أنها مرّة اسقتني من ذلك الماء عندما كنت أشكو من ألم في ضرسي... فعلي افندي هذا كان رئيس المدرسة وإمامها ويقوم أخوه «خلفه عبدالله» بإدارة المدرسة وتعليم الصبيان الصغار وكان الخلفه هذا بارعاً باستعمال الخيزران العصا والفلقه وكان الصبيان يخشون الخلفه وشر عصاه التي لا يتركها.

وكان ترتيب الدراسة أن الصبيان القدم كانوا يقومون بتعليم الجدد المبتدئين ولذلك فقد أخذنا نتعلم قراءة القرآن على يد صبي أكبر منا اسمه شاكر (شاكر الوادي ـ ممثل العراق في لندن الآن) وكانت هذه العملية شاقة وأشد منها شقاءً كان تعلم الكتابة. الخلفه يخط الحروف والكلمات على السبوره ونحن ننقلها على الورق أو على صفحات من تنك... وكم كنت اتعجب عندما يقرأ أحد الأولاد تلك «الشخوط» فتخرج منها اسماء وكلمات وكلام..! وكنت أشعر بيأس بأني سوف لن أستطيع أن أتعلم سر تلك المعجزة.

داومنا مدّة من الزمن في مكتب خوجه علي افندي وكان علي مردان يأخذنا صباحاً إلى المكتب ويرجع بنا ظهراً إلى البيت. الشيء الوحيد الذي حبب إليّ المدرسة هو كثرة الأولاد وكثرة الألعاب خلال «الپايدوس» ووجود بقال يبيع لنا الحب (البزر واللب) والحمص والطرشي وهذه أشياء لم يسمح لنا بأكلها في البيت بلا حدود ولا حساب..

بعد مدّة من الزمن وبعد أن تعلمنا شيئاً من القراءة والكتابة تقدمنا في موضوع التعليم فتقرر أولاً ابدال اللالا علي مردان بلالا آخر «فاهم» و«عالم» ثم الانتقال من مكتب علي أفندي إلى مدرسة الحميدية الرسمية. وكان اسم اللالا الجديد، لالا عبد النبي الافغاني. وكان يلبس عمامة

وجبّة وله مظهر العلماء وله سمعة بأنه أحسن لالا في بغداد. أما المدرسة الجديدة فكانت المدرسة الابتدائية الرسمية الوحيدة. وصرنا ندرس فيها علاوة على القرآن العلم حال والحساب والتركية والصرف والنحو والتاريخ وكان عبد النبى يبقى معنا في المدرسة ويساعدنا على التعلم. أتذكر من الأساتذة في الحميدية: السيد محمود افندي وفارس افندي وخلوص افندي وعبد الرزاق افندي وكان هؤلاء كلهم معممين ولا يتركون الخيزرانة من أيديهم. إن فلسفة «العصا من الجنه» كانت أساساً لسياسة التدريس إذ ذاك وعبد النبى كان أيضاً من حملة الخيزران مما جعلنا نتمنى ايام علي مردان.

اللاله عبد النبي

يستحق عبد النبى فصلاً خاصاً به. لأنه بقي عندنا بضع سنوات وكان له أثر كبير في حياتنا وتدريسنا ولأنــه كان أول شخص كـرهته وتمنيت لــه من كل قلبي أن ينكسر راسه يـوماً فنخلص منه.

كان عبد النبي قصير القامة، كبير الرأس، طويل الوجــه قبيحه، ثقيـل الدم. يـرتدي عمـامة وجبّة وله في مشيته وهندامه منظر علماء الدين. يتكلم العربية بلكنة اعجمية ثقيلـة ويعرف شيئـاً من التركية ولم يعتبر نفسه خادماً أو مربياً بل أستاذاً وعالماً ولذا كان متكبراً ظالماً. لم أتذكـر أنه أبتسم يوماً أو ضحك أو قصّ لنا قصة بل بدأ دوره بتعليمنا الصلاة وحفظ القرآن وكانت حياتنـا في البيت أصعب منها في المدرسة. لا لعب ولا ركض ولا «وكاحـه» مهما كـانت بسيطة. وأصبحت حياتنا محدودة ما بين الدرس والصلاة... صلاة في البيت وصلاة في الجوامع وصلاة التراويح في رمضان... كان يأخذنا أحياناً إلى التنزه. في الصيف نذهب عصراً إلى **الجرداغ** على ساحل النهـر تحت السيف. نجلس على أحد التخوت وننظر إلى الأولاد يسبحون ويلعبون بالرمل والماء أما نحن فكنا نجلس مثل الشيوخ لأن اللعب لا يليق بأولاد الذوات!

أيام الشتاء نركب أحياناً «العربانه» فنجلس ثـلاثتنا ويجلس عبـد النبي أمامنـا ونذهب إلى باب الشرقي وهناك نجلس في «قهوة العبد» نشرب شـاي ثم نعود إلى البيت إلى الـدرس والصلاة. كان عبد النبي يصلي بنا إماماً صلاة العشاء ثم يـرسلنا الـواحد تلـو الآخر مـع فاصـل من ربع ساعة أو أكثر حتى لا نذهب ثلاثتنا مرّة واحدة إلى الحرم فنلعب.

ومن الغريب أن أهلنا كانوا راضين على هذا الاستبداد وهذه التربية الغريبة الناشفة.

ومن المنتـزهات التي كـان يأخـذنا إليهـا عبد النبي كـان مستشفى الفقراء في المجيـديه أو مستشفى الكـرخ. أتـذكـر أنني امتنعت يـومـاً من دخـول القسم المخصص للمجـانـين في هـذا المستشفى فزعل عبد النبي وغضب وأخذ يضربني ويدفعني بالقـوة ولم يرتـح له بـال إلا بعد أن زرنا المجانين وتكلم هو مع بعضهم.

أما أيام الجُمع فكنا نقضي الصباح في البيت ثم نذهب إلى صلاة الجمعة إمـا في الشيخ عبـد القادر الكيلاني أو في الإمام الأعظم. وفي رمضان يأخذنا إلى صلاة التراويح في جـامع النعمـانية وبعد الصلاة يأخذنا إلى «القره كوز» في قهوة سبع وكانت هذه تسليتنا الوحيدة في رمضـان. أيام العيد كنا نذهب بالعربانه إلى الشيخ عمر ولكن عبد النبي لا يسمح لنا بركوب المراجيح أو دولاب الهواء أسوة بالصبيان الآخرين بل كان نصيبنا التفرج فقط.

بقينا ما يقارب الثلاث سنوات تحت استبداد عبد النبي فكنا نتحمل ونخشى أن نشكو أمـرنا إلى والدنا خوفاً من انتقامه منا ولكن وحيد وهو سائق العـربه عنـدنا أخبـر والدي يـوماً بحـالتنا فسألنا والدي وأخبرناه بالوضع فأخرجوا عبد النبي وأنقذونا من شره.

مدرسة الاتحاد والترقي

بعد أن أنقذنا الله من شر عبد النبى جاءنا لالا جديد هندي اسمه ـ غلام حسين ـ وكانت الصلاة والدروس مستمرة ولكن هذا اللالا كان يسمح لنا أن نلعب وأن نشعر بشيء من الحرية وكان غلام حسين يترجم لنا بعض القصص من الكتب الهندية والفارسية وكنا نجدها غريبة ولذيذة.

في تلك الأيام باشرنا بدراسة اللغة الفرنسية. كان يأتينا مساءً شاب يهودي ـ صالح بشّى أخو إبراهيم بشّى الكاتب عندنا في الخان ـ فنجلس ثلاثتنا في «الكفشكان» وهي غرفتنا في الديوانخانه ويجلس أمامنا صالح بشّى لمجابهة هذه «العنقرة» الجديدة. كنا نجد صعوبة كثيرة بهذه الحروف العجيبة التي تكتب من الشمال إلى اليمين... أراد والدي أن يمتحننا يوماً فلم أفرق بين الـ K والـ H ولم أتعشَّ ذلك اليوم من فشلي...

في سنة ١٣٢٥ روميه (حوالي ١٩١٠) دخلنا إلى مدرسة الاتحاد والترقي. وهذه مدرسة تأسست بعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ وكانت على الطراز العصري وكان أكثر أساتذتها من الضباط المتطوعين للتعليم. بعد امتحان بسيط قبلنا في الصف الابتدائي الثالث أنا وإبراهيم ومحمد وقبل مكي بالصف الثاني. أخذنا نشعر هنا بحياة مدرسية جديدة. عدد الطلاب في الصفوف كان محدوداً ولذا كانت العناية بالدروس والمذاكرة كثيرة. أتذكر من طلاب المدرسة في ذلك الحين: مظفر (مظفر أحمد متصرف البصره الآن) وأحمد مختار (وزير العدلية الآن) وعباس مظفر (حاكم الآن) وشوكت (شوكت امين عقيد في الجيش) وفضلي «تيمورلنك» (اخو صبيح نجيب) والسيد أحمد وصفي ـ ومحمد علي (حمه لاسه) ومن الاتراك كنعان وغيرهم.

الشيء الجديد في هذه المدرسة كان نظامها الذي يشبه نظام المدارس العسكرية و«الرياضة البدنية» وهذا كان بالنسبة لنا شيئاً جديداً. وكان معلم «الجمناستيك» (الرياضة) ضابطاً اسمه «عباس بك» وأحسن الطلاب بالرياضة كان «مظفر» ويسميه الأولاد «باشا» لأنه كان أقوى الأولاد وانشطهم وكان الأول في الصف الأخير أي الرابع ومعنى ذلك أنه أول تلميذ في المدرسة وكنا نحن جميعاً نخشى شرّه ونود صحبته..

وبالرغم من تقدم هذه المدرسة لم نخلص من الخيزرانه وكان «بعبع» المدرسة «الموسيو زوزيف» المبصر ومعلم الافرنسية. هذا الموسيو البغدادى (من عائلة كاكول) جاءنا من مدرسة الفرير في بيروت على ما أتذكر وكان يصرخ ويعربد دائماً بالفرنسية ويستعمل العصا يميناً وشمالاً بلا هوادة. وكان المدير يعتمد عليه لأنه بشدته كان مسيطراً على الطلاب ونظام المدرسة.

عندما دخلنا المدرسة كانت الصلاة اجبارية وخلال السنة الثانية من دخولنا كنا نجتمع وقت الظهر ونذهب تحت مراقبة المبصر (الناظر) إلى جامع الميدان الواقع بالقرب من المدرسة إذ كانت هذه دار حسين باشا المطلة على سوق الهرج.

وذات يوم ذهبنا إلى الصلاة وصادف أن الموسيو زوزيف هو الذي رافقنا ولكن بما أنه

مسيحي لم يدخل المصلى بل بقي يـراقبنا من صحن الجـامع دون أن نعلم بـذلك. اثنـاء الصلاة وراء الإمام صرت أضحك وأضرب برجلي جاري السيد أحمد... لما عدنا إلى المدرسة أخذ الموسيـو زوزيف يعربد ويصرخ عـليّ ثم قاصصني وضربني بـالخيزرانـة... ولم تكن هذه أول مـرّة.. فإذا تأخرنا صباحـاً يضربنا وإذا ضحكنـا يضربنا... ولكن هـذه المرّة تـألمت كثيراً لأنـه ضربني أمام جميع الأولاد في ساحة المدرسة، وانتقامـاً منه كتبت عـلى الجدار في احـدى المراحيض: «مـوسيو زوزيف أبو خريه» وبهذه الصورة اشفيت غليلي... ولكن بعد يومين أو ثلاث عنـدما كنـا مجتمعين للتعداد وقف المبصر (الناظر) الثاني توفيق فكرت افندي وأخذ يسـأل «من الذي كتب عـلى جدار المرحاض في الطابق الثاني موسيو زوزيف أبو جزر» فأنه وان خفف من وطأة العبارة بـذكر كلمـة جزر بدلاً من الكلمة الأصلية فلم يحصل على نتيجة. أما أنا فبقيت ساكتاً بالطبـع. فكرر السؤال وأوعـد ووعد... لم يجبـه أحد. صرت أشعـر بشيء من الخـوف والخجـل.. الخـوف من العقـاب والخجل من العبارة السخيفة هذه ولكني قررت في نفسي بأن لا أعترف. أمام ذلـك السكوت أخـذ الموسيو زوزيف وتوفيق فكرت يتحادثان ويتمشيـان أمام جمـاعات الصفـوف. ثم اخرجـا من كل صف تلميذاً أو تلميذين أو أكثـر وكنت أنا الـوحيد المطلـوب من صفي. ثم ذهبت الجماعـات إلى صفوفها وبقينا نحن «المشبوهين» وكان عددنا ستة أو سبعة صبيان. أخذنا الموسيـو زوزيف على غرفة المبصرين وسلم لكل منا ورقة وأملى علينا بعض الجمل. وفهمت المقصـود وهو المقـارنة بـين الكتابة في المرحاض وكتابتنا. ولحسن الحظ فإن الكتابة على الجـدران الصلبة بقلم رصـاص هي غير الكتابة على الورق بالحبر. فلم يهتد الموسيو زوزيف لاثبات المجرم وترك الأمر. ولكن بعـد ذلك الحادث صرت أشعر بـأن الموسيـو زوزيف كان دائمـاً ينظر إليّ نظـرةً كلها غضب... ربمـا عرف بأنني أنا المذنب ولكن فضّل اقفال القضية ولكن صلتنا لم تتحسن حتى تركه المدرسة بعد سنة.

بعد دخولنا المدرسة بزمن قليل عيّن شوكت افندي (هو القائمقام شوكت افندي زوج صبرية بنت عمتي) مديراً لها وكان في نفس الوقت يدرسنا اللغة التركية. كنـا نستفيد من دروسـه كثيراً وصرنا نتذوق الاشعار التركية والأدب التركي وأخذنا نحفظ بعض الأبيات ونشتري الكتب الأدبية وبعض القصص. وكنت أنـا أميل كثيـراً إلى الأدب والانشـاء وكنت احسن طـلاب الصف بهـذه المواضيع.

بعد سنة عين مهران افندي مديراً ومن هذا استفدنا باللغة الفـرنسية وكنـا نحن نأخـذ معه دروساً خصوصية في البيت. كان مهران يمثل الاقتصاد في كل اعماله حتى انه اخترع **الآفرينات** المطبوعة (ورقة مكافأة) بشكل الكـارت دوڤيزيت دون أن تحمـل اسم التلميذ حتى يمكن جمعهـا وتوزيعها على الطلاب عـلى طول الخط إلى إن تتلف. وكـان من حق الطالب أن يبـدل كل خمسـين «آفرين» بكتاب مذهب مكافأةً على سعيه. فعدم وجـود ذكر اسم الطـالب على هـذه الورقـات فتح تجارة بين الطـلاب أخذ البعض منـا يشتري من هـذا ومن ذاك الآفرينـات ويبدلهـا بالكتب. ولم نكتف بذلك فأخذ محمد علي جمه لاسه يشتريها من الخادم وهذا يسرقها من غرفة مهران افندي ويسلمها إلى محمد علي وهذا بدوره يبيعها لنا وأخذت الآفـرينات تنهـال على مهـران افندي وهـو يبدلها بكتب المكافأة ولكن لكل حال ختام... فقد وجد يوماً المدير بعض الآفرينات الجديـدة بدون توقيعه فانفضح الأمر وطرد المسكين محمد علي من المدرسة موقتاً.

بقي مهران افندي سنة واحدة ثم أتى محله صلاح الدين الكركوكلي مديراً وقد اتانا هذا بروح جديدة وأفكار جديدة... كان صلاح الدين افندي شاباً نشيطاً وكان مديراً مسؤولاً لجريدة الزهور وعضواً فعالاً في جمعية الاتحاد والترقي. كان صلاح الدين افندي يدرسنا التاريخ والأدبيات التركية وكان دائماً يبث الدعاية الاتحادية بيننا كلزوم اتحاد الإسلام تجاه الشعوب الأوروبية واتحاد العثمانيين تجاه الشعوب المستعمرة وكان دائماً يمدح بالاتحاديين ويذم الائتلافيين حتى اصبحنا كلنا مشبعين بالروحية الاتحادية وباشرنا برفع «البساكيل» من طرابيشنا... وما عدا هذا كان صلاح الدين يشجع فينا روح التشبث الشخصي والاعتماد على النفس والجرأة الأدبية... كنا الآن «في الصف الرشدي الثاني» ومع ذلك فقد أسسنا مكتبة في المدرسة باسم «معاونة اتحاد كتبخانه سى» وصرنا ننشر جريدة أسبوعية علمية باسم «غنجه اتحاد» وصرنا نقوم بانتخابات لإدارة المكتبة والجريدة وهكذا صار كل منا يشعر بشخصيته وكوّن لنفسه رأياً سياسياً اجتماعياً على قدر طاقته وحسب اجتهاده. لا شك أن صلاح الدين خلق فينا روحاً جديداً وفتح لنا منفذاً أوسع من حياة الدراسة وصرنا ننظر إلى اطرافنا وإلى العالم فنرى أشياء جديدة أوسع مما درسنا وتعلمنا في الكتب.

ولكن في الوقت نفسه صرت أرى أشياء ربما لم يكن صلاح الدين راغباً بأن اراها. أخذت أسأل نفسي: اتحاد الإسلام واتحاد العثمانيين.. هذه أمور حسنة بلا شك ولكن لماذا تحرم المدرسة علينا التكلم بالعربية وهي لغتنا؟ لماذا نتعلم الصرف والنحو العربي بكتب تركية وعلى يد أساتذة اكراد أو اتراك؟ لماذا الجرائد أيام حرب الطليان وحرب البلقان وفي كل مناسبة تذكر «تورك اردوس، وتورك عسكري» ولا تقول إسلام اردوس أو عثمانلي اردوس؟ ثم لماذا يكون الوالي دائماً تركياً ويأتي من استانبول وكذلك المكتوبجي والدفتردار وكبار الموظفين؟ لماذا تعامل المدرسة أولاد الموظفين الاتراك معاملة خاصة بعض الاحيان؟

هذه أفكار جديدة كانت تأتيني من وقت لآخر ولكن كنت اخشى أن اتكلم بها أمام صلاح الدين... لأني كنت احترمه وأحبه وأقدره.. ومساء يوم كنا في حفلة سينما في النادي العسكري فسمعت ورائي ضابطين من الاتراك يتكلمان فقال احدهما للآخر ما فحواه: «الآن وقد تخلصنا من هؤلاء الخنازير الأرمن فعلينا أن نتخلص من هؤلاء العرب» تألمت كثيراً مما سمعت... اين أقوال صلاح الدين إذاً؟ هنالك اتراك يكرهون العرب إذاً ويريدون التخلص منهم مثلما تخلصوا من الأرمن؟ اين اتحاد الاسلام واتحاد العثمانيين إذاً؟ اين تلك النظريات الغالية التي يغرسها بنا صلاح الدين والاتحاديون الأخرون؟

كنت ولم أزل أحب الأتراك لا سيما ان أمي تركية جركسية فالأتراك إذاً أخوالي وهنالك اعتبارات أخرى دينية وتاريخية تجعلني لا أفرق بين العرب والأتراك ولكن إذا كان الأتراك ينظرون إلينا كما ينظرون إلى اعدائهم الأرمن وغيرهم فماذا العمل؟ إنني صرت أشعر بأنني عربي ووالدي عربي وأجدادي عرب وأنه يجب علينا أن نتمسك بالعروبة قبل اتحاد الاسلام وغيره من الاقوال... فصرنا نحن الطلاب العرب نتكلم فيما بيننا بمثل هذه المواضيع، وفي النهاية تشكلت من تلقاء نفسها كتلتان احداهما جمعت الطلاب الأتراك وراء كنعان وجمال والاخرى اجتمعت حولي وصرنا لا نكلم بعضنا... أتذكر أننا أردنا أن نقف على أعمال جماعة كنعان وما

يدور عندهم فقررنا أن نتـزاعل مـع السيد أحمـد وصفي في الظاهـر ونطرده من جمـاعتنا حتى يتصل بهم ويخبرنا سراً بمـا لديهم ونجحت العمليـة في بادىء الأمـر ولكن يومـاً من الأيام رأوه يعطيني ورقة ويكلمني خفيةً فادركوا المؤامرة وعندمـا ذهب إليهم سبوه وشتمـوه وتفوا في وجهـه وطردوه فأتانا السيد أحمد يرتجف ويكفر وضحكنا عليه.. وبلغ صلاح الدين أمر وضعية الطلاب هذه فنادانا وصالحنا ولكن لم تعد الصداقة بيننا كما كانت قبل تسرب الأفكار السياسية إلينا.

كان عندنا في المدرسة مسابقات في إلقاء الخطب. كنا نجتمع كل يوم خميس قبل «الصرفه» في ساحة المدرسة بشكل نصف دائرة ويجلس المدير وبعض المعلمين أمام طاولة في الـوسط. فيخرج الطلاب الخطباء الواحد تلو الآخر ويقـرأون خطابـاتهم فيهتف لهم هيئة التحكيم والطـلاب وينال الأول المكافأة. وكانت هذه الخطب كلها طبعاً بالتركية... والكلام بالتركي... وكل شيء بالتركي...

وذات يوم استحضرت خطاباً بالعربية وقد نقلته من أحـد الكتب التاريخيـة في مكتبة والـدي ولما أتى يوم الخميس ودقت سـاعة المبـاراة وأتى دوري خرجت من الصف إلى مـركز الـدائـرة وصرت أتلو ما كتبت... كان صوتي مـرتجفاً وكـان قلبي يخفق حماسـاً وخوفـاً من هذه المخـالفة ولاحظت أن الاستغراب كان بادياً على وجوه الجميـع من أساتـذة وطلاب... ولا شـك كان أكثـر المستمعين لا يفهمون ما أقول ولم يسمع أحد منهم من قبل بهذه الاسمـاء من ابطال العـروبة في التاريخ... فكان ما عملت بدعة ومفاجأة القت صلاح الدين وزملاءه في حيرة.. ولما انتهيت ذهبت إلى محلي.. فلا هتاف ولا تصفيق بل سكوت عميق! ولم يكلمني صلاح الـدين ولا غيره حـول هذه المخالفة ولم أعاقب عليها.. ولكن منذ ذلك اليوم الغيت المباراة الخطابية وازدادت «البـرودة» بيننا وبين الطلاب الأتراك..

بقي صلاح الدين مديراً لـمدرستنا حتى أواخـر سنة ١٩١٤ أي إلى مـا بعد انفجـار الحرب الكبرى ثم عزلـوه لخلاف حصـل بينه وبـين أعضاء الحـزب الاتحادي ومن ضمنهم حكمت بـك سليمان الذي كان مديراً للمعارف إذ ذاك وعين مديراً بالوكالة رجل تركي هو جليـل افندي. أمـا نحن الطلاب فقد اسفنا كثيراً لذهاب صلاح الدين وكنا نغضب عندما يأتينا حكمت بك أو جليـل افندي. ثم الحقت المدرسة بالمعارف. أما نحن فقد أكملنا الرشدي الثالث في نهايـة صيف ١٩١٤ ودخلنا في الخريف مدرسة الاليانس الاسرائيلية. ثم سمعنـا بعد ذلـك بوفـاة صلاح الـدين أثناء الحرب فأسفنا لذلك.

الآلام

حتى سعادة الطفولة لا تخلو من الآلام والضربات القاسية.

لنرجع إلى الوراء قليلاً إلى ما قبل دخولنا مدرسة الاتحاد والترقي. كنا لم نزل في المدرسة الابتدائية التي تحولت إلى المدرسة الحميدية.. رجعنا يوماً من المدرسة عصراً فقيل لنا بأن لا ندخل الحرم بل لنبقى في الديوانخانة لأن أختي زهرة كانت مريضة وأن الجرّاح عزت بك يقول أنها مصابة بالخناق فلا يجوز أن نقترب منها أو ندخل إلى الحرم. فاستولى الحزن علينا نحن الثلاثة أنا وإبراهيم ومحمد وصرنا نأكل وننام في غرفتنا في الديوانخانة. كنا نحب أختي زهرة كثيراً فكانت هي ذكية وجميلة وكانت زهرة البيت حقاً. فمرضها أنزل كآبة عميقة علينا كلنا. بعد مدّة عشرة أيام تحسنت صحة زهرة فذبحوا الخرفان لسلامتها وأتى بها والدي ماسكاً يدها من الحرم إلى الديوانخانة فأخذنا نحن ننظر إليها من غرفتنا وهي الطارمه. كانت ترتدي فروة صغيرة بيضاء وكان شعرها الاشقر يحيط بوجهها الضعيف ثم ينزل على كتفيها فبانت كالملاك ونزلت دموعي لمنظرها.. بعد مدّة ذهبنا إلى الاعظمية لتبديل الهواء وبقينا نحن أيضاً في الديوانخانة هناك لأن زهرة لم تزل مريضة وعزت بك يأتي كل يوم لمعالجتها ولم نفهم نحن إذ ذاك ما هو المرض وربما عزت بك نفسه لم يفهم حقيقته...

أتى يوماً والدي وقال لنا زهرة تريد أن تراكم وأنها لا تستطيع أن تتكلم ولكنها اشارت بثلاثة من اصابعها ففهموا منها أنها تريد أن ترانا نحن الثلاثة... في الحرم وجدنا جدتي وعماتي والنساء الباقيات يبكين بصوت منخفض. ذهبنا إلى غرفة والدي هناك كانت زهرة في فراشها وإلى جنبها والدتي... بدت أختي كزهرة ذابلة وهي تنظر إلينا بعينيها الجميلتين البراقتين ولم تتكلم ولم تبتسم ولكنها تنظر إلينا الواحد تلو الآخر... بقينا بضع دقائق ثم انصرفنا ونحن نبكي... وبعد ساعات سمعنا بكاءً وصراخاً في الحرم فعلمنا بما حدث... ومساء ذلك اليوم نفسه خرج من بيتنا تابوت صغير مغطى بالحرير المزركش يحمله والدي وبعض اصدقائه وكانت والدتي تنظر من أحد شبابيك الحرم وتمد يدها نحو ذلك التابوت الصغير كأنها تريد انقاذ زهرة... هذا المنظر أحرق قلبي وكان ذلك أول حرقة شعرت بها.

بعد ذلك بمدة شهرين أو ثلاث مرضت جدتي وصادف أن والي بغداد كان قد طلب من والدي قصرنا ليسكن فيه فانتقلنا إلى قصر الحاجي علي افندي الالوسي وتوفت جدتي هناك بعد انتقالنا ببضعة أيام وكانت هذه ضربة أخرى لا سيما أنني كنت أحب جدتي كثيراً. بعد ذلك عدنا إلى دارنا في بغداد وكان كل شيء فيه يذكرنا بزهرة وبجدتي فبقيت حياتنا حزينة حتى ضمد جروحنا الزمان فنسينا.. ولكن هنالك شخص واحد لم ينس يوماً «زهرة» وهو والدتي فقد بقي جرحها دامياً حتى وفاتها...

الوالد في استانبول

ذكريات أيام الطفولة عن والدي محدودة جداً وهي عبارة عن خوف في خوف. الكل كان يخشاه. عندما يأتي إلى البيت مساءً كان يجلس في «الاورسى» مع جدتي قليلاً ثم يتعشى ويخرج إلى الديوانخانة. بعد وفاة جدتي كان يجلس مع عماتي ووالدتي من وقت لآخر. كنا نسميه «الماى الحار». فعندما يأتي يبطل اللعب أو الكلام بصوت عالٍ أو الضحك فكأنما كان موجة من الرعب، تستولي على الجميع.. ولا أتذكر أن والدي حملني يوماً أو قبلني عدا أيام العيد. فكانت الصلة بيننا وبينه ناشفة. فيها احترام وخوف ولكن لم يكن فيها حنان وسرور.

كان يتعشى أحياناً في الحرم فتنصب الصينية في غرفة الجلوس وكنا نحن ووالدتي وعمتي حسيبة نطوف حوله ونخدمه. وعندما يكون عنده ضيوف يتعشى في الديوانخانة وحينئذٍ يكون العشاء على الطاولة وترتيب الأكل «قالدير قوى» وكنت أحياناً بصفتي كبير الأولاد اشترك في هذه الضيافات. وكانت الآداب تقضي بأن لا اتكلم ولا اتحرك، فكانت هذه الضيافات بالنسبة لي عذاباً وبعد انتهائها كنت اسرع إلى الحرم وأكمل العشاء هناك مع محمد وإبراهيم فآكل ما أريد مثلما أريد.

نعم كان لدينا كل ما نريد من لبس وأكل وعندنا مربيات وخدم ولالا ولكن لم نكن سعداء كالأطفال لكثرة القيود المحاطة بنا والخوف الذي يحدد حياتنا وكان منبع الخوف الأعلى هو سطوة والدي.

أتذكر مثالاً لذلك الخوف: كان ذلك أيام اللالا عبد النبي وكان هذا غائباً بزيارة إلى سامراء. صعدنا إلى السطح نلعب أنا وإبراهيم ومحمد، فقلنا لإبراهيم أنا ومحمد أن يبول في المزراب، ولما كان إبراهيم اصغرنا فوافق ومن سوء الصدف كان القهوه جي واقفاً في الطريق أمام الباب فنزل ما في المزراب على طربوشه ورأسه فقامت قيامته وأتى إلى باب الحرم فرمى الطربوش في وسط الحوش وصار يصرخ، ولما رأينا ذلك فرحنا وضحكنا كثيراً ولكننا أكلنا زفة من عمتي ووالدتي ثم سمعنا القهوه جي يقول أنه سيخبر والدي بذلك فاستولى علينا الخوف، وذهب الفرح والضحك. وأتى وقت العشاء فلم يأكل أحد منا لأن الشهية أيضاً ذهبت مع الضحك وبقينا ننتظر مجيء والدي وما سنلاقيه.. ولكن يظهر أن تأثرنا كان لدرجة جعل والدتي تتوسط في الأمر ولم يفاتحنا والدي بالأمر وحصل القهوه جي على طربوش وبدلة جديدة وانتهى الأمر بسلام. وهكذا نشأنا وأهم ما لدينا بأن لا نزعج والدي وأن لا نعمل ما لا يرضيه وكان اللالا في نظرنا يمثل والدي ولذا كنا نطيعه وهكذا تحملنا ظلم واستبداد عبد النبي كما مرّ ذكره.

في ربيع سنة ١٩١٠ قام والدي برحلة إلى كربلاء والنجف مع جماعة من أصدقائه وأثناء غيابه أتت برقية من استانبول تنبيء بوفاة عمي صالح جلبي على اثر عملية جراحية فعاد والدي فوراً من رحلته وأقيمت الفاتحة في بيتنا حسب الأصول. إني لا أتذكر شيئاً عن عمي لأنه ترك بغداد وأنا طفل وكل ما اعرفه عنه أن في غرفة جدتي كانت له صورة شمسية وأنه كان متزوجاً

من ابنة عمه عمتي ماهية وأنه طلقها ثم تزوج في استانبول وأنه سيرجع يوماً ليرى جدتي ويرانا كلنا...

بعد وفاة عمي بشهرين أو ثلاثة أشهر سافر والدي إلى استانبول. فكانت هنالك استحضارات طويلة وعريضة وكان وداع وبكاء في البيت. أتذكر أننا خرجنا في توديع والدي إلى خارج المدينة بمسافة بعيدة (قرب المطار المدني الآن) وكان هناك عدد كبير من أصدقائه للتوديع. كانت نصائح والدي لنا عند الوداع بأن نجتهد في المدرسة وأن نسمع كلام أمنا وعمتنا وأيضاً كلام «ساسون» الوكيل في الخان.

سافر والدي بعد دخولنا مدرسة الاتحاد والترقي بمدة قليلة فكنت أنا إذاً في العاشرة من عمري ومحمد في التاسعة وإبراهيم في الثامنة لم يحصل تبدل كبير في حياتنا بعد سفر والدي: المدرسة، البيت، اللالا ساسون في الخان يمثل السلطة العليا بدلاً من والدي. على أنني أخذت أشعر بشيء من المسؤولية لأنني كنت الآن أكبر «رجل» في البيت. وصرت الاحظ مكتبة والدي وأثاث الصالون واقف على رأس الخدم عند التنظيفات. وكانت لنا مهمة جديدة وهي كتابة المكاتيب إلى والدي وكانت هذه مهمة صعبة في بادىء الأمر. فوالدتي وعماتي لا يكتبن واللالا غلام حسين رجل هندي لا يعرف من العربي غير القرآن ودلائل الخيرات ولكن ربنا سهل الأمر بواسطة الماكينة جي رفعت الذي كان يشتغل عندنا بالماطور. وأتذكر وضعنا عندما كتبنا أول كتاب. فاجتمعنا كلنا في غرفتنا مع غلام حسين والبواب مسكين والقهوه جي نجم آغا فأخذ رفعت يملي عليّ وأنا أكتب وكم كنت مسروراً فخوراً عندما صدر أول كتاب مني مبتدئاً بهذه العبارة: «يحظى ويتشرف بيد الاجل الاكرم الافخم شابندرزاده محمود جلبي المحترم، وصوله خيراً» وأحياناً كانت والدتي وعماتي يملين علينا واستمرت هذه المخابرات بصورة منتظمة لمدة أربع سنوات أي حتى عودة والدي من استانبول. وقد أتى والدي معه بكتبنا وهي محفوظة الآن عندنا وكم يضحك الانسان عندما يطالع شيئاً منها.. وبعد سفر والدي ببضعة أشهر رجع صيون من استانبول وهو وكيل وصراف عند والدي، فأصبحت السلطة في الخان مزدوجة ومنقسمة بين ساسون وصيون على أننا كنا نفضل صيون لأنه الين طبعاً وكان يكلمنا بهدوء بينما ساسون كان «رأسه حار» ويعربد ويزبد. ويقوم الوكيل عبد الوهاب بوظيفة ضابط ارتباط بين البيت والخان فكان يأتينا كل صباح ويشتري ما نحتاج إليه من الفواكه والحوائج الأخرى، وفي نفس الوقت يقوم بالمراقبة على اللالا والخدم وملاحظة من يزورنا ومن لا يزورنا وأحياناً أيضاً كان يتخانق معنا ويصيح ويعربد لأنه كان حاد المزاج مثل ساسون. ولكن المرغوب الاوحد بين الوكلاء كان سيد رشيد وكيل البستان والحدائق. فأبوه كان مستشاراً زراعياً عند جدي ووالدي. ونشأ سيد رشيد عندنا بنفس المصلحة وتأتي هذه العلاقة من الاعظمية إذ أن السيد عبد الستار كان مختاراً لمحلة السنية وأخذ سيد رشيد محل أبيه ولذا نحن عندما «فتحنا اعيننا» وجدناه عندنا في الاعظمية وفي بستان الشرجه. وكنا نحب سيد رشيد كثيراً لأنه «خوش آدمي» ولا «يتعارك» وكان يقص لنا بعض القصص ونحن نعمل فيه «نكت» ولا يزعل وسيأتي بحثه فيما بعد.

بقيت حياتنا محدودة بين المدرسة والبيت. أما الأولاد الذين كان يسمح لهم بزيارتنا هم أحمد وعباس وقدّو (عبد القادر المميز) وأحياناً أولاد بيت شاكر افندي.. وكان محرَّماً علينا ان

نتكلم أو نلعب مع أولاد أكبر منا سناً أو «مهما كانوا». ولذا كنا نخرج دائماً لوحدنا مع اللالا نتمشى أو نركب «بالعربانة» ونذهب إلى باب الشرقي ـ وأحياناً نذهب إلى المطبعة فنتفرج على «الطيور» (كان لوالدي مجموعة طيور حمام وكان محلها في دار المطبعة) وعلى أعمال الطبع... ومع ذلك كنا لا نخلص من مراقبة الوكلاء. ومرّة بمناسبة «الجلوس» أخذنا «طرقات» وكبريت ملون وعين الشمس و«زنابير» وهذه مسائل يلعب بها الأولاد «ليلة الجلوس» والمحية ـ وبلغ ساسون الأمر فأتى للبيت وصار يهدد ويعربد وأخذ «الزنابير» لأن ذلك لا يليق بنا وفيها خطر حتى انقلب فرحنا حزناً وأتذكر أننا تألمنا كثيراً من تلك المعاملة ثم اتانا عتاب من والدي فكتبت له وقلت له في ذلك الكتاب أننا لا نحب ساسون وعبد الوهاب لأن (قلبهم قاس علينا هوايه هوايه) ونفضل صيون وسيد رشيد (الشفيقين علينا) ومن الغريب أن كلاًّ من صيون وسيد رشيد لا يزالان عندنا ومرتبطين بنا حتى اليوم.

٤ سنوات

بقي والدي بعيداً عنا أربع سنوات سافر سنة ١٩١٠ بعد دخولنا مدرسة الاتحاد والترقي وعاد سنة ١٩١٤ بعد نشوب الحرب. لنذكر شيئاً عن حياتنا خلال هذه السنوات الأربع وأهم ما حدث.

في السنة الثانية بعد سفر والدي أتانا «لالا» جديد اسمه حاجي عبدالله. وهو رجل افغاني له ذقن طويل ويظهر أنه كان منسوباً إلى حاشية الأمير عبد الرحمن خان ملك الافغان وأن والده هاجر إلى الهند.. وجدنا هذا الرجل تقدمياً وعنده معلومات وأخذ يدرسنا الفارسية ويقرأ علينا الشاهنامه وكانت معاملته معنا طيبة ومتساهلة فصرنا نحترمه ونحبه. كان يأخذنا بعض أيام الجمع بعد الصلاة في الشيخ إلى داره وهناك تعرفنا بوالدته وهي أمراة عجوز ولكن نظيفة وعليها علامات انها كانت «بنت اوادم».

في رمضان كنا نذهب إلى الصلاة في الجامع وبعده إلى «التياترو» ولا أدري كيف يؤالف الإنسان بين صلاة التراوح و«التياترو» ولكن هكذا كانت العادة. وصادف في احدى الليالي أن مثلوا بعد الرقص رواية هزلية «هبش» فضحكنا واستأنسنا كثيراً ولكن تأخرنا عن الوقت المعتاد فلما رجعنا إلى البيت وجدنا القيامة قائمة: صالح افندي ابو مكي ينتظرنا في الطريق وفي بيتنا وبيت عمتي فهمية هياج وقلق وبكاء. فأخذ صالح افندي، وهو عادة رجل ساكن، يسب ويشتم بالحاج عبدالله وصرنا نحن ندافع عنه واحتد إبراهيم وتخانق مع صالح افندي وكان هناك هرج ومرج. وفي اليوم الثاني قرروا طرد اللالا فنحن غضبنا وعصينا واصرينا على بقائه، لانه لم يكن مذنباً إذ نحن أردنا ان نرى التمثيل فوافقنا... وهكذا حصلت أزمة ووصل الخبر إلى ساسون فأيد لزوم طرد الحاج عبدالله ولكن نحن «الأولاد» بقينا مصرّين وفي اليوم التالي أتى صيون وفي يده برقية مكتوب فيها «فهموا الأولاد ـ اخرجوا اللالا» وقال أنها من والدي. فصدقنا واطعنا وفاتت علينا الحيلة وتركنا الحاج عبدالله وكان هذا اللالا الوحيد الذي استفدنا من علمه واخلاقه لكنه ذهب ضحية «التياترو».

اما اللالا الجديد فكان اسمه غلام محمد وكان يعمل حارساً في المطبعة. نصف مجنون لكنه رجل طيب ومتدين يقضي الليل بالذكر والصلاة ويشيخ ويضرب الحائط برأسه ويذهب بكل فرصة إلى الشيخ للزيارة والتبرك بشمس الدين النقيب لأنه كان مريداً للسيد إبراهيم إبي شمس الدين. وكنا نحن نضحك على «خباله» وقصصه الغريبة حول العشائر الافغانية وثوراتهم. وكان غلام محمد هذا يحبنا كثيراً ويخلص لنا وصرنا نحن نعلمه قراءة القرآن إذ كان امياً وكانت مهمته مقصورة على نقل جنطة (حقيبة) الكتب والغداء إلى المدرسة وخدمتنا في البيت.

وكان غلام محمد يكره من لا يصلي ولا يصوم بصورة عامة ويكره بصورة خاصة «وحيد» العربنجي لأنه لا يصلي ولا يصوم ويحلق ذقنه ويفتل شاربه ويركض وراء النساء... ووحيد هذا كان عندنا منذ عدّة سنين. اتانا في بادىء الأمر وهو صبي صغير «كصانع عربنجي» وكانت مهمته الركض أمام خيل العربة لفتح الطريق والصياح «بالك!. بالك» لتنبيه المارة والحمالين. ثم تقدم وحيد وأصبح «عربنجي» وخادماً وعندما سافر والدي إلى استانبول أخذه معه ليخدمه في الطريق وبقي وحيد ما يقارب السنتين في استانبول ولما سافر والدي إلى أوروبا ارسله إلى بغداد. وبالطبع رجع سائقاً عندنا ولكنه رجع بالطبع «متمديناً» تواليت... وشوارب مفتلة.. ولاونطة ويتكلم قليلاً من التركي والرومي فكنا نحن معجبين به لأنه شاف الدنيا ورأى استانبول! وكان هو بالطبع متكبراً يرى نفسه أعلى من غلام محمد والخدام الآخرين فلذا كانت العلاقة بين اللالا والعربنجي على أسوأ ما يكون...

أخذ التقشف والتدين يزداد لدى غلام محمد وأخذ الخدم في الديوانخانه يشكون ويتذمرون لأن الذكر طوال الليل يمنعهم من النوم وعجزنا نحن من مداخلات غلام محمد الدينية وقررنا استبداله بغيره فارسلناه مع وحيد إلى الخان ليأخذ حسابه ويأتونا بخادم آخر. وفي طريقهما إلى الخان سحب غلام محمد مسدسه واطلق رصاصة في ظهر وحيد الذي كان يمشي أمامه ثم ذهب إلى مخفر الشرطة وسلم المسدس قائلاً: «أنا قتلت كافراً»... ومن حسن الحظ شفي وحيد من جرحه فنال غلام محمد خمس سنوات وبقي في السجن حتى سقوط بغداد سنة ١٩١٧. أتذكر أننا ذهبنا إلى مستشفى الكرخ لزيارة وحيد فقصّ علينا ما حدث وكيف شقوا بطنه وأخرجوا الرصاصة [ومن غرائب الزمان أنني أكتب الآن هذه الاسطر وأنا في مستشفى الكرخ مريض وسجين... وفي هذه الدقيقة أتوا بمريض على حمالة وهنا أمام غرفتي أمرأة.. زوجته أو أخته.. وقد جلست على الأرض تضرب على صدرها ووجهها... فذكرتني بأم وحيد قبل ٣٢ عاماً... وهكذا الدنيا كلها آلام وفجائع].

* * *

عندما كان والدي في استانبول وقعت حرب الطليان في طرابلس الغرب ومن بعدها حرب البلقان وكنا كلنا في قلق من أجله وكان هو يرسل لنا عدا المكاتيب برقيات لتطميننا وأرسل لنا مرّة فوطوغراف وكان ذلك اليوم يوم حزن في البيت لأن عماتي ووالدتي صرن يبكين لأن والدي ظهر في الرسم ضعيفاً... كان والدي يرسل لنا من وقت لآخر هدايا من علب حلويات وملابس وفرحنا كثيراً عندما استلمنا يوماً ساعات ذهبية مزينة بالمينا مع سلاسل من ذهب وصرنا نحملها بالأعياد...

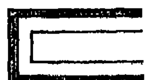
«خالة بدعه»

نشأنا وعندنا في البيت «خالة بدعه» ولخالة بدعه وضع خاص في البيت ما بين السيدات والخدم.. فلا هي سيدة ولا هي خادمة... وفي تلك الأيام تجد كثيراً مثل هذه الشخصيات في البيوت الكبيرة... نساء من بعض العائلات المتوسطة وجدن انفسهن في وضع خاص بين الاسر اللواتي يسكنَّ ويعشن معها. فخالة بدعه تجلس مع السيدات وتتكلم معهن على قدم المساواة ولكنها تأكل مع الجواري أو لوحدها وتنام مع الجواري وأحياناً تزعل فتنام في «الكفشكان» ومهمتها هي «المسواق» تشتري حوائج البيت اليومية وما تحتاجه السيدات من الأقمشة والخيوط والإبر الخ.. وهي الواسطة بين البيوت للسيدات تنقل الهدايا والسلامات والقيل والقال... أما نحن الأطفال فكنا نود خالة بدعه عندما نتمرض فهي تقوم بالتفريك والتدليك وقصّ القصص... وهناك شيء آخر خاص بخالة بدعه.. هو أنها كانت «قرعه» ولم يرِ أحد حتى الآن رأسها لأنها كانت دائماً «مفوّطه ومعصّبه» بصورة محكمة.. كنا نتآمر أحياناً فنجتمع نحن الأولاد ومعنا بعض البنات ونهجم عليها هذا يمسك يدها والآخر يحاول فك فوطتها وكانت هي تدافع عن نفسها أو بالاحرى عن رأسها دفاعاً مستميتاً فتسب وتشتم وتبصق وتعض حتى تأتي جدّتي أو والدتي فتنقذها.. وكم كنا نشعر بالسعادة عندما نتوفق برؤية جانب صغير من رأسها...

وازداد وضع خاله بدعة أهمية بعد سفر والدي إلى استانبول.. لأنها كانت المرأة العجوز الوحيدة في البيت فكان لوجودها قوة تجاه العالم الخارجي.. أتذكر أنه في أيام الشتاء كنا نخاف من اللصوص وأخبار الحرامية وعدم وجود رجل في البيت كان يزيد في خوف النساء فكنا نرتاح كثيراً عندما نسمع في وسط الليل سعال خالة بدعه خلال السكون العميق في بيتنا الكبير. وكان الجميع يطلب منها أن تزيد من السعال لا سيما وأنها لا تنام الّا قليلاً وتقضي معظم الليل بالتدخين والسعال وتقوم في آخر الليل وتنزل إلى السراديب وبيت المؤن تعجن وتشتغل.

رازقية

هذه كانت أخت السيد رشيد. كانت شابة عندها كثير من النكت والقصص مما جعلها تكسب مودة الجميع. كانت تأتينا من وقت لآخر وتبقى بضعة أيام عندنا وكنا نحن نتخانق من أجلها لأن كلاً منّا يريد أن تنام رازقية في غرفته لما لديها من الحكايات والسوالف. وعندما كنا نذهب إلى الاعظمية ونقضي أشهر الربيع هناك كانت رازقية لا تفارق بيتنا. وأسفنا كثيراً عندما توفت ونحن لم نزل صغاراً..



الأعظمية

للأعظمية ذكريات مفرحة ومحزنة في أيام الطفولة والصبا.. فهناك توفت اختي زهرة وجدتي... وهناك دفن جدي ثم جدتي.. ثم والدتي.. ثم والدي... وفي ذلك المسجد الصغير جنب دارنا حيث مقبرة العائلة ختمت القرآن على يد السيد وهيب الإمام...

*

كانت العادة عندنا أن نقضي أشهر الربيع في كل سنة في قصرنا بالاعظمية وكانت الاعظمية إذ ذاك صغيرة ومنعزلة عن بغداد وليس فيها الّا بعض القصور على الشط يسكنها اصحابها من الأسر الغنية في بغداد أيام الربيع... فكانت المنتزه الارستقراطي... ولم يكن الذهاب إلى الاعظمية بالأمر الهين. فالإستعداد له يستمر لمدة اسابيع!. عمل مربيات، عمل طرشي وكليجة ولوزينه وغيره وغيره. ثم يأتي يوم التحويلة. فترى ساحة الحوش والطارمات مملوءة بالصناديق والرزم والفرش «والجدور والبسانيك» ثم يأتي الحماميل من الخان فيبدأون بنقل هذه الاغراض إلى «الشريعة» حيث توضع في قفف كبيرة ولا ينتهي هذا النقل الّا حوالي الظهر.. ثم يأتون بعربانه أو أكثر من عربات الخشب التي كانت تستعمل في طريق الاعظمية فيركب فيها الخدم والجواري.. ثم يأتون بعربيات «لاندون» للنساء والأولاد. وكنا نأخذ معنا «تنك» ماء ونومي حامض وبرتقال لأن كثيراً ما «تدوخ» احدى السيدات من ركب العربانه. وبعد أن نصل إلى الاعظمية يأخذ الخدم بالتنظيف وترتيب الغرف ثم تصل القفف ومعها الحماميل تحت قيادة السيد رشيد وينقلون الاغراض ولا ينتهون منها قبل المساء.

وكانت العادة بأنه عندما نصل نذهب مع جدتي وعماتي ووالدتي إلى المسجد لزيارة قبر جدي فهناك تبكي النساء ويقرأن القرآن. هذه عادة طيبة تمسكنا بها بعد وفاة جدتي ووالدتي وكان لوجود المسجد والمقبرة جنب القصر صبغة من الحزن المستمر إذ كنا نسمع اذان المسجد خمس مرات في اليوم وتذكرنا بأن هناك حيث يقف المؤذن دار اعزائنا الابدي واننا سننتهي نحن إلى هناك يوماً من الأيام...

* * *

إني اتذكر بسرور أيام الأعظمية الأولى... كنا هناك احراراً نلعب في الحديقة..

وكنت أحب كثيراً منظر النهر عند الفجر والغروب ورائحة الازهار والورود لا سيما «القداح» وتغريد البلابل والطيور.. والنزهة مساءً على شاطيء النهر.. كنا نذهب إلى بستان السيد رشيد بالقرب منا وهناك نلعب بالسواقي ونعمل «نواعير» ونتسلق على الاشجار وفي الليالي نستمع لقصص السيد رشيد، الديوانخانه أو حكايات رازقية في الحرم ولذا كانت أيام الاعظمية من أسعد أيام طفولتنا...

*

الحرب العظمى

نحن الآن في صيف سنة ١٩١٤. اتانا مهران افندي حسب عادته عصراً للدرس الافرنسي فوجدناه ذلك اليوم مرتبكاً حزيناً ولما سألناه عما به اجابنا بأن ولي عهد النمسا اغتيل في «سراجيفو» من قبل الصرب وأن ذلك الحادث قد يؤدي إلى حرب عالمية... إننا لم نهتم بالموضوع كثيراً واستغربنا من اهتمام استاذنا مهران افندي بأمر الحرب بين الصرب والنمسا أو غيرهما من الممالك الأوروبية ولكن الأيام من بعده أرتنا بأن الحق كان مع مهران افندي. فهو رجل عجوز وله تجارب مؤلمة في الحياة وقد درس البشر عن كثب وذاق بصفته ارمنياً مرارات هذه الحياة وبعد سنتين من اعلان الحرب بين تركيا والحلفاء نفت الحكومة بعض الأرمن من بغداد إلى الاناضول وكان المسكين مهران افندي بين هؤلاء وسمعنا بعد أنه توفي في الطريق... فكان مهران محقاً في قلقه من الحرب وكان شاعراً بالمصاعب التي يسببها البشر بعضهم لبعض...

بعد نشوب الحرب في أوروبا صرنا نسمع بأن والدي سيرجع إلى بغداد لأن الوكيل ساسون افندي، كتب عن سوء حالة الاشغال وحراجة الموقف وطلب إليه العودة بأسرع ما يمكن.. وذات يوم خرجنا إلى جسر الخر لاستقبال والدي وكان هناك جماعة كبيرة من اصدقائه في الاستقبال.

مرّ الأسبوع الأول من وصول والدي بالعزائم والولائم وكان الفرح كبيراً في بيتنا بعد أربع سنوات مضت بمرارة الفراق. فوالدتي وعماتي واقرباؤنا كلهم كانوا مغتبطين وشاكرين الله على عودة والدي سالماً.. ونحن الأولاد كنا مشتركين بتلك الافراح ومسرورين بالهدايا التي أتانا بها والدي معه وبما كان يقصّ علينا من أخبار عن استانبول وعن أوروبا وكنا نستغرب من عادات الأوروبيين ونعجب بما لديهم من تقدم ورقي ونقيس بين ما نحن عليه وما هم عليه، وكان والدي يمدح كثيراً بما شاهده عند الانكليز من متانة اخلاق وأمانة وصدق في الاعمال التجارية ومعاملة طيبة مع الغرباء وأخبرنا بأنه قد باع امتياز تراموي وتنوير بغداد الذي حصل عليه من الحكومة في استانبول إلى شركة انكليزية وأنه فضلها على الشركات الالمانية والفرنسية بالرغم من أن شروطها لم تكن أفضل من شروط الشركات الاخرى بل بعكس ذلك وأنه عمل ذلك لأن الانكليز يعتمد عليهم وأنه عاشرهم واختبرهم...

وصل والدي إلى بغداد في أواخر الصيف ولذا كان مجلسه ليلاً على سطح الديوانخانه كالمعتاد وكنا نحن نجلس على السطح المقابل وهو محلنا القديم منذ أيام عبد النبي.. فكان اصدقاء والدي يزورونه مساءً وكان المجلس دائماً مكتظاً بالضيوف ووالدي يقص عليهم ما يقصّ حول أوروبا وكنا نحن نستمع لتلك الأخبار ونتمنى بأن نذهب يوماً إلى أوروبا وندرس فيها ونعيش عيشتها.

ومرت الأيام وعادت الحياة إلى هدوئها وأخذ الملل من حياة بغداد يتظاهر عند والدي فعاد على ما كان عليه من قبل سفره وربما المقايسة بين بغداد وأوروبا كانت تزيد من عدم رضائه وسرعة حدته وملله ممن يحيط به من الناس. اما نحن فكانت حياتنا بين المدرسة والبيت ولم تزدها عودة والدي الاّ ضيقاً وتحديداً..

كانت الحرب على قدم وساق في أوروبا وسمعنا يوماً بإعلان «السفربرلك» (التجنيد الاجباري) وكانت هذه كلمة جديدة بالنسبة لنا وبلغتنا حوادث البارجتين غوبن وبرسلو ثم اشتراك الحكومة العثمانية بالحرب ضد الحلفاء وهكذا تحققت بعض مخاوف استاذنا مهران افندي.

كان عندنا في المدرسة حماس عند أساتذتنا الأتراك وعند أكثر الطلاب. أما أنا شخصياً فكنت دائماً لا أجد في الحرب الا نوعاً من الهمجية والجنون... الحروب الصليبية وحروب آل عثمان وحروب نابليون وكل ما قرأنا في الكتب وسمعنا من المدرسين من الحماس لم يجعلني يوماً أشعر شعوراً طيباً نحو الحروب. نعم هنالك شجاعة وشجعان وبطولة وأبطال.. ولكن ما النتيجة؟ كلها قتل وسفك دماء ودمار وخراب. فلما دخلت حكومتنا الحرب لم ينشرح صدري بل على العكس وتذكرت ما قرأت حول الفواجع التي حصلت في البلقان قبل سنتين فقط. ورأيت يوماً منظر الجنود المرسلين إلى القفقاس وبكاء الناس وتوديع الأهل والاقرباء فتألمت وسمعنا بعدها أن الانكليز احتلوا البصرة وأنه حصلت مجزرة في الشعيبة وأن القائد سليمان بك العسكري قد انتحر وأن المجاهدين اجتمعوا تحت قيادة محمد باشا الداغستاني وأخذت البواخر النهرية تأتي مكدسة بالجرحى والمرضى من الجنود والضباط وكانت هنالك مناظر مؤلمة محزنة... ولماذا كل ذلك؟

كنت كثيراً ما أسأل نفسي: لماذا يتقاتل هؤلاء الملايين من البشر؟

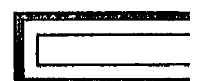
فهذا البغدادي يتحمل كل هذه المشاق والمتاعب ليذهب إلى القفقاس ويتقاتل مع أناس من الروس لا يعرفهم ولا يعرفونه.. وهؤلاء الأتراك بلابسهم الرثة وبطونهم الجائعة أتوا من أقاصي الأناضول ليتذابحوا مع جماعات من الانكليز والهنود وليس بين كل هؤلاء عدٌّ ولا حساب ولا أخذ ولا عطاء وكنت أشعر بثورة في نفسي ضد هذه الحروب التي يوقدها أناس باسم المجد والوطن والبطولة، فتقتل أنفس بريئة وييتيم الأطفال وتترمل النساء وتثكل الامهات... ولكن يقولون أن هذه سنّة الله في عباده!

نعم كنت أفهم من يدافع عن بلاده وأهله ودينه ولكن في هذه الحروب من المعتدي ومن المدافع؟ نحن هاجمنا الروس في القفقاس والآن يهاجمنا الانكليز في البصرة وجناق قلعة، مثل هذه الأفكار كانت تهاجمني فلا أجد لها جواباً...

بين النار والماء

بعد عودة والدي بأشهر قلائل.. فزعنا ذات ليلة فزعاً كبيراً عندما أفقنا من النوم على أصوات الناس في الطريق والبيوت المجاورة لنا. رأينا عموداً من اللهيب يتصاعد إلى السماء. أتذكر أن دهشتي كانت كبيرة من ذلك المنظر وخلت النار في البيت المجاور لنا.. ولما صعدنا فوق السطح علمنا أن اللهب كانت تتصاعد من احدى الخانات في عقد الصفافير وأن الحريق كان في مخازن الدخان ـ التتن. وشعر والدي باضطراب لأن لنا هناك مخزناً مملوءًا ببالات التتن فأسرع ولبس ثيابه وهرع إلى هناك ثم عاد بعد مدّة يضرب يداً بيد ويقول «هلكنا! هلكنا!» فهمت بعدها أن لنا في ذلك المخزن بضائع تساوي عشرة آلاف ليرة ذهب وانها غير مؤمنة وقد ذهبت طعماً للنيران. تأثر والدي كثيراً ونحن أيضاً تألمنا. وقد زاره في اليوم الثاني كثير من أصدقائه يسلّوه ويطيبوا له خاطره. وانتشرت رواية بأن ذلك الحريق كان مقصوداً. إذ كان والدي يريد بيع الدخان، فكي لا تظهر فضيحة السرقة أوقدوا النيران بالمخزن وأخذ اعداء ساسون يلمحون بهذه النظرية. والعلم عند الله. ولكن والدي خسر في ليلة واحدة ثروة كبيرة وكانت تلك ضربة قاسية.

في الخريف من تلك السنة تشرين الأول/اوكتوبر (١٩١٤) حصل فيضان وهدمت السدود ودخلت المياه في اطراف المدينة. وبما أن رئيس البلدية في ذلك الحين، عزت الفارسي كان قد رفع السدّة وطمر الخندق في باب الشرقي فقد دخلت المياه في جنوب المدينة ووصلت إلى محلة **السنك**. وكان أهل بغداد باضطراب شديد والتجأ كثير من الناس إلى صوب الكرخ خوفاً من الغرق. وقرر والدي بأن نعبر نحن أيضاً إلى صوب الكرخ. فأخذنا بعض الحوائج الضرورية وذهبنا نساءً ورجالاً إلى شريعة بيت مناحيم لنأخذ المركب. كان الازدحام شديداً وكانت تتهاجم على القفف في الشرائع.. بقينا في بيت مناحيم مدّة من الزمن ننتظر. الرجال منا في الديوان والنساء في الحرم. أتذكر أن والدتي كانت مضطربة ومريضة فدخلت إلى الحرم وجلست معها مدّة أطمئنها ثم جاء المركب فتوكلنا على الله وركبناه وكان معنا ما عدا والدتي وعماتي وبنات عمتي فهمية «علوية» زوجة طاهر جلبي. منظر النهر كان مروعاً والمياه كانت تجري بسرعة هائلة. وصلنا صوب الكرخ سالمين ونزلنا في دار أفرغها لنا جماعة من بيت التكريتي. فبقينا في صوب الكرخ أياماً معدودة إذ أخذ منسوب المياه في النهر يهبط فعدنا إلى بيوتنا.. وكانت مسألة الغرق هذه مزعجة من عدة وجوه إذ حصلت خسائر في المزارع والبساتين وتهدم كثير من البيوت التي وصلت إليها المياه. وحصلت بعض الامراض في بغداد بسبب الغرق.



والدتي

لوالدتي في قلبي أجمل الذكريات وأطيبها ولها في اعماق روحي حزن لا يزول وحرقة لن تنطفىء ما دمت حياً حتى الآن وفي هذه الدقيقة وأنا اكتب هذه الكلمات يخفق قلبي ألماً وتدمع عيناي وتتطلب روحي اللقاء بها. وقد مرت أكثر من ثلاثين سنة على وفاتها. أكون كاذباً إذا قلت أنني أحببت أحداً من البشر كما احببت أمي أو أنني شعرت نحو أحد من البشر بمثل العطف والحنان اللذين كنت اشعر بهما نحوها.. أو أنني ذقت يوماً مرارةً مثل التي ذقتها بسبب وفاتها...

كنت مرتبطاً بجدتي في دور الطفولة الأول ولكن بعد وفاة أختي زهرة صرت أميل لوالدتي أكثر من ميلي إلى جدتي ولربما كان ذلك ناشئاً عن حزن والدتي على أختي. فأصبحت أنا وأخي إبراهيم لا نفارقها ونحبها حباً قلّما يوجد بين الامهات والأولاد.. فكنا ننام وهي في وسطنا وكنا نقبلها ونضمها إلى صدورنا كلما وجدنا إلى ذلك فرصة.. وقد ازداد حبنا هذا بعد سفر والدي إلى استانبول وصرنا أنا وإبراهيم نشعر بأن ليس لها سوانا وأن ليس لنا سواها. وقد مكن في قلبنا نحن الثلاثة هذا الحب القوي كون والدتي غريبة في بغداد وليس لها أحد من أهلها وهذا أمر لم نكن نشعر به ونحن صغار ولم نتفاتح بشأنه بعد أن شعرنا به بعد سفر والدي. نعم والدتي كانت غريبة ولم يكن لها أحد في بغداد، ونحن ما عندنا لا أعمام ولا أخوال، فهذا كله صيرنا قلباً واحداً وشعوراً واحداً. فكان حبنا وحناننا نحن الثلاثة لبعضنا لا يضاهيه حب أو حنان.. وكان من تأثير ذلك الشعور النبيل أن ابن عمتي محمد الذي تربى معنا كان يحب والدتي أكثر من حبه لأمه وكانت أمي تحبه كابنها ونشأنا أنا وإبراهيم على حب محمد وكأنه أخ لنا وهو يبادلنا ذلك العطف والشعور...

كانت والدتي جميلة الشكل طيبة القلب، عذبة اللسان، تحب عمل الخير وتساعد الفقراء، وتعامل الناس والخدم والجواري معاملة حسنة فكان الكل يحترمها ويحبها جدي وجدتي وعماتي واقاربنا واصدقاؤنا من العائلات وكل من في البيت..

اتذكر عدّة حوادث تدل على علو اخلاقها وطيبة قلبها فأذكر البعض منها:

كنت مرّة واقفاً في الطريق أمام البيت فمر يهودي مجذوب بياع «كركرى» يبكي ويشكو ولما سألته ما به قال أن بعض الأولاد رموه بالحجارة ثم هجموا عليه وسرقوا ما لديه من «الكركرى» وهو نوع من الحلوى يشتريها الصغار. فحنّ قلبي على هذا المسكين وقلت له «انتظر» ثم دخلت مسرعاً إلى البيت وأخذت ما كنت موفره من الدراهم في صندوقي الصغير ثم اسرعت إلى الطريق وسلمت النقود كلها إلى البائع اليهودي فأخذها وانصرف فرحاً ثم سألني البواب الهندي ما اعطيته ولما علم بأن المبلغ كان ما يقارب «المجيدي» وأن ذلك كان كبيراً جداً بالقياس إلى ما فقده البائع اليهودي فأخبر الخدم الآخرين وسمع أهل البيت كلهم بذلك فلامني بعضهم وأخذ يهزأ مني البعض الآخر ولكن والدتي بقيت ساكتة ولم تتكلم. وعندما وجدتني في غرفتي لوحدي أتت

نحوي وقبلتني وضمّتني إلى صدرها وقالت «عملت حسناً يا عيني وخذ هذه الدراهم واحفظها في صندوقك بدلاً مما كان عندك» وفهمت حينئذٍ أن عملي كان خيراً ولم أكن مخطئاً.

ومرّة عندما عدنا من المدرسة ـ وكنا إذ ذاك في الاتحاد والترقي ـ قصصت على والدتي بعض ما يتعلق بدروسنا وبينت لها أنه كان عندنا ذلك اليوم درس في العلوم الطبيعية وأنني مسكت ضفدعة من حديقة المدرسة وأخذنا نشرّحها وصرت أذكر لها كيف أنني أخذت قلب الضفدعة ووضعته في راحة يدي وإنه بقي ينبض. وهنا وجدت أن والدتي يحمرّ وجهها وأخذت الدموع تتساقط من عينيها. فسكتُ وشعرت بقساوة عملي ذلك، ثم أخذتني أمي جنبها وقالت: «كيف تستطيع أن تعذب هذا الحيوان المسكين هكذا؟ فللضفدعة هذه روح مثلنا وهي تشعر بالألم والوجع كما نشعر به، فكيف عملت بها كل ذلك؟». وشعرت أن الحق معها وندمت على ما فعلت، ومنذ ذلك اليوم تجنبت إيذاء أي حيوان بقدر الامكان.

كانت والدتي رحمها الله تقية صالحة لا تقطع الصوم ولا الصلاة ولا ترد السائل والمسكين ولا تسب ولا تشتم أحداً ولا يأتي منها الاّ الخير والعمل الصالح. وكنت الاحظ على وجهها علامات الحزن الدائم وإن كانت دائماً تكظم حزنها ولا تتكلم ولا تشكو. وكنت أعلم أنها كانت تتذكر دائماً أخي شاكر وأختي زهرة وأنها الآن بعد سفر والدي كانت تشعر بوحدتها..

كنت أحياناً أجلس إلى جنبها وأسألها عن أهلها وبلدها فكانت تجيبني بحسرة وألم انها تتذكر قليلاً لأن أهلها هاجروا من القافقاز بعد الاستيلاء الروسي. تتذكر أن بيتهم كان جنب مزرعة كبيرة وأن حقول الذرة والحنطة كانت تمتد على مد البصر وتتموج بالرياح كالبحر الهائج. ثم هاجروا إلى استانبول ومنهم من بقى في اطراف حلب... لا تتذكر شيئاً عن أمها لأنها توفت وهي طفلة وقد قتل أبوها في الحرب الروسية. ولذا كانت لا تحب «المسقوف» وفي استانبول تبناها المشير موسى كاظم باشا وأتت معهم إلى بغداد عندما عيّن هذا في بغداد. وتتذكر ان اسمها الجركسي كان «كبيجان» ومن بعده سمّوها «قمر» في استانبول.

أني أتذكر موسى كاظم باشا، إذ كانوا يأخذونني إليه في دائرته الواقعة على رأس الجسر فكان يحملني ويلاطفني وأتذكر انه كان طويل القامة وله لحية بيضاء كبيرة وكان رأسه يرتجف دائماً عندما يتكلم. وسموني موسى على اسم جدي حسب ما يظهر لأنني في المدرسة وفي ورقة النفوس العثمانية كان اسمي «موسى كاظم».

وكان لي خال في حلب وهو آخر من تبقى من اخوة والدتي ثم انقطعت اخباره هو أيضاً ولذا اصبحت أمي وحيدة في هذه الدنيا ليس لها سوانا: والدي وإبراهيم وأنا...

*

بعد أن عاد والدي من استانبول وجدناه دائماً عابساً لا يرضى على شيء أو على أحد فكان «يدردم» وكان الكل يخشاه ويسعى لجلب رضاه. كانت أمي تخدمه حسب العادة المتبعة في تلك الأيام وهو يترك البيت ولا يرجع إلا وقت العشاء ثم يظهر إلى الديوانخانه عند ضيوفه. ولم يكن هنالك حياة عائلية في بيتنا ولم أتذكر أننا جلسنا يوماً وتحادثنا مع أمنا وابينا كعائلة سعيدة يحب اعضاؤها بعضهم بعضاً فالحياة كانت ناشفة وجامدة. كنت أشعر بذلك وأشعر بحزن والدتي من

تصرفات ومعاملة والدي وإن كانت هي ساكتة وصابرة. وأعتقد أن إبراهيم أيضاً كان يشعر بنفس الشيء وهذا مما جعل حبنا لوالدتي يزداد وارتباطنا بها يتقوّى. بينما وضعنا مع والدي كان ناشفاً. كنا نحترمه ونخشاه ونحبه لأنه أبونا. ولكن في ذلك الحب لم يكن شيء من ذلك العطف والحنان اللذين يفيض بهما قلبنا نحو امّي.

كنت كل ليلة قبل النوم أدعو الله أن يحفظنا كلنا أمي وأبي وأخي وكنت أتوسل بالله أن يرفع الهم والحزن عن أمي وأن يهدي الله أبي ليحسن معاملتها ويحترم شعورها ويكف عن تصرفاته.. كنت أدعو بذلك وأمي في فراشها بيني وبين إبراهيم وقلبي ينفطر لألمها...

وفاة والدتي

على إثر الفيضان وغرق قسم من بغداد حصل في المدينة اصابات بالطاعون فابتدأ ذلك حسب العادة في محلات الفقراء وأخذ ينتشر ويبث الخوف والقلق في القلوب. كنا في تلك الأيام نداوم في مدرسة الاليانس الاسرائيلية وكنا نرى في طريقنا إلى المدرسة هنا وهناك «نقاط كرنتينه» وهي عبارة عن حارس من الجندرمة يمنع الناس من الاتصال بالبيت الذي وقعت فيه اصابة طاعون.

ويوماً ونحن عائدون من المدرسة رأينا جندرمة جالساً أمام بيت المحامي اليهودي الذي كان ساكناً في دار رشيد افندي جارنا وعلمنا أن احدى بناته اصيبت بالطاعون فمنع الاختلاط وأخذوا يشترون حوائجهم بواسطة زنبيل يمد بحبل من السطح إلى الطريق.. فوصول الطاعون إلى محلتنا وإلى الدار الملاصقة بدارنا ازعجتنا جميعاً. ثم عطلت المدارس خوفاً من سريان المرض وبقينا نحن ندرس في البيت.. وذات يوم كنت في الحرم فأخذت والدتي تشكو من ألم شديد في رأسها اضطرها إلى البقاء في السرير. فحاولت ان أساعدها بشيء وآتي لها بدواء. فطلبت مني أن أبتعد عنها وأن لا ندخل الغرفة التي كانت فيها. كانت تفكر فينا وتخشى أن نصاب بشيء فيما إذا كانت قد أصيبت بالطاعون.. في تلك الحالة ورغم ذلك الألم الشديد كانت تفكر فينا وتخاف علينا. إني حرت في أمري واستولى الفزع عليّ. كان عندي كتاب حفظ الصحة بالتركية وفيه أبحاث عن جميع الأمراض فأخذت ذلك الكتاب وصرت أفتش عن أعراض الوباء. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما قرأت بأن أول الاعراض هو الألم الشديد في الرأس! أخذت يدي ترتجف وأخذ العرق يتصبب من جسمي. يا ربي! ما العمل. رجعت إلى أمي وطمنتها بأن عوارض الوباء لا سمح الله تبدو بشكل آخر ولكنها رغم ذلك اصرت على خروجي من الغرفة ونبهت علينا أن نبقى في الديوانخانة.

أتى والدي ظهراً ولما رأى والدتي مريضة اضطرب وأرسل وراء الطبيب.. فأتى الدكتور سامي بك سليمان وطمأننا فحمدت الله وبقينا جنب والدتي نخدمها. ومن باب الاحتياط أتى الدكتور بمصل لقّح كل من في البيت ضد الوباء..

اما والدتي فصحتها لم تتحسن بل على العكس. فأتى الدكتور نظام الدين والدكتور روزنفلد وبدلوا العلاج ولكن بدون فائدة. وأخذت الحمى ترتفع وأخذت والدتي تشكو من ألم في حلقها وانتفخت لوزتاها من الجانبين. ومساء يوم ارتفعت درجة الحرارة فأخذت أمي المسكينة تهذي. ثم قامت من فراشها بالرغم من مقاومتنا وأرادت أن تأخذ «اللمبة» وترميها.. وأخذت تصرخ

وتتكلم بشكل غريب.. أتى والدي وحاول أن يهدئها وأخذ يكلمها بلطف ولين.. ولكن بدون فائدة بل ازداد غضبها عندما رآته وأخذت تكيل له بقارص الكلام وتعاتبه وتلومه وتؤنبه بسلسلة من الأقوال غير المرتبطة ولكن والدي أخذ يبوس يديها ويقول لها أنه يحبها أكثر مما يحب عينيه وأنها هي أعز ما لديه في هذه الدنيا... فأخذت أنا أبكي وكذلك عماتي وكل النساء أمام هذا المنظر المؤلم.

في اليوم التالي جاء الدكتور كانى بك وأخذ يعالج لوزتيها وظن ان ذلك آت من التهاب شديد في الحلق واللوزتين. وتقدم المرض فأخذت المسكينة أمي لا تتكلم ولا تتحرك ثم صار يخف نظرها حتى فقدت بصرها وقال الأطباء أن ذلك التهاب في السحايا.. ويظهر أن الأطباء أنفسهم لم يشخصوا المرض تماماً. ونحن في هذه المصيبة وقعت احدى بنات عمتي (صبرية) مصابة بالطاعون وتلتها مصرى في بيتنا فنقلوها إلى دار فارغة جنبنا...

في اليوم التاسع أو العاشر وجدنا نوعاً من التحسن في صحة والدتي وأخذت تتكلم بعض الكلمات وطلبت شوربة ففرحنا بذلك كثيراً ولكن مع الأسف تردت حالتها بعد الظهر وفارقت الحياة ذلك المساء... (في ١٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٤).

خرج والدي من الحرم وقال لنا وهو يبكي أنه قد قضي الأمر... وأخذ يكرر «وكان أمر الله مفعولاً» صرنا نبكي نحن الثلاثة بكاءً مراً. وبتنا تلك الليلة في الديوانخانه.. وفي اليوم التالي صباحاً أتى كثير من الناس إلى الديوانخانه. ثم خرجنا كلنا نمشي وراء الجنازة.. جنازة والدتي.

كنت أشعر بشعور غريب وكأن هذا كله غير صحيح. إذ كيف يمكن ان تتركنا أمي هكذا. مشينا وراء الجنازة حتى باب المعظم. هناك وضعوا التابوت في عربة وركب المشيعون وركبنا نحن أيضاً بدورنا وتوجهنا إلى الاعظمية. هذا هو طريق الاعظمية بين البساتين والنخيل والأشجار. وهذه هي المزروعات الزبرجدية وهذه هي السواقي... وهذه هي الطيور تتطاير بين الأشجار.. كل هذا يذكرنا بأيام سعيدة كنا نذهب خلالها كل يوم بين المدرسة وقصرنا في الاعظمية. ولكن الآن نحن وراء جنازة والدتي.. نحن ذاهبون بها إلى المقبرة.

وصلنا الاعظمية وذهبنا إلى المسجد الصغير. كان القبر جاهزاً.. وضعوا التابوت بين قبر جدي وقبر جدتي. ثم قرأنا الفاتحة. ثم أخذ كل منا حفنة تراب ورماها على تابوت والدتي وكان ذلك الوداع، الوداع الابدي، ثم عدنا وأنا لا أطيق أن أصف ما كنت أشعر. أكانت النهاية هكذا. والدتي الجميلة اللطيفة والدتي الحنون التي كنت أنا وإبراهيم نموت فيها حباً ونقبلها مئة مرّة في اليوم، والدتي التي كنا لا نفترق عنها طالما نحن في البيت. هل يمكن أن ترمى هكذا في قبر مظلم، نعم.. كانت تلك الحقيقة مرّة. رجعنا إلى البيت. وصرنا ننام أنا وإبراهيم في غرفة والدي. وهي غرفة كبيرة ولكن بين سريرينا لا يوجد سرير ثالث. ولم يكن هناك من نقبّله أو من يضمنا إلى صدره.. وكانت دموعنا تنزل كل ليلة من أعيننا في ظلمة الغرفة. وكنا لا نتكلم. لأننا تعلمنا منها على مرارة الحزن.

بعد الفاجعة

كان لوفاة والدتي أثر كبير في نفسي. عدا الحزن والألم والمرارة التي صرت أشعر بها أخذت

أنظر إلى العالم نظرة جديدة.. وصرت أرى تفاهة الحياة وسخافة البشر ولؤمه.. بقيت حزيناً كئيباً لا أهتم بشيء ولا يفرحني شيء، وهكذا كان يشعر أخي إبراهيم كما اعتقد، وأصبحنا هو وأنا بعد أن فارقتنا والدتي كالتائهين في هذا الجو الغريب. إنها كانت.. ضربة قاسية أفقدتنا أعز ما لدينا وهو حنان الأم وعطفها وصداقتها...

كان والدي يعلم بما كنا نشعر ونحسّ من مرارة وألم فأراد أن يخفف عنا همومنا وكان أول ما فكر به استخدام أمرأة تلكيفية اسمها «نرمن» لتقوم بخدمتنا وتعتني بأمرنا وأتت هذه «نرمن» وصارت تقوم بخدمته صباحاً ومساءً عندما يرجع إلى البيت وكم كان والدي مخطئاً في تفكيره؟ إن وجود نرمن وقيامها ببعض الأمور التي كانت والدتي تقوم بها أزاد في ألمنا وعمّق جروحنا.. كيف يجهل الأب هذه الحالة النفسية عند أولاده؟ كانت نرمن امرأة جيدة وكانت تقدر حالتنا النفسية وكانت أحياناً تبكي عندما ترانا بوضعنا.. فلما وجدناها شاعرة بما يخالج نفسنا تعودنا عليها وصرنا نودّها...

ثم تقرر بأن ننتقل إلى محل جديد على الشاطىء لأن كل شيء في البيت كان يذكرنا بأمي ويؤلمنا. استأجر والدي قصر عبد الأحد بالقرب من «المسناية» فانتقلنا إليه في أوائل شباط/فبراير ١٩١٥. وكان هناك جارنا بيت الدكتور سامي بك والدفتردار أحمد فهمي بك وسكن بالقرب منا الحاج رفعت افندي وأخوه أحمد عزت افندي وكان يأتي لزيارتنا علي رفعت وموسى وحقي وإبراهيم عاكف وعباس وجمال وغيرهم.. قضينا أياماً طيبة في قصر عبد الأحد. وفي الصيف تعلمنا السباحة وكنا نركب الخيل صباحاً ونسبح ونجدف مساءً وفي هذه الرياضة سلوى وقضاء للوقت...

ولكنني لم أنس والدتي يوماً طوال تلك الأشهر التي قضيناها في قصر عبد الأحد... كنت دائماً أفكر بها وأتمنى وجودها... كنت أقضي ساعات طوال، ليلاً في البلكون أو على السطح أنظر إلى النجوم والقمر والنهر أفكر وأتحسر وأبكي. كنت اتلذّذ بالوحدة وبالحزن والبكاء وبهذا العذاب النفسي، كنت أشعر بأنني اشترك بما أصاب والدتي المسكينة وأجد السلوى بتعذيب روحي. وأحياناً في الصيف على السطح.. عندما ينام الجميع كنت استمع لمصرى وهي على السطح المقابل. كانت «تعود» بصوت منخفض وتبكي على والدتي فكنت اشاركها البكاء صامتاً.. وكانت مصرى مثلنا نحن، أنا وإبراهيم ومحمد وعمتي فهمية متألمة بألم حقيقي على وفاة والدتي ولم تنسها، واعتقد انها لم تزل مثلي ومثل إبراهيم تذكرها مع لوعة في قلبها...

من صفحات أيام الحرب

قضينا ما يقارب السنة في قصر عبد الأحد. وعدنا إلى دارنا في بغداد حوالي نهاية سنة ١٩١٥ نظراً لاقتراب فصل الشتاء ولأن الانكليز أخذوا يتقدمون واحتلوا «الكوت» ووصلوا العزيزية فكان البقاء خارج المدينة خطراً لاحتمال هجوم العشائر على اطراف المدينة فيما إذا اخلى الاتراك بغداد..

في أواخر هذه السنة اجتزنا امتحان الدخول إلى السلطاني وقبلنا في الصف الثاني عشر أي الأخير من المدرسة ومن الغريب أن زميلنا في الاتحاد والترقي جمال ادهم وكان الأول في صفنا دائماً هناك، كان في الصف العاشر من السلطاني أي بعدنا بصفين... على أنني لم اداوم في المدرسة لأن الحكومة استدعت مواليد ٣١٥ رومي إلى الانضمام لمدرسة ضباط الاحتياط وبما أنني لم أكن راغباً في الدخول بالجيش اضطررت لترك السلطاني وبقي كل من إبراهيم ومحمد حتى سقوط بغداد.

ومن مهازل الحرب أنني لما تخلصت من الانضمام إلى مدرسة ضباط الإحتياط صرت ملزماً في السنة التالية أي ١٩١٦ أن أحضّر نفسي إلى الجندية وكان الاتراك يسمّون تلك الدورة الاستحضارية (دينج درنكى) ومن غريب الصدف أن طباخنا «أيوب» كان من نفس الدورة وعليه كنا نذهب مرتين في الأسبوع إلى دائرة التجنيد في باب المعظم للقيام بمبادىء التدريب العسكري. كان المشتركون بهذه الدورة يأتون بملابسهم الاعتيادية وكان منظر تلك الحظيرات يؤلم النفس إذ أن الاكثرية من أولئك الشباب كانوا من الفقراء وكانوا يتدربون وهم نصف عراة وحفاة. كنت مشمئزاً من الجندية في مدرسة الضباط فكيف الآن وقد أصبحت بين هؤلاء؟ فقررت أن لا أداوم. مع ان ذلك كان يعتبر فراراً من الجيش. وكنت أعتقد بأنه يحق لكل عربي أن يفرّ من الجيش التركي وأن يتخلص من هذه الخدمة التي لا ناقة له فيها ولا جمل.

أتذكر أننا ونحن جالسون ذات يوم وقت العصر في «المسنايه» أتى خليل باشا، الوالي والقائد العام ومعه بعض كبار الضباط من رفقائه.. وكان المجلس مجلس شرب وأنس ثم دار الحديث حول الجيش فسألني خليل باشا متى أكون ضابطاً. فأجبته بأنني ان شاء الله سوف لن أكون ضابطاً.. فتعجب خليل باشا من هذا الجواب وغضب فقلت مسترضياً اياه.. «يا باشا الضباط ما شاء الله كثيرون وأني أفضل أن أخدم بلادي في نواحٍ أخرى غير الجندية» وهكذا صلّحت الوضعية نوعاً ما.

وانتهت قضية «الجندية» معي بدخولي في دائرة البرق والبريد في الشعبة الواقعة في رأس القرية وهي جنب الخان وكنت أداوم صباحاً ثم أقضي وقتي في الخان وقد تم ذلك بمساعدة مدير البرق والبريد آصف بك وكان من اصدقاء والدي القدماء لأنه كان مديراً في السابق أيام عبدالحميد وكان جارنا... وهكذا بقيت حتى سقوط بغداد.

صفحات الحرب المؤلمة كثيرة، على أن منظر الجرحى كان من أفجع ما يراه الانسان. ففي

أواخر سنة ١٩١٥ وصل الجيش الانكليزي إلى العزيزية وعندما أخذت الحرب تدور قرب سلمان پاك كنا نسمع بوضوح دوي المدافع وكان الجرحى والمرضى ينقلون بالمراكب النهرية وبالعربيات فامتلأت المستشفيات والجوامع بهم وكان منظر هؤلاء المساكين يفتت الاكباد ـ برد وجوع وقلة عناية وقلة أطباء وقلة مستشفيات. هذه سفالة الحرب التي يتبجح بها الجالسون على الكراسي الناعمة!

صادفت يوماً جندياً جريحاً آتٍ على قدميه من سلمان پاك إلى بغداد لأن الجرحى الذين لهم طاقة على المشي كانوا يتركون لحالهم ـ كان جريحاً ولباسه ملطخاً بالدم والطين. وجهه أصفر من أثر الجرح والتعب والجوع والبرد. كلّمته فابتسم وحمد الله. هذا المسكين أتى من اعماق الاناضول ليدافع عن الوطن والدين وهو لا يعرف معنى الوطن أو معنى الدين. ولكن قالوا له هكذا فآمن وتوكل على الله. وبعد تعب كثير وشقاء طويل وقتال عنيف جرح وها هو يحمل بندقيته على كتفه ويسحل قدميه عائداً من الجهاد المقدس باسماً مؤمناً صابراً... كان ألمي كبيراً لمنظر هذا الجندي..! اعطيته بعض الدراهم فأخذها شاكراً باسماً واستمر في سيره نحو المدينة، هذا هو البشر...

أما كان بالإمكان أن تصرف مثل هذه الشجاعة وهذا الصبر في سبيل الخير؟ في سبيل اسعاد البشرية؟ بدلاً من هذه الحروب وهذه المصائب؟

انتصر الأتراك في معركة سلمان پاك وحوصر الجيش البريطاني في الكوت وبعده استسلم. فكان في بغداد لذلك الانتصار صدى كبيراً لأنه النصر الوحيد الذي احرزه الأتراك منذ بداية الحرب في الميدان العراقي. في ربيع سنة ١٩١٦ أتوا بأسرى الكوت إلى بغداد. ذهبنا نحن، أنا وإبراهيم ومحمد إلى المفازه لنرى الأسرى وكان سوق السراي مزدحماً بالناس من كل الطبقات. أتى في مقدمة الأسرى ضباط الانكليز ثم الجنود الانكليز ومن بعدهم الهنود. يحرس الأسرى جنود من الأتراك.. فأخذت النساء تهلهل وأخذ بعض الصبيان يبصقون على الأسرى ويرمونهم بالحجارة ويهزأون منهم ويسبوهم... وكان هؤلاء الأسرى صامتين وعلى وجوههم إمارات التعب والجوع والانكسار.. فشعرت بمثلما شعرت عندما رأيت التركي المجروح قبل بضعة أشهر، وودت لو كان بامكاني أن أتكلم مع هؤلاء المساكين وأساعدهم وأعطيهم كل ما عندي... فهؤلاء أيضاً تركوا أوطانهم وأهلهم وأولادهم وجيء بهم للدفاع عن مصالح الدولة التي يتبعونها. كم سببت هذه الحروب من هذه السفالات والمذلات؟ كم عدد القتلى والجرحى والمرضى والأسرى في دنيانا الآن؟.. هذه سنّة البشر فما أتعسها وما أسخفها!

لم تنحصر شرور الحرب وآلامها بالجيوش المحاربة بل كانت تسري أحياناً على المدن وأهلها ولما كانت بغداد مركزاً للولاية والقيادة والتموين فقد كان أهلها يشعرون بأنواع من الضيق والقلق.

بعد وفاة فون درغولج باشا في نيسان/إبريل من سنة ١٩١٦ عيّن خليل باشا وهو خال أنور باشا والياً وقائداً عاماً وحاكماً مطلقاً في العراق وكان هذا من محبي الكيف واللهو وكان الحكم متفسخاً مستبداً ولم يكن الانسان آمناً على نفسه أو ماله.. وأخذت الحال تزداد سوءاً كلما طال أمد الحرب فالتكاليف الحربية كانت على قدم وساق والاعتداءات لا سيما على الاثرياء من اليهود

كانت كثيرة حتى أننا سمعنا يوماً أن ستة من الصرافين اليهود قتلوا ورميت جثثهم في النهر لأنهم خالفوا الأوامر المتعلقة بالعملة. ولكن هذا لم يمنع من سقوط الورق العثماني الذي أصبح بعُشر قيمته الاسمية. فأرباب المصالح والتجار والعرب بصورة عامة سئموا من الحكم التركي، وكانوا يتمنون في قلوبهم مجيء الانكليز للتخلص من ذلك الوضع. وقد زاد في الطين بلة محاولة الحكومة استبدال الورق النقدي بالذهب جبراً وأخذت تصادر الليرات ومنعت التعامل بها...

كان والدي بصفته أحد كبار التجار معرضاً لكل تلك التدابير. وقد أخذت منه كثيراً من الأموال، كالحديد والسكر والخام بدون بدل وعلى أساس التكاليف الحربية ولكن والدي كان له أصدقاء بين كبار الموظفين من الأتراك ثم حصلت له صداقة مع الوالي خليل باشا إذ كان يأتينا أحياناً إلى حديقتنا في بستان الشرجية ويأتي معه أحياناً أمه وزوجته وابنه.. فهذه الصداقات خففت نوعاً ما من وطأة التكاليف... ومن التدابير التي اتخذها والدي تحويل أوراق العملة إلى ليرات ودفن هذه المبالغ في محلات مختلفة خوفاً من تسلط الحكومة عليها.

وقد حدث أمر غريب في هذا الشأن يستحق أن أسجله هنا: كنا في صيف ١٩١٦ ساكنين في المسناية. في أحد أيام رمضان كان مدعواً عندنا على الافطار الحاج ياسين الخظيري وأخوه قاسم باشا الخظيري.. صار وقت المغرب ولم يحضر والدي من بغداد ثم أتى أحد «البلامه» يخبرنا بأن والدي يعتذر من ضيوفه وأنه حصل له بعض الأشغال التي تستوجب تأخيره. فنحن تعشينا وبعد ذلك ذهب ضيوفنا فطلعنا على السطح لننام وبعد مدّة أتى والدي وقصّ علينا سبب تأخره.. كان والدي قد اخفى في سرداب الخان ثمانية آلاف ليرة ذهب، وضعوا كل ألف ليرة بكيس وجمعوا تلك الاكياس في برميل من حديد ودفنوه في أرضية السرداب، ولم يعلم بهذه العملية أحد سوى صيون والخادم العجوز خضوري الذي قام بحفر النقرة وغيره، وشعر والدي يوماً بلزوم نقل هذه الليرات إلى محل آخر لأن وجودها في الخان لم يكن مناسباً. فقرروا نقلها إلى محل آمن.. فنزلوا هو وصيون وخضوري لاخراج الاكياس ولكن عندما فتحوا البرميل وجدوا ثلاثة أكياس ناقصة وفي محلها قطع من الكواني. فاندهشوا لذلك الأمر وبعد أن نقلوا الأكياس الباقية إلى محل أمين أخذ والدي يفكر في الأمر.. ماذا يجب أن يعمل؟ إذا اعطى خبراً للبوليس مشكلة وإذا سكت مشكلة، فذهب والدي واستشار في الأمر عبد الرحمن افندي جميل وكان هذا من اصدقائه الذين يعتمد على صداقتهم وصواب رأيهم. فنصحه عبد الرحمن افندي بأن يخبر مدير الشرطة بصورة شفوية وشخصية.. كان مدير الشرطة إذ ذاك سعد الدين بك معروفاً بشدته وبطشه وتركيته ولكن بينه وبين والدي معرفة وشيء من الصداقة فذهب إليه وقصّ عليه الأمر كما هو. فابتسم سعد الدين وأوفد القومسيير ثروت افندي للقيام بالتحقيق اللازم. أتى القومسيير ثروت مع بعض أفراد البوليس إلى الخان وبما أن والدي أخبرهم بأنه لا يشك أبداً في صيون تمركزت الشبهة بشخص خضوري. أتوا بخضوري إلى السرداب وبعد استجواب قصير نزعوا حذاءه واشتغلت العصي بدون رحمة على رجليه، أخذ خضوري المسكين يصرخ ويعيط ويقسم الأيمان بأنه لا علم له بالدراهم المفقودة. وفي تلك الاثناء كان الوكيل عبد الوهاب جالساً على الدكه في باب الخان فسمع صوتاً غريباً كأنما شيء يسقط في البئر.. فسأل الحارس الافغاني عن ذلك فأجابه بأن السطل سقط في البئر.. ولكن عبد الوهاب لاحظ علائم الارتباك على وجه الحارس وأخبر

والدي بالأمر. فأمر ثروت بأن يأتوا له بالافغاني فلما رأى هذا وضعية خضوري أصفّر لونه وارتبك تماماً.. فأخذه رجال الشرطة وفرشوه على الأرض وبعد ضربات معدودات صرخ معترفاً بأن الدراهم عنده وأنه رماها في البئر.. فجاؤا حالاً «بطماس بير» فنزل هذا وأخرج كيسين. فعاد ثروت افندي يسأل عن الكيس الثالث فأخبره الحارس بأنه عند خضوري لأنهما تقاسما على ذلك الشكل.. فرجع العذاب على خضوري ولكن هنا تدخل والدي وقال أنه ليس من المعقول أن تكون الشراكة على هذا الترتيب إذ لماذا يعطي خضوري الفين ليرة للحارس ويحتفظ لنفسه بألف فقط؟ اعتراض معقول. رجعوا إلى الحارس وبدأت العصي بمفعولها وأقر هذا بأن الكيس الآخر هو أيضاً عنده وأنه دفنه في محل بعيد. أتوا بعربانه وأخذوا الحارس ليدلهم إلى المحل فأخذهم إلى «مقبرة المنطقة» في طريق الكاظمية وهناك نزل ورفع حجراً من جانب أحد القبور المتهدمة وهناك كان الكيس الثالث. والغريب في الأمر ان ذلك الحارس الافغاني كان صائماً أثناء كل هذه العملية وكان مصلياً ولا ينسى يوماً زيارة الشيخ عبد القادر الكيلاني أيام الجمع، ولله في خلقه شؤون.

نال خضوري مقابل العصي جائزة لا بأس بها وأخذ ثروت افندي وأفراد الشرطة جوائزهم أيضاً. وأهدى والدي فرساً أصيلة إلى سعد الدين بك وانتهت القضية بسلام.

«الشركة الاسلامية»

أراد والدي أن يضع حداً لاعتداءات الحكومة ومداخلاتها في أموره التجارية كالتكاليف الحربية ومنع إصدار الأموال إلى إيران وغير ذلك من الأمور التي كانت تجعل التاجر عرضةً لتصرفات الموظفين وارادتهم الشخصية ففكر بتأسيس شركة مساهمة تحت عنوان «شركة إسلامية» برأس مال قدره عشرة آلاف ليرة تركية ورق ورغب اصدقاؤه من كبار الموظفين الأتراك في الأشتراك وكان خليل باشا من محبذي هذه الفكرة وكان أول المشتركين بعشرين سهماً أي ٢٠٠ ليرة تركية ورقية. فتأسست الشركة المذكورة في ١ محرم ١٣٣٥ تشرين الأول/أوكتوبر ١٩١٦ وباشرت أعمالها تحت إدارة والدي واتخذت لها محلاً تجاه الخان العائد لنا وكنت أنا أقوم بمسك دفاترها ومخابراتها باللغة التركية. ومجموع ما اشترك به الموظفون نحو ٥٠٠ ليرة تركية والباقي كان باسم والدي. وكان قصد والدي أن يدفع أولاً شر التكاليف الحربية والمداخلات في أعماله لأن خليل باشا ومعاونيه وكبار الموظفين أصبحوا شركاء ثم توسيع أشغاله في إيران باسم الشركة المذكورة.

كانت الفكرة في حينها ناجحة ويمكن الاستفادة منها ولكن والدي فكر في الزمن الراهن ولم ينظر إلى البعيد وإلى نتائج الحرب وإلى ادخال خليل باشا وأعوانه من الاتحاديين شركاء بالأعمال التجارية ولا إلى الحسد الذي تولده تلك الشراكة لدى التجار الآخرين من اليهود وغيرهم إذ أنه بفضل تلك التدابير تمكن والدي من ارسال كميات من السكر إلى إيران بينما التجار الآخرون كانوا تقريباً محرومين من هذه التسهيلات... ولكن كما قلت كانت النتيجة الأخيرة وبالاً على والدي وعلينا وسببت له خسائر عظيمة كما سيأتي بحثه.

بالرغم من تأسيس الشركة الإسلامية وبالرغم من تأسيس الصداقات والعلاقات مع كبار الأتراك كان والدي دائماً يخشى من الأتراك وتصرفاتهم... وانتشرت شائعات بأن الحكومة ستبعد

التجـار وتصادر أمـوالهم... وقامت الحكـومة التـركية فعـلاً تلـك الأيـام بضرب الحلـه وأنـواع الاعتداءات وأصبح الوضع على إثر حوادث الحجاز بـين الأتراك والعـرب عدائيـاً... كان والـدي يتمنى لو يأتي الانكليز ليتخلص من القلق المستمر، وبلغنا يوماً عن عبداللـه ثنيان أنـه سمع من لسان سعد الـدين بأنـه إذا قامت الحكـومة بـإجراءات ضـد العرب في بغـداد سيكون محمـود الشـابندر في رأس القـائمة. فليس من المستغـرب أن يتمنى والدي والحـالة هـذه مجيء الانكليز والخلاص من الأتراك...

أما شعوري الشخصي في تلك الأيام فكان بالطبع عدائياً لسياسة الأتراك تجـاه العرب وكنت أود الخلاص وإن كان ذلك بمساعدة الانكليز... ولكن كـان في قلبي حسّ فحواه: أن التخلص من الأتـراك وهم ضعفاء أسهـل من التخلص من الانكليـز فيمـا إذا أرادوا البقـاء في بغـداد محـل الأتراك...

سقوط بغداد

بعد سقوط الكوت واستسلام الجنرال «طاونزند» أهتم الانكليز في الأمر وأتـوا بجيش جديـد تحت قيادة الجنرال «مود» وفي أواخر سنة ١٩١٦ أخذ الانكليز يقتربون من جديـد من بغداد وفي آذار/مارس ١٩١٧ وصلوا إلى العزيزية وسلمان باك.

أخذت الطيارات تحوم فوق بغداد وذات يوم قذفت المدينة بالقنابل فسقط ثلاث أو أربع منها بمحلات مختلفة، أطراف السراي والقشلة، وكان لذلك تأثير كبير في نفوس الناس. ولما كان والـدي سريع الانفعال في كل أموره فقد قرر بأن ننتقل إلى قصرنا في الاعظمية.

شخصياً لم أر لزوماً لذلك بل كنت دائماً عندما تأتي الطيارات اصعد فـوق السطح واتفـرج عليها. ولكن ارادة والدي كانت هي العليا، وعليه انتقلنا إلى الاعظمية في شباط/فبراير ١٩١٧.

كانت الأخبار متبـاينة والشـائعات متعـددة. ولكن مما لا شـك فيه أن الجيش التـركي كان بانسحاب مستمر أمام التقـدم البريطـاني ولما وصلت الحـرب إلى ديالي صرنـا نسمع جليـاً دوي المدافع وأخذنا نرى البواخر الصغيرة «والـدوَب» تنسحب نحو سـامرا.. وكـان الخوف في قلـوب الناس على أشده. خوف من الأتراك المنسحبين وخوف من الجيوش البريطانية الفاتحـة وأشد من كل ذلك خوف من العشائر المحيطة ببغداد خلال الفترة بين الانسحاب والاحتلال.

في ٩ و١٠ آذار/مارس ١٩١٧ وصلت الحرب إلى أبواب بغداد وكـان سقوط المـدينة منتظـراً بالساعات. فاجتمع في بيتنا بالأعظمية، خوفاً من العشـائر، عـدد كبير من العـائلات من اطـرافنا وانتقلت عمتي فهمية وأولادها أيضاً فأصبح دارنا مملوءاً بالنسـاء والأولاد. وقد اغلقنـا الأبواب وحكمناها ووزعنا الاسلحة على الرجال وصرنا مستعدين للطوارىء لأن الشائعات أخذت تدور بأن بعض العشائر أخذت تهاجم بغداد وتسلب وتحرق ولذلك قررنا الدفاع عن أنفسنا، وكنا ما يقارب العشرين رجلاً ومعنا بندقيتان وعدة مسدسات وزعناها بيننا..

وليلة ١٠/١١ آذار/مارس حوالي منتصف الليل سمعنا انفجاراً قوياً هـز الدار هـزاً فأفـاق النائمون في هلع كبير وأخذ الأولاد في البكاء والامهات تصيح واستولى الخوف عـلى الجميع وكـان

ذلك أنفجار مخزن العتاد التركي في باب الطلسم وهذه علامة بأن الأتراك تركوا بغداد. فأخذ كل منا سلاحه وبقينا ننتظر حتى الصباح.

عند الفجر أتتنا الأخبار بأن الأتراك انسحبوا من المدينة وأن اسواق بغداد وبيوتها صارت طعماً للنيران والسلب. وعند الظهر سمعنا بأن الانكليز دخلوا المدينة واستتب الأمن وأطفئت الحرائق وهكذا تم سقوط بغداد في ١١ آذار/مارس ١٩١٧. فشعرنا بالارتياح حيث زال الخوف والقلق ورحل الأتراك وحل الانكليز محلهم وانطوت صفحة من تاريخ بغداد.

خرجت عصر ذلك اليوم أتمشى في أطراف البساتين في الاعظمية فصادفت ضابطين انكليزيين فأشارا إليّ بالوقوف وتقدما نحوي. كنت لا أفهم إلّا قليلاً من الانكليزية ولكن مع ذلك فهمت بأنهما يرغبان الذهاب إلى السوق فأتيت بهما إلى سوق الاعظمية واشتريت لهما بعض الفواكه والتمر والبيض فسّرا بذلك وسررت أنا بأول اتصال حصل مع البريطانيين.

في اليوم التالي نزلت مع والدي إلى بغداد بالعربانه. ولما وصلنا باب المعظم رأيت العلم البريطاني يرفرف فوق دائرة التجنيد فوق الباب في المحل الذي تعودنا أن نرى فيه كل يوم العلم التركي. شعرت بشعور غريب. ألهذا كل تلك المذابح وهدر الأنفس وهذه السفالات البشرية. لتحلّ قطعة نسيج مكان قطعة أخرى؟

دخلنا المدينة، الشوارع مليئة بالجنود الانكليز والهنود وعربات النقل. فعّاليات عظيمة من خيل وبغال وسيارات. شيء لم نشاهد مثله عند الأتراك فلا غرابة إذا انتصر هؤلاء على الأتراك. إذ أن الحصان في الجيش البريطاني ينال من العناية أكثر مما يناله الضابط في الجيش التركي..

وجدنا سوق السراي والمفازة العائدة لنا كله محروقاً ولم يسلم دكان واحد من النار والنهب. ذهبنا إلى الخان ووجدنا الكتاب كل في محله وصار والدي يفكر في الاشغال والتجارة...

بعد السقوط بيوم أو يومين أعلن الجنرال مود تصريحه الشهير وأكد بأنهم أتوا منقذين لا فاتحين ووعد العرب بالاستقلال والتقدم فكان لذلك أثر طيب في نفوس الناس وكنت فرحاً بهذه الوعود التي ستعيد للعرب مجدهم.

ثم أعلنت السلطات الجديدة لزوم تسليم السلاح مهما كان نوعه وأخطرت الناس بالعقوبة الصارمة لمن يخالف تلك الأوامر. وعليه فأننا جمعنا ما لدينا من سلاح وأرسلناه مع عبد الوهاب للتسليم وكان ضمنه بعض السيوف القديمة التي أسفنا عليها. ولما رأى الضابط البريطاني عبد الوهاب ووراءه حمالين يحملون كل تلك الأسلحة استغرب، فطمأنه عبد الوهاب أنه «مختار المحلة» وأنه جمع تلك الأسلحة من محلته.

كان القسم الأكبر من سكان بغداد مرتاحاً لمجيء الانكليز والتخلص من سوء إدارة الأتراك والاعتداءات التي كانت في ازدياد في الأيام الأخيرة وكانت هناك طبقة مستاءة مثل المتدينين الذين يرتبطون بالخلافة والسلطنة ثم المتقاعدين والموظفين... أما والدي فكان مسروراً لنجاته من تصرفات الأتراك ولاحتمال توسيع تجارته مع الانكليز لا سيما انه كانت له علاقات تجارية قديمة مع انكلترا وله من بينهم أصدقاء كثيرون ومن جملتهم الشركة التي باعها إمتياز الترامواي والكهرباء فكان كله ارتياح وآمال..

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

كنا نتوقع أن يفتح لنا مجيء الانكليز دوراً كله راحة وسعادة واطمئنان وتحقيق غايات قومية وأشغال رابحة ولقد تنفسنا الصعداء عندما ارتحل الأتراك عنا. و«عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم». ما أصدق هذه الآية الكريمة.

عندما نزلنا إلى بغداد ثالث يوم سقوط المدينة وجدنا أن الوالي التركي قد أرسل إلى محلنا عدداً (١٧ قطعة) من الفرش العائد إلى الحكومة لحفظها كأمانة. فذهب والدي مباشرة إلى الحاكم الملكي السر برسي كوكس وأخبره بالأمر فطلب إليه هذا أن يكتب بذلك فكتب والدي كتاباً مفصلاً إلى الجنرال مود حول هذه القطع أخبره في نفس الوقت بأنه قبيل سقوط بغداد طلبه وكيل الوالي التركي وطلب إليه شراء ١٥ قطعة أيضاً من الفرش ولحراجة الموقف حينذاك لم يكن باستطاعة والدي رفض ذلك الطلب وأن الشراء قد تم بشهادة القنصل الأميركي.

في ٢٣ آذار/مارس ١٩١٧ أتى إلى محلنا المستر بولارد Bullard (الآن سفير بريطانيا في طهران كانون الثاني/يناير ١٩٤٦) وكان مفتشاً لتجارة العدو فأخبره بما تم وبيّن له كل شيء فيما يتعلق بالشركة الإسلامية. ذهب الأتراك وتركوا لنا هذه المشاكل.

وفي ٥ نيسان/إبريل ١٩١٧ عندما كنا جالسين في المفازة التي فتحها والدي تحت الخان أتى كوركيس ابن يوسف كوركيس وأخبر والدي بأن مفتش تجارة العدة الجديد المستر صون Soan (توفي سنة ١٩٢٦) يطلب مقابلته. فذهب والدي إليه وأخبره من جديد بكل شيء يتعلق بالفرش وبالشركة الإسلامية. فطلب المستر صون منه أن يدفع ١٠٠٠٠ ليرة وهي الأموال التي تشكل رأس مال الشركة الإسلامية، فأخبره والدي بأنه ليس لدى الشركة أموال وأنه لم يتصرف في الاسهم إلا مقابل ٥٠٠ ليرة تركية وأنه سلمها إلى السلطات. وهنا كان الخطأ فقد اعتمد والدي على العدالة البريطانية وعلى الحق ولم يعالج الأمر بصورة عملية وكان من جراء ذلك أن أمر المستر صون بتوقيف والدي وحجز جميع محلاته التجارية وأمواله. كانت هذه مؤامرة محكمة دبّرها يوسف كوركيس وعبد القادر الخضيري وبعض اليهود واستحسنها المستر صون لعلة في نفسه ولم ينتبه إليها والدي إلاّ بعد فوات الأوان.

كانت هذه ضربة قوية مفاجئة إذ لم يكن أحد منا ينتظر مثل هذه التصرفات القراقوشية من قبل الانكليز. أوقف والدي في «العباخانه» التي كانت مركز شرطة إذ ذاك. وكنت أذهب إليه مرتين في اليوم وكان موقوفاً معه في نفس الغرفة كل من شوعه بجور وخضوري شماش بتهمة الإتجار مع الالمان..

صرت أقابل هذا وذاك وأسعى لتخليص والدي من السجن بالكفالة حتى يتبين الأمر فقابلت الحاج علي أفندي الآلوسي وعبد الرحمن افندي جميل وعبد القادر باشا الخظيرى. وكنا نعرف أن هذا الأخير كان من أعداء والدي وله اليد الطولى في تدبير المؤامرة ولكن كان من الضروري التظاهر بالصداقة دفعاً لشرّه. كنت أذهب إلى قصره في باب الشرقي وهو يتظاهر نحونا بالصداقة وكان يلوم والدي لسوء تصرفه أيام الأتراك. خلال هذه الأيام كانت الشرطة تحقق وتدقق وكان مدير الشرطة برسكوت Prescot. ولما لم تجد ما يستوجب التوقيف قررت اخلاء سبيل والدي

بالكفالة وطلبت أن تكون الكفالة من قبل شخصين معروفين في بغداد. فسررنا بهذا وتقدم الحاج ياسين الخظيرى بالكفالة ورأينا أن يكون الكفيل الثاني أخوه الأكبر عبد القادر باشا الخظيري أيضاً من باب دفع الشر. ذهبت عصراً إلى الباشا وأخبرته بالأمر، فوجدته متردداً وإن تظاهر بالسرور. ركبنا العربانه وذهبنا أولاً إلى دائرة مفتش تجارة العدو المستر صون. وكان هذا دليلاً واضحاً لوجود علاقة قوية بين الباشا والمفتش ويظهر أن الشرطة قررت أمر الكفالة بدون علم المستر صون ولذا تردد عبد القادر باشا وفضّل إخبار المستر صون قبل إقدامه على الكفالة. أنا بقيت أنتظر في العربانه وبعد بضع دقائق خرج الباشا باسماً وذهبنا إلى العباخانه ووقع الوثيقة هناك وتعانقا هو ووالدي وشكرناه على مودته وفضله. وغادر والدي ونحن نحفّ به وكلنا سرور وابتهاج وذهبنا مباشرةً إلى الاعظمية لأن الوقت بعد المغرب. وكان السرور عظيماً في بيتنا وتوافد كثير من الأصدقاء والمهنئين. وتأكدنا من جديد من العدالة البريطانية وأن الحق يعلو ولا يعلى عليه. وكان ذلك في ١١ نيسان/إبرايل أي بعد شهر كامل من دخول الانكليز لبغداد. ففي شهر واحد كان خلاف وتوقيف وافراج!

في اليوم التالي نزلنا إلى بغداد وذهبنا إلى البيت. وجلس والدي بالديوانخانه يستقبل الضيوف المهنئين من أصدقائه وكبار القوم وكان بين هؤلاء عبد القادر باشا الخظيرى أيضاً.. ونحن هناك أتانا كاتب من الخان وأخبرنا بأنه وجد باب الخان مكسوراً وختم الحجز مرفوعاً.. فدهشنا من ذلك واسرعنا إلى الخان وذهب والدي إلى المستر صون يخبره بالأمر. فابتسم المستر صون وأمر بتوقيفه ثانيةً بحجة أن والدي هو الذي دبر ذلك الأمر لتهريب دفاتره وأوراقه! وأوقفوا اثنين من كتابنا ـ ينطوب وخضوري بلبلول. والحال ان الدفاتر والأوراق كانت لدى المفتشين ولم يكن لدينا شيء للتهريب والاخفاء. ولم تكن هذه الحادثة من باب الصدف. فالمؤامرة كانت محكمة ومدبرة وليس من البعيد أن يكون المستر صون هو رأس البلاء وسمعنا بعده أن يوسف كوركيس هو المنفذ لتلك الخطة وأن رجاله من الحمالين هم الذين قاموا بذلك العمل لايقاع والدي في هذا الفخ. ولكن نحن بقينا معتمدين على العدل البريطاني ومتأملين بأن الحق سيظهر.. وبعد أسبوعين من هذا الحادث أخبروا والدي بأن يذهب إلى العمارة ويسكن هناك حراً وأنهم سيرفعون الحجز عن أمواله كما عملوا ذلك مع شوعه بنجور وشماش. حمدنا الله على ذلك العدل وقبلنا.

«خان دلّه»

كنا ننتظر تطبيق القرار الجديد حول ابعاد والدي إلى العمارة راضين بالرغم مما هنالك من غبن وإجحاف لأنه لم يكن مذنباً، وفي تلك الايام حدث ما ليس في الحسبان فقد قررت حكومة الاحتلال أخذ دارنا في بغداد لجعله محلاً لمطبعة الحكومة وهذه أتت صدمة جديدة علاوةً على ما أصابنا، ولكن ما العمل؟ هذه كانت تدابير عسكرية واحتلت الحكومة دُوْراً كثيرة غير دورنا ولكن كان الاختيار يقع على البيوت الكبيرة التي لم يشتهر أهلها بالصداقة الإنكليزية ونحن بعدما حصل اصبحنا طبعاً من المغضوب عليهم واعتبرنا من اصدقاء الاتحاديين وطلب منا مدير المطبعة أن نترك قسماً من الاثاث والفرش والسجاد ليجعل الدار اوفيساً (مكتباً) له فلم نوافق له

لأن المرارة كانت تؤثر على شعورنا ولم نزل ننظر إلى الإنكليز كأنهم يمثلون الحق والعدل في هذه الدنيا..

اخلينا لهم دار الحرم وصرنا نماطل باخلاء الديوانخانة لأن في السرداب في أحد مجاري الهواء (البادگير) كان والدي وصيون وأنا قد اخفينا ثلاثة آلاف ليرة ذهب منذ زمن الاتراك. رمينا ثلاثة اكياس من السطح في فتحة البادگير فسقطت عند قاعدة المجرى بالسرداب وعليه فإن اخراج الليرات كان يستوجب فتح ثقب في قاعدة الحائط في السرداب لسحب الاكياس.. ولكن السرداب كان مملوءاً بالبضائع وأكثرها السكر وقد اتخذناه مخزناً تخلصاً من التكاليف الحربية التركية. فلما حجز المستر صون المخازن حجز السرداب أيضاً ووضع الاختام الحمر على بابه فكان من المستحيل بالطبع اخراج الدراهم.. على أن المستر صون بدأ بوضع يده على اموالنا ولربما بإيعاز من مدير المطبعة الذي كان يرغب في استلام الدار.

نقلوا قبل كل شيء السكر والبضائع الموجودة في السرداب واخذوها للجيش البريطاني.. فلما خلا السرداب ذهبنا أنا وعبد الوهاب وسيد رشيد مساءً ونبشنا بعض الحجارة من قاعدة الحائط واخرجنا الدراهم.. وكان احد الاكياس ممزقاً من الرطوبة والليرات مبعثرة في التراب فصرنا نمد يدنا في «البادگير» ونخرج الليرات وكانت عملية شاقة ولكن اكملنا كل شيء وحملت قسماً من الدراهم وحمل السيد رشيد القسم الآخر وذهبنا إلى الاعظمية وفي اليوم الثاني دفناها في حديقة دارنا.

ولما نزلنا إلى بغداد رأينا مدير المطبعة مستعداً لاستلام الدار ولكنه هو ومساعديه عندما نزلوا إلى السرداب لاحظوا الثقب في الحائط، ورأوا الأحجار مقلوعة كما انهم وجدوا اثار التراب على البلاط فقد كان الوقت ضيقاً ولم نتمكن من اعادة الجدار كما كان ولذا كنت متفقاً مع عبد الوهاب والسيد رشيد أنه إذا حصل سؤال أو استفسار يجب أن نقول أن عبد الوهاب صعد إلى السطح ليصلي ووضع مفتاح الدار على حافة البادگير في السطح فسقط واضطررنا لإخراجه بثقب الحائط في السرداب وأننا قمنا بهذه العملية نحن الثلاثة..

فلما سألنا مدير المطبعة عن الثقب اجبناه كما تقرر ولكنه لم يقتنع ورأى من واجبه اخبار المستر صون ولم يفوّت هذا الرجل فرصة كهذه فتمسك بها واخبر البوليس..

وبينما نحن في البيت إذ بمعاون مدير الشرطة گريكسن ومعه مدير مركز العباخانه «خداداد» الفارسي وعدد من افراد الشرطة المسلحين يحضرون ويبدأون بالتحقيق فبينت لهم الأمر وايدني عبد الوهاب ثم صعدنا كلنا فوق السطح واطلعناهم على فتحة البادگير... ولكن گريكسن كان لديه تعليمات فأخذنا كلنا، أي جميع الرجال الموجودين في البيت أكان لهم دخل أو علم بالموضوع أو لم يكن، وذهب بنا إلى «خان دلّه» وهناك وضعوا كلاً منا في غرفة صغيرة لوحده، واغلقوا الابواب علينا ووضعوا حراساً ومنعونا من الكلام مع بعضنا ومن الاتصال مع الخارج.. كنا سبعة اشخاص: ابراهيم وأنا، عبد الوهاب، الكاتب في المفازة منشي خادمان هنديان ومساءً اتوا بالسيد رشيد.. ومن حسن الحظ أن محمداً لم يكن في البيت اثناء توقيفنا فنجا.

اتخذ الاتراك قبيل انسحابهم من «خان دلّه» مستشفى ولما احتل الإنكليز بغداد جعلوه

مركزاً للشرطة ومحلاً للتوقيف. وكنا نحن أول الموقوفين فيه فالغرف التي سجنا بها هي في الطابق الأول أي في الحوش وفيها شباك واحد صغير ولم نجد فيها سوى تخت خشبي مجرد من كل شيء من بقايا المستشفى التركي.

مساءً اتوا لنا بفراش من البيت. كما انهم اتونا بالطعام. المعاملة كانت قاسية واشد بكثير مما لاقاه والدي في مركز العباخانة، فنحن كنا في سجن انفرادي ولا يسمح لنا بالخروج الا مرتين لأجل قضاء الحاجة وعليه كنا إذا تضايقنا نبول في الغرفة نفسها وقد مرض أحد الخدم الهنود فاضطر على دفع حاجته الكبيرة في غرفته.. والشرطة المسلحة كانت تحيط بنا ولا يسمح لنا ان نتكلم.. وفي المساء نبقى بدون نور.. ومن حسن الحظ ان الشرطة كانوا كلهم اكراد فيويليه لا يفهمون العربية وهذا ما ساعدنا على التفاهم فيما بيننا بواسطة الغناء. كنت اخشى في أن ««يخربط» السيد رشيد في كلامه لأنه لم يكن معنا اثناء التوقيف بل كان في بستان الشرجية فلما اتوا به مساءً وجدته اصفر اللون مرتبكاً ففتشوه واخذوا منه السكاير ـ لأن التدخين أيضاً كان ممنوعاً ـ ووضعوه في غرفة بعيدة عن غرفتي وكان من الضروري أن اخبره بما حصل وبما قلنا اثناء الاستجواب حتى إذا سأله الكابتن كريكسون في اليوم الثاني يقول نفس الشيء.. ولذا وقفت امام الشباك وصرت اغني بشكل يسمعني جاري عبد الوهاب وكان مضمون الغناء ان يستعمل عبد الوهاب نفس الطريقة لافهام سيد رشيد بما يلزم.. وبعد ان كررت «المقام» مرتين أو ثلاث.. سمعت عبد الوهاب يتنحنح.. ثم أخذ يغني بصوت لطيف «عتابا» مخاطباً السيد رشيد الذي كان في الغرفة المجاورة إلى غرفة الكاتب منشي. فقد كان بينهما غرفة واحدة ولذا كان صوته عالياً فاعترض الشرطي الحارس فصرخ به عبد الوهاب محتجاً واستمر «بالعتابا» وكان مطلعها: «يا سيد رشيد.. يابو شّنة.. نحن تمّ استجوابنا وقلنا لهم حسبما اتفقنا.. انت يكون استجوابك غداً: فقل لهم.. ان عبد الوهاب وضع المفتاح على حافة البادكير فسقط.. واضطررنا على حفر الحائط في السرداب لإخراجه.. وكنا نحن ثلاثة.. موسى وأنا وأنت.. لا تخربط بالكلام.. ولا تخف.. يا سيد دنبكّ.. آخ.. يا ليلي!. ياليلي!».

وهكذا بقي عبد الوهاب يغني بصوته العذب في ظلمات الليل في خان دلة.. حتى سمع السيد رشيد وفهم المقصود.. ولكن بالرغم من كل ذلك جبن سيد رشيد وقال: أن موسى وعبد الوهاب نزلا إلى السرداب وأنا ذهبت لأشتري سكاير فلما عدت اخبراني بأنهما أخرجا المفتاح.. ولربما كان هذا التباين في الافادة السبب الأول في اطالة توقيفنا لمدّة عشرة ايام. لأن قصة السكاير هذه لم تكن في الحديث ولكن «ابو شنة» خاف وخربط غفر الله ذنوبه.

قضينا عشرة ايام تعيسة في خان دلّة وانا في السابعة عشرة من عمري وابراهيم في الخامسة عشرة ولم يكن لنا ذنب، ولم يكن هنالك ما يستوجب هذه الشدة والصرامة.. نعم ثقبنا الحائط واخرجنا ثلاثة الآف ليرة وهي مالنا وحلالنا.. فما كان علينا ان نعمل بعد ان حجز الإنكليز اموالنا واملاكنا واخذوا يتصرفون بها كيفما يشاؤون؟ فالدراهم المدفونة خوفاً من الاتراك كانت كل ما تبقى لدينا، فمن حقنا أن نحتفظ بها وان ننقذ بها انفسنا من ذلك الظلم وتلك التصرفات التي لا تأتلف لا مع العدل ولا مع الإنسانية ولا مع المنطق..

هب أننا كنا اصدقاء الاتراك.. أفي ذلك جرم يستوجب هذه التدابير؟ ثم لو قلنا لهم الحقيقة

أيضاً لما صدّقونا ولكانوا أيضاً يصــادرون الدراهم ويطلبــون الباقي منهــا.. فخوفنــا من الاتراك انقذ الدراهم من الإنكليز إذ بقيت مدفونة في محلاتها ولكننا تعذبنــا في نقلها من محــل لأخر كمــا سيأتي بيانه.

في اليوم العاشر اتى الكابتن گريكسن واخلى سبيلنا مقابل كفالة شخصية بمايــة روبية لكــل منا. عشرة ايام سجن منفرد، ووحدة شديدة ثم كفــالة شخصيــة بمايــة روبية! أهــذا نموذج من الحكم البريطاني؟

تركنا خان دله وذهبنا إلى العباخانة لمقابلة والدي ففرح باطلاق سراحنا وفهمنا من بعــده ان للنائب عبد الوهاب افندي يعود الفضل الاكبر بهذه القضية إذ أنــه من تلقاء نفســه ذهب وقابــل السير بيرسي كــوكس وافهمه بــالاستياء الــذي حصل عنــد الناس من تــوقيف اولاد صغار بــذلك الشكل في خان دله.

لم يتــأخر المستــر صــون في استغــلال قضيــة الثقب في السرداب بــل أخــذ هــو وكــوركيس وعبد القادر وبعض اليهود من اعداء والدي يبالغون في الامور ويعظمــونها وجــرى كلام وشــاعت شائعات حول وثائق خطيرة سرية وقنابل واسلحة وكثير من تلك السخافات وكانت النتيجــة أن قرر القائد العام والسلطة البريطانية المحتلة إبعاد والدي للهند اسيراً ومصادرة جميع امواله ووضــع اليد على املاكه وتم للمتآمرين ما كانوا عازمــين عليه في بــادىء الأمر من اســاءة ونهب وسلب.. باسم الصداقة التركية والعداوة لبريطانيا وغيرها من الاباطيل.

«فرهود»

كنا حانقين وناقمين على تصرفات الاتراك ومظالمهم فأرانا الله على يد الاحتلال الإنكليزي مــا يجعــل «ظلم» الاتراك بــرداً وسلامــاً. فعلى اثــر حادث الثقب في السرداب تبــدل موضــوع والدي المتعلق بارساله إلى العمارة، وبقي موقوفاً حتى نهاية أيار/ مايو ثم حولوه من مركز العباخانة إلى البوليس البريطاني العسكري في السراي ومنها سفروه إلى البصرة حيث بقي في معتقل الاسرى ما يقارب الشهر ومنها ارسلوه مع الجنود الاسرى إلى سمربور في الهند. وأتانا أول كتاب منه مؤرخاً في ١٥ تموز/ يوليو ١٩١٧ وهكذا اصبح والدي اسير حرب لــدى «اصدقــائه» الــذين كان دائمــاً يثني ويمدح بهم والذين كان يتمنى مجيئهم بفارغ الصبر.

ولما خلا الجو للمستر صون وحاشيته وعلى رأسهم يوسف كوركيس ابتدأ تصفية الحساب أو الفرهود بابشع شكله.. أخذ جيش الاحتلال ما يحتاجه من سكّــر وحديــد وغيره ثم صــار مفتش تجارة العدو يبيع البضائع بالمــزاد وكان الــدلال الرسمي الــذي يأخــذ عشرة بالمــاية حق اتعــابه يوسف كوركيس نفسه.. واستخدم مفتش تجارة العدو احد كتّابنا خضوري بلبــول ليقوم بمســك الحساب العائد لنا حتى لا يقال بأنه حدث ســوء تصرف في الامر.. ولكن السرقــة وسوء التصرف والنهب كانت على قدم وساق.

ومن الاساليب التي استعملها يوسف كوركيس أنه كان يذهب إلى احد المخازن فيبيع بالمزاد العلني رسمياً مثلاً ٣٠٠ كيس سكّر فيأتي الحمــالون وهم رجــال كوركيس وعــلى رأسهم الحمال باشي «بشگة» فينقلون الثلاثماية كيس وفوق ذلك ثلاثمايــة اخرى فيتقــاسم يوسف كــوركيس مع

المشتري وإذا حصل نقص بالاخير فمن الطبيعي ان «البضائع كانت مهربة أو مخفية من قبل محمود شابندر».

كانت هذه طريقة شيطانية أبدع في تطبيقها المستر صون وزملاؤه. ولم يكتف مفتش تجارة العدو بتصريف الأموال التجارية بذلك الشكل بل وضع يده على جميع الاثاث وكل شي موجود في دارنا في بغداد. كنا نرى الحمالين ينقلون اثاث بيتنا، ملابسنا، كتبنا وقلوبنا تنفطر ألماً لذلك المنظر. فلم يتركوا في البيت ولا ذرة واحدة.. نقلوا حتى الطعام كالحنطة والارز والسمن المدخر للسنة واخذوا حتى الاحذية القديمة العائدة للخدّامات..

وكانت هذه الاشياء تسلم بيد الحمالين فيذهب واحد منهم إلى مكان مفتش تجارة العدو وعشرة يذهبون بما يحملون إلى دار يوسف كوركيس ودار رئيسهم «بشكة» أو إلى دورهم.. كنا نرى كل هذا وكنت اكتب احتجاجاً إلى المفتش وإلى الحاكم العام.. ولكن بدون أقل فائدة.. وكان الفرهود مفضوحاً تماماً. فصرنا نرى الحمالين عند مفتش تجارة العدو يلبسون ملابس والدي وجدي القديمة وهي «زنبات حرير» وسراويل وغيرها من الملابس القديمة التي كنا محتفظين بها - وفي دائرة المفتش المحترم كل شيء كان يعود لنا وقد وصلت المهازل بتلك الادارة العادلة أنني اشتريت يوماً من أحد باعة الشربت الاكراد رسماً يعود لنا كان معلقاً في دكانه!

وعندما «فرهدوا» ما في دارنا اخذوا بالطبع المخشلات العائدة إلى العائلة ومن ضمنها مخشلات والدتي وعماتي.. فاستدعى عماتي بذلك وكتبنا إلى الحكومة البريطانية عريضة وبعد مدّة طلب المستر صون من عماتي أن يحضرن لاستلام المخشلات العائدة لهن. فذهبت آنا وقابلت المستر صون بالنيابة عنهن.. فاستقبلني واقفاً باسماً ثم اتى بعلبة تنك وفيها كم خاتم ذهب وحلقات ذهب وفضة.. وقال هذه هي المخشلات.. فاستغربت وقلت له ان هنالك حلى ومخشلات كثيرة اخذت مع الاثاث فاجابني بصوت ناشف ان «هذا ما وجدناه! ليس عندي سوى هذا» وعليه فانني رفضت أن استلم ما اراد أن يسترجعه لنا المفتش وانصرفت متألماً.

هذا نموذج صغير لما حدث. فالمخشلات الثمينة سرقت وتقسمت بين المتآمرين ولا شك كانت لكوركيس حصة الاسد وهكذا كان الفرهود شاملاً في الاموال التجارية وفي الاثاث البيتي وفي المخشلات العائدة إلى الحريم وفي كل شيء وكان المفتش المستر صون بموافقة حكومة الاحتلال يدفع من مالنا عشرة في المائة إلى كوركيس كأجور لخدماته.

ولم يكتف المستر صون بكل ذلك بل حاول بيع املاك والدي ولكن حسبما سمعنا بوقته فإن المستشار العدلي إذ ذاك المستر بونهام كارتر «Sir Bonham Carter» لم يوافق على ذلك لمخالفته حقوق الدول ولذا اكتفى مفتش تجارة العدو بوضع يده على الاملاك وقبض اجاراتها. وسعى المستر صون للحصول على الدراهم الليرات «التي بلغه انها محفوظة وأخذ يفتش ويحقق وقد اعلن بأنه يدفع مكافأة عشرين بالماية إلى كل من يدله للحصول عليها.. وقد وصل الظلم إلى حد أن القصر الذي كنا نسكن فيه بالاعظمية وضع قيد الايجار. وسمعنا يوماً دلالاً يدور في طرق الاعظمية يعلن: قصر الشابندر معروض للايجار. وبعد ذلك بمدة اتى احد اليهود الراغبين في الايجار وطاف البيت ومعه موظف من بلدية الاعظمية. فأخذنا ننظر إلى اليهودي وإلى الموظف

ونحن ساكتين وقلوبنا تقطر دماً. وفي مثل تلك الساعات كنت اقول في نفسي ان الله عز وجل رحم والدتي فأخذها إليه كي لا ترى ما حلّ بنا.

وامام هذه المظالم كتبت العرائض والاحتجاجات للحاكم العسكري والحاكم السياسي والقائد العام ومفتش تجارة العدو وقابلت هذا وذاك ولكن كل ذلك كان هواء في هواء.. وقد تم ما اراد المستر صون وزملاؤه بالرغم من الحق والعدل وكل اعتبار. والاغرب من كل ذلك أن الحكومة لم تستجوب والدي سوى ما سأله المِستر صون في باديء الأمر عن الشركة الإسلامية ولم يوجه إليه أحد تهمة ما ولم يحاكم ولم يسمح له الدفاع عن نفسه انما جرى كل ما جرى لمجرد ارادة المستر صون وتأييد السلطة بالطبع لمقترحاته.

بعد الزوبعة

كانت زوبعة هائلة أصابتنا على حين غرة وفي ساعة كنا نتمتع خلالها بألذّ الأحلام على اثر وصول «المنقذين». كنت أنا كبير الرجال في العائلة ولذا كنت اقوم بالمقابلات والمخابرات والاحتجاجات وكنت لذلك أذوق أكثر من غيري انواع المرارات والاهانات من هذا الوضع الجديد الذي كنا من ضحاياه الابرياء..

بعد تسفير والدي وبيع اموالنا ووضع اليد على املاكنا نقل المستر صون إلى منصب آخر واتى «الكابتن ويلسون» إلى دائرة مفتش تجارة العدو وكان هذا بالنسبة إلى سلفه كالملاك بالنسبة إلى الشيطان الرجيم.

بعد مراجعات جديدة طويلة وعريضة وافق المفتش الجديد على إعادة ما تبقى من الاثاث والاغراض الشخصية كالملابس والكتب وكان ما استرجعناه لا يتجاوز ربع ما كانوا قد استلموه على ايام المستر صون. اما الباقي فلم يكن لأحد علم به لأنه ذهب إلى بيوت كوركيس والحمالين.. فأخذنا ما حصلنا عليه واكتفينا بالاحتجاج. وقد وافقت حكومة الاحتلال الموقرة ترك القصر في الاعظمية لأجل السكن كما تفضلت علينا بدفع (٧٠٠) روبية بالشهر من مالنا لأجل تأمين مصاريف معيشتنا وكان هذا المبلغ لا يكفي لدفع أجور الخدم. وصارت حكومة جلالة امبراطور الهند تدفع إلى والدي (٧) سبع روبيات شهرياً بصفته اسير حرب. كل هذا كان يجري باسم العدالة البريطانية التي ملأت اذاننا من الاستماع لتمجيدها منذ ايام صغرنا. فاضطررنا إلى الاكتفاء بخادم واحد وهو اليهودي خضوري وابقيناه لما اصابه من جراء سرقة الدراهم امام الاتراك وبعنا الخيل ولم احتفظ إلّا بحصاني الذي كنت احبه كثيراً. واخذنا نعيش عيشة بسيطة في الاعظمية وصرنا ندرس العربية على الحاج حمدي افندي واصبحت صداقاتنا محدودة: أولاد الجادرجي، كامل وسلمان، ثم السيد مصطفى وناجي الكليدار وعلي ظريف واحمد افندي القايماقجي عندما كان جارنا في الاعظمية. وتقلص عدد اصدقاء والدي وصرنا لا نرى منهم احداً لا سيما اولئك الذين كانوا يتظاهرون بالصداقة والوفاء. وفي الحقيقة علمتنا هذه المصيبة قيمة الصداقات.. فالاوفياء كانوا طاهر جلبي عم محمد، والاسطا صالح الخياط وعبد الوهاب وسيد رشيد. وفي ايام المحنة تلك اظهرت لنا الحاجة ماهية بنت عم والدي كثيراً من العطف.. فكانت تشعر بشعورنا وتتألم لألمنا وكانت دائماً تشجعنا وتسلينا. كنت انزل إلى بغداد مرتين أو ثلاث

مرات بالاسبوع للمراجعات وقضاء بعض الاشغال فكان دكان الاسطا صالح الخياط مكتبي هناك اقابل من اقابل وكان بيت عمتي ماهية محل استراحتي فهناك اتغدى وانام ايام الصيف وكنت ارى المحبة والمودة والمؤآزرة التي اجدها عند الاسطا صالح وعند الحاجية ماهية وكانت صادرة من القلب. إن ما لقيته منهما ايام المحنة جعلني ممتناً مدى الحياة. فالآن وقد مضى على وفاتهما عدة سنوات فإني اذكرهما دائماً بالخير واترحم لهما. وكان الحاج علي افندي الآلوسي من الاصدقاء الاوفياء أيضاً وكذلك عبد الرحمن افندي جميل وشكري افندي الآلوسي، وغفر الله ذنوب الباقين.

بعد أن اخرجتنا الحكومة من بيتنا في بغداد ووضعت يدها على جميع املاكنا بقينا بدون مأوى في بغداد ولم يكن لنا محل نجتمع فيه لقضاء اشغالنا وللاستراحة ولذا طلبت من مفتش تجارة العدو المستر صون بأن يترك لنا محلاً من بيوتنا الفارغة وطلبت إلى عبد القادر باشا الخظيري ان يساعدني في هذا الأمر. وبعد ايام من مراجعتي طلبني عبد القادر باشا فذهبت لمقابلته في قهوة الباشا فسألني عن الكيف والخاطر ثم اخبرني بأنه تكلم مع المستر صون واقنعه بالموافقة على ترك أحد الدور لنا في بغداد ثم سألني أي محل نريده فاجبته ان لنا داراً صغيرة فارغة قرب الخان وانها تكون موافقة لقربها من السوق ودائرة المفتش. وفي اليوم التالي عندما ذهبت لأستلم الدار وجدت جماعة من الحمالين تحت قيادة «بشگة» بأيديهم الفؤوس والمعاول يحفرون ويقلعون ويهدمون وقد قضوا اليوم كله بذلك العمل.. يظهر أن الباشا اخبر المستر صون بطلبي فاعتقدوا ان الليرات الذهب أو قسماً منها مدفون في تلك الدار فارادوا العثور عليها. فلما استلمت الدار وجدت ارض السرداب كلها حُفر وبعض الالواح مقلوعة من السقوف وآثار التخريب هنا وهناك في كل محل يثير الشبهات.. وهكذا كان حرص المستر صون وهكذا كان شرف عبد القادر الخضيري رئيس اشراف بغداد وأحد عظمائها بنظر الإنكليز.

عندما سافر والدي كانت الدراهم الذهب كلها محفوظة في اماكن مختلفة عندنا ما عدا (٨٠٠٠) ليرة مدفونة في خرابة قبال الخان كنا نستعملها مخزناً للصوف والحديد.. من ذلك المبلغ (٣٠٠٠) موضوعة في حفرة في أحد الحيطان المتهدمة وهذه لا يعرف بها أحد سوى والدي وصيون وأنا. وكنا قد وضعناها هناك قبيل الاحتلال. اما الخمسة آلاف الاخرى وهي من اصل المبلغ الذي كان مدفوناً في الخان، وذكرت قصة السرقة. حوله، فكانت مدفونة في سرداب في تلك الخرابة وكان السرداب مملوءاً بفردات الصوف عندما وضع الإنكليز يدهم على اموالنا. وكان يعلم بهذا المبلغ عدا والدي وصيون كل من يفطوب وخضوري بلبول وهما من كتّابنا في الخان.

وكان أمر اخراج تلك الدراهم من الأمور الصعبة لأن الخرابة كانت محجوزة ومغلقة ثم انها واقعة امام الخان وفي اطرافها مخازن وحوانيت وكان مجرد اقترابنا من ذلك المحل يثير الشبهة حيث كان المستر صون وكوركيس وزبانيتهما يتعقبون كل حركاتنا، وكان من الضروري أن ننتظر وكان الانتظار عذاباً كل تلك المدّة. فقد كنت جالساً يوماً حسب عادتي في دكان الاسطا صالح الخياط فأتى عبد الوهاب واخبرني أن الحمالين اخذوا ينقلون الصوف والحديد من الخرابة وأنه بعد ان اكملوا ذلك اتى كوركيس وبشگة وعدد من الحمالين وصاروا يحفرون ويغرسون قضباناً من الحديد في ارضية الغرف والسراديب فتظاهرت بعدم الاهتمام وقلت: دعهم يتعبون لأنه ليس

لنا هنالك شيء.. قلت ذلك لأن عبد الوهاب لا يعلم بوجود الدراهم وإن كان يشك ... نعم تظاهرت بعدم الاهتمام ولكن كنت قلقاً ومضطرباً وعدت إلى البيت في الاعظمية وانا متألم كيف لا وهذه الدراهم هي كل ما تبقى لنا من اموالنا وثروتنا الكبيرة؟

بقي الحمالون يفتشون في الخرابة لمدّة يومين أو ثلاثة ايام دون أن يعثروا على شي.. فالدراهم بقيت في الخرابة ولكن المفتاح عند المفتش.. ومن يعلم مصير الـ ٥٠٠٠ ليرة بعد هذا الفرهود العام. ومرت اسابيع واشهر وانا اترقب فرصة وافكر في الامر.. حتى نقل المستر صون وهدأت نوعاً ما العاصفة وعين الكابتن ويلسون مكانه.

قابلت المستر ويلسون عدة مرات فوجدته رجلاً طيباً وأظهر شيئاً من التساهل في قضية اعادة الاثاث والكتب واعطائنا راتباً وغيره. ذهبت إليه يوماً وقلت له أنني بحاجة إلى دراهم لأن المعاش لا يكفينا فقال أنه لا يستطيع ان يعمل شيئاً بهذا الخصوص قبل أخذ موافقة الحاكم العام.. فبينت له إذاً أن عندي حصاناً ولأخي أيضاً حصان وهذه خيل نعتز بها ولكن الوضع يجبرنا أن نبيعها تخلصاً من مصاريفها واستفادةً من اثمانها ولكن بما أننا في الاعظمية فيصعب علينا بيعها لذلك رجوته أن يساعدنا في هذا الموضوع. فتعجب وقال كيف تكون هذه المساعدة. قلت له يجب ان نضع الخيل في بغداد ولكن بما أن الحكومة أخذت الإسطبل العائد لنا فليس عندنا محل لنربط به خيلنا حتى نتمكن من بيعها ولذا رجوته ان يسمح لي باستعمال الخرابة الفارغة لذلك الغرض لأنه لم يبق فيها أموال وليست مؤجرة.. قال لا بأس من ذلك ونادى الكاتب «نصوري» وأمره بأن يسلم لي مفتاح الخرابة. فأخذته وقلبي يخفق سروراً وشكرت المستر ويلسون وذهبت رأساً إلى الاعظمية واخبرت ابراهيم ومحمد بالموضوع وقررنا أن ننقل الدراهم في اليوم التالي بدون تأخير...

واتى اليوم الثاني.. وإذا بخضوري بلبول يحضر إلى الاعظمية عندنا مع الفجر ويطلب مقابلتي فخرجت إلى الديوانخانة لأقابله وشعرت بأن هناك أمر هام وإلّا لما اتى خضوري مبكراً هكذا.. وجدته اصفر اللون مرتبكاً ولما سألته خيراً إن شاء الله اجابني.. «اتيت لاكلمك بشأن الدراهم.. الخمسة الاف ليرة المدفونة بالخرابة.. نصوري اخبرني بأنه يعلم ان هنالك ليرات وأنك اخذت مفتاح الخرابة من المستر ويلسون لاخراجها.. وأنه يقول لازم يدفعوا لي ٢٥٠ ليرة وإلّا انا اخبر المفتش...». هكذا قال خضوري.. وعلمت جيداً قصده.. عندما اخذت المفتاح لم يكن خضوري حاضراً فلما سمع بعده اسرع واتاني ليساومني..إما ٢٥٠ ليرة نقداً وإما يخبر المفتش ويأخذ المكافأة الموعودة لمن يدلهم على دراهم الشابندر.. طلبت من خضوري ان ينتظر حتى نخرج الدراهم قال: «لا نصوري يريد الدراهم حالاً وإذا لم ندفع له حتى الظهر فإنه سيخبر المفتش اليوم».

هذا تهديد صريح من قبل خضوري.. كاتبنا المؤتمن لعدة سنين مضت.. عبثاً حاولت اقناعه بأن ينتظر أو يقلل المبلغ.. كان خضوري مصرّاً وعازماً على أخذ المبلغ.. أردت ان اطرده واضربه واسبه واشتمه على هذه الخيانة وقلة الوفاء. ولكني فكرت في الأمر. فنحن في محنة فيجب أن نتحمل ونصبر ولذا فضلت اهون الشرين ودفعت إلى كاتبنا المؤتمن الذي كان قائماً بمسك حسابنا وتدبير امورنا في دائرة مفتش تجارة العدو ما اراد.. فأخذ الليرات وعدّها وانصرف.. وبعد

انصرافه نزلنا إلى بغداد ابراهيم ومحمد وأنا وركب سيد رشيد حماره وتوجهنا إلى الخرابة.. ربطنا الخيل وحمار سيد رشيد.. ثم اخبرت سيد رشيد بالامر وبما يجب عمله.. فاصفر وجهه ولكن ما العمل؟ ذهبت إلى الحفرة في الحائط رفعت حجراً فوجدت الثلاثة اكياس على وضعها.. وضع السيد رشيد اثنين منها في عبه واخذ الكيس الثالث ابراهيم وخرجا متوجهين إلى بيت عمتي ماهية.. ورتبنا بأن ابراهيم يمشي امام السيد رشيد وعندما يصل إلى بيت عمتي ماهية يأخذ منه الكيسين ويحفظهما هناك وينتظر ثم يرجع السيد رشيد إلينا للنقلة الثانية..

بقينا أنا ومحمد في الخرابة.. انا لم أكن حاضراً عندما دفنوا الـ ٥٠٠٠ ليرة ولكن والدي وصيون وينطوب عرفوني المحل بالوصف.. تقريباً في وسط السرداب مقابل الشباك.. فصار محمد يحفر ويفتش وأنا اراقب الباب فيما إذا كنا في خطر.. وعنما يتعب محمد احفر انا وهو يراقب.. فوق التعب والتهيج كنا خائفين من ان يرانا أحد الحمالين وعلمنا في تلك الساعات كيف يشعر السارق.. نعم كانت الدراهم مالنا وحلالنا.. ولكن وضعنا كان أشد من وضع السارق المغامر.. وكانت مغامرة خطيرة. وبعد مدّة وجدنا المحل وتركناه على حاله وخرجنا نتمشى في حوش الخراب وننتظر عودة السيد رشيد، وكانت الدقائق اطول من الساعات، ثم سمعنا طرق الباب، فأخذت قلوبنا تخفق فزعاً، ولكن رأيت من شقوق الباب وجه السيد رشيد ففتحت الباب ودخل السيد رشيد واخبرنا بأن كل شيء تم بسلام ولكن وجدناه «يدردم» على فخري افندي الجميل وسبب ذلك انه لاقاه في السوق وصار يسأله عنا وعن الاخبار والسيد وهو يحمل كيسين ثقيلين في عبه وخوفاً اثقل منهما في قلبه كان لا يعرف بماذا يجيب وعلمنا بعد ذلك انه عندما وصل إلى بيت عمتي ماهية كاد يغمى عليه.. فعملت له الحاجية شاياً وسقته استكانتين ليسترجع قواه.. انا ومحمد صرنا نضحك عليه من باب التشجيع، فأخذناه ووضعنا له في عبه ثلاثة اكياس هذه المرّة ودفعناه نحو الباب، وقبل ان يظهر إلى الطريق انقطع حزامه من الثقل وسقط أحد الاكياس وتمزق وتبعثرت الليرات والحمد لله أن ذلك حصل قبل ان نفتح الباب.. فجمعنا الليرات وشديناها في محرمته واصلحنا حزامه بينما المسكين يكفر ويتمرد والحق معه وفي الاخير شجعناه فتوكل على الله وخرج إلى الطريق.. بعد ذلك خرج محمد يحمل كيساً وبعده بخمس دقائق خرجت أنا حاملاً الكيس الأخر وأغلقت الباب ورائي وتوجهت إلى بيت عمتي ماهية.. هناك وجدت الجميع سالمين وبعد ان استرحنا وشربنا الشاي واستعاد السيد رشيد قواه رجعنا إلى الخرابة واخذنا خيلنا وحمار السيد وعدنا إلى بيت الحاجية لننقل ما نتمكن نقله من الدراهم معنا إلى الاعظمية وعندما تم ذلك في اليوم الثاني ـ اخذنا الاكياس كلها إلى حديقة السيد رشيد في الاعظمية. فحفر السيد حفره صغيرة تحت احدى اشجار النخيل ووضعنا الاكياس في «سندانه» ودفناها. وبقيت هذه الـ ٨٠٠٠ ليرة ذهب مدفونة طوال ايام الحرب عند السيد رشيد ولم نخرجها إلّا بعد عودة والدي من الاسر وهذا الفرق بين وفاء السيد رشيد ووفاء خضوري بلبول ولكن السيد رشيد لم يزل عندنا كما كان موظفاً صغيراً فقيراً بينما أصبح خضوري من أكبر تجار بغداد.. إن أمر الدنيا أمر غريب.

كتبت إلى والدي في سمربور أخبره بأننا حصلنا على مساعدة من الكابتن ويلسون على استعمال الخرابة كاسطبل بصورة موقته وأن الحصان الاصيل بخير واتاني جواب والدي من

سمربور بتاريخ ٢ نيسان/ ابريل ١٩١٨يقول: «ما ذكرتموه بخصوص الكرخانة التي اعطاها لكم المفتش لأجل خيلكم جزاه الله خيراً وإن شاء الله وجدتموها كما تحبون وربطتم بها الخيل وعجباً حصان موسى وخيل العربة والبقر هل بعتموهم انتم ام المفتش وبأي صورة صرتم تروحون وتجون إلى الاعظمية...» وفي كتاب من بعده مؤرخ في ١٣ ايار/ مايو ١٩١٨ يقول: «ما شرحتموه بخصوص الخيل وبيعها عسى خيراً ومحافظتكم على الحصان الاصيل بارك الله بهمتكم. صار معلوم المفتش اعطاكم قول سيعطيكم معاش شهري ٥٠٠ روبية. اما من طرفنا فالحكومة تدفع لنا تعينات فقط وقيمتها الاسمية ٧٠ روبية بالشهر لكننا في الواقع نصرف شهريا ٥٠٠ روبية أو ما يزيد وصرنا نتداين من بعض اصحابنا...».

فهمت من كتاب والدي أن استراحته كانت مؤمنة وأنه يصل له ما يحتاج من الدراهم من وكلائنا في البصرة والعمارة السيد أحمد السامرلي والسيد علي السامرلي. وكان له اصدقاء وجماعة كبيرة في المعتقل حيث اصبح هو الرئيس بينهم ومن حسن الصدف أنه كان بين الاسرى يعقوب اخ صيون ومجيد الفلاح، ووحيد وطباخ كان عندنا في السابق ففتح له بيتاً وجمع هؤلاء ليخدموه فكان مرتاحاً من هذه الناحية.

لم تمض سنة على ما قام به يوسف كوركيس من نهب وسلب إلّا وجازاه الله بسوء عمله. فبعد ذهاب المستر صون كان ويلسون مفتشاً لتجارة العدو كما مرّ ذكره واصبح الكولونيل السر آرنولد ويلسون وكيلاً للحاكم العام وكان هذا شديداً وعادلاً في شدته فقام بكثير من الاصلاحات في تطهير الدوائر بقدر الامكان من الفاسدين ووضع حداً للفوضى التي كانت تسود ايام السير برسي كوكس.. ويظهر انه قد بلغه سوء تصرفات يوسف كوركيس على ايام المستر صون. فأخذت الشرطة تحقق بالامر. وبما أننا سبق لنا أن قدمنا عدة احتجاجات حول سوء التصرف بأموالنا دعيت يوماً إلى دائرة الشرطة في خان دله وتحادثت مع الكابتن ويلكنسن (Wilkinson) فأخذني هذا معه وذهبنا مع عدد من افراد البوليس مع القوميسير دنون أفندي إلى دار يوسف كوركيس وصرنا نفتش على ما يعود لنا من الاموال المسروقة وفعلاً وجدنا عندهم «طقم كنبات» من صالون والدي واشياء اخرى فأمر الكابتن بتوقيف يوسف كوركيس ثم خرجنا ووراءنا الشرطة محيطة بيوسف كوركيس واخذناه إلى خان دله فوضعوه في إحدى الغرف التي كنا فيها قبل سنة وهكذا كانت العدالة الإلٓهية.. وفي اليوم التالي ذهبنا إلى بستان كوركيس في الكاووريه ولكننا لم نجد شيئاً وبالطبع كان ابن كوركيس وعائلته قد اتخذوا التدابير لاخفاء ما لديهم من المسروقات.. وفتشت دور الحمالين الاكراد واوقف «بشكة» وغيره ممن وجدوا لديهم اموالاً منهوبة.. وحوكم كوركيس وثبتت جريمته وحكم عليه لمدة سنة أو سنتين بالاشغال الشاقة.

كنت يوماً راكباً حصاني في طريقي من الاعظمية إلى بغداد فصادفت جماعة من المساجين يشتغلون في تسوية الطريق وكان بينهم يوسف كوركيس بملابس السجن وفي رجليه زنجيل يحمل التراب ويشتغل مع المساجين فنظرت إليه وقلت: أن الله عزيز ذو انتقام. ولكني لم اشمت به بل تأثرت لذلك المنظر ولسخافة البشر ولؤمهم. ولما سمع والدي بأمر كوركيس وهو في سمربور كتب لنا بتاريخ ١١ آب/ أغسطس ١٩١٨: «ما ذكرتموه بخصوص عدالة الحكومة وانها مباشرة في التحقيقات لا سيما بخصوص بيع البضائع والمفقود منها بواسطة يوسف كوركيس الذي هو

مسجون. نعم عدالة الباري تعالى لا بد من اجرائها واظهـار الحق وكل نفس تجـازى بما عملت.. وبعض الاشياء التي اختلسها وصلت لهنا وكان عاطيها لبعض الناس».

نعم سرقات يوسف كوركيس كانت بشكل فظيع وقـد اساء كثيـراً إلينا وإلى غـيرنا وظن انـه مصان من كل عقاب وقد وصلت بعض المسروقات العائدة لنا حتى إلى سمربور ولكنـه نال عقـابه قبل أن تمضي سنة واحدة على جرائمه.

بعد اعلان الهدنة وانتهاء الحرب صرنا ننتظر عودة الاسرى من الهند ولم يتحـرك والدي إلاّ في كـانون الثـاني/ ينايـر ١٩١٩ من سمرپـور واطلق سراحـه في البصرة وبقي هنـاك مـدّة عنـد عبد الرزاق جلبي الامير الذي كان أيضاً أسيراً معه ثم أتانا بطريق النهر ووصل بغداد في اواخر شباط/فبراير ١٩١٩. وكان سرورنا عظيماً بوصوله بعد كـل ما قـاسيناه من خـوف وقلق وألم لما يقارب السنتين من الزمن.

وعلى اثر عودة والدي اعادت لنا الحكومة ما تبقى لديها من المبالغ بعد تصفيـة اموالنـا كما انهم اعادوا لنا املاكنا وكانت الخسائـر عظيمة وحسب قـول والدي كـانت تقدر ثـروتنا بحـوالي المليونين باون بعد الاحتلال ومن جراء ما حدث اصبحت عند عودته ما يقارب الربـع مليون فقط. وما عدا ذلك ذهبت فرص عظيمة للتجارة خلال مدّة الاسر ولكن مع ذلك كنا نحمد الله على عـودة والدي بالسلامة، وكان هو أيضاً مبسوطاً بانتهاء الامر بسلامة الجميع. وباشر والدي بالاشتغـال بالتجارة واتخذ خان سلطان حموده محلاً جديداً وباشر بتعمير الخان القديم وبتأسيس العـلاقات الودية مع الإنكليز والحكومة واستأنف صلاته التجارية مع اوروبـا ولا سيما إنكلتـره كما كـانت قبل الحرب.

بومباي

عندما وضعت الحرب اوزارها فُتح الطريق التجاري مع الهند فاخذت البضائع والاموال تستورد بكميات كبيرة من الهند. وقد ارتأى والدي أن نشتغل نحن أيضاً مع الهند وتقرر ارسالي للقيام بتلك المهمة.

شخصياً لم اكن يوماً من الايام متحمساً للتجارة لأن ما كنت اراه من المعاملات بين صيون والدلالين اليهود والكذب والقسم والحيل والمخادعات جعلتني لا أميل إلى التجارة التي انحطت كثيراً عما كانت عليه قبلاً عندما كانت التجارة بايدي كبار العائلات من المسلمين، وكان الصدق والامانة والكرامة الشخصية عماد التجارة، وكان التجار إذ ذاك اشراف القوم واحسنهم خلقاً وأمتنهم اخلاقاً. فلما كلمني والدي بشأن الذهاب إلى الهند لم امانع ليس حباً بالتجارة ولكن حباً بالسفر وتعلم الإنكليزية ومشاهدة الدنيا وما فيها، كنت أفضل طبعاً الذهاب إلى بيروت أو أوروبا لاكمال الدراسة ولكن السفر إلى بومباي كان أمراً موقتاً ينتهي بانتهاء الاشغال.. وعليه، وافقت على الاقتراح وصرت ادرس الموضوع والبضائع التي تحتاج إليها اسواق بغداد الخ.. وتقرر ان يسافر معي ابن عمتي مكي وأن استصحب موشي افندي الذي كان عندنا في السابق مديراً للمطبعة ومساعداً وكاتباً ومستشاراً لأنه في الزمان السابق كان في الهند وله خبرة واسعة في تجارة بومباي واعمالها.

سافرنا في اواسط ايار/ مايو ١٩١٩ وتركنا البصرة بعد أن بقينا بضعة ايام بضيافة عبد الرزاق جلبي الامير في اواخر ايار/ مايو وقد اسرني منظر البحر وجعلني اشعر بشيء غريب لأن هذه أول تجربة.. انا ومكي وموشي كنا في قمرية واحدة والباخرة كانت مزدحمة بالضباط والجنود البريطانيين العائدين من العراق إلى الهند. مضى أول يوم ونحن في مرح ولكني عندما افقت ثاني يوم وجدنا الباخرة تميل يميناً وشمالاً وامامنا وخلفنا. حاولت أن اقوم واخرج إلى السطح فلم استطع.. بقيت في القمرية واخذ البحر ازدياداً في هياجه واخذت الباخرة تزداد في رقصها المزعج حتى مسكني الدُوار.. بقيت اربعة ايام أي حتى وصولنا بومباي في سريري اقاسي مرض البحر وهو من اتعس الامراض حتى أنني اقسمت بأني سوف لا اركب البحر وإن قضى الامر فإني أفضل السفر على ظهر الخيل والجمال على هذا العذاب الأليم.

وصلنا بومباي في اوائل حزيران/ يونيو فذهبنا رأساً إلى اوتيل تاج محل وكنا طبعاً بطرابيشنا وقيافتنا البغدادية فلم نجد ترحيباً كبيراً من ادارة الفندق ولكننا بصفتنا من رعايا الاتراك كان ينظر إلينا نظر الاوروبيين ولذا قبلنا في الفندق. فذهبت رأساً إلى السرير لأنني كنت تحت تأثير الدوار وبقيت حتى المساء ارى سقف الغرفة وجدرانها تتحرك وأسمع وشوشة البحر بأذني.. ذهب موشي لمقابلة الخواجة سلمان صبحة اخو صيون ولم يرجع حتى المساء وفهمنا منه أنه ضاع في الطريق واخذ «الترام» خطأ ولذا قضى النهار كله بالتفتيش على سلمان صبحة.

خرجت في اليوم الثاني لمشاهدة البلد فركبنا عربانه وصرنا نطوف وقد اعجبت بالمباني الضخمة والشوارع المبلطة الواسعة النظيفة والحدائق والاشجار والزهور.. وكان كل هذا بالنسبة

لي شيئاً جديداً وغريباً وصرت اقيس بين بغداد وبين ما أرى وأقول في نفسي إذا كانت الهند هكذا فكيف إذن أوروبا؟..

قابلت بعض العراقيين ومنهم الحاج ياسين الخضيري وكان مبعداً إلى الهند وسليم باصوص وهارون باصوص ويوسف بصري ووجدتهم كلهم مستعدين لابداء المساعدة والارشاد. استأجرت «بنغلة» (منزل) في محلة «كلوب رود» «Club Road» من امرأة فرنسية تركت لنا أثاثها وخادمها الاسود «جوزيف» وانتقلنا إلى بيتنا الجديد من بعد اسبوع.

بدأت أدرس الإنكليزية مع رجل فارسي اسمه «جهانگير رستمجي» فكان يأتيني كل يوم إلى البيت لأجل الدرس وكان جهانگير هذا رجلاً طيباً وكان يساعدني في كثير من الأشياء كالمخابرات الإنكليزية وغيره واصبحنا بعد مدّة اصدقاء.

باشرنا أيضاً بالاشغال وصرنا نشتري مختلف البضائع ونتخابر مع بغداد ومكي يقوم بترتيب مسائل التغليف والشحن وموشي يساعدنا ويمسك الدفاتر ولكن لم نستفد كثيراً من خبرته لأنها ليست بموجوده فهو كان في بومباي ايام شبابه وقضى اكثر وقته بالسكر والكيف والآن وقد اصبح عجوزاً وتزوج وتاب عما سلف فكانت معلوماته محدودة وذكاؤه اضيق حدوداً.

عندما كنا اولاداً صغاراً كنا نذهب إلى المطبعة وكان موشي افندي مديرها وكنا نعتقد أنه من الاعاظم ولكن هنا في بومباي وجدته لا يحل ولا يربط ومع ذلك فانه رجل شريف وامين وابن اوادم.. اما مكي فكان على عادته يزعل لأقل أمر وكان لا يمضي علينا اسبوع بدون قال وقيل بينه وبين موشي أو احد الخدم أو أحد الدلالين. كنا نعيش في بيت واحد موشي لا يأكل من اكلنا بل اشترى له قدوراً واوان وصار يطبخ لنفسه، سائق العربة الهندوسي لا يأكل من اكلنا أيضاً وبعدما تركنا «جوزيف» اتانا طباخ هندي مسلم فكان الخادم مسيحياً والسكرتير يهودياً والسائق هندوسياً، والمعلم فارسياً مجوسياً والطباخ مسلماً.. وكان الخدم يسمّونني أنا «برا صاحب» ومكي «چوته صاحب» وموشي «بودا صاحب» أي السيد الكبير والسيد الصغير والسيد العجوز.

اما التجارة في الهند فقد وجدتها اتعس مما هي عليه في بغداد: كذب وخداع وحيل على طول الخط، فالتاجر يكذب والسمسار يكذب والمحمّل يكذب. اتذكر أنني اشتريت يوماً سرجاً فطلب البايع بعد القسم واليمين ٢٠٠ روبية ولكن بعد الأخذ والرد وافق على بيعه بستين روبية فقط. وهكذا كانت تقريباً جميع الامور والشغل في بومباي، مما زادني كرهاً واشمئزازاً بالمعاملات التجارية.. يظهر أن الدنيا مملوءة بأناس من شاكلة يوسف كوركيس.. وان اصحاب الشرف والكرامة يتعرضون دائماً للخطر في هذه الدنيا.

تجارب

السفر في حد ذاته من أحسن وأمتع التجارب في حياة الإنسان. ولذا فإنني استفدت كثيراً من سفرتي إلى الهند. رايت بلاداً جديدة، ووجوهاً غريبة، وعادات عجيبة، واناساً من مختلف الانواع ومحيطاً يختلف عن الذي تعودت عليه. واسجل هنا بعض ما وجدته يستحق الذكر:

كان الحاج ياسين الخظيري جارنا في بومباي إذ يسكن داراً لا يفصلها عن دارنا إلّا حديقة صغيرة واقعة على مفترق الطرق. كنت اذهب إليه كثيراً لأنه كان يودني وكان من اصدقاء والدي.. يأتيه جماعة كبيرة من العرب واكثرهم نجاده يشتغلون بتجارة الخيل فكنت أجد احاديث هؤلاء الجماعة لذيذة بالرغم من سذاجتها.

عرفني الحاج ياسين بيوسف بصري وكان هذا شاباً انيقاً طيب الكلام والمعشر من يهود بغداد وكان يقوم بسكرتيرية الحاجي وبخدمته من باب الصداقة والمحسوبية... فتصادقنا معه وبعد مدّة عرض عليّ ايجار طابق في الدار التي يسكنها وهي في المدينة بالقرب من السوق والاشغال ورأيت المسألة مناسبة لا سيما وانني كنت افتش بدون نتيجة على مكان للعمل منه فانتقلنا إلى الدار وجعلنا غرفة منه اوفيساً (مكتباً) وسكنّا بالغرف الباقية.. وتأيدت صداقتنا مع يوسف وكان دائماً يعزم الحاج ياسين ويعزمنا على اكلات بغدادية وكان يصرف ويبذخ بالصرف ويتظاهر بالغنى وبالاشغال المهمة.

ذهبنا مرّة جماعة كبيرة من العراقيين إلى قضاء عطلة في بونا وسكنا في فندق واحد وصرنا نقضي وقتاً طيباً وبونا هواؤها بديع بعكس بومباي وهي بمثابة مصيف لها. وبعد بضعة أيام اتاني يوسف إلى غرفتي وقال إنه راجع إلى بومباي لبعض الاشغال ولما سألته عن ذلك قال اخذ برقية من «المحمّل» يطلب إليه ارسال خمسة الآف روبية لأجل تحميل بعض البضائع وعليه وبما انه لم يأت بدفتر «الجيك» (الشيك) معه، اصبح من الضروري ان يرجع لدفع المبلغ. وقد اسفت بأن يتركنا يوسف ويحرمنا من صحبته اللذيذة فعرضت أن ادفع له صكاً بالمبلغ إذا كان ذلك يعوض عن سفره شخصياً وبعد تردد وتعفف وافق وقال إنه يرجع لي المبلغ عند عودتنا.. وبقى يوسف وقضينا العطلة معاً ثم عدنا إلى بومباي ومضت ايام واسابيع واشهر ويوسف لا يدفع الدين وصرت اسمع عنه بعض التصرفات منها انه «مبتلش» بامرأة ويصرف كل ما لديه عليها وأن لا تجارة لديه ولا شيء. فوقعت في حيرة من امري وكان من الضروري ان استرجع المبلغ. كيف انخدعت هكذا وماذا اقول لوالدي إذا عرف بهذه الخديعة التي مشت عليّ، فالخجل من الامر كان اهم من الدراهم نفسها.

كلمت موشي وقلت له أن يكلم يوسف على اساس «يهودي ينصح يهودياً» وأنه إذا دفع الآن هذا المبلغ تزاد ثقة موسى به حتى إذا ما احتاج إلى مبلغ اكبر لا يتردد في تسليفه.. فذهب موشي وبعد بضعة ايام اتاني بصك بالمبلغ فارتحت وشكرته وهذه كانت احسن خدمة اداها موشي افندي اثناء اشتغالنا.. وبعد شهر عاد يوسف واراد ان يستقرض ١٢ الف روبية. ففهمت الموضوع واعتذرت فزعل يوسف وطلب اخلاء الدار بحجة ان اخته ستأتي من بغداد لتسكن معه

وصرنا ندفع له الايجار مباشرة إلى البنك بواسطة المحامي لأنه رفض الاستلام وتركنا بومباي بعد اشهر قليلة وصلاتنا لم تتحسن وسبحان من يقلب الصداقة إلى عداء.

وتعارفت بواسطة الحاج ياسين على السيد ابراهيم النقيب وكان منذ مدّة طويلة في الهند.. وكان يسكن في فيلا كبيرة بديعة تعود إلى تاجر هندي غني يقوم بكل مصاريف السيد ابراهيم ويدفع له عشرة بالمائة من ارباحه.. وأصل القصة أنه قبل الحرب كان ذلك التاجر على وشك الافلاس وأتته حمولات كبيرة من الاخشاب لم يستطع استلامها فنذر لله فيما إذا نجا من هذه المشكلة ان يعطي عشرة بالمئة من ارباحه إلى السيد ابراهيم فتقبل الله دعاءه ببركة السيد ابراهيم. واندلعت نيران الحرب في أوروبا فاصبح الخشب بأضعاف سعره وصار التاجر المفلس مليونيراً ونال السيد ابراهيم حصته واسماً كبيراً فوق اسمه.

ذهبنا مرّة لزيارته في العيد فرأينا الهنود، كبارهم وصغارهم، يأتون ويقبلون ايادي السيد ابراهيم ويجلسون عند الباب ومن ورائهم الخدم يحملون الهدايا ويضعونها في الغرفة المجاورة. وهكذا ينهال الخير على السيد ابراهيم من كل جانب والهنود يتباركون به ويحترمونه كولي من اولياء الله. سألته مرّة متى ترجع إلى بغداد فقال: «لماذا ارجع؟ هنا اكبر واحد فيهم يقبل حذائي..» وبعد سنين عديدة عاد السيد ابراهيم إلى بغداد بعد ان خسر ثروته بالمضاربات في البورصة وبعد أن فتح الهنود اعينهم نوعاً ما.

ومن الغرائب التي شاهدتها: تقديس الهندوس للبقر. فكنا نرى هذه الأبقار تسرح وتمرح في الشوارع والباركات والحدائق والناس يلمسونها باحترام ثم يمسحون ايديهم بجباههم.. وهذه الابقار لا تمس بسوء من غير الهندوس أيضاً احتراماً لشعور الاكثرية وكنا نرى احياناً بقرة تقف امام حانوت للفواكه والزهور فتأكل ما تريد والبائع ينظر إليها مغتبطاً ولله في خلقه شؤون.

وهناك محارق الموتى وبعضها في اجمل المواقع في بومباي حيث ترى الدخان يتصاعد منها ورائحة «المشوي» تختلط بروائح الزهور والياسمين من الحدائق المحاطة بها. وكانت مقابر الفرس تقع في اجمل بقعة في بومباي فوق جبل مالابار في وسط حدائق غناء.. ذهبت إليها مع جهانكير ورأيت النسور على جدران «قلاع السكون» تنتظر رزقها من الجثث التي توضع امامها في تلك المقابر.

حضرت حفلة زواج جهانكير ورأيت عادات الفرس واطوارهم.. وبصورة عامة وجدت الفرس اصحاب امانة وصدق وشطارة وإن كان الهنود من اسلام وهندوس يكرهونهم ويحسدونهم ويلقبونهم «بيهود» الهند.

في تشرين الأول/ اكتوبر ذهبت مع جهانكير إلى «متران» وهو مصيف على جبل في شمال بومباي وكان ذلك أول مشاهدتي لمناظر الجبال والشلالات فأنست كثيراً وكنت كل يوم اركب الخيل واتجول في الجبال.. ومن غرائب الوضع في الهند ان جهانكير لم يسمح له بأن يسكن معي في نفس الفندق لأن فندق الخضراء «ركبي» مثل فندق «تاج محل» في بومباي وكسائر الفنادق الفخمة مخصص للأوروبيين ولم يتأثر جهانكير في ذلك بل ذهب وسكن في اوتيل صغير حيث يسكن الهنود وكأن الامر كان طبيعياً.. هكذا تتعود الاجيال على المذلة والاستعمار.

بقينا في بومباي تسعة أشهر كانت لا بأس بها. وتركنا بومباي في ٢٦ كـانون الثـاني/ ينايـر ١٩٢٠ بالباخرة «بانكورا» فوصلنا البصرة في ١ شباط/ فبراير وتركناها بالقطار في ٤ منه ووصلنا بغداد في ٥ شباط/ فبراير، وكان في المحطة عبد الرزاق جلبي الامير والسيد حسين افنان.

بين الملل والأمل

بعد عودتي من الهند وجدت نفسي وحيداً في البيت لأن محمد كان قد سافر إلى بيروت قبل سفري إلى الهند والتحق به إبراهيم عندما كنت في بومباي. وصرت أنزل كل يوم إلى الخان للقيام ببعض الأشغال كمسك حساب الصندوق وترجمة الكتب الانكليزية والفرنسية وبعد انتهاء الشغل عصراً كنا نركب العربانه ونعود إلى الاعظمية فنبقى قليلاً في «السبيلخانه» وهي الحديقة التي كنا نشتغل بها أيام الاحتلال. وبعده نذهب إلى البيت نتعشى ثم نجلس في المجلس ويأتينا ضيوفنا المحدودون... فالعودة إلى هذه الحياة الضيقة أخذت تؤثر على أعصابي... في الخان الشغل كان كالسابق، بأيدي صيون واليهود تحت مراقبة والدي والعادات وكل شيء كان كالسابق ومهما حاولت، لم أستطع التعود عليها لا سيما وان غايتي كانت اكمال الدراسة في أوروبا والتخلص من ذلك المحيط الضيق ومن عيشة بغداد التي لم أعد اتعايش معها أو أرضى بها.

عندما رجعت إلى بغداد وجدت السيد حسين افنان عندنا موظفاً وكان هذا مترجماً وكاتباً في معتقل سمربور وحصلت بين والدي وبينه صداقة متينة. فلما عاد والدي من الأسر كان دائماً يمدح باخلاصه ويثني عليه وعلى مقدرته وبقيت المخابرة بينهما مستمرة. وكان والدي يشجعه على المجيء إلى بغداد والاشتغال عنده فلما أتى عينه مديراً براتب كبير وأخذ غرفةً له جنب غرفة والدي وصار يشتغل. ولكن ما هو الشغل؟ عبارة عن ترجمة الرسائل الانكليزية والإجابة عليها.. لأنه ليس لديه خبرة بالاشغال التجارية ولم يكن لديه استعداد للاشتغال بالترتيب البغدادي.. فلما وصلت بغداد أخذت محلي في غرفة السيد حسين افنان وحصلت بيننا صداقة ومودة عدا العلاقة التجارية. وجدت السيد حسين رجلاً مهذباً مثقفاً ومطلعاً على حياة الدنيا ولكن لم يكن ناجحاً بهذا الشغل الجديد وهذه التجارة وقد وجدني هو أيضاً غير ميال إليها فأصبحنا نحن الاثنين كالتائهين في محيط الخان بين اليهود والسماسرة وقد قرب شعورنا المشترك بالملل فيما بيننا. فصرنا نتوارد. فهو يكلمني عن اكسفورد التي تخرج منها وعن غاياته العليا في الحياة وأنا افاتحه برغبتي في اكمال تحصيلي وعدم ارتياحي من قضاء هذه الأيام بمسك حساب الصندوق وترجمة الرسائل التجارية.. وقد وجدت والدي غير راضٍ بوضع السيد حسين وقد كف عن المدح والثناء وأخذ يميل إلى الهزء والانتقاد، شأنه بذلك مع كلّ أصدقائه إذ كان من عادته أن يهتم بالشخص ويعتني به ويحبه ويصعده إلى السموات ثم تأتي دورة عدم الاكتراث والضجر ثم النفرة والكراهية. فكان من المؤسف أن تنتهي صداقة السيد حسين بهذا الشكل وكان من الخطأ أن يستخدمه والدي عنده ولا سيما وأنه يعرف ثقافته ومركزه وأنه لا يستطيع أن يشتغل بالشكل الذي عودوه إياه حستيل وشميل وكنت أنا في وضع يشبه وضع افنان إذ لم اكن ميالاً للشغل في حد ذاته ولم أكن راضياً أو معتاداً على شكل الشغل ولم أكن مستعداً لتحمل اعتراضات والدي ومداخلاته في كل صغيرة أو كبيرة واستهزائه المستمر...

ولما رأى والدي تآلف الميول والمشاعر بيننا ازداد نفرة من السيد حسين افنان وحمّله السبب الأساسي في خلق روح الملل والضجر في نفسي ولكن والدي لم يكن محقاً لأنني كنت دائماً أفضل

اكمال دراستي على أي شيء آخر، وكان السيد حسين افنان يشجعني ويحبذ فكرتي ويأسف على ضياع الوقت بذلك الشكل. وفي النهاية اضطر افنان إلى ترك منصبه عندنا وأخذ يصدر جريدة الشرق ثم توظف عند الحكومة وانقطعت علاقته بالمرّة مع والدي ولم يتصالحا إلّا بعد مدّة طويلة..

كانت الأيام هكذا تمر ويتزايد مللي وأشمئزازي وكان يتضاعف عذابي كلما أستلم رسائل إبراهيم ومحمد من امريكا وأتصور الوضع الذي أنا فيه والوقت الذي يذهب سدى ودراستي غير كاملة وعيشتي ليس فيها ما يسّر أو يريح البال ولا فيها حرية ولا جواً واسعاً فكنت عبارة عن موظف مقيد من كل الجهات وغير راض بعيشته. كانت الأفكار السوداء تستولي عليّ أحياناً حتى تجعلني أفكر بالانتحار والخلاص مما كنت أقاسيه... وكنت أحاول أحياناً أخرى بأن أسلي النفس على الطراز المتبع لدى شبان بغداد. ولكن تلك السلوى المحاطة بالتكتم والاحتراز والخوف على الصحة كانت تزيدني «قرفاً» وكآبةً.. ولربما العامل الأكبر لتلك الحالة الروحية كانت التربية التي نشأنا عليها ونحن أطفال. فقد نشأنا في عزلة عن العالم المحيط بنا وتشبعنا بالأفكار والغايات العالية، وكان من الصعب أن أقوم بما يقوم به بعض الشبان من العائلات الغنية، كقضاء الوقت بالقمار والركض وراء النساء وتطمين الشهوات الحيوانية بشكل بذيء. كنت متعطشاً للدرس والحرية والعيشة الملذّة كما قرأتها في الكتب والروايات وكما سمعت عن الحياة الأوروبية. وهذه أمور لا يمكن الحصول عليها في بغداد.

كلما فاتحت والدي بشأن السفر للتحصيل كان يجيبني «كيف تتركني لوحدي» أو «ما لك والتحصيل والدرس. فإن ما لديك من العمل والعلم ما يكفي». وكنت اسكت لأنني كنت أفضل أن أعذب نفسي بدلاً من أن أعذب والدي.. وكان والدي وهو من أذكى الأذكياء يشعر بعذابي ولكن يعتقد أنني سأتغير مع الوقت، فأستقر في بغداد وأغطس في أشغالها وأنسها، بالشكل المعلوم المرغوب لديه. كيف يا ترى كانت الشفقة الأبوية تجيز له أن يراني بذلك الوضع ولا يتساهل في طلبي. وكان طلبي مشروعاً معقولاً وكان من واجب الدي أن يلبّي طلبي وهو اكمال الدراسة العالية.. ولكن نشأ والدي في السوق وتوفق ونجح ولربما كان يفضل أن اقتدي أثره وأعيش عيشته.. على كل حال كنت أنا في واد وهو في واد آخر.

ومرت سنتان ونحن في ذلك الوضع. أنا تعيس ومتألم ووالدي مشغول بأشغاله وبما يلهيه ويسليه.. وذات يوم من ايام الكآبة السوداء وكنا لم نزل في الاعظمية غضب والدي لأنني لم أخرج إلى الديوانخانه إلى مجلسه وبقيت منزوياً في غرفتي فأتى واحتد وأسمعني كلاماً قارصاً فلم أجبه بشيء.. وفي الصباح الثاني أتاني واعتذر عما صدر منه.. وفهمت حينئذٍ بأن لا فائدة من الانتظار.. وأنه سوف لا يتركني أسافر من تلقاء نفسه. فكان عليَّ أن أحل المشكلة بنفسي.. فذهبت يوماً إلى بيت اللنج ورتبت قضية سفري بالبواخر عن طريق الهند وأخبرت من بعد ذلك والدي بالأمر الواقع.... فلم يعترض ولكن كان متأثراً وقال: «ولربما سوف لا أراك بعد هذا السفر» تألمت أيضاً لأنني سأتركه لوحده ولكن في مثل هذه الحالات كان من الضروري أن أكون حازماً وأن اتغلب على العواطف...

وفي ٢٤ آذار/مارس ١٩٢٢ تركت بغداد بالباخرة النهرية «زبيدة» نحو البصرة.. نحو

الهند.. نحو أوروبا.. نحو الخلاص... ولكن قلبي لم يكن خالياً من الحزن إذ ذاك، وهاك بعض ما كتبت بمذكرتي ذلك اليوم: «... احسست باضطراب عندما قبلت والدي وقبّلني وعندما ترك الباخرة وذهب إلى شاطىء النهر فالتفت من هناك مرتين أو ثلاث مرات وفي كل مرّة كان يودعني وفي كل مرّة يخفق قلبي اضطراباً إذ أنني تركته وحيداً... بعد ساعتين بعدنا عن بغداد فنظرتها آخر نظرة.. نظرة تخلص منها وحنان لها..».

قبل سفري نصحني والدي بعض النصائح، فأتذكر منها جيداً ما قاله لي حول الانكليز: «إذا قمت بعمل ما مع الانكليز إغمض عينيك ولا تخف ولكن مع الالمان فلتكن عندك أربع عيون بعد الاثنين».. ولما رآني ابتسم من هذا القول وعلم بما كان يدور بذاكرتي أضاف: «أما ما حصل لنا على يد صون فهذا لا يكون قياساً.. وفي جميع الشعوب أناس من هذا القبيل خلقهم الله لإيقاع الشر بالناس..».

فبالرغم مما حصل وما عمله الانكليز معنا كان والدي لم يزل يعتقد بأنهم أحسن الأوروبيين وقد يكون الحق معه في هذا الصدد. إذ بعد عودته من الأسر اعتذر له الحاكم السير ارنولد ويلسون عما وقع وقال أنه كان هناك سوء تفاهم وعندما أعادوا إلينا أموالنا أو بالاحرى ما تبقى منها اضافوا ما يقارب المائة ألف روبيه للتعويضات عن السكر الذي كانوا قد استلموه لجيشهم.. وتعرَّف والدي على كثيرين من الإنكليز وفي مقدمتهم المس بل التي كانت تلقب «بأم المؤمنين» في تلك الأيام والتي سبق لها أن قالت إلى الأب انستاس عندما أراد أن يتدخل لجانب والدي بناءً على توصية شكري افندي والحاج علي افندي الالوسي في بادىء الأمر. قالت له.. ليكن سعيداً محمود الشابندر لأننا اكتفينا بنفيه إلى الهند ومصادرة أمواله فإنه يستحق جزاءً أشد من هذا بكثير... ولكن بعد سنتين تبين لهم أنهم كانوا خاطئين وأن والدي لم يذنب وأن مجرد تهمته بصداقة الأتراك لا يبرر ما عمله صون ولا تلك التصرفات ولا الفرهود... ولكن من عادة الانكليز وتأثير كبريائهم وغطرستهم أنهم يسندوا بعضهم بعضاً في الحق والباطل في معاملتهم مع الشعوب الاخرى. فالمستر صون مع أعماله الرذيلة وظلمه واساءته كان مصاناً في نظر رؤسائه ومقدراً في محافل الاستعمار..

في عالم السياسة

تعتبر سنتي ١٩٢٠ و١٩٢١ من السنين التاريخية المهمة بالنسبة إلى العراق.. فسوء الإدارة الانكليزية ونكوث الحلفاء بعهودهم للعرب بعد انتهاء الحرب وقضية الانتداب ومؤتمر سان ريمو وهياج العالم العربي بصورة عامة ووضع العراق بصورة خاصة أدت إلى اندلاع نيران الثورة في العراق صيف ١٩٢٠.

ذهبت أكثر من مرّة إلى «الموالد» التي كانت تقام في الجوامع وأتذكر الحماس الذي وجدته عند الجماهير وشعرت به في جامع الحيدرخانه وجامع الإمام موسى الكاظم. كانت ثورة العراق مندفعة من القلوب وكانت صميمية وحقيقية ولكن كنت حتى في ذلك الحين من الذين لا يجهلون درجة تأخر العراق واحتياجه للمال والرجال والعلم والصناعات ليتم له النجاح، ومع كل ذلك فالانسان كان لا يستطيع أن يتحمل مذلة الاحتلال وما في الاستعمار الأجنبي من هوان... كنت دائماً أتمنى أن نكون أصدقاء أو حلفاء للانكليز على قدم المساواة مع مراعاة الفوارق بين قوة بريطانيا وضعف العرب على أن تكون تلك الفوارق عاملاً للاحترام المتبادل والتعاون المشترك لا سبباً للاستغلال والاستعمار والإذلال...

ثم انتهت الثورة وذهب ما يقارب العشرة آلاف نفس من الضحايا وتهدمت القرى واشتعلت النيران في البيوت والمزارع وكان ما كان. ثم عاد السير برسي كوكس إلى العراق للتهدئة والاصلاح ثم أتى «الأمير فيصل» وكنت أنا ووالدي بين المستقبلين ثم توج ملكاً على العراق وحضرت تلك المراسم وهكذا تقول البطاقة التي دعتني للاشتراك بها:

قسم ١ Section
صف ١٥ Row
مقعد ١٧٢ Seat

يدعو رئيس الوزراء ونقيب اشراف بغداد

حضرة الوجيه موسى جلبي الشابندر،

إلى حضور مراسم تبوء سمو الأمير فيصل المعظم عرش العراق يوم الثلاثاء الساعة السادسة زواليه صباحاً في ٢٣ آب ١٩٢١ المصادف لـ ٢٨ ذي الحجه ١٣٣٩.

كان عدد الانكليز بين الحاضرين كبيراً. جلس الملك فيصل على مربع خشبي بين السير برسي كوكس والقائد البريطاني ووقف وراءهم الحاشية وكان السيد حسين افنان بين هؤلاء بصفته سكرتيراً لمجلس الوزراء. وبعد انتهاء المراسم حيا فصيل من الجيش البريطاني الملك الجديد وكان العلم البريطاني يرفرف وكان ايضاً هناك العلم العربي وكانت المراسم تلك لا شرقية ولا غربية بل إنها مزيج من الاستقلال والاستعمار وكذلك كان الشعور يتراوح بين الفرح والأسى، بين التفاؤل والتشاؤم، بين الجد والهزل..

القِسْمُ الثَانى

سَنوات الهِجْرَة

السفر

هنالك بون شاسع بين سفري الأول قبل ثلاث سنوات وسفري الآن.

فقبل ثلاث سنوات تركت بغداد والبلاد ترزح تحت ثقل احتلال كامل واستعمار واضح بكل بشاعته وكنت لم أزل أحسّ بمرارة ما ذقنا من جور وظلم واعتداء. أما الآن فقد تبدل الوضع قليلاً وانبعث الأمل في الصدور من جديد. فهناك ملك عربي وجيش عربي وحكومة عربية وقد نفض أهل العراق تراب الذلّ وان كلفهم ذلك غالياً.

نعم الطريق أمامنا وعرة والمشكلات عظيمة، وكابوس الانتداب ثقيل، ومع ذلك فالفرق بين الأمس واليوم كان كبيراً. في ٢٥ آذار/مارس ١٩٢٢ عندما وصلنا الكوت بالباخرة كتبت بمذكرتي ما يلي:

> «وصلنا الكوت صباحاً فوجدتها كما رأيتها قبل ثلاث سنوات ولكن الشيء الوحيد الذي لم أره إذ ذاك هو العلم العربي الذي صار يخفق فوقها فذلك مما يسّر قلب كل عربي وإن كان الآن هذا العلم ضعيفاً والذين رفعوه ضعفاء وهؤلاء الذين يخفق فوقهم جهلة...».

فعندما تركت بغداد وأنا في الثالثة والعشرين من عمري كنت عالماً بأن الاستقلال الحقيقي لا يتم بالمظاهر فقط وأنه يجب علينا البناء على أسس قوية وقواعد متينة وكنت أود بأن يكون الانكليز في جهادنا هذا، أعواناً مخلصين من نوع الكولونيل لورنس لا اعداء متكبّرين مثل صون وأشكاله... الذين يسيئون من أجل الإساءة ويعتدون لعلة في نفوسهم الصغيرة...

وصلنا البصرة مساء الأحد ٢٦ آذار/مارس وأتى عبد الرزاق جلبي الأمير وأخذني إلى «الخريوطلية». وفي ٣٠ آذار/مارس تركت البصرة على الباخرة «باريتا». تعارفت في الباخرة على جماعة من بيت ڤويومجيان وكانت بينهم المادموازيل ماكروهي ڤويومجيان (الآن مدام بليط) وقد قضيت وقتاً طيباً طوال السفرة حتى مصر. وصلنا بومباي في ١١ نيسان/ابريل واستقبلني عبدالله جلبي الفوزان من تجار بومباي. بقيت في بومباي أربعة ايام زرت خلالها أصدقائي القدماء اولاد باصوص وجهانكير والمستر غامبتا الفارسي. وفي ١٥ نيسان/إبريل اخذت الباخرة «Egypt» وتركنا بومباي نحو مصر. كانت الباخرة مزدحمة بالركاب وكلهم انكليز عائدون إلى بلادهم. كان في غرفتي ثلاثة اشخاص معي: اثنان هنود والثالث رجل فارسي. ورد في مذكرتي

حول ذلك: «وسبب ذلك لأن اسمي يشابه اسم الهنود فجعلوني معهم وعلى كل حال هذه عادة الانكليز واخلاقهم نحو غير ملّتهم».

في ٢٤ نيسان/إبريل عبرنا قنال السويس. المنظر كان جميلاً.. «علامات جيش الاحتلال تراها في كل محل وضع الانكليز مخالبهم». في بورت سعيد تفارقنا عن اصدقائنا جماعة قويومجيان لأنهم تركوا الباخرة هناك إذ كانت وجهتهم استانبول.

في ٢٩ نيسان عندما افقت صباحاً وجدت الباخرة راسية في ليمان مارسيليا. بعد اكمال معاملة الكمرك ذهبت إلى فندق متروبول «Grand Hotel Marseilles et Metropole» وهو أكبر فندق وأفخم فندق في المدينة.

اوروبا

أنا الآن في أوروبا. أوروبا التي كنت أفكر بها وأحلم بها الذّ الاحلام منذ أيام المدرسة والتي تحملت في سبيل المجيء إليها أمرّ العذاب وأشدّ الاشتياق فالآن وقد نلت مبتغاي فماذا أشعر؟

أشعر بارتياح وسعادة وسرور ولكن لم اكن كالعاشق الولهان الذي ظفر بعشيقته إذ كان يتخلل شعوري شيء من الحزن. والدي وحده في بغداد. إبراهيم في نيويورك. محمد في كاليفورنيا. أنا هنا في مارسيليا. «استمر المطر طوال النهار فأزعجني وقد ضاعف انزعاجي كوني وحيداً ولا اظن مارسيليا بلدة محبوبة. السير والحركة فيها كثيرة. شاهدت حالة تشابه حالات الشرقيين في المطعم هي أن جميع الخدم ورئيسهم يخدمون الشخص كلهم مرة واحدة ويتركونه ويذهبون إلى شخص آخر. فهم يركضون ويحتدون وبعدها يتضاحكون فلا ترى فيهم البرودة والنظام اللذين تجدهما عند الانكليز..». من مثل هذه الكلمات في مذكرتي يتضح أنني لم أكن يوم وصولي مارسيليا مغتبطاً كل الاغتباط. بقيت مدة أسبوع كامل في مارسيليا قابلت خلالها الموسيو هنري حمصي وأفراد عائلته وزرت عدة مرات المعرض الدولي الذي كان قائماً في حينه.

في ٩ أيار/مايو صباحاً وصلت باريس. «يحس الانسان بإحساس غريب عندما يصل إلى محل مشهور كشهرة باريس» ونزلت في «الغراند هوتيل» وذهبت مساء ذلك اليوم إلى غابة بولونيا «ولكني لم استأنس كثيراً، لأنني كنت وحيداً ولم أرَ أحداً لوحده غيري.. وهذا الوضع يحزن الإنسان». وفي باريس شعرت أنني في قلب أوروبا وأخذت تدور في مخيلتي الانطباعات القديمة التي اخذتها من الكتب والمطالعات. هذه مدينة لويس الرابع عشر... هذه مهد الثورة الكبرى.. هنا كان نابليون.. هنا كان فولتير ومونتسكيو وباستور وفيكتور هوغو والكساندر دوما و... و... و... مئات وآلاف من العظماء..

هنا قلب الحضارة والمدنية والفنون والشعر والأدب. هذه هي كعبة الدنيا.. بقيت أسبوعين أقضي طوال النهار بزيارة المتاحف والمعاهد والمباني العظيمة وذهبت أكثر من مرة إلى فرساي وبيدي «دليلي» كنت أقرأ ليلاً ما أريد مشاهدته وفي اليوم الثاني اخرج مبكراً من الفندق فأطوف لوحدي وكنت أحب أن أرى كل شيء، وأطفىء نار شوقي لباريس وما فيها. وأعتقد أنني رأيت أكثر ما يمكن رؤيته في أسبوعين. أما حياة الأنس فلم أتمتع بها كما ينبغي لأنني كنت منصرفاً تماماً لحياة العمل والاطلاع ولأنني كنت لوحدي أجهل طرق الانس وكنت خجولاً أتجنب كل ما

قد يفسّر على تقدير ذلك الوقت باللهو أو السفاهة. تعارفت في باريس بالخواجه شاشاتي تاجر من أهل حلب فكنت أقضي أكثر الليالي معه ومع أصدقائه وذقت بمعرفته مرة لذّة الانس، وتعارفت بفتاة ولكن لم يكن ليرضيني ويريحني ذلك الشكل من العشق. كنت أريد أن يحصل لي ما كنت أقرأه في الروايات وفي الشعر الافرنسي.. حب وعشق وغرام مجرد عن الشوائب والعاديات...

وهل أحسن من باريس عاصمة الحب والغرام، بلداً لمن يطلب ذلك الحب التقي السامي؟ لذا لم أكن متولعاً بالحب الرخيص واللهو البذيء.

وذات يوم خرجت أتمشى في «البولفار دو كابوسين» فوقفت أمام أحد «المغازات» لأرى بدائعها.. فأتت فتاة وأخذت هي أيضاً تنظر إلى معروضات المخزن. ثم تقابلت نظرتنا فابتسمنا. ثم رحنا ننظر من جديد إلى نافذة المخزن وأخذت أنا أفكر، وأخذت تنهال على قلبي موجات تهزه هزاً. فنظرت إليها مرّة أخرى وابتسمنا ثانيةً وتقاربنا من بعضنا وتكلمنا. هذه فتاة جميلة ليس في لباسها ولا في مشيتها ولا في وجهها وعلى شفتيها ما يدل على أنها مثل الآنسات المعلومات.. صرنا نمشي ونتحادث.. عرفتني أنني غريب. ولما سألتها عن نفسها قالت أنها من المدينة الفلانية وأن المعيشة صعبة هناك فأرسلها أبواها لتجد عملاً في باريس وتساعدهما على العيش وأنها مضى عليها أسبوع ولم تجد عملاً وأنها لا تعرف أحداً في باريس. إذن؟ هذه فتاة شريفة تريد العمل لتساعد أبويها. وهي فوق ذلك شابة وجميلة ومثقفة؟

نعم مثقفة لأن ذلك ظاهر من شكل كلامها. صرت أشعر بحنان نحوها. أنا غريب وهي غريبة لا تعرف أحداً في باريس. قلت لها أنني سأجد لها شغلاً. وفكرت في نفسي أن الخواجة شاشاتي ربما يستطيع أن يجد لها وظيفة سكرتيرة في أحد المحلات التجارية. فابتسمت وشكرتني... إذن لا شك في أنها شريفة تريد أن تشتغل بأي شغل شريف. صرت أشعر بحب وتقدير لها. وعاودتني أشعار وكلمات فكتور هوغو. والفرد دوموسيه.. وقصص دوما. وغراميات بودلير. و... و... إذن وجدت مبتغاي. قلت لها أنني سأكون صديقاً لها وأساعدها... ثم دعوتها لنذهب ونتغدى في غابة بولونيا.. فأخذنا تاكسي وذهبنا.. كنت أحسّ بأنني أطير فرحاً. هذه فتاة جميلة وشريفة جالسة بجانبي ونحن في أجمل بقعة في أجمل عاصمة فأنا سعيد الآن مثل هؤلاء الناس حوالي، ولم أعد وحيداً كما أتيت إلى هنا قبل هذا. وبعد الغداء نفذ كل ما عندنا من كلام فاقترحت «حبيبتي» أن نرجع إلى باريس.. فرجعنا... ومشينا في البولفار ثم اقترحت أن نذهب إلى الفندق نجلس لوحدنا. فأخذتني إلى فندق صغير فاستأجرنا غرفة وظهر لي ان أصحاب الفندق يعرفونها.. فأخذ الشك يدبُ في قلبي. صعدنا إلى الغرفة. ولما خلا لنا الجو تعانقنا وتبادلنا القبل والحب الشريف... ثم... أخذ الشك يزداد وصرت أعلل النفس بأنه ربما عادات القوم كانت هكذا. ثم دار الكلام حول الهدية التي أهديها إليها. ها! يظهر أنني أنا المخدوع. ولما رأتني لا أريد أن أفهم الموضوع وأتمنى أن لا تبعدني عن ذلك الحلم اللطيف طلبت مني أن اعطيها الهدية ـ المائة فرنك مقدماً. وهنا شعرت بالدم يتصاعد إلى رأسي. فأخذني الغضب فرميت لها ورقة المائة فرنك وتركتها في الغرفة وخرجت مسرعاً من الفندق هارباً من خيبة الأمل وتأثير الفشل. ولما غدوت وحدي في غرفتي في الكراند اوتيل صرت أفكر في المسألة وأضحك على نفسي وكيف أنني طرت في سماء الخيال البديع ثم هبطت إلى سطح الحقيقة البشعة خلال ساعات معدودات، ومساء ذلك اليوم

نفسه تعارفت على فتاة انكليزية صادفتها في «الشـانزيلـزيه» ولم تكن هـذه المعرفـة على أسـاس الرومانسية والغرام، بل إنما على أساس الواقعية البسيطة..

بعد ذلك الانكسار أصبحت أشد حذراً مما كنت. فصرت أتجنب من أن أكون طريدة وحاولت أن أكون أشطر من الصيـادين أنفسهم. صادفني ذات ليلـة وأنا عـائد من «التيـاترو (المسرح)» رجل في البولفار فتقرب مني وكلفني بأن يذهب بي إلى محل فيه ما فيه من المغريات فقلت لـه بأن ليس معي دراهم، وبالفعل لم يكن لدي سوى بضع فرنكات.. فألح قائلاً بأن ذلك لا يكلفني سوى ثلاث فرنكات أدفعها لـه لقاء اتعـابه، فـاعتذرت ولكن الـرجل لم يتـركني حتى أقنعني. ونحن في الطريق أخبرته بأنه في الحقيقة لم يكن عندي أكثر من عشر فرنكات. فقال لا بأس.. وأخـذني إلى دار في شارع ضيق وراء «الكاليري لافاييت» وطرق الباب فأتت أمرأة عجوز ضخمة واستقبلتنـا ـ فجلسنا في الصالون وأتى بعد ذلك سرب من البنات العاريات وأخـذن يرقصن عـلى أنغام البيـانو وأتت أحداهن بزجاجة شامبانيـا ففتحتها وصرن يشربن ويتضـاحكن ويتمازحن.. قـد يكون هـذا المنظر ملذاً لبعض الناس امّا أنـا فكنت أرى السفالـة والتعاسـة والكذب والحيـل وراء كل ذلـك الفرح المصطنع. وكان ذلك يحزنني بدلاً من أن يفـرحني.. وبعد بضعـة دقائق اقتـرحت العجوز بأن انتخب ما شئت من البنات وأصعد معهن إلى الطابق الأعلى لاكمال السهرة فاعتذرت وأخذت قبعتي وشمسيتي وتوجهت نحو الباب. فأتى السمسار صاحبنـا وقال اين لـك؟ قلت له مـا رأيت يكفيني قـال: «لا يجوز ذلـك... طالمـا أتيت لهذا المحـل يجب أن تكمل السهـرة..» فدفعتـه بيدي وتوجهت نحو الباب وكنت أريد أن أتـرك ذلك البيت وأخـرج إلى الطريق إذ صرت أشعـر بضيق وقلق بين هؤلاء الجماعة... قال «إذن يجب أن تدفع مائة فرنك مقابل مـا رأيت» فهمت الموضـوع وعرفت بأن الرجل قد صادفني وهذه هي صنعته: صيد الغرباء. وتداخلت العجوز بالأمـر وصرنا نتكلم بـالانكليزيـة وظنّوني من الانكليـز وقلت لهم بأن ليس لـدي دراهم وكنت صـادقـاً. فقـال السمسار «آتي معك إلى الفندق وتدفع لي المبلغ هناك» قلت له «طيب» وخـرجنا. ولمـا اقتربنـا من البولفار نزلت فيه سباً وشتماً على خديعتـه ثم اعطيته الفـرنكات التي معي وقلت لـه أن ينصرف. ولكنه لم يقتنع وكـان مصراً عـلى المجيء معي إلى الفندق قلت لـه «طيب تعال معي لأسلمـك إلى البوليس» فلما سمع ذلك أخذ يسب ويشتم بالانكليـز... وتركني... وتـوجهت نحو الفنـدق وأنا في طريقي صادفني نحو «دزينة» من نوع ذلك الدليل وكـل منهم يعرض عـليّ ما عـرضه صـاحبنا. وكنت أصرفهم بوعد إلى الغد... ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

«برلين»

تركت باريس في ٢٦ أيار/مايو ١٩٢٢ واني آسف. ولا اعتقد بأن الإنسان يترك تلك المـدينة دون أن يشعـر بشيء من الأسف لانفصال عـلاقته بهـا.. صادف معي في القطـار رجل انكليـزي تعاشرت معه ووجدته لطيفاً. وصلنا عند الفجر «كولونيـا» وذهبت مع رفيقي الانكليـزي إلى مطعم المحطة وشربنا القهوة وعندما رجعنا إلى القطار وجدنا أن حقيبة تعود إلى الانكليزي قد سرقت من محلنا... فاتحة غير طيبة. تذكرت نصيحة والدي بأنه يجب على الإنسان أن يفتح «أربعـة عيون» مع الألمان.. وصلت برلين مساء ٢٧ أيار/مايو ونزلت في أوتيل «كونتيننتال» قرب محطة «فريدريك شتراسه» وكان أول انطباع لي عن برلين أنني وجدتها خالية ساكنة بالنسبة إلى بـاريس.. خرجت

ليلاً أتمشى في شارع «انتردن لندن». أين أنوار البولفار وحركة الشانزليزيه؟ كأنني داخل في بيت كبير يسكن في احدى غرفه رجل ملَّ الحياة وكرهها. وربما كان ذلك من تأثير الحرب.

في اليوم الثاني، يوم الاحد، لم أستطع أن أتصل بكورجي سالم فذهبت إلى حديقة الحيوانات ومساءً إلى «السكالا» الحديقة كبيرة واسعة وجميلة ونظيفة ولكن ينقصها روح المرح والسرور التي وجدتها في باريس.. وهنا مشكلة اخرى هي اللغة. فقد وصلت إلى برلين ولا أعرف كلمة واحدة من الالمانية وقد لمست الصعوبات من أول يوم. فكنت كالتائه. ولم أستطع أن أكلم أحداً في حديقة الحيوانات وعندما كنت جالساً في أحد المطاعم هناك استمع لجوقة الموسيقى واتمتع بالمناظر البديعة، أتى شاب ضرب بكعبي حذائه وسلم عليَّ مثل الجنود وقال شيئاً لم أفهمه ثم جلس معي على طاولتي. استغربت من كل هذه الخبصة إذ لم أصادف مثلها من قبل لا مع الانكليز في الهند ولا مع الفرنسيين في فرنسا... فهذا السلام العسكري وهذا الاشتراك في الجلوس على طاولة واحدة كانت جديدة بالنسبة لي، ومع ذلك حاولت أن نتحادث فكان الرجل ناشفاً في بادىء الأمر ولربما اعتقد أنني انكليزياً أو فرنسياً ولكن عندما أريته جواز سفري وفهم بأنني من رعايا الاتراك فارتسمت على وجهه علائم السرور وأخذنا نتكلم بالاشارات وصرنا نضحك دون أن نفهم ما يقوله أحدنا للآخر وانتهت الجلسة بسلام عسكري وكان الله يحب المحسنين.

وفي سكالا تلك الليلة لم أفهم ولا كلمة مما قيل وكنت حقاً مثل «الاطرش بالزفة» فاكتفيت بالنظر والتأويل. ووجدت الالمان يتجنبون التكلم بالانكليزية أو الافرنسية إلّا عند الحاجة وذلك دفعني أن أسرع في تعلم اللغة.

في اليوم التالي بدأت بالأعمال الجدية. فقابلت كورجي سالم وذهبت إلى «الدويتشه بنك» ثم إلى محل «آتلاس» الذي كانت لنا معه علاقات تجارية بالمخابرة فقط. فقد أتيت إلى برلين لأجل الدراسة وفي نفس الوقت لملاحظة أشغال والدي التجارية ومعالجة بعض القضايا العالقة ومنها قضية «آتلاس».

بناءً على نصيحة كورجي انتقلت إلى فندق صغير «برنس ويلهلم» فطلب صاحب الفندق ٢٥٥ ماركاً يومياً ولكن بعد أن رأى جواز سفري وعلم بأنني «توركش» قال أنه يرضى بـ ١٢٦ ماركاً.

في ١ حزيران/يونيو انتقلت إلى دار العائلة التي قررت ان اسكن معها. وكانت هذه العائلة عبارة عن زوج وزوجته. فالرجل كان اسمه الهر زيمرمان Zimmerman وكان اميرالآي بحري زمن الحرب في الداردانيل وهو متقاعد الآن وزوجته الفراو زيمرمان كانت أمرأة عجوز لطيفة. استأجرت غرفتين لديهم وارتحت كثيراً من الخدمة والعناية التي كنت القاها وبقيت عندهما حتى سفري إلى فرنسا بعد سنتين. فاتخذت غرفة لمنامتي والاخرى للضيوف والاشغال والدرس وكان عنواني التجاري هناك Helmstarter str. 4 Berlin Wilmersdorf.

واستخدمت في نفس الوقت سكرتيرة ومعلمة. تأتي هذه كل يوم صباحاً تدرسني اللغة الالمانية وتكتب المخابرات التجارية ثم نلتقي أكثر الاوقات مساءً فنزور بعض المحلات ونحضر الحفلات وكانت المحاورة على الاكثر بالالمانية فاستفدت من ذلك كثيراً.

سجلت اسمي في مدرسة اللغات وقابلت مديرها البروفسور ميتووك Mittwoch وهو صديق لسالم تمهيداً لدخول الكلية. وكانت الاشغال التجارية تزداد، والمخابرة مع بغداد وإرسال النماذج وشراء المطلوب منها تأخذ وقتاً كبيراً مني. وتعارفت بأصدقاء كورجي سالم وهم جورج الخوري والدكتور بيضا وهارون شماش وفريدي شوحيط وصرنا نقضي وقتاً طيباً معهم.

عندما وصلت المانيا كان المارك في هبوط فالألف مارك تقريباً يساوي باوند وعلى إثر مقتل وزير الخارجية «راتنو» تدهور فاصبح الباوند بـ ١٥٠٠ مارك فكان هذا السقوط المستمر يعرقل الاشغال ويشجع في نفس الوقت تجارة التصدير، وكان والدي قد اشترى مبالغ من الماركات في بغداد من البنك العثماني وأصبح من الضروري التخلص منها خوفاً من السقوط وعليه صرت افتش على دور للشراء مع كورجي سالم والدلال «هرش» وخلال ذلك الصيف اكملنا شراء ثلاث دور طويلة عريضة يكلف الواحد منها قبل الحرب ما يقارب العشرين الف باوند وكانت أسعار الشراء عند اجراء المعاملة تقارب الألف باوند. وبعض الناس اشتروا مثل تلك الدور بما يقابل ٥٠ باوند فقط عندما حصل السقوط الكبير سنة ١٩٢٣. ان قضية المارك في المانيا كانت أهم قضايا ما بعد الحرب في المانيا. غلاء فاحش بالنسبة إلى الالمان ورخص فاحش بالنسبة إلى الأجانب وزاد في الطين بلة احتلال فرنسا لمنطقة الرور سنة ١٩٢٣ وانتهى الأمر بالثورة في برلين ثم باستبدال العملة بالمارك الجديد.

في ٢١ تموز/يوليو وصل أخي إبراهيم إلى هامبورك قادماً من أمريكا لقضاء عطلته. فسررت كثيراً بلقياه بعد غياب ثلاث سنوات وقد وجد كل منا اخاه متغيراً بالشكل. قضينا ليلة في هامبورك ثم عدنا إلى برلين وقد قضينا وقتاً طيباً. سافرنا إلى ميونيخ وهناك قابلنا السيد طالب باشا النقيب وعبد الرزاق جلبي الأمير وذهبنا كلنا إلى اوبر أمركان «Ober ammergan»، لحضور التمثيل الديني الشهير.

بقي إبراهيم في المانيا مدة شهرين وسافر إلى نيويورك في ١٨ أيلول. وبقيت أنا في برلين اشتغل طوال النهار واتعب واقضي المساء على الأكثر بصحبة الاصدقاء العب وارقص والهو وكيف.. كانت الحياة بذلك الشكل متعبة.. ولكن الشباب لا يعجز ولا يمل فكنت كأنني أريد أن أعوض ما فاتني في بغداد خلال سني الشباب.. وكان من جراء كثرة الاشغال انني أهملت مسألة الكلية واكتفيت بالتسجيل...

أتت أعياد الميلاد وراس السنة. ذهبت مع الاصدقاء إلى «اوبرهوف» لقضاء العطلة في جبال «تورنكن»، فكنا جورج وكورجي وهارون وفريدي وأنا ومع كل منا رفيقته فقضينا عشرة أيام لذيذة جداً. وكان هذا الشكل من الاحتفالات بالاعياد، وهذه الافراح وتلك المناظر البديعة، والجبال والغابات كلها مغطاة بالثلوج، والناس تقضي النهار بالتزحلق فوق الثلج والليل بالرقص والشرب والعربدة. كل ذلك كان بالنسبة لي جديداً. وكنت اقيس بين افراحنا في بغداد وأفراح هؤلاء الأوروبيين فأتمنى أن نتقدم ونرتقي ونسعد مثلهم، فكنت لا انسى بلادي والعرب حتى ساعات اللهو والطرب، وكتبت في أول يوم من كانون الثاني/يناير سنة ١٩٢٣ في مذكرتي: «عسى أن تكون هذه السنة سعيدة لنا ولجميع العرب».

وكانت بداية السنة تعيسة بالنسبة إلى الالمان إذ تدهور سعر المارك فأصبح ٤٠ ألف مارك

مقابل الباوند الواحد فازدادت سفالة الشعب والموظفين وكل من يأخذ راتباً أو ايراداً معيناً. وبعد ستة أشهر صار الباوند يعادل ٤٠٠٠٠٠ مارك فازداد عدد الأجانب بشكل هائل نظراً للرخص الفاحش بالنسبة إلى عملتهم.

في الصيف ذهبت مع محمود الباجه جي إلى ساحل البلطيق إلى بنز الواقعة في جزيرة روكن فقضينا شهراً في فيلا بديعة وكان ما صرفناه لا يزيد على باوندين. أذكر انني صرّفت ثلاثة باوندات فدفعنا جميع مصاريفنا وما تبقى من الماركات وضعناها في شنطة إذ لا يمكن حمل كل تلك الأوراق النقدية... فكان الوضع لا يتصوره الإنسان وكانت في برلين ٢٦ مطبعة تشتغل ليلاً ونهاراً باصدار «البانكنوط» حتى وصل الأمر ان الكبريتة الواحدة صارت تساوي خمسة ملايين، والغداء في المطعم ماية مليون، واستمر الهبوط وصار الحساب بالمليارات لأنه صرنا لا نستطيع شراء شيء بالمليون مارك وصدر في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٣ أوراق نقدية بخمسة آلاف مليار مارك وضاعت ثروات وهدمت بيوت..

في بداية سقوط العملة حصلت أمور غريبة جداً، منها أن رؤوف الجادرجي بالنظر إلى ما سمع حول أسعار الدور وغيرها، أراد أن يشتري داراً في برلين، فاشترى مقداراً من الملايين من الماركات من البنك العثماني في بغداد بما يعادل قيمته ٢٥٠ باونداً وأرسل لي حوالة بالبريد فلما وصلت الحوالة كان المارك قد سقط والملايين من الماركات اصبحت لا تساوي إلاّ بضعة باوندات فذهبت يوم وصول الحوالة واشتريت له ثلاثة «كرامافونات».. فلو كتبت له وانتظرت أسبوعاً آخر لكانت الملايين قد ضاعت تماماً فلا تساوي سوى بضعة سانتيمات...

فكان من الخطأ أن يشتري الإنسان ماركات ويحفظها وهكذا خسر رؤوف الجادرجي مبلغاً لو أرسله لي باوندات لكان بالامكان أن أشتري له ثلاثة أو أربعة بيوت...

وفي تلك الأيام أنا أيضاً قمت بعملية خاطئة فقد كان المارك في لندن أرخص من برلين فحاولت أن أجرب الاستفادة من فرق السعر. واشتريت بواسطة البنك العثماني في لندن بما يعادل الماية باوند ماركات على برلين ولكن عندما وصلت الحوالة صارت اسعار برلين أرخص. فاشتريت بالماركات بعض الاسهم ووضعتها في الدوسييه وبعد شهرين عندما حاسبت البنك كان بدل الاسهم لا يساوي أكثر من ثلاث بنسات.. ومعنى ذلك ان الماية باوند بمدة شهرين أصبحت لا شيء.

ايطاليا

هبوط المارك إلى ما دون المعقول عرقل الاشغال التجارية تماماً إذ إن المعامل والتجار أخذوا يتعاملون بالدولار والمعادن فقط وهذا أوقف تجارة التصدير نهائياً وإذا تجاوز الشيء حده انقلب إلى ضده... ولذا فقد أخذ المستوردون الأجانب ينظرون إلى أسواق جديدة وسافر كثير منهم إلى فرنسا وايطاليا لهذا الغرض.. ولهذه الأسباب ولرغبتي في رؤية ايطاليا تركت برلين بعد عودتي من البلطيق بمدة وجيزة وذهبت إلى ميلانو وهناك تواجهت مع هارون وغالي شماش وزرت كثيراً من المعامل للمصنوعات الحريرية في كومو وغيرها من المدن الصناعية في شمال ايطاليا وأتخذت من فندق ديانا في ميلانو مقراً لي. وما عدا الاشغال قمت بسياحة إلى الجنوب فزرت فلورانسا

وروما ونابولي وكات تلك سياحة مفيدة جداً ومهذبة.. شغفت كثيراً بالمتاحف والمباني العظيمة القديمة في فلورانسا وروما وشاهدت ما كنت قد قرأته في السابق كخرائب روما القديمة والكتاكومب، وفي نابولي ذهبت إلى بومبي وصعدت على جبل «الويزو».

قضيت في ايطاليا ما يقارب الخمسة أشهر فأحببتها وأهلها وتركت لي تلك الزيارة الذّ الذكريات وأطيبها... بلاد جميلة لا سيما حول البحيرات في الشمال: كومو - ستريزا بلاّجيو وغيرها فإذا كان للإنسان رفيق لطيف يظن نفسه في تلك المحلات انه في عالم الخيال ولي في كل تلك الاماكن ذكريات هي بلا شك من الذّ ما مرّ بي في حياتي.

ووجدت الطليان أناساً مرحين طيبين يحسنون المعاملة مع الغريب، فالفرق بينهم وبين الالمان كبير وإن كانوا أقل من هؤلاء علماً ومقدرةً وانتظاماً... فالطلياني بصرف النظر عن قلة متانة اخلاقه هو قريب إلى الشرقي وإلى عاداته وطباعه. تعلمت اللغة الايطالية مع فتاة جميلة كانت تدرسني في حديقة الفندق وأحياناً في حديقة البلدية بالقرب من الفندق وكنت أتكلم تلك اللغة العذبة السهلة بشكل معقول عندما تركت ميلانو عائداً إلى برلين في كانون الأول/ديسمبر من تلك السنة.

أثناء زيارتي روما ذهبت يوماً إلى كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان وقضيت فيها بضع ساعات أمتع نظري بما فيها من بدائع الفن وجماله كهيكل موسى «لميكل انجلو» وغيره من الآثار التي تسحر قلب الانسان..

وكنيسة القديس بطرس ليست بيتاً للحج للعالم الكاثوليكي فقط بل انها فوق ذلك كعبة للزائرين من جميع الأمم والنِحل... وعندما خرجت من الكنيسة هاجمني حسب العادة باعة المسابح والصلبان والرسوم والتذكارات الأخرى، فالحجاج يأخذون بعض هذه الأشياء للذكرى وللتبرك بالكنيسة ولكني لم أشتر شيئاً وكان أحد الباعة يمشي إلى جانبي ويعرض عليّ ما لديه من «المبركات» واراني «ألبوماً» يحتوي على مناظر روما كنت قد اشتريت منه نسخة قبل يوم من أحد المحلات في المدينة ومن باب الاستفسار سألته عن السعر فقال لي: ستون ليرة. والحال ان النسخة التي اشتريتها كلفتني ثلاثين ليرة فقط.. فلم أجب وبقيت متابعاً سيري ولكن البائع لم يتركني فأخذ يمشي معي وخفض السعر إلى خمسين ليرة ثم إلى أربعين.. فضحكت وقلت له عشرين ليرة! فنظر إليّ وابتسم قائلاً بصوت منخفض «أنت من بني عمنا!» لم أفهم قصده في بادىء الأمر.. ولما رأيته يضحك ويغمز بعينه عرفت أنه حقيقة من اولاد عمنا اسرائيل. هنا في مدينة الفاتيكان وعلى أبواب كنيسة القديس بطرس يزاحم اليهود باعة الصلبان والبخور والمسابح ويستغلون سذاجة الحجاج. لله درك يا عمنا اسرائيل! والعادة طبعاً تقضي بأن يشتري الحاج هذه الأشياء المباركة دون مفاصلة لأنه عند تركه الكنيسة لا يزال يشعر بقدسية الدين وعظمة الآخرة، وفناء هذه الدنيا. فالوقت إذن ليس وقت بيع وشراء ومفاصلة فيطلب البائع ما يريد ويدفع له الحاج البدل ويحتفظ بتلك الحاجة للذكرى والتبرك. فلما رأى صاحبنا اليهودي اني أفاصل على سعر المجموعة أخذ يشك في أمري ولما دفعت له عشرين ليرة بدلاً من الستين تأكد بأنني لست من الحجاج المؤمنين ففاتحني بأنه يهودي معتقداً بأنني من أمته! فتركته على ظنه وتركني باسماً فرحاً!.

كنت شديد الرغبة في زيارة الفاتيكان والتشرف بمقابلة البابا... ذهبت إلى باب الفاتيكان وتكلمت مع أحد ضباط الحرس السويسري فأخبرني هذا بأنه يجب لذلك كتاب توصية ورخصة خاصة من الكاردينال و... و... فوجدت أن للأمر صعوبة فقلت للرجل أنني باقٍ يومين فقط في روما ولا استطيع أن أكمل هذه المعاملات وشكرته وانصرفت ولم ابتعد عنه سوى خطوات، فناداني وقال لي إذا كان الأمر كذلك فانه يساعدني بشرط أن أحفظ السر.. فوعدته بذلك. قال أن لديه جوازاً جاهزاً باسم ابن عمه للمقابلة التي ستكون غداً وأنه مستعد بأن يسلمها لي ويؤخر ابن عمه لمقابلة الأسبوع القادم.. ثم أخذنا نتمشى مبتعدين عن باب الفاتيكان وأخذت صورة في ميدان القديس بطرس وبعد ذلك سلمني الجواز باسم ابن عمه «شلوتن». فشكرته كثيراً وانصرفت. وفي اليوم الثاني حوالي الساعة العاشرة صباحاً كنت على باب الفاتيكان وعندما اريتهم الجواز دلوني إلى غرفة كبيرة قريبة من المدخل حيث ينتظر الزوار... وأتى بعدي بضعة أشخاص ولما تمّ العدد المنتظر أتانا أحد القساوسة وأخذنا إلى الطابق الأول. ودخلنا هنا إلى صالون كبير محتشم وجلسنا على أثاث معتبر. كنا حوالي العشرين شخصاً بين طليان وأجانب وكانت الاكثرية للنساء. وكلُّ كلهن يرتدين اللباس الأسود وعلى رؤوسهن البراقع السود. وكان السكوت عميقاً، والخشوع عظيماً، وكنت أشعر بشيء غريب فيه احترام لهذا المحل المقدس في العالم المسيحي وفيه تبجيل لشخص البابا وهو وكيل الرب على هذه الأرض ومع كل ذلك كنت أشعر أيضاً بشيء من الخوف. لأن جوازي باسم رجل آخر وأنا مسلم ولربما يحصل مني خطأ في هذه المراسم التي لا أعرف عنها شيئاً بالمرّة.... ومع ذلك كنت أنتظر مع المنتظرين وكنت منتبهاً حتى أعمل ما يعمله الباقون... وبعد مدّة من الانتظار فُتح باب الغرفة المجاورة من قبل الحراس وأتى القسّ يخبرنا بقدوم قداسة البابا فقام الجميع وأتى البابا بلباسه المعروف يتبعه عدد من كبار رجال الدين فخر الزوار ركُعاً فركعت مع الراكعين ثم وقفنا وتكلم البابا كلمات لم أفهم منها شيئاً وبعد ذلك أخذ الزوار يتقدمون فرداً فرداً يركع كل منهم أمام البابا ويقبل الخاتم الذي بإصبعه فيباركه قداسته وتقدمت أنا أيضاً وركعت وقبلت الخاتم وباركني قداسته وكنت في الحقيقة مخلصاً بكل ذلك وإن كنت مسلماً.. فهذا شخصية دينية كبيرة محترمة لها هيبتها ولها في ماضي البشر ومستقبله أكبر نفوذ معنوي.. ولما خرج البابا كنت في الحق منشرح الصدر فرح القلب. أخذنا القسّ بعد ذلك ودلنا على داخل الفاتيكان وأعجبتني المكتبة وفيها آلاف من المجلدات القديمة والحديثة أكثر من كل شيء آخر. وقضينا أكثر من ساعتين بطواف قصر الفاتيكان ولم نر إلّا قسماً منه. عندما خرجنا رأيت الضابط فتسالمنا وتحادثنا ثم ابتعدنا فأعدت له الجواز مع هدية مناسبة وشكرته مجدداً على فضله.

ومن مشاهداتي في روما لن أنسى الكتاكومب أي مقبرة المسيحيين ايام الرومانيين وهي في ضواحي روما، وعبارة عن دهاليز مظلمة تحت الأرض لا يدخلها النور أبداً. نزلنا إليها بسلّم ضيق منحوت في الأرض وبيد كل منّا شمعة مضاءة لتريه الطريق... هكذا كانت مقابر المسيحيين وتلك عباداتهم في تلك الأيام حين كان المسيحيون مضطهدين تريهم روما أشدّ العذاب وأمرّه.. هل كان يا ترى يفكر هؤلاء المساكين بأنه سيأتي يوم يصبح دينهم أقوى الأديان وأوسعها انتشاراً بين البشر وتكون معابدهم ومقابرهم من أعظم آثار الدنيا...

«فرنسا»

في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٣ عدت الى برلين، فوجدت أن الوضع قد تبدّل على أثر إصدار المارك الجديد وتثبيت العملة على أساس الذهب المستند الى الثروة العقارية وهذا تدبير يرجع فضله إلى الدكتور شاخت. فالاستقرار هدّأ الأعصاب بعد أن ثبت المارك على أساس ٤٠ بليون مقابل باوند واحد. وصدرت قوانين وأنظمة جديدة حول تجارة التصدير فكان المشتري مجبوراً أن يدفع القسم الأكبر من الثمن بالدولار او الباوند او العملة الأجنبية على أساس الذهب، وهكذا انقضى دور المضاربات ودور الفوضى المالية وفي الوقت نفسه تقلصت الصادرات بشكل محسوس.

بعد أن بقيت بضعة أشهر هناك سافرت الى فرنسا بناءً على طلب من بغداد لأن أسعار الفرنك الفرنسي أخذت تنزل وذلك مما شجع التجارة الخارجية. وصادف في هذه السفرة أن كان معي إميل بطرس من أهل بيروت وقد أتى بأشغال تعود الى المحل الألماني الذي كان شريكاً فيه. وإميل هذا رجل طيب ثخين وعريض يحب النوم والأكل والعيش الهني. وكان هناك أيضاً محمود الباجه جي وفتح الله عبّود فكانت جماعة لهو لا بأس بها. تعرّفت على محل الخواجات «فياض وسبا» وعملت بواسطتهم بعض الأشغال وسافرت الى ليون لزيارة معامل الحرير ومقابلة التجار المشتغلين بتلك الأصناف واشتريت كميّات كبيرة من البضائع لم تزل بقاياها موجودة في الخان عندنا.

لم تكن زيارتي هذه المرّة مثل الزيارة الأولى قبل سنتيْن. فالحياة في برلين وايطاليا والاختلاط بالناس والتجار جعلتني أنظر الى الدنيا وما فيها غير نظرتي وأنا آت من بغداد. ولم أذهب هذه المرّة إلى المتاحف، ولم أزر المعاهد، ولم أدرس بل كنت عملياً أشتغل في النهار وعند انتهاء الشغل أدخل في حياة الكسل واللهو مع الأصحاب وحياة «مونمارتر» و«مونبارناس» و«الكارتيه لاتان» وكانت هذه لذيذة ولكن كنت أعلم بأنها تافهة وفارغة ولم يسحبني هذا التيار كثيراً. وخلال هذه السفرة تعرفت على موفق الألوسي وباهر فائق في الكارتيه وقضيت سويعات طيبة في حي الطلاب. وهكذا درست ناحية جديدة من حياة باريس فذقت حلاوتها ولمست مرارتها. ولا أنسى تلك الليلة في أزقة «مونمارتر» مع إميل ومحمود وذلك البيت ومشاجرة محمود مع فتاة «مونمارتر» لأنها لم تقم بالشروط المتفق عليها ومجيء «الأباش» (ابو جاسملر) للدفاع عن حقوق الآنسة المحروسة وتركنا ذلك البيت المخيف وتلك الأزقة المظلمة مسرعين. تلك كانت ساعات الشباب مع ما فيها من طيش وسخافة وحماس وتجارب.

وصلني كتاب من ابراهيم من نيويورك يخبرني فيه أنه مريض وأن الطبيب أشار عليه بالسفر إلى سويسرا لأجل الاستشفاء، وأنه مصاب بالتهاب غشاء الرئة «البلورزي» وأنه سيسافر قريباً إلى اوروبا. فأقلقني هذا الخبر وأزعجني وبقيت في باريس أنتظر تفاصيل وصوله حيث ذهبت الى «الهافر» لاستقباله، وفرحت كثيراً برؤيته وقد وجدته ضعيفاً. فعدنا الى باريس وسكنّا في فندق «ماجستيك» لأنه قريب من غابة بولونيا حيث الهواء أنقى من هواء المدينة. وبعد أن طمأننا الطبيب المختص تقرر سفره الى لوزان في سويسرا لأجل الاستراحة والاستشفاء فرتبنا ما يلزم وسافرنا الى لوزان خلال الأسبوع. بقيت مع ابراهيم في «الكراند اوتيل» بضعة أسابيع حتى يتعود على المحل والناس وحتى حصل عندي اطمئنان تام حول صحته وانها أخذت بالتحسن.

من سويسرا رجعت الى برلين والى اشغالي. وكان مكتبي مجاوراً لمكتب جورج الخوري وكان عندي كاتبة تقوم بأعمال المكتب عند غيابي. هذا الصيف ١٩٢٤ ذهبت الى «هيرنكسدورف» على بحر البلطيق لأجل الاستراحة. وكان كل فكري عند ابراهيم ولكن كانت تأتيني اخباره دائماً وأنه في تحسن مستمر. تعرفت على أناس كثيرين على ساحل البلطيق بينهم «نتاشا». حيث أقمت هناك نحو أربعة أسابيع عدت بعدها الى برلين.

حادثة الشابندر

بينما كنت أُطالع جرائد بغداد في مكتبي لفت انتباهي عنوان في إحدى الجرائد يقول: «حادثة الشابندر» فقرأت الخبر بسرعة واستغربت منه كثيراً وبقيت في قلق، وخلاصة الخبر ان ثلاثة أشخاص قصدوا الى الخان فبقي اثنان منهم في الطريق ودخل الثالث الخان وصعد الى غرفة والدي وسلّم اليه كتاباً يطلب فيه باسم الجمعية السرّية الوطنية ٢٠٠٠ روبية على ان يدفع المبلغ حالاً وإلّا فإنهم يمحوه هو وأولاده وبيته. وحاول والدي إقناعه بالصبر فلم يقنع واستمر بالتهديد مشيراً الى الصندوق الحديد. فنهض والدي متوجهاً نحو الصندوق ثم التفت بسرعة الى الشاب وعبطه عبطاً فسحب الرجل يده من جيبه وفيها مسدس ولكن والدي أمسكه بكل قواه وصادف في تلك اللحظة مجيء السيد مصطفى الأعظمي، فلمّا رأى الوضع أسرع وأمسك بيد الجاني التي تحمل المسدس فعضّ السيد مصطفى من كتفه ولكن السيد لم يتركه ثم أخذ يسحل بهما الى خارج الغرفة ويصرخ «يا سيد خليل اسرع لي بالمدد» منادياً صاحبه في الطريق.. وعلى اثر ذلك نادى والدي البواب أحمد فصعد ومعه بعض الحمّالين وأمسكوا بالجاني وأخذوا منه المسدس. ثم اتصل والدي بالبوليس فألقى القبض عليه وعلى رفيقه السيد خليل من بعده.

فلمّا قرأت هذا الخبر بقيت في قلق واضطراب وأبرقت الى بغداد استفسر عن صحة والدي وأشرت عليه ان يترك بغداد. وأتاني الجواب مطمئناً ومخبراً أن والدي سيسافر قريباً. وسافر والدي فعلاً الى برلين في كانون الأول/ سبتمبر ونزل في فندق «كايزر هوف» مدّة بقائه في برلين. واستقبلته في المحطة وفرحت بلقياه وقضينا وقتاً طيباً معه في برلين ولكن سرعان ما أخذ يشعر بالملل لعدم وجود أشغال تلهيه وتقضي له وقته. فقرر أن نقفل محلّنا في برلين لعدم وجود الأشغال ونترك ادارة البيوت الى كورجي سالم ونسافر الى فرنسا وانكلترا لدرس الحالة التجارية هناك. فسافرنا الى بروكسل وبقينا مدّة، ثم الى لندن حيث بقينا ١٢ يوماً وكنّا نقضي أكثر الأوقات بمقابلة المحلات التي لنا علاقة تجارية معها وندرس الأشغال الجديدة ونسعى لحسم بعض الأمور القديمة المعلقة.

من لندن رجعنا الى باريس فنزل والدي «بالكراند اوتيل» ونزلت أنا في فندق قرب ساحة «الاتوال». وبعد مدّة سافرت لوحدي الى لندن للبتّ بمسألة معلقة بيننا وبين محل «ساموئيل» ثم عدت الى باريس.. وانتقل والدي الى فندق «ريتز». وكنّا نتلاقى في كل يوم صباحاً فنقضي ما عندنا من الأشغال والمخابرات ثم نتغدى معاً وبعد ذلك كل منّا يذهب الى أموره الخصوصية حتى اليوم التالي وهكذا كانت بيننا اتفاقية صامتة. والتحق بنا ابراهيم آتياً من لوزان وكان قد شفي تماماً والحمد لله وسكن في الفندق نفسه معي.

ذهبت يوماً الى «الكراند اوتيل» حيث كان يسكن والدي وإذا بالبواب يسلّمني كارتاً وعليه «جمال أدهم» فاستغربت كثيراً، وسروري كان أعظم من استغرابي.. هذا جمال رفيقنا في مدرسة الاتحاد والترقي.. الآن في باريس.. وإني لم أره منذ عشر سنوات. ثم كيف عرف بعنواني..

بقيت في الفندق انتظره حسب الاشارة في بطاقته وبعد برهة من الزمن أتى فسلّمنا وتعـانقنا بكل حرارة وسرور.. ما ألذّ اللقيا مع أصحاب المدرسة ورفقاء تلك الأيام البعيدة. ثم سألتـه كيف وجدني، قال: انــه ذهب ليأخـذ صورة عنـد الرسـام الفلاني وعنـدما أخـذ يقلب الألبوم لينتخب نموذجاً رأى صورتنا؛ والدي وابراهيم وأنا فسأل الرسام عن ذلـك فدلّـه على عنـواننا في «كـراند اوتيل»، فكانت صدفة جميلة وتقابلنا أكثر من مرة بعد ذلك حتى سفره إلى أنقرة، إذ كان مـوظفاً في المالية وكان بمهمة في باريس..

أيام الكرنافال ذهبنا الى نيس فسكن والدي في أحد الفنادق الكبـيرة على البحـر وفضّلنا أنـا وابراهيم السكن في فندق صغـير في البلد ـ استـأنسنا كثيـراً بمهرجـانات الكـرنافـال وذهبنا الى «كان» والى «مونت كارلو» ولعبنا بالروليت. فالحيـاة على شـاطىء «الريفيـيرا» كلها بـذخ وإسراف وانس، فهي جنّة الأغنياء والمليونيرية على ترتيب «يكدّ أبو كلاش ويأكل أبو جزمة».

وبعد بقائنا مدّة في نيس تقرر سفرنا الى استانبول فأرسلنا أغراضنا الثقيلة بالباخـرة وركبنا القطار يومـاً وتوجهنـا الى الشرق، الى استانبـول: والدي وأنـا بينما أبحـر ابراهيم من مـارسيليا ووصل بعدنا بيومين أو ثلاثة أيام الى استانبول.

«استانبول»

لاسم استـانبول معنى خـاص لمن نشأ أيـام الدولـة العثمانيـة. فهي مركـز الخلافـة ومقـر السلطنة ومنبع الثقافة وكان لمن زار استانبول او درس فيها موقع خاص في نظر الناس.

وكانت استانبول في ذلك الزمن كأنها آخر الدنيا وأولها منها يأتي الخير وكذلك الشر...

عندما كنّا أطفالاً ونفكر أن عمي في استانبول كنّا نشعر أنه كان في محل لا يصلـه إلّا القليل من الناس، ولّما سافر والدي كنّا نحس الشيء نفسه. وكم حسدنـا «وحيد» الخـادم لأنه ذهب مـع والدي ورأى استانبول...

فالآن نحن في استانبول ولكن الدنيـا قد تبـدّلت وتبدلت معهـا الأفكار والمـواقف. فمن يأتي لاستانبول بعد أن يزور اوروبا واميركا لا يجد ما يجده الزائر القادم مباشرة من بغداد.

عند وصولنا ذهبنا الى فندق «بيره بـالاس» الذي كنّـا نسمع بشهـرته ونحن أولاد في بغـداد فكنّا نتصوره قصراً من قصور الجنّة، أمّا الآن فوجدناه فندقاً من الدرجة المتوسطـة بالنسبـة الى فنادق اوروبا.. و«شارع بك أوغلو» الذي كنّا نتخيّله ونحلم به ما هو إلّا طريق ضيق قذر بالنسبة الى الشانزيليزيه» «وانتردن لندن» وغيرها.. وقد وجدت أن استانبول هـي أقل درجة من بومباي... ولكن لاستانبول تاريخاً حافلاً وآثاراً قديمـة بديعـة وقصوراً لهـا عنفات وجـوامع تشهـد بعظمة الماضي ولها على ساحل البوسفور مناظر طبيعية جميلة ذكّرتني بما رأيته بين نيس ومونت كارلو... أما الحياة الاجتماعية فكانت بدرجة تتوسط بين بغداد واوروبا لوجـود الأرمن والاروام وعدد من الاوروبيين فيها...

سكنّا في بيرة بالاس مدّة ثـمّ استأجر والدي داراً في عقد ضيق في بـك أوغلو فـانتقلنا اليـه. كان والدي مبسوطاً من محيط استانبول اذ وجد فيه اصدقاؤه القدامى من الارمن والاروام ورتّب

معيشته على النمط القديم.. أما ابراهيم وأنا فأخذنا نحسّ بالملل وكأننا عدنا الى شيء يشابه كثيراً حياة بغداد القديمة. لا شغل ولا عمل ولا لهو.. لا سيما وبظرف اسبوعين او ثلاثة رأينا كل ما يجب على الانسان ان يراه من الآثار فصارت الأيام تمر مثقلة بالكسل والخمول.. فكان من الصعب عليّ أن أعود الى ذلك النمط من الحياة بعد أن تعودت على غيرها طوال ثلاث سنوات وكان أخي ابراهيم في الوضع نفسه..

كان والدي راغباً باستئناف الاعمال التجارية في استانبول وتأسيس شركات مع زيد وعمرو حسب عادته ولذا فقد قرر أن يبيع الدور في برلين للحصول على راس مال كاف للقيام بتلك الأشغال. كنت غير مقتنع بمحاسن هذه الأشغال وكنت أعتقد بأنه لن يستفيد منها إلّا زيداً وعمراً ومن كان يحبّذ له الفكرة من اصدقائه الأرمن ولكن لم اخالف ولم أعترض. لأنه كان لي بذلك مبرر أن أعود الى برلين لدرس قضية الدور وبيعها إذا أمكن. وكنت عالماً بأن بيع الدور ليس بممكن في ذلك الوقت نظراً للحالة السائدة في برلين ولكنني وافقت والدي بالرأي تخلصاً من حياة استانبول وحبّاً بالعودة الى حرية برلين وجوّها الطلق.

عدت الى برلين في آذار/ مارس وسررت بملاقاة الأحبة والأصدقاء، وعدت الى الحياة وما فيها بعد فترة دامت عدة أشهر.. وأخذت أدرس موضوع بيع الدور وأُماطل في الأمر وأكتب الى والدي. ومرّ على ذلك شهر أو شهران..

- ١١ ايار/مايو ١٩٢٥ -

هذا يوم أسود في حياتي.

عند عودتي إلى برلين من استانبول كنت أشعر أحياناً بتعب وكنت قليل النشاط.. وأخذ ذلك التعب يزداد من يوم إلى آخر واصبحت لا أشتهي الأكل وأشعر ببرد. وأنني بحالة غير طبيعية. راجعت طبيبي فقال لا شيء واعطاني بعض العلاج المقوي. ولكن حالتي لم تتحسن بل بالعكس. فأخذتني «نتاشا» إلى طبيب روسي وكانت هي تبدو قلقة عليّ ففحصني الطبيب بالاشعة وقال ان هذا هو أثر لملاريا قديمة ونصحني أن ابلع «الكينين» وأشرب «الكونياك». ولم تفدني نصائحه. وذات يوم جاءت «نتاشا» بميزان حرارة فوجدت حرارتي ٣٩ درجة وأخذت تبكي ولم أفهم الموضوع ولكن كنت شاعراً بأنني مريض وتعبان. وفي ١١ أيار/مايو أخذني كورجي سالم إلى المعاينة عند البروفسور «بروكش» «Bruksch» وبعد الفحص أخذ البروفسور يتكلم مع كورجي بصوت منخفض ورأيت كورجي مرتبكاً وفهمت أن هنالك شيئاً. ثم كلمني البروفسور بروكش قائلاً بأنه يعتقد ان هنالك أثر للتدرن في الرئة اليسرى وأنه يجب أن انتقل حالاً إلى المستشفى وطمأنني البروفسور بأن المسألة بسيطة وأنني سأشفى قريباً.

أخذني كورجي إلى البيت وجمع حوائجي ونقلني إلى المستشفى وبقي معي طوال المساء إلى أن أتى البروفسور بروكش ومعه معاونه ورئيسة المرضات وكانت العناية كبيرة وكانت صداقة كورجي واهتمامه بي وتأثره على وضعي تدل على صداقة حقيقية ووفاء لا يجده الإنسان إلّا نادراً. وإني لا أنسى ذلك لكورجي مدى الحياة.. بعد أن تركوني وذهب كورجي وجدت نفسي لوحدي في هذه الغرفة الكبيرة وفي هذا المستشفى، وهذه أول مرّة أدخل مستشفىً. صرت أفكر.

وكنت لا أصدق أنني مصاب بمـرض في رئتي. ومن الغريب أنني لم أشعـر بخوف. ولكنني صرت أشعر بحزن. حزن لنفسي وحزن لوالدي وأخي إبراهيم وحزن لمن يحبني من اصدقائي. سيتألمون كثيراً عندما يعلمون بوضعي. سيحزن والدي ويحزن إبراهيم ومحمد. كيف كـانت تشعر والـدتي لو كانت على قيد الحياة. كيف كانت تحزن لو سمعت بأن ابنها الذي تحبه ويحبهـا مصاب بهـذا المرض؟ مثل هذه الأفكار والهواجس كانت تأتيني، ثم اطفأت النور ونمت.

في اليوم التالي أتى البروفسور وفحصني بالاشعة وتأكد من الوضع وقـال يجب أن أذهب إلى احدى «السناتوريومات» (المصحات) في سويسرا لمدّة ستـة أشهر أو أكثـر... فكتبت إلى والدي في استانبول اخبره بأني مصـاب «بالمـلاريا» وبعـد يومـين بينت له الحقيقـة وطلبت منه أن يـرسل إبراهيم ليرافقني إلى سويسرا.. وقال لي كورجي بأنه مستعد أن يصحبني فشكرته وكنت أفضـل أن يأتي إبراهيم.

وأتت «نتاشا» في اليوم الثاني وأخذت تقبل يدي وتقبلني وتبكي وقد اظهـرت صداقـة ووفاءً، وكانت تشعر بعذاب في قلبها. إذ ربمـا هي كانت السبب لمـرضي.. وسبق لها أن أخبـرتني بأنهـا كانت مريضة وعندها «كاتار» عندما كانوا في روسيا وذهبت إلى مصـح في يالتـا في القرم. وكـانت تسعل من وقت إلى آخر. فقلت لها بأن لا تفكر بمثل هذا. هذا كان نصيبي ولم أحمل لها في قلبي أثـراً من نقمة أو لـوم. وقد يكون أنني أخذت المـرض منها ولكن مـا الفائـدة من التذمـر والندم الآن؟

تخـابر البـروفسور بـروكش مع المصـح في «داڤوس» ورتبّ كـل شيء.. وذكـرتني «داڤـوس» بصديق عزيز توفي فيها وهو سليمان الجادرجي. ذهب هناك للاستشفاء وعملوا له عملية توفي على أثرها. وكتب لي أخوه كامل من استانبول سنة ١٩٢١ بأنه عندما شعر سليمان بقـرب الأجل طلب من المرضة ان تعطيه رسماً كان في شنطته وكان ذلك رسمي.. مسكـين سليمان ذهب في الثـامنة عشرة من عمره فكم بكيت عليه وكان من أعز الاصدقاء. وأنا الآن ذاهب إلى داڤوس للاستشفاء.

بقيت في الكلينك في برلين عشرين يوماً تحسنت صحتي إلى حد ما خلالها، وحضر إبراهيم من استانبول، وكان متألماً ولكنه تظاهر بالجلد وكنت بنفس ذلك الوضـع قبل سنـة عندمـا رافقته من باريس إلى لوزان. سافرنـا بالقطـار إلى «زوريخ» ومنهـا أخذنـا القطار إلى داڤـوس وكان لـوجود إبراهيم معي في الطريق وفي مصح «شاتزآلب» قوة وارتياح لي وكان قلبي يتفطـر حزنـاً كلما أراه متأثراً عليّ إذ كنت اعلم بما يشعر قلبه نحوي.

«شاتزآلب Schatzalp»

يمكنني أن اكتب مجلداً ضخماً حول علاقتي «بشاتزآلب» وهو المصح الذي قضيت فيه ما مجموعه يعادل الخمس سنوات من الزمن ولكن اكتفي هنا بذكر ما أراه ضرورياً لاعطاء فكرة مجملة لاكمال سيرة حياتي وتجاربي في الحياة.

وصلت مع إبراهيم في ٢٩ أيار/مايو ١٩٢٥ مساءً إلى داڤوس فوجدنا في المحطة «الهرشمت» العجوز ينتظرنا فركبنا عربة وتوجهنا إلى محطة «الفنيكولير» وبواسطة هذا القطار المتسلق صعدنا إلى علو ٣٠٠ متر على جبل شاتزآلب المطل فوق داڤوس والذي شيد على سفحه المصح الكبير الذي يحمل اسمه.

في المصح استقبلني المدير والمضمد وذهبت مباشرة إلى السرير. جاء الدكتور وولف أخذ درجة حرارتي واعطاني بعض الدواء لأجل النوم. ثم أتى لزيارتي عند وصولي كل من انطوان ظريفة وعزيز علوي المصري. فانطوان ظريفة هو شاب من فلسطين كنت قد تعرفت عليه في برلين قبل سنتين وقد مرض هناك وأتى لهذا المصح. أما عزيز علوي فقد قابلته عند جورج الخوري في برلين قبل شهرين أي بعد عودتي من استانبول وكان مدعواً عند جورج على الغداء، وكانت بينهما أشغال تجارية أتى من أجلها عزيز إلى برلين. وكنت قد وجدته شاباً لطيفاً ذكياً وكم أسفت يومها لأنه كان مريضاً ولأنه يجب عليه أن يعود إلى المصح... ومن الصدف الغريبة أنني مرضت وأرسلت إلى نفس المصلح ولم يمر على تعارفنا اكثر من شهرين. نعم الحياة كلها عجائب وغرائب فقبل شهرين تألمت على وضع عزيز، والآن جاء بنفسه إلى غرفتي يسليني ويشجعني.

ثاني يوم صباحاً نزلت إلى المعاينة، ففحصني رئيس «الاطباء الدكتور نيومان Neumann ثم أجريت التحاليل اللازمة. تبين أن مرضي لم يكن خفيفاً ولربما كنت مريضاً من قبل ستة أشهر ولم أعرف. بقيت طوال الوقت في السرير ولكن لم تتحسن حالتي. فالحرارة كانت مستمرة والعرق في الليل يتزايد، وكذلك الضعف العمومي. في ١٦ حزيران/يونيو عملوا لي عملية «النيوموتوراكس» وبقيت متضايقاً في بادىء الأمر، ولكن بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخذت الحالة تتحسن نوعاً ما ولكن ببطء.

في تموز/يوليو أتى شاب روسي أرمني اسمه ساتوروف وهو من أصدقاء إبراهيم في لوزان وأصبحت عندي جماعة لا بأس بها من الاصدقاء وهم انطوان وعزيز وساتوروف وشنو Chenu وهو شاب فرنسي ووانير Weiner وهو انكليزي يهودي وغيرهم وهذا ما وجدته مكتوباً في مذكرتي لذلك الوقت حولهم: «عادات هؤلاء الاصحاب وكلامهم لم يعجبني... أجدها مخالفة للاخلاق.. فإني أشعر كمحبوس جديد بين محابيس قدماء»... وفي الحق كنت أشعر هكذا في بادىء الأمر حتى تعودت مع مرور الأيام واعتقد أن كل قادم جديد يمر بهذه الدورة إذ أن حياة المصحات هي حياة خاصة لا تشابه غيرها من عدة وجوه.

وفي شهر آب/آغسطس جاء إلى داڤوس البروفسور براور Brauer من هامبورك وهو من

الاعلام في الامراض الصدرية وجراحتها. جاء يزور المصحات ويقوم بعمليات قطع التلاصقات التي تعيق تضيق الرئة بواسطة «النيوموتوراكس». ودعاه الدكتور نيومان إلى «شاتزآلب» لفحص المرضى الذين لم تكن عملية «النيومو» لديهم ناجحة تماماً. وكنت بين المحظوظين الذين تقرر إجراء عملية لهم لأن الضغط لم يكن كاملاً والتحسن بطيئاً. قضيت يومين قبل العملية في خوف ورعب شديدين بدرجة أنني صرت احلم بالعملية وأهوالها كلما نمت وسبب ذلك ما سمعته من أن عزيز وأنطوان وكانا قد مرا في هذه العملية قبل سنة. وكان انطوان بصورة خاصة يبالغ في الآلام والاوجاع والاخطار ولم أكن عالماً تماماً بحبه لتعظيم الأمور في حينه... وبقيت يومين في هذا القلق، وكان ابراهيم يطمئنني ويشجعني ولكن بدون فائدة. ومما كان يزيدني هولاً أن العملية تجرى بدون تنويم. فكان المريض يشعر بالاوجاع ويرى كل شيء بعينيه ويسمع بأذنيه. وكم كنت اغتاظ عندما أرى أنطوان يكرر ويعيد الحديث وهو يضحك ويهزأ.. وكانت هذه روحية غريبة عند بعض المرضى الذين يشعرون بارتياح بأن يروا الآخرين يقاسون ما قاسوه هم من عذاب وألم. هذه نفسية قبيحة ولكنها موجودة في كثير من البشر... وأتى يوم العمليات ونقلوني عصراً إلى غرفة العمليات على نقالة.. بقيت أنتظر زمناً في الممر أمام الغرفة وكنت اسمع «طقطقات» الآلات الجراحية وأرى الأطباء والممرضين بلباسهم الأبيض يدخلون ويخرجون.. كنت أرتجف من العصبية وإبراهيم يشجعني والممرض اميل يهدئني. ثم أدخلوني إلى غرفة العمليات فكان هناك ما عدا أطباء المصح والبورفسور براور وأطباء آخرين أتوا من داڤوس ليشاهدوا تلك العمليات الدقيقة الخطرة. وضعوني على طاولة العمليات.. ضربني البروفسور ابرة للتخدير الموضعي في جانبي الأيسر بين الضلوع وبعد بضع دقائق ابتدأ بالعملية.. أدخل بين الضلوع أنبوباً معدنياً مجوفاً بحجم قلم الرصاص ومن داخله مدّ لمبة كهربائية صغيرة لينير جوف الصدر وبدا صدري كالفانوس الصيني المعمول من الورق الأحمر.. وبمحاذاة تلك اللمبة، أدخل ابرة بلاتين تسخن بالكهرباء وأخذ يحرق الاتصالات وكنت أشعر بألم الحرق.. ومن الغريب ان خوفي قد زال فصرت أنظر إلى العملية وإلى الدم الذي أخذ يسيل على صدري وأتكلم مع البروفسور وكأنما العملية كانت تجرى لشخص آخر..

أستمرت العملية ما يقارب النصف ساعة.. ثم أنتهى كل شيء ونقلوني إلى غرفتي. وكان هناك إبراهيم ينتظرني وبدا على وجهه الفرح عندما رآني أتكلم وابتسم وغير مهتم بالأمر.. بات إبراهيم في غرفتي تلك الليلة. وكم كنت أشعر بسعادة أن أرى معي أخي، الذي يحبني وأحبه في تلك الساعات العصيبة..

على إثر العملية حصل عندي نزيف في الجوف الصدري وأرتفعت الحرارة فوصلت أحياناً حد الأربعين وبقيت أربعة أشهر في السرير من جراء ذلك. وبقي إبراهيم كل تلك المدة معي يسليني ويشجعني ويشعر معي... وأخذت حالتي تتحسن قليلاً قليلاً.. أخذت الحرارة تسقط والعرق في الليل ينقطع.. وعادت الشهية وكنت أشعر بأن الحياة التي كادت تفارقني صارت تعود... وصرت أستطيع القيام من السرير والمطالعة.. وسافر إبراهيم إلى استانبول في تشرين الأول/أوكتوبر بعد أن رافقني قرابة الخمسة أشهر في المصح. وأسفت لفراق إبراهيم ولكنني كنت راغباً في سفره وفي ابتعاده عن هذه الحياة في المصح فانه قام بأضعاف ما تفرضه الأخوة نحوي.

في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ابتدأت أتمشى في الكوريدور (الممر). وكان انطوان يساعدني ويمسك بيدي.. لأن البقاء في السرير لمدّة ستة أشهر والضعف من المرض أنسياني المشي.. وكانت تعود إليّ قوتي ونشاطي كل يوم بازدياد حتى أنني في رأس السنة اشتركت بمراسم العيد في بهو المصح وكنت أشعر بصحة جيدة.

بقيت سنتين في المصح والنفخ كان منتظماً كل أسبوعين في بادىء الأمر، ولكن خلال النصف الآخر من السنة الثانية صارت المدّة بين النفخات تطول ومقدار الهواء يقل حتى تتعود الرئة رويداً رويداً على الانتشار بعد الضغط المستمر. ونصحني الطبيب أن أبدأ بالمشي فصرت أنزل ماشياً إلى داڤوس وأحياناً أصعد أيضاً ماشياً، ولكن الرئة كانت لا تتحرك إلّا قليلاً. وفي صيف سنة ١٩٢٧ سمح لي الطبيب بالذهاب إلى برلين لمدة شهرين وهناك صرت أراجع البروفسور Einverricht من جهة «النيومو». وسررت بملاقاة اصحابنا القدامى وكان بالطبع على رأسهم كورجي وجورج و«نتاشا» ثم عدت إلى «شاتزآلب». فوجد الدكتور نيومان ان الرئة قد توسعت قليلاً. وفي أواخر الصيف قررت أن أذهب إلى استانبول لرؤية والدي إذ كان راغباً بحضوري وسافرت على ما أتذكر في أيلول/سبتمبر بعد زوال موسم الحر. وكان والدي ساكناً في «مكتب سوقاغى» فسكنت معه وكان والدي مسروراً لتحسن صحتي، وكنت مسروراً بلقيانا بعد كل ما مرّ عليّ. أما إبراهيم فكان في بغداد يشتغل في محلنا. ووجدت محمود الپاچەجي في استانبول وله محل تجاري يشتغل بالساعات. بقيت ستة أسابيع في استانبول ثم عدت إلى سويسرا. وصادف أن محمود الپاچەجي أيضاً كان يريد السفر إلى هناك لمقابلة معامل الساعات فسافرنا سوية وكانت السفرة لذيذة جداً. ووصلنا «شاتزآلب» وجيوبنا فارغة وصرف محمود حسب عادته حتى رأس المال الذي كان ينوي أن يشتري به ساعات للتجارة.. وتجارة محمود هذه كانت عجيبة وفريدة من بابها. في استانبول كان عنده محل وكاتب وآلة طابعة. وكان يصرف على ذلك وعلى تنقلاته بالتاكسيات أضعاف ما يربحه وهكذا باسم التجارة قضى على رأس المال والأرباح بمدة وجيزة لا سيما وأنه كان يداوم في الكازينو بسراي البلدية وبذلك نظف ما تبقى ولكن لله دره كان دائماً فرحاً مسروراً وهذه فلسفة خاصة في الحياة.

عدت إلى حياة «شاتزآلب» وإلى «نيوموتوراكس» لأن الرئة لم تشف تماماً ومضت سنة وسنة أخرى وأنا أشتغل بالنفخ حتى مللت من نفسي فقررت قطع العصب وأجرى لي العملية البروفسور شرايبر في «شاتزآلب» ومن بعدها بمدة انقطع الميكروب وتم لله الحمد الشفاء في سنة ١٩٣٠. على أنني خلال السنوات الثلاث الأخيرة لم أكن مقيماً بصورة دائمة في «شاتزآلب» فكنت أسافر إلى أماكن مختلفة في سويسرا وسكنت في داڤوس في فندق انكلترا. وفي سنة ١٩٢٩ سافرت إلى باريس لمقابلة «المستر كاوونى» ممثل شركة الكهرباء من أجل تسوية الخلاف الناشب بين الشركة وبيننا فقد كان لنا بموجب الامتياز ٤٠٠٠٠ سهم أي ما يعادل ذلك ٤٠٠٠٠ باوند فأرادت الشركة أخراجنا ودفع مبلغ بسيط بالأوراق النقدية التركية مستندة بذلك إلى الحرب ومعاهدة فرساي.. وبعد أخذ ورد طويلين أتفقنا على أن يدفعوا لنا ١٥ ألف باوند نقداً ويبقى لنا ١٠ آلاف سهم بالشركة.

وصرت أقضي أيام الصيف أحياناً في زوريخ وأخرى في لوزان شأني شأن المرضى المتجولين فهم لا مرضى ولا أصحاء إنما بين بين!

أعادت لي مصحة «شاتزآلب» صحتي وأمدت في حياتي من جهة، ومن جهة أخرى زودتني تلك السنوات بتجارب ومعلومات يستحيل على الإنسان أن يحصل عليها في غير ذلك المحيط. محيط المرضى والمصحات. فهذا عالم قائم بنفسه له عاداته وميزاته وله خيره وشره. وله فوائده ومضراته فالذي يسكن مدّة طويلة في ذلك الجو يخرج متأثراً به غنياً بتجاربه.

يدخل الإنسان هذا العالم منكمشاً حذراً خائفاً يشعر بما يشعر السجين الجديد بين السجناء القدامى أو التلميذ الجديد بين التلاميذ القدامى، يتردد. ثم يتعود. ثم يشترك. ثم يمتزج فيكون ركناً من تلك الحياة.

في بادىء الأمر وجدت أهل شاتزآلب مصابين بقلة الحياء والأدب وبقلة الاحترام بعضهم لبعض. كنت أقيس بينهم وبين البشر في المدن وخارج المصحات. كنت أقيس مثلاً بين أنطوان الذي عرفته قبل سنتين في برلين وبين هذا الشاب أنطوان المتفلسف أو المتصوف المتسافه والهازىء من الحياة ومن فيها.. ولكن مع مرور الأيام تعودت وفهمت وشعرت وتبدلت.

أكثر سكان المصحات هم من الشبان والشابات وقد أصيبوا بما أصيبوا في مقتبل العمر وزهو الحياة وهذه ضربة تقلب الإنسان وما لديه من المعنويات رأساً على عقب. وتخلق فيه شعوراً جديداً ومقياساً للحياة نفسها لا يفهمه إلا المسلول. تصبح الحياة في نظره تافهة ولذا يجب التمتع بها بالحد الأقصى.. الاخلاق والاعتبارات الاجتماعية تتظاهر أمامه كمجموعة سخافات فيأخذ منها ما يلذّه ويرمي بما تبقى عرض الحائط فيخلق هو اعتبارات جديدة تلائم وضعه المتردد بين الموت والحياة.

تعرفت في دافوس على مئات من الناس رجالاً ونساء. كان سكان شاتزآلب خليطاً من جميع الأمم والنِحل فيهم الصيني والهندي والفارسي والتركي والعربي والأوروبي مع تعدد قومياته والامريكي من الشمال والجنوب.. تلك مجموعة من البشر متباينة بالاخلاق والعادات والاديان والمذاهب قلّ أن اجتمعت في آن واحد أو مكان واحد إلّا أثناء اجتماع عصبة الأمم. وإذا كان الاجتماع في جنيف موقتاً ولقضاء حاجة معينة ومحدداً بالمصالح والبروتوكولات فاجتماع شاتزآلب والمصحات الأخرى هو أطول مدّة وأقوى صلةً وأكثر صراحةً فتلك اجتماعات بين أمة وأمة أو بالاحرى بين حكومة وحكومة بينما هذه اجتماعات بين إنسان وإنسان. هنا تزول الفوارق.. هنا الكل بشر وقد جمعتهم مصيبة واحدة.

صادفت خلال السنوات الخمس التي قضيتها في شاتزآلب مجموعة غريبة ومفيدة من الناس. وجدت فيها أذكى الأذكياء وأغبى الأغبياء لقيت فيها المثقف الفاهم والجاهل الابتر والعاشق المغرم والهازىء الأهوج والمصلح الطيب والدساس اللئيم والمتواضع الرصين والمتعجرف الفارغ.. والملحد الكافر والتقي المتعصب!

هذه جماعة أكثريتها من الانكليز تخصصت «بالبوكر» والشراب والمزح البريء.. وإلى جنبها جماعة من الفرنسيين والبلجيك وشاغلهم الأهم هو المحادثات العلمية والمجادلات السياسية. وهناك

جماعة صغيرة من الالمان منصرفة إلى الدرس والجدّيات الناشفة. وأهل امريكا الجنوبية نساءً ورجالاً مشتغلون بالديانة والصلاة والكنيسة... والشباب من الطليان كالديوك الرومية يمجّدون موسوليني ويقضون وقتهم «بالفلرت» (معاكسة الفتيات) وبين هؤلاء الجماعات أفراد ينتسبون إلى أقوام مختلفة، فيطوفون من محل إلى آخر ومن مجلس إلى آخر.

أما أنا فكنت أقضي أوقات «الكور» (الدرس) من الصباح إلى الظهر وساعتين بعد الظهر بالدراسة والمطالعة... بدأت بدرس اللغة الروسية مع أستاذ روسي يهودي، ثم درست الطلياني على البروفسور أنجليني وهو اشتراكي ومن أعداء موسوليني وقرأت معه «دانتي» بصورة علمية واستفدت كثيراً من ذلك. درست كذلك الأدبيات الالمانية على البروفسور دكتور فون رودن وهو عجوز شغوف بـ «غوته» و«شيللر» و«هاينه». واستفدت كثيراً من دروسه.

إلى جانب ذلك صرت أطالع كثيراً في الأدب الافرنسي وتاريخ الاديان وكان صديقي «شنو» زميلي في تلك المذاكرات وكان لأنطوان ولع في التاريخ الإسلامي والعربي ولديه مجموعة جيدة من الكتب فاستفدنا منها وقضينا أشهراً نحن الثلاثة مستلقين على ظهرنا في البالكون في أوقات «الكور» صباحاً ومساءً ونتباحث بفلسفة الغزالي وغيرها من المواضيع الممتعة. وفي تلك المدّة قرأت التوراة عدة مرات، كما قرأت مجلدات كثيرة حول الاديان وتاريخ بني إسرائيل حتى أصبحت «فقيهاً» ومرجع ثقةٍ فيما يتعلق بالتوراة في شاتزآلب.

وكنا شنو وأنطوان وأنا نعد «نواة الثقافة» في شاتزآلب، نذهب إلى محاضرات تقوم بترتيبها بلدية دافوس في فندق «كورهاوز» وذات مرّة أتى البروفسور آينشتاين وألقى محاضرة حول «النور في الفضاء والوقت». وتكلم البروفسور وخط على السبورة أرقاماً وأحرفاً وبعد ساعة أنتهت المحاضرة وكان عدد المستمعين نحو ٥٠٠ شخصاً ولكن لم يفهم ما قاله البروفسور أكثر من عشرين شخصاً أو ربما أقل من ذلك ونحن بالطبع كنا بين الذين لا يفهمون تلك النظريات العويصة. وفي اليوم الثاني وأنا في البالكون رأيت البروفسور آينشتاين يتنزه في حديقة الفندق وقد أتى ليرى المنظر من فوق شاتزآلب فأخذت آلة التصوير ونزلت مسرعاً إلى الحديقة فسلمت على البروفسور وقلت له يا سيدي... «كنت أمس حاضراً عندما القيت محاضرتك القيمّة ولكني مع الأسف لم أستطع أن أفهم ما ذكرت فاسمح لي الآن أن اصورك وأحتفظ برسمك كذكرى للمحاضرة..» فضحك ووافق وبقي رسمه عندي رمزاً ثميناً لذلك الدماغ العظيم.

سعة الوقت جعلتني أدرس شتى المواضيع وكنت مطّلعاً على ما يجري في العراق والتطورات السياسية فيه من الجرائد التي كانت تصلني بانتظام وكنت مشتركاً بجريدة سويسرية تصدر في جنيف وفرنسية من باريس وجريدة التايمس اللندنية ومجلة «النيرايست» ومجلات أخرى فرنسية، وبهذه الواسطة لم يمنعني انزوائي على رأس الجبل من الاتصال بالعالم والسياسة.

في صيف ١٩٢٨ كنت في زوريخ في كلينيك «هوكنتوهلر» لعلاج المعدة وكان الحر شديداً والمداواة مزعجة والعيشة في زوريخ مملة وذات يوم وصلتني جرائد بغداد وقرأت فيها بأن وزارة المعارف قررت استعمال العصا على طلاب المدارس العالية لقيامهم بمظاهرات ضد السير آلفرد موند، الصهيوني عند زيارته للعراق.. فتألمت بأن تصل الحالة بنا أن نستعمل العصي لنمنع شبابنا من ابداء ارائهم الوطنية فأخذت القلم والورقة وكتبت مقالاً بعنوان «رجالنا» وأرسلته إلى

جريدة **العالم العربي** في بغداد. فنشره سليم حسون وعلق عليه مشجعاً وأخذت تصلني بعض الرسائل من اصدقائي في بغداد يهنئوني ويطلبون المزيد وعليه صرت أرسل كل أسبوع مقالاً إلى بغداد باسم «علوان ابو شرارة» وصارت النسخ التي تنشر فيها مقالاتي تباع وتنفذ وأصبح علوان ابو شرارة محبوباً بين الشعب ولكن غير محبوب لدى الانكليز وأعوانهم. وكان دافعي الوحيد للكتابة هو الانتقاد الحقيقي وقول الصدق وتنبيه الناس إلى ما كنت أعتقد بأنه الحق والصدق. وبقيت أكتب لعدّة سنوات وإلى أن دخلت السلك الخارجي سنة ١٩٣٣ حينما عيّنت سكرتيراً للوفد الدائم في جنيف. ولم ينس الانكليز ما كتبت وكان انتقاهم شديداً سنة ١٩٤٥ كما سيبين في آخر هذه المذكرات ولكنهم مخطئون وأني لم أزل أعتقد بأنني كنت على حق وأنني لم أقل إلّا الصدق!

وفي صيف ١٩٣٠أتى إبراهيم إلى أوروبا وزارني لمدّة بضعة أيام في شاتزالب. ويوماً قصّ لي حادثة مؤلمة وقعت في الموصل ذهبت ضحية لها طالبة شابة فتأثرت من ذلك الحادث وهو واحد من ألف ممّا يقع عندنا فأوحت لي تلك الواقعة بموضوع جديد فكتبت رواية معاصرة بعنوان «وحيدة» ونشرتها في بغداد. ومنعت الحكومة تمثيلها فوق المسرح في بادىء الأمر، لأنها تتناول ناحية من نواحي الحياة أيام الاحتلال البريطاني. ولكن بعد دخولنا عصبة الأمم تم تمثيلها عدة مرات وأصبحت مرغوبة حسبما سمعت. وفي سنة ١٩٤٠ كنت في بغداد فمثلت «وحيدة» بالاذاعة العراقية وبعد ختام التمثيل أعيد الجزء النهائي من الفصل الآخير وفيه تندب أم على وفاة وحيدة بناءً على طلب من القصر الملكي أي قصر الزهور... وكنت مغتبطاً بأن تنال روايتي مثل تلك الرغبة في الأوساط العالية.

إلى جانب الناحية الثقافية هذه هناك ناحية اجتماعية وسياسية درستها عن كثب بسبب اختلاطي الوثيق بين طبقات مختلفة تمثل الجماعات الأوروبية الراقية، وكم كانت دهشتي كبيرة عندما وجدت التفسخ والجمود والتعصب الديني والقومي والمادية البحتة هي المسيطرة على اذهان هذه الطبقات من الناس.. تلك الطبقات التي فيها أمراء ونبلاء وأغنياء ومثقفون ونصف مثقفين.. كم كنا مخدوعين بتصويرنا أن الرجل الأوروبي يمتاز عن غيره وأنه وصل إلى الكمال أو كاد...

وأيقنت بعد اتصالي ودرسي الأوروبيين دراسة عميقة بأن القوم لا يتميزون عن غيرهم إلّا بالقوة. نعم لديهم قوة وصناعة، ومال، وتقدم في العلوم والفنون، أما الناحية الثانية، الناحية المعنوية، فانها كانت ضعيفة وقريبة للفناء. فالجهة المادية كانت غالبة ومتسلطة على المعنويات وفي هذه الحقيقة سر الفاجعة الأوروبية التي توّجت بالحروب وأهوالها... وهو في نفس الوقت سر الاستعمار الذي قضى بأن تحكم فئة قليلة مجهزة بآلات القتل والفتك شعوباً كبيرة لها مدنيات قديمة وحضارات مزدهرة ومعنويات أرقى بكثير من معنويات الفئة الحاكمة. ولا يملك الإنسان نفسه من أن تنفر من الحضارة الأوروبية المادية عندما يرى هذه الحقيقة المحزنة. ولا اقصد بهذا أن الأوروبيين كلهم من هذا الطراز. لا! ففيهم المتمدن الحقيقي، والمثقف ثقافة صحيحة، والمهذب بالاخلاق السامية، والمستنكر استنكاراً شديداً لكل ما في المدنية المزيفة من آثام وموبقات. ولكن هذه اقلية الآن، لا يسمع لها صوت ولا يأخذ لها برأي، وفي صفوف هذه الطبقة

يحتل «الجنتلمن» الانكليزي موقعاً ممتازاً ولكن مع الأسف فإن عدد «الجنتلمنية» في هذه الدنيا قليل وهو آخذ بالنقصان.

مدة بقائي في شاتزآلب وجدت أن عدد «الجنتلمنية» الذين تعرفت بهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة مع أن الأشخاص الذين اتصلت بهم وعاشرتهم وجالستهم يزيدون على الخمسماية وأكثرهم ينتسب إلى الطبقات الراقية التي بيدها مقادير الأمور...

وأود أن أخصّ بالذكر منهم ثلاثة من الأوروبيين. الأول، هو الفرنسي «شنو» والثاني، الايطالي «الكونت سابيني»، والثالث، الانكليزي «نوكس» يأتي «شنو» من عائلة بورجوازية مهاجرة إلى الجزائر وهو مولود هناك. ويملك والده مزرعة وتخرج هو مهندساً. ويعتبر «شنو» مثال الفرنسي المثقف فهو يحب الدرس والاطلاع ويتحمس في الجدل حول المواضيع الاجتماعية والسياسية ويكره الاستعمار ويؤمن بالاشتراكية. لا يكذب ولا يرائي ولا يتملق، يبدي رأيه حراً وجريئاً ويسخر من موسوليني والفاشية وهو مغرم بالحضارة الاغريقية والفنون الجميلة. خجول مع النساء وله قصة غرامية بدأت في شاتزآلب وامتدت إلى باريس وروما وأدت إلى مبارزة بالمسدسات جَرحَ شنو نفسه بيديه من شدة ارتباكه اثناءها وانتهت القصة بأن طلق الرجل زوجته فتزوجها شنو وأخذ مع المرأة ابنتيها من الزوج الأول.

أما الكونت «سابيني» فينحدر من عائلة نبيلة شهيرة في نابولي.. متين الاخلاق رزين الكلام وقليله، وهذه صفة قلما وجدت بين الايطاليين وهو يؤمن بالفاشية وبرسالة موسوليني. ويؤمن بالمسيحية ويذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد بانتظام... لا يكذب ولا ينافق ولا يدس.. له من الثقافة ما يكفي للنبلاء الكاثوليك، ومن حدة الذكاء ما يكفي ليشغل محلاً متوسطاً في محافل الطبقة الارستقراطية، يحترمه الناس لأنه يحترم نفسه، ويحترم الناس. يحبه الناس لأن لسانه عذب وأخلاقه طيبة ويحب عمل الخير كلما استطاع إليه سبيلاً، ولأنه، ما عدا ميله إلى الفاشية، دائماً على حياد لا يشترك بالجماعات المختلفة إلّا كضيف مكرم.

أما المستر «نوكس» فهو مثال «الجنتلمن» الانكليزي من عائلة طيبة وخريج جامعة كامبريدج ويعمل في السلك الخارجي. طويل القامة كبير النفس أحمر الوجه، لطيف المعشر، كريم الخلق وفوق كل هذا له من الذكاء والثقافة ما يجعله أعلى بكثير من زملائه. يتكلم الفرنسية بدون شبوه (لكنة) بريطانية ويفضّل نبيذ «البوردو» على الويسكي.. فهو دبلوماسي بكل معنى الكلمة وكسب بفضلها مزايا «الكونتينانت» فوق مزاياه الأنكلوساكسونية.

كان سكرتيراً في السفارة البريطانية في طهران قبل عشرين عاماً ويعرف قليلاً من الفارسية ومر ببغداد ويعرف انقره ويعرف رؤوف الجادرجي من العراقيين. جرّنا يوماً الحديث إلى زمن الاحتلال وما رأينا خلاله وإلى كوكس وويلسون وصون. ولما سمع باسم صون انتبه فلما شرحت له قصتي معه استغرب وروى لي قصة غريبة عنه.. قال أنه يعرف صون عندما كان في طهران وكان صعلوكاً يبتعد عنه الانكليز وكانت له سمعة سيئة بأنه يتجسس للروس وأنه بدّل دينه مرات، وكانت له زوجة ارمنية وولدت له ابناً وشاع في حينه أنه قتل الطفل ودفنه في حديقة الدار التي كان يسكنها وأثناء ذلك الحادث كان كاتباً بسيطاً في البنك الشاهي. ثم أضاف مستغرباً كيف يمكن أن يعين صون ويأتي مع كوكس إلى العراق ويعهد إليه بوظائف هامة..! هذا ما

سمعته من المستر «نوكس» عن بطل المأساة أثناء الاحتلال ولم أستغرب مما سمعت فالأعمال والسرقات التى قام بها أثناء وظيفته في العراق تدل على ان الرجل من أصحاب السوابق ولكن الحرب تحمي مثل تلك الجيف. وقيادة الحملة الهندية لم تر بأساً من استخدامه كآلة إرهاب وظلم أثناء الحرب والغاية في نظر المستعمرين تبرر الواسطة وإن كانت من أنجس الانجاس.

وبعد أن قال لي «نوكس» ما قاله حول المستر صون تأكدت من صدق ما سمعت وأنا في بغداد عن قضية لم أستطع أن أصدقها في حينه وهي أنه عندما حاول ويلسون اصلاح شيء من الفساد ونقل المستر صون من مفتشية تجارة العدو ورفعه وأبعده عن بغداد عينته الحكومة إذ ذاك حاكماً سياسياً في السليمانية. ويظهر بأن الجماعة كانوا بحاجة إلى إداري شديد البأس في تلك الآونة. وأثناء قيامه بالإدارة التأديبية أمر بإلقاء القبض على عشرة رجال من الأكراد بتهمة الإخلال بالأمن وأرسل أوراقهم إلى بغداد للنظر فيها. ويقال أن المفتش العدلي السير «بونهام كارتر» عندما اتته تلك الأوراق درسها فلم يجد ما يبرر توقيف أولئك الاشخاص فأمر باطلاق سراحهم. فكتبت حكومة بغداد إلى صون بذلك الصدد وبعد أيام أتاها الجواب منه بأنه قد سبق له أن أعدمهم وأن جواب بغداد جاء متأخراً. فلم أصدق في حينه بذلك الخبر لأن القساوة والظلم لا تصل إلى ذلك الحد. ولكن بعد أن سمعت ما قاله «نوكس» وبعد أن «شهد شاهد من اهله» أيقنت.. ولكن بالرغم من كل ذلك فقد دخل اسم صون ضمن قائمة اسماء الابطال الذين خدموا الامبراطورية، وكتب حوله ويلسون مادحاً ثانياً مستحسناً... ولكن صون كان من أولئك الشريرين الذين تبرأ منهم الإنسانية. وهو بلا شك كان من تلك الزمرة التي بغطرستها وبظلمها واستبدادها وجهلها وطمعها سببت ولم تزل تسبب في هذه الدينا مختلف أنواع المصائب والرزايا.

وتحسنت صحة «نوكس» وترك شاتزآلب وعين بعد ذلك رئيساً للجنة الاستفتاء في «السار» وبعد ذلك وزيراً مفوضاً لبريطانيا في بودابست وحصل على وسام الشرف وأصبح «السير كودفري نوكس».

وللغراميات والعشق والغزل صفحات خالدة في حياة المصحات فيها الدراما والكوميديا والتراجيديا... ويختلط فيها الزواج والخطبة والطلاق والهرب والطلاق وحتى الانتحار...

وإذا كان الحب والغزل «والفلرت» من كماليات الحياة الطبيعية في المدن، فإنها من الضروريات المستمرة لدى سكان المصحات وقرى الاستشفاء. فإذا كان الشباب السليم يميل بطبيعته إليها فان الشباب المريض من جراء وضعه ويأسه من الحياة يكون أسيراً لها، مولعاً بها ومتلذذاً بحرقتها. فترى المرضى رجالاً ونساءً يحملون نارين في صدورهم. جمرات المرض ولهيب الغرام.. وكأن حمى السل توقد في نفس ضحاياها حمى الحب الأزلي فترتفع السنة اللهب وتتصاعد وتحرق وتسعد وتشقي. ولا أنسى منظر المسكين أنطوان ظريفة ذلك الشاب الهازىء المرح عندما أحب سيدة نمساوية وسعد زمناً ثم ذاق الشقاء والمرارة عندما سافرت إلى أهلها فبقي لوحده هائماً في بحر من الظلمات. لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم ولا يسمع.. ولم أصادف قصة غريبة في غرامها وشدة العشق فيها كقصة «شنو» عندما وقع أسير حب السيدة الايطالية فأخذ يكتب لها بعد أن سافرت كل يوم ثماني صفحات كلها عشق وغرام.. ثم سافر وراءها وانتهى الأمر بالمبارزة والزواج. والسيدة «س» البولونية عندما وجدوها صباح يوم وهي بين الموت

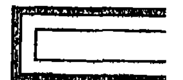
والحياة من جراء محاولتها الانتحار بابتلاع محتوى أنبوب كامل من «الڤيرونال» لأن حبيبها الفرنسي أراد أن يقطع علاقته بها. والشاب الاسباني الذي وجدوه ليلاً حافي القدمين يتمشى على الجليد يأمل أن يصاب بذات الرئة فيتخلص من عذاب الغيرة التي كانت تسببه له عشيقته الرومانية.

وإلى جانب هذه المآسي الصارخة هناك في خبايا المصح وفي غابات شاتزألب علاقات غرامية صامتة يحيط بها ستار التكتم والحيطة وهي تتراوح بين المغازلة البريئة والعشق الكامل. وهناك أيضاً علاقات عابرة لها حواش هزلية وفصول مضحكة. تجري عادةً في صالونات بعض السيدات الراقيات اللواتي يعتبرن أن مثل تلك الأمور لا تتعلق بالأخلاق أو الكرامة. إنما هي أمور بسيطة تنتهي مع زوال لذتها الآنية!

وللمصحات نصيب غير قليل من الحب الممنوع. أي الحب بين الرجال وتلك جماعة تبدو آثارها في وجوهها ومشيتها وأذواقها.. يجتمعون في احدى غرفهم يتحادثون عن الجمال الفني ويتلون كلمات «آندريه جيد» و«كوكتو» ومنهم من يستعمل المورفين وفيهم من يدخن الافيون وكل الشبان هم من الطبقة الراقية ولهم أذواق وعادات لا تجدها إلّا في الصالونات الارستقراطية.

وحضرت يوماً، عزيز وأنا، في احدى تلك الصالونات من باب التطلع والمعرفة، وكان صاحب الدعوة هولاندياً من عائلة غنية شهيرة وكنا نحو عشرين شخصاً من رجال ونساء.. بعد الشراب والرقص وغيره رأينا فيلماً «للجماع الجنسي بين النساء» فشعرت كأننا في أحد بيوتات باريس العامة، وبعد ذلك دار الحديث أنواعاً وأشكالاً فتبرع أحد الشبان باخبارنا أنه قبل يومين قضى أسعد ليلة في حياته، ولما سألناه كيف كان ذلك قال بدون أي تردد أو خجل أنه قضاها في فراش واحد مع البارون ڤ. السويدي. ثم تبدل الموضوع وأخذ كل منا يقصّ كيف حصلت أول علاقة جنسية له. ولما أتى دور الشاب الفرنسي البارون «ث» قال أنه كان في القطار بين باريس ومارسيليا في «الواغون لي» (مقصورة القطار) وكان شريكه في العربة رجل عجوز. بعد أن دخل كل منهما سريره وتحرك القطار، نزل العجوز من فراشه وركب عليه وعمل ما عمل به.

ولما تركنا الصالون، أنا وعزيز، كنا مستغربين ومشمئزين من تلك الحالات. ولكن هذا هو البشر والمصحات مثل الثكنات تدفع بالإنسان إلى الطبيعي وغير الطبيعي.



لوزان

ذهبت إلى لوزان سنة ١٩٣٠ ونزلت في فندق ساڤوي وكان الكونت سابيني هناك أيضاً وكانت صحتي آخذة بالتحسن .. فذهبت في احدى الليالي إلى «التياتر» (المسرح) واثناء فترة الاستراحة صادفت «آقيروف» وهو شاب يوناني كان قبلاً في شاتزالب فتسالمنا وتحادثنا وعلمت منه أنه هو الآن تلميذ في الكلية يدرس العلوم السياسية. ثم سألني عما أنا عامل فأجبته لا شيء.. اطالع واكتب بعض المقالات. فقال لي لماذا لا تدخل الكلية.. فانتبهت وقلت له الحق معك وفي اليوم الثاني كتبت إلى كورجي في برلين ليرسل لي أوراق دخولي في كلية برلين. ولما وصلت راجعت الكلية وكان مدير المدرسة «السنيور بون آنسيني» وهو بروفسور ايطالي.. فذهب إليه الكونت سابيني وكلّمه فتساهل بالموضوع وحسبوا لي السنتين التي قضيتها في برلين ووافقوا على أن اكمل الدكتوراه في العلوم السياسية بسنتين بدلاً من الاربعة، وهكذا، ومن باب الصدف دخلت كلية لوزان واخذت شهادتي منها سنة ١٩٣٢.

لم ادوام في الكلية بصورة منتظمة لأنني لم اكن بحاجة للاستماع إلى جميع المحاضرات سوى الحقوقية منها فقط وكنت اذهب ايام الشتاء إلى جبل داڤوس وسانت موريس وغيرهما من الاماكن للاستفادة من الهواء والتخلص من رطوبة المدن. ولذا كنت شبه تلميذ ووجدت بذلك كفاية. أما اصدقائي فما عدا آقيروف فكانوا كلهم من المصريين وفي مقدمتهم «طلعت راغب» وهو شاب لطيف أُلحق بالسلك الخارجي بعد اكمال الدراسة والتقيت معه في جنيف في ١٩٣٤.

وتعرفت في جنيف إلى الامير شكيب ارسلان فوجدته رجلاً عالماً فاضلاً وقد قضى عمره في الجهاد والنضال في سبيل امته وكنت على اتصال دائم به طيلة وجودي في لوزان وهناك وبواسطته قابلت السيد احسان الجابري وهو زميله في الجهاد وصديقه في المنفى.

والامير شكيب من المتكلمين الذين لا يكلّون ولا يتعبون من الكلام. فالإنسان يستمتع بحديثه وخصوصاً في المقابلات الاولى لأنه حديث مفيد وجديد ولكن عندما تعتق الصلة ويتكرر الحديث يصبح الكلام متعباً. ومجلس الامير فيه العلم وفيه الوطنية وفيه النكت واللطائف واذكر في هذا الباب قوله يوماً أنه لم يسبقه أحد في كثرة الكلام إلاّ الملك ابن سعود، ومن اقواله أنه كان يعتقد بأن اكذب الناس كان الملك فيصل ولكن لما ذهب إلى الحج وقابل ابن سعود بدل رأيه في الموضوع.. واعجاب الامير شكيب بالناس والملوك والزعماء يتأثر بصلته الشخصية بهم والمساعدات المالية التي ينالها منهم وهذه نقطة ضعف ولا تليق برجل فاضل مثله، ولكن المعيشة تدفع بأعظم الرجال لمثل تلك الامور ولذا نجد الامير محباً لابن سعود والخديوي عباس طالما أن الصلات بينه وبينهما على ما يرام فإذا زلّ احدهما هجم عليه الامير بلسانه الحاد.. واحسان الجابري يتبع الامير في رأيه وسياسته وكان يصدر مجلة باللغة الفرنسية بعنوان La Nation Arabe في جنيف وهي تهاجم الفرنسيين والإنكليز والطليان والاستعمار مع تركيز خاص على مهاجمة الفرنسيين واستعمارهم لسورية وشمال افريقية.

وللمجلة المذكورة مواقف مشرفة في قضية الجبل الاخضر وترحيل سكانه من قبل الايطاليين، ونشرت عدّة مقالات هاجمت فيها موسوليني وسياسته الفاشية الاعتدائية وكان لها اثر طيب. ودعى موسوليني الامير شكيب إلى روما بواسطة القنصل الايطالي في جنيف فذهب هو واحسان الجابري وقابلا «الدوتشة» وعلى قولهما حصلا على وعد منه باعادة الاراضي المسلوبة من العرب في الجبل الاخضر إلى اصحابها. ومنذ ذلك اليوم سكت الامير عن ايطاليا واستعمارها وصار الهجوم منحصراً بالاستعمارين البريطاني والفرنسي. ويقال ان موسوليني ارضى الامير شكيب واحسان الجابري، بصورة شخصية عدا الرضى السياسي.

والامير شكيب صديق الالمان منذ زمن الاتراك وقضية إرساله هدية بقلاوة إلى القيصر في منفاه معلومة وقد قصها لنا بنفسه. وكان الامير يلوم الصين علناً في مقاومتها الاستيلاء الياباني بحجة أنه يجب على الشعبين أن يشكلا كتلة متحده تجمع الشعوب الصفراء والملونة في شرقي آسيا لمواجهة الاستعمار الغربي. وقد استمعت يوماً إلى محاضرة له في هذا الموضوع القاها على التلامذة العرب في جنيف.

ومع ذلك كله، كان الامير شكيب في ذلك الوقت معجباً بالملك فيصل وسياسته مع الإنكليز في العراق وبنوري السعيد والمعاهدة، بالرغم مما فيها من نقص واجحاف بحقوق العراق. واذكر يوماً اننا كنا أنا وابراهيم عنده، واتى حديث المعاهدة وجرى نقاش، وانبرى هو يدافع عن المعاهدة ونوري السعيد، وطال البحث وكاد هو وابراهيم يتخاصمان مع أن ابراهيم لم يكن من المعادين للإنكليز ولكن هنالك حقائق لا يمكن سترها بالعواطف. ومما لا شك فيه أن الامير شكيب مندفعاً بصداقته لفيصل ونوري، فيرى كل شيء يأتي عن ايديهما حسناً، وكان دائماً يهاجم ياسين الهاشمي والمعارضة في العراق، دون ان يعلم عنها ما يبرره بالتدخل في سياسة العراق.

في حزيران يونيو ١٩٣٢ عقد في لوزان مؤتمر للتعويضات الحربية وقد حضرته بصفتي مراسلاً لجريدة العالم العربي. ويُعدّ ذلك المؤتمر من اهم ما عقد من المؤتمرات بعد فرساي، وكانت تلك تجربة مفيدة جداً بالنسبة لي، إذ رأيت بعيني وسمعت باذني كيف تعالج القضايا الدولية الهامة.

كان الوفد البريطاني برئاسة المستر ماكدونالد رئيس الوزارة والوفد الفرنسي برئاسة الموسيو هريو. وگراندي كان يرأس الوفد الايطالي والفون بابن يرأس الوفد الالماني ومعه فون نويرات، وكان عدد الدول المشتركة ١٨ منها ١٧ دولة دائنة والمانية المدينة. وانتهى المؤتمر بتخفيض مبلغ التعويضات إلى ٣ مليارات مارك. وهؤلاء الزعماء يصيحون ويعبّرون وكأنما الدنيا واقفة على مثل هذا المبلغ. فكم كان اجدى وانفع للبشرية لو ان الفرنسيين اقتنعوا بالغاء التعويضات واستمالة قلوب الالمان لا سيما انهم كانوا قد دفعوا حتى ذلك الوقت ٥٨ ملياراً، ولكن الاوروبيين كانوا ولا يزالون في الصف الأول من عبدة العجل الذهبي!.

المعاهدة ونوري السعيد

معاهدة ١٩٣٠ تعتبر تاريخاً مهماً بالنسبة للعراق حيث فتحت عهداً جديداً أدى إلى نقاش ومجادلات واخذ ورد لم يرَ العراق مثلها في تاريخه الحديث. وكان نوري السعيد بطل هذه المعاهدة وكان بطبيعة الحال هدف الانتقاد والقذائف من كل حدب ومن كل صوب في الحق وفي الباطل. وكان فيصل وراء نوري والإنكليز وراء الاثنين.

قرأت مواد المعاهدة في جريدة التايمس اللندنية وكنت إذ ذاك في شاتزآلب سنة ١٩٣٠. فتألمت لما فيها من نواقص وأثقال وتحديد لاستقلال العراق كما وجدت فيها في نفس الوقت وسيلة للتخلص من الانتداب والدخول في عصبة الامم، فكان نفعها أكثر من إثمها وقد كتبت في حينه تحليلاً مفصلاً ونشرته جريدة العالم العربي. وكنت مخلصاً في انتقادي وقلت فيه للأسود أسود وللأبيض أبيض ولم اشارك رأي المتطرفين من المعارضين بأنها كانت خطوة للوراء وأن الانتداب خير منها وانها بلية البلاوي. فالمعاهدة في نظري بالرغم عما احتوته من قيود كانت اهون شراً من الانتداب.

عندما كنت في لوزان سنة ١٩٣١، اتى نوري السعيد إلى جنيف لمراجعة سكرتيرية العصبة بشأن دخول العراق إلى حظيرة الامم، فدعاني وإياه احسان الجابري على الشاي في احد الفنادق فذهبت إلى جنيف وحصلت المقابلة بيننا لأول مرّة في تلك الحديقة البديعة على شاطىء بحيرة «ليمان». واستقبلني نوري باشا باسماً وبكل حرارة ولم ينتظر «التقديم»المعتاد بل أنه عرفني واخذ يسألني عن صحتي ويحدثني كأننا نعرف بعضنا منذ زمان.. فاحببت نوري باشا من أول مقابلة ووجدته ذكياً شيطاناً خفيف الدم والروح، وتكلمنا مطولاً حول المعاهدة وحول مقالاتي وأخذ يردد بعض العبارات «البغدادية» التي سبق لي أن استعملتها في انتقادي لوزارته وهو يمزح ويضحك..

وفي اثناء تلك المقابلة أخذ يشرح لي فوائد مد سكة حديدية بين بغداد وحيفا. وكنت قد كتبت مقالين شديدين ضد ذلك المشروع والخطر المتأتي في المستقبل من خط حديدي رأسه في بلاد تحت الانتداب والنفوذ الصهيوني، ولم يقنعني نوري باشا بفوائد ذلك الخط ولم يقتنع هو بنظرتي، بأن يكون الخط في الشمال موازياً للحدود التركية. ومع ذلك فكانت المقابلة لذيذة ومفيدة وافترقنا وانا سعيد بهذه المعرفة.

واخبرني الباشا اثناء الحديث بأن العراق سيدخل عصبة الامم في الخريف القادم فسررنا بتلك الخبرية ثم اقترح بأن اكون عضواً بالوفد الذي سيحضر الحفلة فشكرته وقبلت. فابتسم وقال: «الآن سيزول الانتداب فيجب ان تخدم بلادك بصورة فعلية» وقصده من ذلك التلميح الاشارة إلى اقتراح سابق كنت قد رفضته سنة ١٩٣٠ إذ اخبرني بواسطة والدي فيما إذا كنت مستعداً أن اقبل وظيفة كقنصل للعراق في برلين، وكان جوابي حينئذ بأنني لا اقبل وظيفةً طالما نحن تحت الانتداب.

رجعت إلى لوزان ذلك المساء وبعده ببضعة ايام جاء نوري باشا عند الامير شكيب وتقابلنا مرّة اخرى، فتأكدت اواصر الصداقة الجديدة بيننا، وازداد العطف المتبادل وكثرت لقاءاتنا منذ ذلك الحين.

فيصل

لاسم فيصل في قلوب العرب مكانة خاصة لم يصل إليها زعيم آخر ولا أعتقد بأنه سوف يصل إليها غيره. ولم يكن فيصل زعيماً أو ملكاً او أميراً فحسب، لكنه كان رجلاً عظيماً بخلقه ومزاياه!.

كنت بين المستقبلين يوم قدومه العراق مرشحاً للعرش وكنت بين المدعوين يوم تُوج ملكاً وبقيت عشر سنوات في اوروبا وانا ادرس واعقب على الحوادث في العراق وانتظر النصر للعراق على يده.

*

بعد سفر نوري السعيد من جنيف ببضعة اسابيع اتى الملك فيصل إلى برن.. فخفّ الامير شكيب واحسان الجابري وغيرهما من العرب الموجودين في سويسرا لتقديم احترامهم وقضاء حاجاتهم... فسألني الامير شكيب قبل ذهابه إلى برن فيما إذا كنت اسافر معه فاعتذرت بأنني مشغول بالامتحانات في الكلية، وكنت ارغب من كل قلبي أن ازور فيصلاً ولكن لم اكن راغباً بزيارته برفقة اولئك الرجال من اهل المصالح ولذا فضلت البقاء في لوزان.

وبعد يوم أو يومين رنّ التلفون في غرفتي صباحاً وإذا بالامير شكيب يكلمني من برن فاخبرني بأن جلالة الملك فيصل سأله عني وعن مقري فأجابه بأنني ادرس في لوزان ثم طلب مني الحضور فوراً وكلمني بالتلفون كذلك تحسين قدري مشيراً إلى ضرورة حضوري لتقديم الاحترام لجلالته، وعليه فقد سافرت نفس ذلك اليوم، وذهبت إلى فندق «بللفو» حيث يسكن جلالته فاستقبلني تحسين قدري واخذني إلى الطابق الاول وهناك ادخلني إلى غرفة.. فوجدت الملك فيصل واقفاً.. فسلمت وصافحت جلالته وهو يقول «انت موسى لو علوان ابو شراره. انا اريد ألوي أذن علوان ابي شرارة... وارحب بموسى» فقلت بامرك يا مولاي.. ثم جلس وامرني بالجلوس وبعد كلمات لطيفة تفضل بها عليّ وجدت نفسي في وسط بحث سياسي طويل عريض.. بدأ الملك فيصل كلامه بأنه قرأ كل ما كتبت من مقالات وأنه يرحب بها، وإن لم يرض عليها كلها لأنني اكتب عن اخلاص وعقيدة.. ولكن الانتقاد من بعيد دون معرفة الاشخاص والعوامل لا يكون كاملاً... ثم ذكر شيئاً مستهزئاً بمعارضة مزاحم الپاچه جي وكيف انتهت بقبوله منصباً وانقلابه على عقبيه.. وهنا اجبته بأن مزاحم لا يكون قياساً للكل وأن وجوده الآن في الحكومة لا يعتبر قوة لها بل بالعكس... ثم دخلنا في موضوع سكة حديد حيفا ـ بغداد فوجدت جلالته متحمساً لها مثل نوري السعيد، ومدافعاً عنها بنفس النظريات والادلة.. ثم قال كيف يجوز لك ان تكتب حول الموضوع دون دراسته درساً عميقاً.. قلت: يا مولاي إذا تفضل جلالتكم واقنعني بخطئي فاني ارجع عنه بكل سرور.. فتكلم الملك فيصل ثم تكلم وقد انقضى ما يقارب الساعة وهو يدافع عن خط حيفا ـ بغداد وينتقد معارضيه، ولما انتهى من حديثه قال: هل زالت مخاوفك من خط حيفا؟.. فبقيت ساكتاً ولم اجب وفهم جلالته المقصود فأخذ يضحك ثم نهض ونزلنا إلى المطعم في الفندق وتناولنا الطعام على سفرة جلالته وكان كله لطف واكرام.

وتعرفت خلال الزيارة بالحاشية الملكية فكان هناك جعفر العسكري ورستم حيدر، وابو الهدى، والامير عادل ارسلان، وبالطبع الامير شكيب، واحسان الجابري ورجال آخرون من العرب نسيت اسماءهم.. واثناء الغداء جلست على الطاولة التي يترأسها الملك فيصل وإلى جنبنا طاولة اخرى يجلس عليها بقية الحاشية وكان كل شي بدون تكلف. وكان تواضع فيصل العظيم يسدل ثوباً من الفرح والابتهاج على الجمع كله. بعد الغداء جلسنا قليلاً في بهو الفندق وشربنا القهوة ثم نهض الملك ليرتاح فاستأذنت جلالته للعودة إلى لوزان، ولما صافحته قال جلالته: «لازم تأتي إلى بغداد يا موسى ونحن نحتاجك بأن تخدم بلادك خدمة فعلية، ولا يكفي الجلوس في لوزان وكتابه المقالات». فشكرت جلالته على لطفه وقلت أنني تحت امر جلالته بعد أن يزول الانتداب وندخل عصبة الامم.

بعد أن تركنا الملك بقينا قليلاً في الفندق نتحادث ونستمع إلى نكت جعفر باشا ثم ذهب كل إلى حيث يريد. فرجعت إلى لوزان مع البارونة «كاچالوف» وابنتها «صفية» فهنّ والبرنسس «فاطمة» البنت الكبرى كن في شاتزألب ومعرفتي بهن منذ ١٩٢٥ ـ وقد اتت البارونة الام وبنتها صفية للسلام على الملك فيصل. لأن العائلة كانت قد تعرفت على الملك علىّ في الطريق بين الشام وبغداد وكن في سفرة الزواج إلى طهران.. لأن فاطمة احبت في شاتزالب الحاج مسعود ثابتي الايراني الذي كان يستشفي في دافوس وانتهت القضية بالزواج ثم السفر إلى ايران ثم الفراق والهزيمة من طهران.. وهذه قصة طويلة ربما يأتي بحثها في مجال آخر.

عدت مع «الفراو بارونن» بسيارتها «الباكارد».. فجلست الام جنب السائق وبقينا صفية وانا في القسم الخلفي وكانت صداقتي مع صفية قد دخلت دور الصداقة السالمة القوية واخذنا نتحدث عن الملك فيصل ومزاياه وإذا بالام تقول أن الملك فيصل زعل مني لأنني لم اقبِّل يديه وأن جعفر باشا قال لها ذلك.. استغربت كثيراً من ذلك الكلام ولم ازل غير مقتنع بصحته فهذا الرجل الديمقراطي الذكي لا بد وانه فوق هذه السخافات. ولربما كانت هذه ملاحظة ابداها جعفر وغيره من رجال الحاشية الذين كانوا يقبِّلون يد فيصل بكل مناسبة ومن دون مناسبة تزلفاً، فلم يرق لهم أن يأتي شاب ويقابل الملك دون ان يتبع ذلك البروتوكول الذي ابتدعوه من باب التملق والزلفى. فقلت للبارونة وهي من العجائز المدعيات بالعظمة والمغرمات بأيام الماضي وتقبيل ايدي راسبوتين ـ قلت لها اني لست معتاداً تقبيل الايدي وانني اعتقد بأن الملك فيصل ليس من اولئك الرجال الذين يفرحون أو يزعلون بمثل تلك المهازل. فانبسطت صفية من ذلك الكلام و«دردنت» البارونة دون أن تنظر إلينا.

عدت إلى لوزان احمل في قلبي حباً عميقاً وحرمة كبيرة لشخص فيصل لما ابداه نحوي من لطف ولما شاهدت فيه من حدة الذكاء وبعد النظر وسعة الصدر والوطنية الصادقة الرزينة.. وقلت في قلبي أنه من حسن حظ العراق أن يكون له ملك عاقل مخلص ومحبوب مثل فيصل بن الحسين..

بين المانيا وسويسرا

اكملت الامتحانات النهائية صيف ١٩٣٢ وسررت كثيراً بنجاحي لاكمال الدروس وحصولي على الدكتوراه بسنتين بدلاً من الاربع سنوات. ومن غرائب الامتحانات انني نلت احسن

العلامات بالدروس التي كنت اخشاها واهمها الادب الفرنسي إذ كان البرفسور شاباً «متعقلاً» وشديداً. وكان الطلاب كلهم يخشونه ولكن من حسن الصدف سألني عند الامتحان عن «ارنست رنان» وهذا موضوع سبق لي أن درسته درساً وافياً ايام شاتزالب حتى انني كنت قد بدأت ترجمة تاريخه عن بني اسرائيل.. وتعجب اعضاء اللجنة الفاحصة عندما صرت احلل واشرح واتحدث عن اشياء في نفس الموضوع لا علم لهم بها ولم يذكرها استاذنا في محاضراته.. وعندما حاولت التوسع في الامر سألني احد الاعضاء «من اين انت؟» فقلت له: عربي من العراق فزادهم ذلك اعجاباً وقال استاذنا: يكفي. فخرجت مبسوطاً ونلت ٩ من العشرة وكنت احسن الطلاب بمن فيهم الفرنسيين انفسهم.. فكم من الناس نالوا ما نالوا من باب الصدف وحسن الحظ!

بعد الامتحان سافرت إلى برلين لقضاء بعض الاشغال المتعلقة بالبيوت واتفقت مع شركة «اليانس» بتقسيم الشقق الكبيرة إلى شقق صغيرة وسكنت مع كورجي سالم في منزل واحد وقضينا اياماً بديعة وكانت «اشتراكية» ممتعة في الصفاء والكيف.

في هذه السفرة تعرفت بعبد الكريم السباعي وبابنته «وداد» ولم اكن افكر إذ ذاك بالزواج ولكن مع ذلك كتبت من برلين إلى ابراهيم بتاريخ ١١ آب/ اغسطس ١٩٣٢: «تواجهت هنا مع عبد الكريم السباعي وابنته وداد فهي مهذبة ودارسة وذكية عفريته مثل أبيها ودمها كثير خفيف...» ومرت سنوات خطبت وعقدت المهر وخطبت خلالها ما يقارب العشر بنات ولم يتم النصيب إلّا سنة ١٩٣٨مع نفس الـ «وداد» العفريتة وقضيت وقتاً طيباً بصحبة العم أبو فؤاد وصرنا نلعب البوكر من وقت لآخر واصبحت بسبب نجاحي في الامتحانات «هر دكتور» وصار اصدقائي من الالمان لا ينادوني إلّا كذلك حسب العادة والعرف عندهم.

بعد ان بقيت مدة شهرين، عدت إلى لوزان وجنيف في اواخر ايلول/ سبتمبر للاشتراك بمراسم دخول العراق عصبة الامم واتى سامي سعد الدين أيضاً من برلين للغاية نفسها. وقصة معرفتي بسامي سعد الدين غريبة من نوعها فقد كنا أنا وكورجي نتمشى مساءً في «كورفورستندام» وإذا برجل يلحق بنا ويكلمنا بالعربية قائلاً: «سمعتكم تتكلمون وعرفت انكم من بغداد.. هل تعرفون موسى الشابندر واين يسكن هو..» فضحكنا لهذه الصدفة وقلت له انا الذي تسأل عنه. فتعارفنا ودعوته لشرب القهوة وجلسنا نتكلم عن بغداد وما فيها.. فلما تقابلنا في جنيف كان دائماً معي ومع نجيب الراوي ورآنا يوماً نوري باشا في بهو الفندق نتحدث فقال ضاحكاً «هنا هَم رتبتوا وفد للمعارضة!».

«عصبة الامم»

ايام السعادة الحقيقية في حياتي معدودة تكاد لا تتجاوز عدد اصابع اليد واعني بالسعادة الحقيقية ذلك الشعور الذي يغمر القلب بسعادة مجردة عما في الدنيا من هواجس فيظن الإنسان نفسه ولو لبرهة قصيرة من الزمن انه فوق مرارات الحياة وما فيها من قبيح. ولقد شعرت بتلك السعادة عندما رأيت لأول مرّة العلم العراقي يرفرف في جنيف إلى جنب اعلام الدول المستقلة فوق بنايات الفنادق المطلة على بحيرة جنيف... نظرت إلى ذلك الرمز طويلاً.. وحاولت أن احبس دمعتين تجمعتا في عينيّ فلم استطع.. وكانتا دمعتين آتيتين من اعماق قلبي وهو يخفق فرحاً

وسروراً.. وكتبت ذلك اليوم (٢٧ ايلول/ سبتمبر ١٩٣٢) مقالاً بعنوان: «العلم العراقي في جنيف» كل كلمة منه كانت صادرة من قلبي مثل تلك الدمعتين!.

ذهبت إلى فندق «دو روسي» فقابلت نوري باشا، واعضاء الوفد البرلماني الـذي اتى خصيصاً ليشهد دخول العراق عصبة الامم، وكان الوفـد كبيراً بعـدده أذكر من اعضـائه. جميـل المدفعي وعبدالله صافي، سلمان البراك، صالـح باش اعيـان، علي رضـا العسكري، سليمـان فتاح، بهـاء الدين النقشبندي، ابراهيم ججم، القس خياط، نجيب الراوي وسيف الله خندان، وكان مع نوري باشا رستم حيدر وحسين أفنان، وما عدا هؤلاء الرسميين، كان عدد من العرب قد جاءوا لحضور تلك المناسبة مثلي ومثل سامي سعد الدين وانضم إلينا بالطبـع الامير شكيب ارسـلان، واحسان الجابري، وعادل ارسلان وغيرهم من العرب السـاكنين في جنيف.. وقـد حضر السفير البـريطاني «همفريز»، وكان نوري باشا يطير فرحاً، ونحن من ورائه بين طائر وموكّر و.... والوفد البرلماني بل أكثر اعضائه اتوا «كالاطرش بالزفة» لا يعلمون تماماً ما هي القصة ولكن ابا صباح انتخبهم ذلك الانتخاب ولديه علم الاسباب. وفي رأيي انه لو كان الوفد أقل عدداً واكثر كفاءة واوسع علماً حول عصبة الامم ولغة القوم لكان الاتصال بينه وبين وفود العالم ممكناً ولحصلت الغاية المنتظـرة من ارسال الوفود. ولكن القصد على ما يظهر لم يكن ذلك فاتى نوري بـاشا بـوفده من بـاب الدعـاية ومن باب ارضاء الحبايب والاصدقاء في بغداد، والـدليل عـلى ذلك أنـه تركه في فندق «دو روسي» وسكن هو واركان حربه في فندق دانكلوتير واقام حفلة مساء دخول العراق العصبة، ولم يحضرها اعضاء الوفد العراقي لعدم معرفتهم اية لغة وخوفاً من وقوع «كسربوطات» امام الاجـانب. وكان اعضاء الوفد يذهبون احياناً إلى اجتماعات عصبة الامم فيقودهم احد «اركان الحرب» ويجلسون وهم صم بكم دون أن يعرفوا القضية واحياناً كان يتبـرع ابراهيم ججم بتـرجمة كـلام الخطباء. وقد تضايق اكثرهم من جنيف وشغلها، ولولا مصاريف السفر والمخصصات لما تكبد احـد منهم عنـاء السفر، ولكن السفـرة كانت ببـلاش وعن طريق بـاريس وفيها ارضـاء لنوري وفيهـا ابهـة الايفاد. والله يحب المتطوعين!

وحصـل كثير من الفصـول الباردة اكتفي بـذكر بعضـها: نقل لي نجيب الـراوي أن سلمان البراك كان اثناء السفر يلبس «الكاسكيت» (القبعة) بالمقلوب. اي انـه يضـع القسم الخلفي فـوق جبهته ويغطي «علبته» بالقسم الواقي الامامي.. ولم يرض بـأن يعدل عن هـذا الاختراع بـالرغم من سخرية الناس. وفي الباخرة كان يقف امام «الطرابزون» ويبول مقـابلاً البحـر ويأخـذ الهواء البول على الطابق الاول من الباخرة.. وسمعت البراك يقول لاخوانه متفاخراً بأنه لم يبدل بيجامته منذ أن تركوا بغداد لأنها بعدها نظيفة وينتقد «فانتازية» الباقين الذين اعطوا غسيلهم في باريس. ورأيت سلمان البراك في حفلة عشاء اقـامها نـوري باشـا ثاني يـوم دخولنـا عصبة الامم للـوفد والعرب، فطلب منه بصفته رئيساً لمجلس النـواب ان يقول كلمـة ليته لم يقلهـا فقد نهض معـاليه وابتدأ «ايها السيدات السبوريات...» فأخذ الجميع يضحك وقالوا له لا يـوجد سيـدات سوريـات فقـال: «طيب إذن ايها السيـدات العراقيـات..» واخذ يخـرج الدرر من فمـه حتى سحبه جميـل المدفعي من سترته واجلسه في مكانه.

وروى لي الامير عادل ارسلان أنه ذهب إلى «فندق «دو روسي» في اليوم التـالي لوصـول الوفـد

ليسلم على اعضائه فلم يجد منهم أحداً وبقي جالساً في الهول (البهو) ينتظر.. وكان احد القساوسة في «الهول» أيضاً فاتى إلى الامير عادل ظاناً اياه أوروبياً واخذ يتحدث إليه الفرنسية وقال له: «أنا المونسنيور يوسف خياط من الموصل في العراق.. اتيت لجنيف مع الوفد العراقي.. ولكن انتم الاوروبيين امركم عجيب.. كيف تسمحون لبلاد متأخرة ومتعصبة كالعراق بدخول عصبة الامم» واخذ يدور حول موضوع الخطر على الاقليات المسيحية.. ووقع الامير عادل في حيرة حتى انقذه من تلك الورطة دخول نوري باشا إلى الفندق فأتى وتكلم بالعربي مع عادل ارسلان ووقع المونسنيور في حيص بيص بعد أن عرف الامير عادل وحاول ترقيع الخرق بقوله انه يقصد العشائر البدوية.

ووصل علي رضا العسكري بعد وصول الجماعة ببضعة ايام وكان قد اتى عن طريق البر.. وقد وصل وهو يلبس البونجور! نعم لبس البونجور في بغداد وسافر به كل الطريق ووصل إلى جنيف ليمثل العراق وهو لم يزل يرتديه لأنه لم يأت بملابس اخرى وكانت معه شنطه واحدة صغيرة فيها بعض الثياب الداخلية واغراض الحلاقة وفوق ذلك كله كان يحمل شمسية خوفاً من المطر. فافهمه الباشا الموضوع ثم اخذناه إلى مخزن كبير واشترينا له بذلة للنهارو«سموكينك» وما يتعلق بها وقلنا للناس ان البيك فقد عفشه بالطريق... هذا قليل من كثير ولكنه كافٍ لاعطاء فكرة عن الوفد. وبين اعضاء الوفد رجال محترمون حافظوا على مكانتهم بالتزام الصمت والابتعاد عن السخافات كالمدفعي وعبدالله صافي.

دخل العراق في ٣ تشرين الاول/ اوكتوبر ١٩٣٢ عصبة الامم. وكان ذلك الاجتماع مشهوداً. حيث رحب الاعضاء بالعضو الجديد اطيب ترحيب وكنت سعيداً جداً ذلك اليوم بالرغم من شكل الوفد العراقي ومن شبح المعاهدة ووجود السفير البريطاني.. كنت سعيداً لأنني اصبحت اشعر بأنني فرد من شعب نال حريته ووجد طريق مستقبله. وانقذ كرامته. وعلى اثر انتهاء تلك الجلسة التاريخية ذهبت إلى دائرة البريد وارسلت برقية تهنئة للملك فيصل بمناسبة ذلك الحدث التاريخي. واخبرني تحسين قدري بعدها في بغداد أن برقيتي كانت الاولى في برقيات التهاني وأن الملك سُر بها كثيراً.

العودة إلى الوطن

بعد دخول العراق إلى عصبة الأمم المتحدة عدت إلى لوزان فاستلمت شهادتي من الكلية ورتبت أشغالي وسافرت إلى برلين في طريق العودة إلى بغداد. بقيت في برلين مدّة قصيرة قمت خلالها ببعض الأمور المتعلقة بالبيوت، ومن هناك أخذت قطار الشرق إلى استانبول وبعد استراحة لبضعة أيام هناك أخذت قطار طوروس إلى حلب فرياق حيث وصلت في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٢.

وصلت رياق مساءً فوجدت في المحطة إبراهيم ومعه مصطفى عاصم المحامي وكامل الكيلاني ومحمد النعمة وغيرهم من أصحاب والدي وابراهيم. ومن رياق ركبنا السيارات وتوجهنا إلى بيروت... كان الليل مظلماً والأمطار تهطل والضباب الكثيف «الغطيطة» فوق لبنان يمنع الرؤية تماماً فكان السير بطيئاً وخطراً وخوف مصطفى عاصم المتزايد، كلما ارتفعنا على الجبل، أخذ يؤثر على أعصابنا وبعد سير متعب مقلق أستمر تقريباً ساعتين وصلنا بيروت وذهبنا إلى فندق على البحر...

قضينا أياماً طيبة في بيروت بصحبة كامل والنعمة وهذه كانت أول سفراتي إلى سورية ولبنان. وفي الشام نزلنا في فندق خوام وكان البرد شديداً.. وبعد يومين أو ثلاثة استأجرنا سيارة وتوجهنا نحو بغداد عبر الصحراء.

وصلنا الرطبة عند المساء وبعد ان استرحنا قليلاً وتزودنا بالبنزين استأنفنا السير. جلست أنا جنب السائق وجلس إبراهيم ومصطفى عاصم في الخلف. الليل في الصحراء شيء غريب. لا يرى الإنسان سوى الظلمات والنجوم البراقة وكأنما الأرض والسموات امتزجت فلم يفرق بينها أفق ولا فارق. وكانت النجوم براقة وكثيرة فلم أر من قبل في حياتي سماءً مثل هذا.. كنا كلنا ساكتين ولا صوت إلّا وَنْوَنَة الموتور (المحرك)..

أنا الآن في طريقي إلى بغداد بعد غياب استمر ١١ سنة، بغداد التي ولدت فيها وقضيت أيام الطفولة والصبا على ضفاف نهرها، أيام الصغر، أيام كانت والدتي على قيد الحياة، فكم كانت تفرح أمي بعودتي لو كانت على قيد الحياة!

أخذت دموعي تتساقط لهذه الذكريات. السيارة تعوم في بحر من الظلمات محاطة بالنجوم وعند منتصف الليل احمرّ الأفق في الشرق حتى بزغ القمر فزاد المنظر بهجةً وغرابة، وارتفع القمر وبان كالعرجون القديم. بان كأنه قريب جداً منا يكاد الإنسان يلمسه بيده ولم أر القمر بهذا الشكل من قبل فهو في الصحراء على غير ما يبدو فوق الجبال أو البحار.

وصلنا الرمادي بعد نصف الليل والبرد كان شديداً، ذهبنا إلى الفندق ويا له من فندق. نمنا قليلاً، وعند بزوغ الشمس تروقنا (افطرنا) وركبنا السيارة متوجهين إلى بغداد.. في الفلوجة وجدنا محمد وطاهر جلبي ومكي ومصطفى الاعظمي. وعند جسر الخر وجدنا علي رأفت وجماعة أخرى من أصدقائنا وكان اللقاء بهم بعد كل تلك السنوات مؤثراً!

وفي البيت كان والدي ينتظر في الديوانخانه فتعانقنا وتباوسنا ثم دخلت إلى الحرم فكانت هناك عمتي حسيبة وعمتي فهميّة مع بناتها وبعض الأقرباء وكانت مصري وهي من بقايا أيام مضت.. وفي الحرم أخذت أشعر بحزن ولوعة. كنت أود لو كانت أمي أيضاً هناك.. فتضمني إلى صدرها وأضمّها إليّ...

لم أستطع البقاء في الحرم كثيراً، ولم أستطع في تلك اللحظة أن أذهب إلى مجلس والدي لمقابلة الضيوف. فأخذت محمداً معي وذهبت إلى الاعظمية.. إلى المسجد الصغير حيث قبر والدتي بين قبريْ جدي وجدتي.. وقفت هناك أبكي كالطفل وبكى محمد معي وهو يقول «إنها كانت أحسن من الكل».. نعم لا شك انها كانت أحسن من الكل... ولا شك أن ما أشعر به من طيبة القلب، ورقة الشعور، والإحساس، والميل لعمل الخير، إنما هو آت منها.. هي الطيبة التقيّة المحبة للخير والخيرات. تركت المسجد وحزني لا يقل عما كنت أشعر به يوم أودعناها التراب قبل ١٨ سنة!

قضيت الأيام الأولى بالولائم والزيارات وردّها.. وتعرفت إلى بعض الرجال بينهم ياسين الهاشمي ورشيد عالي وناجي شوكت وغيرهم. وكان مجلسنا عامراً كل مساء وياسين باشا في مقدمة المداومين وكنا نتوزع جماعات، منا من يلعب البريدج ومنا من يلعب البوكر. وقد وجدت بغداد متطورّة معنىً ومادةً.. ولكنه تطور بلا منهج ثابت على أساس قويم... شوارع جديدة، وبيوت جديدة، واسماء جديدة، ولكن أبرز ما هنالك كان قلة الذوق في اختلاط الغرب والشرق وقد كتبت مقالاً في حينه بعنوان «كيف وجدت بغداد» بتاريخ ١٢ كانون/ديسمبر ١٩٣٢ قلت فيه أن التطور السياسي وانتهاء الإنتداب أمر حسن ولكن يجب علينا أن نعرف كيف نستفيد من هذا الوضع الجديد وانتقدت كثيراً التطور الاجتماعي إذ رأيت بلادنا قد رجعت القهقرى في تلك الناحية، إذ قد زادت الفوضى الأخلاقية والرشوة والمحسوبية والسرقات.. وبعد ذلك كتبت مقالين بعنوان «خرابيط» وكان لتلك المقالات وقع حسن في أواسط بغداد وكان ياسين الهاشمي مبسوطاً منها.

أول ما قمت به من الزيارات، كان مثولي بين يدي جلالة الملك فيصل.. فرحب جلالته بي كثيراً وأجلسني إلى جانبه وأخذ يقول «الآن قد حان وقت الوفاء بوعدك بأن تخدم بلادك بصورة فعلية» فقلت: يا مولاي اني تحت أمركم.. قال «ما رأيك إذا عيّناك متصرفاً للديوانية» قال ذلك بين الجد والهزل ليرى ما أقول. ولما رآني أبتسم قال: «لماذا تضحك؟ الخدمة للوطن هي في كل محل» قلت: «أنا تحت أمرك يا سيدي ولكن أمركم هذا ذكرني بالماضي ولذا ضحكت» قال: «ما هو ذلك» قلت: «أيام ثورة ١٩٢٠ وقبل تشريفكم العراق كانت المس بل تتصل ببعض الشبان من باب جلب قلوبهم وارضائهم.. وكنت يوماً بين المدعوين لديها على الشاي. وكلفتني بأن أقبل وظيفة متصرف في العمارة. فاستغربت كثيراً من تكليفها واعتذرت... فالآن بعد ١٢ سنة قضيتها في أوروبا بالدراسة والتخصص بالشؤون الدولية والعلوم السياسية أجد نفسي بأني لم أزل صالحاً للمتصرفية» فضحك جلالته.. وقال: «طيب إذن... اننا نحتاجك في جنيف» فشكرت جلالته واستأذنت...

خلال هذه المدّة التي قضيتها في بغداد، جددت عهد الصداقة القديمة مع كامل الجادرجي

فكنت أزوره في داره أكثر الأوقات. وداره كانت محل اجتماع «الحلقة» التي تضم اصدقاءه: ناجي الاصيل ويوسف إبراهيم وشوكت الزهاوي وطه الهاشمي. والصلة كانت ثقافية والصبغة اشتراكية وأني كنت دائماً ميالاً لذلك ولذا أصبحت من المداومين عند كامل وإن لم أدخل الحلقة لكن الصلة الحقيقية كانت مودتي لشخص كامل واعتمادي على متانة اخلاقه وإن كنت مخالفاً لبعض آرائه.. فقوميتي إذ ذاك كانت أقوى من اشتراكيتي وكان الوضع عند كامل منعكساً ومع ذلك كنا نتفق بكثير من الآراء والأفكار.

كان والدي قد اتخذ العماره مقراً له وبدأ هناك بالزراعة والاشغال. وكان قد أتى إلى بغداد بمناسبة وصولي من أوروبا حوالي شهر عاد إلى العماره وبقيت أنا مع إبراهيم في البيت أذهب أحياناً إلى الخان لدرس الوضع. التجارة كانت محدودة وكلها خسائر.. واردات الاملاك تصرف على الرواتب والمصاريف الشخصية وإبراهيم غير راضٍ على هذه الوضعية ووالدي ملتهٍ بالعماره ويصرف واردات املاكها وما يزيد على تعمير بستان جديد، فلم يكن هنالك شيء يشجعني على الاهتمام بأشغال التجارة وإن كان والدي راغباً في بقائي في بغداد وزواجي واشتغالي بأشغالنا على أن رغبتي كانت الاشتغال في جنيف والهروب من بغداد بأول فرصة.. وكنت أعتقد اعتقاداً جازماً بأن من واجب الشباب المثقف أن يقوم بقسطه في خدمة بلاده. وكنت قد درست العلوم السياسية وعشت في أوروبا مدّة طويلة وأصبحت لي تجارب عديدة في عصبة الأمم والاشتغال في شؤونها ولذا كان لزاماً عليّ أن اخدم بلادي، وفوق ذلك هناك وعدي إلى جلالة الملك وإلى نوري باشا. ولذا كنت قد اقنعت والدي بلزوم قبول الوظيفة ولو إلى مدّة مؤقتة..

عندما وصلت بغداد كانت الوزارة قد تبدلت على إثر خلاف حصل بين الملك ونوري باشا وكنا نسمع أن الملك فيصل بعد أن تم دخول العراق إلى عصبة الأمم رأى من الافضل ابعاد نوري عن الحكم والإتيان بعناصر جديدة لعله بتلك السياسة يحدّ من نفوذ نوري ويجلب جماعة جديدة لحزبه. فعند وصولي بغداد كان ناجي شوكت رئيساً للوزراء وعبد القادر رشيد وزيراً للخارجية ورشيد عالي رئيساً للديوان الملكي، أما نوري باشا فكان قد سافر إلى جنيف لتمثيل العراق هناك في الظاهر، ولكنه في الحقيقة فضل الابتعاد بعد قيام الملك فيصل بهذا الترتيب الجديد.. وكان نوري باشا يلح ويطلب من الوزارة ارسالي إلى جنيف كسكرتير دائم وعليه صدرت الارادة الملكية بتعييني في ذلك المنصب في ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٣٣.. وهكذا اصبحت موظفاً في الحكومة العراقية.

الخطبة والزواج

كان والدي دائماً شديد الرغبة في زواجنا أنا وإبراهيم. وكنت أنا شخصياً أود أن أرى إبراهيم متزوجاً سعيداً أما فيما يتعلق بنفسي فكنت متردداً من جهة صحتي ومن وجهة ارتباطي بالحياة الأوروبية وحرياتها. وفي بغداد كان الحديث بيننا يجري دائماً حول هذه الناحية وإبراهيم شخصياً لم يكن راغباً في الزواج تحت شروط الحياة الحالية وكان يرغب في أن يكون له شغل مستقل ثم انه كان يرغب في الزواج من الست امت. في السابق كان والدي معارضاً كل المعارضة وكان إبراهيم مصراً كل الاصرار. وكتب لي كل منهما عندما كنت في سويسرا حول الموضوع وتأثر إبراهيم مني لأنني لم انتصر له في هذه القضية واقتربت من رأي والدي في الأمر. وعلى كل كان الوضع إذ ذاك حرجاً وكنت أخشى أن يقع خلاف بين إبراهيم وأبي قد يؤدي إلى الانفصال بينهما فنصحت الطرفين بالتروي واقترحت على إبراهيم السفر إلى أوروبا لعل الوقت يحل ذلك الخلاف. فعندما جددنا الحديث في بغداد كان الوضع صعباً وقال إبراهيم انه لا يتزوج قبلي وقال والدي وعماتي يجب أن أتزوج أنا بصفتي أكبر الأولاد ومن بعدي يأتي الدور لإبراهيم ومحمد ومكي. واقتنعت ارضاءً لهم كلهم ولكن بدون رغبة كبيرة مني، وصار البحث والتفتيش حول الخطيبة والخطيبات.. فالعمات والأقرباء والأصدقاء كلهم تطوعوا لهذا الأمر وصرت أسمع المدح والثناء والاستحسان من كل جهة. هذا يمدح ابنة فلان وذاك ينتقدها ومر شهر وشهران وأنا أمام تلك المتناقضات حتى مللت وازداد ترددي في أمر الزواج أكثر من قبل. وكانت القضية طبعاً «بلا شوف» لأننا كنا لم نزل في المراحل الأولى وكنا نحصل بوسائل مختلفة على بعض الصور وأكثرها قديم لا يعطي فكرة فعلية عن «الخطيبة» كما هي الآن، إنما كما كانت قبل بضع سنوات وإنها الآن «ألف مرّة أحسن». وأتذكر مرّة أن عمتي حسيبة أعجبت بفتاة وصارت تمدحها حتى اصعدتها إلى السماء وبعد أن انتهت من الحديث عادت عمتي فهميّة تنتقد كل شيء فيها وأن وجهها صغير «مثل البلكة» وعيونها صغار «**مثل النمنم**» وهلم جراً. وكنت أمام مثل هذه الحالات أضحك على حالنا وآسف على حال الشبان والشابات في قضايا الزواج ولكني في الوقت نفسه كنت أفكر في الزواج على الطريقة الأوروبية، والفاشل باكثريته بالرغم من «الشوف» والاختلاط، وكنت أعلل النفس بأن شكل الزواج عندنا أقرب إلى الحظ (يانصيب) ولا يخلو هذا من «الرومانتيك». وبأمل هذا «الرومانتيك» تم قراري في الأخير أن أخطب بنت ياسين الهاشمي نعمت وقد شجعني محمد لأنه رآها عندما زارت مع أمها عمتي وقال إذا لا تأخذها فأنا آخذها، ومحمد الذي رأى امريكا وعكا ومكة يجب ان يكون ثقة يعتمد عليه في تقدير الكمال والجمال ولذا توكلنا كلنا، رجالاً ونساءً، على الله وقررنا. وفاتح الدكتور إبراهيم عاكف الباشا في الأمر فوافق الباشا وسرّ وأكد لإبراهيم عاكف بأنه يحبني مثل ابنه وانتشر الخبر بين الأهل والأصدقاء وكان الكل محبذاً مهنّياً حتى والدي الذي لم يكن متحمساً تحمس الأخير وحتى أنا المتردد أمسيت من المتحمسين..

وياسين باشا كان شيخ المتحمسين وذهب بنفسه وقصّ الخبر على جلالة الملك فيصل فسُرَّ جلالته بذلك وقال للباشا «أن موسى ابني ونعمت بنتي» ولذا أمر بأن يكون عقد المهر في البلاط

الملكي وأتانا الباشا بهذا الخبر مفتخراً، على أنني شخصياً مع الشعور بامتنان عظيم للطف جلالة الملك لم أرتح كثيراً من ذلك، وقد وجدت في حركة الباشا شيئاً من الرعونة. فهو من جهة رئيس المعارضة ورزين أكثر من اللزوم، ومن جهة أخرى يذهب إلى الملك ويقبل رعاية البلاط حول مسألة عائلية بحتة.

نعم جلالة الملك فيصل أراد بذلك أظهار عطفه الأبوي نحونا، ولكن في الوقت نفسه أراد أن يحيط رئيس المعارضة الأول بفضله ومنته. ومع ذلك لم نقل شيئاً واستعد رئيس الديوان الملكي للأمر وطبع بطاقات الدعوة ونشرت الصحف الخبر وحتى الجريدة الانكليزية «ايراك تايمز» ترجمت الخبر ونشرته في عددها الصادر في ١٤ شباط/فبراير ١٩٣٣ معلنة أن المراسم ستجري يوم ١٦ شباط/فبراير في البلاط أو القصر الملكي. وفي آخر لحظة وقبل توزيع بطاقات الدعوة بيوم واحد ضرب ياسين باشا «دبّة» غير منتظرة، ذلك أننا أثناء الترتيبات كنا نفتش على خطيبة لإبراهيم وتقرر بأن نخطب له «ناهدة» فوافق إبراهيم وكنا كلنا مسرورين بأن يتم زواجنا في وقت واحد.. فلما بلغ الخبر الباشا أرسل لنا إنذاراً أقل ما يقال فيه أنه أسخف من السخيف... يقول الانذار الشفوي الذي وصلنا بواسطة الدكتور إبراهيم عاكف أن نعمت وناهدة كانتا غير متآلفتين في المدرسة فالآن إذا أصبحتا سلفتين يكون الأمر صعباً جداً ولذا يفضل الباشا بل يشترط بأن نعدل عن خطبة ناهدة لإبراهيم. كدنا لا نصدق بأن مثل هذا الأمر يصدر عن الباشا وتألمت جداً وقررت بأن لا نقبل مثل هذا الانذار السخيف وأن لا أكون أنا مانعاً لسعادة أخي فرفضنا طلب الباشا. وفي اليوم الثاني أعادت لي «خطيبتي» صورتي إشارة إلى فسخ الخطبة وتأثر والدي كثيراً من عمل الباشا. وفهمنا أن قصده كان أن يتزوج إبراهيم من ابنته الأخرى.. وكان يظن أننا سنرضخ لأوامره بعد أن وصلت القضية إلى حيث وصلت وتدخل البلاط في الأمر. وكان صعباً عليه سحب الانذار فانتهت الخطبة الحماسية بفشل بارد.. وقد لام كثيرون الباشا على تصرفه ذلك. أما أنا شخصياً فقد شعرت بأن حملاً قد رفع عن كتفي لأنني لم أكن راغباً في الزواج لا من نعمت ولا من غيرها.. وهكذا تم عقد مهر إبراهيم بعد مدّة في بيت فتاح باشا وكان سرورنا كبيراً وقد دعونا الباشا بالطبع للحفلة ولكنه لم يحضر.. وكان أسفي الوحيد في تلك القضية أن أكون سبباً لانقطاع صلة الصداقة بين والدي وياسين باشا وسبباً لشيء أشبه «بالسكاندال» (الفضيحة) العائلي.. ولكن يشهد الله أن السبب الحقيقي هو تصرف الباشا ولم يكن لي ذنب مباشر بالأمر.

وبعد ذلك بمدّة ذهبت لزيارة صديقنا القديم أوسطه صالح الخياط وكان مريضاً في داره فقال لي «يا ابني وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم... فأن الله أراد لك الخير. ما لنا نحن وهؤلاء البشوات!..»!

وزارة الخارجية

بعد تعييني صرت أذهب أحياناً إلى وزارة الخارجية للاطلاع على سير الأشغال والتمرس بأشغال الحكومة. وكان الوزير عبد القادر رشيد منكباً على الأعمال في «الدوسيات» (الملفات) ودراسة كل قضية مع أوراقها شأنه شأن الموظف المدقق لكل صغيرة وكبيرة فهو بلا شك من الجهة الأخلاقية والكفاءة وانتظام الشغل من أحسن الشبان العراقيين ولكن كان ينقصه النفوذ الشخصي إذ كانت تبدو الوزارة كدائرة أعمال يومية لا وزارة خارجية تقوم بأمور جسيمة...

أما المدير العام فكان الدكتور حنا خياط ويعد من الموظفين القديرين ويتقن اللغة الفرنسية ويعرف اللغة الانكليزية ويعرف أحسن من كل شيء صيغة الكلام واقناع المخاطب بالأقوال المنطقية ولكن يقال أن ٩٠ بالماية من كلامه مبالغة وتسفيط كلمات.. والمشاور الحقوقي كان الدكتور ناجي الاصيل وهو صديقي ومن اعضاء الحلقة فهو لطيف المعشر طيب الكلام، يحب التكلم باللغة الفصحى ويبالغ في التمسك بها. قال لي كامل أن ابنه رفعت سأله يوماً: «بابا ليش عمو ناجي يحكي دائماً مثل القرآن» وهذا تشبيه ظريف لكلام الدكتور.. كنت يوماً في غرفته بالوزارة، وأثناء الحديث دخلت ذبابة في فمه فأخذ يسعل ويبصق ويسب ولكن حتى في تلك الوضعية لم ينس النحو إذ أخذ يقول: «قاتلك الله.. بالعينة.. قاتلك الله..» فإذا خاطب الذباب بهذه اللغة فكيف يخاطب الناس. واستغربت كثيراً عندما سألني الدكتور يوماً معنى «المياه الساحلية» عندما كنا نتباحث بموضوع يتعلق بحدود العراق على الخليج الفارسي. كيف لا أستغرب والدكتور هو المشاور الحقوقي للوزارة. وكان مدير التشريفات توفيق السعدون وهو صديق ورجل طيب ولكنه بيطري فكيف يجمع بين دراسته حول الحيوانات ووظيفته المرتبطة بالاتصالات الدبلوماسية ورجال السلك الخارجي! والحق أنني لم أجد موظفاً في الخارجية له علاقة بالخارجية ودراستها.. فكنا أنا ويوسف الكيلاني الوحيدين اللذين لهما دراسة تتعلق بالسياسة والدبلوماسية.. ولكن هنالك معذرة للوضع وهي قلة الرجال ونشأة العراق الجديدة. وأثناء دوامي في الوزارة اطلعت على تقارير بعض الموظفين من باب الاستفادة من خبرة القدماء من الموظفين فوجدت بينها ما يستحق أن يكون مثالاً بارزاً للسخافات وقلة الذوق منها مناوشات بين مزاحم الباجه جى والشيخ كاظم الدجيلي أما تقارير القنصل عبد المجيد علاوي (وهو حالياً أي في ٤٦/١/٢٤ وزير الشؤون الاجتماعية) التي أرسلها من المحمره فأنها تضحك الثكلى بسخافتها وهنالك كثير من النواقص والمهازل. وكان الجواب الذي اسمعه على اعتراضاتي دائماً «من أين نأتي بالرجال.. هذا هو الموجود..» إذاً ماذا فعلت الوزارات العراقية طيلة هذه السنوات؟ وماذا انتجت البعثات؟

وكان عبد الوهاب درويش جليسي في الغرفة بالوزارة وقد نُقل حديثاً من ادارة السكك إلى الخارجية ولا يعلم أحد لماذا نقل ويقال أنهم رفعوه ودفعوه للخارجية تخلصاً منه. وكان عبد الوهاب هذا شاباً ضخماً طويلاً عريضاً وعنيد الرأس. يقال أنه ذهب على حساب الحكومة إلى لندن للدراسة العالية، وبعد أن قضى هو وزميل له من شاكلته سنتين لم يستطع أن يقدم امتحان

الدخول فرجع من لندن هو وزميله بخفي حنين وسبقهما كتاب من الكلية إلى وزارة المعارف العراقية يقول أنه من الحرام على الحكومة العراقية أن ترسل مثل هؤلاء الشبان للدراسة لأن لا قابلية لهم ولا طاقة لهم على مثل هذا المجهود. وعاد عبد الوهاب درويش وكان له ما له من الحظ والمحسوبية بأن كان يترفع كلما ترك دائرة ودخل أخرى. وهكذا أصبح الآن في الخارجية لتستفيد البلاد من مواهبه. فكنت أنا وأياه في نفس الوضع. ولا أدرى من كان الأحق منا بذلك الوضع! أما عمله في الوزارة فقد كان لقراءة جريدة «التايمس» لتقوية معرفته بالانكليزية وكان له أسلوب خاص في القراءة فهو يضع الجريدة أمامه فوق الطاولة يبدأ «يُوَنوْن» و«ينود» فيذكرني ببعض العجائز عند تلاوة دلائل الخيرات... وكان رشيد عالي يلتزمه وكذلك ياسين الهاشمي.. ويخلق ما لا تعلمون!.

ومضت أيام وعيّن عبد الوهاب قنصلاً هنا وقنصلاً هناك وكانت الفضائح و«السكاندالات» تتبعه أينما ذهب ولكن كان ترفيعه لا يتأخر يوماً واحداً وانتهى به الأمر بقنصلية تبريز، وعندما كنا في طهران بعد حادثة ١٩٤١ ودخل الروس تبريز، ظهر عبد الوهاب درويش على بلكون القنصلية ليرى جيش الاحتلال وهو هناك أصابته رصاصة تائهة وذهب شهيداً رحمه الله، ذهب ضحية الخارجية، والخارجية كانت ولا تزال ضحية موظفيها ووزرائها والمرحوم عبد الوهاب نموذج واحد فهناك أشخاص آخرون يكون عبد الوهاب ملاكاً بالنسبة لهم!

وكان وضع الخارجية نموذجاً بسيطاً للوزارات الأخرى ويقال أنها كانت أحسن من غيرها من دوائر الحكومة! كنت أفاتح كامل الجادرجي حول هذه المصائب وكيفية معالجتها وكان رأي كامل أنه يتوجب عليّ رفض الوظيفة لأن الحكومة العراقية هي عبارة عن بركة ماء قذر فإذا أنت قذفت نفسك بها بنيّة إصلاحها ذبت فيها كما تذوب قطعة السكر في البركة... فأنت تذوب والماء يبقى فاسداً قذراً... وقد أثبتت الأيام صحة قول كامل مع الأسف ولكن في تلك الأيام كنت أعتقد بأن الشباب المثقف الصالح يجب أن يدخل دواوين الحكومة لينقذ ما يمكن انقاذه ويصلح ما يستطيع إصلاحه من الفساد وإلّا فسيبقى الحال على وضعه بل إنه يتردى وتهلك البلاد!

في آذار/مارس من تلك السنة عاد نوري باشا من جنيف وبعد عودته بأيام تبدلت الوزارة ودخل نوري باشا في الوزارة الجديدة كوزير للخارجية وأصدر أمراً بإعارتي إلى ديوان الوزارة فصرت أداوم بصورة منتظمة وأستعد للسفر إلى جنيف واستفدت من ارشادات نوري وتجاربه فهو وأن لم يكن «علّامه» فإن عنده من الذكاء وحسن التصرف ما يمكنه أن يقوم بمختلف الأعمال وهو يخالف عبد القادر رشيد تماماً في أسلوب عمله لأنه لا يقرأ ملفاً ولا يدرس موضوعاً دراسة جدية بل كان يمشي شغل الوزارة «على الرجل» كما يقال ولكن دماغه كان دائماً متحركاً في أمور بعيدة وقريبة حسنة وسيئة وكان مشهوراً بأنه شيخ «الانتريك».

السفر

بمناسبة عيد الاضحى سافرت إلى العمارة في أوائل آذار/مارس ١٩٣٣ بصحبة الدكتور إبراهيم عاكف وعباس مهدي بسيارة هذا الأخير. وقضينا أيام العيد عند والدي الذي كان ساكناً في بيت كبير ويعيش عيشة الشيوخ فكان المضيف عامراً والناس تزوره ليلاً ونهاراً وبهذه الواسطة كان كأنه قاضي الحاجات ومبسوطاً من تلك المعيشة.

أحمد زكي الخياط كان متصرف العماره إذ ذاك، وهو الآن مدير الدعاية العام، وكنا نجتمع به كل الوقت إذ كان من أصدقاء والدي المقربين وجلال وعلي أبو المي أيضاً كانا قد أتيا لقضاء العيد في العماره فانبسطنا من تلك السفرة وعدنا إلى بغداد بعد العيد وكان الطريق متعباً وفيه أوحال كثيرة وكنا نتوقف من وقت لآخر لترتاح السيارة أو لنجرها من الطين.

بعد أن بقيت «أتمرن» في الخارجية لمدّة شهرين سافرت في النصف الأخير من أيار/مايو ١٩٣٣ عن طريق الشام. وأخذت عمر السائق معي خادماً وبقيت في الشام يومين ومنها ذهبت إلى بيروت، ومن بيروت إلى القدس حيث بقيت بضعة أيام لمشاهدة ما فيها، ثم أخذت القطار من حيفا إلى القاهرة. الوضعية في فلسطين كانت مؤلمة فاستيلاء اليهود واستعمارهم البلاد يرهب قلب كل عربي.. لديهم العلم والمال والعزم والثبات وكل ما يقتضي لترسيخ قدمهم والعرب أمام هذه المشكلة عُزّل لا سلاح ولا علم ولا مال وان كان الحق كله بجانبهم.. تعارفت في القدس على الكاتب الشهير سامي السراج، وعلي الدجاني وعلى رجال آخرين من الزعماء فوجدت أن الكل كان قلقاً وخائفاً ولكنهم ليسوا بيائسين.. زرت المسجد الاقصى.. وكنيسة القيامة... وبيت لحم.. وحائط المبكى ولكل هذه الآثار القديمة أثر في النفس.. هنا ولد المسيح ومن هنا عرج محمد، وهنا حوصر اليهود من قبل نيتوس.. وهنا جرت مذابح الصليبيين.. حوادث عظيمة في تاريخ البشر جرت كلها في هذه الأرض الضيقة وفي هذه البقعة التي يتخاصم فيها شعبان متقاربان في النسب، العرب واليهود.

ذهبت مساء يوم إلى ساحل البحر الميت وكان بعض الناس من يهود وغيرهم يسبحون في ذلك البحر فجلست في احدى المقاهي على الشاطىء وأخذت أفكر بمشاكل الدنيا الحاضرة وماضي هذه البلاد ثم فجأة صرت أسمع أصوات النجدة والاستغاثة وهناك على بعد غير يسير من الشاطىء فتاة اضاعت موازنتها وصارت تغرق.. فرمى أحد الشبان نفسه في الماء وأخذ يعوم بكل قواه حتى وصلها فأمسكها من شعرها وسحبها وراءه إلى الشاطىء فأنقذها.. الفتاة كانت يهودية والمنقذ عربي. حادث غريب يريك أن طينة الإنسان هي أقوى من المكتسبات كالدين والنسب والدم واللغة وغيرها من الأمور، التي تفرق بين الإنسان وأخيه وتخلق المخاصمات والمنافسات والحروب..

ومنظر آخر غريب في القدس عند حائط المبكى.. فهناك عدد من اليهود يقرأون وينودون ويبكون ويتعبدون وعلى بعد قليل منهم يقف جندي بريطاني لحفظ النظام والأمن بين العرب

واليهود... وقبل كل شيء لتأمين المصالح البريطانية. ذكرني ذلك «ببيلاطس البنطي» الروماني...

تركت فلسطين وشأني مثل شأن كل عربي مخلص، يتألم من تمثيل تلك الدراما التي خلقها الانكليز أيام الحرب وأخذ الصهاينة يمثلونها على هذا المسرح العربي باسم الوطن القومي اليهودي والانتداب البريطاني.. ولكن ما العمل والعرب ضعفاء أمام خصمين قويين من هذا الطراز!

على الحدود المصرية حدث لي مشكل صغير وطريف وذلك من جراء علبة «منّ السما» كانت مع أغراض الخادم عمر.. ولما كنت أحمل جوازاً سياسياً مررت من الكمرك بدون صعوبة ولكن جواز عمر كان اعتيادياً وعليه فقد مرّ من تفتيش دقيق وظهرت المشكلة عند علبة «منّ السما».. فأخبرنا الشرطي الموظف بأن ذلك نوع من الحلويات العراقية ولكنه لم يقنع بذلك فأخذ يشم «منّ السما» ويلمس الطحين وعلامات الشك والريبة تبدو على وجهه خوفاً من تهريب الحشيش.. فأخذنا إلى رئيس الموظفين وبعد شرح طويل أخذت قطعة وصرت آكلها ورجوت الرئيس والموظف أن يأكلا منها ففعلا ذلك وتأكدا من براءة المن من الحشيش واجتزنا الحدود الكمركية بسلام..

نزلت في القاهرة في أحد الفنادق (ربما اسبلاناد.. ان مذكراتي ومفكراتي منذ ١٩٢٥ ـ ١٩٣٥ بقيت مع كتبي وحوائجي الأخرى في برلين ولا أدري ما صنع الدهر بها ولذا التواريخ لهذه المدّة كلها تقريبية).. وجدت الحر شديداً في مصر والنوم في الغرفة ليلاً من المزعجات. قابلت في القاهرة عزيز علوي فوجدته الآن موظفاً مهندساً وكان ساكناً في دار لوحده وإذ أنه طلق زوجته نعمت التي كنت قد تعارفت عليها في شاتزآلب وآخر مرّة رأيتها في سان موريتز. علمت من عزيز أنه خسر القسم الأكبر من ثروته بالقطن... كما علمت منه أن أنطوان ظريفة زميلنا في شاتزآلب بعد عودته من سويسرا توظف في شركة أمريكية للسيارات ولكن المسكين لم يتمهل فتوفي على إثر عملية في المصران الأعور.. قابلت كذلك طلعت راغب زميلي في كلية لوزان ومصطفى نبش صديقي من شاتزآلب ودعاني مصطفى إلى بيته وعرفني بأخواته وكان لطيفاً معي حتى أنه رافقني إلى الاسكندرية عندما أردت التخلص من حرّ القاهرة. سكنت في الاسكندرية بكازينو «شي آستفانو» وعرفني مصطفى بالنقراشي بك [الآن النقراشي باشا رئيس الوزارة المصرية] وبعد أيام لذيذة قضيناها على البحر سافرت إلى بورت سعيد لأخذ الباخرة الايطالية فيكتوريا.. فرافقني مصطفى إلى هناك وودعني عند السفر.

السفرة من مصر إلى جنوى كانت بديعة. الهواء لطيف ومعقول، الباخرة عظيمة ومريحة. بقيت يوماً أو يومين في جنوى زرت خلالها المقبرة الشهيرة وما يجب مشاهدته ومنها ذهبت إلى ميلانو ولي فيها فيما سبق من الأيام ذكريات وقابلت هناك هارون وغالي شماش وبعد بضعة أيام أخذت القطار فسافرت إلى جنيف. وسكنت في فندق «مونتريال» وتركت عمر في احدى البانسيونات وابتدأ العمل في جنيف...

جنيف

بعد وصولي جنيف ببضعة أيام وصل السيد أحمد وصفي معه زوجته وابنه الصغير اسامة فنزلوا في بانسيون بالقرب من الفندق واستأجرت غرفتين في أوتيل «مونتريال» اتخذتهما مكتباً لنا وعرفنا وزارة الخارجية ببغداد بعنواننا...

عندما سافرت من بغداد كان نوري باشا قد اوصاني بأن استخدم الكاتب المحلي الذي كان موظفاً عنده عندما كان في جنيف فهو رجل انكليزي مقتدر وخدوم وأن المرحوم جعفر باشا كان يعرفه ويعتمد عليه وأن اسمه ريد ومن عائلة طيبة. فوعدت الباشا بذلك. وبعد وصولي جنيف بأسبوعين تقريباً وردت برقية من لندن باسم «ريد» يخبرنا بوصوله غداً إلى جنيف. فذهبت في الوقت المعيّن إلى المحطة لاستقباله إكراماً لخاطر نوري باشا.. وعندما وصل القطار.. لم ينزل منه الانكليزي المنتظر.. فصرت أذهب من أول القطار إلى آخره وأفتش عليه بدون جدوى. وبينما أنا أفتش هكذا إذ بفتاة شقراء طويلة تقترب مني وتسألني بالانكليزية فيما إذا كنت أنا المستر شابندر فقلت نعم فقالت إنها هي المس ريد الكاتبة التي أوصاني بها نوري باشا. فابتسمت وسلمت عليها وقلت سبحان الله الذي قلب الكاتب المحلي إلى سكرتيرة شيقة وفهمت الموضوع. ولكني استغربت من لف ودوران نوري باشا وإخباري بأنها كاتب محلي وبعد أخذ موافقتي يصبح الكاتب كاتبة. فالمسألة لا تحتاج إلى كل هذه التدابير. وقد تكون الكاتبة أفضل من الكاتب.. فكانت مناورة الباشا ليست في محلها ولا حاجة بها... ولكن حملتها على العقلية العراقية ولم نفتح الموضوع... فأخذنا المس ريد إلى البانسيون وأخذت تداوم في المكتب وباشرنا بأعمالنا بصورة جدية.

أخبرني بعد ذلك الأمير شكيب ارسلان واحسان الجابري وعلي الغاياتي بقصة المس ريد. فإنها كانت معه خلال الأشهر التي قضاها في جنيف وكان الباشا مغرماً بها كل الغرام ويصرف عليها ويرافقها إلى المراقص والبارات وكان الناس ينعتونها بالمس عراق وأن الشغلة كانت ثخينة جداً وأن الباشا كان يسلم الأمور كلها إليها و.. و.. و.. وعلى هذا قررت أن لا أهتم بما حدث بينها وبين الباشا إذا قامت كما يلزم بواجبها.

ومساءً يوم كنت على العشاء، طلبتني المس ريد بالتلفون وطلبت مني الحضور إلى البانسيون، فذهبت بعد العشاء معتقداً بأن هناك قضية مهمة وعند مكتب الاستقبال أبلغت بأن المس ريد تنتظرني في غرفتها فذهبت إليها.. فوجدتها ترتدي بيجاما حمراء ومعطرة فقالت أتدري لماذا رجوتك أن تأتي. قلت لا.. قالت لأريك هذه البيجاما التي أهداني إياها نوري باشا!

يظهر ان الشغلة فيها وما فيها.. فتظاهرت بالبلادة وقلت لها لنخرج نتمشى وخرجنا فقد كنت اتجنب أن تتطور العلاقة بيني وبينها لأنها مستخدمة عندنا ولأنها صديقة نوري باشا فصرت لا أشجعها بل اعاملها أحياناً معاملة ناشفة عند الشغل ولكنها لم تلتفت لذلك وأخذت تتداخل بما لا يعنيها إلى أن انفجرت القنبلة يوماً كما سيأتي البحث حولها..

القضية الآثورية

كانت فاتحة أعمالنا في جنيف القضية الآثورية فقد هاجر الآثوريون عند انتهاء الحرب من تركيا ـ منطقة حيكاري ـ إلى شمال العراق تخلصاً من الأتراك وسكنوا هناك في قرى عديدة بين الأكراد.. وقد عطف عليهم سكان الشمال وأهل العراق وأصبحوا عراقيين ولكن عندما دخل العراق عصبة الأمم وصار الحكم ينتقل من السلطات الانتدابية إلى أيدي أهل البلاد أخذ الآثوريون يظهرون عدم ارتياحهم من ذلك التطور إذ كانوا يفضلون البقاء تحت السلطة البريطانية المباشرة فصاروا يطالبون بمطاليب مضرّة بصالح البلاد، منها طلبهم بأن يكون لهم إدارة مستقلة في منطقتهم، وترأس هذه الحركة رئيسهم الروحاني الشاب المار شمعون ويقال ان المار المذكور كان مندفعاً من قبل بعض الحكومات الأجنبية وخاصة السلطات الفرنسية في سورية.. ومهما كانت الأسباب والعوامل فقد انتهى التذمر في صيف ١٩٣٣ بثورة مسلحة وهجرة عامة من بعض المناطق نحو الحدود العراقية ـ السورية مما جعل القوات العراقية تتدخل في الأمر فالتحقت عشائر الأكراد بالجيش العراقي وحصلت بعض المذابح وفي الأخير تمكن العراق من اخماد تلك الفتنة وكان البطل القائد بكر صدقي.

كان لتلك الحوادث رد فعل قوي في أوروبا وخاصة في جنيف مقر العصبة واستغلت الصحافة الافرنسية بشكل خاص ذلك الحادث فأخذت تكيل اللوم والعتاب وتنتقد سياسة الحكومة البريطانية وتخليها عن الانتداب في العراق وكانت «الجورنال دو جنيف» في مقدمة المهاجمين على العراق وعلى العرب وتنشر كل يوم مقالات مثيرة وأخباراً مبالغاً فيها حتى انقلبت القضية من ثورة محلية إلى مذبحة يقوم بها المسلمون ضد النصارى وكان المار شمعون نفسه يروّج تلك الاشاعات ويغذي تلك الدعاية السامة ضد العراق، وكان من الاخطاء التي لا تغتفر بأن تبعثه الحكومة العراقية إلى خارج العراق لان ضرره في الخارج أكثر بكثير منه في الداخل.

وكان المار يرتدي لباسه الديني ويطوف على الوفود ويشتكي باسم الدين والعدالة وكانت هنالك آذان مستعدة للاستماع إلى تلك الدعاوى الفارغة الكاذبة.. أما نحن فلم نكن مستعدين وجاهزين كما ينبغي لرد سيل تلك الدعايات ولم نزل في بداية تأسيس المكتب ولم نزل في الفندق. ومع ذلك فقد قمت بقدر المستطاع بما يجبْ عمله وصرنا نرد على دعايات «الجورنال دوجنيف» ونوضح للعالم حقيقة الموقف وأصعب شيء عندنا كان اهمال وزارة الخارجية ناحية الدعاية بالمرّة، فقد كنت أرسل البرقيات الواحدة تلو الأخرى طالباً الأخبار والسياسة والبيانات التي يجب نشرها ولكن بدون أقل جواب من بغداد فصرت آخذ الأخبار من راديو لندن وأرتب الردود على أساسها.

عندما انفجرت الثورة كان الملك فيصل في برن وقد أتى إليها من لندن حيث قام بزيارة رسمية وبناءً على طلب نوري باشا وزير الخارجية ذهبت إلى برن مع الكاتبة المس ريد للقيام ببعض الأعمال. كان في معية الملك عدا نوري باشا، ياسين الهاشمي، ورستم حيدر، وتحسين قدري.

وكان الملك علي أيضاً هناك، وبالطبع أتى الأمير شكيب واحسان الجابرى وعادل ارسلان وغيرهم من العرب. ياسين الهاشمي سافر إلى بغداد عن طريق تركيا بعد أن بقي لمدة يومين أو ثلاثة في برن. وكان الملك فيصل متأثراً وخائفاً من الحوادث في بغداد وقد زاده قلقاً وخوفاً البرقيات والكتب التي كان يزوده بها السفير البريطاني همفريز من لندن. وكان نوري السعيد يضاعف له خوفه مؤيداً أفكار السفير. أما من بغداد فكانت الأخبار مطمئنة ومشيرة إلى جلالته بأن لا يزعج نفسه وأن كل شيء سينتهي بخير.

وهكذا كان الملك متردداً بين تطمينات رئيس وزرائه رشيد عالي وبين تخويفات وزير خارجيته نوري السعيد. وفي يوم من الأيام وصلنا كتاب شبه رسمي.. من السفير ينذر الملك بأنه إذا حصل ما لا تحمد عقباه فإن الملك فيصل سيكون هو المسؤول عن ذلك وينصح السفير الملك بصورة حازمة «Strongly advise» بالعودة إلى بغداد حالاً لمعالجة الوضع الخطر. وكان هذا الكتاب بمثابة القول الفصل فقرر الملك السفر حالاً.. وسمعت يوماً نوري باشا يقول لجلالته «نسافر بالطائرة دون أن نخبرهم فنكون في بغداد فجأةً على رأسهم» ويعني بهم اعضاء الحكومة.. فتعجبت من اقتراح مثل هذا يصدر عن وزير خارجية ورجل دولة مثل نوري باشا.. ولكن الباشا لا يهتم بسوى ما يطمن رغباته الصبيانية من جهة ورغبات السفير الاستعمارية من جهة أخرى.. ولكن من حسن الحظ ان رستم حيدر لم يوافق على طريقة السفر تلك فأبرقنا إلى بغداد كما هي العادة المألوفة بين الملوك وحكوماتهم وسافر الملك وحاشيته وعدنا نحن إلى اشغالنا في جنيف.

تبين أثناء اقامتي في برن مع الحاشية الملكية كم كان محقاً المرحوم محسن السعدون فيما كتب قبيل انتحاره بأن العراقيين بعيدون عن الاستقلال.. فالنواقص وعدم المقدرة والفوضى كان بارزة في كل أمورنا وفي الحاشية الملكية نفسها.. فكيف إذن بالحكومة في بغداد والإدارة في مدن العراق؟

اما نوري باشا فكان في حالة «ذوبان مستمرة» أمام المس ريد وهي تستغل ذلك الضعف وتحركه بإصبعها الصغير.. ولم يؤثر وجود الملك معنا على صلة الباشا بها وتظاهره بذلك الحب القتال حتى أصبحت المس ريد «كأم المؤمنين» وأخذ أفراد الحاشية يتظاهرون بالمدح والثناء على كل ما تقول وما تعمل إرضاءً للباشا.. وقد كنت متألماً لهذه الوضعية لأنها موظفة عندي ولأنها في الحقيقة لا تستحق كل هذا الاهتمام. وقد وجدت أن رستم حيدر هو الرجل الوحيد الذي يمكن أن يطلق عليه اسم «رجل دولة» لعلمه الغزير وتفكيره المصيب وتصرفه وأخلاقه المتينة وأعجبت بالامير عادل ارسلان لمزاياه ومتانة خلقه، أما الباقون فليغفر الله لهم ذنوبهم.. ولكن ربما هم المحقون ونحن المخطئون.. انهم يعرفون من أين تؤكل الكتف ونحن نجهل ذلك... هم كانوا ولا يزالون في الصف الأول من «الوطنية وخيراتها» أما نحن... فلا نرى سوى العذاب والنفي والسجن وأنواع الشقاء.

في جنيف استأنفت أعمالي والاشتغال بالقضية الآثوريّة.. وكنت أشتغل طوال النهار وأحياناً إلى ما بعد منتصف الليل وكان السيد احمد يتعجب ويلومني على ذلك قائلاً: «ما لك تحمل قزان حاجى بكتاش على رأسك...» ويعني بذلك ما لك تهلك نفسك بهذه الاشغال وبغداد

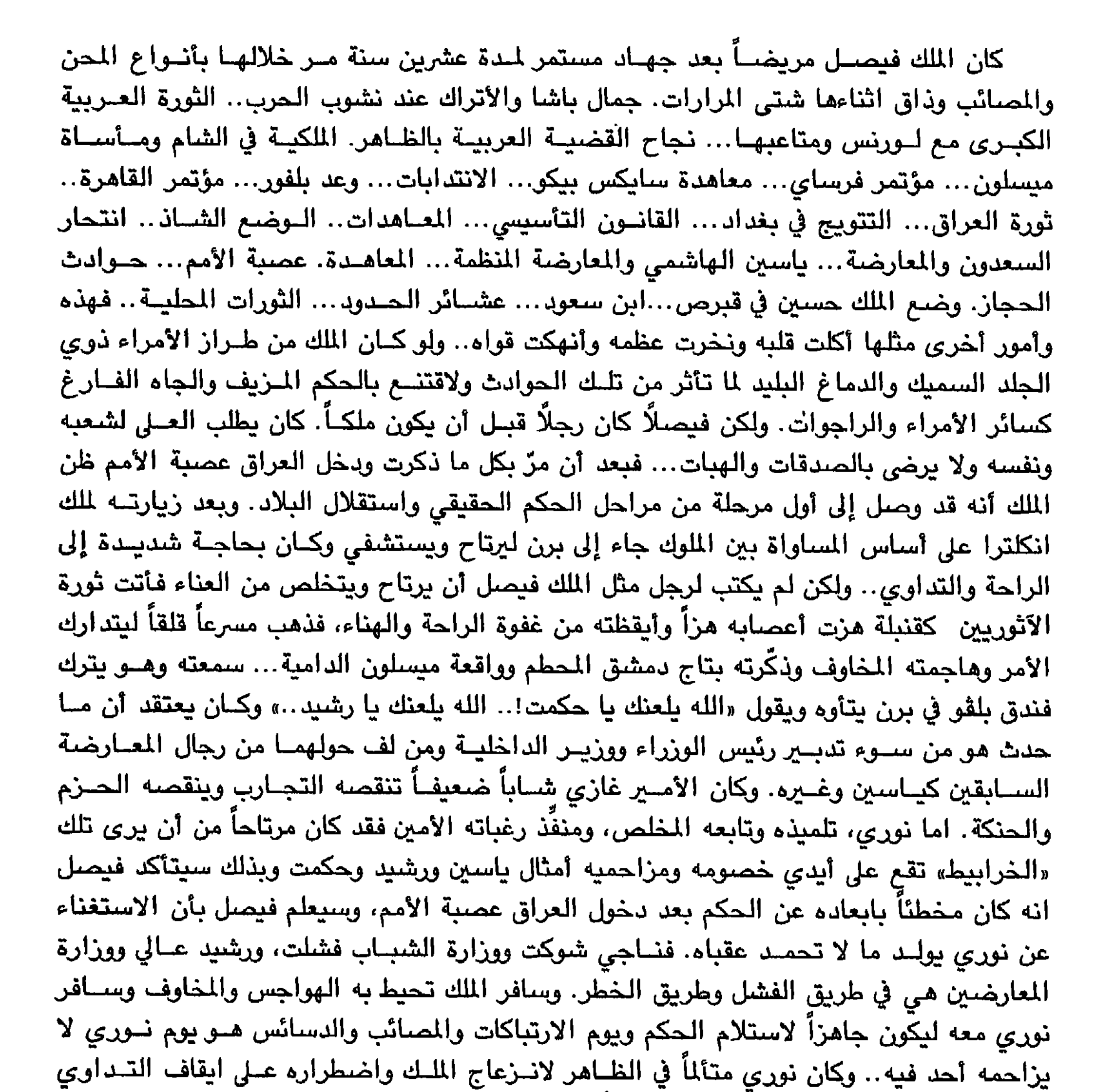
غير مهتمة بالأمر. وأظهرت الأيام مع الأسف أن الحق مع أحمد...

وقد وصلت الدعاية ضد العراق إلى أوجها وأخذت الصحف تشير إلى مذابح النساء والأولاد في سحيل وكانت الحكومة العراقية تكذب تلك الأخبار ونحن بدورنا نكتب ونرد ونقابل الوفود.. وسمعت يوماً بأن المار شمعون يطالب بأرسال لجنة محايدة من قبل عصبة الأمم إلى العراق لتدرس الوضع ففكرت في الأمر وقررت بأن العراق يجب أن يطلب ذلك قبل المار شمعون لقطع دابر الدعايات وأبرقت باقتراحي هذا إلى بغداد ولم أستلم بالطبع أي جواب، ولكن بعد مدّة أتاني كتاب شخصي من ياسين باشا يمدح ويثني في البداية على اهتمامي بالقضية الآثورية ولكن يؤنبني في النهاية على اقتراحي حول طلب اللجنة ويقول. أن ذلك لا يناسب شرف البلاد.. فتأثرت كثيراً من كلمات الهاشمي لا سيما وهو الرجل الداهية ولكن دهاء الباشا مع الأسف لم يتجاوز الادارة المحلية وعلاقتنا بالانكليز. فالأمور الدولية وعصبة الأمم كانت بالنسبة إليه أشياء جديدة. ولماذا يكون اقتراحي لا يتناسب مع شرف البلاد.. فنحن أعضاء في العصبة وندَّعي بأن لا صحة لما قيل عنا فلماذا لا نطلب لجنة تحقيق محايدة؟ اني كنت ولم أزل أعتقد بأن شرف العراق كان يقضي بطلب التحقيق لنفي تلك التهم المشينة والمضرة بسمعة العراق وشرفه.. ومن الغريب أنه بعد أن أتى نوري باشا إلى برن ثاني مرّة مع فيصل قال لي: «أن الحق كان معي وأنه أيدني وطلب الموافقة على اقتراحي من مجلس الوزراء ولكن ياسين عارض. وياسين لا يوافق على كل شيء يأتي من الخارجية لأنني وزير الخارجية».

ومن المهازل في هذه القضية أنني صرفت حوالي ٢٠٠ فرنك أي ١٠ دنانير على طبع المقالات واحضار المناشير للصحف والرد على دعاية المار شمعون وأدخلنا ذلك المبلغ بمصاريفنا الشهرية فأتانا رفض بصرف المبلغ من وزارة المالية وبقينا عدة أشهر نكتب لهم ويكتبون لنا ولم توافق الحكومة على صرف المبلغ إلّا بعد استقالة الوزارة. وسمعت بأن الرئيس الجديد جميل المدفعي هو الذي أمر بصرف المبلغ. وهكذا كانت أعمال الحكومة.. فأموال الدولة تصرف هدراً هنا وهناك وتقوم القيامة حول عشرة دنانير دفعت للدعاية. ليت شعري هل جميع حكومات الدنيا مصابة بمثل هذا المرض وهذا الدجل!

وبعد أن قامت القيامة وفار التنور وتأسست لجان ودرست تقارير طويلة عريضة حول إسكان الآثوريين خارج العراق دخلت قضيتهم دورة المماطلة والتسويف وكان الفضل في ذلك يعود إلى جهاز عصبة الأمم فانتهى الأمر بدفن القضية إلى أجل غير مسمى.

وفاة الملك فيصل



كان الملك فيصل مريضاً بعد جهاد مستمر لمدة عشرين سنة مر خلالها بأنواع المحن والمصائب وذاق اثناءها شتى المرارات. جمال باشا والأتراك عند نشوب الحرب.. الثورة العربية الكبرى مع لورنس ومتاعبها... نجاح القضية العربية بالظاهر. الملكية في الشام ومأساة ميسلون... مؤتمر فرساي... معاهدة سايكس بيكو... الانتدابات... وعد بلفور... مؤتمر القاهرة.. ثورة العراق... التتويج في بغداد... القانون التأسيسي... المعاهدات.. الوضع الشاذ.. انتحار السعدون والمعارضة... ياسين الهاشمي والمعارضة المنظمة... المعاهدة. عصبة الأمم... حوادث الحجاز. وضع الملك حسين في قبرص...ابن سعود... عشائر الحدود... الثورات المحلية.. فهذه وأمور أخرى مثلها أكلت قلبه ونخرت عظمه وأنهكت قواه.. ولو كان الملك من طراز الأمراء ذوي الجلد السميك والدماغ البليد لما تأثر من تلك الحوادث ولاقتنع بالحكم المزيف والجاه الفارغ كسائر الأمراء والراجوات. ولكن فيصلاً كان رجلاً قبل أن يكون ملكاً. كان يطلب العلى لشعبه ونفسه ولا يرضى بالصدقات والهبات... فبعد أن مرّ بكل ما ذكرت ودخل العراق عصبة الأمم ظن الملك أنه قد وصل إلى أول مرحلة من مراحل الحكم الحقيقي واستقلال البلاد. وبعد زيارته لملك انكلترا على أساس المساواة بين الملوك جاء إلى برن ليرتاح ويستشفي وكان بحاجة شديدة إلى الراحة والتداوي.. ولكن لم يكتب لرجل مثل الملك فيصل أن يرتاح ويتخلص من العناء فأتت ثورة الآثوريين كقنبلة هزت أعصابه هزاً وأيقظته من غفوة الراحة والهناء، فذهب مسرعاً قلقاً ليتدارك الأمر وهاجمته المخاوف وذكّرته بتاج دمشق المحطم وواقعة ميسلون الدامية... سمعته وهو يترك فندق بلفو في برن يتأوه ويقول «الله يلعنك يا حكمت!.. الله يلعنك يا رشيد..» وكان يعتقد أن ما حدث هو من سوء تدبير رئيس الوزراء ووزير الداخلية ومن لف حولهما من رجال المعارضة السابقين كياسين وغيره. وكان الأمير غازي شاباً ضعيفاً تنقصه التجارب وينقصه الحزم والحنكة. اما نوري، تلميذه وتابعه المخلص، ومنفّذ رغباته الأمين فقد كان مرتاحاً من أن يرى تلك «الخرابيط» تقع على أيدي خصومه ومزاحميه أمثال ياسين ورشيد وحكمت وبذلك سيتأكد فيصل انه كان مخطئاً بابعاده عن الحكم بعد دخول العراق عصبة الأمم، وسيعلم فيصل بأن الاستغناء عن نوري يولد ما لا تحمد عقباه. فناجي شوكت ووزارة الشباب فشلت، ورشيد عالي ووزارة المعارضين هي في طريق الفشل وطريق الخطر. وسافر الملك تحيط به الهواجس والمخاوف وسافر نوري معه ليكون جاهزاً لاستلام الحكم ويوم الارتباكات والمصائب والدسائس هو يوم نوري لا يزاحمه أحد فيه.. وكان نوري متألماً في الظاهر لانزعاج الملك واضطراره على ايقاف التداوي والسفر إلى بغداد ولكن كان قلبه يطير فرحاً لرؤية خصومه في تلك المشكلة يتخبطون والهر يفرح بعمى أهله!

وصل الملك على متن طائرة خاصة فاستقبله الأمير غازي وأعضاء الوزارة فرحين باسمين ومبشرين، بانتهاء الفتنة الآثوريّة وانتصار الجيش وهروب العاصين إلى سورية واستسلام من بقي منهم إلى قوات القائد المنتصر بكر صدقي. فسُرّ الملك لزوال الخطر ورأى نوري السعيد ان

الجماعة التي كان قد اقترح على الملك ان يفاجئها هي بدورها فاجأت الملك ووزير الخارجية بأخبار سارة مطمئنة. فتبنى الملك الانتصار وأيده وشجع الأمير الشاب واستحسن بسالته وبارك رشيد وحكمت وياسين لمقاومتهم وصمودهم... وبقي فيصل في بغداد بضعة أيام ولما تأكد من زوال أي خطر عاد إلى برن لإكمال التداوي وعاد معه نوري السعيد لمعالجة قضية الآثوريين لدى عصبة الأمم وكان زملاؤه في بغداد يفضلون ابتعاده عن بغداد على بقائه فيها معهم... واتصل الباشا بي تلفونياً يطلب حضوري مع الكاتبة المس ريد للقيام بالمخابرات وذهبنا إلى برن ونزلنا في فندق بلفو واجتمعت الحاشية كما كانت قبل أسبوعين.. وقد بدا على الملك فيصل أنه أكثر تعباً من قبل وأخبرني نوري باشا بأنه طوال المدّة التي قضاها في بغداد لم يتناول من الطعام سوى البيض والبرتقال مع أنه يشتغل طوال النهار.. وأخذ الملك يرتاح رويداً رويداً ويأخذ الإبر التي يعطيه أياها الدكتور «كوخر»؟ (لا أتذكر الاسم تماماً) الذي سمع الملك فيصل عن حذاقته من جلالة الملكة ماري عندما كان ضيفاً على العائلة المالكة قبل شهر في لندن. وقضيت أياماً لا بأس بها في معية جلالته وفي صحبة جلالة الملك علي ونوري باشا ورستم حيدر وتحسين قدري والأمير شكيب وإحسان الجابري والأمير عادل ارسلان. وكنا دائماً نجتمع في الفندق ونعيش كعائلة واحدة تحت رعاية فيصل. كنا نلعب البريدج أحياناً بعد العشاء ومنا من يلعب «البنك بونك» أو الشطرنج ونقضي سويعات طيبة في البار، وكان «مركز» الجاذبية في هذه الحلقة «المس نلسون» وهي ما يقال من احفاد الاميرال نلسون الشهير وكانت مقيمة في الفندق مع أبيها المريض... وعندما لم تكن في الفندق كانت المس ريد تقوم بدورها وإن لم تكن تجذب أحداً سوى الباشا... أما الاشغال فكانت محدودة جداً وهي عبارة عن ارسال بعض الكتب إلى عصبة الأمم ولذا فكانت الشغلة عبارة عن عطلة.

وذات يوم ذهب الملك ومعه نوري ورستم وتحسين للنزهة في السيارة إلى «اونتر لاكن» ولما عادوا مساءً أحسّ الملك بتعب وقالوا أنه لن ينزل إلى الطعام وبقي في غرفته. فتعشينا مع الملك علي ولعبنا بريدج بعد العشاء وقضينا السهرة في البار حسب العادة. وأتى الدكتور وأعطاه الابرة وارتاح جلالته وأطمأنينا من ذلك وذهب كل منا إلى غرفته حوالي الساعة الحادية عشرة!

أفقت من نومي مذعوراً من طرق قوي على باب غرفتي. وإذا بالمس ريد تكلمني من وراء الباب قائلة: «قم يا مستر شابندر. نوري باشا يريدك.. صحة الملك غير حسنة..» فنهضت من سريري مندهشاً.. دخلت إلى الحمام لأغسل وجهي ثم صرت ألبس.. والمس ريد تزيد من طرقها على الباب وهي تقول «اسرع الملك يتوفى...».

يا ربي ما أبشع هذه الكلمات وأقبح هذا الصوت! منذ ذلك الحين ازدادت كراهيتي لصوت المس ريد. فلبست ما لبست من ثيابي واسرعت إلى غرفة الملك. فصادفت رستم حيدر يتمشى في الكوريدور (الممر) صامتاً. وفي الغرفة كان الملك علي يبكي ويضرب على رأسه قائلاً «انظر إليه يا موسى.. أنظر إلى فيصل».. تحسين قدري واقف جنب الباب وهو في حيرة.

الملك فيصل كان ملقياً فوق السرير ولونه أصفر أخضر. عيناه بازغتان شاخصتان إلى حيث لا يُرى. فكه مربوط بمحرمة وفاهه مفتوح كأنه يريد أن يقول شيئاً فلم يستطع. هذا هو الملك

فيصل وقد فارق الحياة. إني لم أرَ ميتاً قبل هـذا. أهذا هـو فيصل الجميـل الرشيق.. فمـا أكبر الفرق بين هذا وذاك!

إستولى عليَّ حزن عميق بعد تلـك الدهشـة. فتركت الغـرفة ورأيت نفسي أتخطى الكـوريدور (الممر) مع رستم حيدر ذهاباً وإياباً. «هذا من سوء حظ العرب... هذا من سوء حظ العـراق..» لا أتذكر أننا قلنا أكثر من هذه الكلمات..

ثم أتى نوري باشا وذهبنا معه إلى غرفة المكتب وأخذنـا نرسـل البرقيـات إلى بغداد ولندن. وأتصل الباشا بجعفر في لندن وأخبره بالنبأ المفجع وأثناء المكالمة معه احتد نـوري باشـا وغضب قائلاً له «هس وقت هيجي لغوات...» ثم سد التلفون. وقال «نحن الآن بأي حال وجعفر مخبـوص بعطـا أمين ويسـأل فيما إذا سمعنـا أن عطا تـزوج من أخت الأمير زيـد وفيمـا إذا كـان الملـك موافقاً...» وأخـذ يسب بعطا وبجعفـر... وفيما كـان الباشـا «مخبوصـاً» بالبـرقيات والمحـادثات التلفونية أتت لي فكرة... أما يكون في المصلحة أن نـرسل بـرقية إلى بغـداد تتضمن آخر كلمـات الملك الراحل كما لو أنه توفي ولم يقل شيئاً. وعندمـا فاتحت رستم بـالموضـوع حبَّذ رأيي ورتبنـا نحن الإثنين برقية تحتوي على توصية فيصل بوجوب اتحـاد الكلمة وتـوحيد الصفـوف وعرضنـا الأمر على وزير الخارجية فوافق وأرسلناها وهكذا كان أصل البرقية التي نشرتها الصحف وعلقت عليها وتناولتها صحف العالم العربي ودخلت في التاريخ ككلمات ذهبية تفوه بها الملك فيصـل عند مفارقته الحياة وأصبحت نبراسـاً للرأي العـام العربي... ليت شعـري كم من صفحات التـاريخ تنشأ هكذا.. إننا رستم وأنا افترينا على التاريخ بتلك البرقية ولكن خدمنا بهـا ذكرى المغفـور له الملك فيصل وخدمنا بقدر الامكان وحدة العرب والعراقيين... واستغـربت كثيراً بـأن نوري بـاشا بصفته وزيراً للخارجية وصديقاً مخلصاً لفيصل لم ينتبه لهذه النقطـة بل كـان منشغلاً بـارسال البرقيات المطولة إلى وزارة الخارجية البريطانية والسفير البريطاني فكان كأنه يخشى من أن يصل الخبر إلى الحكومة العراقية قبل السلطات البريطانية، وبالرغم من فـداحة الفـاجعة كـان الباشـا نشيطاً ولم أجده يوماً منهمكاً بالشغل كما وجدته تلك الليلة المشؤومة.

ولم يكتف الباشا بارسال البرقيات يميناً وشمالاً بل حاول أن يتصل بالمفوضية البريطانية في برن بعد الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ولما لم يتمكن من أن يكلم احداً هناك لأن التلفون لم يجاوب.. طلب اليَّ أن اذهب لمقابلـة الوزيـر البريطـاني.. فقلت له بـأن نترك ذلـك إلى الصباح لا سيمـا وأننا ابـرقنا إلى لنـدن وإلى السفير.. ولكن البـاشا اصرّ فلم يكن مني إلّا أن اطعت امـره فاخذت سيارة وذهبت حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل إلى المفوضية البـريطانيـة وطرقت الباب ثم طرقتهـا وكنت افكر في هـذا العمل السخيف الـذي لا محل لـه من الاعراب. ولكن الوزير كان في حالة عصبية وكان يشعر بأن واجبه الاول في تلـك المصيبة كـان اخبار عـدد محلي من الإنكليز وباسرع وقت ممكن بوفاة الملك فيصل فكأنما كانت هنالك مسؤولية كبرى..

طرقت الباب من جديد فأتى رجل وفتح الباب وكان سكراناً لا يفرق بين الليل والنهار فدخلت وجلست في غرفة التلفون وبينت له الامر مرة بعد اخرى حتى فهم الموضوع.. فأخبرني انه كاتب صغير وأن لا يوجد سواه في المفوضية وأن الوزير يسكن في فيلا خارج المدينة.. فخـابرت البـاشا بالتلفون واخبرته الوضعية فطلب مني ان اذهب إلى داره وأن اقابله.. حاول الكاتب السكـران أن

يتصل تلفونياً ولكنه لم يأخذ جواباً.. وبعد كلام طويل اقنعت السكران واخذته معي لنذهب إلى الوزير.. فركبنا السيارة وتوجهنا إلى حيث يسكن ممثل ملك الإنكليز وبعد سير طويل في الظلمات ولف ودوران وجدنا البيت ودخلنا الحديقة. وكان السكوت عميقاً.. فأخذ السكران يدق الباب وينادي بأعلى صوته. فانفتحت نافذة من الطابق الاعلى ومدت رأسها امرأة بثياب النوم واخذت تسأل بكل فزع عما حدث.. فاجابها السكران «مات الملك!» فصرخت امرأة الوزير «او.. او..» كأنها اصيبت بضربة مفاجئة فلما رأيت وضعها بينت لها الامر وأن الذي توفي هو الملك فيصل ملك العراق وليس الملك جورج ملك الإنكليز... فاستردت عقلها وذهبت تخبر زوجها وبعد بضع دقائق نزل هذا بالبيجاما وقلت له بأنني مرسل من قبل وزير الخارجية نوري باشا السعيد وانني آسف لازعاجه بهذا الشكل.. فابدى الرجل اسفه وقال بضع كلمات تناسب الحال... ثم انصرفنا أنا والسكران.. وعدت إلى الفندق حوالي الساعة الثالثة واخبرت الباشا بما تم.. واني لم ازل اعتقد ان ذلك العمل كان مهزلة في غير محلها وأننا اقلقنا الوزير البريطاني وافزعنا زوجته بدون مبرر.. وبلا طعم..

في اليوم الثاني ٩ ايلول/ سبتمبر ١٩٣٣ نقل جثمان الملك إل المستشفى لأجل الفحص الطبي والتخطيط واتى التقرير بأن تصلب الشرايين ادى إلى نوبة قلبية وذهبنا كلنا عصر ذلك اليوم لرؤية جثمان الفقيد بعد التحنيط وقبل ختم الصندوق. فوقفنا خاشعين امام جثمان فيصل واخذ نوري باشا يبكي وكذلك الملك علي وتحسين وجميع الحاضرين!.

ونقلنا ذلك المساء جثمان الملك إلى الفندق ووضعناه في احد الصالونات واغلفنا الصندوق، بالعلم العراقي، وبقي الطلاب العرب الذين اتوا من لوزان ومحلات اخرى قائمين حراساً بالمناوبة حتى الصباح وقام غيرهم بالحراسة اثناء النهار حتى نقلت جنازة الفقيد إلى القطار. وحضر جعفر باشا من لندن ثاني يوم الوفاة.

اخذت الاشاعات تتكاثر حول اسباب وفاة الملك فيصل وكل واحد يروي الاسباب حسب اجتهاده وشعوره.. قال البعض أن الذنب يقع على تحسين قدري لأنه لم يعتن بصحة الملك كما ينبغي وأنه قدم إليه الفتاة الفارسية من فرس الهند التي كانت تسكن الفندق مع اخيها.. وأنه بالرغم من تحذير الطبيب بلزوم الابتعاد عن الاجتماعات الغرامية فقد دبر تحسين تلك الاجتماعات التي أدت إلى النوبة القلبية. وقال البعض الآخر أن البلاء اتى من النزهة إلى «انترلاكن» فالسائق الإنكليزي لا يعرف الطريق وقد أخذ طريق الجبل وارتفع نحو ٣٠٠٠ متر ونزل من ذلك الارتفاع بيوم واحد فأدى إلى النوبة.. وقال آخرون أن الموت اتى من جراء الابرة التي اعطاها الدكتور للملك عند عودته من النزهة إذ كان جلالته يشعر بتعب وكان من الواجب أن يتركه الدكتور ليرتاح ذلك اليوم. وقد تكون كل هذه الاسباب صحيحة ولها تأثيرها ولكن الحقيقة أن الملك كان مريضاً والحاشية كانت لاهية كل على «خِرِ أذنه». وأن الملك ذهب ضحية جهده وكثرة متاعبه في سبيل بلاده..

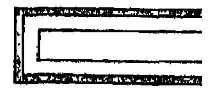
لا تخلو الفواجع احياناً من المهازل والسخافات.. فقد شاع ثاني يوم الوفاة أن مذكرات فيصل قد فقدت وأن الخادم الأرمني هو الذي سرقها. وأن احجاراً من الماس كان قد اتى بها المستر «ريكت» صديق نوري والمس ريد للملك لينتخب منها ما يريد قد ضاعت وبعد تفتيش

عميق ومداخلة من الباشا وجدت عند تحسين قدري!..

وثاني يوم الوفاة صادفت الامير عادل ارسلان في بهو الفندق وهو يرتجف غضباً فأخذني من يدي وسحبني إلى البار وقال انظر.. رأينا الملك علي جالساً مع المس نلسون وامامهما اقداح الكوكتيل وقد رفع الملك علي عقاله عن رأسه ووضعه على رأس المس نلسون.. فاحتد الامير عادل وقال له «هل يجوز يا مولاي أن يكون هذا وجثة اخيك لم تزل في بهو الاوتيل..!». فاجابه الملك علي خجلاً «ما اعمل؟ اريد ان انسى».. فتركناه ينسى وخرجنا لا ندري ما نقول!. ومن الغريب ان يلجأ رجل تقي صالح محترم مثل الملك علي لمثل تلك الوسيلة لينسى اخاه فيصلاً!

بعد سفر الجماعة مع جثمان الملك فيصل بقيت يوماً واحداً في برن ثم رجعت إلى جنيف مع السيد احمد والمس ريد.

هكذا تمت مأساة العرب فخسر العراق وخسر العرب نسراً من نسورها وايقن الناس بعد وفاة الملك باخلاصه وجهاده واثبتت الايام ان تلك الخسارة لن تعوض!



ذيول القضية الآثورية

بعد عودتنا من برن اخدنا نكمل النواقص في تأثيث الدار التي استأجرناها مكتباً وداراً للوفد العراقي الدائم.. وكنت اقضي كل اوقات فراغي بشراء الحاجيات وكانت مساعدتي المس ريد مفيدة في هذا المجال وسهلت عليّ شراء بعض الاثاث من لندن.

اما القضية الآثوريّة فاخذت تسير في مجراها الطبيعي وقررت عصبة الامم احالتها إلى مجلس العصبة وعليه فقد حضر إلى جنيف في تشرين الأول/ اكتوبر ياسين باشا رئيساً للوفد وحضر أيضاً نوري باشا ومعه يوسف الكيلاني وجميل السلام واتى المستر «ادموندس» كمستشار وكان صباح ابن نوري السعيد أيضاً بين القادمين. وصرنا نشتغل... وبما ان كثرة الملاحين تغرق السفينة فصرنا نجد صعوبة في الاعمال.. وامر ياسين باشا بشراءالقدور والاسرّة وصرنا كلنا نأكل في دار الوفد واتينا بطباخة وسفرجي وكانت احياناً المس ريد تتغذى معنا وكذلك المستر ادموندس والسيد احمد وزوجته وهكذا كانت الحالة جيدة وكأننا عائلة واحدة ولكن الدائرة انقلبت إلى شيء يشبه الفندق والمطعم ولكن هكذا اراد الباشا..

وأتى يوم الحساب امام مجلس العصبة وكنا خائفين من مهاجمة الفرنسيين اكثر من اي شيء آخر واعددنا تقريراً مطولاً بالإنكليزية ليقرأة ياسين باشا امام المجلس واتصلنا بمن يلزم من الوفود وارباب الصحف وشرحنا لهم ما يجب شرحه.. ذهبنا كلنا ذلك اليوم إلى مجلس العصبة وعندما حلّ الوقت ودعي ممثل العراق فقام ياسين باشا واخذ مكانه على طاولة المجلس فتكلم أولاً الممثل البريطاني السرجون سايمن ووجّة انتقاداً مراً للحكومة العراقية واشار إلى سوء تدبيرها الذي ادى إلى سفك الدماء وقتل الابرياء و... و... وكان ياسين الهاشمي يسمع وهو ساكت وبعد أن انتهى السر جون من كلامه اعطي الكلام إلى ممثل العراق. فأخرج الباشا اوراقه وصار يتلوها بصوت منخفض وبشكل مرتبك فكان اشبه بتلميذ في الامتحان منه برئيس وفد مدافع. فهذا ياسين القوي البارع المتكلم ما جرى له! ربما للغة الإنكليزية اثر في هذا ولكن ظهر أن ياسين لم يكن فارساً لمثل هذه الميادين الدولية وإن كان من فرسان المجالس النيابية في بغداد ومن ابطال الناقدين فيها. فجعفر باشا ونوري باشا ورستم حيدر وتوفيق السويدي كانوا ألبق منه في هذه الناحية.. ولما انتهى ياسين من كلامه طلب الموسيو بارتو وزير خارجية فرنسا الكلام.. فقلت في قلبي «يا حافظ يا ستار»! ولكن كم سررنا عندما سمعنا ممثل فرنسا يستعمل كلمات رقيقة حول العراق وانه يشكر الحكومة العراقية لاستعدادها في الاشتراك بالمساعدة المالية اللازمة لتهجير الآثوريين من العراق. فشعرنا بارتياح كبير لكلام الموسيو بارتو ذلك انه في الوقت الذي كانت فيه الصحف الفرنسية أكثر من غيرها تهويشاً وترويعاً لنا فإننا نرى الآن ممثل فرنسا من اطيب الممثلين كلاماً واكثرهم مجاملةً. تلك صفحة من دواليب السياسة!.

وانتهى مجلس العصبة بالموافقة على تأسيس لجنة لدرس قضية الهجرة وارسال ممثل إلى العراق ليتعاون مع الحكومة العراقية في الامور المتعلقة بذلك... ولما تركنا المجلس كان ياسين باشا لم يزل تحت تأثير «الزفة» التي اكلها فكان اصفر اللون متألماً ولم يتغد ذلك اليوم.. وصرت افكر:

أما كان أجدر وانفع للعراق أن يطلب هو في بادىء الامر من عصبة الامم ارسال لجنة أو ممثل ليدرس الوضع حسبما اقترحت في حينه؟ ذلك الاقتراح الذي لامني عليه الباشا بأنه لا يتناسب مع شرف العراق! فالباشا بنفسه يسمع الآن اللوم والعتاب القارص ويوافق على ارسال الممثل ويعد بدفع مبالغ كبيرة لهجرة الآثوريين.

هل هذا يتناسب مع شرف العراق! ولكن مصيبة هؤلاء الباشوات انهم يعتقدون بانفسهم أنهم اساطين علوم الاولين والآخرين!

ومن غرائب اعمال الباشوات قصة أخرى. فقد اقمنا في تلك الايام في احد الفنادق حفلة شاي للصحفيين وتقرر بأن يتكلم نوري باشا بصفته وزيراً للخارجية مرحباً بهم وشارحاً لهم القضية الآثوريّة وقد لبى الدعوة ما يقارب المائة شخص. وبعد الشاي نهض نوري وصار يتكلم. ولكن الباشا لم يكن يوماً بين المتكلمين فأخذ يتلعثم واخذ يسرد اشياء لا لزوم لها.. فاغتاظ ياسين باشا وقام من مكانه قائلاً «لا! لا! ليس كذلك!» ثم ذهب مكان نوري وصار يكمل القصة..

خجلت من حدوث امر كهذا امام الصحفيين وتألم نوري من تصرف ياسين ولكنه أخفى ألمه بابتسامته المعلومة.. وكان ياسين باشا في كل مناسبة او بلا مناسبة يهاجم نوري ويهزأ منه وينتقده امامنا ونحن نسمع ونضحك مع نوري.

وياسين لم يشتهر بمجاملاته ولطافة معشره وطيب كلامه بل بالعكس. فقد روى لي الامير شكيب يوماً في برن، عندما كان ياسين مع الملك فيصل وتعارف عليه الامير لأول مرّة.. أن الملك فيصل سأله: «كيف وجدت ياسين يا امير شكيب... فأجبته يا مولاي لو كان ياسين يحملَ مفتاح الجنة لفضلت الذهاب إلى النار!.. فضحك الملك وقال أنك لم تتحمله ساعات معدودات وأنا تحملته عشر سنوات!».

كان ياسين رجل تفكير وتحليل، له دماغ فعال ونظر ثاقب ولكنه لم يكن رجل مجلس ودبلوماسية ومجاملات ولذا، فأنه نجح كقائد أو كوزير ولكنه فشل كزعيم او كدبلوماسي!

اما نوري فكان يتقبل غمزات ياسين وهزئه بشيء من المزح والتجنب من الاصطدام به، فإذا اجتمعا ظهر ياسين كجلمود من الصخر ونوري كالزجاج الرقيق. جلسنا يوماً أنا ونوري في قهوة عند المحطة وبما أن الكوكتيل يحل عقدة اللسان قال لي نوري شاكياً.. «أنا مستعد أن اشتغل كفراش مع ياسين إذا اقتضت ذلك مصلحة البلد ولكنه لا يرتاح مني ويرى كل شيء عليَّ كثيراً ولا يرضى على شيء يأتي على يدي»!

دعانا يوماً احسان الجابري على الغداء في داره، فاشترط ياسين باشا عليه بأن يلبي الدعوة إذا لم تدع المس ريد، لأن الباشا صار يتضايق منها ومن مداخلاتها بما لا يعنيها وكان غير راض على تصرفات نوري بهذا الخصوص. واخبر الباشا احسان الجابري بالعربي الصريح بأنه لا يليق به أن يدعوها إلى بيته وهناك زوجته وابنته وزوجة الامير شكيب. فوافق احسان الجابري على ذلك الشرط وذهبنا في اليوم المعيّن إلى داره وكان نوري آخر من حضر.. فدخل الصالون واخذ يمزح مع احسان ويعاتبه أمامنا كلنا لأنه لم يدع المس ريد. ووقع المسكين احسان في حيص بيص بين الباشا المتصلب والباشا المتمايع فاعتذر بأنه خشي على المس ريد ان تتضايق لأنها الاجنبية الوحيدة والكل يتكلم العربي... فاجابه نوري «لا بأس من ذلك.. اعمل لها تلفون». فحار احسان

وصار ينظر إلى ياسين... واخذ ياسين باشا يضحك ساخراً ويقول «صحيح احسان بك، لماذا لم تعزم المس ريد؟ اطلبها بالتلفون..» فذهب احسان وهو لا يفهم هذا المزاح البارد وخابر المس وبعد بضع دقائق حضرت وسعد نوري باشا. اما نحن الشبان فاستـ تا كثيراً من تصرفات الباشوات هذه وتهالك المس ريد على الحضور ولو في آخر دقيقة. وكان صباح أكثرنا تأثراً فقال لي «لو رأت أميّ هذا لضربتها الف بابوج» ولكن «ابو صباح» كان في واد وصباح في واد.

ومساء يوم رتبنا لعبة بريدج في دار الوفد. ياسين باشا، السيد احمد وزوجته، ثروت وانا.. فأخذ الباشا يتلاطف فيما عنده مع ثروت ويسميها «حليمة باشا» لانها تشبهها وكان احمد «يتذمر» من ذلك والحق معه.. ثم قالت ثروت شيء يتعلق بابنها اسامة فسألها الباشا مجاملاً «وانتي خو متبولين جوّاج» فاحمرت المسكينة ثروت... واخذت اصابع السيد احمد ترتجف... وأسفت انا لصدور مثل هذه «البرودات» من فم الباشا... وحينئذ فهمت أن الرجل الذي يصدر منه مثل هذه الهفوات يستطيع ان يرسل لنا مثل الانذار الذي سبب فسخ الخطوبة مع ابنته نعمت قبل عام. ليت شعري كيف يوفق ياسين باشا بين ذكائه الحاد ومقدرته ومتانته بين مثل هذه التصرفات الغريبة..

سافر ياسين باشا بعد انتهاء مهمة الوفد ولكن نوري باشا والموظفين الآخرين بقوا من بعده لمدة عشرة ايام... وقد ارتاح نوري باشا بعد سفر ياسين وارتحنا نحن أيضاً نوعاً ما لزوال ذلك الجو الثقيل الذي نشأ بسبب التباين في الاخلاق والاذواق بين «الباشوين».

وكان حب الباشا للمس ريد وعطفه عليها يتزايد ويظهر باشكال غريبة منها أنه كان يرسلها مع يوسف او صباح للبارات والرقص لاجل أن تتسلى وقال لي مرّة «انها تودني كثيراً وتقدرني ولماذا لا اعزمها للرقص» فاعتذرت بكثرة الاشغال.. فكان حب الباشا «حب عاشق وحباً ابوياً وحب طفل» وكانت هي لا تستحق كل هذا.

وجاء يوم السفر وكنت انتظره بفارغ الصبر لأن المسألة كانت عبارة عن هوسة بلا ثمرة، وعند المساء فوجئنا باقتراح غريب من الباشا وهو أن الموظفين يوسف وجميل ومعهم صباح يسافرون بالقطار من جنيف، وأن الباشا والمس ريد وأنا نسافر بالسيارة إلى لوزان، وهناك يأخذ الباشا القطار وأنا والمس ريد نرجع بالسيارة إلى جنيف.. لم يعجبني هذا الاقتراح لعدة اسباب. أولاً هذه السفرة بالنسبة لي ما فيها لا طعم ولا لذة وإن كان الباشا يريد أن يستفيد حتى من الدقائق الاخيرة من صحبة المس ريد، ثانياً استمرار السخافات والرعونات جعلتني أكره المس ريد فلم ارغب في العودة معها لوحدنا بالسيارة ليلاً من لوزان إلى جنيف، ثالثاً أن الجماعة اصبحوا كلهم عارفين بوضع الباشا والمس وما هي صفتي بينهما في هذه السفرة..

وجدت أن اقتراح الباشا كان سخيفاً من كل الوجوه ولذا اخبرته بأنني اسافر بالقطار مع الجماعة وهو يسافر مع المس ريد بالسيارة إذا اراد، فاحتد الباشا وغضب لعصياني اوامره وأخذ يصيح باعلى صوته في وسط الدار: «هذه مو دائرة! هذه باب الآغا...» فقلت له، «والله صحيح يا باشا أنها باب الآغا.. ولكن من الذي جعلها باب الآغا؟» فخرج من الدائرة ولم يجب..

وبعد هذا الفصل اتاني صباح يلوم اباه ويسب ويشتم بالمس ريد المسببة لكل هذه الفتن

والخرابيط. ثم عاد الباشا وتقرر بأن يسافر هو أيضاً من جنيف بالقطار مع الموظفين وعدل عن سفرة السيارة... ولما تصافحنا في المحطة قال لي: «موسى انس هذا الفصل.. اني آسف». وكنت انا أيضاً آسف خجلاً بأن يحدث بيننا مثل هذه الفصول الباردة التي لا لزوم لها والتي ازدادت في كراهيتي للمس ريد ورعونتها.

بعد سفر الباشا وجماعته هدأ الجو وبقي المستر ادموندس لاكمال بعض الاشغال المتعلقة بالقضية الآثورية. وبعد عشرة ايام اتاني المستر ادموندس وكان مضطرباً فسألني عما إذا كنت قد خابرت المستر جونسون حول مسألة نقل الآثوريين عن طريق البحر فقلت لا، وبما أن هذه المسألة كانت سرية بيننا وبين اوفيس نانسين الذي تعهد بانجاز تلك المهمة، وبما أنه لا يعرف بهذه القضية إلّا نوري باشا وادموندس وأنا فاستغربت كثيراً في أن تحصل مخابرة تلفونية بين الدائرة وأوفيس نانسين بدون علمنا أنا والمستر ادموندس. فناديت المس ريد وسألتها عن الامر فقالت: «نعم انا كلمت المستر جونسون وعرضت له بعض الاقتراحات التي وردتني من المستر «ريكت» فسألتها ومن سمح لك بهذه الاعمال؟» فقالت: «انه في حينه كان نوري باشا قد اخبرها حول مسألة البواخر وهي بدورها كتبت إلى المستر «ريكت» وهذا طلب إليها أن تتصل بأوفيس نانسين وتقترح عليهم بعض المقترحات» فقلت: «ولماذا لم تخبريني أو تخبري المستر ادموندس قبل الاتصال بمكتب نانسين» فقالت وهي ضاحكة: «ظننت ان المسألة تافهة لا تستحق ذلك».

غضبت كثيراً من هذه التصرفات التي كانت نتيجة ضعف نوري باشا. ذلك انه صحيح لا توجد بيننا وبين الإنكليز اسرار والبيت واحد، ولكن هذه قضية تستلزم الكتمان حتى لا تحصل اتفاقات بين الشركات البحرية ويخسر العراق من جرائها، وكيف يجوز أن يبقى الامر مكتوماً على الموظفين كيوسف الكيلاني وجميل السلام وهما من كبار موظفي الخارجية، ولا يطبق الكتمان على الكاتبة المحلية..

نعم، كانت المس ريد موضع اعتماد الباشا في السياسة والغرام. وكان الباشا اعمى لا يرى سوء تصرفها من الناحيتين، ولكن، لكل شيء حد والمس ريد اخذت تتجاوز حدّها بلا انصاف.. أن صداقة نوري باشا كانت عزيزة لديَّ ولكن كان من واجبي أن ادافع عن كرامتي وكرامته وكرامة الوظيفة.. وكنت اعتقد بأن الواجب كان يقضي عليَّ وأنا المسؤول عن الدائرة ان أضع حداً لتلك المهازل. فناديت المس ريد واخبرتها أنه بعد تصرفها ذلك اصبح بقاؤها في الدائرة معي غير ممكن واعطيتها انذاراً بانتهاء خدماتها في آخر الشهر. فاستغربت المس ريد من هذه المفاجأة وظنتها مزاحاً ولكنها لما رأت الانذار الخطي اصفرَّ لونها واخذت تبكي وتقول: «أنا اودك» بقدر ما اود الباشا واني آسفة لهذا الخطأ..» إلى غير ذلك من الكلام فأجبتها أنني أيضاً آسف ولكن قراري لا يتبدَّل!

يظهر أن المس ريد ابرقت إلى الباشا حول هذا الموضوع إذ اني بعد بضعة ايام وصلني كتاب بالبريد الجوي يطلب مني الباشا أن اسحب الانذار وأن تنقل المس ريد حالاً إلى المفوضية العراقية في لندن. فوافقت على ذلك وكتبت إلى الباشا مفصلاً له ما حدث. وسافرت المس ريد إلى لندن وانتهت مهزلة «الكاتب المحلي» بذلك الشكل.. ومع ذلك كنت متألماً لاضطراري جرح عواطف الباشا لأنني كنت أعلم بحبه الجنوني للمس ريد. وليس بعيداً أن الباشا لم ينس لي ذلك

وليس بعيداً أنه شعر بشيء من التشفي لما اصابني ما اصابني بعد حـوادث ١٩٤١. ولربمـا كان الحق معه وكنت انا المخطىء. لأني حسبت المســألة جِـدّية وان هنـاك حكومـة وادارة ومسؤولية واجبات بينما الباشا كان يعلم أن المسألة هي عبارة عن تمثيل مهازل ودرامـات وأن الشاطـر هو الذي يتمتع باحسن ما يمكن التمتع به ويخرج سالماً ظافراً ومن بعده الطوفان.

والآن وبعد مرور اكثر من عشر سنوات هذا هو الباشا، وهو الكل في الكل.. وأنا مسجـون في بيتي بعد ان صادرت الحكومة كل املاكي وادخلتني في عـداد المجرمـين لأنني قلت الحق واردت الحق ودفـع الشر، وبعـد ذلـك كلـه يجب أن نؤمن بـ «من عمـل صـالحـاً فلنفســه ومن اســاء فعليها..»!.

توفيق السويدي

في شتاء سنة ١٩٣٤ ذهبت إلى «كو» بالقرب من مونترو لقضاء عطلة رأس السنة وللاستراحة بعد اتعاب جنيف. وفي تلك الايام كانت الحكومة قد عينت توفيق السويدي ممثلاً دائماً في جنيف ليس لأن اعمال جنيف تقتضي وجود شخصية وزارية بل لأن السويدي كان «طائفاً» ذلك الوقت بعد ان سحبته الحكومة من مفوضية طهران ويقال أن ذلك السحب جرى بطلب من الشاه بسبب شائعات تتعلق باساءة استعمال الحقوق الدبلوماسية كتهريب الذهب وغيره. ومهما تكن الاسباب فان السويدي وصل سويسرا وأنا في «كو» فنزلت من الجبل واخذت نفس القطار من مونترو وهكذا التقينا في قطار الشرق.. فسرّ السويدي واستغرب من ذلك الاستقبال واكملنا الطريق معاً إلى جنيف.

وجدت توفيق السويدي رجلاً قديراً قوي الحجة، سليم المنطق، كثير الكلام وموزونه، يحسن اللغة الفرنسية ويعرف الإنكليزية وهو بعيد عن التعجرف والابهة الفارغة، مادي النزعة وعملي التصرف. يحب أن يتعلم ويعمل بعيداً عن العواطف والرومانتيزم!.

وكان أول عمل قام به أنه دعا السيد احمد وزوجته وابنه أن يسكنوا معنا في الدائرة فاصبحنا نعيش كعائلة واحدة هو رئيسها، وقد قضينا اياماً طيبة من جميع الوجوه بصحبته وصرنا نلعب البريدج تقريباً كل مساء ونذهب إلى السينما أو التياتر (المسرح) معاً، ولما كانت اشغالنا محدودة والقضية الآثوريّة قد دخلت في دور التسويف والمماطلة، بعد ان احيلت إلى لجنة خاصة فكان توفيق السويدي أقرب إلى «المبعد» منه إلى «الموفد» وكان هو نفسه يعلم بذلك وينتقد حكومة بغداد ويتذمر من وضعه والحق معه. لأنه من الحرام ان يلقى السويدي مثل هذا الاهمال ونحن في بلد يحتاج إلى الرجال المثقفين القديرين.

كان السويدي يحضر احياناً اجتماع لجنة الآثوريين وهي لجنة ثانوية اعضاؤها من درجة سكرتير، وكلهم شبان في طبقتنا وكنت لا ارتاح أن أرى السويدي وهو رئيس وزراء سابق بينهم، ولكن بغداد لها فلسفة خاصة بمثل تلك الامور وكان السويدي متحملاً.. صابراً. فقال لي يوماً من الايام ونحن نتحادث: «يتهموني بالاتجار بالذهب وسوء استعمال الحقوق الدبلوماسية في ايران وكل ذلك كذب وبهتان. إني اتمنى أن يكون عندي عشرة الاف دينار ومتى حصل ذلك ستراني اضرب الوظيفة عرض الحائط واصدر جريدة وافضح ما يجب فضحه واخدم بلادي عن تلك الطريقة»..

ولقضاء الوقت اخذ توفيق بك يتعلم الرقص مع معلم سويسري الماني قصير القامة نحيف الجسم وكنت اذهب معه اكثر الاحيان، وكان منظر الاثنين غريباً فالسويدي مع ضخامة جسمه واحمرار وجهه وبطء حركاته يشبه «الدوبة المشحونة» بينما المعلم كان يسحبه ويدفعه ويدوّره «كالموتور الصغير» وهو يناديه « برافو موسيو شويدي... فري گود مستر شويدي». وكنا نضحك كثيراً من ذلك الوضع. بقي توفيق بك نحو خمسة اشهر وسافر في ايار/ مايو بنية أن يأتي بعائلته ولكن الحكومة في بغداد تبدلت وتبدل رأيه فبقي هناك ولم يعد.

معرض باري

بعد سفر السويدي عدت رئيساً للدائرة وفي تموز/يوليو طلبت إليّ حكومة بغداد بأن أسافر إلى ميلانو وباري للاتصال مع السلطات المختصة بشأن اشتراك العراق في معرض باري الدولي وعليه سافرت بالسيارة وأخذت عمر معي.. كان هذه السفرة متعبة ولكنها مفيدة والمناظر بديعة لا سيما فوق جبال الألب، وعبرنا ممر «السنت كوتار» ووصلنا بعد يومين إلى ميلانو حيث نزلت في فندق كافور واجتمعت بأصدقائي هارون وغالي وقابلت السكرتير العام لمعرض باري وتم الاتفاق بيننا بأن أسافر إلى باري للاتصال بإدارة المعرض المحلية وترتيب ما يلزم من أجل تخصيص محل لعرض المنتجات العراقية. سافرت من ميلانو بالقطار وتركت السيارة مع عمر لأن الحر كان شديداً فوصلت باري في اليوم الثاني ونزلت في فندق ميرامار على البحر. وباري بشدة حرارتها وكثرة غبارها وقلة نظافتها تشبه بغداد، فبقيت يومين هناك زرت خلالهما المعرض وقابلت من يلزم وأكملت كل ما يقتضي لاستلام البضائع العراقية التي ستعرض وتخصيص البهو العراقي.. وعدت إلى ميلانو وبعد أن بقيت فيها بضعة أيام عدت إلى جنيف بالسيارة.

كان من المقرر أن أعود إلى باري في أيلول/ سبتمبر لافتتاح المعرض ولكن برقية وصلت من نوري باشا تطلب مني إيفاد السيد أحمد وصفي بصفته نائب قنصل إلى باري وضرورة بقائي في جنيف بمعية وزير الخارجية لمعالجة قضية الحدود الإيرانية ـ العراقية. وعليه فقد سافر السيد أحمد وبقيت أنا أنتظر قدوم نوري باشا الذي وصل بعد بضعة أيام...

كان السيد أحمد متحمساً بالذهاب إلى باري، ولكن بعد الافتتاح أخذ يتضجر وابرق إلينا بالسماح له بالعودة. فأخبرناه بأنه يجب أن يبقى حتى ينتهي المعرض ولكن بالرغم من ذلك لم يتحمل السيد البقاء هناك أكثر من عشرة أيام، وعاد قبل الانتهاء وأخذ يقصّ علينا ما شاهده وعن «الدوجه» «الدوتشي موسوليني» وكان جعفر باشا حاضراً في جنيف إذ ذاك وأخذ يمزح مع السيد يناديه «يابا عين دجدوج.. دوجه!» تلميحاً إلى اعجاب السيد بالدوجه (موسوليني) وكتب السيد تقريراً عن المعرض وسرد فيه كثيراً من السخافات مع أنني نصحته أن يختصرها ولكن السيد أراد أن يطيل التقرير ويظهر مقدرته للوزارة فلم يسمع نصيحتي. فقال بالتقرير أن موسوليني سأله عن عاصمة العراق فأجابه السيد أنها بغداد. وسأله عن اسم ملك العراق وعمره فأجابه السيد بأن اسم الملك غازي وأن عمره ٢١ سنة وغير ذلك من السخافات التي لا أعتقد أن موسوليني يسألها، اللهم إلا إذا كان الدوتشي في الحقيقة «دجه» على طراز السيد... وأبلغنا كذلك أنه عندما أتى «الدوجه» إلى القسم العراقي أخذ السيد يخاطبه «بصاحب الجلالة»Majesty فقلنا له: يا سيد كيف تخاطب موسوليني هكذا.. قال في نظري أنه أكبر من الملوك ويستحق لقب «الجلالة» فضحكنا ووجدنا في بدعة السيد هذه شيئاً من المنطق..

الخطوبة الثانية

بعد انتدابي إلى جنيف واقامتي فيها صرت اجتمع كثيراً بالأمير شكيب واحسان الجابري وكانت الزيارات والضيافات بيننا دائماً فتعارفت بهذه المناسبة على ابنة احسان الجابري «هالة» وكانت هي شابة في السابعة عشرة من عمرها وتدرس في جنيف... ثم زاد التعارف بيننا بواسطة زوجة الأمير شكيب، ثروت وصرت أسمع أن هالة كانت غير سعيدة في بيت أبيها لأنه تزوج من المربية الرومية بعد أن افترق عن زوجته التركية بنت شفيق باشا... ولربما لهذا السبب صرت أعطف على هالة عطفاً لوجه الله.. وبعد مدّة ابتدأت النساء تحوك حسب عادتهن، وأخذ الحديث يجري حول الخطبة والزواج... وكانت زوجة الأمير شكيب تود هالة وتكره زوجه احسان، وكانت تسعى لإسعادها وإنقاذها من استبداد المربية القديمة التي أصبحت زوجة أبيها، ففكرت في أمر زواجنا وأخذت ثروت أيضاً تمدح وتشجع وصرت أنا أفكر في الأمر... فالبنت لطيفة وشابة ومتعلمة ومن عائلة طيبة وأبوها صديقي وفهمت أنها مبدئياً موافقة أن تكون شريكتي في الحياة... وبعد أن أخبرت والدي بالموضوع فاتحنا الأمير شكيب وتكلم مع احسان وحصلت الموافقة من جميع الجهات وكان الاستحسان والتشجيع عاماً وشاملاً حتى المس ريد عندما سمعت شجعتني وأخذت تكيل المديح لهالة. وعليه أجرينا الخطوبة الرسمية وقدمنا الخاتم، وفي خريف ١٩٣٣ عقدنا المهر في المفوضية بشهادة الأمير شكيب وعلي الغاياتي. وعند تلاوة العقد وجدت أن الجماعة قد جعلوا مقدم العقد ألف ليرة ذهب، ومؤجل لم أتذكر كم ألف ليرة ذهب فوجدت نفسي كأنني أمام مقاولة تجارية: ليرات وذهب وقيود وشروط. فلم تعجبني تلك العبارات وكنت دائماً أكره مسائل المهر والشروط لأنها تجعل من الزواج شيئاً يشبه البيع والشراء، وما كنت أتوقع أن الجابري من ذلك الطراز. فاعترضت وجرى بيني وبينه كلام بارد. واعترف الآن بأنه كان يجب عليَّ أن أسكت ولكني في حينه فكرت غير ذلك وشعرت بنفسي كأنني ضحية استغلال إحسان الجابري والأمير شكيب. وعلى كلٍ كانت الشغلة «بايخه» كما يقول المصريون وكنت أنا غير متساهل. ومرت الأيام وصرنا نجتمع أنا وهالة وأحمد وثروت وكنت أشعر من تصرفات هالة أنها تتجنب اجتماعنا لوحدنا وعندما فاتحتها أخبرتني بأنها في الحقيقة لم تكن راغبة في الزواج من أجل الزواج نفسه بل من أجل التخلص من بيت أبيها واستبداد زوجته وأنها الآن ترغب أن تكمل دراستها قبل الزواج وأننا سنؤجل ذلك إلى أن تتم الدراسة فتذهب أولاً إلى القدس لزيارة أختها سعدية زوجة موسى العلمي ومن بعده ترجع ثم ندرس الموضوع. تركتها وشأنها. ولم أسع لاقناعها أو تبديل رأيها والحقيقة أنني لم أكن حينئذٍ أشعر بدافع لذلك. فقلت في نفسي أنها صغيرة السن... لنتركها وهواها.. لتدرس وتسافر ولم أكن شخصياً مستعجلاً.. فسافرت مع أبيها إلى فلسطين وذهب احسان الجابري إلى بغداد ونزل عندنا ضيفاً ورحب به والدي بصفته «عمي» وبعد شهرين أو ثلاثة رجعوا إلى جنيف وصرنا نجتمع كما كنا من قبل ولكن عدم الاهتمام المتبادل بيني وبين هالة لم يزل على حاله...

وذهبنا يوماً إلى أحد المراقص ورقصنا ولكن لم يكن بيننا ذلك الشعور الحار المتبادل فالشغلة

كانت «عرجاء» لا تتقدم إلا بصعوبة. فأنا كنت لا أعرف الطريقة التي يجب اتباعها ولم أكن ميالاً لتطبيق المناهج التي كنت استعملها مثلاً مع البنات الأخريات فهذه الفتاة ستكون زوجتي وهي شرعاً كانت زوجتي فعلاً فكيف يمكن أن أعاملها حسب الترتيب القديم! وهي من جانبها كانت تنتظر من الخطبة والزواج أشياء تعودت على رؤيتها في السينما وتتوقع من الزوج أن يكون على شاكلة أبطال الشاشة البيضاء. فكنا في حيرة...

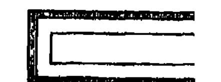
ومع ذلك، فقد كنت حسب مقدرتي أسعى لجذبها إليّ وأتظاهر بأنني منجذب إليها... وبعد أن قضينا السهرة ركبنا السيارة مع السائق عمر لكي أوصلها إلى بيتها. وكان الثلج يتساقط والأرض مغطاة بفرشة بيضاء فكان المنظر بديعاً ومساعداً للغزل والغرام فحاولت المغازلة والمعاشقة وبينما نحن سارحون في هذا الخيال وإذ بالسيارة تصطدم بسيارة أخرى. وتكسر الزجاج وحصلت لنا بعض الرضوض وأخذت هالة تبكي من خوفها، نزلنا من السيارة ولله الحمد سالمين فرافقت هالة إلى البيت مشياً وهناك وجدت احسان بك ينتظرنا فأخبرناه بما حصل فقال دفع الله ما كان اعظم. وكانت خاتمة تلك السهرة «فالصو» ولم تزد حادثة السيارة إلّا برودةً فوق البرودة. الإنسان أمره غريب.. وعلى كل كنت أنا في واد وهالة في واد آخر. وقد حاولت ان أتحمل وأصبر على أمل أن يتبدل الوضع مع الزمن لأنني كنت أخشى أن أجابه فشلاً آخر بعد الفشل الأول في بغداد!

كانت لهالة صديقة هولندية في المدرسة اسمها «ماريا» وكانتا في صف واحد وبينهما محبة وصداقة. ولكن احسان بك لم يكن مرتاحاً لاختلاط هالة مع ماريا لأن هذه كانت تختلط ببعض الشبان وترقص معهم وهذه أمور تخالف مبدأ احسان بك لذلك كانت هالة تجتمع بماريا سراً وتمارس جميع الحيل والأكاذيب من أجل ذلك ولما كلمتني حول الموضوع قلت أنا شخصياً ليس لدي مانع من اجتماعها بماريا ولكن يجب أن لا تزعل احسان بك فنقابل ماريا معاً.. وبعد العودة من القدس ببضعة أيام كنت جالساً على البحيرة لوحدي... فرأيت من بعيد هالة ومعها ماريا... أخذت هالة الترام وعادت ماريا على البيسكلت (الدراجة) إلى بيتها.. ولم تخبرني هالة بأنها ستذهب لزيارة صديقتها ولم أكلمها بالموضوع عندما التقينا ذلك المساء لأن المسألة في نظري لم تكن مهمة وفي صباح اليوم الثاني أتت هالة إلى الدائرة وقالت أنها تحب أن تقابل ماريا لأنها لم ترها ولم تكلمها منذ العودة من فلسطين وطلبت مني أن أرافقها فقلت: طيب فأخذت هالة التلفون وكلمت ماريا وأخذت موعداً وكأنما لم تكن معها في الأمس: تألمت لهذه الأكاذيب ولكن لم أقل شيئاً بل تركت هالة وذهبت إلى مكتبي، وهناك لاحظت أن التلفون مشغول من جديد.. فأخذت سماعة المراقبة. وصرت أستمع هالة وماريا يتكلمان من جديد.. هالة تضحك وتقول لصديقتها «كل شيء تم كما يلزم فإذا أتينا لا تخبريه بأني رأيتك في الأمس ولا تقولي له شيئاً عن مقابلاتنا...».

زعلت كثيراً من هذه المناورات والأكاذيب خاصة أنني لم أمنع هالة من مقابلة صديقتها. ولماذا إذن هذا اللف والخداع. وبعد دقائق أتت هالة إلى مكتبي وهي فرحة باسمة تحاول أن تبدو بمنظر الملاك المعصوم الذي لا يعرف معنى الكذب والحيلة.. وصرت أقول لنفسي إذا كان وضعنا على هذه الحالة ونحن لم ندخل بعد معترك الحياة الزوجية فكيف بنا بعد دخولها. ورأيت من

الضروري أن أفاتحها وأبيّن لها ضرورة الصدق والصراحة بيننا فسألتها عما إذا كانت في الحقيقة لم تقابل ماريا بعد عودتها من القدس، فأخذت تحلف وتقسم اليمين ثم حلفت برأس أختها سعدية وهي تقول أن أختها أعز ما عندها في هذه الحياة، وأنها لا تقسم برأسها كذباً أبداً. سبحان الله هل أنا مخطىء. هل يمكن أن أتوهم وأحسب هالة شخصاً آخر! فقلت لها: أنني رأيتكما في الأمس أنتِ وماريا في المحل الفلاني وأنت ركبت «الترام» وماريا رجعت على البسكليت.. فلما سمعت بذلك اصفر لونها وأخذت ترتجف غضباً، ثم نزعت الخاتم من إصبعها ورمته على الأرض وهي تبكي وتقول: «نعم قابلتها وكذبت عليك. أنت مثل والدي تتجسس عليَّ وأنا لا أرغب في الزواج منك ولكني قبلت الزواج لأجل أن أتخلص من أبي وزوجته. فأنت مثلهم. و... و...» ثم أضافت بعد أن هدأت قليلاً «والحق يظهر أن حظك عاطل لأنك خطبتني... أنا أكذب طوال الوقت لأنني عشت عيشة تعسة تحت ضغط أبي واستبداد زوجته..».

وانجلى الأمر بهذه الاعترافات وظهرت الحقيقة وتأكدت الشبهات... وأيقنت بأنني في الحقيقة كما تقول هالة لست من المحظوظين وإلّا فما لي وهذه الورطة! وبعد انكشاف الأمر بهذا الشكل أصبح من المتعذر أن نبقى على حالنا، وسألتها رأيها عما إذا كان من الأفضل إبطال هذا الزواج الفاشل من بدايته فقالت ربما يكون في إبطاله خير لنا. وبناءً عليه طلبت إليها أن تفاتح والدها بالأمر وأبلغتها موافقتي على ما يتقرر بينهما وجاءني احسان بك بعد يومين آسفاً وقال أنني عندما طلبت يد ابنته لم يرفض لأنه يودني ويعزني ولكنه كان واثقاً من عدم صواب ذلك الزواج لأن هالة عصبية وكذابة وغير... وعليه كتبنا ورقة الطلاق ووقعنا عليها وانتهت هذه القضية بذلك الفشل. وظن الناس بالطبع بأنني المذنب خصوصاً بعد فشل خطبتي مع نعمت الهاشمي وفشل الزواج بهالة الجابري، ولكن لم أزل أعتقد أنني لم أكن مذنباً وإن لم أكن متساهلاً كما وأنني أعتقد بتأثير الحظ والنصيب... إذ ان نيتي ونية الطرف المقابل كانت دائماً حسنة ولكن أحياناً تظهر أمور وحوادث تقلب الرأس كعباً... وفهمت بعد ذلك بمدة أن بعض الناس، ومن ضمنهم ثروت، الذين كانوا يسعون لاكمال زواجنا أخذوا يسعون للتفريق بيننا حتى انقلبت البرودة إلى نفرة وكان لزوجة احسان الجابري تأثير كبير في الموضوع لأنها لم ترتح بأن ترى ابنة زوجها سعيدة ولها مكانة اجتماعية... ولله في خلقه شؤون!



قضية الحدود

كتب الله على العراق بأن لا يهدأ ولا يستقر. هكذا كان تاريخه القديم وهكذا هو تاريخه الحديث. ذلك أنه لم يمر زمن طويل على دخول قضية الآثوريين في دورة الهدوء وإذ بالعراق يجابه أزمة جديدة عاصفة وهي قضية الحدود وشط العرب بيننا وبين إيران.

ولما كانت الحكومة الإيرانية إذ ذلك قوية والشاه رضا خان يتصرف بالسياسة كما يريد فقد كان وضع العراق محرجاً بالرغم من حقه الصريح ومساعدة بريطانيا له.

ففي صيف ١٩٣٤ أتى نوري باشا كما ذكرت إلى جنيف وحضر أيضاً جعفر باشا من لندن لمعالجة القضية مع عصبة الأمم لأن العراق كان قد قرر رفع القضية إلى مجلس العصبة. فازدادت بالطبع اشغالنا ومراجعاتنا وفي هذه المناسبة أخبرنا يوماً نوري باشا بأنه يفكر في طلب مزاحم الباجه جي بصفة مندوب دائم في جنيف وكان الغرض الاصلي من ذلك ارضاء مزاحم والتفضل عليه، ومن جهة أخرى الإساءة إليّ بطريق غير مباشر. فحكومة بغداد ومعها نوري كانوا يعرفون أنني كنت أقوم بجميع الأعمال وأن تجربة تعيين السويدي لم تبدل الوضع. ولكن الحجة كانت بأنه يجب وجود رجل بدرجة وزير وبما أن القوانين لا تسمح بترفيعي إلى ذلك المنصب فعليه يجب ارسال شخصية كبيرة و... طبعاً لم أكن مبسوطاً من اقتراح نوري وقلت له أمام جعفر باشا بأنني غير مستعد للعمل مع مزاحم نظراً لمواقفه الماضية تجاه حزبه وتصرفاته بعد ذلك وقد أيدني جعفر باشا وقال: «نوري عنده كل خرية بكبر رأسه» مشيراً إلى خطأ تعيين مزاحم. وكان نوري ينوي ارسال برقية يطلب فيها مجيء مزاحم وكأنما الأمور كلها كانت متأخرة على قدومه ولكن عندما رآني معارضاً عدل عن البرقية وقال أنه سيدبر المسألة عند عودته إلى بغداد ورجاني أن أبقى في جنيف وأسلم الاعمال إلى مزاحم عند مجيئه وأنه ينوي ارسالي إلى برلين لفتح مفوضية هناك. فقبلت بهذا الاقتراح وعدلت عن الاستقالة بإلحاح من جعفر باشا واحسان الجابري والأمير شكيب. وقد وجدت بعض الغرابة في عمل نوري إذ كان هو نفسه دائماً ينتقد مزاحم ويذمه فمن أين أتى بهذا الحب والاعتماد الآن؟ هل في هذا التصرف انتقام للمس ريد؟ يحتمل!.. ومهما يكن الدفاع فأشغال جنيف كانت في غنىً عن تعيين وزير لأن وزير الخارجية كان حاضراً في الاجتماعات الهامة ونحن كنا نقوم بالأعمال العادية وأعمال اللجان فماذا يا ترى سيعمل الوزير سوى ضياع الوقت والمال ولكن تبين في الأخير ان المقصود لم يكن خدمة المصلحة العامة بل تطمين الرغبات والشهوات وهذه كانت بليّة العراق وهي اليوم بليته!

لم تؤثر قضية الحدود على صلتنا بالوفد الإيراني فكنا نجتمع بهم كثيراً وكان الممثل عندهم «البروفسور فروغي والسكرتير انتظام» ودعينا يوماً عندهم وتعرفت خلال تلك الدعوة على الاغا خان وقد وجدته رجلاً ذكياً مثقفاً وسررت بالتعرف عليه..

مزاحم الباجه جي

اهتممت بمزاحم عندما سطع نجمه في أفق المعارضة في صفوف الحزب الوطني وصرت من المعجبين به دون أن أعرفه أو تكون لي صلة به.. كنت أتابع من أوروبا أخبار العراق وكانت الدعاية التي يقوم بها مزاحم الباجه جي باسم الحزب الوطني تلفت النظر لشدة حماسها وانتظامها وجرأتها وقد التف حول تلك المعارضة كثير من الشباب المثقف العربي في العراق وخارجه وكانت الآمال معقودة على نجاح تلك المعارضة إذ إنها ظهرت مجردة عن الاغراض والاطماع. واستلمت يوماً رسالة من مزاحم من بيروت يهنئني على مقالاتي ويحمد ويثني ويشجع بعد أن استهل الرسالة بـ «والأذن تعشق قبل العين أحياناً» فشكرته على ذلك بجواب يناسب الوضع وأثنيت على مواقفه في خدمة البلاد. وكتبت في حينه إلى إبراهيم اسأله عن رأيه بمعارضة مزاحم فاستغربت كثيراً عندما أتاني جوابه مشيراً إلى أن «الشغلة» عبارة عن «ضرب كلاوات». ولم أصدق كلام إبراهيم إذ إن الناس في بغداد تعودت على اتهام كل من أراد خدمة البلاد عن طريق المعارضة بالاغراض الشخصية وضرب الكلاوات على أن مهاجمات مزاحم العنيفة وقطعه خطوط العودة وحرقه السفن لم تكن من ذلك النوع. فهذا رجل على ما ظهر لي من بعد، كله إيمان، وكله حب للوطن، وكله اخلاص يلتهب!

ومرت أيام ونشرت الأخبار بأن مزاحم الباجه جي ترك الحزب الوطني وقبل منصباً وزارياً في وزارة نوري السعيد وأخذ يحاسب أعضاء الحزب الوطني على اعمالهم الذين كانوا في الأمس أخوانه في الجهاد وزملاءه في المعارضة! كدت لا أصدق ما أسمع! كيف يستطيع أن ينقلب الإنسان على عقبيه بين عشية وضحاها انقلاباً كاملاً مشيناً!

ولم يكن عمل مزاحم ذلك، خيانةً لحزبه واخوانه وخروجاً على المبادىء فحسب إنما كان ضربة قاضية لآمال الشباب في مبادىء الرجال وإيمانهم بالاخلاق السياسية عند تلك الطبقة. فتألمت كثيراً لتلك الضربة التي أنزلها الملك فيصل ونوري بمزاحم فإنهما بهذا التدبير لم يحطما شخص مزاحم فقط بل حطما الكثير من الآمال في قلوب الشباب. لقد كانت العملية مؤلمة ولكنها فتحت الأعين ورفعت الغشاوة عن الأبصار. كانت ضربة لم يستعد من بعدها الحزب الوطني قواه ولم تسترجع المعارضة من بعدها مركزها. ومن ذلك اليوم أخذ الناس يتذكرون مزاحماً كلما قام رجل بمعارضة شديدة.. لقد أساء مزاحم لنفسه أكثر مما أساء إلى غيره ودخوله الوزارة لم يقوِّ الملك فيصل ونوري السعيد وانما خفف عنهما وطأة المعارضة. فكتبت على إثر ذلك الحادث المؤسف، مثالاً هزلياً بعنوان «حمزه كمز كمزه» أفرغت كل مرارتي فيه وشرحت موقفي حول مزاحم ودخوله الوزارة بصراحة مطلقة إلى جلالة الملك فيصل عند أول لقاء معه في برن صيف سنة ١٩٣١ عندما أراد جلالته اقناعي بخطأ المعارضة. ثم حدثت حوادث لا مجال لذكرها هنا وأبعد مزاحم عن الوزارة وأهمل إهمالاً من قبل الملك واختفى عن الاسماع والأنظار. وهذا هو الآن نوري، لأسباب لا يعلمها إلا هو، يريد بعث مزاحم فيعينه ممثلاً في جنيف... فكتب لي مزاحم من الاسكندرية يخبرني بأنه في طريقه إلى جنيف وأنه سعيد جداً لهذه الفرصة التي ستتيح لنا

العمل معاً وغير ذلك من الكلمات المعسولة وقد وجدتها معسولة أكثر مما يلزم فلم أطمئن لها. ووصل مزاحم جنيف في أواخر الصيف واستقبلناه في المحطة. ولما قررت أن أترك دار الوفد وأسكن في الخارج ألح وأقسم بأنه يترك المفوضية إذا تركتها وقال أننا يجب أن نعمل ونسكن في مكان واحد كأخوان. وأخذ يبالغ في اظهار الصداقة والاحترام، فإذا دخلت غرفته مثلاً يقوم هاشاً باشاً كأنما أنا الرئيس وهو المرؤوس. وكنت حذراً من هذا اللطف الزائد الذي لم يلغ عدم اطمئناني للعمل معه ولم يبدل رأيي فيه وفيما صنع بالماضي. ولكني كنت أعامله معاملة طيبة لا سيما أنني أصبحت مقيماً بصورة موقتة في جنيف وأنتظر قرار تعييني في برلين...

ومرت الأيام والأسابيع فصرنا نخرج ونتمشى معاً ونذهب بالسيارة للنزهة ونذهب أحياناً للسينما أو الملاهي. وكان مزاحم لطيف المعشر والحديث. وقد عرفته بالأمير شكيب واحسان الجابري وصرنا نجتمع كلنا في كثير من الأحيان.

أما أعمالنا مع عصبة الأمم فكانت منحصرة بالقضية الآثوريّة وقضية الحدود وكنا نحضر اجتماعات اللجان كالسابق ولكن مزاحم كان يعيقه الصمم في أذنيه وعدم المامه بالفرنسية فكنت أضطر أثناء انعقاد اللجان، وأكثر أعضائها يتكلمون الفرنسية، أن أترجم له الكلام إلى العربية وأصرخ في أذنه حتى يفهم الموضوع. هكذا كان وجود مزاحم غير مفيد إلّا لضياع الوقت ولارتفاع الأصوات وصرت أشعر بعدم ارتياح مزاحم من توجيه الكلام إليّ واتصال الأعضاء بي وقد ظهر ذلك جلياً يوماً عندما أقام لنا وزير خارجية تركيا رشدي آراس ضيافة غداء كان الإيرانيون أيضاً معنا.. فكان الحديث بالفرنسية وبما أن مزاحم لا يفهم اللغة الفرنسية ولا يسمع ما يقال في غيرها فكنت بطبيعة الحال مضطراً لأقوم بمهمة الرد والمحادثة.. ثم كانت بيني وبينهم معرفة قديمة ومزاحم حديث عهد بجنيف. كل هذه الأمور كانت تجعل مزاحم يزداد حسداً وزعلاً. أما أنا فكنت أتألم عندما أراه ساكتاً يفرك بأذنيه ليلتقط كلمة وكنت في الحقيقة أتمنى له بأن يفهم ويسمع! ومن تأثير هذا الشعور النفسي بالنقص، أخذ مزاحم يعرفني بمن نتلاقى معهم سواءً أعرفهم أو لا أعرفهم قائلاً: «أقدم لكم سكرتيري My Secretary» وكان لا يستوعب سخافة ذلك التعريف حيث كان أصدقائي يسخرون من هذا «التقديم» الغريب.

وحضرنا مرة اجتماع العصبة فكنت أكتب له على ورقة خلاصة الخطب حتى يفهم ما يجري وعند التصويت كنت أرفسه لكي يرفع يده بالموافقة. وكنت أسأل نفسي لماذا انتخب نوري من دون الخلق رجلاً أطرش للاشتغال في عصبة الأمم والاشغال كلها عبارة عن كلام واستماع فهذا لا يسمع ولا يتكلم.. وإن كان يملك ذكاءً حاداً خاصاً وله مقدرة في أمور خاصة قد تكون مفيدة للاشتغال في بغداد كالتدقيق والاستخبارات والاقناع ولكن في جنيف كان مزاحم كالأطرش في الزفّة تماماً!

ومع مرور الوقت أخذت نفسية مزاحم تنكشف يوماً بعد يوم... ففوجئنا يوماً بمنشور موقع منه يمنع التوقيع من قبلنا على أي شيء في الدائرة ويحصر حق فتح البرقيات والبريد بنفسه، ولم اعترض على ذلك لأنني كنت أعلم بالأسباب النفسية التي دفعته وهي الشعور بالنقص والسعي إلى تلافي ذلك النقص بحصر الاشغال كلها، حتى التافهة منها بشخصه. ولذا فقد تركته وشأنه ولم أهتم بالموضوع. فصار يأخذ البرقيات ويحلها مع السيد أحمد ويرسل الجواب دون أن

يخبرني بذلك. وأخذ السيد أحمد يشعر باهتمام الوزير به حتى قال لي يوماً: «نعم! هذا وزير من صدق مو مثل توفيق السويدي». وهكذا أصبح السيد أحمد من المقربين لمزاحم وظن نفسه أنه كان مغبوناً أيام توفيق السويدي الذي أخر ترفيعه لعدم كفاءته. ولكن سرعان ما انفجرت القنبلة برأس السيد المسكين فاستيقظ نادماً.

مزاحم والسيد أحمد وصفي

كنا نتعشى يوماً حسب العادة، نحن الأربعة: مزاحم وأنا وأحمد وزوجته. ففتح السيد حديث الثياب المفقودة العائدة إلى زوجته والتي فتشوا عليها فلم يجدوها. كان السيد متحمساً وصار يطلب من الوزير بصفته رئيساً للدائرة اجراء التحقيق وكان يقصد من ذلك القاء التهمة على عمر لأن أحمد وثروت كانا يكرهان عمر. فسأل مزاحم عمر والخدام الآخرين وأمرهم بالتفتيش. وقال السيد متحمساً من جديد بأنه إذا لم يجد الثياب، فإنه سيستقيل ويكتب إلى الوزارة. فأجابه مزاحم أن ذلك يكون عملاً مجنوناً ووعده بأنه سيجري التفتيش، وبينما كنا هكذا نتحادث بحديث الثياب المفقودة أتت الخادمة تحمل كم قطعة من الثياب الوسخة وقد وجدتها فوق خزانة ثروت في غرفتها، فكانت هي بذاتها الثياب المفقودة. ويظهر أن ثروت عندما ذهبت إلى المستشفى للولادة قبل مجيء مزاحم بمدة تركت هذه الثياب فوق الخزانة ونستها ولم تنتبه إلى فقدانها إلّا الآن وهكذا انحلت الأزمة بسلام.

بعد العشاء جلسنا نستمع إلى الراديو وكان السيد عابساً ساكتاً يلعب بالسبحة ويتحسر من وقت لآخر بالرغم من انتهاء أزمة الثياب. وفجأة خاطب مزاحماً قائلاً: «بك... جنابك على العشاء ليش قلت لي أنت مجنون»! فنهض مزاحم كالملسوع وأخذ يصرخ بأعلى صوته: «نعم أنت مجنون.. أنت ادبسز... أنت كلب ابن كلب.. أخرج.. من هنا، أخرج وإلّا كسّرت عظامك»! فوجئنا كلنا بهذا الغليان المفاجيء وخرج مزاحم إلى البهو وأخذ يصرخ ويأمر الخدم بإلقاء حوائج السيد وزوجته في الطريق حالاً وعاد يهدد أحمد ويطلب منه أن يترك دار الوفد في تلك الدقيقة. حاولت أن أهدىء مزاحم وأخذته إلى الطريق وقلت اذهب وتمشى وأنا أدبر الأمر. وعدت إلى البيت أكلم أحمد وأهدىء ثروت التي أخذت تبكي. وبعد ثلاث دقائق رجع مزاحم ولم يزل يرعد ويزبد ويصرخ ويسب ويشتم.. فاضطر السيد وثروت مع وليدهما أن يتركا المفوضية ليلاً.. تألمت من ذلك الوضع وذلك «السكاندال» (الفضيحة) البارد. نعم كان السيد سخيفاً في كلامه وتصرفه ولكن مهما كان الأمر فإنه لا يستوجب هذه الثورة الجنونية وإذا جاز للسوقة من الناس أن يثيروا ويسترسلوا بالسب البذيء والكلام القبيح فلا يجوز لزعيم سياسي ووزير ورئيس دائرة أن يتمثل بهم. وهكذا بانت «مزايا» مزاحم بهذا الحادث بأبشع شكلها وأقبح لونها. وقد حاولت في اليوم التالي أن أصلح بين مزاحم والسيد ولكن بدون فائدة لأن كلًّا منهما كان حاقداً على الآخر فأبرق السيد إلى الخارجية رافعاً شكواه وكتب مزاحم إلى الوزارة تقريراً أسود حول السيد. وبقي احمد مقيماً في «بانسيون» دون أن يداوم في الدائرة وأخذ صالح مهدي يقوم بأعماله. زادني هذا الحادث نفرةً من مزاحم وتألمت من جهة ثروت أكثر من أحمد لأن السيد كان السبب والبادىء وكان في هذا درس لصفاقته وإن كان هذا الدرس بذيئاً وغير منتظر...

وقع هذا الحادث في كانون الأول/ديسمبر ولشدة مللي من الوضع قررت أخذ أجازة لقضاء عطلة «الكرسمس» (الميلاد) ورأس السنة على الجبل فذهبت قبل عيد الميلاد إلى «كرانس» وبعد بضعة أيام أتى مزاحم أيضاً ليقضي «الكرسمس» وبعد أن بقي يومين عاد إلى جنيف كان خلال هذه المدّة كله لطف واخلاص حسب عادته. ثم أتاني كتاب منه يخبرني بأن الوزارة تطلب سفري إلى برلين ولذلك لم أتأخر في كرانس، بل عدت إلى جنيف وأخذت أستعد للسفر إلى برلين. ولكن في السادس من كانون الثاني/ يناير ١٩٣٥ وصل علي جودت رئيس الوزراء إلى جنيف وطلب إليّ أن أؤجل السفر إلى برلين بسبب قضية الحدود فتأخرت وأتى نوري باشا بعد يومين وصرنا نشتغل ونقابل الوفود ونتصل بالصحافة تمهيداً لمناقشة القضية التي ستعرض أمام المجلس. ولما عدت من كرانس وجدت السيد أحمد قد سافر إلى بغداد وأخبرني صالح مهدي بأنه قبل السفر أتى للمفوضية وتصالح مع مزاحم وأن هذا سلمه كتاباً موجهاً لوزير الخارجية يطلب منه ترفيعه ويثني عليه وذلك بعد أن كتب تقريراً أشد سواداً من الزفت بحقه ويخلق ما لا تعلمون!

أمام مجلس العصبة

كانت قضية الحدود هامة بالنسبة إلى العراق وكانت إيران متصلبة وقد رفضت أقتراح العراق بإحالة الأمر إلى محكمة لاهاي الدولية ولذلك طلب العراق عرض القضية أمام المجلس ليبت في الأمر. كانت إيران تعتمد على مساعدة فرنسا وحلفائها أعضاء الأئتلاف الصغير والأئتلاف البلقاني بينما نحن كنا نعقد الآمال على مساعدة بريطانيا والدومنيونات وأصدقائهم كالحكومات الاسكندنافية ولذا صار الطرفان يستعدان للأمر.

كنا نذهب كل يوم: علي جودت ونوري السعيد وأنا لمقابلة رؤوس الوفود. فقابلنا المسيو ليتفنوف ممثل روسيا والمسيو بنش وممثل البرتغال وسائر أعضاء المجلس شارحين لهم القضية بتفاصيلها.. واقترح يوماً نوري باشا أن نذهب مزاحم وأنا لمقابلة الوفد البولوني وكانت هذه المرّة الأولى والأخيرة التي أتصل بها مزاحم بالوفود. ودار الوفد البولوني كانت مقابل دارنا فأخذنا موعداً وذهبنا لمقابلة الممثل وبالطبع تركت الأمر كله لبراعة مزاحم.. وكان الوفد البولوني يعرف القصة والحكومة العراقية في بغداد كانت قد أتصلت بالوزير البولوني في بغداد وأخذت منه وعداً بالمساعدة.. فكانت هذه المقابلة من باب التذكير والمجاملة ومزاحم يعرف كل هذا وكذلك الممثل البولوني. ولكن مزاحم تصرف بشكل كأنه يقوم بدور خطير كله غموض وأسرار.. جلسنا مع الممثل البولوني، وبعد الكلمات المعتادة صرنا ننتظر الدخول في الموضوع ولكن مزاحم لم يقترب من ذلك بل أخذ يتكلم بشتى الأمور والمواضيع حتى وصلنا إلى أسعار اللحم في جنيف وفي بغداد وأستمر اللغو الفارغ هذا أكثر من عشرين دقيقة ومزاحم يسترسل بالحديث ويعتقد أن هذه مناورة سياسية خطيرة وشطارة دبلوماسية نادرة... وقد أوشكت أن أقطع هذا الحديث الفارغ وأتكلم في الموضوع الذي أتينا من أجله ولكن الممثل البولوني هو الذي انقذ الموقف لأنه رأى أن الشغلة سوف لا تنتهي ففتح الموضوع، وحينئذٍ تصرف مزاحم وكأنه لم يأت من أجل ذلك فأخذ يتكلم ويشرح فأجابنا الممثل أنه درس الموضوع درساً كاملاً ووعد بالمساعدة وتأييد وجهة نظر العراق. وعندما خرجنا قال لي مزاحم منتصراً: «شفت اشلون دولبته! وخليته هو يفتح الموضوع» قلت «نعم شفت! لله درك!» ولما عدنا إلى المفوضية وجدنا نوري باشا وعلي جودت ومعهما جميل السلام والمستر ادموندس ينتظروننا.. فجلس مزاحم وقصّ عليهم القصة بحروفها ولم ينس سعر الفحم. فضحك الباشا وقال له: «بابا عبالك هذى بغداد.. ربما ظننت نفسك وزير داخلية وأمامك شيخ عشائر.. وإلّا لا لزوم لكل هذه الدورات واللفات..» ونظرت إلى الباشا ونظر إليّ وفهم قصدي بأن هذا هو الرجل الذي استعجل وعينه ممثلاً في جنيف وهذه شطارته.

وأتى يوم المرافعة في ١٤ كانون الثاني/يناير ١٩٣٥ وذهبنا كلنا إلى مجلس العصبة وأخذ نوري باشا محله في المجلس بصفته مدعياً وتلى التقرير المفصل ثم دعي المدعى عليه وزير خارجية إيران السيد كاظمي وأجاب على ادعاءات العراق فانتخب المجلس البارون «الويزي» ممثل ايطاليا مقرراً للقضية. أما العمل الحقيقي الذي تم من جهتنا فكان يرجع الفضل فيه إلى المستر ادموندس وإلى المحامي الانكليزي، ونحن بما فينا الوزراء والاخصائيين كنا لاكمال الجبهة

الخارجية. وفي هذه القضية ظهر الفرق بين الذين يعلمون والذي لا يعلمون. وأتذكر يوماً أننا أحتجنا إلى خرائط للحدود الإيرانية وشط العرب ليدرسها المحامي ويضع التقرير بموجبها فلم نجد لا عندنا ولا في وزارة الخارجية ما يفي بالغرض، فاتصل ادموندس بالوفد البريطاني واتصل هذا بالخارجية البريطانية ووردنا في اليوم التالي بالطيارة من لندن خرائط متعددة مفصلة وجاهزة. فقلت في نفسي «عرب وين طنبورو وين». وأتذكر أيضاً أنه عندما قررنا قبول البارون آلويزي مقرراً بدلاً من الدانماركي الذي رشحناه وبدلاً من اليوغوسلافي الذي رشحته إيران لفت نظرنا الوفد البريطاني بأن الطليان سيتخذون من هذه القضية وسيلة للمساومة معنا ومع إيران. وكان الحق مع الانكليز لأن الطليان أخذوا يتاجرون ويميلون إلى الطرف الذي يتساهل معهم أكثر دون اعتبار أساس القضية.. وصادف العراق مشاكل كثيرة من قبل البارون آلويزي وندم على موافقته عليه.

قصة السيارة

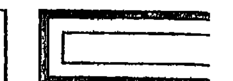
بفضل سخافات مزاحم أصبحت لسيارتي قضية طويلة عريضة ودخلت بالملفات وجرى حولها مخابرات ودونت تقارير وتبودلت برقيات فلا بد لي إذن من ذكر كلمة حولها والاشارة إلى الدور الذي لعبته وبالأحرى لعبه مزاحم من أجلها.

ذكرت أنني عندما انقلب مزاحم ضد حزبه واخوانه كنت قد كتبت بعض المقالات انتقاداً لعمله فكان من الطبيعي أن يكون ناقماً ضدي من أجلها وقد زاده نقمة ما رواه له نوري باشا والله يعلم بأي شكل تمت الرواية ـ عن عدم ارتياحي من الاشتغال معه ومحاولتي الاستقالة ثم عدولي عن ذلك بشرط الذهاب إلى برلين. فكل هذا بالطبع ترسخ في قلب مزاحم لا سيما وهو من الحقودين الذين لا ينسون ولا يغفرون. وأتى مزاحم إلى جنيف مجهزاً بذلك الحقد ومصمماً على الاساءة وقد رسم لذلك خطة خاصة. ابتدأها بكتاب المجاملة من الاسكندرية ثم باللطف والاحترام الزائد بعد وصوله ثم بالمعاكسات والتمردات وأنواع السخافات وانتهى بنا الأمر في الأخير إلى قصة السيارة وإليك شرحها:

عندما أسسنا المكتب في جنيف وجدت أن أجور النقل التي صرنا ندفعها للتاكسيات كانت باهظة لا سيما عندما يحضر وفد أو وزير، ففي أثناء قضية الآثوريين مثلاً دفعنا أكثر من ألف فرنك أجور سيارات لمدّة لا تتجاوز العشرين يوماً لكثرة الاتصالات بعصبة الأمم والسكرتارية والوفود. فقررت أن أشتري سيارة لشخصي لأن الوزارة لم توافق على شراء سيارة للوفد أسوةً بالوفود الأخرى. وعليه، فقد أشتريت سيارة مستعملة وجددت صبغها وظهرت بشكل لا بأس به وكلفني ذلك ماية وعشرين باونداً.. وكانت هذه السيارة تكلفني شهرياً حوالي المايه فرنك أي خمس باوندات للبنزين فقط. وكنت استعملها لاشغالنا الرسمية وكذلك الخصوصية وللتنزه وصرنا نستعملها طوال الوقت أثناء وجود الوفد أو الوزير وغيرها، وبهذه الواسطة وفرنا كثيراً من مصاريف النقل. وبالنظر إلى الترتيب الذي اقترحه السيد أحمد والذي كان متبعاً في جميع المفوضيات والقنصليات صرنا نقدم قائمة أجور نقل شهرية تسد مصروف السيارة الشهري للبنزين لأن المحاسبة تطلب قوائم على أساس الكيلومترات وهي القاعدة المتبعة في بغداد على أنه كان من الصعب اتباع تلك الخطة في الخارج واستحصال وصولات عن كل سفرة من اصحاب

سيارات الأجرة. وعندما أتى توفيق السويدي أيد هذه الترتيبات لأنها كانت متبعة في جميع المفوضيات والقنصليات وإن كانت مخالفة لنظام المحاسبة وكان كذلك موافقاً على تلك الخطة كل من ياسين باشا ونوري باشا وكلهم شكروني في حينه على وضع سيارتي بتصرفهم. فلما أتى مزاحم أيضاً صار يستعمل السيارة ولكن اعترض على الخطة المتبعة لمخالفتها نظام المحاسبة والمالية وعليه لم يصدق على المصاريف للشهر الثاني مع انه صدق عليها للشهر الأول من مجيئه. فقلت لا بأس أنا أدفع المصروف الشهري والسيارة سوف تبقى تحت أمر الدائرة. فوافق واستمر باستعمال السيارة وانتهى الأمر أو أنني أعتقدت ذلك. وسألني يوماً بأي مبلغ اشتريت السيارة فقلت له بماية وعشرين باونداً فقال بعها لي بخمسماية فرنك أي بخمس وعشرين باونداً. فاستغربت منه هذا الاقتراح العجيب وقلت له انني لا أريد أن أبيع السيارة وأنها تحت أمره متى ما يريد فلا حاجة للبيع والشراء.. ومضى على ذلك أيام وأسابيع وصار مزاحم يتجنب ركوب السيارة ويأخذ الترام عندما يذهب إلى عصبة الأمم ويقيد حساب الأجور هذه وهي لا تتجاوز ٤ أو ٥ فرنكات في الحسابات الشهرية بينما كنا من قبل نصرف حوالي الماية فرنك وكان يقصد من ذلك أنه وفرّ للحكومة في أجور النقل باكتفائه بركب الترام وأني حاولت اقناعه بأنه لا يليق برئيس الوفد العراقي أن يظهر دائماً «بالترام» أمام الوفود الأخرى لأن في ذلك دعاية سيئة، وأن التمثيل الخارجي يتطلب المظهر اللائق، وأن الحكومة التي تدفع آلاف الدنانير في السنة على مكتب جنيف لا تتأخر في دفع ماية دينار في السنة للسيارات، ولكن مزاحم تمسك بالزهد في هذه الناحية فصرت أنا أركب السيارة وأذهب إلى عصبة الأمم وهو إما يذهب ماشياً أو يأخذ الترام. ولما أتى علي جودت ونوري وجدونا بتلك الوضعية الشاذة. وبما أن اشغال الوفد كانت كثيرة فلم تكف سيارتي لوحدها بل أمر وزير الخارجية أن نستأجر سيارة أخرى وكنا ندفع عنها ٤٠ فرنكاً في اليوم. وكان مزاحم غير راضٍ على هذا التبذير وبقي يستعمل الترام احتجاجاً على ذلك! وكنت أعتقد أن ذلك كان شذوذاً من قبل مزاحم ولكن انكشف الأمر يوماً وبان مقصده. ففي ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٥ ذهب نوري باشا وعلي جودت ومزاحم إلى عصبة الأمم وبقيت أنا في المفوضية مع المستر ادموندس.. وجاءتنا برقية من بغداد فظننا طبعاً أنها تتعلق بقضية الحدود وصرت أحلها وذلك بالرغم من التعليمات الصادرة من قبل مزاحم والتي تحصر حق حل البرقيات بشخصه.. لأنه قد يكون فيها أمر مستعجل ووزير الخارجية هنا يتفاوض مع الممثل الايطالي فيجب أن لا يتأخر العمل لمجرد رغبة مزاحم التي لم تكن في محلها. ولكن البرقية لم تكن تتعلق بقضية الحدود وإنما تتعلق بسيارتي وأجور النقل وإنها موجهة إلى وزير الخارجية نوري باشا من قبل وكيله جمال بابان ومضمونها أنه ورد تقرير سرّي من مزاحم يتهم السكرتير موسى الشابندر بإساءة التصرف وصرف مبالغ طائلة على أجور النقل والحال أن أجرة النقل الشهرية لا تتجاوز خمس فرنكات فأنه يطلب سحب يد السكرتير واجراء تحقيق. وهكذا وضح لي ان مناورة مزاحم كانت كلها تتركز حول الاساءة إليّ وكل مظاهره كانت كذباً ورياءً ونفاقاً وقلة حياء. فلما رجع نوري وعلي جودت ومزاحم، دخلت عليهم في الصالون وقدمت البرقية إلى نوري ورجوته أن يقوم بالتحقيق حالاً. قرأ البرقية نوري وأخذ يضحك وكذلك علي جودت والتفت نوري باشا إلى مزاحم وأعطاه البرقية وقال له «هل نوبه ويّه موسى.. متجوز من طبعك» وأرتبك مزاحم واصفر واخضر وقال أنه لم يكتب شيئاً يستوجب هذه البرقية. فقلت يجب أن يطلع الوزير على التقرير حتى يقوم

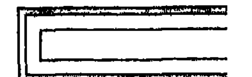
بالتحقيق وأتمكن من الدفاع عن نفسي. فذهب مزاحم إلى مكتبه وأتى بورقة صغيرة مكتوب عليها بخط يده وقال أنها مسودة الكتاب الذي أرسله للخارجية. فقرأنا المسودة وفيها أنه وجد الطريقة المتبعة من قبلي مخالفة للنظام وأن السيارة لا لزوم لها وان «الترام» يكفي للغرض وأن الأجور لا تتجاوز خمس فرنكات في الشهر. وأخذ مزاحم يقول هل في هذا شيء ويتظاهر كالمظلوم.. فسألته فيما إذا كان هناك تقريراً آخر باعتبار ان هذا التقرير لا يستوجب ارسال البرقية فأقسم أمام علي جودت ونوري بأنه لم يكتب أكثر من هذا.. ثم قال نوري باشا أن موسى خدمنا كثيراً بسيارته ووفر كثيراً على الحكومة، فاننا يجب أن نشكره وكتب إلى بغداد بذلك. وبقي مزاحم مكسوفاً ولكني كنت أشعر بأن الرجل كذاب وأن تلك الورقة لا تحتوي على كل ما كتبه ولكن الباشا وعلي جودت اقتنعا بما قال واعتبرا المسألة منتهية. وأثناء ذلك الجدل بيني وبين مزاحم قال له الباشا «يظهر أنك تريد الانتقام من موسى على ما كتب عليك بالصحف». فأظهر مزاحم كل استغرابه وقال أنه لم يتذكر بأنني كتبت شيئاً حوله ولما سأله نوري «أو لم تتذكر أيضاً ما كتبته أنت أيام تلك الهوسات» أجاب: «نعم.. نعم.. اعترف انني كنت مخطئاً.. وأن الحق كان معكم يا باشا». واستغربت منه هذا التذلل والتملق... أين الجسارة الأدبية، ويبدو أن شجاعة مزاحم لا تظهر إلّا على أناس مساكين مثل السيد أحمد. فالتفت إليّ نوري قائلاً: «دنسمع.. ابو شراره.. يقول أنه كان غلطان».. فقلت للباشا أمام مزاحم: «أن الاعتراف بالخطأ فضيلة... ولكن أنا لا أسحب ما كتبت ولم أزل مؤمناً بما قلت..» وبلع مزاحم هذه الملاحظات كلها وابتسامة صفراء على وجهه! وبعد هذه المناقشات ذهبنا إلى الغداء وقدم لي مزاحم البيرة وكان أكثر لطفاً من العادة.. وقد وصلت السخافة لديه بأنه أخذ يحاول تسوية القضية بالكلام الطيب والتواضع الزائد.



السفر إلى برلين

أصبح من الصعب جداً عليّ أن أبقى مع مزاحم ولذا وافق نوري باشا على سفرتي إلى برلين قبل أنتهاء أعمال جنيف وعليه فقد تركت جنيف في ٢٣ كانون الثاني/ينايـر. أتى معي بالسيـارة كل من نوري باشا وجعفر باشا إلى المحطة ونحن في الطريق صادفنـا مزاحم عـلى الجسر ماشيـاً ومتوجهاً إلى المحطة.. فصرنا نضحك على «صقاعته». إذ أنه ترك المفوضية قبلنا بعشر دقائق حتى يصل بالوقت اللازم إلى المحطة... واستغربت أنا من مجيئه إلى توديعي بعد كتابة التقارير السرّية حولي ولكن نوري باشا قال: «أن عنده خيوط» فأجابه جعفر باشا «والله الذي جابه عنده خيوط».. وكان في المحطة الأمير شكيب واحسان الجابري وعلي الغاياني وطلعت وغيرهم من الاصدقاء..

وصلت برلين في اليوم الثاني وسكنت في فندق ايدن ثم في «بانسيون» في كورفستندام. وصرت أقـابل من يلـزم في وزارة الخارجيـة بشأن تـأسيس المفـوضيـة العـراقية. وكمـا أنني اجتمعت بأصدقائي القديمين كورجي وجورج وأسعد وقضيت أياماً طيبة في برلين..



العودة إلى جنيف

عدت إلى جنيف في ٥ آذار/مارس ١٩٣٥ لحضور اجتماع اللجنة السداسية حول قضية الآثوريين. وذلك بناءً على أمر من وزارة الخارجية في بغداد. وجدت دار الوفد خاليةً خاويةً وصالح مهدي لوحده يأتي خلال أوقات الدوام فقط. أما مزاحم فكان في روما حيث تركه نوري باشا لتعقيب قضية الحدود مع المقرر البارون آلويزي. ذلك أنه بعد سفري من جنيف إلى برلين.. سافر نوري باشا ومعه مزاحم وادموندس والمس ريد إلى روما وبقوا هناك مدّة، وحسبما سمعت من صالح مهدي أن مزاحم «كسر بوطان» مع نوري في روما منها أنه حاول يوماً أن يقبل المس ريد وأنها ضربته كفاً وحصل ما حصل.. وأنه أمتنع يوماً من دفع أجرة السيارة بحجة ان ذلك المصروف لا يعود إلى مفوضية روما. وبما أن نوري باشا لم يكن لديه دراهم فاستدان من ادموندس ودفع الأجور. وهكذا استحق نوري جزاء عمله وتعيينه مزاحماً وزيراً. لأنه كان ممثلاً في جنيف ثم وزيراً مفوضاً في روما وبعد مدّة وزيراً مفوضاً في برلين! اشتغلت مدّة مع اللجنة السداسية وكنت أبعث بتقاريري إلى بغداد وأرسل صورة منها إلى الوزير في روما وكان مزاحم غير مبسوط من وجودي في جنيف ومن خطة الخارجية.

وبعد أن انتهت أعمال اللجنة في جنيف تقرر عقدها في باريس لدرس أمر الهجرة فطلبت من وزارة الخارجية الذهاب إلى باريس فسافرت في ١٩ آذار/مارس وعدت في ٢٢ منه إلى جنيف وقد زاد هذا من غضب مزاحم لأنه كان يرغب بأن يقوم هو بكل هذه الأعمال.. فلما عدت إلى جنيف وجدت بياناً ملصقاً على جدار «الهول» (القاعة) في المفوضية موقعاً من مزاحم يشير إلى عدم السماح لأي موظف أن يسكن دار الوفد. وكنت بعد عودتي من برلين قد سكنت في الفندق بالقرب من المفوضية ولم يخطر في بالي أن أعود إلى دار الوفد. ولكن مزاحم بقي يفكر في الأمر وأرسل بهذا البيان إلى صالح.. ولكني نكاية به انتقلت حالاً إلى دار الوفد وأخبرته بأن نظام سكن الموظفين يجيز السكن لأكبر الموظفين عند غياب الوزير وعليه فاني رأيت أن المصلحة تقضي بذلك، فأزداد مزاحم غضباً وأخذ يكتب إلى صالح ويعربد. وبعثت إليه بقائمة أجور السيارة للمدة التي قضيتها في جنيف واستعملت سيارة أجرة وأخذت وصلاً من صاحبها فرفض المصادقة عليها وكتب إلى صالح بعدم الصرف وبلزوم استعمال الترام، وأني أصريت وأرسلت الفاتورة إلى بغداد فوافقت عليها الوزارة وأيدت وجهة نظري وكتبت إلى مزاحم بذلك. فأصبحت المسألة مهزلة تماماً وصارت وسيلة للضحك وازعال مزاحم. وكان الشخص الوحيد الذي يعتمد عليه الوزير هو صالح مهدي ولذا كانت المذكرات باسمه ولم يكتب لي مزاحم مع أنني كنت أكتب له فيأتي الجواب باسم صالح وهكذا مثل الأطفال «المتزاعلين». وكنا أنا وصالح نضحك كثيراً لتلك الكوميديا!

وأردت يوماً الاطلاع على الملف العائد لي فأخبرني صالح أن مزاحم يحتفظ به وبملف السيد أحمد وربما اخذه معه إلى روما.. ولكن عمر أخبرني بأن بعض الملفات موجودة في أدراج مكتب الوزير وأن معاليه أخذ المفاتيح معه. ودبر عمر مفتاحاً ففتح الجارور (الدرج) وأتاني بالملفات فوجدت صورة التقرير الذي أرسله عني.. وكان مؤرخاً في أواخر كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٤

أي في الزمن الذي كنت في كرانس حيث أمضى مزاحم معي أيام «الكرسمس» (الميلاد) وكان يظهر لي اللطف والاخلاص. وكان التقرير طويلاً مفصلاً وليس مثل المسودة التي أرانا إياها عندما طلبه منه نوري باشا. فإنه بذلك كذب علينا وأخفى صورة التقرير الاصلية.

يتهمني مزاحم بأنني أسأت التصرف وصرفت مبالغ زائدة عن المبالغ المدفوعة للاجور وأن السيارة وهي لاستعمالي الخاص والمفوضية لا تحتاجها ويمكن استعمال «الترام» إذ إن الأجور الحقيقية للنقل لا تتجاوز خمس فرنكات بالشهر وعليه يطلب سحب يدي واجراء تحقيق. وبعث مزاحم بهذا التقرير في حين أنه يعلم بأن وزير الخارجية ترك بغداد متوجهاً إلى جنيف وكان قصده بلا شك اثارة مثل هذه القضية في الخارجية أثناء غياب الوزير حتى تكون الاساءة مؤكدة ويشيع الأمر بين الموظفين. ولكن بقي مزاحم بسواد الوجه لأن الوزارة أيدت وجهة نظري بلزوم استعمال السيارة وصادقت على المبالغ المدرجة بالقوائم ومع ذلك اثار مزاحم ضجة وشائعة وهذا كان جل قصده. وفي ملف السيد أحمد وجدت تقريراً مطولاً يتهمه الوزير به بأنواع التهم كعدم الكفاءة وعدم الامانة ويذكر «بأن السكرتير موسى الشابندر أخبرني بأنه عند قدوم السيد أحمد من استانبول لم يستصحب خادمه.. وأن السكرتير صادق على قائمة السفر لهذه الخادمة الموهومة لأن أحمد صديقه». وهنا أيضاً كذب مزاحم لأنني لم أقل له ذلك ولكن ما قلته كان «أنني لم أرَ الخادمة بعيني وصادقت على قائمة السفر اعتماداً على قول أحمد». وكان مزاحم عندما سألني أقسم بشرفه بأنه لا يريد أن يدرس أو يفتح هذا الموضوع القديم بل إنما لأجل الوقوف على حقيقة هذه القصة لأنها كانت مدار الأخذ والرد في الخارجية. وهكذا إذن كان أمر هذا الرجل! بينما يتظاهر لي وللسيد أحمد بالصداقة والمودة كان يدس ويكذب علينا في الخفاء... ولم تكن هذه أول حادثة في صلات مزاحم مع من يشتغل معه، إذ كان له مشكلات عديدة من قبل وحصلت له «اسكاندالات» (فضائح) مع كل من اشتغل معه فيما بعد... فهذه غريزة في الرجل لا تتبدل.. فإنه يتظاهر بالحب والولاء في بادىء الأمر ثم ينقلب فيسيء بكل قواه ويضرب من الخلف... ولا فرق لديه في تصرفاته هذه سواءً كانت في السياسة والأحزاب أو في علاقته بالموظفين والاصدقاء فكان ما عمله مع السيد أحمد مثالاً مصغراً لما عمله مع الحزب الوطني... وأصحابه وأصدقاؤه وهم قليلون، يعرفونه ويعرفون هذه الناحية من اخلاقه وقد وجدتهم كلهم يتحاشونه ويخشونه ولا يعتمدون عليه وكان نوري السعيد أكثرهم معرفة به وقد سمعت منه حول مزاحم ما لا يمكن تصديقه من سيء الاعمال... ولكن لماذا عينه؟

هذا سر من أسرار نوري... وما أكثر أسراره ودواليبه!

قصة البقلاوة

ان سلسلة سخافات مزاحم طويلة ومتنوعة لا يكن احصاؤها ولكن قصة البقلاوة يجب تسجيلها لانها ترى بوضوح نفسية الرجل وشذوذه.. فعندما أتى إلى جنيف ذهب لزيارة الأمير شكيب وكنت أنا معه، فأظهر اعجابه واخلاصه ومدح وأثنى وبيّن أنه مستعد لكل أمر وكل خدمة. والأمير شكيب بالرغم من فضله وعلمه له نقطة ضعيفة منتشرة لدى بني الإنسان وهي تأمين الاستفادة. فلما وجد مزاحم يذوب حباً واخلاصاً، شكره وقال أنه يريد أن يطلب من بيروت تنكة زيتون وعلبة بقلاوة فإذا أمكن يطلبها باسم معاليه حتى لا يدفع رسم الكمرك. فأجابه مزاحم بكل حماس بالموافقة وأنه مستعد لأي خدمة.

ومرت أيام ووصلت تنكة الزيتون فأخرجها مزاحم من الكمرك باسمه وأرسلها إلى بيت الأمير وأرسل الأمير منها صحناً هدية للوزير. وبعد مدّة وصلت علبة البقلاوة ولكن مزاحماً رفض هذه المرة أخراجها من الكمرك وأخذ يسب ويشتم بالأمير. فلما رجعت إلى جنيف من برلين وجدت أزمة البقلاوة لم تزل على حالها ومزاحم يرسل بالكتب إلى صالح مهدي بشأنها والأمير يسب ويشتم.. وكان هذه القضية وسيلة للتسلية بينما دائرة الكمرك تراجعنا بشأنها من وقت لآخر وصالح مهدي يخاف أن يغضب مزاحم، ومزاحم مصرّ على رأيه شاهراً العداء التام للبقلاوة. وفي الأخير استدعيت موظف الكمرك فأتى ومعه البقلاوة وفتحنا العلبة أمامه ودفعت له رسم الكمرك وارسلتها إلى الامير، وكفى المؤمنين شر القتال.. وهكذا حلّت الأزمة..

فكيف يا ترى يستطيع وزير طويل عريض ذو ثلاث وزارات مثل مزاحم أن يقضي وقتاً بمثل هذه السفاسف كقصة السيارة وقصة البقلاوة وقصة السيد احمد في حين أن العالم مشتغل بأخطر الأمور. ولكن مع الأسف فإن أكثر رجالنا يحملون مثل هذه الذهنية لأنهم نشأوا في محيط متخلف ضيق فلم يستطيعوا التخلص من تأثير ذلك المحيط وإن دفعت بهم الظروف إلى مراكز سامية. فمزاحم له ذكاء حاد وله طاقة لتحمّل الأشغال والمسؤوليات ولكن ابتلاه الله بحب الدس والايذاء وقد يكون السبب هو الصمم المصاب به وعلى كل أصبح مزاحم مع الأسف إثمه أكثر من نفعة وهناك الكثير من رجالاتنا الذين هم على شاكلته.

بعد شهرين امضيناهما في معالجة القضية الآشورية ومؤتمر نزع السلاح وغيره من جهة وبمخابرات فارغة بيني وبين مزاحم حول أجور النقل ومصاريف السفر والمصادقة عليها وعدم المصادقة وغيرها من الأمور التافهة، سافرت إلى برلين في ٨ أيار/مايو ١٩٣٥ بالسيارة وأخذت عمر معي لأن هذه المرّة كان السفر نهائياً وعينت سكرتيراً للمفوضية في برلين وانقطعت علاقتي بنجيب ولكن مع الأسف لم تنقطع العلاقة تماماً بمزاحم لأنه كان قد عيّن وزيراً في برلين علاوة على وظيفته في روما وجنيف.

مفوضية برلين

قضيت ثلاثة أيام في الطريق بين جنيف وبرلين بالسيارة. وكانت السفرة لذّيذة شاهدت خلالها عدة مدن تستحق المشاهدة كفريبورغ وهايدلبرغ وفرانكفورت. وصلت إلى برلين مساءً اليوم العاشر من أيار/ مايو ١٩٣٥ وسكنت في «البانسيون» في «كورفستندام» وباشرت حالاً بالتفتيش على شقة لاتخاذها مقراً للمفوضية لأن مخصصات الإيجار كانت محدودة ولا يمكن استئجار دار مستقلة. وكان يساعدني «**هانس فين**» وهو صديقي من لوزان أيام الكلية فعينته كاتباً محلياً وبقي عندنا حتى تركنا برلين بعد قطع العلاقات الدبلوماسية في أيلول/سبتمبر ١٩٣٩.

في ٧ حزيران/يونيو اصبت ليلاً بألم شديد في الكلى وأتى الدكتور إلى «البانسيون» بعد الساعة الواحدة ليلاً وأعطاني حقنتي مورفين ـ وبقيت أسبوعاً ممدداً في السرير من جراء ذلك. في تلك الأيام أتى صالح مهدي لتمضية الاجازة في برلين وصار يقصّ علينا قصصاً غريبة عن مزاحم منها أنه أشترى سيارة وطلب مخصصات ٨ دنانير بالشهر ولكنه قال: نحن اعترضنا على الخمسة دنانير التي كان يستوفيها موسى وكتبنا للخارجية أن أجور النقل لا تتجاوز الخمسة فرنكات بالشهر والآن نطلب ثمانية دنانير! هكذا كان تفكير مزاحم وهو في الحقيقة لم يكن يقصد التوفير على الحكومة إنما كان قصده الإساءة والانتقام!».

استأجرت شقة كبيرة في كورفستندام للمفوضية وباشرنا بتنظيفها وصبغها وتأثيثها وأنا منشغل بهذا وبمراجعة وزارة الخارجية الالمانية بشأن تأسيس المفوضية وصلني خبر بتعيين صبيح نجيب مستشاراً للمفوضية. لم تكن هناك معرفة بيني وبين صبيح وكنت أسمع عنه أنه كان مديراً عاماً للشرطة وأظهر كفاءة بتلك الوظيفة أيام نوري السعيد فلما أتت وزارة رشيد وبعده وزارة ياسين أبعدوه من منصبه والآن عينوه ودفعوه إلى خارج العراق لأنه بقي «طائفاً».. ووصل صبيح نجيب مع زوجته وأولاده في ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٣٥ فاستقبلناه في المحطة وذهبنا بهم جميعاً إلى فندق «ايدن» لكنه لم يبق هناك مدة طويلة حيث انتقل إلى «بانسيون» مؤقتاً بانتظار إنجاز الأعمال في المفوضية لكي ينتقل إليها. وجدت صبيح نجيب رجلاً طيباً خلوقاً وحصلت بيننا صداقة ومودة ولكني لم أجد فيه ما يؤهله للتمثيل الخارجي لا يعرف اللغة ولا يعرف الدبلوماسية ولم يسبق له أن اشتغل خارج العراق. كان ضابطاً في الجيش التركي ثم في الجيش العربي ثم العراقي ثم الشرطة، ويظهر أنه كان بارزاً في تلك الوظائف. وعلى كلٍ كان دائماً يمدح نفسه ويثني على أعماله وتصرفاته خلال مديريته للشرطة. وكان يشكو من مزاحم وهو صديقه منذ القدم وخدمه خدمةً صادقة عندما كان مزاحم وزيراً للداخلية بعد خروجه على الحزب الوطني ولا سيما أيام الاضراب في ١٩٣١ وأن «نكبته» أتت من جراء تلك الصداقة، وكان يعترف بأنه لا علاقة له بالتمثيل الخارجي وكان يتذمر من ياسين ونوري لأنه وصل إلى «هذه الحالة». فكأنما المنصب الاستشاري في برلين كان منفىً!

وكان صبيح نجيب شغوفاً بحديث الأكل والاسعار، فكلما ضمنا مجلس وجدناه يخوض

موضوع «المقارنة والدجاج والجبن» ويشكو ويتذمر من ارتفاع الأسعار.. والرجل لم يتعود على حياة أوروبا ولا على حياة الهيئة السياسية ومع ذلك بقي صبيح أكثر من ثلاثة أشهر في برلين وكانت أياماً لطيفة وطيبة تسودها المودة والصداقة. وكانت برلين مقصداً لعدد من العراقيين في تلك الأيام ومنهم: بهجت زينل وحسن فهمي وسلمان الشيخ داود وغيرهم. وكانت الأيام كلها مُرضية.

ولم ينقطع دابر مشاكل مزاحم بالمرّة: فقد اتصل بنا تلفونياً في أول آب/اغسطس طالباً إليّ السفر إلى روما لأنه يريد أن يأتي إلى برلين لتقديم أوراق اعتماده. ولكني رفضت ذلك الطلب أولاً لأنني لم أكن راغباً في الاجتماع به والاشتغال معه بأي شكل كان، وثانياً لأنني كنت عازماً على الذهاب إلى كارلسباد لأجل الاستشفاء ومعالجة الكلى.. فزعل مزاحم وصار يكتب إلى صبيح ويعربد على عادته بدون فائدة!

كارلسباد - براغ - وارسو

تركت برلين في ١٤ آب/اغسطس ووصلت مساء نفس اليوم إلى كارلسباد ونزلت في فندق «غران اوتيل پوب». وفي اليوم التالي ذهبت إلى الطبيب وبعد الفحص رتب لي طريقة التداوي والأكل، وباشرت بشرب المياه والاستحمام حسب ذلك المنهج. إن حياة كارلسباد والمنتجعات المائية التي تشبهها هي حياة خاصة تختلف عن الحياة الاعتيادية.

يستقيظ الإنسان صباحاً فيذهب إلى عين الماء التي وصفها له الطبيب فيجد هناك مئات الناس ينتظرون فيأخذ كل منهم كوبه ويبدأ بشرب الماء وهو يتمشى في المنتزه وتتكرر نفس العملية بشكل أوسع عصراً لأن بعض المرضى يشربون المياه الشافية في فنادقهم. وعند العصر ترى المئات بل الألوف من الناس يحملون اباريقهم الخاصة وهم يتنزهون ويرشفون الماء رشفاً إذ لا يجوز شرب الماء مرّة واحدة، ويتحول الإنسان من نبع إلى آخره حتى تكتمل دورة الاستشفاء وهي واحد وعشرون يوماً. اما المصطافون فإنهم من كل الأمم والنحل ومن كل فج عميق. وبما أن كارلسباد تعد من أغلى الأماكن واشيقها فإن روادها يعدون من الطبقات العليا وهم يتراوحون ما بين المليونير الامريكي والصراف البولوني واليهودي الذي يرتدي القفطان الأسود والطاقية المذهبة السوداء فوق راسه، ويسمع الإنسان جميع اللغات هناك فكأنها بابل. وصادفت في كارلسباد الشيخ حافظ وهبه وجمال بابان ومدام سيفي و«دوكلاس فيربانكس» وبعض اليهود الذين أعرفهم من برلين كمدام كاتس وغيرها.

قضيت ثلاثة أسابيع في كارلسباد وبعد أن انتهيت من الاستشفاء ذهبت إلى «مارينباد» وهي تشابه الأولى بفنادقها الضخمة ومبانيها لكنها تأتي بالدرجة الثانية.

* * *

في ١٤ أيلول/ سبتمبر وصلت إلى براغ. وهذه مدينة قديمة لها تاريخ قديم ولها مبانٍ فخمة وعليها طابع الماني قوي وإن كانت الآن عاصمة مملكة جديدة. فالكنائس والقصور و«البّاركات» (الحدائق العامة) هي من بقايا ملوك النمسا وامبراطورية المانيا.. وقصر «والنشتاين» القائد

الجرماني الشهير أيام حروب الثلاثين سنة وهو من ابدع آثار براغ ـ وبراغ تأتي بعد ديانه وبودابست وهي العاصمة الثالثة لامبراطورية «الهابسبورغ».

أتاني إلى الفندق المسيو «كالينا» وهو أحد مدراء شركة سكودا وذهبت معه إلى «بلزن» حيث زرت معامل سكودا للاسلحة وهذه أول مرّة أزور معملاً من هذا الطراز. فاندهشت بما رأيت وقلت في نفسي يا حبذا لو صرف البشر مثل هذه الجهود وهذه المبالغ في أمور التعمير والاسعاد بدلا من هذه الآلات الجهنمية التي لا يأتي من ورائها إلّا الهدم والتخريب..

بعد أن بقيت بضعة أيام في العاصمة التشيكوسلوفاكية سافرت إلى وارسو حيث وصلت في ١٩ أيلول/سبتمبر ونزلت في فندق أوروبا.

في وارسو يختلط الشرق والغرب. فيها المحلات الجديدة والقصور والأوتيلات (الفنادق) والحدائق والشوارع المبلطة، وإلى جانب ذلك تجد بقايا القرون الوسطى في المحلات والأسواق التي يسكنها اليهود، فهي تشبه «سوق حنون» بما فيه من اقذار وروائح كريهة، وبعض اليهود لم يزالوا يرتدون القفطان والقبعة ولهم ذقون طويلة وسوالف تنزل وتختلط بلحاهم، ويسكن في وارسو أكثر من مليون يهودي لهم محلاتهم الخاصة بهم وتصادف في بعض الطرق عربات خيل و«برشقات» على طراز ما تجد في بغداد. وترى في الفنادق سيدات جميلات وحياة كلها بذخ وتبذير وشرب مما يذكر الإنسان بأيام ملوك بولونيا والنبلاء وأيام نابليون. زرت في القلعة الغرفة التي كان المارشال بلسوسكي مسجوناً فيها لمدة سنتين. وهو الرجل الذي أنقذ بولونيا وأصبح ديكتاتوراً فيها..

وكانت هذه السفرة مفيدة من عدة وجوه. فعلاوة على الاستشفاء في كارلسباد شاهدت الاوضاع السياسية ومنها العداء الكامن بين الجرمان والسلافيين ـ والتدقيق على الحدود التشيكية كان شديداً وسخيفاً. وبالرغم من أنني أحمل جوازاً سياسياً فقد أخذ الموظف مني جميع الجرائد والمجلات وما لديّ من كتب مما يدل على نوع الصلة الموجودة بين المانيا وتشيكوسلوفاكيا والاقلية الالمانية في هذه البلاد كانت مضطهدة ومطاردة، فمعاهدة فرساي خلقت جواً كله عداء وحقد وانتقام بين هذه الشعوب التي عاشت مئات من السنين عيشة الجيران. وهذه الشعوب السلافية في شرقي المانيا والنمسا وإن تحررت لكنها بقيت خائفة تخشى التوسع الالماني بل تخشى من الانتقام لأن معاهدة فرساي ملّكتها ما لايعود إليها.. كمنطقة «السوديت» في تشيكوسلوفاكيا ومقاطعة «الدانزيك» والممر في بولونيا.. فهذه كانت حدوداً مصطنعة ستؤدي يوماً إلى سفك دماء وتخريب البيوت ولكن الطمع يعمي الابصار أحياناً ويحجر القلوب!

الأمير زيد

عدت من وارسو إلى برلين في ٢٣ أيلول/سبتمبر فوجدت الجميع بخير وروى لي صبيح بأن مزاحم اتى إلى برلين أثناء اجازتي وأنه قدم أوراق اعتماده إلى هتلر وأنه كان لم يزل غاضباً على صبيح لأنه أيّدني في قضية استحصال الاجازة المرضية وسفري إلى كارلسباد..

بعد وصولي ببضعة أيام بلغنا أن الأمير زيد عين وزيراً مفوضاً في برلين.. استغربنا كثيراً من ذلك الخبر، لأنه لم يمض على تقديم أوراق اعتماد مزاحم سوى شهرين.. ثم أن الأمير زيد

هو عم الملك، ولا يوجد سبب للاهتمام بمفوضية برلين بهذا الشكل باعتبار أن تعيين شخصية من العائلة المالكة سيجعل لمفوضية برلين مقاماً خاصاً.. ويظهر أن بغداد لم تفكر بشيء من ذلك، إنما كان القصد إرضاء الأمير زيد بشكل من الاشكال لأنه كان مهملاً لمدّة سنتين بعد أن زوج عطا أمين من أخته وبعد أن تزوج هو من زوجة الكاتب التركي عزت مليح فاضطر إلى ترك مفوضية انقرة. وطالما أن هذه مفوضية جديدة فلا بأس من تعيين الأمير فيها. ورأت وزارة الخارجية العراقية أن تعالج قضية صبيح نجيب بانتدابه إلى جنيف على أن يبقى مرتبطاً بمزاحم في روما. فالمسألة كلها لا تتجاوز حدود اطعام الناس وارضاء الاشخاص، بغض النظر عن الكفاءات وما تستوجبه المصلحة العامة.

سافر صبيح نجيب إلى جنيف في تشرين الأول/أكتوبر فودّعناه ووصل الأمير زيد مع زوجته فاستقبلناه وذهبنا به إلى دار المفوضية. وفي الأمير زيد مزايا كثيرة وأحسنها بنظري هي كونه «جنتلمن». وهذا أمر يندر وجوده بين أفراد الطبقة المديرة في العراق. أما زوجته البرنسيس فخر النساء، فكانت لطيفة وذكية وعفريتة بكل معنى الكلمة. ترك الأمير زيد الأعمال كلها إليّ وبما أن البرنسيس كانت حاملاً فلم تختلط كثيراً ومضت الأشهر الأولى بهدوء هذا فضلاً على أن شقة المفوضية لم تكن لتسمح لنا بالتوسع في التمثيل الخارجي وناحيته الاجتماعية...

عمر وغورينغ

تعود عمر على برلين وبسبب اختلاطه بالخدم الالمان صار يتكلم اللغة الالمانية قليلاً ولكن ليس بشكل كلمات إنما بشكل جمل كاملة حفظها من الاستماع ولكن بالنسبة إلى غيره من القادمين الجدد كان يعد ترجماناً بارعاً. ففي أيام صبيح كان هو الواسطة بينهم وبين الخدم والباعة ولما أتى الأمير زيد بقي عمر في المفوضية وأصبح لا يستغنى عنه لا سيما بعد أوقات الدوام. وكان الأمير وزوجته يستعينان به وبمعلوماته اللغوية عند قضاء حاجات البيت وشراء بعض، اللوازم من السوق.

عندما ذهبت صباح يوم إلى المفوضية وجدت الأمير زيد جاهزاً للخروج ومرتدياً اللباس الاحتفالي الرسمي «البونجور» ولما سألته عما سيكون اجابني أن غورينغ سيأتي لزيارته. فاستغربت من ذلك. غورينغ مارشال الرايخ ورئيس حكومة بروسيا ووزير الطيران يأتي بطوله وعرضه إلى المفوضية العراقية المتواضعة؟ وبأية مناسبة؟ ولماذا غورينغ دون سواه؟

وكان مصدرالخبر عمر لأنه هو الذي تكلم بالتلفون وأخبر الأمير بالأمر.. فناديت عمر وسألته عما إذا كان هناك وهم أو التباس أو سوء فهم.. فأكد لي بأنه فهم المحادثة تماماً وأن غورينغ سيأتي في الساعة الحادية عشرة لزيارة الأمير زيد.. واقسم بأنه فهم كل الكلام بوضوح.. ولكن كل هذا لم يقنعني فكلمت دائرة التشريفات في وزارة الخارجية مستفسراً عما إذا كانوا قد تكلموا مع المفوضية مساء الأمس حول زيارة احدى الشخصيات لسمو الأمير زيد فأجابوا بأنهم لم يخابرونا حول أمر كهذا.

أمر عجيب! أيمكن أن يقوم غورينغ بزيارة خاصة دون ان يخبر وزارة الخارجية؟ ثم ليس هنالك معرفة شخصية بينه وبين الأمير! فالمسألة لم تدخل في قناعتي وطلب إليّ الأمير زيد أن،

أذهب والبس اللباس الرسمي ولكني لم أقتنع وقلت له لا حاجة لذلك، ويكفي أن يكون هو مستعداً للاستقبال المفاجىء. وبقينا ننتظر.. ونضرب اسداساً بأخماس.

وفي الساعة الحادية عشر تماماً رن الجرس. إذن ربما المسألة تكون صحيحة! فأسرع عمر لفتح الباب. ودخل القادم في البهو وأخذ يتكلم مع عمر. ولكن الكلام ليس كلام غورينغ! وأتى عمر خجولاً مكسوفاً لأن الرجل خيب آماله.. إذ إنه لم يكن سوى الخادم الذي كنا قد وصينا عليه لدى محل المستخدمين الذي اتصل مساء الأمس يخبرنا بأنه سيرسل الخادم «دورينغ» غداً في الساعة ١١.. فصرنا نضحك. وكانت نكتة طريفة ولم يخطىء عمر إلّا بحرف واحد في أول الاسم وعليه فقد عذرناه. وذهب الأمير زيد يبدل لباسه الرسمي بثيابه الاعتيادية وصارت البرنسيس تمزح مع عمر حول «غورينغ» كلما قام بالترجمة.. وكات تسميه «بوليغلوت» لمعرفته عدة لغات أو بالاحرى لأنه يفهم شيئاً منها.. فكان يفهم التركي والافرنسي والفارسي والالماني و«يدكش» بها ويقضي حاجته!

وفاة والدي

في ١٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٥ حوالي الساعة الرابعة مساءً أتى إلى بيتي كورجي سالم دون إشعار مسبق وبدون موعد. وجدت كورجي مضطرباً وليس على عادته مازحاً مبتسماً.. ولما نظرت إليه متسائلاً عن أسباب زيارته المفاجئة واضطرابه سألني فيما إذا وصلني بريد من بغداد.. استغربت سؤاله وصرت أشعر بأن هنالك حادث.. فاستطرد كورجي سائلاً فيما إذا كنت أعلم بأن والدي مريض.. قلت: «لا.. تكلم... تكلم..» فوضع جورجي يده على كتفه وفاه بكلمات لم أفهمها ولو كانت كلها تأثر وشعور أخوي. ثم أخرج ورقة من جيبه وسلمني اياها.. وكانت هذه برقية من ياسين الهاشمي إلى الأمير زيد يخبره بها أن محمود جلبي الشابندر توفي ويطلب إليه أن يخبرني بصورة ملائمة. فنظرت إلى كورجي وكأني لم أفهم تلك الكلمات التي لم تحدث لأول وهلة إلّا فراغاً شاملاً في دماغي.. ثم قرأت البرقية مرّة ثانية وثالثة ثم رأيت الورقة ترتجف بين يدي وشيء يجيش في صدري. ثم أخذت دموعي تنهمر فتركني كورجي أبكي مدة من الزمن ثم أخذ يكلمني ويشجعني ويصبّرني.

كان الألم يحرق قلبي حرقاً.. يتوفى والدي وأنا بعيد عنه.. كم كان يود في تلك الساعة الرهيبة أن أكون جنبه وأن أمسك يديه. ولكن ارادة القدر غير ما نريد.. فضاعف ذلك من حزني وألمي، وأتى عمر من بعده وأخذ يقبلني ويبكي لأنه كان مخدومه المخلص فهو الذي اعتنى به عندما مرض في طهران وهو الذي كان يرافقه في أسفاره إلى العماره... وبقي كورجي عندي طوال الوقت وبات تلك الليلة في بيتي وكان الصديق المخلص أيام الخير والشر.. وصادف أن كانت عندي عطلة في اليوم التالي بمناسبة عيد ميلادي فاتصل كورجي بمن يلزم وألغاها ومنذ ذلك اليوم لم أقلم حفلة في يوم ميلادي.. وأتى صباح اليوم الثاني أصدقائي وكان الأمير زيد في أكثر الأوقات إلى جانبي.

وبعد بضعة أيام أتى بريد بغداد. وفيه آخر كتاب من المرحوم والدي وفيه يشير إلى أنه غير مرتاح ويتأمل أن يزول البأس عن قريب. وفهمت من بعده من كتاب إبراهيم أن والدي أصيب

بنوبة قلبية وانهم فكروا بأن يبرقوا لي حتى أحضر ولكن المرحوم لم يوافق لأنه شعر بتحسن في حالته. ولكنه بعد أن بقي عشرة أيام مريضاً وافاه الأجل ويذكر ابراهيم انه كان جلوداً وقوياً لم يفقد شعوره حتى النفس الأخير.. وكانت مراسم الجنازة في بغداد محتشمة وكان رئيس الوزراء ياسين الهاشمي في مقدمة المعزين وقد أظهر كثيراً من الوفاء والاخلاص لصديقه القديم... فتأثرت كثيراً من ذلك الوفاء وكتبت للباشا شاكراً لطفه ووفاءه.. ونظم جميل الزهاوي قصيدة يرثي صديقه محمود الشابندر وكانت من أجمل قصائده وكانت آخر ما نظم الزهاوي إذ قد توفاه الله بعد بضعة أشهر.. وهكذا أنطوت صفحة من حياة عائلتنا بفقدانها عميدها وأقوى شخصية فيها.. وترك والدي وراءه فراغاً لم يسده أحد ولكنه كان قرير العين بأنه ترك خلفه ولدين بارّين يحملان اسمه ويكرمان ذكراه!

السفر إلى بغداد

لم تحصل حوادث هامة عندنا في المفوضية ومر رأس السنة الجديدة ١٩٣٦ بهدوء وقضينا رأس السنة عندي في البيت. وفي اليوم العاشر من كانون الثاني/ يناير ذهب الامير زيد لرفع التهاني المعتادة إلى رئيس الحكومة هتلر مع الهيئة الدبلوماسية. وفي ٢١ كانون الثاني/ يناير تكلم رستم حيدر بالتلفون من بغداد عن طريق لندن مع الامير زيد وطلب إليه الذهاب إلى لندن لتمثيل جلالة الملك في مراسم جنازة الملك جورج الخامس. فسافر الامير زيد بالطائرة في ٢٥ منه. وفي ٢٨ منه اقيمت في كنيسة سانت جورج في برلين الصلاة على روح ملك الإنكليز وقد حضرتها بدعوة من السفارة البريطانية وكانت الهيئة الدبلوماسية كلها حاضرة واشترك بالصلاة كل من هتلر وغورينغ وغوبلز وعدد من رجال الدولة الالمانية، وكان بين الحاضرين ملك بلغاريا السابق فرديناند. اما المراسم فكانت بسيطة ولكنها مهيبة ومؤثرة. عاد الامير زيد من لندن في أول شباط/ يناير وقصّ علينا ما شاهده في مراسم لندن وانه كان إلى جانب الامير فاروق وانه وجده شاباً ذكياً لطيفاً.

حضرت مع الامير زيد حفلة ساهرة اقامها البارون فون نويرات وزير الخارجية في فندق «كايزر هوف» وكان عدد المدعوين يتجاوز ١٥٠٠ شخصاً فتعرفت على شخصيات كثيرة اثناء الحفلة. وفي ١٥ شباط/ فبراير دعينا الامير زيد وانا لحضور افتتاح معرض «الاوتوموبيلات» وكان معرضاً فخماً وهناك خطب هتلر خطبة طويلة واستغل الموقف فتحدث عن العمال وحالتهم ثم اخذ يقيس بين العمال الالمان والشيوعيين وشن هجوماً عنيفاً على الشيوعيين وروسيا السوفياتية واستعمل كلمات قارصة رغم وجود السفير الروسي «صوريج» الذي كان جالساً في الصف الاول امامه.. لم اجد في حينه مناسبة لذلك الهجوم وتلك العبارات ولكن هذه كانت عادة هتلر والزعماء النازيين فإنهم لا يفتحوا افواههم إلّا لسب وشتم الشيوعيين والفرنسيين ومعاهدة فرساي.

وذكرني خطاب هتلر هذا بأول خطاب سمعته له في هانوفر سنة ١٩٣٠. فكان الكلام نفس الكلام والصراخ نفس الصراخ، ولم يبدل في ذلك كون هتلر الآن رئيساً للرايخ. ولم يكن سنة ١٩٣٠ إلّا رئيساً لحزب من الاحزاب. ورأيت المسكين الموسيو «صوريج» بعد الافتتاح يطوف في المعرض لوحده إذ بعد ان سمع الناس ما فاه به هتلر لم يجرؤ احد على محادثته ومجاملته امام

الزعماء النازيين، ولكن الامير زيد وانا ذهبنا إليـه وكلمناه واعجبني ذلـك من الامير وظهـرت مرة اخرى «جنتلمنيته».

كان من الضروري ان اذهب إلى بغداد بعد وفاة والدي لرؤيـة ابراهيم وقضاء بعض الأشغال. وعليه فقد تركت برلين في ١٨ شباط/ فبراير متوجهاً إلى استانبول. وصادف أن السفير الافغـاني في أنقرة الذي كان مدعواً عندنا قبل يومين كان في نفس القطار. فاستأنسنا ببعضنا اثناء السفر. بقيت في استانبول في «بارك اوتيل» لبضعة ايام قضيت خلالها بعض الاشغال وتعرفت على اخوات البـرنسيس فخر النســاء في بيت امين بـاشا زوج الاخت الكبـرى. وزرت كذلـك بعض الجوامـع القديمة والآثار وتركت استانبول في ٢٥ شباط/ فبراير متوجهاً إلى أنقرة.

نـزلت في «أنقرة بـالاس» وهو يشبـه الفنادق الاوروبيـة الكبـيرة وقـابلت نـاجي شـوكت في المفوضية، فاقام ذلك المساء وليمة عشاء على شرفي حضرها من الجملـة سلطان احمـد خان سفـير الافغان ورفيقي بالسفـر من برين إلى استـانبول وكـانت حفلة لطيفـة كلها ودّ وبـلا تكلف.. وبين المـدعوين كـانت الآنسة «فيحـاء» ابنة حسني بـك فوجـدتها لطيفـة ورقصت معها عدة مرات.. وقضيت اليوم الثاني بزيارة ما يجب زيارته في أنقرة وكان معي الملحق ممدوح زكي.

وأنقرة هي مثال بارز على النهضة التركيـة بالـرغم مما هنـالك من متنـاقضات.. وهي دليـل واضح على ما يمكن ان يعمله الرجل المخلص والزعيم الهمام مثل مصطفى كمال. فهؤلاء الاتراك كـانوا بـالامس مثلنا ولـربما اتعس منـا ولكنهم اليوم يتقـدمون عـلى الشعوب الشرقيـة كلهـا في نهضتهم..

اقام سلطان احمد خان وليمة عشاء في اليوم الثاني وكنا تقريباً نفس الجماعـة مثل الامس، وتركت الجماعة في السفارة الافغانية وودعتهم وأخـذت القطار في السـاعة الحـادية عشرة مسـاءً فودعني سالم الالوسي في المحطة.

وصـل القطار حلب في اليـوم الثاني بعـد منتصف الليل ووصـل ظهراً إلى «تلة كوجـك» عـلى الحدود العراقية فوجدت هناك مصطفى الصابونجي ونجيب الجادر وقد أتيـا لاستقبالي واخـذني الصابونجي ضيفاً لداره. وبيننا وبين عائلة الصابونجي صداقة قديمة وكـانوا ينـزلون عنـدنا في بغداد في الزمن القديم هذا فضلاً عن العلاقات التجارية.

بقيت في الموصل يوماً واحـداً رأيت المدينـة وليس فيها ما يُرى ويسرّ. وفي اول اذار/ مـارس ركبنا السيارات من الموصل فوصلنا كركوك مسـاءً حيث أخذت قطـار بغداد. فـوصلتها صبـاحاً وكان ابراهيم ومحمد ومكي وسليمان ونوري فتاح في استقبالي وكذلك صيون وسيد رشيد.

في البيت كان مكان والدي فارغاً وغيابه بارزاً مؤثراً. ولم يزل ثقل الغم عن قلبي إلّا ابتسامة الطفل المحبوب سعيد ابن ابراهيم وكان عمره لا يتجاوز بضعة أشهر وكنت أجد بوجوده سلـوى لا سيما وقد رآه والدي وهو الذي اسماه سعيداً على اسم جدي.

بعـد الاستراحـة قليلاً في البيت ذهبت إلى الاعظميـة لزيـارة المقبرة وفيهـا الآن قبر والـدي أيضاً. وقفت هناك صامتاً ودمـوعي تتساقط امـام هذه القبـور الاربعة. جـدي وجدتي.. والـدتي ووالدي. هذه هي الدنيا.!

امضيت في بغداد اكثر من شهرين. قضيت الايام الاولى باستقبال الزائرين واعادة الزيارات والولائم والضيافات وقد وجدت اصدقاء والدي واصدقائي كلهم مرحبين ومهتمين وقدَ اظهروا لي عطفاً كبيراً واخلاصاً كثيراً. ومن بين الذين اقاموا مآدب على شرفي وبمناسبة عودتي إلى بغداد اذكر نجيب الراوي، رستم حيدر، اوبراين، توفيق السويدي، مدام دكتور ماكس، السيد مصطفى، يوسف ابراهيم، الدكتور شكري محمد، طالب مشتاق، الحاج ياسين الخضيري، تحسين قدري، نوري فتاح، بهجت زنبل، جعفر العسكري، الدكتور غروبا، كامل الكيلاني، ياسين باشا، هذا ما عدا الاقارب والاهل.

وزارني ياسين باشا اكثر من مرّة إلى البيت وقد زرته بصورة خاصة لأشكره على ما قام به من الاهتمام والعناية عند وفاة والدي. وقابلت أيضاً جلالة الملك غازي فسألني عن عمه الامير زيد وعن مفوضية برلين. وقد وجدت الملك الشاب نشيطاً متحركاً يتكلم بسرعة هائلة ويتظاهر بأنه مهتم وفاهم المقصود، اما الفرق بينه وبين ابيه المغفور له الملك فيصل فكان بارزاً ظاهراً لا يخفى على احد.. كان الملك الشاب محبوباً لدى طبقات الشعب لوطنيته ولموقفه الحماسي اثناء الثورة الآثورية ولكن لا يملك تلك المقدرة والمرونة وسعة الصدر والتفكير العميق والوقار السامي التي كانت متوافرة لدى ابيه.. وكانت ادارة الدولة الحقيقية بايدي الحكومة وكان ياسين مسيطراً سيطرة تامة على الامور... وكانت السيطرة هذه ثقيلة الوطأة في بعض المحافل ولدى المعارضين..

كنت كثير الاتصال بصديقي القديم كامل الجادرجي خلال المدّة التي قضيتها في بغداد وكنا نقضي ساعات طوالاً بالمباحثات حول الامور السياسية والاقتصادية. وقد وجدت كامل ناقماً على الوضع واكثر ميلاً للاشتراكية المتطرفة من ذي قبل.. واتذكر أنه قال لي يوماً: «رجالنا كلهم تحملهم بمكرافه وترميهم بالشط». قلت ولكن ياسين؟ قال: «ياسين لازم تلزمه وتضربهماية عوده على طيزه حتى يعقل».

استغربت كثيراً من هذه الملاحظة من قبل كامل الذي كان فيما مضى يؤلّه ياسين ويرفعه إلى السموات: ماذا حصل؟

ولما اعترضت مستفسراً قال: «لا يوجد أحد الآن سوى حكمت بك» قلت له: «يا كامل، حكمت سليمان انقلب على ياسين من جهة وزارة الداخلية. فلا تعتمد كل هذا الاعتماد.. وأظن ان حكمت يريد الآن يركب على ظهوركم حتى يصل مبتغاه فإذا وصل ترككم..» ولكن كامل لم يوافق هذا الكلام واخذ يكيل المدح والثناء.. وكانت الحلقة قد تقلصت إلى ثلاثة كامل ويوسف وناجي الأصيل.. وكان لكامل الآن اصدقاء جدد من بين الشباب الاشتراكيين ـ الشيوعيين كمحمد الحديد وعبد القادر اسماعيل وعلي حيدر سليمان وغيرهم، وقد تعرفت عليهم بواسطة كامل ووجدتهم شباباً طيبين متحمسين للمبادىء اليسارية والعدالة الاجتماعية..

بعد ان قضيت اشغالي الخاصة سافرت في ٧ ايار/ مايو ١٩٣٦ إلى استانبول عن طريق كركوك ـ الموصل. وصادف ان سافر بنفس القطار كامل الكيلاني وعائلته وكذلك حكمت بك سليمان. اتى للمحطة جماعة كبيرة بمناسبة سفرنا وكان الوداع «مطنطناً». صباح اليوم الثاني وصلنا كركوك وفطرنا عند المتصرف حسام الدين جمعة وفي الموصل دعانا المتصرف عمر نظمي إلى دار الضيافة. ونحن على العشاء أخذ حكمت ينتقد ياسين ولكن انتقاداً «بدويا» واتذكر عبارة

لم تعجبني في حينه حيث قال حكمت بك: «اتعلمون لماذا كان ياسين بـاشا قلقـاً في الايام الاخـيرة ومهتماً بامر السداد والفيضان؟ لانه اصبـح ملاكـاً وصار يخشى غـرق قصره ومزارعـه». وجدت بهذا الكلام مرارة شخصية نحو ياسين تكشف عن روح حكمت وشكل معارضته وتـأكدت بخطـأ كامل مرةً اخرى في عقده الآمال على هذا الرجل..

مؤتمر الطيران المدني في وارسو

كلفتني وزارة الخارجية قبل مغادرتي بغداد بأن امثل الحكومة العراقيـة في مؤتمر الطـيران المدني الذي سيعقد في وارسو ولذا كانت العودة إلى برلين عن طريق بولونيا. وصلت استانبـول في ١١ ايار/ مايو ونزلت في فندق «طوقاتليان» وقضيت اياماً لذيذة بصحبـة كامـل الكيلاني وقـابلت هناك ناجي شوكت إذ كان يقضي الصيف في استانبول وسمعت من هؤلاء الجمـاعة اشيـاء كثيرة عن زوجة الامير زيد واختها عليّة «وقلنا حط بالخرج».

تركت استانبول إلى صوفيا ومنها إلى بكرش... القطار بـين صوفيـا وبكرش كـان خاليـاً عدا مسافرين اثنين رجل روماني وأنا.. تعارفنا وصرنا نتكلم.. وسألني فيمـا إذا كنت اعرف احـداً في «بكرش» قلت لا اعرف إلّا رجلاً واحداً من ايام الكلية في لوزان اسمه «أرداڤانو» ولكنني لا اعرف عنوانه.. قال أن آرداڤانو هذا صديقه ومن اعز معارفه.. وكانت هذه صدفة في محلها بـأن اتعرف على رجل في القطار وهو المسافر الوحيد وأن يكون صديقاً لآرداڤانو.. وربنا احيـاناً يسهـل الامور من حيث لا يدري الإنسان.

فلما وصلنا بكرش رافقني الرجل إلى الفندق وساعدني بكل شيء ثم اتصل تلفونياً بـآرداڤانو فتقابلنا وتذكرنا ايام لوزان. بقيت يومين في بكرش سررت جداً خلالها فأهـل بكرش انـاس طيبون يحبون الانس والمرح والكلام والغرام! سافرت في ٢٠ ايـار/ مايـو إلى وارسو وكنت هـذه المرّة في القطار لوحدي تماماً مع أن في «الواغونلي» ١٨ فراشاً مما يـدل على وجـود ازمة قـوية في الامـور الاقتصادية والتجارة في شرقي أوروبا. ونزلت في وارسو في فندق أوروبا.

افتتح المؤتمر في ٢٢ ايار/ مايو وكان العالم تقريباً كله مشتركاً فيه اما نحن فكان اشتراكنا من باب التبرك! ففي السنة الماضية كان نفس المؤتمر قد انعقد في باريس وكان الممثل عن العراق عطا امين فقضينا في بولونيا ستة ايام ومرّ أكثر الـوقت بالتنـزه والتفرج. اخـذونا إلى «كـاركـوا» وهنـاك زرنا معـادن الملح في «ويليجكـا». مناظـر بديعـة تحت الارض ومحلات واسعـة وكنـائس ومراقص للعمال كلها منحوتة في طبقات الملح إلى مسافـات عميقة تحت سطـح الارض. وفي اليوم الثاني سافرنا إلى «زكايوته» وصعدنا على جبل ارتفاعـه ٢٠٠٠ متر بـالقرب من الحدود الشيكية. ومن بعد ذلك رتبوا لنا نزهة نهرية فركبنا في عدة زوارق تشابه «الشخاتير» وصادف ان كان معي، في «الشختور» فتاتان من ملحقات الـوفود انست بهما كثيراً. ودامت هـذه النزهـة النهريـة ثلاث ساعات مررنا خلالها بين جبال وفي غابات جميلـة وكنا نشـاهد في عـدة مواضـع حراس الحـدود الشيكية على الساحل الايمن من النهر. وعلى ما فهمنا كان العداء بين البلدين قـائماً بشـأن هذه الحدود فكل طرف يدعي بأن ما يطالب به الآخر باطلاً.. واتت زوبعة ربيـع ونحن في «الشخاتـير» بعيدين عن اي بلد فـأخذ البـرق والرعـد يتزايـد ثم هطلت الامطار بشـدة واستمرت مـا يقارب

الساعة ولما وصلنا إلى القرية التي اخذنا منها القطار كنا مبللين حتى العظام ولكن الطقس كان دافئاً. مع ذلك هجمنا من القرية إلى الفندق ودخلنا المطابخ لتجفيف ملابسنا وشربنا كثيراً من «الفودكا» لمقاومة الرطوبة قبل ان نسافر إلى وارسو. وفي اليوم الثاني كانت حفلة الختام فتركت وارسو في ٢٨ ايار/ مايو متوجهاً إلى برلين.

العودة إلى برلين

لما وصلت مساء ذلك اليوم إلى برلين وجدت في المحطة الأمير زيد وأسعد وخليل وهانس وقد أتوا لاستقبالي. وكان هذا لطفاً من الأمير مما زادني اعجاباً به ومودة له. وسافر الأمير في اليوم التالي لوصولي إلى درسدن حيث كانت زوجته وأختها عليّة وكان يذهب إليهما كل أسبوع مدّة بقائهما هناك. وقضية درسدن هذه ورغبة البرنسيس فخر النساء في الذهاب إليها بكل مناسبة صارت سبباً للقيل والقال حتى وصل الأمر إلى بغداد وكلمني رستم حيدر في الموضوع. ولكن عندما حاولت أن أفهم الأمير زيد بالوضع والكلام الدائر زعل وقال دعهم يقولون ما يشتهون. وكان وضع الأمير الهادىء الساكن أمام زوجته كوضع الحمل أمام الذئب وكانت الكل في الكل.

في تلك الأيام سمعنا بقصة الأميرة عزة أخت الملك غازي وهروبها مع الخادم اليوناني «خرلمبوس» وزواجها منه.. وكانت فضيحة كبيرة وضربة بالنسبة إلى الأسرة المالكة وقد تألم كل من سمع بتلك الحادثة وغضب.. وعندما وصلتني الصحف المحلية تحمل الأخبار والصور وضعتها بشكل لا يراها الأمير زيد خشية من انزعاجه. ولكنه عندما أتى إلى مكتبي كعادته صباح كل يوم أخذ يقلب الجرائد والصور فرأى صورة للأميرة عزة وزوجها يخرجان من الكنيسة وأمام الفندق رأى تلك الصور المشينة ثم قال «والله شاب حلو.. موهيجي موسى بك!». بلعت ريقي وسكت. فإذا كان الأمير زيد يقول كذلك وهو عم الملك وعم الأميرة بطلة الفضيحة، فما يجب علينا نحن الرعايا أن نقول.. سكتّ ولكن كان قلبي يفور غيظاً وغضباً. ولم تكن هذه فضيحة فحسب إنما كانت مثالاً بارزاً على سوء الإدارة في البلاط والفوضى المخيمة فوقه. فكيف سمح ياسين الهاشمي والباشوات والبكوات الغيارى الآخرون بهذه الأمور.

عندما تزوج عطا أمين أخت الأمير زيد قامت القيامة وفار التنور وأستقال عطا وانزوى في لندن إذ هددوه بالقتل والهلاك. وعطا وان لم يكن كفواً للبيت الهاشمي حسب عنعنات العرب فإنه كان من الشبان المثقفين وله موقعه الاجتماعي بين قومه وعشيرته. والآن بلع القوم الغيارى هذه الفضيحة وبطلها خادم يوناني لا يقبل مصاهرته لا العرب ولا الاكراد ولا العجم ولا النور. وبعد أشهر من هذا الحادث حضر يوماً إلى المفوضية شاب عراقي وهو ضابط مسيحي وعلى قوله وحسب ادعائه أنه ارسل لغسل العار وأتى ليفتش عن الأميرة وعشيقها ليفتك بهما ويعيد للأسرة المالكة الشرف المهان.. ولماذا يأتي هذا العراقي المسيحي؟ ولماذا شرّف إلى برلين وأبطال القصة لم يكونوا هنا!. شعرت أن هذا ذيل المهزلة فسلمته إلى الأمير زيد ليدرسا معاً طريقة انقاذ الشرف... والنتيجة كانت أن ذلك المتطوع الشاب المسيحي صرف الدراهم التي أعطيت له في بغداد بالشرب والمراقص وعاد إلى بغداد كما أتى وانتهت القضية ونسي الأمر مع الزمان وأثبت العراق تمدنه وتقدمه بأنه فوق السخافات والعنعنات العربية والإسلامية.. فهذه الأميرة بنت فيصل وحفيدة الحسين وسليلة بيت النبي العربي ارتدَّت عن دينها وهربت مع خادم يوناني، هل أساءت إلى

أحد؟ حاشا ثم حاشا! ثم «خرلمبوس» صهرنا الجديد شاب جميل وهذا أهم شيء في الموضوع. ولما أتى يوسف بك ابراهيم إلى برلين وصرنا نبحث عن العراق ودخلنا بموضوع «خرلمبوس» قال كلمة خالدة: أن «خره لمبو» بيّض وجه عطا..» وهذا صحيح لأنه على إثر هذا الحادث لم نجم عطا من جديد وأصبح «الصهر العزيز الكريم»...

انقضى شهرا حزيران/يونيو وتموز/يوليو دون حادث مهم. على أننا صرنا نتداخل مع الهيئة الدبلوماسية ـ فالأميرة وضعت ابناً هو الأمير رعد، وبعد أن استعادت صحتها ونشاطها في درسدن وكارلسباد أخذت تقوم بترتيب بعض الاحتفالات وتؤسس الاتصالات ـ وكنا الآن قد انتقلنا إلى دار خاصة للمفوضية في شارع «فازانن» ولفخر النساء ذوق في التأثيث والتنظيم وأصبحت مفوضيتنا تعد من المفوضيات «المحبوبة» بالرغم من تواضعها وصغرها وموقعها ويعود الفضل بذلك لكرم الأمير وذوق زوجته.

اشغالنا الرسمية كانت محدودة بطبيعة الحال. كنا مشتغلين في تأسيس وتوسيع العلاقات التجارية والاقتصادية بين العراق والمانيا على أساس التبادل التجاري، وكانت غايتنا تصريف التمور والحبوب مقابل الادخالات الالمانية، وعقدنا عدّة اجتماعات في المفوضية ووزارة الخارجية حول هذه القضية.

أما حياتي الخاصة فكات هادئة ومريحة. كنت اقضي أكثر الاوقات مع أصدقائي القدامى جورج وأسعد وعبد الكريم السباعي. وكانت ابنته وداد قد أتت معه إلى برلين وصرنا نجتمع أحياناً عند أسعد وأحياناً أخرى في بيت الدكتور كاتس حيث يسكن أبو فؤاد. وحضر برلين في تموز/يوليو عدد من أصدقائي العراقيين منهم الدكتور صائب وزوجته وشاكر السويدي، ثم أتى نصرت الفارسي وعلي أبو المي وعدد من الزائرين بمناسبة الألعاب الاولمبية.

الأولمبياد

كانت الألعاب الاولمبية لسنة ١٩٣٦ من أهم الأحداث العالمية. وقد أستعد الالمان كل الاستعداد وصرفوا مبالغ طائلة بكل سخاء ليكون اولمبياد برلين فوق «الاولمبيادات» العالمية الأخرى التي جرت في العواصم الدولية. فبنوا «ستاديون» (مدينة رياضية) فخماً يتسع لـ ١٠٠ ألف شخص في الضاحية الجنوبية الغربية من برلين ومددوا السكك الحديدية للقطار والترام وغرسوا الاشجار الضخمة حتى بانت وكأنها مغروسة منذ عشرات من السنين ونظموا وفحصوا ودققوا واتقنوا كل شيء حسب العادة الالمانية. وجرى الافتتاح في اليوم الأول من آب/اغسطس وتعجب الناس من عظمة المناظر وشدة النظام ومقدرة الالمان على تنفيذ المناهج.

وكانت برلين طيلة الألعاب مكة العالم وزاد عدد سكانها من الأجانب والالمان ما يقارب المليون نسمة. ويقال أنه في يوم الافتتاح سارت عشرون ألف سيارة في شوارع برلين المؤدية إلى «الستاديون» ولم يحصل أي حادث.. ذهبت بسيارتي مع نصرت الفارسي وزوجته وايلزه وقطعنا المسافة بساعة من الوقت بينما يجب قطعها في الأيام العادية بعشرة دقائق وذلك من كثرة «الاوتوموبيلات» (السيارات) والازدحام.

لم يشترك العراق مع الأسف بالألعاب الاولمبية، مع أننا كتبنا منذ أوائل السنة إلى بغداد

واقترحنا على الحكومة الاشتراك ببعض الرياضات كالركض والسباحة، ولأسباب لا نعلمها لم توافق الحكومة مع أن في ذلك الاشتراك دعاية طيبة للعراق. وكتبنا إلى بغداد أيضاً قبل الاولمبياد بأشهر طالبين تزويدنا باسماء الزائرين حتى نؤمن بطاقات الدخول ومحلات السكن لهم غير أنه لم يجبنا أحد على ذلك ولم يظهر أحد أقل اهتمام بمثل هذا الموضوع.. ولكن قبيل الافتتاح وأثناء الاولمبياد حضر برلين ما يقارب الستين شخصاً من العراقيين بدون إشعار وسببت هذه المفاجأة متاعب لهم ولنا إذ كان من المتعذر جداً الحصول على بطاقات وكانت قضية السكن أشد صعوبة من ذلك.. فأخذ اخواننا العراقيون يأتون مع شنطهم إلى المفوضية أثناء الدوام وبعد الدوام وكانوا بطبيعة الحال غير راضين عن الخدمات، وبسبب قلة الاعتناء في أمرهم مما أدى إلى انتقاد المفوضية وأعمالها وكأنما هي أسست للقيام باستئجار مساكن للقادمين أو ملاحقة أمورهم الشخصية كالتفتيش عن الخياط والمطعم والطبيب. وقد وصلت الشكوى إلى نصرت الفارسي بصفته مديراً عاماً للخارجية. فأتى يوماً عابساً غاضباً ولما سألته خيراً ان شاء الله قال أن المفوضية مقصرة تجاه العراقيين فكان عليها أن تعد على الأقل دليلاً مطبوعاً توزعه على القادمين لتسهل عليهم الحصول على أماكن السكن وغيرها من الاحتياجات.. فقلت له يا بك هذه النشرات موجودة في محلات توماس كوك وغيره من الشركات فلا حاجة للمفوضية ان تزاحم الشركات في أمور لا تعود إليها... ثم نحن كتبنا وطلبنا منكم تنويرنا حول الأشخاص القادمين حتى نقوم بما يجب لتأمين راحتهم وإن لم يكن ذلك من واجب البعثات الدبلوماسية، أما الآن.. وقد فات الوقت وازدحمت المدينة بالناس، فلا يمكننا أن نعمل أكثر مما نقوم به. ولم يرض نصرت بكلامي هذا وبقي عابساً غاضباً لأنه هو شخصياً لم يعرفنا بقدومه قبل وصوله برلين، وصادف بدوره كذلك بعض المشاكل.

ونصرت فضلاً عن أنه صديقي وأستاذي كان مديراً عاماً للخارجية وكان من واجبي أن أساعده وأخدمه، ومع أنني حاولت ذلك فقد شاءت الصدف أن لا أوفق بارضائه من هذه الناحية. من ذلك أن جميعة الموظفين الالمانية في برلين أقامت حفلة ساهرة في «كرول اوبرا» ودعت إليها بواسطة المفوضيات جميع كبار الموظفين الذين حضروا برلين بمناسبة الاولمبياد وكان نصرت بالطبع من جملة المدعوين. وصادف بأنني كنت على موعد مع الدكتور صائب شوكت لحضور ماتش (مباراة) ملاكمة وسبق لي أن حجزت الأماكن اللازمة فأخبرت نصرت بأنني سوف لا أحضر حفلة الموظفين، وبما أن الحفلات كانت متعددة في وقت واحد فصرنا نتوزع عليها وتقرر أن يذهب خليل عبد الاحد إلى وليمة الموظفين والأمير زيد يذهب إلى حفلة أخرى وأنا أذهب إلى حفلة الملاكمة. وأخبرني خليل في اليوم التالي بأن نصرت عندما وصل إلى باب حديقة «كرول» ولم يجد من يستقبله ويرحب به ويدله إلى المحل اللائق غضب غضباً شديداً وأخذ يرتجف حتى تمكن خليل من اقناعه بأن عدد المدعوين كان كبيراً ويتجاوز الألفين ولا يمكن استقبال كل هؤلاء الاشخاص بصورة فردية وأن هذه قاعدة متبعة في مثل هذه الحفلات... ولم يقنع نصرت بهذه التفسيرات وأتى إلى المفوضية في اليوم الثاني أشد عبوسة و«ابلع باصطوناً» من العادة وأخذ يلوم ويعتب ويقول أن «هذا لا يجوز، هذا تحقير للموظفين». وتأثر الأمير زيد كما أننا كلنا تأثرنا كيف ينزعج نصرت بهذا الشكل وعندما سمع بذلك توفيق السويدي ورؤوف الجادرجي وصائب كلموه وأخبروه بأنه ليس على حق.. ولكن نصرت بالرغم من فضله وعلمه فانه على تعبير بغداد

«بالع باصطون» ومن كان كذلك فيحق له أن يغضب لأقل من هذه الأسباب ولذا فقد سكتنا وقبلنا الغضب بلا مرارة..

وبعد ثلاثة أيام كنا كلنا مدعوين على العشاء عند الجمعية الالمانية الشرقية وكانت هذه الحفلة على شرف الشرقيين كالعرب والأتراك والإيرانيين والافغان.. فتركت سيارتي للأمير زيد ورتبنا انتقالنا بأن يذهب معه كل من توفيق السويدي ونصرت الفارسي دفعاً لأقل ازعاج وأخذنا أنا ورؤوف الجادرجي تاكسياً وذهبنا من بعدهم إلى فندق اسبلاناد حيث الدعوة ـ وصلنا الفندق فلم نجد أحداً من الجماعة مع أنهم سبقونا بعشر دقائق.. وبعد ربع ساعة أتوا وآثار «النرفزة» بادية على وجه نصرت.. فتبين أن السائق عمر أخذهم إلى فندق آخر خطأ فصاروا يسألون ويفتشون حتى اهتدوا إلى المكان الصحيح. وبعد أن وصل الجماعة توجهنا إلى مدخل قاعة الاحتفال وهي تقع في بناية إلى جانب الفندق فلم نجد أحداً على الباب فقلنا لعلنا نجد من يستقبلنا في البهو ودخلنا متوكلين، فلم نجد في البهو سوى امرأة ورجل من الخدم لأجل «الكاردروب» (حفظ المعاطف). فنزعنا معاطفنا «وبرانيطنا» (قبعاتنا) ولم يصبر نصرت على هذا الاهمال فأخذ يتكلم مع الخادم ويسأله عن مكان الحفلة بالانكليزية فانحنى الخادم الالماني الذي لم يفهم الانكليزية وتبعه نصرت أمامنا آخذاً طور المنتصر لأنه حل المشكلة! ولكن سرعان ما رأينا أننا متوجهين إلى «بيت الراحة» (المراحيض) إذ التفت نصرت مدردماً لأنه كان يتقدمنا ورأى انه قادنا إلى مكان غير الذي يريد.. فصرنا نضحك ثم فهمت الأمر من الخادم وصعدنا إلى الطابق الأول حيث كانت الجماعات قد وصلت. وبعد أن هدأ روع نصرت كلمه الأمير زيد قائلاً «شفت يا نصرت بك! هذه حفلة خاصة لنا ولم نجد من يستقبلنا وكدنا ندخل «الادنجانات»... إذن لم تكن محقاً بزعلك في حفلة الموظفين ولم تكن خاصة و..» وكنا مبسوطين قلبياً بأن يرى نصرت بعينه بأنه لا حاجة إلى التفلسف في كل الأمور.. وعندما سافر نصرت سلمنا بضع قطع من الحرير وأوصانا بأن نرسلها بالبريد إلى ناجي شوكت في انقرة وذلك لأجل امرارها الحدود التركية بلا كمرك. فنحن اتباعاً لأمره عملنا منها رزمة وأرسلناها بالبريد وكنا مغتبطين بأن نقوم بخدمة صغيرة ارضاءً له. ومرت ثلاثة أشهر وإذا بالرزمة تعود لنا يوماً من انقرة لأن المرسل إليه لم يكن هناك فبقيت شهرين في دائرة البريد ثم أعيدت إلى المرسل حسب نظام البريد وهكذا شاءت الصدف بأن نفشل حتى في هذه الخدمة. وكأنما الصعوبات تلاحق الرجل الصعب في كل أعماله وكان من الطبيعي أن يرجع نصرت إلى بغداد وله انطباع سيء عن المفوضية وموظفيها لا لذنب اقترفناه وإنما لمجرد المعاكسات التي لازمت صلاتنا بنصرت طوال اقامته في برلين.

لا شك أن مثل هذه الارتباكات حصلت لدى جميع المفوضيات في برلين أثناء الاولمبياد نظراً لكثرة الزائرين والمراجعين. وقد زاد في «خرابيطنا» تصرفات الدكتور غروبا الوزير المفوض الالماني في بغداد ومنحه التوصيات الدبلوماسية إلى «عمرو وزيد» دون أخذ رأي الخارجية في بغداد. فكنا نرى أشكالاً وأنواعاً من العراقيين يتصلون بالخارجية الالمانية ووزارة الدعاية دون علمنا وكانت تأتيهم الدعوات من الدكتور غوبلز في حين أنهم لا يستحقون كل ذلك الاهتمام. ومثال ذلك أنه أتت بطاقات دعوة من «غوبلز» إلى عباس حلمي الذي يسموه عباس سيفون ولم تأت إلى توفيق السويدي لأن الأول أتى بتوصية خاصة من غروبا بينما الثاني وصل من باريس ولم تكن لديه

توصية. فمثل هذه الحوادث أحرجت موقفنا، الأمر الذي جعلنا نطلب إلى الخارجية في بغداد بأن تتصل بالمفوضية الالمانية وتطلب إليها عدم تزويد الناس بالتوصيات دون علم الخارجية. وبالطبع كان مقصد الدكتور غروبا القيام بالدعاية وكان شأنه شأن الآخرين الذين يجدون في جلب قلوب الحثالات نصراً لمآربهم.

انتهت الألعاب الاولمبية في ١٦ آب/اغسطس وتعبت كثيراً خلال هذين الاسبوعين حيث كنت أقضي أكثر النهار بمشاهدة المسابقات المختلفة. وفي المساء كنت دائماً إما مدعواً وإما داعياً، هذا فضلاً عن المقابلات وقضاء حاجات العراقيين والقيام ببعض الخدمات للاصدقاء. وفي اليوم الأخير بقيت في «الستاديوم» من الساعة الثانية بعد الظهر إلى الساعة التاسعة مساءً على سحبة واحدة.

أقام الدكتور غوبلز حفلة ساهرة في حديقة غناء في جزيرة الطواويس الواقعة في احدى البحيرات الجميلة في جنوب برلين وكانت هذه الحفلة مثالاً للتنظيم والجمال والروعة ذلك انه من مدخل الجزيرة حتى الحديقة الكبيرة كانت الطرق تلتوي بين الاشجار المضاءة. وعلى طرفي ذلك الطريق ولمسافات قصيرة وقفت الفتيات الجميلات بلباس «الملائكة» وكل منهن تحمل مشعلاً كهربائياً ملوناً.. وعلى الصخور وفوق الاغصان وبين الاعشاب فراشات وطيور وعناكب ملونة أيضاً بالكهرباء.. فالإنسان وهو يمرّ من تلك الممرات الساحرة يخال نفسه في مكان خارج هذه الدنيا...

في الساحات الواسعة الخضراء المزدانة بأنواع الأشجار والمنورة بأبدع الأنوار اجتمع المدعوون جماعات على الطاولات وكان عددهم حوالي خمسة آلاف شخص.. أما الأكل والشرب والشامبانيا فحدث عن البحر ولا حرج. وبعد العشاء بدأت الألعاب النارية فكانت بديعة في ألوانها وتشكيلاتها في السماء وكانت في نفس الوقت مدهشة ومزعجة في رعدها وبرقيها وأحياناً صارت الأرض تهتز هزاً كأننا على أبواب القيامة. وهنا تجلى الذوق الالماني جمالاً وانتظاماً وانسجاماً وكثرة في الأكل والشراب وموسيقى وأصوات ورعد وبرق وكان الإنسان يشعر أمام كل ذلك بالاعجاب والتقدير، ولكنه لا يشعر بالارتياح القلبي الهادىء كما أعتقد.

وكانت الاولمبياد وسيلة لاظهار ما تستطيع المانيا القيام به من النظام والسخاء والعناية بالضيوف وقد بذلت الحكومة من المال والوقت لتأمين تلك الغاية على أن الإنسان كان يشعر أن هنالك مبالغة وتكلف... وسمعت كثيراً من الالمان ينتقدون بمرارة ذلك التبذير في حين أن الناس أو أكثرهم كانوا محرومين من الزبدة والبيض والرفاه المعتدل، وسمعت من أحد المنتقدين أن حفلة غوبلز في تلك الليلة في جزيرة الطواويس كلفت خمسة ملايين من الماركات.. وقد يكون في هذا بعض المبالغة. على أن ذلك يدل على عدم رضى رجل الشارع من غير الجماعة النازية...

وبعد انقضاء الاولمبياد أخذ العراقيون يرحلون شيئاً فشيئاً فخف الازدحام وتقلص الارتباك. وسافرت زوجة الأمير في ٢٨ آب/اغسطس إلى استانبول وسافرنا مع الأمير وأسعد ويوسف بك إبراهيم إلى بوكو Buckow وبقينا هناك في أوتيل «الحمامة البيضاء» نتمتع بالهدوء والسكون وعدنا إلى برلين وحياتها في ٦ أيلول/سبتمبر.

نورنبرغ

للمدن نصيب الرجال. منها ما يشغل في تاريخ البشر موقعاً سامياً ومنها ما يعلـو ويرتفـع ثم يسقط ويندرس. ومدينة نورنبرغ الباڤارية التي كانت مشهورة بمعاملها لملاعب الأطفال ونسيج الحراير ومبانيها التي أحتفظ بها منذ القرون الوسطى والتي كانت تعد من المدن الباڤارية الهادئة الساكنة واصبحت مركز المؤتمرات للحزب النازي وكتب الله عليها أن تكون الآن [١٧ شباط/فبراير ١٩٤٦] المدينة التي تجتمع فيها المحكمة الدولية لمحاكمة كبار النازيين المتهمين بإثارة الحرب واقتراف الجرائم... فهناك كان يقف بالامس «الفوهرر» محاطاً بغورينغ وهِس وغوبلز وكبار القواد والزعماء من الحزب الاشتراكي الوطني-وهو يخطب ويُلقي درساً للعالم ويوعد ويهدد. وهناك اليوم، يجلس غورينغ وهِسّ وربنتروب والقواد وكبار الزعماء في قفص الاتهام يستمعون إلى الاتهامات المروعة والتأنيب القارص من الحكامالإنكليز والامريكان والروس والافرنسيين وعلى رؤوسهم الحراب.

كانت نورنبرغ مسرح العظمة النازية وهي الآن مسرح تحطيم تلك العظمة!

دعينا الأمير زيد وأنا، مع الهيئة الدبلوماسية لحضور مؤتمر نورنبرغ فقررنا الذهاب اسوة بالوفود الدولية الاخرى. حصلت على بطاقة دعوة ليوسف بك إبراهيم وسافرت معه ونزلنا ضيوفاً على الحكومة هناك. رؤساء الممثليات ومن ضمنهم الأمير زيد سكنوا في القطار الخاص المعد خصيصاً لذلك الغرض بينما نحن وُزعنا على فنادق المدينة. وفي اليوم العاشر من أيلول/ سبتمبر افتتح المؤتمر باستعراض في ساحة الزبلين من قبل فرقة الخدمة. فمر أمام هتلر ٤٥ ألف شاب مدرب على الطريقة العسكرية.. فكانت لكل فرقة منهم أعلامها وجوقها وقوادها، والفرق الوحيد بين هذه التشكيلات والجيش أنها كانت تحمل المعاول والمساحي والمماسح بدلاً من البنادق فلو استبدلت هذه بتلك لانقلبت هذه الفرق كلها بيوم واحد إلى جيش مدرب كامل.. أما الانتظام فكان حسب العادة الالمانية كاملاً من جميع الوجوه وكان يستوجب حيرة الاجانب الذين لم يتعودوا عليه.

ذهبنا ليلاً إلى مؤتمر الحزب وسمعنا خطاباً لروزنبرغ وآخر لغوبلز، هما عبارة عن مدح وثناء «للفوهرر» والحزب وذم وقدح للشيوعيين واليهود ومعاهدة فرساي وحماس وهتاف وتصفيق وأعلام وموسيقى حسب المعتاد..

في اليوم الثاني أخذونا أنا ويوسف بك وجماعة من المدعوين إلى مدينة صغيرة بالقرب من نورنبرغ لرؤية المباني القديمة، وهي البلدة المشهورة روتنبورغ، وهنا لم نجد ولا بناية واحدة جديدة إذ لا يسمح لأحد أن يبدل طراز البلدة القديم فبقيت كما كانت في القرون الوسطى عبارة عن شوارع ضيقة ودور واطئة صغيرة، وهكذا أصبحت هذه البلدة الصغيرة محجاً للعالم وللزائرين الذين يرغبون في قضاء ساعات أو أيام بمحيط محافظ على القرون الوسطى. عدنا مساءً إلى نورنبرغ وشهدنا ليلاً استعراض «الزعماء» للكتائب الهتلرية ـ أعلام وموسيقى .

وفي اليوم الثالث حضرنا استعراض الشباب الهتلري الذي ضم عشرات الألوف من الفتيان والفتيات مع زعيمهم «بالدور فون شيراخ» [وهو الآن مع المتهمين في نورنبرغ يؤدي الحساب]

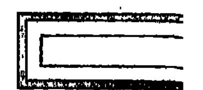
وكان الحماس لدى هؤلاء الشبان يفوق حماس الآخرين. فلما طاف هتلر بين صفوفهم أخذ (الهتاف) يعلو بحياة الزعيم والصراخ يصم الآذان. شيء يشبه الإيمان بالنبوّة والمعجزات... نبوّة الانقاذ ومعجزات الدعاية...

وفي اليوم الرابع جرى استعراض الكتائب النازية وقد فاق هذا الاستعراض كل ما رأينا حتى الآن ولا سيما المهرجانات الليلية في شوارع نورنبرغ وقد شاهدنا شبان الـ .S.S بلباسهم الأسود وخوذاتهم السود ومشاعلهم الملتهبة وخطواتم التي تهز الأرض واناشيدهم المتعالية إلى السماء. كل هذا كان يضفي الرعب في القلوب.. ودعينا في تلك الليلة إلى العشاء في معسكر الـ S.S خارج المدينة وكان رئيسهم هملر في استقبالنا وشهدنا هناك نفس المظاهر: مشاعل، ولباس أسود، وحراب وخيم ونار ودخان وموسيقى وهتاف وأعلام.. فصرت أنا ويوسف بك نشعر بأننا في غير هذا العالم... بل في عالم مسارح «واغنر».

في اليوم الخامس شاهدنا استعراض الجيش بمشاته وفرسانه ودباباته ومدافعه وقواده وضباطه وطياريه واجريت في ساحة الزبلين مناورة عسكرية وانقلبت الساحة إلى ميدان حرب واعتلى الدخان وانفجرت القنابل ودوت المدافع والرشاشات وطنّت البنادق واسرعت سيارات النقل والاسعاف وسط هذا الجحيم باحضار الاطباء والمرضات حتى يكاد الإنسان ينسى نفسه ويشعر وكأنه أمام مجزرة حقيقية لا مهزلة من مهازل هذه الحضارة الأوروبية. وفي تلك الليلة ذهبنا إلى بناية المؤتمر واستمعنا إلى خطبة هتلر الختامية وكانت بالطبع كسائر خطبه صراخاً و«عياطاً» وهياجاً وتصفيقاً وهتافاً.. وانتهى المؤتمر وعدنا في اليوم السادس إلى برلين ونحن بأشد الحاجة إلى الراحة والسكون.

أطلق اسم «السلام» على مؤتمر الحزب هذه السنة ١٩٣٦ وقد حضر نورنبرغ لأول مرّة السفير البريطاني السير «نيفل هندرسن» ولم يتخلف عن الحضور إلّا السفير الروسي والسفير الفرنسي.. ولو كان كل هذا الهياج والحماس وهذه الاستعراضات والمظاهرات العسكرية في سبيل مؤتمر «السلام» فما عساه يكون الوضع لو كان المؤتمر «حربياً». والحقيقة أن الحزب النازي ولد بتأثير الضغط ومعاهدة فرساي وفشل الديمقراطيين الالمان مثل شتريزه فون وبراوننغ وغيرهما في دفع الاثقال عن المانيا. وما تلك المظاهرات إلّا لما يساور النفوس الثائرة على فرساي وأبطالها وذيول هذه المعاهدة وقصر نظر الحضارة الأوروبية. وهذا الشعب الشاب المندفع، القليل التجربة، يحاول بهذه الوسائل اظهار قوته ونشاطه واستعادة ما خسره بسبب الحرب الفاشلة.

وفي مؤتمرات نورنبرغ عبرة كافية لمن يريد أن ينتبه ويفيق، فالجشع الأوروبي كان ولا يزال يخدر الاعصاب ويغشي الابصار.



طه الهاشمي ومحمد علي جواد

وصل برلين كل من طه الهاشمي رئيس أركان الجيش العراقي ومحمد علي جواد قائد القوة الجوية قادمين من لندن لأجل درس قضية شراء الأسلحة والعتاد. فقمنا بالاتصالات اللازمة بواسطة الخارجية الالمانية وصرنا نزور المعامل المختلفة. في ٣٠ أيلول/سبتمبر طرنا بطيارة عسكرية خاصة من برلين إلى «غوتا» لزيارة معمل الطائرات هناك. وكانت هذه أول مرّة أركب الطائرة ولم أتأثر من ذلك إلّا عندما أخذت الطائرة تهبط في مطار «غوتا» ولكن عندما اغمضت عيني ذهب الدوار ولم أشعر بشيء. استقبلنا مدراء المعمل بكل حرارة واهتمام وكنا نحن الأربعة الأمير زيد وطه الهاشمي ومحمد علي جواد وأنا مسرورين بهذه الزيارة ورأينا كيف تصنع الطائرات. وكان محمد علي جواد هو الاخصائي الوحيد في ذلك الموضوع كان دائماً ينحني ويتطلع تحت الطائرات على أننا لم نجد هنالك شيئاً يستوجب الاهتمام والفحص، فهمس الأمير بأذني «هذا بلوف حتى يظهر أنه فاهم!». وعدنا مساء ذلك اليوم بالطائرة إلى برلين وفي اليوم الثاني ذهبنا إلى معامل «هنشل». واهتم الالمان كثيراً بزيارة رئيس أركان الجيش وأقيمت له ضيافة من قبل الخارجية. وفي ١ تشرين الأول/أوكتوبر ودعنا الزائرين عند سفرهما إلى براغ لزيارة معامل الاسلحة هناك.

«ويك أند»

في ١٠ تشرين الأول/أوكتوبر ١٩٣٦ ذهبنا بسيارتين إلى ويرنيكروده على جبال الهارتز وكنا: الأمير زيد، عبد الكريم السباعي، جورج الخوري، أسعد السباعي وأنا. زرنا المغارات الشهيرة في «روبه لند» وتاله وعدنا إلى برلين بعد «ويك اند» لذيذ.

وصلت البرنسيس فخر النساء ومعها ولداها نجاد وابنتها شيرين وهي من زوجها الأول عزت مليح وأتت أيضاً بكلبين بديعين فصارت حركة وحياة جديدة في المفوضية. وكان الأمير يعطف على أولاد زوجته كثيراً وهما يحبان الأمير أكثر من حبهما إلى أبيهما.

من ثمرات النازية

خلقت النازية في المانيا جيلاً جديداً وذهنية خاصة وتعصباً عجيباً. وكان اليهود من ضحايا ذلك الدور. وكان من يشبه اليهودي في حجم أنفه أو لون شعره أو سمرة بشرته عرضةً للاعتداء والتحرش من قبل الطائشين والمتحمسين. فحدث لنا يوماً حادث نموذجي للحالة السائدة أنئذٍ. ففي مساء ١٩ تشرين الأول/أكتوبر كان أسعد السباعي عندي في البيت وكنا قد قررنا أن نذهب إلى دار عبد الكريم السباعي لنأخذه معنا إلى المحطة لتوديع جورج الخوري في سفره إلى يافا.. وكان الليل بارداً وعلى الرصيف طبقة خفيفة من الثلج. وقفت بنا السيارة أمام دار الدكتور كاتس حيث يسكن أبو فؤاد. فنزل أسعد ليضرب الجرس وبقيت أنا في السيارة انتظر.. ومرت دقيقتان أو ثلاث وأسعد ينتظر أمام الباب وفي تلك الاثناء أتى ثلاثة أشخاص فأوقفوا أسعد وأخذوا يتحادثون معه. فظننت أنهم يعرفونه ولم أهتم بالأمر ولكن في تلك اللحظة حصل ما ليس في

الحسبان. إذ ضرب أصغر هؤلاء الثلاثة أسعداً على رأسه بشنطة يدوية كان يحملها فتزحلق أسعد على الثلج وسقط على الرصيف من تأثير الضربة وحاول الاثنان الآخران ان يعتديا على أسعد ولكن عندما شاهدوني والسائق «فرانس» نترك السيارة ونسرع إلى نجدته ترددوا في الأمر... ولما سألناهم عن سبب هذا الاعتداء أخذ الضارب يصرخ ويدعي أن أسعد شتمه واتهمه بأنه يهودي وصار رفيقه أيضاً يسب ويشتم باليهود.. وعندما وجدوا أنفسهم أمام مشكلة لأن السيارة عليها رقم الهيئة السياسية وقعوا في حيرة وفروا هاربين ولكن تمكنا من الامساك بواحد منهم وكان سكراناً ومع ذلك كان قوياً حيث أننا نحن الثلاثة لم نستطع إلقاء القبض عليه.. فذهب السائق فرانس واتصل بالتلفون مع الشرطة.. وبقينا أنا وأسعد نكلم الرجل حتى يتأخر ويصل البوليس.. فأخذ السكران يقصّ علينا بأعلى صوته ما قام به من الشجاعة في الدردنيل مع الأتراك وأنه حصل على وسام تركي وأنه الآن ليس لديه ما يأكل بينما يتمتع الأجانب واليهود بخيرات بلاده.. ولم تمضِ إلّا دقائق معدودات حتى وصلت سيارة الشرطة مسرعة ووجهت «البروجكتور» (كاشف الضوء) علينا ثم وقفت جنبنا والقى الشرطي القبض على «بطل الدردنيل» وأخبرنا أنه ينتظرنا في مركز البوليس إذا أردنا أن نسجل شكوى. وكانت السرعة والدقة والكفاءة التي أبداها البوليس تستوجب التقدير.

ذهبنا إلى المحطة وودعنا جورج وفي طريق العودة مررنا بمركز الشرطة فأخذوا افادتنا وفهمنا من الدائرة أنها حصلت على اسماء وعناوين أصدقاء الرجل المشترك بالاعتداء وأنها ستقدم دعوى إلى المحكمة، وتبيّن أن الرجل الذي امسكناه هو نجار وكان في السابق ينتمي إلى الحزب الشيوعي بينما الآخرين كانا ينتسبان إلى الحزب النازي. وفي اليوم الثاني ذهب الشاب الذي ضرب أسعد يعتذر منه وكان جابياً عن الكهرباء لتلك المحلة واعترف بأنه كان يشرب البيرة مع زميليه في حانة صغيرة وكان حديثهم حول اليهود والتجار وهو أكبرهم سناً ثم أخذ يعيرهم بأنهم شباب لا يعرفون شيئاً عن الحرب وأنه هو قاتل في فرنسا وروسيا والدردنيل. فلما ترك الجماعة الحانة كانوا بأعلى درجة من الحماس وعندما شاهدوا أسعد وأنفه الكبير وشعره الأسود حسبوه يهودياً فلم يملك الشاب الصغير أعصابه فاعتدى عليه ثم جاءت زوجته تبكي وتعتذر لأن مثل هذا الاعتداء يؤدي إلى طرده من الحزب ومن الوظيفة فعفونا عنهم بعد ذلك، وأخبرنا البوليس بذلك. ولكن المحكمة لم تعف عن النجار، الشيوعي القديم ـ فبرأت ساحة الضارب وزميله بحجة السكر وحكمت على صاحبنا بطل الدردنيل بالسجن لمدة خمسة أشهر ولربما الدافع لذلك كان لأنه لا ينتمي إلى الحزب النازي مثل صاحبيه. وفي ذلك مثال للتعصب النازي والعدالة النازية...

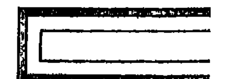
تبديل الوزارة

تبديل الوزارات في العراق أصبح من الأمور الاعتيادية ومع ذلك فقد فوجئنا ببرقية صباح يوم ٣٠ تشرين الأول/اكتوبر من وزارة الخارجية تعلن استقالة الوزارة الهاشمية وتخبرنا باسماء الوزراء الجدد. وقد سررت عندما قرأت اسماء كامل ويوسف إبراهيم وناجي الاصيل بين الوزراء الجدد وكنت اتأمل خيراً لما أعهده في هؤلاء من نزاهة ومتانة في الخلق والمبدأ، وكتبت لكامل مهنئاً ومغتبطاً وأعتقد أنني كتبت كلمة تهنئة إلى يوسف وناجي الاصيل أيضاً. أما الباقون فلم تكن بيني وبينهم معرفة قوية، ورئيس الوزراء حكمت سليمان بالرغم مما كنا نسمع عنه من النزاهة

والمقدرة لم أكن من المعجبين به يوماً ولا من الميالين إليه، ولذا كان لخبر تأليف الـوزارة الجديـدة لأول وهلة تأثير ممزوج بالاغتباط لمجيء كامل للعمل وبالأسف لاستبـدال ياسين بحكمت سليمان. وعلى كل قلنا عسى أن يكون في ذلك خير. ولكن عند المساء سمعنا بالراديو بأن الوزارة أجبرت على الاستقالة بمداخلة الجيش الذي أحتل بغداد ورمى القنابل على دوائر الحكومة.. فالقضية إذن لم تكن قضية تبديل بسيطة، وفي اليوم الثاني سمعنا بالراديو أن الهـاشمي ونوري السعيـد ورشيد عالي سُفروا إلى سورية مما زادني اضطراباً. وفي اليوم الثالث عندما سمعنا بتفـاصيل الحـوادث ومقتل جعفر باشا العسكري تبدل رأيي تماماً في الموضوع ونـدمت على كتـابة التهنئـة إلى كامـل ويوسف وناجي الاصيل، لأنني لم أكن أتأمل بأن يشترك هؤلاء بحكومة أتت بالقـوة وسببت قتل رجل محترم محبوب مثل جعفر باشا. وقد أسف الأمير زيد كثيراً على جعفر وتألمت أنـا أشد الألم من تلك الفاجعة. فهذا جعفر الذي قضى عمره في خدمة بلاده وشعبـه، والذي كسب قلـوب الناس واحترامهم، بلطف اخلاقه وحسن معشره يتم اغتياله بهذه الصورة القاسية وبهذا القـدر من قبل ضباط الجيش الذي كان هو أول مؤسس له! وجعفر بالرغم من بعض نقاطه الضعيفة كحبه للمال كـان بعلمه وفضلـه وشجاعتـه وكرم أخـلاقه يعـد من الرجـال المعدودين الـذين لا يمكن للعراق الاستغناء عنهم..

وبعد أن أنجلى الموقف وتبين الأمـر أصبحت بالطبـع من الناقمـين على الحكـومة الجـديدة، وكتبت إلى نوري السعيد إلى القاهرة وإلى ياسين الهاشمي بواسطة كامل الكيلاني في بيروت أعرب لهما عن أسفي لما حدث ومؤكداً لهما صداقتي وإخلاصي.. أما صديقي كامل الجادرجي فلم يجب على كتابي ولكنه أخبر أخي إبراهيم بأنـه يأسف لعـدم الكتابـة إليَّ لأنني لم أزل أعتقد بصـلاح ياسين الهاشمي. وساءني كثيـراً أن أرى كامـل بهذه الـدرجة من التعصب وضيق الصـدر وأنه يقـاطعني لأنني لم أزل أعتقد بيـاسين خيـراً. وأسفت لأن السياسـة تدهـورت إلى دركـة واطيـة وقضت على الصداقات والصلات الشخصية والوفـاء.. ولا يجهل أحـد فضل يـاسين عـلى كامـل وعطفـه عليه كمـا أنه لا يجهـل أحد خـدمات يـاسين لبـلاده وأمته ولكن قـاتل اللـه السيـاسـة والاغراض الشخصية.

ولم تزدني نكبة ياسين الا مودة وحرمة له وقد أنستني تماماً الجروح الشخصية القديمة.



الخطبة والزواج

بعد أن فشلت قضية الزواج مع نعمت الهاشمي ومن بعدها مع هالة الجابري ظننت أن المشكلة قد انتهت تماماً ولم أعد أفكر وصرت اتمسك بحياة العزوبة وحرياتها أكثر من قبل. ولكن عندما رجعت إلى بغداد بعد وفاة والدي أخبرني إبراهيم وصيون وعماتي أن والدي أوصى قبل وفاته بلزوم زواجي فقلت لا بأس وتركت الأمر للصدف.

ولما تركت بغداد رأيت في المحطة بين النساء اللآتي أتين لتوديع عائلة كامل الكيلاني فتاة لها عينان جميلتان ولها من وراء الحجاب ملامح جميلة. وبعد أن تحرك القطار وبقيت مع كامل لوحدي استفسرت عن تلك الفتاة فعلمت أنها «فضّول» بنت محمد باشا الداغستاني وكانت هذه أحدى الفتيات التي دار الحديث بشأنها أيام الخطوبات سنة ١٩٣٣ وقبل القرار حول نعمت.. وطلبت من كامل أن يسأل زوجته أو ممن يعرف من عائلتها عن الوضع بالنسبة لهذه الفتاة وفيما إذا كانت هناك رغبة أو مانع بطلب يدها، وطلبت من كامل أن يبقي الأمر مكتوماً ويكون الاستفسار وكأنه آت من طرفه فوعد بذلك.. وبعد شهر أو شهرين جاءتني برقية إلى برلين من توفيق السعدون يذكر فيها أن «فضيلة موافقة أبرقوا سفركم إلى استانبول» .فاستغربت كثيراً من أن تتطور المسألة بهذا الشكل وتبين أن كامل قد اساء التصرف وتوفيق السعدون زاد في الاساءة بهذه المفاجأة.

وكنت قد تحادثت مع صائب وزوجته في الأمر عندما أتيا إلى برلين وسمعت منهما كل ما يمكن أن يبعدني وينفرني عن فضيلة.. أنها جاهلة بتراء ومتعجرفة و... و... و... فالآن أصبحت في حيرة أمام هذه البرقية واكتفيت بأرسال كتاب متملصاً من الأمر وأني اسف لهذه «الخربطة» غير المقصودة... وأخذت زوجة صائب تمدح وتثني على ابنة منّير بك التي يكون صائب خالها فكتبت إلى إبراهيم مستفسراً واتصل إبراهيم بمن يلزم وشاع الأمر في بغداد قبل أن أقرر. وهكذا زاد عدد «الخطيبات» وتضاعفت الشائعات، وكان لترددي ولعدم رغبتي الحقيقية في الزواج السبب الأكبر في هذه الخرابيط.. وكان تخلصي من شرك الزواج لأتفه الأسباب أقوى من إقدامي عليه في بادىء الأمر، وفي تلك الأيام وأنا بين التردد والإقدام تمكنت صلة التعارف بيني وبين وداد بنت عبد الكريم السباعي وكان أصدقاؤنا كالأميرة فخر النساء ومدام خوري ومدام كاتس يشجعنني ويسعين للتقارب بيننا.. وصرت أسمع منهن كثيراً من المدح والثناء على وداد وأصبحنا نلتقي كثيراً في الدعوات وأخذ أصدقاؤنا ينظرون إلينا نظرة «الخاطبين» قبل أن يفاتح أحدنا الآخر بالموضوع. أما أنا فكنت على حذر وحيطة لا سيما بعد كل تلك المحاولات الفاشلة ولكني كنت أشعر بأن الصداقة أخذت تنقلب إلى مودة متبادلة لا سيما بعد حادث «الاوتوموبيل» عندما أخذت وداد تسوق وكنت جالساً إلى جنبها فصعدت السيارة فوق الرصيف وكدنا نسقط في هاوية لولا رحمة الله. وشعرت بالمحبة عندما رقصنا لأول مرة في أوتيل ايدن ليلة رأس السنة وعلمت أن النصيب أخذ يدبر الأمر فتركته يعمل ما يريد. وأنا عائم بين الرغبة في الزواج وحرية الانفراد...

بين الخير والشر

كانت الأخبار التي تردنا حول الحكومة الجديدة في بغداد كلها مقلقة ومؤسفة، ففي الأشهر الأولى من السنة الجديدة حضر عدد من العراقيين إلى برلين وأخذوا يقصون علينا قصصاً مؤلمة عن تصرفات الحكومة ودكتاتورية بكر صدقي بطل الانقلاب والحاكم المطلق واعتداءاته وسفاهاته... وأخبرنا عبد الرزاق الشيخلي وسامي النقشلي **وقدري الارضروملي** بأن الفوضى ضاربة اطنابها وأن حكمت والوزراء هم عبارة عن خدام ينفذون أوامر بكر صدقي الذي أحاط نفسه بشلة من الضباط الانتهازيين السفهاء وأخبرونا باغتيال ضياء يونس ومحاولة اغتيال مولود مخلص وغير ذلك.. مما يغم القلب ويضيق الصدر ويحرق الفؤاد. وإلى جانب هذه الوساوس التي كانت تصلنا من بغداد من حين إلى آخر كنا نحن في برلين مبسوطين ومرتاحين من جميع الوجوه وكانت الحفلات والولائم في الهيئة الدبلوماسية على قدم وساق.. فتعرفت على كثير من الناس بهذه الواسطة من رجال ونساء واستمتعت بكل ما توفره الحياة الدبلوماسية من تغير وتجدد وبسط وانشراح.

سافر الأمير زيد بالطائرة إلى بغداد لقضاء بعض مصالحه الخاصة في ٢٦ آذار/مارس ١٩٣٧ وسافرنا نحن في نفس اليوم بسيارتين إلى هارتنربورك وكنا: «الأميرة مع ولديها وعبد الكريم السباعي وأبنته وداد، أسعد وجورج وأنا. فقضينا ثلاثة أيام لذيذة في الهارتز زرنا خلالها كوسلار وفيرنيكه روده» وعدنا إلى برلين في ٣٠ آذار/مارس عن طريق «براونشايك. فكانت الأيام كلها نشاطاً وفرحاً واطمئناناً. ولكن الشر عندما يأتي يفاجئك على حين غرة وبوقت غير منتظر. ففي اليوم السابع من نيسان/ابريل وصلتنا برقية من الخارجية في بغداد تطلب مني الحضور حالاً بالطائرة للتداول معي بأمور هامة. وتسليم المفوضية إلى كامل الكيلاني.. لم أرتح لهذه البرقية. أولاً، لم يكن لدينا أمور هامة تستوجب المداولة معي. وثانياً، إذا كان هناك شيء من ذلك فالأمير زيد وهو رئيس الدائرة موجود في بغداد. وثالثاً أن تسليم المفوضية إلى كامل الكيلاني يعني ان «المداولة» ستكون طويلة..

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن أخبار بغداد ودعوة الخارجية لعبد القادر الكيلاني من مصر قبل مدّة لمجرد التهمة بأنه أتصل بنوري السعيد وغير ذلك من الحوادث، جعلتني في ريبة من أمر هذه البرقية. ففكرت بالأمر وأبرقت جواباً قلت فيه: انني لا أستطيع السفر بالطائرة وأفضل القطار وطلبت من الخارجية أن تخبرني ما هو «الأمر الهام» حتى أحمل معي الوثائق المتعلقة به. وأتى الجواب في اليوم التالي بموافقة الخارجية على السفر بالقطار ولم تذكر شيئاً حول «الأمر الهام» والوثائق. وهذا لم يزدني إلّا ريبةً وحذراً. فالمسألة إذن لم تكن مستعجلة بشكل يستلزم السفر بالطائرة.. ثم لماذا كل هذا التكتم حول الموضوع؟ صرت أفكر وأعيد التفكير دون أن اهتدي إلى حل لذلك السر! وأبرقت إلى الأمير زيد أخبره بتعليمات الخارجية سائلاً رأيه في الموضوع فأتاني جوابه ناشفاً مختصراً: «اتبعوا أوامر وزارة الخارجية». ثم أبرقت إلى إبراهيم لكي يتصل بالوزارة ويخبرني عن المدّة التي سأبقى فيها ببغداد لأرتب أموري بموجبها فأتاني جواب إبراهيم بكلمة واحد: «شهراً واحداً». كل هذه الأجوبة المختصرة جعلتني أعتقد أعتقاداً جازماً بأن القضية ليست اعتيادية تتعلق بالمداولة ببعض الأمور الهامة كما تدعي

الخارجية فهناك ولا شك أمر آخر! ولكن ما هو هذا الأمر؟ وكيف أقف على حقيقته؟

وصل كامل الكيلاني برلين في ١١ نيسان/ابريل مساءً وهو لا يعرف شيئاً عن استدعائي إلى بغداد وأخذ يتردد مثلي حول الموضوع فتارةً يحبذ ذهابي إلى بغداد وأخرى يحذرني من تصرفات الجماعة في بغداد وقصّ عليَّ ما عمله حكمت سليمان بأخيه رشيد عالي وبابن أخيه جزمي.. وكان بعض العراقيين الذين سمعوا بالأمر أيضاً يحذرونني من الذهاب.وأتاني عمر يوماً يتوسل بأن لا اذهب إلى بغداد وأترك الوظيفة عند اللزوم وأتت «هلكا» صديقتي تخبرني بأنها رأت حلماً.. رأتني جالساً في القطار وأتى بعض الجنود المسلحين والقوا القبض عليَّ. أما أنا فقلبياً لم أكن مرتاحاً من السفر والوضعية كانت غير طبيعية، غير أنني لم أقم بأي عمل مضر أو بأية مخالفة فكنت من هذه الجهة مطمئن البال ومع ذلك كنت عالماً بأن الفوضى في بغداد هي الحاكمة.. وقلت في نفسي أن الأمر الوحيد المحتمل هو أن الحكومة اطلعت بشكل من الأشكال على مخابرتي مع نوري السعيد وياسين الهاشمي فغضبت عليَّ والآن تريد أن تلومني وتتفاهم معي حول وضعي تجاه خصوم الوزارة. فإذا كان الأمر من هذا القبيل دعهم يعملون ما يشاؤون. ثم لو كان هناك نية سيئة لما أبرق لي الأمير زيد بلزوم اتباع أوامر الوزارة.. ولِمَ أخشى الحكومة وأنا لم اقترف ذنباً؟ وإذا رفضت السفر إلى بغداد لعلهم يعتقدون أنني خائف منهم. فإذن، يجب أن أذهب وأرى ما عندهم.. فإذا طلبوا مني شروطاً لا توافقني أستقيل... وقد يكون من الأوفق أن استقيل الآن وأخلص من عناء السفر ومقابلة من لا أرغب في مقابلته وأبقى في برلين بعيداً عن جو بغداد وهذه الحكومة القراقوشية! ولكن ماذا سيقول الناس؟ سيقول الناس أنني خفت من الحكومة! مثل هذه الأفكار كانت تطاردني في كل تلك الأيام. وفي الآخير قررت السفر وقلبي غير مطمئن وتركت برلين في ١٤ نيسان/ ابريل إنما بين التفاؤل والتشاؤم وبين الخير والشر. ولم أتأخر في استانبول للاستراحة حسب عادتي بل انتقلت حالاً من قطار الشرق إلى قطار طوروس كي لا أتأخر وأترك الوزارة في بغداد تنتظر وصولي للمداولة حول الأمور الهامة!

أنا والجنرال فرانكو

في القطار تعرفت إلى فتاة المانية اسمها فرولاين كارمن بون وهي بنت القنصل الألماني في تبريز وكانت في طريقها إلى تلك البلد. فقضيت في القطار معها يومين طيبين وكانت تعرف بعض اصدقائي ومنهم فرولاين مايسنر وأمها وأبيها وجماعة أخرى من موظفي الخارجية. وكان أبو الفتاة هذه قبلاً قنصلاً في مدريد وعندما كانوا هناك أحبت ضابطاً من جماعة فرانكو ولكن أهلها لم يوافقوا على زواجها منه فأرسلوها إلى مراكش والجزائر وساقنا مثل هذا الحديث إلى السياسة ووضع فرانكو والشيوعيين في اسبانيا وكانت هي بالطبع من انصار فرانكو وكنت أنا بالطبع من خصومه ومعارضاً للدكتاتورية بصورة عامة، وهكذا انقضى اليومان «بالفلرت» (المداعبة) وأحاديث السياسة.

وصلنا إلى الموصل في ١٨ نيسان/ابريل ١٩٣٦ حوالي الساعة الثانية بعد الظهر وذهبنا إلى دار الاستراحة «الرست هاوز» لنتغدى ونقضي الليلة هناك ونسافر صباح اليوم التالي إلى كركوك. وبينما كنا نتناول الغداء في «الرست هاوز» فرولاين بون وأنا اخبرني أحد الخدم بأن مدير الشرطة يريد مقابلتي وأنه ينتظرني في الصالون.. ظننت أنه أتى ليسلّم عليَّ ولربما عنده شغلة

يرجو قضاءها بواسطتي فذهبت وقابلته ولم أكن أعرفه من قبل فأخبرني بأن اسمه درويش وأنه يعرف والدي من العمارة ثم قال أنه يرغب أن يكلمني في موضوع خاص. قلت له تفضل قال: أنه يرجو أن أذهب معه للدائرة ويكلمني هناك.. قلت لا بأس ولكن بعد أن أكمل غدائي فقال! تفضل!

لم تعجبني هذه المقابلة ولماذا لا يتكلم مدير الشرطة هنا ويطلب أن أذهب معه إلى دائرته؟ ثم عند وصولي طلبت الاتصال تلفونياً بإبراهيم في بغداد فأخبرت بأن لا جواب من بغداد. وهذه أيضاً ظاهرة غريبة.

مع ذلك أكملت الطعام واستأذنت من فرولاين كارمن بون وعدت إلى مدير الشرطة الذي كان بانتظاري. فركبنا سيارة وذهبنا إلى دائرة الشرطة وعندما جلسنا طلب مني جواز سفري ثم قال أنه آسف ولكن أخذ أمراً من بغداد بتوقيفي. وأنه يجهل الأسباب.. قلت دعني أتصل بالمتصرف أو بوزير الداخلية فلم يوافق. وقال أن هذه الأوامر أتت تليفونياً من رئيس الوزراء حكمت بك.. ومهما حاولت معرفة الأسباب والاتصال بالحكومة لم أتمكن. وقعت في حيرة من أمري.. وتذكرت في تلك اللحظة كلام عمر وحلم هلكا..

وضعوني في غرفة وأتوا لي بسرير ثم أتوا بحقائبي من الفندق وأوقفوا حارساً مسلحاً على باب الغرفة.. ذكرني هذا «خان دله» حيث حبسني الإنكليز سنة ١٩١٧ أي قبل عشرين عاماً: حراس وحراب وكتمان وأسرار؟ ليت شعري ماذا حصل وما هي الأسباب.. ووضعوا سريراً آخراً في الغرفة لمفوض سرّي اسمه خليل وكان هذا رجلاً طيباً من مسيحيي الموصل فأكد لي هذا وأقسم بأنه يجهل الأسباب وأخذ يسليني قائلاً بأنهم في هذه الأيام أخذوا يعاملون هكذا جميع الرجال البارزين القادمين من الخارج.. كلام فارغ!

في المساء احضروا لي طعاماً من الفندق فلم أستطع أن أذوق شيئاً وحمل لي خليل «كليجة» من بيته فشكرته وأخذ يكسر قطعة يأكل منها ويناولني ما تبقى كأنما يقصد بذلك تطميني بأن لا خوف عليّ إذا أكلت منها وكانت تصرفات خليل هذه تزيد من قلقي وإن كان هو يقصد تخفيف اضطرابي! وسألني أثناء الحديث فيما إذا كنت أعرف زوجة بكر صدقي.. فاستغربت هذا السؤال ولم أفهم المقصود.. قلت «لا، لا اعرفها» قال «هي المانية. نمساوية من فيينا.. كانت أرتيست في بغداد فأحبها الباشا وتزوج منها..».

لماذا يسألني خليل هذا السؤال؟ صرت أضرب أخماساً بأسداس! ربما هذا سبب استدعائي! ربما هذه الارتيست أعرفها من قبل، فالآن وقد أصبحت زوجة الدكتاتور ربما أخبرت زوجها بما مضى فهاج وماج.! ولكن هذه خرافة.. وأنني لم أتذكر علاقة مع ارتيست نمساوية! لا، هذا لا يمكن، واقرب الاحتمالات هو ان الحكومة اكتشفت مؤامرة ولربما زج أحد أبناء الحلال من خصومي اسمي بين الاسماء.. وقد يكون أن الحكومة اطلعت على مخابراتي مع ياسين الهاشمي ونوري السعيد فتمسكت بها كحجة ضدي.. وإلّا فما معنى هذه الشدّة وهذا الحرس وهذه الحراب!

تركوا النور الكهربائي مولعاً طوال الليل ونام خليل وبقي الحارس ينظر إليّ من الشباك من

حين لآخر ليرى ما أعمل.. حاولت أن أنـام فلم أستطع.. كـانت الأفكار السـوداء تأتيني من كـل جهة وكنت أشعر بالندم لأنني لم أطـع حسّ قلبي فلم أرفض المجيء إلى بغداد! قضيت ليلـة من أتعس ليالي الحياة، وكان منبع العذاب هو الجهل التام بأسباب التـوقيف والكتمان العميق الـذي يحيط به.

في اليوم الثاني عند الفجر، دخلت ساحة السراي سيارتان وأمروني بالسفر.. وعندما سألتهم إلى أين قـالوا: «لا نعلم». أسرار في أسرار! كنت أشعـر بتعب شديـد وحـرارة فطلبت طبيبـاً فلم يوافقوا. وكان المفوض واسمه «محمود فوزي» ناشفاً.. ساكناً.. وضعوا حقـائبي في سيارة وجلس جانبي المفوض وجلس عريف جنب السائق. وركب عدد من الشرطة في السيـارة الثانيـة وسافـرنا إلى حيث لا أدري! عبرنا الجسر، فوجدت هناك سيارة مدرعة تنتظـرنا وأخـذت تسير أمـامنا وهي تحمل رشاشاً وعدداً من جنود الشرطة.. فزادني هذا المنظر قلقاً واضطـراباً... مـدرعة ورشـاش وجنود أمامنا.. وسيارة وجنود خلفنا.. ومفوض وعريف مسلحان معي.. فلو كنت أشقى الأشقياء لما نلت أكثر من هذا الاحتياط... صرنا نسير على الطريق المبلط الذي مررت به قبل سنة مع كـامل وحكمت سليمان فعرفت أننا متوجهين إلى كركوك.. فسلمت أمرى لله وبقيت ساكتاً حائـراً... بعد أن ابتعدنا لمدّة ساعة من الموصل تركت السيارة المصفحة الطريق المبلط إلى اليمين وتوجهت نحو الصحراء فاتبعتها سيارتنا ولحقت بنا السيارة الثالثة. هنا شعرت بالخوف وتذكرت حادثة اغتيال جعفر باشا وكيف أنهم أخذوه بسيارة إلى الصحراء وفتكـوا به.. أخـذ قلبي يدق بسرعـة وصرت أحس بألم وحزن عميقين وشعور لا يعلم إلّا من يواجهه الموت. نعم هذه ستكـون النهايـة فهؤلاء الظالمون سيغتالوني في وسط الصحراء بحجة أنني حـاولت الهروب.. ومن سيحـاسب هؤلاء؟ من حاسب قتلة جعفر وضياء يونس والمعتدين على مولود مخلص؟

أتتني كل هذه الهواجس بسرعة البرق.. وربما لاحظ المفوض اضطرابي فقال: «هذا الطـريق مقطوع فيجب أن ندور دورة ونـرجع إليـه».. لم أسمع في حيـاتي كلمات الـذّ وأطيب من هذه!.. بقيت ساكتاً ومحاولاً إخفاء ما كنت أشعر به. وزاد المفوض محمـود فوزي في تطمينـه مقدمـاً إليّ سيكارة فشكرته عليها.. وأنا بين مصدق ومكذب لما قال. وبعد مدّة من العـذاب الدفـين الصامت رأيت «المصفحة». تعرج إلى اليمين وعدنا إلى الطريق المبلطة... إذن ليس هناك قضية اغتيال وفي هذا شيء من السلوى!

وصلنا كركوك عند الظهر وذهبنا بالطبع رأساً إلى دائرة الشرطة. وهناك لم يكـونوا عـلى علم بقدومنا ولـذا تعجب المفوض حسـين فريـد من حضوري وسط ذلـك المهرجـان فأتى وصـافحني وأجلسني في غرفته ثم اتى مدير الشرطة محمود شكري وهو أيضـاً من أصدقـائنا وأظهـر أسفه وأكد بأنه لا علم له بأي شيء من كل هذا. وأتصل حسين فريد بإبـراهيم الشابنـدر وكان إذ ذاك حاكماً في كركوك وأخبرني بأنه ليس هنالك من يعلم بهذه القضيـة وأسبابهـا. وضعوني في دائـرة الشرطة في غرفة للاستراحة. فحلقت ذقني وغسلت وتمددت وبقيت أفكر في هذه الأسرار.. وتذكرت أن في «شنطتي» بين أوراقي مكاتيب لكامل فأخذتها ومزقتهـا ورميتها في المـرحاض خـوفاً من أن تسبب إزعاجاً لكـامل لأن في تلـك المكاتيب القـديمة آراء سيـاسية وانتقـادات لبعض الاشخاص والأطوار. فرأيت من الاوفق لمصلحة كامل أن لا تقع هذه بين أيدي المفتشين المدققين!

عند المساء أتى حسين فريد وكان متأثراً فأخذني إلى السطح وهنالك جلسنا ومعنا المفوض محمود فوزي وبعد أن شربنا كأساً أتوا لنا بعشاء فأكلت شيئاً ثم ركبنا السيارات وتوجهنا إلى المحطة لنأخذ قطار بغداد. عندما أتى القطار ذهبت إلى محلنا أمشي بين حسين فريد ومحمود فوزي وخلفي عدد من أفراد الشرطة ورأيت في إحدى نوافذ العربات فرولاين كارمن بون، رفيقة السفر من استانبول إلى الموصل.. فخجلت من أن تراني بهذا الشكل، فتظاهرت بأنني لم أرها وكان هنالك في القطار نعيم ابن ساسون مراد فلما رآني أخذ يقرأ الجريدة وما أدري ماذا كان يعمل نعيم هناك. لأنني وجدته في «الرست هاوز» عندما وصلنا الموصل وهو الآن في القطار. ذهبنا إلى قاطرة من الدرجة الثالثة فدخلت مع المفوض ودخل بعدنا الجنود واغلقوا الباب وتحرك بنا القطار نحو بغداد. كان التعب قد أخذ مني مأخذه لهذين اليومين ولم تمنعني صلابة المقاعد الخشبية وعدم وجود فراش من النوم وإن كان ذلك نوماً متقطعاً مضطرباً...

عند الفجر وصلنا ضواحي بغداد، وأنا متألم من النوم فوق الخشب وبدون غطاء. المفوض محمود فوزي والجنود كلهم عدا الحارس كانوا نائمين على الأسرة ويغطون رؤوسهم بمعاطفهم.. والشبابيك كلها مقفلة.. منظر عجيب وحالة غريبة.. وبعد قليل وصلنا محطة باب الشيخ وعندما فتحت الشباك ونظرت إلى الخارج وجدت محمد ومصطفى عاصم المحامي على الرصيف البعيد.. كان مصطفى عاصم يؤشر بيده متسائلاً فلم أفهم ما كان قصده.. وإبراهيم لم يكن معهما.. لماذا يا ترى؟. هل هو أيضاً موقوف؟.. في الموصل لم أستطع أن أكلمه بالتلفون والآن يأتي محمد ومصطفى عاصم إلى المحطة وإبراهيم لا يحضر! استولت عليَّ موجة من الكآبة والقلق.. ماذا جرى؟ ماذا حصل؟..

تحرك القطار بعد بضعة دقائق.. فوصلنا إلى محطة شمال بغداد. وهناك رأيت إبراهيم وصيون بانتظاري.. ولم يسمح لهم بالاتصال بي والتحدث إليَّ.. ركبنا سيارة وتوجهنا إلى دائرة الشرطة فنقلوني هناك إلى غرفة صغيرة مظلمة... وبقيت أنتظر..

وجود إبراهيم في المحطة شجعني قليلاً. إذن ليس هنالك إلّا أمر يتعلق بشخصي.. وسنرى ما هو ذلك الأمر حيث كنت على أحر من الجمر بانتظار معرفة القضية. أتى مدير شرطة بغداد عبدالله عوني وهو من أصدقائنا منذ أيام الاحتلال في الاعظمية.. أتى يسأل عن صحتي وراحتي فسألته عما يجري.. وعن أسباب توقيفي وهذه المعاملة قال: «مسألة فرانكو»! قلت وقد أخذ العجب والاستغراب فيَّ مأخذه «أي مسألة وأي فرانكو؟» قال: «ألا تعلم... بقضية إرسال السلاح إلى فرانكو». قلت: «والله لا أعلم ولم أسمع بوجود مثل هذه القضية إلّا الآن»، وظننت أن عبدالله عوني بهذه الوسيلة يريد إخفاء حقيقة الأمر وأن هنالك أمراً آخر... «قلت أرجوك قل لي الحقيقة. فما لنا نحن وفرانكو.. قل لي بالله عليك الصدق» فأقسم عبدالله عوني بأن ليس هناك سوى هذه القضية وأنني متهم بارسال أسلحة إلى فرانكو... فلما سمعت بذلك هدأت اعصابي المتوترة وشعرت بارتياح يغمر كل جسمي، ولأول مرّة منذ ثلاثة أيام شعرت بالجوع وطلبت من عبدالله أن يرسل لي الشاي وبعض الأكل.. فشربت وأكلت وحمدت الله. حمدت الله على أنه لا يوجد ضدي تهمة حقيقية. وقضية فرانكو هذه لا بد ستنجلي. على أن في هذه التهمة مهزلة غريبة من مهازل القدر.! فأنا من دون الناس أتهم بإرسال أسلحة إلى فرانكو! فرانكو هذا الذي كنت

دائماً أهاجمه وانتقد نظامه.. فكم وكم من مرّة وصل الجدال بيني وبين مؤيديه إلى درجة الزعل.

أذكر جيداً ما وقع بيني وبين مدام كاتس في برلين حول فرانكو وموسوليني وأذكر مناسبات أخرى مثلها... وقبل بضعة أيام فقط في القطار دار نفس الحديث بيني وبين فرولاين كارمن.. ولم أذكر يوماً في حياتي أنني دافعت عن فرانكو أو حبذت أعماله.. وشاء القدر الآن، أن أتهم بارسال الأسلحة إليه.. لك يا ربي حكمة في كل هذا!

أمام حاكم التحقيق

ولما حان وقت الدوام أتاني مفوض أو معاون. وأخذني إلى دائرة حاكم التحقيق... قطعت المسافة ما بين مديرية الشرطة العامة جانب السراي ودائرة العدلية ماشياً وكان المفوض يرافقني. والمسافة لا تتجاوز الخمس دقائق ولكن في تلك الوضعية وتلك الحالة كانت تظهر لي بأنها لا تنقضي. أنا موسى الشابندر أذهب كمتهم مخفوراً إلى دائرة التحقيق. وبأي شيء متهم؟ بارسال أسلحة إلى اسبانيا.. إلى الجنرال فرانكو. إن الحالة كانت في نظري أقرب إلى حلم مزعج منها إلى الحقيقة الواقعة. مشيت وكنت أشعر بأن الناس كانت تنظر إليَّ بين آسف ومتألم، ولربما هنالك بعض الشامتين بينهم.. وصلنا دائرة العدلية وأدخلت إلى غرفة حاكم التحقيق. ومن أجد أمامي؟ أمامي عباس مظفر.. عباس صديقي منذ أيام الصبا والشباب، زميلي في المدرسة وفي اللعب في البيت.. عباس الذي تربطني وإياه علاقات منذ الصغر.. عباس الذي كنت أحبه ويحبني.

فرحت لأن يكون عباس هو حاكم التحقيق ومع ذلك وبالرغم من خطورة الموقف وحراجته أوشكت ان أنفجر ضحكاً من هذه الصدف. أنا متهم بمساعدة فرانكو.. و«عبوسي» حاكم التحقيق في هذه القضية!

استقبلني عباس مظفر بحرارة وأجلسني إلى جانبه وأمر لي بالشاي والقهوة وعاملني معاملة أخوية لا أنساها.. ثم دخلنا الموضوع الجدي وبدأ التحقيق وأخذ المفوض يكتب وعباس يسأل وأنا أجيب..

افتتح حاكم التحقيق الحديث قائلاً بأن القضية مهمة جداً وأن السفارة البريطانية أخبرت الحكومة العراقية بقضية شراء أسلحة من الدانمارك من قبل المفوضية العراقية في برلين وارسالها إلى اسبانيا. فلما تأكد عباس بأنه لا يوجد مثل هذا الشيء وأني لا أعلم به ظهرت على وجهه امارات الارتياح والسرور ثم ذهب وأتى بالمدعي العام عبد الرزاق الازري واستمر الاستنطاق أمامه.

سألتهم على أي شيء يستندون بتوجيه هذه التهمة إليّ.. فأبرزوا صورة ترجمة كتاب يزعم أنه صادر عن المفوضية مفاده أن الأسلحة المشتراة من المحل الفلاني في الدانمارك تعود إلى الحكومة العراقية.. وقد آثار انتباهي كون الكتاب بدون توقيع وأنه مؤرخ في ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ومرقماً ٣٤٥. قلت ان هذا الكتاب بلا شك مزور. لأن أرقام التسلسل في المفوضية في تشرين الثاني/نوفمبر تتجاوز الألف وهذا الكتاب يحمل رقم ٣٤٥ وطلبت من المدعي العام أن يبرق إلى المفوضية في برلين ويسأل عن مضمون كتابنا رقم ٣٤٥.. ثم قلت للحاكم وللمدعي العام أن هذه الصورة من الكتاب بدون توقيع فلماذا أكون أنا المتهم وبعد تفصيلات طويلة عريضة

حصلت القناعة عند عباس أنني كنت ضحية استعجال وسوء تدبير وقد تكون هنالك اساءة مقصودة...

وبعد انتهاء التحقيق معي تركنا المدعي العام فطلبت مقابلة وزير الخارجية لأحدثه في ذلك الموضوع وأتصل عباس بناجي الأصيل وزير الخارجية ولكن هذا الأخير لم يوافق على اقتراحي.. فوعدني عباس بأنه سيبذل جهده ويقابل من يلزم لاطلاق سراحي بالكفالة فتركته شاكراً ومرتاحاً، وفي نفس الوقت ناقماً على سوء تدبير الحكومة في معالجة القضية بهذا الشكل الأفلج...

قضيت بقية النهار في دائرة الشرطة وأتاني إبراهيم ومحمد ومصطفى عاصم وبعض الاصدقاء وسروا كثيراً من عدم وجود أية صلة لي بهذه القصة الغريبة. وفهمت منهم أن عبد العزيز المظفر الذي كان قائماً بأعمال مفوضية باريس أيضاً اتهم بارسال أسلحة إلى اسبانيا وأنه اعترف بذلك.. فارتحت لهذه الخبرية لأنها ستجلي الموقف وصرت أعتقد أن الذين قاموا بتلك الجريمة هم دبروا قضية برلين أيضاً..

في اليوم الثاني في ٢٢ نيسان/ابريل ١٩٣٧ اصبحت مريضاً فأتى كل من الدكتور صاموئيل والدكتور سندرسن وفحصاني وارسلت مساء ذلك اليوم نفسه إلى المستشفى الملكي ووضعوا الحراس من الشرطة أمام غرفتي وسمحوا لإبراهيم وأقاربي وبعض الاصدقاء بزيارتي. وآتاني من جملتهم بهجت زينل فأخبرني بأن الحكومة نقلت عباس مظفر إلى علي الغربي ولا شك أن السبب لهذا النقل المفاجيء كان اقتراحه باخلاء سبيلي بالكفالة لعدم وجود دليل يستوجب تمديد التوقيف.

أسفت بأن ينال عباس ضرراً في سبيلي وسبيل الحق وأيقنت حيئنذٍ بأن الحكومة لا تقصد كشف الحقيقة لا سيما وأن تصريح رئيس الوزراء في المجلس النيابي متهماً اياي بصورة قطعية قبل إكمال التحقيق وحكم المحكمة كان اعتداءً صريحاً يكشف تعمد حكمت سليمان الاساءة إليَّ... فالمسألة إذن ليست إلّا حجة ووسيلة للانتقام والتشفي...

بقيت يومين في المستشفى في القسم الخاص ولكن يظهر أن ذلك لم يعجب حكمت سليمان فأمر بنقلي إلى الجناح المخصص للسجناء والموقوفين في المستشفى وهناك بواسطة الدكتور صائب أخلوا لي غرفة الدكتور عبد الحميد شلاش وكان هذا الأخير من المتألمين والمساعدين..

هناك أتى السّجان يحمل زنجيلاً (سلسلة) وقال أنه أخذ أمراً بربط رجلي في السرير.. فصعد الدم إلى رأسي وأخذت أسب وأشتم السّجان ومن أرسله!

إن الظلم والاعتداء له حدود ولكن يظهر أن حكمت وجماعته لا يعرفون مثل ذلك الحد.. فأنا متهم بغير حق وموقوف بلا مبرر قانوني ومع ذلك أسجن في جناح السجناء، وفوق ذلك يأتي هذا الصعلوك ليربط رجلي بالسرير.. فكان هذا فوق ما أستطيع تحمله! لكن لحكمت سليمان رأي خاص بالموضوع.

وفي اليوم الثاني أمر بارسالي إلى مستشفى السجن وعبثاً حاول الدكتور صائب اقناعه بابقائي في مكاني وأخبرني أن حكمت هدده قائلاً إذا لم ترسلوه إلى السجن فاني أبعث جنوداً يأخذونه لهناك... ولذا نقلوني ليلاً إلى مستشفى السجن.. ليشفي حكمت سليمان غليله!

في سجن بغداد

أراد حكمت سليمان أن يظهر مظهر الحاكم بأمره فتصرف كيفما يريد ضارباً بعرض الحائط العدالة والكرامة والحق والانصاف. أمر شخصياً بنقلي إلى مستشفى السجن وهدد الدكتور صائب.. ونقل عباس مظفر ثاني يوم التحقيق لأنه قال الحق وحاول اخلاء سبيلي وصرح بالمجلس النيابي بأنني ارتكبت تلك الجريمة قبل التحقيق ودرس القضية ومدد التوقيف ثم مدده وإن لم تكن لدى الحكومة أدلة تبرر ذلك..

وقد اثبت حكمت سليمان بهذه الاعمال ليس سخافته فحسب، بل اعلن للملأ صغر نفسه وضيق صدره.. وقال لي صالح جبر بعد مرور ذلك الدور السقيم أن حكمت حقود مثل البعير وقد صدق في هذا التشبيه وقد امتزج الحقد والصقاعة في الرجل فضيّع الموازنة وتشبّه «بنيرون» ونسي أنه كان خادماً مطيعاً لبكر صدقي. وكان حكمت سليمان حاقداً لامرين الأول أنه كان زعلاناً مع والدي وإبراهيم لأنهما طالباه بدين عليه لوالدي.. فغضب البك وشد العداوة لنا لأننا طالبناه بحق، والأمر الثاني هو على ما أعتقد قضية الخطبة مع فضيلة الداغستاني أخت زوجته كما مرّ ذكره، ولكن مثل هذه الأمور لا تستوجب الانتقام عند الرجل الشريف ولكن أبت نفس حكمت إلّا أن تثبت نفسها أنها «كوله منديه.. وأنها نازلة من صعاليك الأرض».

ذهبت ليلاً إلى السجن وكان أخي إبراهيم يرافقني.. فتحوا الباب وأدخلوني. وجدت هناك الدكتور عزت الميداني طبيب السجن ينتظرني بعد ان أرسلت إليه الأوامر لاستلامي في تلك الساعة المتأخرة.. عاملني الدكتور عزت الميداني معاملة طبية وقام بكل ما يمكن عمله لتأمين استراحتي.. وأوصى المضمدين والخدم أن يعتنوا بي..

ومستشفى السجن هو عبارة عن غرفة كبيرة مستطيلة تسع ٢٤ سريراً يفصلها عن بناية السجن ساحة واسعة محاطة بمعامل السجون كالحياكة والخياطة والنجارة. كنت أبقى طوال النهار في السرير ومساءً اخرج إلى الساحة لأتمشى قليلاً وأجلس مع إبراهيم عندما يأتي لزيارتي أو بعض ضباط السجن وكان بينهم حسن الآلوسي وعبد الرحمن شبيب أبو عبد الرزاق شبيب. وكانت الأيام تمر وأنا بتلك الحالة بريء وأقاسي آلام الظلم والعدوان. حاولنا عدة مرات اقناع الحاكم لاطلاق سراحي بالكفالة فلم يوافق أو بالاحرى لم تصدر له الأوامر بذلك وحاكم التحقيق الجديد الذي أتى مكان عباس مظفر واسمه محمود عزمي كان لا يحل ولا يربط إذ كان من زمرة الطائعين في الحق والباطل، وكانت مهمته تلقي الأوامر من وزير العدلية الذي هو بدوره يتلقى أوامره من حكمت سليمان.. واقترح علينا بأن نوكل المحامي محمد علي محمود ليدافع عن قضيتي وكان السبب لهذا الانتخاب صداقة محمد علي بحكمت سليمان ونفوذه لأنه كان نائب رئيس مجلس النواب. وأتى إلى السجن المحامي وأخبرني أنه أستأذن من حكمت قبل قبوله التوكيل وبذلك كفاية لايضاح الوضع الذي كنا فيه. ثم سمعت وأنا في السجن بأنه وصل جواب البرقية التي ارسلوها إلى برلين مستفسرين عن محتويات الكتاب الرقم ٣٤٥ فهو يتعلق بطلب أعفاء الرسوم عن كلاب زوجة الأمير زيد وموجه إلى وزارة الخارجية الالمانية. كان ذلك دليلاً واضحاً على تزوير الوثيقة التي استندت الحكومة إليها في اتهامي، ومع ذلك لم يتبدل الوضع

ومدد حاكم التحقيق أو بالاحرى خادم التحقيق التوقيف إلى ٦ أيار/مايو، ثم إلى ١٥ أيار/مايو بدون موجب سوى ارادة حكمت سليمان.

أما «زملائي» في مستشفى السجن فكانوا خليطاً من المجرمين: الصيدلي محمد كان محكوماً عليه بالاعدام ثم ابدل الحكم بالسجن المؤبد إذ كان قاتلاً.. والمضمد رسول كان بنفس الوضع. والمرضى كانوا بين قاتل وسارق. وكان المحكومون بالاشغال الشاقة مكبلين «بالزناجيل» وكنت أسمع طقطقة الزناجيل ليلاً عندما يتقلب هؤلاء المجرمون في اسرتهم.. على أن كل هؤلاء المساكين كانوا مؤدبين وكانوا يخدمونني ويحترمونني وكانوا يركنون إلى السكون التام وقت الظهر بعد الغداء لأتمكن من النوم وكانوا يظهرون أسفهم دائماً لأنهم يجدونني فيما بينهم وكانوا يقسمون الأيمان بأنني بريء مما اتهمت به وأني ضحية أغراض شخصية دنيئة. نعم حتى هؤلاء المجرمون كانوا يشعرون بسخافة هذه التهمة ولكن حكمت كان لا يشعر ولا يبالي.

أتاني يوماً اثنان من السجناء من خارج المستشفى وكانا ضابطين في الجيش حكم عليهما بسنتين في السجن. فشكيا لي أمرهما وكانا متألمين من وضعهما وبقائهما بالسجن مع اللصوص وذوي السوابق مع أنهما كانا من أركان الجيش ولهما خدمات جلّى في بلادهما. وكان في تلك الأيام الشاعر محمد مهدي الجواهري أيضاً في السجن وكنت أراه يتمشى أحياناً في الساحة بين السجناء الاعتياديين. فكان وضع السجين السياسي والضابط والشاعر وغيرهم مع القتلة واللصوص وقطّاع الطرق أمراً يدل على تأخرنا حتى في هذه الناحية من الإدارة.

وأتوا يوماً بصبي مريض من المدرسة الاصلاحية فأصبح جاري في المستشفى وكان يأخذ مني أحياناً بعض الجرائد يطالعها وقد وجدته ذكياً شاطراً وتبين أنه صبي يهودي رمى أخته الصغيرة من أعلى السطح إلى الحوش فكسر ضلوعها فسلموه إلى المحاكمة فحكموه لمدة سنتين.. ولما سألته لماذا فعل ذلك بأخته. قال: إنها فتانة ولئيمة وأنه عندما يخرج من السجن سيقتلها ويقضي عليها.. هذه هي الذهنية التي تتكون عند الصبيان من اختلاطهم بالمجرمين..

واتانا يوماً حلاق للمستشفى يحمل حملاً ثقيلاً من الزناجيل لأنه محكوم بالاشغال الشاقة المؤبدة.. فقص شعر بعض المرضى ثم أتاني وكله خجل وتوسل بأن يقص لي شعري وكان وضعه وكلامه بشكل جعلني لا أرفض طلبه فأخذ يقص شعري ويدور حولي ويسحب الزناجيل الثقيلة من ورائه.. فكان منظراً غريباً! أنا بين هؤلاء الجماعة وهذا الحلّاق القاتل يقص شعري ويخدمني.. على كل حال وجدت هؤلاء المساكين اسمى خلقاً وأطيب نفساً من كثير من رجالنا المتزعمين!

بين ناجي الأصيل ونصرت الفارسي

كنت لم أزل في مستشفى السجن وقد مضى عليّ ما يقارب الأسبوعين، فأتاني يوماً ضابط السجن عبد الرحمن شبيب وأخبرني بأن معالي وزير الخارجية ناجي بك الاصيل يرغب في مقابلتي.. فلبست ثيابي وذهبت إلى الخارجية وهي مقابل بناية السجن. ورافقني موظف مسلح..

دخلت الخارجية التي كنت في الأمس أحد كبار موظفيها مخفوراً وأخذوني فوراً إلى غرفة

المدير العام. دخلت على نصرت الفارسي وسلمت عليه فدمدم ولم يتزحزح ولم يدعوني للجلوس، كان استقباله بارداً وناشفاً.

نعم نصرت الذي هو في الوقت الاعتيادي «بالع باسطون» كان الآن «بالع مردى» إنه المدير العام وأنا المتهم أمامه.. فلما وجدته بهذه الحالة تقدمت وجلست على أقرب كرسي منه ثم انتظرت ولما وجدته ساكتاً سألته: «يا نصرت بك أتعتقدون حقيقةً بأنني قمت بهذا العمل؟» فأجابني بكل برودة ووقار «لا أرغب أن أتكلم في هذا الموضوع.. أنتم طلبتم مقابلة الوزير وهو الآن يأتي فتكلموا معه..» إنه مدير الخارجية العام ولا يريد أن يتكلم في الموضوع.. بقيت ساكتاً أنتظر تشريف الوزير! وفي تلك البرهة دخل ساطع الحصري على نصرت فلما رآني توجه نحوي وصافحني وسأل عن الحال وأبدى شعور الود والصداقة بكلمات تناسب الوضع. ربما ذلك كان مما لا يريح نصرت الفارسي في وضعه الجدي وبرودته.. وبعد دقائق دخل علينا ناجي الاصيل فتوجه إليّ وصافحني وسأل عن صحتي وشعرت بأن هذا أحرج وضع نصرت وفش انتفاخه. دار بيني وبين ناجي الاصيل حديث طويل عريض حول الموضوع ومما قاله: أنه عندما سمع بالأمر فكأنه أصيب بصاعقة ولكن المسألة خطرة وفيها مسؤولية ورأت الحكومة أن تتخذ التدابير ضدي وضد عبد العزيز المظفر لوجود علاقة بين مفوضيتي برلين وباريس وبين ارسال الأسلحة إلى اسبانيا...

ولما سألني «ماذا كنت تعمل لو كنت في محلنا؟

أجبته: هل تسمح لي أن أتكلم بصراحة؟

قال «طبعاً أريد الصراحة والصدق».

قلت: «والله سوف لا أقول لك إلاّ الِصدق..» ثم أضفت بأن الوزارة أساءت التصرف في هذه القضية وأنه كان من واجبها عندما بلغها الأمر أن ترسل من تعتمد عليه بصورة سرّية إلى برلين ليدرس الأمر ويكشف الحقيقة دون أن يرتاب الموظفون ذوو العلاقة بالأمر... ثم في قضية عبد العزيز وبعد أن كتب علي جودت إلى الوزارة يخبرها باشتراك عبد العزيز في الأمر كان يجب على الوزارة استدعاؤه أو ترفيعه ونقله إلى بغداد ثم تقوم الوزارة بما يقتضي عمله بعد وصوله... أما الآن فقد عرف بنية الحكومة ورفض العودة وبقي في سوريا.. فالحكومة الافرنسية التي يهمها أمر إرسال الأسلحة إلى الشيوعيين الاسبان سوف لا تسلمه إليكم.. اما فيما يتعلق بقضية برلين فإني أعتقد جازماً بأن هناك تزوير في الأمر وهذا يمكن تحقيقه بسهولة.. لأن الشركة الدانماركية تعرف من الذي اشترى ومن دفع لهم الدراهم وبواسطة أي بنك وأي شركة تأمين، فهنالك أمور كثيرة تهدينا بسهولة إلى حقيقة الأمر... وأني أطلب منكم بأن يقوم بالتحقيق البوليس السرّي البريطاني لا سيما وأن السفارة البريطانية هي التي قامت باشعار الحكومة العراقية وهذا أمر يسير بالنسبة إلى مقدرة الشرطة الإنكليزية وأني أقبل سلفاً بنتيجة ذلك التحقيق. وبعد هذا كله أضفت قائلاً: «يا ناجي بك لو صرفنا النظر عن كل هذا كيف يمكن لكم أنت وكامل ويوسف أن تعتقدوا باحتمال قيامي بمثل هذا العمل؟ فأنتم أصدقائي وتعرفونني.. فإذا اعتقد حكمت بك بمثل هذا الاعتقاد لا أتألم لأنه لا يعرفني جيداً.. ولكن أنتم تعرفونني فكيف تصدقون مثل هذه التهمة؟. ثم ليت شعري، ما هو الدافع لارتكاب مثل هذه الجريمة؟ فاما أن يكون المجرم هنا

محتاجاً إلى دراهم ومؤمناً بوجوب بمساعدة فرانكو أو أن يكون غبياً لا يفرق بين الخير والشر.. وهذه الحالات الثلاث لا تنطبق عليّ. ثم لو كنت أنا الذي قمت بهذا العمل وساعدت فرانكو. أمن المعقول أن أسرع وآتي إلى بغداد بمجرد طلب الوزارة دون أن تخبرني بالموضوع؟ بالطبع لو كنت أنا الفاعل لكنت أدركت سبب استدعائكم إليّ ورفضت المجيء ولكان فرانكو قد انعم عليّ بوسام. ولكني أتيت مسرعاً ولم أتوقع بأنني سوف أصادف مثل هذه المعاملات!».

اثر كلامي هذا على كل من ناجي ونصرت لأنني كنت متألماً وكلماتي كانت تخرج من قلبي.. فقال ناجي الاصيل: «نعم انني أعرفك جيداً ولذا نزل الخبر كالصاعقة عليّ.. ولكن ماذا يجب أن نعمل؟ هل تعتقد بأن للأمير زيد أو لزوجته علاقة بالموضوع؟». قلت: «لا! لا أعتقد ذلك فان كرامة الأمير زيد لا تسمح له بأن يدنّي نفسه لهذا العمل لقاء فائدة مادية! أني أعتقد أنه لو صح ادعاء المخبرين فالمسألة مزورة من أولها إلى آخرها..».

شعرت بنوع من الراحة بعد أن قلت ما في قلبي وأعتقد أن كلاً من ناجي ونصرت آمنا بعد ذلك بأن ليس لي علاقة بالأمر. فطلبت من وزير الخارجية أن يتوسط لإخلاء سبيلي بالكفالة فوعد بأنه سيتكلم مع رئيس الوزراء. ولما انتهى الحديث صافحني ناجي الاصيل وانصرف، وتوجهت أنا نحو الباب فأتى نصرت وصافحني بحرارة مودعاً وقد وجدته، بعد أن سمع ما سمع، قد ندم على الشكل الذي استقبلني به وعوّض عن ذلك بالتوديع إلى باب الغرفة.

عدت إلى السجن وإلى الانتظار والتفكير فيما يخلق الله من البشر. وفي طباع اللئام وسخافة السخفاء وعجرفة المتعجرفين. وكيف تصبح مقدرات الناس بين أيدي من توصلوا إلى الحكم عن طريق الغدر والدس والاحتيال.. وكيف يتساوى أحياناً الصالح والطالح ويحترق الاخضر واليابس.. انها حظوظ وطوالع... انها صدف تزيد في حيرة الإنسان وشكوكه.. وتنقص من اعتماده على الحق والفضيلة والمقدرة.. ولله في خلقه شؤون!

اطلاق سراحي

مدد حاكم التحقيق مدّة التوقيف إلى ١٥ أيار/مايو، ولذا وجدنا أنه إذا بقيت القضية على «درابته» و«مروة» حكمت سليمان سوف لا تنتهي لأن حكمت سليمان بصفته رئيساً للوزارة استعجل سواء كان ذلك جهلاً أو عمداً، فصرح أمام المجلس تصريحاً قاطعاً متهماً إياي بارسال السلاح لقاء فائدة شخصية. صرح بذلك رئيس الوزراء ولم يكن لدى حكومته سوى ترجمة لكتاب يزعم أنه صادر عن المفوضية ولا يحمل توقيعاً لأن صورة الكتاب الاصلي لم تكن بعد قد وصلت إليهم ولم يطلبها أحد قبل طلبي لها رسمياً بواسطة القاضي. فبعد أن ورّط حكمت نفسه أمام المجلس الوطني والرأي العام كان طبيعياً بأن لا يتنازل عن تصريحه بين عشية وضحاها فصار يشدد عليّ ويمدد التوقيف ويزيد في الظلم تبريراً لسخافته الأولى وتبريراً لحر قلبه المنتقم الحقود.

ولم يكن حكمت من الرجال الذين منحهم الله فضيلة الاعتراف بالخطأ بل أنه من أولئك المتعجرفين الذين ابتلاهم الشيطان بالمكابرة في الضلال لستر نقائصهم ولذا، فقد ميّزنا حكم خادمه حاكم التحقيق في ٨ أيار/مايو وقد كتب رئيس المحكمة الكبرى المستر «ريجارد» في ١٠

أيار/مايو ١٩٣٧ إلى وزارة العدلية يطلب الايضاحات والأدلة التي يستند إليها التحقيق في تمديد التوقيف. ولم يكن لدى الحكومة دليل يبرر سوء تصرفاتها ولذا لم يجرأ حاكم التحقيق وأسياده على تمديد التوقيف مرّة أخرى، فوافق على إطلاق سراحي في ١٥ أيار/مايو ١٩٣٧ لقاء كفالة نقدية بمبلغ خمسة آلاف دينار. وكانت الحكومة قد استدعت كاتب المفوضية في برلين خليل عبد الأحد فوصل هذا بغداد في ١٣ أيار/مايو وذهب لمقابلة وزير الخارجية في اليوم الثاني فأوقفوه بعد أن سألوه ما سألوه وقد أطلقوا سراحه معي في نفس اليوم. وكانت إفادات خليل عبد الاحد مؤيدة لافاداتي.

كنت مسروراً لخلاصي من مستشفى السجن وذلك المحيط ولكني كنت بالطبع متألماً بأن أكون ضحية طيش حكمت سليمان وجبن ناجي الاصيل وحاكم التحقيق ومن بيدهم العدل... وساءني وضع الأمير زيد فانه لم يقف موقفاً جريئاً مشرفاً بل أنه انزوى في البلاط ورضي بوضع أقرب للتوقيف منه إلى الحرية. وكانت الشبهات حائمة حوله وحول زوجته ولكنه في نظري كان بريئاً وكان عالماً حق العلم ببراءتي فلم يحرك ساكناً ولم يدافع كما ينبغي أن يدافع البريء عن كرامته وكرامة زوجته وكرامة المفوضية وكرامتي أنا كصديقه وسكرتيره، بل اتخذ طوراً سلبياً جعل الجماعة يعتقدون أن له أو لزوجته ضلعاً في الأمر. فهذا الرجل ـ الأمير زيد عم الملك وأحد أبطال الثورة العربية ـ ما باله؟

يتحمل الاهانات من بكر صدقي وحكمت سليمان ويسكت؟

ما باله يبتلع هذه المرارات بلا ذنب؟

ما باله يتصرف تصرف الخراف أمام الذئاب؟

سقط الأمير زيد كثيراً في نظري بعد هذه الحادثة. لأنه لم يتصرف تصرف الرجال. وظهر لي أنه لا يحب غير الويسكي ولا يطمح في غير كسب رضى زوجته ولا يرى أبعد من أنفه. هل هذا فلسفة أم انحطاط!

كان لهذه القضية انعكاسات مختلفة وذاعت حولها ما يفوق الوصف من أنواع الشائعات وبلغني يوماً أن وزير الدفاع عبد اللطيف نوري يقول أنني ربحت من هذه العملية نصف مليون باوند وقال آخر اننا ربحنا ربع مليون، وهكذا كانت السِنَة بعض الناس الذين لا يعرفونني تلوك مثل هذه السخافات إما جهلاً وإما لؤماً وحسداً. على أنه لم يزعجني في هذه القضية أمر أكثر من وضع صديقي كامل الجادرجي. فهو صديقي منذ عشرين سنة وهو الرجل الوحيد الذي كنت أثق به وأعتمد عليه وعلى جرأته وقد تظاهر كامل أثناء ملاحقتي بالحياد زاعماً أن مداخلته ربما تزيد الطين بلّة وتجعل حكمت أكثر حماساً في الموضوع. قلت: عسى لكامل في هذا عذر ولعل هناك أموراً أجهلها ولكن اخي إبراهيم أخبرني يوماً وأنا في السجن أنه ذهب يكلم كامل وقال له هذا: بأنه يعتقد بأني ستين بالمائة بريء.

نعم ان صديقي كامل يعتقد ببراءتي ستين بالمائة فقط. فأجابه إبراهيم بأنه لم يأمل مثل هذا الكلام من كامل وطلب إليه بما أن لديه أربعين في الماية شك في الأمر ـ أن لايتكلف عناء المساعدة..

أتاني كثير من أصدقائنا للبيت مهنئين وأتى أيضاً كامل الجادرجي ففضلت أن لا أقابله لأنني كنت لم أزل في غضب شديد نحوه. فاعتذروا إليه بأنني نائم. ومرت أيام وسمعت بأن صورة شمسية للوثائق وصلت بغداد بواسطة السفارة فذهبت إلى حاكم التحقيق وطلبت الاطلاع عليها فأخبرني هذا بأنه لم يرها وبأنها بقيت عند الوزير وعبثاً حاول كل من المحامين محمد علي محمود ومصطفى عاصم أن يطلعا عليها. فالحكومة اتخذت من هذه الوثائق سراً عميقاً. إذن أين التهمة وأين تصريحات حكمت سليمان.. فلو كان فيها أقل علاقة بي لأودعها حاكم التحقيق إلى المحكمة لتنظر فيها وتحاكمني كما جاء في بادئ الأمر بموجب قانون العقوبات البغدادي ولكن بقيت تلك الأوراق سراً لا يعلم أحد عنها شيئاً... لكن تسربت لي الأخبار بأن الوثائق تحمل توقيعاً للأمير زيد وختماً للمفوضية.. وهكذا دفنت القضية بأمر الحكومة وذهب حماس حكمت ادراج الرياح وأخذ الناس يكيلون باللوم له ويهزأون من استعجاله ورعونته. وبقيت أنا مربوطاً بالكفالة وسافر الأمير زيد عائداً إلى برلين.. ورفض الفرنسيون تسليم عبد العزيز مظفر وتجلّى عجز هذه الحكومة من أن تعالج أمراً بسيطاً كهذا.. فلا رئيس الوزراء ولا وزير الخارجية ولا وزير العدلية ولا غيرهم استطاع أن يقف على حقيقة الأمر. وسمعنا نصرت الفارسي يقول أنه مدير بالاسم فقط وأن الشغل كله بيد الوزير ويدعي هذا أن الأمر يعود إلى رئيس الوزراء وهكذا ضاع الحق والعدل والمروءة والانصاف وظهر العجز والحقد وسوء الإدارة بأبشع الاشكال، وكانت قضيتي دراما واحدة من عشرات المآسي التي مثلت أيام حكم بكر صدقي وحكمت سليمان..

ومرت الأيام والحالة العامة في العراق تزداد سوءاً والناس تزداد ضجراً.. أما قضيتي فدخلت في دور التسويف والمماطلة والنسيان. وفي ١٩ حزيران/يونيو أي بعد خروجي من السجن بشهر أو ما يزيد استقال أربعة من الوزراء وهم جعفر ابو التمن وكامل الجادرجي وصالح جبر ويوسف إبراهيم وتذكرت حينئذٍ ما قلت قبل سنة لكامل بأن «حكمت سليمان سيركب على ظهوركم ثم يترككم متى وصل إلى مبتغاه...». ودخل الوزارة الجديدة محمد علي محمود وكيلي وعلي محمود الشيخ علي وعباس مهدي جعفر حمندي ثم التحق بهم مصطفى العمري.. وتفاءلت خيراً بهذا التبدل لاظهار الحق في قضيتي..

كنت قد راجعت حاكم التحقيق للسماح لي بالسفر إلى سورية ولبنان من جهة صحتي فاعتذر وماطل ولكنه وافق بعد التبديل الوزاري بشرط الاستحصال على تقرير طبي. وبعد مماطلات طويلة عريضة حصلت على التقرير في ٣ آب/ اغسطس ١٩٣٧ فوافق حاكم التحقيق على السفر بعد أن رفع الكفالة إلى ٨٠٠٠ دينار بدلاً من ٥٠٠٠ دينار. وهذه حكمة عالية لا يفهم فلسفتها إلّا العلماء الفطاحل في القانون!

وقبل سفري ببضعة أيام قابلت وزير العدلية الجديد علي محمود وطلبت منه أن يطلعني على الوثائق المتعلقة بأمري فتعجب كثيراً عندما علم بأنني لم أرها حتى الآن وأمر حالاً بإحضارها.. فأتوا بها وهي عبارة عن كتابين. الأول: مؤرخ في ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٦ ومرقم ٣٤٥ وصادر عن المفوضية ومطبوع على ورق المفوضية القديم عندما كنا في شارع كورفستندام يتعلق بشراء ١٢ مدفع ساحلي قديم وعتادها من شركة دانماركية في كوبنهاغن بواسطة رجل هولندي اسمه «ڤان ڤينن». والثاني: مؤرخ في ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٦ يؤيد بأن الطلب السابق

هو للتصدير إلى العراق. الكتابان محرران بالافرنسية والأول موقع عليه «عن القنصل» والتوقيع غير واضح لا يقرأ، أما الثاني فموقع عليه «زيد» ومختوم بختم المفوضية.

سألني علي محمود رأيي بهذه الوثائق فقلت أنها بلا شك مزورة. لأن التوقيع لا يشبه توقيع الأمير زيد.. ثانياً لماذا استعمل ورق المفوضية القديم؟.. أعتقد أن المزور حصل بوسيلة ما على ورق المفوضية وقلّد الختم ودبر الأمر وهذا أمر سهل إذ ان الورق غير محفوظ وتقليد الاختام من أسهل ما يكون...» ووجدت وزير العدلية معتقداً بأن هذا من عمل زوجة الامير زيد وأخبرني بأن الحكومة أصبحت تعتقد ذلك بناءً على ما بلغهم حول اسراف زوجة الأمير وحاجتها إلى الدراهم ثم جرأتها ومداخلاتها وماضيها وكل ذلك يجعلهم يميلون إلى ذلك الاعتقاد..

قلت أن كشف الحقيقة غير عسير، فالحكومة لو أرادت أن تقف على الحقيقة عليها أن ترسل من يلزم ليقوم بهذه المهمة ويستعين بالشرطة السرية البريطانية.. ولكني وجدت أن الحكومة لا تميل إلى ذلك بل إنها تميل إلى دفن المسألة وسدّها والاكتفاء بما قامت به ضدي وبتلك «الخرابيط». وكان علي محمود منتقداً استعجال حكمت وسوء تصرفه في بادىء الأمر.

بعد وصول الوثائق المذكورة وقع حكمت على ما يبدو في مشكلة لأنها اثبتت سخافته واعتداءه ولذا بقيت الوثائق سراً مكتوماً وأهمل الأمر من أوله إلى آخره بعد تلك الزفة المطنطنة.. وقد نصحني كل من محمد علي محمود ومصطفى عاصم بأن لا فائدة من الإلحاح، وأن أسافر إلى لبنان واترك المسألة على حالها إلى أن يبدل الله الحال. وعليه، فقد قررت السفر وحجزت الاماكن في «نيرن» ليوم ١٢ آب/اغسطس. في تلك الأيام كنا ساكنين في المسناية وأتانا الطباخ ذلك الصباح من بغداد بخبر لم يكن في الحسبان: إغتيال بكر صدقي ومحمد علي جواد في الموصل. في بادىء الأمر لم نصدق ولكننا تأكدنا من الخبر بعد الاتصال ببغداد وصرنا نخشى أن يؤدي الحادث إلى سد الطرق وتأخير سفرنا فاستعجلنا في الرحيل وغادرنا في الساعة الخامسة مساءً وقد شعرت بارتياح كبير عندما تحركت بنا السيارة ولا سيما عندما تجاوزنا الحدود العراقية إذ أن الإنسان كان معرضاً لكل شيء.

في اليوم الثاني وصلنا الشام ونزلنا في فندق «اوريان بالاس» فقابلنا هناك جميل المدفعي وفخري جميل وآخرين من العراقيين. وكانوا كلهم مضطربين قلقين من جراء التقلبات في العراق. وكان فخري يسب ويشتم وينتقد حكمت ولكنه كان رئيس مجلسهم ومن «المتشلهين» معهم في بادىء الأمر.. وبعد أيام استدعي جميل المدفعي إلى بغداد وعقب وصوله سمعنا بسقوط وزارة حكمت وتأسيس حكومة جديدة برئاسة المدفعي.. فارتحنا كثيراً وارتاح كل الناس لهذه التطورات.. وهكذا شاء الزمان أن ينهي مهزلة بكر وحكمت وينهي دور الارهاب والاعتداءات والسخافات وتحققت فلسفة الآية الكريمة: «وسيرى الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»!

في لبنان

استقبلنا عبد الكريم السباعي وأخوه نور وابن عمه بدوي بكثير من الترحيب عندما وصلنا صوفر وقاموا بإكرامنا وضيافتنا وقد وجدت منهم العطف والصداقة ما جعلني ارتبط بصداقة أبي فؤاد أكثر من ذي قبل كما كان لذلك أثر في توطيد المودة بيني وبين وداد.. فعندما تركت

بغداد كانت الحكومة قد طلبت مني عدم الذهاب إلى المانيا وسجلت ذلك الشرط في جوازي، وهذه سخافة من سلسلة السخافات لأن ذلك لا يمنعني من الذهاب إلى المانيا لو أردت وأن المنع أو عدمه يعود إلى الحكومة الألمانية في هذا الأمر.. ومع ذلك .فقد وعدت بأن لا أسافر إلى المانيا وقررت الاصطياف في «مران» في ايطاليا ورتبنا أمر السفر وقطعنا ورقة للباخرة من بيروت ولكن عندما بلغني سقوط وزارة حكمت بدلت رأيي وعدلت عن السفر ولذا سافر إبراهيم وعائلته في ١٨ آب/اغسطس وبقيت أنا في صوفر..

وجدت الطقس في لبنان عذباً لطيفاً والناس لطفاء كرماء وصرت أشعر مع السباعية كأنني بين أهلي وأقاربي.. وانقضى موسم الصيف في صوفر بهناء وانشراح ولم يكدر صفو العيش إلاّ ذكرى قضيتي ومسألة ارسال السلاح إلى فرانكو. فهذه الفكرة أخذت تعذبني وتشغل بالي وكنت متشوقاً وعازماً على كشف الحقيقة واظهار المجرم الذي سبب لي كل تلك المرارات.

قابلت في صوفر عبد العزيز المظفر وسألته عن المسألة فأكد بأنه بريء مما أسند إليه فقلت له: «لماذا لم تأت إلى بغداد إذن؟» قال «كيف اتي بعدما علمت بما اصابك؟». على أنني لم اقتنع بكلامه وقلت في نفسي «وجرم جرّه سفهاء قوم وحلّ بغير جارمه العذاب».

بقيت شهرين في صوفر كنت خلالها سعيداً من جميع الوجوه.. حياة ساكنة هادئة. صحية طيبة ومحبة متزايدة بيني وبين وداد. كنا نذهب مرتين أو ثلاث بالأسبوع إلى محلات جميلة في لبنان إما جماعةً وإما منفردين أنا ووداد... وذهبنا مرة إلى نهر الباروك وأحسست هناك أنني في الحق أحب وداد وكان هذا حس غريب جديد بالنسبة لي لم أشعر بمثله طيلة أيام العزوبية..

وقابلت في لبنان الكثير من العراقيين المصطافين والمهاجرين وأصبحت علاقتي بنوري باشا قوية وكان هو كغيره من الاصدقاء متألماً لما اصابني على يد حكمت سليمان وحكومته الطائشة.. واجتمعت كثيراً بعباس وزوجته وكان لوفائه وموقفه في قضيتي امتنان عظيم.

سافرنا مرة مع السباعية ومعهما إلى بعلبك وزرنا الخرائب وتصورنا هناك وكان السباعية يظهرون عطفهم ومودتهم لعباس دائماً لما قام به نحوي. وكان طالب مشتاق صديقي قنصلاً في بيروت وكنا نجتمع به أيضاً وذهبنا أكثر من مرّة مع نوري باشا وصباح وطالب وموفق الآلوسي وعائلاتهم إلى شتورة للنزهة. كما تعرفت على كثير من اللبنانيين في صوفر وحصلت بيني وبين محمد علي بيهم صداقة. وفي مأدبة أقامها طالب على شرف نوري باشا في القنصلية تعرفت على أبو علي سلام والأمير عبد المجيد الشهابي ومعروف الارناؤط وأبو الهدى وعبدالله المشنوق وانيس النصولي ونجيب الريس وأبو الفتح وغيرهم. وفي فندق صوفر تعرفت على «المسيو» اده رئيس الجمهورية وصرنا دائماً نتقابل ونلعب «البريدج» ورتبنا أكثر من مرّة لعبة بريدج في بيته وقد وجدت الرئيس اده رجلاً ذكياً لطيفاً خفيف الدم والروح ولكنه في نفس الوقت خفيف الإيمان بالوطن والوطنية، إذ إنه من الجماعة الذين لا يؤمنون إلّا بفرنسا الأم الحنون...

إلى جانب ما للبنان من مزايا وحسنات، يجد العراقي ناحية لا يرتاح إليها وروحاً لا يرتضيها وهي «التفرنج» بأوسع معانيه وبأبشع أشكاله.. وقد دبت هذه الروح واستولت على الطبقات

الراقية من المسيحيين وأخذت تدب بين العوائل المسلمة العليا من باب التقليد والتمثل بالذي هو الذّ وأرقى وإن كان ذلك الرقي زائفاً وتلك اللذّة موقتة..

فالطبقة «المتفرنجة» هذه لا تتكلم إلاّ الفرنسية أو خليطاً منها ولا تقيس إلاّ بمقياس الفرنسيين ولا تنظر إلاّ بعين «الأم الحنون». ومن الغرابة بمكان، أن يقدر الإنسان بهذا الشكل الأعمى من يحكمه ويهينه وهو في بلاده على أن اللبنانيين أنفسهم ولا سيما النصارى منهم لا يشعرون بما يشعر به العراقيون أو غيرهم من العرب.. لأنهم يخدعون أنفسهم بأنهم «فرنسيين» أو على الأقل بأنهم من بقايا «الفرنسيين» القدامى أيام الصليبيين..

ولكن الحقيقة أن هذا الشعور بلزوم «التفرنج» والتقليد إنما هو وليد حكم الأتراك ومعاملتهم القاسية تجاه الاقليات المسيحية في الامبراطورية العثمانية وكان من جراء تلك السياسة السفيهة أن فضّل اللبناني المسيحي التشبه بالفرنسيين على تمسكه بقوميته ووطنيته... ومع ذلك كله كنت أحس بانزعاج عندما أسمع جماعات من العرب نساءً ورجالاً يتكلفون ويتكلمون الفرنسية بلهجة باردة مخلوطة مبتذلة...

قبل أن أغادر برلين في نيسان/ابريل كنت قد فاتحت أبو فؤاد في قضية الزواج فكان قد وافق في حينه، ثم فاتحته من جديد في لبنان لعله غير رأيه بعد قضية السلاح فوجدته ما زال على موقفه لا بل لاحظت أنه يظهر عطفاً نحوي أكثر من قبل.. هذا ولما كانت صلتي بوداد آخذة بالتزايد في الود والمحبة، فقد قررنا أن تكون الخطوبة الرسمية في ٣٠ أيلول/سبتمبر. ولذا فقد اجتمعنا في بيت السباعية في صوفر مساء الخميس المصادف في ٣٠ أيلول/سبتمبر وقرأنا الفاتحة وتبادلنا الخواتم وشربنا شمبانيا على شرف هذه المناسبة وتمنى لنا الحاضرون، من الأهل، الخير والسعادة.

كانت هذه الخطوبة ختام موسم الصيف في صوفر إذ أنني نزلت في أوائل تشرين الأول/أكتوبر إلى بيروت، وفي ٢٢ منه سافرت إلى الشام عائداً إلى بغداد..

بعد الانقلاب

وصلت بغداد في ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٧ وكنت مدعواً على العشاء في نفس اليوم عند سليمان فتاح وكان بين الحضور السويدية والدملوجي ورشيد الخوجه وغيرهم من كبار القوم. فالحالة والوجوه كانت هادئة مطمئنة على غير ما كانت عليه أيام الانقلاب الاهوج ودكتاتورية بكر وحكمت.

ووصل نوري السعيد بغداد يوم ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر فذهبنا لاستقباله وكان هناك عدد كبير من أصدقائه ومن المتزلفين في المطار. وسبحان من يقلب الاحوال. فهؤلاء الزعماء الذين ثارت عليهم ثورة الغوغاء وتركوا البلاد كالمهاجرين الهاربين أخذوا يعودون، والناس، نفس الناس، أخذوا يرحبون بهم ويستقبلونهم. أما رجال الانقلاب فظلوا عاكفين في بيوتهم بسواد الوجه. وكنت دوماً أتأسف لعدم وجود جعفر وياسين بين العائدين إذ انهما ذهبا إلى حيث لا عودة ولا رجعة.

جعفر في الصحراء بين بغداد ويعقوبه لا يعرف له قبر، وياسين ضم في التراب إلى جنب

صلاح الدين في الشام. كانا شهيدين في سبيل الوطن فهذا خر صريعاً برصاص العاقين ومات، وذلك كمداً من ظلم الظالمين!

ذهبت يوماً لزيارة صديقي كامل الجادرجي، كان هو أيضاً إذ ذاك من «المهاجرين» العائدين لأنه بعد تلك الاستقالة الصاخبة أصبح من المغضوب عليهم وصرح حكمت في حينه ما صرح أمام المجلس حوله وحول اعوانه ومبادئه. وكان عند كامل كل من فخري الجميل ويوسف إبراهيم وكان الحديث ذا شجون وكان لوم وعتاب بيني وبينه وعلى حد قول كامل أن العلاقة بينه وبين حكمت كانت متوترة جداً عندما حدثت قضيتي وأن أية مداخلة من قبله كانت تزيد الطين بلة... وقال أنه لم يمر بالعراق دور سيء مثل دور حكومة الانقلاب وأخذوا ثلاثتهم يسبّون ويشتمون حكمت سليمان وبكر صدقي وناجي الاصيل لأن هذا الأخير وهو ثالث الأثافي للحلقة انقلب على صديقه كامل وبقي في وزارة الخارجية خادماً مطيعاً لحكمت سليمان... وهكذا كان أبطال الانقلاب ينقلبون على الانقلاب وكان من دواعي الارتياح أن يرى الإنسان انهدام ذلك الصرح الذي شيّد بالدس والظلم والفتك والغدر، ولكل نفس ما عملت...

أما الناس فكانت تريد أن تحاسب وتقاصص لا سيما أولئك الذين اغتالوا جعفراً واعتدوا وظلموا، ولكن سياسة رئيس الوزراء الجديد كانت تميل إلى إسدال الستار وغض النظر عن الماضي وسيئاته.. وفي نظري كان الحق مع جميل المدفعي وإن كنت أنا شخصياً من ضحايا ذلك الدور المشؤوم... لأن الانتقام يجر الانتقام ويسبب الفوضى ولم يكن من الصواب تشجيع تلك الروح في العراق، لا سيما وأن القلوب كانت متألمة والنفوس ثائرة والجروح غير ملتئمة.. وقد انتقد كثيرون سياسة إسدال الستار، على أن الزمان أثبت إصابة رأي جميل المدفعي ومزايا سعة صدره..

فاجعة

صدق الشاعر إذ قال:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمّر فيهرم..

والدنيا مسرح واسع لخبط المنايا وفواجعها.

عندما عدت من سورية وجدت ابن عمتي مكي مريضاً يشكو من ألم في الكبد وكانت أمه شديدة الحزن والتألم عليه ولم تتحسن حالته بالرغم من معالجة الأطباء فقررنا أخيراً نقله إلى المستشفى لفحصه وعلاجه هناك. ومرضت عمتي حزناً على ابنها وكانت ضعيفة لا تتحمل مثل ذلك الحزن فوافاها الأجل في ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر وتم دفنها في المقبرة الخاصة حيث يرقد الأعزاء.

تألمت كثيراً لوفاة عمتي فهمية إذ كنت أحبها منذ أيام الصغر وكانت هي تحبنا مثل أولادها.. وأذكر حنانها وعطفها عليّ عندما كنت أمْرض فكانت تأتي وتجلس إلى جانبي وتقص عليّ القصص والأحاديث بأسلوب عذب وكلام طيب وكانت تسهل عليّ شرب الأدوية وتقوم بدور كانت جدتي تقوم به قبل وفاتها. ولم تكن عمتي بالرغم من حسن أخلاقها ودماثة طبعها وحنان قلبها سعيدةً في حياتها فزوجها المرحوم صالح أفندي كان رجلاً صالحاً تقياً لم تكن له شخصية ولا مورد إذ انه قضى حياته في وظيفة كتابية في دائرة البريد زمن الأتراك وفوق هذا فقد رزقها الله سبع بنات على طراز أبيهن وولداً واحداً هو مكي ولم يكن مكي لامعاً ومع ذلك فإنه كان رجل العائلة الوحيد وأمل عمتي الأوحد... وفقدت عمتي المسكينة بصرها قبل عشر سنوات ولم تسترجع منه إلا بقدر ما يمكنها من التجول في البيت بين غرفة وغرفة.. فكأن الزمان كان ضدها من جميع الوجوه. صحة ضعيفة، رجل ضعيف، بنات سخيفات متعددات وهذا الولد الوحيد يطرح في الفراش بمرض قاتل.

لم نخبر مكي بوفاة والدته خوفاً على صحته لأنه كان يحبها ومتعلقاً بها كثيراً. أقمنا «الفاتحة» في بيتنا لثلاثة أيام حيث أتانا اناس كثيرون وفي مقدمتهم رئيس الوزراء جميل المدفعي. بعد بضعة أيام علمنا من الأطباء أن المسكين مكي مصاب بالسرطان في الكبد. فتأثرنا كثيراً وتألمنا وقررنا إرساله إلى بيروت لعلنا ننقذه مما هو فيه فرتبنا سفره بالطائرة واستصحبه أحد أصهرته فسافر في ١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر حيث لقيهما في بيروت ابراهيم والسباعي وأخذوه إلى المستشفى حيث بقي بضعة أيام ولم تتحسن حالته بل أخذت بالتردي. ومساء الاثنين المصادف ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر اتصل بي عبد الكريم السباعي وأخبرني بوفاة المسكين مكي فأسفنا كثيراً وحزنا على شبابه واجتمعنا مع محمد بالأقارب الآخرين وتقرر أن يدفن مكي في بيروت. وهكذا ولم يمض إلّا ٢١ يوماً على وفاة عمتي فالتحق بها ابنها الوحيد تاركاً وراءه اخواته الست... اقمنا «الفاتحة» في بيتنا وكان ذلك في الأيام الأخيرة من شهر رمضان ولم نعيّد حزناً على عمتي ومكي.. ولكل أجل كتاب!

من السجن إلى مجلس الأمة

قلت ان وصول صور الوثائق أوقع حكمت سليمان وحكومته في حيرة لأنها أتت تنفي التهمة عني إذ لم تحمل اسمي أو توقيعي بل انها كانت مزورة باسم الأمير زيد ولذا جبن حكمت عن الاستمرار في التحقيق وإحالة القضية إلى المحكمة ولكنه في الوقت نفسه أبقاني مثقلاً بالكفالة والتهمة فلما سقطت حكومته طلبت مجدداً النظر في قضيتي فدرس المدعي العام الجديد أحمد مختار (وهو الآن في آذار/ مارس ١٩٤٦ وزير الشؤون الاجتماعية) الأوراق والمستندات وكتب إلى حاكم التحقيق ما يلي:

«.. دائرة المدعي العام — سري
٣٢٨٩

١٦ رمضان ١٣٥٦ — حاكم تحقيق منطقة الرصافة
٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٧

لدى تدقيق صفحات اوراق التحقيق المتعلقة بموسى الشابندر فقط ظهر لنا ان غاية ما في هذه الأوراق هو ان هناك مراجعة قام بها اشخاص مجهولون باسم المفوضية العراقية في برلين إلى شركة مادسن الدانماركية لشراء أسلحة للحكومة العراقية إلا ان التحقيق الذي اجري في بغداد لم يسفر عن حقيقة الأمر وعن إظهار الفاعلين الأصليين. اما توجيه التهمة ضد موسى الشابندر وحده بصفة كونه السكرتير للمفوضية العراقية هناك فهو غير صحيح حيث لا توجد اية إشارة في التحقيق او في الأوراق المبرزة يستدل منها على ارتكاب موسى الشابندر المومأ إليه هذا الفعل وان مجرد وجوده في وظيفة في المفوضية العراقية في برلين لا يكفي للاعتقاد باعتباره هو الفاعل المسؤول وليس ذلك فقط إنما لا نرى من الموافق توجيه التهمة في هذه القضية إلى اي شخص في الوقت الحاضر وإنما يكون ذلك بعد إجراء تحقيق دقيق في الموضوع في برلين وفي الدانمارك بواسطة سلطات التحقيق المحلية او بإيفاد موظف قضائي عراقي لمحل الحادثة لمراقبة التحقيق وتعقيبه او بطرق اخرى يعتمد عليها واننا لواثقون من كشف حقيقة القضية فيما إذا اتبع ما ذهبنا إليه. فبالنظر إلى ما سردناه انفاً اطلب اولاً الإفراج عن السيد موسى الشابندر حيث لا يصح إبقاؤه متهماً مع عدم وجود دليل ضده يستوجب اتهامه واطلب التوسط بإجراء تحقيق محلي في القضية بعد التفاهم بالطرق الدبلوماسية مع الدول ذوات الشأن ثانياً. طيه نعيد اوراق التحقيق الواردة إلينا بكتابكم المرقم ١١٥٣ والمؤرخ في ٣٧/١١/١٥.

المدعي العام

من كتاب المدعي العام هذا يظهر إلى أي درجة كانت الفوضى ضاربة أطنابها أيام الانقلاب وإلى أي حد وصل الظلم والاستهتار في إدارة حكمت سليمان. وبعد أن صدر هذا الكتاب قرر حاكم التحقيق وهو نفس ذلك الحاكم الخائف المطيع قراره كما يلي:

دائرة حاكمية تحقيق منطقة الرصافة
للواء بغداد

اسم المشتكي: حقوق عمومية.
اسم المتهم: السيد موسى الشابندر.

القرار: اسند إلى السيد موسى الشابندر السكرتير الأول للمفوضية العراقية في برلين مراجعته لشركة دانماركية لشراء أسلحة باسم الحكومة العراقية بدون علم الحكومة العراقية بذلك قصد

تصديرها إلى إسبانيا لقاء فوائد شخصية فطلب المدعي العام إجراء التحقيق ضده وفق المادة ٩١ من ق.ع.ب. بكتابه المرقم ١٣٨٣ والمؤرخ في ١٩ نيسان/ ابريل ١٩٣٧ ولدى إجراء التحقيق وورود المستمسكات من وزارة الخارجية وترجمتها وتمحيصها وفي نتيجة ذلك كله ولدى التدقيق لم اجد اي دليل ضده لإحالته إلى المحكمة وعليه قررت الإفراج عنه وغلق القضية المسندة ضده وصدر القرار بتاريخ ٣٧/١١/٢٧.

حاكم تحقيق منطقة الرصافة
دائرة حاكم تحقيق منطقة الرصافة بغداد

طبق الأصل
٣٧/١١/٣٠

هكذا يقول حاكم التحقيق الآن بعد زوال مهزلة حكمت سليمان وكان في السابق لا يتكلم بالحق ولا يصغي إلى الضمير، إن كان له ضمير بل كان يكتفي بتمديد التوقيف وتنفيذ أوامر أسياده بالحق والباطل على السواء. وليطلع الإنسان على جبن البشر وذلة نفسه أسجل هنا كتاب المدعي العام أيام حكمت سليمان الذي يأمر بتوقيفي ويسند التهمة إلي:

وزارة العدلية
شعبة دائرة المدعي العام

سري ومستعجل

رقم خاص ١٢٨٣

التاريخ ٨ صفر ١٣٥٦ - ١٩ نيسان/ أبريل ١٩٣٧

حاكم تحقيق منطقة الرصافة

نرسل طياً صورة من كتاب معالي وزير الخارجية المرقم س/٧٩٨ والمؤرخ في ١٨ نيسان/ ابريل ١٩٣٧ ومربوطاته ومنها يتبين بان المدعو موسى الشابندر السكرتير الأول والقنصل في المفوضية العراقية ببرلين قد راجع شركة مادسن الدانماركية باسم الحكومة العراقية لشراء اسلحة بينما لم يكن اي علم للحكومة العراقية بذلك وقد تبين ان القصد تصديرها إلى إسبانيا واتخذ اسم الحكومة العراقية لتسهيل ذلك لقاء فوائد شخصية دفعت للمرقوم لقاء قيامه بالعمل المذكور الذي ينطبق على احكام المادة ٩١ من قانون العقوبات البغدادي وحيث ان الادلة متوفرة ضدّه بالوثائق الرسمية وقد تاكد لدينا انه كان بالأمس في مدينة الموصل فقد طلبنا من حاكم جزاء لواء بغداد اتخاذ الإجراءات المستعجلة لتامين إلقاء القبض عليه خشية هروبه فاصدر الحاكم المؤما إليه برقية مستعجلة إلى مدير شرطة الموصل بإلقاء القبض عليه وإرساله مخفوراً إلى شرطة بغداد وقد اعلمنا مدير الشرطة المؤما إليه تلفونياً امس بانه قد القي القبض على المتهم المرقوم وسيصل بغداد صباح الغد المصادف ٣٧/٤/٢٠ بقطار كركوك. ولما كان الفعل المسند بالمتهم المذكور موسى الشابندر خطيراً جداً من حيث تعلقه بمصلحة الدولة اطلب إجراء التحقيق والتعقيبات القانونية ضده فوق المادة ٩١ من قانون العقوبات البغدادي وتوقيفه عند إحضاره امامكم صيانة لسلامة التحقيق.

عبد الرزاق الأزري
المدعي العام..

في هذا الكتاب الصادر أيام حكم حكمت القرقوشي عبرة كبيرة.. إذ يتجلى فيه سقوط الأخلاق وجبن الأنفس والتصرف بالقوانين بدافع التزلف والتقرب.. فهذا المدعي العام عبد الرزاق الأزري

لمجرد إرادة حكمت سليمان يتهمني بصورة جازمة بالقيام بشراء الأسلحة لقاء فائدة شخصية ويدعي باسم العدل أن الأدلة متوفرة. وليس لديه أقل دليل.. وحاكم الجزاء عبد العزيز الخياط يصدر أمر التوقيف بمجرد إرادة حكمت سليمان تزلفاً ولؤماً. . وناجي الأصيل الدكتور المحترم يؤيد رأي حكمت لمجرد كونه خادماً تابعاً له فهؤلاء الرجال والشبان المنتسبون إلى الطبقة الحاكمة يدوسون ضمائرهم بأحذيتهم بهذه السهولة، وعندما أراد عباس مظفر أن يقول الحق نقله وزيره صالح جبر حالاً إلى علي الغربي.. وهكذا تلوثت الأخلاق والضمائر. وبمثل هؤلاء الجبناء نريد أن نبني ملكاً ونؤسس دولة.. فما أصدق محسن السعدون عندما قال قبل انتحاره أن العراقيين بعيدون عن الاستقلال... فإذا كان العدل وهو أساس الملك بين أيدي هذه الحثالات فكيف لا نكون بعيدين عن الاستقلال والكرامة؟ على أن الدنيا ولله الحمد لا تخلو بالمرة من أصحاب الشرف والمروءة وكان عباس مظفر جريئاً محقاً وكان أحمد مختار شريفاً عادلاً وأتى جميل المدفعي يسعى إلى إزالة المظالم وإصلاح ما فسد وإعادة الكرامة والشرف إلى مكانهما..

* * * * *

كان من الطبيعي أن لا أكتفي بقرار الإفراج. فإذا كانت القضية قد انتهت في نظر الحكومة العراقية فإنها لم تنته في نظري. فأردت أولاً أن يجري تحقيق جدي في ألمانيا والدانمارك لكشف أسرار القضية وإظهار المجرمين الفاعلين وراجعت في هذا الأمر كلاً من وزير الخارجية توفيق السويدي ورئيس الوزراء جميل المدفعي على أنني لم أجد فيهما مشجعاً أو مؤيداً إذ كانت سياسة إسدال الستار تريد أن تشمل هذه القضية أيضاً. وربما لقضية عبد العزيز المظفر أثر في الموضوع لأن مثل هذا التحقيق قد يؤدي إلى إدانة عبد العزيز وهو صهر السويدية.. ولذا كان توفيق السويدي يدعي بأن هذا التحقيق سيكلف الحكومة مبالغ طائلة بدون مبرر لأن الحكومة قانعة تماماً بأن ليس لي علاقة بالأمر ثم انه سحب الأمير زيد من مفوضية برلين وانتهى الأمر في نظر الخارجية.

وحاولت أيضاً إقناع الحكومة بإعادتي إلى وظيفتي في برلين لأن بذلك إعادة لكرامتي ومركزي في برلين ودفعاً لكل شك وريبة في نظر الحكومة التي كنت ممثلاً لبلادي لديها عندما اتهمت بما اتهمت.. ولكن هنا أيضاً وجدت أمامي مشكلة قانون الخارجية الذي لا يجوز إعادة الموظف المفصول من السلك الخارجي. ومع ان كلاً من جميل المدفعي وتوفيق السويدي كانا مقتنعين بأن فصلي من الوظيفة كان بدون حق وبلا مبرر فلم يوافقا على مخالفة نص القانون فوعداني بأن التزكية ستكون بشكل آخر.. وكان هذا الشكل بأن أرشح للنيابة في المجلس القادم وعلى هذا الأساس انتخبت نائباً عن العمارة في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٧ وأصبحت نائباً عن الأمة وعضواً في مجلس النواب ولم يمضِ بين السجن وبين المجلس إلاّ بضعة أشهر. وتذكرت حينئذٍ قول أحد ضباط السجن عندما أخذ يسليني يوماً، حيث قال: «لا تزعل يا بك... السجن للرجال... وإني أوعدك بأنك ستكون يوماً وزيراً.. فالذي يدخل الحبس لازم يصير وزير»..

كانت النيابة ترضية لا بأس بها وصفعة في وجه حكمت وكل من أساء إليَّ وكانت في الوقت نفسه تجربة مفيدة في الحياة السياسية. وكان أول خطاب ألقيته في المجلس بمناسبة الميزانية حول السجون ولزوم إصلاحها وكانت هذه وسيلة مناسبة للرد على حكم حكمت القرقوشي وبدأت

خطابي قائلاً: انه قبل سنة مثل هذا الوقت لم يكن زملائي من أصحاب الفخامة والمعالي والسعادة إنما كانوا من أصحاب السوابق و«الزناجيل» وذلك بفضل الحكم القرقوشي الذي كان سائداً إذ ذاك. وبينت لزوم إصلاح السجون وتفريق السجناء السياسيين عن غيرهم.. وفي خطاب آخر عالجت قضية المعارف والبعثات ولم أكن نائباً ثرثاراً ولا صامتاً وقلت في انتقادي الحق. ولم تجر حوادث هامة في المجلس عدا قضية داود السعدي عندما قام يوماً يخطب فاتّهم الحكومة بأنها تساعد الشيوعية فقامت على رأسه القيامة وفار التنور وأجلسه رابح العطية بعد أن ضربه على رأسه ثم أخرجوه من المجلس وطردوه من تلك الدورة وكأن المسكين كفر بالله ورسوله وبكل المقدسات.. هكذا كانت الحال.. وقبل سنة كان أبطال الشيوعية في المجلس يصولون ويجولون والآن أصبح مجرد إسناد الشيوعية يثير هذه الثورة.

أسفت على المسكين داود السعدي وان لم أكن راضياً على كلامه ولكن الهجوم عليه بهذا الشكل قبل أن يلقي بضع كلمات من خطابه كان لا يأتلف والديمقراطية.. وكان الأفضل أن يستمعوا إليه ثم يسفهوا رأيه ولكن الحماس استولى على ممثلي الأمة وهكذا كان.

شهر العسل

أخذت إجازة من مجلس النواب وسافرت إلى بيروت في ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٨ فنزلت في فندق سان جورج. وصرنا نرتب قضية الزواج. عقد المهر في القنصلية العراقية في ٣ شباط/ فبراير وكان طالب مشتاق القنصل العراقي هو الداعي. كانت الحفلة جيدة حضرها نخبة من رجال بيروت وحضرها أيضاً نوري السعيد الذي وصل إلى بيروت ذلك اليوم نفسه.

في ٥ شباط/ فبراير أقمت ضيافة في فندق سان جورج وكان بين المدعوين نوري السعيد وجميل بيهم ومحمد علي بيهم وطالب وموفق وروضة وعبد الرحمن النصولي وعز الدين وصعب من الأقارب السباعية ونوري فتاح وكان ابراهيم ومحمد حاضرين في المهر والضيافة. كانت حفلة رزينة لا بأس بها وتكلم كل من مدام روضة وعبد الرحمن النصولي وابراهيم بما يناسب الحفلة وقلت أنا أيضاً كلمة للإعراب عن شكري وامتناني وسروري.

في ٧ منه سافر كل من ابراهيم ومحمد ونوري فتاح عائدين إلى بغداد. ومساء ذلك اليوم أجريت حفلة الزفاف على الطراز البيروتي في بيت السباعي. ذهبنا إلى هناك الساعة التاسعة فوجدنا الدار حاشدة بالسيدات والأوانس. وداد جالسة على كرسي في الصالون وبموجب البروتوكول جلست على يمينها وجلس أبوها عن شمالها وأخذ النساء يتفرجن علينا.. كوميديا مضحكة. حفلة لا غربية ولا شرقية وإني لم أكن راغباً بمثل هذه الحفلات إذ طالما كنت في السابق أنتقدها ولكن الآن نزلت عند رغبة وداد والعائلة.

بعد أن بقينا جالسين هكذا وبعد أن اكتفى المدعوات من التفرج علينا افتتحنا «البوفيه» المائدة وتركنا الدار حوالى الساعة الحادية عشرة بعد الوداع والتقبيل والبكاء المعتاد فذهبنا إلى الباخرة.. كان البرد قارصاً والهواء شديداً وكنت غير مرتاح من سفرة البحر ولكن أيضاً نزولاً عند رغبة وداد والعائلة وافقت على السفر بحراً.. تحركت الباخرة نصف الليل ولما كان البحر هائجاً أمسكني الدوار فدخت وارتميت على السرير وقضيت ليلة تعيسة ذكرتني بأول سفراتي من بغداد إلى بومباي سنة ١٩١٩ وما قاسيته من مرض البحر.

في الصباح وصلنا حيفا. وخرجنا إلى البلد. تركنا حيفا بعد الظهر ولم يزل البحر هائجاً فمرضت وتعذبت أمرّ العذاب حتى وصلنا الاسكندرية صباح اليوم الثاني. ولما وصلنا القاهرة ذلك اليوم ونزلنا في فندق كونتيننتال كنا تعبانين تماماً ولم نخرج من الفندق. وكانت هذه السفرة بداية غير طيبة لشهر العسل وندمت لأنني تساهلت في الموضوع فوافقت على مثل تلك الحفلة ومثل هذه السفرة إذ كان عليّ أن أسمع لنداء قلبي لا لتساهل عقلي.. وانقضى أسبوع في مصر وأنا ووداد في السرير مصابين بالرشح والزكام وأتى الدكتور عبد الرحمن الشهبندر لمعالجتنا واعتذرنا لعدم حضورنا دعوة عبد القادر الكيلاني والدكتور فؤاد وهكذا كانت فاتحة الشهر أقرب للبصل منها للعسل مع الأسف. سافرنا مساء ١٧ منه إلى الأقصر. وهناك كانت المناظر جميلة والطقس معتدلاً. قضينا خمسة أيام طيبة ثم سافرنا إلى أسوان حيث قضينا يومين وعدنا إلى

القـاهرة حيث وصلنـا في ٢٥ منه ونـزلنا في فنـدق فيكتوريـا حيث بقينا عشرة أيـام زرنا خـلالها المحلات التي يجب زيارتها وقابلنا أصدقاءنا الكيلانية وستارة وزوجها والشهبندرية وسـافرنـا في ١٠ آذار/ مارس بالقطار فوصلنا في اليوم الثاني بيروت ونزلنا في بيت السباعي..

بين بيروت وبغداد

افتتحنا الإقامة في بيروت بالمرض إذ أصيبت وداد «بالكريب» (الزكام) في اليوم الثاني لوصولنا وتبعتها أنا بدوري في اليوم الثالث وبقيت في السرير مدة أسبوعين وأتى الطبيب وشربنا الأدوية. وبعد انتهاء دور النقاهة سافرنا إلى بغداد في ٩ نيسان/ أبريل ١٩٣٨ ونزلنا في البيت مع ابراهيم وقضي الشهر الأول بالضيافات والولائم والزيارات ثم أخذت الأيام تمر بسكون وهدوء وشكل واحد شأن المتزوجين..

في ١٢ أيار/ مايو كان مدعواً عندنا على الشاي هاينزه وكرشفيلد وسليمان ونوري. وكنا جالسين في الحديقة فأردت أن أسد نافورة الحوض فتزحلق قدمي ووقعت على جبهتي على حافة النافورة فحصل جرح كبير فوق العين اليمنى وأخذ الدم يسيل. فأخذني ابراهيم إلى عيادة الدكتور صائب وهناك خاط الدكتور صائب الجرح وضمده وبقيت بضعة أيام في البيت من جراء ذلك.

وفي تلك الأيام رتبنا خطبة محمد وسعاد. وأراد محمد أن يرى سعاد قبل الخطبة فدعتها وداد على الشاي يوماً وجلس كل من ناهدة ووداد وسعاد في «الهول» (الصالة) ودخلنا نحن من الباب الثاني إلى غرفة الطعام. ومن هناك أخذ محمد ينظر إلى سعاد دون أن يراه أحد على أن المسافة كانت نوعاً ما غير قريبة والنور في «الهول» لم يكن قوياً ومع ذلك قال محمد أنه رأى خطيبته المقبلة ووافق على الخطبة.. ولكن بعده تبين أنه من المحل الذي كان فيه كان ينظر إلى ناهدة فلم يفرقها عن سعاد فظنها هي الخطيبة المقترحة وهكذا تم الزواج وعقد المهر في ٢٠ آذار/ مارس في بيت الدكتور سامي شوكت. وسعد محمد بزواجه بدون نظرية الرؤية قبل الخطبة؛ والمسألة هي عبارة عن حظ وقسمة لا مسألة رؤية وقياس...

أخذت وداد تتضايق من الحر وعيشة بغداد فقررت السفر ولم تستطع أن تنتظر انتهاء دورة المجلس حتى نسافر معاً فسافرت بالطائرة في ١٤ حزيران/ يونيو أما أنا فسافرت بعدها مع نيرن في ٢٣ منه والتقينا في شتورة في فندق المسابكي حيث كان أبو فؤاد وزهير أيضاً. وفي أول كانون الثاني/ يناير ذهبنا إلى صوفر ونزلنا في فندق سافوي أولاً ثم انتقلنا إلى الفندق الكبير.

قضينا في صوفر أربعين يوماً. حياة طيبة وهادئة كلها استراحة وكسل وبطر.. قابلت أكثر من مرة نوري السعيد ورشيد عالي وكانا من المصطافين في عاليه.. جددنا الصداقة مع جماعة صوفر وعلى رأسهم الرئيس إدّه وكنا نلعب بريدج كل يوم تقريباً في الفندق.

السفر إلى برلين وكوبنهاغن

حاولت عبثاً إقناع وزارة الخارجية وعلى رأسها توفيق السويدي ومديرها العام صبيح نجيب بالقيام بما يلزم للتحقيق في قضية الأسلحة وكان السويدي متمسكاً بحجة واهية وهي أن ذلك يكلف الحكومة مصاريف باهظة.. فاقترحت بأن أقوم أنا بدفع نصف تلك المصاريف التي كان قد طلبها مكتب تحقيق سري في لندن ولكن لم أجد أذناً صاغية عند توفيق وكان يقنعني بأن القضية انتهت وتم الإفراج عني وتمت الترضية والتزكية بانتخابي نائباً وأنه هو بصفته وزيراً للخارجية أدلى بتصريح ضد تصريح حكمت السابق وأنه لم يبق هناك أدنى لزوم لفتح الموضوع من جديد.. ولكن بما انني لم أكتف بهذا فقد قررت أن أكشف أسرار تلك القضية بنفسي وعلى حسابي وعليه فقد سافرت من بيروت في ١٠ آب/ أغسطس ١٩٣٨ بالباخرة «فلسطين» إلى أوروبا. وصادف معي في الباخرة السيد زوزيف (جوزيف) بليط وكان جارنا في بغداد وزوج ماكروهي قويومجيان التي كانت رفيقة السفر لنا سنة ١٩٢٢ بين بصرة وبورت سعيد. وكانت السفرة طيبة والبحر هادئاً. وصلنا تريستة في ١٥ منه وبقيت بضعة أيام هناك وأخذت القطار إلى ميونخ وبعد أن مكثت يومين فيها توجهت إلى برلين فوصلتها مساء ١٩ منه وكان في المحطة باستقبالي أسعد وجورج وعبد القادر صالح وخليل عبد الأحد وعمر. نزلت في أوتيل سافوي بالقرب من المفوضية.

ذهبت في اليوم الثاني إلى المفوضية فوجدت عند عبد القادر المحامي عبد الحسين الذي كان نائباً في مجلس حكمت وانفتح حديث الأسلحة وكم دهشت عندما قال عبد الحسين انه في حينه تكلم مع حكمت سليمان بشأن تصريحه في المجلس فأجابه حكمت: «إذا المحكمة ما تثبت الجريمة اني أرسل اناس يغتالون موسى الشابندر». وكنت سابقاً قد سمعت مثل هذا الكلام من طالب مشتاق فلم أصدق به في حينه ولكن تكررت الرواية وهذا الرجل عبد الحسين هو المتكلم في الموضوع وكرر عبد القادر هذا القول على الغداء أمام جورج وخليل وسليم الراوي، فقال خليل انه سمع ذلك أيضاً من أرنست عبديني عن لسان حكمت سليمان.. وكل هذا يدل على روح حكمت الاجرامية وحكمه الأسود..

بقيت أسبوعين في برلين أدرس وأفتش وأفحص فقابلت الخارجية والبوليس السري ولم أهتدِ إلى شيء وعليه رتبت قضية السمات وغيرها وأخذت توصية من السفارة البريطانية إلى مفوضيتهم في الدانمارك. وسافرت مساء يوم ٧ أيلول/ سبتمبر إلى كوبنهاغن فوصلتها في الصباح الثاني فقابلت في اليوم نفسه المستر «راندل» القائم بأعمال المفوضية البريطانية وبواسطته قابلت الهر «كوستاف راسموسن» المدير العام في الخارجية الدانماركية (وهو الآن، آذار/ مارس ١٩٤٦ وزير خارجية) فرأيت عند هذا الوثائق الأصلية وهي الكتابان المزوران مع المخابرات الأخرى. واتصل المستر راسموسن بالشركة التي باعت السلاح وأوصاهم بالمساعدة واطلاعي على ما أريد في تلك القضية. فذهبت إلى مقر الشركة في اليوم التالي ٩ أيلول/ سبتمبر وقابلت هناك السكرتير «يوسف سن» إذ أن المدير «هنكل» كان غائباً وبعد الاتصال به تلفونياً أخذت موعداً لمقابلته يوم الاثنين في ١٢ منه.

قابلت المستر «موللر» وكيل شركة «شمت» لمعامل الاسمنت وسافرت معه تلك الليلة إلى اكبرغ حيث وصلنا صباحاً. وبعد زيارة البلد ذهبنا إلى زيارة معمل الاسمنت وعدنا ذلك المساء إلى كوبنهاغن فوصلنا صباحاً. قضيت نهار الأحد في زيارة المدينة وأطرافها. ويوم الاثنين ذهبت إلى شركة السلاح وقابلت المدير هنكل فأطلعني هذا على الملفات بكاملها وعلى الدفاتر وأخذت صوراً شمسية لأهم الملفات ثم عدت إلى وزارة الخارجية واستلمت صوراً شمسية للوثائق وبعد أن جمعت ما أريد سافرت مساء ذلك اليوم عائداً إلى برلين..

كنت أرتجف غيظاً عندما اطلعت على الوثائق والمخابرات التي لم يكن لي ولا للمفوضية أدنى علاقة بها وصرت أسب وأشتم حكمت سليمان على طيشه وحماقته وإساءته المتقصدة... ولما وصلت برلين سلمت نسخة من تلك الوثائق إلى المفوضية وأخرى إلى البوليس السري الألماني وكنت مصمماً على الذهاب إلى أمستردام لأقابل بطل تلك المؤامرة «ڤان ڤينن» على أن البوليس الألماني أشار عليّ بعدم الذهاب لأن عصابات تهريب للسلاح لا يمنعها شيء من اغتيالي كي لا ينفضح أمرها ونصحني أصدقائي، وكذلك القنصل التركي فريدون بك الذي قابلته لأستفسر عن قضية مماثلة حصلت لمفوضيتهم في الولايات المتحدة حيث قام بعض المهربين بشراء طائرات باسم الحكومة التركية ثم هربوها إلى إسبانيا.. وأخبرني أن الحكومة التركية قامت بتحقيق سري وتوصلت إلى كشف المزور وهو من استانبول وتم كل شيء بدون ضجة وزفة. ولكن انى لحكمت سليمان الأحمق مثل هذا التدبير؟

وأمام هذا التحذير وهذه النصائح عدلت عن السفر وطلبت من الحكومة الألمانية بأن تقوم هي نفسها بتعقب الشخص المدعو «ڤان ڤينن» إذا ما أتى إلى هامبورك كما أنني رفعت تقريراً مسهباً ومربوطاً بصورة شمسية للوثائق إلى وزارة الخارجية بعد عودتي إلى بغداد. وكان تاريخ التقرير بـ ٣/٥/٣٩. أسجل منه هنا نبذة لإتمام البحث:

«في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٦ أتى مدير الشركة التجارية الهولندية المدعو «ڤان ڤينن» «Van Wienen» إلى كوبنهاغن وراجع شركة السلاح الدانماركية مادسن بشأن شراء ١٢ مدفعاً ساحلياً قديماً ومقداراً من القنابل باسم الحكومة العراقية ـ وللشركة الدانماركية علاقة تجارية قديمة مع ڤان ڤينن ـ فهو تاجر سلاح وله مراجعات منذ ١٢ سنة لدى الشركة المذكورة. تمت معاملة البيع مبدئياً بين ڤان ڤينن وبين المستر «هنكل» وهو أحد مدراء الشركة كما أن الاتفاق تم بينهما على صيغة الطلب والشهادة التي يجب إرسالها من المفوضية العراقية في برلين بواسطة المفوضية الدانماركية في برلين (راجعوا وثيقة رقم ١). بعد ذلك أتى ڤان ڤينن إلى برلين ورتب الطلب المزور وأرسله بالبريد مع الشهادة المطلوبة بعد أن زور الختم وتوقيع سمو الأمير زيد (راجعوا الوثائق رقم ٢، ٣، ٤ قارنوا الختم الحقيقي على وثيقة رقم ٥ مع الختم المزور على وثيقة رقم ٤ تجدوا المشابهة كبيرة لكن التزوير واضح). بعد إكمال هذه العملية سافر «ڤان ڤينن» إلى أمستردام لأجل ترتيب مسألة الدفع وفتح الاعتماد اللازم (راجعوا وثيقة رقم ٦) وبعد مخابرة طويلة ومراجعات مع أشخاص آخرين (وثيقة رقم ٧) فتح ڤان ڤينن اعتماداً لأمر الشركة الدانماركية بمبلغ قدره ٢٢٥٠٠ باوند على أن يكون الدفع لقاء تقديم القوائم وأوراق الشحن مجيرة على بياض أي بدون ذكر اسم المستلم وبدون ذكر اسم المحل المرسل إليه وبشرط السماح لإخراج المدافع أقساماً متعددة وكانت مدة الاعتماد إلى نهاية كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٦ (راجعوا وثيقة رقم ٨) على أن شركة مادسن لم توافق على هذه الشروط لأن القوانين الدانماركية تحتم على مصدري

الأسلحة أن يذكروا في أوراق الشحن اسم المستلم وعليه فقد أصرت على ذكر اسم وزارة الدفاع العراقية في الأوراق (راجعوا رقم ٩) فحاول ڤان ڤينن امام هذه المشكلة ان يصدر المدافع أولاً إلى روتردام ومن هناك يشحنها مرة أخرى ولكن شركة مادسن لم توافق على ذلك أيضاً وطلبت أن يكون الشحن إلى البصرة مباشرة فأمام هذه الصعوبات اتصل ڤان ڤينن بأعوانه في باريس واقترح بأن تشحن المدافع في بادىء الأمر من المعامل إلى الاسكلة وقد تم ذلك فعلاً وشحنت المدافع في الباخرة «أرون» على أن تشحن من هناك مع الباخرة «سقوجيا» العائدة إلى شخص يدعى «فرانسوا لئون» من باريس وقد تعهد هذا الأخير بأن الشحن سيكون إلى البصرة ومن هناك إلى بغداد (راجعوا وثيقة رقم ١٠) غير أنه بسبب هذه المشكلات انقضت مدة الاعتماد قبل أن يتم الشحن من الاسكلة وعليه ابطلت هذه العملية.

يتبين لكم مما سبق ومن تدقيق الوثائق المربوطة بهذا التقرير:

أولاً: إن توجيه التهمة إليّ أو إلى أي شخص كان من موظفي المفوضية العراقية في برلين قبل ورود الوثائق وقبل إجراء أي تحقيق كان من أفظع الغلطات. أما اتهامي بشكل تصريح أدلى به رئيس الوزراء إذ ذاك أمام المجلس النيابي فهو الظلم الصريح بعينه.

ثانياً: أظهر المسؤولون عن وزارة الخارجية إذ ذاك عجزاً وقلة تدبير غريبين إذ انهم تركوا رئيس الوزراء يتصرف كيفما يشاء بهذه القضية وكان من جراء ذلك أن ارتبك أمر التحقيق واختلط المجرم بالبريء ولم يحصل من ذلك الاستعجال إلا الإساءة لكرامة المفوضية العراقية في برلين وموظفيها وإلى سمعة البلاد.

ثالثاً: إن المدافع المذكورة كان يقصد إرسالها إلى الحكومة الشيوعية وليس إلى حكومة الجنرال فرانكو كما زعمت وزارة الخارجية إذ ذاك إذ ليس من المتصور أن يتوسل أعوان فرانكو بمثل هذه الوسائل لشراء ١٣ مدفعاً قديماً في حين ان ألمانيا وإيطاليا كانتا تزودان فرانكو علناً بأحدث الأسلحة وأحسن المحاربين هذا فضلاً عن انه لا يعقل توسط شركة شحن فرنسية لإرسال أسلحة إلى الوطنيين.

رابعاً: يظهر أن العصابة التي حاولت القيام بهذه العملية لها علاقة بالأشخاص الذين قاموا بإرسال السلاح إلى الشيوعيين من فرنسا والدليل على ذلك اتصال ڤان ڤينن بفرانسوا لئون في باريس.

ولم تقم حكومة نوري السعيد الجديدة بأمر التحقيق بل انها اكتفت باتخاذ قرار بشأن إعادتي إلى الخارجية وأوصت بالقيام بالتحقيق وانتهى الأمر.

في مصح درسدن

يوم عودتي من كوبنهاغن شعرت بدوخة رأس أتتني فجأة ولبضع ثوان وكنت منزعجاً طوال ليلة السفر بين كوبنهاغن وبرلين. ولربما سبب ذلك تعب الأعصاب والقلق والتفكير والتأثر التي سبّبتها لي قصة فرانكو. فالآن وبعد أن انكشفت أسرار تلك المأساة صرت أشعر بانعكاس ما مرّ بي... أخذ الدوار يتزايد بين فاصلات قصيرة من الزمن.. أثناء المشي وأثناء أية حركة فصار كل هذا يؤثر على أعصابي ونشاطي فزالت شهيتي وازداد قلقي. ومما زادني خوفاً حكاية علي محمود عندما أتى عندنا يوماً في بغداد وأخبرني بمناسبة سقوطي على حافة النافورة وإصابتي بجرح في جبهتي.. قال علي محمود، وكان قوله في غير محله وفطيراً كل الفطر، ان أحد أقاربه قبل بضعة أشهر سقط وحصل له جرح في رأسه وان الدكتور صائب خاط الجرح وشفي ذلك الشاب تماماً ولكن بعد شهرين أو ثلاثة صارت تأتيه دوخة رأس ثم توفي... فصرت كلما شعرت بشيء من الدوران أفكر بقصة علي محمود ويزداد خوفي فيزداد اضطرابي...

ذهبت إلى عدة أطباء وصرت آخذ أنواع الأدوية.. وفي الأخير ذهبت إلى البروفسور «سيمون» المتخصص بالأمراض العصبية. ففحصني أنواع الفحوص وأطفأ الأنوار.. ثم شعلها.. ثم أطفأها ثم أخذ يديرني بسرعة وينظر إلى عيني.. ثم خلعت كل ثيابي فأخذ قطعة من الخشب وصار يدلك بها جسمي وبعد كل هذا قال لا يوجد جرح أو خطر في الجمجمة ولكن أضاف بأنه يجب أن أعود إليه بعد أسبوع وأعطاني بعض الحبوب لتداوي الأعصاب.. فخرجت من عند الدكتور سيمون وأنا أشد خوفاً من ذي قبل...

كنت يوماً على موعد مع عبد القادر صالح للذهاب إلى دسلدورف لزيارة معرض، فلما أفقت ذلك الصباح وأردت أن أحلق ذقني أحسست بدوخة شديدة فذهبت إلى السرير وعدلت عن السفر واستدعيت البروفسور سيمون. فأتى هذا وقال لا يوجد سوى أن أعصابي تعبى ونصحني أن أذهب إلى مكان للاستراحة.. وخطر ببالي ما كانت تقصه عليّ البرنسيس فخر النساء حول مصح درسدن وتقرر أن أذهب إلى هناك للتداوي والاستراحة. وعليه فقد سافرت بالسيارة في ٨ تشرين الأول/ أكتوبر إلى درسدن ورافقني كل من عبد القادر وزوجته بلقيس وجورج. وبعد أن بقوا معي يوماً في درسدن عادوا إلى برلين وبقيت أنا في «السناتوريوم وايدنر» حيث بدأت بأنواع الفحوص وأخذت تصاوير بالأشعة للرأس والرئة وأكد لي الطبيب انه لا يوجد مرض عضوي بل أن هذه الدوخة آتية من تأثر الأعصاب. بقيت في المصح لمدة تقارب الشهر وتحسنت صحتي في الأيام الأخيرة قبل عودتي ولكن الدوخة لم تتركني تماماً إلا بعد أن حضرت المحاكمة بسبب الدعوى التي أقمتها على «بالجي» وهو اليهودي التركي صاحب الشقة المؤثثة التي كنت أسكنها.. فهناك غضبت وصرت أصرخ على بالجي بسبب معاملته العاطلة وأحابيله وانتهت الدعوى صلحاً لأنه قبل بـ ٧٠٠ مارك تعويضات عن الأثاث بدلاً من الـ ٢٠٠٠ مارك.. وعندما تركت برلين في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر كانت صحتي جيدة وكادت الدوخة تزول بالمرّة. فحمدت الله وغفرت لعلي محمود رعونته وقلة ذوقه حول قصة الدوخة...

العودة إلى بيروت وبغداد

وصلت إلى استانبول في ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٨ عائداً من برلين فنزلت حسب عادتي في فندق «بارك» وكنت أشعر بنشوة الانتصار على مؤامرة حكمت سليمان وهذه الوثائق التي كنت أحملها معي كانت كافية لكشف الحقيقة للعيان. بقيت في استانبول بضعة أيام لقضاء بعض الأشغال الخاصة. لم يكن إذ ذاك أحد من العراقيين في استانبول ولم يكن سوى حكمت سامي سليمان في القنصلية وكان على قوله هو الكل بالكل: القنصل والمعاون والكاتب... ومن غرائب ما سمعته منه أن الفراش لقلة راتبه كان يشتغل بعد الدوام كصباغ للأحذية في إحدى المقاهي! وما أكثر الغرائب في ماكينة الدولة العراقية!

تركت استانبول في كانون الأول/ ديسمبر. فلما وصلت إلى حلب في اليوم الثاني وجدت في المحطة أسعد السباعي وأخويه عبد الحميد وصبحي وكذلك عبد الكريم السباعي ونور ونافع بك السباعي وابنه احسان. فكان ذلك الاستقبال مفاجأة طيبة. نزلت في فندق بارون وقضينا اليوم الثاني بزيارة قلعة حلب وأسواقها والمدينة القديمة. وفي اليوم الثالث سافرنا صباحاً بالسيارة عن طريق حمص وحماه فوصلنا إلى بيروت مساءً. وجدنا الجميع بخير وكانت وداد على ضعفها يوم تركتها إذ ان غيدة كانت في الطريق وقد اقترب تشريفها..

بقيت في بيروت شهراً أو ما يزيد؛ وشتاء بيروت ليس من المواسم الممتازة لكثرة المطر والرطوبة.. ذهبت إلى الشام خلال تلك المدة مرة واحدة مع أبي فؤاد وهناك سمعت بتبديل الوزارة وتشكيلها من قبل نوري السعيد في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر. قابلت في الشام صديقنا ابن العم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وعدت بعد يومين إلى بيروت.

غيدة

وأتى اليوم المنتظر وذهبت وداد إلى المستشفى الأميركي صباح الاثنين في ٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٩ وفي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ولدت غيدة وحمدنا الله على صحة وداد وصحة القادمة الجديدة. وصرت أشعر بحس غريب.. هو حس الأب وفيه مزيج من الحنان والفخر...

في ٩ كانون الثاني/ يناير سافرنا بالسيارة إلى الشام في طريق العودة إلى بغداد وسافر معي نور السباعي وأسعد النجار. تركنا الشام في اليوم الثاني ووصلنا بغداد في ١١ منه فوجدنا ابراهيم وجماعتنا بانتظارنا في المطار. وهكذا عدنا إلى بغداد؛ والعود أحمد.. وكانت السفرة هذه ملذّة بصحبة نور وأسعد على أن هذا الأخير نام نوماً عميقاً من الشام إلى بغداد ولم يفق إلا بعد أن نستضيفه وذلك بالرغم من اهتزاز السيارة ووعورة الطرق والمطبات المتوالية، وأسعد النجار صديقنا من أيام برلين الأولية وله قصص عديدة فأضفنا إليها قصة النوم هذه.. وبعد أن قضينا أياماً قلائل في بغداد سافر كل من نور وأسعد عائدين إلى بيروت..



خلال احتفال في السفارة التركية في برلين (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٦) ويبدو من اليمين المستشار الإيراني، موسى الشابندر، الأمير زيد وزوجته فخر النساء والسفير التركي.



عراقيون وفلسطينيون في المعتقل: الواقفون من اليمـين: عارف الجـاعوني، الشريف سيف نـاصر، موسى الشـابندر، كـامل شبيب، محمد عباس، عبد الرزاق شبيب، عبد الجبار محمود، الدكتور داود الحسيني، محمد علي محمود.

الجالسون: رؤوف البحراني، أمين التميمي، ناجي السويدي، الشريف شرف، داود سعدي، عبد القادر الكيلاني.

على الأرض: فاضل رشيد، جمال الحسيني، جودت سامي سليمان، برناوي.



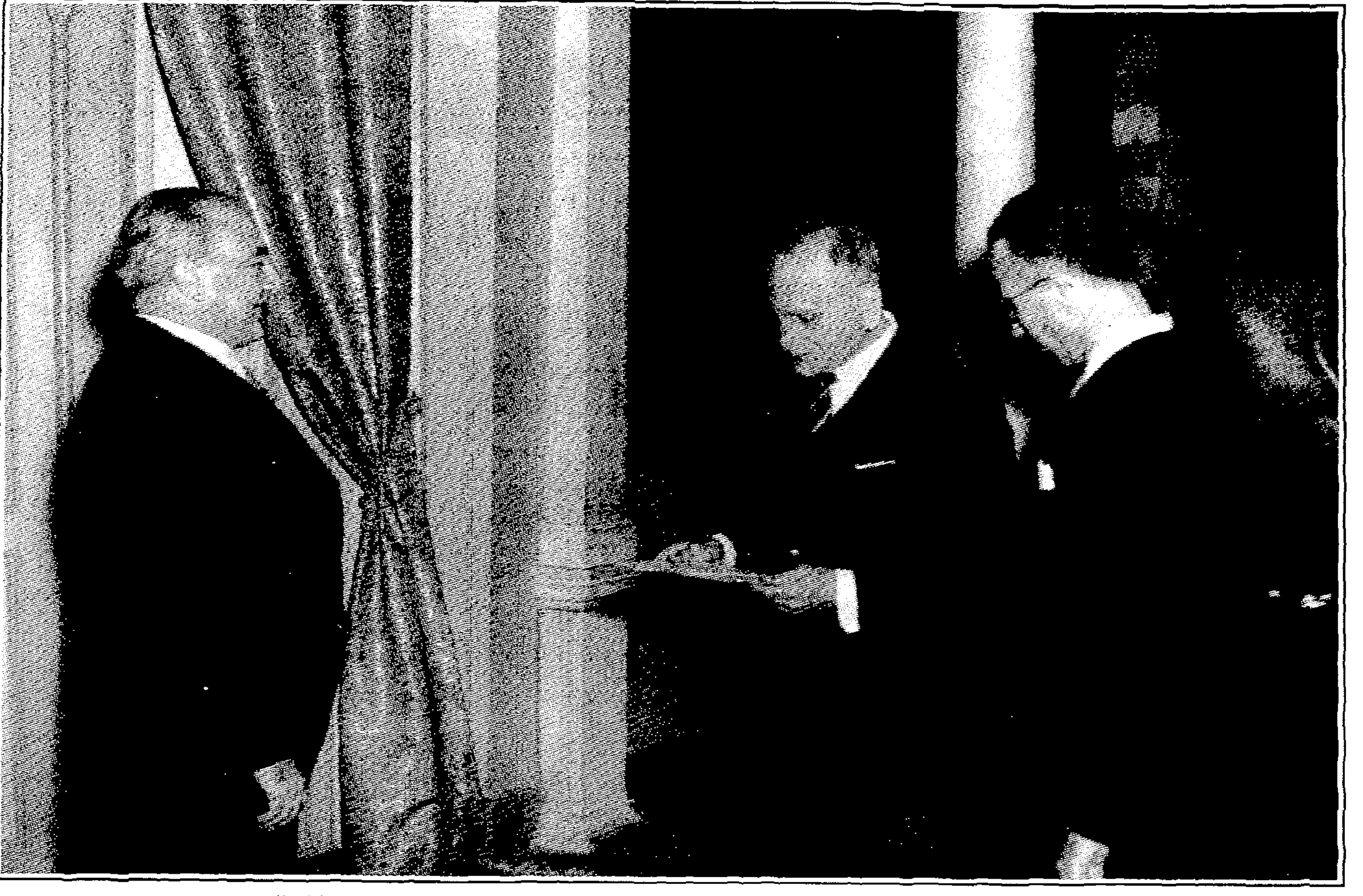
موسى الشابندر يلعب الطاولة مع صديق شنشل في سجن الأهواز.



في مزرعة قائد معتقل سالزبوري في روديسيا (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٣) ويبدو من اليمين الميجور برايتهوديت قائد المعتقل موسى الشابندر وزوجة الميجور ومحمد علي محمود وجودت سامي سليمان .



من اليمين
رؤوف البحراني،
جمال الحسيني،
داوود الحسيني،
محمد علي محمود
جودت سامي سليمان
سنة ١٩٤٣.



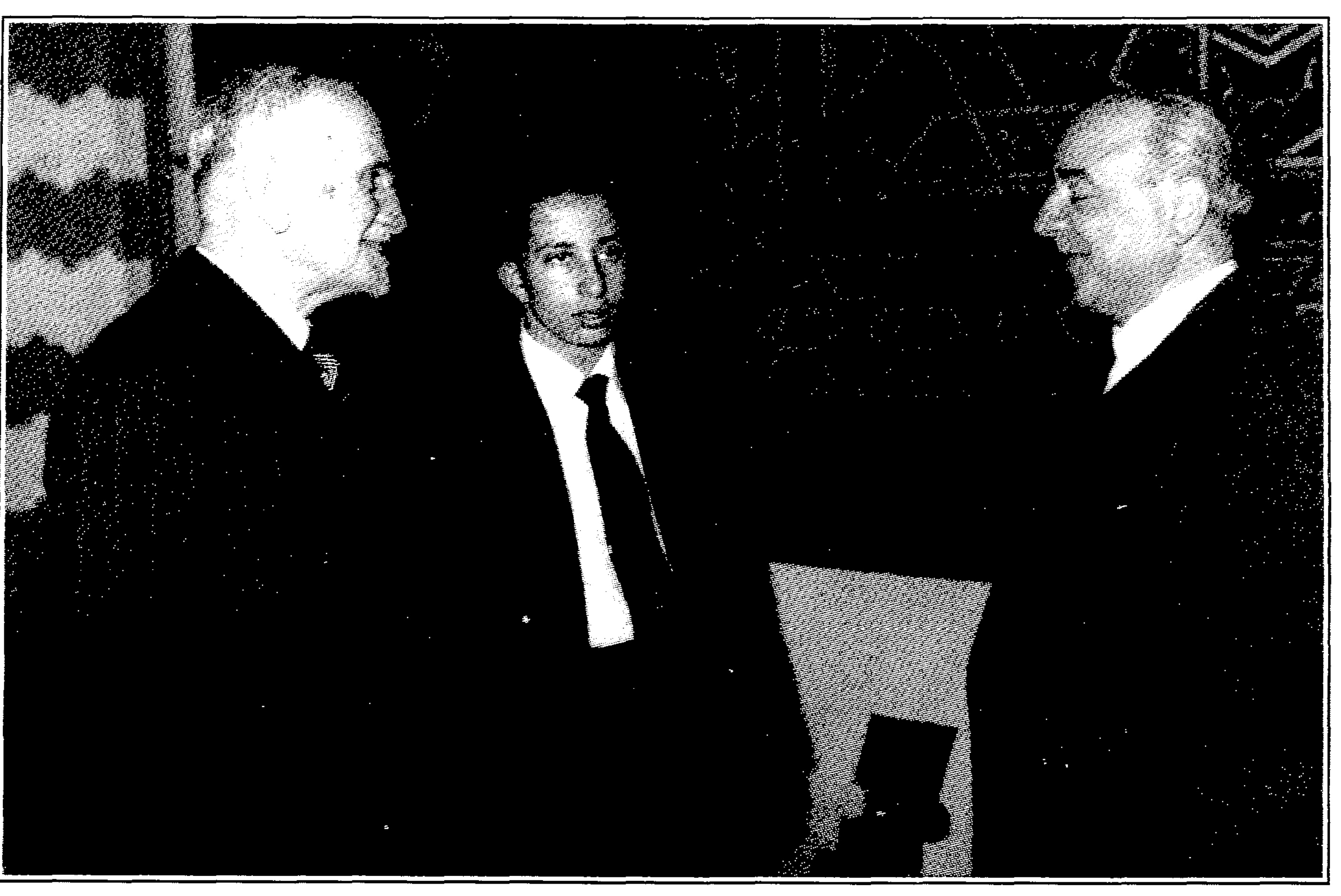
الرئيس السوري هاشم الأتاسي يتسلم أوراق اعتماد موسى الشابندر كسفير للعراق في سوريا ويبدو إلى اليمين ناظم القدسي.



موسى الشابندر مع مصطفى النحاس باشا وتوفيق السويدي في القاهرة (سنة ١٩٥٠).



مع الوفد العراقي إلى مجلس الجامعة العربية ويبدو من اليمين صالح صائب، موسى الشابندر، بهاء الدين طوقان، نوري السعيد، نجيب الراوي وابراهيم الفضل. (مطار القاهرة ١٧/١/١٩٥١).



مع الملك فيصل الثاني خلال زيارته الرسمية إلى سوريا ويبدو إلى اليسار الرئيس هاشم الأتاسي.



افتتاح مجلس الجامعة العربية (دمشق أيار/مايو ١٩٥١) ويبدو من اليمين ابراهيم الخضيري، موسى الشابندر، توفيق السويدي، حسين العويني، أحمد طوقان، فؤاد عمون والقاضي المؤيد وزميله.

القِسْمُ الثَالِث

نَصِيبَك يَصِيبَك

سنة ١٩٣٩

لا شك في أن تاريخ البشر سيضع سنة ١٩٣٩ في عداد السنوات التي تشكل محطة أساسية في التاريخ وتفتح صفحة جديدة في تطور البشرية. ولا تنحصر اهمية تلك السنة في حياة الشعوب وتاريخ الأقوام، بل شملت العالم بأسره شعوباً وأفراداً. فخلالها نشبت أعظم حرب عرفها البشر وتشعبت تلك الحرب وتطورت وأمحت وأبادت وقدمت وأخرت، وكان لها أثر عظيم لدى الأمم ولدى الأفراد، وقد تكون آخر الحروب وخاتمتها وقد تكون أول حروب الإمحاء وبداية الفناء للبشرية، وكان لكل الناس علاقة اما مباشرة أو غير مباشرة بتلك المجزرة وذيولها وتوابعها، ولم يسلم من شرها لا المغلوب ولا الغالب ولا المشترك ولا المحايد. انها خبطت خبط عشواء فأصابت من أصابت وأهملت من أهملت كل حسب طالعه ونصيبه، وكان لي مع الأسف نصيب وافر من شرها وحصة كبيرة من عذابها ومرارتها.

وصلت بغداد عائداً من بيروت بعد أن قضيت ثلاثة أشهر في برلين وكوبنهاغن بشأن التحقيق عن قضية السلاح، في ١١ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٩. كان نوري السعيد رئيساً للوزارة ووكيلاً لوزير الخارجية، وازدادت آمال المظلومين أيام حكمت سليمان في انصافهم بعد تبدل الوزارة. إذ كان جميل المدفعي محافظاً على سياسة اسدال الستار، كل المحافظة. اما أنا فقدمت تقريراً مفصلاً حول قضية السلاح مستنداً إلى التحقيق الذي قمت به شخصياً في الدانمارك ومعززاً بوثائق مصوّرة، وطلبت العودة الى السلك الخارجي واعادة النظر في أمر فصلي من الخارجية. وقد وجدت أن الحكومة الجديدة راغبة في عودتي الى الخارجية، وعليه قرر مجلس الوزراء بصورة خاصة في ١٣ أيار/ مايو ١٩٣٩ اعادة تعييني في السلك الخارجي واعتبار الفصل غير وارد.

سررت كثيراً بهذا الأمر وشكرت لنوري السعيد عمله هذا فقد كنت أرغب في العودة الى الخارجية اعادة اعتبار لكرامتي وكرامة المفوضية التي أسستها وقمت بادارتها وبأعبائها مدة وجودي موظفاً فيها.. وكنت أرغب في السلك الخارجي لأني قد تخصصت فيه وعينت فيه برغبة مني في خدمة بلادي واتباعاً لأمر الملك فيصل، ولأنني كنت أعتقد بأنني أستطيع أن أقوم بتلك المهمة أحسن من غيري لقلة الرجال المتخصصين بالسلك عندنا.

أما النيابة أو العمل في بغداد فلم أكن ميالاً لهما وهناك في البلاد عدد كثير ممن يتقنون مهمة النيابة والوظيفة، وتراهم يتهالكون عليها ولا تحتاج مثل تلك الوظائف إلى اختصاص أو علم أو مقدرة إنما يتوصل الإنسان اليها بالمحسوبية والتقرب ولم أكن يوماً مستعداً لمزاحمة الناس في تلك النواحي. وتلائمني الدبلوماسية من وجوه أخرى منها الاختلاط بالناس والعالم المتمدن والاطلاع على السياسة العالمية ودواليبها وخفاياها، هذا فضلاً عن رغبتي الشخصية بالعيش في أوروبا سواءً أكان ذلك من الوجهة الثقافية أم من الوجهة الصحية. فلهذه الأسباب كنت مغتبطاً بالعودة الى السلك الخارجي وبإعادة حقي ورفع الظلم عني.

كان نوري السعيد كلما يقابلني يسألني مازحاً «لولا بنت القنصل لهانت القضية. ـ وكيف حال فان فينن» واذا «ابتلش» نوري بنكته لا يطلع منها.. وكان يقصد من «بنت القنصل» فرولاين «كارمن بون» التي كانت رفيقة سفرتي من استانبول الى الموصل والتي شاهدت توقيفي والزفّة في قطار كركوك فكنت أمامها خجولاً متألماً.. و«فان فينن» هو بطل قضية الأسلحة وقد سمع تفاصيلها مني فكان أبو صباح كلما يراني يمزح ويعد بأنه سيعينني وزيراً مفوضاً إلى برلين. وفي ١١ آذار/ مارس ١٩٣٩ قابلت خلال تشييع جنازة عبد الحسين الجلبي في الكاظمية الدكتور غروبا فأخبرني بأن نوري باشا كلمه وطلب اليه السؤال من برلين لإيفادي وزيراً مفوضاً لدى حكومة الرايخ وانه قد ابرق الموافقة. وبعد شهر من ذلك قابلت الباشا في الخارجية فأخبرني بأن الحكومة، بعد درس قضيتي في لجنة الانضباط، ستبعثني وزيراً الى برلين.. وخلال هذه المدّة عيّن علي جودت وزيراً للخارجية في ٢٦ نيسان/ ابريل، وبعد تسويف وتطويل من نوري دخلت قضيتي في مأزق. فقد وعدني نوري بأن أكون وزيراً مفوضاً وفاتح الوزير الالماني بالموضوع وأبرق هذا إلى حكومته وأتت الموافقة ولكن علي جودت بتأثير من بعض الموظفين في الخارجية تمسك بعدم جواز ذلك لأن قانون الخدمة المدنية لا يجيز ذلك، فأصدر أمراً بتعييني كالسابق سكرتيراً أولاً... وهنا رفضت هذا التعيين وتملص نوري حسب عادته وتداخل رستم حيدر في الأمر وحلت القضية بشكل تسوية: لا شيش ولا كباب! فعينت مستشاراً وانتهى الأمر!

والغريب في الأمر أن رجالنا الذين طفروا وتقدموا وأصبحوا وزراء مفوضين ووزراء دولة بدون حساب أو كتاب كانوا دائماً يقفون في وجه تقدم طبقة الشباب وان كان هؤلاء أقدر منهم وأعلم، وكانوا دائماً في مثل هذه الحالات يتمسكون بالأنظمة والقوانين بينما يضربون بها عرض الحائط عندما تناسب مصالحهم الخاصة.. وكان موقف علي جودت في قضيتي مثالاً لتلك الذهنية الانتهازية، فعلي جودت الذي كان رئيساً للوزراء وشغل مناصب وزارية متعددة وهو لا يملك من العلم الا رائحته ومن السياسة العالمية الا اسمها، كان لا يرتاح إذا رأى شاباً متعلماً يشغل منصباً يقترب من منصبه وقد لاحظت أن هذه الذهنية قوية عند جميع رجالنا وقد يكون علي جودت أهونهم شراً في هذا الصدد.

أما الشباب في مقر الوزارة فقد كانوا بدورهم لا يرتاحون إلى تقدم زميل لهم وذلك من باب الحسد والأنانية ولذا وجدوا جهدهم مع الوزير وأتوا له بنصوص الأنظمة والقوانين وأقنعوه، فوقف معارضاً لاقتراح نوري السعيد. وبما أن الباشا هو رئيس المتملصين فوجدت أن لا فائدة من الإصرار، فقبلت بمنصب المستشار الذي كنت أستحق الترفيع اليه قبل ثلاث سنوات ولكنني

لم أطالب بذلك ولم أكتب لأحد ليتوسط لي بشأنه.. ومن عادة القوم أنهم يغمطون حق الساكت ويسكّتون لسان المشاغب بإغداق الترفيع والترقية عليه بحق أو بدون حق.

بشّر الظالم بالظلم

كنت ولم أزل أعتقد بأن الظالم ينال جزاء ظلمه عاجلاً أم آجلاً ولذا لم أكن من المستغربين يوم سمعت في ٧ آذار/ مارس ١٩٣٩ بأن الحكومة ألقت القبض على حكمت سليمان بتهمة المؤامرة ضد الملك، وأنه أحيل مع شركائه إلى محكمة الادارة العرفية. وبالرغم من اساءة حكمت لشخصي واعتدائه عليَّ فلم أكن من الشامتين بما أصابه بل إنما كنت من الآسفين على أننا لم نزل نعيش في دور متأخر من الحياة الذي يكثر فيه الظلم والعدوان وينمو فيه الحقد والانتقام. ولم يكن أسفي على شخص حكمت لأنه هو البادىء، والبادىء أظلم. وهو الذي فتح دور الدس والتآمر وتدخل الجيش بالسياسة ونصب ديكتاتورية زائفة بغيضة، وعلى يد حكومته، وعلى يده، دونت صفحات سوداء من الظلم والاعتداء... فحكمت نال جزاء أعماله ويسّر الله له من يقوم بمحاسبته سواء أكان العمل المتهم به حقاً أم باطلاً، وسواء أكان له يد شريكة في هذه المؤامرة أم لا... فإن الله أنزل ببكر صدقي وأعوانه جزاء أعمالهم، وها هو الآن ينزل بحكمت سليمان ما يستحق على يد نوري السعيد.

سمعت بعد مدّة طويلة ممن دافع عن حكمت من المحامين أنه كان بريئاً مما اتهم به وأن المسألة دبرت تزويراً عليه وانتقاماً منه، وقد يكون هذا صدقاً أو قد لا يكون، لكن العبرة الأولى هي أن الظالم ينال عقابه والزمان يهيىء له ما يستحق. فحكمت طغى وتكبر وبطش واعتدى فحصد ما زرع وجنى ما غرس. والآن وأنا أكتب هذه السطور فإنني على يقين بأن الله عز وجل سوف يجازي الذي اعتدوا عليَّ وظلموني.. وان الواقعة ستقع على رؤوس أولئك الظالمين عاجلاً أم آجلاً...

بعد حادث المؤامرة ببضعة أيام، كنت مدعواً عند عمر نظمي في الصليخ وكان بين الحاضرين الأمير زيد ونوري السعيد، ورشيد عالي وطه الهاشمي وحسين فوزي وداود الحيدري، ففهمت بعض التفصيلات حول المؤامرة وأن الملك محتد جداً. وقبل سنتين في مثل هذا الوقت كان كل هؤلاء الرجال بين مشرد وموقوف وخائف معتكف في مقر داره بينما كان حكمت، الكل في الكل يحكم بما يريد! وبعد أيام سمعنا بأن المحكمة حكمت على المتآمرين بالإعدام وكان حكمت بينهم، ثم بدل الحكم بالسجن لخمس سنوات. وسمعت في تلك الأيام كذلك من ناجي شوكت أن الملك ونوري كانا ينويان تنفيذ الحكم ولكن هو وبعض الوزراء أصروا على تبديل الحكم فأنقذوا حكمت سليمان، وقدّرت ناجي شوكت على موقفه لأنني كنت ولم أزل أعتقد ببطلان شرعية الحكم على أي انسان بالموت وأعتبر ذلك عملاً همجياً لا يأتلف مع كرامة الإنسان والحضارة، والقاتل في نظري هو قاتل مهما كانت الظروف والعوامل، ولا يرفع الحكم في المحاكم أثر الهمجية والوحشية الملازم لفعل القتل، ولذا ألغت الشعوب المثقفة الراقية الحكم بالموت من قوانينها وشرائعها. فسررت بتبديل حكم حكمت سليمان وإن كان هو قد نوى اغتيالي فيما إذا برأت المحكمة ساحتي من التهمة المعهودة.

أحداث متفرقة

قضيت النصف الأول من سنة ١٩٣٩ في بغداد وأهم حوادث تلك المدّة بالنسبة لي هي:

(١) ولادة غيده في ٢ كانون الثاني/ يناير في بيروت.

(٢) مثِّلت روايتي «وحيدة» في قصر الزهور وأذيعت من هناك. بعد أن كان تمثيلها ممنوعاً عندما نشرتها وسررت بأنها أصبحت مرغوبة وبأنها ستمثل في القصر الملكي، في ٢٧ كانون الثاني/ يناير.

(٣) في ٣ شباط/ فبراير كنت مدعواً على العشاء عند الأمير زيد وزوجته البرنسيس فخر النساء فقصّت عليّ تفاصيل مقابلتها لهتلر وغورينغ وأن هتلر دعاها على الشاي عندما تركت برلين وأرسل اليها باقة ورد الى المحطة عند السفر وأنها كانت المرأة الأولى التي اهتم هتلر بها بهذا الشكل. وكانت تقص ذلك من باب التفاخر، ولكن هذه الأحاديث وغيرها أساءت الى سمعة الأمير وجعلته مصبوغاً بالنازية وان لم يكن له علاقة أو علم بالموضوع.

(٤) وصل ولي عهد ايران في ٢٦ شباط/ فبراير وكان الاستقبال بارداً وغير منتظم. أحد أقواس النصر الخشبية وقع ساقطاً على الأرض في هبة ريح بسيطة قبل مرور الضيف بدقائق فمرت سيارته فوق أنقاضه. وكان الأمير زيد يرافق ولي العهد. نحن كنا فوق سطح حماية الأطفال ومقابلنا على سطح مديرية السجون كان الأمير فيصل ابن الملك غازي والأمير رعد ابن زيد، فلما رآهما الناس أخذوا يهتفون لهما تاركين ولي عهد ايران وشأنه. ويظهر أن الهتاف للأمير رعد كان أكثر منه للأمير فيصل. وعندما قابلت البرنسيس فخر النساء بعد ذلك بيومين وجدتها مسرورة جداً لذلك وقالت إن الحماس والهتاف كان كله لرعد وأن النساء في البيت الملكي كن غير مسرورات من ذلك.

كنت مدعواً للحفلة التي أقيمت على شرف الأمير شاهبور في بهو الأمانة حيث كانت تدور أحاديث حول هذا الأمير وأخلاقه وأنه خشن الطبع، صريح العبارة، خفيف الحركة. وقد وجدته أقرب الى جماعة الشباب المتعجرف منه إلى الأمراء...

(٥) في ٧ آذار/ مارس اعتقل حكمت سليمان وأعوانه بتهمة المؤامرة ضد الملك. كما مر ذكره.

(٦) في ١٨ آذار/ مارس سمعت بالهجوم الألماني على تشيكوسلوفاكيا... واستغربت كثيراً.. وكان الماجور ستيفن معي، وهو وان كان نازياً فإنه لم يستحسن عمل هتلر وحاول تبرير ذلك العمل لكون تشيكوسلوفاكيا أصبحت وكراً للطائرات الروسية، ولكن كانت هذه خطيئة لا تغتفر لا سيما وان هتلر قد وعد باحترام الحدود الجديدة بعد اتفاق ميونخ وصرح أمام العالم بأنه لم يبق له أي مطمع في أوروبا.. قاتل الله الطمع وشهوة الحكم!

(٧) في ٢٨ آذار/ مارس صباحاً ذهبنا إلى الكوت بمناسبة افتتاح سد الفرات وهذا مشروع عظيم يدل على نهضة جديدة نحو الرقي والتقدم. وكان معي بالسيارة طالب مشتاق وصادق البصام. الحفلة كانت لا بأس بها. وأتى الملك ونوري السعيد بالطيارة وجرى الافتتاح بمراسم

مناسبة وأقيمت بعده ضيافة غداء على ترتيب ضيافات الربيع فيها «قوزي» وحواشيه. بعد الظهر ذهبنا الى بيت عباس مظفر وكان حاكماً هناك. وفي العودة مررنا بمزرعة محمود صبحي الدفتري.

(٨) في ٤ نيسان/ ابريل وقع حادث مفجع ومهم جداً بالنسبة إلى العراق وهو وفاة الملك غازي على أثر اصطدام سيارته التي كان يقودها بعمود حديدي في قصر الزهور. أجريت مراسم لتشييع جثمان الملك إلى المقبرة الملكية. والمراسم كانت مؤلمة. فالمناحة كانت على طول الطريق وكان البكاء والتألم حقيقياً، إذ أن الملك غازي كان شاباً في مزدهر الشباب وقد أصبح محبوباً لدى طبقات الشعب منذ أيام الثورة الآثورية وقد ضاعف الشعب حبه له لتصريحاته الوطنية وجرأته والدعايات الوطنية التي كانت تبثها محطة الإذاعة في قصر الزهور.

ولم يكن الملك غازي قديراً ونابغة مثل أبيه الملك فيصل، على أن المقدرة والنبوغ والحكمة لا تكفي لتحبيب الملك لشعبه. فارتباط العراقيين بالملك غازي لم يأت عن طريق التقدير لمزاياه الملكية إنما أتت عن الاعجاب بجرأته وموقفه ضد الانكليز أيام ثورة الآثوريين وفي كل مناسبة تصادمت فيها مصالح الطرفين. ولذا كان حزن الشعب عميقاً لتلك الفاجعة وقد أظهر ذلك الشعور القلبي بشتى الوسائل فوقعت بعض الحوادث المؤسفة منها هجوم المتظاهرين في الموصل على القنصل البريطاني وقتلهم اياه بأبشع صورة. وعلى اثر هذه الحوادث وزعت مناشير في بغداد مفادها أن الانكليز هم الذين دبروا قتل الملك غازي وأن نوري السعيد هو خادمهم المطيع. فأوقفت الحكومة بعض الطلاب وشاع أن الألمان كانوا هم المحرضين لمثل هذه الحوادث. ومهما قيل من صدق ومن كذب حول هذا الموضوع، فالحقيقة كانت أن الشعب تألم كثيراً لوفاة مليكه الشاب. أما أن الانكليز كانوا غير راضين على غازي فهذا أمرٌ معروف لا يجهله أحد على أنني لا أصدق الشائعات القائلة بأن لهم اصبع فيما حدث...

واما أن نوري السعيد كان خادم الانكليز فهذا كلام فيه مبالغة، فالصحيح أن نوري كان ولا يزال «صديقاً مطيعاً» لهم ينظر الى الأمور كما ينظرون ويشعر كما يشعرون، فكان والحالة هذه غير راض على الملك غازي وتصرفاته. وفي مثل هذه الحالات يتظاهر نوري بأنه «أكثر ملكية من الملك» وقدْ وصل به الأمر أنه عندما كان في لبنان سنة ١٩٣٧ قال لي أثناء زيارتي له أنه لا يجوز أن يبقى شاب أرعن مثل غازي ملكاً علينا، ولمَّح قائلاً: «ان اقتضى الأمر علينا أن نفضل أحد أبناء ابن سعود...» وفي تلك الأيام كان نوري والانكليز ميالين لابن سعود وكان هذا قد أهدى نوري سيارة فخمة وأهداه ما أهدى بواسطة موفق الألوسي، وقد روى لي شيئاً حول هذا الموضوع موفق نفسه... فلا شك أن هنالك عدداً كبيراً من الناس لا يجهلون شعور نوري تجاه غازي. فلما وقعت الحادثة بذلك الشكل المفاجىء الغامض أخذت الألسن تلوك الشائعات ضد نوري وأصدقائه الآمرين من الانكليز.

اجتمع مجلس الأمة في ٦ نيسان/ ابريل وتم انتخاب الأمير عبد الإله وصياً على الملك الطفل، وكان لهذه التدابير التي نحَّت الأمير زيد عن ذلك المنصب بالرغم من أنه أكبر أفراد العائلة وأقربهم من الملك الصغير، أثر كبير في تطورات العراق وكان في كل ذلك انتصار جديد لنوري وأعوانه. وفسَّر الناس بأن مجلس الأمة فضل الأمير عبد الإله على الأمير زيد بسبب زوجة هذا الأخير لأنها تركية ومطلقة وعندها أولاد من زوجها الأول و... و... على أنه من المؤكد أنه لو أراد

الانكليز تنصيب زيد بدلاً من عبد الإله لكان نوري أذعن للأمر وأقنع الناس بمزايا زيد وماضيه وأظهر لهم نواقص عبد الاله وعيوبه، ولكان مجلس الأمة أجمع في الانتخاب عم أبي الملك بدلاً من ابن عم أبيه...

أقيمت حفلة تأبين كبيرة للملك الراحل في بهو الأمانة في ١٤ أيار/ مايو وكنت عضواً في اللجنة التي قامت بترتيب تلك الحفلة التي اشتركت فيها وفود عديدة من سورية ولبنان وفلسطين ومن الألوية العراقية كلها، وكان نوري السعيد رئيس الحكومة يتقبل التعازي وهو على وشك البكاء!

السفر

بعد أن صدر الأمر الوزاري بتعييني في برلين سافرت بسيارتي مع صديقي المهندس فؤاد الحسين إلى الشام في ٦ تموز/ يوليو ١٩٣٩ وذهبت رأساً إلى صوفر حيث كان ابراهيم وعائلته ووداد ساكنين في بيت استأجروه للاصطياف. قضينا ما يقارب الشهر بالتمتع بهواء صوفر وسكونها وهدوئها إلى أن وردت برقية من وزارة الخارجية في بغداد تطلب إليّ السفر إلى مقر وظيفتي، برلين فسافرنا بالقطار من طرابلس الشام عن طريق استانبول. ولما كانت هذه السفرة للاقامة بشكل دائم في برلين فقد أخذنا كل حوائجنا بعد أن شحنا السيارة بالباخرة إلى هامبورك واستصحبنا معنا «ليلى» مربية غيدة.

تركنا طرابلس مساء ٣ آب/ أغسطس فوصلنا استانبول بعد يومين ونزلنا حسب المعتاد في أوتيل بارك. وبقينا ثلاثة أيام في استانبول لأجل الاستراحة وقضاء بعض الأشغال وسافرنا في ٩ منه إلى برلين حيث وصلنا صباح ١٢ فوجدنا في المحطة عبد الكريم السباعي وأسعد خليل وهانس وفؤاد وتوفيق وذهبنا رأساً إلى المفوضية. ولم يحضر صديقي عبد القادر صالح إلى المحطة معتذراً بأنه مصاب ببرد ولكنه أتى من بعد الى المفوضية مرحباً... وبالطبع كان عبد القادر يفضل أن يبقى رئيساً للمفوضية إذ أنه بعد سحب الأمير زيد، بقي هو لمدّة قائماً بالأعمال حتى أتى عطا أمين ولم تكن علاقته بهذا جيدة. فلما نقل عطا الى روما عاد عبد القادر قائماً بالأعمال حتى وصولي. فهذا «الصعود والنزول» في المركز ليس من الأمور المستحسنة ولا المشجعة بالنسبة إلى الموظف واني مررت بمثل هذه التبدلات خلال قيامي بأعمال جنيف وبرلين فيما مضى، ولذا كنت أعلم بما يشعر به عبد القادر بالرغم من الصداقة والمودة التي يشعر بها كل منا نحو الآخر... على أن الانسان يتعود وقضت الصداقة على انزعاج هذا التبدل سريعاً وكنت أشعر بعطف خاص نحو عبد القادر لما أظهره نحوي من صداقة واخلاص واهتمام في الصيف الماضي عندما أتيت إلى برلين للتحقيق في قضية السلاح وعندما مرضت وسافر معي الى درسدن، هذا فضلاً على أنه كان رفيقاً لنا في مدرسة الاتحاد مع أخويه عبد الحميد وعبد المجيد. وعبد القادر بالرغم من حبه «البهبهة» والتظاهر بالعظمة والمقدرة فإنه من الموظفين الأذكياء المدركين وكان العمل معه مما يريح القلب. وكان مع عبد القادر سليم الراوي ملحقاً وهو شاب مؤدب وطيب لكنه لا يحل ولا يربط والكاتب خليل عبد الاحد بالرغم من استعجاله وتلبكه موظف شاطر والكاتب المحلي هانس هو الذي عينته عند تأسيس المفوضية.

كنت أشعر بسرور وارتياح بهذا المنصب الجديد لأنني عدت الى برلين بعد قضية السلاح ولأنني شخصياً أفضل العيشة فيها على أي محل آخر ولأن أمامنا مجالاً لخدمة البلاد وتأسيس علاقات اقتصادية مع المانيا تعود بالنفع على العراق... فكل ذلك كان يجعلني مغتبطاً بالوظيفة الجديدة وراضياً عنها ومؤملاً بالاستقرار بعد كل ما حصل من تبديلات وأسفار وذهاب وإياب، فالآن انتهى ذلك وأتى دور العمل المفيد والاستقرار!

الحرب

عبثاً يحاول الإنسان الركون إلى الهدوء والاستقرار واتّقاء الشر إذا كتب الله له أن لا يهدأ ولا يستقر ولا يتخلص من الشر. كنت آمل وأرجو وأتمنى أن ينتهي عهد التنقلات والمرارات بعد تعييني في برلين ولكن الأقدار كانت ترى غير ذلك...

عندما وصلت الى برلين وجدت أن الحالة السياسية في المانيا متوجهة إلى أزمة خطيرة.. هتلر الذي مزّق معاهده فرساي واحتل منطقة الراين الحيادية وأتم «الآنشلوس» وأنهى قضية «السوديت» واستولى على «تشيكوسلوفاكيا» لم يكتف بما عمل. وها هو يريد الآن إنهاء قضية «الدانزيغ» سواء وافق البولونيون على ذلك أم لم يوافقوا... وكانت الديمقراطيات الغربية على حذر من هذه التطورات الجديدة!

أما العالم الذي تعود خلال السنوات الأخيرة على تساهل الديمقراطيات وتراجعها أمام تهديدات الدكتاتوريات ووعيدها، والذي رأى قضية مانشوريا والحبشة والنمسا وتشيكوسلوفاكيا كان يعتقد بأن قضية «الدانزيغ» وهي في حد ذاتها أقل أهمية من القضايا الأخرى، ستحل بشكل من الأشكال ووجه من الوجوه، كما حُلّ غيرها من قبلها... وكنت أنا ممن يعتقدون بأن أوروبا هذه التي ابتلعت الاعتداء على تشيوسلوفاكيا في السنة الماضية ستسكت عن «الدانزيغ» من الباب الأولى، لأنه في هذه القضية توجد مبررات وحجج لا توجد في مسألة تشيكوسلوفاكيا. ذلك أن «دانزيغ» هي بلدة ألمانية وادارتها دولية تحت مراقبة عصبة الأمم وأنها سلخت من الوطن الألماني وربطت بالمر بصورة مصطنعة وأنها لا تستند في كل ذلك الاّ إلى معاهدة فرساي التي أصبحت من الآثار القديمة، أما الضربة على تشيكوسلوفاكيا فكانت لا تشبه سواها لأن تشيكوسلوفاكيا كانت حكومة مستقلة معترف بها من قبل الألمان ولا يوجد فيها أقليات ألمانية بعد انتهاء أمر «السوديت»، وفوق ذلك كانت مصونة بحلف عسكري مع الروس والفرنسيين وبعد ذلك كله كان هتلر نفسه قد وعد باحترام وضعها الجديد بعد اتفاق مونيخ. ولكن بالرغم من ذلك كله، فقد ابتلعها هتلر بين عشية وضحاها وسكت حلفاء بنش الذي فر هارباً، وقبل العالم الأمر الواقع.. «فدانزيغ» اذن بالنسبة إلى ذلك أمر بسيط، لا يستوجب القلق الزائد. هكذا كان يعتقد الناس ولربما هكذا كان يعتقد هتلر وخبراؤه ومستشاروه. وعليه، كانت الأزمة مستمرة والوعيد والتهديد على قدم وساق عندما وصلت برلين. على أنه لم يدر ببال أحد بأن الأمر سينتهي إلى حرب طاحنة. وعندما أعلن خبر الميثاق الروسي الألماني لمدّة عشرين سنة في ٢٣ آب/ أغسطس ظن الناس أن المسألة لا بد وستنتهي بقبول بولونيا لشروط الألمان لأن المساعدة الفعلية الوحيدة

كانت منتظرة من الشرق، فلما سُدّ ذلك الباب اكتفت بولونيا بمجرد المساعدات المعنوية من الديمقراطيات الغربية.

ولكن الاتفاق الألماني الروسي لم يزد الأزمة إلا تأزماً والبولونيين الاّ عناداً وتكبراً... فأخذت سُحب الحرب تتجمع وتتلبد وصار الجنرال «سميكلي» البولوني يتحدث بأن حدود بولونيا يجب أن تكون على نهر «البا» وتعهد الانكليز بمعاونة بولونيا إذا هوجمت ودخلت القضية في أزمة شديدة لم يكن لها مثيل في السابق.

قابلت القائم بأعمال السفارة البريطانية السير «أوجيلفي فوربس» في ٢٥ آب/ أغسطس للتداول معه حول الوضع فوجدته متشائماً لا يدري ماذا سيحصل، على انه أضاف بأنه شدّ حقائبه. وسافر النساء والأولاد من البريطانيين تاركين ألمانيا. وفي اليوم الثاني ذهبت إلى السفارة التركية فوجدت نفس التردد والتشاؤم. ولقد أصبحت الوضعية حرجة.

بعد وصولي ببضعة أيام كان أول تدبير قمت به هو انذار الطلاب العراقيين بأن يكونوا مستعدين وجاهزين للسفر إذا اقتضى الحال، كما أنني طلبت إلى العراقيين الآخرين أن يتركوا ألمانيا إذا لم يكن لديهم أسباب هامة تقضي ببقائهم، ونصحت من لم يرغب بالعودة الى العراق أن يذهب على الأقل الى بودابست وينتظر تطور الأحوال فإذا نشبت حرب يتوجه الى استانبول وإذا لم يحصل ذلك فيمكنه العودة الى برلين بسهولة. فاتبع نصائحي بعضهم وسافروا وتأخر البعض الآخر كثابت عبد النور وغيره. ولم يترك بهجت زينل برلين الاّ بعد أن أقنعته بأن الوضع أصبح خطراً وأن الطرق أصبحت على وشك الانقطاع فسافر مع آخر فوج من الطلاب يوم نشوب الحرب بين ألمانيا وبولونيا وكان القطار مزدحماً فتعذبوا وعذبونا كثيراً، وقد تأخر بعض الطلاب عن الحضور الى المحطة في اليوم المعين مع أننا جهزناهم ببطاقات السفر.. وكان الناس لا يصدقون بقرب وقوع الحرب ولم يصدقوا حتى بعد نشوبها... لأنهم تعودوا على مناورات الفوهرر ولم ينسوا قضايا «الآنشلوس» و «السوديت» واتفاق مونيخ والفاجعة التشيكية... فهل يعقل أن تقع حرب بعد كل ذلك... فإذا لم تقع أيام كان هتلر في بداية قوته فكيف تقع الآن وهو في أوجها؟ ثم أمن المعقول أن يورط الفوهرر شعبه في حرب وهو الذي ذاق مرارة الحرب العظمى وشاهد سفالتها ولمس تعاستها وتكبد شقاءها وعاش في ذلتها؟ فالآن وقد تخلصت ألمانيا مما كانت فيه من آلام وشقاء وقد استرجعت شيئاً كبيراً من شرفها وقوتها ومكانتها بعد أن عاشت ما يقارب العشرين عاماً في الذل والسفالة، فهل من المعقول أن يزجها منقذها من جديد بمجاهل الحروب؟

ثم هذا الشعب الألماني الذي ذاق ما ذاق وقاسى ما قاسى، هل من المعقول أنه سيرمي نفسه من جديد في النار والدم والدمار؟ فالمنطق والعقل والتفكير لا تقبل بسهولة احتمال وقوع حرب جديدة في أوروبا، هذه التي لم تزل مشوهة ودامية من صراع لم يمض عليه أكثر من عشرين سنة.

ولكن الثقافة الأوروبية والحضارة الغربية لا تفهم سوى الجشع والأنانية والقوة وكان هتلر جشعاً، أنانياً قوياً وكان أعوانه مثله وكان خصومه مثله أو أشد منه وكانت معاهدة فرساي رمزاً بيناً لتلك الروحية الأوروبية التي طالما زجت العالم في المهالك...

أول أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٣٩

بعد أيام قضاها العالم بالخوف والقلق والأمل دقت الساعة في أول يوم من أيلول/ سبتمبر وفار التنّور... عقد اجتماع «الرايخشتاغ» بصورة فوق العادة ودعيَ ممثلو الدول الأجنبية لاستماع تصريح هتلر حول الأزمة البولونية... ذهبت ذلك الصباح إلى «الرايخشتاغ» وكان النهار مشمساً بديعاً ولكن كان هنالك في الجو شيء ثقيل مرعب، الأشجار الجميلة في «التيركارتن» كانت ساكنة لا تتحرك كأنها تكتم سراً مخيفاً. وكان الناس واجمين حائرين ومتوكلين. بالقرب من «كرول آوبر» حيث يجتمع «الرايخشتاغ» كان عدد كبير من الشرطة والحرس النازي موزعين بين الطرق والساحات المؤدية إلى البرلمان. وكانت خطواتهم ثقيلة ووجوههم عابسة كأنهم شركاء في جريمة كانت قيد التنفيذ. فلما وصلتُ استقبلني أحد موظفي البروتوكول من وزارة الخارجية ثم سلمني إلى زميل له عند السلم فأخذني هذا ودلني الى حيث تجلس الهيئات الدبلوماسية...

قاعة المجلس كانت غاصة بممثلي الرايخ والشرفات مملوءة بالمدعوين من رجال ونساء و«لوجة» (مقصورة) الهيئات السياسية لم يبق فيها محل فارغ. جلست جنب أحد الزملاء وصرت أنظر. كانت الوجوه عابسة والأجبن مقطبة، والأعناق مستفسرة والعيون متسائلة والأصوات منخفضة.. كان الجميع بملابس رسمية عسكرية أو شبه عسكرية، ولم يرتد اللباس المدني أحد سوى الهيئات الدبلوماسية. لباس أزرق ورمادي، وأسود وبني وأخضر وأوسمة وقمصان سود وقمصان ترابية وقمصان صفر. حسبما عودنا عليه الألمان من جنود ومنتسبي التشكيلات المختلفة للحزب النازي. وجلسنا نحن الغرباء هناك ننظر وننتظر، ننظر إلى هذه الوجوه والرؤوس والألوان وننتظر ما سيأتي به الفوهرر... وما ان دخل القاعة وهو يرتدي سترة خضراء رمادية (لون لباس الجيش) قام أعضاء المجلس وأخذوا يهتفون ويصرخون بحماس وكان الفرق بين «الرايخشتاغ» ومؤتمرات الحزب في «نورنبرغ» من حيث الهتاف واللباس والصراخ معدوماً ولم ينقص «الرايخشتاغ» الّا الموسيقى العسكرية والأعلام الحزبية ليصبح كامل الشبه بمؤتمرات الحزب النازي. ولما انتهى القوم من الهتاف وإظهار شعورهم واعتمادهم على زعيمهم أعطى رئيس المجلس «غورينغ» الكلام إلى الفوهرر فتقدم هذا الى المنضدة ووقف متكلماً. وبعد أن عاد وكرر ما تعودنا على سماعه من الانتقادات العامة حول فرساي والديمقراطيات، باستثناء الهجوم المألوف على روسية والشيوعيين لأول مرّة، سرد قضية الممر و «دانزيغ» وحمل حملة شعواء على بولونيا ورجالها وحكومتها ثم أعلن وسط هتاف الأعضاء ان جيوش الرايخ زحفت فجر ذلك اليوم ودخلت الأراضي البولونية وأنه ذاهب شخصياً إلى جبهة القتال، ثم أوصى بأنه إذا حصل له أمرٌ، فإن غورينغ يكون خليفته وإذا حصل أمرٌ لغورينغ فيكون «هس» خليفته، وإذا حصل أمرٌ ما لهسْ فينتخب الشعب من يريد للرئاسة...

دراما... تراجيديا ألمانية... فلما سمع هذا أعضاء المجلس والمستمعون الألمان هاجوا وتحمسوا وهتفوا وصرخوا بأعلى أصواتهم لحياة الفوهرر. وقد يكون هتلر مخلصاً في شعوره تلك اللحظة وكان المستمعون مخلصين في تأثرهم وشعورهم نحوه... ولكن هل هنالك مبرر حقيقي لتلك التراجيديا (المأساة) وخوض هذه الحرب!

خرجنا، نحن ممثلي الحكومات الأجنبية من المجلس وكل منا يشعر بضيق وأسف وألم في

أعماق قلبه... وصادفت السير أوجيلفي فوربس، في الممر فتسالمنا وتحادثنا وأخبرني بأنهم متهيئون للسفر...

لم أكره هتلر فيما مضى بقدر ما كرهته ذلك اليوم. كنت في السابق أقدر ما يستحق التقدير من أعماله وأنفر مما يستوجب النفرة منها. قدرت فيه انقاذه لشعبه من المذلة والاستعباد وايصاله المانيا إلى مستوى الشعوب القوية المحترمة وتطبيقه بعض المبادىء الاشتراكية المعتدلة، وإلى جنب ذلك نفرت من أساليب الاستبداد والاعتداء على اليهود وخصومه الآخرين وكرهته لمذبحة سنة ١٩٣٤ عندما قام بتصفية حساب زملائه بتلك الصورة الهمجية وكرهته يوم قتل «دلفون» بذلك الشكل الغدار ويوم استولى على تشكوسلوفاكيا بعد تعهده احترام حدودها...

وبالنسبة لي بوصفي عربياً كانت تنقسم أعمال هتلر الى ثلاثة أقسام:

المستحسنة: وهي انقاذ الشعب الالماني من قيود وسيئات معاهدة فرساي الظالمة والسير به الى التقدم والاستقلال. وهذه أمور يميل الى استحسانها جميع الشعوب المضطهدة والمستَعْمَرة...

السخيفة: وهي المظاهرات التي لا حد لها ولا حساب والمهرجانات والمشاعل والأعلام والطبول والشارات والموسيقى و «هايل هتلر» وهذه رعونات لا يتحملها من ينتسب الى شعب قديم ذي ماضي مجيد ونعمة غابرة... فكنت أنا شخصياً أمجّ هذه السخافات وأستغرب تمسك شعب متمدن بها...

المستهجنة: وهي كثيرة تشمل الاستبداد والتعصب الحزبي والاعتداء بأنواعه وتحديد الحريات وغمط حق الضعيف. وفي نظري كانت أبشع تلك التصرفات ملاحقة اليهود في الحق والباطل ومطاردة غير النازي بشتى الأساليب والاستيلاء المشين على تشيكوسلوفاكيا وهذه أمور لا يقبل بها رجل حر مهما كانت الأسباب والعوامل... على أن الرعونة الالمانية كانت تخلط بين كل تلك الأعمال الجيد منها والسيء وتحاول تبرير الإساءة للوصول الى غايات جميلة في نظرهم وكانت نتيجة ذلك أن العالم أخذ يستنكر تلك الأعمال وأصبح حتى الموالون لألمانيا لا يرضون بتلك التصرفات... ولكن القوة والجبروت والتكبر تعمي الابصار فترمي بالطغاة الى الهاوية...

عدت الى المفوضية مثقلاً بأنواع الهموم، متزعزع الايمان بسمو الانسان بصورة عامة وبالانسان الأوروبي بصورة خاصة... فبعد أن عشت في أوروبا لعدة سنين ودرست أهلها وبعد أن اشتغلت في عصبة الأمم واطلعت على كثير من الأمور، أصبحت ميالاً للاعتقاد بفشل الحضارة الأوروبية لأنها مؤسسة على المادة والأنانية ولأنها مجردة من المعنويات التي تهذب النفس وتكرمها وتسمو بها، ولكنني لم أكن لأتصور بأن الجشع والأنانية والتعصب وصلت في نفوس الأوروبيين إلى حد جعلتهم لا يفرقون بين الخير والشر حتى لأنفسهم.

نعم كنت أعلم بأن أنانية الأوروبي جعلت منه حيواناً راقياً يفترس الشعوب الأخرى بشتى الحجج والوسائل، ولكنني لم أكن أتصور بأن تلك الأنانية ستوصله إلى الجنون فتجعله يفترس بعضه بعضاً.

ولم أكن لأتصور بأن الطيش والغرور والطمع ستسوق الشعب الألماني وهو من أرقى الشعوب الأوروبية إلى حرب جديدة لا سيما وأنه لم يزل يداوي جروح الحرب الماضية ويعاني

من آلامها ويذوق مرارتها. انه الانتقام من غرائز البشر وكذلك الحسد والطمع ولكن إذا غفر الإنسان للهمج انقيادهم لتلك الغرائز، فإنه لا يغفرها في الشعوب الراقية المتمدنة. ولكن هذه الشعوب ضربت لنا مثلاً بحقدها وغدرها وعنادها وهمجيتها وقصر نظرها... ولم يكن هتلر في نظري الاّ رمزاً لتلك المدنية الفاشلة الزائفة. وأنه لمن السخف أن يتحمل هتلر وشعبه تبعة ذلك الفشل لأن الداء الدفين موجود في أوروبا وحضارتها ومن تمثل بها وقبلها على علاتها، وما هتلر إلا فوهة بركان انفجر، قذفت بما في بطن تلك الحضارة من قذائف وأدران. وقد انفجرت براكين أخرى قبل هتلر وربما ستتفجر براكين أخرى من بعده إذا استمر الأوروبيون في ضلالهم.

كنت أفكر بهذا وبمثل هذا في طريق عودتي من الرايخشتاغ إلى المفوضية الواقعة في «كايزردام» غرب برلين. وعند تقاطع الطريق الموصل إلى المفوضية وقفت السيارة وتعطلت أمام قطيع طويل من الخيل في طريقها إلى خارج برلين. كانت هذه الخيول أول ما جمع منها في تلك المنطقة من تجهيزات الحرب. وكانت تلك الأحصنة سمينة ضخمة وقوية يقود كل ثلاثة أو أربعة منها جندي. وكان سيرها بطيئاً ثقيلاً كأنها لا تريد السير بل ترغب في بقائها آمنة في محلها... كانت رؤوسها الكبيرة مائلة نحو الأرض كأنها تتساءل إلى أين المصير... كانت تلك الخيول تشعر بوجود أمر غير طبيعي ولعلها كانت وهي متوكلة في سيرها تلعن هذا البشر عبرة بسخافاته... وكنت ألاحظ على وجوه المارة من الناس رجالاً ونساءً ما لاحظته في مشية تلك الخيل من التقاعس والحيرة، نعم كان أكثر الناس إن لم أقل كلهم واجمين مترددين ولكنهم كانوا متوكلين ومعتمدين على «الفوهرر» الذي أنقذهم مما كانوا عليه والذي وعدهم الآن بالفتح والخيرات والنصر المبين وكانت تلك المواعيد تقودهم كما كان يقود الجنود ذلك القطيع من الخيل.

صرت أنتظر التطورات العالمية وتعليمات وزارة الخارجية في بغداد بعد أن أبرقت بالتفاصيل اللازمة حول ما حدث وحول ما يحتمل حدوثه واتصلت بحكومات «سعد آباد» (تركيا، ايران، أفغانستان) عن طريق مفوضياتها في برلين. وكان وضع العراق أحرج من غيره بناءً على الحلف الذي يربطه ببريطانيا. ومرَّ يوم ومرَّ يومان، وفي اليوم الثالث بعد الظهر بلغنا من الراديو بأن الحكومة البريطانية تعتبر نفسها بحالة حرب واتبعتها فرنسا، وهكذا تم ما كان يخشاه العالم على أيدي أعظم الشعوب وأكثرها تمدناً!

منذ أول يوم الحرب بدأ التموين على أساس البطاقات بكل اتقان وانتظام. كما أن التعتيم كان عاماً شاملاً والملاجىء جاهزة ومنظمة وكأنما تم كل ذلك بإشارة واحدة وبمعجزة من المعجزات. ولو منح الله الشعب الألماني وقادته مقدرة التمييز بين الخير والشر وبُعد النظر بقدر ما منحهم من موهبة التنظيم والترتيب لما حل بهم ما حل، ولكانت أوروبا أسعد حظاً وأهنأ عيشاً مما هي عليه الآن...

بعد اعلان حالة الحرب بين بريطانيا وألمانيا كنت أترقب إعلانها من قبل العراق بالنظر إلى وجود نوري السعيد في الحكم. ولذا كنت أنتظر بفارغ الصبر الأخبار والتعليمات من الخارجية. ولكن الخارجية حسب عادتها لا تجيب ولا تخبر! وسمعت ذات يوم بأن العراق قطع علاقاته الدبلوماسية مع ألمانيا وذلك من الخارجية الالمانية.وعندما خرجت مساء ذلك اليوم من المفوضية لأتمشى حسب عادتي رأيت رجلاً واقفاً عند الباب فتقدم إليَّ وسلم عليَّ ثم أخبرني بأنه بوليس

سري، وبناءً على تعليمات وزارة الخارجية الألمانية رجاني بأن لا أترك المفوضية وأن المنع هذا هو لشخصي اذ يستطيع النساء والخدم الاتصال بالخارج كالمعتاد.. فرجعت إلى الدار واتصلت بعبد القادر وطلبت إليه أن يقابل الوزير الأفغاني، وهو الموكل برعاية العراقيين بعد سفرنا، بأن يتصل بالخارجية لفهم أسباب هذا «الاعتقال المؤدب». واتصلت تلفونياً بالخارجية في صباح اليوم الثاني محتجاً ومستفسراً فأخبرت بأن الخارجية الالمانية لا تعرف ماذا حل بوزيرها في بغداد الدكتور غروبا وأن أخباره منقطعة ولذا رأوا من الضروري «الاحتفاظ» بي حتى ينجلي الأمر. وبتعبير آخر كنت أنا رهينة بين أيديهم حتى يتأكدوا عن مصير الدكتور غروبا. ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يحجزون مخابراتنا وقطعوا خط التلفون. كل هذا وبغداد ساكتة كأننا غير موجودين. وكنت قبل أن يقطعوا التلفون قد تخابرت عدة مرات مع عطا أمين في روما علّه ينيرنا في هذه الظلمات ولكن لم يكن لديه علم بشيء، ومن الغريب أنني في كل مرة حادثته لم يسألني الاّ عن حالة الطعام وهل لدينا ما نأكل في المفوضية.. ليت شعري لماذا كان عطا مهتماً بقضية الأكل دون غيرها، وكل مرّة كنت أجيبه بأن الأكل موجود وأطلب اليه أن يتصل ببغداد ويزودنا بالتعليمات حول سفرنا لأن المخابرة انقطعت بين برلين وبغداد.

كان سكوت بغداد وتعتيمها من أزعج المزعجات لنا في وضعنا، ومعنى ذلك أننا كنا نواجه الظلمات في الليل والنهار.. وبعد أيام انقضت على تلك الصورة جاءت التعليمات بواسطة روما بأن نسلم المفوضية ومصالح العراق الى الوزير الأفغاني ونسافر. فاتصلت بالخارجية وطلبت مقابلة رئيس البروتوكول فذهبت اليه يصحبني الشرطي السري في ٦ أيلول/ سبتمبر، وأثناء المقابلة قدمت احتجاجاً على حصار المفوضية واعتقالي فوعد بتخفيف الحصار وسمح لي بأن أترك المفوضية على أن يرافقني أحد أفراد الشرطة، وبعد يومين عندما سمعوا بوصول الدكتور غروبا سالماً إلى بيروت رفعوا الشرطة من أمام الباب وأصبحنا أحراراً من جديد وصرنا نرتب قضية السفر. ذهبت مرة أخرى في ١٠ أيلول/ سبتمبر إلى الخارجية فأخبروني بأن السفر سيكون في الغد وأنهم حجزوا الأماكن اللازمة في القطار، فذهبت في اليوم التالي إلى وزير ايران والمفوض الأفغاني لأداء الشكر والاستئذان وقمت بتسليم المفوضية ونقل الحاجات الخاصة كالفرش وكذلك الوثائق الرسمية إلى المفوضية الأفغانية للحفظ.

في مساء اليوم الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر أتت ثلاث سيارات فخمة من قبل الخارجية لنقلنا إلى المحطة. وهناك وجدنا قطاراً خاصاً ينتظرنا. فركبنا بعد أن ودعنا المودعين وكان بينهم عبد الكريم السباعي وجورج وزوجته والسفير الأفغاني نواز الله خان. تحرك القطار الساعة الثامنة والربع مساءً وتركنا برلين ولم يمر شهر واحد على وصولنا اليها. كنا في «الواغونلي» ١٢ شخصاً: وداد، عصمت زوجة صباح السعيد، بلقيس زوجة عبد القادر، عبلة ابنة بلقيس، ثم غيدة ومربيتها ليلى، وابنة عبد القادر الصغيرة. أما الرجال فكانوا عبد القادر صالح وسليم الراوي وخليل عبد الاحد وعمر وأنا... وكان يرافقنا موظف في وزارة الخارجية وشرطيان...

وصلنا كونستانس ظهر اليوم الثاني. فسفّرنا السيدات مع سليم وخليل بالقطار إلى زوريخ وبقينا أنا وعبد القادر وعمر ننتظر سياراتنا القادمة من برلين فلما وصلت سافرنا بها تاركين الحدود الألمانية في الساعة السابعة والنصف مساءً. ورافقنا الموظف الألماني حتى نقطة الحدود

وهي تقع في نصف المدينة فهناك وقف وقفة عسكرية ورفع ذراعه على الطريقة النازية مودعاً إيانا بكل احترام وعاد ماشياً إلى المدينة أو بالأحرى إلى القسم الألماني من المدينة المعتمة بينما نحن تركنا الظلمات ودخلنا القسم السويسري منها حيث كانت الأنوار ساطعة. ومن غرابة الأوروبيين أن تكون الحدود بين مملكتين تمر في وسط المدينة ومن الأغرب أن تكون نصف المدينة في ظلمات والنصف الآخر كله أنوار... وعندما أخذت السيارة تبتعد بنا من الحدود الألمانية كنت أشعر بحزن عميق نحو البلاد الجميلة الزاهرة التي ستصبح مسرحاً للحرب وإجرامها وتدميرها ونحو البلاد الأوروبية الأخرى التي ستشارك ألمانيا في البؤس والشقاء، ونحو الملايين من البشر المثقف التي ستكون القرابين البريئة التي تنحر في سبيل تلك الحضارة المزيفة...

في طريق العودة

وصلنا الحدود السويسرية ليلاً وبقينا نسير حتى الساعة العاشرة إلى أن وصلنا زوريخ فذهبنا حيث تسكن عوائلنا في فندق «سويس» قرب المحطة فوجدناهم بانتظارنا.. بقينا في زوريخ عشرة أيام انتظرنا خلالها تعليمات وزارة الخارجية بشأن توزيع الموظفين على المفوضيات الأخرى ورتبنا أشغال سفرنا بموجب ذلك. أما السيدة عصمت فقد سافرت الى ميلانو ومنها إلى مصر في ١٩ أيلول/ سبتمبر كما أن سليم الراوي سافر الى بغداد. وعينت الخارجية عبد القادر إلى سكرتيرية مفوضية روما واقترحت عليّ الذهاب إلى لندن فلم أوافق لأن الطقس هناك لا يوافق صحتي وقررت العودة إلى بغداد.

تركنا زوريخ في ٢٣ أيلول/ سبتمبر بسياراتنا إلى ميلانو ونزلنا هناك في فندق ديانا حيث كنت أسكن قبل ١٦ سنة خلال زيارتي الأولى لايطاليا، وبعد يومين غادرنا عبد القادر متوجهاً إلى روما وسافرنا نحن بدورنا في ٢٧ منه الى البندقية ونزلنا في فندق «موناكو» حيث رتبت قضية تسفير وداد وغيده مع المربية وعمر في الباخرة «ماركو بولو» الى بيروت بينما أخذت أنا القطار بعد ثلاثة أيام، أي في ٢ تشرين الأول/أكتوبر نحو الشرق لأنني كنت مقرراً الذهاب الى «لوتراكي» في اليونان من أجل معالجة الكلى. بقيت يومين في بلغراد في طريقي وهذه مدينة لم أرها من قبل. وصلت أثينا في ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ونزلت في فندق «الملك جورج». وحاولت الاتصال بصديقي من أيام شانز آلب وزميلي في كلية لوزان «أڤيروف» فعلمت أنه في «ايبيروس» في شمال اليونان، فكلمته بالتلفون في اليوم الثاني وعلمت بأنه لا يستطيع المجيء في الوقت الحاضر إلى أثينا على أنني ذهبت لمقابلة والده في «كيفيسيا» وهي تبعد مسافة نصف ساعة بالسيارة عن العاصمة. وتعرفت في بيته على والدته وأخته وجماعة آخرين من اليونانيين.

كنت منذ زمن بعيد راغباً ومتشوقاً لزيارة أثينا وبلاد اليونان، مهد العلوم والفلسفة والفنون، تلك البقعة من الأرض التي أنجبت أرسطو وسقراط وأفلاطون واسكندر الكبير وغيرهم من قادة الرأي والفكر بين البشر. نعم كان كل ذلك فيما مضى والشعب اليوناني الآن من أضعف الشعوب وأفقرها، وبلاد اليونان تسحب نفسها في مؤخرة البلدان الغربية الراقية ولكن هناك آثاراً وبقايا من الأرواح المتحركة وفي الخرائب الخاوية.

ذهبت صباح يوم لمشاهدة «الأكروپول» فوقفت مذهولاً أمام ذلك الجمال والفن وتذكرت ما

كتبه «رنان» تحت تأثير ذلك الجمال الذي أسماه «الصلاة عند الأكروپول». وشعرت في ظل تلك الخرائب البديعة أضعاف ما شعرت به أمام الأهرام في مصر ومعبد رمسيس ومقابر الملوك في الأقصر وخرائب بعلبك. في كل تلك الآثار ترى العظمة والفخامة لكنها لا توحي اليك ذلك الحس الغريب الذي يغمرك فيه رؤية الأكروپول.. فهنا فوق هذا التل الصغير في وسط أثينا لا تدهشك هذه الخرائب بعظمتها أو بفخامتها أو بكثرتها. ولكنها تسحرك فتخال أنك أمام فتاة جميلة كانت في الأمس تعيش حية فانقلبت فجأة إلى حجر صلب جامد... فاحتفظت بجمالها وان كانت قد فقدت حياتها...

زاد جمال الأكروپول حبي لليونان القديمة كما أن كرم أخلاق من تعرفت اليهم من اليونانيين وحسن معاملتهم، ولطف معشرهم ومرحهم، وفلسفتهم في الحياة، زادت من عطفي نحو اليونان الحديثة. ولم أصادف طوال بقائي في اليونان ما يؤيد الشهرة السيئة التي لصقها البعض في «الأروام» بل بالعكس، فانني لم ألق منهم، سواءً أكان ذلك في اليونان أم في خارجها الا ما جعلني أعتز بصداقتهم وأقدر فيهم الذكاء الحاد والنشاط وحسن المعاملة.. ويجوز أن يكون هناك بين الأروام ما يجده المرء في جميع الشعوب من فاجر وفاسق وكذاب ولكنني أميل الى الاعتقاد بأنه حتى هذه الطبقة من «الأروام» تتفوق على مثيلاتها من أبناء الشعوب الأخرى لأن الروح اليونانية تحمل في طياتها شيئاً جميلاً خفيفاً من آثار تلك المدنية القديمة في تلك العصور الزاهرة. وللأصالة أثر حتى عند الاساءة!

بعد أسبوع ذهبت الى «لوتراكي» وهي البلدة الجميلة الصغيرة التي فيها المياه المعدنية والواقعة في مستطيل محصور بين البحر والجبل. كان السفر بالأوتوبيس وكانت الطريق متعبة ولكنها جميلة حيث مررنا بقرى عديدة فوجدت أهلها يجلسون في الشمس وقد بدا عليهم الفقر وأقعدهم الكسل. كان الأطفال عراة حفاة. والقذارة والوساخة تذكر الانسان بقرى تركيا والعراق.. فلما رآني رفيقي في هذه السفرة «جاوش أوغلو» أنظر الى ذلك متعجباً قال: «هذا لأننا لم نستقل الّا قبل ماية سنة» ماية سنة والوضع هكذا... أيعني ذلك أننا سنبقى هكذا مائة عام! هذه روحية الشرق تتجلى بكل ألوانها وفلسفتها، وهذا العجوز ذو الشعر الأبيض الطويل الجالس على حافة الطريق ينظر الى السماء الزرقاء قانعاً راضياً حامداً شاكراً انما يذكرني بـ «بديوجين» ذلك الفيلسوف «عميد الدراويش».

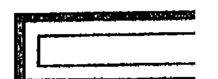
وصلت لوتراكي في ١٤ تشرين الأول/ اكتوبر ونزلت في فندق بالاس على ساحل البحر وبدأت شرب المياه المعدنية... الفندق جيد، الخدمة والأكل ممتاز والمعاملة الطيبة واللطف والابتسامة المرحبة على وجوه الجميع، فبقيت في لوتراكي اسبوعين عدت بعدها الى أثينا لأن الهواء أخذ يبرد وأصابني رشح فنصحني الطبيب أن أبتعد عن هواء البحر. فكنت في أول تشرين الثاني/ نوفمبر في أثينا، وبعد ثلاثة أيام أتاني «أڤيروف» فسررت بمقابلته ودعاني أكثر من مرّة إلى بيته كما أنه عرّفني بصهره «سنيوس أوغلو» وهو من الأروام المتبادلين بين تركيا واليونان. قضيت أياماً طيبة برفقة «أڤيروف» في أثينا وتركتها في ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر متوجهاً إلى استانبول وأنا مغتبط من سفرتي الى اليونان وبقائي فيها أكثر من شهر.

أمضيت في استانبول أسبوعاً واحداً حيث اجتمعت أكثر من مرّة بالأمير زيد وزوجته وأهلها.

وبمناسبة عيد الفطر ذهبت معهم يـوماً إلى «ارون كـوي» عند صهـرهم قليج عـلي وكان هـذا من رجال مصطفى كمال المقربين إلّا أنه بعد وفاة أتاتورك أبعده الرئيس الجديـد عصمت أينونـو عن النيابة فاعتزل السياسة وترك أنقره وجاء إلى استانبول واشترى قصراً قديماً يعود إلى أحد رجال الدور الحميدي وحوّله إلى مزرعة صغيرة وأصبح يشتغل بالزراعة وتربية الدجاج في هذه الزاويـة البعيدة عن العالم في أرون كوي. وقد وجدت قليج علي رجلاً لطيفاً متواضعاً وكريمـاً وكنت أخالـه جباراً فظّاً غليظاً إذ أنه كان عضواً في محكمة الاستقلال التي حكمت وشنقت وظلمت وكان جاويد بك أحد ضحاياها وكان من قبل ذلك ضابطاً في معيـة مصطفى كمال ومن أخلص رجـاله وهكـذا يتحول البشر من الجبروت إلى التواضع حسب تطور عوامل الزمان. وتعرفت بـواسطة الأمـير زيد بـأخ البرنسيس فخـر النساء سعـاد وهذا شـاب لطيف من المؤمنـين بـالكيف والشرب والسهـر فقضيت معه ومع صديق له اسمه خلدون بك ليالي ساهرة متعبة ذكرتني بأيام الشباب.

تركت استانبول في ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر وصادفت في القطار الدكتور كـافي بك وتعـرفت صدفة على العقيد نور الدين محمود وكان عائداً من لندن إلى بغداد. انقضت مسيرة اليومـين بين استانبول وحلب بسهولة وبدون ملل. ولم أتأخر في حلب بـل أخذت القطـار إلى طرابلس وأخـذت سيارة من هناك فكنت في بيروت في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر.

بعد أن رتبنا أشغالنا في بيروت وأرسلنا السيارة مع عمر الى بغداد سافرنـا مع وداد وغيـده والمربية بسيارات نيرن الى بغـداد وكنا في بغـداد في ٧ كانـون الأول/ ديسمبر. وهكـذا عدنـا الى بغداد وحياتها المملّة بعـد أن خاب الأمـل بالاقـامة في بـرلين والاستقـرار فيها بسبب الحـرب... وهكذا تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.



الحرب وعلاقتنا بها

يُحمَّل العالم تبعة الحرب فوق أكتاف هتلر النازية وتُلقى عليه مسؤولية هذه الجناية الكبرى ويحاكم كبار النازيين في نورنبرغ. هذا ما يدعيه المنتصرون اليوم ويقبل العالم هذا الادعاء بدون قيد أو شرط أو تفكير لأن ألمانيا خسرت الحرب وانتحر هتلر ووقع كبار النازيين أسرى بأيدي الحلفاء والأمر كله أصبح بأيديهم.. فمن السهل اذن حصر الجريمة بأكبر الأعداء لا سيما وأن العالم يمر الآن في فترة الانتقام. ولو انعكست الآية وكانت المانيا هي المنتصرة لكنا نرى اليوم العالم يتهم الاستعمار البريطاني والشيوعية الروسية والرأسمالية الأمريكية بإثارة الحرب ويؤيد النازية والفاشية. وهنا تتجلى طباع البشر وخاصة طباع الأوروبيين ولم يظهر حتى الآن رجل أو جماعة من الرجال الأحرار الجريئين ليقولوا الحق كله، لأن ذلك الدور لم يحن، والجماعة منهمكون اليوم بتقسيم المغانم وتطمين الشهوات وتحطيم الأعداء وأخذ الثأر وإملاء البطون. ناسين العدل والحق ومعللين أنفسهم بأعمال «الأمم المتحدة» ومعلقين الآمال على الحلف الأطلسي كما فعل اخوانهم قبل ربع قرن أيام عصبة الأمم ونقاط ويلسون.. فما أشبه اليوم بالبارحة!

الحقيقة المرّة التي يجب أن تقال للأوروبيين بكل صراحة أن حضارتهم فاشلة وسقيمة وأن ذلك الفشل هو السبب الأصلي لهذه المجزرة والتي سبقتها والتي ستعقبها.. وهل أدل على ذلك من أن يستطيع رجل واحد مثل هتلر أن يقذف باشارة واحدة أوروبا والعالم المرتبط بها إلى هذا الدرك من السفالة والهمجية! فلو كانت الحضارة الأوروبية متينة الأساس سالمة النبت، كريمة الأصل، طاهرة الذيل، نبيلة المبدأ، لما تدهورت بهذه السهولة وتفسخت. وإذا أردنا أن ننصف لا يمكننا أن نعزي كل ما حصل لإرادة شخص واحد مثل هتلر، أو لجماعة معينة كالحزب النازي، بل علينا أن نفتش عن الأسباب الحقيقية والعوامل التي خلقت ذلك الوضع، وأوجدت هتلر، وشدت من ساعد الحزب النازي. تلك العوامل التي خلقت معاهدة فرساي وسببت فشل عصبة الأمم وعزلت روسيا عن العالم وأيدت الظلم والاستعباد والسفالة والاستعمار. فالفشل الحقيقي آتٍ عن الذهنية الأوروبية وحضارتها المادية وجشعها الذي لا ينتهي وضيق صدرها وقصر بصرها. تلك الذهنية التي حولت التعاليم المسيحية السامية الى حروب صليبية تقشعر منها الأبدان، وإلى مجالس تفتيش ووصمت الإنسانية بالعار، والتي جعلت من الرقي العلمي آلة للفتك والإبادة وقلبت الإخاء البشري الى العبودية والرق وصيرت الوفاء غدراً، والكرم طمعاً وبخلاً، والاحسان اساءة والعهود خيانةً والايمان كفراً... هذه هي المدنية الأوروبية وتلك آثارها أمامنا...

نعم... صناعات راقية، معامل وبنوك وطائرات ومدافع وبارجات وقصور شامخة ومدن عامرة وعلم وفن وكل شيء استطاع الذكاء والاجتهاد الحصول عليه.. نعم هذا متوفر وقائم. على أنه إلى جانب هذه القائمة اللماعة هناك قائمة سوداء لا يرغب الأوروبي بذكرها وهي قائمة طويلة نكتفي بذكر أبرز ما فيها: المذابح الصليبية. الحرائق الدينية. سان بارتليمي... حروب المائة سنة.. حرب الثلاثين سنة... حروب نابوليون.. حروب الاستعمار في آسيا وأفريقيا وأمريكا... وحروب ومجازر أخرى لا تعد ولا تحصى توّجتها الحرب العظمى الأولى، وأكملتها هذه الحرب الضروس بما فيها

من خراب ودمار وهلاك وجوع واسقام ومعتقلات وحرائق ومشانق ومحاكم ورذائل، وكانت القنبلة الذرية مسك الختام..

لا يجوز لمن كانت لديه قائمة سوداء قاتمة مثل هذه، أن يدعي بأنه لولا هتلر والنازيين لما حل بالعالم ما حل. وفي نظرنا نحن العرب أن هتلر هو عبارة عن حلقة لسلسلة طويلة من الحوادث الدامية، وان المانيا هي عضو في عصابة الحضارة الغربية، وفلسفتها هي وليدة تلك الحضارة ولا فرق في نظرنا بين همجية «بارباروسا» وهتلر، وليس اعتداء الألمان بأبشع من اعتداء الشعوب الأوروبية الأخرى. وإذا غض النظر الأوروبي المتمدن عن أعمال اخوانه في خارج أوروبا باسم الاستعمار والتوسع والتجارة والحماية، فهذا لا يعني أن الظلم يجوز في غير أوروبا ولا يجوز في داخلها ولا فرق في نظرنا بين الظلم «الجرماني» والظلم غير «الجرماني». أما هذا الضجيج فسببه أن ألمانيا اعتدت على شعوب أوروبية أما لو كان جورها موجهاً لغير الأوروبيين، كما فعل أبناء عمومتها من قبل، لكانت في الصف الأول من التمدن ولكانت هي التي ترفع علم الحضارة. لكنها جاءت متأخرة ولم تجد مسرحاً خالياً لتمثيل دورها فضاق صدرها، وضاقت بها أرضها، وخاف منها جيرانها، فازداد غرورها وجبروتها، فانفجر بركانها وتصاعد لهيبها، وطارت طائراتها، وتساقطت قنابلها، ودوت مدافعها، فحطمت وأحرقت ودمرت وأهلكت الحرث والنسل على الطريقة الأوروبية المعهودة. ثم أتى دورها فذاقت ما أذاقت، وشربت ما أسقت، وأكلت ما أطعمت، ولبست ما كست، وعاد عليها شرُها عشرة أضعاف، طبقاً للطريقة الأوروبية المعلومة التي لا تغفر ولا ترحم.

يقول «تولستوي» في مؤلفه الشهير عن الحرب والسلم ما فحواه: أن الادعاء بأن نابوليون هو السبب لإثارة الحروب الأوروبية التي دامت عشرين سنة هو ادعاء خاطىء. فالأسباب الحقيقية متنوعة ومتعددة نجدها في تطور الحوادث الأوروبية نفسها. وما نابوليون الاّ آلة دفعت به تلك التطورات من باب الصدف وسخرية الأقدار.

ونظرية تولستوي تنطبق تماماً على هتلر. فهذا رجل خلقته ظروف وعوامل متعددة فرفعته وسخّرته وقذفت به إلى إتمام مهمة قام بها وفقاً للذهنية الغربية: تهديد ووعيد وعربدة وظلم واعتداء وكبرياء وافتراس وقتل وسفك وخراب ودمار. وبعد أن تم كل ذلك وهلك هتلر أخذ الأوروبيون يشتغلون من جديد وظنهم أن «الحضارة» سلمت بزوال هتلر. كما ظن أجدادهم من قبل عندما هلك نابوليون وكما ذهب آباؤهم عندما سقط القيصر.

وتاريخ أوروبا منذ القرون الوسطى إلى هذا اليوم هو عبارة عن مجموعة حروب تتخللها فترات قصيرة للهدنة وشحذ السيوف وسن الرماح وتضميد الجروح استعداداً للمعركة الآتية - ولكل معركة جديدة آلات حديثة، ومخترعات فتاكة، ودعايات خاصة تلائم الوضع. أما أبواق هذه الحرب فكانت من جهة مكافحة آثام النازية والفاشية، ومن جهة أخرى القضاء على موبقات الشيوعية والرأسمالية والبوروقراطية الأممية واليهودية العالمية. وكال كل فريق للفريق الآخر أنواع السب والشتم وأسند إليه أفظع الأعمال وأقبحها وفضح المساوىء والجرائم. فسمع العالم كل ذلك كل يوم من أيام الحرب وتأكد غير الأوروبيين من صدق ذلك الكلام كله ورأى بعينه الحضارة الأوروبية بأبشع شكلها وقد جردها أبناؤها من المزركشات التي كانت تستر عورتها

فبانت عجوزاً شمطاء قبيحة الخلقة والخلق، لا تعرف للحياة معنى ولا للكرامة اسماً وظهر أبناؤها بجلودهم الحقيقية. جلود الذئاب الجائعة وأخذ يفترس بعضهم بعضاً دون هوادة أو رحمة مما جعل وحوش أفريقيا واوستراليا أقرب منهم إلى البشرية في نظر العالم. وبعد ذلك تنصّل المنتصرون من أية علاقة في الأمر، ولصقوا الذنب كله بالمغلوبين والحق لمن غلب. وانحصر الذنب بالنازية، والجرم بالنازيين، والتهى العالم بتصفية الحساب بين الغالب والمغلوب. كأنما القضية قضية غالب ومغلوب وتحديد حدود، وتقسيم مغانم واقامة مناطق نفوذ، والقاء خطب و «دق حنك». ونسي العالم الداء الدفين في أعماق المدنية الأوروبية، ذلك الداء الذي إذا لم يُستأصل من جذوره سينمو ويندفع وقد يقضي هذه المرّة على أوروبا والعالم المتمدن قضاءً كاملاً...

عندما نشبت الحرب بين الدول العظمى وحملة ألوية الثقافة الأوروبية المانيا وفرنسا وانكلترة، بشأن قضية «دانزغ» في الظاهر، وبدافع الداء الدفين في الحقيقة، انقسم العالم إلى جماعتين: المتحاربين والمتفرجين: وكان من الطبيعي بأنه كلما طال أمد الحرب ازداد عدد المنضمين إلى المتحاربين ونقص عدد المتفرجين، وكان هذا التطور يحصل أحياناً بالتهديد وطوراً بالإقناع وتارةً بطلب المكسب وأخرى لدفع الشر وكانت ظروف الحرب بالطبع تتبدل وتتحول وكانت الأهواء والمذاهب والميول تتبع تلك الظروف، ولما أوشكت الحرب أن تضع أوزارها كان العالم كله مشتركاً فعلاً أو اسماً بتلك الحرب الطاحنة.

أما العراق، فلوجود الحلف بينه وبين بريطانيا وجد نفسه وراء الديمقراطيات في ذلك الخصام الأوروبي البحت وليس له فيه لا ناقة ولا جمل فقطع العلاقات الدبلوماسية وبقي ينتظر (كما ينتظر الحائرون) اسمه في الحصاد ومنجله مكسور!

كانت علاقة العالم بالحرب تختلف كما قلت، باختلاف المنافع والأهواء. ففي سويسرا مثلاً كان الشعور ضد المانيا وذلك بالرغم من وجود صلة الدم والأصل، وشاهدت الناس كلهم في زوريخ مثلاً ناقمين على هتلر ومجازفاته، لأن الرفاه والاطمئنان السويسري يتطلب السلم والاستقرار، ولأن سويسرا تحتاج إلى التجارة الخارجية وإلى الرواد والسياح، ولأن الديمقراطية العريقة في الشعب كانت تنفر من الحروب والدكتاتورية.

أما في ايطاليا، فكان الأمر بعكس ذلك بالرغم من التباين والاختلاف بين الدم والأصل واللغة والطباع... إذ وجدت الطليان متحمسين وان كان بعضهم خائفاً من التوسع والسيطرة «الجرمانية». وهنا قضى التقارب بين المبدأين الفاشي والنازي وبين الحكمين الدكتاتوريين على العوامل الأخرى.

وفي يوغوسلافيا، كانت الأكثرية ميالة إلى الديمقراطيات الغربية نظراً للعلاقات التاريخية القديمة بين فرنسا وصربيا ولبقاء أثر الخوف لدى هذا الشعب السلافي من كل شيء «جرماني»..
أما في اليونان، فبالرغم من وجود الدكتاتور متكساس الميال إلى زملائه الدكتاتوريين ولا سيما هتلر فقد كان شعور الطبقات الراقية مع الفرنسيين والانكليز. وفي تركيا، كانت السياسة الرسمية بين الخوف من روسيا والمانيا والاتفاق الجديد مع انكلتره على أن سواد الشعب لم ينس تماماً الأيام السوداء لاحتلال استانبول ومعاهدة سيفر وحروب الاستقلال، والحقيقة أن الأتراك كانوا

لا يريدون الاّ السلامة ودفع الشر. أما في سوريا ولبنان والبلاد العربية الأخرى المرتبطة بمعاهدات مع الديمقراطيات فكانت السياسة الرسمية مبنية على تلك العهود ومتظاهرة بالولاء على أن القلوب كانت لم تزل دامية بما لاقاه العرب بعد الحرب الماضية من حلفائهم. ولذا، فإنها كانت حذرة ومنتظرة وكان سواد الشعب ميالاً لألمانيا مندفعاً بشعور الانتقام لما مضى من آلام وغصص وببهجة الانتصارات الألمانية السريعة وكان للدعاية الالمانية باللغة العربية على لسان يونس بحري بالرغم من بذاءتها أثر كبير على عامة الناس وقد ضاعف في تأثير تلك الدعاية سكوت الحلفاء وإهمالهم العرب وقضاياهم. وكانت لقضية فلسطين حصة الأسد في الدعاية الألمانية لأنها واقعية وملموسة ولم تزل تذيق الجسم العربي ألماً محرقاً كالدمّلة على وشك الانفجار. وهذا الألم شعر العرب به منذ أيام وعد بلفور وبقوا شاعرين به طيلة تلك المدّة دون أن تسمع لهم شكوى، ويرأف بهم أحد، وكان العالم الاسلامي بأجمعه يعطف على قضية العرب هذه ولم يعالج الحلفاء وخاصة الانكليز الأمر الاّ بالتسويف والمماطلة واللجان أو بالدم والنار واخماد الثورات العربية بكل قساوة وشدة. فاستغل الألمان هذا السخط وكان سلاحاً قوياً لدعايتهم ضد الاستعمار البريطاني وربيبته الصهيونية واليهودية العالمية.

أما العراق، فكان يشعر بشكل عام شعور الشعوب العربية الأخرى وكان متأثراً بالقضية الفلسطينية والدعاية الألمانية إلى حد بعيد، وإلى جانب هذا الشعور العام كان لشخص نوري السعيد رئيس الوزراء سياسة خاصة قائمة بشخصه وهي الولاء المطلق والطاعة العمياء للانكليز ولا عجب في ذلك، فإنه بطل معاهدة ١٩٣٠ وملاحقها وهو رجل الانكليز المخلص الذي يُعتمد عليه في أدوار الارتباكات والخرابيط.

قابلت نوري السعيد في ١١ كانون الأول/ ديسمبر فوجدته يعتقد بوجود الخطر الروسي من جهة ايران ومشغول البال من هذه الناحية. والآن وأنا أكتب هذه السطور (آذار مارس/ ١٩٤٦) يشتغل نوري السعيد بترتيب اتفاقية مع تركيا في أنقرة للغرض نفسه وهو الخطر الروسي من جهة ايران، وكنت متفقاً واياه في هذا الأمر وإن لم أكن أعتقد بأن الخطر قريب الوقوع. وعندما قابلت في اليوم التالي وزير الخارجية علي جودت أخبرني بأن نوري أخذ «يخربط» حسب عادته وأنه أراد أن يعلن الحرب على المانيا مباشرة وأن الانكليز هم الذين اكتفوا بقطع العلاقات. وكان علي جودت ينتقد تصرفات نوري الفوضوية هذه دون أخذ رأي زملائه ولا سيما وزير خارجيته وأنه عامل الدكتور غروبا معاملة غليظة، ولما اعترض الوزير الألماني على ذلك أجابه نوري قائلاً: «إذا انتصر هتلر فليشنقني». ثم أنه اعتقل الالمان الموجودين في العراق ومن بعده سلمهم إلى الانكليز فكانت هذه التصرفات مخالفة لحقوق الدول والمجاملات السياسية. ولكن نوري يشتغل شغل «بداوي» وهنا سر نجاحه وسر تعلق الانكليز به وارتباطه بهم. ولم يكن علي جودت الشخص الوحيد الذي يتشكى من أعمال نوري بل وجدت أكثر الناس فاتحين عليه ولكن الناس كانوا يجهلون بأنهم في واد وأنه في واد آخر.

في ١٤ كانون الأول/ ديسمبر كنا مدعوين على العشاء عند نوري السعيد وكنا جماعة مختصرة: سليمان ونوري فتاح محمد وابراهيم وأنا، وبعد العشاء أخذ الباشا يشرح لنا نظرياته الحربية ويتنبأ بنتائج الحرب وكان من البديهي أنه ينظر بمنظار الانكليز إلى هذه الأمور ودلت

الأيام أنه كان محقاً وأن طالعه وآراءه كانت تسند بعضها بعضاً. ثم دار الحديث حول مزاحم الباجه جي الذي وصل حديثاً بالاجازة من باريس فصار الباشا يكيل له الذم والقدح وقص علينا أن مزاحم أقام عليه دعوى مزورة في البصرة بشأن حساب ماركات ثم قال أنه أخذ قومسيون على شراء طائرات من ايطاليا أيام بكر صدقي وغيره وغيره من الأمور المخزية. وختم الكلام بأن ثابت عبد النور أحسن من مزاحم ألف مرّة! وهنا لم يصبر نوري فتاح واعترض قائلاً «كيف تعينه وزيراً مفوضاً بعد كل ذلك!» وتملص الباشا من الجواب بضحكته المعهودة. ولنوري السعيد دواليب لا حد لها سواء في السياسة أو في الخصوصيات.

في الخارجية(*)

عندما وصلت بغداد قابلت وزير الخارجية علي جودت فرحب بي وكلفني بأن أشتغل في الوزارة بوظيفة معاون لمدير الخارجية العام حتى أصبح مديراً فوافقت على ذلك وصرت أداوم في الخارجية بتلك الصفة. أما المدير العام فكان رشيد الخوجه وقد وجدته رجلاً طيباً ولكنه لا يحل ولا يربط، وكانت أهم ميّزاته أنه يحضر الوزارة قبل جميع الموظفين ولا يتركها الّا عند انتهاء وقت الدوام وأنه يوقع على ما يعرض عليه من الدوائر دون أن يتدخل في أساس المواضيع الهامة لأنه كان عاجزاً بالنسبة إلى ما دونه من الموظفين الشبان، ولذا فكان وجوده في الخارجية للبركة ليس الّا. وكان علي جودت واقفاً على هذا الوضع ولكن هذا الوضع يشترك فيه الى حد ما القسم الأعظم من الرجال الذين توصلوا إلى الحكم لمجرد انتهاز الفرص والإثراء والحكم. وماكينة الحكومة مع الأسف مملوءة بأشخاص عاجزين، وقد أصبحت الادارة عبارة عن ادارة اعاشة للعجزة والجهال من جهة وللانتهازيين واللصوص من جهة أخرى. وفي حكومة، هذا شأنها، يجب أن يرضى الانسان برشيد الخوجه لأنه على الأقل رجل طيب وشريف لا يؤذي ولا يسرق ولا يفيد ولا يستفاد. فكان والحالة هذه أهون شراً من غيره.

بالرغم من وجود جماعة قديرة من الشبان في الخارجية وجدت أن الفوضى ضاربة أطنابها والكسل والخمول مستوليان على أعمال الوزارة وهؤلاء الشبان بتأثير تبدل الوزراء وخمول المدراء لا يهتمون بالأمر بل اعتادوا على حالة تقارب النوم. فكان ديوان الوزارة كغيره من دواوين الدولة عبارة عن مجالس يتحشد فيها الموظفون للتداول وقص القصص والنكت وشرب الشاي والقهوة واللبن أمام تلال من الملفات والأوراق المتأخرة التي تنتظر الفرج. وهنا أدركت سبب التأخير والإهمال والسكوت التي كنا نجدها في مخابراتنا مع المركز عندما كنت في جنيف وبرلين وتذكرت كيف أن وزارة الخارجية أجابتنا مرّة على كتاب يتعلق بالتبادل التجاري مع المانيا بعد سنة وشهرين!

قررت أمام هذه الحالة أن أقوم بإصلاح حقيقي بلا ضجة ولا «هوسة» مع ملاحظة حساسيات الموظفين. ولما كلمت أولئك الشبان من زملائي وأصدقائي كجميل السلام ويوسف الكيلاني وعبد الله بكر وعلي حيدر سليمان وجدتهم كلهم متألمين من تلك الفوضى وذلك الفتور غير أنهم كانوا متناسين بأنه يقع عليهم على الأقل قسم من تلك المسؤولية. وكلمت بعد ذلك علي جودت فوجدته هو أيضاً يود الإصلاح فشجعني وخولني بأن أقوم بما يلزم...

بعد أن مهدت السبيل بهذا الشكل عقدنا اجتماعاً بعد الدوام بحضور الوزير والمدير العام ورؤساء الدوائر لدرس قضية الاصلاح وكان قصدي من ذلك أن يشعر الجميع بأن لهم نصيباً في ذلك العمل. وتقرر بأن تعقد لجنة من مدراء الدوائر تحت رئاستي لتنفيذ ما يتقرر واحضار

(*) لم اعثر على مذكراتي لسنة (١٩٤٠) ولذا سأذكر اهم ما حدث بالنسبة لي بصورة موجزة ومن دون التواريخ والتفاصيل.

المقترحات التي ترفع إلى الوزير فتشكلت اللجنة برئاستي وعضوية كل من مدير الأمور الشرقية جميل السلام ومدير الأمور الغربية يوسف الكيلاني ومدير الأمور القنصلية عبد المجيد علاوي ومدير المكتب الخاص والذاتية عبد الله بكر. وأخذنا نشتغل ونصلح ونقترح. ولم تمض الّا بضعة أسابيع حتى أخذت ماكينة الوزارة تشتغل بنوع من الانتظام وأخذت الفوضى تتقلص وعدد الموظفين العاطلين والمتمسكين بحجة «المهمة الخاصة» في مركز الوزارة يتناقص، إذ سافر قسم كبير منهم إلى المفوضيات في الخارج. وقد أظهر بعضهم شيئاً من الاستياء في بادىء الأمر على أنهم بعد مضي مدة من الزمن كتبوا لي شاكرين لأنني أنقذتهم من حياة الكسل والخمول وفتحت أمامهم مجالاً واسعاً للاطلاع على العالم والاختلاط بالأجانب، فأصبحوا يمثلون بلادهم في البلاد الأجنبية بدلاً من أن يمثلوا العطالة في ديوان الوزارة.

وبذلت جهداً كبيراً في اصلاح المفوضيات وتشجيعها وذلك بإجابة طلباتها المحقة ومراقبة أعمالها وبترفيع من يستحق من الموظفين وإقصاء الفاسدين منهم، وصرنا ننشر تقريراً شهرياً عن أعمال المفوضيات وأخبارها، وأهم ما يحدث من الأمور الداخلية وشؤون مركز الوزارة فنوزع تلك التقارير على دوائر الحكومة في بغداد وعلى جميع المفوضيات والقنصليات بحيث أن كل موظف في الخارج صار مطلعاً على ما يجري في بلاده وفي المفوضيات والقنصليات العراقية في الخارج لأننا كنا ندرج خلاصة التقارير الشهرية الواردة إلينا من الممثليات العراقية. وهكذا ازداد نشاط الممثليات وصرنا نأخذ التقارير الشهرية بصورة منتظمة وأخذنا نطالب الدائرة التي تتأخر. فوجدنا مثلاً أن مفوضية لندن لم ترسل تقريراً لمدّة ١٨ شهراً فكتبنا اليها مستفسرين ولائمين ذلك الإهمال. وهكذا أصبحت الخارجية مرتبطة ومطلعة على ما يجري في الخارج وقد استحسن وزير الخارجية ورئيس الوزراء والبلاط هذه الطريقة وكان يقوم بهذه العملية أنا وعلي حيدر سليمان. أما علي جودت فكان يشجعني ويظهر ارتياحه لأعمالي ويعاملني بكل لطف وتقدير وهذه مزية أعترف بها له.

وهكذا أصبح الشبان في الوزارة جاهزين ومسيطرين على ادارة المركز بواسطة اللجنة تحت رعاية الوزير ورضى المدير، وأصبحت وزارة الخارجية تقترب رويداً رويداً الى الإصلاح وتتخلص من الخمول والفساد.

ومن أهم الأعمال التي قمت بها هو تعديل قانون الخارجية. فجردناه بقدر المستطاع من النواقص التي كانت تشجع بعض الموظفين على اساءة استعمال بعض مواده بشأن الاستفادة كنظام السفر ونقل الأمتعة واجازات المرض وغيرها، فوضعناه بشكل يؤمن راحة الموظف الشريف ويمنع اساءة الموظف المرتكب. وفتحنا باب التقدم لموظفي السلك من الشباب وإمكان تعينهم وزراء مفوضين برواتبهم وذلك لسد الشواغر إذ وجدنا خمس مفوضيات شاغرة من مجموع سبعة لأن وزراءنا كانوا يرفضون دائماً إشغال تلك المناصب بينما القانون لا يجيز تعيين بعض الموظفين القديرين الذين سبقت لهم خدمات طويلة في الخارجية مثل موفق الآلوسي وطالب مشتاق وعطا أمين وغيرهم. ومن غرابة الأمر أنه كان يجوز تعيين أي رجل كان من خارج السلك وان كان جاهلاً لا يصلح للتمثيل ولكن لا يجوز تعيين شاب مضى على اشتغاله في الخارجية عشر سنوات أو أكثر لأن درجة وظيفته لا تسمح بذلك. ولما كان في هذا نقص وضرر كبير، فقد استهدفنا بالقانون

الجديد معالجة هذه الناحية وأجزنا تعيين المستشارين برواتبهم لمنصب وزير مفوض. وجدنا مقاومة من بعض الأشخاص في اللجنة الحقوقية لمجلس النواب للقانون الجديد فذهبت أنا ودافعت عن هذه النقاط، وفي الأخير وافقت اللجنة ورفع القانون إلى المجلس الجديد وتمت الموافقة عليه. وكنت مسروراً من ذلك العمل لأنني قمت بخدمة لبلادي ولوزارة الخارجية وللعناصر الفعالة فيها... وضاعف من سروري أن اخواني في الخارجية أو في المفوضيات، عدا العاجزين الذين لم يرتاحوا لهذه الاصلاحات أو المغرضين، كانوا كلهم يؤازرونني ويساعدونني مي مهمة رفع مستوى السلك الخارجي.

قدلا يخلو من الفائدة أن أذكر هنا شيئاً عن المشاعر والحساسيات السياسية لدى رؤساء الشُعب وكبار الموظفين. لنبدأ من الوزير: فبالرغم من ثقافته المحدودة واطلاعه على أمور العالم غير الواسع يعدُ علي جودت من الرجال الأذكياء بين الطبقة المديرة وهذا الذكاء الغريزي يدور بطبيعة الحال على محور المنافع الشخصية أولاً وعلى سواه ثانياً.. كان علي جودت من المعارضين لمعاهدة ١٩٣٠ ومن المصوتين ضدها، ولذا كان في ذلك الوقت يعد من الوطنيين إذ كان ميزان الوطنية هي معارضة نوري السعيد ومعاهدته، على أن الظروف تبدلت وتطورت فلما نشبت الحرب كان علي جودت وزير خارجية نوري وزميله على أنه لم يكن راضياً عن تصرفات نوري ومغالاته في العداء ضد المانيا، إذ كان ذكاؤه يسوقه الى الحيطة فإنه يتظاهر بالولاء لبريطانيا دون التظاهر بالعداء لألمانيا.

أما المدير العام رشيد الخوجه، فبالرغم عن كونه ضابطاً قديراً، على ما يقال، في الأركان الحربية التركية فيما مضى من الزمن وكان من أبرز الضباط في الجيش التركي في الحرب الماضية، فإنه كان في عالم خاص به يقضي النهار بأتفه الأمور كإجازات الموظفين أو قوائم أسفارهم أو غيرها من الأمور البسيطة التي يقوم بها عادةً صغار الموظفين ثم يقضي ما تبقى من المساء في نادي السعدون بلعب «الرامي» كأنه لا يوجد حرب ولا ضرب ولا سياسة ولا خارجية ولا مديرية عامة... وكان الموظفون يحترمونه لفلسفته هذه ويهزأون في نفس الوقت منه لنفس السبب وكان الناس الذين يعرفونه أيام نبوغه ومهارته يتعجبون من هذه البلادة التي أوقفت دماغه فأراحته من عناء هذه الدنيا وكان البعض يحسدونه على هذه النعمة.

أما الموظفون الآخرون فقد وجدتهم كلهم ما عدا عبد المجيد علاوي متحمسين ضد الحلفاء وضد بريطانيا خاصة وكم كنت أستغرب مثلاً من أن أرى يوسف الكيلاني، الذي درس في أوكسفورد ونشأ في انكلتره وتشبَّع بثقافة القوم يكره سياسة الانكليز وأساليبهم والمعاهدة والتسويف. وكان الآخرون مثله مع بعض التفاوت في درجة البغض والكراهية، وكان عبد القادر صالح في رأس القائمة ولا يخفي شعوره العدائي، ثم يليه صديق شنشل المستشار القانوني فجميل السلام وعبد الله بكر وعلي حيدر سليمان، ولم يقلّ الموظفون الآخرون عن رؤساء دوائرهم في ذلك الشعور.. مما يدل على أن الاستياء من أعمال الحلفاء السابقة ومن تسويفاتهم ونكوثهم العهود كان عاماً شاملاً في سواد الشعب والطبقة المثقفة منه، وكان يضحكني أن أجد نفسي معتدلاً وناصحاً هؤلاء الشبان بالاعتدال. وكما قلت سابقاً كان العامل الأكبر لهذا الوضع قضية فلسطين، ومماطلة الحلفاء وسكوت الانكليز أمام الدعاية الالمانية. فكان الناس يرجحون الانتصار

الألماني لا حباً بالالمان بل كرهاً بأعمال الانكليز والفرنسيين. وحدث لي أكثر من مـرّة أنني حذرت بعض أولئك الشبـان من التحمس لـلألمـان لأنهم يجهلـون الأسـاليب الالمـانيـة وبينت لهم أن الاستعمار الأوروبي والجشع الأوروبي كله بعضه أمرّ من بعض وقد يكون البلاء الانكليزي أهون البـلاوي. والذئب الشبعـان أقل افتـراساً من الـذئب الجائـع. هذه كـانت حسابـاتي الحقيقية. والحرب في نظري كانت عبارة عن مزاحمة بين الأقوياء في أوروبا في سبيـل الاستيلاء عـلى العالم وأنها رمزٌ صارخ على فشل الحضارة الأوروبية وجشع الأوروبيين فيجب على العرب عامـة وعلينا نحن العراقيين خاصة أن لا نرمي بأنفسنا إلى التهلكة في سبيل أمور ليس لنا علاقة بها، ومع ذلك يجب علينـا أن لا ننكث عهداً أو نطعن سـاقطاً، وكنت من المؤمنـين بأن سيـاستنـا الخـارجيـة يجب أن تستند إلى ميثاق عصبة الأمم وعلى المعاهدة بيننا وبين الانكليز بالـرغم من الاجحاف الـذي فيها لأنها أصبحت صكاً وقّع عليه العراق فيجب أن نحترمه ولكن يجب أن لا نتجاوز حدود الواجبات وأن لا نضحي بمستقبلنـا في سبيل هـذا وذاك. ويجب أن نتحرك كحلفـاء وأصدقـاء لا كعبيد أو خدام ـ هذا كان رأيي في السياسة الخارجية بين المتشددين والمتساهلين.

رستم حيدر

كلما أفكر في سوء حظ هذه البلاد أتذكر دائماً فيصلاً وياسين ورستم.. فهؤلاء خسرهم العراق وخسرهم العرب. فذهبوا ضحية جهادهم وخدماتهم تاركين وراءهم فراغاً لا يسد ولا أعتقد أنه يمكن أن يسد... فلما مات فيصل في فندق بلفو سنة ١٩٣٣ كان رستم تلك الليلة يتمشى معي في الممر أمام غرفة الفقيد ويخاطبني من حين إلى آخر قائلاً: «هذا من سوء حظ العرب» ولما مات رستم في المستشفى الملكي سنة ١٩٤٠ وجدت نفسي أتمشى أمام غرفته وأقول لمن معي: «هذا من سوء حظ العرب»...

تعارفت على رستم حيدر لأول مرة سنة ١٩٣١ عندما كان بصحبة الملك فيصل في برن وكانت تلك مقابلة قصيرة ولكنها تركت أثراً في نفسي إذ وجدته الرجل الوحيد الذي يستحق أن يقال عنه رجل دولة. وتلاقيت معه ثانية في سنة ١٩٣٣ أيضاً في برن أيام القضية الآثورية ووفاة فيصل فكان اجتماعي به هذه المرة أطول وقامت بيننا الصداقة والمودة ثم بعد انقلاب بكر صدقي أصبحت وإياه زملاء في مجلس النواب وكنت أتصل به من وقت لآخر وتوثقت هكذا أواصر الصداقة بيننا والاحترام المتبادل. وقد ازداد إعجابي برستم كلما كثر اتصالي به وكنت أجد فيه من كرامة النفس وطيب الكلام وغزارة العلم ومتانة الأخلاق ما رفعه في عيني فوق الأكثرية من رجالنا ان لم أقل فوقهم كلهم.. أما رجالنا أو الأكثرية الساحقة منهم فكانوا يكرهون رستم حيدر اما حسداً واما جهلاً.. كانوا يحسدونه ولا يرتاحون إليه لأنه أعلم وأقدر منهم ولأنه لا يرتشي ولا يسرق ولا يدس ولا يمكر ولا يتملق ولا يتزلف. ولأنه أرقى منهم بكثير في شكل تفكيره وفي طراز معيشته وفي سوية ثقافته. وكان بعض الناس الذين لا يجدون فيه عيباً و نقصاً لتطمين غريزة الانتقاد يلومونه لأنه على حد قولهم دخيل ومتكبر ومتهكم... ووجدت نفسي أكثر من مرة أدافع عن رستم حول مثل هذه التهم السخيفة التي يسندها إليه المغرضون في بعض الأندية حيث كانوا يتهمونه بالطائفية والتزامه الشيعة في حين أنه كان أسمى من هذه السخافات ويسندون إليه التكبر والتهكم لأنه عالم وهم جهلاء ويعيِّرونه لأنه «دخيل»، لأنه كان يغار على مصلحة العراق العامة وكانوا يؤثرون مصالحهم الخاصة عليها... وكان رستم هدفاً لسهام زملائه من الوزراء و«عظام» الرجال. فقال لي يوماً نوري السعيد منتقداً رستم: «لا تأمن في رجل له وجه يشبه رأس الحية الصفراء...» ولكن لم يمنع هذا نوري من أن يأتي به وزيراً للمالية عندما شكل الوزارة.

كنت ذلك الصباح في غرفة الوزير علي جودت أتحادث معه حول بعض الأشغال فدخل علينا يوسف الكيلاني مسرعاً وقال أن رجلاً أطلق الرصاص على رستم حيدر في مكتبه في وزارة المالية وأنه أصابه في فخذه.. دهشت لذلك الخبر ودهشت لجواب علي جودت أكثر من الخبر نفسه إذ قال ليوسف شامتاً: «ضربه في فخذه! آخر هي كواد لصعّد ايدك شويه لفوق!». كيف لا أدهش لهذه الكلمات الصادرة من فم وزير الخارجية حول زميله وزير المالية؟ فلما رآني أنظر إليه متألماً وعابساً أدرك علي جودت خطأه وأسرع لتلافي هفوته وأخذ يرقع ما فتق فتركته مع يوسف وذهبت إلى غرفتي وأنا آسف لما وقع لرستم. فاتصلت بالمستشفى ثم ذهبت إلى هناك لأراه، على أن

الأطباء منعوا أن يتصل به أحد وعلمت أن الرصاصة أصابته مع الأسف في بطنه، وأن حالته مخطرة. وذهبت في اليوم الثاني فقيل لي أن الوضع أخذ يتردى وأنه مغمى عليه ووافته المنية في اليوم الثالث. وهكذا ذهب رستم ضحية الجهل، والطيش والفساد لأن الله خلقه بين قوم لا يقدرون الرجال ولا يرون مزاياهم.. وأجريت مراسم تشييع الجنازة بكل أبهة واحتشام ومشى في أول صف زملاؤه الوزراء وفي مقدمتهم نوري السعيد وعلي جودت ومشيت أنا مع من مشى وكان عدد المتظاهرين كبيراً وعدد المتألمين مثلي قليلاً جداً ووقف نوري في بهو المقبرة الملكية يحيط به الوزراء وأخذ يتقبل التعازي. وعدت أنا دون أن أعزي نوري مشمئزاً من الرياء والنفاق، ودموع التماسيح!

بعد أيام قليلة من اغتيال رستم حيدر ظهر في البلد «ذيل قبيح» للقضية فاستغل نوري ذلك الحادث المؤسف للايقاع ببعض خصومه بحجة أنهم كانوا مشرفين ومحرضين ومتآمرين على قتل رستم حيدر. وقد أدى اعتراف المجرم ومناقضاته إلى توقيف صبيح نجيب وابراهيم كمال ونجيب الراوي وعارف قفطان وغيرهم بتهمة التحريض على القتل أثناء وليمة غداء أقيمت في مزرعة صبيح نجيب حضرها المتهمون والمجرم وكانت قضية طويلة عريضة انتهت ببراءة الجميع عدا صبيح نجيب الذي حكم عليه لمناوأة الحكومة بقوله في ضيافة أقامها مزاحم الباجه جي لأصدقائه:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا... متى أضع العمامة تعرفوني

وغيره من النفخات المعرفة. وزرت صبيح نجيب بعد حكمه في مستشفى السجن، نفس المحل الذي كنت فيه أيام حكمت سليمان وأسفت لذلك وبعد أيام صدر العفو العام عن صبيح وترك السجن. وهكذا انتهت فاجعة الاغتيال ومهزلة الانتقام وخسرت البلاد رجلاً مخلصاً صادقاً مقتدراً ذهب ضحية واجبه. وحكمت المحكمة على القاتل بالإعدام. ومن المهازل أن نوري السعيد أتاني يوماً إلى غرفتي، وكان إذ ذاك وزيراً للخارجية في وزارة رشيد عالي، فأعطاني رزمة أوراق هي عبارة عن صور زنكوغرافية لكتاب موجه إلى نوري باشا من قبل المجرم قبيل تنفيذ الحكم فيه. والكتاب كله مدح وإطراء وثناء لنوري ووطنيته وطلب الباشا أن أوزع ذلك على المفوضيات والقنصليات ـ وما ادري ماذا كان يبتغي الباشا من ذلك وما هي قيمة كتاب يكتبه قاتل مثل هذا وما علاقة ذلك الكتاب بالمفوضيات. وجدت في طلب الباشا رعونة من رعوناته الصبيانية، على أنني لم أكلمه بالموضوع ولم أعترض عليه بل تركت الرزمة في الجرار للنظر في الأمر في وقت مناسب آخر ومرّ على ذلك بضعة أيام لم أستطع خلالها اقناع نفسي بتبرير إرسال صور الكتاب بشكل منشور إلى الخارج..

وذات يوم أتاني تحسين العسكري وأخبرني بأنه شهد شنق المجرم ذلك الصباح وأن القاتل عندما صعد المشنقة أخذ يسب ويشتم بنوري السعيد ويطعن به وأنه ضحية مناوراته و... و... فقلت لتحسين اذهب وقص الأمر على الباشا دون أن أذكر له شيئاً حول الكتاب الزنكوغرافي... وبعد أن غادر تحسين العسكري الخارجية جاءني نوري باشا وسألني فيما اذا كنت أرسلت ذلك الكتاب وعندما أجبته بالنفي أبدى ارتياحاً وطلب مني اهماله.

هكذا كان يعمل عفريت الدس والمكر في دماغ نوري وأنه لم يزل يعمل كالسابق.. ان طيش

الأقدار خلصه من شخصية قوية مزاحمة كشخصية رستم كما أنقذته من قبل من شخصية فيصل وياسين فاستغل الوضع وضرب خصومه أعوان المدفعي بتوجيه أشنع التهم إليهم وتوقيفهم وسوقهم إلى المحاكم العرفية... كما فعل من قبل بحكمت سليمان وأعوانه... يظهر أن سوء طالع البلاد يمشي دوماً يداً بيد مع حسن طالع نوري السعيد. وكل كارثة حلت بالبلاد أتت بالخير له وعززت مركزه وأيدت صلته بالانكليز.. وتاريخ نوري السعيد عبارة عن سلسلة حوادث من هذا القبيل...

أخبرني بعد زمن طويل محمد علي محمود الذي تولى الدفاع عن ابراهيم كمال أن القضية كانت مزورة من أولها إلى آخرها وأن المجرم كانت تأتيه التعليمات من قبل الشرطة مما أدى إلى تبديل شهاداته عدة مرات وأن الحكومة أتت بشهود زور وأن الأمر كله كان عبارة عن دراما تشبه حادثة حكمت سليمان. هكذا كانت البلاد تدار. فواجع تنتهي بمهازل ومهازل تنتهي بفواجع. ونوري السعيد بين كل تلك الأدوار يفرّ ويكرّ ويخبط خبط عشواء لا يعجز ولا يمل لا يرتاح ولا يُريح.

محمود

أسعد حادث بالنسبة لي لسنة ١٩٤٠ هو ولادة محمود في ٢٢ نيسان/ أبريل ١٩٤٠. فقد ذهبت ذلك الصباح مبكراً إلى المستشفى الملكي حيث كانت وداد لأرى كيف حالها. وإذا بالمرضة تستقبلني في باب دار الولادة قائلة: «ولد.. ولد.. ولد حلو..» فلم أفهم ماذا كانت تقصد وخلتها توهمتني بشخص آخر إذ أننا كنا لم نزل ننتظر الولادة. وكان من المقرر أن يخبرونا تلفونياً باقتراب وقت الوضع لنكون أنا ونعمت في المستشفى، وبعده فهمنا أن وداد فضلت عدم اخبارنا في ساعة متأخرة من الليل «فشرف» محمود بعد آلام كثيرة قريب الفجر.

وجدت وداد تعبانة كثيراً ولكنها كانت فرحة وباسمة.،، أتت لنا المرضة تحمل هذا المخلوق الجديد فارتجف قلبي فرحاً به ولما تركت المستشفى كانت دموعي تتساقط فرحاً وشعرت بأنني من أسعد عباد الله ذلك اليوم.. ومع ذلك السرور العميق شعرت بحسرة في قلبي إذ كنت أتمنى لو كان والدي ووالدتي على قيد الحياة.

بعد أسبوع تركت وداد المستشفى وأتت إلى البيت فأصبحنا أربعة أشخاص وكان محمود نشيطاً في البكاء فكان الدار صارخاً هائجاً بفضل أولادنا وأولاد ابراهيم فيذكرنا بأيام طفولتنا في البيت القديم.

ولما دنا موسم الحر سافرت نعمت وأخذت معها غيدة إلى بيروت. وفي أوائل الصيف سافرت وداد ومعها محمود والتحقت بها في نهاية تموز إلى صوفر حيث أخذنا داراً قضينا فيها أشهر الصيف. وكانت حياة صوفر لذيذة ومريحة كالمعتاد وكنت التقي كثيراً بأصدقائنا القدامى. وتعارفت خلال تلك الصيفية بسعدالله الجابري وجميل مردم وشكري القوتلي ورياض الصلح وغيرهم من الوطنيين وتوثقت عرى الصداقة بيننا وكان محورها مكافحة الاستعمار وانقاذ البلاد العربية من بلائه كما سيأتي بحث ذلك في محل آخر. وتعارفت في تلك الأيام على عجيل الياور إذ كان مصطافاً في فندق صوفر وقد وجدته رجلاً عاقلاً ذكياً محترماً..

عدنا إلى بغداد في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر وسكنا مع ابراهيم وعائلته في بيتنا القديم لأن دارنا لم تكن جاهزة.. وكنت أصرف أكثر أوقات فراغي بمراقبة الأعمال في الدار الجديدة وشراء الأثاث وإحضار ما يلزم للانتقال في أوائل السنة القادمة.

وعدت إلى أشغالي في وزارة الخارجية على أن ذلك الهدوء والانتظام والانسجام في أمور الخارجية الذي كان سائداً أيام علي جودت قد تضاءل إذ أن نوري السعيد أخذ يشتغل حسب عادته «على الرجل» وبلا نظام فكان هو يجري بالطول والوزارة بالعرض، كما سيأتي تفصيله.

التبلبل وعواقبه

كان التبلبل أبرز ما في سياسة العراق من ميزات عندما نشبت الحرب سنة ١٩٣٩ وخلال السنة التي تلتها. فتلك الفوضى أدت إلى عواقب مؤلمة ظهر من بينها عجز رجال العراق عن اتباع سياسة قوية موحدة منسجمة أو بالأحرى ظهر منها أن ليس للعراق سياسة معينة ثابتة إنما كان يتبع ظروفاً فجائية وتتقاذفه رياح السياسة من اليمين إلى الشمال. وكان الرجال في العراق لا يعلمون ما يريدون وذلك باستثناء نوري السعيد الذي أثبت نفسه أشد «بريطانية» من البريطانيين أنفسهم، فأراد أن يعلن الحرب على المانيا منذ أول يوم نشوب الحرب ولكن الانكليز وجدوا حينذاك أن قطع العلاقات الدبلوماسية أوفق لهم من إعلان الحرب الذي يؤهل العراق فيما بعد أن يحصل على كرسي في مؤتمر الصلح. وفي بعض الوثائق السرية التي وجدتها فيما بعد في وزارة الخارجية والمرسلة من السفارة البريطانية إلى وزارة الخارجية العراقية تشكر السفارة العراق على استعداده لدخول المعمعة ولكنها تقترح أن يكتفي العراق في الوقت الحاضر بقطع العلاقات، وعليه فإذا لم يشترك العراق بالحرب منذ البداية فالسبب هو عدم رغبة الانكليز في ذلك إذ كان كل من نوري السعيد والوصي عبد الاله مستعدين.

وقد أثبتت الحوادث الأخيرة من الحرب بأن نوري كان مصيباً في رأيه وأن البلاد كانت تنجو مما حدث بعد ذلك من اضطرابات ونكبات لو دخلت الحرب في البداية. ومع ذلك لا أعتقد بأن رغبة نوري في الحرب كانت ناتجة عن اعتقاده الكامل بانتصار الحلفاء بل إنما كان ذلك لاستعجاله في إظهار شعوره نحو بريطانيا ولارتباطه الشخصي بكل شيء بريطاني، فإنه مع بريطانيا في السرّاء والضراء وتأتي قضية البلاد ومستقبل العرب وكل شيء بالدرجة الثانية.

إلى جانب السياسة القائمة بشخص نوري كانت هناك سياسة أخرى معادية لها تميل إلى الاعتقاد بفشل الحلفاء بالنتجة وانتصار المحور ولم يكن أساس هذه السياسة علم حقيقي بوضع الحرب وعواملها ومجاريها، إنما كان الأساس لها العداء لبريطانيا بسبب قضية فلسطين ومماطلاتها وتسويفاتها للعرب خلال ربع قرن مضى. وكان مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني يغذي بآرائه وفلسفته هذه السياسة من وراء الستار. وبالطبع، كان المتطرفون من خصوم الانكليز يحملون هذه الفكرة وكانت الدعاية الالمانية والطليانية تستغلانها بمهارة وعناية فائقة وكانت الانتصارات السريعة الباهرة لجيوش الرايخ تزيد كل يوم من عدد معتنقي هذه الفكرة وتقوي الايمان بفوز المحور النهائي... وبفضل تلك الكراهية وهذه الدعاية دبت فكرة انتصار المحور لدى طبقاتٌ واسعة مثقفة وغير مثقفة وفي صفوف الجيش ومحيط المدارس، وقد زاد في الطين بلة موقف الانكليز السلبي تجاه كل ذلك وإهمالهم مطاليب العرب وعدم مراعاة شعورهم... وكان وضع السفارة البريطانية في بغداد أقرب إلى وضع المتفرج منه إلى وضع الحليف.. وكان السفير البريطاني السير «بازل نيوتن» رجلاً طيباً ولكن لم تكن لديه خبرة واطلاع واسع في شؤون العرب والعراق ودواليب السياسة المحلية، وكان في وضعه وخلقه أقرب للبروفسور منه إلى السفير.

أذكر أنه جرى بيني وبين وزير فرنسا المفوض الموسيو «لوكوبيه» يوماً حديث حول السفارة

البريطانية.. فقال لوكوبيه «أن بازل نيوتن رجل «بيدانتيك» بكل معنى الكلمة... فاذا قلت له مثلاً أمطرت السماء ليلاً لا تستغرب إذا سألك: وكم قطرة من المطر سقطت». وهذا يدل بوضوح على عقلية الرجل، ونظرته في الحياة... وقال لي توفيق السويدي يوماً أن السر بازل يرتجف غضباً إذا ما فاتحه عراقي بأمر فلسطين ويقول: «لا أفهم ما دخل العراق ببلاد أخرى... فنحن في العراق ولا يعنينا أمر فلسطين». وقد قابلت السفير أكثر من مرة ودعاني ودعوته وقد وجدته كما قلت رجلاً لطيفاً هادئاً و«جنتلمناً» يحب الأدب والخزف الصيني ولكن كأنه في عالم غير عالمنا وفي وقت غير وقتنا... وكان من سوء حظ العراق أن يكون السفير البريطاني في مثل هذا الشكل في أحرج الأوقات وأصعبها.. وما أكثر المصائب التي تأتي عن طيبة القلب وحسن النية!

كان الانكليز بالطبع غير مرتاحين لهذا العداء المتظاهر المتزايد كل يوم بين مختلف الطبقات في العراق، ومثالاً على ذلك أنه تحدث إليّ يوماً المستر «أدموندس» شاكياً من تصرفات الصحافة العراقية لأنها تذكر أخبار انتصارات الألمان بحروف بارزة في نشراتها الأولى بينما الأخبار التي في صالح الحلفاء تنشر بدون عناوين ضخمة وفي الصفحات الأخيرة وأراني فعلاً احدى الجرائد تذكر في آخر صفحاتها بحروف ناعمة خبر انتصار الجنرال ويفل في «سيدي براني» وتأسيره ألف جندي طلياني. فقلت إلى أدموندس ومن هو المسؤول عن مثل هذا الشعور في العراق؟ ولماذا لا يقوم الانكليز بدعاية مقابلة لدعاية المحور، ولماذا يهملون العرب وقضاياتهم بهذا الاهمال، ولماذا لا يصرحون بحقوق العرب فيما إذا انتصروا؟

نعم في العراق شعور عداء قوي ضد الحلفاء.. وهذا هو نتيجة سوء تصرف استمر ربع قرن في البلاد العربية فوافقني «أدموندس» بأن هنالك تقصير من قبل الحلفاء... فوضع الانكليز السلبي كان عاماً شاملاً من جميع النواحي. فقد كان الجيش العراقي يطالب بالتجهيزات والعتاد التي يتحتم تزويدها بموجب المعاهدة، ولكن الانكليز كانوا يماطلون بحجة أن ليس لديهم ما يسد حاجات جيشهم، ولذا فانهم لا يستطيعون في الوقت الحاضر تزويد العراق بأي شيء. هذا في حين أن العراق كان يرى بعينه القطارات المشحونة، سلاحاً وعتاداً كل يوم تمر فوق سككه الحديدية إلى تركيا وهذا أمر جعل الجيش العراقي وقواده ينفرون كل النفرة من حلفائهم. وبعث نوري السعيد بصفته وزيراً للخارجية مذكرتين احداهما للسفارة البريطانية وثانيتهما إلى المفوضية الفرنسية يطلب بإلحاح اصدار تصريح من الحلفاء بشأن مستقبل سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن فيما إذا تم النصر لهم، وكان جواب حلفائنا حفظهم الله سلبياً مما أزاد الاستياء في الطبقة المدبرة. وبعد ذلك بمدة ذهب نوري شخصياً إلى مصر وقابل من قابل من ذوي الحل والعقد ولكنه عاد بخفي حنين متألماً وإذا وصلت الحالة إلى درجة تؤلم نوري السعيد فماذا يكون الشعور عند خصومه وخصوم الحلفاء؟

في تلك الأيام أذاع راديو «باري» بلاغاً رسمياً يعترف باستقلال البلاد العربية ويؤيد مطاليب العرب بعد انتصار المحور وأذاع راديو برلين بلاغاً مشابهاً مما جعل الشعور العام في العراق والبلدان العربية الأخرى يغلو ويهيج، وقابل الانكليز ذلك بأن هذه تصريحات غير رسمية لا قيمة لها إلّا عند المذيعين والدعاة. وعلى أثر ذلك أرسلني نوري السعيد لأقابل وزير ايطاليا المفوض السنيور «غابريلي» فذهبت إلى المفوضية الايطالية وقابلت الوزير المذكور وطلبت إليه

باسم وزير الخارجية أن يبين لي فيما إذا كانت تصريحات إذاعة باري رسمية تربط الحكومة الايطالية، فأخبرني الوزير أنه يعتقد بأن البلاغ له صبغة رسمية ووعدني بأنه سيتصل بحكومته ويبلغني النتيجة رسمياً، وبعد بضعة أيام أتى غابريللي ومعه مذكرة يؤيد باسم حكومته ما أذاعته محطة راديو باري. أما الانكليز فكانوا خاملين جامدين تجاه كل ذلك لا يبدون حراكاً ولا يوقدون أملاً ولا يجلبون قلباً.. وقد تكون برودة الدم في بعض الأحيان نافعة ولكن الله لم يخلق العالم كله على شاكلة الانكليز.

هذه وعوامل أخرى مثلها جعلت الناس لا تأمل خيراً من الحلفاء ولا تأمن جانبهم وصارت الدهماء تشمت باندحاراتهم وتتظاهر بالولاء إلى خصومهم وقد وصلت الحالة إلى أنه حتى في دور السينما يهتف الناس للجنود الألمان و«يصفرون» للانكليز وأخذ بعض الناس يسمون أولادهم «هتلر» ولا يستمعون إلّا لمحطة برلين ولا يصدقون إلّا بأقوال يونس بحري.. هذا ما حصل بفضل خمول الانكليز وبرودة دمهم وبذلك توفقوا حقاً بأن يقلبوا التحالف عداءً والمودة خصومة والتعاون خصاماً دفيناً...

بين الحيرة والأمل

لم ينحصر الاستياء في قطر عربي دون الآخر بل كان عاماً شاملاً الأقطار العربية كلها، فالأخبار التي كانت تردنا سواء عن طريق الصحافة أو الرواية كلها تشير إلى وجود استياء وحيرة وتمرد في مصر وسوريا وفلسطين. وقد شاهدت ذلك بنفسي من خلال مقابلاتي لرجالات سوريا ولبنان أثناء الاصطياف في صوفر، وكانت النقمة ضد الفرنسيين على أعمالهم وتصرفاتهم، وضد الانكليز بسبب الصهيونية موجودة حتى عند المعتدلين ولم أجد لدى من قابلت من رجال الكتلة والوطنيين الآخرين ميلاً للألمان ميلاً مطلقاً، انما كانوا يأملون في انتصارات الألمان خلاصاً من استعمار الحلفاء واساءتهم، ولم أجد بين العرب لا في العراق ولا خارج العراق رجلاً واحداً يرغب في استبدال الاستعمار البريطاني والفرنسي باستعمار الماني وايطالي. فالجميع كانوا يتمنون الخلاص من استعمار الأوروبيين مهما كان اسمه أو شكله.

جرت لي عدة مقابلات مع شكري القوتلي وسعدالله الجابري وجميل مردم ولطفي الحفار ورياض الصلح وغيرهم من الزعماء، فكانوا كلهم قانعين ومتفقين بلزوم التخلص بالتي هي أحسن من حكم الحلفاء والانتداب، وكانوا كلهم يأملون خيراً من العراق القطر المستقل، ويعقدون على زعامته الآمال.. ومن الغرابة بمكان أنني وجدتهم كلهم غير واثقين بنوري السعيد غير آمنين به وكانوا كلهم يحذرونني منه ويطلبون ايصال آرائهم إلى شخص رشيد عالي رئيس الوزراء. ولعل السبب في ذلك ما يتذكرونه من تصرفات نوري السعيد أيام ملوكية فيصل في الشام وحركات نوري ودواليبه مع غورو. حتى ان الأمير عادل أرسلان قال لي يوماً أن القوم كانوا ينعتونه «بغورو السعيد»، فكنت والحالة هذه أتجنب نقل أقوالهم ولم أفاتح نوري بما سمعته منهم إلّا، بما لا يمكن أن يعود عليهم بشر هذا، لأن الوضع في سوريا كان خطراً والكتلة كانت مطاردة ومتهمة بقتل عبدالرحمن الشهبندر وكانت تلك محاولة من قبل الفرنسيين للاساءة إلى زعماء الكتلة وانتهى الأمر بهم إلى الالتجاء إلى العراق خوفاً من أن يقبض عليهم وكان أول الملتجئين مردم والجابري والحفار..

هكذا كان العالم العربي عامة والعراق خاصة بين الحيرة والأمل. المتطرفون يأملون بالقضاء على استعمار الحلفاء بشكل انتصار المحور، والمتساهلون حائرون في أمرهم أمام التصلب البريطاني والوقاحة الفرنسية بالرغم مما حدث من انهيار وفشل في ساحات الحروب. وقد وصلت الحيرة أوجها في النصف الأخير من السنة بعد انهيار فرنسا والدول المحايدة الغربية. وشمت الشامتون بانكسار جيوش الحلفاء وهزيمتهم ودنكرك واستسلام فرنسا، وتأمل المتألمون لما حلّ بالحلفاء وبين هؤلاء وأولئك كانت في العراق جماعة معتدلة لا تريد هلاك هذا أو هذاك إنما تريد الخلاص بالتي أحسن من شر هذه الحرب وشر المتحاربين. أما أنا فكنت منذ أول يوم على نشوب الحرب ناقماً على مسببيها ومشمئزاً من فشل الحضارة الأوروبية المريع، وكنت دائماً أنظر إلى الحرب نظرة المتألم لسخافة البشر وحرصه وجشعه، وإلى المتحاربين في سبيل السيطرة على العالم كوحوش كاسرة يفترس بعضها بعضاً فلم أفرح بانتصار هذا أو بانكسار ذاك بل كنت دائماً آسفاً

لأن أرى البشرية وهي لم تزل في دورها الهمجي.. وكنت أتمنى وأسعى بأن لا يصل بلادنا شرر الحرب وشر المتحاربين، وأن يخرج العالم العربي سالماً ومتمتعاً بحريته واستقلاله، وعليه كان لزاماً علينا أن نتجنب المخاطر وأن ننتظر وأن نستفيد دون أن نسبب ضرراً لأحد. وكان من رأيي أن نحترم بنود المعاهدة بالرغم من اجحافها لأنها أصبحت صكاً وعهداً والحرمة للعهود والمواثيق يجب أن تكون دائماً أساس العلاقات بين الدول. فكرامتنا كانت تقضي علينا كشعب، أن نقوم بتعهداتنا وأن كل الانكليز فيما سبق قد ضربوا العهود والوعود بعرض الحائط.

نعم بيننا وبين الانكليز قضايا عديدة يجب حلها ولكن كنت ولم أزل أعتقد بأنه يجب أن لا يأتي ذلك الحل عن طريق نكث عهد أو خرق معاهدة أو فسخ ميثاق وكنت لا أتفق مع بعض الانتهازيين في رأيهم القائل بلزوم الاستفادة من وضع انكلترة الحرج وانكسارها في الحرب، كما أنني لم أكن متفقاً مع عبدة «الأصنام الذهبية» بلزوم التضحية المطلقة في سبيل الانكليز وسياستهم. وفي نظري أن الحرب هذه، هي عبارة عن حرب أطماع وجشع بين الأقوياء بالرغم من تطبيل الدكتاتوريات وتزمير الديمقراطيات باسم البشرية والحرية والانسانية وغيرها من المبادىء التي استغلها المستعمرون منذ أن خلق ابليس الطمع الاستعماري، فكان علينا أن لا ننخدع بمثل تلك الدعايات.. ولكن التحمس من طباع الانسان وكان من البديهي أن ينشأ متطرفون مغالون وكل حزب بما لديهم فرحون. وكان من الطبيعي أيضاً أن تسبب الانتصارات الألمانية المتوالية وانهيار فرنسا وبلجيكا وهولندا والدانمارك والنروج ميلاً شديداً للمحور لدى الشعوب المحكومة المتأثرة بالاستعمار والانتداب، حتى أن شيئاً من اليأس والفتور أخذ يدب في أصمد القلوب وأقوى الأعصاب في الجبهة الديمقراطية، حتى أن الأمر وصل إلى نوري السعيد نفسه فأخذ يتألم ويتظاهر بأن يقول أحياناً: «إلعن أبو الانكليز والألمان إننا نريد نسلم بريشنا..». كان نوري السعيد يتألم بكل اخلاص من تطورات الحرب وانتصارات الألمان المتوالية. وكان أول شيء يعمله عند حضوره وزارة الخارجية هو درس الوضع العسكري على خارطة كبيرة في غرفته والتأشير بالقلم الأحمر على المدن التي سقطت ذلك اليوم، وتقدم الجبهة، وكان يجد بعض السلوى بأن يشرح لنا آراءه العسكرية وأكثرها ينطبق كل الانطباق على اذاعات لندن العسكرية وكنت أشعر بأنه كان يحزن كثيراً عندما يرانا نحن الموظفين التابعين له أقل تأثراً وحزناً منه على نكبة الحلفاء.. وفي تلك الأيام جمعنا كلنا نحن رؤساء الشعب وكبار الموظفين في غرفته صباح يوم ليأخذ رأينا في وضع العراق تجاه بريطانيا.. ومن الغريب أنه لم يدع المدير العام رشيد الخوجه إلى ذلك الاجتماع. فوقفنا بشكل نصف دائرة ووقف هو أمامنا وأخذ يسأل كلًا منا رأيه بالموضوع. وأهم ما في الموضوع هو التشكي الذي أخذ يبديه حلفاؤنا تجاه تصرفات الدعاية والصحافة العراقية. ومن الطبيعي أن كلًا منا أخذ يلوم الانكليز على تصرفاتهم واهمالهم ثم التفت إليّ ضاحكاً: «وأنت يا بو شرارة شنو رأيك؟» فقلت له أن أساس كل ذلك الارتباك هي المساواة الاسمية التي بيننا وبين حلفائنا.. فلو اعترف الطرفان منذ البداية بأنه لا يمكن أن يتساوى القوي والضعيف لكان خيراً لنا ولصلاتنا المتبادلة. فالمعاهدة تقول أننا متساوون ونحن صدقنا بذلك، وصرنا نعامل الانكليز معاملة الند للند. وهذا أمر لا يعجب الانكليز. والآن انهم يشتكون من صحافتنا ويطلبون منا وضع حد لتحرشاتها ودعاياتها. هذا حسن ومن حق الحليف والصديق أن يطلب مثل ذلك الطلب.. ولكن يا باشا لا بد وأنك قرأت أو سمعت بما نشرته جريدة

«المنشستر غارديان» قبل بضعة أيام حول العرب والعراق، وكيف أن تلك الجريدة الحـرة أساءت واستعملت كلمات جارحة مستفزة. فهل يمكن لنا أن نطلب من الحكومة البـريطانيـة أن تتداخـل وتمنـع نشر مثل هذه الاهانات؟ طبعاً في وضعنا الحالي هذا لا يمكن.. لأن صداقة العرب والانكليز لم تزل في الدور الاصطناعي من أدوارها.. نعم هنالك معاهدة وتحـالف ومساواة وكـل شيء لكنها على الورق فقط.. فمتى تبدلت الذهنية البريطـانية وقبلت بـاستبدال الصـداقة المـزيفة بصـداقة حقيقية يزول سوء التفاهم وتموت دعايات السوء..»

صرفنا نوري السعيد دون أن يسمع من أحدنا ما يسره ويفرح قلبه وحتى عبدالمجيد علاوي دمدم شيئاً بلزوم تطبيق المعاهدة من قبل الجانبين وأشرك الانكليز باللوم والعتاب... فأراد الباشا أن يجد سلوى لدى موظفيه فوجد استياءً ونقمة.

ضاع الحساب

لدى رجال السياسة في العراق «حساب محدود» و«جوز معدود» هذا في أيام السلم والهدوء. فلما نشبت الحرب وتوالت الانتصارات الالمانية وقامت الدعاية بأنواعها المختلفة تـأتي من اليمين ومن الشمال وبقي الانكليز جامدين خاملين أضاع الجماعة الحساب وصـاروا يضربون أسـداساً بأخماس. أما المصلحة الحقيقيـة في نظري فكـانت تقضي بالصبـر والانتظار فـإذا كسب الحلفاء الحرب فإن لدينا نوري وجماعته لتدبير الأمور وإذا خسروهـا يأتي خصـوم نوري للقيـام بالمهمـة الجديدة. ولكن المتحمس لا يصبر ولا ينتظر ونوري لا يركـد ولا يهجع.. وكـانت النتيجة سلسلـة «خرابيط» ما أنزل الله بها من سلطان. ولم يتأخر عنا حلفاؤنا في هذا الميدان. وكان هنالك سبـاق لكسب قصب السبق بين نوري والانكليـز من جهة، وخصـوم نوري والـدعايـة الالمانيـة من جهة أخرى. وضاع بالمرة الحساب والميزان.

كانت «الخرابيط» كثيرة لا حد ولا نهاية لها على أننا نكتفي بذكـر أهم ما حـدث منها في تلـك الفترة: فقد وقع رؤساء الوزارات السابقـون وثيقة «عـدم اعتداء» فيمـا بينهم، تعهدوا فيهـا بأن يتعاونوا جميعاً وأن لا يتخاصموا طيلة أيـام الحرب تمشيـة للأمـور الهامـة.. هذا أمـر حسن في ظاهره لأن الاتحاد يولد القوة على أن الغرابة هنا أن المشوق لتلك الحركة كان المفتي الحاج أمين الحسيني، وقد وقعت الوثيقة في داره وكان هذا الأمر في ذاته بمثابة اعتراف ضمني بمقام خاص للمفتي في السياسة العليا. وفي الواقع كان نفوذ المفتي يزداد يوماً بعـد يوم. فـانه أتى في بـادىء الأمر هارباً من لبنان ولاجئاً. فرحب به العراقيون شعباً وحكومة وخصص له نوري السعيـد مبلغ ٥٠٠ ديناراً بالشهر لتأمين مصاريفه ورجاله فكان معززاً مكرماً وكان النـاس من جميع الطبقـات يزورونه ويحترمونه لأنه في نظرهم يمثل القضية الفلسطينية وانه مشعل المقاومة ضد الصهيونيـة والاستعمار البريطاني.

وعـززت الحرب من مـوقع المفتي درجـات وأصبحت دار المفتي تضـاهي البـلاط، وفي نظـر المتحمسين تفوق البلاط، وكان كبار الرجـال من ملكيين وعسكـريين في أيـام الاعياد مثـلاً يزورون البلاط، ثم المفتي.. والحاج أمين الحسيني رجل شاطر ذكي، فاستغل موقفه وقوّى مركزه وأصبح قوة كبيرة في البلد. ولذا لم يجد رؤساء الوزارات عندنا غرابة في مداخلـة المفتي وجمع صفـوفهم بل أظهروا امتناناً عظيماً له على نصائحه ووقعوا وثيقة التآخي في داره حامدين شـاكرين. وكـان نوري السعيد في مقدمة المعجبين بالمفتي وقديكون في نفسـه غرض وكـان المفتي يتظاهـر بالـولاء والحب لنوري وقد يكـون له خطـة وغرض. ويصعب عـلى الانسان أن يحكم أيهمـا الاشطر بـين الاثنين، ومن منهما أشدّ مكراً وأقوى حيلة.

كان المفتي يأتي أحياناً إلى وزارة الخارجية ويختلي بنوري السعيد لمدة ساعات دون أن يعلم أحد بما يدور بينهما من أحـاديث ودواليب.. وكلف نوري السعيـد يومـاً المفتي بأن يتـرأس وفداً عراقياً يذهب إلى أمريكا للدعاية ومعالجة قضية فلسطين على أن المفتي لم يقع في الفـخ بل شكـر نوري على ثقته غير المحدودة واعتذر واقتـرح بأن يتـرأس مثل هـذا الوفـد نوري السعيـد نفسه

بصفته وزيراً للخارجية العراقية، وضحك نوري ضحكته التقليدية وأهملت القضية... وكان الانكليز يبتغون من وراء ذلك إبعاد المفتي عن العراق ولو إلى مدة معينة وكان المفتي يرغب في ابعاد نوري عن الوزارة ولو لأيام معدودات، وهكذا دارت القضية بين مكر نوري ومكر المفتي.

وهذا دولاب طريف آخر من دواليب نوري. ذلك انه بعد عودة نوري السعيد من مصر دون أن يأتي بنتيجة ما، كما مر ذكره، أتى إلى وزارة الخارجية ذات يوم ومعه رئيس الوزراء رشيد عالي ووزير الدفاع طه الهاشمي ودخلوا غرفة الوزير وبعد بضعة دقائق طلبوا حضوري فذهبت وسلمت عليهم وجلست.. ففتح الحديث نوري باشا وشرح القضية رئيس الوزراء وأيده وزير الدفاع. الخلاصة: أن الحكومة راجعت أكثر من مرة وبشتى الطرق والوسائل حليفتها بريطانيا بشأن الحصول على تصريح يتعلق بقضية العرب بعد الحرب، وذهبت كل تلك المحاولات سدى. فالآن وقد تطورت الحرب، أصبح من الضروري أن يتصل العراق بصورة من الصور بالمانيا وروسيا لتأمين مصيره ومستقبله ولذا ارتأت الحكومة بأن تكلفني بهذه المهمة بالنظر إلى معرفتي اللغة الالمانية وسبق اشتغالي في المانيا، وذلك بأن آخذ اجازة وأسافر للاصطياف في ايران وهناك من طهران أتصل بالالمان والروس بصورة سرّية..

فلو قيل لي أن السماء أمطرت ضفادع لما استغربت أكثر من استغرابي من هذا التكليف. وخاصة من اشتراك نوري السعيد بمثل هذا الموضوع! رشيد عالي متحمس لهجمان، بيت الانكليز، وله أفق محدود في السياسة الخارجية ولذا، فإنه من حقه أن يتلذذ بمثل هذه الاقتراحات، وطه الهاشمي رجل معتدل رزين فلا بد وأنه وزن الخير والشر قبل أن يوافق على رأي كهذا.. ولكن ماذا أقول في أبي صباح؟ أمن المعقول أن يؤمن بشيء مثل هذا وقلبه يقطر دماً على ما أصاب الحلفاء؟ فهو الذي أراد أن يعلن الحرب من أول يوم وهو الذي اعتقل الألمان في العراق وسلمهم إلى الانكليز وهو الذي أساء واعتدى على الدكتور غروبا وشمت به قائلاً: إذا كسب هتلر الحرب فليشنقني.. وهو الذي سلم الانكليز مفاتيح البلاد ومواردها. فكيف يعقل أن يوافق على ارسال أحد موظفيه إلى إيران ليتصل بأعداء الانكليز. بعد أن أفهمني الوزراء ما يقصدون، طلبوا مني رأيي في الموضوع.. فنظرت إليهم.. رشيد عالي كله ايمان وحماس.. وطه الهاشمي كله رزانة وحساب، ونوري السعيد كله مكر و«شيطنة».. نظرت إليهم وقلت لهم أعطوني يوماً لأفكر. ثم انتهت الجلسة وخرجت وأنا متأثر، بغرابة التكليف وتباين أذواق المكلفين... ولم تحتاج القضية إلى تفكير طويل، إذ انني قررت رفض هذا التكليف عندما سمعت به.

أولاً: لأنني كنت دائماً مؤمناً بلزوم تطبيق المعاهدة واحترام العهود. فالاتصال بالألمان من وراء ظهر الانكليز خطأ. فاذا كان الاتصال ضرورياً فليكن علناً وليس هنالك ما يمنعنا من ذلك.

ثانياً: انني شممت رائحة مناورة انكليزية وراء هذا الأمر وإلّا لما وافق نوري عليها.

ثالثاً: اذا كانت هنالك ضرورة قصوى للاتصال بالالمان والروس فهنالك عندنا مفوضية في أنقرة يرأسها كامل الكيلاني أخو رشيد عالي فلا حاجة لإرسال شخص آخر.

فلهذه الاعتبارات قررت رفض التكليف وفي اليوم الثاني عندما حضر نوري السعيد الوزارة ذهبت إليه وبينت له رأيي وعدم قبولي تلك المهمة.. فلما سمع نوري ما قلت برقت عيناه وارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه وقال: «الحق معك.. انهم مجانين»..

ناجي شوكت وفون بابن

ومن خرابيط تلك الأيام أن الحكومة العراقية أوفدت بمهمة رسمية إلى تركيا كلاً من وزير الخارجية نوري السيد ووزير الداخلية ناجي شوكت. ولم يعرف العراق من قبل امكانية تشكيل وفد من شخصين اشتهرا بخصومتهما وعدائهما وتباين رأيهما مثل ناجي ونوري.. ولكن «الخرابيط» تبيح هذا وأكثر من هذا. ولما انقضت مهمة الوفد تأخر ناجي شوكت وذهب إلى استانبول لمداواة اذنه وهناك قابل سفير المانيا الهر فون بابن بواسطة الوزير المجري، وعلى ما أسرّ لي به ناجي بعد عودته أن المقابلة كانت سرّية تماماً ولم يسمع بها أحد ولم يشتبه بها أحد، ولكن عندما رجع نوري كان عالماً بالقضية وصار عدد الذين سمعوا بالأمر أكثر من الذين لم يسمعوا. ولم أقف تماماً على تفاصيل ما دار بين بابن وناجي ولكن هذا الأخير كان مغتبطاً ومؤمناً بأن النصر سيكون للألمان وأن مستقبل العرب والعراق كان مضموناً وكان ايمان ناجي الجديد هذا بالألمان يضاهي بقوته إيمان نوري القديم بالانكليز. وأتذكر أننا كنا مدعوين عند ناجي شوكت مساء يوم على العشاء و«البريدج» فكنا أنا وابراهيم ومحمد وصائب وعبدالقادر صالح ويوسف الكيلاني وعبدالقادر الكيلاني وجرى حديث السياسة والحرب وتحمس ناجي للألمان وتحمس أخي ابراهيم للانكليز قائلاً: يجب علينا ان نحسب على أساس الخمسين في المائة لكل من الطرفين المتحاربين... ولم يقبل ناجي شوكت بذلك.. فقال له ابراهيم: خو مو عندك كمبياله بالظفر الالماني!» فضرب ناجي شوكت على صدره قائلاً بحدة وحماس: «نعم.. عندي كمبياله!. عندي كمبياله!..» ومثل هذه الحماسيات كانت تجرى في كثير من المجالس والدواوين.

نوري السعيد و«لوكوييه»

عندما سافر نوري وناجي إلى أنقرة أصبح رشيد عالي وكيلاً لوزير الخارجية فطلب من الوزير الفرنسي الموسيو «لوكوييه» الذي صار يمثل حكومة فيشي أن يسافر إلى بيروت ويطلب من المندوب السامي هناك باسم العراق بإدلاء تصريح يتعلق بمستقبل سوريا ولبنان. فسافر الوزير الفرنسي وقابل المندوب السامي وأقنعه، وكان التصريح على وشك النشر فحضر نوري السعيد بيروت عائداً من انقره ولما سمع بهذا اتصل بالمندوب السامي وبدون تفويض من الحكومة العراقية، طلب إليه تأجيل التصريح المذكور. فلما عاد الموسيو لوكوييه من بيروت أخبرنا بما جرى واحتد رشيد عالي وضرب على رأسه قائلاً: «يا خائن! يا خائن!» وفُسرت «خربطة» نوري هذه في حينه، على أنها كانت مداخلة انكليزية. لأن تصريح الفرنسيين بانتهاء الانتداب عن سوريا ولبنان سيجعل الانكليز في فلسطين في موقف حرج ولذا أوعزوا إلى نوري أن «يخربط» المسألة فقام بتلك المهمة أحسن قيام ولما عاد إلى بغداد عاتبه رشيد. فأنكر.. واجتمع مع «لوكوييه» و«تلغمطت» القضية وأبو صباح أستاذ الملغمطين.. وهكذا وبفضل التبلبل والفوضى يذهب وفد إلى تركيا مركب من شخصين متخاصمين أحدهما يجر بالطول وثانيهما بالعرض، ولم تجن البلاد من كل ذلك إلّا شراً وإذا أراد الله أن يهلك قوماً سلب من ذوي العقول عقولهم..

«خرابيط» حلفائنا

إذا سُمح لأحد أن يكتب صحيحاً في تلك الأيام فإنه لا بد أن يحمّل الانكليز قسماً كبيراً من أسباب الارتباكات والفوضى. قلت أن حلفاءنا كانوا جامدين خاملين عاجزين عن معالجة الوضع

كما ينبغي ولم يكتفوا بذلك الدور السلبي إنما أرادوا التدخل ولكنهم تداخلوا مثل الذي يدخل البيوت من شبابيكها.. إذ أنهم عندما رأوا صلابة رشيد وترجرج وضع نوري أرادوا أن يعالجوا الوضع وبفضل عجز السفير، فعالجوه على طريقة الذي أراد أن يداوي عيناً ففقسها! إذ سمعنا يوماً أن السفير أخبر رئيس الوزراء بأن وزير الخارجية البريطانية وحكومته يعتمدون على الوصي وعلى نوري السعيد وأنهم يؤيدون سياستهما.. سمعنا بذلك ولم نفهم تماماً ما كان يبتغي السفير والحكومة البريطانية من هذه المداخلة وهذا التحدي الذي لم يزد الوضع إلّا حراجة والطين إلّا بلّة. فازداد الاستياء في الرأي العام وتوتر الأعصاب والعلاقات، إذ يعني ذلك أن الانكليز كانوا غير راضين على حكومة رشيد عالي وشخص رشيد وزملائه، وكان من البديهي أن يزداد التأثير في النفوس والكراهية في القلوب والدعايات في الأندية والمجالس... وكرر الانكليز طلبهم حول قطع العلاقات الدبلوماسية مع ايطاليا وكرر العراقيون رفضهم لذلك الطلب، وأصبحت القضية قضية كرامة وعناد وابتعدت عن كونها مسألة مصالح وتساهل بين الحلفاء، وأخذ الطرفان يتسابقان في خلق المشاكل وتكدر صفو العلاقات.

مصلحة البلاد

باتت مصلحة البلاد ككرة القدم تتقاذفها الميول والأذواق بين تصلب رشيد عالي وعناده وجماعات المتحمسين من جهة، ودواليب نوري ومن ورائه المتساهلون والمرتبطون بالسراء والضراء بالانكليز من الجهة الأخرى. وهل هناك جواً أخصب من هذا لدس الدساسين ومكر الماكرين وخداع المخادعين واستغلال المستغلين. توصلت الحالة في أواخر سنة ١٩٤٠ إلى درجة لا تضاهى فاقترح أولياء الأمر بأن ينهوا تلك الفوضى بشكل من الأشكال وقرروا بأن يستقيل كل من نوري السعيد وناجي شوكت من الوزارة لأن الأول يمثل محور الدواليب في نظر المتحمسين بينما الثاني كان حجر الزاوية في نظر المتساهلين، وبعد اخذ ورد قدم نوري باشا استقالة مطنطنة استعرض فيها التطورات التي أدت إلى الأزمة وانسحب ناجي شوكت بدون كلام واعتقد كل منهما أنه بذلك قدم خدمة كبيرة لبلاده، وظن الناس ونحن منهم أن المشكلة قد حلت والأزمة قد انتهت. ولكن مع الأسف فإن القضية لم تنته بنظر حلفائنا ولا بنظر خصومهم. فاستمر الدس واستمرت الدعايات وسرعان ما دخلت البلاد بأزمة أكثر تعقيداً وأصعب حلاً من ذي قبل. وصار الانكليز لا يعتمدون على رشيد ويريدون ابعاده عن الحكم بأية وسيلة كانت.

تحادثت مع نوري باشا قبيل استقالته فوجدته متألماً من الوضع وقلت له «لماذا يا باشا لا تصلح بين رشيد والانكليز ولا يستطيع أحد غيرك القيام بمثل هذه المهمة»، فأجابني أن رشيد كذاب وعنيد والانكليز لا يعتمدون على كلامه وأتى بمثل على كذبه أنه وعده بتعيين تحسين العسكري وزيراً مفوضاً في مصر ثم نكث بوعده». فوجدت نوري ناقماً على رشيد لهذا السبب وأكثر خصومات رجالنا مع الأسف هي من هذا القبيل.. ثم أضاف الباشا متنبئاً: «هم تشوف محد يدهور البلاد إلى التهلكة غير رشيد» وبالمقابلة كان رشيد وجماعته يعتقدون أن البلاد سائرة إلى الاضمحلال على يد نوري وجماعته.

والحقيقة أن البلاد كانت ضحية خصومات الرجال وميولهم. فلأن نوري يكره رشيد وناجي، وكل من يقف بوجه الانكليز، كان يشتغل ضدهم، ورشيد وجماعته لأنهم يكرهون نوري وكل من يتظاهر بصداقة الانكليز كانوا لا يعتمدون عليهم. كانت هذه الحالة مؤلمة جداً وكان الناس كلهم

مشغولين بهذه القضايا. وظهر في آخر الأيام، وبعد استقالة نوري وناجي، عامل جديد وهو شخص الوصي الأمير عبد الإله الذي أخذ ينظر إلى الأمور بعين نوري والانكليز ويتصلب تجاه رشيد وحكومته إما بامتناعه عن تصديق قرارات المجلس واما بعرقلة سير أمور الدولة بمداخلاته حتى انتهى الأمر به أنه طلب إلى رشيد عالي أنه يترك رئاسة الوزارة.

إنني أترك للتاريخ تحليل هذه الأمور وتفاصيلها ولكن تجاوز الأمير صلاحياته الدستورية أولد استتياءً كبيراً في الأوساط الوطنية ولدى عامة الشعب وان كان ذلك قد طمأن رغبات نوري، ومن ورائه الانكليز، وعلى أثر ذلك ازدادت الحالة سوءاً والأزمة تعقيداً وأخذ وزراء رشيد عالي يتمردون وصار الوصي يتصل بهم مباشرة ويطلب منهم الاستقالة لإحراج موقف رئيس الوزراء وصار قواد الجيش المناوئين للانكليز يؤيدون رشيد عالي ويتظاهرون بمؤازرتهم اياه ومعارضتهم للسياسة البريطانية.

أما الرأي العام فقد كان إلى جانب رشيد عالي لأنه كان يمثل المقاومة ضد الانكليز ويريد أن يضع حداً لتصرفاتهم ولأنه خصم نوري رجل الانكليز، وبطل المعاهدة، ومحرّك الدواليب... وفي تلك الأيام صارت الناس تسمع بأن الوصي الأمير عبد الإله أخذ يوزع الهدايا والهبات إلى بعض رؤساء العشائر ويعقد معهم اتفاقات وتحالفات ليقوي بها مركزه ويزيد نفوذه وكانت كل هذه التدابير تستند بالطبع إلى نشاطات نوري وارشادات الانكليز. وكما قلت، فان البلاط والسفارة ونوري وأعوانه ورشيد وجماعته صاروا كلهم يتسابقون في ميدان الفوضى والارتباك للقضاء على خصم أو للحصول على غاية... فضاعت الغايات وتعكرت المياه وشمر المفسدون عن سواعدهم للصيد في تلك المياه وراجت سوق المنافقين ودعاية الدعاة.

في تلك الأيام كنت على اتصال دائم بصادق البصام، فهو صديقي، وهو أحد وزراء رشيد عالي فكنت أطلع على بعض ما يجري في المحافل العليا كما أنني كنت أسمع كثيراً من شتى المصادر في الخارجية عما يدور في البلاط والوزارة. وبصرف النظر عن التفاصيل كان الوضع كما يلي: كان الانكليز بواسطة الوصي ونوري وغيره من العناصر الموالية للانكليز، يريدون اقصاء رشيد عن الحكم، وقطع العلاقات مع ايطاليا، ووضع حد للدعاية ضد الحلفاء لأن رشيد عالي في نظرهم كذّاب لا يعتمد على أقواله ولأن بقاء المفوضية الايطالية في بغداد وتشجيعها بشتى الأساليب الدعاية ضد الانكليز وقيامها بالتجسس وغيره أمر لا يطيقونه ولأن تصرفات الصحافة ومهاجماتها المستمرة لا يأتلف مع الحلف العراقي البريطاني.. أما رشيد ومن ورائه الرأي العام والجيش والمفتي وجماعة اللاجئين الفلسطينيين فقد كانوا يقاومون مطالب الانكليز لأنهم لم يلبوا مطالب العرب فيما يتعلق بمستقبل البلاد العربية ولأنهم لم يزودوا الجيش بلوازمه حسب المعاهدة ولأنهم أخذوا يتدخلون في أمور لا تعنيهم، ويظهر من ذلك أنه لم يكن هنالك مسائل جوهرية لا يمكن حلّها فيما إذا تمسك كل من الطرفين بحسن النية.. ومن سوء حظ العراق أن السفير إذ ذاك كان بازل نيوتن ورئيس الوزراء رشيد عالي والوصي لا يزال شاباً بدون تجربة. فاستغل نوري استياء الانكليز واستغل المفتي تعصب رشيد. وعناصر الشر تستطيب مثل ذلك الجو... وهنا وفي تلك الأيام شعر العقلاء بخلو مكان فيصل وياسين ورستم و.. «لا تعرف خيري إلّا أن تجرب غيري»!

سنة ١٩٤١

إذا كانت سنة ١٩٤٠ سنة الارتباكات و«الخرابيط» فان سنة ١٩٤١ كانت سنة البلاوي والمصائب. فعندما دخلنا العام الجديد كان الوضع السياسي في العراق على أسوأ حال كما مرّ ذكره فهذا يجر عرضاً وذاك طولاً. وكان عناد رشيد عالي المطلق لا يقل ضرراً عن استسلام نوري السعيد المطلق فهذا يرى كل رأي أو عمل أو ارشاد يأتي من السفارة كأنه مُنزل من السماء لا يقبل الفحص أو التحليل أو التعديل بينما يجد ذاك في هذا العمل تدخلاً فظيعاً ودسيسة شيطانية..

أتى يوماً نوري السعيد قبل استقالته باقتراح من الانكليز يطلبون فيه بأن يصرح رشيد عالي بصفته رئيساً للوزارة بأن حكومته عازمة على تطبيق المعاهدة روحاً ونصاً وهذا أمر كان رشيد يقرّه ويشير إليه دائماً ولكن بما أن الطلب هذه المرة أتى من الانكليز عن طريق نوري فقد أخذ يتردد ويتفلسف وكان الانكليز في تلك الآونة في ضيق شديد إذ كانت جيوش الجنرال «غراسياني» على أبواب مصر. فتصريح من هذا القبيل في تلك الساعة كانت له قيمة وتأثير وقد وجدت نوري محقاً في ذلك الطلب في تلك الساعة الحرجة ولكن رشيد ومستشاريه ارتأوا غير ذلك فأخذوا يماطلون لمدة اسبوع أو أكثر، انقلبت الآية بعده وتراجعت جيوش «الطليان» وانزل الجنرال ويغل ضربة صارمة بهم واحتل بنغازي. وبعد ذلك كله صرح رشيد عالي أمام المجلس بما طولب به ولكن بعد فوات الأوان، وبالطبع لم يفت نظر الانكليز تردد رشيد وتمرده. وكانت مثل هذه الأخطاء كثيرة.

أما سياسة البلاد فكانت تائهة لا ترى لها رأساً أو كعباً. نوري يريد التعاون مع الانكليز بلا قيد أو شرط ورشيد يريد تعاوناً كله قيود وشروط والنتيجة كانت فشل الاثنين فاضطر نوري إلى الاستقالة كما ذكرنا ساحباً معه خصمه الألد ناجي شوكت. وأخذ وزراء رشيد الآخرون يتملصون ويلحون على الاستقالة بتشويق من الوصي وإيعازه حتى أصبحت الوزارة اسماً بلا جسم.. ورأى العقلاء آنئذٍ أن يتنحى رشيد عالي عن منصبه ويترك معالجة الموقف لرجل آخر أكثر مرونة ويعتمد عليه البلاط والحلفاء والانكليز والجيش والرأي العام. ولكن رشيد كان صلباً لا يتزحزح وكان ينظر إلى انسحابه كخذلان شخصي ـ وطني أمام الانكليز. فأخذ يعالج الوضع بأن يعين وزيراً جديداً كلما استقال وزير قديم وهكذا دخل الوزارة يونس السبعاوي وعلي محمود الشيخ ليسدا الثغرة وسمعنا بأنهما رشحا من قبل الجيش وأن الوصي وقع على ارادة تعيينهما لا رغبة فيهما بل اضطراراً على أن التدبير لم يكن إلّا وقتياً وكان من تأثيره المعاكس أن استقال ناجي السويدي من وزارة المالية محتجاً بأنه لا يستطيع أن يزامل «زعطوطاً» مثل يونس السبعاوي!

كيف أصبحت وزيراً للخارجية

ذهبت كما هي العادة لتهنئة الوزيرين الجديدين علي محمود ويونس السبعاوي وعندما كنت خارجاً من لدن السبعاوي في وزارة الاقتصاد صادفت طه الهاشمي وهو أحد الوزراء المستقيلين

حديثاً من وزارة رشيد عالي، فتساءلنا وأخذنا نتحادث حول وضع البلاد فقال لي الهاشمي بأنه سمع شيئاً حول تعييني وزيراً للخارجية ثم أضاف بأنه يجب عليَّ أن أقبل هذا المنصب فيما إذا كلفت به.. فاستغربت وقلت له: كيف تنصحني وأنت تستقيل من الوزارة؟ فقال: ان الوضع الآن تبدل وان على الشبان أن لا يتأخروا في خدمة البلاد في مثل هذه الأوقات الحرجة..» فلم أهتم كثيراً بهذه المحادثة وذهبت إلى شغلي في الخارجية. ومساء ذلك اليوم كنت عند صادق البصام فأخبرته بما قال طه فوجدت أن صادقاً يؤيد وجهة نظره وقال: يجب أن تقبل إذا كلفت.. لأنه ليس من الصحيح ترك رشيد محاطاً بالعناصر المتطرفة ثم أضاف فإذا لم تخدم بلادك اليوم متى تخدمها؟».. وقد وجدت بعض الغرابة في أقوال صادق أيضاً لأنه هو أيضاً كان من المستقيلين. ثم فكرت فوجدت أن «الخرابيط» سوف لا تجعلني أستطيع أن أخدم بلادي هذا فضلاً عن أنني لم اكن يوماً ما راغباً في الاشتغال بالسياسة المحلية عن طريق الوزارة فقررت في نفسي أن لا أقبل بالوزارة إذا كُلفت... ومضت بضعة أيام على ذلك وذات يوم من شهر شباط/ فبراير عندما كنت وقت العصر أشتغل في حديقة الدار أتى يوسف الكيلاني وأخبرني بأن رشيد عالي يرغب في مقابلتي،وفهمت من يوسف أن هنالك احتمالاً بتكليفي بمنصب وزارة الخارجية وكان يوسف مشجعاً ومشوقاً ومحبذاً وقال: «ان الشباب ينتظرون منك الخير فلا تخيب أملهم...» شعرت في تلك اللحظة بمزيج من الاغتباط والتردد.. كنت فرحاً بأن أكون وزيراً للخارجية وأخدم بلادي في مثل تلك الظروف ولكنني كنت متردداً لأن الوضع كان مرتبكاً وقد لا أنجح في هذه المهمة... بعد أن تركني يوسف الكيلاني ذهبت إلى أخي ابراهيم لأكلمه وأستشيره في الموضوع فوجدت ابراهيم متردداً ومیالاً إلى عدم قبول ذلك التكليف بسبب مداخلة الجيش في السياسية، ثم ذهبت إلى سليمان فتاح وفاتحته فقال: «لا بأس من القبول إذا قُبلت شروطك» وبعد هذا ذهبت إلى ديوان رئاسة الوزراء، وبعد أن خرج صالح جبر من غرفة رئيس الوزراء دخلت على رشيد عالي فرحب بي وفتح الحديث بمقدمة مؤثرة خلاصتها: انني لا أجهل ماذا جرى في الأيام الأخيرة وأن أسباب سوء التفاهم كانت الدسائس والتحريكات التي أدت إلى هذه الأزمة وأنه يرغب حقاً في التعاون مع الانكليز وفي تطبيق المعاهدة ويريد شخصاً يطمئن الانكليز إلى صدقه واخلاصه في العمل لتشجيع التقارب وأنه لم يجد بين الشباب أحسن مني للقيام بهذه المهمة. ولما سألته عن وضع الوصي قال مطمئناً أن كل خلاف بينهما قد زال وأن الأمير عبد الإله هو الذي اقترح اسمي وحبذ تعييني لمنصب وزارة الخارجية... وأن الكل يأمل خيراً من هذا التعيين.. وأن اليوم هو يوم الشباب ويوم الاخلاص!

كان رشيد عالي بطريقة كلامه يستنجد بي باسم خدمة الوطن أكثر من التكليف لأنه يعلم انني لم أكن راغباً في الاشتغال بالسياسة ولم أكن طامعاً بمنصب عال. وكان رشيد عالي على علته بصلابته وعناده، يمثل في نظري الجبهة الوطنية التي يجب على كل رجل مخلص تقويتها واصلاحها وجعلها مفيدة لخدمة البلاد ولذا لم أجد في نفسي طاقة على رفض التكليف حالاً ومباشرة. فسألته عن السياسة الخارجية التي يجب اتباعها.. فقال: «إني أعتمد على اخلاصك فأوافق على شروطك... قل ما هي شروطك وماذا تريد؟» قلت:

أولاً: تطبيق المعاهدة نصاً وروحاً..

ثانياً: القيام بكل ما يلزم للتقارب بيننا وبين الانكليز وازالة سوء الفهم وإن كان ذلك فوق شروط المعاهدة بشرط المحافظة على الكرامة الوطنية طبعاً..

ثالثاً: عدم المحاولة لاعادة العلاقات الدبلوماسية مع المانيا.

رابعاً: عدم التمسك بقضية قطع العلاقات مع ايطاليا واعتبارها قضية كرامة بل تركها عرضة للتطورات واستعمالها كشرط لحل بعض القضايا العالقة..

كنت أتكلم ورشيد عالي يكتب هذه الشروط على ورقة صغيرة، فلما انتهيت قرأها من جديد ونظر إليّ باسماً وقال: أقبل بكل ذلك وبكل ما تقترح في المستقبل في هذا الشأن. والحق أنني استغربت من كلام رئيس الوزراء لأنني وجدته متساهلاً أكثر مما كنت أتأمل وكنت أعتقد أنه سوف لا يوافق بكل شروطي هذه ولا سيما الشرط الأخير إذ أن قضية قطع العلاقات كانت قد أخذت دوراً كبيراً وأصبحت مسألة كرامة في نظر رشيد وجماعته وكذلك في نظر الجيش. فالآن يوافق رشيد بشروطي كلها ويؤكّد بأن الخلاف بينه وبين الوصي قد زال تماماً وأن الوصي هو الذي اقترح اسمي فكل هذه الأمور أزالت قسماً كبيراً من ترددي وجعلتني أعتقد بأنه لا يزال هناك مجال للقيام بخدمة البلاد والقضاء على تلك الفوضى وذلك الدس وتلك الارتباكات.. وخرجت مغتبطاً من ديوان مجلس الوزراء وموافقاً على تكليف رشيد عالي وقد هنأني كل من سمع بذلك مساء ذلك اليوم وكان عدد المهنئين كبيراً صباح اليوم التالي في وزارة الخارجية.

أول عمل قمت به في الخارجية كان الابراق إلى مفوضيتنا في لندن وإلى الحكومات المشتركة بميثاق سعد آباد حول السياسة الخارجية التي كنت مصمماً اتباعها وهي تطبيق المعاهدة والسعي لازالة الخلاف بين العراق وبريطانيا.

اجتمعنا في اليوم الثاني وقت الظهر في ديوان مجلس الوزراء فكنا نحن خمسة وزراء والرئيس رشيد عالي. وكان أهم موضوع هو البحث في وضع مجلس النواب إذ في الاجتماع الذي جرى في ذلك الصباح كان الهجوم شديداً ضد رشيد عالي ووزارته ولم يحضر المجلس سوى علي محمود ويونس السبعاوي وفي المجلس كان أشد المهاجمين على جودت وعارف حكمت وجماعة نوري السعيد.. وكان رشيد عالي وكل من يونس وعلي محمود ميالين إلى حل المجلس لوجود عناصر معارضة قوية فيه. أما أنا فلم أكن بعد واقفاً على مجرى الأمور وما يدور في محافل المجلس ولم يكن لي رأي قاطع في الموضوع على أنني قلت بلزوم التريث وكان رأي الوزراء بأن الحكومة سوف لا تستطيع مجابهة المجلس وأن هنالك مؤامرة مدبرة لاسقاط الوزارة وعدم منحها الثقة ولذا فحل المجلس أصبح ضرورياً وخير للوزارة أن تتغدى بالمجلس قبل أن يتعشى هو بها. ومع ذلك فلم يعجبني أن يكون أول عملي بالوزارة هو حل المجلس وسألت رشيد عالي رأيه فيما إذا كان الوصي مستعداً للحل فأجابني باسماً ومتأكداً بأن الوصي وعده بأنه سوف لن يؤخر له أمراً، وأعدت قولي بأنه اذا لم يكن رئيس الوزراء متأكداً من موافقة الوصي فليس من المصلحة الاقدام على حل المجلس، وكان آخر جواب لرشيد حول هذه القضية أنه متأكد كل التأكيد وعلى أثر ذلك انصرفنا وذهبت أنا ومحمد علي محمود لمقابلة الوصي وتقديم الشكر بمناسبة تعيننا. وبما أن الوقت كان وقت الغداء فقد ذهبنا إلى قصر الرحاب حيث يسكن الوصي وهناك استقبلنا كل من الرئيس عبيد مرافق الوصي وعبدالقادر الكيلاني وكيل رئيس الديوان الملكي. وبعد انتظار قصير

في الصالون أتى الوصي فقمنا وسلمنا عليه وشكرناه فاستقبلنا بكلمات معدودات وشعرت بأن المقابلة كانت باردة وليس في وضع الوصي ما يدل على أنه كان مغتبطاً ومسروراً وأنه هو الذي اقترح تعييننا.. وجرى الحديث بصعوبة ملموسة حول الزيز والناموس والرطوبة وغيره من التوافه وخرجنا من عند الوصي وكل منا يسأل رفيقه عن برودة المقابلة وحملناها على الوقت.. إذ ربما كان الوصي يتغدى أو يرتاح فزيارتنا أزعجته نوعاً ما...

ذهبت بعد الظهر إلى وزارة الخارجية لقضاء بعض الأعمال وبقيت هناك حتى الساعة الثامنة مساءً ولم أسمع من رئيس الوزراء خبراً حول المجلس فاتصلت به تلفونياً وعلمت منه انه لم يستطع مقابلة الوصي حتى ذلك الوقت.. فلم يعجبني هذا الجواب وبما أنني كنت مدعواً على العشاء عند سليمان فتاح تركت الدائرة وذهبت إلى بيت فتاح باشا. وكان من بين المدعوين وزير تركيا المفوض والقنصل التركي فتحدثنا عن أمور متعددة.

عدت إلى البيت عند منتصف الليل فوجدت وداد تنتظرني فأخبرتني أن رسولاً أتى من قبل مجلس الوزراء يطلب حضوري. كنت تعباناً وأحس بتوعك وماذا يريد مجلس الوزراء بهذه الساعة المتأخرة؟ وبينما أنا أفكر في ذلك فإذا «بموتورسايكل» يقف أمام الباب وعريف من الشرطة يخبرني بأن رئيس الوزراء يرجو حضوري حالاً، فتوكلت على الله وذهبت إلى ديوان الرئيس فوجدت المجلس منعقداً والوزراء كلهم حاضرين ومنزعجين فأخبرني رشيد عالي بأن الوصي رفض حل المجلس وأنه ذهب إلى الديوانية تخلصاً من الاصرار والالحاح وبذلك خلق أزمة عويصة ومشكلة معقدة... ربما كانت من محاصيل آراء نوري والانكليز الشيطانية. ورأيت في تلك الساعة أن لا فائدة من اللوم والعتاب. فرشيد اما كان مخطئاً أو مخادعاً ومع ذلك كان علينا في تلك الساعة أن نحل المشكلة بالتي هي أحسن. فهمت من رشيد أنه اتصل بالقواد والمتصرفين خارج بغداد وأن الجميع كانوا بجانبه ومؤيدين له و... و... و... ثم أتى لنا بالقواد فجلسوا على الطاولة معنا وأخذوا يتكلمون.. فتكلم أولاً محمود سلمان ثم فهمي سعيد ثم صلاح الدين الصباغ وختم الموضوع رئيس أركان الجيش أمين زكي سليمان.. والحق يقال أنني لم أفهم ما كان يقصده قواد الجيش وكيف أنهم تداخلوا في هذه الأمور ولم أجد في ما قالوا شيئاً معيناً أو اقتراحاً واضحاً إنما كل كلامهم كان عبارة عن اظهار شعور الحماس والاخلاص والتأييد لرشيد عالي والوزارة وأنهم مستعدون لتنفيذ ما نقرره. ثم تكلمنا نحن الواحد تلو الآخر واتضح الوضع بعد ذلك جلياً. فرشيد عالي ويونس وعلي ومحمود كانوا ميالين إلى المقاومة واتخاذ تدابير شديدة لمنع اجتماع مجلس الأمة واجبار الوصي على العودة أو الاعتزال وكان يونس السبعاوي المحرض الأول والمشجع الأكبر لهذه الفكرة إذ كان يدور من قائد إلى آخر و«يبشبش» في آذانهم ويحمّسهم، وتجاه ذلك كنا نحن الثلاثة محمد علي محمود ورؤوف البحراني وأنا لا نرى ما يبرر هذه المقاومة وإيقاد تلك الفتنة بين صفوف الجيش والقيام بعمل غير دستوري كمنع اجتماع المجلس بالقوة أو اقصاء الوصي. فاذا كان المجلس ضدنا والوصي ضدنا فمن الأشرف لنا أن نتخلى عن المسؤولية، ثم ان رئيس الوزراء كان دائماً يصرح بأنه حامي الدستور ويحترم القانون فلا يجوز أن يستعمل الجيش ضد الدستور..

أثّر كلامنا على رشيد وعلى علي محمود ولكن يونس بقي متصلباً والقواد بقوا مؤيدين له..

وأخذ رشيد يتصل بطّه الهاشمي وبالسيد محمد الصدر وبالمتصرفين وكان يذهب ويتركنا ثم يعود ويستأنف الجدل وهكذا مرت ساعات عصيبة. على أننا بقينا نحن الثلاثة مصرين على رأينا بلزوم الاستقالة وبعد أخذ ورد طويل اقتنع رشيد وأخذ يقول: أنه لا يريد خرق الدستور ولا يريد أن يستعمل الجيش إلّا لحرمة الدستور وصيانته وعليه فإنه قام بواجبه إلى آخر دقيقة ولكن عمل الوصي ذلك وذهابه إلى الديوانية أمر يهدد البلاد بالفتن وعليه فإنه يوافقنا في رأينا بتقديم الاستقالة.. وعبثاً حاول يونس اقناع رشيد على الاستمرار بالمقاومة. وكان رشيد عالي مخلصاً في تألمه وأخذت الدموع تتساقط من عينيه فتنفسنا الصعداء لأننا تمكنا في الأخير من اقناع الرئيس بالاستقالة وانقاذ البلاد من فتنة لا يعلم عاقبتها إلّا الله. وبدأ رشيد يكتب مسودّة الاستقالة وهنا أيضاً تداخل السبعاوي وجاء نص الاستقالة كصحيفة سوداء تشنع بالوصي والانكليز.. فأعدنا الكرة وسعينا لتخفيف وطأتها. وعندما انتهينا من ذلك ووقعنا على نص الاستقالة كان الفجر قد بان فعدت إلى البيت وأنا منهك من التعب والسهر وانحراف صحتي. ولكني كنت مسروراً لأنني ساهمت بإنقاذ بلادي من فتنة تكاد أن تأتي بمصائب عديدة على البلاد. وكنت أشعر إلى جانب ذلك بمرارة الفشل. إذ لم يمر على استلامي وزارة الخارجية إلّا يوماً واحداً. وكنت بالطبع ألوم رشيد لأنه أصر على تعييني ولأنه لم يتريث في قضية حل المجلس ولأنه لم يقل لي الصدق عن وضعه مع الوصي. فكان لي بذلك درس وقررت في نفسي أن لا أعود إلى مثل هذا العمل حتى في أحرج الأوقات.

بقينا يوماً بالوكالة في الوزارة إلى أن تم تأليف الوزارة الجديدة برئاسة طه الهاشمي وقد هنأني كل من يعرفني على موقفي تلك الليلة المشهورة وكان علي جودت في مقدمة المهنئين.. وبعد أيام قلائل كنت مدعواً إلى السفارة البريطانية على حفلة «كوكتيل» فصادفت هناك نوري يتكلم مع طه فلما رآني أتى باسماً ضاحكاً ومهنئاً حسب عادته بعد أن «طبطب» على ظهري معجباً ومقدراً واشترك طه الهاشمي أيضاً بالتهنئة لأنني ساهمت بانقاذ الموقف.. ومن ذلك يستبان أن الفشل كان ممزوجاً بشيء من التضحية والخدمة وكان الناس يقدرون ذلك ومع هذا فإنه من المؤكد كان لنوري وجماعته في ذلك الفشل انتصار باهر ومن ذلك تبين أن رشيداً مع كل ما لديه من حماس واخلاص لا يستطيع أن يقف أمام نوري المسلح «بدواليب» الانكليز ودسائسهم..

وبعد أيام طلبني وزير الخارجية الجديد توفيق السويدي وعرض عليَّ بأن أعود إلى وظيفتي السابقة في الخارجية فاقترحت عليه بأن يعينني مديراً عاماً فقال أن ذلك غير ممكن مع وجود رشيد الخوجه، فقلت لنترك الأمر إلى أن تنتهي قضية الخوجه الذي كان في النية إحالته إلى التقاعد وعليه فقد شكرت السويدي واعتذرت عن قبول وظيفتي القديمة. وهكذا انتهت المسألة وخرجنا ببياض الوجه وضحيت لوجه الله ولوجه الوطن ما ضحيت.. وتحملت فشلاً كان بوسعي أن أتحاشاه. ولكن عندما قبلت الوزارة لم أكن أفكر في منفعتي الشخصية بل في مصلحة البلاد فقط.

نصيبك يصيبك

عندما قابلت توفيق السويدي في الخارجية كان الوزير عائداً من زيارته إلى مصر حيث قابل المستر ايدن وزير خارجية بريطانيا. فقص عليَّ توفيق السويدي بالتفصيل ما دار بينه وبين ايدن

من المباحثات ويظهر أن توفيق كلمه بصراحته المعلومة وطلب من الحليفة أن تصرح بما يطمئن إليه العرب في المستقبل ولكن لم يجد إلا عناداً وتصلباً من الجهة البريطانية مما جعله يقول إلى ايدن: «إذا استمرت سياستكم هذه فلا نستطيع أن نقوي مركزنا وقد يرمي بنا قواد الجيش في يوم ما إلى الطريق» ولكن بالرغم من صراحة السويدي هذه ومن انذاره لم يتزحزح الانكليز من خمولهم ولم يقدموا على معالجة الوضع بصورة فعالة. أما وزارة طه الهاشمي فكانت معتدلة في سيرها ولذا كانت تتقدم وتمسك باحدى يديها الرحمن وبالأخرى الشيطان.. فمن جهة كانت تسعى لارضاء الوصي والانكليز ومن جهة أخرى كانت قد تعهدت بحماية القواد الأربعة الذين تعاهدوا مع طه حين تشكيل الوزارة. وتعهد رشيد عالي بأن يؤيد طه طالما هذا لا يتعدى على الجبهة الوطنية، أي جبهة رشيد والجيش. ولكن رأى طه الهاشمي أن يصرح في مجلس النواب بأن ما ورد في استقالة وزارة رشيد عالي حول وجود اصبع للأجنبي وراء تصرفات الوصي لم يكن صحيحاً. ولم أستوعب ما هي الفائدة من تصريح مثل ذلك وما علاقة الوزارة الجديدة بما ذهبت إليه وزارة سابقة في استقالتها وعلى كل تلقى رشيد وجماعته عمل طه تحدياً وثارت ثورة رشيد وأخذ يعربد ويهدد.. قد ذهبت يوماً إلى داره ونصحته بأن لا يجعل من هذه القضية سبباً للعداء بينه وبين طه فإن مصلحة البلاد تقضي بأن يتساهل الرجال ويتعاونوا في مثل تلك الظروف لا أن يتخاصموا ويتراشقوا حول أمور ثانوية...

وأخذ رشيد عالي وناجي شوكت وغيرهما يسعون إلى تأسيس حزب سياسي، وقد كلمني مرة ناجي شوكت بذلك الموضوع على أنني شخصياً لم أكن راغباً في الانتماء إلى الأحزاب السياسية وذلك بالنظر إلى وضع الأحزاب السياسية السابقة في العراق وما انتهت إليه من فشل وبينت إلى ناجي شوكت أنني أفضل البقاء مستقلاً أؤيد ما أراه حسناً وأنتقد ما أعتقد به سيئاً..

في تلك الأيام من شهر آذار/ مارس سافرت إلى البصرة فالعمارة مع محمد بسبب بعض الأشغال المتعلقة بالأملاك في العمارة وصادف أن كان معنا في القطار عارف حكمت وهو أيضاً متوجه إلى العمارة. وفي اليوم الثاني وصلنا البصرة وأخذنا سيارات وتوجهنا نحو العمارة. هناك نزلنا في بيت وكيلنا حسين الشيخلي. بقينا في العمارة ثلاثة أيام قضينا خلالها أشغالنا وزرنا بعض أصدقائنا القدامى من أهل العمارة. كنا دائماً مع المتصرف ماجد مصطفى الذي ترك سمعة طيبة في العمارة بسبب نشاطه وادارته القوية. وبعد أن انتهت أعمالنا عدنا إلى البصرة ونزلنا في فندق شط العرب وكان هذا الفندق والحدائق المحيطة به يجعل الانسان يعتقد أنه في قطعة ما في أوروبا. قابلت أصدقاءنا من البصريين وفي مقدمتهم عبدالرزاق جلبي الأمير وسامي النقشلي والنعمة وقضيت وقتاً طيباً بصحبة المتصرف صالح جبر وصادف أن لعبنا بريدج في بيت البير أصفر وكان أحمد شوقي بين الحاضرين.. وزرت أثناء بقائي في البصرة مع أحمد شوقي وسامي النقشلي الفاو والملحة والحفارات في شط العرب وكانت السفرة بمجموعها مفيدة ومؤنسة.

سياسة العراق مثل مذهب اليزيدية

كنا يوماً جالسين في بهو فندق شط العرب، محمد وعارف حكمت وأنا، فأتى المستر «لويد» رئيس لجنة التمور وجلس معنا. وكان بالطبع مجيؤه لا حباً بعشرتنا ولكن ليتكلم وليسمع وليعلم..

فساق الحديث إلى الجيش والقواد و«المربع الذهبي» «The Golden Square» كما كان يسمي الانكليز القواد الأربعة. وكان المستر لويد حسب عادته نصف سكران وهي حالة يستغلها للثرثرة والاستفزاز فصار يتكلم وعارف حكمت يؤيده بأن العراق يحب الانكليز ويودهم وأن الخلافات كلها كانت بسبب الصهيونية وفلسطين ولم يوافق المستر لويد بذلك بل قال: «لا! إن سياسة رجال العراق مثل مذهب اليزيدية... فإنهم يخافون من الله ومن الشيطان ولكن بما أنهم يعتقدون أن الله غفور رحيم وأن الشيطان منتقم لئيم فصاروا يعصون الله ويعبدون الشيطان وهكذا ساسة العراق فإنهم يعتقدون أن الانكليز أناس متسامحون عادلون وعليه يجب الاساءة إليهم وبما أن الألمان قساة ظالمون أخذوا يتقربون إليهم... ثم أضاف: فإذا انتصر الألمان من سيحكم البلاد؟.. سيحكم البلاد المفتي ويونس بحري! واستمر بمثل هذه الثرثرة وكان عارف ومحمد يردان عليه وبقيت أنا ساكتاً طوال الوقت واكتفيت بأن أقول في الأخير أن مثل هذا الكلام يضر كثيراً بالعلاقات بين العراق والانكليز وقد يكون الضرر مضاعفاً إذا صدر هذا الكلام عن رجل عاش في العراق ربع قرن وينتظر منه أن يسعى لازالة الخلاف وفي سبيل التقارب.. والحقيقة أنني تألمت أن أسمع مثل هذا الهراء من رجل مفروض فيه السعي لبث روح التآخي والتحالف. ولكن لويد كان يمثل تلك الطبقة من الانكليز التي اعتادت على معاداة كل من لا يرغب في أن يكون خادماً مطيعاً لهم إذ أن «الصداقة» في نظرهم هي الطاعة العمياء والتذلل وقد عوّدهم على ذلك ضعفاء النفوس من العراقيين أنفسهم. وكانت غطرسة لويد بأن يشبه الانكليز بالله والألمان بالشيطان مرآة لروحية المستعمرين..

تعارفت بواسطة صالح جبر على الكولونيل وارد «Ward» مدير الميناء بالاسم وحاكم البصرة الحقيقي فوجدته رجلاً قوياً عاقلاً يحترمه الناس. وكانت تلك المعرفة أثناء حفلة رياضية أقيمت بين موظفي الميناء وعماله.. فجلست بين المتصرف وبين الليدي «ورد» وأحسست أنها امرأة مثقفة مهذبة..

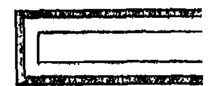
قضيت في البصرة والعمارة حوالي الاسبوعين وعدت إلى بغداد في الأسبوع الأخير من شهر آذار/مارس وصادف أن سافر معي في نفس القطار صالح جبر الذي كان ذاهباً إلى بغداد لاعمال رسمية.. وجرى بيننا في القطار حديث طويل حول السياسة في العراق وكنا متفقين حول عدة نقاط أهمها عدم صحة مداخلة الجيش في السياسة.. وسفرة البصرة هذه أدت إلى تكوين نوع من الصداقة بيني وبين صالح جبر.. فوجدت الرجل نشيطاً عاقلاً محافظاً على مركزه كما أنني وجدت أهل البصرة وفي مقدمتهم عبدالرزاق الأمير راضين عنه وعن حكمه ونزاهته... أما أنه رجل الانكليز وربيبهم وخادمهم فهذه أمور تشمل عدداً كبيراً من رجالنا وعلى كل كان صالح جبر برزانته وعقله يستر هذه الناحية من ضعفه فيظهر مظهر الرجل المستقل القوي ومثال ذلك اصراره على استملاك قسم من حديقة القنصلية البريطانية لفتح الشارع على شط العرب فهذه قضية لعبت دوراً طويلاً وسببت احتجاجات كثيرة ولكن المتصرف صالح جبر بقي مصراً وأيدته الحكومة في طلبه حتى تم فتح الشارع.

العودة إلى بغداد

وصلت بغداد في الصباح فوجدت في المحطة ابراهيم ينتظرني فركبنا السيارة وتوجهنا إلى البيت وأثناء الطريق أخبرني ابراهيم بوفاة صديقنا المحامي مصطفى عاصم وذلك على أثر اطلاق

الرصاص عليه من قبل أحد المزارعين في المزرعة التي كان مصطفى عـاصم شريكاً فيهـا مع بيت النقيب. فأسفت كثيراً لأن مصطفى عاصم كان محامينا وصديقنا منذ أيام والدي وقد أثبت أكثر من مرة وفاءه واخلاصه لنا.. ومن غرابة الأقدار أن يموت مصطفى عاصم اغتيـالاً وهو مشهـور بخوفه من السلاح والمسدسات إذ كان حتى أيـام الحرب عنـدما كـان ضابط احتيـاط في الجيش التركي يبتعد عن خط الحرب ويبقى في المؤخرة إلى أن نقلوه إلى المقر.. وأخبرنا مرة أنه لم يحمل مسدساً مملوءاً بالذخيرة ولم يرتح لرؤية أحد يحمل سلاحاً حتى أنـه صادف مـرة أن سافـر من الكوت إلى بغداد برفقة أحد مفوضي الشرطة فلم يركب السيارة إلّا بعد أن نزع الرجل مسدسه... وبعد هذا الخوف وتلك الحيطة يذهب المسكين برصاص مجرم أثيم..

وجدت الوضـع في بغداد لم يزل هائجاً والشائعات تدور حول تمرد قواد الجيش بسبب اقدام الحكومة على نقل أحد القواد، كامل شبيب، من بغـداد إلى الديـوانية.. وسمعنـا أن المشار إليـه رفض قبول النقل وأنه مزق أمر وزارة الدفاع وأن وزير الدفاع طه الهاشمي سحب أمره وتراجـع أمام القواد... وأن خصوم الوزارة أخذوا يستغلون هذه الارتباكات الجديدة...



الجيش يستولي على السلطة

شاءت الصدف أن يحدث في أول نيسان/ابريل من ١٩٤١ حادث خطر في العراق بينما العالم يتبادل الأكاذيب والنكات من مثل ذلك اليوم. فقد كنت ذاهباً إلى الخان عندما شاهدت بطريقي جنوداً امام دائرة البرق والتلفون وفي شارع الرشيد وعند الجسر وفي محلات أخرى مما يدل على أن هنالك حادثاً جديداً. وسمعت بعد ذلك بأنه على أثر تدخل الجيش قدم رئيس الوزراء طه الهاشمي استقالته وأن الوصي ترك بغداد إلى جهة مجهولة وأن الجيش استلم زمام الامور.. ثم في ذلك اليوم أو في اليوم الثاني لا أتذكر جيداً.. نشر بلاغ من قبل رئيس اركان الجيش وقامت حكومة برئاسة رشيد عالي باسم حكومة الدفاع الوطني وهي مشكلة من قبل قواد الجيش ومن كل من يونس السبعاوي وعلي محمود الشيخ علي.. وهم نفس الجماعة التي اقنعناها بالاستقالة ليلة الأزمة الأولى عندما ذهب الوصي إلى الديوانية.

من المسبب لهذا الحادث الجديد؟

لا يمكن للمنصف أن يحمّل شخصاً أو جماعة دون أخرى مسؤولية هذا الأمر. إذ كان الجميع يتسابقون في خلق المشكلات وإثارة الأزمات.. اما السبب المباشر فيمكن تحميله على اكتاف طه وقواد الجيش.. ولعل التاريخ سيلوم طه لضعفه وعدم صراحته فإنه على ما سمعنا في حينه كان قد وعد القواد بالدفاع عنهم ولكن يظهر أن وعده ذلك لم يكن إلّا من قبيل تسكين الهياج. وكان الوصي ومن ورائه الإنكليز يسعون للقضاء على نفوذ القواد والتخلص منهم وارادوا أن يتم ذلك على يد طه رئيس الوزراء ووكيل وزير الدفاع ولم يجد طه بنفسه قوةً كافية لمجابهة القواد فحاول أن يستعمل الدهاء والكياسة حسب ظنه فاصدر أمراً بنقل القائد كامل شبيب إلى الديوانية وقد بدأ بكامل لأنه اضعف القواد واقلهم شأناً. ويقال أن كاملاً وافق في بادىء الأمر ولكن زملاءه الثلاثة وعلى رأسهم صلاح الدين الصباغ وجدوا في ذلك مناورة يقصد منها حل عصبتهم وابعادهم الواحد تلو الآخر عن بغداد. فقرروا فيما بينهم رفض اقتراح وزير الدفاع وانتبهوا إلى الخطر واستعدوا له بالمقاومة. في العادة ليس في نقل قائد من محل إلى آخر خطورة ولكن الحالة في بغداد لم تكن اعتيادية بل بعكس ذلك كانت دقيقة جداً وتتطلب الحيطة واليقظة... فلو كان طه قوياً كان يجب عليه أن يقضي على القواد اما بسوقهم إلى التقاعد دفعة واحدة او بتوقيفهم او اعتقالهم بسبب صيانة الامن وإذا كان ضعيفاً كان من الواجب عليه أن ينتظر وان لا يحرك ساكناً ويتوسل بنصف تدبير لا ينفع... والظاهر أن طه كان ضعيفاً واقنعه الوصي والإنكليز بأن يتظاهر بالقوة وكانت النتيجة وبالاً عليه وعلى البلاد.. ولربما كان الذين شجعوا طه راغبين في إثارة قضية القواد وفي انفجار الدملّة قبل أن يستفحل امرها ويستعصي علاجها. هذه أمور سيكشف خفاياها التاريخ عندما يُكتب مجرداً عن العواطف والمؤثرات. وعلى كل فإنني أعتقد انه لو كان طه قوياً حازماً لما وقع حادث أول نيسان/ ابريل، ولكنه مع الأسف كان متردداً حائراً يتمسك باليمنى الرحمن وباليسرى الشيطان يريد كسب رضاء الوصي والإنكليز ورشيد والمفتي والقواد في آن واحد فلم يرض عنه لا اولئك ولا هؤلاء.

حكومة الدفاع الوطني

بعد أن ترك الوصي بغداد ذهب إلى البصرة والتحق به جميل المدفعي وعلي جودت وداود الحيدري وغاب عن الابصار نوري السعيد وذاب كما يذوب الملح بالماء. وعندما أصبحت البلاد بلا حكومة وبلا وصي رأى القائمون بالانقلاب أن يعالجوا الأمر بتشكيل ادارة موقته وسموها حكومة الدفاع الوطني... اما المتحمسون والشبان وسواد الشعب فقد تحمسوا واخذوا يتظاهرون بالتأييد لرشيد عالي وقواد الجيش بينما دب القلق بين صفوف الجماعات المعتدلة وطبقات التجار والاقليات خوفاً من الحكم الدكتاتوري العسكري ومن الفوضى.. واتخذت هذه الحكومة تدابير سريعة وحاولت القاء القبض على الأمير عبد الآله وجماعته عندما كانوا في فندق شط العرب بالبصرة فالتجأوا بواسطة الكولونيل «وارد» إلى باخرة إنكليزية ولم تقبض القوات إلّا على المتصرف صالح جبر الذي أظهر تأييده للوصي ولم يطع أوامر حكومة الدفاع الوطني..

كان الوضع حرجاً جداً ولا أدري لماذا فضل الإنكليز انفجار الدمّلة هذه بهذا الشكل بدلاً من معالجة الأمور بحكمة وتروٍّ. ولكن كما قلت لم يكن السفير السير بازل نيوتن من فرسان هذا الميدان.. وصادف أن وصل بغداد السفير الجديد السير كينهان كورنواليس مع بداية هذه الحركة ولكنه مع الآسف وصل متأخراً وكان يجب ان يكون في بغداد قبل ستة أشهر على الأقل للاستفادة من شخصيته وخبرته..

كنا ننتظر بقلق نتيجة هذه الحركة وتأثيرها على وضع البلاد.. وقد سبق للعراق ان مرَّ بانقلابات عديدة ومداخلات عسكرية وعشائرية متعددة ولكن لم يسبق له أن شهد وضعاً حرجاً كهذا.. لأن الثورة التي قام بها الجيش اقصت الحكومة الشرعية وسببت هروب الوصي والتجاءه إلى الإنكليز وأتت كضربة قوية على نفوذ الإنكليز واعوانهم.. اضف إلى ذلك انها وقعت اثناء حرب عالميه قائمة على قدم وساق ومن جراء ذلك كان من البديهي ان مقاومة الإنكليز كانت تفسر صدقاً أو كذباً بموالاة اعداء الإنكليز تمشياً على قاعدة خصم خصمي هو صديقي ولذا اخذت الدعاية الالمانية بإذاعتها العربية تطبل وتزمر لرشيد والقواد والجيش وتكيل باللوم على الوصي ونوري وتتهمهم بأنهم خدام الإنكليز. وازادت الدعاية الالمانية في سوء الحالة وهياج الرأي العام فزاد خوف الاوساط المعتدلة وارباب المصالح والمتمولين لا سيما بعد أن أيدت العناصر الشيوعية والاشتراكية تلك الحركة وذلك الانقلاب. وهكذا لوّنت هذه الحركة التي ولدت عن سوء تصرف رجال العراق وخصوماتهم بصبغة نازية شيوعية واستُغلت لمآرب بعيدة جداً عن اهدافها المباشرة.

كلما مرّت الأيام ازداد الشعب هياجاً وحماساً وازدادت طبقات ارباب المصالح خوفاً وقلقاً. كان يأتيني كثير من الرجال المعتدلين ومن اليهود والنصارى يطلبون مني الاتصال برشيد واسداء النصح إليه بلزوم التمسك بالروية والاعتدال. وقد قابلت يونس السبعاوي وكان مساعداً لرشيد وتكلمت معه بذلك الشأن إذ لم يكن من الممكن مقابلة رشيد لكثرة اشغاله وزواره ومحادثاته إذ أن الادارة كلها كانت قائمة على كتفه وكان يونس حلقة الوصل بين الجيش وبينه.. ولا بد أن رشيداً واعوانه قد شعروا بأن وضعهم غير الشرعي سيؤدي إلى الفوضى وإلى دكتاتورية الجيش فراحوا يفتشون عن طريقة لإنهاء ذلك الوضع بعد أن اصبحت عودة الوصي امراً غير ممكن. وبعد أن مضى عشرة أيام على ذلك الحكم قرروا بأن يجتمع مجلس الامة لمعالجة الأمر.

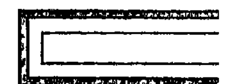
واجتمع النواب والاعيان في ١٠ نيسان/ ابريل في جلسة مشتركة ولما كان رئيس مجلس الاعيان السيد محمد الصدر غير حاضر فقد انتخب السيد علوان الياسري رئيساً لتلك الجلسة التاريخية. ذهبت إلى المجلس وجلست في شرفة المدعوين وكانت هذه محتشدة بالناس وكان قواد الجيش وكبار الضباط والموظفين يشغلون الصفوف الامامية من البالكونات.. (الشرفات).

افتتحت الجلسة بخطاب طويل حماسي القاه رشيد عالي وكان النواب والاعيان يقاطعونه بتصفيق حاد وبكلمات الاستحسان.. وكان عارف حكمت مثلاً، وهو رجل نوري المعلوم، أكثر النواب تصفيقاً وحماساً. فاستغربت، أو بالاحرى لم استغرب، بل تذكرت بأن «العراق اشد كفراً ونفاقاً». بعد أن انتهى رشيد من خطابه ودوت قاعة المجلس برعيد التصفيق المتواصل وصرخات الحماس طلب ناجي السويدي الكلام. فاستولى السكوت على المجلس واخذت الاعناق تتلفت وتتساءل عما سيقوله السويدي. وكنت اعتقد، كما كان يعتقد أكثر الناس، بأن ناجي السويدي المشهور باعتداله سيعترض على «الثورة» ومن قام بها لا سيما وأنه كان من الوزراء المنشقين على رشيد والخارجين عليه والمنتقدين لمجيء يونس السبعاوي إلى الوزارة.. المرقعة، ولكن كان الاستغراب كبيراً عندما تكلم مؤيداً بأن اجتماع مجلس الأمة ذلك كان دستورياً وأن رجال الأمة عالجوا الموقف كما يفرضه عليهم الواجب الوطني من أزمة مثل هذه وقد تنفس يونس وجماعة الجيش الصعداء لما سمعوا كل ذلك من «مفتي الدستور». كما أن خطبة السويدي وهو رجل الدولة الخبير أزالت كثيراً من الريبة والشك من صدور بعض الناس الذين كانوا مترددين في الحكم في هذه القضية ومشروعيتها.. واستقبل المجلس خطاب السويدي بحماس لا يقل عن خطبة رشيد وعند الانتهاء من كلامه طلب السويدي من الكيلاني ان يقسم بشرفه بأنه سوف يحافظ على الدستور فأقسم الكيلاني وسط وصلة حامية من الهتاف وهكذا قام مجلس الامة بالاجماع بخلع الوصي عبد الآله وتنصيب الشريف شرف وصياً بديلاً.

كنت متفرجاً مستمعاً، وكانت موجة الحماس الشديد تؤثر على اعصابي وتهز قلبي فذكرتني بأيام الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ـ ايام المواليد في جامع الحيدرخانة والجوامع الاخرى... وطنية وحماس وشعور وطني خالص ولكن إلى جانب ذلك كله عجز وفقر وقلة تدبير ونواقص عديدة أخرى... وكنت أشعر باغتباط أمام الشعور الوطني، وبألم أمام قلة التدبير والتفكير، السائدة عند الجماعة: رشيد: عناد واخلاص، القواد: اخلاص وحب النفس، يونس: فوضى وخرابيط، المفتي: فلسطين وزعامة، ناجي السويدي: حار وبارد، نعم. ولا. وهذا الوصي الجديد الشريف شرف مثله مثل الاطرش بالزفة.. رأيته في المجلس لأول مرّة. تلعثم وارتبك عند اداء اليمين ولم يبد فيه ما يملأ القلب ارتياحاً ويشرح الصدر. نعم كان المشهور عنه أنه من ابطال الثورة الحجازية وأن الملك فيصل نصبه وصياً أكثر من مرة على ابنه غازي عندما سافر إلى خارج العراق ولكن تنصيبه الآن وصياً بعد خلع عبد الآله لم يكن من افخر المنتجات، وبلغنا في حينه أن الجماعة راجعوا الأمير زيد في باديء الأمر فلما اعتذر صاروا يفتشون عن رجل آخر فلم يجدوا من منتسبي العائلة المالكة سوى الشريف شرف. ويقال أن ناجي السويدي هو الذي اكتشفه إذ كان يسكن الاعظمية منزوياً وراضياً براتب قدره ٣٠ دينار يتقاضاه من البلاط أو من الاوقاف.. ولكن كما يقول الألمان يأكل الشيطان عند الضرورة الذباب. فساقت ضرورة التخلص من الوضع غير الشرعي أن يقع الانتخاب باسرع ما يمكن ولم يكن هناك غير الشريف شرف ما يسد ذلك الفراغ..

ثم أن قضية شخص الوصي بالنسبة إلى قضية البلاد تعد امراً ثانوياً... فإذا لم يأت زيد فليكن عمرو في محله !

بعد أن خلع مجلس الأمة ونصب الوصي انفض الاجتماع «الفوق العادة» وسد الفراغ بالوصي الجديد، فسرّ المتحمسون بانتصار رشيد وتأييد المجلس له وبخذلان المتساهلين والموالين للإنكليز، وشعر عامة الناس بذلك الارتياح الذي يُشعر به بعد أن تدخل الثورات إلى دورة الهدوء فتنزع ثوبها غير الشرعي وتلبس ثوباً شرعياً جديداً ذلك ان المجلس بقراره هنا عبر عن رغبة الأمة وميولها إذا صح أن يقال أن المجالس عندنا تمثل الامة.



كيف وجدت نفسي وزيراً

إن الدفاع عن كرامة الوطن حق وواجب على كل من له كرامة شخصية... فالدفاع عن فلسطين وعن القضايا العربية الاخرى والتخلص من حكم الاجانب واستعمارهم والسعي إلى الحصول على استقلال حقيقي ومكانة محترمة بين شعوب العالم كل هذه أمور تدفع العربي الشريف إلى الجهاد والكفاح والعمل المستمر لكن هذه الامور لا تعالج في ايامنا بمجرد العواطف والحماس ولكن مثل هذا الجهاد يتطلب التنظيم والثقافة والمال وبُعد النظر، وهذا اكثره أن لم أقل كله كان مفقوداً عندنا ولم يزل مفقوداً مع الاسف...

نعم كان من حق العراق أن يضع حداً لتدخلات الإنكليز ويطلب إليهم ترك التسويف والمماطلة كما أنه كان من حق العراق أن يقاوم المتساهلين وعباد الاجانب وخدامهم مهما كان نوعهم ومهما كانت ميولهم ذلك لأن مصلحة البلاد يجب أن لا يأتي قبلها شيء..

قلت أن رشيد عالي وضباط الجيش كانوا يمثلون الجبهة الوطنية المقاومة لتصرفات الإنكليز واعوانهم ولكن مع الأسف لم تتوفر فيهم تلك الشروط الضرورية ولا سيما بعد أن اندس في صفوفهم عناصر فوضوية انتهازية، وباتوا تحت تأثير المفتي ودعاياته.. ولذا فقد كانت الطبقات الوطنية الخالصة المدركة وتشعر بغير الارتياح، اما انا شخصياً فلم اكن راضياً عن تصرفات الإنكليز واستعمارهم وجحودهم وسياستهم في فلسطين، فكنت ولم ازل اعتقد بلزوم المقاومة واستبدال هذا الاستعباد بصداقة حقيقية تحترم كرامة ومصالح الطرفين ولكنني في الوقت نفسه لم اكن راضياً عن تدخل الجيش بذلك الشكل ومعالجته للأزمة عن طريق الانقلاب والثورة كما وقع.

كنت ولم ازل مقتنعاً بأنه لا يوجد بيننا وبين الإنكليز أمور لا يمكن حلها إلّا بالقوة وان حسن النية، وحسن التصرف والثقة المتبادلة كانت تكفي لازالة الخلافات.. فلما وقعت حادثة أول نيسان/ ابريل شعرت بأسف عميق لأن بلادنا كانت تتطلب الاستقرار والعمل الجدي أكثر من الحماس والتظاهر بالبطولة الفارغة وكنت مصمماً على عدم الاشتراك بالوزارة حتى ولا بعد تصويت المجلس. ولكن «إذا ركب الإنسان البرق وفرَّ من رزقه لركب الرزق الرعد وادركه حتى يدخل فمه» وهذا فعلاً ما وقع..

ففي اليوم الثاني من انتخاب المجلس للوصي الجديد وتعيين رشيد عالي رئيساً للوزارة كنت عائداً إلى البيت وقت المغرب فاخبرني الخادم بأن رشيد بك اتى لزيارتي قبل نصف ساعة. وبينما نحن بذلك الحديث وإذ بجرس الباب يدق فوجدنا رشيد عالي على الباب فاستقبلته مرحباً وجلسنا في الصالون، فأخبرني بتفاصيل ما جرى واخذ يلوم الوصي الهارب وجماعته لأنهم حاولوا زج البلاد بمأزق ولكن الأمة تداركت الأمر وتم ما تم فهنأته على انقاذ البلاد من الفوضى وتمنيت له النجاح في تلك المهمة الشاقة. وبعد كلام حول حالة البلاد أكد لي عزمه على التقارب مع الإنكليز وتطبيق المعاهدة وبعد ما يقارب نصف الساعة قام رشيد عالي فودعته وركب سيارته وانصرف.

فتنفست الصعداء لأنني كنت اخشى أن يكلفني بالاشتراك بالوزارة الجديدة وقد سررت بأنه لم يفاتحني ولم يضطرني على الرفض فكانت زيارته زيارة مجاملة إذن ولم يدر بيننا بحث تشكيل وزارة أو أي شيء من ذلك القبيل... ولكن في صباح اليوم التالي حوالي الساعة العاشرة سمعت بأن اسمي كان بين قائمة الوزراء وبعده اذيع في الراديو بأن الارادات الملكية صدرت (في ١٢ نيسان/ ابريل) بالوجه التالي:

رئيس الوزراء ووزير الداخلية بالوكالة:	رشيد عالي الكيلاني
وزير المالية:	ناجي السويدي
وزير الدفاع:	ناجي شوكت
وزير الخارجية:	موسى الشابندر
وزير العدلية:	علي محمود الشيخ علي
وزير المواصلات:	محمد علي محمود
وزير الاقتصاد:	يونس السبعاوي
وزير الشؤون:	رؤوف البحراني
وزير المعارف:	الدكتور محمد حسن سلمان

كيف شعرت في تلك اللحظة؟

يصعب عليَّ الآن أن احلل شعوري بعد مضي خمس سنوات وبعد كل تلك الحوادث والتطورات ولكنني سأسعى لذكر الحقيقة بقدر ما يمكنني أن اتجرد من مؤثرات تلك الحوادث..

قلت أنني لم اكن راغباً في دخول الوزارة بل كنت مصمماً على عدم الاشتراك. ولكن في تلك الظروف الحرجة وبعد أن جرى ما جرى في المجلس وبعد أن رأيت ناجي السويدي مشتركاً وبعد أن اعلن تشكيل الوزارة وصدرت الارادة كان من الصعب عليَّ أن أثير أزمة وزارية في بداية التشكيل بانسحابي منها ومع ذلك كله فقد اسرعت إلى مقابلة رئيس الوزراء لأرى لماذا جعلني أمام الأمر الواقع بذلك الشكل ولأجد طريقاً للتخلص. فلما وصلت ديوان رئيس الوزراء وجدت الساحة في السراي تغص بالمتظاهرين من شبان المدارس وكان الهتاف عالياً لرشيد عالي وزملائه ووجدت في الديوان يونس وعلي محمود ومحمد علي وكان يونس يلوم رؤوف البحراني لأنه أخذ يحاول الاعتذار عن قبول الوزارة.. فيظهر أنني لم اكن الوحيد الذي اصبح وزيراً قبل أخذ موافقته ويظهر أن رشيد عالي اتى بنا ليلة الاستقالة من باب الترضية والثقة.. وكان الحماس شديداً في كل محل وعند جميع الناس وكانت حفلة الاستيزار على قدم وساق وشعرت في تلك الدقيقة أن لا فائدة من مفاتحة رشيد بشأن رفض الوزارة لأنه كان مصراً على اقناع رؤوف واجباره قبول وزارة الشؤون وشعرت بأن استقالتي سيكون لها اثر سيء في الرأي العام ولدى الاوساط الوطنية وستكون كشربة ماء صبّت في وسط لهيب عظيم من الحماس فلا هي تطفىء اللهيب ولا هي تفيد. وبدلاً من البحث حول الاستقالة وجدت نفسي مشتركاً بحفلة الاستيزار فكنت كما كان القديس بولص عندما ذهب ليفتك بسيدنا المسيح فعاد وهو من اتباعه مع الملاحظة أنني لم اذهب لرشيد لاعاتبه بل لأتخلص منه ولم اصبح من اتباعه حسب مفهوم تلك الكلمة كما سيظهر فيما بعد..

خطب رشيد عالي خطبة حماسية اثناء مراسم الاستيزار وهتفت الجماهير في ساحة السراي هتافاً صارخاً واخذت تعلن تأييدها بهتاف مستمر متصاعد. وبعد ذلك ذهبنا إلى البلاط الملكي حسب العادة لتقديم الشكر إلى الوصي الجديد وهذه أول مرّة قابلت فيها الشريف شرف فوجدته متواضعاً طيب الكلام قليله خافت الصوت ولكن لم اجد فيه ما يجعله كفؤاً لذلك المنصب ولعل رشيد يفضل وصياً مطيعاً لا يحل ولا يربط بدلاً من وصي يحشر نفسه في كل أمر ويدخل انفه فيما يعنيه ولا يعنيه. وإذا كان عبد الآله آلة مسخرة بأيدي الإنكليز فسيكون الشريف شرف آلة: مسخرة بايدي رشيد والجيش.

كلمت رشيد عالي حول السياسة الخارجية وقلت له أنني سأتبع ما اتفقنا عليه سابقاً عندما كلفني بوزارة الخارجية في المرّة الأولى فوافق وقال اعمل ما تريد وقرب ما بيننا وبين الإنكليز. وكنت مقرراً على حل الأزمة بين الطرفين فإذا توفقت بقيت في محلي وإذا لم اوفق انسحبت. لا سيما أنني لم اكن راغباً في الوزارة ولم استطع أن ارفضها منذ البداية وكانت هذه الوسيلة الوحيدة لبقائي لكي اقوم بخدمة مفيدة لبلادي ولذا فقد ابرقت إلى المفوضية العراقية في لندن طالباً إلى عطا أمين أن يواجه المستر ايدن ويؤكد له بأن سياسة الحكومة الجديدة ستكون مرتكزة على تطبيق المعاهدة نصاً وروحاً واننا نطلب التعاون مع الإنكليز في سبيل التقارب وازالة سوء التفاهم. ثم دعيت المستر ادموندس وكلمته بكل صراحة وذكرت له الشروط التي اتفقت حولها مع رئيس الوزراء فيما يتعلق بالعلاقات بيننا وبين بريطانيا ولم اخف عنه إلّا الشرط الرابع أي استعداد العراق لقطع العلاقات مع ايطاليا إذا تساهل الإنكليز واجابوا بعض مطاليبنا لأن هذا الشرط كان سلاحاً مفيداً بايدينا للحصول على تصريح من الحلفاء حول فلسطين ومستقبل البلاد العربية. فدون المستر ادموندس في مذكرته الشروط الثلاث الأولى وهي: تطبيق المعاهدة روحاً ونصاً.. عمل كل شيء فوق المعاهدة في سبيل التقارب مع المحافظة على كرامة البلاد وعدم اعادة العلاقات مع المانيا. وسألت ادموندس فيما إذا كانت هذه الشروط تمهد السبيل لاجل التفاهم فأجابني أنه يؤمل قوياً بأنه سيحصل التقارب على ذلك الأساس فرجوته أن يذهب إلى السفير ويخبره بذلك فانصرف ادموندس ومضت بضعة ايام دون أن اسمع منه شيئاً.

بين الحماس والتسويف

كان في تطورات الحوادث الأخيرة نصرٌ للمتحمسين وفشل للسياسة الإنكليزية وانصارها فمن البديهي أن الإنكليز لم يرتاحوا لما حصل ولم يرضوا بانخذال رجالهم واعوانهم كالوصي ونوري السعيد وغيرهما ولذا فقد اصبحت الهوة بيننا وبينهم أعمق من ذي قبل ولكن كان في زوال الدساسين من ميدان السياسة أملٌ بتجديد الصداقة وتعزيزها وكنت مجتهداً في تأمين ذلك على أن هذه المهمة كانت شاقة جداً إذ وجدت نفسي بين المتحمسين كقواد الجيش ويونس وبين التسويف والمماطلة من جانب البريطانيين.. فالمتحمسون بالنظر لما نالوه من نجاح في قلب الحكومة وتبديل الوصي وكسب الرأي العام وبالنظر إلى انتصارات المحور وخسارات الحلفاء صاروا يعتقدون بأن الامبراطورية البريطانية اصبحت على وشك الانهيار وانه سيكون لهم شرف المشاركة في تهديمها ولذا اخذوا يطلبون ويدعون ويتبرمون. اما الإنكليز الذين كانوا يتمسكون بالسياسة السلبية ايام نوري وعبد الاله اصبحوا الآن لا يؤمنون ولا يثقون برشيد واعوانه وكان

الأمل الوحيد كما قلت خلو الميدان من الدساسين ووجود رجل مثل «كورنوالس» في السفارة البريطانية. فبذلت كل جهدي بأن يقدم السفير الجديد اوراق اعتماده ليكون ذلك بمثابة اعتراف من قبل الإنكليز بالوضع الجديد فيزول الخوف والقلق وعدم الثقة المتبادل. ولكن حلفاءنا بقوا مماطلين مترددين يكتمون العداء ويتظاهرون بعدم المبالاة. بينما كانت الحكومة حقاً راغبة في التقارب والتفاهم مع الإنكليز ولم يشذ عنا غير يونس وقواد الجيش ومن ورائهم المندفعون، ولذا كنا نعلق اهمية كبرى على مسألة اعتراف البريطانيين بالوضع الجديد.. لا سيما بعد أن اعترفت كل من ايطاليا واليابان وزار وزيراهما المفوضان رجال الحكومة الجديدة وقدما تهانيهما ولكن انكماش الإنكليز والامريكان ومن يتبعهما كان له تأثير سيء في الاوساط المعتدلة من الحكومة إذ انها ظهرت وكأنها تتمتع بولاء المحور دون الديمقراطيات وهذه المشكلة كانت تثقل كاهلي أكثر من غيري لأنني اتيت على اساس التعاون مع بريطانيا وتطبيق المعاهدة مع المحافظة على كرامة البلاد والدفاع عن حقوقها وكنت مصمماً بأن لا يكون العراق لا عبداً للإنكليز ولا ذيلاً للمحور وكانت مماطلة الإنكليز تشجع العناصر المتطرفة وتقوي كل يوم جبهة يونس وتضعف جبهتنا. فأمام كل هذه المشاكل رأيت بأن لا فائدة من بقائي في الوزارة وبما أنه مضى ما يقارب الاسبوع على محادثتي مع ادموندس ولم تتغير الحال فقد طلبته من جديد وفاتحته بكل صراحة وقلت له أنني صرت اشعر بأن لا فائدة من بقائي في وزارة الخارجية لأن موقف الإنكليز السلبي سوف لا يمكنني من اداء واجبي حسب الشروط التي قبلت على اساسها الدخول بالوزارة وعليه فانني عازم على تقديم استقالتي. ولم يظهر ادمونس ارتياحاً لكلامي إذ كان الإنكليز يفضلون رجلاً معتدلاً على رجل متطرف متهور ولذا فقد رجاني بأن لا استعجل وأن انتظر إلى آخر الشهر ووعدني بأنه سيبذل كل جهده من جديد مع السفير لحل مشكلة الاعتراف.. وبعد هذه المقابلة بيومين أو ثلاثة اخبرتنا السفارة بالتلفون بأن قوات هندية (نحو ٨٠٠٠ جندي) مع معداتها وسلاحها ستصل إلى البصرة في الغد أو بعده فكانت هذه مفاجأة إذ ان المتفق عليه بين السلطات العسكرية من الطرفين أن يخبرنا الإنكليز بمثل هذا الوصول قبل مدّة كافية لتسهيل نزول هذه القوات وتحضير اماكن لهم. فاحتج الإنكليز بأن الحركات العسكرية اصبحت محاطة بالتكتم إلى درجة أن السفارة لم تسمع بالخبر إلاّ في تلك الساعة التي اتصلت بها معنا فقبلت الحكومة هذا التعليل. وعلى أثر ذلك اجتمع مجلس الدفاع الاعلى في وزارة الخارجية وبعد أن تحمس القواد وارادوا ما ارادوا تمكنا من إقناعهم بالموافقة على نزول القوات الحليفة بموجب نصوص المعاهدة وقررنا ارسال القائد ابراهيم الراوي إلى البصرة للترحيب بالقوات وتأمين راحتها. وقد نزلت تلك القوات في البصرة واستقبلت بطلقات المدافع وبالمراسم العسكرية الودية وكانت هذه حركة مشجعة من قبل العراق تفاءلت منها خيراً وتوقعت بأنها ستكون فاتحة حل العقد.

بدأت بوادر انحلال الأزمة عندما أخذ الوزراء المفوضون للحكومات الموالية للحلفاء يزورنني. فأتى الوزراء الأمريكي ثم التركي والسعودي والمصري والإيراني. فكان البعض منهم كالمصري والسعودي والايراني يقدمون اعتذارهم بحجة ان التعليمات لم تردهم من حكوماتهم بالسرعة اللازمة ولذا كانت زيارتهم متأخرة بينما الوزير الامريكي نابنشو والوزير التركي جواد اوستون صرحا بواضح العبارة بأن زيارتهما هي اعتراف «دوفاكتو». وليس «دوتروري» أي انها زيارة اعتراف بالأمر الواقع وليست اعترافاً قانونياً وفهمت مغزى القصد.

وفي ٢٤ نيسان/ ابريل زارني السر كينهان كورنوالس سفير بريطانيا ورئيس الهيئة الدبلوماسية وممثل الحليفة العظمى. كانت الزيارة ودية وكانت أول مقابلة بيني وبين كورنوالس. فافتتح السفير الحديث بقوله أنه كان ولم يزل مريضاً وأنه كان معتزلاً الخدمة غير أن حكومته رأت بأنه يستطيع أن يخدم بلاده في العراق بالنظر إلى خبرته السابقة وأنه لبى طلب حكومته واتى سفيراً إلى بغداد لتلك الغاية. فأجبته بما فحواه أنني أيضاً احتاج للاستراحة والاستشفاء ولكن عندما كلفتني الحكومة بالقيام بخدمة بلادي عن طريق التعاون والتفاهم مع بريطانيا لبّيت الطلب وانني الآن سعيد بأن يكون لحليفتنا رجل قدير وخبير مثله سفيراً في بغداد واضفت بأنه لو كان هو في العراق منذ بداية الحرب لما اصبحت العلاقات بيننا كما هي الآن وبينت له بكل صراحة اخطاء الإنكليز وخمولهم واهمالهم الحلف وسكوتهم. فاجابني أنه سعيد بأن يجدني مستعداً للتفاهم والتعاون وعليه فيجب ان يبدأ كل منا الخطوة الأولى في سبيل الوصول إلى ذلك التفاهم. فقلت له: أنني لا اكتفي بخطوة واحدة لأن الوقت قصير وعناصر التطرف قوية في الجبهتين ولذا اقترح بأن نقفز عدة قفزات نحو الغاية المشتركة وكلفته بأن يسرع في تقديم اوراق اعتماده وأن هذه المسألة هي عقدة العقد... فقال ان التعليمات التي تلقاها هي الاكتفاء بالاعتراف الفعلي الواقعي الآن وأن تقديم أوراق الاعتماد والاعتراف الشرعي سيعقبان ذلك.. فرجوته بأن يطلب تعليمات جديدة لأن التعاون الحقيقي يتطلب ذلك ولا يمكن القيام بشيء إذا لم يكن الاعتماد التام متبادلاً، فوعد بذلك وانتهت المقابلة فودعته إلى باب الوزارة وهناك وقفنا وأخذ المصورون صورنا وتفارقنا بكل حرارة واطمئنان. وأعدت الزيارة في نفس ذلك اليوم مساءً وشربت الشاي مع السفير وكررنا حديث الود الذي دار بيننا صباحاً، ثم اخذني السر كينهان إلى الصالون الكبير وعرفني بزوجته وابنته وبعض الضيوف وتركت السفارة مودعاً من قبل السفير والكابتن هولت وانا مغتبط ومتفائل. كما تبادل السفير الزيارة مع رئيس الوزراء ممّا اوجد في بغداد جواً جديداً من التقارب وان كان ناقصاً ولم أشعر بارتياح منذ تسلمي وزارة الخارجية إلّا ذلك اليوم وبت اترقب وانتظر بفارغ الصبر اتمام ما بدأنا به وكان ينتظر مثلي ومعي كل من يقصد خير البلاد وسلامتها وانقاذها من الفتن والمكائد.

فريا ستارك والكولونيل بولوك

في تلك الأيام «المتكهربة» وصل إلى بغداد الكولونيل بولوك رئيس الاستخبارات للجيش البريطاني في مصر موفداً من قبل الجنرال ويفل ليدرس الوضع في العراق ويطلع شخصياً على التوتر المتزايد بين العراق وبريطانيا ويفتش عن أسبابه ومنشئه، واتصلت فريا ستارك بسليمان فتاح وأخي إبراهيم لترتيب مقابلة بيني وبين الكولونيل المذكور بصورة شخصية واقترح سليمان بأن يكون ذلك في داره على حفلة شاي فوافقت.

جرى بيني وبينها حديث طويل بيّنت اثناءه رأيي بكل صدق وصراحة وأنني أبذل كل جهدي في سبيل التقارب وأن أسباب التوتر هي إهمال الإنكليز وجمودهم وقضية فلسطين مما شجع المتطرفين ودعاة المحور على استغلال الوضع، وذكرت مثالاً ما بلغني عن طريق الجيش أن مستشار الجنرال ويفل «الكولونيل كوهين» نفسه هو من دعاة الصهيونية ومن العناصر التي تبث سموم الخلاف بين العراق ومقر القيادة البريطانية وأنه مع أعوانه كانوا يعرقلون ارسال السلاح

المتفق عليه إلى الجيش العراقي. فاستغرب الكولونيل بولوك من ذلك وقال أنه لا يوجد مستشار للجنرال ويفل وأنه لم يسمع باسم كوهين قبل الآن. قلت هذا مثل لأسباب الخلاف بيننا ولعل أكثر الأسباب غير موجودة ولكن الدعايات المضرة تعمدت ابتداعها للإساءة. وبعد حديث طويل اعترف الكولونيل بأنه قبل وصوله إلى بغداد كان يظن أن العراقيين كلهم نازيون وأن الوزراء بطبيعة الحال هم أشد نازية من الآخرين ولكن الآن بعد هذه المقابلة وهذه الصراحة حصلت له فكرة أخرى.. فأجبته أن الصراحة هي أساس التفاهم وبدون تلك سنبقى ننظر إليكم كما ننظر إلى الصهيونيين وأنتم تنظرون إلينا نظرتكم إلى النازيين وكلانا مخطىء في رؤيته ومذهبه. وأكد لي كل من الكولونيل بولوك وفريا ستارك بأن الحكومة البريطانية لا تريد أن تفرض شخصاً أو أشخاصاً على العراق وإنها لا تريد أن تقاتل أو تتخاصم من أجل زيد أو عمرو.. وبالطبع كان المقصود من ذلك أنه إذا سويت الخلافات وحلت المشاكل فانهم لا يتمسكون بعودة الوصي ونوري. ودار كل ذلك الحديث أمام سليمان فتاح وإبراهيم. وكانت المقابلة بالنسبة لي كلها صراحة وكلها صدق. وسررت بأن أتيحت لي فرصة للادلاء بما كنت اعتقد به وأؤمن بصحته. وأخبرت في اليوم التالي رشيد عالي بما دار بيني وبين رسول الجنرال ويفل فأبدى رضاه وشكرني على ما قمت به. وكان رشيد في تلك الأيام في الحقيقة راغباً في حل المشكلة والتساهل وكان مستعداً بأن يذهب إلى أقصى حدود التساهل مقابل الاعتراف بحكومته. ولكن ذلك الاعتراف كان معلقاً بين السماء والأرض ومحاطاً بالتسويف والماطلات إلى حد بعيد..

تصريح إلى وكالة الأنباء الفرنسية

لم أكتف بالادلاء برأيي إلى الوزراء المفوضين وإلى السفير وادمونس وكل من زارني من كبار الموظفين البريطانيين المستخدمين لدى الحكومة العراقية كالمستر سمث مدير السكك الحديدية والمستر «بوكن» والجنرال «وترهاوز» رئيس البعثة العسكرية البريطانية وغيرهم وغيرهم، بل ادليت بتصريح إلى مراسل وكالة الأنباء الفرنسية عن سياسة العراق الخارجية ـ وتناقلت البرقيات ذلك التصريح وبثته بعض محطات الإذاعة. وهنا انقل ما ورد في جريدة اللواء العراقية الصادرة بتاريخ ٣٠ نيسان/إبريل حول هذا الموضوع:

«قال راديو أنقرة في إذاعته التي بثها بعد ظهر أمس:

أذاعت وكالة الأنباء الفرنسية (اوفي) من بغداد التصريحات التي أدلى بها معالي السيد موسى الشابندر وزير خارجية العراق إلى مراسلها في بغداد منذ أيام مضت حول علاقات العراق الدولية ومما جاء في هذه التصريحات قول معالي الوزير: «إن العراق لم ينفك عن السعي لتأسيس علاقات ودية مع الدول جميعاً بقدر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ان سياسة حكومة فخامة الكيلاني تقوم على أساس بقاء العراق بعيداً عن الحرب، وأهم مواد هذه السياسة هي تطبيق المعاهدة العراقية البريطانية نصاً وروحاً».

ورد معالي وزير خارجية العراق على أسئلة أخرى بما يلي: أن نزول القوات البريطانية ما هو إلا حركة مرور تنفيذاً لنصوص المعاهدة وتستهدف العبور إلى خارج العراق وقد نصت المعاهدة المذكورة على وجوب منح العراق التسهيلات لمثل هذا المرور.

واختتم معالي السيد الشابندر تصريحاته قائلاً: أن المبادىء التي تعمل بها حكومة

الكيلاني هي الصداقة والتفاهم مع الجميع. ويرتبط العراق مع الحكومة العربية السعودية بمعاهدة صداقة وحسن جوار ومع اليمن بمعاهدة اخاء، ومع تركيا وإيران والأفغان باتفاقية سعد آباد. والعراق يستهدف قبل كل شيء تأمين السيادة الوطنية وإبعاد المملكة عن أخطار الحرب القائمة».

ذلك مثال بارز صريح على السياسة التي كنت أقصد اتباعها وهي القيام بتعهداتنا بكل اخلاص وأنقاذ البلاد من شر الحرب.. وهذه كانت السياسة الرشيدة التي كانت تتبعها حكومات كثيرة وفي مقدمتها جاراتنا تركيا وإيران ومصر وكثير من الدول الأخرى. ولكن حسبما ظهر بعده إنها كانت سياسة لا يرتضيها المتحمسون ولا المتساهلون.. إذ إن المتطرفين كانوا يرغبون في ضرب المعاهدة بعرض الحائط والتخلص من قيودها وبنودها بينما كان رجال الإنكليز مستعدين أن يرموا بالبلاد وكرامتها واستقلالها وكل ما فيها تحت أقدام الإنكليز.. وكنت ولم أزل أعتقد بأن الطرفين مخطئان إذ الصواب كان يحتم علينا القيام بواجباتنا الدولية من جهة والانتظار إلى نهاية الحرب لتسوية الأمور المعلقة من الجهة الأخرى..

قضية القوات البريطانية

تنص المادة الرابعة من المعاهدة العراقية البريطانية في فقرتها الأخيرة:

«ان معونة صاحب الجلالة ملك العراق في حالة حرب أو خطر حرب محدق تنحصر في أن يقدم إلى صاحب الجلالة البريطانية في الأراضي العراقية جميع ما في وسعه أن يقدمه من التسهيلات والمساعدات ومن ذلك استخدام السكك الحديدية والأنهر والموانىء والمطارات ووسائل المواصلات».

وتنص المادة ٧ من الملحق رقم ١ ما يلي:

«يوافق جلالة ملك العراق على أن يقوم عند طلب صاحب الجلالة البريطانية ذلك بجميع التسهيلات الممكنة لمرور قوات صاحب الجلالة من جميع الصنوف العسكرية عبر العراق ولنقل وخزن جميع المؤون والتجهيزات التي قد تحتاج إليها هذه القوات في أثناء مرورها في العراق. وتتناول هذه التسهيلات أستخدام طرق العراق وسككه الحديدية وطرقه المائية وموانئه ومطاراته. ويؤذن لسفن صاحب الجلالة البريطانية إذناً عاماً في زيارة شط العرب بشرط إعلام جلالة ملك العراق قبل القيام بتلك الزيارات للموانىء العراقية».

فاستناداً إلى هذه الفقرات كان قد حصل إتفاق بين السلطات العسكرية للطرفين المتعاقدين في سنة ١٩٤٠ عندما كان نوري السعيد رئيساً للوزارة يتعلق بمرور القوات البريطانية عبر العراق ويثبت عدد الوحدات التي تصل وتسافر ومدة بقائها وعدم انزال غيرها قبل أن تغادر الوجبة الأولى البلاد وذلك بمقتضى طاقة وسائل النقل العراقية. هذا وليس في المعاهدة ما يخول بريطانيا ابقاء جنودها في العراق. وأتت المادة ٤ من الملحق العسكري صريحة وتفرض بأن تكون القوات المقتضية لحرس المطارات والقواعد البريطانية حرساً خاصاً من قوات صاحب الجلالة ملك العراق..

رأينا كيف فوجئت الحكومة العراقية بوصول القوات البريطانية من الهند وكيف قام العراق باستقبالها وقام بالتسهيلات اللازمة لمرورها عبر العراق بموجب نص المعاهدة. وأكدت وزارة الخارجية للسفارة في حينه لزوم الاسراع في نقل تلك القوات وبأنها لا توافق على بقائها في البصرة أكثر مما يقتضي من الزمن لاستراحتها وتأمين نقلها كما أنها لا توافق على انزال قوات جديدة قبل تسفير الوجبة الأولى وفقاً للاتفاق الذي كان قد حصل بين الطرفين. وأكدت وزارة الخارجية هذه النقطة ثانية بعد أن أخذت الاخبار تصلنا بأن ليس هنالك ما يدل على نية القوات البريطانية للسفر بل أنهم خيموا في البصرة بشكل يدل على الإقامة وأن بعض القطعات صارت تنقل بالطائرات إلى قاعدة الشعيبة وإلى سن الذبان وذلك خلافاً لما جاء بالمعاهدة والملحق..

فأخذ القلق وعدم الثقة يزداد في محافل الجيش وأخذوا يقومون بحركات وتنقلات عسكرية ذهبوا إلى إنها ضرورية. وعندما زارني السر كينهان كورنوالس لأول مرّة قال لي أنه بلغه بأن الحكومة العراقية أخذت تسحب قواتها من الجبهة الشرقية أي منطقة خانقين إلى أطراف بغداد الغربية. فقلت بأن ليس لي علم بذلك وكنت صادقاً لأن هذا أمر يعود إلى وزارة الدفاع ورئاسة

اركـان الجيش ولكنني أضفت: فإذا كـان ذلك صحيحـاً إنما يـدل على درجـة تناقص الثقـة بين الطرفين ووعـدته بـأنني سأستفسر عن ذلـك الأمر وأخبـره. وعلى إثـر ذلك قـابلت رئيس الوزراء واستفسرت منه عن نقل القطعات من الشرق إلى الغرب فـأجابني رشيـد عالي بـأن وزارة الدفـاع قررت وضع قوات كافية في المناطق التي ستمر منها القطارات التي تنقل القـوات البريطـانية من البصرة إلى بغداد وإلى غربها وذلك منعـاً لوقـوع اضطرابـات قد تؤدي إلى قيـام بعض العشائـر المعادية للإنكليز بمهاجمة قواتهم المارة من مناطقها.. فالمسألة هي تسهيل لمرور الحلفاء أو ومنعـاً لوقوع أي حركة عدائية. وعندما رديت الزيارة مســاء ذلك اليـوم أخبرت السفـير بما ابلغني بـه رئيس الوزراء.. ولعل السفير لم يقتنع بذلك التفسير ولعل للجيش العراقي سبباً آخر لنقل القوات ووضعها في أطراف العاصمة... فتأخر القوات البريطانية في البصرة بالرغم من الحـاح الحكومـة لتسفيرهم حسب الاتفاق خلق مشكلةً جديدةً.. وجعل الحكومة العراقية في وضع حرج لأنها كانت مستعدة لتطبيق المعاهـدة لا أكثر ولا أقـل، والمعاهـدة تجيز مـرور القوات ولكنهـا لا تسمـح لهـا بالبقاء. هذا ولو كانت الصداقة بين الطرفين حقيقية والثقة متبادلة لما حصلت مشكلة ولكن الحالة كانت متوترة قبل هذه المشكلة مما زاد الطين بلّة وجعل من الخلاف خصومةً... ولم تكتف الحليفة بهذا بل أنها أخبرتنا في ٢٧ نيسان/ابريل تلفونياً بأن قوة من ثلاثة آلاف جندي وهم تتمة للقـوة الأولى ستصل إلى البصرة بعد يومين، فكان جوابنـا تأييـداً لما بينـاه لهم سابقـاً بأن الحكـومة لا توافق على انزال قوات جديدة ما لم يتم تسفير القوات الأولية. وفي ٢٨ نيسان/ابريل جاء السفير ومعه الكابتن هولت إلى وزارة الخارجية لمقابلة رئيس الوزراء وكنت بالطبع حاضراً ذلك الاجتماع، كما أنني كنت قد حاولت اقناع رشيد عالي بالموافقة على الانـزال لا سيما أننـا وافقنا عـلى انزال ثمانية آلاف وأن هذه القوة الجديدة هي على حد قول الإنكليز قطعات غير مسلحة بل هي نقليـات وممرضات واسعافات من توابع الجيوش، ولكن رشيد كان متصلباً وعبثاً حاول السفير ومستشاره اقناع رشيد عن طـريق الصداقـة والاستنجاد بـالحلف ولم يفد تبـديل السفـير لهجة كـلامه ولا اصراره على الاستفادة من مواد المعاهـدة وتعهدات العـراق فأجـابه رشيـد عالي بـأنه لا يسمـح بانزال جندي واحد إذا لم يتم تسفير القوات الأولية فحمله السفير مسؤولية هذا العمل ورد عليـه رشيد عالي بل أنها ستكون على عاتق الإنكليز.. واصفر لون كورنوالس واخضّر لون الكابتن هولت من الغضب لا سيما وأنهما لم يتعودا على سمـاع مثل هـذا الكلام من العـراقيين ولـربما تـذكر كورنوالس في تلك اللحظة بأن هذا الرجل العنيد هو نفس رشيد عالي الذي لم يوافق عـلى تجديـد عقده كمستشار لوزارة الداخلية سنة ١٩٣٥... وصك كورنوالس أسنانه وتملّك أعصـابه وأبتسم مودعاً وانصرف ومن ورائه هولت فـودعته إلى بـاب الوزارة ورجـوته بـأن ينظر إلى الـوضع مليـاً ويعالجه بدرايته المعلومة وقلت له عند المشكلات يجب على الشريك الأكبر بأن يكون أوسـع صدراً وأكثر تساهلاً من الشريك الأصغر...

أعدت الكرة على رشيد بعد انصراف السفير ورجـوته بـأن يعيد النظـر في قراره لأن قضيـة ثلاثة آلاف جندي علاوة على القوة الأولية لا تبدل الوضع العسكري ولا فائـدة لنا من خلق أزمـة جـديدة، ولكن رئيس الـوزراء كان متصلبـاً وكان ذلـك بتأثـير قواد الجيش ولـربما المفتي من ورائهم... وكان يتمسك بحجة أننا تساهلنا وقمنا بتعهداتنا ومقابـل كل ذلـك لم يعترف الإنكليـز حتى الآن بالحكومـة ولم يقدم السفـير أوراق اعماده، وفي هـذه النقطة كـان رشيد محقـاً إذ لو كـان الإنكليز حقـاً

راغبين في التفاهم وإزالة الخلافات لما ماطلوا وتملصوا من الاعتراف بهذه الحكومة التي صاروا يطلبون منها أكثر مما في المعاهدة..

انعقد مجلس الدفاع الأعلى في وزارة الدفاع في ٢٩ نيسان/ابريل لدرس هذه القضية فكان القواد وفي مقدمتهم صلاح الدين الصباغ متصلبين وكذلك كان أكثر الوزراء.. فهذا يهدد ويلوم الإنكليز وذاك يطلب فسخ المعاهدة فوجدت نفسي، أنا الذي كنت باذلاً كل جهودي لتطبيق المعاهدة وإزالة الاستياء، بين جماعة متألمة من تصرفات الإنكليز وناقمة على تسويفاتهم فكان ذلك اليوم يوم المتحمسين، يوم يونس وصلاح الدين وكنت أنا أيضاً متأثراً بما وقع وآسفاً لسياسة الإنكليز السلبية التي أحرجت الموقف فقلت ما قلت وطلبت بأن لا نستعجل في أمر فسخ المعاهدة إذ ليس من صالحنا تحمل مثل هذه المسؤولية الدولية وطلبت بأن نمهل حلفاءنا ثلاثة أيام لمعالجة الوضع وتقرر بأن لا يسمح بنزول قوات بريطانية جديدة في البصرة. ومساء ذلك اليوم أتى السفير ومعه هولت إلى ديوان رئيس الوزراء فحضرت ذلك الاجتماع. وقال السفير أنه بسبب حراجة الموقف قررت السفارة ارسال الأسر البريطانية من بغداد إلى الحبانية.. فأجابه رشيد بأنه لا يوجد خطر على أي أحد ومع ذلك فهذا أمر يعود البت فيه إلى السفير وأن الحكومة العراقية مستعدة لتسهيل ذلك بوضع سيارات نقل تحت تصرفهم فشكره السفير. وعندما تركت رشيد قلت له بأنني لم أزل واثقاً بكياسته وأنه سيعالج الوضع بالتي هي أحسن.

انتصار الشر

في صباح اليوم التالي أي في ٣٠ نيسان/ابريل عندما ذهبت إلى وزارة الخارجية سمعت بأن الموظفين الإنكليز لم يحضروا إلى دوائرهم وأن جميع البريطانيين احتموا في السفارة وأن قطعات من الجيش العراقي طوقت سن الذبان!

كنت أظن أن هذه شائعات لا بد من حصولها ولكن بعد ساعة من الزمن أتى رئيس الوزراء يحمل كتاب احتجاج من السفارة البريطانية على محاصرة قاعدة الحبانية من قبل القوات العراقية ويطلب سحبها وإشارة إلى ما دار بين القائد البريطاني في سن الذبان والقائد العراقي خارج السن من انذار وسؤال وجواب. فأمر رشيد عالي بارسال مذكرة جوابية على ذلك الاحتجاج مضمونها أن الجيش العراقي قام بحركة احتياطية وأن منع الطائرات من التحليق والنزول نابع من أن القوات البريطانية تنقل من البصرة إلى الحبانية وذلك خلافاً لنصوص المعاهدة وما وعد به الإنكليز!

بعد ذلك كلمت رشيد عالي كيف يجوز للجيش العراقي أن يقوم بعمل مثل هذا دون قرار مجلس الوزراء ودون أن يخبر به الوزراء وكيف يجوز أن يطلب هو مني حل المشاكل بالتقارب والتفاهم ثم يقدم الجيش على مثل ذلك العمل ثم اضفت قائلاً: طالما الأمر وصل إلى هذه المرحلة وأصبح الحل والعقد بأيدي القواد فلا يبقى حاجة لجهودي ورجوته بأن يعفيني من منصبي لأنني أتيت على أساس التفاهم مع الإنكليز لا على أساس التصادم معهم.. فابتسم رشيد وأخذ يعلل الأمر بأن هذه أسرار عسكرية لا يمكن أن يؤخذ بشأنها قرار علني في مجلس الوزراء وأما الاستقالة فقال بأن هذا أمر غير ممكن الآن إذ إن انسحاب وزير من منصبه يعادل انسحاب

فرقة من الجيش.. فرجاني وألح عليّ بلزوم التريث والصبر وطمأنني بأن أمل تسوية الخلاف لم يزل قوياً...

عندما اجتمعت، بالوزراء الآخرين كمحمد علي محمود ورؤوف البحراني وناجي السويدي وجدتهم في نفس حالتي. كانوا كلهم مستائين من حركة الجيش ومن تصرف رئيس الوزراء دون اخذ رأي زملائه في موضوع هام كهذا لا سيما أن مجلس الدفاع الأعلى كان مجتمعاً في الأمس ولم يقرر شيئاً مثل هذا... فإذن كانت هناك وزارة شكلية ومن خلفها وزارة حقيقية مركبة من رشيد ويونس بالدرجة الأولى مع قواد الجيش وقد يكون ناجي شوكت مشتركاً معهم إلى درجة محدودة ولربما كان المفتي المستشار الأعظم في هذه الأمور... ولما رأى رشيد استياءنا من الوضع أخذ يلاطف هذا ويجامل ذاك وطلب إلى ناجي السويدي بأن يذهب إلى صديقه كورنوالس ويتفاهم معه، وذهب السويدي ذلك اليوم أو في اليوم التالي، لا أتذكر جيداً. وأخبرنا بعده بما جرى له مع السفير الذي طلب سحب القوات العراقية من اطراف الحبانية ومعاقبة القائد الذي قام بتلك الحركة بدون إذن الحكومة، ثم قال أن السفير ضرب بيده على الطاولة وصار يهدد ويقول: «أنا كورنوالس.. أنا كورنوالس... سأسحق رؤوسهم.. سأسحق رؤوسهم..».

هذا سفير عاقل يخاطب وزيراً من العقلاء.. فكيف تحل المشاكل بهذه الأساليب.. أقول ذلك لأنني كنت أعتقد حينئذٍ بأن الإنكليز يريدون حقاً التفاهم والتساهل وكنت أظن مثل تلك القضايا يمكن حلها بالتسامح والصدق... وتغلبت عناصر الشر وفشلنا نحن المؤمنين بالاعتدال وبالصدق وبمزايا الإنسان. وبقينا بين طيش القواد وبين مكر الإنكليز.. دخلنا في مأزق لا تقدم فيه ولا انسحاب.. عبثاً حاولنا اقناع رشيد بسحب القوات قبل أن يحصل ما لا تحمد عقباه وعبثاً طلبت إليه قبول استقالتي بعد أن حصل ما حصل دون علمي ودون رضاي. وانتظرنا يوماً ثم يوماً آخر وآخر وفي ٢ آيار/مايو ١٩٤١ كلمني رئيس الوزراء مبكراً وطلب إليّ الحضور إلى دار ناجي الوسيدي، فلبست ثيابي وأسرعت إلى هناك فوجدت الوزراء كلهم مجتمعين، عدا الدكتور محمد حسن سلمان الذي كان مريضاً في المستشفى، وهنا سمعت بما كنت أخشى وقوعه وهو الاصطدام بين الجيش العراقي المحيط بالحبانية والقوة البريطانية المطوقة فيها... فشعرت بألم عميق يشابه ما شعرت به في أول أيلول/سبتمبر ١٩٣٩ في الريخشتاغ عندما أعلن هتلر بأن جيوشه اجتازت الحدود البولونية.

كيف لا أتألم وأنا لم اؤمن بفضائل الحرب والضرب يوماً في حياتي. وكنت ولم أزل أعتقد بأن الحروب والثورات والاعتداءات إنما هي قرصنة وقطع طريق واعتداء بشكل واسع ليس إلاّ.. وكرهت ذلك الصباح رشيد عالي ويونس السبعاوي وصلاح الدين الصباغ وزملاءه القواد كما كرهت أول أيام الحرب هتلر ومن كان حوله من المتكبرين المتعجرفين... ولعنت في نفس الوقت مماطلة الإنكليز وتسويفاتهم وبرودة دمهم وخداعهم التي مهدت سبل الفساد وشجعت عناصر الشر وضحت بالمبادىء الإنسانية في سبيل الأنانية الاستعمارية...

بقينا ساعة من الزمن في بيت السويدي «نحلل الموقف ونعالج الأمر». كنا أنا وناجي السويدي ومحمد علي محمود ورؤوف البحراني متألمين وغير راضين بما حصل وكان رشيد عالي غضبان ناقماً على الإنكليز وعلى السفير الذي وزع ذلك الصباح مبكراً نشرات كلها طعن وإساءة

برشيد. وكان ناجي شوكت وعلي محمود يشاركان رئيس الوزراء غضبه واستياءه أما يونس فكان باسماً ضاحكاً مسروراً فكأنما اليوم هو يوم عيد وابتهاج وانتصار كما كان القواد الذين يقود أدمغتهم بنفس المرح والسرور.. لأنهم كانوا يعتقدون بأنهم سيقضون على الامبراطورية خلال أيام ان لم يكن ذلك خلال ساعات.. وأخذ يونس السبعاوي فعلاً يشرح لنا الحركات العسكرية ونتائجها وعندما رآنا واجمين عابسين متألمين أخذ ورقة وقلماً ورسم موقع الحبانية ومجرى الفرات والتلول التي احتلتها القوات العراقية ثم قال بكل جدية أن استسلام الإنكليز في الحبانية هو مسألة ساعات لأن جيشنا متسلط على رأسهم. هذا وإذا أصروا على الدفاع والمقاومة فالأمر بسيط جداً فمياه الفرات مرتفعة وأنها تعلو على الحبانية فإذا وجهنا رشاشاً على السد بين النهر والقاعدة البريطانية يمكننا بسهولة فتح ثغرة بالسد فينهار وتغمر مياه الفيضان الإنكليز ويغرق سن الذبان بكامله... فالمسألة مسألة ساعات!

هكذا كان يتكلم وزير الاقتصاد دماغ الجيش وزعيم الشباب. ولا أدري هل كان السبعاوي يقول هذا الكلام لتقوية عزائمنا وخداعنا أم أنه كان يعتقد بتلك النظريات الحربية التي تعلمها من فطاحل اركان الجيش العراقي!

سمعت كل ذلك مع من سمع ولم تزدني تلك الأحاديث إلّا نفرةً واستياءً وصرت ألوم نفسي لماذا صدقت بكلام رشيد وكلام ادمونس وكورنوالس؟ وندمت على ما فات ولكن لا ينفع الندم. فبلاد هؤلاء رجالها ومفكروها لا تستحق أن يضحي الإنسان في سبيلها! ولكننا الآن أمام أمرٍ واقع وعلينا أن نقلل الشر وننقذ ما يمكن انقاذه على الأقل...

تقرر أثناء ذلك الاجتماع، أن ترفع الحكومة العراقية احتجاجاً لدى البعثات الأجنبية على اعتداء الإنكليز لأن الجيش يدعي بأنهم هم بدأوا بإطلاق النار وتقرر أن يكون الاتصال بالألمان والروس واتخاذ تدابير عسكرية كما تقتضي الحالة وبأن يقابل ناجي السويدي صديقه كورنوالس مرة أخرى ثم انصرفنا. كنت أشعر بحمل ثقيل على كتفي وضيق شديد في صدري. كيف لا وقد تمت كل تلك «الخرابيط» بإرادة الجيش وبدون علمي ورضاي وأنا وزير الخارجية!

ذهبت إلى الوزارة فكانت الشوارع غاصة بالمتظاهرين المتحمسين الهاتفين. وفي الوزارة وجدت جميع الموظفين من المدراء إلى الفراشين كلهم متحمسين أيضاً ولربما كنت أنا الوحيد في الوزارة غير متحمس وغير راض . وما وقع كان نوعاً من الهستيريا الشعبية. فالشعب كان يكره الإنكليز ويتألم من تصرفاتهم فلمّا وجد أن الجيش اشتبك معهم فاض الشعور والتهب الحماس في الصدور وهذا أمر جيد وحسن يدل على النخوة وكرامة النفس وإبائها ولكن هل كان كل ذلك في مصلحة البلاد.. وهل كانت قضية البلاد الأساسية بحاجة لمثل تلك الحركة وتلك الخرابيط؟ كنت أعتقد بالنفي ولم أشعر دقيقة واحدة بالارتياح والرضى لما قام به الجيش وما قام به يونس.. فانهم استغلوا شيئاً جميلاً واستعملوه في غير محله وفي غير زمانه..

ذهبت ظهر ذلك اليوم لمقابلة رشيد عالي في ديوانه وبينت له بأن «العلاقات» أصبحت لا تحتاج إلى سياسة أو كياسة لأنها دخلت في دور الضرب والتصادم وأني لست من المؤمنين بهذه الأساليب. ولذا رجوته بكل إلحاح أن يقبل استقالتي ويأخذ هو مسؤولية الخارجية أو يعين لها أحد القواد المؤمنين بالضرب.. فقابل اقتراحي بابتسامته المعلومة وكرر ما قاله سابقاً بأن

انسحاب وزير يعادل انسحاب فرقة من الجيش. فقلت له ان الجيش يدعي الانتصار المحقق فلا حاجة له بفرق جديدة واني لا أريد أن أتحمل مسؤولية أمر لم يسبق لي فيه رأي ولم أستشر به. فلما وجدني ملحاً أخذ يهدد تلميحاً بأنه إذا اصرينا على الاستقالة أنا ومحمد علي (لأنني كنت أكلمه باسمينا إذ كان محمد علي كلفني بذلك) فإنه لا يتحمل مسؤولية ما قد يحصل ويقع لنا ثم رجاني بأن أنتظر وأخذ يستنجد بوطنيتي وإخلاصي وشجاعتي و... و... و... فاستولى عليّ الخجل، وهي نقطة ضعيفة عندي، ورضيت بأن أنتظر ولكن لا أدري ماذا أنتظر...

أما الحماس وشعور الوطنية الخالص والتضحيات التي .أبداها الشعب العراقي فكانت طاهرة وقوية تذكر الإنسان بأيام الثورة العراقية.. وأخذت برقيات التأييد تنهال على رئيس الحكومة مؤيدة للحكومة وللجيش وأخذت الوفود تتقاطر من جميع الانحاء وتبدي استعدادها للجهاد.. وشكل الجيش جبهة غربية وجبهة جنوبية وأخذ يصدر البلاغات الحربية وكان أول بلاغ يذكر بأن الطائرات والمدفعية العراقية حطمت ٢٦ طائرة إنكليزية في سن الذبان وأن وأن.. وصارت شوارع بغداد مزدحمة بسيارات الجيش واللوريات التي وضع الجيش يده عليها وكانت كلها ملطخة بالطين ومستورة بسعف النخيل! كي لا تكون هدفاً لطائرات العدو.. ومضى يوم ويومان والحماس يزداد، وتتكاثر الشائعات حول خسائر الإنكليز، وارتدى يونس بدلة عسكرية شعاراً للجهاد وتسلح الفتيان وأخذ طلاب المدارس يطوفون الشوارع فخورين معجبين وصاروا يعتدون على بعض اليهود وغير اليهود. وهكذا قامت القيامة وفار التنور ولكن سن الذبان الذي شرح لنا يونس كيفية تطويقه بتفاهته العسكرية لم يسقط والإنكليز لم يستسلموا.

أيام العذاب

بينما كان الشعب العراقي من الشمال حتى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب يمر بدورة عصبية من الحماس والوطنية مؤيداً من قبل الأقطار العربية الأخرى ومشجعاً من قبل خصوم الإنكليز وبينما كانت الوفود والمتطوعون المجاهدون يأتون من كل صوب إلى العاصمة وبينما كان الصغير والكبير والرفيع والوضيع يتسابقون في أداء الواجب الوطني والعلماء يصدرون فتاوى الجهاد المقدس كان قواد الجيش العراقي الذين قاموا بما قاموا دون علمنا ومشورتنا يصدرون البلاغات الحربية والمناشير ويذيعون الإذاعات بشكل جعلوا الناس والعالم في العراق وخارجه يعتقدون بانتصارات واسعة باهرة... وكان صلاح الدين يمر بسيارته وعليها العلم يرفرف كأنه بطل الأبطال ولا يرضى بأن تقل منزلته عن منزلة نابليون أو بسمارك... ولكن حبل الكذب قصير... وذات يوم (لا أتذكر التاريخ ٥ أو ٦ نيسان/ابريل) قبل طلوع الشمس رن جرس التلفون وأيقظني من النوم فأسرعت وأخذت السماعة فإذا بصوت مرتبك مرتجف متقطع يسأل: «محمد يونس عندكم؟». فلم أفهم لأول وهلة من السائل ومن المقصود ولكن المتكلم كرر سؤاله وقال: «أنا صلاح الدين الصباغ... هل تعلمون أين يونس السبعاوي... طيارات الإنكليز قصفت مواقعنا... «انمردنا»... نريد نكسر السّد لنخلص ما تبقى من الجيش... أين يونس؟ لازم يعطي أمر بكسر السد وإلّا هلكنا...». أجبته بأن لا علم لي بمكان يونس فأقفل التلفون. فأدركت في تلك اللحظة ذلك القائد العظيم ومدى تعجرفه وتذكرت ما قاله لي قبل أيام الجنرال وترهاوز بأن صلاح الدين طموح ومتكبر ومتظاهر بأكثر مما هو في الحقيقة...

كـانت الضربة قـاسية وكـانت سخافـة قـواد الجيش وقلـة تـدبـيرهم وجهلهم حتى الأمـور العسكرية أشد قساوة. انهم تركوا قطعات الجيش العراقي فوق التلال المحيطة بالحبانية معرضة فأتت الطائرات البريطانية وأمطرتهم بوابـل من القنابـل وفتكت بهم بالـرشاشـات من الجو حتى جعلتهم يتركون مواقعهم ويهربـون «شذر مـذر» في الصحراء.. ولم يفكـر اركان حـربنا في حفـر الخنادق ولا في أبسط الأمور العسكرية ولم يؤمنوا النقليات ولا المخابرات وظهـر عجزهم بـأبشع صورة وسوء تدبيرهم بأسوأ شكل... ولكن الدعاية تحت نفوذ يونس وإدارة صدّيق شنشل أخذت تستر العيوب وترقع الخروق.. وامتلأت المستشفيات بالجرحى وزاد هياج الشعب وحماسه وتأثره وبغضه للإنكليز.. وعلا صوت الاغاثة والاستنجاد في الأثير بوسطة الإذاعة العراقية التي أخـذت تبث بالألمانية والإيطالية ولغات أخرى متعددة.. واتصل رئيس الوزراء بالإيطاليين واليابـان يطلب النجدة وارسال الطائرات وجاءته التطمينات من دول المحور بـأن النجدات آتيـة وعليه أن يقـاوم حتى تصل. ولما حمي الوطيس سافر وزير المالية ناجي السويدي إلى الرياض لمقابلـة ابن السعود وطلب معونته.. وبعده بأيام سافر ناجي شوكت إلى أنقرة ليتفاهم مع الأتراك وليقابل الفون بـابن ويطلب منه رأيه ومعونته. وكان قلبي يتفطر ألمـاً من ذلك الـوضع.. هـل كان ضروريـاً للعراق أن يقـوم بمجازفـة لا طعم لها ولا لـذّة فيها فـيرمي نفسه بهـذا المأزق، ثم في اليـوم الثـاني يـأخـذ بالاستغاثة والاستنجاد من الألمان والطليان واليابان وابن السعود والأتراك والعجم والعرب...

إن الثورات ضد الاستعمار واجب وطني وحق من حقوق الشّعب ولكن يجب عـلى الثائـر أن يحسب لكل أمر حسابه وأن يجهز لكل أمر علاجه. أما جماعتنا فقد قاموا بحركـة طائشـة لا هي ثورة شعبية ولا هي حرب دولية وان ما عملوه كان أشبه بحادث فجائي لا منهج له ولا مخـرج... ولا تفكير فيه ولا تدبير.

خلال هذه الفوضى أخذ نفوذ يونس يزداد يوماً بعد يوم. فنقل وزارته إلى بناية أحد الفنـادق الجديدة وجمع المديريات المـربوطـة بوزارة الاقتصـاد والتف حولـه الشبان المتحمسـون وكتائب الطلاب،وهكذا شكل دكتاتورية صغيرة في وسط الحكومة. وبالطبع كان نفـوذ رشيد عـالي وسلطته يتقلصان وأوشكت زعامته أن تكون اسميـة بينما الأمـور كانت بـين أيدي الجيش ويـونس ولكن رشيد لم يعترف بهذا التطور فأخذ يعالجه بأن يتظاهر بأنه هو منبع كل مـا يجري ولمـا عجز عن مقاومة الفوضى صار يتبناها لستر الحال حتى يأتي الفرج. ولا أدري كيف ومن أين يأتي الفرج!

أما الشعب فكان في تلك الأيام الحرجة لاهياً بالتحمس والمظـاهرات واطـلاق الرصـاص على الطائرات البريطانية التي أخذت تحلق فوق العاصمة وتقصف معسكر الرشيد والسكك وغيرهمـا من الأماكن الاستراتيجية، وكان ليلاً يحافظ عـلى النظام والتعتيم وكـانت قلوب السكـان مبتهجة وإيمانها قوياً ولم يحصل اعتداءات وسرقات وغيره ممـا يدل عـلى أن سواد الشعب كـان مدركـاً لـواجباتـه ومؤمناً بقضيتـه وبحقوقـه. وكان من المؤسف أن يستغـل المتحمسون هـذه الوطنيـة الساذجة البسيطة ويكذبون عليها وقد وصل الحماس الحقيقي حتى إلى قلوب أصدقاء الإنكليز لما لمسوه من صدق واخلاص بين طبقات الشعب. ولكن الشعب كان لا يـدري بما وراء الأكمـة فانـه يسمع الإذاعات ويقرأ المقالات والقصـائد والفتـاوى في الصحف فيعتقد أن قـادته أحسن قـادة وزعماءه أدهى الزعماء وأن الإنكليز على وشك الفناء. فيهيج ويتظاهر ويتحمس. انها خسارة بأن

تهدر تلك القوى المعنوية بأمر لا فائدة فيه ولا ضرورة له، فإذا كان هلاك الإنكليز مقدراً فانه واقع بدون تدخل العراق وإذا كان الهلاك نصيب خصوم الإنكليز فلا يقدر العراق منع ذلك. فالمصلحة الحقيقية كما قلت مراراً كانت تقضي بأن يبقى العراق خارج المعركة وأن لا يحشر نفسه بما ليس من شأنه أن يتداخل به.

ومرت أيام كانت بالنسبة لي كلها مرارات ولم أتذكر أنني تعذبت في حياتي كلها بمثل ما تعذبت به خلالها... فكنت أشاهد البلاد وقضيتها تتدهور وتقترب من الهاوية على يد بعض الجهلة من أبنائها وان كانوا مخلصين والفوضى تتسرب إلى مراكز الحكم بسبب طيش الطائشين وعناد زعمائها وان كانوا من ذوي النيات الحسنة. وكنت أرى كيف أن الجهل وقصر النظر والتكبر والعناد وحب الفوضى تتغلب على العلم وبعد النظر والتواضع والمرونة والنظام فتدفع بالجماهير إلى حيث لا يدرون وتدفع بالبلاد إلى الهاوية..

كنت أرى كل ذلك وأكثر من ذلك بدون أن أستطيع أنا أو يستطيع غيري ايقاف ذلك التيار القوي. وأصبح الحل والعقد كلاهما في يد رئيس الوزراء أو بالأحرى بيد الجيش ومن هم وراء الجيش، بينما الحكومة هي اسم بلا جسم والوزراء غير المتحمسين لا يسمح لهم بالكلام ولا يؤخذ لهم برأي إلّا ما ندر. فأصبحت الحالة لا تطاق، وكنت أريد أن أتخلص من ذلك الوضع بالإستقالة، ولكن رشيد لم يقبل، حتى وصلت الحالة إلى درجة أنني فاتحته يوماً قائلاً تريد مني البقاء باسم الوطنية والعروبة فليكن ولكن ماذا تريد من هذا الرجل الكردي (أقصد محمد علي محمود) الذي لا يؤمن بما تريد ولا يريد أن يشترك بما تؤمن فدعه يستقل واجعل مكانه رجلاً «من المؤمنين». ولكن رشيد كان يعاند ويستبد ويطلب منا أن نعاند ونستبد مثله ومعه حتى الأخير، رضينا أو أبينا...

فلما وجدنا أن لا فائدة بعد الآن من التحدث مع رئيس الوزراء قررنا محمد علي وأنا أن نتخلص من ذلك الوضع بترك البلاد، إذ لم يبق لدينا سوى ذلك الطريق، وعليه فقد دبرنا أمرنا بواسطة بهاء الدين نوري مدير النقليات في وزارة المواصلات وصديق محمد علي. فحجزنا عربة في قطار خانقين ونقلت سيارتي بالقطار وتركنا بغداد ليلاً بعد أن قلنا لبهاء الدين أننا مسافران بمهمة خاصة سرّية إلى خانقين ورجوناه بأن يبقي الأمر مكتوماً. ولكن بينما كنا في محطة باب الشيخ في غرفة الانتظار أخبرنا بهاء الدين بأن رجلاً من الشرطة السرية سأله عن اسمي الوزيرين المسافرين فاستعوذنا بالله من الشيطان وسافر القطار في ظلمات التعتيم. ولما ابتعد القطار عن المدينة صرنا نرى في البعد في وسط البرية هنا وهناك لهيباً يتصاعد. فقيل لنا أن الطائرات البريطانية قصفت بعض «الكور» في باب الشرقي وأحرقت البنزين العائد إلى الطائرات العراقية الذي نقله الجيش من معسكر الرشيد وهذا مثال على عجز جيشنا حتى عن حفظ ما لديه من وقود الطائرات.. فالتجسس الإنكليزي كان موجوداً حتى في داخل جيشنا إذ لم يمض على نقل البنزين أكثر من يوم فأتت طائرات العدو وأحرقته وصارت طائراتنا بلا وقود. وما هذا إلا مثال واحد من ألف مثل... فجيش هذه إدارته وأولئك قواده وهذه أسلحته كيف يريد أن يقاوم الامبراطورية ويقضي عليها... هكذا كانوا يدعون والجنون فنون!

خانقين

وصلنا خانقين قبل الفجر فوجدنا في المحطة موظفاً من الشرطة بانتظارنا فسلم وقال إنه تحت أمرنا ليدلنا إلى دار القائمقام وفهمنا المقصود وأن سفرنا السرّي أصبح مفضوحاً، فذهبنا إلى دار القائمقام الأستاذ ابراهيم صالح شكر فاستقبلنا الرجل بثياب النوم وأمر باحضار الشاي والفطور وبعد ذلك فتحنا معه الحديث وقلنا أننا قادمان بمهمة رسمية سرّية ونريد أن نذهب إلى قصر شيرين ولكننا ليس لدينا جوازي سفر وعليه رجوناه فيما إذا كان يمكن الاتصال بالقنصل الايراني ليدبر لنا ذلك الأمر. اجابنا ابراهيم صالح شكر بأن العلاقة بينه وبين القنصل ليست حسنة وأنه لا يتكلم معه بسبب بعض مسائل الحدود وبعد ذلك اخذ يدلي بمحاضرة طويلة حول الوضع السياسي وينتقد «الانكسارية والانكساريون» ويمدح ويثني على رشيد والقواد والحركة واخبرنا بأنه يعلم بسفرنا لأن مدير شرطة ديالة اتصل به تلفونيا واخبره بذلك.

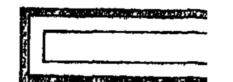
بعد الفطور ذهبنا مع المتصرف إلى «السراي». ونحن هناك إذا بطائرة إنكليزية تحلق فوق المدينة وكانت هذه لأول مرّة فأخذت الصفارات تطلق من هنا ومن هناك فوق السطوح وحدث هياج في المدينة و«عزّل»السوق واغلقت المدارس... وكأن قدومنا قدوم خير إلى خانقين! بعد مدّة دق جرس التلفون في غرفة المتصرف وإذا برشيد عالي يكلم المتصرف ثم يطلبنا ليكلمنا، فبدأ الحديث مازحاً لائماً وقال يجب أن نعود إلى بغداد وأنه أخبر الاخوان بأننا بمهمة رسمية فيجب أن لا نتأخر لأن ذلك يحدث تأثيراً سيئاً وربما يولد ضرراً لشخصينا وأن الاخبار جيدة والنجدات الالمانية والطليانية على وشك الوصول وأن ليس هنالك ما يستوجب القلق.

بعد هذه المحادثة وقعنا في حيرة من امرنا لأن امرنا قد انفضح وخطتنا لم تكن محكمة ففشلت. فقررنا أنا ومحمد علي بأن نترك خانقين مساءً بعد ان نخبر القائمقام بأننا عائدان إلى بغداد وبعد أن نبتعد عن المدينة نرجع نحو الحدود فنعبرها بشكل من الاشكال. عدنا إلى بيت القائمقام وقت الغداء وبعد الطعام تركنا ابراهيم صالح شكر لنرتاح. فصرت أنا ورفيقي نضرب اخماساً بأسداس ونلعن الساعة التي تورطنا بها مع رشيد. فانه «لازق بنا» لا حباً بنا ولكن خوفاً من أن خروجنا عليه يضعف من قوته. وعند العصر اتانا القائمقام وفي يده برقية مرسلة من الاعظمية باسم شخص لا اتذكره ولا يعرفه القائمقام ومضمون البرقية كان: «انني مستعد للحضور لطرفكم للقيام بالواجب» وقد ارسل صورة من البرقية المذكورة إلى مدير شرطة خانقين أيضاً.. فلم يفهم القائمقام سبب ارسال البرقية وصرنا كلنا نفكر لحل لغزها.. وصار محمد علي يفكر ويزداد قلقاً وقال لي ربما هذا شاب متحمس سمع بتركنا بغداد فيريد أن يظهر حماسه ويتطوع باغتيالنا؛ وفي تلك الفوضى كان كل شيء ممكناً. وقد قضينا ساعات مزعجة في خانقين طوال النهار وعند المغرب بعد ان تعشينا احضرنا السيارة للسفر فاقترح القائمقام وأيده مدير الشرطة، ارسال سيارة للشرطة معنا لأن الطريق ليست مؤمنة وقد تعترضنا نقاط البوليس والجيش.. فحاولنا اقناع الجماعة بأن لا لزوم لذلك ولكن «خوفهم على سلامتنا» جعلهم يصرّون.. وكانت السيارة جاهزة وفيها اربعة من الشرطة مع مفوض فرافقتنا وهكذا عدنا مصحوبين اسمياً ومخفورين فعلياً إلى بغداد حيث وصلنا حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل..

اتاني في اليوم التالي محمد علي محمود فوجدته اصفر اللون منهوك القوى لأنه لم ينم تلك

الليلة ولأن محاولة الهرب الفاشلة اتعبت اعصابنا كثيرا. ذهبنا إلى يونس في وزارة الاقتصاد لنرى الوضع.. فاستقبلنا باسماً هازلاً ثم اخبرنا بأن مغادرتنا بغداد ومحاولتنا ترك العراق خلقت تأثيراً سيئاً وأن الجيش غير مرتاح من حركتنا وأن بعض الشبان المتحمسين اتوا إليه متطوعين بقصد القاء القبض علينا أو اغتيالنا وأنه الآن خير لنا ان نترك منصبينا ونذهب إلى الخارج! فقلنا له هذا ما نريد ولكن رئيس الوزراء مصر على بقائنا ويا حبذا لو سمح لنا بأن نتخلص من هذا الوضع لأننا لا نريد تحمل مسؤولية اعمال لا رأي لنا بها ولا نوافق عليها.

بعد أن تركنا يونس ذهب كل منا إلى وزارته. وجدت في وزارة الخارجية أن خبر غيابنا عن بغداد كان معلوماً لدى الجميع وأن رئيس الوزراء عالج الأمر بأن بيّن أننا كنا بمهمة وزارية وكما قلت لم يعمل رشيد ذلك حباً ولكن دفعاً لحصول ثغرة في وزارته تؤثر على وضعه. وعندما قابلت رئيس الوزراء رأيته حسب عادته نشيطاً قوياً مسروراً وبعد أن استصوب عودتنا من خانقين أكد لي بأنه تلقى اخباراً موثوقة بأن نجدات وطائرات عديدة ستأتي من المانيا وايطاليا. وأن الوضع العسكري جيد ولا ينقصنا غير الطائرات وأنه مؤمن كل الايمان بالنصر النهائي. فقلت له إن شاء الله يكون كل ذلك صحيحاً ولكن أنا ومحمد علي بعد الآن اصبحنا في موقف حرج وأن وجودنا معه سيكون ضعفاً له لا قوة فرجوته أن يتركنا ننسبح أو يوافق على تعييننا وزيرين مفوضين للخارج. وبعد أخذ ورد طويلين وافق على تعيين محمد علي وزيراً مفوضاً في ايران وعلى تعييني في برلين وموسكو. واشترط بأن لا نسافر إلّا بعد أخذ موافقته. فكلمت القائم باعمال المفوضية الايرانية حول محمد علي فوعدني بأنه سيبرق من أجل الموافقة وصرت ارتب ما يلزم بشأن تعييني واصدار قرار مجلس الوزراء بذلك واكمال جواز السفر وغيره...



الالمان في بغداد

كلما ازدادت الحالة سوءاً ازداد رئيس الوزراء نشاطاً وحيوية وأملاً بوصول النجدات. وبما أنه اتخذ مقر وزارة الخارجية مكتباً له فقد كان يأتي لزيارته كثير من الناس، منهم لعرض الطاعة والاخلاص والتظاهر بالرضى والتأييد، ومنهم لاداء النصح والاستفسار عن حقيقة الوضع. وكان رشيد عالي يطمئن الجميع ويعدهم بالنصر القريب.. أذكر يوماً أن صادق ومحمد جاءا إلى الوزارة فكنت حاضراً معهما فأخذ ابو فيصل «يذرع بالدكل» وقال اليوم أو غداً ستصل خمسماية طائرة المانية. فنظر اليَّ محمد متسائلاً فيما إذا كان هذا صحيحاً فأشرت له بيدي بأن لا تصدق! إذ لم نكن نعلم بشيء مثل ذلك ولم يكن لدينا سوى بعض الوعود من قبل الوزير الايطالي كابريللي بأن بعض الطائرات ستصل عما قريب.. وهكذا كان الناس كلهم، حكومة وجيشاً وشعباً، يعد بعضهم بعضاً ويشجع بعضهم بعضاً...

ويوماً من الايام اتى رشيد إلى الخارجية مبتهجاً مسروراً و«بشرنا» بوصول الدكتور غروبا وصحبه إلى بغداد وأنهم نزلوا في قصره بالصليخ. وذهبت ذلك اليوم مع رشيد إلى داره للغداء وهناك قابلت الدكتور وصحبه فأخبرنا الدكتور غروبا بأن «الفوهرر» عندما سمع بحركة العراق دعاه وأكد له بأن المانيا ستساعد العراق وأنه سافر بناءً على طلب الخارجية وأن بعض الطائرات ستصل العراق قريباً. وبعد ذلك بيوم أو يومين وصل سرب من الطائرات الالمانية إلى الموصل. وفي صباح أحد الأيام عندما كانت الطائرات البريطانية تحلق فوق بغداد وتقصف بعض الاماكن، رأيت طائرة كبيرة تطير على ارتفاع قليل تأتي من ناحية المدينة وترمي بطلقات خضر وبيض كالاشارات واستقبلها الناس والشرطة والجيش بطلقات من كل صوب حتى أنني رأيتها تنزل إلى الأرض في منطقة معسكر الرشيد وظننت أننا اسقطنا طائرة بريطانية. ولكن بعد أن ذهبت إلى الخارجية سمعت بأن طائرة المانية كبيرة تحمل عدداً من الضباط الالمان اتت من الموصل وبينما كانت فوق بغداد اطلقت الاشارة المتفق عليها ولكن الناس ولا سيما الشرطة الذين كانوا يحرسون الجسور وجهوا إليها بنادقهم ورشاشاتهم، وشاءت الصدف أن تدخل رصاصة في فك الماجور «بلومبرغ» ابن الجنرال بلومبرغ وزير الدفاع الالماني وقائد القوة الجوية التي اوفدت لنجدة العراق..

وهكذا استقبلت القوات المدافعة عن بغداد القوة الجوية الالمانية بقتل قائدها.. وفضلاً عن أن هذه الحادثة فاجعة إنسانية فانها حادثة شؤم ككل شي اتصل بحركة قوادنا. وتقبّل الدكتور غروبا ذلك الحادث بصبر وابرق إلى برلين بأن وصول الطائرة الالمانية اثناء قصف بغداد من قبل الطائرات البريطانية سبب تلك الفاجعة وان الدم الالماني اريق فوق بغداد اثناء الجهاد المشترك.

وشيعت جنازة الماجور بلومبرغ ذلك اليوم باحتفال عسكري من معسكر الرشيد إلى المقبرة الالمانية في «باب الشرقي» وكان بانتظار الجنازة في المقبرة الدكتور غروبا وصحبه واعضاء الوزارة والقواد وكبار الموظفين وكانت مراسم الدفن مؤثرة وكانت الفاجعة غريبة بأن يأتي هذا الشاب من برلين فيموت فوق بغداد وقبل أن تحط قدماه على ارضها.

خطب الدكتور غروبا بالالمانية على قبر الماجور بلومبرغ واجابه رشيد عالي بالعربية بخطبة حماسية ختمها بتمجيد الالمان والطليان واليابان. ومن شدة حماسه وتأثره في تلك الدقيقة قال: «اليونان» بدلاً من اليابان ومرت هفوة اللسان هذه دون أن يشعر بها الالمان وكثير من الحاضرين.. وكانت الدموع تتساقط من اعين كثير من الناس ولا سيما عامة الناس ورأيت «عمر السائق» يبكي ويسب بالإنكليز..

وصول الالمان إلى العراق عزز معنويات الجيش.والشعب لأنهم كانوا يمثلون ذلك الشعب المنتصر الذي قضى على فرنسا وبولونيا وعدد كبير من الامم والذي كان على وشك ان يقضي على الإنكليز وامبراطوريتهم فينقذ العالم من الاستعمار، وينقذ العرب من الذل وفلسطين من ادران الصهيونية. فكيف إذن لا يبتهج العراقيون بقدوم هؤلاء وقد هبوا إلى نصرتهم وطاروا آلافاً من الاميال لنجدتهم واستشهد قائدهم فوق بغداد في الجهاد المشترك وإن كانت الرصاصة قد صوبت خطأ من قبل الشرطة العراقية. هكذا كان يفكر ويشعر العراقيون أو الاكثرية الساحقة منهم وكان الناس يظهرون شعورهم وعطفهم بشتى المناسبات وكان الالمان عندما يسيرون في شوارع بغداد واسواقها يستقبلهم الناس بالهتاف ويعطونهم ما يريدون بلا ثمن. واخذ بعض الاعراب بتسمية اولادهم «بهتلر» و«غورينك» فالمودّة كانت صادقة وبذلك نصر للدعاية الالمانية وللخمول البريطاني وسوء تصرف الإنكليز فيما سبق.

أما الالمان فكانوا بالطبع يشعرون بمثل ذلك الشعور نحونا ولكن بميزان خاص ودرجة محددة. وشعرت من الدكتور وغيره بأنهم لم يكونوا مطمئنين لسير الامور وتلك الارتباطات لأنهم وجدوا انفسهم في وسط «هوسة» لا رأس لها ولا ذنب وهذا مما لا ترتاح إليه الذهنية الجرمانية المعتادة على النظام والحساب وان كان بيننا وبينهم بعض الشبه في التهيج والتحمس ورمي النفس إلى التهلكة. واسجل هنا حديثاً جرى امامي في وزارة الخارجية لأيضاح هذه النقطة.

اتى يوماً إلى الخارجية الدكتور غروبا ومعه كابتن الماني هو مستشاره العسكري، واجتمعا إلى رشيد عالي وصلاح الدين الصباغ ليدرسوا جميعهم الوضع العسكري، وبعد ان درسوا الخريطة والمواقع العسكرية قال الاخصائي الالماني: إذا عززتم خطكم على امتداد نهر الفرات الاوسط من الرمادي إلى المسيب ونسفتم جسر الفلوجة وقضيتم على كل حركة عبور يحاولها العدو يمكنكم أن تقاوموا لمدة شهرين.. فأجاب صلاح الدين الصباغ مشمئزاً وطالباً إليّ الترجمة: بأننا لا نحتاج إلى مشورة عسكرية. اعطوني عشرين طائرة، وأنا ارفع العلم العراقي غداً فوق «القدس!» بالطبع خجلت من أن اترجم مثل هذا الهراء. فقلت ما يناسب الوضع. هكذا كان يفكر ويتكلم صلاح الدين، وهو نفس الرجل الذي كان يرتجف خوفاً على التلفون قبل ايام معدودات ويقول «انمردنا» ويطلب كسر السدود لانقاذ ما تبقى من الجيش..

كان الالمان يتوقعون أنهم سيجدون كميات كافية من البنزين الخاص للطائرات ويظهر أن الجيش العراقي بواسطة من الوسائطكان قد أكد للألمان هذه النحية. فلما وصلت الطائرات وهي سرب واحد فلم تجد امامها إلّا صفائح معدودة من الوقود فاضطروا إلى تأخير وصول الطائرات الاخرى التي كانت تنوي الالتحاق بالسرب الاول... ويظهر أن البنزين المتوفر تحت أمر القوة الجوية العراقية كان محدوداً وهذه خطة احترازية دبرها الإنكليز عندما نقلوا ما عندهم من

معسكر الرشيد إلى «الكور» فقد قصفه الإنكليز واحرقوه وهكذا كانت تطير الطائرات العراقية والألمانية لساعات قلائل خوفاً من نفاد الوقود ويظهر أن قائد القوات الجوية العراقية محمود سلمان وهو في الأساس ضابط خيال فاته ان بنزين السيارات لا يستعمل في الطائرات فلما أكد وجود البنزين بكثرة عندنا، كان يفكر بالبنزين الاعتيادي وهذه نقطة من نقاط عديدة مثلها. ومن غرائب الفوضى بالجيش أن قوادنا لم يكونوا عالمين تماماً بالنقاط التي يشغلها العدو والتي تشغلها قواتنا وصادف أكثر من مرّة أن أخذ القائد الالماني في الموصل معلومات ناقصة ادت إلى أن طائرته اخذت تقصف بعض مواقع الجيش العراقي. ومن البديهي أن الالمان كانوا غير مرتاحين من هذه الفوضى وتلك «الخرابيط» ولكن ما العمل، فهم اتوا لمساعدتنا وكانوا هم والطليان يقومون بتلك المساعدة بقدر المستطاع وبقدر ما تسمح به القيادة العراقية العليا.. والقيادة العليا هذه كانت لا رأس لها ولا كعب وصادفت أكثر من مرّة رئيس اركان الجيش وهو يسأل عن الوضع الحربي من حسام الدين جمعة مدير الشرطة العام ومن بعض الموظفين. واتاني يوماً فلما سألته عن الوضع قال: «واللـه ما اعـرف شي» وصادف ان مرت سيارات شحن كبيرة ملطخة بالطين فنظر إليها وقال: «كل هذا كذب! لا تصدق! ماكو شي! هذه البلاغات كلها كذب! كلها نفخات صلاح الدين...». هكذا كان الوضع العسكري وكان الوضع الاداري أمرّ منه وانكى ولكن دعاية صديق شنشل كانت تصبغ الأسود أبيض وتجعل من الباطل حقاً..

رئيس الوزراء يضرب على رأسه

قد لا يجوز أن يذكر الإنسان الموتى بسوء فالآن وقد اصبح القواد الاربعة ويونس في عالم الاموات فاني اترك للتاريخ تحليل اعمالهم وانتقادها، ولكنني لما كنت انا وغيري من ضحايا تصرفاتهم وطيشهم فعلي أن ابين ناحية الفوضى التي سببت ما سببت واساءت إلى البلاد وابنائها ورجعت بالقضية العراقية إلى الوراء وخلقت وضعاً مؤلماً يستفيد منه الأجنبي واعوانه.

قلت، وأقول اليوم، أن من حق الشعوب المغلوبة على امرها أن تثور في وجه الاستعمار ومن واجبها أن تصون شرفها وكرامتها وتنفض غبار الذل عنها. فثورة سنة ١٩٢٠ العراقية كانت مثالاً بارزاً لانفجار ذلك الشعور الوطني القوي في وجه الاستعمار وكذلك الثورات السورية والمصرية والفلسطينية. فهذه كلها حركات وطنية شعبية طبيعية في منشئها وفي سيرها انها قيام الضعيف في وجه الغاصب القوي.

اما الحركة التي قام بها قواد الجيش فكانت كما رأينا مسألة محلية بدأت بقلب الحكومة الشرعية لأنها تحرشت بالقواد وفرضت الاستقالة على رئيس الوزارة ولما لم يوافق هرب الوصي والتجأ إلى الإنكليز وعليه تم الخلع ونصب وصي جديد كما مرّ ذكره، ثم دخلت الحالة في أزمة مع الإنكليز لعدم اعترافهم بالوضع الجديد وانفجرت الدمّلة من جراء الخلاف حول تفسير المعاهدة. فكل هذه التطورات منعت من أن تكون هناك ثورة شعبية ضد الإنكليز. ولما تصادم الجيش مع القوات البريطانية لم يكن هنالك حرب بيننا وبينهم انما مصادمات بين قوتين ما زالتا حليفتين في نظر الشرعية الدولية بموجب المعاهدة، ولكن سواد الشعب ايد الجيش وساعده وهذا أمر طبيعي، على ان تلك المساعدة كانت اسمية أكثر منها فعليه إذ بقيت العشائر محايدة واكتفى الشعب بالمظاهرات. وفي رأيي لو كانت الحركة ثورة شعبية دون اشتراك الحكومة والجيش رسمياً بها

لأتت بفائدة أكبر ولاستمرت لمدّة أطول وربما كنا حصلنا من الإنكليز على أكثر مطاليبنا ولكن كبرياء صلاح الدين وفوضوية السبعاوي ودسائس من كان وراءهما ابت إلاّ أن تدخل الجيش والحكومة بحركة عجيبة في شكلها وغريبة في لونها. هذا وإذا كان الصباغ بطل «الخرابيط» العسكرية فكان السبعاوي يمثل روح الفوضى الادارية. لقد كانت ليونس مزايا عديدة تجعله في الصف الأول من الثوار كالذكاء الحاد والجرأة الجنونية والاقدام من غير حساب ولكنه لم يكن لديه ما يؤهله ليكون وزيراً في وزارة دستورية تعرف واجبها ويعرف اعضاؤها واجباتهم ومالهم وما عليهم.. ولذا فانه أخذ يعمل ما يشاء مستنداً إلى نفوذ القواد، ولما حصل التصادم وجد نفسه وحيداً وأنه الكل في الكل فأخذ يصرف ويأمر وينهي بدون قرار من مجلس الوزراء وبلا استشارة الرئيس حتى أصبح الشغل الحكومي اقرب إلى شغل العشائر! وهذا جو ترتاح إليه روحية يونس وتنبغ فيه ذهنيته وكان التذمر والتشكي والخلاف تزداد بينه وبين رشيد كل يوم ولكن الظروف كانت تقضي بأن يسكت رشيد ويتحمل.

عندما سافر ناجي السويدي إلى الرياض عين علي محمود الشيخ علي وكيلاً لوزارة المالية فرأى أن وزير الاقتصاد يقبض ويصرف بدون حساب وبلا كتاب فكان مثلاً يستلم واردات البنزين وبدلاً من أن يسلمها إلى الخزينة كان يصرفها على وزارته وعلى الكتائب من الشباب باسم الجهاد.. فرفع علي محمود بذلك تقريراً إلى رئيس الوزراء وعين لجنة لدرس كيفية صرف تلك الواردات والمصاريف .. فقامت قيامة السبعاوي وفار «تنوره» وأخذ يهدد ويعربد حتى وصل الاستهتار به أنه كلم يوماً سكرتير رئيس الوزراء بالتلفون وقال له: قل لرئيسك إذا كان هو يستند على الشرطة فأنا ورائي الجيش كله. وقال لي يوماً: لولا المصلحة العامة لالقيت القبض على رشيد عالي وخادمه مدير الشرطة حسام الدين. فلما وصلت الحالة إلى هذه الدرجة طلب رشيد من الجيش بأن يستقيل يونس ولم يوافق يونس فقامت عندها أزمة شديدة.

ذهبت صباح يوم إلى الخارجية فوجدت الموظفين يتهامسون ويتحادثون بهياج. وروى لي مدير التشريفات عبد القادر صالح ما حصل ليلة الأمس في الوزارة وكان هو حاضراً مع ابطال تلك «الدراما» قال: طلبوه ليلاً بالتلفون من داره فلما وصل إلى وزارة الخارجية وجد هناك رشيد عالي والمفتي وبعده أتى صلاح الدين الصباغ ويونس السبعاوي والقصد من ذلك الاجتماع أن المفتي كان يريد أن يصلح بين الزعيم الرئيس وبين زعيم الشباب، ويظهر أنه أثناء الحديث احتد رشيد عالي وأخذ يلوم يونس على تصرفاته فاجابه يونس بحدة وشدة وتعقدت المشكلة ورفض رشيد بقاء يونس في الوزارة وعلى أثر ذلك مدّ صلاح الدين يده إلى ورائه مهدداً رئيس الوزراء بالمسدس فثار رشيد وأخذ يسب ويشتم ويضرب على رأسه وينتف شعره.. وانقلب مجلس الصلح إلى «دراما» مؤلمة في وسط الليل وانتهى ذلك الفصل المؤلم بأن اعتذر صلاح الدين قائلاً بأنه لم يقصد من حركته تلك مسك المسدس انما سحب سرواله إلى فوق! وانتهى الأمر على تلك الصورة وقال رشيد أنه سوف يترك رئاسة الوزراء، وذهب إلى بيته وبقي في اليوم الثاني حتى وقت الظهر متخفياً في داره ولم يأت إلاّ بعد الظهر إلى الخارجية. فوجدته اصفر اللون منهك القوى... فلم افاتحه بما سمعت وتكلمنا عن مواضيع شتى واقترحت عليه تعيين يونس وزيراً مفوضاً إلى روما فوافق وطلب مني أن اقنع يونس وأن اسفره معي عن طريق ايران وموسكو وهكذا ربط الرئيس سفري

بسفر يونس الذي كان يريد التخلص منه، وكلمت يونس بالموضوع وبعد حديث طويل اقنعته بقبول الوظيفة الجديدة وصرنا نرتب الجوازات وغيرها من مقتضيات السفر ولكن الحوادث العسكرية بدلت خطتنا كما سيأتي بحثه.. وتجرى الرياح بما لا تشتهي السفن!

الوساطة التركية

على أثر التصادم الذي وقع بين الجيش والإنكليز أتاني الوزير المفوض التركي إلى وزارة الخارجية فابدى أسفه لما حدث وأظهر استعداده للتوسط بيننا وبين السفارة بصفته ممثلاً لحكومة صديقة للجهتين المتخاصمتين. فرحبت باقتراحه وقلت له أنني شخصياً اوافق على ذلك ورجوته ان يقابلني في اليوم التالي لأخبره بقرار الحكومة الرسمي. فلما كلمت رئيس الوزراء في هذا الموضوع وجدته غير راغب في تلك الوساطة ولكنه لم يرفضها تماماً بل قال أن هناك مسائل عسكرية يجب أخذ رأي القادة بشأنها وبالطبع كان رأي القادة معلوماً لدينا. فلما عاد الوزير جواد اوستن رآني، على عكس الأمس، متردداً في الموضوع فأخبرته بصراحة بأنني شخصياً أود الوساطة التركية ولكن الجيش يفضل الانتظار فأسف الرجل على ذلك وانصرف...

وأتى الوزير المصري البحراوي بكتاب شخصي من رئيس وزراء مصر حسين سرّي باشا إلى رشيد عالي يعرض توسط مصر في القضية. فأهمله رشيد ولم يقابل البحراوي بالرغم من زياراته المتعددة ولم يجب على رسالة سرّي باشا. وفي الأخير اضطررت أنا من باب الآداب الدبلوماسية أن ارسل له جواباً شاكراً عطف مصر وشعورها نحونا ومعتذراً عن تكليف مصر بالوساطة لأنه قد سبق للجارة الصديقة تركيا أن تقدمت بالوساطة وأن الحكومة العراقية تدرس ذلك الأمر الآن. ويستدل من ذلك أن رشيد والقواد كانوا لا يريدون التوسط. ولكن بعد أن حل بالجيش العراقي ما حل وحمي وطيس الجماعة أوفدوا وزير الدفاع ناجي شوكت إلى أنقرة ليتفاوض مع الاتراك حول شروط الوساطة وفي الوقت نفسه ليتصل بالسفير الالماني فون بابن. وذهب ناجي شوكت واتصل بالحكومة التركية وبفون بابن واتتنا برقية منه حول الشروط وبرقية أخرى يوصى فيها بإلحاح قبول الشروط وتفويضه بالتوقيع عليها. فاجتمعنا نحن الوزراء الموجودين في بغداد برئيس الوزراء في وزارة الخارجية وكنا: محمد علي محمود، علي محمود، رؤوف البحراني وأنا.. اما ناجي السويدي فكان لم يزل في الرياض ومحمد حسن لم يزل مريضاً في المستشفى ويونس كان منشقاً لا يحضر اجتماع الوزراء، وبعد درس وتحليل وأخذ ورد طالت أكثر من ساعتين أقنعنا رشيد عالي بقبول اقتراح ناجي شوكت المتعلق بعقد هدنة وسحب الجيش وايقاف القتال واحضرنا برقية جوابية فيها بعض التعديل وبعض الاقتراحات..

ولما اردت ارسال البرقية قال رشيد أمهلوني حتى المساء لاراجع حول النقاط العسكرية «الاخوان» القواد. فتحيرنا من اقتراح رشيد وفهمنا وضعه الحقيقي بالنسبة إلى «الأخوان» أي انه اصبح لا يحل ولا يربط دون استشارتهم واخذ موافقتهم وتشاءمنا من تأخير تلك البرقية.. ولكن ما العمل؟؟ فإذا كان رئيس الوزراء وزعيم البلاد في هذه الدرجة من الضعف امام القواد فكيف يجب ان نكون نحن المغضوب علينا من قبل الجيش وجماعة يونس؟

حاولت أن اقنع رشيد بإرسال البرقية كما هي وارسال أخرى بعدها إذا كان هنالك اقتراحات جديدة لدى قواد الجيش.. ولكن رشيد لم يقبل!.

اجتمعنا عصراً نحو الساعة الخامسة حسبما وعدنا رئيس الوزراء في الخارجية وكنت انا مضطرباً جداً من ذلك الوضع وكان محمد علي أكثر مني اضطراباً وكان علي محمود غير مرتاح لا سيما بعد أن تخاصم مع يونس وأخذ الجيش ينظر إليه بشيء من الريبة، على أن اخلاصه وصداقته الشخصية لرشيد عالي كانا يدفعان به إلى التمسك برشيد ونظرياته. اما رؤوف البحراني فقد أتى وآثار القيلولة لم تزل على وجهه ولما سألناه عن الحال والاحوال أجابنا بأنه شرب كأس لبن ونام حتى الآن. ولله در رؤوف، ولله در اعصابه ودماغه، فكأنه لم يكن هناك ضرب وحرب وقيامة قائمة! شرب لبن ونام والآن أتى للخارجية باسماً ضاحكاً مازحاً!

انتظرنا، ثم انتظرنا ومرت ساعة ثم تلتها ساعة وأخرى ورشيد لم يأت إلى الخارجية فالدقائق كانت تمر بعذاب ولم نستبشر بهذا التأخير. وبعد الساعة الثامنة أتت سيارة رئيس الوزراء فنزل منها رشيد ومعه صلاح الدين الصباغ وأتى من بعدهما يونس وابراهيم الراوي.. وكان القائدان بلباسهما العسكري وكل منهما يحمل حسب العادة عصاه صغيرة في يده ومسدساً وراء ظهره!

اجتمعنا كلنا في غرفة الوزير فأخذ صلاح الدين برقية ناجي شوكت والبرقية الجوابية وقرأهما وبعده قال: اننا لا نوافق على هذه الشروط.. قلت: بينوا لنا ما تريدون لندرسه: قال: نريد انسحاب القوات البريطانية ثم الغاء البعثة العسكرية البريطانية. قلت: لا بأس هذه نضيفها إلى البرقية. فلما رأى أننا موافقون اضاف: ونريد تعويضات على الخسائر التي حصلت. قلت طيب. نضع شرطاً جديداً حول هذه النقطة.

كنت اوافق على هذه الشروط السخيفة لأنني كنت شاعراً بما يقصد الصباغ من هذه الاقتراحات. كان قصده ان يطالب بما لا يمكن الحصول عليه فنرفض اقتراحه فيغضب ويقضي على الوساطة.. فلما وجدنا مستعدين لإدراج شروطه ضاق صدره فأخذ البرقية وقرأها من جديد.. ثم رماها على الارض قائلاً: ناجي شوكت خائن.! كيف يقبل بمثل هذه الشروط. ان قبول الشروط خيانة.. فأيده يونس قائلاً: نعم هذه خيانة اننا لا نقبل بهذه الشروط ولا نريد التوسط... أضاف ابراهيم الراوي: لا مفاوضة إلا بعد الجلاء. وردد هذه العبارة صلاح الدين. فلما رأيت هذا الوضع امسكت صلاح الدين من ذراعه وقلت له: قل لي بصراحة إذا طلب الآن منا الإنكليز مهلة ثلاثة ايام لينسحبوا من العراق هل توافق على ذلك أم تستمر في القتال. قال بدون تردد: أستمر بالقتال!

بعد هذا كان الأمر واضحاً بأنهم اتوا للخارجية ليهددوا ويضربوا الوساطة التركية بعرض الحائط. بعد هذه الدراما التي مثلها صلاح الدين ويونس وابراهيم الراوي ترك الصباغ الغرفة فتبعه زميلاه وبقينا نحن لوحدنا ننظر إلى رئيسنا وهو ينظر إلينا على ان رشيد استدرك الوضع وقال: اني قلبياً لم أكن راضياً على الموافقة هذا الصباح ولكن لما رأيت اصراركم لم اقدم على مخالفتكم وبعد أن درسنا الوضع العسكري وجدنا أن الشروط غير موافقة ولربما اقترحها ناجي شوكت عندما كان تحت تأثير الصدمة الأولى التي حلت بالجيش.. فالآن وقد تبدل الوضع، علينا ان لا نقبل بهذه الشروط...

هكذا تكلم رشيد وانا أعتقد أنه كان يخدع نفسه ويحاول خداعنا. فرأيه الحقيقي كان يؤيد

الوساطة ولكن المفتي والقواد لم يرضوا بذلك فاراد أن يستر فشله امامنا بالانضمام إلى رأي صلاح الدين ويونس.. أنا ومحمد علي بيَّنا فكرنا بأن هذه كانت خطيئة لا تغتفر وكان رؤوف يشاركنا في الرأي أما علي محمود فقال أنه يفضل الوساطة ولكنه يتضامن مع رشيد في السراء والضراء.

إن حركة القواد هي سلسلة اخطاء ونواقص وقلة تدبير وعجز في التفكير ولكن قضية التوسط التركي كانت فاجعة الفجائع وحماقة الحماقات: تأتي حكومة صديقة قوية وتعرض توسطها في حل خصام بان خلاله منذ البداية عجز الجهة العراقية وانخذال جيشها.. تأتي الحكومة التركية لتضع حداً بين حكومة ضعيفة مثل العراق واخرى قوية مثل الامبراطورية البريطانية وتسوي الخلاف وتنهي النزاع فيسلم العراق بكرامته وان كان خاسراً الحرب ويظهر بمظهر الشعب الذي يحسب له حساب.. هذه فرصة لم تتح لأحد إلا ما ندر. فبدلاً من ان نتمسك بتلك الفرصة ونستفيد منها، يأتي رجل مغرور جاهل مثل الصباغ وآخر فوضوي مثل السبعاوي ويمليان ارادتهما على رئيس الوزراء وهذا بدوره يخضع ويتنازل عن رأيه في آخر دقيقة.. فتذهب الفرصة وينتهي الأمر إلى ما انتهى إليه. انها فاجعة سياسية مؤلمة!

أتهم صلاح الدين ويونس ناجي شوكت ومعه نحن الذين استصوبنا رأيه بالخيانة!. اتهمانا بالخيانة والتساهل في مصلحة الوطن ولكن التاريخ الصادق سيرى من الخائن ومن المخطيء. إني لا أقول أن الصّباغ والسبعاوي والراوي والرئيس الكيلاني خانوا ولكنهم في رفض التوسط التركي ارتكبوا خطأ كانت عاقبته أشد خطراً من الخيانة. أن النتائج التي حصلت من جراء ذلك الجهل وقصر النظر كانت وخيمة على العراق حكومة وشعباً. فهؤلاء ومن ورائهم المفتي ارتكبوا ذنباً لا يغتفر واساءوا إساءة لا تنسى.. وفي حركتهم تلك برهنوا للعالم أن العدو العاقل خير من الصديق الجاهل المتعجرف.

في اليوم الثاني أبرق رشيد عالي بتعليمات جديدة إلى ناجي شوكت يرفض بها الشروط ويطلب إليه العودة بأسرع ما يمكن وهكذا كانت خاتمة تلك المأساة.

الدور الأخير

ليس من شأني أن احصي وأعدد الأخطاء والنواقص التي وقعت اثناء حركة الجيش لأنها عديدة وكانت مستمرة ومتوالية. ولكن عليّ أن اذكر هنا ما كان له علاقة مباشرة بشخصي وبالخارجية. فقد كنت دائماً أقول لاصحابي خلال تلك الفترة من الزمن، بأنه لا يمكن ستر هذه «الخرابيط» إلا بانتصار باهر قطعي. هذا لأن الانتصارات تجعل الباطل حقاً والأسود أبيض والحماقة عقلاً والجبن شجاعة والشر خيراً. ولكن من اين يأتي الانتصار إذا كانت هذه مهارة الجيش وتلك كياسة الحكومة ومقدرة الادارة؟

بعد العودة من خانقين اصبح وضعي أشد حراجةً من ذي قبل، وكانت الامور الخارجية كلها مربوطة بشخص رشيد عالي وكان هو الذي يأمر وينهي ويرسل البرقيات ويعطي التعليمات واصبح دوري مقتصراً عل تقليل الشر بقدر المستطاع وبقدر ارتباطه بوزارة الخارجية.

أتى يوماً صلاح الدين الصباغ إلى وزارة الخارجية غاضباً متحمساً وخاطبنا رئيس الوزراء

وأنا بأن الإنكليز صاروا يقصفون معسكر الرشيد بما فيه المستشفى العسكري وجميع مبانيه بدون تمييز وعليه فإنه يطلب نقل البريطانيين اللاجئين إلى السفارة البريطانية والمفوضية الأمريكية إلى معسكر الرشيد واعتقالهم هناك!. تداخلت في الأمر وقلت إن مثل هذا العمل يعد خرقاً في حقوق الدول وحقوق الإنسانية وانه من العار علينا أن نعتدي على حرمة المثليات الأجنبية وأن نضع المعتقلين في معسكرات الجيش وكنت بدوري متهيّجاً فأيدني رشيد عالي وتركنا القائد الاعظم منفعلاً.

واراد الجيش ورشيد جمع الرعايا البريطانيين واعتقالهم في مكان امين وان يشمل هذا القرار اللاجئين الذين التجأوا إلى المفوضية الأمريكية. والح رشيد في هذا الأمر فكتبنا مذكرة إلى المفوضية الأمريكية طالبين إليها تجهيزنا بقائمة باسماء اللاجئين وتسليمهم إلى السلطات العراقية بغية اعتقالهم، وكنت اعتقد أن الوزير الأمريكي المستر نابنشو سيرفض مثل هذا الطلب وتنتهي القضية.. ولكن بعد يومين اتانا الجواب مرفقاً بقائمة بأسماء اللاجئين مع موافقة الوزير على تسليمهم. فاستغربت كثيراً من جبن نابنشو الذي كان يتظاهر دائماً بأنه أكثر بريطانية من البريطانيين. فقد أغلق مفوضيته واحتمى وراء جدرانها وان لم يكن هنالك علاقة للأمريكيين فيما حصل.. ولكن رعونة الوزير وتملقه للإنكليز دفعته بأن يعدّ نفسه في زمرة ابطال الاستعمار وان لم يكن له قلب قوي مثل قلبهم فلما رأى الحديد قد حمي وافق على تسليم اللاجئين ووضعني أنا في موقف حرج. فكلمت رشيد عالي وقلت أن الحكومة ستواجه مشكلة بهؤلاء اللاجئين فيما يتعلق باسكانهم واطعامهم وغيره واقترحت بأن يبقوا في المفوضية الأمريكية ويتعهد الوزير بعدم هروبهم أو اتصالهم بالخارج، فوافق رشيد وكتبنا مذكرة ثانية بذلك الصدد واتانا جواب نابنشو بالموافقة. وانتهت هذه الأزمة بسلام ولما قرأت سنة ١٩٤٦ كتاب فريا ستارك حول حوادث العراق ووجدتها تمجد ببطولة نابنشو وأنه طرد العراقيين عندما طلبوا منه تسليم اللاجئين ضحكت وقلت هكذا يكتب المستعمرون تاريخهم. فنابنشو تصرف تصرف الجبناء في تمثيله دور التابع للسفير البريطاني وفي قضية اللاجئين ولكنه «تعفرت» بعد فشل الحركة وأخذ يعربد ويهدد ويطلب فصل بعض الموظفين من الخارجية وبلغني أنه قال: انني لا أدخل وزارة الخارجية العراقية إذا بقى فيها عبد القادر صالح موظفاً.. فرضخ المتساهلون لتلك الارادة وفصلوا عبد القادر واعتقلوه إرضاءً لنابنشو ومن على شاكلته..

ومن التسهيلات التي قدمتها وزارة الخارجية أنني عينت موظفاً لمهمة قضاء حاجات السفارة والمفوضية الامريكية. فصار ذلك الموظف يذهب صباح كل يوم ويأخذ قائمة بما يحتاج إليه اللاجئون من أكل وملابس وغيرهما ويشتري لهم كل ما يريدون. وصرنا أيضاً نرسل لهم برقياتهم وكتبهم بعد أن يراقبها مدير التشريفات وكنا دائماً على اتصال مع السفارة بالمذكرات والتلفون ذلك لأنني لم اكن اعتبر انفسنا بحالة حرب انما هنالك حالة غريبة بين جيشينا.. فالعسكريون كانوا يتقاتلون بينما المعاهدة كانت لم تزل نافذة والحلف لم يزل موجوداً والاتصال باقياً وإن كان محدوداً.

كلمت أكثر من مرّة الكابتن هولت الذي يتصل بالتلفون معنا طوال النهار وكان الوزير الأمريكي المحصور في مفوضيته يكتب لي مخاطباً اياي «عزيزي موسى» فالوضع كان عجيباً غريباً

من كل نواحيه. ولكن شاء الاستعمار في نهاية الأمر أن يسمي ذلك الحادث عصياناً... ويتهمنا بأننا نازيون.. فينزل فينا أصرم عقابه.

من أمور الدور الأخير قضية المعاهدة المقترحة بيننا وبين المانيا. أتى يوماً رشيد عالي بعد وصول الدكتور غروبا ببضعة أيام يحمل مسودة معاهدة كان ينوي عقدها مع الدكتور غروبا.. فاستغربت في بادىء الأمر بأن يخرج رئيس الوزراء من جيبه مسودة كهذه دون سابق بحث أو اشعار ولا سيما في أمر يعود تحضيره واعداده إلى وزير الخارجية ويسلمها لي باسماً مسروراً وقائلاً: هذه مسودة معاهدة يقترحها الدكتور غروبا بيننا وبين المانيا! قلت استغربت ذلك في بادىء الأمر فقط!.. إذ انني أصبحت معتاداً على الغرائب والعجائب. أخذت المسودة وصرت اتلوها وقد لفت نظري أن الخط لم يكن خط رشيد كما لاحظ ذلك أحد الوزراء إذ كانت الحروف كبيرة ومقوسة تذكر بخط «الملالي» في قديم الزمان وقد زاد في غرابتها انها مكتوبة بحبر أحمر وأن عباراتها أقرب إلى عبارات الأدعية والتعاويذ منها إلى عبارات المعاهدات الدولية ولكن أغرب ما فيها كان «السكوت التام» حول سوريا ولبنان.. فالمانيا بموجب تلك الوثيقة الحمراء كانت تعترف باستقلال العراق وفلسطين وشرق الاردن ولكنها لا تذكر شيئاً فيما يتعلق بالقطرين الشقيقين اللذين طالما دافع العراق عنهما وعن قضيتهما فيما مضى.

قرأت تلك المواد وصرت ابتسم ثم وضعت المسودة على الطاولة وقلت لرشيد: مبروك إن شاء الله ولكنني لا اشتغل بمثل هذا الشغل! فشعر بنبرة الاشمئزاز والتهكم في كلامي وقال: لماذا؟

قلت: لأنه في نظري لم يحن بعد وقت عقد المعاهدات ثم كيف وافق «سماحته» على ترك سورية ولبنان؟

قال رشيد: ان الالمان يقولون هذه معاهدة مؤقتة.. وانهم في الحال الحاضر لا يريدون ازعال حكومة فيشي الفرنسية.

قلت: وهل من أجل هذا خاصم العرب بريطانيا لمدّة ربع قرن وقامت الثورات وسفكت الدماء؟ وختمت كلامي قائلاً: أفضل قطع يدي على توقيعي على مثل هذه المعاهدة!..

وبعد ذلك بقي رشيد عالي مكسوفاً ولم يتكلم وبقيت المسودة على الطاولة إلى أن تركت بغداد.. والحق يقال أنه عندما سمع يونس بوجود مثل هذه المسودة اتاني وكان معارضاً لتلك المعاهدة وقال في حينه أننا لا نريد استبدال استعمار باستعمار آخر، كما أننا لا نريد استبدال كورنوالس بالدكتور غروبا. وكان ناقماً على المفتي ورشيد في ذلك الصدد..

لسماحة المفتي الدور الأول في «خرابيط» العراق وله فيها حصة الأسد وليست هذه المذكرات لبحث هذا الأمر ولكني اسجل نبذة صغيرة منفردة حوله واكتفي بها فقد جاء موسى العلمي يوماً لزيارتي في وزارة الخارجية ولقضاء مصلحة شخصية فوجدنا انفسنا في وسط حديث «الخرابيط».

فقال موسى العلمي أثناء ذلك الحديث ورجا مني أن انبّه رئيس الوزراء بما قال: «أن المفتي طموح وله مقاصد بعيدة وقد وصلت به الانانية أنه بقصد الانتقام الشخصي من الإنكليز مستعد لأن يضحي بالبلاد العربية كلها! نعم! إن بينه وبين الايطاليين اتفاقات لا يصدق بها الإنسان فانه مستعد ليسلم سورية ولبنان في سبيل التاج على فلسطين. أنا وجمال الحسيني تحادثنا معه

أكثر من مرّة ونصحناه وقلنا له ليس من المروءة أن يورط العراق بمشاكل بحجة خدمة فلسطين. فالعراق آوانا واحسن الينا فلنتجنب الاساءة إليه..».

قال موسى العلمي هذا وكثيراً غيره ونقلت لرشيد ذلك الكلام منبِّهاً ولم تكن هذه المرّة الأولى ولكن رشيد كان في تلك الآونة قد وصل إلى مرحلة الاستسلام المطلق.. وصرف الامر بقوله أن موسى العلمي وجمال الحسيني يكرهان المفتي ويحسدان مقامه فلا شك أن هنالك مبالغة فيما نقل العلمي وقال!

قلت فيما سبق أن رجال العراق وفي مقدمتهم نوري السعيد وطه الهاشمي ورشيد عالي قد خلقوا من المفتي شخصية قوية ولما كان الحاج امين شاطراً بارعاً فانه استفاد من الوضع وأخذ يطبق منهاجه. ولما حدثت حوادث العراق كان هو منبع الوحي ومصدر الأوامر ومركز النفوذ.. فمنه كانت تصدر البشائر عن قدوم مئات الطائرات ومن بركته تتوسع وتقوى الآمال ومن يراعه نتجت تلك المسودة الحمراء. ورشيد متمسك به كما يتمسك الاعمى بشباك «الامام الكاظم».

عندما كانت «الخرابيط» على قدم وساق، كنت اسعى لاتخلص من ذلك الوضع باسرع وقت ممكن. فسفرت وداد والولدين في ١٢ ايار/ مايو إلى بيروت بالقطار وكانت سفرة مزعجة بالنظر إلى الازدحام في القطار وشدة الحر ولكن بقاءهم في بغداد كان غير صحيح لا سيما إذا تركت بغداد وازعجت بذلك المتحمسين. بعد ذلك رتبت قضية الجواز وتجديده ولكن عندما راجعت مدير الشرطة حسام الدين اخبرني بأن كل شيء جاهز ولكنه لا يستطيع تسليم الجواز اليَّ وذلك لأن رئيس الوزراء أمره بعدم التسليم. نعم هكذا كان الوضع.

وزير الخارجية يُحجز جوازه عند مدير الشرطة!

تألمت كثيراً من ذلك ولكنني كظمت غيظي أمام حسام الدين وقابلت ذلك الأمر بالمزاح ولكن عندما قابلت رشيد في الخارجية لمته وعاتبته وقلت: يا مولانا! إذا كان اعتمادك علينا نزل إلى هذه الدرجة فما لك لا تتركنا نذهب! فأخذ يضحك ويعتذر بأن هذه تعليمات عامة لدى مدير الشرطة فطلبت إليه أن يتصل تلفونياً بحسام الدين ويأمره بتسليم الجواز ففعل ذلك وفي اليوم التالي أخذت الجواز ووضعته في جيبي استعداداً للسفر بأول فرصة.

بعد أن استلم ناجي شوكت برقية رئيس الوزراء الاخيرة توجه إلى بغداد وكنت الوحيد في استقباله بالمحطة فنزل من القطار مضطرباً متعباً وسألني عن الوضع فشرحت له المسألة كما اراها وقلت له ان رئيس الوزراء سيطمئنك ويصبغ تلك الحالة باجمل الالوان ولكن الحقيقة هي خلاف ذلك. وقلت له كيف هبط مسعانا بشأن الوساطة التركية دون ذكر التفاصيل فأسف ناجي شوكت لذلك وعلمت في تلك اللحظة أنه كان نادماً على ما وقع. واخبرني ناجي شوكت بأن الاتراك كانوا غير مرتاحين من تلك الحركة وأن الالمان وفون بابن نفسه كانوا غير منتظرين لمثل تلك المفاجأة وآسفين لوقوع حركة مثل هذه دون روية ودون درس الوضع من كل نواحيه..

قبل عودة ناجي شوكت من أنقرة بيوم أو يومين عاد ناجي السويدي من الرياض وعلى ما فهمته منه ان ابن السعود لم يكن راضياً بتلك الحركة وبتطوراتها مع أنه كان يظهر مشاعر الأخوة والولاء للشعب العراقي، ومن البديهي أن كل رجل عاقل كان يدرك خطأ تلك الحركة وعدم

لزومها وإن كان يعطف على العراق وحقوقه ويمجد ببسالة الشعب ورجولته ويلوم القائمين باستغلال تلك البسالة والرجولة بذلك الشكل الناقص وذلك العجز الظاهر.

ان برقيات ورسائل الولاء والتأييد كانت تأتي من جميع انحاء العراق ومن البلاد العربية كلها حتى أننا تسلمنا برقية من القائم باعمال المفوضية العراقية في القاهرة تحسين العسكري يذكر فيما ما قاله له الملك فاروق أثناء مقابلة جرت معه وقد أظهر خلالها اصدق التمنيات واطيبها. فالشعوران الداخلي والخارجي كانا ولا شك إلى جانب العراق لأنه شعب صغير مضطهد قام بكل جرأة وشجاعة في وجه مضطهديه الاقوياء للدفاع عن كرامته وحقوقه، وحركة مثل هذه بالطبع تستميل قلوب الشعوب المضطهدَة كلها وتثير عطف خصوم المضطهد القوي ولكن مع هذا كله لا يجوز لقادة الشعب وزعمائه أن يزجوه بمأزق ويدهوروه إلى الهاوية تطميناً للشهوات وبدافع الغرور والكبرياء.. ضاربين الحيطة واليقظة والتدابير الضرورية كلها، بعرض الحائط. فلو كانت الحركة ثورة شعبية لما اعترض عليها أحد لأن الثورات من اختصاص الشعوب المغلوبة على امرها ولا يفرض عليها ما يفرض على حركة دولية من قيود وشروط ولكن إذا أتى عدد من القواد والرجال ورموا بانفسهم إلى هاوية سحيقة فسقطوا على رؤوسهم لسواد عيون الدعايات فهذا أمر يحسب له حساب ويكتب فيه كتاب..

في تلك الايام الحرجة اخذنا نسمع بانواع الشائعات حول الوضع العسكري.. بالنظر إلى البلاغات التي كانت تصدرها القيادة حول الجبهة الغربية والجبهة الجنوبية فقد كانت الحالة على احسن ما يرام وكان صلاح الدين يتفاخر بأنه بهذه الوضعية سيقاوم الإنكليز على خط الفرات ستة أشهر على أقل تقدير!

أتاني يوماً إلى البيت أمين العمري وسليمان فتاح وسألاني عن الوضع فقلت لهما أن صلاح الدين يدّعي بامكان المقاومة لستة أشهر. فضحك كل من الزائرين وقال احدهما ما اسعدنا لو استطاع صلاح ان يقاوم ستة ايام! وكان الكلام هذا من رجلين عرفا بمقدرتهما العسكرية له مغزاه ومع الأسف فقد اثبتت الأيام صحته وليس العجيب أن يتفوه الصباغ بمثل هذه السخافات ولكن العجب ان يصدق رشيد عالي مثل ذلك الهراء!

في ١٩ ايار/ مايو كانت معاملة سفري كاملة وتم اصدار الأمر الوزاري بانتدابي وزيراً مفوضاً إلى موسكو وبرلين وكذلك كان يونس السبعاوي جاهزاً فاتفقنا بأن نسافر صباح الغد عند الفجر بسيارتي عن طريق ايران. وفي صباح ٢٠ نيسان/ ابريل اتصلت بيونس بالتلفون وسألته إذا كان جاهزاً حتى أمر عليه وآخذه معي فأجابني هازلاً: يظهر انك بعدك نائم وما سمعت بالعزاء الجديد. قلت: وماذا حدث: قال: لقد سقطت الفلوجة مساء الأمس والحالة اصبحت حرجة وأن رئيس الوزراء كلفه بأن يقوم بترتيب الدفاع عن العاصمة ويقود مجموعات الشباب.. و.. و...

أتاني محمد علي محمود بعد ذلك ولم يكن له علم بسقوط الفلوجة. فلما سمع ذلك زادت آلامه ومخاوفه فذهبنا معاً إلى وزارة الاقتصاد حيث وجدنا يونس فرحاً مستأنساً إذ إن سقوط الفلوجة وانكسار الجيش على خط الفرات جعل رشيد عالي يستنجد به للدفاع عن العاصمة ومساعدة الجيش بالمتطوعين وكتائب الشبان التي كانت تحت إمرته.

أتصلنا بعده بناجي السويـدي ثم بعلي محمـود فوجـدناهمـا لا علم لهما بمـا حدث وعليـه اجتمعنا وذهبنا إلى دار الرئيس في الصليخ فلقيناه مخبوصاً حسب عادتـه. وسمعنا ونحن هنـاك أن الإنكليز وصلوا إلى «أبو غريب» وشائعة أخرى بأن الجيش استعاد الفلوجة. وهكذا كنـا نحن الوزراء لا نعرف حقيقة الوضع ولم نكن وحدنا نحن الجاهلين إذ أتى الدكتور غروبا وأخذ يسـأل قائد القوة الجوية محمود سليمان بناءً على طلب القائد الألماني في الموصل فيما إذا كانت الفلوجة بأيدينا أم بأيدي الإنكليز حتى يرسل طـائراتـه للقصف فأجـابه محمـود سلمان بـأنه لا يعـرف بالضبط. هكذا كانت الوضعية المؤلمة.

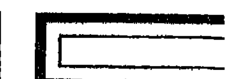
بعد أن فرغ رئيس الـوزراء من أشغالـه المستعجلة أتـانا وجلس معنـا فأخـذ كبيرنـا ناجي السويدي يتكلم معاتباً بأننا صرنا نسمع هذه الأخبار الخطرة من الأفواه وأنه تقع حـوادث مهمة ولا علم لنا بها. ثم سأله عن منهاجه وماذا يجب عمله إذا تقدم الإنكليز وسقطت بغـداد وقال لـه أن عظام القواد يحسبون لكل أمر حسابه. فما هي الخطة وإلى أين يكون الانسحـاب وأين تكون الحكومة وما هي التدابير التي اتخذت؟

كان رشيد يسمع باسماً. إذ لم يبق لديه غير الابتسام ولم يكن هنالـك لا خطة ولا منهـج ولا رأس ولا كعب.. وبعد أن انتهى السويـدي قال لنـا رئيسنا: «لا يـوجد مـا يستوجب القلق. الآن أخبرني حسام الدين بأن ٢٠٠ مجاهد من عشائر زوبع صاروا يهـوسون وتـوجهوا إلى الفلـوجة وبحول الله سيطردون الإنكليز منها».

صرنا ننظر إلى بعضنا ونتساءل في قلوبنا: هل وصلت السخافة إلى هذه الـدرجة عنـد رئيس الوزراء. فانه والحق يقال سبق صلاح الدين!

تركنا رشيد عالي وكل منا حائر في أمره.. ثم اجتمعنا ظهـراً في بيتي وكنا: نـاجي السويـدي وناجي شوكت ومحمد علي محمـود وأنا.. ولمـا سألـوني رأيي قلت أنني عجزت من هـذه الفوضى وهذه الأكاذيب وعليه فانني مسافراليوم، فقال السويدي وأنا معك. وتأخر محمـد علي لأن جـوازه لم يكن جاهزاً وقال ناجي شوكت أنه سيحضر في المـوعد لـلاجتماع عصر ذلـك اليوم ويقـرر فيما بعد...

وفي الساعة الثانية بعد الظهر ودعت أخي إبراهيم وسافرت بسيارتي وكان ناجي السـويدي معي وبسيارته كانت عائلته وأولاده وتوجهنا نحو خانقين وهكذا بالنسبـة لنا انتهى الـدور الأخير من تلك الدراما المؤلمة.



إيران

بعد أن تركنا بغداد بما يقارب الثلاث ساعات وصلنا إلى خانقين.. ناجي السويدي وأنا بقينا «نتـوارد» طول الطـريق وكل منـا يشعر بـألم غريب، ألم يتخللـه الفشـل وخيبـة الآمـل وخجـل الهزيمة.. هذا لأننا اشتركنا في الحكم مع رشيد لا رغبةً في الحكم إنما قبلنـا تحمل المسؤوليـة في أحرج الأوقات في سبيل خدمة البلاد ودفـع شرور الفوضى وانقـاذ الحال من دكتـاتوريـة الجيش وتأمين الاستقرار عن طريق تطبيق المعاهدة مع الدفاع عن حقوق البلاد وكرامتهـا وابعادهـا عن الحرب ومصائبها. أتينا بتلـك النية الحسنـة ملبيين رجـاء رشيد واستنجـاده بنا في وقت صعب. ولكن فشلنا لأن الجيش ورط رشيد في مـأزق وجرنـا رشيد بـدوره إلى ذلك المـأزق فأطـاعهم ولم يسمع نصحنا وتبنى «خرابيطهم» وفضلها على ارشادنـا فلم يبق لدينـا إلاّ أن نتركـه هو وقـواده وصاحبه المرشد الأعظم والمفتي الأكبر!

كنـا نخشى من أن تمنعنـا الشرطـة أو نقـاط الجيش من عبـور الحـدود وان كنـا مجهـزين بجوازات وتوصيات من المفوضية الإيرانيـة. ولكن كنا مصممـين على اجتيـاز الحدود مهمـا كلف الأمر. في خانقين ملأنا السيارات بالبنزين وتوجهنا نحو الحدود فوقفنا أمـام نقطة شرطـة الحدود فخف الموظفون إلى استقبالنا وقام مأمور الجوازات بإجراء المعـاملة الـلازمة وبقينـا جالسـين في غرفته كي لا يتصل بالتلفون أو يطلب تعليمات، وبعد أن انتهت عملية التسجيل ركبنا السيـارات وتركنا الشرطيين اللذين كانا برفقتنا من بغداد على الحدود ودخلنا إيران... وبعد أن ابتعدنا قليلاً عن الحـدود العراقيـة تنفس ناجي السـويدي الصعـداء وقال: الحمـد لله الـذي نجانـا من شر الظالمين. وفي الحقيقة شعرنا تلك الدقيقة بأننا رمينـا حملاً ثقيـلاً من فوق اكتـافنا وتخلصنـا من مسؤولية الأعمال التي قام بها الفوضويون المتحمسون... ومع ذلك كنـا نشعر بـأسف عميق بأن تنتهي مهمتنا لخدمة البلاد بذلك الشكل. أردنا أن ندفع الشر ونقرب بين الـوطنيين الـذين يمثلهم رشيد وبين حلفائنا فوجدنا أنفسنا عدوين للإنكليز وخصمين لمن استغلوا الوطنية لمآربهم وتطمين رغباتهم الصبيانية!

وصلنا قصر شرين ليلاً فذهبنا للمبيت إلى إحدى «المسافر خانات». القذارة كانت في كل مكان فذقنا شيئاً من طعم ما يذوقه المهاجرون.. وفي اليوم التالي بعد الافطار ركبنـا سياراتنـا وتوجهنـا إلى كرمنشاه حيث وصلنا بعد الظهر. عندمـا وقفت سياراتنـا أمام الأوتيـل الكبير الـوحيد رأينـا سيارة تنتظرنا وفيها كل من القنصل العراقي عبدالله بكر ونائبه عبد الكريم الكيـلاني! فتسالمنـا وتبادلنا العبارات الودية وبعد ذلك طلب منا عبدالله بـأن ننزل في القنصليـة فشكرنـاه واعتذرنـا ولكنه أصر قائلاً أنه لا يجوز أن يحضر وزيران مـوفدان بمهمـة ولا ينزلان في دار القنصليـة. ولما سألناه ماذا يقصد من ذلك أخبرنا بأنه استلم برقية من الخارجيـة ذلك الصبـاح تفيد بـأن وزير الخارجية ووزير المالية تركـا بغداد بمهمـة خاصـة لدى الحكـومة الإيـرانية وتطلب البـرقية من القنصل بأن يخبر السلطات الإيرانية المحلية بذلك وعليه فانه أخبر حاكم كرمنشاه بقدومنا فيجب الآن ان يستضيفنا... فتبادلنا النظرات أنا وناجي باشا وابتسمنا وفهم عبدالله بكر ما قصدنا ثم

ركبنا السيارات وذهبنا إلى القنصلية وقد قام عبدالله بكل ما يلزم لتأمين استراحتنا وأكرمنا وكان هو وزوجته خير المضيفين.

كان في نيتنا أن نرسل كتاب استقالتنا ، ناجي باشا وأنا، من كرمنشاه نعرب فيه عن استيائنا من الأعمال التي قام بها قواد الجيش ونحتج على تصرفات رئيس الوزراء تجاهنا وتجاه الوزارات التي كنا بنظر القانون مسؤولين عنها. ولكن ارسال رشيد برقية إلى قنصلية كرمنشاه والمفوضية في طهران عدل رأينا في الموضوع وجعلنا نتريث في أمر تقديم الاستقالة. وكان مقصد رشيد عالي من ذلك أن لا ينفضح أمر انشقاق بعض وزرائه عليه فابتدع قضية المهمة الخاصة أرضاءً للرأي العام العراقي إذ إن خروج ثلاثة أو أربعة من وزرائه عليه واستقالتهم احتجاجاً على أعماله يكونا ضربة قوية على ما تبقى من نفوذه فتوسل بترقيع ذلك الخرق باختراع المهمة الموهومة.

قررنا ناجي السويدي وأنا بأن نسكت إذا كان في سكوتنا منفعة للقضية ومساعدة لرشيد عالي. وفي اليوم الثاني وصل إلى كرمنشاه محمد علي محمود وعائلته وشاكر الوادي ونزلوا أيضاً في القنصلية، فلما رأينا هذا الازدحام قررنا نحن السفر وتركنا كرمنشاه قبل الظهر متوجهين إلى همدان حيث وصلنا مساء نفس اليوم ونزلنا في أحد الفنادق وفي صباح الغد سافرنا نحو طهران فوصلنا إليها مساءً.

كان في طهران إذا ذاك عدد غير قليل من العراقيين وكان طالب مشتاق قائماً بأعمال المفوضية بالوكالة بناءً على استدعاء شاكر الوادي إلى بغداد على اثر كتاب أرسله الوزير المفوض في حينه إلى رشيد عالي بواسطة المفوضية اليابانية يتهم به الوزير شاكر الوادي بتقاعسه عن واجبه وميله إلى الإنكليز والاتصال بهم، وقد وصل الوادي إلى بغداد قبل مغادرتي اياها بأيام قلائل وقابل رشيد ويظهر أن مداخلة كامل شبيب وإسماعيل حقي الآغا أثرت على رشيد فأعاده إلى مقر وظيفته دون أن يخبر طالب. وهكذا وجدنا في طهران «قائمين» كل منهما يدعي الاحقية في رئاسة المفوضية وكان طالب «لبكات» ومتحمساً حسب الطريقة الألمانية وكان يتظاهر بعدائه للإنكليز وتأييده للحركة بينما شاكر الوادي كان صابراً ساكتاً حسب العادات البريطانية ويشتغل بالخفاء مع الإنكليز ويتظاهر بالحياد والتمسك بواجب الوظيفة.

عاد طالب إلى بغداد بعد وصولنا بيومين لتدبير أموره الرسمية والخصوصية. وبقي شاكر قائماً بالأعمال. كنا نجتمع في المفوضية وخارجها بالعراقيين الموجودين في طهران وعلى الأخص منهم توفيق السويدي وصبيح نجيب وبهجت زينل وغيرهم.

كنا نعتقد أن هروبنا من رشيد سيخلصنا من «خرابيطه» ولكن مع الأسف أن شر تلك الخرابيط لازمنا حتى في إيران وفي منفانا من بعده. فقد استلمت المفوضية في طهران تعليمات رشيد البرقية بشأن «المهمة» الموهومة قبل وصولنا إلى طهران وعليه فقد قامت بإخبار الخارجية الإيرانية بذلك وشاع في الأوساط الدبلوماسية أننا أتينا للتداول مع الحكومة الإيرانية حول بعض الأمور الهامة وقد وقع كل منا في حيرة من أمره فصرنا نماطل من يحدثنا بهذا الموضوع.

أخبرنا شاكر الوادي يوماً بأن الوزير الألماني والوزير الإيطالي يرغبان في زيارتنا. فدرسنا الوضع، الباشا وأنا، وقررنا أن نقبل الزيارة في المفوضية. فأتى أولاً الوزير الألماني ومن بعده

الإيطالي، وكانت الزيارة مجاملة ولم نتطرق إلى المواضيع الحرجة وقد اعدنا لهما الزيارة في اليوم التالي وكنا نحاول حصر الحديث بمناخ إيران وحر العراق وغيرهما من التوافه! ودعانا كل من الوزيرين إلى الغداء دون تحديد موعد. ولم تنته المشكلة هنا إذ إن الخارجية الإيرانية كانت تتوقع منا الاتصال بها بعد أن أخبرتها المفوضية رسمياً بحضورنا إلى طهران بمهمة خاصة للتفاوض مع الحكومة الإيرانية. ومرت أيام ونحن في طهران دون أن نتطرق إلى مثل ذلك الأمر. وكان شاكر الوادي عالماً بالوضع الحقيقي وبأسباب المماطلة. وأخبرنا يوماً بأنه واجه مدير الخارجية بشأن بعض الأشغال وأن المشار إليه فتح معه حديث «المهمة» وقال أنه يود أن يقابلنا. وكان المنطق يتطلب منا أن نتصارح ونعلن بأنه ليس هنالك مهمة ولا بطيخ وأننا تركنا رشيد محتجين هاربين من أعماله وقوادِه. ولكن المروءة غلبت على المنطق ولم نرد أن نضع رشيد في ذلك الموقف إذ انه بالرغم من اساءاته لنا وكذبه المستمر على الذقون كان يمثل الجبهة الوطنية المقاومة للإنكليز فرأينا أنه ليس من المروءة أن نخذله ونكذبه وهو في تلك الحالة المؤلمة، وعليه توكلنا على الله وذهبنا مع شاكر الوادي إلى الخارجية وقابلنا هناك المدير العام وتكلم الباشا بالفارسية والفرنسية وبحث حول التومان والدينار والتبادل التجاري والبنزين وبعد عشرين دقيقة وجدنا أن الحديث قد انتهى وأن «المهمة» انجزت فأستأذنا وانصرفنا. ولم يفهم منا المدير العام شيئاً ولم نفهم منه شيئاً وكانت المقابلة «تسوية» قام بها الباشا خير قيام..

حدد لنا الوزير المفوض الإيطالي موعداً للغداء في بيته الصيفي في شمران. قررنا أن نقبل الدعوة من باب المجاملات ولكن في اليوم المقرر عدل الباشا فاضطررت أن أذهب مع شاكر فاستقبلنا الوزير وابنته في بيتهما الصيفي الجميل وسط حديقة واسعة في شمران. كان أكثر المدعوين من الإيطاليين ولم يحضر من الألمان إلّا المستشار وزوجته. ولعل تغيب الوزير الألماني وإهماله الدعوة التي دعانا إليها كانت تدل على أن الرجل فهم فيما بعد حقيقة وضعنا ولربما اخبره الدكتور غروبا من بغداد بواقع الحال و«المهمة» الموهومة. بعد أن خرجنا من لدن الوزير الإيطالي أخبرني شاكر الوادي بأنه سمع من المضيفين بأن رشيد عالي ترك بغداد وأن يونس السبعاوي عين حاكماً عسكرياً للدفاع عن العاصمة..

لم يتركنا رشيد عالي وحالنا بل استمر في ازعاجنا وملاحقتنا حتى آخر يوم من حكمه، بعد أن سافر طالب مشتاق عائداً إلى بغداد بيومين أو ثلاثة وصلت برقية من الخارجية إلى المفوضية تقول: لا تدفعوا أي مبلغ كان إلى الوزيرين الموجودين في طرفكم.. أننا لم نفكر قط بأخذ أي مبلغ من المفوضية ولذا رأينا هذه البرقية لا محل لها من الاعراب فحملناها على سلسلة «الخرابيط» وتركنا الأمر دون أي اهتمام، ولكن في اليوم التالي وصلت برقية أخرى من رئيس الوزراء موجهة لنا، أي لناجي السويدي وزير المالية وموسى الشابندر وزير الخارجية، يقول فيها رئيسنا: «أن سفركما أوجد استياءً كبيراً في البلد. أرجعا حالاً. الحالة في تحسن».

هذا اعتداء واستفزاز لا مبرر لهما... اننا صبرنا على تصرفات رشيد في بغداد وسكتنا على البرقية الأولى حول المبالغ، عملنا كل ذلك حرمة للشعور الوطني ولم نخذله ونكذّبه وبعد ذلك كله يأتي الآن رشيد ويلومنا على تركنا أياه ويأمرنا بالعودة حالاً ويكذب علينا من جديد بأن الحالة في تحسن!

الحق هذا كثير وفوق طاقة التحمل وكان لا بد لنا أن نتصارح بعد هذا الاستفزاز، فارسل ناجي السويدي برقيةً فحواها أنه مستعد للعودة ولكن لا بصفة وزير انما بصفة عراقي مخلص لبلاده وأنه يحتج على الأعمال التي قام بها المتحمسون ولا يتحمل مسؤولية أي عمل لم يكن له رأي فيه. وكتبت أنا كتاباً إلى رشيد شرحت له بأنه لا يمكن بعد الآن أن أعمل معه ولا أقبل مسؤولية تلك الأعمال التي قام بها من قام دون علمي أو اخباري. والغريب هنا أن رئيس الوزراء أرسل لنا تلك البرقية قبل مغادرته بغداد بيوم واحد. فكيف إذن يطلب منا العودة ويخبرنا بأن الحال في تحسن! ولكن الأنانية والعناد جعلا من رشيد آلة تعمل بلا ادراك ولا منطق. ثم ليت شعري لماذا خصنا أنا والسويدي بذلك اللطف! بعد أن تركه محمد علي وناجي شوكت بعدنا بيوم واحد!

في تلك الأيام وصل من بغداد عدد من العراقيين بينهم علي ممتاز ورؤوف شلاش ورايح العطية وعبد العزيز المظفر وغيرهم وكان الكل متألمين من أعمال الجيش والفوضى، وعاد طالب مشتاق من بغداد يحمل أمراً وزارياً بتعيينه قائماً بالأعمال في طهران وأتى أمر يقضي بتحويل شاكر الوادي.. وحصل بينهما جدال وشجار وكانت كل قضايانا بلا نظام ولا أساس. وانتقلت أنا من طهران إلى شمران حيث السكون والهدوء والهواء النقي.

اركان الحركة في إيران

اخبرني يوماً طالب مشتاق بأن رشيد عالي والقواد والمفتي التجأوا إلى إيـران وأنهم يصلون إلى طهران في الغد. هذه كانت نهاية الحركة التي قلت عنها دوماً بـأن لا طعم فيها ولا لـزوم لها! ووصل الجماعة إلى طهران ونزلوا في الفندق الذي نـزلت فيه قبـل انتقالي إلى شمـران وذهبت إلى هناك لأسلم على رشيد فوجـدته مـع المفتي والشريف شرف ومرافقـه ورئيس اركان الجيش وعـلي محمود ورؤوف البحراني. وكان القواد نازلين في فندق آخر وبلغني أن الصلـة بينهم وبين رشيـد والمفتي كانت منقطعة لأنهم جبنوا وتركوا جيوشهم وهربوا وسببوا ما سببوا. وهكذا كان بعضهم يرمي بعضاً وبعد ذلك بيومين وصـل البطل الآخـر يونس ومعـه صدّيق شنشـل وبعض الشباب وكان هؤلاء ناقمين على القواد وعلى رشيد والمفتي وعلينا وعلى الدنيا وما فيها!

لما رأيت أن الجماعة أصبحت برمتها في طهران وأخـذت الاجتماعـات والاتصالات تبـدأ من جديد قررت الابتعاد عن رشيد وجماعته، فأخذت سمة للذهاب الى تـركيا. وصـادف أن الدكتـور صائب شوكت أتى لطهران في تلك الأيام بطريقه إلى تركيا وهو بدوره شجعني على السفـر، إذ إن وضعنا في إيران لم يكن مريحاً من عدة وجوه. وعندما كنت على وشك السفـر، سمعت بأن رشيـد عالي حصل على سمة للسفر إلى استانبول وأنه سيسافر بعد أيام، ولما قابلته أكد لي ذلـك وقال لي يجب أن نسافر لنشتغل هناك إذ في طهران لا يوجد مجال للشغل فاستعذت باللـه وقررت تـأجيل السفـر لأنني كنت أريد أن أكـون في مكان بعيـد عن رشيـد إذ انني مللت من أشغـالـه وآرائـه ومناهجه!

سافر رشيد مصطحباً معه جزمي ونجدت الشواف تـاركاً وراءه الشريف شرف والمفتي وعـلي محمود بعد أن وعدهم بأنه سيسهل سفرهم بمراجعة الحكومـة التركيـة لأن السفارة في طهـران امتنعت أن تمنـحهم إجازةً للسفر، واقنضت أسابيع دون أن يسمـع أحد من رشيـد سوى جبـان عبدين. وقد اغاظ هذا الاهمال الجماعة وأخذ علي محمود ينتقد رشيد متهماً إياه بالانانية.

أما معنويات الجماعة، فبالـرغم مما حصـل في العراق من فشـل وانخذال فقـد كانت قـوية ومتينة وكان الجميع يعلقون الآمال على انتصار الألمان. أما أنا فقد كنت في السابق أوزع احتمال النصر على التساوي بين الحلفاء والمحور. ولكن عندما هاجمت المانيا روسيا تبدل الوضع في نظري وبالرغم من سرعة الانتصارات الأولية نقص نصيب الألمان من احتمال الظفر النهائي..

ذهبت يوماً مـع علي ممتـاز لزيـارة الجماعـة في بيت رشيد عـالي وكان «الـديوان» عـامراً في الحديقة ووجدنا رئيس اركان الجيش العراقي أمين زكي يشرح الوضع والانتصارات الألمانية على خارطة. وقـال رشيد بكـل تأكيـد أن الألمان سيصلـون إلى قفقـاسيا والـحدود الإيرانيـة في ١١ آب/أغسطس!

لماذا في ١١ آب/أغسطس؟ ما ندري!

قال ذلك القول مصحوباً بابتسامة مدلولها أني أعلم ما لا تعلمون وأن مثل هذه الأخبار تأتيه

من المنابع الأصلية فسرّ الجمع طبعاً بمثل ذلك الكلام ولم يعترض إلّا داود السعدي إذ قال لا أعتقد أنهم يصلون بتلك السرعة. فهجموا عليه ساخرين مؤنبين واسموه منذ ذلك اليوم «بوديين» تشبيهاً بالقائد الروسي المنهزم أمام جيوش هتلر.

تذكرت في تلك اللحظة أقوال رشيد عندما أخذ يطمئننا عندما قابلناه يوم الهرب: «مائتا خيال من زوبع أخذوا يهوسون وسيطردون الإنكليز من الفلوجة!..» وقد تكون تنبؤاته حول القفقاز مثل تنبؤاته عن الفلوجة! وكان يفتخر «بفون بوك» كما كان يفتخر بصلاح الدين!

ليت شعري لماذا وضعنا نحن أنفسنا بهذا الوضع فأصبحنا كالذي يصح فيه المثل البغدادي: «مصخم أبن عم صانعهم!» أما كان من الأجدر بنا، والأشرف لنا، أن نبقى متفرجين إلى أن ينتهي الأمر ويصفى الحساب بين الألمان وغير الألمان؟ ولكن الدس والخداع اتفقا مع الحماقة والحماس على تلك الطبخة.. وهكذا كان..

كانت أيام طهران لا بأس بها بالنسبة لنا نحن المعتدلين.. وكانت جماعة أصدقائنا كبيرة وكنا نقضي أكثر الأوقات مع شاكر الوادي وموظفي المفوضية وتوفيق السويدي وعلي ممتاز والجالية العراقية. كانت أيام كسل وانتظار تتخللها آمال وآلام. أخذت أدرس اللغة الروسية وأقضي أوقاتي بالمطالعة. وفي نهاية الصيف وبعد سفر رشيد إلى تركيا أتى عبد القادر الكيلاني وسكن معي في فندق شمران وكان هو أيضاً من المنتظرين الحائرين!

عين داود الحيدري وزيراً مفوضاً فوصل إلى طهران مع عائلته وكنا نزوره في المفوضية ونلتقي به عند السويدي وكثيراً ما لعبنا معه «بوكر» وقضينا معه سهرات. وكان يتظاهر بالود والصداقة لنا وقد لعب دوراً كله مكر وخداع كيف لا وهو رجل الوصي عبد الاله وخادم الإنكليز الأمين.. وكانت مهمته مراقبة العراقيين والسعي لتوقيفهم وتدبير الخطط مع السفارة البريطانية للايقاع بهم وقد قام بتلك المهمة بمهارة واخلاص. وكان الجميع يعرفون خصاله وكان قريبه عبد القادر الكيلاني أعرف الناس به إذ كان يصفه بأنه رجل بلا ذمة ولا أخلاق.

بين الروس والانكليز

كانت إيران مسرحاً للتنافس والتزاحم بين الإنكليز والألمان وكانت كفة الألمان هي الراجحة كما كانت الحالة في الشرق الأدنى كله وقد تحرج وضع إيران بعد نشوب الحرب بين ألمانيا وروسيا وازداد ضغط الإنكليز من الجنوب بنسبة ضغط الروس من الشمال ووجد الألمان ورعايا المحور الآخرون أنفسهم محاطين من كل جهة.. وتحت تأثير التدخل البريطاني أخذت الحكومة الإيرانية بعض التدابير تجاه العراقيين اللاجئين من جماعة رشيد والقواد والضباط واتباعهم. فأبعدت في باديء الأمر يونس السبعاوي وصلاح الدين الصباغ إلى زنجان، وفي انتخاب هذين الشخصين دلالة على أن السلطات الإيرانية كانت تعمل بإيعاز من الجهة البريطانية إذ بالنسبة إلى الإيرانيين لا فرق بين العراقيين اللاجئين. هذا وقد أخذت تراقب الضباط والشبان الآخرين ثم عند الاحتلال انتهت باعتقالهم في أحد الفنادق بعد أن حبست القواد مدة من الزمن. أما نحن فقد بقينا طوال تلك المدّة دون أن يعترضنا أحد وكانت التأمينات تأتينا من قبل الحكومة الإيرانية وكذلك من قبل داود الحيدري والفرق بيننا كان أن الحكومة أعتبرت أولئك الجماعة لاجئين لأنهم دخلوا إيران بلا جوازات مع رشيد عالي وبعده، بينما كنا نحن، ناجي السويدي ومحمد علي محمود ورؤوف البحراني وعبد القدر الكيلاني وأنا داخلين إيران بجوازات وسمات وتوصيات وعندنا وثائق للاقامة. بقينا أحراراً حتى بعد الاحتلال الروسي الإنكليزي وكنا على اتصال دائم مع المفوضية العراقية. فلما اقترب الروس والإنكليز من طهران تركت شمران مع عبد القادر وسكنت في بالاس أوتيل حيث كان أيضاً ناجي السويدي ورؤوف البحراني!

في أول أيلول/سبتمبر سمعنا بالراديو بأننا متهمون بموجب المادة ٨٠ من قانون العقوبات البغدادي وأننا يجب أن نحضر أمام المجلس العرفي العسكري. ولما كانت الإذاعة مشوشة ولم نفهم تماماً إذاعة الراديو راجعنا المفوضية العراقية وبواسطتها ابرقنا إلى بغداد مستفسرين عن التهمة.وبعد أيام قلائل أتى الجواب وبموجبه فهمنا أن رشيد عالي ويونس السبعاوي وعلي محمود وصلاح الدين وأمين زكي ومحمود سلمان وكامل شبيب وفهمي سعيد كانوا متهمين بالفقرة الأولى من المادة ٨٠ بينما ناجي شوكت ومحمد علي محمود وناجي السويدي ورؤوف البحراني ومحمد حسن سلمان وأنا كنا متهمين بالفقرة الثانية منها وعبد القادر الكيلاني بالمادة ٥٥.

كانت تطمينات داود الحيدري لنا كل تلك المدّة للتخدير فقط كي لا يسافر أحد منا إلى تركيا، وكانت هذه خطة مُحكمة من قبل الإنكليز إذ جاء الاتهام بعد الإحتلال البريطاني السوفياتي وبعد أن سدّت الطرق وأصبحت إيران محاطة من كل جانب، وهكذا أصبحنا كلنا في شبكة لم يتخلص منها إلّا المفتي إذ إنه غاب عن الأبصار في ساعة محاولة القاء القبض عليه وأخذ الإيرانيون والإنكليز يفتشون عنه وشاع أنهم عثروا عليه وقال لنا مرة داود الحيدري أنه صرف مبالغ من جيبه في سبيل التفتيش عنه، وهكذا عرفنا أن الرجل المحترم سليل ذلك البيت المشهور بتقوى الله وطاعته كان في حقيقة الحال وكيلاً يخدم الإنكليز وخدامهم دون أن تردعه صداقة أو

أن يؤنبه ضمير أو وجدان... وحتى بعد تبليغنا بالاتهام كان يتظاهر بالصداقة نحونا ويجتمع بنا ويبدي لنا النصح والارشاد. وقررنا نحن الخمسة أن نسافر إلى بغداد وأبرقنا إلى الحكومة العراقية عن استعدادنا للدفاع عن أنفسنا وطلبنا من الحيدري أن يسهل أمر سفرنا إلى بغداد فاتصل بالسر «ريدر بولارد» الوزير البريطاني ووعدنا خيراً. في تلك الأيام سفرت الحكومة الإيرانية العراقيين الموقوفين كلهم إلى الاهواز ولم يبق عدانا إلّا علي محمود وأمين التميمي من الفلسطينيين. بقينا نحن في طهران بانتظار جواب بغداد بشأن سفرنا. وفي تلك الفترة قابلت وزير بلجيكا المفوض الموسيو «كراف» الذي كانت بيني وبينه معرفة سابقة من بغداد. قابلته مرة في بيته وأخرى بالمفوضية وذكرت له تفاصيل دخولي إلى الوزارة وما قمت به من أعمال ورجوته أن يحتفظ بتلك المعلومات لأنني لا أعرف ماذا سيحصل وأين سيكون مصيري فرأيت أن يطلع على حقائق الأمور رجل محايد. وأثناء ذلك الحديث أخبرني الموسيو كراف بأن الإنكليز غاضبون عليَّ وأنهم يعتقدونني ميالاً إلى النازيين وأنني دائماً أهاجم سياستهم وانتقدها. ثم قال أن الوزير البريطاني متأثر جداً مني ومن ناجي السويدي لأننا عند مقابلتنا مدير الخارجية العام طلبنا من الحكومة الإيرانية تزويد العراق ببنزين للطائرات. ويبدو من ذلك إلى أي درجة كان الإنكليز مطلعين وواقفين على حركاتنا وسكناتنا وكيف كانت شبكة التجسس متقنة عندهم بحيث أن كبار الموظفين من العراقيين والإيرانيين كانوا تحت تصرفهم وكذلك عدد كبير من الوزراء والأمراء والقواد! وكان بعض أولئك من أقرب المقربين إلى رشيد ومشتركين معه في حركته. فقلت «للموسيو كراف»: صحيح أنني أنتقدت سياسة بريطانيا أما أنني ميال للنازية فهذا حديث خرافة أما مسألة البنزين فان شاكر الوادي الذي كان برفقتنا هو المسؤول عنها إذ إنه استلم تعليمات من بغداد تطلب إليه مراجعة الحكومة الإيرانية. وقد شاءت «صداقة» شاكر الوادي أن يفتح الحديث أثناء مقابلتنا فاشترك ناجي باشا بالموضوع وأن شاكر الوادي هو الذي رجاني أن اخلصه من تلك المشكلة لأن رشيد طلب منه أن يأتي له بالبنزين خلال ثلاثة أيام فأبرقت إلى رشيد بأن الحكومة الإيرانية لا يمكنها أن تقوم بمثل ذلك العمل واقترحت عليه أن يراجع أخاه كامل في أنقرة ليراجع الروس في ذلك الأمر وهكذا انقذت شاكر الوادي! ولكن يظهر أن عمل الخير لا يأتي إلّا بالشر وكان أحسن لي أن أترك شاكر يدبر أمره مباشرة مع رشيد. فالدنيا كلها كذب ونفاق وأنها مسرح خصب لمن يتقن الكذب والمراوغة والدس والمكر وهنا سر نجاح تلك الفئة المعلومة في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل.

بقينا شهراً أو ما يزيد على الشهر في طهران ونحن ننتظر مصيرنا. وفي أواخر أيلول/ سبتمبر أخبرنا داود الحيدري بأن الوزير البريطاني أفاده بأن حكومة بغداد لا ترغب في عودتنا وأن تلك التعليمات آتية من القيادة البريطانية في القاهرة. ومرت بضعة أيام على ذلك ونحن مضطربون بالرغم من تطمينات داود الحيدري والخارجية الإيرانية إذ كلاهما لا يعتمد عليهما.

وذات يوم عند الصباح أتانا موظف من الشرطة الإيرانية السرّية وأخبرنا بأننا سنسافر ذلك المساء إلى الاهواز.. وأنه خصص لكل منا شرطي سري يصحبه أينما ذهب. فاجتمعنا وذهبنا إلى المفوضية وأخبرنا داود الحيدري فتظاهر بالتعجب والاستغراب وأكد بأن ليس له علم بذلك وأنه سيتصل بالوزير البريطاني ويخبرنا.. ومن المفوضية اتصلت بالوزير البلجيكي الموسيو «كراف»

ورجوته بأن يتوسط لدى المفوضية البريطانية لتأجيل سفرنا للاهواز لبضعة أيام لقضاء حاجاتنا فوعدني ووافق الوزير البريطاني على ذلك. أما داود الحيدري فإنه على قوله اتصل بالوزير المفوض الإنكليزي وأن هذا الأخير أخبره بأن ذلك أمر يعود للقيادة العسكرية وأن ذهابنا للاهواز خير لنا من بقائنا في طهران وأنهم سيجهزون لنا هناك بيتاً كبيراً تحت تصرفنا ويؤمنون راحتنا. وقد اتصل كل من ناجي السويدي ومحمد علي ببغداد برقياً فأتى اشعار برقي من توفيق السويدي لأخيه الأكبر يقترح عليه الذهاب إلى الاهواز وأن بقاءنا هناك سيكون موقتاً. واستلم محمد علي برقيةً مماثلة من زوجته مما يدل على أن «الشغلة» مطبوخة من بغداد وأن الحكومة الإيرانية وداود الحيدري كانا منفذين للأوامر الصادرة لهما من السفارة البريطانية في بغداد عن طريق الوزير البريطاني في طهران...

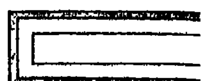
قضينا لوازمنا وزرنا اصدقاءنا مودعين وقد أظهر كل من السفير المصري يوسف ذو الفقار باشا ومستشاره محمد سعيد بك لطفاً وصداقة كبيرين نحو ناجي السويدي ونحوي. وكانا مدّة بقائنا من أحب أصدقائنا إلينا ودعانا ذو الفقار باشا عدة مرات إلى الغداء في السفارة كما أن محمد سعيد وكنا نعرفه منذ أن كان قنصلاً في بغداد، دعانا عدة مرات إلى العشاء ولعب «البريدج» وكان مستعداً لأي خدمة نطلبها منه وفوق ذلك فانه كان الشخص الوحيد الذي أتى إلى المحطة. لوداعنا يوم السفر إلى الاهواز ولم يحضر سواه من أصدقائنا العديدين لا من العراقيين ولا من سواهم. وكانت دموعه تتساقط من عينيه عندما تحرك القطار بنا إلى حيث لا ندري. وفي مثل تلك الساعات يتبين الصديق من غيره. أما داود الحيدري والموظفون الآخرون وأصدقاؤنا الكثيرون الذين قضينا معهم أياماً وليالي إلى مائدة «البوكر» وفي السهرات فلم يظهر منهم أحد واختفى كل منهم في جحره شأن الجرذان الخائفن...

تركنا طهران مساء اليوم السابع من أكتوبر/تشرين أول ١٩٤١ وكنا في القطار: ناجي السويدي، محمد علي محمود، رؤوف البحراني، عبد القادر الكيلاني، أمين التميمي وأنا.... وأتى معي السائق عمر ليخدمني وقد تطوع بأن يصحبني أينما ذهبت..

بعد سفرة مزعجة دامت ٢٤ ساعة وصلنا مساء ٨ تشرين الأول/أوكتوبر إلى الاهواز فوجدنا في المحطة كابتن انكليزياً ومعه بعض الجنود من الهنود ينتظرنا. فتقدم منا وسأل عن محمد علي محمود وأمين التميمي واستلمهما فلما سألته إلى أين يذهب بهما قال: إلى السجن!. قلت ونحن.. نحن كلنا أمرنا أمر واحد. قال: ليس لديه تعليمات أكثر من ذلك.. ثم انصرف مع أمين التميمي والمسكين محمد علي. وبقينا نحن في المحطة لا ندري ما نعمل.

لماذا يأخذون محمد علي ويتركوننا بعد أن سفرّونا إلى الاهواز. هنالك لا شك غلط.. ربما توهموا بعلي محمود الذي كان قد سفر قبلنا من طهران. ربما عندما يظهر ذلك الخطأ سيطلقون سراح محمد علي ويأتي معنا ليسكن في البيت الواسع الذي وعدنا به داود الحيدري... أو ربما يظهر الخطأ بشكل آخر يأخذوننا نحن أيضاً إلى السجن ويبدو هذا أقرب إلى الاحتمال. على كل جمعنا حوائجنا وركبنا بعض السيارات «المطرقعة» وتوجهنا إلى أحسن فندق. ويا له من فندق! انه يشبه المسافرخانات القذرة في الميدان.. ومع ذلك نمنا تلك الليلة المنحوسة ووجدنا عند الصباح قملاً وبراغيث وأنواع المصائب في ثيابنا. قررنا أن نسافر إلى العراق بأسرع ما يمكن

لأنه إذا كان لا بد من سجن فليكن ذلك في العراق.. أرسلنا عمر ليدبر لنا مسألة إيجار سيارة أو سيارتين وبقينا في الفندق ننتظره. ونحن في ذلك الانتظار إذ برجل عجوز يأتي إلينا ويقول أنه «قواس» في القنصلية الإنكليزية وأن القنصل أرسله إلينا ويدعونا لمقابلته. فركبنا عربة وجلس «القواس» جنب السائق وذهبنا لمقابلة القنصل. بقينا في غرفة السكرتير البريطاني ننتظر بعد أن استلم منا جوازاتنا، وبعد ما يقارب الساعة أتى الكابتن الذي رأيناه في المحطة مساء الأمس ففهمنا الموضوع.. ثم أتى القنصل إلى حيث كنا جالسين ونظر إلينا وهو مصفر الوجه من الغضب. وعندما شاهد عبد القادر الكيلاني قال له: «انت أيضاً معهم!». ويظهر «أنه كانت بينهما معرفة من مصر عندما كان الكيلاني في المفوضية هناك.. ثم أخبرنا القنصل بأن الكابتن سيذهب بنا إلى السجن مع رفقائنا وعبثاً حاولنا أن نفهم القنصل بأن هذا العمل يخالف القوانين الدولية ولا يأتلف مع الوعود التي وعدنا بها الوزير البريطاني في طهران حول السكن في دار وغير ذلك. فذهبنا مع الكابتن أولاً إلى الفندق لأخذ حوائجنا ثم ركبنا سيارة للجيش البريطاني ونقلونا إلى السجن حيث استلمنا موظف إيراني وحيث وجدنا الجماعة كلهم بانتظارنا وقد سروّا بلقائنا لأن المصيبة إذا عمت هانت.. وشعرنا نحن أيضاً بنوع غريب من الراحة لأننا عرفنا مصيرنا وانتهت دورة التسويف والمماطلة والمواعيد الكاذبة التي بقينا مماطين بها مدة شهر. فالسجن يكون أحياناً أحب من غموض الوضع وجهل المقاصد!



الاهواز

لم أرَ من مدينة أبي نواس سوى المحطة والفندق والسجن والمستشفى، ولا أعتقد أن فيها ما يستحق الرؤية. وقد مرّ ذكر المحطة والفندق فلنذكر شيئاً حول السجن ثم حول المستشفى.

ينقسم السجن إلى قسمين، البناية الأصلية وفيها المساجين الإيرانيون وفي جناح خاص منها القسم الأعظم من العراقيين، ثم بناية المستشفى العائد للسجن حيث خصصت لنا غرفة صغيرة وحيث وجدنا العائلات والشريف شرف مع كبار العراقيين والفلسطينيين..

يعد مكاننا بالرغم مما فيه ممتازاً بالنسبة إلى جناح السجن حيث يقيم القسم الأكبر منا.. فعندنا على الأقل ساحة تسمى حديقة وغرفنا يدخلها النور والشمس على أن المشكلة عندنا كانت قضية العائلات والأولاد وكان عددهم يقارب العشرين شخصاً منهم عائلة المفتي وبناته وولده وعائلة يونس وأولاده (وقد ولد له صبي في السجن فاسموه عقيلاً) وأمه وزوجة صديق شنشل وعائلة فهمي سعيد وأختها وأولاده. وكانت تلك النساء معذبات لا يخرجن من غرفهن المكدسة بالأنفس والحوائج! أما نحن الأربعة محمد علي ورؤوف وعبد القادر وأنا فقد كنا في غرفة صغيرة لم يبق فيها إلاّ ممر ضيق في وسطها بين الأسرّة... ومع ذلك كنا أسعد حظاً من الجماعة في داخل السجن لأن الغرف هناك وإن كانت كبيرة كلها فقد كانت رطبة وتأتيها الروائح الكريهة من كل جانب..

بقينا في ذلك الضيق والازدحام أكثر من شهر ثم وافقت الحكومة على تسفير العائلات والسوريين وبعض الفلسطينيين وهكذا نقص عدد المسجونين في قسمنا إلى النصف فارتحنا قليلاً وانتقلنا إلى غرفة أكبر. أما الأشخاص الذين أخرجوا وسفروا مع العائلات فهم توفيق صالح الحسيني ابن عم المفتي ورجائي الحسيني ابن أخيه والجاعوني الصغير وكمال حداد وأبو الهدى وشابان سوريان لا أذكر اسميهما كانا بين المتطوعين بالجهاد. أما العراقيون فلم يسفر منهم أحد. وبقي معنا من الفلسطينيين أمين التميمي وجمال الحسيني وأخوه الدكتور داود الحسيني وعارف الجاعوني وخادم المفتي الأسود برناوي..

في اليوم الثاني من دخولنا سجن الاهواز أبرقنا نحن الخمسة برقية مشتركة إلى رئيس الوزراء في بغداد نطلب إليه فيها السماح لنا بالعودة إلى بغداد للدفاع عن أنفسنا أمام المحكمة العسكرية، وكتبنا كتاباً إلى السفير البريطاني السر كينهان كورنوالس لنفس الغرض وكتبنا إلى القنصل البريطاني في الاهواز محتجين على تلك المعاملة، ولم نستلم أي جواب على مراجعاتنا العديدة سوى كتاب من القنصل إلى عبد القادر يقول فيه أن ما تم كان بأمر من السلطات العراقية في بغداد ومعنى ذلك أن الحكومة والسفارة كانتا متفقتين في تلك التدابير وبالاحرى كانت السفارة تأمر والحكومة تنفذ حسب مفهوم «الاستقلال التام».

كنت اتمشى يوماً في الساحة الصغيرة أمام مستشفى السجن فدخل ضابط برتبة كولونيل وقال لي: أنا الكولونيل «ساركن»... هل أنت من العراقيين الموقوفين هنا؟ قلت: نعم.. قال أريد أن

أكلم موسى الشابندر وناجي السويدي. قلت: أنا موسى الشابندر.. فضحكنا وتصافحنا ودخلنا إلى غرفتنا واجتمع الاخوان ومما قاله لنا: أنه قابل نوري باشا في البصرة وأن هذا الأخير طلب إليه أن يبلغ موسى الشابندر وناجي السويدي سلامه وأن الباشا ضرب على صدره وقال قل لهما أنا عندهما! فاستبشرنا خيراً لا سيما عندما قال ساركن لناجي باشا أنه يأمل أن يراه قريباً حراً في بغداد. وقال مثل ذلك إلى علي محمود. وكتبنا مكاتيب خصوصية أرسلناها معه إلى أهلنا وكان «ساركن» هذا لطيفاً طيب الحديث وشعرنا بعد ذهابه بانشراح وارتفعت درجة الآمال في قلوبنا.. وإن كان البعض منا كيونس والقواد غير مرتاحين من ذكر العودة إلى بغداد. ومضت على ذلك أيام وأخذت الشكوك تعود إلى الصدور والأحزان إلى القلوب فعاد الضجر والملل والضيق والوساوس..

أما حياتنا اليومية في السجن فلا يستطيع أن يقدرها الإنسان ما لم يذق طعمها ويعش صفحاتها ولم تخل بعض مآسيها من مهازل ومضحكات.. محمد علي محمود وعبد القادر ورؤوف البحراني وأنا كنا في غرفة واحدة وقد وضع كل منا سريره في ركن منها واتخذنا وسطها صالوناً وغرفة طعام وغرفة لعب الورق. عندما نفيق صباحاً يبدأ السباق إلى المراحيض والانتظار. كنا أكثر من عشرين شخصاً والمحل ليس فيه إلّا مرحاضان ويشترك معنا بهذه الحاجة البشرية النساء السجينات وأكثرهن من «بنات الهوى» أو السارقات إذ كان المحل المخصص لهن وراء بناية المستشفى كما انهن كن يشتركن معنا «بالحمام» ويا له من حمام فهذه كانت ناحية «قذرة» من حياتنا وليتصور الإنسان كيف تكون المراحيض والحمام في سجن إيراني بالاهواز!

وبعد ذلك المهرجان يأتي دور الغسل والحلق وهذه أيضاً مشكلة لأن الكل كنا نذهب إلى الحوض في وسط الساحة وهناك على حنفية واحدة نغتسل والعائلات بالعباءات والحجاب كن يتضايقن بطبيعة الحال من ذلك الوضع بين الرجال.

كان عبد القادر أكثر المتضايقين من قلة المياه ومن قذارتها ومن مسألة المراحيض والحمام لأنه لا يكتفي بابريق أو ابريقين أو بسطل أو سطلين.. وقد سخر الله له «صيهود» وهذا سجين من عرب الاهواز يأتي كل صباح من أجل التنظيف والكنس فاستولى عليه عبد القادر لينقل له سطول الماء للمرحاض والأباريق للغسيل. فكنا نسمع طوال النهار عبد القادر ينادي: صيهود! صيهود!. وقد نظم رؤوف البحراني «قصيدة» حول صيهود وعبد القادر ورد فيها:

ناداه صيهود الا آتِ لنا ابريق ماء ليس بالفاتر

وكان صيهود هذا رجلاً طيباً وعربياً مؤمناً وكان يخدمنا من كل قلبه ويعطي نصف ما يجمعه منا من «البخاشيش» إلى الضباط الإيرانيين حتى يبقوه في خدمتنا.

ثم يأتي وقت الفطور فنشرب الشاي وما رزق الله وبعده نخرج نتمشى في الساحة أو نطالع أو نلعب طاولة النرد والورق كل حسب ذوقه.

عند الضحى يأتي كل يوم طبيب إنكليزي مع مضمد يحمل بعض الأدوية. فكان المساجين يراجعونه في بادىء الأمر عن كل كبيرة وصغيرة إذ إن في ذلك تبديلاً وتنوعاً في حياة النهار المملة.

ولكن الدكتور هذا كان شرساً لئيماً وأخذ يبدي من وقت لآخر شعوره العدائي ضدنا بملاحظات جارحة، مثل ذلك أن داود السعدي راجعه يوماً وشكا له أمراضه كلها وعددها لا يقل عن «الدزينة» فقال له الدكتور شامتاً: فيك كل هذه الأمراض وتشترك بالعصيان! وفكرة العصيان هذه كانت سائدة بين الإنكليز إذ كانوا يعتقدون أن القواد قاموا بعصيان لقاء دراهم قبضوها من الألمان وهذا كان أسهل وأقصر تفسير لدى السلطات البريطانية بشأن وجودنا معتقلين عندهم.

عندما أدخلنا السجن في ٩ تشرين الأول/أكتوبر أراد عمر أن يدخل معنا فوافق الكابتن على ذلك ولكن أخبره بأنه إذا دخل سوف لا يخرج منه، وعليه فقد اقترحنا أن يبقى في الخارج ويأتينا كل يوم لشراء بعض اللوازم وقضاء حاجاتنا. فوافق الكابتن على ذلك وبقي عمر في الفندق وصار يأتينا إلى السجن كل يوم قبل الظهر وأحياناً وقت العصر أيضاً. كان يقوم بشراء ما نحتاج إليه من البلد من أكل وشرب ولبس فيأتي ومعه الحمال والزنابيل ويوزع علينا ما أتى به كل على موجب توصيته... والمساجين كالأطفال إذ صرنا نطلب أشياء لا نحتاجها بل لمجرد الشراء. وأهم من ذلك كله كانت الأخبار التي يجمعها لنا من السواقين والقادمين من العراق. ولما كان هو الصلة الوحيدة بيننا وبين العالم الخارجي فأخذ «يذرع بالدكل» حسب عادته وجرياً على عادة المتحمسين وبالطبع كانت الانتصارات الألمانية محور الأخبار وأن المسألة منتهية.. وبالطبع كان الضباط والشبان يؤمنون بنفخات عمر ويجدون فيها شيئاً من التسلية. فخدمنا عمر كثيراً وأتى لنا بكل ما نريد حتى أننا طلبنا منه يوماً أن يشتري «عرقاً» فأتى في اليوم الثاني ومعه «بستوكه» طرشي ففحصها مأمور السجن ووافق على أن نأكل الطرشي.. ولكن نحن لم نطلب ذلك من عمر فقلنا لا بد هذه فيها مزيه أخرى وعندما ذهبنا إلى الغرفة وأدخلت ذراعي فيها وجدت أربع زجاجات عرق تحت الطرشي.. فصرنا نشرب ونأكل «مازة» بفضل شطارة عمر!

كانت السلطات المسؤولة عن اعتقالنا تدبر قضية الطعام مع متعهد فيأتينا هذا بطعام مطبوخ من أحسن فندق في الاهواز صباحاً ومساءً.. الأكل كثير ولكن رائحته وطعمه وقذارة الصحون والملاعق وقذارة الطباخ الذي يأتي ويوزع علينا الطعام كانت لا تطاق. ولذا نحن كنا نطبخ ما نريد وكان خادم يونس السبعاوي محمد يقوم بعملية الطبخ ولم يشترك معنا رؤوف البحراني في هذا الترتيب من باب الاقتصاد في حقيقة الحال ومن باب حبه التساوي مع الجميع على موجب ادعائه!

مضى ما يقارب الشهرين علينا ونحن في تلك الحالة التعسة وذلك الضيق العظيم ننتظر ما ينتظره الموحدون! أو بالأحرى كل منا ينتظر الفرج بالشكل الذي يتصوره ويتأمله وكنت أعتقد أن الانتظار الطويل هذا معناه الابعاد إلى الهند بينما زملائي كناجي السويدي ومحمد علي والكيلاني كانوا يعتقدون أن هنالك مفاوضات حولنا في بغداد متى انتهت عدنا إليها... وأتانا يوماً الجنرال وهو القائد العسكري المسؤول عنا فكلمته حول مصيرنا فأخبرني بأنه قد تقرر أرسالنا إلى أفريقيا الجنوبية! ففطس قلبي لذلك الخبر.. ولكني تمالكت نفسي وسألته عن مناخ ذلك ووضع السفر.. قال لا بد وأن يكون المحل صحياً وأن الوزراء والقواد يسافرون بدرجة أولى بالباخرة والآخرون بالدرجة الثانية.. ولما سألته إذا كان هناك بأس من ان أخبر اخواني بهذا النبأ قال لا بأس من ذلك.. وعندما أخبرت جماعتي بالأمر صار ناجي السويدي ومحمد علي

بيكيان. بينما يونس وصديق والقـواد سروا بذلـك الخبر وأخـذوا يتحادثـون حول شكـل العيشة المقبلة في أفريقيا. وأثر ذلك الخبر ببعض الضباط والشبان من غير جماعة السبعاوي.

المستشفى العسكري

كان الطبيب يرسـل إلى المستشفى العسكري من يحتـاج إلى مداواة وعنـاية. وكـان أول من ذهب منا إلى المستشفى توفيق صالح الحسيني وقص علينـا بعد عـودته أنهم وضعـوه في قاووش الهنود وأطعموه طعـامهم بصحون من تنـك. ومن بعد ذلـك مرض محمـد علي محمـود فنقلوه إلى المستشفى وعاد بعد يومين فقص علينا بأنهم أرادوا أن يضعوه مع الهنـود في بادىء الأمـر وأنه احتج على ذلك قائلاً بأنه وزير ويجب أن يعاملوه كجنرال وعلى إثر ذلك وضعـوه في قسم الضباط الإنكليز وأنهم صاروا يخدمونه خدمة لا مثيل لها ويحيونه بالتحية العسكرية. أما الأكـل والشرب فحدث عن البحر ولا حرج وأنه طوال عمره لم يأكل سمكاً مثل الذي قدموه له ولا لحماً ولا ولا... وأنهم يبدلون الشراشف كل يوم و.. و.. وبعد أن نفخ ما نفخ قلنا له لماذا أتيت بهذه السرعة لهذا المحل القذر؟.. قال أنه ضاج من الوحدة. ثم أخذوا جـودت سامي سليمـان إلى المستشفى وبقي هناك مدة طويلة. والتحق به اثنان من الضباط.. وقرر عبد القادر الكيـلاني أن يتمارض ليـذهبوا به إلى المستشفى وقام بـدور المريض أحسن قيـام. فنام في السريـر وأخذ يئن ويشتكي ولما أتى الطبيب وصادف أن كان من الهنود وأخذ يفحصه كدنا ننفجر من الضحك ولكنا خوفاً عـلى منهج عبد القادر ضبطنا أنفسنا، ونجح الكيلاني في تدبيره ونقلوه مساء ذلك اليوم إلى المستشفى..

في صباح اليوم التالي أتانا الضابط البـريطاني المسؤول عن حـراستنا غـاضباً متـألماً.. ولما سألناه عما به قـال أن اثنين من العـراقيين الـذين كانـوا في المستشفى قد هـربوا وأن الجنـرال غضب غضباً شديداً من ذلك ولا سيما وأن السلطات كـانت تقوم بـواجبها الإنسـاني تجاههما وأنها ستضطر إلى اتخاذ تدابير صارمة كي لا يحصل أمر مثل هذا في المستقبل.

إن الهرب من السجن حق لكل سجين ولكن في حالتنـا كان الهـرب لا فائـدة منه لأن بـلادنا وإيران كانتا تحت الاحتلال البريطاني فالذي يهرب من الاهواز يقبض عليه في غير الاهواز وفعلاً لم يأت هرب الضابطين إلّا بالتضييق علينا والإساءة لنا..

ذلـك اليوم جـاء الجنرال ومعـه بعض الضباط وصـاروا يكشفون المحـلّات التي كنـا فيهـا وصعدوا فوق السطوح وقرروا أن ننقل نحن من بناية المستشفى إلى جناح السجن مع الآخرين. وكانت هذه ضربة مؤلمة ومهما حاولنا اقناع مـدير السجن والضـابط البريطـاني للعدول عن تلـك الفكرة لم يقتنعا. فانتقلنا في اليوم التالي إلى داخل السجن وسكنا في غرفة مظلمـة مرطبـة والتحق بنا كل من ناجي السويدي والشريف شرف بينما انضم يونس وصديق وأمين التميمي والقواد إلى العراقيين الآخرين.. ولم يكتفيا بذلك فأغلقا الباب الموصل بيننا وبين السجن وقطعا عـلاقتنا مـع الموظفين والحـرس والإيراني ووضعنـا علينا حـرساً شـديداً من الهنـود عند بـاب السجن وفوق السطوح المطلة على الساحـة الضيقة القـذرة التي فيها المـراحيض وصار لا يسمـح لنا إلّا بـأن نخرج واحداً واحداً إلى المراحيض أو التغسيل وتم وضـع برميل في الممر للبول ليلاً.. ومنع عمر أو غير عمر من أن يتصل بنا وصار يتم تعدادنا صباحاً ومساءً بعد لصق ورقة عـلى باب كـل غرفـة

تبين اسماء المسجونين فيها... فذقنا من العذاب أشده ومن المرارة اتعسها وبانت الأيام التي قضيناها في بناية المستشفى كالجنة بالنسبة إلى السعير.

لم يمر عليّ أكثر من يومين أو ثلاثة في ذلك المحل المرطب إلّا ومرضت وصرت أشعر بألم في ظهري فأتى الطبيب الإنكليزي ورأى حالتي وأخذ يفكر وهو جالس على فراشي وصار ينظر إلى شنطتي جنب السرير وأخذ يقرأ «أوتيل موناكو.. ڤنيس» ثم سألني: «هل كنت في ڤنيس؟» قلت نعم. وأخبرته بشيء مختصر من أمري فاستغرب. إذ انه كان يعتقد أننا جماعة عصاة ارهابيين ولم يكن يعلم أن فينا جماعة مثقفة عالمة. وزراء وأمراء وقواد وزعماء. وقبل أن يترك الغرفة سألني: «هل تريد أن تذهب إلى المستشفى!». وقد وجدت مثل هذا الاقتراح غير منتظر لا سيما بعد هروب الضابطين قلت: «إذ كنت تعتقد أن ذلك أحسن لصحتي فليكن». فأشر اسمي على ورقة وانصرف وبعد ساعتين أتت سيارة ونقلتني إلى المستشفى العسكري. هناك وجدت عبد القادر الكيلاني وجودت في غرفة كبيرة على بابها حراس من الهنود وحارس آخر في الطريق أمام الشبابيك. أخذت سريراً بين الاثنين وصرنا نتحادث وفهمت تفاصيل قضية الهرب التي سببت لنا تلك المشاكل: كان جودت قد دبر الأمر مع أحد السائقين من أهالي الاهواز لأنه كان حراً طليقاً وحين يخرج الضباط الإنكليز ليلاً ويذهبون إلى محلات اللهو والسمر ولما أتى الضابطان حمود السعدون وعبد الوهاب الشيخ، فاتحهما بالأمر فوجد أنهما قد أتيا إلى المستشفى لتلك الغاية فاتفق الثلاثة وعينوا يوم الهرب واتفقوا مع السائق حول السيارة. وصادف أن عبد القادر الكيلاني أتى إلى المستشفى يوم موعد الهرب فأخبروه بالأمر فاستحسنه وانضم إليهم. وحوالي الساعة العاشرة ليلاً بعد اطفاء الأنوار خرج الضابطان من الشباك المؤدي إلى الطريق وبعد ربع ساعة تسلق كل من عبد القادر وجودت من الشباك على أن يجتمعا بمحمود وعبد الوهاب في محل معين.. ولكن عندما وصلا إلى ذلك المحل لم يجدا أثراً للضابطين فذهبا يميناً وشمالاً دون جدوى.. فظنا أن الضابطين قد هربا خلافاً لما تم الاتفاق عليه وبعد أن قطعا الأمل توجها إلى المدينة وذهبا إلى المحل الذي يسكن فيه السائق عمر فوجداه نائماً ولما افاق وجدوه سكران. ويظهر أن عمر عندما رأى عبد القادر وجودت في منتصف الليل وأنهما هربا من المستشفى خاف وأخذ يصرخ: «يا به منزحون، لتبلونا! انى منين أجيب سيارة؟». وبعد الحاح واقناع خرج معهما إلى الشارع وأخذ يفتش على سيارة ولكن بدون فائدة ولما انقطع الأمل قرر كل من عبد القادر وجودت أن يرجعا إلى المستشفى فتسلقا من نفس الشباك وتمزق سروال عبد القادر ودخل كل منهما سريره. ولكن أحد المضمدين كان قد دخل الغرفة ولما وجدها خالية أخبر المدير وهذا بدوره اتصل بضابط الحرس وأخذوا يفتشون وأفاد جودت وعبد القادر أنهما لا يعلمان بالهاربين وأنهما ذهبا يتمشيان فلما عادا لم يجدا الضابطين. وانتهت المسألة بوضع حرس شديد في المستشفى واتخاذ تلك التدابير في السجن وخسر عبد القادر بنطلونه وخسر جودت كل حوائجه لأنه سلمها قبل يوم إلى السائق الذي اتفق معه على الهرب وخسرنا نحن راحتنا المحدودة!

أتى في صباح اليوم التالي مدير المستشفى الدكتور «روبرتز» ففحصني وكتب تقريراً مطولاً عن حالتي الصحية وكان الكابتن روبرتز هذا «جنتلمن» بكل معنى الكلمة وكان يعاملنا بكل لطف واحسان ولن أنسى ما قام به نحوي مدّة بقائي في المستشفى وأنه من الناس الذين لو خلق الله الإنكليز كلهم مثله لكانت الأرض غير هذه الأرض.

كانت المسألة الوحيدة التي تنغص عيشنا وحياتنا اليومية المعتادة قضية الحراس فهذه كانت مصيبة مستمرة تذكرنا على عدد الدقائق بما كنا فيه واقعين. وكان الأمر هيناً عندما كان الحراس من الهنود المسلمين فهؤلاء كان عبد القادر يدبرهم بالهندي ويخبرهم بأنه من أحفاد عبد القادر الكيلاني وأنه «بير صاحب» وعندما يسمع بذلك الهنود تتحسن معاملتهم وقد وصل الخشوع الديني عند بعضهم إلى درجة أنهم كانوا يقبلون يدي عبد القادر ويتركون بنادقهم ويقولون لنا إن أردتم أن تهربوا فتوكلوا على الله. ويظهر أن هذا الخبر ومثله قد وصل إلى مسامع الإنكليز فصاروا يرسلون لنا حراساً من الهندوس ومن أوحش ما لديهم فهؤلاء كانوا غليظين مكروهين وقساة؛ ولا «اغلظ من عبد إذا حكم»..! ويصل الازعاج إلى ذروته عندما تمطر السماء فيأتي الحارس الذي في الطريق أمام الشبابيك إلى داخل الغرفة ويبقى معنا ليلاً ونهاراً وكنا نفيق من النوم كلما بدلوا الحارس وصاروا يتكلمون ويغنون ويدخنون في الغرفة معنا.. ولكن لكل داء دواء، ودواء هؤلاء الزبانية «بطن عبد القادر» نعم! بطن عبد القادر.. لأن بطنه كانت تتطلب منه أن يذهب عدة مرات إلى المراحيض.. وفي كل مرة يظهر عند الباب ويرفع أصبعه مشيراً إلى حيث المراحيض ويقول «تتى..تتى..تتى» فيقوم اثنان بسلاحيهما ويلتحق بهما ثالثهم العريف ويسير الموكب وهناك يهلكهم بالانتظار ثم بعد أن يعود ويرتاح قليلاً يعاود الكرة ويبدأ المهرجان من جديد. وهكذا كانت بطن عبد القادر تتولى الانتقام من تلك «الحشرات» المزعجة.

كان عبد القادر يتمارض ويشكو من القلب والاعصاب خشية العودة إلى السجن وبأمل التخلص من السفر إلى جنوب أفريقيا، وإتقاناً للدور صار آخر الأيام لا يأكل أبداً وبقي عشرة أيام بلا أكل فازداد لونه أصفراراً ونحفت قامته وأخذ يتمايل كالغصن من شدة الضعف وصار يدوخ عندما يمشي، وبهذه الواسطة حصل على تقرير معنا أنا وجودت من الطبيب بأنه لا يجوز تسفيرنا ونحن في تلك الحالة، ولكن السلطات العسكرية لم تقبل باقتراح الدكتور روبرتز وتقرر تسفيرنا مهما كان وضعنا فلما سمع عبد القادر بذلك أخذ يلتهم الطعام التهاماً..

وفي آخر أسبوع قضيناه في المستشفى أتوا بأمين زكي وهم يحملونه على حمالة وكان مصاباً «بديزانتريا» حادة فنام معنا في الغرفة، وكان لا يستطيع القيام والحركة ويقضي كل حوائجه الصحية في الغرفة على مسمع ومرأى منا فزاد بذلك انزعاجنا! وذات يوم جاء ثلاثة من كبار الضباط الإنكليز ودخلوا غرفتنا ونظروا إلينا نظرة المتسائل المتعجب وكان أكثر اهتمامهم موجهاً إلى أمين زكي، وعندما غادرنا قال أحدهم للآخرين: هذا أحد الجنرالات الذين قبضوا من الألمان ستين ألف باوند. هذه هي عقلية أكثر الإنكليز وقد صدقوا بمثل تلك السفاسف التي تبثها دوائرهم الاستخبارية لتصبغ حركة رشيد بالنازية. وفي اليوم الثاني أتى الدكتور روبرتز وأخذ يتكلم مع أمين زكي مازحاً وقال له أنه ليس من شكله ما يدل على أنه قبض ستين ألف باوند وهنا الفرق بين العاقل والجاهل.

قبل السفر بأيام قلائل حضر إلى المستشفى لزيارتنا نائب القنصل العراقي في المحمرة حكمت الحيبه جي، فأكد لنا أن سفرنا سيكون إلى جنوب أفريقيا. فهاج عبد القادر وأخذ يقول لحكمت: «قل لأخي يوسف أنني مريض. أنني على فراش الموت. أنني سأموت...» فأسف حكمت لوضعنا وتألم ولكن أمرنا كان فوق متناول حكمت.

في ١٨ كانون الأول/ديسمبر أتانا الضابط وأخبرنا بأن السفر سيكون بعد يومين أو ثلاثة وأخذ جوازاتنا ودراهمنا وطلب إلينا أن نكون مستعدين. وفي ٢٠ كانون الأول/ديسمبر عند الساعة الخامسة صباحاً أتت سيارتان للجيش فنقلونا إليهما ومعنا ضابط بريطاني هو نفس الكابتن الذي استقبلنا في محطة الاهواز عندما وصلنا إليها من طهران، وانطلقنا خارج المدينة في ظلمات الليل وبعد سير طويل وصلنا إلى باخرة نهرية كانت راسية بالقرب من مقر الجيش البريطاني.. فوضعونا أنا وعبد القادر في «قمارة» (غرفة) مع حارس أمامها وفي «قمارة» أخرى أمين زكي وجودت، وبعد مدة قصيرة وصل زملاؤنا من السجن وصعدوا إلى سطح الباخرة وبقوا في السطح بالرغم من شدة البرد ولم يحصل على «قمارة» إلّا الشيوخ وهم الشريف شرف وناجي السويدي وأمين التميمي، أما الوزراء الآخرون والقواد والضباط والشباب فكلهم تكدسوا قرب مدخنة الباخرة ملتمسين اتقاء شر البرد.. إذ إن الباخرة النهرية كانت صغيرة وليس فيها أكثر من أربع «قمرات»...

وتحركت الباخرة «باسم الله مجراها» وانقضى النهار ونحن في نهر قارون. وأتى الليل ونحن لم نزل نسري فوقه و«شلهت» الباخرة وبقينا شالهين عدة ساعات.. ولما اشتد البرد ليلاً طلبنا من الضابط أن يسمح لمحمد علي محمود ورؤوف أن ينزلا ويبقيا معنا في «القمارة» فوافق ونزلا ملفلفين بالبطانيات يرتجفان من التعب والبرد وألقى رؤوف نفسه على الأرض وأخذ يشخر ومحمد علي ارتاح قليلاً فوق فراشي ثم على الكرسي وقضينا تلك الليلة الملعونة على أسوأ حال..

عندما بان الفجر رأينا أنفسنا في شط العرب ومتوجهين نحو البصرة. بعد مدّة تجاوزنا العشار وصرنا نقترب من «الماركيل» وأخذنا نضرب أسداساً بأخماس.. إذ لا يجوز أن يأتوا بنا إلى البصرة ويسفرونا إلى الهند. ربما سيسلموننا إلى الشرطة العراقية. صرنا ننظر إلى الساحل في الماركيل.. ليست هنا شرطة ولا علامة تدل على أننا نازلون إلى البر. واستمرت باخرتنا وهي تصعد في شط العرب حتى وصلت أمام الفندق الكبير ثم عادت وأخذت تنزل نحو العشار وقلوب البعض منا تنزل وتصعد معها. وبعد زمن طويل مرّ بهذه المناورة اقتربت الباخرة إلى سفينة كبيرة راسية عند الميناء وارتبطت بها.. وأتى الضابط وأمرنا بأن نصعد إلى الباخرة البحرية. فاحتج ناجي السويدي وعلي محمود وغيرهما بأننا في العراق ولا يجوز للإنكليز أن يسفرونا بهذا الشكل.. فأجابهم الضابط بأن هذا الأمر تم بموافقة الحكومة العراقية وأن لديه تعليمات أن يستعمل الرصاص على من لا يطيع أوامره... فسكت الجميع.

طريق المنفى

بعد أن هددنا الميجر بصريح العبارة أخذنا نتسلق سلم الباخرة البحرية. وكان منظرنا محزناً ففي بلادنا كنا مهددين بمسدس الميجر الإنكليزي وحراب الهنود وهذا هو الاستقلال الذي يريده لنا حلفاؤنا والذي يرتضيه نوري السعيد وعبد الاله وداود الحيدري ومن لف لفّهم وهذه هي نتيجة تلك الحركة الجنونية التي قام بها القواد دون علمنا وبالرغم من نصحنا وارشادنا لتجنب الأخطار. وهكذا كانت نتيجة قصر نظر رشيد عالي واستسلامه لآراء المفتي وتبنيه اعمال القواد والفوضويين.

كان منظرنا محزناً وغريباً، وهذا أمر طبيعي بعد أن بقينا حوالي الثلاثة أشهر في سجن الاهواز وأغرب ما فينا كان منظر رؤوف البحراني. فانه صعد السلم يحمل «ترموس» كبيراً وسفرطاس وجنطة (حقيبة) كبيرة وأخرى صغيرة ويرتدي بالطو «گاباردين» وفوقه عباءة وفوق الجميع قبعة شمسية كبيرة على رأسه فظهر كأنه لا غربي ولا شرقي وانما بشكل يضحك الناظرين.

جلسنا كلنا في صالون الباخرة فسلمنا الميجر الاهوازي إلى ميجر آخر بعد أن قرأ اسماءنا وحسبونا ثم بدأ التفتيش. وكانت عملية غريبة من نوعها فقد اخذوا اربعة اشخاص إلى غرفة مجاورة فاستلمهم أربعة ضباط هنود بمعدل مفتش لكل اسير وأخذوا يفتشون الحقائب والجيوب وأخذوا الدراهم والاوراق والكتب والأدوية وحتى الرسوم ووصلت بهم السخافة أن فرضوا علينا نزع احذيتنا وجواربنا لعلهم يعثرون على وثائق هامة. وكان في هذا التفتيش الدقيق دليل على التعليمات التي زود بها الميجر حول كوننا خطرين. وبعد أن انتهت هذه العملية نادى الميجر: من المرضى؟ فأجبناه نحن الأربعة وتوجهنا نحوه. ولكن رأينا رؤوف البحراني قد انضم إلينا وهو يحمل ما لا يطيق حمله حمال.. فضحك الجميع ولم يوافق الميجر على انضمام البحراني إلى قائمة المرضى.. ولا شك كان يعتقد ابو احسان بالنظر إلى ما مضى أن المريض ينال عناية خاصة فأراد أن يستفيد فحشر نفسه بيننا ولكن سرعان ما ندمنا على مرضنا لأن المحل الذي ذهبنا إليه كان في مقدمة الباخرة وهو عبارة عن أنبار (عنبر) كبير فيه عدة اسرة بعضها فوق بعض وهو بالنسبة إلى «القمرات» يعتبر مخزناً بسيطاً. بقينا طوال النهار في البصرة واتانا الكولونيل «سارجن» إلى الباخرة من البصرة مودعاً وأخذ بريدنا. فكتبت أنا إلى أخي ابراهيم وإلى نوري باشا شاكراً همته.

راجعنا نحن المرضى الميجر وطلبنا منه أن ينقلنا إلى «القمرات» فوافق فسكنت مع عبد القادر بقمارة من الدرجة الأولى. وكانت استراحتنا مؤمنة من جميع الوجوه. وتحسنت معاملة الميجر وضباطه معنا بعد ان تحركت الباخرة وحصل بعض الاتصال بيننا إذ ظهر لديهم أن ليس هناك عصابة وقطاع طرق بل اناس أرقى وأكثر ثقافة منهم ولم نشعر بضيق الأسر على الباخرة: اللهم إلا عند التعداد صباحاً ومساءً.

السفرة كانت مريحة وكان الطقس بعد أن تركنا البصرة معتدلاً والبحر هادئاً. وهذه ثالث مرّة اسافر في هذا الطريق.. السفرة الأولى كانت سنة ١٩١٩ والثانية سنة ١٩٢٢ وهذه هي الثالثة.

في السفرتين الاولبين كنت حراً طليقاً وكنت كلي آمال وشوق إلى أوروبا وما فيها. اما هذه المرّة فكنت اسيراً محاطاً بالجنود والحراب ومتوجهاً إلى جهة مجهولة وحياة لا نعرف ما لها وما عليها.. ولكن هذه ايام الدنيا: يوم لك ويوم عليك.

رست بنا الباخرة صباح ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر امام بومباي بعيدة عن الميناء... فهذه بومباي التي قضيت تسعة أشهر فيها سنة ١٩١٩ وهذا فندق تاج محل حيث سكنت أول اسبوع.

بعد يومين أي في ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر صادف عيد الاضحى فاقمنا الصلاة على سطح الباخرة وصلى بنا ناجي السويدي إماماً. أراد ملاحو الباخرة المسلمين الاشتراك معنا بالصلاة ولكن القبطان لم يوافق على ذلك. كانت الصلاة حقاً مؤثرة وكان لاسم الله والتكبير أثر عميق في القلوب ورأينا المسلمين الهنود ينظرون إلينا ودموعهم تتساقط وأيديهم ترتفع للدعاء نحو السماء لخلاص المسلمين من نير الاستعمار ومن ظلم الكافرين..

بقينا أسبوعاً كاملاً امام بومباي ننتظر الانتقال إلى باخرة أخرى. وكان بعضنا يفسر ذلك بأننا سنخرج إلى البر ونبقى في الهند. في ٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٢ اخبرنا الميجر فلون بأننا سننقل إلى باخرة أخرى عند العصر... فأتانا بعض الضباط الإنكليز ونزلنا من الباخرة Egsa إلى باخرة صغيرة نقلتنا إلى سفينة أخرى Khandalla وكانت هذه راسية بعيداً عن الميناء وكانت غاصة بالركاب الهنود من رجال ونساء واولاد في طريقهم إلى «مومباسا».

بعد أن نقل الجنود الإنكليز حقائبنا، وكانت كثيرة جداً لا تتناسب مع وضعنا فتعب الجنود من حملها واخذوا يشتمون اصحاب «الجنطات» الكبيرة الثقيلة.. بعد ذلك صعدنا إلى الباخرة الجديدة ووقفنا صفين ووقف امامنا حراسنا الإنكليز مع حرابهم وكان عددهم أكثر منا وكانت المعاملة ناشفة ورئيس الحرس الجديد رجل فظ متعجرف! فوزعونا حسب الصدفة على «قمرات» الموقع الثاني ووضعوا الحراس عند أبواب «القمرات» وفي الممرات حيث وجدت نفسي في «قمارة» صغيرة مع الشريف شرف ومحمود سلمان وعبد القادر الكيلاني. كان الحر شديداً والنوافذ مغلقة بسبب التعتيم.. فكدنا نختنق من الحر وقلة الهواء وكانت تلك من اتعس ما يكون. عندما ودعنا الميجر فلون اوصى رئيس حرسنا الجديد الكابتن «سمارت» بنا خيراً ولكن هذا الأخير بقي عابساً مقطب الجبين غليظ الطبع والكلام. وكانت تقاطيع وجهه والوشم على ذراعيه تدلان على منزلته في بلاده وسمعنا بعده من أحد الجنود أنه كان عريفاً في بداية الأمر وتقدم وترفع حتى أصبح رئيساً وأن مهمته كانت نقل الأسرى. وكانت معاملة جنوده لا تقل شدة وسخافة عن معاملة رئيسهم والعبد على سر مولاه.

كنا في سفرتنا هذه بين متألم وفرح وحائر. نحن كنا متألمين لأننا لم نقم بعمل يستوجب هذه القساوة وهذا الانتقام وكان عددنا قليلاً بالنسبة إلى المسرورين وهم الجماعة التي كانت لا ترغب

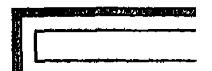
في العودة إلى بغداد ومعهم الشبان المتحمسون الذين وجدوا في كل ذلك سلوى جديدة.. اما الحائرون فهم الذين وجدوا انفسهم في هذه الزفة دون ان يكون لهم ناقة أو جمل في الموضوع.. على أننا كنا جميعنا خائفين من الغواصات وكنا نستمع أو بالاحرى نقرأ النشرات وما تقوم به الغواصات الالمانية واليابانية ونتعوذ بالله من الغرق.

بعد أن تركنا بومباي بيومين أي في ٤ كانون الثاني/ يناير كنا على سطح الباخرة عندما أخذت المدافع تطلق نيرانها ففزعنا وأخذ النساء والاولاد من الهنود في الطابق الاسفل يصرخون ويبكون وقلنا اقتربت الساعة واصفرت وجوهنا وضربت قلوبنا ضرباً شديداً. وكنا لابسين الطوافات فاجتمعنا قرب قوارب النجاة وتبين بعده انها كانت تجربة وان المدافع تمرنت على هدف طافٍ فسكن روعنا وحمدنا الله على السلامة.

كنا نقضي أكثر الاوقات بالمطالعة ولعب الورق ويقضي الحرس أوقاتهم بالغناء حتى اننا تعلمنا نغماتهم. وفي ٨ كانون الثاني/ يناير هبت عاصفة قوية استمرت حتى وصولنا إلى مومباسا. فكانت امواج البحر الهائج تعلو كالجبال ثم تهبط وكان البحر كله كالوديان والجبال والباخرة تندفع يميناً وشمالاً كانها قشر جوز! وصارت الامواج تدخل الطابق الاول فتبلل الركاب هناك ومن الغريب أنني لم اشعر بدوار البحر. ربما كانت اعصابي متوترة إلى درجة جعلتها لا تتأثر من الامواج وحركة الباخرة. وفي صباح ١١ كانون الثاني/ يناير عندما شاهدنا الساحل الافريقي حمدنا الله على خلاصنا من الغواصات والزوابع.

دخلنا ميناء مومباسا وكانت المناظر جميلة. وشاهدنا في الميناء سفناً عديدة كبيرة وصغيرة حربية وتجارية مما جعل البعض منا يتعجب لمقدرة بريطانيا وقوتها وهنا قلت لبعض المتحمسين: - «ربما كنتم تظنون أن قوة بريطانيا هي عبارة عن سن الذبان. فمتى قلع ذلك السن انتهى الأمر!» ولم تعجب هذه الملاحظة بعض الاخوان...

امرنا رئيس الزبانية الكابتن «سمارت» بأن نبقى في غرفنا مدّة بقاء الباخرة في الميناء. ولكن بعد الغداء اتانا واخبرنا بأننا نازلون إلى الأرض.. تركنا الباخرة حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر تحت حراسة شديدة فكان الواحد منا «أبن عبدكه». وضعونا في سيارتين للشحن كأننا امتعة وتقدمتنا سيارة تحمل الحرس وأخرى من ورائنا. وبعد مسيرة نصف ساعة بين الغابات ادخلونا إلى معتقل محاط بالاسلاك الشائكة ثم أخذونا بعد تفتيش دقيق إلى زاوية محاطة بأسلاك داخل الاسلاك الخارجية وتركونا هناك أمام خيمتين خاليتين وقالوا استريحوا: «make yourselves comfortable». وانصرفوا..



مومباسا

تستحق مومباسا فصلاً مستقلاً وأن لم نقض فيها إلا أسبوعاً واحداً.. ففيها ذقنا مرارة الأسر ولمسنا همجية المدنية الأوروبية وخسة طبع الإنسان ومغزى الاستعمار... فعندما وصلنا إلى المعتقل عند المساء أوقفونا صفاً واحداً عند المدخل وعلى مسافة منا خلف الاسلاك الشائكة اجتمع الأسرى الايطاليون ينظرون إلينا ويسألوننا عن قصتنا وأصلنا وفصلنا بالاشارة وببعض الكلمات. في بادىء الأمر ظنونا ايطاليين مثلهم ولكن رداء الشريف شرف وعقاله وعباءته ثم رداء العبد الأسود برناوي بددت ظنهم: فكنا خليطاً من بيض وسمر وسود وبرانيط وسراويل وعباءات وغطرات.. وهذا ما اوقعهم في حيرة وبقوا يتفرجون علينا إلى أن أتى عريف بريطاني ففرقهم وابعدهم. ثم أتى بعض الضباط والعرفاء وبدأوا يفتشون جيوبنا والحقائب الصغيرة التي في ايدينا وكان هذا ثالث تفتيش منذ أن تركنا الاهواز. بعد التفتيش ولى الكابتن سمارت وزبانيته وسلمنا إلى سلطة المعتقل ولا بد أنه اوصاهم بنا حسب نجابته. فاستلمنا ضابط صغير أحمر الشعر قصير القامة ولكنه منفوش كالطاووس المصبوغ! فاخذنا هذا إلى زاوية من المعتقل وتركنا امام الخيمتين الخاليتين ثم قال «استريحوا» وانصرف هازئاً. ثم عاد بعد نصف ساعة ومعه بعض الاسرى الطليان يحملون طعاماً عبارة عن بسكوت يابس وقطعة لحم بقر نية وكم رأس لهانة (قرنبيط). تركها وقال هذا طعامكم. فقلنا له وكيف نطبخ ذلك بلا نار ولا قدور ولا صحون.. فضحك وقال دبروا امركم! ثم سألنا وكيف ننام بلا بطانيات ولا اسرة ولا فراش ولا خيام.. قال: دبروا امركم! وانصرف.. وبقينا نحن ينظر بعضنا بعضاً.. طلبنا من الحارس أن يعطونا حقائبنا ورزماتنا لندبر لانفسنا منها فراشاً وطعاماً قال: ذلك لا يمكن لأن الوقت قد فات واقترب المساء.. وبقينا تلك الليلة بلا أكل ولا فراش فجلسنا على الأرض وصرنا نتحدث ونغني... وإذا طابت النفوس غنت ولكنها تغني أيضاً في ساعات اليأس والاضطراب.. فصار الشبان والضباط ينشدون الاناشيد الوطنية وكلما انتهينا من نشيد صار الطليان من وراء الاسلاك يصفقون ويهتفون واخذوا هم أيضاً بدورهم ينشدون الاناشيد الوطنية والفاشستية ونحن نهتف لهم وهكذا حصل التقارب بيننا بالاناشيد... وعندما غابت الشمس اتانا ضابط آخر ومعه عدد من الحراس السود يحملون البنادق وبيد كل واحد منهم فانوس فتوزع الحراس وشكلوا مربعاً محيطاً بنا ووضعوا الفوانيس بينهم واخبرنا الضابط بأنه لا يجوز لاحد منا أن يتجاوز حدود ذلك المربع ليلاً وأن الحرس لديهم تعليمات باطلاق الرصاص على كل من يخرج من ذلك المربع فقلنا بارك الله فيك وفي عبيدك لأنه ترك حنفية ماء الشرب والمراحيض خارج المربع.. ولما ذهب عنا عدنا نسلي النفس بالاناشيد حتى تعبنا وتعب الطليان فاستفرشنا الارض ونمنا.. نمت أنا في إحدى الخيمتين. فرشت معطفي على الأرض ووضعت رأسي على شنطة اليد الصغيرة التي كانت معي وبالرغم من التعب فلم استطع أن اغفو إلّا غفوات متقطعات من كثرة الناموس ولسعاته. وفي الصباح قمنا كلنا مثل السّكارى بسبب اثار الرطوبة والتعب والجوع والارق.

اتى صباحاً الضابط الصغير الأحمر الذي يشبه القرود وجمعنا للتعداد ولما أخذ يتعجرف

كلمناه بلسان يفهمه وأوقفناه عند حدّه عندما اراد أن يعاملنا معـاملة الأسرى الطليـان.. أتى لنا الطليان الذين كلفوا بتدبير اعاشتنا بسطل قهـوة وحليب مع قليـل من الخبز ولكن لم يكن عنـدنا اكواب وفناجين وبعد تفتيش طويل اخرج احدنا علبة سگـاير تنـك فافـرغ ما فيهـا من السكايـر وصرنا نستعملها الواحد بعد الآخر ووجدنا القهوة ذلك الصباح من الذ المشروبات. واخذ الطليان الاسرى يظهرون عطفهم نحونا وصاروا يرمون لنا بعض الفواكه من فوق الاسلاك الشائكة بالرغم من «عربدة» الحراس الزنوج..

وفي اليوم الثاني وافق رئيس المعتقـل على تسليم حقـائبنا بعـد ان فتشوهـا، واثناء التفتيش صار بعض الضباط والعرفاء من جنوب افريقيا يطالبـون ببعض الاشياء فهـذا اعطاهم كـولونيـا وآخر سجائر وغيرهما وعندما وجد أحد الضباط ليرات ذهباً في حقيبة محمد علي وأراد اخذها دبر الأمر معه بليرة أو ليرتين!.. وبعد استلام حوائجنا وما لدينا من بطانيات وغـيرها صرنـا نرتـاح في النوم... وصار الطليان يطبخون لنا الطعام وانحلت قضية الأكل بذلك الشكل على ان اكثر طعامنا كان من الفواكه كالموز وجوز الهند والآنناس.. وكان في المعتقل «كـانتيناً» لـلاسرى الطليان وكـان بامكاننـا ان نشتري منـه ما نـريد لـو كانت معنـا دراهم. هذا لأن دراهمنـا بقيت عند الكـابتن «سمارت» ولم يأتنا هذا بعد أن سلمنا إلى سلطات المعتقل.. ولكن بواسطة الطليـان صرف محمد علي ليرتين ذهبيتين تقاسمناهما واشترينـا بعض المربى والـزبد والشـوكولاتـه وعبثاً حـاولنا مـع الضبـاط بأن يحصلـوا على دراهمنـا لنبتاع مـا نحتاج إليـه وعبثاً طـالبناهم بتـزويدنـا بـأسرة وبطانيات. وكـان جوابهم لنـا دائماً انهم لم يكن لهم علم بمجيئنـا وأن هذا المعتقـل مركـز جمع الاسرى وتقسيمهم إلى مختلف الجهات وأننا عندهم ضيوف موقتين..

لولا وجود الايطاليين جنبنا وعطفهم علينا لكـانت حالتنـا لا تطاق. فقد كان هؤلاء المسـاكين يخرجون إلى الاشغال تحت حراسة العبيد وعندما يرجعون يقذفون لنا بما لديهم من فواكه ونحن من باب المقابلة بالمثل كنا نعطي للعراة منهم ما جمعنـاه من ثياب قـديمة لأن هـذه كانت متـوفرة عندنا وقد اشترينا أكثر مما نحتاج من ايران وبومبـاي وساعـدنا الاطبـاء الايطاليـون مساعـدة كبيرة فزودونا «بالكينيـة» للوقـاية من مـرض الملاريـا والمعقمات للميـاه التي نشربها.. كمـا انهم صاروا يعالجوننا لا سيما وقد اصبنا كلنا بمرض جلدي من جـراء الحر والـرطوبـة وصرنا نحـك جلودنا التي احمرت و«تشرنت».. وكان بين الأسرى الايطاليين قسيس يأتينا من وقت لآخر باخبار الحرب ومن وقت لآخر بمعكرونة وغيرها من الاطعمة الايطالية ويبدو ان أكثر هؤلاء الايطاليين قد اسروا في حـرب الصومـال والحبشة وكـانوا يشكـون من معـاملـة الإنكليـز ولكن لمـاذا أتى بهم مـوسوليني إلى الحبشـة واعتدى عـلى شعب صغير مسـالم؟ واعتـدى عـلى عصبـة الأمم وضرب بميثاقها عرض الحائط.. ان هؤلاء الاسرى المسـاكين كـانوا ضحـايا الغـرور القومي والتعجـرف والجشع كما كنا نحن ضحـايا «الخرابيط» والاستعمار...

كان عند الايطاليين جوقة «جازبند» فكانوا يقتربون من مكاننا ليلاً وكنا نجتمع امامهم يفـرق بيننا خطان من الاسلاك الشائكة فنستمع إلى ألحان الموسيقى الشجية. قل ان تلـذذت باستمـاع الالحان مثل ما حصل معي في تلك الليالي في مومباسا ولربما كان السبب الرئيسي روحيتا العازفين والمستمعين في تلك الظروف... فهؤلاء ايطاليون من نابولي وروما وميـلانو.. ونحن من العـراق من

بغداد والقدس.. نجتمع تحت هذه السماء الغريبة البعيدة عن ديارنا.. ونجلس محاطين بالاسلاك والحراس والحراب.. فهؤلاء كانوا يعزفون بقلوبهم الحزينة وكانت قلوبنا تفهم تلك النفحات الحزينة وترتاح إليها..

بسبب الازدحام وكثرة الناموس تركت مكاني في الخيمة وصرت انام مع الشبان تحت الاشجار. اتغطى بشرشف خفيف اتقاءً لشر الرطوبة ولسعات الناموس وكان لاشجار المانغا الكبيرة وجوز الهند والشجيرات الأخرى منظر خلاب في الليل: اغصان كبيرة مائلة نحو الارض أو معلقة في ظلام الليل... سماء تكاد تكون سوداء وفيها كواكب قليلة ولكنها كبيرة لمّاعة. فالليل وما فيه في مومباسا لا يشبه ليالي العراق وهو بعيد جداً عن ليالي أوروبا في غاباتها وسهولها.

افقت ليلة من نومي مضطرباً من الرطوبة وقلة الهواء.. فشعرت كأنني في عالم غير عالمنا... فهذه الاشجار المطلة فوقي وتلك السماء والنجوم المتفرقة.. وإلى جنب هذه المناظر الغريبة في وسط الظلام رأيت عينين براقتين تحدقان بالقرب مني وكأنهما هائمتان في الفضاء والظلام... لمدة لحظات ظننت نفسي في عالم الآخرة.. محاطاً باشكال واجسام غريبة لا تشابه ما تعودت عليه في الدنيا.. ولكنها كانت لحظات فقط... وبعدها تذكرت أنني في مومباسا في معتقل الأسرى وصاحب العينين الكبيرتين البراقتين هو احد الزنوج وربما كان يريد أن يسرق شيئاً من النائمين حسب عادتهم.

ليالٍ غريبة مزعجة ثقيلة ولكن فيها جمال خاص وفيها تنعق البوم وتسمعك بعض الطيور الليلية ما لم تتعود اذنك أن تسمع... سكوت عميق ولكن فيه انين آلاف من الاسرى... سكوت عميق ولكن اغصان الاشجار الكبيرة تتنادى وتتحسر وتقطر دمعاً وندىً.

رأيت الفجر أكثر من مرّة في مومباسا... كنت انتظره تحت تلك الشجرة الكبيرة ساعات طوال.. كانت قطرات الندى الساخن تسقط من حين لآخر من اذيال تلك الاغصان فتختلط مع عرق الاجسام... حمّام في الفضاء وعلى وجه الأرض فكأن البشر والشجر والحجر كانت جميعاً مصابة بحمىّ تجعلها تتصبب بالعرق وكلها في ظلام دامس. ثم يأخذ ذلك الظلام يتحرك قليلاً قليلاً فيترك قمم الاشجار واغصانها المرتفعة فتتلون وتأخذ اشكالها... وتتلون السماء بالوان غامقة تنكشف رويداً رويداً وتنخلط بعضها ببعض. وعندما تطلع الشمس المحرقة تهرب الرطوبة من اعالي الاشجار وتختفي هنا وهناك بين الحشائش والأدغال حتى تتبخر أو تمتصها الأرض ولا يبقى لها أثر إلّا في المفاصل والارواح...

بقينا اسبوعاً كاملاً في مومباسا تعذبنا خلاله عذاباً شديداً بسبب الرطوبة ورداءة الطعام وعدم وجود اسباب الراحة كالفراش والاسرة. وقد زاد في الطين بلة نزول المطر. إذ ان الخيمتين لا تستوعبان أكثر من عشرة اشخاص فبقي أكثرنا تحت المطر ومرض عدد غير قليل منا. وعلى أثر ذلك كتبت برقية معنونة إلى المستر ايدن وزير خارجية بريطانيا محتجاً على هذه المعاملات ومذكراً اياه بالمعاهدة الدولية حول معاملة الاسرى وايام جنيف وعصبة الامم حيث كنا قد تقابلنا وتعارفنا.. ولا أعلم إذا ارسلت هذه البرقية ام بقيت عند قائد المعتقل.

في ١٩ كانون الثاني/ يناير اتانا الكابتن «سمارت» ومعه زبانية وسيارات النقل واخبرونا

بأننا مسافرون. فجمعنا ما لدينا وتركنا المعتقل.. فلما رأى ذلك الايطاليـون اصطفوا عـلى جانبي الطـريق وراء الاسلاك واخـذوا يهتفـون بـاسم العـراق «Viva L'Irak» ويصفقـون ويـودعـون ويصرخون. فكان منظر مؤلم. ان قلوب هؤلاء الاسرى كانت تظهر حزنها وألمها. واستغرب الإنكليز لهـذا المنظر وصـاروا «يدردمـون» وغضب الكابتن «سمـارت» ولكن بدون فـائدة. لأن الآلاف من الاسرى كانوا يهتفون لنا ويشتمون الإنكليز. وبهذه المناسبـة ارتدى القـواد والضباط مـلابسهم العسكرية وسدائرهم ولما رأى الكابتن «سمارت» الوجوه «غير وجوه» انفعل وأظهر لؤمه بأن أجبر القواد أن يركبوا سيارة الامتعة وكان هو وزبانيته أشد عجرفة وإساءة من ذي قبل.

نزلنا في الميناء وهناك ركبنا باخرة هولنـدية متـوجهين إلى الجنـوب. الحر في البـاخرة شـديد جداً.. بتنا تلك الليلة في الميناء أنا وعبد القادر الكيلاني في قمارة واحدة.

في افريقيا الجنوبية

تحركت الباخرة «دمبو» من ميناء مومباسا في الساعة السادسة صباحاً يوم ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٢ وكانت الباخرة كبيرة وفيها عدد كبير من الجنود والضباط عائدين من الاجازة إلى افريقيا الجنوبية. خصص لنا جناح في ناحية من الباخرة وكنا كلنا في نفس الموقع الثاني بالنظر إلى بساطة القمرات وعدم توفر اسباب الراحة فيها.. واصعب ما وجدنا كان قضية مياه الشرب التي كانت دافئة تصلح لغسل الثياب ولكن لا يمكنها ان تسكن العطش. وكلما طلبنا ماءً بارداً كان الخادم والحراس يجيبوننا بأنه لا يوجد ثلج في الباخرة وأن الجميع يشربون نفس الماء.. أول يوم وصولنا إلى الباخرة اخذونا إلى العشاء في صالة عائدة للجنود فيها طاولتان طويلتان ومقاعد خشبية طويلة. والأكل كان بسيطاً والشرب يقتصر على ذلك الماء الدافئ. وبعد أن اكلنا ما اكلنا وانتهينا طلب إلينا أن يتأخر أربعة منا لغسل الصحون وادوات السفرة فتأخر الجنود الذين كانوا بمعية القواد. وكانت الحكومة البريطانية قد خصصت لنا في البواخر حق الدرجة الأولى ولذا قررنا ان لا ننزل إلى مطعم الجنود ولا نقبل بتصرفات الكابتن «سمارت». ففي اليوم الثاني عند الصباح دعونا إلى الافطار ولما علمنا أننا ذاهبون إلى نفس العنابر رفضنا. قالوا: إذن تبقوا بلا فطور.. قلنا: فليكن.. على اثر ذلك أتى الكابتن «سمارت» فكلمه مندوبنا جمال الحسيني بما يلزم فوعد بأنه سينظر في الأمر مع قبطان الباخرة والقائد العسكري.. وعلى ذلك الشرط وافقنا على تناول الفطور في مطعم الجنود.. ولكن عند الغداء اخذونا إلى المطعم الكبير حيث خصصوا لنا زاوية منه قطعوها عن بقية المطعم بستائر ووقف الحراس بحرابهم. فهنا كان الأكل جيداً والخدمة ممتازة والماء مثلجاً والبيرة متوفرة! فاكلنا وشربنا بلذة ليس بعدها لـذّة بعد ذلك الحرمان المؤلم في معتقل مومباسا. على أن معاملة الكابتن سمارت وزبانيته لم تتحسن بل على العكس كان الجنود يظهرون عداءهم ونقمتهم بكل وسيلة وكانوا بالطبع يتضايقون من أن نأكل نحن في مطعم الدرجة الأولى احسن الاطعمة وهم يتناولون طعامهم البسيط في تلك العنابر.. وانهم ابناء ذلك الشعب المختار الذي دوخ العالم ونحن أسرى، عصاة، وحوش، في نظرهم.

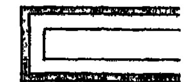
اصبت ثاني يوم السفر بألم في الكلى فذهبت إلى طبيب الباخرة مخفوراً وانتظرت مدة طويلة امام غرفته وانا اقاسي أوجاع النوبة ثم أتى دوري فدخلت على الطبيب وشكوت له أمري فاعطاني ابرة مورفين. ولما لم ينقطع الوجع أتاني الطبيب إلى «القمرة» فاعطياني ابرة ثانية ارتحت على اثرها. وكان الطبيب شاباً لطيفاً ولاحظت لهجة غريبة في كلامه فسألته عن بلاده فظهر أنه ارلندياً ولعل ذلك سبب لطفه وعنايته واهتمامه بي وإن كنت أسيراً.. وأتى الطبيب صباح اليوم الثاني دون أن اطلب ذلك واخبرني بأنه درس التقرير الذي ارسله معنا الدكتور روبرتز من الاهواز وأنه سيبذل جهده لتأمين راحتي في الباخرة وكذلك في «دوربان»... وسبحان من خلق هذا الإنسان الكريم وذلك الوحش اللئيم الكابتن سمارت من طينة واحدة.

في ٢٥ كانون الثاني/ يناير عند الفجر رست الباخرة أمام «دوربان» الميناء العظيم لافريقيا الجنوبية وبقيت الباخرة يوماً كاملاً خارج الميناء. وكنا نرى عظمة تلك المدينة عن بعد ونشاهد

البواخر الحربية والتجارية تدخل وتخرج من الميناء طوال الوقت مما يدل على سعة الحركة في هذه النقطة البعيدة للامبراطورية. وفي اليوم التالي دخلت الباخرة الميناء الكبير الذي يحير العقول بحجمه وكثرة السفن الراسية فيه. أتى إلى الباخرة عدد من رجال الشرطة والجيش واخذوا قسما من الجماعة وهم علي محمود الشيخ علي وامين زكي سليمان ومحمود سلمان وفهمي سعيد ويونس السبعاوي وصديق شنشل ولم يخبرنا أحد بشيء عن سبب ذلك التفريق. وبعد ذلك بقليل انزلونا كلنا ونقلونا بسيارات الجيش إلى معتقل خارج المدينة وفي المعتقل اخذونا أنا وعبد القادر الكيلاني إلى مستشفى المعتقل الايطالي، ومساء ذلك اليوم نفسه التحق بنا كل من ناجي السويدي وداود السعدي وجودت سليمان ثم أتى من بعدهم غيرهم وكان الجميع مصابين بالملاريا. وفي اليوم الثاني انضم الينا محمد علي ورؤوف البحراني وهما يرتجفان من نوبة الملاريا أيضاً. معاملة الايطاليين في المستشفى كانت جيدة جداً وقد خدمونا، اطباء وممرضين، وساعدونا وواسونا وخففوا علينا همومنا بكل ما لديهم من لطف وكرم وكلام طيب.

اخبرونا في اليوم الثالث بأننا مسافرون.. فكلمنا الطبيب البريطاني ورجوناه أن يؤخر ذلك لشدة مرض بعض الاخوان فلم يوافقوا على ذلك ولم نعلم اسباب ذلك الاستعجال، فسافرنا عصر اليوم الثالث ونقل كل من محمد علي محمود وجودت سليمان على حمالتين إلى القطار لعدم قدرتهما على السير.. ارسلوا معنا طبيباً بريطانيا في القطار. وكانت معاملة الكابتن رئيس الحرس وجنوده جيدة فكانوا كلهم مؤدبين ومتساهلين ولم يحرمهم الله من الشعور الإنساني كما حرم الكابتن سمارت وزبانيته.

وصلنا جوهانسبرغ في اليوم الثاني وبقينا ما يقارب الساعة في المحطة. إنها بلدة واسعة غنية في عماراتها وشوارعها ومعادن الذهب والماس وسمعنا بأن كل ذلك في يد اليهود والإنكليز حسب المعتاد... وفي اليوم التالي وصلنا قرب الحدود بين الاتحاد الافريقي ومستعمرة روديسيا وهي البلدة التي يرد ذكرها أكثر من مرّة في تاريخ حرب «بوير» وهنا سمح لنا أن نتمشى امام المحطة وجاءت لنا بعض المتطوعات من الإنجليز بشاي وبعض الاطعمة، ودخلنا مستعمرة روديسيا صباح اليوم الثاني وهنا ظهر الحكم البريطاني المطلق بكل «عنعناته». وصلنا «بولاوايو» عصراً وتعشينا في القطار وكان الأكل جيداً والخدمة ممتازة لأن المتطوعات البريطانيات كن يقمن بتلك المهمة بكل لطف ومهارة وهكذا كانت الايام: يوم لطف ونعمة ويوم عذاب ونقمة..



سالسبوري

لم نكن نعلم بمقرنا النهائي قبل أن نغادر «دوربان» لأن سيرنا وسفرنا ووجهتنا وكل ما يتصل بنا كان محاطاً بستار كثيف من التكتم والسرية.. على أننا في القطار تصادقنا مع رئيس العرفاء الإنكليزي، وكان هذا من طراز «أبو جاسملر» فهو الذي أخبرنا بأننا ذاهبون إلى سالسبوري وأن الحكومة هناك خصصت لنا معتقلاً بالقرب من المعتقلات التي يسكنها الألمان والطليان وعوائلهم.. وذكر لنا شيئاً عن المناخ واعتداله.. فارتاح بالنا من هذه الجهة إذ كنا نخشى أن يكون الطقس مثل طقس مومباسا فيتكرر العذاب!

توقف بنا القطار في محطة سالسبوري صباح أول شباط/فبراير فوجدنا الإنكليز على رصيف المحطة ينتظروننا بحرابهم فوضعونا بسيارات نقل كبيرة ونقلونا إلى خارج المدينة حيث المعتقل. كانت الامطار الشديدة تتساقط إذ ذاك والأوحال في المعتقل وأطرافه تذكر الإنسان بشتاء بغداد مع أن الطقس لم يكن بارداً إذ كأننا في وسط الصيف.. المعتقل كان عبارة عن مساحة لا تتجاوز مئة متر مربع في وسط غابات من الاوكالبتوس محاطة بالاسلاك الشائكة المرتفعة والمضاعفة. وكانت الاسلاك الخارجية مشحونة بتيار كهربائي قوي يؤدي إلى الموت من أدنى لمسة.. في ذلك المربع أقيمت أربع بنايات بشكل «بنكلات» Bungalows. البناية الأولى تحتوي على صالون وغرفة طعام ومطبخ. والبنايات الأخرى للسكن والنوم. خصص منها ثمانية غرف صغيرة لركاب الدرجة الأولى وقاووش واحد كبير لمن تبقى مع ردهة كبيرة لاستعمالها كمستشفى. وإلى جانب كل ذلك بناية من الآجر فيها الحمامات والمراحيض. وجدنا لكل منا سريراً وفراشاً ومخدات وناموسية وكدنا لا نصدق ما رأينا بعد أن نمنا على الأرض في مومباسا ودوربان.. جرى قبل كل شيء التفتيش وتسجيل الاسماء والدراهم وغيرهما على استمارات خاصة ثم وزعنا على محلاتنا. فسكنت أنا وعبد القادر في غرفة واحدة.

بعد وصولنا بساعة أو ساعتين أتانا سكرتير وزارة العدلية المستر فين مرحباً ومستفسراً ومشجعاً ومستعداً للتعاون والتفاهم معنا بشأن تأمين استراحتنا وتخفيف وطأة الاعتقال بقدر المستطاع فشكرناه، وعدناه باستعدادنا للتعاون. وذهب المستر فين إلى غرفة الشريف شرف بصفته الوصي ورئيس الجماعة وحمدت الله أن الشريف شرف لم يتكلم لغة الإنكليز لأنه أخذ يسأل أسئلة سخيفة وكنا نخفف من سخافتها عند الترجمة وكان أول سؤال عن عمر المستر فين ثم عمر المستر «تشرشل» ثم لحم البقر والغنم فترجمنا أنا وجمال الحسيني هذه الأسئلة بالتي هي أحسن وسر المستر فين من مقابلتنا وانصرف وهو يحمل بلا شك شعوراً غريباً نحونا.

أتى بعده مدير الصحة الكولونيل مارتن ومعه تقاريرنا واهتم كثيراً بأمر المرضى وخاصة بي وطمأنني قائلاً: لا تخف.. إن مناخ سالسبوري هو أحسن مناخ للأمراض الصدرية.. ثم قال: أنظر إليّ. قبل عشرين سنة أتيت لهذه البلاد مصاباً بالسل وكان الأطباء قد قطعوا الأمل من شفائي. ولكن مناخ سالسبوري انقذني! فاطمأنيت كثيراً من كلام الدكتور مارتن ومن ضخامة جسمه وعلامات الصحة والقوة البارزة فيه.. وفي ٤ شباط/فبراير أي بعد وصولنا بثلاثة أيام

أخذوني إلى المستشفى وصوروا صدري بالأشعة وفحصوا الدم ووجدوا كل شيء ولله الحمد جيداً..

أوصانا قائد المعتقل الميجر برايتهويت حين وصولنا بأن ننتخب شخصاً من بيننا ليكون مراقباً على المعتقل وليؤمن الاتصال بين الادارة والمعتقلين وهذه خطة متبعة في جميع المعتقلات. كنا نرغب أن يستمر جمال الحسيني بهذه المهمة التي قام بها منذ أيام الاهواز وأثناء السفر ولكن جمال أراد أن يتخلص من هذه الدوخة كما أن بعض الشبان صاروا يشاغبون بأن جمال الحسيني كان مسالماً ومتساهلاً اكثر من اللزوم وعليه فقد تقرر أن تقوم لجنة منتخبة بتلك المهمة. وجرى الانتخاب وتألفت اللجنة من جمال الحسيني والدكتور داود الحسيني ومدحت علي مظلوم وأنا. قد أخبرنا الميجر بذلك فوافق. وفي الحقيقة بقي الحمل أكثر على جمال الحسيني فهو الذي كان يقابل ويتكلم ويسعى لتحسين الحالة وكنا نحن نعاونه ونتذاكر معه. ولكن أهل العراق أهل شقاق ونفاق فلم تمض أيام معدودات على وصولنا حتى دب دبيب الفساد والمشاغبات. كان ذلك منتظراً بسبب التفاوت الموجود بين المعتقلين والتباين في السن والوضع والثقافة والبيئة. ولكن لم أكن أعتقد بأن الشقاق سيبدأ بهذه السرعة... لا سيما ونحن لا يتجاوز عددنا الـ ٣٥ شخصاً.. وذلك بعد أن اعادوا سبعة منا من دوربان وهم:

١ ـ الشريف شرف
٢ ـ ناجي السويدي
٣ ـ محمد علي محمود
٤ ـ رؤوف البحراني
٥ ـ موسى الشابندر
٦ ـ عبد القادر الكيلاني
٧ ـ جمال الحسيني (فلسطين)
٨ ـ امين التميمي (فلسطين)
٩ ـ داود الحسيني (فلسطين)
١٠ ـ كامل شبيب
١١ ـ داود السعدي
١٢ ـ عبد الرزاق شبيب
١٣ ـ عارف الجاعوني (فلسطين)
١٤ ـ رشيد فليح
١٥ ـ حسين فخري
١٦ ـ ناجي السامرائي
١٧ ـ عبد الحق الغراوي
١٨ ـ فاضل رشيد
١٩ ـ عبد الجبار محمود
٢٠ ـ مدحت علي مظلوم
٢١ ـ جودت سامي سليمان
٢٢ ـ لطفي بكر صدقي
٢٣ ـ محمد عباس
٢٤ ـ عبد الجبار حمزه
٢٥ ـ متعب حسن

٢٦ ـ خضير عجيل
٢٧ ـ سيف ناصر
٢٨ ـ محمد شعيب برناوي (فلسطين)
وقد أعيد من دوربان:
٢٩ ـ علي محمود الشيخ علي
٣٠ ـ يونس السبعاوي
٣١ ـ امين زكي سليمان
٣٢ ـ فهمي سعيد
٣٣ ـ محمود سلمان
٣٤ ـ صديق شنشل
٣٥ ـ يونس (خادم السبعاوي)

كنت أعتقد وأتأمل أن نعيش في المعتقل كلنا كجماعة واحدة وعائلة واحدة وذلك بالرغم من الفوارق في السوية والأذواق والميول بيننا. وكنت أعتقد ذلك لأن عددنا قليل ومصيبتنا واحدة وبلادنا واحدة وقضيتنا واحدة. وكنت أتأمل بأن نساعد بعضنا بعضاً فالكبير منا يسامح ويتساهل والصغير يحترم ويخدم ويتعاون الجميع على قضاء أيام الاعتقال بالتي هي أحسن. ولكن الحوادث سرعان ما أقنعتني بخطئي. ففي اليوم السابع بعد وصولنا كنا على الغداء وإذا بمحمد عباس يقوم من مكانه ويأتي أمام مائدتنا ويخاطب الشريف شرف قائلاً ما فحواه: نحن الشبان لا نحترم غيرك. أما الباقون الذين عندهم الدراهم فاننا لا نحترمهم. وإذا سمعنا بأقل كلام أو أي شيء مثل ذلك فاننا نضربهم ١٤ ألف قندرة! قال ذلك وأشياء أخرى مثل ذلك ثم ذهب إلى طاولة الشباب المتحمس وبقينا نحن ساكتين واجمين لا ندري ما نقول.

لا شك أن المقصود بهذه الاهانة كان الوزراء والفلسطينيين أي ركاب الدرجة الأولى وقد استثنى الخطيب الشريف شرف فقط. ومن هذا محمد عباس؟ انه ابن الملا عباس المؤذن في جامع الكيلاني كان معلماً وقد طردته وزارة المعارف لسوء أخلاقه فالتف حول يونس السبعاوي أيام «الهوسة» ثم التحق به في طهران حيث كان يلازمه ليلاً ونهاراً حتى أنه رافقه إلى زنجان عندما أبعدته الحكومة الإيرانية. وفي طهران كنا نراه كثيراً بصحبة السبعاوي لا سيما في حدائق الرقص والسمر وكان له إذ ذاك ذقن صغيرة فكنا نسميه «كراندي» لأنه لم يكن فينا من يعرف اسمه. ثم في الاهواز وفي الطريق كان يتظاهر بالطاعة والخدمة ولكن بعد أن أخذوا يونس السبعاوي أصبح هو وزملاؤه كلطفي بكر صدقي وغيره بلا حام ولا معين ولا دراهم. ولذا كان ساخطاً على الدنيا وناقماً لأنهم أخذوا السبعاوي وتركونا وفضلاً عن ذلك يقال أنه سمع عبد القادر الكيلاني وناجي السويدي ومحمد علي محمود يبدون ارتياحهم من تفريقنا عن الجماعة المتحمسة والقواد ولهذه الأسباب كان الرجل موتوراً ولم يضبط نفسه ولسانه فقام وهذر وسب وشتم... وكانت هذه أولى القنابل... ثم أتى بعض الشباب يعتذرون بقولهم أن محمد عباس تكلم من تلقاء نفسه وأنهم وبخوه وعاتبوه وأنه لا يقصدكم وانه... وأنه... ولكن نحن انتبهنا وفهمنا أن هؤلاء جماعة لا يمكن العيش معهم فصرنا نتحاشاهم ولا نختلط بهم إلّا بقدر الحاجة. ولم ينحصر الخلاف بين الوزراء والأغنياء من جهة وبين الرعاع والمفلسين كما كانوا يسمون أنفسهم بأنفسهم بل انبعث الشغب والتمرد والخناق بين الشبان أنفسهم وانقسموا إلى شيع وأحزاب. كانت أكثر المزعجات لأسباب تافهة كالأكل والشرب والسكر والصابون والمطبخ وأصبحت الحالة

مملّه ومزعجة. فكان هناك خناق وضجّة بين عبد الرزاق شبيب المحامي مشاور الشباب الحقوقي وبين الجندي خادم كامل شبيب متعب حسن بشأن قلة السكر وكثرته انتهيا بالضرب والسب والشتم وتداخل الميجر بالأمر وتهديده...

وكنا نحن العقلاء نسعى لتسكين العواطف واخماد العواصف.. وصرنا نشتغل في الحديقة وتنظيم المعتقل وسوق الشباب إلى الرياضة وغير ذلك من المسكنات. وأخذنا نلقي محاضرات مختلفة عند المساء بعد العشاء لذلك الغرض وتمضية الوقت. فألقيت أنا أول محاضرة «حول معاهدة فرساي» وألقى من بعدي ناجي السويدي محاضرة أخرى «حول معاهدة الصلح وتأثيرها على العرب» وتلانا داود السعدي بمحاضرة ثالثة حول الاعتقال وتاريخه. ولكن كل جهدنا ذهب هباءً منثوراً لأن العناصر الميالة للشر والشغب غلبت، ففي ٢٤ شباط/فبراير ابتدأ النهار بخناقة في المطبخ بين متعب حسن والدكتور داود الحسيني وكان متعب حسن هذا فضلاً عن صفاقته وجهله وسوء أخلاقه ناقماً على الجميع بسبب الاهمال الذي كان يلقاه كامل شبيب من الجميع. وتوترت الاعصاب... وحصلت مشاجرة وكلام بذيء وضرب ورفس واستعملت العصي بين الضابط ناجي السمرائي وعبد الرزاق المحامي. فكانت هناك فضيحة استوجبت مداخلة الحرس وقائد المعتقل الذي اخرج ناجي ومتعب ووضعهما في السجن الانفرادي بعد الحكم عليهما بسبعة أيام. وبعد انقضاء هذه المدّة نقلا إلى السجن المدني لأننا رأينا في عودتهما خطراً على عبد الرزاق شبيب لأنهما اقسما بقتله... وهذا أمر لا يستبعد وقوعه من مثل أولئك الجهلة لا سيما أن ناجي السامرائي هذا كان متهماً بقتل جندي أيام «الهوسة» وقد هرب إلى إيران من جراء ذلك. وحصل شيء من السكون بعد ذهاب ذلك الضابط المجنون وذلك الجندي السخيف. ولكنه لم يدم طويلاً لأن عناصر الشغب والرذيلة كانت موجودة بغزارة بيننا إذ لم يمض أكثر من شهر على المشاجرة حتى فوجئنا يوماً منذ الفجر بصياح واحتجاج وكان محمد عباس قائد تلك الحركة وكل ذلك لأن اللجنة وضعت ورقة كتب عليها لزوم التمسك بالنظافة في المغاسل واشترك بهذه «الهوسة» الضباط الذين كانوا ناقمين على ما حصل لزميلهم ناجي فوقف جمال الحسيني وأخرس رشيد فليح وجماعته.. وبعد هذه الفتنة الجديدة اجتمعنا نحن «العقلاء» وقررنا أنه لا يمكن العيش مع هؤلاء فقدمنا طلباً إلى قائد المعتقل نطلب التفريق بيننا وبين المتحمسين.. وقد رأى الميجر بأن الحق معنا فوعدنا خيراً. وبعد أيام رأينا المساجين الزنوج يشتغلون في الغابة إلى جانبنا لإعداد معتقل جديد ولما رأى ذلك المشاغبون «برد صوابهم» وأخذ محمد عباس يتظاهر بالندم ويتوسل بمدحت وجودت. وفي عشرين نيسان/ابريل كان المعتقل الجديد جاهزاً وأتوا بناجي السامرائي ومتعب حسن من السجن إليه وانضم إليهم حسين فخري وعبد الحق ثم بعد ثلاثة أيام التحق بهم رشيد فليح ولطفي بكر صدقي وعبد الجبار حمزه وخضير عجيل. ومن الغريب أن محمد عباس رئيس المشاغبين المتحمسين لم يذهب معهم وبما ان مدحت رجا من اللجنة السماح له بالبقاء وتعهد بأنه سوف لا يقوم بأي عمل يكدر صفو العيش في المعتقل فقد وافق «العقلاء» على ذلك. ولما رأى محمد عباس «الحديدة حامية» عاد لطيفاً مسالماً وصار كما يقول أهل بغداد مثل «القملة المفروكة». وهكذا خلال ثلاثة أشهر انقسم العراقيون إلى معسكرين وأصبح لنا معتقلان واحد «للجنتلمنية» وآخر «للمشاغبين». وبفضل ذلك حصلنا على قدر من الراحة وإن كانت مجاورتنا للمعتقل الجديد كانت تؤدي الى بعض الاتصال والاحتكاك والسب والشتم من بعيد إذ

لم يفصل بيننا وبينهم سوى خط الأسلاك الشائكة فكنا نراهم ويرونا ونسمعهم ويسمعوننا ثم بالرغم من منع القائد الاتصال والمحادثة صار بعض الشبان عندنا يتحادثون مساءً من وراء الأسلاك.. الأمر الذي جعل السلطة تقيم حاجزاً من القش بيننا وكانت هذه كلها تدابير ناقصة مع أن اللجنة أوصت بإبعاد المعتقل الجديد بحيث لا يكون صلة واتصال بيننا.

تصرفات هؤلاء المتحمسين وسوء أخلاقهم زادا من مرارة الاعتقال والنفي وضاعفا علينا العذاب. وكان أتعس شيء بالنسبة لنا هو الجمع بيننا وبين هؤلاء الناس الذين لم يكن لنا بهم صلة أو معرفة والذين لا يمكننا أن نختلط بهم للتباين في المقام والمبدأ والذوق والأخلاق والبيئة والتربية. وصرنا نلعن الانكليز لا لأنهم اعتقلونا ونفونا إلى آخر الدنيا بل لأنهم جمعونا في مكان واحد وتحت شروط واحدة. ولذا كان يوم الفراق يوم عيد عندنا وإن كان بقاء محمد عباس ووجوده بيننا وقرب المعتقل الجديد ينقصان من ارتياحنا.

إن مثل هذه الحوادث تحصل في جميع المعتقلات ولكن نحن حسب العادة سبقناهم حتى في هذا ويظهر أنه لولا ضغط الكابتن «سمارت» وزبانيته لكان قد حصل الاختلاف حتى في الطريق، ذلك لأن القلوب كانت متنافرة وكان من الطبيعي أن يكره «العقلاء» جماعة يونس وأتباع القواد. ولم يحصل اتفاق تام بيننا إلاّ في نقطة واحدة وهي نبذ كامل شبيب وتركه وشأنه لأنه كتب إلى بغداد من طهران كتابين أحدهما لنوري السعيد وآخر لصديق له يتوسل إليهما تدبير أمر عودته ويتنصل مما قام به القواد ويصف المفتي بالوقاحة والقباحة ويطعن برشيد وبالحركة كأنه لم يكن هو رابع القواد. وبما أن الحكومة العراقية نشرت له الكتابين فقد ثار عليه الجميع من عراقيين وفلسطينيين. ولولا رحمة جمال الحسيني لما وجد مكاناً ينام فيه في سجن الأهواز. وبقي كامل شبيب هكذا مكروهاً من قبل الجميع ومنبوذاً من قبل الجميع ما عدا خادمه وسائقه متعب حسن وخادم المفتي برناوي وذلك الى أن أتى أمين رويحة فعفا عنه وأخرجه من مخبئه ورفعه الى مقام الأبطال المجاهدين! وقام له بدعاية أنه كان اقدر القواد وأكثرهم وطنية وإخلاصاً...

ايام المعتقل

يكوّن الاعتقال الطويل روحية خاصة في السجين الذي يقضي أياماً وأسابيع وأشهراً وسنوات وهو في بقعة ضيقة وراء الأسلاك الشائكة.. فيرى كل يوم نفس الوجـوه ويسمع نفس الاصـوات ويمشي فوق نفس الأرض وتحت نفس الأشجار ويأكل في نفس المحـل مع نفس الأشخاص. فهذه العوامل كلها تجعل الإنسان ضيق الصدر سريع الحدّة. والملل يقتل الروح قتلاً بطيئاً، ومع ذلك كله يتمكن الإنسان القوي الصابر أن يصمد أمام هذه العوامل ويخلق لنفسه جواً محدوداً يقضي فيه ايامه المملة..

هكذا كنت أسعى لخلق جو نتمكن معه قضاء أيام الاعتقال بـأقل مـا يمكن من الصعوبـات وهكذا كان جمـال الحسيني والجماعـة الصابـرة ولولا شغب المتحمسـين وطيش الشبان لكـانت عيشتنا أحسن وحالتنا أطيب وايامنـا أقل شقـاءً وعذابـاً. هذا لأن حكـومة روديسيـا الجنوبيـة بصورة عامة والشخص المسؤول عن المعتقلات وهو المستر فين وقائـد المعتقل الميجـر برايتهـوبت كانوا دائماً ميالين إلى عمل الخير واجراء التسهيـلات الممكنة لتـأمين راحتنـا بقدر مـا تسمح بـه القوانين والـرأي العام. وعـلى ما سمعنـا بعده أن السلطـات المسؤولة عينت الميجـر برايتهـوبت خصيصاً من أجلنا لأنه كان قائمقاماً عسكرياً في الجيش الهندي وأنه قضى كل حيـاته المهنيـة في الهند وعلى حدود الافغان. فلما تقرر إرسالنا إلى روديسيا راجعته الحكومة فيما إذا كان مستعـداً لقبول قيادة المعتقل برتبة ميجر. فـوافق واستلم القيادة يـوم وصولنـا.. الميجر بـرايتهوبت رجـل متقاعد طيب الاخلاق مسالم ميال للخير والتساهل لا يكره الشرقيين ويظن أنه يفهم نفسيتهم لأنه قضى سنوات عديدة بين العشائر الافغانية على حدود الهنـد واختلط برؤسـائها.. وأخبـرني يومـاً الميجر برايتهوبت بأنه كان قلقاً قبل وصولنا لأن الأخبار التي سبقتنا إليهم كـانت تشير الى أننـا عصابة عصـاة خطرين وعـلى حد تعبيره أننا كنّـا «شديـدي البأس»، ممـا جعل السلطـة ترفـع الأسـلاك الشائكة إلى أعلى حد ممكن حيث كانت أسـلاكنا ١٢ خطـاً بينما معتقـل الالمان كـان له ثمانية خطوط. هذا، وقد زادوا من عدد الحراس ونصبوا في الأركـان الأربعة في المعتقـل منصات خشبيـة مرتفعـة للحراس و«بـروجكتورات» (الأنـوار). وأكذر انـه يوم وصـولنا وبعـد أن دخلنا المعتقل وأغلقوا الأبواب تركوا عدداً من الحـراس داخل الأسـلاك يحيطون بنـا حتى يتم تسجيل الأسماء وتفتيش الحقائب فذهبت الى أحد الحراس وسألته عن مكان المراحيض.. فقفز الحـارس بسرعة ثلاثة قفزات إلى الوراء ووجه حربته نحوي قائـلاً: لا تقترب مني! ثم أشـار بيده إلى حيث أريد. هكذا كانت شهرتنا وقد وصلت إليهم قبل وصولنا وكانـوا ينظرون إلينـا نظرتهم إلى أخطـر الأشقياء. وفي بادىء الأمر كان القائد او المعاون او الطبيب او المرض لا يأتون إلّا بـرفقة عـدد كاف من الحراس بسلاحهم وحرابهم... ولكن بعد مضي ثلاثة أو أربعة أيام اكتشف الميجر حقيقة أمرنا وأنه لم يكن هنالك عصابة أو أشقياء فصار يأتي هو ومعاونـه بدون حـارس ولا سلاح. ولم يمض أكثـر من اسبوع حتى أصبحنـا أصدقـاء معه ومـع الطبيب العجـوز «آتكنسن» وتبـدلت المعاملة وبدأت التسهيلات تأتينا ولو بشيء من البطء فوافقـوا على استخـدام طباخ وخـادمين من

الزنوج على حسابهم وأخذوا يسمحون لنا بارسال ثيابنا إلى الغسيل خارج المعتقل وسمحوا لحلاق هندي أن يأتينا مرتين بالشهر وأن نشتري بعض الحوائج بواسطة الضابط مأمور المبيعات وأن نخرج نتمشى في الأحراش خارج «الكمب» بصحبة حارسين.. واتوا لنا براديو صغير نسمع منه اخبار سالسبوري وجوهانسبورغ وبعض الموسيقى. وكان الميجر يسعى كثيراً لدى الحكومة بشأن الترفيهات والتسهيلات وكان كثير الاعتماد على «العقلاء» وعلى جمال الحسيني مندوبنا. كما أنه كان معجباً بالشريف شرف لأنه صبور ومتكل على الله وكانوا يحترمونه ويعاملونه معاملة «وصي سابق» لا سيما بعد أن قرأوا عنه في كتاب «لورانس» حول الثورة العربية الكبرى.. وكان أكبر مساعدة قاموا بها تأسيس معتقل جديد للمنشقين بعد أن وجدوا أن جمعنا في مكان واحد لا يؤمن راحتنا.

وهكذا يبدو من الواجب أن اعترف لحكومة روديسيا بصورة عامة ولشخص المستر فين بصورة خاصة بالجميل وأن اشرك معهم الميجر برايتهوبت لأنه كان واسطة خير بيننا وبين السلطات المسؤولة عنا ولم يأتنا شر من الحكومة وكانت معاملتهم من اطيب المعاملات. والشخص الوحيد الثقيل بينهم كان معاون القومندان الملازم تربلينغ الذي ترفع بعد مدّة وصار كابتن ثم ترفع وصار ميجور بفضل «خرابيط» العراقيين وعين مكان الميجر برايتهوبت الذي نقل إلى «كمب البولونيين» على أثر هروب ثلاثة من الشبان.. وكان الملازم تربلينغ رجلاً عصامياً إذ أنه قبل الحرب كان مستخدماً في احد «الكارازات» في سالسبوري. فلما تأسست المعتقلات عينوه مترجماً لأنه دانماركي الأصل من منطقة الحدود الالمانية ويعرف الالمانية ـ حتى يقال انه الماني ـ ثم رفعوه من عريف إلى ملازم وعندما وصلنا سالسبوري وجدناه معاوناً للقومندان.. وكانت تظهر خصائصه الدنية مثل نشافة في كلامه وتصرفاته ونفخاته وكثرة لغوه حتى صرنا نتحاشاه ونهرب منه. وكم صادف أن «رذلناه وطردناه» وهزأنا به ولكنه كان عبيطاً لا يبالي وكانت كراهة تربلينغ عامة تشمل جميع المعتقلين من الالمان والطليان ومن جنود الحرس لأنه كان «يتعنتك» بسخافاته وكلامه البارد ويتعجرف ويتظاهر بأنه لولاه لانهدمت أركان الامبراطورية البريطانية. وشأن تربيلغ شأن «المتبرطنين» في جميع العالم إذ يصبحون أشد انكليزية من الانكليز الأصليين على أن المستر تربليغ كان ملتزماً من قبل رئيس المعتقلات الكولونيل هاملتون الذي كان في الوقت نفسه مديراً للشرطة وكان عريفاً في الأصل عندما أتى إلى روديسيا وهكذا فإن الطيور على أشكالها تقع.

أما الحرس فكانوا في بادىء الأمر من أهل روديسيا وكانوا كلهم مؤدبين ومعاملتهم طيبة. ولكن في الأيام الأخيرة أصبحوا كلهم من اليهود المتطوعين وكانوا من كل فج عميق وكان من الطبيعي أن أصبحت علاقتنا بهم ناشفة ومحدودة.

أيام الاعتقال كلها أيام ملل وضجر ولكن كان يخفف من وطأتها أنها شملت ملايين من البشر في العالم وأنها مصيبة عامة نزلت بالناس رجالاً ونساءً وأطفالاً دون أن يكون لهم ضلع بأسبابها. فنحن كنا ضحايا حرب أوروبية لا علاقة لنا بها لولا طيش الطائشين وحماقة الحمقى ولكن سيأتي يوم تزول فيه كل هذه المأساة.. كنا نجد في مثل ذلك التفكير عوناً على تحمل تلك الأيام والتمتع بكل ما يمكن ان ينسى ويبدل تلك الحياة. وقد سطع نجم رؤوف البحراني في المعتقل لأنه

صمد وتحمل ورمى بكل شيء الى القضاء والقدر وأخذ يضحك ويمزح ولا يهتم بأمر. فصار الجميع يمزحون معه وهو لا يبخل بالنكت وبضرب الأمثال وإن كان يبخل بكل شيء آخر.. وظهرت لرؤوف مزية اخرى وهي أنه لا يزعل من أحد ويتحمل الهزل والجد بصدر رحب وكان الجميع يميل الى مداعبة «أبا إحسان الورد». مثل ذلك أننا رتّبنا كتاباً مزوراً في أول أيام نيسان/ ابريل وأتى به له السارجن وعليه الطوابع وكتبناه بالانكليزية باسم عديله السيد عبدالمهدي وفيه بشائر العودة القريبة واستعداد لإرسال الدراهم اللازمة للسفر. وكان من عادة أبي احسان أن كل اموره كانت سراً من الأسرار وهكذا كانت مكاتيبه من بغداد. بينما كنا جميعاً نتبادل ما يأتينا من اخبار بغداد وان كنا لا نصدقها كلها. وكان أكثرنا سخاءً بالشائعات محمد علي محمود إذ أن كل بريد يأتيه بآمال العودة القريبة. عند العصر وقت الشاي صرنا نتساءل عما هنالك من أخبار وقد سأل ناجي السويدي: «أي وانت شكو عندك ابو احسان يقولون جالك مكتوب من بغداد». قال: «والله ماكو شي باشا.. مكتوب من العائلة... كيفهم زين ومثل هذا الكلام». ولما سأله عن التاريخ قال: «١٠ مارت». والحال انا كنت واضع التاريخ ١٨ مارت. فرأى ابو احسان أن مصلحة الكتمان تدعو إلى تأخير التاريخ حتى يظهر الكتاب متأخراً عن كتب الجماعة الآخرين.. وفي اليوم الثاني قلنا له: «ان موظفي الكمب يقولون أن الكتاب آت من وزير» فقال: «لا وزير ولا بعير» فصرنا نضحك كثيراً وهو يضحك معنا حسب عادته.. ثم قلنا له: «يقولون أنه موقع من عبد المهدي وأن تاريخه ١٨ مارت. فلما سمع ذلك. حار قليلاً في أمره وبهت لونه. ثم استدرك الأمر بقهقهة عالية قائلاً: «آخ! يا حزاقة! هم سويتوها بي» فكان ضحك وقهقهة طوال ذلك اليوم وطيلة السهرة. ومن عادة أبي احسان أنه كان الشخص الوحيد في الكمب الذي يغلق غرفته ويضع مفتاحها في جيبه. حتى عندما يكنس الخادم الغرفة كان يذهب معه ويقف على رأسه حتى ينتهي منها فيغلق الباب ويضع المفتاح في جيبه ويرتاح باله.. وعبثاً حاولنا ان نقنعه بأن لا لزوم لهذا الاحتياط إذ ان كل الغرف كانت مفتوحة ولم يفقد احد منا شيئاً.. وذات يوم قررنا أن نداعبه في هذا الامر. فعندما خرج ابو احسان مرتدياً «الروب دوشامبر» وبيده الليفة والصابونه والمنشفة وتوجه إلى الحمامات بعد أن اغلق الباب وأخذ المفتاح حسب الاصول.. تركناه يغتسل واتينا بمفتاح من الغرف الأخرى وفتحنا الباب فدخل جمال الحسيني ونام في سرير ابي احسان بعد ان اغلق الباب.. وبعد مدّة خرج رؤوف من الحمام ومنشفته على رأسه فاستقبله الجميع: «نعيماً ابو احسان! نعيماً ابو احسان» وابو احسان كان يجيبهم بضحك ومرح وكنا كلنا نتعقبه باعيننا. فلما وصل إلى غرفته وهي في ركن البناية اخرج مفتاحه وفتح الباب ودخل ثم سد الباب ولكن سرعان ما رأيناه يخرج من الغرفة متعجباً ويقف أمام الباب وينظر إلى اطرافه كأنه دخل غرفة أخرى خطأً وكان منظر غريب ولم نملك انفسنا من الضحك فلما رآنا أخذ يقهقه باعلى صوته..

وكان لابي احسان ولع خاص بقطع بعض الرسوم من المجلات والصحف وجمعها في دفتر من صنع يده يسميه «ألبوماً».. وكان لا يقع نظره على صورة إلّا وشغل المقص وقطعها وكانت هذه «الألبومات» أيضاً من الاسرار التي لا يطلع عليها أحد ومهما رجوناه أن يرينا اياها لم يرضى.. فقررنا أن نطلع عليها بصورة من الصورة واتى يوم الجمعة وكان ابو احسان دائماً في رأس المصلين وذلك بالرغم من أنه لا يعتقد بصلاة الجمعة.. ولكن المسألة فيها سيارة إلى الجامع وفي الجامع هنود وعبيد وفيه شربات وفواكه بعد الصلاة ولذا كان ابو احسان لا يفوت صلاة

الجمعة.. لما ذهب دخلنا غرفته ووجدنا الدفاتر المذكورة وفيها قصاصات سخيفة كاعلانات بعض الحاجيات النسائية وعلى كل كانت «البومات» اشبه بما يجمعه الصبيان من مختلف الصور والرسوم للنساء والبنات. وتولى جودت ومدحت ومحمد عباس امرها فحذفوا منها رسوم «الجميلات» ووضعوا مكانها «كاريكاتورات» لستالين وتشرشل وهتلر وما شابه ذلك ثم اعادوا الالبومات إلى مكانها وأغلقوا الباب، وأتى أبو احسان من الجامع ولم يلاحظ شيئاً جديداً ولكنه صبيحة اليوم التالي كان غاضباً وذهب إلى جمال الحسيني بصفته وكيلاً عن المعتقل يشكو إليه أن بعض الناس دخلوا غرفته اثناء غيابه وأنه استفقد بعض الدراهم والجوارب.. وكان قصد ابي احسان أن يعظم الأمر.. فاجتمعنا وصرنا نسأله عن مقدار الدراهم وشكل الجوارب المفقودة.. قال أنه لا يعرف ذلك.. فضحك الجميع إذ لا يمكن ان يتصور ان يفقد ابو احسان شيئاً ولا يعرف عدده ولونه وشكله. فلما رأى ذلك اخذ هو أيضاً يضحك معنا.. ثم اعدنا له الرسوم المرفوعة من الدفاتر وانتهى الأمر.. وهكذا كان لا يمر أسبوع واحد دون أن «يهدينا» ابو احسان بمداعبة مما جعل الجميع يتلاطفون معه وكان هو الوحيد من بين «العقلاء» الذي سلم من شر المتحمسين والطائشين لأنه كان يساير الجميع ويضحك مع الجميع..

ولا تخلو حياة الاعتقال المملة من المصائب الاضافية. وكانت قضية المسكين عارف الجاعوني أول ما اصبنا به. رأيت عارف الجاعوني لأول مرّة في سجن الاهواز وكان ابنه مجدي أيضاً معتقلاً معه، ولكن عندما اخذوا السوريين وقسماً من الفلسطينيين أخذوا مجدي وتركوا اباه معنا. كان الرجل صائماً مصلياً متديناً قليل الكلام لا يضحك ولا يبتسم.. أما حرفته فكان على ما يقال حداداً ولأنه انضم إلى المجاهدين في فلسطين صار يصنع لهم قنابل وأنه فقد عيناً بسبب انفجار قنبلة اثناء صنعها.. فلما هرب المفتي إلى العراق التحق به وبقى بمعيته وانتهى به الأمر إلى سالسبوري.. ومهمة ابي مجدي في «الكمب كانت الاذان واقامة الصلاة ثم أخذ يقضي وقته بصنع «التواقيت» للمصلين وغير المصلين ويوزعها عليهم. وكلما مرت الايام ازداد سكوت عارف الجاعوني وأخذت صحته تتردى. واكله يقل. ثم صار يطبخ هو لنفسه خوفاً من ان يسّممه برناوي خادم المفتي. ثم أخذ يمتنع عن الأكل بتاتاً لأنه يرى الشياطين ترقص في صحنه وهكذا ظهرت عليه امارات الجنون. وفي اوائل حزيران/ يونيو عندما دق الجرس واجتمعنا لتعداد الصباح جاء عارف الجاعوني يحمل لحافه ووضعه أمام السارجن في وسط نصف الدائرة وأخذ يقول: « أنظر إلى هذا اللحاف! هؤلاء جميعهم كل يوم يبولون عليه انهم اعدائي!» وعندما أتى الطبيب اتكنسن ذلك اليوم لمعاينته أخرج له آلته قائلاً: «شوف يا دكتور! أنا آلتي صغيرة ولكن الشريف شرف آلته طويلة. فهو كل يوم يمدها من الشباك ويبول على فراشي!». وبناءً عليه اخذوا عارف الجاعوني إلى مستشفى المجانين في «بولاوايو» وقد سافر معه جودت لأجل الترجمة وبقي المسكين الجاعوني هناك حتى وافاه الأجل: «وما تدري نفس بأي أرض تموت»!

أما الضربة القاسية فكانت وفاة المرحوم ناجي السويدي فإنها هزتنا هزاً ثم رمتنا في أحضان حزن عميق ويأس كبير. لأننا بوفاته فقدنا أخاً كبيراً مشجعاً ومؤنساً مسايراً ومرشداً... فكنا نلتجيء اليه عند الصعوبات والأزمات وكان رحمه الله دائماً مستعداً لتسوية الامور وتلطيف القلوب. كان ناجي السويدي في الطريق وبعد وصولنا إلى سالسبوري دائماً يقول: «أنتم

ستعودون إلى الوطن ولكن أشعر بأنني سوف لا أعود..» ومع ذلك فإنه كان صابراً شجاعاً متحملاً وان كان لكبر سنه وارتفاع مركزه وسجل خدماته لبلاده أحق من الغير أن يتذمر ويشتكي مما حلّ به وبنا.. ولكنه كان يدفع هذه الافكار المؤلمة ويحمل ما حل بنا للقضاء والقدر وينهي الأمور بقصة مضحكة تناسب الوضع.

في بادىء الأمر كان ناجي السويدي يشكو من عسر البول ولما لم تتحسن صحته بمعالجة الطبيب العجوز آتكنسن فقد نقلوه الى المستشفى في ٢٧ حزيران / يونيو فبقي هناك مدّة ثم عاد الى «الكمب» بألم في كتفه وظهره. ورجع في ١٢ آب/ اغسطس من المستشفى بعد التداوي فوجدناه على غير عادته وأخذ يتلعثم بالكلام ويقول ما لا يفهم، فأتى الطبيب مساءً ولما رآه في تلك الحالة نقلوه ليلاً الى المستشفى.. وفي اليوم التالي عندما ذهبت أنا وجمال الحسيني الى مدير المعتقل لنكلمه بشأن ناجي باشا أخبرنا بأنه منذ الساعة العاشرة والنصف مساءً قد فقد شعوره وأنه أصيب بنوبة وأن حالته خطرة.. تألمنا كثيراً لهذه الأخبار. وذهبت ذلك اليوم مع عبدالقادر الكيلاني والكابتن هوردن الى المدينة حيث قابلنا إمام الجامع ورئيس الجالية الاسلامية لاحضار ما يلزم من المراسم الدينية وغيره. بعد ذلك ذهبنا الى المستشفى ورأينا ناجي السويدي وكان قد أغمي عليه وأصيب بشلل نصفي.. ذهبنا ليلاً أيضاً الى المستشفى فأخبرونا بأنه أصيب بنزيف في الدماغ وأنه قد لا يبقى على قيد الحياة حتى الصباح.. وبقي المرحوم في تلك الحالة حتى وافاه الأجل في ١٧ آب/ اغسطس ١٩٤٢. وكان الحزن كبيراً وحقيقياً. فأبرقت الى توفيق السويدي في بغداد لأخبره بما وقع.. وفي اليوم التالي أقيمت الصلاة على المرحوم في الجامع والقى أمين التميمي صديق الفقيد وملازمه خطاباً تأبينياً حماسياً ثم نقلت الجنازة الى مقبرة المسلمين محمولة على أكتاف جماعة منا ومن الهنود والعبيد المسلمين..

كنت أشعر بألم شديد لذلك المنظر الحزين.. هذا رجل عالم وزعيم مقتدر ونبيل من بيت معلوم ومحترم. رئيس وزراء سابق، صديق فيصل، ورئيس مؤتمر بلودان وضيف جورج الخامس عند زيارة الملك فيصل انكلترا. هذه جنازة ناجي السويدي يمشي وراءها عدد من الهنود والعبيد وهم نصف عراة... إنها حقاً لفاجعة.. هذا الرجل الوطني يموت في منفاه وبعيداً عن أهله وأخوته وأصدقائه وأبناء وطنه ويدفن في مقبرة متواضعة في سالسبوري. ولعل في هذا كله عبرة أليمة. وبوفاة ناجي السويدي انطوت صحيفة من صحف المأساة العراقية ـ العربية فقد أحدثت وفاة السويدي فراغاً كبيراً بيننا وصيّرت حياتنا في المعتقل لا تطاق ولا تحتمل.. لا سيما وكنا نرى بعض الشبان كمحمد عباس غير مبالين ولا متأثرين ولربما كان فيهم من وجد سلوى خسيسة في تلك الفاجعة، ولم يخف محمد عباس يوماً شعوره الدنيء عندما قال لرؤوف البحراني عن طريق الهزل أنهم حجزوا له رقم ٧٢ قاصداً بذلك أن رقم قبر السويدي كان ٧١ وأنه سيكون جاره..

بعد وفاة المرحوم ناجي السويدي ببضعة أيام أتانا المستر «فين» معزياً فشكرناه على شعوره وفي الوقت نفسه بيّنّا له حالتنا ووضعنا الخاص وأن الاعتقال هذا سيؤدي بنا الى ما أدى بالمرحوم السويدي الذي مات كمداً وقهراً.. فوعدنا المستر فين خيراً وقد بر بوعده. إذ انه في ٢ أيلول/ سبتمبر أخبرنا الميجور بأن الحكومة وافقت على ان نسكن نحن الخمسة (الشريف شرف ومحمد علي ورؤوف وعبدالقادر وأنا) خارج المعتقل وذلك في قرية تبعد خمسين ميلاً عن

سالسبوري. فسررنا بذلك وأبقينا الخبر مكتوماً خشية حصول الشغب في المعتقل. وصار الميجر يفتش لنا عن مكان مناسب في «مارندللا» وذهبنا مرة أنا ورؤوف البحراني معه ورأينا المنزل ووافقنا على استئجاره ولكن صاحب البيت بدّل رأيه ولم نحصل على نتيجة. ومضت مدة شهرين بل أكثر، دون أن نجد منزلاً مناسباً. وفي تشرين الأول/ اكتوبر انتقل الشريف شرف ومعه عبدالقادر الكيلاني الى دار الميجور الريفية وهي تقع على بعد ١٤ ميلاً من سالسبوري وبما أنه ليس فيه غرف كافية فقد بتنا نحن الثلاثة ننتظر الفرج ولم نجد داراً إلّا في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر وقضينا كل تلك المدة في المعتقل بين الخير والشر.

في ٢١ آب/ اغسطس عند الفجر حصلت حركة مفاجئة في المعتقل ورأينا الشباب مخبوصين وجمال الحسيني يعطي التعليمات وفهمنا فيما بعد ان الدكتور امين رويحة وصل الى المعتقل قادماً من فلسطين. أنا لم تكن لي معرفة سابقة بأمين رويحة ولكني كنت أسمع عنه أنه وطني وأن الانكليز القوا القبض عليه عندما هبطت الطائرة التي تقله في طريقها الى مصر وذلك في أوائل الحرب لميوله النازية وعدائه لبريطانيا. بعد الافطار تعرّفنا على الضيف وأخذ يقص علينا تفاصيل اعتقاله ونقله بالطائرة من فلسطين الى «بولاوايو» وذلك لتردي صحته. وفي الحقيقة كان الدكتور رويحة جلداً وعظماً، كما يقولون وذلك لسوء معاملة الانكليز له على ما يدّعي وأنهم سجنوه في «زنزانة» لوحده مدة طويلة، وذكر لنا ما يصدقه العقل وما لا يصدقه. حتى ظهر في نظر المصدقين ولا سيما الشباب المتحمس بمظهر «الشهيد الحيّ». وكان من الطبيعي ان يلتف حوله الشباب لأنهم وجدوا فيه محركاً لأعصابهم وموقداً لنيرانهم وكان الدكتور يستغل الوضع «ويزرع بالدكل» ويعد بانتصار الألمان القريب وخذلان بريطانيا وحلفائها حتى استولى على عقول الشبان وفي مقدمتهم فاضل وعبدالرزاق شبيب اللذان اصبحا مرافقين له لا يفترقان عنه. ولما رأى الدكتور أن هناك برودة بين «العقلاء» والمتحمسين استغل الوضع ونصّب نفسه «قائداً» على المتحمسين وأخذ يشاغب ضد جمال الحسيني وضدنا... وبدأ الشغب باقتراحه أن يعود المنشقون من المعتقل الجديد ويسكنوا معنا. فلما وجد أننا لا نرغب في ذلك أخذ يحيك الفتن والمشاكل فاشتد العداء بينه وبين الحسيني وحصل لغو ومشاجرات حول توافه الأمور. واثبت الدكتور رويحة أنه اسخف المشاغبين وأقدر المفتنين وقد علم الميجور بتصرفات الرجل وانتهى الأمر به إلى النقل منّ «كمبنا» إلى كمب المنشقين، وهناك وجد أن الجو قد خلا له تماماً فانتخبوه رئيساً عليهم فأخذ يغني ويصفر كما يشاء. وهذا رجل مثقف عاش سنين طويلة في المانيا واشتغل على ما يقال في القضايا الوطنية.. فكيف يا ترى يجد لذة في مثل هذه السخافات ويمشي فوق الأرض مرحاً ويمشي وراءه عدد من الحمقى الجهال كمتعب حسن وزملائه ويعتقد بنفسه منتصراً وأن المستقبل والدنيا كلها سيخضعان له! ويخلق ما لا تعلمون!

اتانا ضيف جديد في ٢٧ ايلول/ سبتمبر وهو كمال حداد الذي كان معنا في سجن الاهواز ثم أخذته السلطات إلى فلسطين قبل سفرنا. اخبرنا بأنه قضى ما يقارب السنة بالتحقيق وهو معتقل في فلسطين والآن اتوا به إلى هنا ربما بسبب التقدم الالماني. كان هذا الرجل يأتي احياناً إلى الخارجية مع المفتي أيام نوري السعيد ومن بعد ذلك أيام رشيد عالي وكان اسمه إذ ذاك «توفيق افندي» وانه سكرتير المفتي، وأيام الثورة وبعد ان حصل التصادم كان يأتي أيضاً مع المفتي ويختلي هو أيضاً مع رشيد والمفتي ممّا جعلنا نعلم بأنه من المعتمد عليهم ومن المقربين. ثم

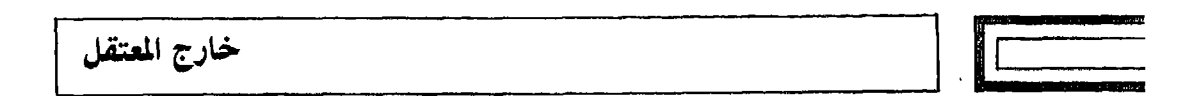
جمعتنا واياه الظروف في سجن الاهواز وكان توفيق افندي الآن «كمال حداد» وكان عائشاً مع علي محمود في غرفة واحدة إلى أن اخذوه من السجن. وكمال حداد هذا رجل صغير الحجم ومن مزاياه أنه ذكي ومنكّت متواضع يمزح مع الجميع ويرضي الجميع. قص علينا حالة الاعتقال في فلسطين وكذّب ما نقله الدكتور رويحة من المبالغات وأخبرنا أن السلطات وضعت الدكتور في سجن منفرد لأنه شاغب وأفسد بين المعتقلين.

أردت يوماً أن افهم سر كمال حداد والمفتي. فصرنا نتمشى وأخذ كمال يقص عليّ ما خلاصته: أنه حصل على جواز عراقي باسم توفيق وسافر إلى ايطاليا والمانيا للتجارة في الظاهر وللاتصال بالحكومتين سراً. وكان سفره اثناء الحرب وتم الاتصال في ايطاليا بمن يريد وأن التعليمات كانت معطاة له من قبل المفتي. وأنه عاد يحمل الوعود بمساعدة العرب وقضية فلسطين ويحمل جهازاً لاسلكياً وشيفرة لأجل المخابرة وأن مهمته لدى المفتي كانت تأمين هذا الاتصال. ولما سألته لماذا خدعتم رشيد عالي والجيش اثناء الحركات بأنه ستصل نجدات كبيرة من الطائرات وورطتم الجيش قال: «حصل غلط في حل الشيفرة إذ قرأنا حرف K بدلاً من H ففهمنا غلطاً أن اسراباً من الطائرات ستصل إلى العراق والصحيح كان أن الدكتور غروبا سيصل إلى العراق» ولم نحس بتلك الغلطة إلّا بعد وصول الدكتور غروبا ومراجعة الشيفرة من جديد»..

كان كمال حداد يتكلم ويضحك كأنه لم يحصل هنالك شيء. وكنت أود لو خنقته خنقاً تلك اللحظة. نعم هكذا كانت مقادير البلاد يلعب بها المفتي وسكرتيره هذا الصعلوك. إذن هذا كان منبع وحي القواد ورشيد عالي.. ولو غفر الإنسان للقواد طيشهم بسبب حماقتهم فكيف يغفر لرئيس الوزراء استلامه لهذه الترهات بالرغم من نصائحنا وارشاداتنا. هكذا كان دماغ رشيد عالي يقوده كمال حداد ببرقياته المزيفة ويؤثر عليه حسام الدين جمعة «بزوبعياته وهوساته..» .. ولكن المفتي سلم ولم يزل زعيماً محترماً مقدساً. وكمال حداد سلم ودخل في صفوف المجاهدين المخلصين وحسام الدين جمعة سلم واصبح اميناً للعاصمة ومقرباً. وحلت المصيبة برأسنا... نحن المعارضين لتصرفات رشيد والناصحين له!.

كنا يوماً نستعرض ما حدث وكان المرحوم ناجي السويدي يشبه اعمال يونس والقواد بالمثل العراقي القائل «برأسه صوت» وخلاصة القصة أن حماراً وبعيراً كانا يسرحان ويمرحان في غابة فمرت قافلة من بعيد وهنا وسوس الشيطان في صدر الحمار فأراد في تلك اللحظة أن يغني. وعبثاً حاول البعير أن يقنعه بأن يصبر قليلاً حتى تمر القافلة ولا يسمعوا صوته ولكن الحمار كان «برأسه صوت» ولم يرتح إلّا بعد أن صاح بأعلى صوته.. وأن انكر الاصوات لصوت الحمير. فلما سمع ركاب القافلة ذلك اخذوا يفتشون وسرعان ما وجدوا الحمار والبعير فضموهما إلى القافلة وحملوهما الاثقال ولم يمر وقت طويل حتى أخذ الحمار يعرج من ثقل الحمل فرفعوا ذلك الحمل ووضعوه فوق البعير وعندما أخذت القافلة تصعد تلّاً توقف الحمار بالمرّة ولم يستطيع المشي فأخذوه ووضعوه أيضاً على البعير! وهكذا أتت المصيبة بسبب صوت الحمار الذي علا في غير وقته. وكان جمال الحسيني معنا ينصت لهذا المثل. فلما انتهى ناجي السويدي قال جمال: أن المفتي كان مُوتوراً واستعمل العراق كما يستعمل الموتور حجراً يرمي به خصمه». وقد صدق جمال بقوله وتشبيهه. فالمفتي ضحى بالعراق ومصالحه وجيشه وحكومته في سبيل قضيته ولكن

كيف رضي العراقيون بأن يقودهم المفتي بهذه السهولـة؟ فمسؤولية رجـال العراق امـام التاريـخ كبيرة وليس رشيد عالي المسؤول الوحيد وإن انفجرت القنبلة على يده بل يشترك معه بذلك نـوري السعيد وطه الهاشمي ورؤساء الوزارات الآخرين الذين نصبوا بأيديهم المفتي ملكاً غير متـوج في العراق.. وكان كمال حداد هذا، امين سر ذلك الملك وكنا نحن الذين شبهنا السويدي «بالجمل» لا نعلم بدرجة نفوذ المفتي وراء رشيد إلاّ بعد فوات الاوان.



خارج المعتقل

الأيام التي قضيناها وراء الأسلاك الشائكة كانت أيام شقاء لا من جهة الاعتقال نفسه بل من جهة ما ذقناه من مرارة على يد إخواننا العراقيين وسخافات الشبان التي لا حد لها ولا نهاية. بعد أن انتقل «الاخطبوط» وهذا اسم اخترعه جمال الحسيني للدكتور أمين رويحة، لم يتم الصفاء لأنه ترك وراءه مرافقيه وهما فاضل رشيد وعبد الرزاق شبيب، فأخذ يشاغب ويفتن من بعيد وراجع هذان القائد في سبيل دمج المعتقلين ورأى الميجور جرياً على العادة الإنكليزية الديمقراطية أن يستفتي فحضر هو ومساعده وجلسنا كلنا في الصالون فوزعوا علينا أوراق التصويت وكانت النتيجة أن صوت الجميع ما عدا اثنين ضد الاقتراح وهكذا فشل الدكتور رويحة وزميلية.

وبعد هذا بمدّة سمعنا بأن المنشقين في المعتقل الثاني قرروا الاضراب عن الطعام احتجاجاً على عدم دمج المعتقلين. سبحان الله! قبل شهرين أقام هؤلاء القيامة لأجل الانتقال إلى مكان آخر بعيداً عنا والآن نفس الجماعة يضربون عن الطعام في سبيل العودة إلينا.. فهؤلاء الشباب والضباط كانوا في أول صف من حركة يونس والقواد... وزعيمهم الجديد الدكتور رويحه كان فيما مضى نبي الجيش العراقي المبشر!... ولم يعر الميجور اهتماماً لإضراب الجماعة إذ عرف ما يقصد الدكتور رويحة من هذه المناورات وعليه فقد أرسله مع ناجي السامرائي إلى السجن لكونهما المحرضين على الاضراب وبث الفساد «وفطس» الجماعة بعد أربعة أيام من هذا النوع من «الجهاد الوطني»!

أما نحن فقد أصبحنا مشبعين بهذه الترهات التي تحزن وتضحك وكنا ننتظر بفارغ الصبر ترك المعتقل وأهله أو بالأحرى بعض أهله. وقد سهل الله الأمر ووجدنا داراً صغيرة في المحلة الجديدة التي تقع خارج المدينة القديمة، ولما وافق المسترفين على أن نسكن هناك استأجرنا الدار لبضعة أشهر وانتقلنا إليها في أول كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٢ أي بعد قضاء عشرة أشهر كاملة في المعتقل. وخرج بعدنا من المعتقل أمين التميمي وداود السعدي وسكنا في «نازارت هاوز» وهو ملجأ تحت إدارة الكاثوليك وقد تم ذلك أيضاً بمساعدة خاصة من المستر فين بالنظر إلى تقدم سنهما وضعف حالتهما الصحية، ووعد المستر فين بأنه سيرفه على الباقين وربما يسمح لبعضهم بالسكن خارج المعتقل والاشتغال ببعض الأعمال أسوة بالإيطاليين وغيرهم من المعتقلين واقترحوا على الدكتور رويحة بأن يشتغل طبيباً بالمستشفى لقاء مرتب ١٢ ديناراً بالشهر ويأكل ويشرب في المستشفى، ولم يوافق الدكتور على ذلك بل فضل السجن وصحبة رشيد فليح وناجي السامرائي ومتعب حسن وإخوانه من باب «الوطنية» الفارغة في الظاهر ولكن حبا بالتزعم الفارغ على «كاكه وكلمبه وكليب الماء» في حقيقة الحال... ولكل نفس ذوقها ولذتها!

انتقلنا محمد علي ورؤوف وأنا إلى البيت الجديد الواقع في روس أفنيو رقم ٨ في أول كانون الاول/ديسمبر بعد أن وقعنا على ورقة التعهد المحتوية على الشروط التي قيدونا بها وهي أن لا نجتمع بأحد أو نخابر أحداً دون معرفة قائد المعتقل وأن لا نبتعد عن دارنا أكثر من ميل وأن لا

نشتغل بأي نوع من السياسة.. فلما وصلنا إلى البيت وجلسنا في الصالون الصغير على كراسي مريحة وتغدينا على طاولة في غرفة الطعام شعرنا بأننا عدنا إلى الحياة من جديد. والذّ ما كان عندنا هو السكون وراحة البال وعدم رؤية وجوه المشاغبين وسماع أصواتهم وخناقهم المستمر واعتراضاتهم وتنويهاتهم التي سئمنا منها لمدّة عشرة أشهر!

نحن ثلاثة وعندنا ثلاثة خدم سود هم الطباخ علي والخادم جيمس والفلاح. واستلم رؤوف البحراني إدارة البيت والحسابات والمصاريف وأخذ محمد علي على عاتقه مراقبة المطبخ لأن له ولعاً خاصاً بالشوربة، أما أنا فاكتفيت بالحديقة وكنت أقضي أكثر الأوقات في المطالعة وعصراً في المشي. ولما كانت المسافة لا تتجاوز الميل الواحد فصرنا كل يوم نذهب شمال وجنوب وشرق وغرب أطراف البيت حتى عرفنا كل شبر من محلتنا وأخذ الناس يسموننا «بالفرسان الثلاثة». أما عيشتنا فكانت مملّة لا تبديل فيها ولا تغيير ولكن مع ذلك فانها بالنسبة إلى حياة المعتقل كانت كالجنة بالنسبة إلى السعير. لأننا هنا على الأقل تخلصنا من «اللغو» وعندنا راديو نسمع ما نريد ونشتهي بدون خوف أو وجل. ولكل منا غرفة خاصة فيها سرير مريح وأثاث لا بأس به وصرنا نأكل ونشرب ما نريد فلا بأس إن كانت حريتنا محدودة وحياتنا مقيدة. قضينا في هذه الدار العائدة إلى مسز «كامبل» سبعة أشهر.. وكان يأتينا مرة بالاسبوع عبد القادر الكيلاني وأحياناً الشريف شرف وكنا نحن أيضاً من وقت لآخر نذهب مع الميجور إلى المزرعة حيث يقيمان فنقضي النهار هناك ونعود مساءً.. ثم سمحوا لبعض العراقيين والفلسطينيين أن يزورونا أيام خروجهم من المعتقل فأخذ جمال الحسيني وأخوه داود الحسيني ومدحت وجودت يأتوننا من حين لآخر وأحيانا يتغدون عندنا.

تعرفنا على بعض العائلات الإنكليزية بواسطة الميجور برايتهويت وزوجته كجارنا ديڤس والمسز سميث والمستر والمسز دلانو والقنصل البرتغالي. وكان المستر سن السويسري وممثل الصليب الأحمر يزورنا ويأتي معه ببعض الزوار وهكذا تخلصنا نوعاً ما من الوحدة.. وأتانا أكثر من مرّة المستر فين وزوجته وبناته وأخذونا مرّة بسيارتهم في جولة حول المدينة. وكان المستر فين حتى استقالته يرعانا بعنايته ويبدي لنا جميع التسهيلات ومن جملة أصدقائنا الدكتور هيكنس وزوجته والميجور ستيفنس وزوجته وكان هؤلاء كلهم لطفاء معنا مستعدين لمساعدتنا فصرنا لا نشعر بأننا أسرى بين أيدي حكومتهم وأخذوا يشعرون بأننا أصدقاء لهم بالرغم من وضعنا الغريب...

كلما مرت الأيام ازدادت ثقة الحكومة بالنسبة لتصرفاتنا وعليه وبواسطة الميجور أخذوا يرخون الحبل قليلاً. فسمحوا لنا في بادىء الأمر أن نذهب إلى المكتبة العامة ونشترك بها للحصول على الكتب وأن نذهب إلى «البارك» (الحديقة) المجاور لها وتبعد المكتبة أكثر من الميل عن دارنا، فوجدنا بذلك ترفيهاً ونعمة جديدة وصرنا نذهب كل يوم صباحاً ومساءً إلى «البارك» حيث نقضي ساعات من وقتنا بالمطالعة والاستراحة في ظل الأشجار البديعة، وبعد ذلك بمدة سمح لنا المستر فين بأن نذهب أحياناً إلى المدينة لشراء بعض الحاجيات والذهاب إلى السينما. وكان لنا في هذا نعمة عظيمة. وصادف أن أول مرّة ذهبنا إلى السينما في أول شباط/فبراير أي بعد مرور سنة كاملة على وصولنا سالسبوري.. كذلك سمحت الحكومة لجماعة المعتقل أن يذهبوا كجماعات

متناوبة إلى السينما وصرنا نراهم هناك أحياناً وهكذا أخذ ثقل النفي والاعتقال يخف شيئاً فشيئاً وصرنا نذهب إلى مزارع بعض أصدقائنا ونبقى هناك لقضاء نهاية الأسبوع بعد أن نخبر الشرطة السرّية بذلك.. وأصبحت حياتنا تشبه حياة البشر الأحرار.. ولكن شرور اخواننا العراقيين وسخافاتهم لا تنتهي...

ففي ٦ آذار/مارس ١٩٤٣ كان الميجور برايتهوبت مع زوجته عندنا. وبينما نحن على العشاء رن التلفون وطلبوا الميجور فترك العشاء وأسرع إلى المعتقل وبقينا نحن نكمل طعامنا. بعد ذلك بربع ساعة أتت سيارة ونزل منها رجل قال أنه موظف من الشرطة السرية وسألنا فيما إذا كنا لنا علم أو فيما إذا رأينا ثلاثة من العراقيين وهم عبد الحق العزاوي وعبد الجبار محمود وسيف ناصر لأنهم خرجوا بعد الظهر من المعتقل حسب التعهد والترتيب الجديدين ولم يعودوا وقد مضى أكثر من ثلاث ساعات على موعد عودتهم. فقلنا للرجل بأننا لا نعلم عن ذلك شيئاً ولربما أنهم ضلوا الطريق فتأخروا.. إذ لا يعقل أنهم هربوا وإلى أين يهربون؟ وبعد مدّة عاد الميجر وكان متأثراً من ذلك الحادث سيما وهو الذي كان قد اقترح على الحكومة الترفيه على المعتقلين والسماح لهم بالخروج من المعتقل دون حارس وبمجرد اعطاء كلام شرف بالعودة في الأوقات المعينة. وتألمنا نحن أيضاً بأن يجازي هؤلاء الشبان احسان الميجور والمستر فين بهذه الاساءة ولكن كنا نعتقد بأنهم سيعودون إلى المعتقل سواء آجلاً أم عاجلاً. وفي مساء اليوم الثاني اتصلت بالميجر لأفهم ماذا حصل فأخبرني المستر فين بأن الهاربين قد اجتازوا الحدود وأصبحوا في المستعمرة البرتغالية وأضاف المستر فين مطمئناً بأنه سيبذل كل جهده كي لا يؤثر هذا الحادث على وضعنا نحن فشكرته.

أخذت الصحف المحلية تلوم إدارة المعتقلات والحكومة لعجزها عن ضبط أمور الاعتقال واتخذ المعارضون من هذا الحادث حجة لانتقاد الحكومة، وكتب أحد الصحفيين المتحمسين بأنه كان لزاماً على الحكومة بأن تعتني بأمر كل العراقيين المعتقلين بقدر ما يقتضي من الحيطة فيما لو كان «رومل» معتقلاً... وحصلت حملات شديدة حول الموضوع وأصبح هرب العراقيين حديث الأندية والمجالس. والغريب أن يتحمس الإنكليز لدرجة أن يشبهونا «برومل» وكان وراء تلك الحملات بالدرجة الأولى اليهود «المتبرطنين» الذين كان لهم نفوذ قوي في البلد وفي الحكومة. وأصبح وضعنا حرجاً ولولا وقفة المستر فين لكانت السلطات قررت إعادتنا إلى المعتقل لأن وزير العدلية الجديد لم يكن من المتساهلين وأراد أن يظهر حزماً وشدةً كما أن مدير المعتقلات العام الكولونيل «هاملتون» والكولونيل «روس» رئيس البوليس السرّي كانا دائماً غير راضيين على التسهيلات التي منحنا إياها المستر فين منذ بادىء الأمر.. ولكن المستر فين وقف وقفة مشرفة وهدد بالاستقالة قائلاً أنه ليس من العدل أن يعاقب أناس ابرياء عن أعمال قام بها غيرهم. وأننا قمنا بتعهداتنا ولم نخالف الشروط التي وقعنا عليها. وأثناء تلك الأزمة مساء ١٠ آذار/مارس أتى المستر فين على غفلة مساءً إلى بيتنا وأخذنا أنا ومحمد علي بسيارته إلى داره حيث لعبنا البريدج مع زوجته وهناك أخبرنا بأنه دعانا إلى داره ليرى الخصوم المهاجمون درجة اعتماده علينا وأنه عازم على الدفاع عنا مهما كلف الأمر... والحق أنه كان في موقف المستر فين المشرف عبرة كبيرة. وهكذا يخلق الله رجالاً شرفاء كرماء إلى جانب الحثالات؛ ويخلق ما لاتعلمون!

ودافع عنا أيضاً الميجر «ستيفنس» وقابل وزير العدلية بذلك الشأن وأخبرنا بأن الوزير وعده بأن هروب الجماعة سوف لا يؤثر علينا. وكذلك دافع عنا أصدقاؤنا في الاندية والمجالس. وسبّب هرب الأبطال الثلاثة نقل الميجر برايتهوبت إلى معتقل البولونيين في مارندللا. وتعيين الميجر «تربلينغ» مكانه وهذا رجل سخيف متعجرف ثقيل الدم. وقررت الحكومة بأن لا تدفع لنا أكثر من ثلاث باوندات في الشهر نقداً وأن تدفع مصاريفنا كالإيجار وحساب البقال وغيرهما مباشرة اعتقاداً منها أن وجود الدراهم قد يشجع على الهرب. وحاول الميجر تربلينغ أن يقنعنا بلزوم توقيع تعهد جديد نقرّ فيه أنه إذا هرب أحد من المعتقل أو حاول الهروب فأننا نعود إلى المعتقل فرفضنا أن نوقع على مثل هذه السخافات بعد أن «زفيناه» واسمعه عبد القادر الكيلاني كلمات قارصة وكتبنا احتجاجاً شديداً إلى وزير العدلية عن تصرفات القائد الجديد. وقررت الحكومة جمعنا. بأن يسكن الشريف شرف في «نازارت هاوز» مع التميمي والسعدي ويسكن عبد القادر معنا ولربما هذا التدبير أتى لإيذاء الميجور برايتهوبت الذي كان يقبض ١٢ باونداً بالشهر على داره التي يسكنها الشريف وعبد القادر. وبعد مدّة أتانا يوماً الميجور «تربلينغ» وكنا نتعوذ بالله من الشيطان الرجيم كلما يأتينا لأنه لا يحمل إلّا أخبار الشر، أتانا وأخبرنا بأن الحكومة قررت بأن لا نبتعد، أكثر من ٢٠٠ ياردة عن الدار ومعنى ذلك أننا نبقى محبوسين فيها فرفضنا التوقيع على هذه الشروط وصرنا نكيل له بقارص الكلام فخرج يجر قدميه وراءه ولم يتألم لأن من عادته أن ينتفخ ويعربد أمام الرجل المؤدب ويخرس أمام من يعتدي عليه بالكلام ويؤنبه. وقد وصل الأمر بنا ذلك اليوم بعد أن أخبرنا باسماً مستنصراً بالشروط الجديدة أن طردناه وأفهمناه بأننا لا نسمع ولا نريد أن نسمع مثل هذا الهراء لا منه ولا من رؤسائه. وفي اليوم التالي ذهبت أنا وعبد القادر لمقابلة سكرتير العدلية الجديد المستر «سمث» الذي أشغل مكان المستر فين بعد أن اعتزل الأخير الخدمة وذهب إلى مزرعته. فوعدنا المستر سمث بأنه سيكلم وزير العدلية. وبعد مدّة أتى الميجور تربلينغ وأخبرنا بأن الشروط القديمة تبقى على حالها وأن المسافة ستكون أربعة أميال بدلاً من ٢٠٠ ياردة وهكذا انتهت أزمة الهرب بالنسبة لنا..

كانت أخبار «الكمب» والدكتور رويحة «الأخطبوط» تأتينا إما عن طريق الميجور تربلينغ أو بواسطة الحسينيين الكبير والصغير وكذلك جودت عندما يزورنا. بالطبع سحبت الحكومة بعد حادثة الهرب الامتيازات عن الجماعة فتضرر بها البريء والمجرم على أننا كنا نعتقد أن للدكتور رويحة دخلاً في الأمر وتبين بعده أنه كان يريد تدبير «هريبة عامة» يقودها هو بنفسه ولكن الثلاثة عجلوا بالأمر فذهبت تدابيره أدراج الرياح...

إن الهرب من الاعتقال حق مشروع ولا لوم على من يهرب من الأسر والاعتقال بل يعد ذلك من مفاخر الرجال ومن أنواع البطولة على أن يتم ذلك بصورة شريفة. أما الجماعة وزعيمهم رويحة فلم ينظروا إلى هذه الناحية فانهم هربوا بعد خروجهم من المعتقل وبعد اعطائهم تعهداً بالعودة في الوقت المعين وأن نكث العهد وعدم احترام الشروط التي تم الاتفاق عليها يعدان خرقاً ونقضاً لا يشرفان من ارتكبهما ولذا لم يجد الناس في هرب الابطال الثلاثة إلّا ما يبرر الذم واللوم. وقال لنا المستر فين بعد الحادث أمام الكولونيل هاملتون والميجور برايتهوبت: «اننا كنا دائماً نعتقد بأن العربي يفي بوعده ويحترم كلامه.. ولكن لكل قطيع من الغنم خرافه السود ولكل شعب صعاليكه ونحن لا نريد أن نلومكم كلكم لما قام به بعضكم...» فهرب الثلاثة أتى كضربة

لكرامة العرب المعتقلين، ومما زاد في الطين بلة أن الابطال عندما وصولا «بيرا» اتصلوا بالقنصل الألماني هناك وأرسلوا برقية إلى رشيد عالي في برلين يذكرون فيها بأنهم تحت أمره. هذا في زمن أعلن العراق الحرب على المحور. وليت شعري ماذا يقدر أن يعمل عبد الحق وعبد الجبار وسيف وهم في المستعمرة البرتغالية ورشيد في برلين.. انه طيش صبيان. وانهم بذلك العمل اضروا أنفسهم وإخوانهم... وكتب أحدهم عبد الجبار بعد هربه بثلاثة أيام كتاباً إلى الميجور برايتهوبت يعتذر له عما فعل ويقول أن السبب الذي دفعه على الهرب هو قلة الطعام في المعتقل وأن ذلك لا يكفي الطفل وهذا غير صحيح بالنسبة إلى الجميع ما عدا عبد الجبار محمود الذي كان يأكل كل ما يقدم له وما يفضل عن غيره وكانت الكمية في نظره دائماً هي القضية الأولى في الحياة. إذ كان يضع أمامه من الطعام ما يكفي لثلاثة أو أربعة ثم يخلط الجميع ويهجم بالملعقة ويلتهمه كالوحش وكان منظره وهو يأكل مما تشمئز منه النفس. فهذا البطل هرب لأن الأكل لم يكن يكفيه. وهرب معه زميلاه لأسباب تافهة ولا شك. وكما قلت لو أنهم هربوا من المعتقل بصورة شريفة لما لامهم أحد ولكن طريقة الهرب كانت لا تسر ولا تشرّف. ولما أرادت الحكومة تبديل الشروط الممنوحة لهم قبلاً رفض الجماعة بتشجيع من رويحة قبول الشروط الجديدة وحصل هرج ومرج في المعتقل وأخذ الجميع يهتفون بحياة رشيد عالي ويضربون جدران الأبنية الحديدية بالحجارة والاخشاب وكانت النتيجة أن أرسلوا جميعهم إلى السجن لمدة شهر ولم يبق في المعتقل الصغير غير الحسينية وجودت. بينما كان كامل شبيب لوحده في معتقل الإيطاليين لأنهم بعد أن رفعوه إلى درجة الأبطال في بادىء الأمر بأمر من الدكتور رويحة أنزلوه إلى دركة الخونة لأنه لم يشترك معهم بالاحتجاجات. وهكذا كان الدكتور رويحة يتصرف بعقول هؤلاء المساكين ويقودهم من حبس إلى حبس ومن معتقل إلى معتقل ومن سخافة إلى سخافة... ومن أغرب ما في الأمر أن مدحت علي مظلوم المثقف الفاهم الفنان أيضاً في آخر الأيام ترك جمال الحسيني وصديقه جودت وانضم إلى الدكتور رويحة وجماعته وصار أحد «وزرائه» واشترك بسخافاته وذهب مع الأبطال إلى السجن وفي ذك مثال بارز على ضعف الأخلاق لدى شبابنا المثقف وهذه علة العلل لم نرَ أحداً من شبابنا غير مبتلٍ بها... وما أصدق شوقي حين قال:

وإنما الأمم الاخلاق ما بقيت   فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا...

ولو منح الله العراقيين من الأخلاق بقدر ما منحهم من الذكاء وعزة النفس والشجاعة وغيرها من مزايا الرجال لما حل بالعراق ما حل. ولكن هذا هو العراق منبت النفاق والشقاق وسوء الأخلاق. وهذه علة ترافق أبناء العراق أنما ذهبوا وحيثما رحلوا.. وجدتها فيهم في جماعة الطلاب في برلين وفي المعتقلات في أفريقيا ويجدها اليوم الإنسان مستحكمة في طبقات الشعب الراقية وفي المحافل السياسية ويجدها يميناً وشمالاً ويلمس آثارها في الحكم والإدارة والسياسة. فإنها علة العلل حقاً وانها منبع الشرور ومصدر الآفات... ولولاها لما غلت الأيدي وذلت النفوس وحكم أذلةُ القوم الأعزة واستسبعت الثعالب واستفحلت الديدان والضفادع!

الانتقال إلى البيت الجديد

كانت أزمة دور السكن في سالسبوري من أشد الأزمات وذلك بسبب الحرب وكثرة السكان من المهاجرين الجدد إلى المستعمرة ومن جنود طيران للتدريب حيث تضاعف عدد سكان المدينة وأصبحت قضية السكن مشكلة «المشاكل. ولذا عندما قررت صاحبة الدار المسز كامبل العودة إلى سالسبوري وقعنا في حيرة من امرنا وصرنا نفتش على محل لنسكن فيه مهما يكن موقعه وشكله ولكن لم نوفق ومعنى ذلك الاضطرار للعودة إلى «الكمب» وهذه كانت مصيبة لا تحتمل.. ولكن في آخر لحظة يسر الله الامور ووافق المستر كابتيس صاحب المخزن الرومي الاصل الذي كنا نشتري حوائجنا منه طيلة تلك المدّة أن يؤجر لنا داره إذ كان ينوي السكن في مزرعته. فاتفقنا معه وشكرناه وأمه على هذه المساعدة وانتقلنا إلى الدار في أول تموز/ يوليو ١٩٤٣. هذه الدار كانت قديمة وليس فيها أسباب الراحة العصرية ولكن مع ذلك وجدناها نعمة وفرصة واستفدنا من وسع حديقتها وصرنا نزرع فيها الخضراوات كالبامية والباذنجان والطماطم وغيرها. وانتقل معنا عبد القادر الكيلاني فاصبحنا اربعة بدلاً من ثلاثة وصرنا نقضي وقتاً طيباً وتعارفنا على جيران جدد منهم الهنتر والدكتور بيفرج وغيرهما.. وأخذ اصدقاء عبد القادر من المزرعة يزوروننا من وقت لآخر، وكان بعض الآروام من جماعة كابتيس أيضاً يأتوننا ونلعب معهم البريدج وهكذا كانت الايام تنقضي بهدوء وسكون دون تغيير وتجديد. وتمر الأسابيع والأشهر يتخللها الضجر أحياناً والملل في أكثر الأوقات، وكان من الطبيعي أن تتعب أعصابنا وتتوتر وكان أكثرنا توتراً محمد علي ممّا جعله يتخانق ويزعل يوماً مع هذا ويوماً مع ذاك فصرنا نتحاشاه بقدر الامكان ونهرب من صحبته، ونمت فيه علة المبالغة والتكرار الممل والتحدث عن النفس والتفاخر والمباهاة لدرجة أننا صرنا نهرب منه هرباً فقد كان حقاً ما يسميه الإنكليز «بالبور» (الممل) ووصل به الأمر أنه صار يتكلم أمام القريب والغريب، عن نفسه وما يتعلق بها ويبالغ ويمدح وصارت احاديثه كلها من هذا النوع المزعج حول قمصانه وجواربه وربطاته ومناشفه وأن عنده في حديقته في بغداد ٤٥٠ شكلاً من الورود وأن فلاناً سلم عليه قائلاً يا صاحب المعالي وبقي مرة مدة أسبوع وهو يشرح لنا ولرؤوف البحراني خاصة أسباب تمزق الشرشف.. وكانت تتخلل هذه «الباردات» انفجارات حادة. فتخانق معي مرّة بسبب البيرة ومرة بسبب الاثاث ومع رؤوف عدة مرات بشأن الشوربة والأكل والمصروف ومع عبد القادر لأسباب تافه مثلها. وقد كسب الاولية محمد علي في المعتقل وخارج المعتقل بكثرة زعله وخناقاته لأنه لا يعجب الناس ولا هم يعجبونه والسبب في ذلك «براداته وتعجرفه» وتعبت اعصابه من الاعتقال والنفي وان له في ذلك شيئاً من المعذرة.

أما شريكنا الجديد في الحياة البيتية عبد القادر الكيلاني فكان حسب عادته يقضي شطراً كبيراً من الوقت بالحلاقة والغسيل والاستحمام والذهاب والإياب بين البيت والخلاء الواقع في ناحية من الحديقة، ويقضي ما تبقى له من الوقت بالتلفونات والمخابرات لأنه أخذ على عهدته القيام بواجب البروتوكول والعلاقات الخارجية.. وكان في كل اعماله مؤدباً متساهلاً... وصرنا نخرج أنا واياه ونتمشى وقت المساء تقريباً كل يوم وحصلت بيننا صداقة ومودة لتقارب ذوقينا في بعض

النواحي من الحياة. وأخذ اصدقاؤنا الإنكليز أحياناً يكتفون بأن يدعونا أنا واياه ذلك لأن كلاً من محمد علي ورؤوف لا يختلطان بسهولة ولا يحسنان التكلم بالإنكليزية ولا يرغبان في الصرف على المأكول والمشروب حسبما يتطلب الاختلاط بالناس وكانا مكتفيين بحياة البيت والسينما. وشعر اصدقاؤنا الإنكليز بأن محمد علي اما ان يسكت على طول الخط وإما أن يتكلم عن نفسه وما يتعلق بها بينما رؤوف كان لطيف المعشر ولكنه مجموعة «يوطات» في اكله وشربه وحديثه وضحكه. ولذا كانت الصداقة محدودة بينهما وبين العائلات التي تعارفنا عليها، فصار محمد علي ورؤوف لا يرتاحان من هذا الاغفال أو الاهمال ولكنهما بدلاً من أن يتقاربا ويدعوا ويعاشرا أخذا «يدردمان» علينا وانتهى الأمر بأن صرنا جماعتين. عبد القادر وأنا ورؤوف ومحمد علي وإن كنا طوال الليل والنهار في بيت واحد وناكل على سفرة واحدة. وكان للحياة المملّة أثر في ذلك الضجر.. فصرنا نشعر بثقل العشرة المفروضة فرضاً لا سيما وقد مر علينا ما يقارب السنتين ونحن مجتمعون في مكان واحد.. نفس الوجوه ونفس الحديث ونفس الحياة.. فصار كل منا لا يرى في الثاني إلّا نواحيه التي لا يرتاح إليها وهذه سنّة الله في عباده. ومع ذلك تحملنا بعضنا بعضاً ولم يحصل بيننا سوى بعض «اللغوات» التي لا بد منها.

يخلق الاعتقال في الإنسان نفسية جديدة أو بالاحرى يظهر نفسية الإنسان الحقيقية التي تختفي بشتى العوامل الاجتماعية، فلما تزول تلك العوامل ويجد الإنسان نفسه بلا عمل ولا شغل تعود إليه ميوله الطبيعية القديمة، ولذا فقد وجدت أن اكثرنا عاد إلى دور الطفولة والصبا... يزعل من توافه الأمور ويفرح لمثلها ويتصرف تصرف الصبيان. وكانت هذه الحالة ظاهرة عندنا جميعاً مع شيء من التفاوت وكان في رأس القائمة بطبيعة الحال الدكتور رويحة واتباعه الذين أخذوا يسمون انفسهم بالرعاع،.. فإن صبيانيات هؤلاء لا حد لها ولا حساب ولا طعم لها ولا لذة. على أننا نحن «العقلاء» لم نسلم تماماً من ذلك التأثير. مثل ذلك أن المرحوم ناجي السويدي أخذ يوفر من حصته من السكر والخبز ويحفظها مع أن هذه المواد الغذائية كانت متوفرة عندنا، فلما توفي وجدنا بين حقائبه كيساً مليئاً بالخبز اليابس ومقداراً لا بأس به من السكر الناعم.. وجمال الحسيني أخذ يبالغ في «السبور (الرياضة) والتمارين البدنية وصار يقضي ساعات يمارس انواعاً من الحركات البدنية مما يجعلنا نحن والحراس نقضي وقتاً بالتفرج عليه. وكان ولع الشريف شرف «تفريك» الإسنان.. فانه يأخذ الفرجة بيد والعصا بيد أخرى ويتجول في «الكمب» ويفرك اسنانه ويبصق هنا وهناك. ومحمد علي محمود صار يشتري كل يوم انواعاً واشكالاً من الصابون ويعطي محاضرة لمن يجده إلى جانبه عن كل نوع منه ومزاياه.. وداود السعدي اتخذ التمارض وسيلة لقضاء الوقت.. يئن ويحن ويتلذذ عندما نلتف حوله ونساعده ونسليه. ورؤوف البحراني يعمل «زورخانه» كل صباح وأخذ يقص ويجمع رسوم النبات من المجلات والجرائد ويلصقها في دفاتر خاصة. وعبد القادر الكيلاني يمارس الغسل والاستحمام ويزور المراحيض طوال الليل والنهار. وأنا وجدت نفسي اعترض على كل شي وآكل الشوكولاته ـ وهذا شيء لم آكله من قبل ـ والدوندرمة وأذهب إلى السينما عند كل فرصة.. وقد رحم الله بنا وخرجنا من المعتقل بعد عشرة أشهر إذ بخروجنا من وراء الاسلاك الشائكة واختلاطنا بالناس استعدنا شيئاً من الحياة الطبيعية وإلّا لأصاب بعضنا ما اصاب المسكين عارف الجاعوني..

ومن خصائص المعتقلين الاشتغال بالشائعات وتأويل الحوادث وتفسيرها.. فعندما كنا في

المعتقل كان اتصالنا بالعالم الخارجي محدوداً واسبابه معـدودة وهي الجرائـد المحلية ومكـاتيب بغداد، واذاعة الراديو، وكان بطل التفسيرات الدولية والحربية جمال الحسيني إذ كـان يقرأ مـا بين السطور في الجريدة ويستمع إلى ما بين الكلمات في الاذاعة ثم يصب كل ذلـك في قالب يـرتاح إليه قلبه. وقد تعسر الأمر لديه عندما أخذ الجيش الروسي يتقدم ويخلي الالمان كل يوم بلدة جديدة. فكنا نداعبه مثلاً قائلين: «ما قولك بسقوط خاركوف يا ابا الحسن؟» فيجيبنا متحمساً معتقداً: «يا سيدي هذا كلام فارغ. هل يعقل أن يغلب الـروس الالمان؟. هـذه خطة مـدبرة! لا بـد أن يقصد الالمان من ذلك الانسحاب جلب الروس إلى منـاطق واسعة تسهـل فيها الحـركات الالتفـافية. ثم يحوطون بهم ويحرقون دينهم..!». وبقي جمـال الحسيني يؤول ويرقـع الفتوق والخـروق إلى آخر الأيام عندما تركنا سالسبـوري.. أما الشـائعات الـداخلية التي تخص عـودتنا إلى العـراق فكان بطلها محمد علي محمود.. إذ أخذت ترد له من عائلته أخبار حول العودة منـذ الشهور الأولى من اعتقالنا ولذا فقد كان أكثرنا أملاً وتوتراً للاعصاب. وكان لتلك الشائعات أثـر سيء على اعصـابنا كلنا لأنها اخلت بالهدوء واستقرار الافكار. واستمرت اخبار محمد علي بعـد خروجنـا من المعتقل إذ كان البريد يأتي إليه من بغداد كل أسبوع بانواع البشائر والمواعيد، ومرت أشهر واتتنا نحن بعض الاخبار قائلة بأن ما بلغنا انما هو من نوع الشائعات التي لا يعتمد عليها وكان محمـد علي أكثرنا أصابة بخيبة الأمل وقضى مدة الاعتقال واعصابه هائجة بين نعيم العودة وشقاء البقاء..

العودة وما ادراك ما العودة

نعم كنا جميعاً متضايقين وراغبين بأن تنتهي الحرب وتنتهي قضيتنا على أن أبا عليّه كان لا يصبر ولا يركد. يكتب إلى السفير وإلى الوزير وإلى كل من هب ودب بشأن العودة مهما كان شكلها ومهما كانت نتيجتها إذ كان دائماً يؤكد بأنه مستعد للعودة حتى في سفينة شراعية وحتى على ظهر «طوربيل» وأنه يفضل ألف مرّة السجن في بغداد على العيشة في سالسبوري مدعياً بأنه لا يقدر على تحمل فراق عائلته وأولاده وأن بعده عن بغداد اضاع عليه فرصة الاشتغال بالمحاماة وكسب الأرباح. ولعل السبب الرئيسي لضجره هو السبب الأخير إذ كان يعتقد بأنه عندما يصل إلى بغداد سيعود إلى المحاماة والاشغال وعبثاً حاولنا اقناعه بأن وضعنا هنا طالما الحرب قائمة أحسن مما لو كنا في العراق حيث لم تزل المعتقلات تغص بالمعتقلين فهل يعقل بأن يتركنا الإنكليز لنسرح ونمرح ونحن كنا وزراء في وزارة رشيد؟ على أن ابا عليه لم يقنع بمثل هذا الكلام وكان يختم الحديث دائماً بـ :

بلادي وان جارت عليَّ عزيزة وأهلي وأن ضنّوا عليَّ كرام...

وعندما بلغنا اعلان العراق الحرب على دول المحور في أوائل سنة ١٩٤٣ تحمس محمد علي وكتب كتاباً مطولاً إلى نوري باشا يؤيد اعلان الحرب ويذكر ما يذكر. وقد نشرت بعض الصحف في بغداد الكتاب وطار محمد علي فرحاً لأن إحدى الجرائد ذكرت اسمه مقروناً «بالمعالي» وتأكد أنه إذا رجع إلى بغداد سيستقبل «بالطبول والدفوف»... فازداد حماسه للعودة وضاقت به الدنيا في سالسبوري. ومضت أشهر ولم تتحقق الاشاعات واستولى علينا الخمول، ثم أتت أخبار جديدة لجمال الحسيني من موسى العلمي ولأمين التميمي من أهله يؤكدون فيها أن العودة قد تقررت وأخذ كل منهما يستعد ويشتري الهدايا ولوازم السفر!

وفي أوائل سنة ١٩٤٤ ظهرت شائعة قوية منبعها الدكتور العجوز آتكنسن فذهبنا إليه أنا وعبد القادر لنفهم حقيقة الأمر، فأخبرنا بأن الميجور بريجارد، وهو مساعد الكولونيل هاملتون، أخبره سرّياً بأن برقية وردت من دلهي الجديدة تطلب تسفير المعتقلين إلى العراق وان حكومة روديسيا تنتظر الآن جواباً على استفسارها بشأن الفلسطينيين. وفي اليوم التالي ذهبنا إلى مقابلة المستر سمث سكرتير وزارة العدلية لنفهم ما لديه فأجابنا بأن ليس لديه علم بذلك (وتبين بعدها أنه كذب علينا) على أنه بعد ذلك بيوم واحد أيد لنا الخبر الموسيو «سن» ممثل الصليب الأحمر. ثم بلغنا بعد ذلك ببضعة أيام عن طريق المسز دلانو عن الحاكم العام بأن قضية سفرنا قد بت فيها وأن الحكومة أخذت تهيء لنا وسائل العودة. وبعد هذا كله لم يبق شك في أمر العودة وبقينا ننتظر.

قبل سفرنا بمدة وجيزة أي في ٢١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٣ قابلنا أنا ومحمد علي

الحاكم العام السير ايڤلين بيرينغ بناءً على رغبة ابداها هو لمقابلة بعض العرب المعتقلين. فذهب من الفلسطينيين جمال الحسيني وامين التميمي وبعد ذلك وقع الاختيار علينا لتمثيل العراقيين. استقبلنا الحاكم العام في مكتبه بكل لطف واحترام وتم التعارف بواسطة المستر سمث مدير وزارة العدلية. وجرى بيني وبينه حديث حول العرب ومستقبلهم ووضع فلسطين وقد وجدته مطلعاً على احوال الشرق الأدنى ومهتماً بأموره واخبرني بأنه في سنة ١٩٢٤ كان في بغداد والموصل.. ثم دار البحث حول مصر فقال السر ايڤلين أن سعد زغلول عندما زار لندن قبل الحرب الماضية تقابل مع والدته وأنه يقدر خدمات ابيه اللورد كرومر.. ثم تكلمنا حول الانتداب والتعاون الحقيقي مع بريطانيا.. دامت المقابلة حوالي نصف ساعة وقد وجدت الحاكم العام شاباً مثقفاً متواضعاً و«جنتلمن» بكل معنى الكلمة.. وأنه من اولئك الإنكليز الذين لهم نصيب في اشغال المراكز الهامة في الامبرطورية. وعلمت في اليوم الثاني من المسز دلانو التي كانت من اصدقائه أن السر ايڤلين كان مسروراً من محادثتي وأنه قد وجد في «رجل دولة».. وقد تركت تلك المقابلة القصيرة أثراً طيباً في نفسي مع شي كثير من الغرابة.. فنحن من جهة أسرى معتقلون يأمر علينا الميجور تريلينغ وامثاله ويرينا الكابتن سمارت انواع العذاب والاهانات. ثم يستقبلنا الحاكم العام وممثل ملك إنكلترة قائماً مرحباً بكل لطف وعناية. كيف التأليف بين هذه المتناقضات! لعل فيها سر عظمة الشعب البريطاني وسر «دواليب» الامبراطورية!

قضينا عيد رأس السنة أنا وعبد القادر في مزرعة الفونسو دلانو وقد ذهبنا مع الدكتور بيفريج وزوجته بسيارته. قضينا هناك ثلاثة أيام تعرفنا خلالها على كثير من الإنكليز وكان الجميع يجاملوننا ويلاطفوننا حتى أننا نسينا أنفسنا أننا أسرى عند حكومتهم. هذا ولم يمض على هجمات الصحافة السالسبورية ضدنا إلّا بضعة أشهر عندما شبهونا نحن العراقيين «بروميل» وطلبوا تشديد المراقبة. والإنكليز مثل غيرهم من الشعوب فيهم العقارب اللئيمة وفيهم الطيبون المتسامحون الذين لا تؤثر فيهم سخافات اللئام من البشر. ونحن ذقنا لؤم اللئام منهم وتمتعنا بلطف الطيبين في برهة قصيرة وادوار متعاقبة من حياة الاعتقال والمنفى.. ولكن النهاية مع الأسف كانت للعقارب واللئام من الإنكليز واذنابهم من ابناء الوطن، فكنا ضحايا بريئة لهم إذ تغلب الخبيث على الطيب والباطل على الحق والحقد على التسامح وصغر النفس على كرامة الضمير.

في ٢٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٤ عندما كنا نتناول الفطور صباحاً اتانا الكابتن «جونس» واخبرنا بأنه قد تقرر سفرنا فيجب علينا أن نحزم ما لدينا ونذهب معه إلى ««الكمب». فتعجبنا من هذا التصرف الغريب وهذا الاستعجال.. فراجعنا المستر سمث وطلبنا إليه أن يمهلنا وقتاً كافياً لدفع ديوننا وتسديد حساباتنا وجمع حوائجنا، فوافق بأن نبقى في الدار حتى المساء. عندما اتى جونس كان محمد علي ما يزال نائماً فركض رؤوف البحراني ليبشره صارخاً: «ابو علية! ابو علية! قم! قم! مسافرين إلى بغداد!» فنهض محمد علي وبدت على وجهه ابتسامات الفرح والغبطة. أما أنا فكنت غير مرتاح لهذه القضية.. إذ ان تسفيرنا في هذا الوقت الحرج والحرب في البحار على قدم وساق لا يمكن أن يؤول أو يفسر بالخير... اما ابو علية وابو احسان فكانا كأنهما ذاهبان إلى النعيم والخير العميم.

قضينا ذلك النهار بتدبير امورنا وذهبنا إلى «الكمب» مساءً في الساعة التاسعة وبتنا في

المستشفى العائد للحراس لأن الجماعة في المعتقل رفضوا قبول محمد علي وعبد القادر وأن يقضيا الليل معهم فكان ذلك خير لنا ولهم. وفي صباح اليوم الثاني رتبنا قضية الدراهم وغيرها واتت عند الظهر سيارات نقل كبيرة فركبناها وتوجهنا إلى محطة القطار «بزفة مسلحة» مثلما اتينا قبل عامين. ومن الغرابة أن رئيس الحرس كان نفس الكابتن الذي رافقنا من «دوربان» إلى سالسبوري قبل سنتين ورئيس العرفاء كان نفس الشخص أيضاً فكان لقاء بيننا وبينهم بعد سنتين. أتى إلى المحطة لتوديعنا وزير العدلية والكولونيل هاملتون وغيرهما ولم يحضر المستر «سمث» إذ ربما كان «مكسوفاً» لأنه كذب علينا وأخبرنا بأنه لا يعلم شيئاً عن السفر قبل ثلاثة أسابيع.

المحلات في القطار ضيقة وقذرة. الحر شديد. مراقبة الحراس شديدة إذ أخذوا بتعدادنا كل عشرة دقائق وبعد توقف القطار في المحطات المتعددة. كان الأمل أن تكون العودة بشكل الطف وأحسن من المجيء ولكن يظهر أن الطاس كان نفس ذاك الطاس وهذه علامة غير طيبة والبعرة تدل على البعير. ولكن الجماعة وفي مقدمتهم ابو علية فسروا ذلك بأن هذه تعليمات عسكرية ليس لها علاقة بوضعنا. فقبلنا هذا التفسير وتوكلنا على الله..

في اليوم الثاني وصلنا «بولوايو» وثالث يوم مساءً وصلنا جوهانسبرغ بعد سفرة متعبة ومزعجة. فنزلنا في المحطة واستقبلنا رجال من الشرطة العسكرية واخذونا إلى زاوية منعزلة من المحطة وانتظرنا.. ثم انتظرنا! واقفين على ارجلنا والمارة من بيض وسود يتفرجون علينا من وراء قضبان الحديد بين الطريق والمحطة. وبعد ذلك الانتظار الطويل اتانا قائد الحرس وكان مبتسماً متردداً واخبرنا بأنه تلقى أوامر جديدة لاعادتنا إلى سالسبوري.. فوقعنا في تعجب وحيرة، ووقع هذا الخبر على محمد علي وقع الصاعقة حسب قوله إذ قال ونحن عائدون بالقطار أنه في حياته كلها لم يتألم من خبر مثل هذا. وبعد ثلاثة أيام انقضت بالسفر بالقطار وصلنا محطة سالسبوري صباح ٣٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٤ فوجدنا الميجور تربلينغ والدكتور آتكنسن بانتظارنا وكانا مستغربين من هذه العودة وقالا ان السبب يتعلق بحركة البواخر...

ذهبنا مع حراسنا وحرابهم «جنگر جماعة» إلى المعتقل وقد استقبلنا داود الحسيني وكمال حداد وبرناوي باسمين هازلين، وتعجب الالمان والايطاليون والحراس وكل من رآنا من هذه العودة غير المنتظرة.. واخذنا نسمع بالشائعات المختلفة وكان اصح الاخبار ان الباخرة التي كانت عودتنا مقررة بها قد اغرقت من قبل غواصة بين «الكاب» ودوربان وغرق كل من فيها وكان أكثرهم من المتطوعين اليونانيين.. وقد تأكد ذلك الخبر واتتنا بعض التفاصيل بأن «الطوربيل» شق الباخرة نصفين وأنها غرقت خلال بضعة دقائق ولم ينج من ركابها احد.

اخبار مشجعة! ولكن كان محمد علي رغم ذلك آسفاً من العودة ومتشوقاً للسفر ولو على ظهر «طوربيل» حسب قوله.. وبعد العودة ذهبنا نحن الاربعة إلى بيتنا القديم وكانت هذه مساعدة طيبة من كامبتس وامه إذ سمحا لنا بالعودة إلى الدار. واخذنا نعيش كالسابق ولكن الاشاعات حول البواخر والسفر وموعده كانت تقلقنا وتشغل بالنا وعبثاً حاولنا أن ترتب الحكومة سفرنا بالطائرات عن طريق مصر، وإذا قرر الإنكليز شيئاً لا يتغير رأيهم بسهولة وكان من المقرر أن نسافر بحراً بالرغم من الغواصات والمخاطر كما كان قد تقرر مثلاً بأن نبعد إلى افريقيا الجنوبية

مع وجود الهند وغير الهند وبالرغم من الحاحنا بشأن العودة إلى بغداد من ايران..

بعـد أن انقضى علينا عشرون يـوماً ونحن بحـالة الانتظـار والتأويـل والتخمين اتـانا الميجـر تربلينغ مساء يوم ١٩ شباط/ فبراير واخبرنا بأن السفر سيكون بعـد أربعة ايـام أي في ٢٣ منه وعليه طلب إلينا أن نكون مستعدين وجاهزين، فصرنـا نستعد ونتجهـز وعاد الفـرح والسرور إلى صديقنا ابو علية وصار يشتري الهدايا ويلقي محاضرات طويلة حولها وحول اسعـارها وجـودتها كما أنه أخذ يتنبأ حول مصيرنا وأننا سنعود معززين مكرمين ويستدل على ذلك مما كتبت إحـدى الجرائد واقرنت اسمه «بالمعالي» وانما كنت اسمع وابتسم وأقول: «عسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم».

وداعاً يا أفريقيا!

في ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٤٤ صباحاً أتت إلى دارنا سيارتان عسكريتان فأخذتنا مع حقائبنا إلى المعتقل حيث وجدنا زملاءنا العراقيين جاهزين ومستعدين للسفر ـ قضينا أكثر النهار في المعتقل بتفتيش الحقائب وحساب الدراهم وغيره من المعاملات التي قمنا بها قبل عشرين يوماً عند السفرة الفاشلة. نقلونا مع الحرس ونفس الكابتن إلى المحطة... وهناك وجدنا عدداً من أصدقائنا الانكليز وقد أتوا لتوديعنا.. الوضع والحال كانا أحسن من السفرة الأولى... ربما أثّر في الجماعة، احتجاجنا على ما لقيناه من ضيق في المحلات عند السفرة الأولى.. تحرك القطار بنا الساعة السادسة مساءً... نحن الأربعة، محمد علي ورؤوف وعبد القادر وأنا وكنا في كابينة (مقصورة) واحدة. ووصلنا في الصباح التالي بولاوايو. سمح لي الكابتن بأن أذهب مع بعض الرفاق إلى المدينة مع حارسين مسلحين فذهبت ومعي جودت ومدحت للحلاقة وشراء بعض الحاجيات والفواكه. تحركنا الساعة العاشرة والنصف متوجهين نحو «جوهانسبرغ» حيث وصلنا مساء اليوم التالي، وتركنا هذه العاصمة العظيمة مساء اليوم نفسه الساعة التاسعة إلى دوربان. وعندما وصلنا إلى هذا الميناء وجدنا سيارات الجيش تنتظرنا فوضعونا فيها ونقلونا إلى الأسكلة وهناك أصعدونا إلى باخرة كبيرة معدّة لنقل الجيوش وكدسونا في أربع غرف صغيرة من الدرجة الثانية.. فكنا نحن الأربعة من جديد في قمرية واحدة وتقسّم الباقون في القمريات الثلاث الأخرى بينما وضعوا الضابط فاضل رشيد في المستشفى لأنه كان مصاباً برأسه بجرح خطير بسبب شجار حصل بينه وبين القائد كامل شبيب قبل تركنا سالسبري بيومين... ويظهر أن كامل شبيب ضربه بقطعة من حديد على رأسه وكاد يودي بحياته لولا عناية الله واسعاف الأطباء في المستشفى. وكانت هذه القضية مسك الختام لسلسلة الأعمال التي قام بها اخواننا في المعتقل خلال بقائنا في سالسبري... وذات يوم أخبرنا الميجر تريبليغ قبيل السفر، بأن لدى حكومة روديسيا نحو عشرة آلاف معتقل من الألمان والطليان وغيرهم من الأقوام ولكنهم لم يجدوا في ادارتهم مثل الصعوبة التي لاقوها من العراقيين وإن لم يتجاوز عددهم الثلاثين! وكان ذلك قول حق! كان في وسع الحكومة أن تتركنا وشأننا في المعتقل وتعاملنا بشدّة وقسوة كما عاملنا من قبل الكابتن سمارت وزبانيته... ولكن السلطات في سالسبري وفي مقدمتهم المسترفين قامت بكل ما في وسعها لتأمين استراحتنا وتخفيف وطأة الاعتقال. وأتى وقت كنا موزعين في ثمانية محلات في سبيل راحتنا: المعتقل الأصلي... المعتقل الاضافي للمنشقين... كامل شبيب وخادمه متعب في معتقل الطليان... نحن في دار... الشريف شرف وعبد القادر في المزرعة... أمين التميمي وداود السعدي في ملجأ الكاثوليك... الدكتور رويحه وناجي السامرائي في السجن... وعارف الجاعوني في المستشفى في بولوايو... عددنا لا يتجاوز الثلاثين والحكومة وزعتنا إلى ثمانية محلات لتأمين راحتنا... ولكن كل ذلك لم يقنع المتحمسين... فكانت لا تنتهي مشكلة الا وتبدأ أخرى وكان خناق وشجار وضرب وسب وشتم وهرب وسجن وجنون، ويحق لحكومة روديسيا أن تتنفس الصعداء لرحيل ضيوف مثلنا... ولما وصلنا دوربان قلت لبعض الاخوان بأن نرسل برقية شكر للحكومة

الروديسية لما قامت به نحونا، فاعترض أكثر الاخوان على ذلك وكان في مقدمتهم داود السعدي ووافقه المحامون من بيننا بأن ذلك قد يعد اعترافاً بمشروعية اعتقالنا!...

رست الباخرة في ميناء دوربان خمسة أيام بعد أن صعدنا اليها وكان يأتي إليها كل يوم مئات من الجنود البيض والسود والنساء والأطفال حتى أصبحت مثل سفينة نوح ووصل عدد الركاب الى ما يزيد على الأربعة آلاف شخص وهي في زمن السلم لا تحمل أكثر من ثماني مئة شخص بين راكب وبحار... وكلما كثر عدد الركاب قلّت أسباب الراحة وهي لم تكن بأي حال متوفرة في الناحية التي كنا فيها... الماء يأتي لدقائق معدودة... الحمامات بلا ماء... المراحيض بلا أبواب... الحر شديد... والازدحام والاقذار والروائح لا تطاق... ولكن إلى جنب ذلك كله كان الطعام جيداً وكنا نتناوله كلنا مع السواق جبار حمزة ومتعب وخضير عجيل في صالون الدرجة الأولى حيث يخدمنا الخدم وبعض الجنود من الانكليز... ثم الملازم «بل» الذي استلمنا في دوربان وكان رجلاً طيباً جداً كما كان أفراد الحرس مثله، فكانوا كلهم يخدموننا ولا يتداخلون في أمرنا... فكنا نخرج إلى السطح ونطوف الباخرة حسبما نريد دون أن نشعر بأننا أسرى وكنا نختلط مع الجنود وبعض المجندات والعائلات كأننا منهم وكأنهم منا طبقاً لمفهوم الحلف...

تحركت الباخرة من دوربان عصر اليوم الأول من آذار/ مارس وبقيت تدور وتقوم بمناورات أمام الميناء لمدة ساعات. وبعد أن غابت الشمس واختفت المياه والمدينة والجبال وكل شي بالظلمات، أخذت الباخرة تبتعد عن الساحل يصحبها طرادتان الواحدة في المقدمة والثانية في المؤخرة لحمايتها من الغواصات...

كانت الليلة الأولى من أتعس الليالي التي عرفناها، ان لم تكن أتعسها قاطبة وذلك بسبب الازدحام وشدة الحر والتعتيم وغلق جميع النوافذ... كنا نشعر كأننا في حمام تركي ساخن ومغلق بصورة محكمة... فأخذ العرق يتصبب من أجسامنا وأخذت صدورنا تتضايق لقلة الهواء وبالأحرى لعدم وجود التهوئة، فكنا نتنفس هواءً رطباً حاراً نتناً وكانت الباخرة كلها كعلبة كبيرة مملوءة بالأجسام البشرية ومسدودة سداً محكماً خوفاً من تسرب الأنوار إلى الخارج فلا عجب إذن إذا سخن الهواء وتعفن... كنا نرى الجنود والنساء والأطفال الذين لم يبق لهم محل في السطوح شاغلين الممرات والسلالم يبتغون نسمة هواء... لم أنم تلك الليلة الّا ساعات أو دقائق إذ كان الحر وضيق النفس يمنعاني من النوم،وحتى رؤوف البحراني الذي كان قد اشتهر بمتانة أعصابه وسماكة جلده لم يستطع أن يغفو غفوة طويلة، فكان متأثراً من الحر وقلة الهواء وفوق ذلك من الخوف... الخوف من الغواصات.. وكنا نحن أيضاً شاعرين بذلك لا سيما وانه قبل شهر واحد أُغرقت الباخرة التي كنا نريد أن نسافر بها في هذه المياه وبتلك الصورة المرعبة إذ لم يسلم أحد من ركابها...

عذاب استمر كل الليل ولم ينته إلّا بانتهاء الظلمات... فلما طلع الفجر أتى الخادم فرنك وفتح النوافذ فصرنا نتنفس قليلاً من الهواء النظيف وأسرعنا إلى سطح الباخرة فوجدناه مشغولاً بالجنود الذين تركوا محلاتهم في أنابير (عنابر) الباخرة وصعدوا لتنشق الهواء... شكونا حالتنا هذه الى الملازم «بل» فقال: «لو رأيتم المحل الذي أنام فيه مع الضباط والجنود لما شكوتم» وكان

صادقاً لأنني نزلت ذلك اليوم إلى أسفل الباخرة فوجدت الحر وقلة الهـواء والعفونـة مضاعفـة... فسكتنا وقلنا إذا عمّت المصيبة هانت!

ومضت الليلة الثانية مثل الأولى. دون نوم أو راحة... واضطررت أن ألتحق ببعض جماعتنـا في الليلة الثالثة وفرشت بطانية في الممر ونمت مع النائمين هناك... في الممر كانت العفونـة أقل من الغرف وكذلك الحر إذ بين آونة وأخرى تأتينا نسمة هـواء باردة من احـدى الأبواب والنـوافذ... ولكن وقع أقدام المارة في الممرات كان مزعجاً والغريب أن المارّة لم ينقطعوا طوال الليل، ذلـك لأن الحائرين بأنفسهم كانوا أكثر من النائمين.

أما سطوح البـاخرة فكـان كل شبـر منها مشغـولاً بالجنـود حتى أن بعض الجنود أخـذوا يعلقون أرجوحاتهم بالقضبان فينامون معلقين فوق رفاقهم. ومع ذلك فلم تكفِ السطوح إلّا لقسم منهم، وصـاروا يتناوبـون، منهم من ينام في الأنـابير (العنـابـر) الجهنميـة ومنهم من يبقى عـلى السطوح...

كنت قد حاولت اقناع الطبيب بأن يسمح لي بالنوم في المستشفى بالنظر الى حالتي الصحيـة ولكنه لم يوافق على ذلك لأنني لم أكن مريضاً. عـلى أنني في اليوم الـرابع كتبت كتـاباً مطـوَّلاً إلى رئيس الأطباء محتجاً على هذه المعاملة وعدم الاهتمام بحالتي الصحية فنجحت هـذه المرّة، وأمـر رئيس الأطباء بأن يسمحـوا لي أن أقضي الليل فقط في المستشفى. وكـانت هذه نعمـة كبيرة لأنـه يوجد هناك جهاز لتبديل الهواء فكان الهواء بارداً نقياً... ولكن مع الأسف قضيت أول ليلـة حتى الصباح «يا حيّ يا قيوم» ولم تذق عينيّ شيئاً من النوم ذلك لأنه في ذلك المساء تسمم جماعة من الجنود بسبب تناولهم بعض الأطعمة، فصاروا كل ربع ساعة يأتون بجندي محمولاً عـلى الأكتاف وأتى الممرضون والأطباء لإسعافهم، وكان هناك حقن وأدوية وصراخ وبكاء واستفراغ واستخراج وصرت أنا بدوري أساعد هذا وأسقي ذاك وأطمئن الآخر... وكان منظر هؤلاء المسـاكين مؤلمـاً... هذا يبكي ويصرخ ماما! بابا! كالأطفال، وذاك يخرج أصواتاً تشبه صوت الثور المذبـوح... وآخر يلتوي فوق الأرض ويخـرج الزبـد من فمه كـالدرويش في حـالة الهـذيان... هؤلاء المسـاكين هم المتطوعون الذين جمعهم الجنرال سميث من هنا ومن هناك منـدفعين من قبـل الجوع والفـاقة أو الدعاية أو الوطنيـة... تركـوا أبناءهم وآبـاءهم وأمهاتهم واخـوانهم وحقولهم... تـركوا كـل ذلك وراءهم لينقذوا الحضارة الأوروبية! والديمقراطية الغربية! والامبراطوريـة البريطـانية! كـانوا في وضعهم كقطيع من الغنم مساقين إلى المجزرة... ولا نهاية لهـذه المجازر طـالما هنـالك أغنـام مثل هؤلاء المساكين البسطاء وطالمـا هنالـك جزارون نصَّبـوا أنفسهم رعاةً هنـا وهناك، وطـالما هنـالك حضارات زائفة وديمقراطيات مزيفة وامبراطوريـات شاسعـة...! فهذا الافـريقي الأبيض، وهذا الأفريقي الأسود، وهذا العراقي الذي وجد نفسه في باخرة في وسط البحار، وهـذه الظلمات، كـل هؤلاء! وملايين من البشر غيرهم، في ميادين القتال، وفي الجو، وفوق أمواج البحـار، وفي المعامـل، وفي الملاجىء، كل هذه السفالات، وهذا العذاب، وتلك الآلام، في مثل هـذا المستشفى العائم، كـل ذلك حصل، وسيحصل، في سبيل غاية موهومة سماها هذا «الـدفاع عن الحـرية والـديمقراطيـة ونعتها ذاك انقاذ البشر من الاستعمار والرأسمالية...».

كلام فارغ! الحقيقة هي أنها صفحة مؤلمة من فشل الحضارة الغربية...

هذه الليلة أصبحت راحتي مؤمنـة بفضل النـوم في المستشفى. أما النهـار فكان يُقضى بـين الأكـل والشرب والتمارين فيمـا يتعلق بوسـائل النجـاة، كلبس العوامـات والاجتماع عـلى سطح الباخرة عند قوارب النجاة... كنا لا نترك العوامات ولا دقيقة واحدة فهي فوق أكتافنا مهما عملنا وأينمـا ذهبنا... نـأخذهـا معنا في المطعم وفي الحمـام وفي المرحـاض. هذا لأن خطـر الغرق كـان موجوداً في كل لحظة... أما الخوف فكان يتضاعف عند المساء ذلك لأن الغواصـات عادة تهـاجم البواخر عند بدء الظلام وعندما تكون هي ترى ما عـلى سطح البحـر ولا يستطيع أن يـرى عمود الرؤية العائد لها أحد... عـلى أن الانسان يتعـود حتى على الخـوف... إذ بعد مضي بضعـة أيام صرت لا أشعر بذلك الخوف الذي لازمني في بادىء الأمر... وكنت أقول في نفسي: مـا الفائـدة من الخوف؟ فنحن الآن على هذه الباخرة ٤٠٠٠ شخص، وبيننا نحو ٥٠٠ امرأة وولد. فإذا حصل ما قدر الله... حالي حال الجميع! أما مسألة العـوامات والقـوارب فهذه لا تفيـد ولا تغني عن جوع أولًا لأنهـا لا تكفي لعدد الـركاب وثـانياً إذا أتـانا ليـلًا «طوربيـل» وشق الباخـرة شقاً سيكـون الخلاص أمراً عسيـراً أو محالًا بـالنظر إلى الازدحـام وكثرة الأنفس ولـذا كان التـوكل عـلى الله أحسن شيء...

كنت يـوماً في «الكـانتين» وصـادف أن كان هنـاك أيضاً أحـد ضباط البحـرية فسـألته عن الغواصات واحتمال مجيئها إلى هذا البعد... قال: «كن واثقاً تأتي الغواصات إلى أي محل تسـير فيه السفن فلا البعد ولا الصعوبات تعيقها عن ذلك... ثم أضاف أنـه لم يبق للشركة سـوى هذه الباخرة القديمة، أما بواخرها الأخرى فقد غرقت كلها... ونحن أيضاً أصبنا مرتين «بالطوربيـل» ولكن «جلد» هذه الباخرة سميك... فهي قديمة ولكنها قوية جامدة لا يزعزعها أي «طوربيل»!».

كان كلام الضابط هذا غير مشجع ولكن طريقة حديثه عن الغواصات و «الطـوربيلات» وهـو يبتسم معتمـداً على نفسـه كانت تبعث الاطمئنـان في النفس... وتريـك مـا للبحـارة الانكليـز من عنعنعات وخدمات للامبراطورية!

في ٧ آذار/ مارس بعد الظهر وصلنا إلى مومباسا، تلك المدينة التي تـركت فينا ذكـرى مؤلمة قبل سنتين عندما قضينا في معتقلها أسبوعاً أسود... لم يسمح لأحد أن يترك البـاخرة إلّا لبعض البحارة. في اليوم الثاني من وصولنا صعد الباخرة عدد جديـد من النساء والأطفـال وكذلـك عدد من البحارة البريطانيين... علمنا أن النساء كنَّ في طريق العودة إلى مصر وانكلتـرة وأما البحـارة فهم بقايا من البواخر التي أغرقتها الغواصات في البحر بين الهند وأفريقيا وكانوا كذلـك عائـدين إلى انكلترة ليوزعوا من جديد على بواخر جديدة... وقد وجدنـا هؤلاء البحارة حـزينين كئيبـين إذ لكل منهم رفقاء وزملاء ابتلعتهم الأمواج وأكلتهم الحيتان والأسماك وهم متوكلين صابرين ولربما يلحقون يوماً باخوانهم...

وبازدياد عدد الركاب ازداد الشقاء والعذاب... وقد اكتشفنا بين حمـولة البـاخرة عـدداً من عرب طرابلس كانوا قد أُخذوا أسرى مع الجيوش الطليانية في الصومال والحبشة وكانـوا الآن في طريق العودة إلى أوطانهم بعد أن أخرج الحلفاء الطليان من طرابلس الغرب... كانت ثيـابهم رثة وحالتهم كئيبة... هـذا نموذج آخـر لضحايـا السخافـة الأوروبية... ضحـايا فـاشية مـوسوليني مباشرة... ضحايا الاستعمار الأوروبي الجائر الغدّار...

تركنا ميناء مومباسا في اليوم الثاني بعد الظهر... وعاد الخوف للقلوب إذ بلّغنا أن أخطر منطقة هي ما بين مومباسا وعدن... وقد زادت التمارين وأتتنا أكثر من مرّة طائرات تكشف البحار حيث اتصلت بالباخرة والطرادتين المصاحبتين لها وازداد الحر في منطقة خط الاستواء وقضينا ستة أيام ملعونة حتى وصلنا عدن صباح يوم ١٤ آذار/ مارس... ونحن راسين هناك سمعنا بأن غواصة كانت قد لحقت بنا قبل يومين ليلاً مما جعل الباخرة تبدل طريقها وتعود نحو مومباسا لعدة ساعات ثم ترجع نحو عدن بعد أن ترسم نصف دائرة واسعة تخلصاً من التعقيب... ويبدو أننا سلمنا بأعجوبة من خطر كبير... ولكن ليس بيننا من شعر بذلك سوى البحارة وحراسنا في الطرادتين. أما نحن الركاب من جنود ونساء وأطفال وأسرى فكنا في بحر من الظلمات لا نرى ولا نسمع وكان ذلك لا شك خير لنا... إذ لو علمنا بوجود الخطر لقامت القيامة، ولحدث في السفينة هرج ومرج لا حد لهما لكثرة الركاب ولوجود النساء والأطفال...

بقينا طوال النهار أمام عدن إذ أخذت الباخرة تتزود بالماء والوقود... وعدن هذه هي مثال من أمثلة عديدة لتسلط الانكليز على العالم... وأهل عدن كما رأيناهم عبارة عن جماعة حمالين يشتغلون في تسهيل أمر المواصلات الامبراطورية وكأنما خلقهم الله للقيام بهذه المهمة دون أي شيء آخر... ومن الجدير بالغرابة أن ترى ملايين من البشر مسخرين لخدمة هذه الامبراطورية كقطيع كبير موزع هنا وهناك في أدق المواقع الستراتيجية يقودهم بعض الرعاة بإشارة أو بكلمة وأحياناً بعصاة الرعيان... إنها لا شك مقدرة لم يتوصل إليها شعب آخر في تاريخ البشر!

بعد أن سارت الباخرة في البحر الأحمر أربعة أيام وصلنا بورت توفيق في مصر... وكان السفر في البحر الأحمر أهون بكثير مما سبق... كلما صعدنا إلى الشمال تحسن الهواء وقلّت الحرارة... ثم الخوف من الغواصات كان أقل من السابق أيضاً...

نزل من الباخرة الجنود السود وقسم من الجنود البيض في بورت توفيق... وبقينا نحن لا ندري ماذا سيكون مصيرنا وإلى أين نحن ذاهبون! ولم تكن لدى الملازم «بل» حارسنا معلومات جديدة... وكان المتفائلون منا وعلى رأسهم محمد علي محمود وداود السعدي يضربون أسداساً بأخماس، وكانت نظريتهم أنه بناءً على القواعد الدولية وبالنظر إلى سيادة مصر سوف يستقبلنا رجال من الحكومة المصرية، وقد وصل الخيال ببعضنا أنه من المحتمل أن يرسل مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء مندوباً لاستقبالنا لأننا معتقلون سياسيون وأن الوضع في البلاد العربية قد تبدل... موقف بريطانيا من تصرفات فرنسا في سوريا ولبنان؟ شكري القوتلي صار رئيساً للجمهورية السورية وبشارة الخوري للجمهورية اللبنانية! الكتلة الوطنية هي الحاكمة في تلك الأقطار... وفي مقدمتها سعد الله الجابري وجميل مردم ولطفي الحفار ورياض الصلح وغيرهم ممن عرفوا بعداء الاستعمار والمستعمرين...

نعم إن الوضعية تبدلت وسنكون نحن في الصف الأول عما قريب... بمثل هذه التفاؤلات أمضى أكثرنا يوماً كاملاً أمام بورت توفيق ولربما نام أكثرنا نومة هناء تلك الليلة وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!

أرض الكنانة

تبددت الأوهام وطار الخيال في اليوم الثاني عندما عرّفنا الملازم «بل» بالضابط الهندي الذي أتى لاستلامنا... إذن لا سيادة مصرية ولا حقوق دول ولا مندوب للنحاس ولا استقبال ولا بطيخ! وبدت الحقيقة المرّة بكل بشاعتها وتمثلت بوجه هذا الضابط الهندي القبيح وبتصرفاته القبيحة... هذا مخلوق قذفته أرض بلاده وخلو جوفه إلى امتهان خدمة الانكليز... فألبسوه «برنيطة» وثياباً عسكرية مع نجمة نحاسية على كتفه فأصبح ضابطاً مثل آلاف وآلاف غيره من الحثالات وظن نفسه أنه أصبح بطلاً من الأبطال ورجلاً من الرجال... فكيف لا يتكبر ويتعجرف... وها هو قد أرسل للقيام بمهمة عظيمة وهي استلام عدد من المعتقلين الخطرين والذهاب بهم إلى حيث يريد أسياده... فكان من الطبيعي أن يستفيد من هذه الفرصة لإظهار عظمته وإرضاء أسياده وليس أقبح من طغيان الذليل!

بعد الغداء نقلوا حقائبنا إلى باخرة صغيرة ثم نزلنا إليها بدورنا، وبعد أن اكتمل التعداد والاستلام تحركت بنا هذه العوامة نحو الساحل... كنا محاطين بالجنود الهنود المسلحين بالبنادق والحراب وكان العرفاء من بينهم يحملون بنادق صغيرة أوتوماتيكية موجهة نحونا... وكانت وجوه هؤلاء الهنود علاوة على ما لوّنها الله به من سواد، عابسة ومقطبة... فكانوا لا يتكلمون ولا يبتسمون... هكذا علّمهم أسيادهم... أما الضابط الشاب رئيسهم فكان فظاً غليظاً حيث أخذ يأمر وينهي ويتمرد حتى انتهى الأمر بأن صرخ عليه مدحت علي مظلوم ووبخه قائلاً بأنه إذا لم يستعمل الكلام المؤدب ويقول دائماً «من لطفكم Please» فسوف لا نجيبه... وغاب الملازم الهندي وتركنا في العوامة البخارية عند الساحل. وبعد مدّة من الزمن عاد بسيارات عسكرية للحمل فصعدنا إليها وتوجهنا نحو محطة القطار، وهناك تركنا في زاوية بعيدة فوق رصيف المحطة ننتظر القطار وغاب من جديد... ثم عاد... ولكنه عاد متبدلاً مؤدباً وصار لا يفتح فاه الا بكلمات «will you please». ويبدو أنه أخبر أسياده بما سمع منا وأخذ التعليمات اللازمة بأن يكون مؤدباً... بالقطار ركبنا عربة من الدرجة الأولى وركب حراسنا معنا وقد تحسنت معاملتهم. وفهمنا منهم أنهم مسلمون، ولما علموا بأننا أيضاً «الحمد لله مسلمان» ابتسمت وجوههم وزال ذلك الجفاء من تلك الوجوه السوداء...

وصلنا القاهرة ليلاً وبقينا في العربة حتى نزل الركاب وخلت المحطة من الناس، فنزلنا وصعدنا سيارات نقل عسكرية كانت بانتظارنا أمام المحطة، وتمت كل هذه العملية دون أن نرى انكليزياً، «فالشغلة» كانت بيننا وبين اخواننا في الدين الهنود ونحن في بلاد اخواننا بالدم والدين واللغة والنسب المصريين... فحلفاؤنا الانكليز كانوا حقاً في بلادهم ولم يكلفوا أنفسهم عناء القيام بهذه الأمور فأمروا خدامهم الهنود أن يدبروا أمر خدامهم العراقيين في بلاد خدامهم المصريين... وكانت الأمور تمشي بكل هدوء وانتظام... هنود يقودون عراقيين ويتفرج علينا مصريون ونحن في بلادهم ونحن اخوانهم... هذا مثال لإتقان الانكليز صفة الاستعمار... يربطون ذقناً بذقن وهم

يتفرجون... فالأسرى والحراس كلهم أسرى الامبراطورية... وهكذا تؤكل الكتف...

بعد مسير طويل في شوارع عاصمة أرض الكنانة، وقفت بنا السيارات أمام قلعة محمد علي فقرأنا على بابها بحروف انكليزية كبيرة، وعلمنا أننا جئنا إلى السجن العسكري الخاص بالهنود.... دخلنا ودخلت معنا حقائبنا ووجدنا أنفسنا في ساحة السجن أمامنا ميجر هندي وبعض الضباط والعرفاء من الهنود... وبعد أن تم الاستلام أتى الضابط الشاب المتعجرف الذي استلمنا من الباخرة وكلمنا معتذراً عما بدا منه من كلام جاف وقال انه لم يعرف في بادىء الأمر أننا مسلمون وكذا وكذا... كأنما الدين هو العامل الأول لحسن المعاملة والكلام... بعد أن أغلقوا الباب صار الميجر الهندي المسلم ينظر إلينا وننظر اليه... أخبرنا بأنه تلقى أمراً تلفونياً من رئيس السجن الانكليزي باستلامنا... وأنه ليس لديه فراش ولا أكل ولا... ولا... ثم أخذنا الى المحل الذي خصصه،لنا وإذ هو سرداب عميق مرطب صفت في أرضه المرطبة عشرون كيساً من القش... هذا هو المحل وهذا فراشنا... رفضنا أن ندخل ذلك السرداب المخيف المرطب وقلنا له: أننا لسنا بمساجين،وصرنا نعربد ونحتج فحار ومن معه من الهنود بأمرهم وأخذوا يلاطفوننا بالكلام الطيب وهذا ليس ذنبهم بل انه أمر الصاحب... قلنا له: خابر الصاحب بالتلفون وأخبره بما نريد... فنظر إلينا متعجباً مستغرباً فلو كنا طلبنا إليه أن يكلم الرب عز وجل لما تعجب واستغرب أكثر من ذلك... كيف يستطيع هو الميجر الهندي أن يكلم ليلاً بالتلفون رئيسه الميجر الانكليزي! انه لم يتصور مثل هذا الأمر الخطير... فأخذ يتوسل وكادت تنزل دموعه من عينه لأجل اقناعنا بأن ننزل إلى السرداب... فرفضنا وصرنا نصرخ بأعلى أصواتنا وتكدسنا في غرفة فارغة جنب مكتبه وفرشنا ما لدينا من بطانيات وجلسنا عليها... وكان الهنود وكلهم مسلمون متأثرين من وضعنا... فأتوا لنا بسطل من الشاي السخن وبعض الطعام الهندي العائد لهم فشرب بعضنا ما شرب وأكل بعضنا ما أكل ثم تسطحنا على البطانيات ونمنا... كان البرد شديداً والرطوبة على الأرض مؤلمة. بقيت أتقلب طوال الليل بسبب البرد وصلابة الأرض التي تؤلم الأضلاع... وبقي محمد علي محمود جالساً فوق بطانية يدخن وينفخ طوال الليل...

أفقنا عند الفجر وصرنا نذهب بالمناوبة الى المراحيض والغسيل ويا لها من ليلة! شعرت بأنني مريض... برد وجوع وتعب ونوم على الأرض المرطبة! أتوا لنا بسطل شاي وبخبز... ثم جمعنا فراشنا بناءً على طلب مدير السجن وأخلينا الغرفة وبقينا في الساحة فأتى الميجر الهندي ورفاقه راجين متوسلين بأن ننزل إلى السرداب لأنه إذا أتى الصاحب ورآنا في الساحة، سيزعل منه وربما يؤذيه... فأمام هذا الأمر قبلنا أن ننزل بشرط أن يخبر الصاحب بمطاليبنا وبلزوم مقابلة أحد منا فَوَعَدَ بذلك. فنزلنا إلى السرداب وجلسنا فوق الأكياس ننتظر تشريف الصاحب... وبعد مدة شرَّف الرئيس الانكليزي فذهب عبد القادر الكيلاني لمقابلته فوعده بأنه سيقابل القائد العسكري لدرس قضيتنا كما أنه سمح لنا بأن «نتشمس» في ساحة السجن لأن السرداب أشبه بالزمهرير...

جلسنا فوق الأرض في ساحة السجن نتدفأ بالشمس «ونتداول» حول هذا الوضع الغريب... كان اخواننا المتفائلون «مكسوفين» تماماً من هذا الاستقبال ومع أني لم أكن منهم فلم أتوقع

معاملة سيئة مثل هذه... ماذا نعمل؟ نحن الآن في سجن عسكري للهنود... هذه حقيقة واقعة رضينا أم أبينا... أتى وقت الغداء فأتوا لنا بتنكة فيها طعام هندي أخضر، أصفر فرفضنا أن نأكل منه وبقيت التنكة في وسطنا مدة ثم أتى سجين هندي وأخذها! رفضوا أن يشتروا لنا أكلاً من الخارج بدراهمنا! ولذا بقينا جياعاً... وكنا سكارى وما نحن بسكارى!... صادف في ساحة السجن أن بعض العمال المصريين كانوا يشتغلون بصبغ الجدران فوق السلالم... فسمعونا نتكلم بالعربي فأخذوا يؤشرون بأيديهم كلما دار الحارس وجهه... ففكرنا بأن نرسل رسالة مع أحدهم إلى الخارج... كتب داود السعدي كتاباً يبين فيه وضعنا وعنونه إلى أسعد داغر بواسطة جريدة الأهرام فأشرنا لأحد العمال المصريين وذهب محمد عباس ووضع الكتاب فوق السيفون في إحدى المراحيض، وبعد مدّة دخل الصباغ المرحاض وأخذ الكتاب ووعدنا بالاشابة بأنه سيأخذه مساءً إلى جريدة الأهرام...

عندما أغربت الشمس واختفت وراء جدران القلعة أتى الهنود ورجونا بأن ندخل السرداب أو الزمهرير... فدخلناه وأغلقوا علينا الباب... جلسنا جماعات جماعات فوق تلك الأكياس القذرة ونحن حائرون في أمرنا... أما أنا فكنت مريضاً وارتفعت درجة الحرارة عندي إلى ما يقارب ٣٩ فألقيت بنفسي فوق أحد الأكياس وتغطيت بمعطفي وأنا أرتجف برداً... ولما أتى الليل وأشعلنا الأنوار صرنا نرى حبالاً من الدبيب الأحمر ينزل من السقف على الجدران نحونا... هذا هو البق! ثم لاحظنا أن الأكياس كانت أيضاً مملوءة من البق فصرنا نقتل ونكافح وكانت هناك معركة بيننا وبين الآلاف من هذه المخلوقات القذرة التي لا ينقطع دابرها إذ كلما تقدم الليل تضاعفت أسراب البق وصارت تهاجمنا من كل ناحية من السقف والجدران والأرض ومن كل فج عميق...

وبينما كانت المعركة بيننا وبين البق يزداد وطيسها أتانا الضابط الهندي وأخبرنا بأننا سنُنْقل إلى محل آخر... فحمدنا الله على ذلك وعلى خلاصنا المنتظر من هذا الجب المهلك... وذلك البق القاتل... وانشرح صدر عبد القادر الكيلاني لأن مساعيه ومقابلته لمدير السجن الانكليزي قد أثمرت ورجعت الآمال إلى القلوب وأخذ داود السعدي يتنحنح ومحمد علي محمود يتمنطق... هذه أمور عسكرية! وقد حصل لا شك خطأ في أمر توديعنا إلى السجن... فالآن ولا شك سيأخذونا إلى أحد الفنادق أو على الأقل إلى معتقل يضمن استراحتنا ويليق بوضعنا...

بعد مضي ساعة من الوقت أتى ضابط فلسطيني - بريطاني - يهودي الشكل لاستلامنا. نقلوا حقائبنا إلى السيارات ثم قسمونا عليها مع الحراس... ولما كنت مريضاً فقد حملني جودت وعبد الرزاق شبيب ومحمد عباس ومدحت من السرداب إلى السيارات... وكان معي في السيارة محمد علي وعبد القادر وداود السعدي وعبد الرزاق شبيب وصعد معنا أربعة من الجنود المتبرنطين وكانت لغتهم الانكليزية تدل على أنهم خليط من اليهود وغيرهم من المتطوعين من حثالات فلسطين...

كنت جالساً فوق صندوق خشبي في سيارة النقل فأتى أحد الجنود وجلس جنبي، فتركت له نصف الصندوق ليجلس وبدلاً من أن يشكرني دفعني بكتفه بشدّة وأوقعني من الصندوق إلى بطن السيارة. ولما قال له أحدنا أنني مريض أخذ هو وزملاؤه يسبّون ويشتمون أنواعاً من السبات والشتائم مما لم يسمع بمثلها أحد منا... وكان أهون شي يقولونه... أنهم ذاهبون بنا

ليصّفونا أمام الجدار ويرمونا بالرصاص ولذا لافرق بين أن نجلس على الصناديق أو لا نجلس... كنا في هذه السيارة المغلقة المظلمة لا نرى إلا بريق الحراب ولا نسمع إلّا هذه المسبّات. مرّ علينا نحو عشر دقائق ونحن بهذه الوضعية الحرجة وهؤلاء الكلاب يستفزونا ويهينوننا ونحن ساكتين صابرين... وشعرت في تلك اللحظة بأنه لو كان عندي مسدس لأفرغت ما فيه في رؤوس هؤلاء الكلاب القذرة لإسكاتهم... ولكن كنا أسرى بين أيديهم... فعلينا أن نصبر...

بعد ذلك أتى الضابط اليهودي وأعطى التعليمات لصعاليكه قائلًا: «كونوا حذرين! هؤلاء جماعة خطرين... إذا قام أحد منهم بأمر ما فارموه! ولا تكلموهم ولا تستفزوهم!» على أثر هذه التعليمات انقطع نوعاً ما السب والشتم... وسكت الكلاب وصاروا يتربصوننا موجهين بنادقهم نحونا... وتحركت السيارات... وكنا لا نرى غير الظلمات وانقطعت أصوات السيارات فعرفنا أننا خرجنا من القاهرة... وبعد مدّة وقفت السيارة وسأل السائق عن «المحل الفلاني» وتحركنا ورجعنا ودرنا... ويظهر أن السواقين أضلّوا الطريق وقضينا أكثر من ساعتين ونحن نسير وحراسنا أخذوا يسبون ويشتمون عندما «تطس» بنا السيارة أو يخطيء السائق الطريق...

كانت ساعتان تعادل سنتين... إذ كان حراسنا الكلاب لا يمكن وصفهم أن زبانية الكابتن سمارت بالنسبة لهم يكونوا «جنتلمانية من الطبقة الممتازة»...

دخلت بنا السيارات من باب محاط بالأسلاك الشائكة ثم وقفت أمام بناية في وسط الساحة. هناك نزلنا من السيارات فاستقبلنا بعض الجنود الانكليز وأدخلونا البناية وهي عبارة عن قاووش مستطيل... أوقفونا صفاً واحداً وأخذونا يعدُّوننا... في تلك اللحظة انتبهنا إلى صوت داود السعدي ورأيناه عند الباب يحمل شنطة والجنود وراءه يدفعونه إلى الأمام... فوقع وأغمي عليه... وضعوه في ناحية من الغرفة وأتوا له بماء حتى استفاق... يظهر أنه كان آخر من ترك السيارة وتأخر عنا لأنه لا يستطيع السير السريع... فضربه أولئك الحراس الكلاب وحملوه شنطة ثقيلة وأخذوا يدفعونه ويضربونه من السيارة حتى باب البناية... ومن غريب الصدف أن ينال داود السعدي شيخ المتفائلين أوفر نصيب من أسئلة أولئك الجنود المتوحشين... كان يتوقع أن يستقبله ممثل عن مصطفى النحاس مرحباً مهنئاً بالسلامة فإذا به في وسط شرذمة من الحثالات البشرية يضربونه ويدفعونه ويشتمونه ويهينونه... ولا حول ولا قوة!

بعد التعداد جرى التفتيش وكان تفتيشاً يفوق في دقته وتفاصيله ما شاهدناه حتى الآن... أخذوا كل شيء منا ـ دراهمنا ـ ساعاتنا ـ أقلامنا ـ وكل شي لدينا ولم يسمحوا لنا، الّا الاحتفاظ بمنديل واحد! ثم أرسلونا الى حيث ينتظرنا فراشنا الوثير...

بقيت أنا وداود السعدي في الغرفة لانتظار الطبيب... وقد وصل هذا بعد مدّة من الزمن ففحص داود السعدي وحقنه بإبرة لأجل القلب وأعطاني بعض الأدوية وفهمنا من كلامه أنه مصري أرمني وقال انه سيساعدنا بقدر المستطاع ونصحنا بأن لا نطلب النقل الى مستشفى السجن لأنه أتعس بكثير من هذا المحل...

بعدأن انتهى الطبيب من عمله أخذنا أحد العرفاء إلى المحل المخصص لنا وهي بناية واسعة ونظيفة من الخارج. كانت سجناً عسكرياً للانكليز وعندما دخلنا البوابة الحديدية لم نجد لاخواننا الذي سبقونا أثراً ولم نسمع لهم صوتاً... أين هم؟ أخبرنا العريف أن كلًّا منهم دخل

غرفته. فهمنا الموضوع! هذا سجن انفرادي... وضعوا داود السعدي بحمالته في غرفة وأراني العريف الغرفة المجاورة لها التي خصصت لي... عبثاً حاولنا أنا وداود السعدي بأن يبقى باب الغرفة مفتوحاً... لأن الرجل مريض ولا يستطيع التنفس إلا بصعوبة فكيف إذا أغلقوا عليه باب هذه الغرفة الصغيرة وليس فيها نوافذ ولا هواء!... فدمدم العريف بأن هذا سجن وليس فندقاً وأدخلنا ثم أغلق الباب... بقيت لبضعة دقائق أنظر الى الغرفة وما فيها! حجم الغرفة لا يزيد على حجم حمام صغير... سقفها عالٍ ... عند السقف فتحة مستطيلة تقوم مقام الشباك... فوق الأرض شيء يشبه الفراش ممزق قذر أتعس من الأكياس التي جلسنا فوقها في السجن الهندي... إلى جانب ذلك... سطل ماء و «قعّادة» وطاسة من نحاس ومكنسة وتنكة لجمع التراب والأوساخ... ثم رأيت على الجدران وعلى ذلك الفراش الممتاز بانتظاري جماعات من البق... بقيت واقفاً حائراً في أمري وغير مصدق بما تراه عيني... أنا في سجن منفرد عسكري... هذا الفراش وهذا البق وهذه القعّادة وهذه المكنسة وهذه التنكة! ما هذا؟ أهذا حلم مزعج أم هذه حقيقة مرّة؟... ثم شعرت بالحمى وبالتعب فرميت نفسي على ذلك الكيس القذر المملوء قشاً وبقاً وتغطيت بالبطانيتين القذرتين اللتين تغطى بهما من قبلي من يعلم من المجرمين، وحاولت النوم... ولكن البق هاجمني من كل صوب فصرت أجمع به وأرميه في القعادة... بدأت أجمع واحدة فواحدة في بادىء الأمر ثم اثنتين فاثنتين ثم ثلاثة فثلاثة ثم بدون حساب... ولكن التعب والحرارة والمرارة تغلبت على أسراب البق ونمت بالرغم من الرائحة الكريهة واللعس المحرق، وتذكرت وأنا بين النوم واليقظة قصة البقّة في استانبول وضحكت بأعلى صوتي ذلك أني كنت قد نزلت مرّة في أوتيل طوقاتليان في استانبول وعندما أتيت مساءً إلى غرفتي وجدت بقة صغيرة واحدة فوق الفراش... فاشمأزت نفسي وتكدر صفوي... ولم أتجرأ أن أمسك أو أقتل تلك الحشرة الكريهة وشعرت كأنني أمام وحش ضار نجس... فضغطت الزر الكهربائي ولما أتى الخادم أشرت له بإصبعي على البقة وصرت أوبخه وأنتقد الأوتيل ونظافته... وكان ذلك المسكين يعتذر ويحلف الأيمان بأن تلك البقة أتت مع حقائبي من القطار... ولم أنم تلك الليلة مرتاحاً إذ صرت أحس من وقت لآخر أن هنالك شيئاً يدب مرة عند رجلي وأخرى عند رأسي وكنت كل مرّة أشعل الضوء وأفتش دون أن أجد أثراً للدبيب ولما أتى الصبح كان أول عمل قمت به أنني دفعت الحساب وانتقلت إلى «بارك أوتيلي» هكذا كانت قصة البقة في استانبول... فكيف لا أضحك الآن وأنا هنا أصطاد البق بالعشرات ثم أتعب فأتركه يسرح ويمرح على وجهي وبين شعري وعلى يدي ورجليّ ورقبتي!

أفقت عند الفجر على أثر ضربات قوية على الباب وصوت خشن قوي يأمر بالنهوض... مرت ثوان دون أن أعرف أين أنا وما هذا الصوت... ثم فتحت عيني وتذكرت... ثم صرت انظر الى الغرفة وما فيها من جديد فرأيت البق الذي جمعته في القعّادة وإلى الخيوط الحمر المتصاعدة نحو السقف... يظهر أن هذه الحشرات الكريهة متعودة على نظام السجن الانكليزي... فلما طرق الحارس الباب وأشعل النور الكهربائي أخذ البق يتهيأ للرحيل وصار يصعد الحيطان ببطء، ولاحظت أنه كان في الليل صغيراً هزيلاً ومتحركاً أما الآن وقد امتص ما امتص طوال الليل من دمي صار ضخماً سميناً بطيء الحركة... وكانت إدارة السجن مهتمة بأمر البق إذ قرأت في التعليمات المطبوعة الملصوقة على الجدار بأنه لا يجوز قتل البق وهو على الحائط بل انما يجب أولاً إسقاطه على الأرض ثم سحقه، وبهذه الطريقة السبورتية الانكليزية المعلومة سهلت إدارة

السجون نجاة قسم من البق والتجاءه إلى السقف وأعالي الحيطان كي لا ينقطع النسل الكريم... وهنا تجلى من جديد التصرف العادل (الفير بلاي) (Fair play) البريطاني!

بعد نصف ساعة سمعت أصوات العرفاء وأصوات فتح الأبواب وغلقها... ولما أتى دوري وفتح السجان بابي دخل ومن ورائه سجين انكليزي يحمل صحناً وطاسة من نحاس وضعها أمامي على الأرض وأخبرني العريف بأن هذا كان «البريكفاست» الفطور.

في الصحن قطعة خبز أبيض عليها قطعة «ماركرين» تقوم مقام الزبدة أما في الطاسة فوجدت ماءً دافئاً رمادي اللون وعلى سطحه طبقة خفيفة من «الزفرة» العائمة أما رائحته فكانت خليطاً من الماء «الزفر» والشاي والحليب... أما الطعم فحدِّث عن «لعيان النفس» ولا حرج! ماء دافىء زفر حلو! أكلت الخبز والماركرين وعبثاً حاولت أن أشرب جرعة أو جرعتين ليسهل بلع الخبز... كلما رفعت الطاسة المدهنة إلى فمي تصاعدت منها رائحة النحاس الصدىء ورائحة الماء الزفر... فانقلبت معدتي وكدت أفرغ ما فيها...! ولذا تركت الشاي وشأنه واكتفيت ببقية «البريكفاست»! حامداً شاكراً...

وبعد الافطار بمدة عاد العرفاء السجانون وفتحوا الأبواب وسمحوا لنا بالذهاب الى المراحيض والمغاسل وكانت هذه في وسط ساحة البناية. ولما كان عدد المراحيض قليلاً وكذلك حنفيات الغسيل صرنا نتناوب وينتظر بعضنا بعضاً لقضاء حاجته. بعد ذلك أتى «السارجن» (الرقيب) «حامل الأمواس» وأعطى لكل منا ماكينة حلاقة فحلقنا وأعدناها له حسب نظام السجن... ولما اجتمعنا في ساحة السجن صرنا نتباحث حول البق ولعسه وكان البعض منا منتفخاً في وجهه ويديه ورقبته، وكان محمد علي محمود من بين المصابين وظهر وجهه المسكين أشبه «بصحونة كبيرة محمصة» وأخذ يشكو ويتذمر من البق وأفعاله ومن عدم النوم ومن عدم التدخين ومن «البريكفاست» وطعمه ورائحته و... و... و... بقيت مسطحاً على البطانية في ساحة السجن وبالقرب مني تسطح داود السعدي وتوزع الآخرون فمنهم من جلس الى جنبنا ومنهم من راح يتمشى في الشمس... وكان الحديث كله آلاماً وتشكياً وكان المحامون وعلى رأسهم محمد علي وداود السعدي وعبد الرزاق شبيب يفسرون ويؤولون... كيف يجوز للانكليز أن يعاملونا هذه المعاملة القاسية خلافاً لحقوق الدول وحقوق الإنسان؟ كيف يجرؤون على حبسنا بالزنزانات مع أننا لسنا بمحكومين ولسنا بمجرمين؟ كيف يقبل المصريون وعلى رأسهم مصطفى النحاس أن تجري مثل هذه الأعمال الشائنة في بلادهم؟ ونظريات أخرى مثل هذه! نعم كان الحق معهم ولكن بالنظريات فقط... بقيت أستمع إلى مثل هذا الحديث دون أن اشترك فيه لأنني كنت مريضاً لا يهمني خوض هذه الأبحاث ولأن بين الحقيقة المرّة ونظريات الاخوان بوناً شاسعاً... فنظرت الى محمد علي واكتفيت بأن أقول:

بلادي وان جارت عليّ عزيزة   واهلي وان ضنّوا علي كرام

وفهم أبو عليه قصدي وتذكر ما كان يدور بيننا في سالسبري من كلام حول تفضيله السجن والاهانات في بلادنا على الحرية والاحترام في المنفى...

في اليوم الثاني أي في ٢١ آذار/ مارس اتى طبيب انكليزي لفحصنا... وكان الفحص أقرب

إلى معاينة الحيوانات منه إلى معاينة البشر... بعد أن فحصني وقلت له عما بي وعد بأن يرسل لنا الدواء اللازم... وأتى الممرض وقت العصر يحمل زجاجة وفنجاناً... سقاني فنجاناً من ذلك الدواء وسقى داود السعدي منه... ثم الشريف شرف... ثم عبد الجبار حمزة... مع أن أمراضنا كانت مختلفة لا رابطة بينها... وبقي في الزجاجة قليل من الدواء فنادى «هل من يريد دواء» ولما لم يجب نداءه أحد أفرغ الزجاجة بالفنجان وشرب الدواء... ثم ابتسم راضياً مغتبطاً! إنها معاينة غريبة ومعالجة أغرب!.. ودواء أكثر غرابة من الاثنين!

عند الظهر أتى العرفاء السجانون ومعهم بعض السجناء من الانكليز يحملون الغداء فصرخ رئيس العرفاء: «ادخلوا غرفكم! ادخلوا غرفكم!» رجوناه أن يتركنا نأكل غداءنا في ساحة السجن فلم يقبل لأن ذلك يخالف نظام السجن... دخلنا غرفنا فوزعوا الطعام علينا وأغلقوا الأبواب كأنما لا يجوز أن يأكل الانسان والباب مفتوحاً... الطعام كثير بالكمية وهو عبارة عن خضراوات وبطاطا مسلوقة وقطعة لحم بقر... أما الرائحة فحدث عن «الزفرة» ولا حرج، رائحة الصحون التي لم تغسل والملاعق والشوك الصدئة تمنع الإنسان من الأكل وتصدم النفس... اكتفيت بأكل الخبز وتركت الباقي كما هو وهكذا فعل أكثرنا... وبعد الغداء بمدة فتحوا الأبواب من جديد وسمحوا لنا بأن نبقى خارج الغرف مدة ساعة من الزمن ثم أدخلونا الغرف من جديد عند العصر... حيث بقينا مسجونين تحت رحمة البق حتى الصباح... أما العشاء فكان مثل الغداء وبقيت رائحة الطعام محبوسة في الغرفة معنا طوال الليل وزادت في الطنبور نغمة.

انقضى اليوم الثالث أيضاً كما تقدم وازداد الضيق من قلة الطعام وعدم التدخين وقلة النوم وكثرة البق... فصار كل هذا يؤثر على أجسامنا وأعصابنا. أما أنا شخصياً فكنت «دائخاً» من المرض وشدة الحرارة فلم أهتم سوى بذلك... فكانت الحرارة نوعاً من التسلية في هذه الكآبة وكل ما كنت أريده أن أكسب الشفاء سريعاً... قابل مدحت مدير السجن وأخبرنا بأننا بصورة موقتة ضيوف عند الجماعة وعليه لم يكن بالإمكان تبديل نظام السجن العسكري الصارم بسببنا... فبقينا نتحمل العذاب وننتظر...

في اليوم الرابع عندما كنا جالسين على الأرض نتبادل الهموم ونضحك على نصيبنا وعلى ذهنية حلفائنا الانكليز ونداعب رؤوف البحراني الذي كان يدعي أن غرفته ليس فيها بق خلافاً للواقع لأنه كان ينام ولا يهتم بالبق ولا بالعفاريت بينما كنا كذلك جالسين على الأرض كالمهاجرين فُتح باب السجن فدخل ضابط برتبة كولونيل ومعه رجلان بلباس مدني ومن ورائهم عرفاء السجن... لم نعرف في بادىء الأمر من كان هؤلاء الضيوف ولكن بعد أن نظرنا اليهم عرفنا الملكيين وهما خالد الجوربه جي سكرتير المفوضية والمستر دونفل «Donwill» من دائرة الاستخبارات البريطانية أما الكولونيل فكان قائد السجن العسكري... دخلوا في غرفة الحراس عند الباب وبعده أتانا سجّان يطلب موسى الشابندر ومحمد علي محمود وعبد الرزاق شبيب لمقابلة الجماعة. فذهبنا وتصافحنا وتحادثنا وشكى محمد علي همه وهمنا بصورة مفصَّلة حسب عادته وتحدث عن الأكل والشرب والتدخين والبق وفتح بيجامته وأراهم صدره وذراعه وسيقانه ووجهه وما فعل البق بها من أفعال... وتأثر ضيوفنا من وضعنا ومن الحالة التي وجدونا بها واغرورقت عينا المستر «دونفل» لمنظرنا واعتقد بأنه كان مخلصاً في تأثره لا سيما وبيني وبينه معرفة سابقة

وضيافات ولعب بريدج وكان يسكن في بغداد جنب بيتنا فكنا نلتقي كثيراً... وأخبرنا خالد جوربه جي بعد أن بلغنا سلام الوزير المفوض تحسين العسكري بأنهم لم يكن لهم علم بوصولنا وأنهم سمعوا بذلك من أسعد داغر الذي استلم كتابنا من سجن القلعة... ثم أضاف أن بقاءنا هنا سيكون موقتاً وأن السلطات تدبّر الآن أمر السفر ولربما يكون ذلك بالطائرة ولربما سيكون مصيرنا في النهاية الاعتقال في العمارة... ثم تذاكرنا مع الكولونيل فسمح لنا بالتدخين ووعد بدرس قضية البق بعد أن طمأننا بأنه لا ينقل الأمراض فكأنما كان خوفنا الوحيد من الأمراض..! وافق أيضاً بأن يُرسل لنا بعض الأطعمة من البلد... وترك خالد الجوربه جي ودونفل ما لديهما من السكاير وودعونا وانصرفوا وكان ذلك اليوم عيد المدخنين عندنا وصاروا يدخنون وينظرون الى السكاير والدخان المتصاعد منها كما ينظر العاشق الولهان إلى حبيبة قلبه عند اللقاء بعد فراق طويل.. وأتانا ذلك اليوم زنبيلاً من الطعام الفاخر مع عشاء السجن... سمك ودجاج وكعك وفواكه وحلويات كلها تحمل اسم «جروبي». كانت هذه هدية من دونفل وقد تكررت مرة أخرى وثالثة وأظهر دونفل هذا العطف والسخاء فشكرناه بقلوبنا وظهر أنه «ابن أوادم» وعلى كل كان فضله علينا من هذه الناحية فضلاً مفيداً وملموساً وكان له تأثير في نفوسنا أكثر مما أحدثته زيارة خالد الجوربه جي وتحية تحسين العسكري... وكان دونفل هذا من اللاجئين الى المفوضية الأمريكية أثناء حركة رشيد عالي وكان خصماً بارزاً عندما كان يرسل تحسين العسكري برقيات التأييد والتمجيد من القاهرة الى رشيد عالي وبينما كان يتصل خالد الجوربه جي من الشام بالتلفون مبدياً اخلاصه وعارضاً خدماته لرشيد والحركة... وهكذا هي الدنيا وهذا هو البشر وهذا هو الفرق بين الجبن والشجاعة وعزة النفس وذلتها... ومع ذلك فإننا لم ننقم على تحسين أو على خالد... هذه حالة الشرق وهذا وضع رجاله وفيهم من هو أعظم مكانة من تحسين وأغزر ثقافة من خالد... وأن المستعمرين اذا دخلوا بلداً أفسدوه وجعلوا أعزة أهله أذلة...

مضى علينا يومان ونحن ننتظر الفرج والخلاص من هذا السجن الانفرادي وعذاب البق وكانت تمر الساعات كأنهاسنون ونحن آملون بتحقيق ما وعدنا به دونفل وخالد الجوربه جي. وفي ٢٦ آذار/ مارس عند الظهر أخبرونا بأننا مسافرون في ذلك اليوم فحزمنا حقائبنا وتهيأنا... ووصلت سيارات النقل فحملوا ما لدينا من الحقائب وكانت كثيرة وبعد ذلك اصعدونا اليها وتركنا ذلك المحل المخيف بعد أن قضينا فيه أسبوعاً لا ينسى مدى الحياة...

نقلتنا السيارات الى المحطة وانتظرنا وقتاً طويلاً بالسيارات وذهب الضابط رئيس حرسنا الجديد وغاب ما يقارب الساعتين ثم عاد وأنزلنا من السيارات ودخلنا المحطة مع حراسنا بمهرجان وكان المصريون يتفرجون علينا وتقدمنا فوق رصيف المحطة حتى وصلنا العربة المحجوزة لنا... فصعد الضابط اليها واتّبعناه... ولكن قبل أن يصعد اليها أحد منا تحرك القطار... فبقينا نحن على الرصيف وبقي الضابط معلقاً بالقطار مدة وهو حائر في أمره ثم قفز وأتانا ضاحكاً وهو يقول «فاتنا الباص» «We missed the Bus» وهو تعبير اشتهر لأن ترشل استعمله في هتلر عندما فشل هذا الأخير في الاستيلاء على الجزر البريطانية... فعدنا بعد ذلك الى السيارات وجلسنا فوق حقائبنا... ولم نفهم أسباب غياب الضابط وتأخيرنا الى أن فاتنا القطار... وغاب الضابط من جديد ليتصل برؤسائه وكنا خائفين من أن يعيدونا الى السجن والبق... وبعد

مدّة أتى الضابط وبشرنا بأن لا عودة الى السجن وأن سيارات قوية للجيش ستنقلنا الى القنطرة حيث نأخذ قطار فلسطين... وأتت السيارات وانتقلنا اليها وجلسنا فوق حقابنا وتغطينا بالبطانيات لأن الهواء كان شديداً وفيه غبار ورمل... تحركنا ليلاً من القاهرة وأخذت السيارات تسرع وتهزنا هزاً... واشتدت العاصفة الرملية ودخل الغبار في السيارات وصار الانسان لا يرى أمامه شيئاً واني لم أر قط من قبل زوبعة مثل هذه فكأنما السماء صارت تمطر رملاً وكانت بعض الذرات المتطايرة كبيرة خشنة تؤذي عندما ترميها الريح القوية على الوجه والعين...

وصلنا القنطرة بعد منتصف الليل فوجدنا القطار واقفاً محاطاً بالغبار والرمل فصعدنا الى العربة المخصصة لنا وتوزعنا على قمريّاتها... وصادف معي بالقمريّة مدحت وجودت ومحمد عباس وهم كانوا يعتنون بامري وساعدوني كثيراً في السجن بسبب مرضي إذ كانوا يحملونني وفراشي كل يوم مرتين بين غرفتي وساحة السجن... وفي القطار تركوا لي تختاً لوحدي حتى أتمكن من النوم ونام أحدهم على أرض القمريّة وتقاسم الاثنان التخت الثاني مناوبة. جزاهم الله كل خير.

عندما أفقنا صباحاً وجدنا القطار لا يزال واقفاً في محله في محطة القنطرة وذلك بسبب الزوبعة الرملية واندثار الخطوط الحديدية تحت الرمال في عدة نقاط بين القنطرة وغزة... وبقي قطار حيفا غارساً في الرمل في سينا مما اضطر السلطات أن ترسل لهم طعاماً وشراباً بالطائرات... بقينا يومين كاملين وثلاث ليالٍ في القطار في محطة القنطرة وبالرغم من ضيق المحل ارتحنا خلال هذه المدّة وأخذت درجة حرارتي تخف وكانت معاملة الضابط والجنود طيبة جداً فكانوا كلهم يخدموننا ويبذلون كل جهدهم لتأمين راحتنا... وفهمنا أن الضابط هذا أتى حديثاً إلى مصر من انكلترة ولذا كانت أخلاقه ومعاملته لم تزل تحمل طابع الجنتلمانية الانكليزية ولم تتلوث بعد بذهنية الاستعمار... كان يحدثنا بكل لطف وبشاشة ويذهب فيشتري لنا من الفواكه أطيبها ومن السكاير أجودها. وكان من حين إلى آخر يمر علينا ويستفسر فيما إذا كنا نحتاج إلى شيء، أما الجنود فكانوا يخدموننا من كل قلبهم ولم نشعر أبداً بأننا أسرى وأنهم حراسنا، بل انما كان وضعنا يشبه وضع طلاب مدرسة خرجوا مع أستاذهم الى سفرة «بيكنيك». وكان الفرق بين وضعنا في القطار وبين حالتنا في سجن العباسية كالفرق بين الثريّا والثرى...

تحرك القطار في اليوم الثالث صباحاً أي في ٢٩ آذار/ مارس... وكان السير بطيئاً جداً حيث لم نصل حيفا الاّ ليلاً... تعشينا في المحطة في حيفا ثم ركبنا باصاً كبيراً وذهبنا إلى حيث لا ندري... وبعد أن سارت بنا السيارة مدّة غير قصيرة وقفنا أمام بناء محاط بالأسلاك الشائكة... وكان ذلك سجن حيفا العسكري... يظهر أن الله كتب لنا أن نطوف السجون العسكرية البريطانية كلها في بلاد العرب...! دخلنا وقلوبنا مضطربة لما سنلاقي! فأدخلونا في غرفة واسعة نظيفة وعلى أرضها عشرون كيساً من الأكياس التي نعرفها على أن الحراس أكدوا لنا بأنه لا يوجد بق في سجنهم. وقد ارتحنا من هذه الناحية فنمنا على الأرض بفضل الحكومة البريطانية بعد أن أغلقوا الباب علينا... عند الصباح أتوا لنا بشاي وخبز وزبدة وكان مستوى «البريكفاست» هنا أعلى من مصر وأنظف... بعد ذلك تركوا الباب مفتوحاً طوال النهار فجلسنا تحت الشمس في ساحة السجن الصغيرة... وأتى طبيب السجن لفحص السجناء... فأسرع

عبد الجبار حمزة للمعاينة ولما عاد بعد بضع دقائق وجدناه يهز برأسه ويسب ويضحك وأخبرنا بأن الدكتور قبل كل شي فحص الآلة التناسلية ثم أدخل اصبعه في دبره بالرغم من احتجاجه ورفضه... يظهر أن الدكتور كان من اليهود المتطوعين ولربما كان يقصد الاهانة فرفضنا الذهاب الى الفحص... وأتى رئيس عرفاء السجن وألحّ بلزوم الذهاب الى الطبيب فأفهمناه بأننا ضيوف موقتون وأخرجناه يجر بقدميه... قضينا في سجن حيفا يومين حيث كان الهواء بارداً طيباً فاستعدنا قوانا ونشاطنا. تحركنا في أول نيسان/ ابريل بالسيارات الى شرقي الأردن فالوطن العزيز...

القِسْمُ الرّابع

السِّجنُ وَالمحُاكمَة



بلادي وإن جارت...

صباح يوم السبت الموافق أول نيسان/ ابريل ١٩٤٤ أتت أمام سجن حيفا العسكري أربع سيارات منها اثنتان تجران عربة واثنتان من نوع «اللوريات» العسكرية. فركب المسنون والمرضى بالعربتين وركب الشبان «باللوريين» مع العفش وتوجهنا نحو شرق الأردن وكانت هذه أول مرة أمر بهذا الجزء من البلاد العربية وكان كل شيء في مصر وفلسطين وشرقي الأردن يدل على أن «أبا ناجي» كان في بيته يأمر وينهي والطاعة العمياء هي نصيب أهل البلاد...

مساء ذلك اليوم وصلنا المفرق على حدود شرقي الأردن وهي محطة واسعة ونقطة هامة في شبكة المواصلات البريطانية... هناك تعشينا وبعد انتهاء العشاء ركبنا سيارة «نيرن» كبيرة مع حراسنا متوجهين نحو بغداد. وفي اليوم الثاني عند الفجر وصلنا محطة تموين للبنزين وبعد أن غسلنا وفطرنا ركبنا السيارة من جديد واستأنفنا السير نحو بغداد... كانت قلوبنا تزداد خفقاً كلما اقتربنا من الرمادي ثم الفالوجة... لأننا كنا نجهل شكل الاستقبال الذي ينتظرنا!...

ولم نجد أحداً بانتظارنا في الرمادي. نحن الآن في العراق ولكن حراسنا انكليز، فكان ذلك نموذجاً للاستقبال الذي يرتضيه أذناب الانكليز... قبل أن نعبر جسر الفالوجة رأينا ضابطاً بريطانياً ينتظرنا بسيارته فوقفنا وتحدث الضابط مع رئيس الحرس، ثم تحركت السيارة الصغيرة وصرنا نتبعها... فالشغلة اذن كلها انكليز بانكليز...

وبعد أن سرنا مدّة، وقفت بنا السيارة عند الحقل الحيواني في أبي غريب... هناك على حافة الطريق رأينا جماعة من الشرطة وموظفيها يتوسطهم السيد أحمد الراوي مدير الشرطة العام... نزلنا هناك فأحاطنا عدد كبير من جنود الحرس الملكي بحرابهم وعلى رأسهم رئيس متعجرف ومنفوخ كالطاووس... يُعطي الأوامر العسكرية الى هذا وذاك كأنه في ساحة حرب... كان عدد الجنود والضباط والشرطة أضعاف عددنا... وكانت هناك سيارات مدرعة ورشاشات وكثير من السخافات... أدخلونا في غرفة في بناية الحقل الحيواني ووضعوا حراساً أمام الباب والشبابيك... فجلسنا على الأرض وصار بعضنا ينظر الى بعض متسائلاً متعجباً... ما هذا الاستقبال؟ ولماذا كل هذه «الخبصة»؟.

بعـد أن انصرف الضباط الانكليـز وجنود الحـرس دخل الضبـاط العراقيـون ومعهم أحمـد الراوي إلى غرفة مجاورة وصاروا يتداولون بأمر هذه المسألة الهامة وبقينـا نحن ننتظر، وبعـد ما يقارب الساعة فُتح الباب ودخل علينا الرئيس المتعجرف ومن ورائه مساعده الملازم وأخذ يتلو من ورقة في يده أسماءنا. يقرأ الاسم ثم ينظر الى الشخص ويسـأله أنت فـلان؟ وبعد أن انتهى من هذا التعداد الغريب خرج وبقينا ننتظر من جديد... وبعـد مدّة نـادوا الضباط الجنـود من بيننا وهم: حسين فخري، وناجي السامرائي ورشيد فليح وفاضـل رشيد ومـدحت علي مظلـوم (ضابط احتياط) ومتعب حسن وخضير عجيل... أخذوهم بسيارة نقل عسكـرية بعـد أن ربطوا كـل اثنين منهم بحديد في أيـديهم... معاملـة بديعـة! وبعد ذلـك نادوا بـالمدنيـين غير المتهمـين وهم: داوود السعـدي وعبـد الـرزاق شبيب وجـودت سـامي سليمـان ولطفي بكـر صـدقي ومحمـد عبـاس وعبد الجبار حمزة. وضعوا هؤلاء بسيـارة باص وأخـذتهم الشرطة وبقينـا نحن في الغرفـة ننتظر وكنا: الشريف شرف، ومحمد علي محمود ورؤوف البحراني وعبد القادر الكيلاني، وكـامل شبيب، وأنا.

بعد مدّة أتى الرئيس المتعجرف وقـادنا الى بنـاية بـالقرب منـا كانت محـاطة من كـل جانب بأسلاك شائكة مزدوجة صرنا نمر من ممـر كله أسـلاك شائكـة حتى السقف بين الخط الـداخلي والخارجي كان مشبكاً بالأسلاك ولكنها موضوعة بصورة غير متقنة... شـأن أعمال العـراقيين... دخلنا تلك البناية المظلمـة وبعد أن فتشـونا تحت مـراقبة الـرئيس المتعجرف وزعـونا إلى غـرف مختلفة متباعدة عن بعضها بعد أن نبهنا الرئيس بأننـا هنا قيـد التوقيف بـالسجن ويوجـد معنا سجينان آخران ثم قال: «الكلام ما بينكم أو بين السجناء الآخرين ممنوع بتاتاً»... وأن الحراس لديهم تعليمات «يمنعون ويهينون كل من يتكلم».

وكان هذا الرئيس بتعجرفه وصلافته قد ذكرني بالكابتن «سمارت»... بينمـا المحل والغـرف ذكرتني بسجن العباسية بالقاهرة. وعندئذ علمنا بأننا في سجن أبي غريب... الذي كنا نسمع عنه ونحن في سالسبري وأن علي محمود الشيخ علي وأمين زكي كانا محبوسين هناك... عـلى أننا كنـا نعتقد بأن الحكومة العراقية الموقرة اختارت ذلك المحل من باب العطف على المساجين السياسيين فاختارت هذه المزرعة في أبي غريب. ولكن لما رأينا هذه الأسلاك المكـدسة المحيطـة بهذه البنـاية التي كانت قد شيدت لتكون اصطبلاً للخيل، فهمنا المقصود... ولما رأينا عدد الحراس ومعـاملتهم وقذارة المحل وخلوه من جميع أسباب الراحة كالمـاء والكهربـاء والمراحيض والحمـام علمنا بـأن القصد كان التعذيب والانتقام والإهانة وقد سبق الانكليز وأذنـابهم غيرهم من صغـار النفوس في هذا الصدد... وان كـان معتقل «داخـو» لطخة عـار على جبـين الشعب الألماني فـإن سجن «أبي غريب» بالنسبة الى العراق سيكون له نفس العار على موجديه...

بعد أن دخل كل منا الغرفة المخصصـة أغلقوا علينـا الأبواب... وإذا مـا أراد أحد منـا أن يخرج لقضاء حاجة ضرب على الباب ونادى الحارس فيأتي هذا ويفتح الباب ويصحبـك إلى حيث المراحيض... وهي عبارة عن غرفة جنب باب المدخل وضعوا فيها «تنكتين» فكـانت مرحـاضاً ولـما كان الجدار الـذي يفصلها عن الغـرف الأخرى لا يعلـو الى السقف فكانت الأصـوات والروائـح

تنتشر إلى ما جاورها من الغرف. ولم يكن بين غرفتي وهذه المحلات غير الصحية سوى غرفة واحدة يشغلها علي محمود...

وجدت في الغرفة سريراً من حديد عليه فراش لا بأس به وطاولة صغيرة وكرسيين. ابريق وطشت... تنكة ماء و «قعادة»...

عند المساء أتونا بطعام لا بأس به بالنسبة إلى طعام «العباسية» ولما كنت جوعان أكلت ما اكلت وهجم عليّ النعاس لشدة التعب فنمت وافقت عدة مرات في الليل... أستعرض ما جرى بي وأفكر في هذا الوضع وبما سألاقي. وانقضت الليلة الأولى في سجن أبي غريب بين الآلام والآمال. آلام: لأن هذا جزاء من أراد أن يخدم وطنه بإخلاص... وآمال: بأن هذه الحقيقة ستظهر فتنسحب هذه الغمة...

«أبو غريب»

الآن أنا في بيتي (آب/ أغسطس ١٩٤٦) وقد مرّ ما يقارب السنتين ونصف السنة على يوم وصولنا الى «أبي غريب» كما أنه مرّ أكثر من ثمانية عشر شهراً منذ أن تركت ذلك المحل مريضاً ولكنني أشعر بلوعة الألم كلما ذكرت تلك الأيام المزعجة التي قضيتها في سجن «أبي غريب»... أذكرها بتفاصيلها وكل فجاعتها وأحياناً أحس بآلامها وكأنها آلام الحال لا الماضي واستعرض حوادثها وكأنها تمر الآن أمام عينيّ... هذا لأن أيام «أبي غريب» ونتائجها جمعت الظلم والانتقام وضيق الصدر وصغر النفس وقصر النظر وقلة الذوق وفساد الأخلاق وانعدام المروءة والكرامة وكل ما في الإنسان من لؤم وطيش وسخافة وأنانية... نعم «أبو غريب» كان يمثل كل ما في الانسان من شر ولؤم وظلم واستبداد بأبشع الأشكال... انه هيكل دناءة النفس ورمز سقوطها الى الحضيض ولم يزل ذلك الهيكل القبيح قائماً وذلك الرمز الكريه شاخصاً وان كان قد انقضى أكثر من سنة على انتهاء الحرب. ذلك أن النفوس الصغيرة لم تزل بحاجة لتطمين دناءتها بمثل ذلك الظلم والانتقام الرخيص... ولذا فإنها لا ترى بأساً من أن تبقى تلك اللحظة في جبين العراق. ويظهر أن أهل العراق قد تعودوا على ذلة النفس فلا يضرّهم العار ولا يزعجهم الهوان بعد اليوم...

مساء ذلك اليوم المزعج، يوم وصولنا الى «أبي غريب»، ألقيت بنفسي على السرير الحديدي في تلك الغرفة القذرة الصغيرة وأخذت أستعرض الحوادث الغريبة العجيبة التي تعاقبت منذ أول يوم من أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٣٩ عندما أعلن هتلر حالة الحرب بين ألمانيا وبولونيا حتى هذه الساعة التي أنا فيها في هذا السجن العراقي. كنت أستعرض ما وقع وأكاد لا أصدق به. وزارة... وأسر. ونفي واعتقال. ايران وأفريقيا ومصر. معتقلات وسجون وأسفار وبحار وقطارات وانكليز وهنود وعبيد والنتيجة أنا الآن هنا في بلادي، هذه البلاد التي ضحيت في سبيلها وقتي وصحتي وأنسي وطربي. هذه البلاد التي كنت أرى في سعادتها غايتي وفي تقدمها وتحريرها سعادتي. فدرست وتعبت وكتبت وتحادثت وكافحت خلال سنين عديدة ـ قضاها غيري بالكسل والمرح وتطمين الشهوات، لأقوم بما عليّ من واجب تجاه هذا الوطن وأبنائه الضعفاء المكبلين بسلاسل الجهل والاستعمار.

نعم أنا الآن في بغداد أو بالقرب من بغداد عاصمة العراق الذي مثلته في عصبة الأمم وفي برلين رسمياً ومثلته في أكثر العواصم والبلدان الأوروبية شخصياً مدافعاً عن كرامته، داعياً لخيره وساعياً لتحريره باللسان والجدل والنشر والدعاية وبكل الوسائل التي يفهمها الأوروبي...

نعم أنا الآن في بغداد، في العراق، في «أبي غريب»، في هذه الغرفة الموحشة من هذا البناء الموحش، سجيناً، والسجن انفرادي، وهذا الباب مغلق... وهذا الحارس يتمشى في الممر المظلم ذاهباً وعائداً أمام الغرف، هل هذا حلم مزعج أم حقيقة مرّة؟

بينما كنت غارقاً بهذه الأفكار سمعت في الغرفة المجاورة لي حواراً بين شخصين ولما انتبهت عرفت أحد المتكلمين كان علي محمود الشيخ علي والمتكلم الآخر هو العريف محمد... عريف الحرس والمسؤول عن السجن... وبعد مدّة سمعت الحارس يفتح قفل غرفتي... فدخل العريف محمد يحمل كوباً (استكان) من الشاي الحامضي وقال: انه من جاري «علي بك» فشكرته وسألته عن حال علي. قال أنه بخير وأنه أمضى حتى الآن سنتين في هذا السجن وأنه كان في بادىء الأمر مع أمين زكي باشا ولكن بسبب مرض هذا الأخير فقد نقلوه الى السجن المركزي، قلت: قضى علي بك سنتين في مثل هذه الغرفة وفي هذا السجن؟ قال: نعم. قلت: ساعده الله وساعدنا. فابتسم العريف محمد وقال: «كلها تنقضي يا بَك، ان الله كريم...». نعم ان الله كريم. ولكن عباد الله لئام ظالمون!. بعد أن شربت الشاي أعدت له الكوب شاكراً ومسلماً على علي محمود وضيافته... ثم أغلقوا الباب بالحديد والقفل... ونمت من كثرة التعب ومرارة التفكير... وقلبي يقول: «الله كريم» «الله كريم».

أفقت عند الفجر على زقزقة العصافير وهديل الحمام إذ كانت مئات من هذه الطيور تشغل سقوف البناية وقد عشعشت في كل مكان يستوعب عشاً بين أعمدة السقوف وثقوب الجدران وكان الغبار يتناثر في فضاء الغرفة من تحريك الأجنحة وفضلات الحشيش اليابس والأخضر تتساقط من أطراف الأعشاش. فالدنيا ربيع والعصافير والحمام والكون كله يتمتع بكل ما فيه من حركة وانس ونشاط وهناء. انه موسم التكاثر والفرح ولكن سخافات البشر جعلته يهمل كل هذا وينكب يلهو بالحرب والقتل والتدمير والأسر والسجن والظلم ناسياً أن ليس في هذه الدنيا ما يبرر هذه الافعال الشنيعة وهذا الجنون. وأعادتني الى الحياة الواقعية ضربات على بعض الأبواب ونداءات اخواني في السجن للحارس.. اذ أخذ الواحد تلو الآخر يذهب الى المراحيض. فيفتح الحارس الأغلاق والأبواب ويقودهم الى حيث يريدون وكنت أسمع «بشاعات» الإنسان إذ لا يفصل بين غرفتي والمراحيض الاّ غرفة واحدة، وبما أن الجدران الفاصلة بين الغرف لا تصل الى السقف فكانت «الأصوات والروايح» تنتقل من غرفة الى أخرى بنسبة البعد أو القرب ما بين الغرف. ولما أتى دوري ضربت على الباب. وأتى الحارس الخادم «خالد» وفتح الباب فخرجت ثم عدت وأغلق خالد الباب... وبعد مدّة فتح الباب من جديد وأتى جندي من الأكراد يحمل صحناً معدنياً فيه زبدة ودبس وخبز... وعلمت أن هذا هو الفطور وأن الجندي هو العريف فتحي وهو طباخ عند ضباط الحرس الملكي... فشربت الشاي وأكلت الفطور وشكرت العريف فتحي على خدمته وأدبه... وهنا اعترف أن الجنود كلهم وعريفهم «السجّان» محمد كانوا كلهم مؤدبين ومستعدين للخدمة ولربما كانوا آسفين على وضعنا وطالبين الخير لنا... وكنت أسمعهم كلهم يدعون لنا بالفرج القريب والعاقبة الحسنة. وانقضى زمن غير قليل بعد الفطور والحلاقة والغسيل أمضيته مرّة انظر الى العصافير وأحسدها على تمتعها بهذه الحرية المطلقة وطوراً أفكر في نفسي والمحل القذر الذي أنا فيه والمصير الذي أجهله... وبعد مدّة طقطقت حدائد الباب وانفتح باب الغرفة فدخل عليَّ ابراهيم ومعه وداد مع غيده ومحمود ومعه أيضاً سليمان فتاح... فخفق قلبي لرؤيتهم وتسالمنا وتعانقنا وكانت الدموع تتساقط من عيني وداد وأدمعت عينا سليمان... فشجعوني وطمنوني وشجعتهم أنا أيضاً بدوري واعتذرت لهم بأن أكون سبباً لازعاجهم واقلاق بالهم... وكنت في الحقيقة متألماً بسببهم أكثر مما كنت متألماً من وضعي. ودخل الملازم صبري

مساعد الرئيس عبد القادر آمر الحرس ليكون على علم بما يجري ويسجل ما يراه جديراً ولازماً للتسجيل مما يدور من الحديث بيننا!

وبعد ربع ساعة تركني كل من ابراهيم وسليمان... وبقيت مع وداد والأولاد... منظر مؤلم جداً... كانت وداد تتظاهر بالجلد والصبر وكنت أنا أحاول الضحك والهزء لاخفاء ما في قلبي وتطميناً لها وللأولاد... وقد وجدت أن غيده قد نمت وكبرت ومحمود الذي تركته قبل ثلاثة أعوام لا يعرف من الدنيا سوى البكاء والرضاع هو الآن صبي جميل يتكلم ويسأل... اذ وقف جنب أمه ينظر إليّ ويسألها: هذا بابا؟ ليش شعره أبيض؟ ليش هنا؟ ليش ما يجي للبيت. وكاد قلبي ينفطر ألماً عندما سمعته يتكلم وينظر بعينيه الجميلتين إليّ وإلى الغرفة والى الوضع... أما غيده فكانت إلى درجة ما تفهم الوضع. وكان من المؤلم حقاً أن ألتقي بأهلي وأولادي بعد ثلاث سنوات في النفي والاعتقال في مثل هذا المكان وفي حالة كهذه! ولكن هكذا شاءت الأقدار... فلنتشجع ولنصبر وأن الله مع الصابرين.

بقيت وداد مع الأولاد عندي ساعة من الزمن، ثم انصرفوا وأخذوا معهم الشنط الزائدة وما لا أحتاج اليه من حوائجي.

صرت أشعر بعد هذه الزيارة، عندما أُغلق الباب من جديد ووضعوا فيه المِغلاق والحديد، بشيء من الاطمئنان والراحة لمشاهدة أخي وزوجتي وأولادي ولكنه شعور مخلوط بحرقة وحزن عميق... ماذا فعلت يا ترى لأستحق كل هذا؟ وكنت أجيب نفسي: أن العالم يمر بدورة هستيريا لها ملايين من الضحايا وأنا واحد من تلك الضحايا وسينجلي الغبار يوماً ما وقد تعود المياه إلى مجاريها... هكذا كنت كلما داهمني ظلام الواقع المخيف أحاول تبديده بأنوار الآمال والتمنيات وهكذا إلى يومنا هذا لا أزال أؤمل بأن الحق سيعلو يوماً وأن الباطل سيزهق في الآخر...

بعد عصر ذلك اليوم فتح الباب من جديد فدخل الرئيس عبد القادر فسلم واستأذن بالجلوس وأخذ يكلمني بكل لطف معتذراً عن هذا الوضع ومظهراً أسفه الشديد وألمه العميق بأن نكون بما نحن فيه وأكد بأنه سيكون دائماً مستعداً لأية خدمة ولأية مساعدة في نطاق صلاحيته وأظهر من التواضع والتأدب مما صيَّره في نظري غير الرجل الذي رأيناه في الأمس رمزاً للتعجرف، وسبحان من يبدل ولا يتبدل. واستمر الرئيس عبد القادر في طيب معاملته ومجاملاته وحسن سيرته حتى اليوم الأخير. ويظهر أن التعجرف والانتفاخ والشدة والحدة، التي تظاهر بها أول يوم وصولنا كانت لإرضاء الجماعة المستقبلة بما فيهم الضباط الانكليز وأحمد الراوي وضباط الشرطة السرية... وعلى كل فإن زيارة عبد القادر ومجاملته كانت نوعاً ما مخففة لكابوس السجن وضيق الصدر في هذه الغرفة الملعونة... وقد أثر وضع الرئيس على أتباعه من الحرس وعلى عريفهم «السجّان» محمد... فازدادوا تأدباً ومجاملة... وهذا أمر هام بالنسبة الى نفسية السجين... اذ أن بحسن المعاملة أو بإساءتها يستطيع السجّان أن يخفف أو يضاعف عذاب السجين، ذلك لأن العلاقة اليومية الدائمة هي قائمة بينهما ليلاً ونهاراً... فإذا تمرد السجّان وغلظ طبعه وساءت أخلاقه ازدادت ظلمات السجن وازداد ضيقه وكثرت عفاريته وطالت ساعاته. وفي مثل تلك الحالات يحقد السجين على السجان أكثر من حقده على الحاكم الذي حكمه أو الحكومة التي ظلمته... أقول هذا لأن حسن معاملة الرئيس عبد القادر خففت عنا من أثقال سجن أبي غريب

ومن أهواله هذا مع أننا لم نجهل أن هذه المجاملة كانت على الأكثر ظاهرية مصدرها اللسان ودافعها الأمل في فائدة مقبلة، ومع ذلك كنا نشعر بارتياح منها إذ كان في مقدور الرئيس وأتباعه أن يسيئوا المعاملة ويغلظوا الطباع فالمجال أمامهم واسع والمقامات العليا المنتقمة لا ترى ذلك الا بعين التشفي والرضى... والاّ فما معنى هذا السجن الخاص في «أبي غريب» وما علاقة الحرس الملكي بحراستنا مع وجود محلات للتوقيف وحراس في السجون من الشرطة وغيرها... وعلمنا من الرئيس عبد القادر وأتباعه بأن كل هذه الترتيبات والأوامر صادرة مباشرة من الأمير عبد الإله استناداً إلى رضى السفير كورنواليس وقد اتفق السفير والأمير ضدنا ورئيس الوزراء نوري السعيد مستعد للشر، وهكذا كنا معرَّضين للانتقام والحقود الشخصية أكثر مما كنا مجابهين للعدل والحق...

مرت بضعة أيام ونحن في هذا الوضع مسجونون طيلة النهار والليل في هذه الغرف القذرة الصغيرة. وكان ابراهيم يأتيني كل يوم وتأتي وداد مع الغداء فنأكل معاً ثم تذهب عصراً وهكذا كان الحال مع الأسر الأخرى. وبعد أن انقضى أسبوع من الزمن، جاء الرئيس عبد القادر وأخبرني بأن نوري باشا بناءً على حالتي الصحية وافق على أن أخرج الى الساحة الصغيرة المحاطة بالأسلاك أمام مدخل السجن، ساعة واحدة في النهار... نصف ساعة صباحاً ونصف ساعة مساءً... فشكرنا «أبا صباح» على هذا اللطف والعناية الخاصة بحالتي الصحية وصرت أجلس عند باب السجن لأستنشق الهواء... كأنما «الجرم» الذي قمنا به يحرم علينا أيضاً الهواء النظيف، وبعد مدّة سمحوا إلى محمد علي ورؤوف وعبد القادر أن يخرجوا أيضاً الواحد تلو الآخر بشرط أن لا يكلم بعضنا بعضاً ولا يسلم أحدنا على الآخر... أما الشريف شرف وكامل شبيب فلم يُسمح لهما بالخروج مطلقاً... لماذا؟ ـ حكم قره قوش!.. كل شي في وضعنا يدل على أننا لسنا سجناء الحكومة العراقية وانما كنا سجناء البلاط أو بالأحرى سجناء الوصي ومن ورائه السفارة البريطانية التي طابت لها هذه التصرفات الشاذة. كنا ضحايا انتقام كورنواليس وعبد الاله ونوري السعيد والعراق وما فيه خاضع اليوم لهذا المثلث الذي تشكلت أضلاعه من الاستعمار والاستبداد والاستغلال... إنه مثلث غريب سيحكم التاريخ في المستقبل على سيئاته وشروره!

سمعت من الرئيس عبد القادر والعريف محمد وكذلك من علي محمود أننا الآن في نعمة بالنسبة إلى المعاملة القاسية التي عومل بها الرعيل الأول. وسأذكر هنا ما بقي في ذاكرتي من تلك الفواجع.

ذهب الرئيس عبد القادر مع جنوده إلى البصرة لاستلام الجماعة وكانوا: يونس السبعاوي وعلي محمود وأمين زكي ومحمود سلمان وفهمي سعيد وصديق شنشل.. وضعوا الحديد بأيديهم وأتوا بهم بالقطار إلى بغداد. في المحطة كانوا قد استحضروا بعض المصورين فأخذت لهم صور شمسية وأفلام. ويقال ان الفيلم عرض فيما بعد بحفلة خاصة في قصر الزهور للتشفي وتسكين نار الانتقام... وضعوهم في هذا السجن في أبي غريب بعد أن دقوا الحديد في أرجلهم أيضاً... منعوا عنهم الزيارات بالمرّة ولم يسمح لعائلاتهم بزيارتهم الا مرتين بالأسبوع ولمدة قصيرة.

الوصي عبد الاله أتى الى السجن وقابلهم على انفراد وأنبَّهم ويقال أنه حقَّر بعضهم... ثم

أجـريت المحاكمـة بصورة مستعجلـة وحكموا عليهم بمـا حكمـوا. فنفـذ حكم الاعـدام بيـونس السبعـاوي ومحمود سلمـان وفهمي سعيد ثـاني يوم الحكم جنب السجن حيث نصبـوا ثـلاث مشـانق وكان السجناء يسمعون دق الأخشاب عندما كان أفراد الحرس الملكي ينصبون المشـانق... وعند إجراء تلك العمليـة المفجعة حضر للتفـرج كل من عبـد الاله ونـوري السعيد. ويقـال ان محمود سلمان تكلم ببعض الكلمات فأسكته مديرالسجون العام عبد الحميد الشالجي مهيناً اياه. ويذكـر عبـد القادر ويؤيـد ذلك كـل من العريف محمـد وعلي محمـود أنه بعـد اتمام عمليـة الشنق أتى عبد الاله ونوري ليريا حالة علي محمود وأمين زكي فـوضعوا لهمـا سلماً من الخـارج فتسلق كل منهما وأخذ ينظر من الشباك العـالي المطل الى داخـل الغرفـة فوجـدا علي محمـود يلعب بالـورق وكذلك أمين زكي... ويذكر عبد القادر أن فهمي سعيد شنق مـرتين لأن جسمـه كان خفيفـاً فظن الطبيب أنه فارق الحياة ولكن بعد أن أنـزلوه من الخشبـة وجدوا بـأنه لم يـزل حياً فـرفعوه من جديد وشنقوه ثانيةً... هذا وأن جثة يونس السبعاوي التي كانت ضخمة لم تدخل التابوت فصار الجنود يدوسونها بأرجلهم وأحذيتهم لادخالها في الصنـدوق... كيف يا تـرى يستطيع عبـد الاله ابن الملك علي ذلك الرجل الحكيم الطيب أن يحضر مثل هذه المناظـر منتقماً وملتـذاً؟ وهذا نـوري السعيد هل صيَّر الاستعمار قلبه حجراً صلباً كهذا؟ وهـل يجوز لـرئيس دولة ورئيس حكـومة أن يقوما بمثل هذه الأعمال؟ وكيف سكت السفير كورنواليس ممثل صاحب الجلالة البـريطانيـة وهو عالم بكل ما يقوم به الوصي ورئيس الـوزراء. هذا هـو سر المثلث العجيب. الاستعمار والاستبـداد والاستغلال...

كنت أسمع هذه الأخبار وأخرى مثلها وأتألم بأن يصل البشر إلى سوية مثـل هذه. الفـواجع في أوروبـا وفي الدنيـا كلها عـلى قدم وسـاق، هذا صحيـح، ولكن أما كـان في استطاعـة العـراق تجنبها..؟ هذا ما كنت قد سعيت له وحاولت، ولكن مـوجة الهستـيريا اكتسحت كـل من أراد أن يقاومها... نعم ان ما قام بـه القواد ويـونس كان خطـأً وعملاً ليس لـه ما يبـرره كما قلت في مـا سلف... ولكن أيجوز أن تتخذ تلك الحركـة وسيلة لتمثيـل الفواجـع وتطمين الأحقـاد وأن يضرب الإنسان بالمروءة والحكمة والانسـانية عـرض الحائط؟ نعم إن الاعتـداء أمر قبيـح ولكن الانتقام أقبح منه... ولكن يظهر أن العالم كله غطس تحت تلك الموجة القـوية... فـاختلط الظالم بـالمظلوم والعالم بالجاهل والخير بالشر والأخضر باليابس.

علمت أنه بعد وصولنا بيوم أو يومين أخذ كل من الشريف شرف وكامـل شبيب وعبد القـادر الكيلاني بدوره لمقابلة الـوصي في قصر الزهـور أو قصر الرحـاب ولم أعلم حتى اليوم بمـا دار من حديث أثناء تلك المقابلات على أن من سير الحديث مع الرئيس عبد القادر فهمت بأن ذلك كان من باب اللوم والعتاب والتأنيب والتحقير وأنه من علائم الخير أننـا نحن الثلاثـة محمد عـلي ورؤوف وأنا لم نتشرف بمثل تلك المقابلـة غير المـرغوبـة... هذا أمـر ان دل على شيء فـإنما يـدل على أن وضعنا هو بين يدي صاحب السمو ومن ورائه الانكليز... فـالخير اذن أو الشر سيـأتينا من هـذه الناحية بصرف النظر عما إذا كنا مذنبين أو غير مذنبين... فالحكم والعدل والقانون والحق وكل ما في العراق اذن، كلام فارغ. والحقيقة أن مصيرنا ومستقبلنـا وحياتنـا الآن محاط بـذلك المثلث... وقاعدة المثلث هي السفارة بينما البلاط والوزارة يشكلان ضلعيه القائمين... هـذه الوضعيـة كنا نعرفها وكان يعرفها كل واحد في العراق... وكان الرئيس عبـد القادر دائمـاً يقول لنـا جهراً بـأن

الأمر كله في يد الوصي مع الاستناد الى السفير وسوى ذلك «لغو في لغو»...

نحن الآن في مأزق حرج، لأن الظواهر كانت ضدنا... ألم نكن وزراء رشيد عالي؟ فهذا يكفي لحقد الانكليز والوصي ورئيس الوزراء... لكن هل كنا من أعوان رشيد أو هل كنا راضين عن أعماله وتصرفات القواد؟ ألم نحاول الاستقالة؟ ألم نهرب من رشيد وجماعته عندما وجدناهم لا يسمعون ولا يفقهون؟ لمَ أصبحنا وزراء دون رضائنا وبلا علمنا مقدماً؟ هذه كلها أمور يجهلها أو يتجاهلها من أكل الحقد قلبه وغلب الانتقام على مروءته وضميره... نعم كانوا يعلمون بذلك ولذا عندما جلبوا الرعيل الأول تركونا في المنفى في أفريقيا وذلك بالرغم من رغبتنا وإلحاحنا في العودة إلى بغداد منذ أن سمعنا بوجود تهمة ضدنا عندما كنا في ايران... فلو كنا مجرمين لماذا لم يأتوا بنا مع الباقين ويحاكموننا ويحكمون علينا بما نستحق كما حكموا من قبل؟ هذا من جهة ومن الجهة الثانية لو كانت نيتهم طيبة لماذا جلبونا الآن والمعمعة لم تزل قائمة والبحار خطرة ولماذا هذا الاستقبال وهذا السجن المنفرد في «أبو غريب»؟ ولماذا كل هذه الشدة والحيطة والقسوة؟ وإذا كانت البعرة تدل على البعير فوضعنا لا يبعث على راحة البال والاطمئنان. على أن أخبار التفاؤل كانت تأتينا من كل جانب. هذا يقول أن في نية الحكومة سحب الدعوى أو التهمة وانهاء المسألة وآخر يقول أن الانكليز أخذوا عهداً من الحكومة العراقية قبل جلبنا من أفريقيا بأن لا يصيبنا أذىً وثالث يدعي بأنه ستقوم محاكمة شكلية لاصدار قرار ببراءتنا. وكان محمد علي محمود حسب عادته أغزر منبع للتفاؤل وكان مؤمناً من كل قلبه بأن المسألة مسألة أيام معدودات ثم يذهب كل منا إلى بيته معززاً مكرماً. ولكن بالرغم من ذلك كله كنت أشعر في أعماق قلبي أن وضعنا لا يستوجب الارتياح. هذا كان اعتقادي منذ أن أخبرنا بالعودة في سالسبري. وقد أكد هذا الاعتقاد المعاملات التي رأيناها في الطريق. ثم في سجن القلعة والعباسية في مصر، ثم «الاستقبال المطنطن» من قبل الشرطة وعلى رأسها أحمد الراوي والحرس الملكي تحت قيادة الرئيس عبد القادر وهذا السجن الغريب في «أبو غريب» وعناية الوصي الخاصة بنا وبسجننا... كل هذه تدل أن أمامنا صعوبات وانتقامات... ولذا كنت ساعةً اسلّي نفسي بتفاؤل المتفائلين وأقضي ساعات عديدة أفكر بما في الأيام المقبلة من مزعجات وظلمات...

كنا نتبادل الآمال والهموم كلما التقينا في الممر بين الغرف أو في الساحة أمام السجن خلسة وعندما يكون الحارس غافلاً أو متغافلاً كما أن العوائل والاقارب كانوا ينقلون الأخبار بيننا. فأخبار محمد علي كانت كلها مشجعة ومصدرها الاتصالات بجميل المدفعي وابراهيم كمال وأخبار رؤوف البحراني، وان كانت محدودة هي أيضاً، كانت مطمئنة وآتية عن طريق السيد عبد المهدي. وعبد القادر الكيلاني قصته خاصة به. أما الشريف شرف وكامل شبيب فلا اتصال ولا علاقة بيننا وبينهما... وكانت التطمينات تتوارد على ابراهيم من كل جانب أيضاً. عبد المحسن شلاش وعبد الرزاق الأمير وادموندس وغيرهم...

نصحوني أن أكتب للوصي فكتبت له مفصلاً عن الوضع وما جرى وأكدت بأني لم أكن يوماً ما ضد البيت الهاشمي أو ضده وهذا هو الحق. ثم كتبت إلى نوري باشا بواسطة أحمد الناصفي وكتبت للأمير زيد... كتبت لهم مبيناً الوضع وطلبت منهم النجدة لانقاذي من هذا

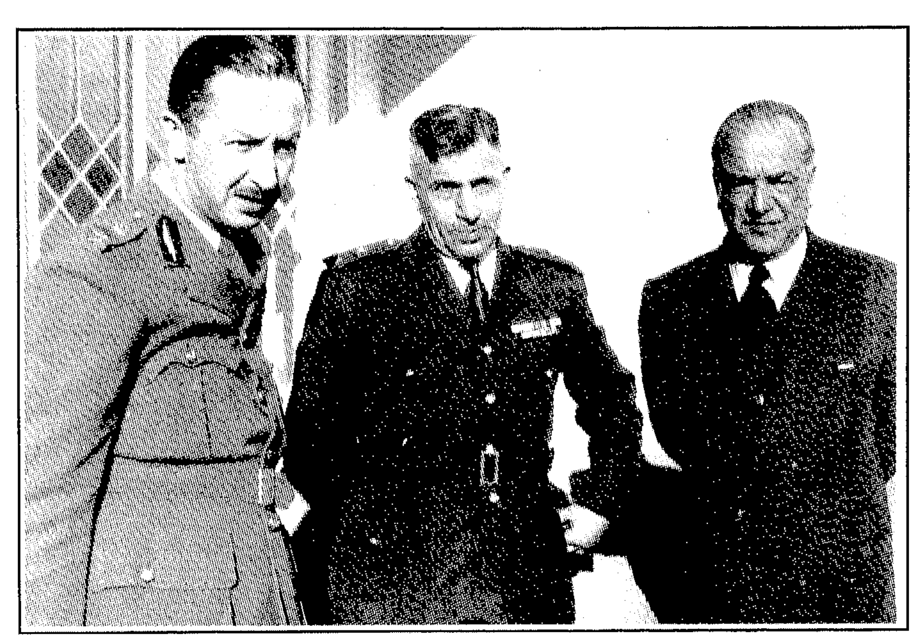
السجن وهذا العذاب... ولكن لم يغير كل ذلك شيئاً وبقينا في جو مظلم لا أرى فيه بصيصاً من النور.

صادف أن أتى الى بغداد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان في تلك الأيام فقابله ابراهيم وقابلته وداد فوعد خيراً وتحدث مع الوصي ومع نوري السعيد وبلغني أنه ذكر على سبيل المثال ما قام به اده ضدهم ولكنهم عفوا عنه وتركوه... وبلغني أن نوري أجابه بأن لا سبيل لسحب التهمة وأنه لا بد وأن تكون محاكمة وعسى أن تنتهي بخير...

انقضى علينا ما يقارب الشهر ونحن في هذا السجن المخيف وعذاب جهل المصير يحيط بنا ويزداد كثافةً وثقلاً كل يوم وعيشة السجن المنفرد هذا، تضاعف ذلك العذاب وتجعله أحياناً لا يطاق...



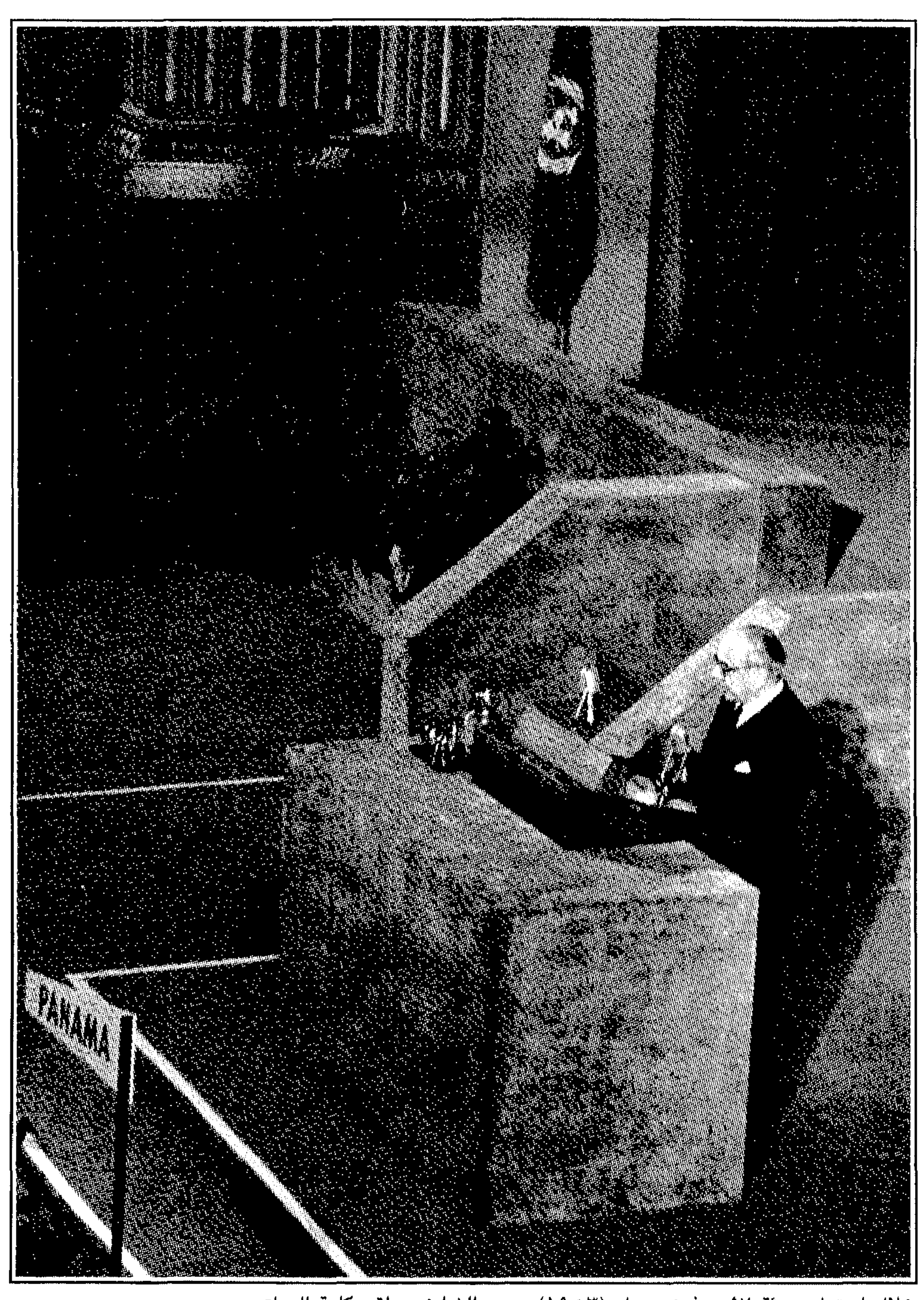
خلال افتتاح مجلس الجامعة العربية في دمشق (أيار/مايو ١٩٥١) يبدو من اليمين ابراهيم الخضيري، موسى الشابندر، توفيق السويدي، حسين العويني وأحمد طوقان.



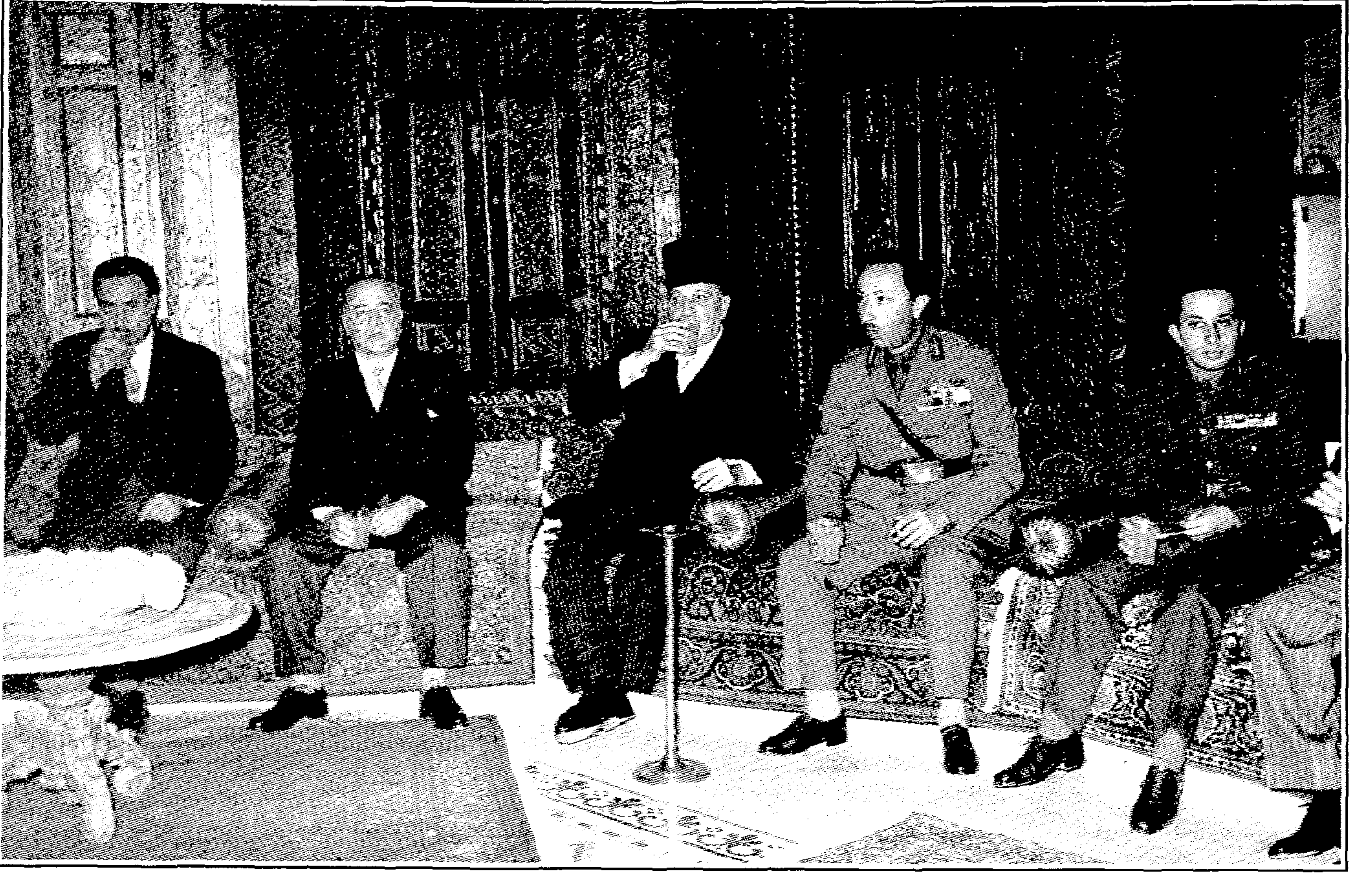
موسى الشابندر مع الرئيس اديب الشيشكلي ويبدو إلى اليسار الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق (القصر الجمهوري تموز/يوليو ١٩٥١).



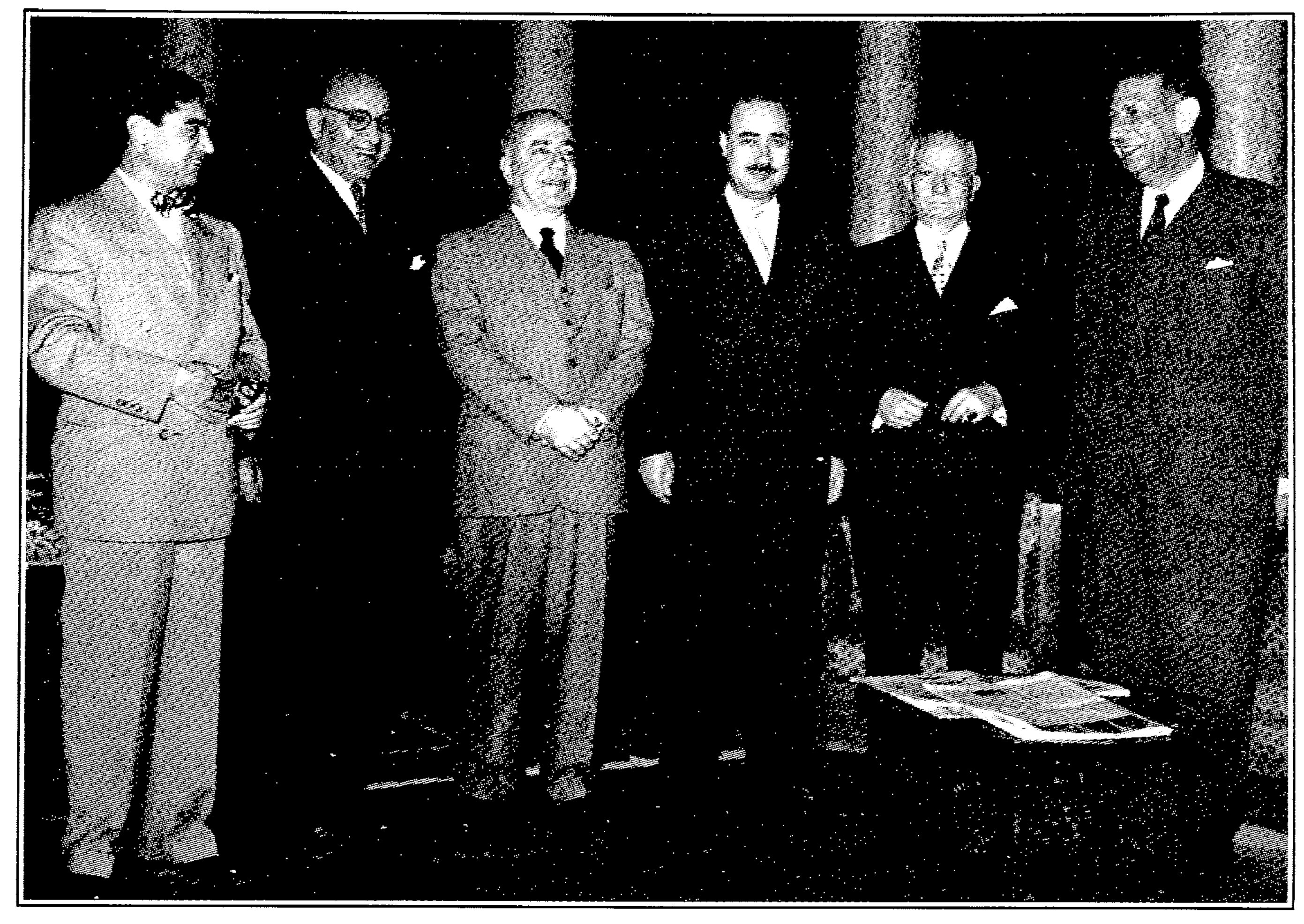
الوزير المفوّض موسى الشابندر مع عائلته. زوجته وداد وأولاده محمود وغيده، (دمشق ١٩٥٢).



خلال اجتماع هيئة الأمم في نيويورك (١٩٥٣) موسى الشابندر يلقي كلمة العراق.



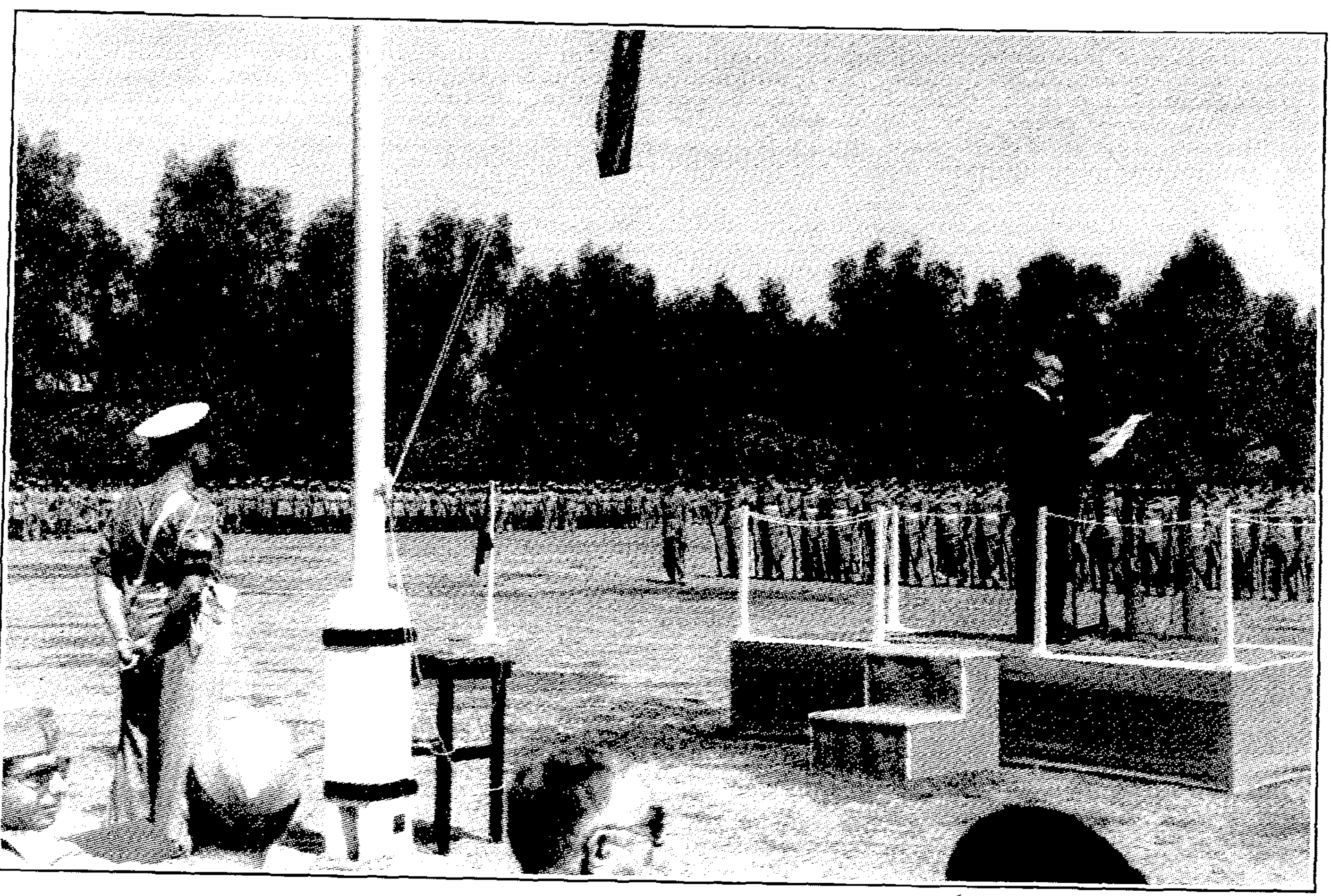
قصر الضيافة في بيروت (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤) من اليمين الملك فيصل الثاني والأمير عبد الإله والرئيس سامي الصلح، موسى الشابندر وعبد الله بكر خلال زيارة الملك إلى لبنان.



موسى الشابندر في صورة تذكارية مع الوفد العراقي المرافق للملك فيصل خلال زيارته إلى بيروت (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤) ويبدو من اليمين أحمد مختار بابان، أرشد العمري، عبد الله بكر، موسى الشابندر، محمد الراضي، خليل ابراهيم.



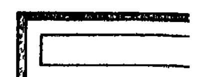
موسى الشابندر مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر (كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٤).



موسى الشابندر وزير الخارجية يلقي خطاباً بمناسبة استلام مطار الحبانية (أيار/مايو ١٩٥٥).



خلال حفلة غداء على شرف الأمير عبد الإله في وزارة الدفاع في واشنطن ويبدو من اليمين رئيس الأركان الأميركي الأميرال رادفورد، الأمير عبد الإله، نائب وزير الدفاع الأميركي روبرتسون وموسى الشابندر (شباط/فبراير ١٩٥٧).



التهمة

في أواخر نيسان/ ابريل سمعنا بأن التأخير ناتج عن صعوبة تشكيل المحكمة وأن المدعي العام حمدي صدر الدين لم يوافق على توجيه تهمة الينا لعدم وجود أدلة ولأننا دخلنا الوزارة بعد تصويت المجلس وخلعه الوصي وانتخاب وصي جديد ثم بلغنا أن حمدي صدر الدين استقال وعين محله عبد العزيز الخياط وأن شهاب الدين الكيلاني أيضاً سيستقيل لأن ابن عمه عبد القادر هو بين المتهمين فكل هذه الأمور كانت تدل على أن هنالك طبخة، وأن نوري والانكليز والوصي مهتمون بالقضية.

وفوجئنا يوماً بخبر اتهام المفتي الحاج أمين الحسيني بالمادة ٨٠ من قانون العقوبات البغدادي وقد وجهت الإذاعة العراقية انذاراً له بلزوم تسليم نفسه خلال سبعة أيام والا فستجري محاكمته غيابياً وقرأنا في بعض الصحف نفس الانذار. اذن كان الجماعة ينوون محاكمة المفتي معنا... لماذا لم يتهموه كل هذه السنوات ولم يحاكموه مع الرعيل الأول وهو مكوّن الحركة وموقد نارها؟ فإدخال المفتي معنا لم يكن من الأمور المطمئنة بالنسبة لنا... وقد زادنا هذا الأمر قلقاً واضطراباً. وبعد ذلك بأيام استلم الرئيس عبد القادر كتاباً من رئيس المجلس العرفي يذكر فيه بأننا نحن ـ كامل شبيب والشريف شرف ومحمد علي محمود ورؤوف البحراني وموسى الشابندر ـ متهمون بالمادة ٨٠ من ق.ع.ب وأن عبد القادر الكيلاني متهم بالمادة ٢٥٥ ـ وأتى هذا الخبر كضربة قاسية علينا وحطم آمالنا.

إذن كل تلك التطمينات كانت هواءً في شبك ولم يقصد منها الّا تخدير الأعصاب وتحديد الوساطات والمراجعات!

إذن نحن والمفتي وكامل شبيب كلنا في نظر الجماعة في نفس الدرجة من الذنب والاجرام.

إذا كان هنالك ذنب أو جرم...

أتانا ذلك الخبر المزعج مساءً ولم يكن لدينا متسع من الوقت لنفهم ما هي هذه المادة ٨٠ ـ ولم يتذكر محمد علي ولا رؤوف ولا علي محمود عنها شيئاً ولكن هذا الأخير قال لي أنهم هم أيضاً كانوا متهمين بنفس هذه المادة وأن فيها فقرتين. أخذت الأفكار السوداء تتوارد علينا لا سيما بعد أن وجدنا أنفسنا متهمين بنفس المادة مع كامل شبيب والمفتي. أذكر عندما كنا في ايران سنة ١٩٤١ وسمعنا بتوجيه التهمة لنا كان كامل شبيب مثلاً متهماً من المحكمة بنفس المواد التي اتهم بها رشيد والقواد والآخرين من الرعيل الأول... فالآن تساوينا مع كامل ومعنى ذلك أن الوضعية ازدادت سوءًا.

جلسنا تلك الليلة مهمومين مغمومين أمام ساحة السجن ومن قلة ذوق الرئيس عبد القادر (أو من شدة لؤمه؟) أنه أخذ يقصّ علينا تفاصيل عملية الشنق التي قام بها هو وجنوده وموظفو

السجن قبل عامين عندما علّق على الأخشاب يونس ومحمود سلمان وفهمي سعيد وأخذ يسرد علينا وصفهم قبل الشنق وكيف أخذوهم ليلاً وكيف حضر عبد الاله ونوري السعيد ذلك المنظر وكيف أنهم شنقوا فهمي سعيد مرتين وكيف كانت حالة نسائهم وأولادهم يوم الحكم ويوم الشنق ويوم استلام الجثث... فكان حديث يدوخ الرأس ويهد الأعصاب. ونحن الآن في هذا السجن حيث كان هؤلاء المساكين وأننا متهمون بنفس المادة. والوصي ما زال ذلك الوصي والسفير ذاك السفير ونوري لم يزل يرأس تلك الحكومة.

لكن لو كانت نية الجماعة الفتك بنا لماذا لم يأتوا بنا مع الرعيل الأول؟ ربما كان لانتصار الألمان في ذلك الحين تأثير على الوضع... فالآن الحالة الحربية تحسنت بالنسبة للانكليز... وقد حان وقت الانتقام... ولكن نحن لم نعمل ما يستوجب الانتقام بل على العكس.. حاولنا أن نقلل الشر وقد قللناه فعلاً في بعض الظروف..

لم أنم إلا قليلاً في هذه الليلة الملعونة ولما قابلت صباحاً محمد علي في الممر قال لي أنه هو أيضاً لم ينم الليل. وبقينا ذلك اليوم حتى وقت الغداء ننتظر أهلنا لنسمع منهم ما عندهم من أخبار وليأتونا بقانون العقوبات... وقد أتوا به لمحمد علي فقرأنا المادة وهي:

المادة ٨٠

١ ـ يعاقب بالاعدام كل من نظّم او تراس اية عصبة مسلحة هاجمت فريقاً من سكان البلاد أو قاوم بالسلاح تنفيذ القانون بواسطة مأموري الحكومة «أو شرع في استعمال قوة ظاهرة للقضاء على الحكومة أو تغييرها».

٢ ـ وتكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة والموقتة والحبس للاشخاص الذين انضموا للعصبة دون ان يشتركوا في تنظيمها أو أن يكون لهم رياسة فيها...

قرأت هذه المادة، ثم قرأتها، ثم قرأتها، ولم أستطع أن أصدق بأني متهم بها...؟ عصبة مسلحة! استعمال قوة! مقاومة تنفيذ القانون! الانضمام الى عصبة! ما هذا كله؟ ثم تذكرت الذين شنقوا، والذين حكم عليهم بالأعمال الشاقة، وهذا أمامنا على محمود الذي حكم عليه بالحبس الشديد لمدة سبع سنوات، بعد أن كان محكوماً بالاعدام غيابياً... نعم نحن لسنا في عالم الخيال بل انما في عالم حقيقي. فهناك من شنق بمفعول هذه المادة وهناك من سجن ولم يزل سجيناً من جرائها. ونحن الآن متهمون بها. والمفتي متهم بها. ورابع القواد كامل شبيب متهم بها. ولكن ألم يقر مجلس الأمة أعمال رشيد وأعوانه الأولى. ألم يخلع الوصي السابق وينتخب وصياً جديداً... ألم تصدر إرادة ملكية باسناد رياسة الوزارة الى رشيد عالي بصورة مشروعة؟ ألم نصبح وزراء أيضاً بارادة ملكية؟ ألم يتحمس الشعب من أوله إلى آخره ويؤيد رشيد... ألم يعلن العلماء ورجال الدين الجهاد ضد الانكليز... ألم تسعى تركيا ومصر للتوسط بين العراق وبريطانيا... ألم. ألم.

إذن من أين أتت العصابة المسلحة، وكيف نتهم نحن الذين لا علاقة لنا بالصفحة الأولى من الحركة، بل انما وجدنا أنفسنا أمام أمر واقع، وأصبحنا وزراء مرغمين، وكافحنا تصرفات رشيد والقواد، وحاولنا دفع الشر، ثم تركنا رشيد وهربنا من تصرفاتهم والفوضى.

كيف يا ترى يمكن أن يتهمونا الآن بأننا من أعضاء العصبة ومن المنضمين إليها؟.

ولكن الآن ليس وقت المنطق والانصاف والمروءة... انما هو وقت الانتقام... وفهمنا من علي محمود أن المحكمة اعتبرت مجلس الأمة مرغماً على الاجتماع والتصويت، وقد شهد بعضهم بذلك ومنهم الشيخ صالح باش أعيان. فقالوا انهم أكرهوا على الاجتماع وهُددوا ولذا صوتوا وصفقوا خوفاً من البطش ولكنهم والله كذبوا والتعنوا. لأن النواب والاعيان الذين لم يحضروا الاجتماع لم يصابوا بأذىً ومنهم مثلاً صادق البصام وعلي ممتاز وتوفيق السويدي وعبد المهدي وغيرهم وغيرهم، ولكن المحكمة قبلت بذلك التفسير لأن الانكليز لم يرغبوا في تجريم «أعضاء المجلس» المصوّتين المصفقين بل فضلوا أن تنحصر تهمة العصبة بحكومة رشيد عالي والقواد والمفتي والشريف شرف، إذ أن التوسع في الموضوع يجعل الشعب العراقي أو الأكثرية الساحقة منه مشتركاً ومجرماً. وفي بادىء الأمر لم يتهموا حتى المفتي، ولا الشريف شرف، ولربما كانوا قد اكتفوا بالرعيل الأول، ولكن الآن تحسنت الأحوال. فلينتقموا بعد أن خلا الجو للمثلث، فليتّهم وليحاكم وليحكم ولينتقم وليتجبّر وليتكبر...

بالرغم من انجلاء الوضع، استمرت الأخبار المشجعة والمطمئنة تنهال علينا. وكنت أرى محمد علي محمود غير مكترث بالتهمة ولا هذه المادة وكان متشوقاً بأن تبدأ المحاكمة بأقرب وقت ممكن. وكنت أستغرب جداً لهذا الاطمئنان لا سيما ومحمد علي لم يشتهر بالشجاعة والمتانة وكان دائماً في ايران وفي افريقيا وأيام الحركات أكثرنا هياجاً وأشدنا قلقاً. أما الآن فقد أخذ يظهر بغير مظهر... لا يبالي بالتهمة ولا بالمحكمة ولا بالمادة ٨٠. ماذا حصل يا ترى. من أين أتى هذا الاطمئنان. وكان دائماً يشجعني ويقول: سنرى المحكمة ما تقدر تحكم بشيء ضدنا لأن حججنا قوية ووضعنا صريح والكل يعرف أننا لم نرضن بأعمال القواد ورشيد، والكل يعلم اننا تركناهم عندما لم يسمعوا لنا نصائحنا. ثم أنا عندي أخبار واثقة. ما أقدر أفصل لك الوضع الآن. ولكن كن مطمئناً. لا تفكر. لا تتشاءم.

هذه كلمات مشجعة ومطمئنة ولكن مفعولها لم يكن طويل الأمد. إذ أن الوضع الذي نحن فيه واهتمام «المثلث» بأمرنا كل هذا الاهتمام، وتبديل المدعي العام وغيره من العلامات لا تدل على الخير. ومرت علينا أيام كلها قلق واضطراب وعذاب. وأخبرنا يوماً بأنّا سنحضر أمام المحكمة في يوم السبت الموافق ١٣ آذار/ مارس وكان يوماً مشؤوماً كل الشؤم...

افقنا عند الفجر بعد ليلة كلها كوابيس وهواجس، فلبسنا وأتى الرئيس عبد القادر ومعه مساعده الملازم صبري، ومعهم شلة من الحرس الملكي ببنادقهم وحرابهم، وأحاطوا بنا وخرجنا معهم إلى خارج السجن. هناك أصعدونا بسيارة نقل الجرحى للهلال الأحمر، وصعد معنا الملازم صبري، ثم أغلقوا نوافذها ومدخلها بحيث كنا لا نرى أحداً ولا أحد يرانا، تقدمتنا سيارة الرئيس عبد القادر ومن ورائه لوري كبير مملوء بالجنود المسلحين، ومن ورائنا لوري آخر من الجنود، وكان مهرجاناً مسلحاً يدل على لؤم البشر وسخافتهم. وسرنا زمناً وكان الحر داخل هذه السيارة المغلقة شديداً، وأصبح التنفس عسيراً، وكنا متألمين قلبياً وكل منا يتظاهر بالجلد والتوكل والاطمئنان أمام الجنود والضباط... وبعد مدة وقفت السيارة فنزلنا ووجدنا أنفسنا في معسكر الوشاش محاطين ببعض **البنكلات** (مبنى مستقل) من الطين وبعدد كبير من الجنود المسلّحين

وهنـا وهناك رشـاشات منصـوبة أمـام البنايـة التي تجلس فيها المحكمـة... أخذونـا إلى إحدى البنايات وفرقونا الى فريقين: الشريف شرف ومحمد علي محمود وأنـا آدخلونـا في غرفـة، وأدخلوا رؤوف البحراني وعبد القادر الكيلاني وكامل شبيب في غرفة مجاورة، وأقاموا حراساً على الأبواب وأمام المنافذ.

نحن في وسط المعسكر ومع ذلك كان عدد الحراس يتجاوز المائة ما هذا السخف؟ ولكن يظهر أن الحرس الملكي لم يكن لديه مهمة أحسن من هذه... مهمة السجّان!

بعد أن انتظرنا زمناً غير قصير، أخذونا أيضاً محاطين بالجنود والحراب إلى البنكلة (المبنى) التي اتخـذت محكمة... وهي عبـارة عن غرفتـين متصلتـين مبنيـة من طـين وفـوقهـا سقف من **جينكو**... دخلنا إلى الغرفة الداخلية وهي عبارة عن غرفـة مستطيلة صغـيرة وضعوا في وسطهـا قفصاً واطياً من الخشب وبداخله ست كراسي للمتهمين. وأمامنا على منصة خشبية عالية وضعوا طاولة مستطيلة جلس وراءها الحكام الخمسة وإلى جنبهم المـدعي العام... في طـرفي الغرفـة عدة كراس صفوها عند الجدار للمستمعين والمحامين... أدخلونا الى هذه الغرفـة المتواضعـة فجلسنا على الكّراسي أمام طاولة المجلس العسكري... وصادف جلوسنا هكذا.

محمد علي محمود	موسى الشابندر	الشريف شرف
رؤوف البحراني	كامل شبيب	عبد القادر الكيلاني

وأخذ أعضاء المجلس أمـاكنهم فكان الـرئيس الزعيم مصطفى راغب يتـوسط الحكام وعـلى يمينه الحاكم شهاب الدين الكيلاني فالعقيد محمد علي سعيد وإلى يســاره الحاكم خليـل امين ثم ضابط برتبة رئيس هو العضو الاضافي وجلس الى ضلع الطاولة الشمالي المدعي العام عبد العزيز الخياط... وكان بعض الضبـاط وبعض المحامـين أخذوا محـلاتهم في جانبي قفص الاتهـام وكان بينهم أخي ابراهيم ومحامينا عبد العزيز السنوي...

كان منظر فيه رهبة وفيه سخافـة وفيه غـرابة. لأن وراء ذلـك المنظر كـانت مأسـاة ومهازل. فهؤلاء الحكام والمدعي العام كانوا أيام حركات رشيد عالي يشغلون مناصبهم في الجيش والعدلية وكانوا كالآلاف غيرهم من المؤيدين والمؤازرين والمتظاهرين بالرضى ورئيس المجلس مصطفى راغب كان قائد المدفعية ولم يكف عن قتال الانكليز الّا عندما نفذت معـدات المدافـع وأعلنت الهدنـة... فلله در الاستعمار الذي خلق بين عشية وضحاها حكامـاً من هؤلاء وجعلنا نحن مجـرمين نجلس أمامهم في قفص الاتهام. ولله دره كيف استطاع أن يجعـل من «المثلث» آلة صمـاء للفتك والظلم والانتقـام. وهكذا امتـزج رعب الظلم، وسخافـة الهزل، وتمثـل بشكل محكمـة ومجرمـين في هذه البناية المتهدمة في معسكر الوشاش... فكأنما هذه البنكلة الطينية المتـداعية لـلانهدام رمـز لهذه المحكمة العسكرية والنظام الذي خلقها والظلم الذي نفخ فيها روحه المنتقمة الجاهلـة فكنا كلنـا: الحكام والمجرمون أو المتهمون نمثل دوراً فرضه الاستعمار علينا فرضاً، فكان الاصطناع يبدو في كل الحركات والسكنات وكان التمثيل يصرخ بأعلى صوته انه تمثيل رخيص. وكان الألم في قلوبنا ينعكس في ملامح أوجهنا، وكان عذاب الضمير مكظـوماً في أعـين بعض الحكام الـذين لم يفقدوه

بالمرّة، وكنا نخفي ألمنا بالجلد وكان حكامنا يخفون عذابهم بالأبهة والجد. ولكن مع ذلك كله فالمهزلة كانت لا تختفي بسهولة...

جلسنا على كراسي الاتهام ونظرنا إلى حكامنا فنظروا الينا ثم حولوا الابصار إلى بعض الأوراق امامهم. وبدأ الرئيس مصطفى راغب يسأل أسماءنا واعمارنا ومحلات السكن وهنا وثب المدعي العام وبصوت مرتجف وطلب بأن نقف عند الجواب فوقف كل منا عندما سئل اسمه وبعد ذلك أعطى رئيس المحكمة حق الكلام إلى المدعي العام فوقف هذا وأخذ يتلو رزمة أوراق أسماها «أسباب التهم». وبعد مقدمة طويلة برز فيها الكذب والتلفيق ممزوجاً بالصدق المفسر أسوأ تفسير واستعمل فيها كلمات قارصة واهانات مفضوحة أخذ يسرد التهم على وجه الانفراد بالنسبة إلى أشخاص المتهمين فبدأ بكامل شبيب ثم بالشريف شرف ثم بموسى الشابندر فمحمد علي محمود فرؤوف البحراني فعبد القادر الكيلاني ـ وقد رأيت أن أسجل هنا ما جاء في حقي وزميليَّ محمد علي ورؤوف لإكمال سير الحوادث...

قال المدعي العام عبد العزيز الخياط:

٣ ـ **موسى الشابندر** ـ أما المتهم موسى الشابندر فإنه نازي المبدأ بسبب سبق وجوده في برلين ومعرفته اللغة الالمانية وصديق رشيد عالي الحميم واشترك في عصابته ورغم استقالة أكثر المخلصين من وزارة رشيد عالي السابقة التي لم يرغب سمو الوصي ببقائها فإنه شجع رشيد عالي وقبل أن ينضمّ معه باسم وزير الخارجية وبصورة مخالفة للدستور، وذلك في الوزارة المرقعة التي تشكلت بصورة غير مشروعة والتي أنتجت ذهاب سمو الوصي عبد الاله الى الديوانية. وبعد سقوط هذه الوزارة القليلة العمر وحد صفوفه مع القواد الثائرين ومع رشيد عالي، الذي بقي خارج الحكم وبدأ يهيج الرأي العام ضد وزارة طه الهاشمي، ويروج الدعايات المضرة. وبعد غصب الوزارة المشروعة من يد طه الهاشمي واحتلال دواوين الحكومة من قبل القواد الثائرين واجبار سمو الوصي الشرعي على مغادرة العاصمة وتشكيل حكومة غير مشروعة من قبل رشيد عالي وعصابته من القواد الثائرين بالقوة المسلحة فإن موسى الشابندر اشترك مع هذه العصابة بعنوان وزير الخارجية بينما لم ينصب من قبل مرجع شرعي، واشترك بالجرائم مع رشيد عالي في شهر آذار/ مارس ١٩٤١ وفاوض دولة معادية وهي ألمانيا، ووافق على دخول الدكتور غروبه الذي كان مبعداً من العراق. ووافق على دخول قوات أجنبية مسلحة معادية للعراق ـ وهي القوات الالمانية والايطالية ـ ووافق على اعطاء خيرات البلاد ومهماتها الى الدولة المعادية المانيا بواسطة أحد أفراد العصابة (قاسم مقصود) الذي جرت محاكمته على حدة. وإن (موسى الشابندر) من جملة العاملين لنقض أحكام المعاهدة العراقية ـ البريطانية. وأحرج موقف الحليفة بريطانيا وذلك بمقابلته التي جرت في ديوان الوزارة بحضور الكابتن هولت وبحضور رشيد عالي وقد شدد الخناق على السفير البريطاني خلافاً لبنود المعاهدة العراقية البريطانية وذلك بتاريخ ٢٨ نيسان ١٩٤١ وساعد على العصيان المسلح الذي أنتج الحرب مع الحليفة بريطانيا في شهر آذار مارس ١٩٤١ والذي سبب حصول اضرار عظيمة في الجيش العراقي وقتل النفوس البريئة والاضرار بالاموال والحط من سمعة العراق الخارجية.

ان موسى الشابندر اجتمع مع العصابة تحت عنوان «مجلس الوزراء» بدار وزير المالية غير المشروع بتاريخ ٢/٥/٩٤١ واشترك بمقررات تضر بصالح العراق خلاف المعاهدة العراقية ـ البريطانية ومن جملتها طلب ممثل سياسي ألماني الى بغداد بأسرع ما يمكن رغم أن المانيا معادية للدولة العراقية وخلافاً لنصوص المعاهدة العراقية البريطانية. واشترك في مقررات مجلس العصابة الذي سموه مجلس الدفاع الاعلى وأيد جميع ما قرره شركاؤه في العصابة فنذكر ما بيَّنه لذلك حرفياً

في الصحيفة ١٥ فقد قال موسى الشابندر: (علينا أن نلاحظ الأمور بصورة عملية. فهل اعتراف بريطانيا بالحكومة يؤدي إلى منع سوء النية؟ ومع هذا فإني أؤيد ما قاله الاخوان/ ويعني موسى الشابندر بالاخوان هم رجال العصابة الذين حضروا الجلسة الثانية بتاريخ ١٧ نيسان ١٩٤١ وهم المحكومون رشيد عالي الكيلاني، ويونس السبعاوي، وأمين زكي سليمان، وصلاح الدين الصباغ، والمتهم الحاضر محمد علي محمود. وقد هيج موسى الشابندر رجال العصابة في بياناته في مجلسهم المسمى مجلس الدفاع الاعلى الذي عقدوه بتاريخ ٢٩ نيسان ٩٤١ واثارهم ضد الحليفة بقوله لهم حيث أفاد: (لقد علمت بقرب وصول قطعات بريطانية عدا التي وصلت وتقدر هذه ما بين ٣٠٠٠ - ٣٥٠٠ مشاة و٧٥٪ منهم عمال ومهندسون واطباء وممرضات وغيرهم و٢٥٪ منهم جنود مسلحون ومعهم مهمات وتجهيزات أخرى. وأن هذه القوة حسبما أخبرت من قبل سكرتير السفارة البريطانية، هي الآن بالخليج وستدخل البصرة اليوم أو في الغد) وأن موسى الشابندر شجع رفقاه، رجال العصابة في المجلس المذكور، بتحريضه لهم أن لا يقبلوا المعاهدة العراقية من تاريخه الى ثلاثة أيام، إذا لم تحل قضيتهم وبلزوم اخبار السفارة البريطانية بعدم قبول اية مراجعة حول المعاهدة ما لم تكن مذكرة تحريرية، وباصرار موسى الشابندر ورفقاته على مذكرتهم الأولى، حيث قال موسى الشابندر حرفياً في الصحيفة ٢٣ (ليس من رأيي ارسال مذكرة تحريرية أخرى بل نبعث رئيس التشريفات لاخبارهم بأن الحكومة لا تقبل أية مراجعة حول المعاهدة ما لم تكن مذكرة تحريرية. ويخبرهم باصرارنا على مذكرتنا الأولى بعدم انزال القوة الجديدة ويقول لهم بأنه من الآن الى ثلاثة أيام اذا لم تحل هذه القضية فسنكون في حل من المعاهدة).

وهكذا موسى الشابندر الذي هو بعيد عن السياسة وحديث عهد بالوظائف قد سبب توتر العلاقات بين العراق وحليفته وسبب الاصطدام المسلح ومع انه لم يجرب نفسه في الهيجاء ولم يشترك في أي حرب فعلاً فقد عرَّض الوطن للحرب وانهزم بسرعة الغزال للتخليص نفسه.

٤ - **محمد علي محمود** - أما المتهم الحاضر محمد علي محمود فقد انضم إلى العصابة وإلى الحكومة غير المشروعة في زمن الوصي المزيف الشريف شرف واشترك بمقررات رجال العصابة المارِّي الذكر، وحضر جلسات مجلس العصابة المسمى «مجلس الدفاع الأعلى» وسهل أعمال العصابة بعنوان وزير المواصلات والأشغال رغم عدم تنصيبه من قبل جهة شرعية. وحبذ جميع مقررات رجال العصابة وكان موجوداً في العصيان المسلح الذي أشهر على الحليفة ومارس عملاً من أعمال العصابة وبالأخير انهزم مع رجال العصابة الى ايران بعد أن سبب بالاشتراك حصول الأضرار المعلومة مادة ومعنى.

٥ - **رؤوف البحراني** - أما المتهم رؤوف البحراني فهو صديق حميم لرشيد عالي ولم ينفك من وزارته غير المشروعة الأولى ورغم استقالة جميع أعضائها، تلك الوزارة التي لم يبق منها سواه ورشيد عالي ولم يطلق عليها قانوناً اسم وزارة ومع هذا شجع بقاء رشيد عالي ورقعها بوزراء ميالين للمحور خلافاً لرغبة سمو الوصي الشرعي. وهو من جملة العاملين لإدامة عصيان القواد الأربعة وتمردهم وذلك بتوحيد مساعيه مع رشيد عالي. وهو من جملة العوامل التي سببت الضغط على سمو الوصي وإجباره على مغادرة بغداد إلى الديوانية كما هو معلوم وعندما نصب الشريف شرف وصياً بصورة غير مشروعة وتربع رشيد عالي على كرسي رياسة الوزراء في وقت الفتنة بعد غصب الوزارة المشروعة من طه الهاشمي وافق المتهم البحراني أن ينضم الى عصابة رشيد عالي بعنوان وزير الشؤون الاجتماعية واشترك في جميع مقررات العصابة. وهو من العاملين لاشهار الحرب على الحليفة والمسبب لضياع قوات العراق وأموالها ونفوسها وبالأخير انهزم إلى ايران كباقي أفراد العصابة.

واختتم المدعي العام اتهاماته هكذا:

فعليه ولما كانت أفعال المتهمين المارّي الذكر عند الثبوت تشكل جرائم تستلزم العقوبات اطلب اجراء محاكمتهم جميعاً في مجلسكم العالي وجلب الشهود المدونة أسماؤهم في المحاكمات السابقة وفي محاضر التحقيق المبرزة لمجلسكم العالي وتلاوة المستمسكات الرسمية واستجواب المتهمين وتحديد عقوباتهم عند الثبوت بموجب المواد الآتية:

أولاً: تطبيق الفقرة الأولى من المادة (٨٠) من ق.ع.ب و... و.... بحق المتهم كامل شبيب...

ثانياً: تطبيق الفقرة الثانية من المادة (٨٠) من ق.ع.ب بحق المتهمين موسى الشابندر ومحمد علي محمود ورؤوف البحراني والشريف شرف.

ثالثاً: تضمين المتهمين الماري الذكر الاضرار التي لحقت بالعراق من جراء الاصطدام المسلح والعصيان المار الذكر من أملاكهم المحجوزة بعد بيعها وذلك بالتكافل عند ثبوت ادانتهم.

رابعاً: تطبيق المادة (٢٥) من ق. ع. ب بحق المتهم عبد القادر الكيلاني.

بقي المدعي العام عبد العزيز الخياط يتلو هذه التهم لمدة تزيد على الساعة وهو يسعل أحياناً ويمسح عرق جبينه تارة ويجلس للاستراحة طوراً... كان مرتبكاً ومستعجلاً لأنه لا شك كان يعلم أن هذه الأقوال أكثرها كذب وافتراء وأن الصدق الذي فيها هو مشوه ومؤوّل ومفسر أسوأ تفسير وبالرغم من أن ضمير الرجل كان من الضمائر الميّعة وبالرغم من أن كل من يعرفه يعلم بدناءة أخلاقه فلم يستطع اخفاء ارتباكه في هذه الجلسة محتوياً على هذه التهم العجيبة الغريبة... فهذه كانت طبخة المثلث وكان نصيب عبد العزيز الخياط أن يصّب أول صحن منها وكان كله جيفة وأنتان... وبالرغم من أن عبد العزيز الخياط قضى شطراً كبيراً من عمره في المحاكم في خدمة رؤسائه ومن بأيديهم أمر ترفيعه ونقله، وبالرغم من أنه كان دائماً آلة يستعان بها لتمشية الرغبات اذا اصطدمت بالحق والعدل، وبالرغم من أن روحه تعودت أن تكون مطية للشهوات والرغبات، فإنه في هذه الجلسة شعر ولو لوقت محدود بقبح ما كان يقوم به ضميره وبسوء ما كان ينطق به لسانه.

نعم انها لحظات معدودة شعر بها ثم دفعه السوء الذي يملأ منه الفؤاد والشرايين والأوردة فتغلب على تلك الذرات المعدودات التي لا تخلو منها حتى النمور الكاسرة وحتى الذئاب المفترسة وحتى العقارب اللاسعة... تغلب عليها وانتصب متظاهراً بالقوة والجد وراحة الضمير والاغتباط بموقع وجاه وصفة نالها بتأجير اللسان والوجدان تارةً، وبالتزلف والتمليق طوراً.

كيف لا يغتبط، وهو الآن المدعي العام للمجلس العرفي، عندما ينظر الى ذلك الطريق المتعوج الطويل الذي قطعه وهو يدب على بطنه متواضعاً منافقاً متظاهراً بالديانة والشرف، والمزايا التي لا محل لها في جوفه. ولكن يجهل هذا الانسان الناقص بأن هذا كاغتباط الثعالب بموت الأسود، وهو كانتصار الخنافس يوم لا تركض الخيول، وكفرح الديدان اذا رميتها تفتش في القذارات. انه يوم الثعالب والخنافس والديدان، فلينتفخ عبد العزيز الخياط وليبتسم أسياده! ولينشرح صدر المنتقمين الحاقدين.

سمعت ما قاله عني المدعي العام واني أكاد لا أصدق بما أسمعه. أني لم أكن متفائلاً ولكن مع هذا لم أكن أتصور بأن يصل الغرض والكذب وسوء النية الى هذه الدرجة. كنت عالماً بقيمة عبد العزيز الخياط ولكن لم أكن اتصور بأن الرجل ينزل إلى هذه الدركة. وجاء الاتهام بشكله

المهاجم المغرض مفاجأةً للجميع وبعد انتهاء الجلسة، وجدت أخي ابراهيم مضطرباً متـألماً ولكن تظاهرنا هو وأنـا بعدم الاهتمـام بالأمـر ثم عدنـا بنفس المهرجـان إلى السجن في «أبو غـريب».. وقصصت ما حدث لوداد عندما أتت وقت الغداء فتألمت هي أيضاً. وقد فتح هذا الاتهام وهجمات المدعي العام أعيننا وتحقق لدينا أن الجماعة ينوون الشر بجد... ولكن محمد علي بقي متفائلاً وقد أغراه أن الاتهام الموجه اليه كان مختصراً وليس فيه من المهـاجمات واللسعـات التي وُجهت إليَّ. وهـذا أمرٌ جعلني أنتبـه كل الانتبـاه إذ أن البون بـين اتهامي وبـين اتهـام محمـد عـلي ورؤوف البحراني كان شاسعاً. هذا مع أن وضعي يشابه وضع محمد علي من عدة وجوه وكنا نعتقد نحن الاثنين بأننا أقل ذنباً من رؤوف البحراني لأننا تركنا رشيد وهربنا مـرتين من العـراق بينما بقي البحراني مع رشيد إلى آخر يوم.

هل كان هنالك غرض شخصي لدى المدعي العام؟ أم أن الانكليز كانوا ناقمين عليَّ لأنني كنت وزيراً للخارجيـة ولأنني كتبت ما كتبت حـول الانتداب وحـول الاستعمار البـريطاني مـدة سنين عديدة؟

ومهما كانت الأسباب، فإن هجوم عبد العزيز الخياط وسرده الأكاذيب والافتراءات واحضاره كل تلك العبـارات البنديـة التي شغلت ثلاث صحـائف من اتهامـه ثم اكتفائـه بالاشـارة بنصف صحيفة لاتهام محمد علي محمـود كان ينـادي ويعلن بوجـود الغرض والعـداء الشخصي. فصرنا نراجع ونحتج فقيل لنا بأن لا قيمـة لادعاء المـدعي العام لأن المحكمـة لا تأخـذ به بـل انما هي تفحص وتدقق وتزن بميزان العدل.

وقابل محمد ابن عمتي عبد العزيز الخيـاط فأخبـره هذا مقسمـاً باللـه بأن ليس لـه نحوي سـوى العطف والصدق، وأن الحكـومة أودعتـه رزمة كبـيرة من الوثـائق والأوراق وأنه استنتـج الاتهام منها. وبعد مدّة بلغني عن لسان الحاج ياسين الخضيري أنه قابل هو أيضاً عبـد العزيـز الخياط وأخذ يلومه على مهاجمته إياي مذكراً إياه حقوق الجيرة، وحقوق الخبز والملح، فأجابه بأنه هو شخصياً ليس له علاقة بالأمر بل انما نوري السعيد طلبه ورجـاه بأن يـأخذ عـلى عاتقـه أمر الادعاء العام وينهي هذه القضية بأسرع وقت وأن الحكومة زودته بـالوثـائق والأوراق... وبلغني أيضاً أن الأوراق والوثـائق أحضرت من وزارة الخارجيـة وأن عبد العـزيز الخيـاط وخليل أمـين والمستر «دراور» المستشار للعدلية ذهبوا الى الخارجية وقابلـوا المديـر العام عطـا أمين ودرسـوا الأوراق هناك... فالوضع إذن ظاهر ومفهوم والمثلث كان بكل قوتـه وراء المحكمة... وعبـد العزيـز الخياط لم يعمل شيئاً سوى أنـه أثبت «نجابتـه» فأمـره الانكليز بـواسطة «دراور» وأمـره نوري السعيد وأرشده وزير العدلية أحمد مختار بما يلزم حول رغبة الوصي... فكيف لا يطير فرحـاً هذا المخلوق الزاحف وكيف لا يشمّر عن ساعـد الخبث واللؤم وحقارة النفس لإرضـاء هؤلاء الأسياد أولياء نعمته ومحرّكي ضميره ومخدري شرفه.

وما عدا هذا العامـل الخارجي هنـالك عـامل داخـلي هو وطـاوة أصل الـرجل ودنـاءة نفسه والحسد المستأصل في قلبه منذ نشأته. فهذا عبد العزيز الأعرج ابن الاسطا حميد الخياط جارنا في السابق عندما كنا نسكن محلة جديد حسن باشـا.. كان الأب وأولاده الأربعـة وأمهم وجدّتهم «ربـوعة» يسكنـون بيتاً صغيـراً متواضعـاً فكنا نحن وسكـان المحلة الآخـرون دائمـاً نـرعـاهم

ونساعدهم ونرسل اليهم ما يؤكل ويلبس عند الاعياد والمناسبات الأخرى وكانت الصلة بين أكابر المحلة وبينهم صلة عطف ومساعدة وكان والدي في رمضان يعزم الاسطا حميد مع غيره من رجال الطبقة الفقيرة على الافطار وكان لا يأتينا إلا أيام الأعياد لرفع التهاني والتبريكات. أما جدته «ربوعة» فكانت في محلتنا «شبه خادمة» تقوم بشراء ما تحتاجه سيدات البيوت، وتربح ما تربح لقاء هذه الخدمة.

ولما سافرت جدّتي الى مكّة أخذتها معها لتخدمها في طريق الحج وهكذا أصبحت «ربّوعة» حجية «ربّوعة» وكنا نحن الأطفال نحب هذه العجوز ونلتف حولها لاستماع الحكايات. وكان الاسطا حميد رجلاً طيباً متديناً يقضي وقته بين الدكان والمسجد والبيت المتواضع وأولاده الأصحاء. عبد الرحمن ومحمد كانا في المدرسة العسكرية وكان جميع أهل المحلة يحبونهما وتأسف الجميع عندما وقعا شهيدين في الحرب العظمى، أما الولدان الآخران عبد المجيد الأعور وعبد العزيز الأعرج فلم يهتم أحد بأمرهما وكنا نحن أولاد المحلة نهزأ منهما كلما مرا في الطريق أمامنا. فهذا هو عبد العزيز الأعرج وتلك نشأته. كان محاطاً «بمركب النقص» لعلته الجسمية ولتواضع بيئته وللظروف التي نشأ بها. فلما صار حاكماً أخذ يدبّ كالعقرب الزاحف يلدغ ويلسع. فهو الذي أصدر أمر التوقيف بحقي سنة ١٩٣٧ أيام حكومة حكمت سليمان، وهو الآن يتولى أمر الادعاء العام في هذه القضية الهامة. فكيف لا يطغى ويتكبّر ويتجبر ويشفي غليل صدره الملتهب منذ نعومة ظفره ضد كل شيء وكل ما هو أحسن منه وأعلى منه وأنجب منه؟ انه لم يكن يحلم بهذا الظفر وهذا الانتصار. انه يوجه التهم اليوم ويطلب قصاص وزراء وأمراء ورجال كبار. نعم. هو عبد العزيز الأعرج ابن الاسطا حميد الخياط ابن الدلالة ربّوعة. عبد العزيز الذي كان يسحل رجله من ورائه ويلوي رقبته متقياً شر أولاد المحلة وأنظار المارّة. عبد العزيز ذلك الشاب ناقص الخلقة وقبيح الوجه والخلق، الذي كان الجميع يبتعدون عنه، هو الآن قد وصل إلى ذروة مجده وصار يطلب باسم الحكومة العراقية وبوحي المثلث «المقدس» تجزية ابن الشابندر وابن البحراني وابن الكيلاني وابن السويدي وغيرهم من القواد والزعماء والوزراء. هذا «**الحويكم**» الذي قضى حياته بمحاكمة النشالين واللصوص والعاهرات وحثالات البشر قد تقدم بفضل تزلفه واستعداده للقيام بكل رذيلة ارضاءً لأسياده، تقدم فوصل الى هذه الدرجة فلم لا يبطش ويظلم ويلدغ ويلسع؟ وهل ألذ من ظلم الأبرياء والبطش بالرجال الأقوياء ولسع من هم أعلى منه مكانة، وأكرم أصلاً، وأنبل بيتاً، وأطهر ذيلاً؟

هذه فرصة قد لا تعود... فليشفِ غليله وليرضِ أسياده وليظهر مظهر الأبطال وليقل الناس ما يقولون. وقد يكون الدافع لهجومه بصورة خاصة عليَّ ارضاءً لنوري السعيد والكابتن هولت كورنواليس وقد يكون انه تبرع بذلك لوجود الجيرة بيننا فيما سبق، ولوجود الاحسان الى أبيه وجدته ربوعة وذويه واتقوا شر من أحسنتم اليه.

وقد يكون أنه قد التقى حقد المثلث وحقد نفسه الناقصة في صعيد واحد فانتهز الفرصة وأرضىٰ الاثنين وهكذا يكون قد امتزج سم الاستعمار بسم اللؤم والانتقام.. ومن يقدم على مثل هذه المهمة سوى عبد العزيز وأمثال عبد العزيز من خدام الانكليز أو خدام خدامهم... فهذا هو

المدعي العام وهذه اتهاماته. أيمكن أن تكون المحكمة والحكـام في مثل هـذه الظروف أسمى منـه شرفاً وضميراً؟ هذا ما سنراه!

أما ما بلغنا عنهم عن طريق محمد علي محمود والرئيس عبد القادر وغيرهما فكان يصور لنـا الحال هكذا: أن رئيس المحكمة مصطفى راغب رجل طيب وهو من كركـوك وكان قـائداً للمـدفعية أثناء الحركات وقام بواجبه العسكري خير قيـام ولكن الرجـل غير عـربي ولا متحسس بالـوطنية القومية وفوق ذلك كان ناقماً على القواد الأربعة الذين كانوا لا يعتمدون عليه بسبب أصله التركي أو الكردي. والحاكم الجديد الذي عين محل شهاب الدين الكيلاني المستقيل هو عبد العزيز ماجد والمسموع عنه حتى الآن أنه رجل صاحب ضمير ووجدان. أما الحـاكم الثاني خليـل أمين فكـان الجميع يصفونه بأنه لا ضمير له ولا وجدان وأنه يعمل ما يؤمر بـه وانه من فصيلـة عبد العـزيز الخياط. وأنه مرتش وأنه يباع ويشترى. والعضو العسكري محمد علي سعيد هو كـردي الأصل وأنه رجل تقي متدينٌ وعلى رواية محمد علي محمود فـإنه منـذ الآن مصرّ على بـراءتنا. والعضـو العسكري الآخر هو عبد الله النعساني من أهل الموصل والمشهور عنـه أنه مسلم متـدين أيضاً. وهؤلاء الأشخاص ما عدا عبد العزيز مـاجد كـانوا أعضـاءً في المحكمة نفسهـا التي حكمت على القواد والرعيل الأول وكان المـدعي العام إذ ذاك حمـدي صدر الـدين. ثم ما قيمـة الشخصيات هنا؟ فقد يكون الحكام اناساً طيبين وقد يكونون خبثاء على أن الأمر ليس بأيـديهم لأنه مـدبر من قبل «المثلث» فالخبيث هنا يشمر عن ساعد السوء والطيّب يتبعه إما لكسب رضاء أو لبلوغ غايـة واما جهلًا وعبطنةً. وفي رأيي أن مجرد قبول العمل في محكمة عرفية مثل هذه تدل على أنه لو كان هناك «طيبة» فـإنها مصطنعـة وأنها لا تستطيـع رد الظلم ودفع الخبث... فـالطيب في مثل هـذه الحالة يذوب بين الخبث والخبثاء. ولكن من يعرف؟ لعل في هذه الـدنيا ـ دنيـا العراق... لم يـزل هناك رجال لهم كرامة ومروءة. وسنرى ذلك.

بقينا ننتظر تطورات قضيتنا، ونقـاسي آلام السجن المنفرد والتشريـدات والمجهولات. في تلـك الأيام زارنا في السجن كل من رئيس المحكمة مصطفى راغب والمدعي العام عبـد العزيـز الخياط ليشاهدا فيمـا إذا كانت راحتنـا مؤمَّنة. هـذه كانت حجـة تلك الـزيارة. ولكن المحكمـة تعلم جيداً حـالة سجن «أبو غريب» والرئيس عبد القادر كان باتصال دائم معهم فلو كان القصـد تأمـين الراحـة لكان يكفي ارسال الأوامر إلى الرئيس. ولكن أتى عبد العزيز الأعرج وسحب معـه رئيس المحكمة ليرى بعينه الوضع الذي كنا فيه. ليشفي غليل صدره ويتلذذ ويشتـرك بشماتـة أسياده. فـدخلا الغرف الواحدة تلو الأخرى وسألا عما إذا كنا نشكو من شيء..

نعم كنا نشكو من شيء! فكأنما هنالك شيء لا يشتكى منه!

اني لم أطلب شيئـاً ولم أكلمهما... بعـد هذا التفتيش أخـذ عبد العـززي يكلم عبد القـادر أمـامنـا باللغة التركية ويأمره بأن يسمح لنا بالخروج إلى ساحة السجن كل لوحده وهـذا أمرٌ كـان مطبقاً منذ مدّة ولما سأله الرئيس بشأن الشريف شرف وأنه مريض وأنه يشكو من حر الغـرفة ليـلاً ولا يستطيع النوم، قال له المدعي العام بالتركية بعد أن انتفخ مثل الطاووس: لماذا لا تتركوه ينـام في الخارج كالآخرين؟ فأجـابه عبـد القادر بـأن الأوامر «من هنـاك تقضي بذلـك! ومعنى «من هناك» الوصي... فلما سمع الأعرج ذلك «فشّ» انتفاخـه وعاد يسحـل برجلـه وبدّل المـوضوع... وهـذه

واقعة بسيطة تريك أن المدعي العام ورئيس المحكمة والمحكمة المحترمة نفسها لم تكن إلا مهزلة من المهازل وأنهم كلهم لا يستطيعون أن يبتوا بأبسط الأمور كالسماح للشريف شرف أن ينام خارج الغرفة ليلاً... فكيف يا ترى يستطيع هؤلاء المهازيل أن يرجعوا إلى ضمائرهم في محاكمتنا وفي مصيرنا إذا كانوا يخافون أن يقوموا بأمر بسيط مثل هذا؟

لم تتبدل الحال عندنا بعد هذه الزيارة ولما سألنا الرئيس عبد القادر تلك الليلة عما سيكون أثر هذه التفتيشات الهامة قال: «هذوله شنو؟ هالمخانيث! هذوله ما يقدرون لا يشيلون ولا يحطون» وقد صدق الرجل بهذا الوصف. فالأمر كله صغيرة وكبيرة بيد الوصي. وما نلناه من التسهيلات والمعاملة الطبية يعود كله لتصرفات عبد القادر. فالعريف محمد بالنسبة الى وضعنا في السجن كان له من التأثير أكثر من شخص المدعي العام والرئيس والمحكمة. نحن كنا سجناء «خصوصيين» للوصي. والانكليز والحكومة لم يروا بأساً بل حبذوا هذا الوضع...

ومما يدل على غرابة الوضع وفقدان العدل والمروءة، وكون القضية قضية استبداد وإرهاب وانتقام لا غير، ما شاهدناه ولمسناه وسمعناه من أمر المحامين. فقد أتتنا النصائح من بعض الجهات التي كانت تعطف على أمرنا كجميل المدفعي وادموندس وغيرهما بأن نوكّل محامين قديرين للدفاع عنا، والأفضل بأن يكون هؤلاء المحامين من الجماعة التي لها علاقات واتصالات، والتي تتمتع برضاء المثلث... فراجعت أنا أو بالأحرى راجع أخي ابراهيم نجيب الراوي ونصرة الفارسي ومصطفى العمري ونشأت السنوي وغيرهم فتملصوا الواحد تلو الآخر بحجة من الحجج... فماطل نجيب في بادىء الأمر وقال هنالك عقبات يجب أن يتغلب عليها ثم يخبرنا، وبعد مدّة أخبرنا بأنه لا يستطيع أن يقوم بالوكالة لأن أخاه أحمد الراوي كان مديراً عاماً للشرطة وسيفسر الناس الأمر بأنه يريد أن يستفيد من نفوذ أخيه. عذر غريب وعجيب. واعتذر نصرة الفارسي ومصطفى العمري بأنهما كانا عضوين في وزارة المدفعي التي وجهت الاتهام في حينه وهذا عذر فيه شيء من المنطق ولكنه لا يمنع المحامي من أن يقوم بالدفاع. وقال نشأت السنوي: كيف أدافع وأنا أعتقد بمشروعية حكومة رشيد عالي؟.. وراجعنا غيرهم وكانت النتيجة سلبية أيضاً.. فالمحامون البارزون كانوا خائفين من غضب الوصي ومن عدم رضاء الانكليز. ولما زارني أحمد المناصفي في السجن وبعد أن أخذ موافقة نوري السعيد أيضاً اعتذر... فالمسألة كانت واضحة جلية. لقد كنا أمام مؤامرة وليس أمام محاكمة.. فحكامنا هم خصومنا وقد طفحت قلوبهم بالحقد والانتقام... والناس في رعب وخوف متزايد وقد نشفت ينابيع المروءة في القلوب وتركت الكرامة أكثر الصدور...

الدفاع

ما قيمة الدفاع أمام محكمة مثل هذه وفي وضع مثل هذا؟ ولكن هذه غريزة في الانسان منشؤها حق الحياة وحق الحرية... والدفاع بالنسبة لنا، محمد علي، ورؤوف وأنا كان سهلاً لأن ما اتهمنا به كان أكثره كذباً صريحاً والصحيح الذي فيه كان مؤولاً ومفسراً بشكل يخالف الواقع...

قرر رؤوف البحراني بأن يدافع عن نفسه بنفسه دون محام ولما سألناه عن السبب أجابنا بصراحة بأنه أولاً لا يريد أن يصرف مبلغاً كبيراً من المال وثانياً أنه يعرف ماذا يقول. فإذا كانت هنالك محكمة حقيقية فدفاعه سيكون كافياً لتبرئته إلا إذا كانت المسألة «كوتره» فالمحامي سوف لا يزيد ولا ينقص شيئاً... وأنهى قوله بقهقهة طويلة عالية حسب عادته...

أما محمد علي محمود فكان في بادىء الأمر يقول إن أصدقاءه المحامين تبرعوا بالدفاع عنه وهم نصرة الفارسي وابراهيم كمال ونجيب الراوي والسيد سلمان الشيخ داود وغيرهم ولكن في الأخير تملص كل هؤلاء الأصدقاء لنفس الأسباب التي ذكرتها ولم يتوكل عنه غير المحامي عيسى طه. وأيقن محمد علي حينئذٍ بأن الوضع في الحقيقة لم يكن كما كان يتصوره، ومع ذلك فانه لم يتخل عن اعتقاده بأن المحكمة سوف لن تستطيع أن تحكمنا لأننا لم نأت بعمل سيء.

أما أنا فبعد أن رفض رجال القانون البارزون الدفاع عني فقد وقع الاختيار على محام من الدرجة الثانية وهو ابراهيم الواعظ. فجزاه الله خيراً لأنه لم يرفض، وهكذا أصبح هو وعبد العزيز السنوي محاميين عني...

مرت علينا أيام عصيبة ونحن مشغولو البال بأمر التهمة والدفاع والمحامين.. وفي شهر حزيران/ يونيو ١٩٤٤ استقال نوري السعيد وشكل حمدي الباجه جي الوزارة الجديدة وارتفعت نوعاً ما درجة التفاؤل لأن حمدي الباجه جي رجل طيب وليس بينه وبيننا سوى الخير. ولكن هل يستطيع حمدي أن يبذل شيئاً من التدابير التي دبرها المثلث؟ هذا ما كنا نشك فيه. وبقينا أياماً عديدة نتحدث ونؤمل ولكن كنا نعلم في قرارة أنفسنا أن تبدل الحكومة واستبدال الوزراء لا يغير حالاً، ولا يرفع ظلماً، طالما أن الوصي والانكليز لا يغيرون ما قد تم تقريره. وابتعاد نوري عن رئاسة الوزارة لا يعني تدهور أضلاع المثلث... وإذا كان لنا بين الوزراء الجدد أصدقاء فكذلك كان بين الوزراء القدامى أصدقاء أيضاً وكنا نسمع من الجدد والقدامى نفس الكلام: أن ليس بأيديهم شيء. وانهم لا يستطيعون التدخل وأن الأمر كله بيد الوصي، والوصي لا يسمح لأحد أن يفتح فاه في هذا الموضوع. هكذا قال أصدقاؤنا نوري السعيد، وصادق البصام، وعلي مختار، وأحمد ممتاز، وزملاؤهم وهكذا يقول الآن حمدي الباجه جي، وارشد العمري، وصالح جبر، وأحمد مختار، وابراهيم عاكف، واسماعيل نامق، والوزراء الباقون، فالوزاء والزعماء كانوا يعتقدون بأننا كنا ضحايا ولكن ليس فيهم أحد يجرؤ أن يقول ذلك علناً في الصحف أو في المجالس. فيظهر أن الانكليز والوصي قتلوا الجرأة، وأماتوا الضمائر، وصيّروا الأسود الحقيقيين منهم والكاذبين أرانب جبناء.

العراق ورجاله أمرهم غريب.

أيام ثورة رشيد عالي كان الناس من الباب الى المحراب متأثرين بموجة من الهستيريا لم يسلم منها الاّ جماعة محدودة والآن فالناس كلهم من الباب إلى المحراب واجمون بتأثير موجة من الجبن لم يتخلص منها الا عدد محدود من الرجال. فجبناء اليوم كانوا أبطال الغد وثراثرة الحماس الوطني في الأمس أصبحوا صماً بكماً عمياً.

فالقوم الذين كانوا يمجدوننا ويشجعوننا ويؤيدوننا في الأمس كانوا جامدين ساكتين بل أن كثيراً منهم أخذ يشترك باللوم والعتاب والتشفي. هذه سنة الله في عباده، ولكن العراقيين سبقوا غيرهم في ميادين النفاق والشقاق، وكان العرب في الأقطار الأخرى أكثر عطفاً من أبناء وطننا علينا...

بدأت المحكمة تستجوب المتهمين وكان كامل شبيب أول المستجوَبين فصاروا يأخذونه مرتين أو ثلاث بالأسبوع من سجن أبو غريب الى معسكر الوشاش لذلك الغرض. كنا نتصل به أحياناً بعد عودته لنرى وضع المحكمة وكنا نفهم تفاصيل ما جرى من الرئيس عبد القادر. ويظهر أن الجماعة كانوا قاسين معه وقد أتعبوه بالأسئلة والمغالطات، وكان هو يجيب ويرتبك ويزيد الطين بلّة ولكن من غرابة أمر الرجل أنه بالرغم مما هو فيه ومادة الاتهام الموجهة إليه عقوبتها الاعدام بالرغم من ذلك كانت ابتسامته المعهودة لا تفارقه. وكان يعتقد كل الاعتقاد بأن نصيبه سيكون جزاءً خفيفاً إذا لم تكن براءة تامة. إذ لو كان القصد الفتك به، لما تركوه سنتين في روديسيا معنا بل لكانوا جلبوه مع الرعيل الأول وحكموا عليه كما حكموا على القواد الآخرين. ومما عرقل أمر دفاعه انه لم يتمكن من اقناع محام للدفاع عنه فأصبح تحت رحمة عبد العزيز الخياط وأعضاء المحكمة وكانوا كلهم يحقرونه ويهينونه.

واخبرنا عبد القادر أثناء هذه المحاكمة أن كامل شبيب كتب كتاباً الى الوصي يشرح وضعه أثناء الثورة ومن بعدها في ايران وأفريقيا وانه كان كذا وكذا، ويظهر أن الوصي بعد أن قرأ الكتاب قال لعبد القادر: «كل هذا لا يخلصه من الشنق».. نعم قص علينا الرئيس عبد القادر ذلك بكل برودة. فالرجل اذن كان محكوماً بالاعدام قبل قرار المحكمة والاّ كيف يجوز لرئيس دولة أن يقول هذا؟

كيف يطمئن الانسان لعدالة هذا المجلس العرفي إذا كانت الأحكام في الحقيقة تصدر من شخص رئيس الدولة؟ ولكن الدور دور ارهاب فمن يقرأ ومن يسمع؟..

وأتى دور الشريف شرف بعد كامل وهذا المسكين أيضاً لم يتمكن من الحصول على محام يدافع عنه. زودته المحكمة بقائمة من المحامين فانتخب منهم هذا أو ذاك ولكن المحامين رفضوا كلهم كي لا يقال عنهم أنهم دافعوا عن رجل انتخبه مجلس الأمة وصياً مكان الأمير عبد الاله ولذلك اضطر أن يستعين بعلي محمود الشيخ علي جاره في السجن. فكتب له علي دفاعاً على ورقة نقل محتوياتها على ورقة أخرى وذهب بها الى المحكمة. ويظهر أن المدعي العام ورئيس المحكمة اشتبها من دفاع الشريف شرف لأن هذا الكلام وهذه الحجج لم تتعود المحكمة أن تسمعها من رجل بسيط عاجز كالشريف وبما أنه ليس لديه محام يساعده فقد طلب المدعي العام أن توقف الجلسة وأمروا الرئيس عبد القادر أن يذهب الى السجن ويفتش غرفة الشريف لعله يجد مسودة

هذا الدفاع إذ كانوا يخشون أن الشريف كان متصلاً بعلي محمود. فأتى عبد القادر وفتش ووجد المسودة بخط علي محمود وبحبره الأخضر بين ثياب الشريف في حقيبته.. فزعل القوم ووبخوا الشريف وشددوا عليه الحبس وضايقوه وجعلوه لا يترك غرفته لا ليلاً ولا نهاراً الا لقضاء حاجته. وعاتب الرئيس عبد القادر علي محمود فلم ينكر هذا ما عمل وقال ان من حق المتهم أن يستشير ويستعين بكل واحد للدفاع عن نفسه. ويبدو أن الوصي ازداد حنقاً وغضباً على الشريف وعلى علي محمود. ومساء ذلك اليوم عندما كنا جالسين في ساحة السجن رأينا سيارة بيضاء تقف بعيداً عند دائرة الحقل الحيواني ثم رأينا الملازم صبري يسرع نحوها ثم بعد ذلك أدخلنا الحرس الى غرفنا حسب العادة كي لا يرانا صاحب السمو جالسين على كراسي في ساحة السجن. نعم كان كلما مرّت سيارة الوصي بالقرب من أبي غريب يدخلونا في غرفنا ويغلقون الأبواب علينا خوفاً من زيارة مفاجئة، لأن سمو الوصي شخصياً كان كثير الاهتمام بسجن أبو غريب ولا يرضى بأن يجلس السجناء فوق كرسي ولا أن يتمشوا في ساحة السجن.

فهمنا بعده من الملازم صبري أن الأمير جاء بصورة خاصة ليأخذ مسودة علي محمود ولكن بما أن الرئيس عبد القادر كان قد أخذها ليقدمها شخصياً لسموه قبل تشريفه فعاد الأمير الى قصره مسرعاً ليقابل عبد القادر حول هذه القضية الهامة.

هذه نبذة صغيرة ترينا درجة اهتمام الوصي بهذه القضية وانشغاله بأمرنا وبأمر المحكمة والدفاع وبكل شيء يتعلق بنا... فكأنما لا يوجد لدى الدولة العراقية أمر أهم وأخطر من هذه المهزلة..

كنت آسفاً كثيراً أن أرى الأمير عبد الاله وهو شاب وهبه الله من الذكاء ومتانة الأعصاب ما لم يتمتع به الأمراء عادة في أيامنا، منهمكاً هذا الانهماك بأمر الانتقام والتعذيب. وكنت أفكر بفيصل الكبير ذي الصدر الرحب، وبالملك علي ذي القلب الطيب، وأقول ان من لم يشابه أباه فقد ظلم.

نعم ان الأمير عبد الاله كان عرضةً لإساءة رشيد والقواد وقد يكون أننا نحن جماعة المعتدلين كنا قد قصّرنا تجاهه وان كانت نياتنا غير سيئة لأننا أصبحنا وزراء بعد قرار المجلس. ولكن أما كان يكفي ما قد حصل حتى الآن، بعد أن شنق من شنق، وسجن من سجن، ونفى من نفى، وتعذب من تعذب، وهل يليق بالأمراء والملوك أن ينهمكوا كسائر الناس بتطمين غرائز الحقد والانتقام والشماتة الى هذه الدرجة وبعد مرور السنين. أليس الأمراء والملوك هم آباء رحماء لرعاياهم، المصيب منهم والخاطىء.. فلو استوى الملوك مع غيرهم في اظهار الغرائز فهل يبقى لهم ما يسمو بهم، ويعلو بهم ويجعلهم بمكانة سامية من القلوب، كنت أفكر بهذا وبكثير مثله، وأعلل النفس بأنه سيأتي يوم يهدي الله الأمير ويرفعه وينجنيا واياه من وساوس الشيطان.

في المستشفى

بعد حادث الشريف شرف اكتفت المحكمة بما أدلاه هذا الرجل العجوز الذي ساقتـه الظروف ودفعت به الى هذا المأزق. وأتى دوري للاستجواب وأخبرني الرئيس عبد القـادر بأنـه سيأخـذني الى المحكمـة يوم السبت فقلت عسى خيـراً وكنت قد دونت عـلى ورقة مـلاحظـاتي جميـع النقـاط التي وردت ضدي في اتهام المـدعي العام وفنـدت ما جـاء فيها. ووافق المحـامون عليهـا ودرسها نصرة الفـارسي واخبر ابـراهيم بأنـه لا يمكن لأي محام أن يستحضر أحسن من هـذا الرد.. ولم تكن المسـألة صعبـة إذ أن ما ورد في الاتهـام أكثره كـذب يسهـل رده وسـوء تفسـير لا يصعب دحضه، ولكن كما قلت فإن المسألة لم تكن مسألـة دفاع وحق وعـدل. وإذا كان سـوء النية هـو المسيطر على الحال فلا دفاع يفيد ولا منطق...

وشاءت المصائب أن تأتي مجتمعة، إذ داهمتني نوبة ألم شديد بـالكلى مسـاء يوم الخميس بعـد العشاء عنـدما كنـا جالسـين حسب عادتنـا في الساحـة أمام السجن نتحـدث مع الـرئيس عبد القادر. أخذ الألم يشتد فذهبت إلى غرفتي وطلبت من عبـد القادر أن ينـادي بالتلفون طبيباً. فحاول عبثاً أن يتصل بالأطباء المناوبين في مستشفى الكاظميـة وفي المستشفى الملكي وعليه أخـذ يفتش عن أخي ابراهيم فوجده في دار نوري السعيد حيث كان مدعواً مع سليمان فتاح وجماعـة أخرى على البريدج. وبعد مدّة أتى ابراهيم ومعه الـدكتور عبـد المجيد القصـاب وقد تبـرع هذا الشـاب بالمجيء دون تـردد ودون اذن وكانت هـذه شهامـة منه في تلـك الأيام السـود... حقنني الدكتور بإبرة مورفين ارتحت من بعدها ونمت بعد أن شكرت للـدكتور فضلـه ولابراهيم اهتمـامه وعنايته. وفي الصباح التالي أفقت مدوخاً وصرت أستفرغ من تأثير المورفين وكان الادرار منقطعاً.. وعندما أتى ابراهيم جاء بالدكتور ألبير اليـاس وهو مـدير مستشفى الكـاظمية وهـو المسؤول عن العناية الصحية في سجن «أبو غريب» فأعطاني هذا بعض الأدويـة وكتب تقريـراً بلزوم نقـلي الى المستشفى لأكون تحت عنايـة الأطباء. وانقضى النهـار وأنا في السريـر وشعرت بـراحة.. وعنـدما زارني ابراهيم مساء ذلك اليوم كانت حالتي لا بـأس بها والألم قـد خف. ولكن عاودتني النـوبة ليلاً فاتصلنـا بابـراهيم من جديـد وبعد فتـرة أتى ومعه محمـد والدكتـور عبد المجيـد القصاب فأعطاني ابرة مورفـين أخرى وطمـأنني ثم أصر على نقـلي الى المستشفى ولكن لا وزارة الشؤون، ولا مديرية السجون، ولا الأطبـاء، كانـوا يجرون عـلى تنفيذ قـرار الطبيب إذ أن مثل هـذا الأمر مرتبط بشخص الوصي. وأخذ الرئيس عبد القادر عـلى عاتقـه هذه المهمـة ووعدنـا بأنـه سيقابـل الوصي ويعرض عليه الأمر. ولما وصلت الحالة الى هذه الدرجة وكان وضعي خطراً ذهب ابـراهيم ومعه سليمان فتاح الى قصر الرحاب لمقابلة الوصي دون موعد سابق وبلا مراسم وأصرا بأن يقابلا صاحب السمو ولكن المرافق أخبرهما بأن الأمر السامي المتعلق بالسماح بنقـلي الى المستشفى قد أعطي الى الرئيس عبد القادر.

وبعـد هذه «الـزفّة» واستحصـال الرخصـة من الوصي نقلت الى مستشفى الكـرخ ونمت في احدى الغرف بعد أن وضعوا أمامها شرطيين للحراسة.. الغرفة صغيرة والحر فيها شديد وهنـاك

نواقص كثيرة ولكن مع ذلك كله فإن المستشفى كان مثل الجنة بالنسبة إلى «أبو غريب». وما لقيته من عناية واهتمام وعطف جعلني ممتناً مدى الحياة لمدير المستشفى الدكتور صبيح الوهبي وطبيب الداخلية الدكتور خليل مصفى وهو درزي من لبنان والأطباء الآخرون كانوا دائماً يزورونني ويشجعوني فجعلوني أشعر بأنني بين اخوان يشعرون معي ويعطفون عليَّ. أما الممرضة نجيبة، فهي نجيبة بكل معنى الكلمة، وكانت كلها عناية ولطف. والخادم حافظ كان يخدمني من كل قلبه، وهكذا لم أرَ مدّة بقائي في مستشفى الكرخ الّا أطيب المعاملة وأحسن العناية. كان ابراهيم يأتيني صباحاً ووداد مساءً وكان محمود وغيده يأتيان أحياناً، وكانت هذه الزيارات تخفف الأثقال وتطمئن البال وتزيد من الايمان. ليلاً كنت أنام فوق السطح المطل على دجله. وما أجمل دجله وما أجمل هذا النخيل والأشجار والأنوار المنعكسة على هذه المياه الجارية على مهل وكأنها راكدة. وهذه الزوارق العائمة المتزحلقة من جانب النهر الى الجانب الآخر منه. وهذا الجامع الصغير والمؤذن الذي يذكّر الناس ويدعوهم إلى طاعة الله وعبادته... الله أكبر! وهذه أشياء أخرى عديدة كانت تؤثر في قلبي وتخلق فيه إحساساً غريباً لم أعهده من قبل. كأنني لم أر دجلة ومياهه وهذا النخيل وهذه الزوارق وأولئك الناس. فالاعتقال، والسجن، والعذاب، والخوف، وهذه الحالة التي انا فيها جعلتني أرى فيما أرى آثاراً أجهلها من قبل. كنت أفكر وأتألم وأعيد التفكير فأضحك على هذه الدنيا، وسخافات أهلها. على هذا السطح من مستشفى الكرخ تعرفت على المحامي رشيد الصوفي إذ كان سريره جنب سريري. كان معتقلاً وقد أتوا به الى المستشفى لمرضه. قص عليَّ رشيد الصوفي قصص الاعتقال والمعتقلين في العمارة وسوء المعاملة التي لاقوها، والأيام التي قضوها، وأخبرني عن بعض الأصدقاء كطالب مشتاق، وعبد القادر صالح، وعلي حيدر سلمان، وهؤلاء كلهم من جماعة الخارجية وعن آخرين غيرهم. كان حانقاً متألماً متذمراً. كنت أنصت اليه وأتمنى من قلبي لو كنت مثله معتقلاً فقط. كنت أتعجب من أن يشكو الإنسان من أمر يتمناه كثيرون آخرون. فالمصائب درجات، ولا يمكن احتمالها إلا إذا نظر الإنسان الى ما دونه.. وقضيت سويعات لا بأس بها أستمع إلى أحاديث هذا المعتقل الساخط وشكاويه، وكان يشترك أحياناً بمجلسنا الليلي رئيسة الممرضات «غزالة» وهي من المتكلمات اللواتي لا يتعبن. وحذرني رشيد الصوفي من هذه الزيارات التي لم تكن لوجه الله تعالى... فصرنا نختصر الحوار ولا ندعها تخوض في المواضيع الخطرة...

بعد وجودي في المستشفى بيومين أو ثلاث طلبت المحكمة حضوري فكتب الدكتور صبيح تقريراً بعدم استطاعتي الحضور. فأصروا على إرسال تقرير من قبل لجنة فشكل الدكتور صبيح اللجنة ووقعوا على التقرير الأول وأيدوه... وكنت في الحقيقة مريضاً لا أستطيع المشي ولم أعلم بأمر التقرير الطبي الّا بعد إرساله لأن المسألة كانت واضحة كالنهار والتحاليل أتت مؤيدة لوجود المرض في الكلى... وكان بطل هذه التحرشات المدعي العام عبد العزيز الخياط اذ بلغني أنه ذهب الى وزير العدلية أحمد مختار واحتج لديه بأن الأطباء في مستشفى الكرخ يلتزمون جانبي وبأنني في الحقيقة لست مريضاً بل متمارض لتأخير المحاكمة ووصلت القضية الى الوصي وتداخل الانكليز. وطلب الدكتور سندرسن من الدكتور صبيح ارسالي الى المستشفى الملكي للفحص ورفض الدكتور صبيح هذا الطلب لأنني لم أزل تعباناً فأرسل الدكتور سندرسن طبيباً عسكرياً من الجيش البريطاني، فحضر هذا الى المستشفى وفحصني وأيّد وجود المرض في الكلى.

وأخبرني صبيح بأن هذا الدكتور البريطاني عندما وصل المستشفى اتصل بالدكتور سندرسن وكلمه أمام الأطباء الحاضرين بالتلفون قائلاً: إني مستعد أن أفحص المريض كطبيب ولكن ليس كوكيل «الغستابو».. وهذا يدل على أن الانكليز انفسهم كانوا شاعرين بحالة غير اعتيادية تحيط بنا إذ لم يتعود الناس على مداخلة البلاط والوصي والسفارة وسندرسن بأمر موقوف مريض بشهادة من خمسة أطباء! وبالطبع هذا الاهتمام الزائد أزعجني وآلمني لأن الجماعة لا ينصفوا حتى المريض... وبعد هذه المعاينة تقرر نقلي الى المستشفى الملكي ونقلوني اليه صباح اليوم التالي ولم يضعوني في القسم الخاص إنما أعطوني غرفة متصلة باحدى الردهات. وقد استقبلني رئيس ذلك «القاووش» الدكتور قاسم البزركان وكانت معاملته طيبة، وأتى الدكتور سندرسن وقت الظهر باشاً ومرحباً وأتت معه المرضة الرئيسية المس كنيكستون وكلاهما يعرفاني منذ أيام الخير. الغرفة هنا جيدة وواسعة وفيها ماء جار. الأكل جيد ويأتي من القسم الخاص. العناية والتداوي أيضاً جيدة. «ولكن الوجوه غير وجوهٌ» فسندرسن والمس كينكستون والأطباء الآخرون والمرضات، كانوا يعتنون بي كثيراً، ولكن لم أشعر بالعطف الخاص الذي وجدته في مستشفى الكرخ.. وهذا أمر طبيعي. فالدكتور سندرسن كباقي الانكليز كان ناقماً على حركة رشيد عالي وكل من له اتصال من قريب أو بعيد بها والباقون كانوا يتبعونه من باب التأييد أو من باب التقليد والتملق... ثم عندما استلم سندرسن المستشفى الملكي أبعد كل من له اتصال بالدكتور صائب شوكت أو بكل من وردت بحقه أخبار صادقةً كانت أو كاذبةً بأنه كان من المجندين أو من الراضين أو من الساكتين أيام الحركات. فذيلت الحكومة وأبعدت وحولت ونقلت كل أولئك الأطباء والمرضات باقتراح من سندرسن أو المس كينكستون فجماعة مستشفى الكرخ كانوا من هذه الطبقة المنبوذة - نازيين أو شبه نازيين أو معادين للبريطانيين - بينما جماعة المستشفى الملكي كلهم كانوا أشد بريطانية من المستر تشرشل نفسه.

إذن بما أنني كنت من «أقطاب النازية» فالوضع كان مفهوماً ومعلوماً. وسمعت بأن المس «كينكستون» كانت دائماً تنعتني «بالنازي» عندما تأمر بإرسال الطعام أو الأدوية اليَّ ولكنها كانت تتظاهر باللطف البارد وتزورني كل يوم مستفسرة عن الصحة وعما إذا كنت أحتاج إلى شيء أو إلى أكل خاص. فالمعاملة كانت جيدة ولكن ناشفة ومصطنعة ولم أجد عطفاً الّا من بعض المرضات المسيحيات.. إذ أن اليهوديات كُن ناشفات مثل رئيستهن الأولى. ورأيت شيئاً من العطف المتكلف من الأطباء العرب وأكثرهم من المتخرجين الجدد كالدكتور كاظم شبر من أهل النجف والدكتور عبد الجبار العماري...

أجريت لي الفحوص والأشعة وثبت بأنني كنت مصاباً بنوبة المغص الكلوي. وبناءً على طلب المحكمة تشكلت لجنة من الدكتور سندرسن والدكتور ستيبي والدكتور هاشم الوتري وقدمت اللجنة تقريراً يؤيد تقرير جماعة مستشفى الكرخ بأنني لا أستطيع الآن أن أحضر الى المحكمة وأترافع... وكان الدكتور سندرسن ومساعدوه في بادىء الأمر يعتقدون بأنني متمارض أو مبالغ، لا سيما وأن فحص الاشعة لم يدل على وجود مرض أووجود حصوة في الكلية. ولكن بعدما يقارب الأسبوعين شعرت غفلةً بألم شديد ينزل من الخاصرة الى المثانة وعند الادرار نزلت حصوة صغيرة بقدر العدسة فارتحت بعدها وزال الوجع الذي كان يلازمني منذ ثلاثة أسابيع مرة

واحدة. ولما رأى الحصوة الدكتور سندرسن ومساعدوه أيقنوا وتأكدوا... وفهموا بأن الشكوك والشبهات والمداخلات والتحمسات لم تكن في محلها...

ومن غرائب الصدف أن هذه الغرفة كانت فيما ما مضى غرفة حكمت سليمان عندما مرض ونقل الى المستشفى بعد أن صدر عليه الحكم بالاعدام ثم خفف الى خمس سنوات. أخبرني بذلك سندرسن من باب المدح والثناء على الغرفة.. ومن باب التشجيع لأن حكمت سليمان الآن حر طليق والزمان حلال المشاكل...

عندما عرفني الدكتور سندرسن بالدكتور ستيسي قال باسماً «هذا مستر شابندر. كان وزيراً للخارجية عندما كنا محاصرين في السفارة... أليس كذلك شابندر؟» قلت: «نعم ولكني لم أكن من الراضين على حصاركم. وكنت أنا الذي سهلت وخففت عليكم ضيق ذلك الحصار». ثم ضحكنا ولكن كانت ضحكة فيها شيء كثير من المرارة. وقص عليّ الدكتور سندرسن يوماً كيف انهم نهبوا بيته ومزقوا وخربوا ما لم ينهبوا. وأن أكثر شيء أغاظه أنهم مثلاً اخذوا فردة حذاء وتركوا الأخرى. وكسروا الكراسي ومزقوا ثياب زوجته. مما يدل على أن القصد لم يكن مجرد النهب والسرقة بل انما الانتقام. كان يرتجف عندما يتحدث بهذا الموضوع. كيف يستطيع هؤلاء أن يعاملوا رجلاً مثله هذه المعاملة؟ قلت له هذا شأن الرعاع والجهلة. وأن العالم يمرّ بدورة جنونية وهذه نموذج صغير منها. ثم قلت في نفسي ولكنك قبضت ١٤ ألف دينار تعويضات عما فقدته من أثاث وغيره ولا أعتقد بأن ما فقدت يساوي عشر ما قبضت. ثم فكرت في أيام الاحتلال وكيف أن حكومة الاحتلال صادرت أموال الناس وأثاثهم وكل ما يملكون... وكيف انها سجنت ونفت وظلمت واعتدت... ولكن الإنسان لا يرى الا مساوىء غيره. فهذا ناقم لأنه بقي محصوراً في السفارة لمدة شهر واحد. فماذا نقول نحن بعد أن قضينا هذه السنوات بالسجن والنفي والاعتقال وأنواع العذاب؟

أمام المجلس العرفي

كانت جميع الاشارات تدل على أن هذه المحكمة المسماة بالمجلس العرفي كانت آلة صماء لتنفيذ ما تؤمر به فإنها تتزود بالأوامر بالواسطة أو بصورة مباشرة علناً أو سراً وكان الجميع من الكبير الى الصغير يعلم بذلك ولذا كنا نحن أيضاً نعلم علم اليقين أن الحجج والمنطق والحق سوف لا يكون لها أثر فعال فعلينا أن ننقذ أنفسنا بأحسن الطرق. ولذا فقد راجع كل منا بواسطة أقاربه وأصدقائه زيداً ثم عمراً وكانت التطمينات تأتينا من كل ناحية وأتتنا النصائح من المتصلين بالمقامات العليا بأن يكون دفاعنا مرتكزاً على أننا أُدخلنا بالوزارة عنوة وبلا رغبة منا وكان أولئك الناصحين يبنون آراءهم على ما حدث سابقاً في هذه المحكمة مع بعض أفراد مجلس الأمة. فهذا المجلس أي الأعضاء الذين صوتوا بخلع الوصي وانتخاب الشريف شرف خلصوا أنفسهم من المسؤولية بحجة أنهم جمعوا غصباً عنهم وصوتوا خوفاً من التهديد والوعيد وقبلت المحكمة في حينه هذا العذر لأن الانكليز أشاروا على الوصي بقبول ذلك العذر وتحديد دائرة المسؤولية... وهذا رأي له قيمته في حالة مثل حالتنا... فإذا رفعت المسؤولية عن أعضاء مجلس الأمة الذين أقروا ما قام به رشيد عالي وأعوانه ثم خلعوا الوصي ونصبوا وصياً آخر في محله، فمن البديهي أن ترتفع المسؤولية عنا نحن الذين أتينا إلى الوزارة بعد هذه التدابير وبعد أن أقر المجلس مشروعية ما حدث. هذا وقد أيد هذه النظرية في الدفاع جميع المحامين البارزين الذين استشرناهم كما أن المستر ادموندس نصح ابراهيم أن نتبع هذه الخطة.

أما النظرية الأخرى وهي مشروعية الوزارة ومشروعية تعييننا وزراء فانها من الجهة القانونية كانت بالطبع أقوى وأمتن ولكن المطلوب لم يكن احقاق الحق وتثبيت العدل أمام هذا المجلس العرفي المسخّر، والدليل على ذلك الحكم الصادر على علي محمود الشيخ علي فانه دافع عن نفسه متمسكاً بمشروعية ما أقره مجلس الأمة وما أعقبه من أمور ولكن بالرغم من كل ذلك ومع ثبوت عدم اشتراكه بالثورة الأولى فقد حكم عليه بالسجن لمدّة سبع سنوات.. هذا دليل واضح بأن المجلس العرفي ومن يسنده لا يرتضون بمثل ذلك الدفاع... وكان الجميع من الواقفين على بواطن الأمور لا يرون فائدة من التمسك بهذه النظرية وان كانت من حيث الأساس أمتن وأقوى من غيرها. كنا أمام أمرين: الأول مشروعية الوزارة والثاني الإكراه..

الأمر الأول منطقي ومعقول ومستند الى أدلة قانونية لا ريب فيها ولكن هذا المجلس لا يدرك قوتها ولا يرتاح إليها الوصي أو الانكليز فتمسكنا بها سيوقعنا بخطر لا خلاص منه.

أما الأمر الثاني، فبالرغم من وجود شيء من الصحة فيه، فإنه ركيك لا تدعمه أدلة قوية واضحة ولكن السياسة ترتاح إليه وقد يكون وسيلة لخلاصنا. هكذا كنا نفكر وأمامنا مثالاً على ذلك أعضاء مجلس الأمة الذين تمسكوا بنظرية الإكراه فكان من الطبيعي أن نصغي إلى نصائح الناصحين وارشاد المرشدين وتقرر أن نتمسك نحن أيضاً بالاجبار والاكراه وعلى هذا الأساس قررنا الدفاع... وعلى هذا الأساس استحضرت ملاحظاتي وأجوبتي على الاتهامات التي وردت في خطاب المدعي العام.

بعد أن تحسنت صحتي قليلاً تقرر حضوري أمام المجلس العرفي في أول تموز/ يوليو ١٩٤٤ المصادف يوم السبت، فحضر صباح ذلك اليوم الرئيس عبد القادر ومعه حارس وشرطي سرّي. فركبنا سيارة الشرطة السريّة وتبعتنا سيارة عبد القادر وفيها الحارس والشرطي وتوجهنا إلى الوشاش حيث تجتمع المحكمة. كان الحر شديداً والطقس ثقيلاً وأنظار المرضى والزائرين في المستشفى تزيد الحمل ثقلاً والقلب ألماً. ولكن هذا قدر مقدر. أنا الآن متهم وعليَّ أن أحضر أمام المحكمة مخفوراً وأقف أمام هؤلاء الأشخاص الذين نصبتهم الظروف حكاماً وأدافع عن نفسي. أما أنني لم أكن مذنباً ولم أرتكب جرماً ولم آت بإساءة لأحد، ولم أسرق، ولم أكذب، ولم... ولم... فهذه كلها أمور لا محل لها الآن من الاعراب. يقول الانكليز وأذنابهم على لسان عبد العزيز الخياط أن هنالك عصابة مسلحة أرادت ما أرادت، وفعلت ما فعلت، وانني انضممت إليها واشتركت باجرامها وسببت خسارة فادحة في الأرواح والأموال و... و... نعم هكذا يقولون وعليّ الآن أن أثبت براءتي أمام هذه المحكمة أو بالأحرى عليَّ أن أحضر أمام هذه المحكمة لتقرر هي ما تقرر، وفقاً للتعليمات والايحاء. ومما يزيد الطين بلة ان حكم هذه المحكمة سيكون نهائياً لا يقبل الاستئناف ولا التمييز فمصدر الاتهام هو حكومة نوري السعيد ومن ورائها الوصي والانكليز والمدعي العام عبد العزيز الخياط والحكام خليل أمين وجماعته. والخصوم المنتقمون هم القضاة والحرب لم تزل قائمة، والهستيريا لم تزل مسئولية على قلوب البشر وأدمغتهم. وما هذه الدراما العراقية الاّ جزء من الدراما العالمية الواسعة التي كانت لم تزل تمثل على المسارح الواسعة في أوروبا وآسيا وأفريقيا. والعراق حسب عادته متسرع أكثر من غيره. فتمرد وثار قبل الجميع، وحكم وشنق وسجن قبل الجميع، وقام بقسطه في تمثيل المأساة البشرية قبل الجميع، ونحن الآن ضحايا هذه «التسرعات» فإنها أتت كالسيل، فمن هرب وتسلق التلول نجا، ومن حاول ايقاف السيل فقد أخطأ، فكنا نحن من هؤلاء الخاطئين. فغمرنا السيل بمياهه، ووجدنا أنفسنا متهمين بالاشتراك في اثارة ذلك الطيش، لأنهم وجدونا نخوض في ذلك السيل. والآن علينا أن نثبت أننا وجدنا أنفسنا هناك غير راغبين، وحاولنا انقاذ ما يمكن إنقاذه، فإننا لم نكن من عوامل الشر انما من المحاولين لايقافه. ولكن إذا لم تقتنع «الجماعة» بهذا ولا تريد أن تقتنع به، فهذا شيء آخر، مثل هذه الأفكار كانت تخالج نفسي طيلة الطريق بين المستشفى الملكي ومعسكر الوشاش.

في الوشاش أدخلوني أولاً في غرفة صغيرة للانتظار، وبعد مدّة حضر أعضاء المحكمة والمدعي العام فأخذوني الى غرفة المحكمة ومن ورائي الجنود والحراب حسب الأصول المتبعة. دخلت قاعة المحكمة التي مرّ وصفها. وجلست على كرسي داخل القفص الخشبي أمام المجلس المشكل من الزعيم مصطفى راغب رئيساً وعضوية الحاكمين عبد العزيز ماجد، وخليل آمين، والعقيدين محمد علي سعيد، وعبد الله **رفعت التسعة** وكان المدعي العام عبد العزيز الخياط في محله على يمين الطاولة. كان في المحكمة أخي ابراهيم والمحاميان ابراهيم الواعظ، وعبد العزيز السنوي وبضعة أشخاص آخرين. كان السكوت عميقاً وكنت أشعر بضعف بسبب المرض وأشعر بشيء يشبه ما كنت أحس به عند الدخول في الامتحانات أيام المدرسة. حيرة وخوف واعتماد على النفس، واحساسات أخرى مختلطة يتعذر وصفها وتحليلها...

افتتح الرئيس المحاكمة بتوجيه السؤال التالي اليّ:

س: سمعت ما جاء بحقك في البيان المتلو من قبل المدعي العام، فما قولك تجاه هذا البيان؟
فنهضت من محلي وقلت:

ج: أود قبل كل شيء أن أشكر المحكمة على موافقتها لنقلي الى المستشفى وأود أن أبين أسفي لأن مرضي سبب شيئاً من التأخير للمجلس».

فتقبّل هذا مني الرئيس بهزّ رأسه، وهنا طلب المدعي العام بأن يسمح لي الرئيس بأن أبقى جالساً أثناء المرافعة بسبب مرضي.. فوافق الرئيس وطلب اليّ الجلوس فشكرتهم وجلست وأخذت أرد على بيان المدعي العام مادة بمادة كما يلي:

قلت:

١ ـ **إن أول نقطة وردت في الاتهام**:«انه نازي المبدأ لسبق وجوده في برلين ومعرفته اللغة الالمانية». اني أستغرب كثيراً من جعل معرفة اللغة سبباً للاتهام كما أن وجود الإنسان في محل لا يمكن أن يكون سبباً لإدانته، إني أعرف اللغة الالمانية ولكني أعرف ايضاً لغات أخرى.. أعرف الانكليزية وكنت في انكلترة... وأعرف الفرنسية وكنت في فرنسا.. وأعرف الطليانية وكنت في ايطاليا، وأعرف التركية وكنت في تركيا، وأعرف كذلك العربية... فلو أخذنا بمبدأ معرفة اللغات لكان خمسة أسداسي ديمقراطي والسدس الأخير نازي... ولكن كما عرضت ان نظرية مثل هذه لا يمكن ان تكون اساساً لمثل هذا الاتهام إذ ان قسماً كبيراً من الألمان انفسهم هم ضد النازية. وقد حصلت مثل هذه التهم في أوروبا. فالرئيس روزفلت مثلاً عين سفيراً الى برلين البروفسور دود Dood لانه يعرف اللغة الالمانية وكان مدرساً فيما سبق في احدى كليات المانيا... فأقام أعداء روزفلت القيامة في حينه واتهموا الرئيس بانه عين «نازياً» لسفارة أمريكا في برلين. ولكن بعد وفاة البروفسور دود نشر أولاده مذكراته فبان منها أن الرجل ديمقراطي قح وأنه من اكبر أعداء النازية... وحصلت مثل هذه التهم ضد السفير البريطاني نفيل هندرسن ولكن بعد أن نشر مذكراته رأى الناس خطأهم إذ تبين أن السفير كان خصماً لدوداً للنازية. اما أنا فقد ذهبت إلى المانيا بشأن الدراسة في بادىء الأمر سنة ١٩٢٢ ثم عدت اليها موظفاً في المفوضية العراقية وعشت زمناً طويلاً في المانيا فتيسّر لي أن أرى النازية وأعمالها عن قريب ومن يرى ذلك بعينه لا يمكن أن يميل للنازية أو يعتنق مذهبها. وفي سنة ١٩٣٠ كانت حركة قوية في العراق تحبذ المبدأ الفاشيستي فكتبت حينئذ مقالات قوية ضد تلك الحركة مما يؤيد نفرتي من الأنظمة الدكتاتورية.

وعلاوة على ما تقدم أود أن آتي بدليل ملموس... عندما تأزم الوضع في المانيا قبيل الحرب وكنت قائماً بأعمال المفوضية هناك بذلت كل جهدي لتسفير العراقيين من طلاب وغيرهم في ألمانيا وكان ذلك خلافاً لرغبة المحافل الالمانية التي كانت ترغب وتشجع في ابقاء العرب وأكثرهم من العراقيين بشتى الوسائل. ثم عندما قطعنا العلاقات الدبلوماسية مع حكومة الرايخ اعتقلتني الحكومة في دار المفوضية وقطعت التلفون عني وصارت تفتح البريد وعاملتني معاملة قاسية بحيث عندما كنت اذهب الى وزارة الخارجية للأشغال الرسمية كان يصحبني شرطيان ولمّا احتججت على هذه المعاملة قيل لي أن هذه تدابير اتخذت بحقي لأنني ميال الى الانكليز وانني على اتصال دائم بالسفارة البريطانية في برلين. فهل يعقل أن أعامل بمثل هذه المعاملة من قبل النازيين لو كنت ـ كما يدعي سعادة المدعي العام نازياً أو صديقاً لهم؟ ويمكن للمحكمة أن تطلع على حقيقة شعوري تجاه النازية في التقارير التي كنت أقدمها الى وزارة الخارجية في برلين وخاصة ما يتعلق منها بالعلاقات التجارية وسعي الألمان على معاهدة تجارية. فانني تباحثت في الموضوع سنة ١٩٣٦ مع ممثل الحكومة الألمانية الدكتور «كلوديوس» عدة مرات ورفعت على اثر ذلك تقريراً حذرت فيه الحكومة

العراقية من أن تتورط في اتفاق يجعل المانيا مدينة للعراق فتفرض عليه قبول ما تـريد من البضـائع والمصنوعات وأتيت بمثال على ذلـك ما حصـل ليوغـوسلافيـا عندمـا أصبحت تطلب الرايـخ خمسة ملايين باون فسددت حكومة الرايخ هذا المبلغ بإرسال الأسلحة والمدافع مما مكّن النفـوذ العسكري الالماني فالسياسي وهذه خطـة مدبـرة تبتغي المانيـا من ورائها السيطـرة العسكريـة والاقتصاديـة والسياسية على الشعوب التي تتعامل معها وختمت تقريري قائـلاً بأنـه إذا عقد العـراق مع المـانيا معاهدة تجارية فسيكون دائماً مديناً لها وسيسدد ذلك الدين بتصدير التمـور والشعير وغـيرهما من الحاصلات العراقية. فهل يعقل أن يكتب مثل هذا التقرير من كان نازيـاً أو ميالاً للنـازية؟ وعنـدي ادلة كثيرة تنفي هذه التهمة الغريبة على أنني أعتقد أن المجلس العالي يقتنع بمـا قلت بعدم صحـة هذا الادعاء..

٢ ـ **النقطة الثانية**:«صديق رشيد عالي الحميم واشترك في وزارته المرقعة» إن وصفي بصـديق رشيـد عالي الحميم لا ينطبق عـلى الواقـع قطعاً. اني قضيت في أوروبـا خمس عشرة سنة. ورجعت لآخر مرة الى العراق في اواخر سنة ١٩٤٠ أي بعد أن قطعنا العلاقات السياسية مع المانيا وعنـدما رجعت الى بغداد كان رشيد عالي يتمتع بثقة واحترام الجميع إذ كان رئيساً للديوان الملكي ثم صار رئيسـاً للوزارة فصلتي بـه لم تكن الاّ كصلة سـائر المـوظفين حسب وظـائفهم ودرجاتهم. ولم اكن مشتغلاً مع رشيـد عالي بـأي عمل سيـاسي أو اجتماعي او مـالي ولا تربطني بـه رابطة القـربى أو الأحـزاب ولذا أعتقـد أن تلقيبي بالصـديق الحميم هو بعيـد عن الحقيقة جـداً اذ أن أصـدقـاءه الحميمين وزملاءه المخلصين هم الذين عرفهم وعرفوه طوال السنين وقد تجدهم المحكمة في مجموعة الوزراء وكبار الموظفين الذين تعاقبوا في الحكم إلى يومنا هذا.

أما اشتراكي بوزارة رشيد عالي المرقعة فهذه قصة غريبة في بابها.. اني كنت إذ ذاك في ديوان الخارجية صارفاً كـل وقتي وجهدي في أمـور المركـز والمفوضيـات ولم يكن لي علاقـة او مصلحة في الاختلافات السيـاسية الـداخلية سـوى أنني كنت أسفاً لتبلبـل الكلمة وتفكـك الصفوف وتخـاذل الرجال... وذات يوم صادفني طه الهاشمي فتحادثنا ثم فاجأني قائلاً: «إذا كلفوك بوزارة الخارجية لازم تقبل» فاستغـربت كثيراً وقلت لـه: إنني لا ارغب في السياسـة ثم أنكم تركتم الـوزارة، فكيف تنصحوني الآن هذه النصيحة.. قال: «الوضع تبدل الآن وأنت كشاب متخصص بالأمور الخـارجية يجب عليك أن لا تتأخر من اداء هذا الواجب».. مضى على ذلك بضعة ايام. دعاني يوماً رشيـد عالي وكلفني بقبول منصب وزارة الخارجية فاعتذرت. ولكنه أصر قـائلاً بـأن الوضـع الآن قد تبـدل وأن سمو الوصي هو الذي اقتـرح بأن تشتغـل أنت في الخارجيـة وأن محمد عـلي محمود وصـالح جبـر سيشتركان أيضاً في الوزارة... فأمام هذه التأكيدات قبلت وفي اليوم التـالي صدرت الارادة الملكيـة بذلك وذهبت مع محمد علي محمود الى قصر الرحاب لـرفع الشكـر إلى سمو الـوصي. وقد استقبلني سموه بكل لطف وعندما استأذنا للانصراف تمنى سموه لنا الخير والنجاح.. مما جعلني أعتقـد بأن ليس هنالك شي غير طبيعي. ولكن في نفس اليوم أتـاني شرطي بعد منتصف الليـل يدعـوني لحضور مجلس الوزراء فلما ذهبت الى هناك وجدت الوزراء مجتمعين وأخبرني الرئيس بأنه طلب من الـوصي ارادة بحل المجلس فرفض ذلك وأدى هذا الخلاف الى ذهاب سمـوه الى الديـوانية... وكـان موقفي هنا صريحاً إذ أنني أشرت بـالاستقالـة ووقفت بوجـه من كان يـريد خـلاف ذلك، ويحبـذ المقاومـة واشعال نار الفتن، وبعد جدل طويل استمر طوال الليل اقنعنا رشيد عالي، وحصلت الاستقالة وقـد هنأني أصدقائي على موقفي تلك الليلة، وكان أحدهم وبصورة خاصة فخامة نوري السعيد..

٣ ـ **النقطة الثالثة**:توحيد الصفوف مع القواد ورشيد عالي وتهييج الرأي العام ضد وزارة طـه الهاشمي وترويج الدعايات المضرة: فلا صحة البتة لهذه الادعاءات فانا لا أعرف القواد قبل دخـول الوزارة، ولم تحصل بيني وبينهم أيـة صلة من بعـدها. فـلا زرتهم ولا زاروني ولا حادثتهم ولا هم

حـادثوني وكنت حتى أحيـاناً لا افـرق بين أسمـائهم ولم أر صورة كـامل شبيب قبـل أن جمعتنـا الظروف في الأهواز. فكيف يا ترى اذن وحدت الصفوف معهم؟ ومـا هو الـداعي لذلـك؟ أما تهييـج الرأي العام وترويج الدعايات المضرة ضد وزارة الهاشمي فأقول يا ترى كيف حصل ذلـك؟ فإني لم أخطب ولم أكتب ولم أذ ع ولم اتوسل بأي وسيلة أخرى توصلني بـالرأي العـام.. فكيف يجوز إذن أن يقـال أني هيجت الرأي العـام؟ هذا فضـلاً عن أن طه الهـاشمي ووزراءه كلهم من أصدقـائي واشتـرك معهم بأكثـر آرائهم وغايـاتهم الوطنيـة واني لم انتسب الى حزب أو جمـاعـة حتى أوآزر الواحدة ضد الأخرى بـل كنت دائماً أنتصر لمن أعتقـد به خيـراً للبلاد وأخـاصم من يسيء إليها... والدليل على هذا أن توفيق السويدي عندما كان وزيراً للخارجيـة في وزارة الهاشمي دعـاني وكلفني بالعودة الى وظيفتي بوزارة الخارجية واعتذرت اليه واشترطت بأن اعود مديراً عاماً للخـارجية. فلـو كنت من مروجي الدعايات المضرة كيف يطلب اليّ وزير الخارجية الاشتراك بالعمل؟ بعد الموافقة على ذلك من قبل زملائه واستشارة سمو الوصي؟

٤ ـ **النقطة الرابعة**: «انه اشتـرك في العصابـة والوزارة الأخـيرة غير الشرعيـة» أقول: في هـذه القصة توجد غرابة كبيرة وفيها درس وعبرة لكل من يشتغل بالسياسة العراقية. إني كنت حاصـراً كل اهتمامي بشغلي بعيداً عن السياسة ولذا فإني أؤكد بأنني لم أشترك برغبة مني في تلك الوزارة وهذا أمرٌ يعرفه كـل من كان واقفـاً على الـوضع. أتاني في مساء يـوم رشيد عـالي إلى البيت وكلفني الاشتراك في الوزارة فرفضت وبينت له ثلاثة أعذار: أولاً: انني مريض وأنوي السفر لـلاستراحـة. ثانياً: انني لا ارغب في الاشتغال بالسياسة في هذه الظروف.. ثالثاً: علاوة على ما تقدم أن لي وضعـاً خاصاً تجاه الاسرة المالكة إذ أن الملك فيصل هو الذي أدخلني في الوظيفة وأرسلني الى جنيف وكان دائماً يعاملني معاملة اب وكـذلك كـانت معاملـة الملك غـازي نحوي. فـالآن لا أريد أن أظهـر بمظهر المتسـاهل في أمـر الاخلاص للبيت الهـاشمي... وبعد هـذا انصرف رشيد عـالي وظننت أنه اقتنـع بمعـذرتي هذه وانتهى الأمـر... ولكن في اليوم الثـاني صدرت الإرادة وسمعت بـأنني قـد عينت في وزارة الخارجية فوجدت نفسي أمام أمر واقع وكان في وسع رشيد أن يفرض في تلك الظـروف ارادته على من يريد... ولما توترت الحالة وسمعت بأن الجيش العراقي حاصر الحبانية وذلك بدون علم مني وبدون أي اخبار وفي حين أنني كنت متصلاً بالانكليز من أجل التفاهم وإزالة العراقيل وتقليل الشر ذهبت الى رشيد وقدمت استقالتي محتجاً عـلى الاعمال التي قـام بها الجيش دون علم الحكـومة أو دون علم وزير الخارجية.. فرفض رشيد استقالتي وقال: «أن استقالة وزير الآن يعادل سـحب فرقـة من الجيش» ولما أصررت افهمني بأن هذا العمل هو بمثابة انتحار وأنـه غير مسؤول عمـا قد يقـع. فلمـا وجدت الحـالة قـد وصلت الى هذا الحـد من الفوضى قـررت بأن لا خـلاص الا بترك البـلاد. فتحادثت مع محمـد علي محمـود بالـموضـوع وكـان يرتـأي نفس الرأي فسـافرنـا ليلاً الى خـانقين قاصدين اجتياز الحدود الى إيران ولكن هروبنـا لم ينجح واتصـل رشيد عـالي بالقمـائمام المـرحوم ابراهيم صالح شكر ورجعنا في اليوم التالي ليلاً وكانت سيارة من الشرطة تصحبنا ظاهراً للمحـافظة وفي الحقيقة لإرجاعنا الى بغداد. وبعد هذه العودة أصبح وضعنا أكثر حراجة من السابق.

إلى هنا قررت المحكمة رفع الجلسة واستئنافها في الغد إذ أن السـاعة اقتـربت من الواحـدة وحان وقت الغداء ووقت القيلـولة... فعـدت الى المستشفى الملكي بنفس الطريقـة التي أتيت بها. وكنت أشعر بتعب شديد من الحر ومن المرض ومن هذه المحاكمة الـوحيدة في غـرابتها ومنطقهـا وتشكيلها. وفي اليوم الثـاني صباحـاً أتى عبد القـادر وجماعتـه فذهبنـا بالسيـارات الى معسكر الوشاش واستأنفت المحكمة كما يلي:

٥ ـ بينت للمجلس بأنني عندما سمعت بأن الجيش العراقي احاط بالحبانية دون علمي ذهبت الى رشيد وقدمت استقالتي احتجاجاً على ذلك العمل فمنذ ذلك اليوم استولى رشيد على أعمال وزارة

الخارجية وأخذ يعطي الأوامر الى الموظفين وكنت أنا في وضعي ذلك أقرب الى الأسير منه الى الوزير الأمر الذي جعلني أتوسل بالفرار من تلك الفوضى مرتين خلال شهر واحد. ولذا فلا يجوز أن أتهم بأنني كنت مشتركاً مع رشيد بالأعمال التي قام بها خلال شهر مارس لأن الاشتراك بالعمل يتطلب حرية العمل ولم يكن لي إذ ذاك اية حرية فيما يتعلق بأشغال الوزارة.

٦ ـ ورد في الاتهام أنني فاوضت دولة معادية ووافقت على دخول الدكتور غروبا العراق... والحقيقة انني لم افاوض اية دولة معادية ولم أسأل ولم أوافق على مجيء غروبا أو على مجيء قوات مسلحة. ولم أسمع بمجيء غروبا الا بعد وصوله الى بغداد.. فإذا حصل هنالك مراجعات أو مفاوضات فإنني لم أكن مسؤولاً عنها...

٧ ـ ثم ورد أنني وافقت على اعطاء خيرات البلاد بواسطة قاسم مقصود... وهذا اتهام جد غريب. اذ أن قضية خيرات البلاد أمر يعود الى المالية واني لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر كما أنني لا أعلم من هو قاسم مقصود...

٨ ـ تم ورد أنني من جملة العاملين على نقض المعاهدة...

وهنا أقول ان هذا لا يتفق مع الواقع ابداً. ان رايي حول المعاهدة منذ أن أبرمت ومنذ أن دخل العراق عصبة الأمم معلوم. وهو أن السياسة الخارجية العراقية يجب ان ترتكز على معاهدة التحالف وعلى ميثاق عصبة الأمم. وأول عمل قمت به أثناء الوزارة المرقعة والوزارة الأخيرة كان ارسال برقيات الى لندن وأنقرة تبين رأيي بصراحة في لزوم تطبيق المعاهدة نصاً وروحاً هذا لأنني أعتبر المعاهدات الدولية كوثيقة شرف يجب احترامها مهما كانت الظروف ولذا فلا يمكن أن أكون من جملة العاملين على نقضها...

٩ ـ ثم ورد أنني أحرجت موقف الحليفة وشددت الخناق على السفير البريطاني... أقول: لم يحصل بيني وبين السفير مقابلة في ٢٨ نيسان/ ابريل ١٩٤١ بل انما كانت المقابلة بين السفير ورئيس الوزراء في مقر وزارة الخارجية ذلك لأن السفير كان يعلم جيداً بأن الحل والربط كان بيد رشيد عالي ولم تتجاوز مهمتي في تلك المقابلة الترجمة والسعي لتقريب وجهة النظر حول الخلاف الناشىء بسبب مجيء الجنود البريطانيين الى البصرة. أما أنا فقد قابلني السفير قبل هذه المقابلة بعشرة أيام وكانت مقابلة كلها ود ومجاملة وتاكيدات في سبيل التعاون والتقارب وقد عدت له الزيارة في نفس ذلك اليوم ثم انه دعاني على العشاء مما يدل على عدم وجود احراج أو شد خناق...

١٠ ـ ثم ورد في الاتهام بأنني ساعدت على العصيان المسلح...

أؤكد بأنني لم أساعد لا على عصيان مسلح ولا غير مسلح ولم أعلم به قبل وقوعه ولم أرض به بعد أن وقع وبذلت كل جهدي لايقافه وقبول التوسط التركي وكان السفير التركي باذلاً كل جهده في هذا السبيل ولكن مع الأسف تغلب الطيش على التروي والاعتدال فحدث ما حدث...

١١ ـ أما فيما يتعلق بما ورد في شأن الاجتماع الذي حصل بدار وزير المالية فاقول: أخبرني تلفونياً صباح ذلك اليوم بلزوم الحضور في دار ناجي السويدي ولما ذهبت وجدت الوزراء حاضرين وأمام رشيد رزمة أوراق... قال لي رئيس الوزراء: هذه مناشير وزعتها السفارة البريطانية ثم تقرر بأن يذهب ناجي السويدي ليقابل السفير في هذا الشأن ولا أعلم فيما إذا تقرر شيء خلاف ذلك...

١٢ ـ أما بخصوص الافادة أو الافادات في مجلس الدفاع فأرجو من المحكمة أن تسمح لي بأن اطلع على دفتر المحضر الذي ورد ذكره حتى أستطيع الاجابة...

هنا انتهت ملاحظاتي حول ما ورد في الاتهام ضدي... تكلمت خلال جلستين حول النقاط الهامة كما جاء في الخلاصة أعلاه. وكان أعضاء المحكمة والمدعي العام يسمعون دون اهتمام.

هذا إذا استثنيت الرئيس الذي كان من وقت لآخر يؤشر امامه بعض الاشارات ولم يقاطعني المدعي العام الا عندما ذكرت بأن طه الهاشمي كان قد نصحني بدخول الوزارة المرقعة. فأراد أن يعلم من كان حاضراً ومن هم شهود هذه النقطة فأجبته بأنني سأذكر ذلك عند الدفاع...

بعد أن انتهيت من كلامي... أخذ رئيس المحكمة يستجوبني كما يلي:

س: ألم تشترك في جلسات مجلس الدفاع الأعلى أو لم تبد بآرائك كوزير خارجية؟

ج: اني حضرت مجلس الدفاع مرتين بتواريخ لا أذكرها. فبالاجتماع الأول كنت قد بينت نص المعاهدة وأن طلب البريطانيين حول انزال الجيوش كان ضمن المعاهدة. وقد تقرر فعلاً انزال الجيوش وارسل قائد لاستقبالهم واقامة ولائم لهم حسبما أتذكر... ولا أتذكر ما قلت أثناء الجلسة الثانية ولا أعتقد أني قلت شيئاً والسبب انه قبل ذلك الاجتماع حصلت المقابلة بين السفير ورشيد عالي وكنت حاضراً ومترجماً وقد بين رشيد للسفير انه لا يجوز انزال قوات جديدة قبل أن تغادر القوات الأولية وقد بين ذلك رشيد للمجلس فلم يبق حاجة لبيان رأيي أو رأي غيري في الموضوع.

س: ألم تلق معارضة من زملائك في الجلسة الأولى عندما أوضحت لاعضاء المجلس أن نزول القوات البريطانية الى العراق أو بقائهم أو سفرهم هو من ضمن شروط المعاهدة؟

ج: بالنظر لمرور مدة طويلة على هذه القضية، لا أتذكر بأن كانت هناك معارضة ضد انزال القوات والدليل أن القوات أنزلت وأرسل قائد لاستقبالها..

س: عند مقابلة السفير ورشيد عالي هل بينت رأيك أمام السفير اذا كنت معارضاً لرشيد؟ ألم تكن تلك فرصة سانحة لبيان رأيك؟ لأن رشيد كان يفسر المعاهدة بصورة مغلوطة للقيام بما يمليه ضميره؟

ج: السفير كان مطلعاً على رأيي لأنني بينت له ذلك وكذلك لكثير من الانكليز...

س: قلت في افادتك أن طه الهاشمي قال لك بأن تقبل الاشتراك بوزارة رشيد عالي المرقعة. عندما أوصاك بذلك ألم يكن المشار اليه مستقيلاً؟ ألم تقل له يا صاحب الفخامة لماذا أنت تستقيل وتطلب مني أن أدخل؟

ج: نعم قلت له كيف تنصحني وأنت تستقيل فأجابني بأن الوضع الآن قد تبدل والحق أنني لم أعر هذا الموضوع اهتماماً ولم أعتقد بأنه ممكن الوقوع.

س: من هم الأشخاص الذين كانوا حاضرين معك عند وصية الهاشمي؟

ج: عندما كلمني المشار اليه لم يكن هناك أحد حاضراً. ولكن أكثر وزراء وزارته يعلمون بذلك.

س: نقرأ عليك بياناتك الصادرة في مجلس الدفاع الأعلى بتاريخ ١٧ و٢٩ نيسان/ ابريل ١٩٤١ [وبعد تلاوتها] ما قولك في هذا؟

ج: أطلب جلب الدفتر الذي يزعم أنه محضر جلسات مجلس الدفاع الأعلى وبعد الاطلاع عليه أجيب على هذا السؤال.

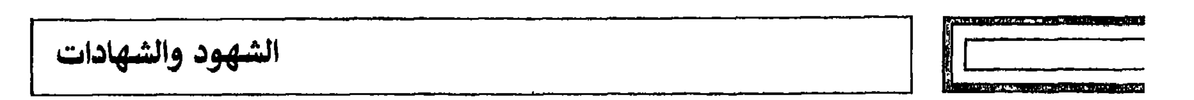
هنـا انتهت الجلسة فعـدت الى المستشفى الملكي وبقيت أفكر في أمـري وأمر هؤلاء الحكـام والمدعي العام وهذه القضية الغريبة. حركة رشيد عالي والقواد التي كانت في نظر الكبير والصغير حركة وطنية مخلصة أيدها الزعماء والشيـوخ وعلماء الـدين وكل من في العـراق وخارج العـراق أصبحت بين عشية وضحاها فتنة عمياء. وجناية لا تغتفـر. وجنون ليس من بعـده جنون. أنـا لم أكن من المتصلين بها ولا من الراضين عنها لأنها كانت حركـة طائشـة لا فائـدة منها، ولا حـاجة للعراق بها، وكنت من المؤمنين بلزوم ترك وزارة طه الهـاشمي تديـر دفة البـلاد، وينتظر العـراق تطـور الحرب العـالمية ويبقى محـايداً، ولكن الحمـاس والجهل وحب التقليـد والتزعم والـدعايـة المستمـرة في الخارج وفي الـداخل، دفعت رشيـد وجماعتـه الى تلك الحـركة. ثم بعـد أن أقر المجلس مـا أقر وجدت نفسي وزيراً للخارجية فحاولت أن أخدم بلادي وأدفـع عنها الشر ولكن الطيش نفسـه، وتسويف ومماطلة الانكليز أدت الى التصادم. فنحن المعتدلين سعينا الى ايقـاف الشرّ عند حـده، وقبول التوسط التركي، كما مرّ ذكره. ولكن فشلنا واضطررنـا الى ترك البـلاد لأن رشيد عـالي لم يوافق على استقـالتنا... فكيف انقلبت الآيـة الآن؟ كيف أصبحنا نحن من أفـراد العصابـة ومن العـاملين فيهـا والمسببين لمـا حصل؟ وهـل يجوز أن يعتبـر الشعب العـراقي والجيش العـراقي والمجلس العراقي والزعماء والعلماء والوفود والمشايخ وزعماء العرب في الخارج والبلاد من أولهـا إلى آخرها أفراد عصابة أو مؤيدي عصابة قامت بجريمة وفتنة عمياء. نعم يظهر أنه يجوز ذلـك، وتطمس الحقائق وتكون الحركة محصورة بالوزارة والقواد، وانهـا جريمـة اعتياديـة لا تفرق عن القتل أو السرقة. فـالمجلس الذي أيـد رشيد أصبـح مكرهـاً والزعمـاء والمشايـخ والعلماء كـانوا مخدوعين، وكذلك الجيش والشعب. هكذا أراد الانكليز بعد أن انتصروا. هذا المجلس العرفي أكبر دليل على صحة تفسير الانكليز والمثلث لتلك المأساة. وسكت المجلس والزعماء، والمشايخ والعلمـاء وقبلوا بذلك التفسير، ولله في خلقه شؤون.

لو كنت أنا شخصياً من المؤمنين بفائدة ثورة رشيد عـالي كما أتت أو من المعتقـدين بضرورة التصادم المسلح مع الانكليز كما وقع، أو من الراضين المطبلين المزمرين، لما تألمت بل لقلت لنفسي هذا ايماني وهذه عقيدتي في خدمة بـلادي فلينتقم مني خصمي المنتصر الآن، ولكنت قد وجـدت بعض السلوى في العذاب في سبيل المبدأ وخـدمة الـوطن. ولكن وضعي لم يكن كذلـك. أنا مؤمن بلزوم الدفاع عن الوطن وكرامته ومقاومة الاستعمار وشروره وهذا حق من حقوق الانسان وواجب من واجبـاته. ولكني كنت ـ ولم أزل أعتقـد ـ أنني كنت عـلى حق. أعتقـد بـأن مصلحـة الـوطن وكرامته وصيانته كانت تقضي بأن يبق العراق وكذلك البلدان العربية الأخرى خارج هـذه الحرب الأوروبية التي ليس للعرب فيها ناقة أو جمل. فـإذا انتصر الحلفاء فلنـا معهم عهود، ولنـا عليهم حقوق يجب أن نأخذها، وإذا كان النصر للمحور فسيتبدل النظام العالمي وينقلب رأساً عـلى عقب وفي هذه الحالة يسعى العرب لنيـل حقوقهم. وإلى أن تنتهي الحـرب كان لـزاماً علينـا أن نحترم العهود والمواثيق. نأخذ ما لنا ونعطي ما علينا. لا نظلم أحداً ولا نرضى بـأن يظلمنا أحـد. سعيت كل السعي بأن أطبق هذه السياسة لوزارة رشيد عالي وكان الرئيس قـانعاً في بـادىءالأمر. ولكن كمـا بينت كانت الغلبـة لحماس المتحمسـين منا ولتسـويف المسوفـين من الانكليـز. هـذه نقطـة سيحللها التاريخ ويحكم فيها...

أما الآن فليس الوقت وقت تحقيق وتحليل. وإنما وقت انتقام وتهويل... فليضرب المثلث رأس

الحركة ويقضي على خصومه. وبما أن الانتقام الواسع الشامل يؤدي الى مخاطر فقد رأى الانكليز حصر الامر باعضاء الوزارة والقواد الأربعة. وبها تطمين للقلوب الحاقدة، وعبرة للمستقبل، وقضاءً على روح المقاومة للاستعمار.. وهل أحسن من هذا المجلس العرفي، وهذا المدعي العام، للقيام بهذه المهمة؟ وهل أحسن من هذه الوزارة لتنفيذ رغبة السفير والوصي؟..

وحاول كثير من المنصفين افهام السفير والوصي ورئيس الوزراء بالظلم الذي يحيط بقضيتنا وانه ليس من المروءة بأن نكون نحن «كبش الخطايا» في هذه المسألة العامة ولكن السفير كان يدّعي بأن هذه مسألة داخلية لا علاقة للسفارة بها بينما الوصي كان يرمي بالمسؤولية على أكتاف الوزارة المسؤولة وارشادات السفير، ونوري السعيد يتملص بحجة أن الأمور كلها صغيرها وكبيرها في يد البلاط. على أن الحقيقة كانت خلاف هذه المدعيات. فالمثلث كان متفقاً متسانداً والمسألة كانت مطبوخة ومقررة بينهم. فالمشورة العليا لا بد وأنها أتت من لندن عن طريق السفارة والتنفيذ مرّ عن طريق البلاد الى الوزارة. وهذا المجلس العرفي بشكله ورجاله انما هو الآلة الصماء لإنزال الضربات وتنفيذ الرغبات...



الشهود والشهادات

عندما انتهت المحكمة من استماع إفادات المتهمين وكنت أنا آخر من تكلم بدأت في الاستماع لشهادات شهود الاثبات وتلاوة شهادات من لم يستطع الحضور منهم. وكان كل هؤلاء الشهود قد أدلوا بشهاداتهم أثناء محاكمة الرعيل الأول فأخذت المحكمة تتلو الشهادات القديمة بحق المتهمين الأولين الذين صدرت الأحكام في حقهم ونفذت في بعضهم وهم رشيد عالي، ويونس السبعاوي، وعلي محمود الشيخ علي، وناجي شوكت، ومحمد حسن سلمان، وأمين زكي سليمان، وصلاح الدين الصباغ، ومحمود سلمان، وفهمي سعيد، وصديق شنشل. ثم تسأل الشاهد فيما إذا كانت لديه ملاحظات جديدة تتعلق بالمتهمين الحاضرين ثم يناقش المتهمون الشاهد. هذه طريقة غريبة في أصول المحاكمات... لكن كل شيء حول هذه المحكمة الخاصة كان غريباً وخاصاً بها. فالحكومة والمجلس العرفي ومن وراءهما كانوا يقصدون من ذلك أن القضية واحدة وبما أنه سبق للرعيل الأول أن حوكم بموجب هذه الشهادات فالرعيل الثاني يحاكم أيضاً على أساسها. ولكن المحكمة فشلت في محاولتها هذه لأنه إذا استثنينا قضية كامل شبيب فليس في الشهادات السابقة ولا الحاضرة ولا كلمة واحدة ضدنا بل بالعكس. إذ كانت إفادات شهود الاثبات كلها تؤيد أقوالنا وتعلن عدم علاقتنا، وعدم رغبتنا، وعدم رضائنا عن كل ما حدث. فكان الشهود كلهم الواحد تلو الآخر يشهدون لصالحنا نحن الوزراء المنضمين الى الوزارة بعد تصويت المجلس. وكانت المحكمة بالطبع غير مرتاحة لذلك وكذلك المدعي العام الذي صبغ اتهامه بأنواع الأكاذيب والأوهام. كنا نسمع من الرئيس عبد القادر الذي كان يحضر جلسات المحكمة بانتظام ويسجل كل ما يقال باهتمام ليرفعه مساء نفس اليوم الى الوصي. كنا نسمع منه أن الوصي نفسه كان مستغرباً من عدم مهاجمة الشهود ومن افاداتهم المتعددة في صالحنا. وكان الانكليز في نفس الوضع اذ يقدم لهم ترجمة الافادات لكل جلسة وممثلو الشرطة السرية كانوا يزودونهم بكل الأخبار ويحيطونهم علماً بكل صغيرة وكبيرة.

أما الشهود فكان من بينهم رؤساء وزارات كجميل المدفعي، وتوفيق السويدي، ونوري السعيد، وعلي جودت، ووزراء كأرشد العمري، وصادق البصام، ومصطفى ماجد، وأعيان ونواب كالسيد محمد الصدر، وصالح باش أعيان، وعدد كبير من كبار ضباط الجيش والموظفين. وقد سبق لهؤلاء أن أدلوا بشهاداتهم في المحاكمة الأولى ولم يذكرنا أحد منهم بسوء لا في المحاكمة السابقة ولا من حضر منهم الآن أثناء هذه المحاكمة، بل بالعكس إذ قال أكثرهم أننا لم نكن راغبين في الوزارة وإنما أدخلنا كرهاً وأننا حاولنا ايقاف الشر عند حدّه ولم نوفق بذلك ولم يهاجمنا أحد من الشهود.

هذا إذا استثنينا كامل شبيب لأنه كان رابع القواد وكان الحقد والكراهية والغضب متمركزاً ضده. مما جعله يتخبط في أمر دفاعه وبما أنه لم يستطع الحصول على محام يدافع عنه فقد استغلّ المجلس العرفي وضعه وكانت الاهانات والتحقيرات والمغالطات والاعتداءات تنهال عليه من كل جانب وصوب، فالرئيس يؤنبه ويسخر منه والمدعي العام يسمعه قارص الكلام والشهود

تهاجمه، فكان المسكين كالثعلب المحاط بسرب من الكلاب، فلا يرحمه أحمد ولا ينصفه منصف.

كان غرض المحكمة موجهاً بالدرجة الأولى ضد كامل شبيب. فالشهادات السابقة انما تليت من جديد لأن فيها ما يتعلق به، وأكثر شهود الاثبات شهدوا ضده وبعضهم هاجمه. وكان ارشد العمري أشدهم هجوماً وأقلهم مروءة نحوه بحيث أنه قال لبعض أصدقائه بعد المحاكمة مفتخراً ومغتبطاً «أنا جقّيتو حبلو» أي أنه جرّ حبل المشنقة. هكذا فعل الشهود والحكام لأنهم كانوا يكرهون كاملاً وكانت الرغبة العليا تريد ذلك. وكان الرئيس عبد القادر قد أبلغني بعد وصولنا الى «أبو غريب» بمدّة وجيزة أن الوصي عندما استلم كتاباً من كامل شبيب قال هازئاً: «كل هذه القصص لا تخلصه من المشنقة».. فكامل شبيب كان محكوماً عليه بالموت وما هذه المحاكمات الآ ستار مفضوح لمؤاساة تم تدبيرها من قبل. ومن أكبر أدلة سوء قصد المحكمة ما حدث أثناء المحاكمة عندما أصرت هذه اصراراً متكرراً على حضور السيد محمد الصدر للادلاء بشهادته ضد كامل شبيب. فأراد الصدر في بادىء الأمر التملص من الحضور وادعى بالمرض وغيره ولكن المحكمة ومن وراءها اقنعوه وألحّوا عليه فحضر. تلت المحكمة أفادته السابقة فأيدها ثم أخذ المدعي العام يحاول استدراجه بأن يشهد ضد كامل شبيب فلم ينجح إذ أصر الشاهد بأن ليلة الانقلاب، عندما ذهب الى وزارة الداخلية لمقابلة رشيد عالي رأى القواد الثلاثة ولم يرَ معهم كامل شبيب فهذا يؤيد ادعاء المتهم بأنه لم يشترك في المؤامرة. وقد أدى الحاج المدعي العام الى كلام قارص أسمعه اياه الصدر. هذا مثال واحد على «سلامة» المحاكمة. ومع هذا فإن الأمر كان، كما قلت وكررت، مدبراً سلفاً قبل عودتنا من افريقيا. وهذا التمثيل كان لاعطاء هذه المهزلة شكلاً شرعياً ليس الا. فكامل حكم وشنق ونحن حكمنا بما حكمنا به بالرغم من شهادات الشهود وفقدان الأدلة. اذ كيف يجوز أن يعتبر مجرماً من اشترك بوزارة أقرها مجلس الأمة. أين الديمقراطية إذاً؟ وأين حكم الشعب؟ إنها سلسلة مهازل.

بعد أن فرغت المحكمة من تلاوة الشهادات السابقة واستماع شهود الاثبات طلبت الينا تقديم قوائم بأسماء شهود الدفاع فقدم كل منا أسماء شهوده وهنا أيضاً ظهر غرض المحكمة وغدرها إذ أنها انتخبت قسماً من الشهود ولم تدع الآخرين ولما اعترضنا قررت وزارة العدلية أن للمحكمة حق الانتخاب في هذا الأمر الهام... وهذا دليل واضح جديد على قيمة هذه المحكمة الشرعية والاخلاقية...

أما أنا فقد قدمت قائمة بالأسماء التالية:

نوري السعيد	محمد الراضي	جودت سامي سليمان	أحمد زكي الخياط	الجنرال ونزهاوز
توفيق السويدي	محمد أمير ربيعة	فاضل رشيد	ذبيان الغبان	المستر لوكن
تحسين علي	أحمد شوقي	مدحت علي مظلوم	عبدالوهاب محمود	المس فريا ستارك
بهجت زينل	كامل الجادرجي	شفيق حداد	السفير البريطاني	الكولونيل بولوك
علي ممتاز	سليمان فتاح	نوري فتاح	الوزير التركي	المستر ادموندس
شاكر الراوي	حنا خياط	عبدالرزاق الأمير	الوزير البلجيكي	المستر سمث

وعدد من موظفي الخارجية.

وقدم كل من محمد علي ورؤوف قائمة بأسماء شهود الدفاع، ولكن المحكمة لم تجلب الى الشهادة الّا عدداً محدوداً فلكل واحد منا أربعة أو خمسة شهود فقط. وقد اعترض يوماً محمد علي محمود على هذا الأمر فأجابه رئيس المجلس العرفي الزعيم مصطفى راغب: «نحن نعرف كل شيء يا محمد علي باشا، ما الفائدة من كثرة الشهود؟ نحن نعرف أكثر من الشهود. حتى نعرف أنك يوم مراسم جنازة فون بلومبرغ هيجي سويت...» ومسح جبينه كالذي يمسح العرق من جبينه. وكان يقصد من ذلك أن محمد علي محمود كان حاضراً جنازة الميجر فون بلومبرغ الذي وصل بغداد أيام الحركات بطائرة وقتل أثناء تحليقه فوق بغداد برصاصة من المدافعين خطأً واعتقاداً منهم أن الطائرة كانت بريطانية... قال ذلك الرئيس ساخراً فخوراً كأنه واقف على الحقيقة من جميع وجوهها فلا يحتاج إلى شهود ولا الى أدلة. وكأن الاشتراك في مراسم جنازة هو من الأدلة القوية لتثبيت الاجرام. والرئيس مصطفى راغب كان أهون الجماعة شراً، وقد يكون أمتنهم أخلاقاً وأعزهم نفساً. فإذا كانت ذهنية الرئيس ومنطقه وعدالته هكذا فليت شعري كيف يكون الآخرون... كخليل أمين وعبد العزيز الخياط مثلاً؟

في كل يوم وفي كل لحظة كنا نلمس الشذوذ والفوضى والظلم والانتقام والجهل المحيطة بالمحكمة والمحاكمة. وكان ذلك أمرٌ يعلمه الجميع ولا يجهله أحد وكان أحسن من أبدع في وصف المحكمة والحكام هو رئيس الخفر الرئيس عبد القادر اذ كان دائماً يكرر أمامنا كلماته بالعربي الفصيح وبالقلم العريض قائلاً: «هذوله شنو هل المخانيث... هذوله مضاريط لا يحلّون ولا يربطون... الأمر كله بيد سيدنا الوصي... حتى الوزراء ورئيس الوزراء يخافون... وشيخ الخوافين وزيرنا... الباشا اسماعيل نامق... هذه كلها أمور صورية... الأمر والنهي بيد سيدنا وما حد يؤثر عليه غير الانكليز... الانكليز تمام! هذوله يقدرون يشيلون ويحطون...».

هكذا كان الوضع الحقيقي وما عدا ذلك فهو عبارة عن أشكال وتمثيل... أما الأدوار التي كان يمثلها رئيس المحكمة وأعضاؤها والمدعي العام فكانت تدل على استعداد المرء على خداع نفسه ومن حوله ثم القيام بأوسخ الأعمال والتظاهر بأنها أعمال جبّارة. ولكن مهما كان الأمر، فالمحكمة كانت تتصور أنها محكمة والحكام بأنهم حكام والمدعي العام بأنه بطل هذه المؤامرة والوزراء والأمراء والزعماء والعلماء والشيوخ والأبطال وسواد الناس كلهم كانوا يعلمون بهذه المؤامرة ولكنهم كانوا ساكتين صامتين خائفين ووجدوا أنه من الأسهل قبول ذلك التمثيل والاعتراف به والتزلف الى مدبّريه لأن القوة كانت في جانبهم والمنافع في مخيمهم. أما الكرامة والشرف والمروءة فهذه أمور نسبية.. في الأمس كانت مع رشيد عالي واليوم مع عبد الاله والانكليز. أما أن الساكت عن الحق شيطان أخرس فهذه أيضاً مسألة نسبية ففي الأمس كان الحق مع رشيد ولكنه اليوم مع كورنواليس... وكان الشرف في الأمس لدى «المربع الذهبي»، أما اليوم فهو لدى «المثلث المختلط».

ومن الأدلة الواضحة على كون هذه المحكمة لم تكن الّا مهزلةً وآلةً حديث السيدة عصمت، زوجة صباح نوري السعيد. فقد قابلت وداد عصمت يوماً قبل بدء المحاكمة بمدة وكنت إذ ذاك لم أزل في «أبو غريب» قبل استقالة نوري باشا. وجاءتا بالطبع على ذكري فقالت السيدة عصمت لوداد ما فحواه: «قولي لموسى بك وهو الرجل العاقل الذكي بأن يدبر أموره وينقذ ما يمكن انقاذه

ويخلص ما يمكن تخليصه. هذه هي أمور الدنيا ولربما تأتي حكومة أخرى يوماً فتعيد ما تصادره هذه الحكومة. يجب على الإنسان أن يحتاط وينظر الى البعيد». فلما أتت وداد الى «أبو غريب» كانت مضطربة ولم تأكل شيئاً معي على الغداء. وبعده قصت عليَّ الخبر فتألمت وتأكدت بأن تشاؤمي منذ البداية منذ سفرنا من سالسبري كان محقاً. وكلام من هذا المستوى صادر عن السيدة عصمت له مغزاه ومعناه إذ لا شك أنها فهمت الأمر عن طريق صباح أو والده نوري باشا. وهذا منبع متصل بأوثق الصلات بالوصي والانكليز ونوري باشا ضلع فعّال «في المثلث» فإن لم يكن هو شخصياً مدبر هذه الأمور فإنه بلا شك شريك المدبرين. وأنه فوق ذلك خير المنفذّين... ولما استقال نوري السعيد وحل حمدي الباجه جي مكانه وجدت الوزارة الجديدة وهي مجموعة من الجبناء والخبثاء والسخفاء، ان المؤامرة قد دبرت بصورة محكمة وأن المثلث قد وضع الأسس وحدد الحدود وأقر الأحكام. كنا نعلم بكل هذا ولكن الانسان يؤمل ويؤمل ويؤمل. فكنا أحياناً نعلق الآمال على شرف حمدي الباجه جي أو طيبة قلب محمد حسن كبه أو نزاهة أحمد مختار أو صداقة ابراهيم عاكف الآلوسي. أو عدالة بعض الحكام. أو وسعة صدر الانكليز.. أو نجابة أصل الوصي. أو كرامة الرجال والزعماء. كنا نعلق الآمال هكذا أحياناً على «كرامة» الانسان ونتناسى بأن هذا المخلوق في كل أنحاء العالم ما هو إلّا ذئب، والفرق ما بين أفراد البشر هو الفرق بين الذئب الهائم والذئب النائم. وقد أفزعت حركة رشيد عالي التي لم يكن لها محل من الاعراب الذئاب الهائمة منها والنائمة ولما خسر رشيد المعركة عادت الذئاب تكشر عن أنيابها وتطلب الافتراس والانتقام. ولم يشف غليلها الانتقام السريع والحكم السريع والشنق السريع قبل عامين. ولم تكتفد بما هدمت وحطمت ويتمت ورمّلت بل إنها تريد المزيد لا سيما ورشيد عالي لم يزل هو والمفتي وجماعتهما أحراراً طلقاء يسبّون ويشتمون ويفضحون ويهزأون من محطات الاذاعة الالمانية... إذن فلننتقم ممن سلّموا أنفسهم إلينا ملتمسين العدل... معتمدين على الحق والديمقراطية. ولنصب جام غضبنا على رؤوسهم فنشنق منهم من نريد ونحبس منهم من نشاء ونصادر أموالهم وأملاكهم ونسلب منهم حقوقهم وكرامتهم ونحط من مكانتهم الاجتماعية ونذلّهم ونقضي عليهم وعلى أولادهم وعائلاتهم ليكونوا عبرةً ودرساً للمستقبل وليكونوا سلوى لنا من المنتصرين. نحن الذين أوشكنا أن نخسر ونذهب مع الذاهبين. أما أن في هذه الأعمال ظلماً واعتداءً. فليكن.. أليس الظلم من شيم النفوس؟ وما ضرر التعذيب والاعتداء والظلم إذا أدى الى تطمين شهوات الانتقام وارضاء المفترسين. اذن لتحكم المحكمة باسم صاحب الجلالة... أو باسم «المثلث» ومن بعد «المثلث» الطوفان.

استمر تمثيل الدور الرئيسي لهذه المأساة ما يقارب الشهر ونصف الشهر وهو دور استماع الشهود وتلاوة الشهادات والأوراق. وكنا نحضر مرتين في الاسبوع كل سبت وكل أربعاء. كانوا يأتون بزملائي في سجن «أبو غريب» ويأخذوني من المستشفى فنلتقي في معسكر الوشاش وهناك ننتظر في الغرفتين الصغيرتين حتى يحضر الحكام والمدعي العام والشهود. فتبدأ الدراما وتنتهي وقت الغداء فيعود كل منا الى محل توقيفه بنفس الطريقة التي جيء بها.

ليس هنا محل تفصيل وتحليل المحاكمة والشهادات ولذا فإنني أكتفي بما قاله حولي شهود الاثبات والدفاع لتحصل فكرة واضحة لدى من يقرأ هذه الأسطر.

(١) مناقشة ماجد مصطفى: في ٣ أو ٤ تموز ١٩٤٤:

س: هل يتذكر ماجد بك عندما حضرت الى العمارة في زمن وزارة طه الهاشمي وكان هو متصرفاً للعمارة؟

ج: أتـذكر أنـه جاء الى العمـارة وبقي يومـين أو ثلاثـة أيام. اجتمعنـا مرتـين أو ثلاث مـرات بمناسبة الولائم التي أقيمت له.

س: هل يتذكر الشاهد عندما كنت في العمارة أنني قمت بدعاية ضد وزارة الهاشمي؟

ج: لم يقم بأية دعاية وإنما كان مستاءً من الوضع العام ولا سيما من السيطرة العسكرية ومن نتائجها. ولم أجد لديه رغبة في الدخول للوزارة ولا رغبة في الاشتغال بالسيـاسة وكـان دائماً يبـدي أسفه لعدم امكان الاشتغال بالسياسة لعدم امكان الاصلاح.

(٢) السيد سلمان الشيخ داود:

حضر المحكمة في نفس اليوم السيد سلمان وشهـد لصالـح محمد عـلي محمود وقـال أنه كـان خائفاً وأنه لم يكن راغباً في دخول الوزارة. ولم تكن شهادته قوية كما كان يتأمل محمد علي.

جلسة ٤٤/٧/٥

(٣) حسام الدين عبد الجبار:

شهد بأننا نحن الوزراء كنـا متذمـرين وأردنا الاستقـالة في شهـر مارس فلم نتمكن خـوفاً من الجيش ورشيد. وحتى في ايران ما عدا رشيد والسبعاوي كانوا متذمرين وفي حالة يأس.

(٤) أمين زكي سليمان (رئيس اركان الجيش اثناء حركة رشيد عالي):

أحضر الى المحكمة مخفوراً وبلباس سجين عادي إذ كان قـد حكم عليه المجلس العـرفي بخمس سنوات مع الرعيل الأول. شهادته كانت تخص كامل شبيب وتلقي عليه بعض اللوم.

(٥) العقيد أيوب صبري:

بعد تلاوة افادته السابقة أيدها، يتهم كامل شبيب باشتغاله بالسياسة.

جلسة ٤٤/٧/٨

(٦) حسيب الربيعي (من ضباط الجيش).

شهادته حول التدابـير العسكريـة التي اتخذت من قبـل الجيش عند الانقـلاب الذي أدى الى استقالة وزارة طه الهاشمي. افاداته كلها حول كامل شبيب.

(٧) الرئيس صادق ابراهيم (من ضباط الجيش):

افادته السابقة فيها ما يخص كامل شبيب وقواد الجيش.

(٨) عبد الجبار حلمي (من ضباط الجيش).

شهادته تخص القواد والجيش. تلا بعدها افادتين لضابطين آخرين.

جلسة ٤٤/٧/١٠

(٩) صادق البصام:

بعد أن تليت افادته السابقة أخذ رؤوف البحراني يناقشه فشهد له شهادة طيبة وأكد بأنه كان من المستقيلين من وزارة رشيد علي المرقعة وأنه عندما كُلف بالاشتراك في الوزارة الأخيرة لم يوافق واختفى في دار ابراهيم البحراني لمدّة ثلاثة ايام وانه كان مستاءً الخ... وبعد ذلك أخذ محمد علي محمود يناقش الشاهد وهنا أيضاً شهد صادق البصام بأن المتهم كان خائفاً ومتذمراً ولكن عندما سأله رئيس المحكمة لماذا لم يدخله رشيد بوزارته بدلاً من أن يدخل المتهمين كرهاً تحمس صادق وغلب عليه الغضب ضد رشيد فأفاد بما لا ينفعنا ولا يتفق مع حقيقة الوضع فقال: «أن مجلس الوزراء كان منقسماً الى قسمين. قسم يقال انه وطني والقسم الثاني من الانكليز.. وكنا نحن من قسم الانكليز.. ولهذا لم يكن مطمئناً الينا وأصبحنا غير مرغوب فينا ولو كنت من المرغوب فيهم لكان كلفني وأدخلني في وزارته كما أدخل المتهمين» وهذه الافادة ليست في محلها لأن العالم كله يعلم أن رشيد كان يعتمد على صادق أكثر من اعتماده على محمد علي محمود مثلاً. نعم يحق لصادق البصام أن يغضب على القواد الذين أبعدوا وزارة طه الهاشمي عن الحكم وكان هو عضواً فيها ولكن لا يحق له أن يفسر ذلك الحادث بأنه هو لم يكن من المرغوب فيهم وكنا نحن المرغوبين.

ولما أتى دوري ناقشته كما يلي:

س: أرجو من الشاهد أن يبين ما لديه من معلومات وكيفية دخولي الوزارة المرقعة.

ج: بعد أن اطلعنا على رأي رشيد الذي يستند الى قوة الجيش ورؤساء العشائر رغبنا أن يحل محلنا عناصر تستطيع أن توقف الشر عند حده. وعندما كلف موسى الشابندر استشار جماعة ومن جملتهم طه واستشارني شخصياً وكلنا أجمعنا على ضرورة دخوله في هذه الوزارة علّه يستطيع ايقاف الشر لأن اعتمادنا عليه كان نتيجة اعتقاد في ميوله الطيبة. عندما حصل اصطدام مسلح بين الجيش والحكومة وكان قد قام به كل من حسين فوزي وأمين العمري كان رجال السياسة وفي طليعتهم نوري وعمر نظمي قد أجمعوا على ضرورة ادخال موسى في الوزارة التي كان يتصور أن تستند الى الصدر وكان سمو الوصي مطلعاً على ذلك القرار.

س: هل سمع الشاهد بأنني قمت بدعاية ضد وزارة الهاشمي أو انني هيّجت الرأي العام ضدها؟

ج: كلا! بالعكس شاهدنا منه التأييد وكان طه رأيه أن يسند منصب مدير الخارجية العام له ولكنه رفض مرجحاً الاستراحة والذهاب الى مصر على الاشتغال في الادارة والسياسة وهذه الرغبة بيَّنها الى نوري باشا أيضاً.

س: هل يعلم الشاهد انني أدخلت في وزارة رشيد خلافاً لرغبتي وكم حاولت أن أتخلص منها؟

ج: كنت قد عرضت موقفه موقف الخائف المشمئز. وكان قد صرح وخاصةً بعد الاصطدام انه اعتزل وزارة الخارجية وأخذ رشيد عالي يزاولها بنفسه إلى أن هرب إلى ايران.

س: هل يتذكر الشاهد عندما زار الخارجية يوماً كيف كانت الأمور تمشي ومن يديرها؟

ج: عندما ذهبت إلى الخارجية يوماً وجدت بالغرفة المقابلة لغرفة الوزير موسى الشابندر ومحمد علي محمود ورؤوف البحراني وقال لي موسى أنه اعتزل الشغل وان وزير الخارجية الحقيقي هو رشيد.. فذهب بي إلى غرفة المدير ففتحت الباب الموصل إلى غرفة الوزير ووجدت أسعد الفقيه ورشيد عالي يتحدثان وبعده أتى رشيد عالي الينا فكلمناه أنا وموسى حول الوضع الخطر فنهرني ونهرنا مبيناً أن ذلك يعود للجيش...

س: عندما حاصر الجيش الحبانية اخبرت الكثيرين من أصدقائي ومن جملتهم صادق بـك بأن ليس لي علم بما حدث وأنني احتجاجاً على ذلك قدمت استقالتي ورفضها رشيد...

ج: ان اشمئزاز المومى إليه كان قبل التصادم وبعده وكان مصراً على الاستقالة...

(١٠) عبد الجبار امين (سكرتير مجلس الوزراء ايام رشيد):

تليت شهادته السابقة فأيدها وناقشه محمد علي ثم رؤوف البحراني وقـال عن هذا الأخـير أنه لم يكن راغباً في الوزارة. شهادة معتدلة دافئة... لا تنفع ولا تضر..

جلسة ١٢/٧/٤٤

(١١) نور الدين محمود (من كبار ضباط الجيش ـ مدير الحركات أيام رشيد):

تليت شهادته السابقة وأكثرها يتعلق بأمور الجيش والقواد فأيدها ثم ناقشه محمد علي وكـانت خلاصة شهاداته انه لا يتحضر كل شيء وأن محمد علي ومـوسى الشابنـدر كانـا من المعتدلـين أثناء اجتماعات مجلس الدفاع الأعلى وأن محضر الجلسات هو المرجع الأصح لكـل ما حصـل هناك ومـا قيل. وأن المندفعين كانوا رشيد عالي ويونس السبعاوي وصلاح الدين.

ثم وجهت اليه سؤالاً فأجابني هكذا:

س: أرجـو من الشاهـد أن يبين وضعي ومـوقفي في الجلستين الأخـيرتين من مجلس الـدفـاع الأعلى إذا كان يتذكر ذلك.

ج: كما بينت سابقاً ان محور الحركات هو رشيد وأصحابه وان المتهم هـو من قسم المعتدلـين. وتوجد مادة في محضر مجلس الدفاع الأعلى. الفقـرة الأولى مدوّنـة سهواً تحت اسم صـلاح الدين والحال انها تعود الى السائل (موسى الشابندر) وسترسل اليكم مديرية الحركات كتاباً بذلـك. وسبب بياني هذا الآن، أن ضابط الركن رفيق عارف هو الذي رجا مني أن أقول ذلك.

وهنا استغربنا كلنا في هذه الافادة لا سيما وأن هيئة المحكمة والمدعي العام كانوا يستندون الى محضر مجلس الدفاع كأنه آية نازلة من السماء لا تقبـل التبديـل والتحويـل ولا التفسير والتـأويل فشهادة نوري الدين محمود كان مديراً للحركات وحاضراً تلك الجلسات بأن كـلاماً قلتـه أنا أثنـاء احدى الجلسات دوّن سهـواً تحت اسم صلاح الـدين الصباغ فتحت أعيننـا كلنا حـول قيمة ذلـك المحضر الذي يمكن أن تقع فيه مثل هذه الأغلاط... وطلبنا بأن تقرأ تلك الفقرة المذكورة. فتليت:

«يجب أن لا نفكر بوجـود سوء النيـة لدى الانكليـز تجاهنـا... إن القوة العـائدة لهم لا تكفي لاحداث الخطر في البلاد لذلك علينا أن نطمئنهم ونوافق للسعي على تحسـين العلاقـات بيننا وبينهم وأن نطلب إليهم إخبارنا عند جلبهم القوات قبل مدّة كافية».

وكانت هذه قنبلة في المحكمة. لأن المدعي العام كان قد اتهمني بـأنني أنا الـذي هيجت القواد ببياناتي أثناء اجتماع مجلس الدفاع... فتحير الرئيس والاعضاء وتلعثم المدعي العام... وسررت أنا بأن الصدف تؤيد قولي وادعائي بأنني لم أعمل الاّ في سبيل التقارب ودفع الشر عن البلاد...

وعندما عدت الى المستشفى ذلك اليوم وأتاني الـدكتور سنـدرسن قصصت عليه هـذه القصّة. فابتسم ابتسامة فيها شك وقال انه مسرور لظهور الحقيقة.

ان مثل هذه الحقيقة تكفي لدحض مـزاعم عبد العـزيز الخيـاط ومن وراءه وتكفي لتبرئتي من تلك التهم العجيبة، هذا لو كانت هناك محكمة وحكومة ديمقراطية وعدالة. واعتقدت بأن ظهور هـذه الناحية من الحقيقة ستفيدني وقد شاركني المحامون وكل من سمع بهذه القصة بالتفاؤل.. ولكن مع

الأسف دلت الأيام أن كل ما قيل في المحكمة كان هواء في شبك وأن الأمر قد دبر وتقرر قبل المحاكمة الصورية هذه.

جلسة ٤٤/٧/١٥

(١٢) رفيق عارف (من ضباط الجيش):

شهادته مهمة لأنها تتعلق بجلسات مجلس الدفاع الأعلى وضبط المحاضر وقد أكد بأنه في جلسة ١٧ نيسان١٩٤١ كان وزير الخارجية أول المتكلمين وأنه حصل سهواً باسناد أقواله إلى صلاح الدين وكرر بأن موسى الشابندر قال يجب تطمين الانكليز وتحسين العلاقات... وأن أكثر المتحمسين كان رشيد ويونس وصلاح الدين. ثم ناقشه محمد علي ولكن الشاهد أصرّ بأن الموجود في جلسة ٢٩ نيسان كان هو محمد علي وليس علي محمود. ثم القيت أنا عليه بعض الأسئلة هكذا:

س: كيف كانت تضبط الافادات في المجلس؟ هل يدون الكلام حرفياً أو المضمون؟

ج: كان في الامكان أخذ الافادة حرفياً عند الكلام.. ولكن عند المناقشة يترك الضبط.

س: أفاد الشاهد بأن قسماً من الكلام كان مقطعاً فكيف تضبط الافادة حرفياً إذا كان الكلام مقطعاً؟

ج: إذا صار في الجلسة ضوضاء فلا يمكن أخذ الافادات..

س: هل يدوَّن الضبط في دفتر خاص أو على أوراق متفرقة؟

ج: يدوَّن على أوراق متفرقة أثناء الجلسة وبعد الجلسة يقوم عادة سكرتير المجلس بطبعه وإدخاله في الاضبارة كما جرى منذ سنة ١٩٣٩. وبهذه الجلسة كان السكرتير غائباً فأعطي محضر الجلسة له لإدخاله في الاضبارة بعد عودته.

س: يفهم من الافادة المصححة التي كانت مسندة إلى صلاح الدين والتي أتت كأول افادة في جلسة ١٧ نيسان، يفهم منها أنه كان هنالك متكلمون قبلي والدليل اني قلت: لا يجب أن لا نتهم الانكليز بسوء نية فهل يتذكر الشاهد من كان المتكلم قبلي؟

ج: إني أتذكر ذلك جيداً. حيث بدأ رشيد بالسؤال من وزير الخارجية وطلب إليه البدء بالكلام نظراً لعلاقة الموضوع بوزارة الخارجية.

س: ورد في افادة الشاهد ذكر محمود الدرة كسكرتير إلى مجلس الدفاع فهل استمر المشار اليه بواجباته الأصلية في مديرية الحركات أو الجيش لفترة ما بعد تأليف وزارة المدفعي؟

ج: بقي حوالي الشهر في وظيفته ثم انفصل.

في هذه الافادات ما يجعل محاضر مجلس الدفاع عبارة عن قصاصات ورق مبعثرة يجوز فيها التبديل والتحوير والاضافة والطي. وليست كوثائق مصانة محفوظة موقع عليها يمكن الاستناد اليها في قضية هامة وتهمة يعاقب عليها بالموت والسجن المؤبد. ولكن المحكمة بقيت مصممة على قدسية تلك الأوراق أو بالأحرى بالقسم الذي لا يمكن أن يكون لصالح المتهمين مثل افادتي التي دونت سهواً باسم صلاح الدين فإنها أهملت تماماً ولم يستفد منها أحد. لا القائل الأصلي ولا الشخص المسندة اليه.

(١٣) محمود شويليه (سكرتير مجلس الأعيان ايام رشيد عالي):

تليت افادته السابقة. ثم ناقشه رؤوف البحراني فأفاد بأنه سمع بأنه أدخل في الوزارة كرهاً. أثناء حديثه ذكر بدون مناسبة ولوجه الله تعالى بأنه أتى يوماً الى رئاسة مجلس الوزراء أيام حكومة

الدفاع الوطني ولما دخل في الغرفة التي كان يشغلها يونس السبعاوي إذ ذاك وجد مع يونس موسى الشابندر وأرشد العمري... وهنا كرر هذه العبارة المدعي العام وأدخلها في الافادة كأنه عثر على دليل نادر للادانة. فكأنما مجرد زيارة رشيد أو يونس في تلك الأيام هو جريمة ولكن عدد الزائرين والوفود كان لا يحصى ولربما كان المدعي العام في المقدمة.

جلسة ٤٤/٧/١٨

ارشد العمري (وزير الخارجية):

بعد أن أيَّد افادته السابقة أخذ رئيس المحكمة يلقي عليه بعض الأسئلة فأجاب مهاجماً كامل شبيب هجوماً عنيفاً وقال أن الأزمة الأخيرة حصلت لأن كامل لم يطع أمر وزير الدفاع ورفض الذهاب الى الديوانية وقال عن الشريف شرف أنه كان معه في الغرفة المخصصة له يوم اجتماع المجلس وتنصيبه وصياً وأن الشريف كان متأسفاً على هذه الحالة ومغلوباً على أمره. ولما سأله عن الوزراء الثلاثة المتهمين قال:

«لا أعرف كيف انضموا إلى الوزارة ولكن رؤوف البحراني كان أساساً في الوزارة التي قبلها فبقي وما أعرف هل له صداقة مع رشيد عالي وكذا محمد علي. أما موسى بك الشابندر فصادفته في الأيام التي سبقت حكومة الدفاع وشاهدته في محل حسّو إخوان وقلت له: الحالة تنذر بالخطر ولك اتصال بالجماعة ويجب أن تعمل حسبما تتمكن لتهوين الحالة. وهو كما هو معلوم رجل طيب وهادي وعاقل فتألم وقال لي «أحب كثيراً أن لا تتطور الأحداث ولكن هناك متطرفون فالسبعاوي وعلي محمود ناوين خطة شديدة ومع هذا سأعمل بكل ما لدي من وسائل لتهوين الأمر إذا تمكنت».

وبعدها أخذت أناقش ارشد العمري كما يلي:

س: هل يتذكر الشاهد أنني قمت بدعاية ما ضد وزارة الهاشمي أو ضد أي شخص آخر أيام وزارة الهاشمي. فبصفته أميناً للعاصمة إذ ذاك ومطلعاً على ما يجري في العاصمة أرجو أن يتفضل ويبين ما لديه من معلومات حول هذا الأمر؟

ج: ليس لدي أية معلومات أو دلائل تدل على أن موسى الشابندر يشاغب أو يعمل على اسقاط وزارات بل اذكر له موقفين. الأول عندما دخل وزيراً للخارجية مع رشيد في الوزارة المرقعة فكان عند زيارتي له مملوءاً بالأمل بأن يتمكن أن يصلح بواسطة دخوله الوزارة ذات البين وأنه سيكرس الوزارة بعد تأليف ذات البين وتهدئة الخواطر إلى أعمال اصلاحية خيرية للمملكة. والمقصود من تأليف ذات البين بين الوزارة وسمو الوصي. والموقف الثاني أنه آكد لي بعد قبوله منصب وزارة الخارجية في الوزارة الثانية نفس التأكيدات تقريباً...

س: ما كان وضعي تجاه تطبيق المعاهدة؟

ج: ليس لي معلومات حول ذلك...

(١٥) صالح جبر (وزير المالية):

أيد شهادته السابقة، وبعد أن أجاب على أسئلة رؤوف ومحمد علي صرت أناقشه بالشكل التالي:

س: أيام وزارة طه الهاشمي في طريق عودتي من العمارة إلى بغداد بقيت في البصرة ما يقارب الأسبوع للاستراحة، وكان إذ ذاك الشاهد متصرفاً في البصرة، فتقابلنا أكثر من مرّة فهل سمع معاليه مني أو بلغه عني أنني قمت بدعاية ما ضد وزارة طه الهاشمي أو ضد أي شخص آخر أثناء بقائي في البصرة؟

ج: كلا لم أسمع بأية دعاية من قبل المتهم ضد الحكومة القائمة آنذاك كما أني لم أسمع منه انتقاد أي شخص وكنت كثير الاجتماع بالمتهم عندما كان نزيل البصرة وكانت الأحاديث التي تدور بيننا اعتيادية تماماً لا علاقة لها بالسياسة بصورة قطعية.

س: هل يتذكر الشاهد انه صادف أن عدنا الى بغداد في نفس القطار ودار حديث بيننا حول مداخلة الجيش في السياسة فأرجو من معاليه أن يبين ما يتذكر من أقوالي؟

ج: إني آسف لأني لا اتذكر جيداً الأحاديث التي دارت حول الجيش ولكن الجيش آنذاك كان حديث الناس فمن الجائز جداً أنه انتقد تدخل الجيش بالسياسة واني شخصياً لا أستكثر عليه هذا التفكير.

س: بعد أن هربت من بغداد تخلصاً من رشيد وتصرفاته وذهبت الى طهران نزلت نفس الأوتيل الذي كان يسكنه الشاهد فتقابلنا عدة مرات. هل يتذكر معاليه ما بينته حول الوضع؟

ج: نعم أتذكر ذلك جيداً وقد سمعت منه في مناسبات متعددة شكواه من تصرفات رشيد عالي وعدم ارتياحه، كما أنني سمعت بأنه قبل أن يتردى وضع رشيد حاول هو والمتهم الآخر محمد علي محمود الفرار من بغداد وقد حالت الشرطة دون ذلك وأعيدا من خانقين... وكنت ألاحظ من وضع المتهم أنه غير مرتاح في الحقيقة من وجوده كمسؤول في وزارة رشيد...

جلسة ٤٤/٧/١٩

(١٦) عبد الجبار التكرلي
(١٧) انطوان شماس شهود دفاع طلبهم رؤوف البحراني
(١٨) حسن رضا

شهد كل منهم في صالح رؤوف البحراني وخلاصة الشهادات أنهم كانوا واياه في مجلس الانضباط عندما طلبوه بالتلفون وكلفوه بالوزارة وأنه كان غير راغب ومضطرب والقى عليهم محمد علي بعض الأسئلة فأجابوه بما يريد مؤكدين حسن سيرته. على أنه كنا نشاهد على وجوه هؤلاء الشهود آثار الخوف والارتباك فكانوا صفر الوجوه ناشفي الحلوق مبحلقي العيون. مع أن المطلوب منهم هو قول الحق ليس الاّ. وكان حسن رضا أكثرهم خوفاً وتردداً وكان يتكلم ببطء كبير كأنه يزن كل كلمة وكل حرف.. وندمت بأنني طلبت منه أن يقول ما لديه عني بالنسبة الى المعرفة السابقة بيننا. فنظر الى اليمين وإلى الشمال كمن يستنجد من الهلاك ثم أخذ يقول كلمة وينتظر برهة من الزمن فينطق بأخرى. كان عهدي بهذا الرجل أنه يمثل حسن الخلق وحب العدل ولكن في موقفه أمام المحكمة كان مثال الجبن والمذلة فقال وهو يبلع ريقه ويمسح عرقه:

ج: إني أعرف موسى الشابندر بسبب ترددي الى بيت والده المرحوم وبعدئذٍ كنت أراجعه في بعض قضايا تخص **جمعية التفيض** وكان يبدي المساعدات والتمس فيه شعور الانسانية...

وعندما سأله الشريف شرف وقع بنفس المشكلة وبقي صامتاً حائراً في أمره إلى أن نبهه صديقه المدعي العام. ففاه ببعض الكلمات العامة. ولما كرر الشريف شرف سؤاله أنقذه المدعي العام قائلاً بأن حسن رضا بك لا يشتغل بالسياسة وليس لديه معلومات حول هذه المواضيع... وهكذا بان وضع هذا الرجل التقي النقي وهو أحد أبطال القضاء العراقي.. فكان خيراً له ولنا بأن لا يأتي الى المحكمة ولا يكلف بهذه الشهادات الباردة فيفضح للملأ جبنه وتردده وتملصه عن كلمة الحق. وقد لعب حسن رضا هنا دور الشيطان الأخرس أو بالأحرى دور الملاك المزيف. والله يخلق ما لا تعلمون.

انتهت هذه الجلسة بتلاوة إفادة محمود سلمان، أحد القواد الأربعة وكان أحد المشنوقين بعد المحاكمة الأولى. وللافادة علاقة بكامل شبيب فقط.

جلسة ٤٤/٧/٢٢

(١٩) حسام الدين جمعة (امين العاصمة):

تليت افادته السابقة فـأيدهـا. وبدأ محمـد علي محمـود بمناقشتـه ثم أعقبه رؤوف البحـراني وشهد لهما بصورة مختصرة. وأجاب على اسئلتي هكذا:

س: أرجو من الشاهد أن يبين ما لديـه من معلومـات حول ادخـالي وزارة رشيد ومـوقفي تجاه تصرفاته وعندما كان يحضر الخارجية كيف كان يرى الوضع ومن القابض على الأمور؟

ج: لا أعلم عن كيفية دخوله للوزارة، وكل ما يمكنني أن أقول هو أني عندما ذهبت مرة ومرتين لوزارة الخارجية بحكم واجبي كنت أرى رشيد وهو جالس على كرسي الوزارة وهو في غـرفة مجاورة. وسمعنا أيضاً أنه ذهب مع السيد محمد علي محمود الى خانقين لغرض التخلص، كل ما أعرفه عنه هو هذا والقصد من التخلص هو التخلص من مركز الوزارة والهروب منه.

س: هل يتذكر الشاهد أن جواز سفري بقي لديه مدة محجوزاً فبأمر من كان ذلك؟

ج: أنا لا أتذكر بحجز باسبورت موسى الشابندر وقد بينت بأنه لا يمكن اعطاء الجواز إلا بأمر من رشيد ويجوز أن يكون جوازه كان متأخراً حتى صدور الأمر.

هكذا كانت شهادة حسام الدين مدير الشرطة العام أيام رشيد عالي وساعده الأيمن...

ان قضية حسام الدين كانت ولم تزل لغزاً من الألغـاز وسراً من الأسرار.. كـان اعتماد رشيـد عالي على حسام الدين اعتماداً كاملاً شاملاً وأخبرني رئيس الوزراء يوماً بأنـه كان ينـوي تعيينه في منصب في وزارة الداخلية ولكن حسام الدين اعتذر قائلاً بأن الشرطة مهمة ولا يجوز تسليمها إلى يد غير يده. وكان رشيد يعزّه ويكرّمه ويستشيره. ويطمئن اليه. ولما تطورت الأحوال ودب الخـلاف بين الرئيس ويونس وصلاح الدين أصبح حسام الدين بالنسبة إلى رشيد عـالي الساعـد الأيمن والأيسر والقوة الوحيدة التي يستند اليها. وكانت الشرطة تشترك بالجهاد وتتعاون مع المجـاهدين وسيـارات الشرطة هي التي حاربت في الرطبة تحت امرة فوزي القـاوقجي وكان حسـام الدين يصـدر الأوامر ذات اليمين وذات الشمال وكان بعد رشيد الكل في الكل. ولما انهارت الحركـة وهرب رشيـد والقواد استغربت كثيراً من بقاء حسام الدين وتضاعف استغرابي بأنـه لم يتهم بشيء. عندمـا اتهمنا نحن لأن مجموع ما قمنا به من الأعمال نحن الوزراء المعتدلين لا يعادل عشر ما قام به حسام الدين. ثم نحن تركنا رشيد وهربنا عندما انقلب علينا ولم يصدق معنا وبقي حسام الدين مخلصـاً له مـلازماً اياه في السراء والضراء، ورشيد كان يقدر هـذا الاخلاص الكـامل فجعلـه موضـع الأسرار. ولكن لما انتهت المعمعة واتهم الناس وحوكموا وشنقوا وسجنوا واعتقلـوا وشردوا، وأكثرهم إن لم أقـل كلهم بلا ذنب، بقي حسام الدين طائفاً فعينوه مديراً عاماً ثم أميناً للعاصمـة، وها هـو الآن أتى للمحكمة شاهداً. وهو يقول أنه أتى مرة أو مرتين إلى الخارجية! والمحكمـة تصدق هـذا والحكومـة والسفارة والبلاد والمثلث وحواشيه تعتمد عليه وتعزه وتكرمه!

ترى ما هذا السرّ العجيب؟

يقال أنه كان طوال الـوقت متصلاً بـالانكليز ويلعب عـلى الحبلين. ومن سـوء حظ رشيد وقلـة ادراكه أنه أحاط نفسه بأناس لا يرغبون في الاشتـراك معه فـأساء اليهم بعنـاده واصراره وآخرين يخدعونه ويمكرون عليه فاطمأن لهم وفتح قلبه ودماغه لهم ففشل مع هؤلاء وأولئك وكان العوبة بين أيدي اللاعبين.

(٢٠) جلال خالد (متصرف بغداد ايام رشيد):

تليت افادته السابقة فـأيدهـا. وبدأ محمـد علي محمـود بالمنـاقشة ثم بـدأت أنا بـالقاء بعض الأسئلة فأجاب بما يلي.

س: ارجـو من الشاهـد أن يبين مـا لديـه من معلومـات حول ادخـالي الوزارة ومـوقفي تجـاه الأوضاع والتصرفات التي حصلت؟

ج: عندما كـان رشيد عـالي يجلس في وزارة الخارجيـة ما كنت أشـاهد مـوسى الشابنـدر معه بالغرفة بل انما كنت أشاهده وحده وكان ذلك قبل الاصطدام المسلح ولما كنت أصادف موسى بـك في غرفة أخرى ما كنت أشاهد عليـه دلائل الارتيـاح ولا أعرف كيف أدخـل للوزارة وكنت أسمـع عن موسى الشابنـدر أنه لم يكن راضيـاً بدخـول الوزارة الأولى فمن بـاب الأولى أنه لم يكن راضيـاً في الثانية.

ويجب أن أقول كلمة حول جلال خالد. كـان دائماً يـأتي للخارجيـة مع حسـام الدين بصفتـه متصرف بغداد وكانت التعليمات تصدر اليهما من رشيد فيقوما بالتنفيذ، وكان وضع جلال بالنسبـة إلى وضع حسام الدين وضع التابع للمتبوع لأن الشرطة والقوة والمدرعات والمجاهـدين كانـوا تحت أمرة مدير الشرطة العام. ولكن لما صفا الجو كان نصيب جلال خالد الاعتقـال والاضطهاد وتحمـل الغضب والانتقام بينما نجا زميله من كل ذلك كما بينت. ومن هنا يبـدو أن جلال كـان يؤدي واجبه عـلى أساس الـوظيفة بينمـا حسام الـدين كان يؤدي أكثـر من واجبه من جهـة ويلعب على حبـال الاتصال والوصال من جهة أخرى، وقد لاقى جلال ما لاقيناه نحن أو ما يشـابه ذلـك لأننا لم نخن ولم نلعب ولم نلف وندور، بينما اللاعبون على الذقون والحبال كانوا أبطال الدورين وأسـاتذة اللعب على الحبلين.

ثم تليت افادة داوود الحيدري ولم يكن فيها ما يتعلق بي.

ثم تليت افادة جلالة الملكة الوالدة وفيها عبارة تخص عبد القادر الكيلاني وأشارت فيها الى أن عبد القادر ذهب الى قصر الزهور وفاه بعبارة غير لائقة فحواها: «لا تكوني باردة... لو بغداد انقلبت حجر على حجر لا يرجع الوصي أخوك...».

استغربنا كلنا كثيراً من عبارة مثل هذه تصدر عن عبد القادر وهو الرجـل المؤدب البروتـوكولي مع جميع الناس. فكيف يظهر منه مثل هذا الكلام أمام الملكة؟ ولما سألناه فيما بعد أكد لنا بأنـه لم يصدر منه مثل هذا الكلام أبداً ولكن ما العمل والملكة تشهد عليه؟

هل يستطيع أن يكذب جلالتها؟ فحمل ذلك على سوء التفاهم وبقي مصراً ومصمماً عـلى خطته السلبية في الدفاع عن نفسه بلا محام، ولا دفاع، بل تـرك الأمر للمحكمـة وكان مـرتاح البـال، لأن المادة المتهم بها اقصى عقوبتها السجن لثلاثة اشهر هو قضى حتى الآن ثـلاث سنوات بـين الاعتقال والنفي ورأى معنا العجب العجاب في ايران ومومباسا والقاهرة و «أبي غريب» وانقضى على وصـوله العراق قرابة الأربعة اشهر وهو في سجن أبي غريب وفي حبس انفرادي فما معنى الدفـاع بعد كـل ذلك؟ والحق معه أن يبقى سلبياً مسلماً أموره الى الخلاّق العظيم.

جلسة ٢٤/٧/٤٤

(٢١) رشيد الخوجه (مدير الخارجية العام أيام رشيد عالي):

أتت المحكمة برشيد الخوجه خصيصاً لاثبات مدعيات المدعي العـام حول تشـديد الخنـاق على السفير البريطاني والعلاقات بين السفارة والخارجية. فسألته المحكمة حول الحديث الـذي كان قـد

جرى بين المستر هولت ويوسف الكيلاني فأجاب ان رشيد عالي هو الذي خوّل يوسف الكيلاني للتحدث الى الكابتن هولت. بعد ذلك أخذت أسأله بعض الأسئلة وكانت أجوبته محاطة بالخوف والتردد:

س: هل يتذكر الشاهد كيف كان وضع وزارة الخارجية أيام وزارة رشيد الأخيرة ومن كان المسيطر فعلاً على أمور الخارجية ويعطي الأوامر إلى الموظفين؟

ج: أنا كموظف في وزارة الخارجية أعلم أن الاجتماعات تكون مع رشيد وهو في غرفة الوزير ربما هو كان المسيطر على الوضع الا انني لا يسعني أن أقدر ذلك.

س: هل يتذكر الشاهد وهو يحضر الى الوزارة قبل كل الموظفين بأن رشيد عالي كان يحضر كل صباح قبل أن أحضر وبعض الأحيان يأتي بعد الدوام؟

ج: أنا حسب وظيفتي أعلم أن رشيد يحضر قبل الوقت المعين وبعده رشيد عالي كان يتواجد بصورة مستمرة في وزارة الخارجية ويلوح لي أنه يشتغل هناك ووزير الخارجية لم يكن حاضراً وأنه تقريباً اتخذ وزارة الخارجية مقراً له.

بعد هذا سأله محمد علي بعض الأسئلة فكان جوابه دائماً أنه لا يدري ولا يعلم ولا يتذكر وقد يكون كل ذلك صحيحاً لأن رشيد الخوجه بالرغم من شهرته السابقة بأنه من أبرز العسكريين في الجيش العثماني فقد كان في الخارجية دائماً مثل «الأطرش في الزفة» ويقضي وقته بتوافه الأمور والوزارات المتعاقبة كانت تتركه في ذلك المنصب من باب التساهل...

(٢٢) يوسف الكيلاني (مدير الأمور الغربية ايام رشيد):

أتت المحكمة بيوسف الكيلاني لأنها وجدت محضراً يتعلق بمقابلة جرت بينه وبين الكابتن هولت في ٢٢ نيسان/ ابريل ١٩٤٤ وزعمت المحكمة بأنني أنا كنت موعزاً بذلك الحديث وأرادت تثبيت «الجريمة» (!). ولكن يوسف بافادته بدّد أحلامهم اذ قال مجيباً على سؤال الرئيس:

«إن الزيارة كانت غير رسمية والكابتن هولت وأمثاله من موظفي السفارة والمفوضيات الأجنبية كانوا متعودين على زيارة موظفي الخارجية ومراجعتهم في مختلف الشؤون وعليه كانت الزيارة من جانب هولت والمفاتحة أيضاً في الحديث كانت من جانبه والرأي الذي أبديته هو رأيي الشخصي ولكن من مستلزمات الوظيفة أن يرفع الموظف على قدر الامكان ملخصاً الى مرجعه الأعلى وأعتقد أن هذا الحديث كان من هذا القبيل والدافع له حسن النية.

س: (من رئيس المحكمة) هل الوزير اطلع على محضر حديثكم، وإذا كان اطلع هل استحسنه أم لا؟

ج: لا أتذكر أني رفعت الى المرجع الأعلى.

س: هل كنتم مرخصين في تلك الأوضاع الدقيقة أن تصرحوا بآرائكم بدون أن تستأذنوا من رؤسائكم المسؤولين؟

ج: أنا تربطني مع هولت فضلاً عن العلاقة الرسمية علاقة صداقة قديمة وكما بينت أن رأيي في الموضوع لم يكن رأياً رسمياً وإنما رأي شخصي وهذا مثبت في المحضر الذي تلي عليّ.

كان رئيس المحكمة مصراً ومؤنباً وغير مرتاح لأقوال يوسف التي كانت تؤيد قولي بأنه لم يكن لي علم بتلك المقابلة هذا مع أنه لم يكن هناك في المحادثة ما يعد جرماً ولا إهانة ولا اعتداء، ومن حق مدير الشعبة الغربية أن يتكلم مع سكرتير الأمور الشرقية في السفارة ولكن المحكمة المحترمة لم تجد ما يبرر ادعاءها سوى هذه الوثائق. ولما استمر الرئيس بلومه على يوسف تداخل المدعي العام

قائلاً بأن: هذا الرجل شاهد وليس متهما فلا يحق لكم استجوابه على أعماله. وهنا خرس الرئيس ونظر إلى المدعي نظرة المعتذر. على اثر ذلك صرت أناقش يوسف الكيلاني كما يلي:

س: هل يتذكر الشاهد ما جرى من حديث بيني وبين السفير البريطاني في أول مقابلة في وزارة الخارجية وهل هنالك محضر لهذه المقابلة في الشعبة الغربية؟

ج: لا أتذكر محتويات الحديث ولكن أعلم أن مقابلة جرت بين السفير البريطاني وبين موسى بك في الوزارة وأن الحديث كان ودّياً ولا أتذكر فيما إذا كان هناك محضر أم لا.

وهنا تدخل رئيس المحكمة ووجه سؤالاً جديداً:

س: (من الرئيس) هل كان الدكتور غروبا يزور الوزارة بعد عودته إلى بغداد، وبمن كان يتصل؟

ج: لا أدري ولم أسمع بمجيئه ولم أره...

س: (من موسى الشابندر) إن ترك رشيد رئاسة الوزراء واتخاذ مقره في الخارجية شيء معلوم لدى الجميع فهل كان القسم الأعظم من أعمال الوزارة تحت ادارته أم لا؟

ج: السيد رشيد كان يداوم أغلب الأوقات في الخارجية وكان الشائع أنه هو مهيمن على الأمور. كان موسى بك من حين لآخر يبين بصورة شخصية عدم ارتياحه من مجريات الأمور.

بعد هذا ناقش محمد علي محمود هذا الشاهد.

(٢٣) السيد محمد الصدر (رئيس مجلس الاعيان ايام رشيد):

تليت افادته السابقة وهي حول بدء الحوادث الانقلابية وتتعلق بمداخلات الجيش فأيدها وحاول المدعي العام استدراجه بأن يشهد ضد كامل شبيب كما أن رئيس المحكمة حاول أن يستنتج منه أنه ضغط عليه لجمع مجلس الأمة وعقد جلسة له. ولكن الصدر تملّص من ذلك بمهارة. وبعد ذلك ناقشه رؤوف البحراني ومحمد علي محمود فلم يفلحا أن يأخذا منه شيئاً.

ومن المعلوم أن الصدر كان من الساخطين الناقمين على رشيد وأعماله وله رأي خاص في الجيش وقواده وله دروس وعبر بعد الثورة العراقية الأولى واشتراكه بالجهاد مع السويدي الكبير وهو الآن من المعتدلين المسالمين الطائعين ولذا فإنه لم يتهم أحداً ولكنه في نفس الوقت لم ينظر إلى ما قد حصل بنظر الوطني المتطرف كما كان، ولا بنظر رجل الدين الزاهد المتسامح والمتساهل، وإنما نظر إلى أن هنالك انكليز ووصي ورئيس وزارة ناقمون غاضبون فحشر نفسه بينهم وأخذ سهمه من شعورهم وصار يتجنب عمل الخير ولا يمنع عمل الشر ناسياً موضعه الديني والاجتماعي. وكان رؤوف يعقد الآمال على نفوذ الصدر لدى الوصي والانكليز ولكن «الصدر» في وضعه كان «كالقبر» لا يفيد ولا يؤثر. نعم إنه لم يكن من الراضين على أعمال رشيد ولكنه لم يرفع إصبعاً واحداً لمنع رشيد عما قام به. نحن ايضاً كنا لا نرضى على أعمال رشيد ولا على تصرفات القواد وقد أثبتنا ذلك باستقالتنا من الوزارة المرقعة ثم هروبنا عندما استفحل الأمر أثناء الوزارة الأخيرة... ولكن أصبحنا في نظر القوم مجرمين والصدر ومن على شاكلته كانوا ابطالاً. وكان السيد محمد الصدر آخر شهود الاثبات، وقد أصر المدعي العام على حضوره مع أنه اعتذر أكثر من مرّة عن الحضور بسبب مرضه وكان اصرار عبد العزيز الخياط غريباً في بابه وكأنما شهادة الصدر هي أم الشهادات، وبها يتعلق المصير. والحال أنها لم تنقص شيئاً ولم تزد، ولكن المحكمة كانت تريد أن تلعب دورها كاملاً حتى تضيف اسم الصدر في قائمة شهود الاثبات.

خلاصة افادات شهود الاثبات

أدلى عشرون شاهداً بافاداتهم أمام المجلس العرفي كما مرّ ذكرهم ولم يقل أحد منهم ولا كلمة واحدة يمكن أن تفسر أو تؤول بشكل يضرّنا نحن الوزراء الثلاثة بل بالعكس اتت شهاداتهم كلها في صالحنا ومؤيدة لنا ورافعة عنا تهم الادعاء. والشخص الوحيد الذي هوجم من قبل بعض الشهود كان كامل شبيب بصفته رابع القواد وزميلهم. ولم يشهد أحد ضد الشريف شرف أو عبد القادر الكيلاني الاّ ما ورد بحقهما بشهادة الملكة الوالدة وفحواها أنها أشارت على الشريف بأن لا يقبل الوصاية وأن عبارات عبد القادر لها كانت إهانة.

قلت إن المحكمة ومن ورائها المثلث لم تكن مرتاحة لنتيجة الشهادات إذ أنها كانت تعتمد عليهم وبما أننا كنا من المغضوب عليهم من قبل الانكليز والوصي فقد كانت تأمل بأن بعض الشهود سيقومون بالواجب بشكل يرضي الغاضبين فتستند المحكمة المحترمة إلى أقوالهم. ولكن الشهادات أتت بشكل غير منتظر إذ شهد الجميع لصالحنا. ولربما هذا كان السبب لعدم نشر محضر الجلسات في الصحف كما حدث أثناء المحاكمة الأولى مع أنه كان قد تقرر بأن تكون المحاكمة علنية. وبقيت الافادات في طي الكتمان. ولما رأت المحكمة هذا أخذت تتمسك بما أسمته «الوثائق» وهي قصاصات من الورق دوّن عليها بعض الضباط محضر جلسات مجلس الدفاع وبعض المذكرات التي أرسلتها وزارة الخارجية إلى السفارة البريطانية... وهذا ما حدا بالمدعي العام والحاكم خليل أمين والمستشار «دراور» أن يذهبوا إلى وزارة الخارجية ويجمعوا بمعاونة عطا أمين ملفاً ضخماً فيه محضر مقابلات جرت بين الوزير والسفير وبعض البرقيات التي وردت من المفوضيات أثناء الثورة وغيرها من الأوراق الاعتيادية التي تحمل توقيعي أو توقيع المدير عن الوزير. وربما أضاف الانكليز إلى هذه الأوراق الرسمية تقارير سرية لجواسيسهم وأذنابهم تعود إلى زمن بعيد ومما يؤيد ذلك قول الوصي للحاج عبد المحسن شلاش يوماً عندما فاتحه بموضوعي، أن الجماعة ناقمين عليه لأمور تعود إلى ما قبل الوصاية. وهذا برهان ساطع على أن الأمر ليس أمر محاكمة إنما أمر انتقام. أقول هذا لأنه لو كانت هناك حقاً محكمة لما استطاعت أن تحكم علينا بغير البراءة بعد أن استمعت لما قاله شهود الاثبات ومن بعدهم شهود الدفاع. وأثبت المجلس العرفي بأن لا قيمة للشهود والشهادات عنده ولا محل للانصاف والمروءة لديه. فهؤلاء الحكام ومعهم المدعي العام جمعتهم السلطات وزودتهم بالأوامر فقالوا للسلطات: «لبيك لبيك نحن عبيد بين يديك». وكانوا عبيداً حقاً وويل لمن يُسلط عليه العبيد. أما قال رئيس المحكمة يوماً: ما فائدة الشهود؟ نحن نعرف كل شي! نعم إنه قال حقاً أنهم يعرفون كل شي لأنهم لُقنوا وأفهموا بما يريد المنتقمون.

جلسة ٢٦/٧/٤٤

افتتحت الجلسة بتلاوة افادة قديمة للزعيم عبد الوهاب رئيس المرافقين لجلالة الملك وفيها ما يتعلق بسفر الملك الى الشمال والمعاملة الطائشة من طرف بعض الضباط للعائلة المالكة وقد حصل كل هذا بعد تركنا بغداد وليس في الافادة ما يتعلق بنا.

وبعدها بدات المحكمة بقراءة الأوراق والوثائق المتعلقة بالأمور السياسية وكان الهدف من ذلك تثبيت الذنب عليّ بالدرجة الأولى وعلى محمد علي محمود بالدرجة الثانية إذ أن لهذا الأخير إفادات

في مجلس الدفاع الأعلى اظهر في بعضها حماساً شديداً ضد الانكليز. ولكن لا يستطيع أحد من المنصفين أن يعتبر ما ورد في تلك الافادات وفي وثائق وزارة الخارجية ذنباً أو جرماً. فقد حصل خلاف بيننا وبين حلفائنا الانكليز حول تفسير مواد المعاهدة وكان من الطبيعي أن يتمسك كل من الطرفين بوجهة نظره ويدافع عن مصالحه وقد يكون الجانب العراقي مصيباً أو مخطئاً في مزاعمه وقد يجوز أن ذلك الخلاف قد أدى إلى عدم رضى الانكليز أو ازعاجهم وقد يكون ذلك الخلاف سبباً للأزمة. كل ذلك يجوز ولكن اعتبار ما يتفوه به الوزراء وما يصدر عن الوزارات من مخابرات جرماً كبيراً يستلزم المحاكمة والعقاب فهذا أمرٌ لم يسمع بـه أحدٌ من قبل. ولكن هذا المجلس العالي امر بأن يثبت الجريمة بذلك الشكل. فتوسل بتلك الوثائق وخصص جلسة كاملة لتلاوتها، وهي:

١ ـ مذكرات صادرة عن وزارة الخارجية منها موقع من قبلي وبعضها من قبل المدير العام تتعلق بإنزال القوات في البصرة وغير ذلك من الأمور السياسية.

٢ ـ برقيات واردة من لندن ومن مصر أثناء الأزمة وبعد التصادم تشير إلى ما نشر في الصحف المحلية عن حوادث العراق. وهنا توجد خلاصات حماسية لما نشر في الصحف المصرية وكلها تأييد ومدح واطراء للعراق وللحركة. وما أدري كيف تحاول المحكمة أن تعتبرني مسؤولاً عن برقيات واردة للخارجية. ومن الغريب انه كان هنالك برقية من تحسين العسكري يذكر فيها أنـه قابل الملك فاروق وأن جلالته اثنى على رشيد وحركته وأنه شجع وأيد موقف العراق. فلم تـذكر المحكمـة شيئاً عن هذه البرقية ربما لأنهـا لا تتفق بما ذهبت إليـه بأن هنـاك عصابـة وجريمـة اعتياديـة أو ربما للتستير على وضع تحسين العسكري قريب نوري السعيد. ولكنها لم تخجل من أن تحملني عبء ما كتبه تحسين العسكري من مصر وذنب ما قام به عطا أمين في لندن...

٣ ـ محاضر جلسات مجلس الدفاع الأعلى فيما يتعلق بي ومحمد علي ولكن من الصلافة انهم لم يذكروا العبارة التي قلت فيها بأنه يجب أن لا نسند سوء النيـة الى الانكليز وأن نطبق المعاهدة بل ذكروا ما اعتقدوه ذنباً وجرماً في أقوالنا كطلب تسفير القوات القديمة قبل السماح بإنـزال قوات جديدة وإنذار الانكليز بـأنهم إذا لم يستجيبوا لمطـالبينا والاعتـراف بالحكـومة نصبـح في حل من المعاهدة وكذلك الأقوال المنسوبـة إلى محمد عـلي بأنـه قال عنـد اللزوم نقـاوم بالقـوة ونحن في واد والانكليز في واد وأنهم اخلّوا بمواد المعاهدة وهكذا، فإنهم تركوا ما لا يريدون، وأتـوا بما اعتقـدوا أن يكون حجة علينا. والحال لو فرضنا أن ما جاء في المحاضر هو صحيح ولم يشوّه ولم يحوّر فليس هناك ما يعد جرماً وليس هناك ما لا يجوز لوزير أن يقوله.

بعد الانتهاء من تلاوة هذه الوثائق، أمر رئيس المحكمة بأن تتلى المادتان الرابعة والسـابعة من معاهدة التحالف العراقية البريطـانية اللتـان كانتـا محور الخـلاف بيننا وبـين الحليفة. وقـد تجلى سخف المحكمة ورئيسها هنا بكل جـلاء لأنها وضعت نفسهـا بموضـع الحكم في مثل هـذه القضية الهامة التي لا يجوز لأحد أن يبت فيها الاّ محكمة دولية كمحكمة لاهـاي. فهؤلاء الجهّال وجـدوا في انفسهم مـا لا أثر لـه... فأين هم من حقـوق الـدول ونصـوص المعـاهـدات؟ وأين علمهم وفضلهم وادراكهم حتى يخولوا لانفسهم تمثيـل دور الحكم فيحكموا بخطئنـا وصواب وجهـة نظر الانكليـز. انها مأساة تزيدها هذه المهازل مرارةً وأسىً...

وهكذا أخذت المحكمة تتلو هذه الوثائق ونحن نسمع ولما انتهت من القراءة أخذ الرئيس يـوجه إليّ الأسئلـة لأنني بصفتي وزيراً للخـارجية كنت الهـدف المقصـود. ولكن الـوقت كـان قـد انتهى فتأجلت «المهازل» إلى الجلسة القادمة.

جلسة ٢٩/٧/٤٤

افتتحت الجلسة بأسئلة رئيس المحكمة الموجهة إليّ. وكانت أسئلة ركيكة في اللغة والقانون ولكن ما العمل؟ فقد قررنا أن يكون دفاعنا على أساس الجبر والإكراه من قبل رشيد وفي ذلك شيء من الصحة وكان الإكراه هو العامل الأكبر عندما تأزم الوضع ودخل رشيد في مأزق لم نكن راضين به. فيجب أن تكون أجوبتنا على ذلك الأساس لأن ليس في هذه المرافعات أثرٌ للعدل أو المنطق.

س: لقد تليت عليك الأوراق المحتوية على الوثائق السياسية المدونة في زمن وزارتك التي هي وزارة رشيد عالي غير الشرعية فما قولك؟

ج: أن هذه الوثائق نوعان حسبما سمعت من تلاوتها. منها ما يحوي توقيعي ومنها ما هو موقع من قبل المدير العام ومنها ما هو موقع بنجم «لاستيك» وهذه كليشه موجودة عند كاتب الرسائل الصادرة في الخارجية للتوقيع على المناشير وغيرها من الأوراق الاعتيادية.

أما الوثائق الموقعة على ما يظهر بتوقيعي فأقول أن وزارة الخارجية هي الواسطة الوحيدة الطبيعية التي تكون أداة وصل بين الحكومة والحكومات الأجنبية ولما كانت وزارة رشيد عالي متمركزة في شخص رشيد عالي الذي استولى على وزارة الخارجية واتخذها مقراً له كما جاء في افادتي السابقة وكما شهد به بعض الشهود فكان من الطبيعي أن يتخذ رشيد من الخارجية أداةً تعبّر عن سياسته الشخصية والتي لا اتفق بشأنها معه. وبما أن رشيد يعتبر حكومته شرعية فقد كان يستعمل الطريقة القانونية في ابلاغ سياسته إلى الحكومات الأجنبية أي بواسطة الخارجية. وأكبر دليل على ما اقول هو المحادثة التي حصلت بينه وبين السفير في ٢٨ نيسان/ ابريل ١٩٤١ وقد ورد في صدر المحضر الذي تلي أمامنا في الجلسة السابقة أن السفير البريطاني طلب مواجهة رئيس الوزراء ولم يطلب مواجهة وزير الخارجية فأعطاه رشيد موعداً في الخارجية وتمت المقابلة. ولو لاحظنا محضر هذه الجلسة لوجدنا انه لم يذكر اسمي ابداً لانني في الواقع لم أتكلم سوى في بعض ما اقتضت الحال من ترجمة ونلاحظ أن رشيد في هذه المقابلة بسط سياسته للسفير بصورة واضحة وأن ما جاء في المذكرات التي ارسلت الى السفارة هو مأخوذ عن محتويات هذه المذكرة وهذا برهان بأن رشيد هو الذي طلب من الشعبة الغربية إحضار تلك المذكرات ولكن بما أن وزير الخارجية هو الذي يوقع على المذكرات فكان عليّ توقيعها والدليل على أنني لم أكن متفقاً بالرأي ورشيد ما قلته في مجلس الدفاع الأعلى في ١٧ نيسان/ ابريل ١٩٤١ تلك الافادة التي كانت في بادىء الأمر مسندة إلى غيري ولكن سبحانه عز وجل اظهر الحق وتم تصحيحها فالذي ينصح رشيد وجماعته المتحمسين بأنه يجب علينا أن لا نتهم الانكليز بسوء النية بل يجب علينا أن نطمئنهم بتطبيق المعاهدة وأن القوات في البصرة لا تضر بمصالحنا، أقول ان الذي يتكلم هكذا أمام رشيد وصلاح وغيرهما من المتطرفين لا يمكن أن يعتنق آراء رشيد المتطرفة التي وردت في بعض المذكرات ولذا فإنني، وإن كانت الظواهر ضدي لانني كنت أحمل اسم وزير الخارجية، فإنني غير مسؤول عن تلك المذكرات ولم أكن راضياً عنها، وإذا سمح المجلس العالي بجلب بعض الوثائق من الخارجية فاني مستعد لاثبات ما ادعي.

س: درستم دراسة عالية في أعلى جامعات أوروبا ودرستم التاريخ السياسي. أرأيتم السياسيين يستعملون الصدق والوضوح أم دائماً يتخذون طرقاً شتى للافلات من بياناتهم حسب تطورات الموقف فلم تكونوا أنتم عندما اشتركتم في مجلس الدفاع الأعلى كانت صفتكم وزير الخارجية ليس الا، ينصرف بالجمل والمعاني خافياً ما هو في ضميره، مظهراً بكلمات معسولة. فكيف تريد أن تموهوا أو تستفادوا من بياناتكم التي جرت في مجلس الدفاع الأعلى كون أنها تعبر عن صافية نيتكم ليس الا؟

وبهذا السؤال الافلج يريد الرئيس أن يقول أن ما قلته في مجلس الدفاع كان من باب الخداع

ولم أكن مخلصاً في كلامي وهذه هفوة سخيفة انتبه إليها المدعي العام وقال للرئيس بالتركية أن مثل هذا الكلام نتباحث حوله فيما بيننا. وأراد الرئيس أن يسحب السؤال فطلبت أنا تسجيله وطلبت الإجابة عليه. فقلت:

ج: لم يرد في الاتهام بأن ما قلته في مجلس الدفاع كان تمويهاً وقصدت به غير ما قلت بل انما كان الاصرار شديداً بأن ما قلته كان هو الصحيح إذ كانت قناعة المجلس العالي ومقام الادعاء بأن كل ما ورد في محضر مجلس الدفاع كان صحيحاً لا يقبل الشك والشبهة، وهذه الأقوال التي أتت الينا عن طريق التصحيح كانت مسندة إلى صلاح الدين ولكن كان مسكوتاً عنها، ولم تظهر الحقيقة الاّ بعد أن شهد كل من نور الدين محمود ورفيق عارف بأن تلك الافادة كانت لي، وأنني كنت من المعتدلين وأنه لا يمكن لأحد أن يتصور أن تلك الكلمات كانت لصلاح الدين. ولذا فإنني أؤكد للمجلس العالي بأنني كنت مخلصاً وصادقاً في كلامي هذا لأن مبدأي معروف عند الجميع حول تطبيق المعاهدة ولا أرى سبباً للتمويه لأن المطلوب كان الحماس والتطرف.

س: سمعت افادة السيد رشيد الخوجه المدير العام حيث أفاد أن بعض الأوراق وإن كانت تصدر بتوقيع المدير العام، فإن الوزير هو المسؤول.

ج: ان نظام الخارجية يخول المدير العام التوقيع على بعض الرسائل الاعتيادية كما انه يخوله التوقيع عن الوزير في بعض الرسائل الهامة التي يعتقد المدير أن من صلاحيته التوقيع عليها نيابة عن الوزير وفي هذه الحالة، فإن المدير نفسه هو الذي يقدر صلاحيته ولا سيما في وضع رشيد الخوجه الذي قضى ما يقارب العشر سنوات في هذه الوظيفة ويعرف الأصول تماماً...

س: لقد ظهر بين الوثائق حوار جرى بين يوسف الكيلاني وبين المستر هولت حول تلك المحادثات ورغم أن المشار إليه قد أفاد بأنها شخصية ولا تعبر عن سياسة الحكومة إلا أنه لو صرفنا النظر عن المركز الذي يشغله المشار اليه حينذاك وهو مدير الأمور الغربية ولا سيما على جو العلاقات المتكهرب في ذلك الزمن نرى أنها لا تلائم الموقف أبداً فبصفتكم وزيراً مسؤولاً عن الوزارة، إن كنتم لستم مؤيدين لآرائه لمَ لم توبخوه ولم تتخذوا اجراءات ضده لأنه أساء التصرف بمركزه؟

[لو كانت الحالة طبيعية والمحكمة محكمة لكان يستحق الرئيس المحترم ان يقال له أنه حقاً «طرطميس» لا يفرق بين الجمعة والخميس! إذ يوسف الكيلاني اعترف بأن ذلك الحديث لم تكن له صبغة رسمية انما هو حوار بين صديقين ثم أني لو كنت عالماً بذلك الحديث ولم أوافق عليه فالمسألة تعود الى انضباط الموظفين وليس لرئيس المجلس العرفي أن يتداخل فيه ولكن نحن أمام محكمة تلزيق فيجب علينا أن نلزق مثلها لندفع شرها..].

ج: ان ملاحظة سعادتكم محقة جداً لو كانت الحالة السائدة طبيعية ويعرف كل واحد ما يترتب عليه من مسؤوليات ويعمل بموجبها. إني أؤكد لكم بأنني لم أسمع بهذه المحادثة الاّ في المحكمة هنا الآن ولكن مدير الأمور الغربية أشار إلى أنه تكلم مع هولت بالنسبة الى الصداقة التي بينهما واني أعتقد أن الذي دفعه إلى تلك المحادثة هو وضع رشيد في الخارجية لأنه كما جاء في المحضر نفسه أن رشيد عالي قابل أدموندس وكان ذلك ايضاً بدون علمي ولا أعرف ما قاله له حول إنزال الجنود في البصرة. ولربما كان مدير الأمور الغربية مطلعاً على المحادثة، فلما أتاه هولت أبدى له أراءه الشخصية على ضوء تلك التأثيرات. وهذا كله يدل على شكل الفوضى التي كانت سائدة في الخارجية فرئيس الوزراء يكلم أحد الانكليز ومدير الأمور الغربية يكلم انكليزياً آخر ووزير الخارجية لا يعلم بذلك... أما يدل ذلك أنني كنت في واد ورشيد في واد؟

س: كيف تفسرون كتابيكم المتضمنين الأول عن وجود القوات الآلية جوار الحبانية كتدبير

احتياطي ضد خرق المعاهدة من قبل البريطانيين والثاني أن البريطانيين هم سببوا التصادم؟

ج: أرجو السماح لي بأن أطلع على تلك الكتب الأصلية كما أنني أرجو جلب بعض الوثائق التي تتعلق بالموضوع حتى أتمكن من درسها وأجيبكم حولها. ولكن منذ الآن أقول أن هذه المخابرات بين رئيس الوزراء ووزارة الخارجية وما صدر من وزارة الخارجية كلها عبارة من رشيد إلى رشيد ومن رشيد إلى السفارة.. لأن مجلس الوزراء معناه رشيد وتنفيذ القرارات من قبل الخارجية معناه أيضاً تنفيذات رشيد... هذا هو الواقع والصحيح وسوى ذلك ظواهر لا قيمة لها.

يظهر مما تقدم أن المجلس العرفي كان ينوي الشر على كل حال. فلما وجد شهادات الاثبات غير كافية للغرض أخذ يتمسك بما أسموه بالوثائق وقد كنت أنا الهدف الأول لوجود المذكرات والأوراق في وزارة الخارجية ويشترك معي محمد علي بمحاضر مجلس الدفاع أما رؤوف البحراني فقد كان وزيراً للشؤون ووزيراً للمعارف بالوكالة ولم يكن لعمله صلة بالانكليز وليس له وثائق من هذا القبيل.

(شهود الدفاع)

بعد أن انتهت المحكمة من الاستماع إلى شهود الاثبات وتلاوة الشهادات السابقة والكثير من الأوراق كما مرّ ذكره أخذت تجلب شهود الدفاع بالشكل الذي تراه هي أي أنها صارت تنتخب بعض الأسماء من القوائم التي قدمناها وقد تركت أكثر الشهود بحجة أنهم كانوا خارج العراق أو أنهم أجانب أو أن لا لزوم لهم، كما أعلن ذلك الرئيس يوماً في المحكمة نفسها.

جلسة ٤٤/٧/٣١

(٢٤) عبد الرزاق الازري

شهد لرؤوف البحراني أنه أدخل جبراً إلى الوزارة.

(٢٥) أحمد زكي الخياط (مدير البرق والبريد العام أيام رشيد عالي):

بعد أن شهد لرؤوف بأنه رفض الدخول إلى الوزارة قال ان موسى الشابندر ومحمد علي محمود أيضاً كانا يتذمران. ثم ألقت عليه سؤالاً:

س: هل يتذكر الشاهد عندما أتى إلى الخارجية يوماً كيف كان وضع الخارجية ومن كان الوزير الحقيقي؟

ج: أتذكر أنني شاهدت السيد موسى الشابندر خارج غرفته الرسمية وفي غرفته كان رشيد عالي. وأنا شخصياً كنت أشعر بأنه ما كان يشتغل بل غيره يشتغل.

(٢٦) أحمد شوقي الحسني (مدير الأشغال العامة):

أجاب على سؤال المحكمة:

ج: أذكر أن السيد موسى الشابندر كان مدعواً عندي أحد الأيام هو واسماعيل نامق وابراهيم عاكف الالوسي، وناجي شوكت، وابراهيم الشابندر، وأنه أتى مع ناجي شوكت قبل المدعوين الآخرين فقلت لموسى: أنت غني وحالتك الصحية غير جيدة إشمالك من هذه المحنة؟ ويظهر أن هؤلاء لهم نوايا سيئة تجاه الحليفة. فأجابني: يا شوقي أنا لم أكن مخيراً في الدخول وإذا تحاربوا مع الحليفة أنا أخرج حالاً.

س: (من موسى الشابندر) هل يتذكر الشاهد عندما تقابلنا يوماً في البصرة أيام وزارة طه

الهاشمي وفي فرص أخرى في بغداد قبل وزارة رشيد وفي أثنائها حديثي عن تدخل الجيش وغيره؟

ج: كنت في البصرة وكنت يوماً مدعواً إلى العشاء عند ألبير اصفر في وزارة طه الهاشمي وكنا مجتمعين على سفرة مع موسى الشابندر وكان معنا صالح جبر وسمعت موسى الشابندر يقول أن تدخل الجيش في السياسة هو مما يسبب الدمار في المملكة. أتذكر هذا جيداً..

(٢٧) عزيز سامي (من كبار موظفي المالية):

شهد شهادة قوية جداً لرؤوف البحراني قالوا عنها أنها أقوى من «الكونكريت». (الاسمنت المسلح).

(٢٨) ذبيان الغبان (محام):

شهد لنا نحن الوزراء الثلاثة، أما ما قاله عني فيتلخص هكذا:

أما موسى الشابندر فذات مساء كنا في بيت صادق البصام انا وعبد الهادي جلبي وحسين عبد الهادي **وسيد باقر الحسني**، وجماعة آخرون لا اتذكرهم. جاء موسى وسلم وجلس وكان بوضعيته مضطرباً وعلى الأثر جاء علي محمود الشيخ علي وكان لابساً الخاكي. وبصفتهم وزراء لاحظنا الكلام امامهم وسألهم بعض الاخوان عن الأخبار فقال علي محمود أنه أخذ خبراً من قائمقام الفلوجة بأن سن الذبان قد احترق. فأجابه موسى اجابة تدل على عدم الاتفاق بالرأي. ثم قال علي اليوم أسقطنا حوالي ٢٥ طيارة من القوات البريطانية وكان الجواب من موسى: نعم. لأن عندك سبعماية قاصفة وألف محاربة حتى تسقط ٢٥ طيارة. وكان موسى في وضع عصبي مرتجف.

(٢٩) خضوري عزره (من موظفي المالية):

شهد لرؤوف البحراني فقط.

(٣٠) شفيق حداد (الآن ملحق عسكري في مفوضية واشنغتن).

سألته المحكمة عما لديه فأجاب:

ج: في سنة ١٩٤١ كنت في طهران واجتمعت مع موسى الشابندر ومحمد علي محمود وعبد القادر الكيلاني وتبين لي أثناء مقابلتنا أن كلاً من الشابندر ومحمد علي محمود دخلا الوزارة معتقدين انهما يدافعان عن شرف البلاد ولما ظهر لهما أن قسماً من قواد الجيش تدخلوا بالأمر ضد الحليفة فانهما بأول فرصة جاءا الى طهران. وعندما دخلت الجيوش البريطانية والروسية طهران لاحظت انهم لم يكن لهمن رغبة في أن يهربوا ولم يختفوا. وبعد ذلك سمعنا أن الحكومة تشكلت تحت رياسة المدفعي فبينوا لي رغبتهم في العودة الى بغداد قائلين: إذا كنا متهمين بجريمة فنرغب أن تحاكمنا حكومتنا. وكان داود الحيدري وزيراً مفوضاً في طهران وقد راجعوه بشأن العودة الى بغداد وأنا بنفسي قابلت الوزير في هذا الخصوص كما أنني اتصلت بالمفوضية البريطانية في طهران وقابلت هناك السكرتير الأول وعرضت عليه هذه الفكرة ولكن لم تحصل نتيجة من هذا الأمر وعلمت من المفوضية بأن قرار عدم اعادتهم أتى من خارج ايران أي من القيادة البريطانية في القاهرة.

جلسة ٢/٨/٤٤

(٣١) تحسين علي (متصرف الموصل ايام رشيد، الآن وزير الدفاع):

هو الذي أخبر أخي ابراهيم بأن لديه شهادة في صالحي إذ سمع مني عندما أتى يوماً للخان بأنني قلت أنني أدخلت الوزارة رغم ارادتي وأنني متألم ومنزعج لما حصل. ولكن عندما حضر إلى

المحكمة انقلب على عقبيه وتملص ولم يتكلم بما سمع. ربما أتاه الوحي في آخر لحظة فرأى أن يسكت عن الحق ارضاءً للمثلث. فقال متردداً متلعثماً:

انه أتى يوماً إلى الخان فوجدنا نحن، أنا وابراهيم ونوري فتاح نستمع إلى الراديو وكانت الاذاعة تسب وتشتم الانكليز. وقال موسى بأن ليس لنا عليهم سلطة وانهم متصلون بالجيش ويأخذون تعليماتهم من امراء الجيش. كان هذا الحديث يجري بين نوري فتاح وابراهيم الشابندر وقد لاحظت أن موسى كان مستاءً من الوضع.

هكذا تملص هذا الرجل المشهور برجولته وشجاعته واكتفى بهذه الكلمات والصحيح هو أنه عندما قابلني في الخان أخذ يمدح ويثني على الحكومة ورشيد وهنأني وبارك الحركة والقائمين بها وابتهل الى الله بأن يكلل أعمالنا بالنجاح.

هذا نموذج لرجالنا وعظمائنا. ولعنة الله على القوم الكاذبين!

(٣٢) محمد الراضي (مدير الزراعة):

سألته المحكمة عما لديه فأجاب:

ج: ان شهادتي فقط بحق موسى الشابندر وهي أن الذي أعرفه أن دخوله في وزارة رشيد عالي لم يكن بخاطره، لقد كان مرغماً. وأنه لم يكن موافقاً على الاشتراك في الوزارة وعلى قيام الحركة وكان مصمماً على الاصطياف في سورية. وفي يوم تشكيل الوزارة كنت في الدائرة وجاءني ناجي شوكت وسألني: هل تعرف موسى وين؟ قلت له لا أعرف وسألته ماذا تريد منه قال: الوزارة تألفت ورشيد طلب إليّ أن أرى موسى للدخول لأنه لم يكن موافقاً على الاشتراك وذكر لربما الارادة تصدر اليوم وموسى لم يكن له خبر.

وفي حفلة الاستيزار شاهدت موسى وسألته كيف دخلت فقال لي: مرغماً ولم أتمكن أن آخذ منه الايضاحات في تلك الساعة وسافرت ذلك اليوم الى الموصل ورجعت الى بغداد في أواخر الحركة.

ويوماً ذهبت الى الخارجية لزيارته ولما أردت أن أدخل عليه في غرفة الوزير أخبرني الفراش أن في غرفة الوزير يجلس رشيد عالي... ولما قابلت موسى وجدته متذمراً جداً من الوضع ومستاء وأنه يريد التخلص من الوزارة وذلك الحكم وأخبرني بأنه هو ومحمد علي حاولا الهروب الى إيران ولكن افتضح الأمر وأعيدا من خانقين.

س: (من موسى الشابندر) هل يتذكر الشاهد عندما تقابلنا في الخارجية ماذا قلت له حول استقالتي من وزارة رشيد؟

ج: الذي أعرفه أنه استقال عدة مرات فرفضت استقالته وأن بعض الجهات طلبت إليه البقاء في الحكم والتريث في الاستقالة ليكون واسطة تفاهم وأعتقد أن الجماعة، وأعني الانكليز، كانوا يودون أن يبقى في الوزارة.

(٣٣) باهر فائق (مدير التشريفات في الخارجية):

شهادته حول مقابلاته وحديثه مع محمد علي محمود في طهران ليس فيها شيء مهم.

(٣٤) كامل الجادرجي

عندما سألته المحكمة ما هي شهادته بحق المتهمين قال:

ج: في حركة مايس مررت بوزارة الخارجية وقابلت هناك موسى الشابندر فوجدته غير مرتاح من الوضع وبعد خروجي حصلت عندي قناعة بأنه لم يكن وزير الخارجية وأن الخارجية تدار من قبل

غيره أي أن الوزير هو رئيس الوزراء. وكانت وزارة الخارجية مخبوصة ويقال أن «غروبه» كان في بغداد.. وما شاهدت موسى متصلاً بالناس. وبعد مدّة سمعت بأن موسى ذهب إلى إيران..

س: (من موسى) بيني وبين كامل معرفة قديمة وأعتقد أنه مطلع على ميولي السياسية والاقتصادية، فهل يعتقد بأنه من الممكن أن أكون ميالاً الى المبادىء الفاشية أو النازية؟

ج: حقيقة توجد بيني وبينه صداقة قديمة ولكن بمناسبة سفره إلى أوروبا كانت المناسبات قليلة ولكن كلما يأتي الى بغداد كنا نجتمع ولم أجده انه معتنق مذهباً من المذاهب لا الفاشية ولا غيرها..

(٣٥) علي الحجازي (مدير شرطة بغداد):

شهادته تخص محمد علي وقضيته محاولة هروبه فقط.

(٣٦) محمد علي مصطفى (محام):

بمناسبة الجيرة والصداقة شهادة تخص محمد علي.

(٣٧) يوسف الكيلاني (مدير الأمور الغربية):

شهد قبلاً كشاهد اثبات والآن بناءً على طلبي أتت به المحكمة كشاهد دفاع. فجرت بيني وبينه المحاورة كما يلي:

س: بصفتكم موظفاً قديماً في الخارجية أرجو أن تبينوا هل توجد لدى الحكومة العراقية أية واسطة أخرى عدا وزارة الخارجية لتبليغ المثليات الأجنبية بما يتعلق بالسياسة العراقية؟

ج: حسب اختباري أن في قسم من القضايا المهمة يتصل رئيس الوزراء في بعض الأحيان مباشرة بالمفوضيات الأجنبية لحل بعض الأمور وحتى في بعض القضايا، فإن وزراء الدولة الآخرين يقومون بالمفاوضة أما المخابرات فمن أعمال وزارة الخارجية.

س: صدرت مذكرات من الشعبة الغربية في وزارة الخارجية إلى السفارة البريطانية منها ما يتعلق بتفسير مواد المعاهدة وأكثرها يدور حول السياسة العراقية المرتكزة على المحادثة بين فخامة السفير ورئيس الوزراء فهل يتذكر الشاهد بأنني أمليت عليه أو طلبت منه ارسال أية مذكرة حتى يوم تركي بغداد؟

ج: لم أتذكر أنه أوعز اليَّ في أثناء وجودي في مديرية الأمور الغربية شيئاً أو أملى عليَّ كتاباً في الأمور التي بيّنها.

(٣٨) عبد الوهاب محمود (محام ونائب في المجلس).

تبرع من تلقاء نفسه بأن له شهادة في صالحنا فحضر وأفاد:

ج: الحركة التي قام بها رشيد عالي وجماعته الضباط لعلمي الشخصي كرجل يتصل بالسياسة وباعتباري نائباً أيضاً وصلتي برشيد صلة صداقة أقول: أن الذي قام بالحركة هم الضباط الأربعة ورشيد والسبعاوي وعلي محمود، أما محمد علي محمود وموسى الشابندر فعلمي أنهما ارغما على دخول الوزارة وهذا العلم ناتج من محادثة جرت بيني وبين السبعاوي وعلي محمود أثناء الشهرين المذكورين. فقد التقيت بالسبعاوي بعد هروب موسى ومحمد علي ولا أتذكر العبارات بالنص وإنما بالمعنى فذكر يونس: انهم أدخلوا الجماعة وأضاف اسم ناجي السويدي اليهم. أدخلوهم للوزارة من دون رضاهم لسبب يجهله الكثير من الناس على حد قوله وهذا السبب أنه وصل إلى علمهم أن نوري السعيد أدلى بتصريح خارج العراق بأن القائمين بهذه الحركة سوف لا يجدون أي سياسي ذا

شخصية أو معروفاً أن يتعاون معهم في هذه الحركة فهم تكذيباً لهذا التصريح أجبروا الجماعة لاظهار الوزارة بمظهر أنها مكونة من شخصيات معروفة. وأيضاً واجهت علي محمود في وزارة الاشغال وكان أمامه قائمة يفصل فيها الموظفين الذين لم يغادروا البصرة ويأتوا إلى بغداد فجرى حديث الجماعة وتفوه بهذه العبارة تقريباً: «احنه أجبرنا محمد علي على هذه الوزارة هو مو وجه هذا الشغل وانما وجه محاماة ويهود وفلوس...».

شهد عبد الوهاب محمود من تلقاء نفسه ولم نكن نعلم بهذا الحديث. على أنه يوضح حقيقة الوضع واصرار رشيد وجماعته على الاحتفاظ بنا نحن الوزراء المعتدلين كل ذلك الاصرار.

نوري فتاح

س: (من المحكمة) ما هي شهادتكم حول الشابندر؟

ج: لما سمعت ان موسى صار وزيراً للخارجية ذهبت للعتاب وعند المواجهة قال: لماذا تعاتبني؟ ليش كنت أعرف أو سئلت وأخذت موافقتي حتى تعاتبني؟ أنا أريد أتخلص بأية طريقة كانت. لما كنت أذهب الى الخارجية ما شاهدت موسى يوماً جالساً في محله... ومرة كان قد وسطني عوض البحراوي وزير مصر المفوض بأن آخذ له موعد مقابلة لأنه كلما حاول الاتصال بالخارجية كان يجد أمامه رئيس الوزراء وهو لا يريد أن يحدثه ولهذا طلب الي التوسط لمقابلة وزير الخارجية فأتيت الى الخارجية وقابلت موسى بشأن ذلك فقال لي حينئذٍ انا لا أشتغل في اشغال الوزارة. الأعمال كلها بيد رشيد فاذهب وكلمه إذا أردت. وبعد ذلك سمعنا بأن موسى ومحمد علي سافرا الى خانقين ومن هناك إلى إيران ثم فهمنا انهما ارجعا الى بغداد.

س: (من موسى) كما كنا أكثر الاوقات نتقابل أرجو أن تبين ما كنت أقوله حول الوضع وحول الاستقالة؟

ج: موسى بك كان متذمراً جداً، وما كان يريد الدوام في الوزارة، لولا المضايقات وكنت أسمع منه دائماً أنه يسعى للعثور على طريقة للتخلص. والمعروف عند الجميع أنه مع محمد علي حاولا الهرب مرتين ففشلا في الأولى وتوفقا في الثانية والهرب الثاني يصادف ١٨ أو ٣٠ مايس ١٩٤١ ولا أعرف عن الاستقالة شيئاً معيّناً ولكن نعرف أنه استقال مرات عديدة..

(٤٠) المفوض عطا (الآن في الشرطة السريّة):

س: (من المحكمة) ما هي شهادتك لصالح المتهمين؟

ج: شهادتي تعود إلى المتهمين موسى الشابندر ومحمد علي محمود، إذ كنت في أوائل سنة ١٩٤١ أقوم بمهمة الشعبة الخاصة في خانقين وذات ليلة من ليالي شهر مايس طلبت تلفونياً وكان المتكلم القائمقام ابراهيم صالح شكر وامرني ان أخرج إلى القطار اذ سيصل بعض الوزراء ولم يذكر لي أسماءهم وطلب مني جلبهم إلى دائرته أو إلى داره فخرجت الى محطة القطار وعند وصول القطار نزل منه موسى الشابندر ومحمد علي محمود اللذين اعرفهما بالوجه لاشتغالي في شعبة التحقيقات وطلبت منهما مرافقتي لمواجهة القائمقام فوافقا وذهبنا الى داره ولا أعلم بما جرى بعد ذلك سوى انني بصفتي مفوضاً في الشعبة الخاصة سمعت بأنهما أعيدا مخفورين الى بغداد...

بعد هذا تليت تقارير من مراقبة الحسابات العامة تتعلق بالمصاريف والرواتب وغيرهما أيام وزارة رشيد عالي ورفعت الجلسة.

جلسة ١٩٤٤/٨/٥

في الجلسة السابقة كان رئيس المحكمة قد أخبرنا بأنه سوف لا تسمح المحكمة بجلب شهود

آخرين وأنها اكتفت بما سمعت ولكن بالنسبة لنا كانت هناك شهادات أخرى هامة توضح الوضع وتنفي عنا تهم الادعاء الغريبة. وبالنسبة لي كانت شهادات السفير البريطاني والوزير التركي والمستر ادمونس هامة ولكن المحكمة لم تقبل ولم تطلب أحداً منهم للحضور أو الإدلاء بشهادة تحريرية. وبتعبير آخر ان المجلس العرفي جلب بعض الشهود حتى يكون للمرافعة شكلاً قانونياً كاملاً اذ لم يكن القصد معرفة الحقيقة أو إثبات الحق وصيانة العدل انما كان القصد اعطاء صبغة جدية لمهزلة من المهازل.

فلما ذهبت الى معسكر الوشاش صباح يوم الخامس من آب وجدت محمد علي في الغرفة مع الشريف شرف وكان هائجاً متألماً فأخبرني بأن كامل شبيب قص على علي محمود ما حدث في المحكمة في الجلسة الماضية وأن علي غضب غضباً شديداً من أقوال ذبيان الغبان وعبد الوهاب محمود وأنه أخذ يعربد ويقول أن وزير الخارجية هو الذي يعرف بالأمور. وأن المحكمة طلبت جلبه ليرد على ما جاء في افادة عبد الوهاب. فتألمت بدوري لهذا الحال.

فهذا كامل شبيب قد غرزز الله في طينته حب الفتن والشر بينما كنا نحن آسفين ومتألمين لوضعه ومهاجمات الشهود والمحكمة ضده وبينما هو في حالة خطرة اذ الاتهام كان صريحاً واضحاً ضده تراه يشتغل بالفتن والشر والنميمة. وبينما ذهب الضابط صبري لجلب علي محمود من سجن أبي غريب ادخلنا قاعة المحكمة فوجدنا الرئيس ينبش الأوراق التي أمامه وبعد أن جلسنا الى محلاتنا المعتادة أخذ يوجه إليّ الأسئلة:

س: لقد عرضنا عليكم كتباً ومذكرات مختلفة موقعة من قبلكم في زمن وزارتكم وعرضنا حتى احدى المسودات المعروضة من قبل الموظف المختص والموقع عليها بأن معالي الوزير قد اطلع عليها ماذا تقولون تجاه هذه الوثائق فهل تصرون انكم لم تزاولوا أبداً سلطة الوزير؟

كان الغرض من هذا واضحاً.. ان الوزراء والمدراء وجميع الموظفين قاموا بوظائفهم أيام وزارة رشيد فإذا كانت مزاولة الأعمال تُعدّ جرماً فإن الموظفين كلهم يكونون قد اشتركوا في هذه الجريمة. ولكن القصد هو غير ذلك. ومن هنا يظهر في قضيتي بشكل خاص أن الطرف الثاني هم الانكليز ولذا تتمسك المحكمة بالمذكرات والوثائق. وسبق للمحكمة أن عالجت هذا الموضوع وتلت الوثائق عند الاستماع إلى شهود الاثبات فما لها تعود من جديد الى هذه القصة؟.. كان في نفسي أن أقوم وأصرخ في وجه الرئيس وزملائه الجهلة الاذلاء عبيد الانكليز وعبيد عبيدهم وأبين رأيي فيهم وفي أسيادهم ولكن ما الفائدة من ذلك؟ فإننا لم نكن أمام محكمة بل أمام مجلس عرفي يشبه مجالس التحقيق في القرون الوسطى.. فلنصبر ونتحمل!

ج: اذا شئتم أن تتضح القضية تماماً أرجو تلاوة المذكرة البريطانية. اما من جهة مزاولة الأعمال فأقول أنني زاولت عملي كسائر الوزراء وإذا كان هناك بعض التواقيع من قبلي فإنه لم يكن هناك وزير أو مدير عام أو رئيس دائرة لم يوقع في ذلك الوقت. وكما كانت وزارة الخارجية هي الواسطة الوحيدة لتبليغ سياسة الحكومة وتأمين الاتصال مع الخارج فكان من الطبيعي أن أقوم بهذه المهمة.

وفي احدى الوثائق التي تليت علينا سابقاً رأينا بصراحة أن رئيس الوزراء يأمر بارسال كذا وكذا فلا يمكن ايجاد دليل أوضح من هذا على أن الوزارة كانت تحت امرة رئيس الوزراء، والانكليز انفسهم يعرفون، لانهم لم يطلبوا يوماً مقابلة وزير الخارجية وإنما الطلب كان لمواجهة رئيس الوزراء. والمذكرة التي تليت الآن إنما هي جواب على احتجاج موجه إلى رئيس الوزراء أيضاً. أما المسودة التي تليت الآن فانها ليست بمسوّدة انما هي نص برقية واردة من لندن ولا يعني هنا قول

الكاتب أن الوزير اطلع عليها بأنه راض عنها لأن الموظف الذي أرسلها هو في لندن ويظهر من تاريخها في ١٣ نيسان انها كانت تتعلق بأمور جرت قبل الاستيزار لأن مقابلة الصحفيين في لندن بالنسبة الى التاريخ لا بد وانها حصلت في زمن حكومة الدفاع الوطني... ولما أتت البرقية اطلعت عليها وكتب عليها الكاتب أن الوزير اطلع عليها ولا أرى هنا أية مسؤولية تقع على عاتقي فيما إذا أرسل أحد الموظفين في الخارج برقية مثل هذه. وقد تليت علينا الآن بعض البرقيات من مصر ايضاً فإني لا أكون مسؤولاً عنها انما المسؤولية تعود الى مرسلها وفي الأخير أقول أن وضعي في هذه القضية يختلف عن وضع أي وزير أو رئيس دائرة آخر...

ولما انتهيت من هذا الجواب أتوا بعلي محمود الشيخ علي كشاهد اضافي... وكان يرتدي بذلة السجناء فجلس على كرسي الشهادة وأخذ الرئيس يسأله:

علي محمود الشيخ علي (شاهد اضافي. وزير العدلية ايام رشيد ـ الآن سجين)

س: (من المحكمة) هل بينتم معاليكم لاحد أنكم ادخلتم اناساً بالتهديد في وزارة رشيد غير الشرعية كوزراء ومن كان هؤلاء الوزراء؟

ج: إني سبق لي أن وقفت أمام المحكمة المحترمة وبينت أن دخولي للوزارة كان وفق أحكام الدستور وأن الوزارة كانت شرعية ولإثبات شرعية الوزارة أدليت بأدلة مفصلة وعليه أن المنطق يمنع أن يسند إليّ مثل هذا القول لأن إدخال وزراء بالوزارة نتيجة إكراه معناه أنها وزارة غير شرعية. لذلك ليس لي علم من ناحيتي الشخصية أن يكون هناك تهديد وما إلى ذلك. على أنه يجوز أن يكون حضرات الاخوان قد اثبتوا صدق أقوالهم ببينات أخرى..

س: (من محمد علي محمود) هل يتذكر الشاهد المحترم شيئاً عن جلسة مجلس الدفاع الأعلى بتاريخ ١٧ نيسان ١٩٤١؟

ج: ان الذي أعرفه تماماً أن الوزراء بأجمعهم كانت تسودهم روح مودة وصفاء تجاه التحالف البريطاني ـ العراقي وأن المذاكرات سواء كانت في هذه الجلسة أو في غيرها كانت تسودها نفس هذه الروح وذلك أمرٌ طبيعي لأن السياسة التي أعلنها رئيس الوزراء فخامة الكيلاني ترى أن تنفيذ المعاهدة البريطانية نصاً وروحاً هو من اهم النواحي السياسية التي قامت عليها خطة الوزارة وأذكر أن الجلسة التي أشار اليها السيد محمد علي محمود انتهت باصدار المجلس قراراً يتضمن نقطتين، الأولى هي الموافقة على نزول القوات البريطانية إلى البصرة والثانية، ايفاد ضابط كبير لأجل القيام بالتسهيلات اللازمة واستقبال القوات النازلة، فالمنطق يقضي أن تكون هذه القرارات وليدة جبهة ودية لا وليدة جبهة عدائية وكل ما نسب إلى أحد من الحاضرين في تلك الجلسة من اقوال لا تتلاءم والقرار المذكور فتقديره يعود إلى المحكمة المحترمة.

س: (من موسى الشابندر) هل يتذكر الشاهد المحترم من كان السبب في فشل الوساطة التركية ومن الذي أتى الى الخارجية متهماً بالخيانة كل من يحاول القيام بذلك؟

ج: إني كنت أتردد بين آونة وأخرى على وزارة الخارجية وجئت في صبيحة أحد الأيام فوجدت في ديوان الوزارة معالي موسى الشابندر وكان ذلك اليوم الثاني لورود برقية من فخامة ناجي شوكت المتضمنة الشروط المتفق عليها بينه وبين سراج أوغلو وبين السفير البريطاني في تركية وسألته هل ورد شيء عن الجهة العسكرية فيما يتعلق بالشروط المفروضة علينا لأن الجهة العسكرية كانت ترى من حقها أن تتدخل في هذه الأمور. قال لي: أن الجهة العسكرية وافقت وأن صلاح الدين بنفسه اطلع عليها وهو الذي بيّن جهة الموافقة. وبعد ذلك عدت إلى وزارة العدلية. وعدت بعد الظهر إلى وزارة الخارجية لأستفهم هل أرسلت البرقية أم لا؟ قال لي موسى أن رئيس الوزراء سيحضر والحقيقة لا يمكن لوزير الخارجية أو لأي وزير كان أن يقوم بعمل ما إذا لم ينل رضى رئيس

الوزراء... وبعد ذلك حضر رئيس الوزراء وأعلن بأن الجهة العسكرية لم توافق وبعد قليل من ذلك حضر العقيد صلاح الدين وقال أن الجهة العسكرية لم توافق ولا يمكن أن توافق.. احتججنا عليه حسب ما أتذكر أنا ومحمد علي وموسى وحاولنا اقناع ممثل الجهة العسكرية بضرورة قبول ما اتفق عليه مع ناجي شوكت ولكن كانت مساعينا تذهب أدراج الرياح. ثم حضر المرحوم يونس السبعاوي وانضم الى صلاح الدين ولما ضويقا من ناحية الأدلة المتنوعة والقوية أخذ المرحوم يونس ورقة كانت موضوعة على منضدة وزير الخارجية ومزقها ورماها على الأرض وقال انها خيانة وأن ناجي شوكت خائن وترك الغرفة وأعقبه صلاح الدين مردداً نفس الأقوال.

هكذا كانت شهادة علي محمود زميلنا في وزارة رشيد عالي وزميلنا اليوم في سجن أبي غريب وأبرز ما فيها هو التباين بين وجهتي دفاعنا فهو استند على مشروعية وزارة رشيد وأنه اشترك فيها حسب الأصول الدستورية بينما كنا نحن نتمسك بالاكراه ولذا أتت شهادته كضربة قاضية على شهادة عبد الوهاب محمود إذ انه أنكر ما فاه به.. ثم انه لم يضع إفادته بصيغة تكون مفيدة لنا ومن طبائع البشر أن الانسان يود أن يرى غيره واقعاً في مصيبة ومبتلياً ببلائه. وكان بوسع علي محمود أن يشهد بما يؤيد وجهة نظرنا وهو يعلم حق العلم بأننا خرجنا على رشيد وتركناه وهربنا الى إيران ولكن الغرائز أقوى من الضمائر فهو كان ناقماً علينا لأننا تركنا رشيد وجماعته وأنه حكم عليه بالاعدام ثم بالحبس لمدّة سبع سنوات بينما كنا نحن معتقلين في افريقيا. فالآن عز عليه أن نفلت من هذه المصيدة وإن كان يتظاهر ويتمنى لنا الخلاص ولذا فقد أخرتنا شهادته. وعلمت بعدئذٍ أن محمد علي محمود هو الذي طلب من المحكمة جلب علي محمود بواسطة عبد القادر صباح ذلك اليوم وكان جل قصده أن يثبت للمحكمة بأن علي محمود كان حاضراً جلسة مجلس الدفاع الأعلى في ١٧ نيسان بينما ادعى بعض الشهود انه لم يحضر. وهكذا أراد أبوعلية أن يكحل العين ففقسها وكان عليه أن يعلم الحالة الروحية، وهو المحامي البارع، التي كان يقاسي آلامها علي محمود منذ سنتين في سجن أبي غريب. فكيف يطلب شهادة رجل كان ناقماً علينا أيام الوزارة وله آراء خاصة في حركة رشيد ومشروعيتها وله ما له في حكومة الدفاع الوطني؟ وغضب محمد علي لشهادة زميله وسميه علي ولم يزل غاضباً عليه حتى اليوم ولا يكلمه.

طلب الادعاء

شاءت الصدف أن يكون علي محمود الشيخ علي آخر الشهود وقد جاءت شهادته غير مفيدة لنا بل مضرّة في بعض عباراتها كما مرّ ذكره. ولما انتهى علي محمود من افادته نهض المدعي العام وأخذ يتلو طلبه. ومما يلفت النظر أن الوثيقة المحتوية على اتهاماته الجديدة كانت طويلة مما يدل على أنه اشتغل فيها واستحضرها قبل ايام وهذا يعني أنه لم يهتم بشهادات الشهود. ولم ينتظر اتمام الشهادات إذ انه قدّمها للمحكمة بعد شهادة علي محمود مباشرة أي بتاريخ ٥/٨/١٩٤٤. وهذا دليل آخر على قيمة الشهادات في نظر المجلس فالأمر كان كما قلت قد دبر قبل هذه المهازل.

سرد المدعي العام القضية من أولها في مقدمة طويلة، ضارباً على نفس الوتر وهو الوتر الذي ضرب عليه الانكليز وصحافتهم وأذنابهم: أن هنالك عصابة مجرمة مدفوعة بالاطماع من قبل المحور وأنها فعلت كذا وكذا وأن الشهود والوثائق دلت على اشتراكنا نحن المتهمين الحاضرين بتلك العصابة. وقد وردت جملة غريبة في المقدمة المذكورة: «... ودعواهم كانت مؤجلة لديكم ونظراً للأحوال الحربية ما كان بالامكان إجراء محاكمتهم توحيداً مع رفقائهم بالجريمة...».

وفي هذه الجملة خلاصة للأكاذيب ونموذج للتمويه لأن رفقاءنا كانوا معنا ووصلوا معنا إلى دوربان في نفس الباخرة وأعيدوا من هناك بينما نقلنا نحن إلى روديسيا للاعتقال وذلك بالرغم من

أننا كنا مطالبين بالعودة لأجل المحاكمة. والوثيقة هذه مملوءة بمثل هذه التمويهات والافتراءات التي كان منبعها ظاهراً لا يخفى على أحد... ولكن لم يكن لدينا وسيلة للدفاع غير هذه المحكمة المزيفة ولا حول ولا قوة. ولا حاجة لذكر كل ما ورد فيها هنا بل أكتفي بذكر خلاصة ما جاء في حقي وبعض الملاحظات حول ما جاء في حقي محمد علي ورؤوف نظراً للتقارب في أوضاعنا.

قال المدعي العام:

موسى الشابندر: ان هذا المتهم انتخبه رئيس العصابة رشيد عالي مرتين لوزارة الخارجية المرّة الأولى في وزارة رشيد عالي التي تشكلت في جو ملؤه التوتر بين البلاط والوزارة وبين مجلس النواب والوزارة وفي جو كان رشيد عالي والقواد وباقي زملائه الوزراء يتدخلون في أمور السياسة والادارة لتهيئة الوقت المناسب لقلب نظام الحكم وصدرت الارادة بتعيينه نتيجة الضغط على سمو الأمير عبد الاله وكان سمو الأمير غير راغب في تعيينه ولكن رشيد عالي والقواد هم الذين رغبوا بتعيينه ووافق موسى الشابندر على هذه الرغبة.

ولو لم يكن المتهم المشار إليه من حزبهم وموافقاً لهم في مبادئهم لما حصلت الرغبة من رشيد عالي ولما جرى تعيينه بالطريقة المارة الذكر رغم أنه يوجد كثير من المثقفين ومن الرجال البارزين الذين يفوقونه خبرة. إذن فما هي الحكمة وراء إصرار رشيد على أن يكون موسى الشابندر وزيراً للخارجية في وزارته المرقعة دون سواه لو لم يكن هناك روابط بينه وبين موسى الشابندر واتحاد في المبدأ؟ مع أن رشيد عالي لا يود أن يوحد جهوده مع نوري باشا السعيد الذي يعارضه في مبادئه ولكنه وافق على توحيد جهوده مع مؤيده موسى الشابندر رغم أن رئيس الدولة الأعلى غير راغب بادخال الشابندر للوزارة المذكورة. وما هي الدواعي لكي يقبل موسى الشابندر وزارة الخارجية الأولى إذا كان هو غير متجانس مع رشيد عالي وإذا كان حسب زعمه غير صديق له لأن موسى الشابندر مخلص لسمو الوصي عبد الاله فكيف وافق أن يشتغل مع رشيد عالي مع علمه أن رشيد عالي هو عدو سمو الوصي وبعلمه أيضاً بأن ارادة تعيينه قد وقعت بالضغط على سمو الوصي الشرعي وقد تأيدت هذه الحالات بعد ذلك ببضعة أيام، حيث أدت إلى مغادرة سمو الوصي إلى الديوانية للمرة الأولى واندهار وزارة رشيد عالي الكيلاني. ولو كان موسى الشابندر قد رفض قبول وزارة الخارجية الأولى لكنا نقتنع بصحة ادعائه بأنه غير صديق لرشيد عالي وأنه لا يتفق معه بالمبادىء ولكنه تهالك على هذه الوزارة ارضاءً لرشيد عالي ومبادئه ولم يلتفت لحساسيات ومشاعر رئيس الدولة الأعلى بأنه غير مرغوب فيه في تلك الوزارة.

هذا هو أول جواب لموسى الشابندر عما بينه من كونه لم يكن صديقاً لرشيد عالي وغير متفق معه بالمبادىء بيد أننا عندما نسرد البراهين والأدلة الآتية الواردة بحق موسى الشابندر بأنه من مؤيدي مبادىء رشيد عالي ومن حزبه وأنه اشترك فعلاً معه سيتضح لمجلسكم العالي بأن موسى الشابندر هو شريك بجرائم رشيد عالي..

واستمر المدعي العام بهذه اللغة السخيفة وهذا المنطق الافلج يعيد ويكرر بأنني من أصدقاء رشيد عالي ومؤيدي أعماله ولذا أتى بي رشيد للمرّة الثانية وزيراً للخارجية.

ثم قال:

ان الأمور الآتية التي صدرت من السيد موسى الشابندر تثبت كونه مشتركاً بأعمال عصابة رشيد عالي وكان بطوعه ورضائه وسنسردها عليكم كما هو آت:

١ ـ لقد حضر وزير الخارجية موسى الشابندر إلى مجلس الدفاع الأعلى في جلسته المنعقدة بتاريخ ٢٩ نيسان/ ابريل ١٩٤١ تحت رياسة رشيد عالي الكيلاني وعضوية أكثرية الوزراء وقسم من القواد وقد بين وزير الخارجية كما يلي:

«لقد علمت بقرب وصول قطعات بريطانية عدا التي وصلت وتقدر هذه بين ٣٠٠٠ ـ ٣٥٠٠ مشاة و٧٥٪ عمال ومهندسون وأطباء وممرضات وغيرهم و٢٥٪ الباقية هم جنود مسلحون ومعهم مهمات وتجهيزات أخرى وأن هذه القوة حسبما أخبرت من قبل سكرتير السفارة البريطانية هي الآن في الخليج وستدخل البصرة اليوم أو في الغد». وقد بين موسى الشابندر في نفس الجلسة كما يلي: «ليس من رأيي ارسال مذكرة تحريرية أخرى بل نبعث رئيس التشريفات لاخبارهم بأن الحكومة لا تقبل أية مراجعة حول المعاهدة ما لم تكن مذكرة تحريرية ويخبرهم باصرارنا على مذكرتنا الأولى بعدم انزال القوة الجديدة ويقول لهم أنه من الآن إلى ثلاثة أيام إذا لم تحل هذه القضية فسنكون في حل من المعاهدة».

اني لا أتذكر تماماً ما قلته ولكن المدعي العام المغرض أهمل ما قلته في الجلسة التي قبل هذه بلزوم التعاون مع البريطانيين لتطبيق المعاهدة.. ثم لو فرضنا أنني قلت كل هذا فهل هنالك شي يستوجب الاتهام بالجريمة؟ وما هي الجريمة؟ ومتى كان محرماً على وزير الخارجية أن يبين رأيه في المعاهدة وتطبيقها؟ ـ ولكن الجهل والمذلة وصغر النفس عند هؤلاء الحكام ومن وراءهم صيرتهم يرون في هذه الأقوال بحق الحليفة المعظمة جرماً لا يغتفر.

لقد أصدر موسى الشابندر بتوقيعه كتاباً سرياً موجهاً من الشعبة الغربية مؤرخاً في ٢ مايس ١٩٤١ يتضمن اعترافه عن أسباب الاصطدام المسلح وعن سبب ارسال القوات العراقية المسلحة إلى الحبانية بأنه تدبير احتياطي وبأن الحكومة تقوم بواجبها باتخاذ الاستعداد اللازم للدفاع عن سلامة البلاد. كذلك.

(وهنا أخذ المدعي العام يذكر المذكرات الصادرة عن وزارة الخارجية بشأن انزال القوات والمعاهدة. وهي عبارة عن مخابرات تجرى عادة بين وزارة الخارجية والأجانب. وليس في العالم مبدأ قانوني يعتبر مثل هذه المخابرات إجراماً ولكن كما قال المدعي العام أثناء استعراض هذه الوقائع «... وكان موضوع الكتاب شديد اللهجة لا يوافق الآداب الدبلوماسية ومهيج للدولة البريطانية» وهنا بيت القصيد.. وفي نظر هؤلاء «المخاليق» كيف يجرؤ وزير عراقي أن يتجادل في أمرنا مع الانكليز؟ لا سيما إذا كان الممثل البريطاني رجلاً مثل كورنواليس الذي عوده بعض رجالنا على غير هذا الأسلوب... انهم يريدون طاعة عمياء وتذللاً ومسح أحذية. والاّ فالانسان يكون من أكبر المجرمين..)...

ثم قال المدعي العام:

وتوجد كتب متعددة صادرة من وزارة الخارجية بتوقيع موسى الشابندر وجميعها مثيرة ومؤيدة لمقررات رشيد عالي في وزارته غير المشروعة سببت توتر العلاقات بين الحكومتين الحليفتين وانتجت الاصطدام المسلح. أما ما بيّنه شهود دفاعه فإنه لا يؤثر على ما ارتكبه موسى الشابندر من الأعمال المسندة له ولا يدحض ما ورد بحقه من الشهادات والمستمسكات الموقعة بخطه ومن بياناته في جلسات مجلس الدفاع الأعلى ومن دخوله مرتين كوزير خارجية في وزارتي رشيد عالي بالنظر لتقارب المبادىء بينهما والصداقة التي تربطهما ولم يشهد أحد بأن موسى الشابندر قد أجبر بالقوة أو كُبل أو أُهين إن لم يدخل الوزارة إنما شهد شهود الدفاع بأن موسى الشابندر كان يتذمر وطبعاً ان هذا التذمر أولاً لا ينفي التهمة، وثانياً هو تدبير للمحافظة على خط الرجعة. فكان عليه أن لا يدخل الوزارة وأن لا يوحد جهوده مع رشيد عالي إذ كثير من المخلصين لم يشتركوا بل تجرأوا بالصراحة لمخالفة مبادىء رشيد عالي ونذكر منهم السادة نوري باشا السعيد وجميل بك المدفعي وعلي جودت الأيوبي وتحسين بك علي وسماحة السيد الصدر وصالح بك جبر ومصطفى بك العمري وغيرهم من المخلصين. فنظراً لما ذكر من الأسباب أن موسى الشابندر أيضاً هو أحد أعضاء العصابة المشتركين

في جرائم شهري نيسان/ ابريل وايار/ مايس ١٩٤١.

يستبان من هذه الخلاصة أن المدعي العام ترك اتهاماته العديدة التي وردت في الاتهام الأول وحصر التهمة الآن بصداقة رشيد عالي وازعاج الانكليز.. فكان يجب عليّ أن أهرب مثلما هرب الاشخاص الذين وردت اسماؤهم من باب التزلف والرياء. ولكن لم يسأل أحد منهم نفسه لماذا بقي في منصبه أيام رشيد ولماذا ايد النواب والأعيان والعلماء والمشايخ والشعب العراقي كله حركة رشيد في يومها؟ ولم يلتفت منهم أحد إلى أننا لم نوافق على أعمال رشيد عندما أصبح آلة بيد القواد ولا إلى تركنا إياه عندما رأينا الحالة أصبحت لا يمكن معالجتها.. ومن لهجة طلب الادعاء الجديد يرى الانسان جلياً نقمة المثلث وسيرها وراء تطمين العواطف دون الالتفات الى العدل وإلى حقيقة ما قد حصل..

وبعد أن اتهم محمد علي محمود مستنداً على افاداته في مجلس الدفاع الأعلى تناول اتهام رؤوف البحراني مسنداً إليه صداقة رشيد ولكن وجد في كون رؤوف لم يشترك في مجلس الدفاع ولم يهاجم الحليفة أسباباً مخففة وأنهى اتهامه طالباً تجريم كامل شبيب بالفقرة الأولى وتجريمنا نحن بالفقرة الثانية من المادة ٨٠ من قانون العقوبات وتجريم عبد القادر الكيلاني بالمادة ٢٥٥ منه أي أنه أيد طلبه السابق ولم يرَ في كل الشهادات ما يستوجب اعادة النظر في طلبه الكريم السابق.

الدفاع الأخير

عدت ذلك اليوم (٥/٨/٤٤) الى المستشفى متألماً مشمئزاً. بعد أن سمعت أقوال المدعي العام وطلبه الحكم عليّ بموجب الفقرة الثانية من المادة ٨٠ من ق.ع.ب. وكيف لا اكون متألماً لهذه التهمة وانا بريء منها كل البراءة؟

كيف لا اشمئز من لؤم البشر وظلمهم وقسوتهم وسقوطهم الى دركة سافلة مثل هذه؟ أما أنا في نظرالقوم مجرم وقد اشتركت بعصابة مسلحة أرادت قلب نظام الحكم واساءت وفتكت وسجنت وشردت وفي الأخير تصادمت مع الحليفة وشددت الخناق عليها وأساءت إلى البلاد وسببت قتل لانفس الأبرياء وضياع ثروة البلاد وسمعتها و... و... و...

هكذا يدعيّ هذا المخلوق الأفلج الناقص أو بالاحرى هكذا طلب منه أن يدعي وقد مثل دوره، قال لنا يوماً رئيس المحكمة قبل عقد الجلسة أثناء الحديث حول الاتهامات وكانت أقواله فلتة من فلتاته. «ما لكم والمدعي العام؟ هذا بوق! يقول ما يطلب اليه.. نحن نضع كل ما نسمع منه ومنكم ومن الشهود في مصفى. ونحكم على ما يبقى في المصفى..».

نعم إنه بوق سيىء النغمات، مزعج الالحان، ولكن أقواله والحانه، تدل على نوايا النافخين فيه. ويا ترى أي دور يمثل رئيس المحكمة وأعضاؤها؟

إن مجرى المرافعة وعدم قبول المحكمة لجلب شهود الدفاع كلهم والاسراع في احضار الدفاع كل هذا يدل على أنهم مع الأسف طبول جوفاء. وإذا كانت البعرة تدل على البعير فطلب الادعاء العام واصراره على تطبيق المادة ٨٠ بحقنا يدل على وجهة نظر المحكمة والمثلث.

طلب الينا رئيس المحكمة أن نستحضر دفاعنا في الجلسة القادمة ولم يوافق على منحنا مدة تزيد على يومين كما أنه رفض رفضاً باتاً استدعاء شهود دفاع آخرين كما طلبنا. وأيد نظريته بأن لا حاجة للشهود لأن المحكمة تعرف كل شي حق المعرفة... منطق عجيب. ولكن بما أن كل شي يتعلق بهذه القضية عجيب وبما أنه لايوجد استئناف ولا تمييز ولا مراجعة قانونية، فقد كنا أمام دكتاتورية المحكمة عاجزين أن ندافع أو نحتج.

أما أن تكون مادة الاتهام خطيرة، فيها شنق، وسجن، ومصادرة، واسقاط حقوق، وهدم كيان،

وقضاء على الحاضر والمستقبل، فهذه أمور لا تهم أعضـاء المجلس العرفي المـوقر. وقـد أبدى رئيس المحكمة عذراً للاستعجال بأن الحر أخذ يشتد وأن رمضان المبارك قـد اقترب وأنـه هو والأعضـاء وسعادة المدعي العام سيصومون، ولذا يجب انهاء كل شيء قبل رمضان.

نعم يقال إن أكثر الاعضاء يصومون ويصلّون يصومون ويصلـون ولكنهم لا يرون بـأساً بـأن يشتركوا في محكمة أساسها الظلم والعدوان لا تقبل الدفاع ولا تسمع الشهـود الاّ من انتخبت. ولا تتجنب التفسير الأعوج، والتأويل الأفلج، ولا تفتح عينها للحقيقة النـاصعة، وأن لا ذنب لنـا سوى غضب الانكليز وأعوانهم علينا...

نعم يصومون ويصلّون ولكنهم لا يجيبون طلبنـا بتجديـد مدّة الـدفاع كي يتسنى لنـا احضار دفـاعنا بـوجه شـامل مفصـل لأنهم ملّوا من المـرافعة ومن هـذا الحر ولأن أسيـادهم يرغبـون في الاسراع. امـا أن يكون هنـاك أبريـاء يعانـون آلام السجون وهم في خطـر على أرواحهم وأمـوالهم وحريتهم وكرامتهم فهذه امور لا تدخل إلى قلـوبهم... تلك القلـوب التي احتلها الشيطـان فخدرهـا وفسّخها وأنتنها.

كنت أقول أحياناً لنفسي: اتركهم وشأنهم ليعملوا ما يريـدون. لا تدافـع ولا ترد عـلى أسئلتهم انها مهزلة، وهؤلاء ممثلوها، فما معنى الدفاع والكلام؟ والجماعة لا يحلون ولا يـربطون.. ثم أعيـد فأقول: انني بريء ويجب تسجيل براءتي والدفاع عن نفسي فإذا كان هذا لا يفيدني الآن فإنه يفيد متى ينقضي هذا الدور الاستبدادي.

وهكذا استحضرت وأنا في المستشفى الملكي مـا أمكن احضاره من دفـاع مستنداً عـلى افادتي الأولى ومجيباً على اتهامات المدعي العام الأخيرة وهذا خلاصته:

جلسة ١٩٤٤/٨/٧

بغداد ٤٤/٨/٧

إنني عدت الى بغداد في أوائـل سنة ١٩٤٠ ولم يكن لي إذ ذاك لا أصـدقاء ولا أعـداء ما بـين رجال السياسة. أما رشيد عالي فكان يشغل منصب رئاسة الديوان الملكي وكـان بحكم ذلك المنصب حائزاً على اعتماد سمو الوصي وكبـار رجال السيـاسة وبحكم ذلـك الاعتماد أيضـاً صار فيمـا بعد رئيساً للوزارة والتف حـوله الـرجال السيـاسيون البـارزون كنوري السعيـد وطه الهـاشمي وناجي السويدي وغيرهم. وتسلُم رئاسة الوزارة في ذلك الوقت الحرج بالنسبة إلى الحرب كان دليلاً قـاطعاً بأن رشيد كان حائزاً على اعتماد الوصي ورجـالات العراق وكـذلك الحليفـة. أما أنـا فلم تكن لي مع رشيد اية صلة سوى المعـرفة البسيطـة. وفي أوائل ١٩٤١ كنت كسـائر النـاس أسمع بـأن بعض الـوزراء استقالـوا، وأن هنالـك خلاف وأزمـة، ولم أهتم بالأمـر أكثر من ابـداء الأسف عـلى عـدم الاستقرار الذي أصبح ملازماً للحكم في العراق بعد دخولنا عصبة الأمم.

وذات يوم في تلك الأيام صادفني طه الهاشمي وكان هو أيضاً من المستقيلين وقال لي كما بينت في افادتي: «إذا كلفوك بوزارة الخارجية لازم تقبل» ولما اعترضت عـلى ذلك قـال: «إن الوضـع تبدل الآن» ولم أهتم كثيراً بهذا الكلام ولم أصدقـه، ولكن بعد أيـام طلبني رشيد عـالي لمقابلتـه وكلفني بوزارة الخارجيـة ولما اعتـذرت قال لي: «ان سمـو الوصي نفسـه أمر بـأن تكون أنت في الخـارجية» فاستشرت في الأمر صادق البصام لكونه عضواً في الوزارة، ومتصلاً بسمو الوصي فأشار عليَّ بالحاح بالقبول كما ورد ذلك في شهادته. وهكذا دخلت الوزارة معتمداً على كلام رشيد بأن الوصي هـو الذي امر بذلك. وفي اليوم التالي ذهبنا أنا ومحمد علي محمود الذي دخل الـوزارة معي في نفس الوقت إلى قصر الرحاب لتقديم الاخلاص والشكر إلى سمو الوصي فقبلنا سموه بلطفه السامي ولم نشعر بـأنه كان غير راض على دخولنا الوزارة. وفي نفس الليلة لما ظهر الخلاف حول حل المجلس وسافر الـوصي

إلى الديوانية عرفت أنني كنت مخدوعاً وان نصائح الساسة لم تكن في محلها فوقفت تلك الليلة بوجه رشيد وأصريت على الاستقالة حتى تم ذلك واندفع الشر.

وقد هنأني على موقفي ذلك في اليوم التالي كل من سمع بما جرى تلك الليلة وكان في طليعتهم نوري باشا وهنا أقول: لو كنت على رأي واحد مع رشيد لما وقفت ذلك الموقف ضد رغبته وبالرغم من اصراره على البقاء في الحكم والمقاومة الأمر الذي ينفي ادعاء المدعي العام.

أما قول سعادة المدعي العام بأن رشيد عالي لم يوافق على توحيد مساعيه مع نوري باشا الخ... فأقول أن فخامة نوري السعيد اشترك بعدة وزارات مع رشيد وأخرها الوزارة المرقعة نفسها وهذا أكبر برهان على أن الدخول في وزارة ما لا يعني الاتحاد بالمبدأ والعقيدة مع رئيس تلك الوزارة.

أما الادعاء بأنني من أصدقاء رشيد عالي ومن حزبه فإنني أستطيع أن أثبت للمجلس العالي خلاف ذلك. فمن المعلوم أن رشيد عالي تشبث بتأسيس حزب سياسي أيام وزارة الهاشمي وقدم طلباً بذلك من قبل المؤسسين إلى وزارة الداخلية ونشرته الجرائد في حينه فلو كنت من جماعته ومؤيديه كان من الواجب أن أدعى الى تلك الاجتماعات وأدخل في صف المؤسسين؟ فلم يفاتحني رشيد بشيء عن ذلك ولو درس المجلس العالي هذه القضية لتبين لديه صحة ما ادعى. وفي الخلاصة اقول أن دخولي كان عن حسن نية لخدمة بلادي ولكن سرعان ما علمت أنني كنت ضحية جهلي برجال السياسة في العراق وذلك لبقائي ما يقارب العشرين سنة في الخارج...

ادخالي في الوزارة ثانية

لما انتهت الوزارة المرقعة بالشكل المعلوم قررت في نفسي أن لا أعود الى السياسة وكنت أستعد للسفر عندما حلت الحوادث الجديدة على يد رشيد وأعوانه وقد شاء سوء حظي أن أكون ضحيته مرةً ثانية. فقد اتاني رشيد مساء يطلب دخولي الوزارة، فرفضت كما بينت ذلك في افادتي الأولى، وظننت أن الأمر قد انتهى، ولكن الجماعة لم يتركوني، فصدرت الارادة دون علمي وجعلوني أمام أمر واقع، وقد أيد ذلك السيد محمد الراضي بشهادته حيث قال: (انظروا الشهادة).

وعندما سمعت بأنني ادخلت في قائمة الوزراء، ذهبت إلى السراي لمقابلة رشيد، واحتججت على ادخالي دون رضاي فأجابني مشيراً الى «الهوسات» في ساحة السراي: اتستطيع أن تنسحب الآن أمام كل هذا. إني لا أكون مسؤولاً عما يحدث لك إن أصريت على عدم القبول. وهكذا وجدت نفسي أمام أمر واقع بالرغم من رغبتي وإرادتي..

جاء في الادعاء: «ولم يشهد أحد بأن موسى الشابندر قد أجبر بالقوة/أو كتّف أو اهين إن لم يدخل الوزارة». إني اقول أن التهديد باشهار السلاح أو التكتيف هو من ابسط أنواع التهديد ويمكن التخلص منه بشتى الوسائل ويا ليت رشيد عالي توسل بمثلها. على أنه تمكن من خلق جو مشبع بالهستيريا الشعبية لم يسبق له مثيل في العراق، ولعل احسن وصف لتلك الحالة جاء في مقدمة الادعاء نفسه كسد الطرق إلى خارج العاصمة وتهييج الرأي العام بالاذاعة، وتسليح كتائب الشباب، وتحريض الطلاب والهوسات الشعبية، مما جعل الخوف يستولي على الجميع. فمن كانت لديه مثل هذه الوسائل لا يحتاج إلى سحب مسدس أو تكتيف. ولم تسحب مسدسات على أعضاء مجلس الأمة ولا على كبار الموظفين من عسكريين ومدنيين للاستمرار بالقيام بأعمالهم، ولا على الأشخاص الذين تبرعوا بإرسال برقيات الولاء والتأييد، ولا على أرباب الصحف لقيامهم بتلك الدعايات.

إذاً كيف حصل كل ذلك؟

حصل بدافع الخوف والدفاع عن النفس أمام موجة الرعب. فرشيد عالي الذي استطاع أن

يملي ارادته على أعضاء مجلس الأمة وفيهم رجال أصحاب نفوذ وعشائر وسلاح وكانوا كلهم مخلصين للعرش وسمو الوصي، فهل يصعب عليه أن يملي ارادته عليّ وأنا لا أملك شيئاً من أسباب الدفاع عن النفس؟

هذا وان شهادة السيد عبد الوهاب محمود لأبرز دليل على أنني أدخلت جبراً الى الوزارة وتؤيد ذلك شهادة السيد نوري فتاح وعدة شهادات لشهود الاثبات وكذلك شهود الدفاع...

ممارسة أعمال وزارة الخارجية

بعد أن تم لرشيد عالي ادخالي بالشكل الذي بينت، تم له أيضاً بطبيعة الحال أن أقوم بأعمال وزارة الخارجية مرغماً ولما احس أنني لم اكن راغباً بتلك المسؤولية أخذ يراقب أعمال الوزارة ثم استولى على أمورها، واتخذها مقراً له، كما ثبت ذلك في عدة شهادات (شهادات: أحمد زكي الخياط، كامل الجادرجي، حسام الدين جمعة، رشيد الخوجه، يوسف الكيلاني).

هذه نبذ من بعض الشهادات تظهر كيف كان وضعي في الخارجية. وفوق ذلك أقول: هل الوزير الذي يعاد مخفوراً من الحدود ويحجز جواز سفره لدى الشرطة وتمزق أوراقه من قبل يونس وصلاح ويقال له بأن التوسط التركي خيانة. ثم يمنع من الاتصال بالسفير التركي ويرسل غيره في مهمة خارجية بحتة إلى انقره وآخر غيره الى الرياض. أقول هل هذا الوزير يعد ممارساً لأعمال وزارته؟ إن أول شرط لممارسة العمل هو الحرية. فهل كانت هناك حرية ايام رشيد عالي؟

لقد جاء في شهادة السيد علي محمود الشيخ علي، وهو أحد الوزراء المخلصين لرشيد عالي ما يلي: «والحقيقة لا يمكن لوزير الخارجية ولا لأي وزير كان أن يقوم بعمل ما إذا لم ينل رضاء رئيس الوزراء». وبعد هذا كله أقول: هل كانت هناك وزارة خارجية أم أنها دائرة مرتبطة برئيس الوزراء؟ وإذا كان القصد من ممارسة العمل هو الدوام في الوزارة والتوقيع على بعض الأوراق فكل رؤساء الدوائر من وزراء إلى مدراء عامين إلى امراء الجيش كانوا بنفس الوضع. فالكل كان يداوم والكل يوقع والكل خاضع لأوامر رشيد عالي ومصيبتي كانت انه كان جالساً معي في الوزارة وقابضاً على أمورها الأمر الذي يجب من الباب الأولى أن يرفع المسؤولية عني تماماً. فالمذكرات التي وقعت عليها تحت هذه الشروط تبين آراء رشيد الشخصية كما بينت ذلك مفصلاً في افادتي، والآن أكتفي بلفت نظر المجلس العالي إلى مذكرة واحدة فقط على سبيل المثال وهي بتاريخ ٣٠ نيسان/ ابريل ١٩٤١ وتتعلق بقضية ارسال الجيش الى الحبانية. انني قلت قبلاً وأقول الآن مؤكداً بأنني لم أعلم بهذا الأمر قبل وقوعه بل سمعته كشائعة صباح ٣٠ نيسان/ ابريل ولكن بعده أتى رشيد عالي إلى الخارجية وأكد الخبر، وعند احتجاجي على هذا العمل دون اخباري، أجاب بأن هذه أسرار عسكرية وعلى أثر ذلك قدمت استقالتي فرفضها وقال: «انسحاب وزير يعادل انسحاب فرقة من الجيش» ثم خرج وعاد ومعه مذكرة احتجاج من السفارة البريطانية فكتب الجواب عليها وهذه كانت مذكرة الخارجية المذكورة. فلو تفضل المجلس ودرس مذكرة السفارة الموجهة حسبما أتذكر إلى شخص رشيد عالي المرقمة ١٨٠ والمؤرخة في ١٩٤١/٤/٣٠ يتضح له جلياً بأن رشيد عالي هو الذي كتب تلك المذكرة الجوابية. هذا مثال واحد وما الوثائق الأخرى الا من هذا القبيل.

مجلس الدفاع الأعلى

أما حضوري مجلس الدفاع الأعلى فلم يكن ذلك برغبة مني إذ أن نظام المجلس نفسه يعين الأعضاء من بين الوزراء ومع ذلك فإن كلامي في ١٧ نيسان/ ابريل ١٩٤١ ونصائحي للمتحمسين كان له التأثير الطيب وتم انزال الجنود في البصرة، مما يدل على رغبتي في تطبيق المعاهدة. ولو سمحت المحكمة المحترمة باستماع أو أخذ شهادة جميع شهود الدفاع الذين قدمت بهم قائمة

وخاصة الأجانب منهم كالسفير البريطاني والوزير التركي والوزير البلجيكي والمس فريا ستارك والكولونيل «بولوك» والمستر ادموندس لظهرت حقيقة وضعي.

هذا وأعتقد بعدما سردت من بيانات أن المجلس الموقر سيكون على اعتقاد جازم من عدم مسؤوليتي في الاشتراك بالوزارة وألفت نظر المجلس إلى الظروف القاسية التي كانت سائدة في العراق آنذاك وعلى ضوء هذه الحالات اعطاء القرار ببراءتي مما أسنده الادعاء الي».

هكذا كان دفاعي وقد تلوته أمام المجلس يوم ١٩٤٤/٨/٧ بعد أن انتهى محمد علي محمود من تلاوة دفاعه. وكنت أنظر الى وجوه أعضاء المجلس. فكانوا غير مهتمين وعلى وشك النوم.. لأنه بالنسبة له كان ذلك ضياعاً للوقت الثمين. حتى أن أحدهم رجاني أن أسرع بالتلاوة...

أما الرئيس مصطفى راغب فكان يتظاهر بالاهتمام ويخط من وقت لآخر بقلمه على ورقة أمامه. وكنت أنا أيضاً أشعر قلبياً أن ما هذا الكلام؛ كلامي وكلامهم وكل ما قيل في المحكمة وما سيقال سوى لغو في لغو.. فالأمر مدبر ومقرر من قبل..

ان كل ما ورد في دفاعي هو صدق وحق ولكن هناك امور حقيقية أخرى لم أجد لزوماً لبيانها وقد فضلت طريقة الاختصار والاكتفاء بذكر ما يدحض أقوال المدعي العام فقط... وكان بوسعي أن أفصّل وأحلّل كما فعل محمد علي ولكن كما ذكرت فإن التطويل أو الاختصار أو السكوت التام، كان كل ذلك متساوياً في وضعنا، إذ أن قصد المحكمة لم يكن اظهار الحقيقة انما تنفيذ الأوامر!

وتلا بعدي الشريف دفاعه وكان عبارة عن بضعة كلمات. وأعقبه رؤوف البحراني ورفعت الجلسة... وعدنا... أنا الى المستشفى والجماعة إلى «أبي غريب».

شهادة المستر أدموندس

إن الشذوذ الذي كان يحيط بقضيتنا من جميع وجوهها قد أربك دفاعنا وقيده. في بادىء الأمر توقيفنا في أبي غريب تحت مراقبة الحرس الملكي ثم رفض المحامين الواحد تلو الآخر التوكل عنا، ثم تبديل المدعي العام وبعض الحكام، ثم منعنا كمتهمين من الاتصال بالخارج، ومن الاتصال ببعضنا، ثم اتهام المفتي بنفس المادة التي اتهمنا بها، ثم تملص بعض الشهود واعتذارهم، ثم رفض المحكمة جلب بعض شهود الدفاع، كل هذا ومداخلة الأمير عبد الاله في كل صغيرة وكبيرة ومجيئه أحياناً بالذات إلى أبي غريب ومقابلته للبعض منا، كالشريف شرف، وعبد القادر الكيلاني، وغيرها من الأمور كانت بطبيعة الحال من المؤثرات القوية ضدنا، وعرقلت كثيراً أمر دفاعنا، وشوهت الحقائق، وأبرزت الاغراض، وشجعت الاحقاد.

هذه الأمور والنصائح التي أخذت تأتينا من كل جانب جعلتنا نسند دفاعنا كما بينت إلى الجبر والإكراه وهذا دفاع ركيك في حد ذاته، وإن كان في الحقيقة هناك شيء من الإصرار والإكراه.

وكان المستر ادموندس أحد الناصحين لنا بأن نربط دفاعنا بالنظرية التي تمسك بها مجلس الأمة وعليه، فانني طلبت بأن تجلبه المحكمة شاهداً بالنظر للاتصال الذي كان بيننا أيام وزارة رشيد. ولأنني عندما أردت أن أستقيل أثناء الأزمة نصحني بصفته صديقاً ووسيطاً للتقارب بين الحكومة والسفارة بأن اتريث وابقى في منصبي إلى آخر الشهر. ولم يظهر المستر ادموندس رغبة في الحضور أمام المحكمة معتذراً بانه على وشك السفر بالإجازة فطلبنا منه أن يزودنا بشهادة تحريرية فوافق على ذلك بعد بعض التردد، وارسل إلي ابراهيم شهادة حول بعض ما دار بيننا من الأحاديث خلال شهر نيسان/ ابريل. ولكن في الوقت نفسه أخبر ابراهيم بأن وضعه مع الوصي ليس بالوضع الجيد وأن الأمير غير راض عليه ولذا، فإنه يخشى من أن تكون شهادته أكثر ضرراً فيغضب الأمير

وينعكس الأمر وتنقلب الآية. هذا وكان الانكليز كلهم يلمحون وادموندس يصرح بواضح العبارة أن القضية هي بين يدي الأمير عبد الاله وله أن يتصرف كما يشاء. فلمّا كان الوضع هكذا وقعنا في حيرة فترددنا وتردد المحامون ومن استشرناهم في الأمر. وقررنا في بادىء الأمر عرض الشهادة التحريرية على المجلس العرفي وقد ذكرتها في نص دفاعي ولكن في آخر لحظة عدلت ذلك وقطعتها من الدفاع. ثم ندمنا على ذلك بعد صدور الحكم. وكل هذا يرينا إلى أية درجة وصلت مداخلة الأمير الشخصية وكيف أنها أثرت على المحكمة وعلى دفاعنا. اننا كنا في حقيقة الحال سجناء شخصيين لسمو الأمير فإنه يملك رقابنا وحياتنا ومستقبلنا وأموالنا. هكذا طاب للانكليز ولرجالنا أن يخلقوا أميراً مستبداً فيسلطونه على خصومهم وعلى خصومه. وطاب للأمير أن يقوم بمثل هذا الدور ونسي انه يجب عليه أن يكون فوق المخاصمات السياسية والفردية واسترسل في تطمين رغباته وساقه غضبه على رشيد والقواد بأن يشملنا بنقمته لمجرد اشتراكنا مع رشيد في وزارته. ولما لم يكن بالامكان توزيع تلك النقمة على جميع الرجال الذين آزروا رشيد وأيدوه لأن ذلك يشمل الأكثرية الساحقة من أهل البلاد ورجالاتها، فقد اتفقوا على حصر المسؤولية بالوزراء وقرّروا تلبيسنا ثوب الجريمة وتحميلنا وزر ما وقع.

ولما كانت شهادة ادموندس وثيقة هامة بالنسبة لي، فإني أسجل نصها وترجمتها:

Ministry of the Interior,	**العراق**
Iraq	وزارة الداخلية
Baghdad, the 25 July 1944	بغداد ١٩٤٤/٧/٢٥

At the request of Seyid Ibrahim al-Waidh, lawyer of Seyid Musa al-Shabandar, I record the following information regarding the events of April 1941.

In the course of my duties I saw Seyid Musa al-Shabandar at the Ministry of Foreign Affairs two or three times. At the first interview Seyid Musa stated to me that he had only joined the cabinet of Rashid Ali on the understanding that it would carry out the terms of the Alliance with Great Britain.

At a subsequent interview he expressed to me his disgust at the course of events and said that he was thinking of resigning.

At that time our object was to prevent any open clash for as long as possible in order to give time for the British forces from India to reach Basrah. I did not, of course, tell Seyid Musa this. But since I considered him to be wiser and more moderate than the other men in power and in view of what he had said during the first conversation referred to above, I asked Seyid Musa to consider carefully in which of the two ways he could best serve the interests of Iraq and the policy of honouring the treaty; whether by resigning or, on the contrary by remaining in office and trying to exercise a moderating influence on his colleagues.

As far as I remember I did not see Seyid Musa again after that interview.

C.J. Edmonds,
Adviser, Ministry of Interior.

«الترجمة»

بناءً على طلب المحامي ابراهيم الواعظ وكيل السيد موسى الشابندر أسجل المعلومات التالية فيما يتعلق بحوادث نيسان/ ابريل ١٩٤١.

خلال قيامي بواجباتي قابلت السيد موسى الشابندر مرتين أو ثلاثاً في ديوان وزارة الخارجية فبين لي في المقابلة الأولى أنه لم يشترك بوزارة رشيد عالي إلا بعد علمه بأنها

ستنفذ شروط المعاهدة مع بريطانيا العظمى. وعبر لي في المقابلة التي تلت المقابلة الأولى عن استيائه من سير الحوادث وقال بأنه كان يفكر في الاستقالة.

وكان هدفنا في ذلك الوقت، منع وقوع أي تصادم علني لأطول مدة ممكنة بغية تيسير الوقت اللازم لوصول القوات البريطانية من الهند إلى البصرة ولم أقل ذلك طبعاً للسيد موسى. ولكن بما أني كنت أعتبره أعقل وأكثر اعتدالاً من الرجال الآخرين الذين كانوا في الحكم وبالنظر الى ما قاله لي خلال محادثته الأولى المشار اليها أعلاه فقد طلبت الى السيد موسى أن يفكر بإمعان في أي الطريقتين يمكن أن يخدم مصالح العراق وسياسة احترام المعاهدة بصورة أفضل في الاستقالة أم بالعكس في البقاء في الوزارة ومحاولة ابداء تأثير معتدل على زملائه؟

وبقدر ما أتذكر لم أتواجه مع السيد موسى ثانية بعد تلك المقابلة.

التوقيع سي جي ادموندس
مستشار وزارة الداخلية.

هكذا كانت الشهادة وهذا هو الانذار الملحق بها وهو بخط المستر ادموندس:

Dear Ibrahim Beg.

I send you my note on my conversation with Musa as you wished. But I still think it may do him more harm than good. You must judge.

Yours Sincerely
C.J. Edmonds.

«الترجمة»

عزيزي ابراهيم بك

أرسل لكم شهادتي حول محادثتي مع موسى كما طلبتم ولكنني لم أزل أعتقد أن عرضها قد يسبب له ضرراً بدل الفائدة ولكم أن تقدروا ذلك.

٤٤/٧/٢٦ **المخلص**
ادموندس

وعلاوة على هذا الانذار الصريح كان ادموندس قد أخبر أخي ابراهيم بأنه يخشى أن يكون لشهادته رد فعل مضرّ لدى الوصي. وكلام ادموندس في مثل هذه الظروف كانت له قيمته فلا شك انه اتصل بالسفارة قبل أن يرسل شهادته ورأيه اذن يمثل رأي كورنواليس وهذا يعلم ما لا يعلمه غيره، وقضية غضب الوصي، أو عدم غضبه، كانت في الظاهر العامل الأكبر في الأمر. وعليه وقعنا في حيرة من أمرنا، وقد زادنا تردداً صيغة الشهادة إذ ذكر ادموندس أني قلت له بأنني دخلت الوزارة على شرط تنفيذ المعاهدة وهذا يعني أنني دخلت بارادتي بينما دفاعي كان مستنداً على الجبر والإكراه. وهذا تناقض واضح. فأمام هذه المناقضات وتخوفات ادموندس وخوفنا من اغضاب الأمير عبد الاله، قررنا في آخر لحظة عدم تقديم الشهادة. ولكن بعد ان صدر الحكم ندمنا على ذلك.

وهكذا انتهت صفحة غريبة أخرى من المهزلة. فاعتراف ادموندس وهو مستشار الداخلية ومتصل بالسفارة والحكومة بأن شهادته قد تضر بدلاً من أن تنفع دليل جديد قوي على أننا كنا في الظاهر أمام محكمة غير شرعية وفي الحقيقة كنا أمام مهزلة لا قيمة للدفاع والشهادات فيها.

وبعد أن صدر الحكم بمدة قابل أخي ابراهيم ادموندس فقال هذا انه استغرب كثيراً صرامة

الحكم وقسوته لأنه كان يعتقد بأن المدّة ستكون بسيطة والغرامة محدودة ومعقولة فأجابه ابراهيم ربما لتعليمات لندن تأثير على ما حصل فقال ادموندس.. «لندن؟ لماذا لندن؟ بل التأثير من سرسنك». ويعني بذلك الأمير عبد الاله لأنه كان مصطافاً في سرسنك ويرسل تعليماته الى المحكمة ومن يلزم...

ولكن مهما قال ادموندس وغيره فاني كنت طوال الوقت ولم أزل حتى اليوم أعتقد بأن للانكليز وللسفير خاصة نصيباً وافراً من تلك المظالم. والحقيقة ان للمثلث حصة في كل ما وقع وقد يكون للوصي حصة الأسد بالنسبة لبعض الأشخاص وقد يكون للانكليز مثل تلك الحصة بالنسبة للأشخاص الآخرين. فإنهم اتفقوا وتقاسموا وتبادلوا في تطمين الرغبات، وتوزيع النكبات، وانزال العقوبات، وتسديد الحسابات.. وهكذا حصل التوازن. وتم الاتفاق..

اذكر بهذه المناسبة وتأييداً لما قلت انه أثناء المحاكمة قابل المستر «كرايس» وهو صديق ابراهيم وصديقي، السفير وتحدث اليه فأجابه السفير بأنه يتابع القضية باهتمام وكانت كلماته حرفياً «I am alive to the matter» هذا ودلائل عديدة أخرى تثبت أن للانكليز حصة متساوية في تدبير قضيتنا وأنه من البلادة اسناد كل شيء للأمير عبد الاله. انهم تركوا له الحرية التامة بعد أن نصحوه بما يجب عمله وقد اتفق ذوق الأمير وذوق الانكليز وذوق نوري السعيد في طريقة معالجة القضية من جهة الأساس وتُرك أمر التفاصيل والحواشي والمداخلات للأمير وذلك من باب الارضاء والتكريم، سيما وقد كان الأمير الهدف الأصلي لحركة رشيد، حيث اجتمع المجلس وخلعه ونصب وصياً غيره، وهرب الأمير، والتجأ إلى الانكليز وأعاده هؤلاء بعد أن قضوا على حركة رشيد. أوليس من حق الوصي بعد كل ذلك أن يبطش وينتقم؟... نعم إن من حقه أن ينتقم لأنه من البشر ولكن ليس من حقه ولا من حق الانكليز أن يقيموا تمثيل مهزلة عن طريق المجلس العرفي ويأتوا بمن ليس لهم ضلع في الحركة ويحملوهم ذنب غيرهم كما فعلوا معنا. ليس من حقهم أن يحرقوا الأخضر مع اليابس ويجمعوا الحق بالباطل!

جلسة ١٩٤٤/٨/٨

أخذونا إلى معسكر الوشاش لحضور المحكمة لانه لم يبق متسع من الوقت في الأمس للاستماع إلى دفاع كامل شبيب. فلما عقد المجلس العرفي جلسته طلب إلى كامل شبيب أن يقدم دفاعه. فنهض هذا وأخذ يتلو ما استحضره في السجن هو بنفسه لأنه لم يتمكن من الحصول على من يدافع عنه ولم تسهل عليه المحكمة هذه الصعوبة. فأخذ كامل شبيب يتلو تفاصيل الحوادث وقاطعه أحياناً المدعي العام وأخذ يكلم رئيس المحكمة بالتركية بأن هذا الدفاع ليس من كلام كامل شبيب وأنه لربما ساعده أحد الساجين ويقصد بذلك علي محمود. فكأنما لا يجوز لمتهم أن يطلب مساعدة احد للدفاع عن نفسه، فهذا المخلوق العجيب عبد العزيز الخياط لم يرَ بأساً من طلبه رأس كامل ولكنه يرى في التجاء المتهم لدفع اتهامه جرماً لا يغتفر...

واستمر كامل يدافع عن نفسه ويتخبط في دفاعه وهو لا يدري ولا يصدق أن بينه وبين الشنق أياماً معدودة فقط...

أما وضع رئيس المحكمة وأعضائها فكان وضع الساخر الشامت إذ كانوا كلهم غير صاغين لأقوال هذا الرجل الذي كان يدافع عبثاً عن حياته وكانت تظهر بعض الابتسامات الصفراء على شفاه بعضهم من حين لآخر... ابتسامات التشفي من الخصم المغلوب، ابتسامات الثعالب عند توسل الدجاج...

وبعد أن انتهى كامل من دفاعه، أمر رئيس المحكمة بتلاوة تقرير مفصل يبين أضرار الحكومة

العراقية التي حصلت بسبب التصادم بين الجيش العراقي والقوات البريطانية في الحبانية، وكان مجموع تلك الأضرار يبلغ ١,٦٠٢,٤٣٦ ديناراً و١٩٠ فلساً.

ومع اننا كنا في وضع حرج فلم نتمالك من الابتسام على هذه الأرقام ولا سيما على الـ (١٩٠) فلساً. فهل وصل الكمال والاتقان بالعراق إلى درجة مثل هذه، فاستطاع القوم أن يزودوا أنفسهم بقائمة صادقة الى هذا الحد؟...

يا ترى من هو هذا البارع القدير الذي استطاع أن يوصل العراق الى هذه الدرجة من الكمال وضبط الأمور؟ إنها ناحية جديدة لهذه المهزلة الواسعة المتشعبة غير أن المحكمة واعضاءها والمدعي العام كانوا يستمعون إلى هذه السخافات بكل جد واهتمام لأن مصدرها هو مصدر نفوذهم وتكوينهم وتسيّرهم.

فلما انتهت تلاوة هذه السخافات أعلن الرئيس انتهاء الجلسة وطلب من المحامين احضار دفاعهم يوم السبت القادم الموافق ١٢ آب/ أغسطس ١٩٤٤ أي بعد ثلاثة أيام. وعبثاً حاول المحامون تمديد المدّة لاحضار الدفاع إذ تمسك الرئيس بنظريته حول اشتداد الحر وقرب رمضان. ولم يكن لدينا سوى قبول هذا الأمر... والتوكل على الله.

عندما عدت الى المستشفى ذلك اليوم أخبرني الرئيس عبد القادر بأن المحكمة طلبت اعادتي الى سجن «أبي غريب» فرجوته أن يمهلني الى يوم السبت حتى أستطيع أن اتصل بالمحامين لاحضار الدفاع فقابل الدكتور سندرسن حول الأمر فوافق هذا على بقائي ثلاثة أيام أخرى في المستشفى.

«دفاع المحامين»

بينت أن المحامين الذين اتصلنا بهم وكلفناهم بالدفاع عني رفضوا واعتذروا وتمسكوا بأسباب سخيفة للتملص من تكليفنا وهكذا اثبت هؤلاء الأبطال، ومنهم الأصدقاء كنصرت الفارسي ونجيب الراوي ومصطفى العمري ونشأت السنوي. اثبتوا بأن حق الدفاع المقدس أصبح في بلادنا هو ايضاً مهزلة من المهازل. فأرباب القانون هؤلاء وحماته فضلوا التملق للأمير وكسب رضائه وهذا في نظرهم أشرف وأحسن من الدفاع عن المتهمين الذين غضب عليهم الوصي والانكليز ونوري السعيد. أنهم يركضون وراء الدّعاوى للدفاع عن القتلة واللصوص وقطاع الطرق والمختلسين والمرتشين والمحتالين وغيرهم من انواع المجرمين. انهم يشمّرون عن السواعد في مثل تلك الدعاوى ويقابلون الوزراء والحكام ويتوسطون ويرشون ويترافعون ويعملون كل الأعمال في سبيل خلاص أولئك المتهمين أو المجرمين، ولكن في قضية مثل قضيتنا لها مساس بالوطن وكرامته وبالانكليز والاستعمار، فقد اعتذروا كلهم وفضلوا الانسحاب تملقاً للوصي وارضاءً للانكليز...

وهكذا بعد أن جبن وفرّ عظام المحامين وكبارهم من ميدان الدفاع اضطررنا لتوكيل محامين من الطبقة الثانية ممن ليس لهم نفوذ وصولات وجولات واتصالات. فعبد العزيز السنوي وهو وكيلنا الدائم ليس من أرباب هذا الميدان لا من جهة العلم ولا من باب المقدرة وابراهيم الواعظ لا يفوقه الّا قليلاً بسبب بعض اتصالاته واشتغاله بالقضايا العربية وكما أن الشيطان عند الحاجة والجوع يلتهم الذباب حسب المثل الألماني فإننا قبلنا بهذين الصديقين شاكرين لهما وفاءهما وفضلهما.

على أن مهمة المحامين في مثل قضيتنا كانت محدودة، فالمجلس العرفي قائم بأساليب خاصة وأبواب المراجعات كانت موصدة والقانون كان مهملاً والعدالة مسخّرة ومقيدة، فماذا يعمل المحامي في هذا الوضع؟ كانت مهمة ابراهيم الواعظ تسجيل محاضر الجلسات وقد اتصل بحمدي

الباجه جي رئيس الوزراء مرةً أو مرتين وهذا الرئيس لم يكن له تأثير على الأمر أكثر من أي شخص آخر في البلد. أما عبد العزيز السنوي فكان يجلس في المحكمة كسائر المستمعين يمسح العرق عن جبينه ويشرب الماء لتسكين العطش وقد اعترض مرة أو مرتين في المحكمة على بعض التوافه الشكلية وأزعل الرئيس. وفوق هذا كان عبد العزيز السنوي غير مرغوب فيه حتى أن المدعي العام عبد العزيز الخياط قال للرئيس عبد القادر مرةً من أين أتى الشابندر بهذا المحامي «النازي» لأنه قد سبق له أن دافع أمام المجلس عن بعض الشبان المتهمين بميولهم المحورية.. ولذا كانت الفائدة من المحامين محدودة جداً ان لم أقل أنها كانت معدمة بالمرّة... وظهر عجزهم عند احضار دفاعهم عني ولذا استحضرت الدفاع بنفسي فطلبت علي أفندي الموظف عندنا في الخان وصرت أملي عليه وهو يكتب، هكذا قضيت نهارين وأنا في السرير في المستشفى وتحت تأثير الحر الشديد والمرض وهذه المرارات، استحضرت الدفاع ولما انتهيت منه أرسلته الى المحامي ابراهيم الواعظ فأضاف اليه بعض النقاط القانونية المتعلقة بالمادة ٨٠ وغيرها. وهكذا أتى دفاع المحامين صورة موسّعة من دفاعي الأصلي.

كنت في المستشفى أكتب وافكر وأفنّد نقاط الاتهام واني شاعر بأن لا فائدة من كل هذا. لأن القضية لم تكن قضية دفاع مستند إلى القوانين والمنطق وإنما قضية انتقام موجه ضد رشيد عالي وضد كل من آزره بشكل من الأشكال او زامله أيام الحركة.

صباح السبت الموافق ١٢ آب/ أغسطس ١٩٤٤ ذهبت إلى معسكر الوشاش بعد أن تركت المستشفى لأنه قد تقرر ارجاعي الى سجن «أبي غريب» بعد ختام جلسة المحكمة. فلم أجد في الوشاش سوى محمد علي محمود ومحامييه عيسى طه وجلال كامل مهدي ثم حضر أخي ابراهيم ومعه ابراهيم الواعظ وعبد العزيز السنوي. أخذونا حسب المعتاد بالحراب والحرس الملكي إلى قاعة المحكمة وجلسنا أبو علية وأنا في قفص الاتهام. وبدأ المحامي عيسى طه يلقي دفاعه واستمر لمدة تزيد على الساعة وبعد فترة قصيرة للتدخين وشرب الماء أتى دورنا فنهض ابراهيم الواعظ وأخذ يتلو دفاعي بدون حماسة وبدون ما يجذب الاهتمام من الأصوات والعبارات فكان أقرب لتلميذ يقرأ كتاباً منه الى محام يدافع بإيمان وقوة قلب وكانت أبرز النقاط في دفاع المحامين ما يلي:

كلمة عن شخص موكلنا: يذكر هنا تاريخاً موجزاً عن دخولي الوظيفة واشتغالي في جنيف وبرلين وما قمت به من الخدمات لبلادي.

لا علاقة لموكلنا بالعصابة أو تكوينها: مما ورد هنا:

«جاء في مقدمة الادعاء بأن فتنة شهري نيسان/ ابريل وأيار/ مايس ١٩٤١ لم تكن وليدة هذين الشهرين بل انها تكونت بحوادث وأزمان قبل هذا التاريخ... حيث تعود بعض الطامحين من رجال السياسة على تشجيع تدخل الجيش والعشائر في أمور الدولة. وليس من شأننا أن نستعرض تلك الحوادث البعيدة أو نحلل اسبابها أو نعدد رجالها اذ ليس لموكلنا علاقة ما بتلك الأمور لانه لم يكن موجوداً في العراق ولم يرجع إلى بغداد الا بعد الحرب... ولم يسبق له أن فكر أو شرع أو انتمى أو كون أو تدخل في سياسة العراق أو اشتغل باسقاط حكومة ونصب أخرى. ولهذه الأسباب لم يكن لموكلنا يد أو اصبع في كيفية تكوين العصابة أو الاشتراك معها بالأعمال التي كان يقوم بها أعضاؤها سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، علنية كانت أو مستترة، ولم تكن له اية صلته بأي شخص من الأعضاء العسكريين أو الملكيين الذين كونوا هذه المجموعة ولم يقم اي دليل مادي على صلة بهذه الأعمال وقد شهد له كل من ارشد العمري وصالح جبر وغيرهما بذلك.

نازي المبدا: ذكر هنا نفس الدفاع الذي ورد في دفاعي الأول.

صديق رشيد عالي: ورد هنا نفس الدفاع بصورة مفصلة واستند الى الشهادات...

الاشتراك في وزارة رشيد عالي غير المشروعة: هنا أيضاً أورد المحامون نفس الحجج ونفس النظريات حول الإكراه والإجبار حتى قالوا... «... والكل يعلم بأنه لم تسحب مسدسات على أعضاء مجلس الأمة لجمعهم واتخاذهم ذلك القرار الخطير ولم تسحب مسدسات على كبار الموظفين من عسكريين ومدنيين (هنا تلميح إلى أعضاء المجلس ونفس المدعي العام) للقيام بأعمالهم حسب أوامر رشيد عالي ولم تسحب المسدسات على الأشخاص الذين تبرعوا بارسال برقيات الولاء والتأييد ولم تسحب المسدسات على أرباب الصحف لقيامهم بدعايات مؤيدة لرشيد عالي وحركته ولم تسحب مسدسات على الموظفين خارج العاصمة أو خارج العراق لإرسالهم البرقيات واضعين أنفسهم تحت تصرف رشيد عالي مزمرين مطبلين لما قام به.. فلنضع الحق نصب أعيننا ونتساءل مكتفين بهذه الأمثلة. كيف حصل كل هذا دون إشهار سلاح أو تكتيف أو تهديد؟ هذا ولما كان الدفاع عن النفس من الحقوق المقدسة المعترف بها من قبل جميع القوانين السماوية والمدنية وقد أخذ هذا المبدأ بعين الاعتبار بقضية تصويت المجلس الخطيرة وغيرها من القضايا فيحتم العدل والانصاف بأن لا يحرم موكلنا من قدسية ذلك الحق، لا سيما وأن الظروف والعوامل والأشخاص المحيطة في اكراه أعضاء المجلس، كانت هي نفسها موجودة عند اكراه موكلنا على قبول الوزارة هذا فضلاً عن أن القرار الذي اتخذه مجلس الأمة كان أكثر خطورة وأكبر مسؤولية من أي عمل فرض القيام به، على غير أعضاء المجلس. وإذا كانت معذرة أعضاء المجلس على التصويت وجود بعض الضباط المسلحين في شرفة المستمعين فإن موكلنا كان معرضاً لبطش تلك الجماعات وبطش غيرهم بصورة مباشرة. والبطش بالفرد الواحد اسهل بكثير من البطش بالجماعات».

ثم استعرضوا قضية الهرب وشهادة عبد الوهاب محمود وشهادات أخرى..

ممارسة اعمال وزارة الخارجية: هنا أتى دفاع المحامين مثل دفاعي وذكرنا نفس الملاحظات فيما يتعلق بالمذكرات.

محاضر مجلس الدفاع الأعلى: فنَّد دفاع المحامين قيمة تلك القصاصات وأثبت أنه لا يمكن الركون إلى مثل هذه الأوراق المبعثرة التي هي في متناول الأيدي في مثل هذه القضية الهامة واستشهدوا بأقوال الشاهدين رفيق عارف، ونور الدين محمود، حول اسناد أقوالي الى صلاح الدين ثم بوجود حشو في الضبط محرر بالحبر في الوقت الذي كان الضبط محرراً بقلم الرصاص وقول رفيق عارف حول هذا الأمر: «المحضر المكتوب بقلم الرصاص بخط يدي انا كتبته داخل الجلسة. أما المكتوب بالحبر فقد كتبه محمود الدره بعد مرور بضعة أيام» بعد هذه الصراحة حول ما يدخل في محاضر الجلسات وبعد مرور أيام من قبل رجل لم يكن حاضراً في الجلسة هل يمكن أن يقال أن هذه محاضر جلسات حقيقية يؤخذ بمندرجاتها؟...». ثم ذكروا: «ولو سلمنا جدلاً أن هذه القصاصات المبعثرة معتبرة ويؤخذ بمضمونها فإن الكلمات التي نسبت الى موكلنا ان دلت فلا تدل الّا على أنه حريص على تطبيق أحكام المعاهدة البريطانية العراقية وانه كان في موقف الناصح للمتحمسين من أعضاء المجلس وان كل ما نسب الى موكلنا من أقوال في جلسات أخرى انما هو قول يكذبه موقفه وكلامه في الجلسة الأولى...

موقف موكلنا تجاه الحليفة والمعاهدة: هنا اشارة إلى اعمالي وتعاوني مع الوفود البريطانية في عصبة الأمم واشارة أخرى إلى عدم اعلان العراق الحرب عند نشوب الحرب. وذكرا ما دار بيني وبين ادمونس حول الاستقالة حتى قالا: «ولو وافقت المحكمة على استدعاء الشهود الأجانب كالسفير البريطاني والوزير التركي والمس فريا ستارك والكولونيل بولوك الخ... لاتضح لها صحة ما يدعي موكلنا...».

مناقشة تطبيق المادة (٨٠ من ق.ع.ب): هنا أثبت المحامون أن لا علاقة للتهم الموجهة إليَّ بما احتوته المادة المذكورة. وهي تحتوي على ثلاثة أنواع من الجرائم.

١ ـ ترؤس عصابة مسلحة لمهاجمة فريق من سكان البلاد.

٢ ـ مقاومة تنفيذ القانون بواسطة مأموري الحكومة.

٣ ـ الشروع في استعمال قوة ظاهرة للقضاء على الحكومة أو تغييرها.

إن أعمال رشيد عالي وأعوانه انتهت في ١٢ نيسان/ ابريل ١٩٤١ ولم يكن لموكلنا أية علاقة بها وقد استنتج أن قرار مجلس الأمة ظاهره لا يخالف الأشكال السابقة وأجبر موكلنا بأن يكون وزير خارجية في حكومة تكونت بالشكل الذي لا يخالف أشكال الوزارات التي تألفت في العراق منذ تأسيس الحكم الوطني. فالأعمال التي قام بها موكلنا بصفته وزيراً للخارجية لم يكن فيها أي عمل ينطبق مع أية فقرة من فقرات المادة المذكورة.

إن ما أسند الى موكلنا من الأقوال في القصاصات التي سميت بمحاضر مجلس الدفاع الأعلى، على افتراض قبول ما ورد فيها، فإنها لا تنطبق كلاً أو بعضاً على ما ورد في الفقرات الثلاث من المادة (٨٠) المذكورة.

لم يكن في المستندات المبرزة الصادرة من وزارة الخارجية الى السفارة البريطانية من عبارات يمكن أن ينطبق عليها أية فقرة من الفقرات المذكورة. والخلاصة أن الأعمال والأقوال التي قام بها وادلى بها موكلنا، على افتراض صحتها، من تاريخ ١٢ نيسان/ ابريل حتى هروبه لا تدخل، الكل أو الجزء منها، تحت حكم أية فقرة من فقرات المادة المذكورة.

التضمينات: خلاصة هذا الفصل أن الادعاء العام يطلب التعويضات على أساس التضامن الوزاري في حين انه يدعي بأن هنالك لم تكن وزارة انما عصابة ولا يجوز التضامن المشترك للعصابة استناداً الى المادتين ٥٤و ٥٥ من ق.ع.ب. لان   تراك يتعلق بالجرائم المشتركة الأصلية أما التضمين فهو من العقوبات التبعية فلا شمول للمادتين المذكورتين. ثم أن الاضرار حصلت بسبب التصادم بين الجيش العراقي والقوات البريطانية وليس هنالك في المادة ٨٠ التي يستند اليها الاتهام، ما يمكن تطبيقه على ما حدث. هذا فضلاً عن أنه ليس هنالك قرار وزاري يجيز ذلك الاصطدام حتى يجعل جميع الوزراء مسؤولين عنه.

الاكراه: هنا بحث فقهي يرى أشكال الإكراه ويدعي أن رشيد قام بشكل من الإكراه..

تفنيد البيّنات: ان جميع الأدلة الشخصية وهي شهادات الشهود أتت كلها كشهادات دفاع لموكلنا، أما الادلة التحريرية فهي القصاصات التي سميت بمحاضر جلسات مجلس الدفاع الأعلى والمذكرات الصادرة عن الخارجية. أما القصاصات فلا يمكن الاعتماد عليها لأن تدوينها وحفظها ووصول الأيدي اليها، والعلاوات التي اضيفت اليها، والحشو الوارد فيها، وما جاء من شهادات نور الدين محمود ورفيق عارف، كل هذه تعد أسباباً مبطلة وبما أنه قد طرق اليها الاحتمال فيجب أن يبطل بها الاستدلال. وأما الوثائق السياسية فانها تمثل راي رشيد وقد وقعت بضغط منه وفضلاً عن ذلك فليس في هذه الأوراق التي وقع عليها موكلنا بتوقيعه ما يعتبر جرماً يستلزم العقاب وأن بين مضمون المذكرات ومنطوق المادة (٨٠) فرق بين السماء والأرض.

الطلب: هذا كل ما هنالك من دلائل مادية مقنعة، بأن موكلنا بريء مما أسند اليه «براءة الذئب من دم ابن يعقوب». ولما كنتم ايها الحكام المحترمون قد اجتمعتم في هذه الساعة الرهيبة لتلفظوا كلمتكم الأخيرة في هذه القضية ولا شك أن هذه الكلمة لها شأن عظيم عند الله والناس والتاريخ. ولا ريب بأنكم ستضعون يداً على ضميركم الطاهر واليد الأخرى تكتبون بها هذه «الكلمة»

فاجعلوا الله سبحانه وتعالى أمامكم والضمير رائدكم. والوجدان دليلكم واستعينوا في وضعكم هذه «الكلمة» على قول الرسول: ان العدل أساس الملك. وعدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة، وقوله تعالى: «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

وثبتوا من قوله تعالى: ـ «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء على الناس ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى. واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون».

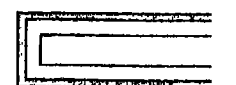
واجعلوا مثلكم الأعلى قوله تعالى: «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل».

واعلموا: «ان الله يأمر بالعدل والاحسان».

والله يتولى هدانا وهداكم فعلى بركة الله قولوا كلمتكم الأخيرة والفظوها ببراءة موكلنا مما أسند اليه. ولا زلتم نصراء العدل والحق.

المحامي	المحامي
عبد العزيز السبنوي	ابراهيم الواعظ

رفعت جلسة المحكمة بعد أن انتهى ابراهيم الواعظ من تلاوة دفاعه عني وسافر في نفس ذلك اليوم الى سوريا للاصطياف. وعدت أنا مع محمد علي محمود الى سجن «أبي غريب» فاستقبلني هناك الاصدقاء رؤوف البحراني وعبد القادر الكيلاني والشريف شرف وكامل شبيب وعلي محمود. عدت الى غرفتي في أبي غريب كئيباً مشمئزاً بعد أن قضيت ما يقارب الشهر ونصف الشهر في المستشفى الملكي. ولم تكن عودتي علامة خير وكان ذلك واضحاً. إذ لو كان قرار المحكمة خيراً لنا لكانوا قد وافقوا على بقائي في المستشفى. ولكن مع هذا كله ورغم كل ما جرى وظهر في سير المرافعة والاتهامات فقد كان محمد علي محمود معتقداً بأن الحكم سيصدر بالبراءة أو على الأقل ببراءته هو ورؤوف وقد يكون نصيبي الحكم الخفيف أو الاعتقال بسبب المذكرات التي أرسلت الى السفارة وغضب الانكليز منها. أما علي محمود الشيخ علي فقد كان يعتقد بأن الحكم سيأتي بالادانة لنا كلنا وقد يكون نصيب البحراني أخف من نصيبنا... لا لثبات جرم لأنه لم يكن هنالك جرم، بل لأن سير المحاكمة وهجوم المدعي العام الذي هو آلة قذرة تحت إمرة «المثلث»، واهتمام الوصي بالأمر، كل ذلك يدل على الشر. وعسى أن يكون ذلك الشر خفيفاً...



أيام الانتظار

منذ أن صرت وزيراً للخارجية في ١٢ نيسان/ ابريل ١٩٤١ حتى يومنا هذا (١٢ شباط/ فبراير ١٩٤٧) مرت علي أيام صعبة ثقيلة الوطأة، كثيرة العذاب، شديدة الآلام، ولكن الثلاثة أيام التي قضيناها في أبي غريب، بانتظار قرار المحكمة، كانت أشدها عذاباً وقلقاً. تعذبنا في سجن الأهواز، وفي البحر في طريقنا الى أفريقيا الجنوبية، ورأينا العجب في معتقل مومباسه، وذقنا المرّ في سالسبري، ولمسنا ما يحير العقول من القساوة في السجن العسكري البريطاني في العباسية بالقاهرة، ولكن في كل ذلك كان لدينا شيء من السلوى ذلك بأننا كنا نشعر بأننا كنا ضحايا الاستعمار والظلم... وقعنا بين أيدي الانكليز فصاروا يعذبوننا ويسجنوننا وقد مر كثير من رجال الشرق من العرب وغيرهم في هذا السبي. ومن أراد الدفاع عن وطنه وكرامته يكون عرضةً لانتقام المستعمر.

ولكن وضعنا الآن غير ذلك أو أنه في الظاهر غير ذلك. نحن الآن في بلادنا وقد أجريت محاكمتنا في محكمة عسكرية، ومهما كان أعضاؤها، ومهما كان تأثير النفوذ الأجنبي فيها، فهي محكمة عراقية يرأسها عراقي ويدير سكانها عراقي. وحكم هذه المحكمة العرفية حكم قاطع لا يقبل الاعتراض، ولا الاستئناف ولا التمييز. فحياتنا، وأموالنا، ومستقبلنا، ومستقبل أولادنا، وحقوقنا المدنية، وكل ما لدى الانسان مما يعتز به، كل ذلك هو اليوم في كفة الميزان. وخيوط هذا الميزان بأيدي الوصي ومن ورائه الانكليز. وكنا لا نجهل شعور الانكليز وميول الوصي بهذا الباب. ثم أمامنا أحكام هذه المحكمة فيما سبق. وأمامنا اتهامات المدعي العام وإن كانت كلها ملتوية ومعوجة كالتواء دماغه، واعوجاج ضميره.. ثم ان الفرق بين البراءة والادانة كالفرق بين الأرض والسماء، أو كالفرق بين الموت والحياة.. فإذا حكم ببراءتنا يعود لنا كل ما في الحياة وهذا ما يجعلها مرغوبة، وإذا حكم علينا بالادانة لم يبق فيها ما يجعلها قابلة التحمل.

ماذا فعلت يا ترى، لأستحق كل هذا العذاب؟ إنني لا أتذكر بأنني قد أسأت إلى أحد متقصداً، ولم أعتد على أحد، ولم أسرق أحداً، ولم أطمع بما ليس لي فيه حق، ولم أخن بلادي أو أصدقائي، ولم أتساهل بكرامة وطني وأبناء جلدتي، إذن لماذا أجد نفسي في هذه الحالة الرهيبة، في هذا السجن المرعب، أنتظر حكماً من أناس دفعتهم الظروف والصدف ومقاييس الحروب إلى الأمام، ومنحتهم سلطة الشنق والسجن والسلب والنهب والتعذيب؟ اهذا جزاء من أراد لبلاده وأبناء وطنه خيراً؟ نعم هذا نصيب من يريد أن يقاوم الاستعمار وأذنابه. فلنصبر ونتحمل وننتظر.

ثلاثة أيام كل ساعاتها ودقائقها وثوانيها آلام وعذاب. كنا نتظاهر بالصبر وكنا نشجع بعضنا بعضاً، ونتفاءل ثم نتشاءم ثم نتفاءل. كنا نفسر كل حركة ونؤول كل كلمة، ونحلل كل نظرة، ونتأثر من كل شيء حولنا. من مجيء وذهاب السيارات من مشية الجنود والحراس. كانت أعصابنا متوترة إلى حد الانفجار، وكان رؤوف البحراني أهدأنا لمزاجه واعتقاده بالقدر وللشهادات القوية التي شهد له بها عدد كبير من الشهود بأنه أدخل الوزارة مكرهاً. أما محمد علي فقد تزلزل ايمانه وتصدع بناؤه بعد انتهاء المحاكمة وأنا لم أكن متفائلاً منذ أن تركنا

الحكم القره قوشي

سالسبري وقد ازدادت الظلمات حلكةً الآن، فازداد الصدر ضيقاً...

أخبرنا الرئيس عبد القادر حسين صباح يوم الأربعاء في ١٦ آب/ أغسطس ١٩٤٤ بأن المجلس العرفي طلب حضورنا لتبليغنا قراره. فلبسنا ثيابنا وقلوبنا تخفق. وبعد ذلك عاد الضابط وأخبرنا بأن المجلس اتصل بهم تلفونياً وأجّل الأمر. فبقينا نفسر ونضرب أسداساً بأخماس. يا ترى لماذا هذا التأجيل وماذا حصل... صرنا نفسر الأمر بالطبع في صالحنا. ربما هنالك مداخلة حصلت في آخر لحظة. أو ربما الانكليز لم يوافقوا بحكم الادانة. ومرت ساعة علينا وكنا خلالها سكارى دون أن نسكر ثم عاد الينا الرئيس عبد القادر من الوشاش وأخذنا حسب العادة المتبعة بالسيارة الصحية المغلقة مع سيارتين مملوءتين بالجنود الى المعسكر حيث المجلس العرفي لاستماع قرار المحكمة.

قضينا في الوشاش ساعة أخرى، ننتظر وأتى المحامون، وأتى أخي ابراهيم وجماعة من أقارب رؤوف البحراني. وكانت ساعة كأنها الدهر. وكانت هناك حركة غير اعتيادية. فأتت سيارة فيها بعض الموظفين من وزارة العدلية. وكان عدد الجنود والرشاشات أكثر من العادة. وأخبرنا أحد المحامين أن أعضاء المحكمة اجتمعوا في الأمس في وزارة العدلية، وكان الجميع على اتصال بالوزير والمستشار... وبعد أن مرت حوالي الساعة، أتى عبد القادر يدعونا الى المحكمة وكان مضطرباً أصفر الوجه.. والحق أن الاضطراب كان عاماً شاملاً، وكنا نحن بالطبع محور ذلك الاضطراب...

دخلنا قاعة المجلس العرفي وجلسنا في محلاتنا المعتادة أمام طاولة المحكمة وأخذ كل من الحكام محله وجلس غراب الشؤم المدعي العام في محله...

أمر رئيس المحكمة الزعيم مصطفى راغب بأن يتلو الكاتب قرار المحكمة فنهض وأخذ يتلو الوثيقة التاريخية «العظيمة...» وبقينا نحن ومن حولنا نستمع ونستمع...

المقدمة الطويلة هي عبارة عن نسخة من اتهام المدعي العام... وقد استعمل المجلس العالي نفس الكلمات والعبارات وسرد نفس الأدلة واستبد بنفس المنطق... عصابة.. خيانة.. اعتداء على شخص سمو الوصي الكريم... تضييق الخناق على الحليفة... إلى غير ذلك من الأقوال. وفهمنا بالطبع بعد هذه المقدمة ماذا سيكون القرار واستمر الكاتب بتلاوته. وبقينا نحن نستمع. بعد المقدمة أخذ يتلو التفاصيل الفردية فابتدأ بكامل شبيب، ثم الشريف شرف، فمحمد علي محمود فموسى الشابندر، فرؤوف البحراني فعبد القادر الكيلاني. وهنا أيضاً بدا وكأن المدعي العام هو الذي أملى القرارات لأنها أتت كلها صورة طبق الأصل من اتهاماته.. وبعد ذلك... قام الجميع على الأقدام للاستماع الى الحكم الصادر باسم صاحب الجلالة الملك... وكان:

كامل شبيب: بالاعدام شنقاً.

محمد علي محمود وموسى الشابندر: بالحبس الشديد لمدة خمس سنوات.

الشريف شرف: بالحبس الشديد لمدة ثلاث سنوات.

رؤوف البحراني: بالحبس الشديد لمدة سنتين.

عبد القادر الكيلاني: بالحبس الشديد لمدة ثلاثة أشهر.

وتضمين الجميع ما عدا عبد القادر بالتعويضات وقدرها ١,٦٠٢,٤٣٦ ديناراً و١٩٠ فلساً.

وسادت المحكمة ومن فيها موجة استغراب واضطراب على اثر تلاوة الحكم... فاصفرت الوجوه ونشفت الحلوق وتبحلقت العيون وانخفضت الأصوات... انها جريمة تاريخية دبرها الانكليز ونفذها الوصي والحكومة العراقية على يد هذه المخلوقات الجبانة الذين تشكلت منهم المحكمة العرفية. لقد تعاون الاستعمار والاستبداد والانتقام وذلة النفس، فمثلوا رواية فيها عبرة للأجيال ودرس للناس.

ولكي يفهم من يقرأ هذه الأسطر دناءة ذلك العمل أنقل قرار التجريم المتعلق بي كما ورد في وثيقة المحكمة:

«**موسى الشابندر**: أما هذا المتهم فإنه تنطبق عليه جميع الدلائل الواردة بحق محمد علي محمود لمطابقة أعماله تماماً بالأعمال التي نسبت إلى المتهم محمد علي محمود وهي - الانضمام لوزارة رشيد عالي غير المشروعة كوزير خارجية وقد دافع عن دخوله لوزارة رشيد عالي بأنها وقعت بالتهديد، وأن رشيد عالي هو المسيطر سيطرة تامة على وزارة الخارجية واتخذ غرفة الوزير مقراً لأعماله. ولكن لدى التحقيق في قضية التهديد لم يتمكن أيضاً، كزميله محمد علي محمود، من اتيان براهين مقنعة عن نوع التهديد الجاري بحقه وأن الدلائل التي سردها بهذا الخصوص بقيت في عالم الخيال ليس الا. كما أن اتخاذ رشيد عالي وزارة الخارجية مقراً لأعماله كرئيس وزراء لم يكن بمعنى أن رشيد عالي أقاله من وزارته وبقي غير مسؤول عن أعمالها. ولو كانت الحالة كما يزعم إذن فلماذا لم يستفد من هذه الفرصة السانحة ويتخذ بيته، وإذا دعت الحاجة فراشه، مقراً له. فهل كان بامكان رشيد عالي حينذاك إخراجه من بيته وفراشه، ووضعه في نقالة مرضى والمجيء به الى مقر الوزارة، تحت حراسة قوة مسلحة؟ مع أنه لم يقع شيء من هذا. [من مثل هذا الكلام تتجلى سخافة المحكمة ومغالطتها وهي التي حكمت على الدكتور محمد حسن سلمان بالرغم من أنه بقي في داره مريضاً ولم يقم بأي عمل. فكأنما المرض أو التمارض في نظرها وسيلة للنجاة].

بينما نرى موسى الشابندر عزا دخوله للوزارة إلى التهديد وبيّن أنه أراد الاستقالة في شهر نيسان/ ابريل ١٩٤١ عندما اتضح له فساد أفكار رشيد عالي وقد وقعت له ارشادات من بعض الجهات تقترح عليه البقاء ليكون ارادة خير في تلك الوزارة وليدرأ شرورها عن المملكة العراقية.. ولو قارنا هذه الأقوال الواحدة بالأخرى لاستنتجنا النقاط الآتية:

١ ـ المهدد والمرغم على دخول الوزارة كيف لا يخاف من الاستقالة!

٢ ـ ان الوزير الذي سلبت منه الادارة والسلطة على أعماله كيف يمكنه أن يكون اداة خير، وكيف يتمكن من درء الشر؟

هذا، ومن جهة أخرى نراه نفى كل المعاملات الجارية في وزارة الخارجية وألقاها على عاتق رشيد عالي فقط. بينما وجد المجلس ضمن الوثائق السياسية محضر محادثات جرت بين رشيد عالي والسفير البريطاني وكان هو حاضراً تلك المحادثات كوزير خارجية حسب الأصول وقد وقع

على كتب ووثائق سياسية خطيرة وأخص بالذكر منها [لاحظ صيغة المفرد «أخص».. قد تدل على أن المدعي العام هو الذي كتب القرار هذا فضلاً عن ركاكة الأسلوب والغلطات اللغوية تذكرنا بأسلوب الاتهام] احدى مذكراته الموجهة الى السفارة المشار اليها يعزو أسباب وجود القوة الآلية العراقية أطراف معسكر سن الذبان هي من قبيل تدابير احتياطية فقط. وقد اتخذ تجاه البريطانيين الذين أخلّوا بالمعاهدة العراقية البريطانية ـ حسب زعمه ـ ومن ثم نفذ المادة الأولى من كتاب سكرتارية مجلس الوزراء المرقم ١٨٣٣ والمؤرخ في ١٩٤١/٥/٢ الموجه إلى وزارة الخارجية والمتضمن نتائج جلسة مجلس الوزراء بمذكرة وزارته المرقمة ٥٦٤٠/٥/١٣٥٢ والمؤرخة ٢ أيار/ مايو ١٩٤١ ملقياً تبعة التصادم المسلح في الحبانية على عاتق القوة البريطانية. وعدا هذه النقاط، فإن المتهم قد نفى نفياً باتاً أنه لم يجلب الدكتور غروبه الوزير الالماني السابق الى العراق، بينما كان اقتراح تأسيس العلاقات السياسية من جديد مع المانيا، مدوناً في المادة الثانية من كتاب السكرتارية المشار اليها آنفاً. فهل من المعقول أن الوزير الذي قام بتنفيذ المادة الأولى من ذلك الكتاب لم يكن مطلعاً على المادة الثانية منه؟

[هنا **مثال آخر** يريك درجة الجهل المبتلى به أعضاء المحكمة وخاصة المدعي العام وهو بطل الساعة... إنني في الحقيقة لم أكن أعلم بمجيء الدكتور غروبه ولا أعتقد بأن رشيد كان عالماً بذلك. ثم ليس من شأن الحكومة العراقية ان تطلب شخصاً معيناً من حكومة اجنبية ليقوم بتمثيلها إذ ذلك ينافي حقوق الدول والأصول الدبلوماسية.. فلا انا، ولا غيري طلب مجيء الدكتور غروبه. بل انه اتى مع الطيارات التي أتت لنجدة الجيش العراقي.. ولنفرض جدلاً بأنني انا قمت بذلك الطلب فهل في ذلك جرم يعاقب عليه؟ سواءٌ أكان ذلك بالقوانين العراقية أم بالقوانين الدولية؟ ولكن المنطق لدى الجماعة مفلوج والحكم من طراز «قراقوش»... ولا حول...]

وعدا الأعمال المارة الذكر، فقد ثبت باعترافه، وشهادات الشهود الذين قاموا بكتابة الضبط في جلسات مجلس الدفاع الأعلى، اشتراكه في جلسات المجلس المذكور وبيان آرائه كوزير يمارس أعماله. ولقد قال في جلسة يوم ١٧ نيسان/ ابريل ١٩٤١ في مجلس الدفاع الأعلى: «ان علينا أن نلاحظ الأمور بصورة عملية. فهل أن اعتراف بريطانيا بالحكومة يؤدي الى منع سوء النية؟ ومع هذا فإني أؤيد ما قاله الاخوان» ويقصد بالعبارة الأخيرة تأييده لجميع ما قاله صلاح الدين الصباغ ومحمد علي محمود ورشيد عالي وناجي السويدي وهم أعضاء مجلس الدفاع الأعلى الذين حضروا الجلسة.

وأما في جلسة ٢٩ نيسان/ ابريل ١٩٤١ فهو الذي افتتح الجلسة بقوله الآتي: «لقد علمت بقرب وصول قطعات بريطانية عدا التي وصلت وتقدر هذه ما بين ٢٠٠٠و ٣٥٠٠ مشاة منها ٧٥٪ عمال ومهندسين وأطباء وممرضات وغيرهم و٢٥٪ الباقية هم جنود مسلحون ومعهم مهمات وتجهيزات أخرى وأن هذه القوة حسبما أخبرت من قبل سكرتير السفارة البريطانية، هي في الخليج وستدخل البصرة اليوم أو في الغد».

ويظهر من هذا أنه بالرغم من انكاره ممارسة أعماله، كان يمارس تلك الأعمال الخاصة بوزارته وأنه كان على اتصال مع رجال السفارة البريطانية حسبما يقتضيه منصبه وكذلك كان تصريحه الأخير في نفس الجلسة ما يلي: «ليس من رأيي ارسال مذكرة تحريرية أخرى بل نبعث رئيس التشريفات لإخبارهم بأن الحكومة لا تقبل أية مراجعة حول المعاهدة ما لم تكن مذكرة

تحريرية ويخبرهم باصرارنا على مذكرتنا الأولى بعدم انزال القوة الجديدة ويقول لهم أنه من الآن إلى ثلاثة أيام إذا لم تحل هـذه القضية فسنكـون في حل من المعـاهدة» فبعـد هذه التصريحـات الجلية هل يبقى ثمة شك في أن موسى الشابندر كان لا يمارس مهام وزارته وكان مكرهاً على دخول وزارة رشيد عالي ومضطراً للبقاء معه خوفاً على حياته؟

[كلامنا في مجلس الدفاع كان الجرم الأعظم في نظر هؤلاء الحكام، ولذا كان المدعي العام منـذ بادىء الأمر يتحمس لهذا الموضوع. ومما يدل على الغرض الأعمى أنهم لم يذكروا مثلاً مـا قلته في مجلس الـدفاع الأعـلى، بشأن لـزوم التفاهم والتعـاون مع الانكليـز، بل سردوا مـا يظهرني مظهـر المخاصم، بعد أن قطعوا من حديثي ما لا يأتلف ومقصدهم. وبالرغم من هذا التلاعب كله، وحـذف بعض العبارات، واضافة أخرى، وتفسير الكلام بغير ما هو مقصود منه، أقول بـالرغم من كـل هذه التدابير، لا يوجد فيما أتى من التصريحات ممـا يستوجب العقـاب أو اللوم أو القصـاص. اللهم الاّ إذا كانت مجرد المعارضة لتصرفات الانكليز أو المخاصمة حول تفسير المعاهدة تعد جرماً لا يغتفر... أما اليوم فقد صرنا نسمع من هنا ومن هناك أقوالاً أشـد حماسة وأبعد أثـراً من تصريحاتنـا تلك والقوم مغتبطون بها والقائلون هم أبطال الساعة. ويخلق ما لا تعلمون...].

أما شهادات شهود الدفاع الواردة بحقه، فتتخلص كما يلي:

١ ـ انهم سمعوا منه تذمراً وعدم ارتياح من الـوضع كلمـا شاهـدوه في شهر أيـار/ مايو ١٩٤١.

٢ ـ كان يجلس في غرفة صغيرة في الخارجية مجاورة لغرفة الوزير وكان رشيد عالي قد اتخذ غرفته مقراً لأعماله.

٣ ـ حاول الهروب من العراق بعد حدوث التصادم المسلح متفقاً مع محمد علي محمود المتهم الحاضر إلى ايران. وقد أرجعا من خانقين وبقيا في بغداد إلى أن تمكنا من الهروب ثانيةً.

٤ ـ كـان هو وزميلـه محمد عـلي محمود في ايـران يتذمـران دوماً من أعمـال رشيـد عـالي ويتصلان بموظفي المفوضية العراقية ويبينان لهم بكل مناسبة استنكارهما أعمال رشيد عالي.

إلا أن خلاصة شهادات الدفاع المبينة بـالفقرات الأربـع المارة الـذكر لا تكفي لنفي التهمـة المسندة اليه ولزميله محمد علي محمود حيث انها لا تنفي عملاً من الأعمال التي قام بها المتهمان المذكوران في وزارتيهما من قبول الوزارة، والمباشرة بأعمالهما كما ثبت بالمستمسكات التي صدرت بتوقيعهما كوزيرين وكذلك بياناتهما الواردة في مجلس الدفاع الأعلى من حيث أن الدلائل الأخيرة ثبتت اشتراكهما فعلاً وقيامهما بممارسة أعمالهما إلى أن حدث التصادم المسلح وبـدأ دور النكبة فبدأ التذمر وعدم الارتياح وهذا أمر لا شك فيه. إذ ان الذين يشتركون في أعمـال تجر الـويل لا بد وأن يؤمنوا خط الرجعة للتملص من المأزق الذي وقعوا فيه.

[ان شهادات شهود الدفاع والاثبات كما مرّ ذكرها تكفي لبراءة ساحتنا لـو كان هنـاك عدل أو حق عند الجماعة. ولكنهم كانوا قد استلمـوا أوامر بلـزوم حكمنا فحضروا الشهـادات بهذه النقـاط الأربع وقالوا انها لا تكفي. بالطبع لا تكفي لأن المنتقمين لم يقصدوا من وراء هذه المهزلـة الوقـوف على الحقائق انما ستر الوقائع بغلاف المرافعات ثم انزال العقوبات تطميناً لشعور الانتقام المستـولي على قلوبهم. اننا كنا محكومين منذ اليوم الـذي تقرر فيـه اعادتنـا. أما الشهـود والشهادات وهـذه اللغوات كلها لتصبغ الظلم بلون الحق... وهذه عادة يعرفها ويتقنها الانكليز وآمن بها أتباعهم].

وكان بصدد شهادة شهود الدفاع المتضمنة ما سمعه السبعاوي وعلي محمود الشيخ علي، بأن محمد علي محمود وموسى الشابندر أدخلا بالتهديد لوزارة رشيد عالي غير المشروعة فقد جلب المجلس السجين علي محمود الشيخ علي شاهداً اضافياً لكشف الستار عن هذه القضية أيضاً، فأجاب علي محمود الشيخ علي كما يلي بالنص: «ان دخولي في الوزارة كان وفق الأحكام الدستورية وأن الوزارة كانت شرعية ولإثبات شرعية الوزارة أدليت بأدلة مفصلة وعليه ان المنطق يمنع أن يسند اليّ مثل هذا القول لأن ادخال وزراء بوزارة نتيجة اكراه معناه أنها وزارة غير شرعية لذلك ليس لي علم من ناحيتي الشخصية أن يكون هناك تهديد أو ما إلى ذلك، على أنه يجوز أن حضرات الاخوان الذين تجري محاكمتهم قد يثبتون صدق أقوالهم ببينات أخرى» وعلاوة على أعمال المرقوم موسى الشابندر فقد تقاضى راتب منصبه كوزير لشهر نيسان/ ابريل ١٩٤١ وقسط اليوم من شهر أيار/ مايس فبأعماله المتقدمة يعد منضماً الى العصابة.

[وهنا أيضاً يظهر غرض المحكمة. فإنها لم تصدق بشهادة عبد الوهاب محمود النائب في مجلس النواب ولكنها أخذت بما قاله السجين المجرم العادي بنظرهم علي محمود الشيخ علي وقد جلبته إلى المحكمة كشاهد اضافي لأنها تعرف بأن دفاعه عن نفسه كان مستنداً إلى مشروعية الوزارة ولم يستطع الآن أن يقول خلاف ما قاله من قبل. ونفس المحكمة هذه لم تؤمن بأقوال علي المتهم بل حكمت عليه بسبع سنوات ولكن الآن صارت تستند إلى أقواله بصفته شاهداً لأن شهادته تخالف ما ندعي. ومن «قره قوشية» المحكمة قولها أنني استلمت قسط اليوم من شهر أيار/ مايس وهذه وإن كانت كذبة صغيرة الا أنها تريك إلى أية درجة يستند الحكام الى الغلط والكذب وسوء التأويل...].

وبعد أن تلت المحكمة عن لسان كاتبها قرار تجريم رؤوف البحراني أخذت تصفنا نحن الوزراء الثلاثة مجتمعين فقالت:

وأن ما بيناه آنفاً بصورة مفصلة بحق كل من المتهمين الثلاثة الماري الذكر ـ محمد علي محمود وموسى الشابندر ورؤوف البحراني على الانفراد لدلائل قاطعة تبرهن على انضمامهم إلى عصابة رشيد عالي. وبينما نراهم رغم جمعهم كلمتهم باخلاصهم لصاحب السمو الأمير المعظم، وباستنكارهم الأعمال الدنيئة التي قام بها رشيد عالي والقواد المعلومون، ولا سيما بتشاؤمهم من الوضع منذ أمد بعيد من جراء مداخلات هؤلاء العسكريين بأمور سياسة الدولة ـ نراهم انضموا إلى تلك العصابة ناسين إخلاصهم للوصي الشرعي، وناسين تشاؤمهم من الوضع، وغير ملتفتين للاقتفاء بأثر المخلصين الحقيقيين الذين وحدوا جهودهم مع الوصي الشرعي المعظم لانقاذ المملكة من الهاوية التي أرادت العصابة أن تجرها اليها متذرعين فقط بحجج وهمية كالخوف والضغط ليس الا. ومن البديهي أن الحجج الوهمية والأقوال غير المؤيدة بالافعال لا تدرأ ولا تدحض التهمة عنهم تجاه المستمسكات الرسمية وشهادات الاثبات والبيانات المشروحة بالتفصيل آنفاً.

وأما وكلاء المتهمين محمد علي محمود وموسى الشابندر المحامون السادة عيسى طه وابراهيم الواعظ وعبد العزيز السنوي فقد بينوا ما بيّنه موكلاهم عيناً وكان على الأخص حصروا موضوع دفاعهم أولاً عن ضبط جلسات مجلس الدفاع الأعلى وثانياً عن تنفيذ الفقرة الثانية من المادة ٨٠ من ق.ع.ب من أنها لا تنطبق على أعمال موكليهم فهذا الدفاع قد بيّنا سابقاً أنه لا يكون دفعاً للتهمة المسندة لموكليهم لصحة الضبوط المذكورة وخلوها من شائبة التزوير.

وعمّا جاء في دفاعهم على عدم انطباق الفقرة الثانية من المادة ٨٠ من ق.ع.ب حيث هم لا يرون وجوداً للعصابة المتكونة وفق الفقرة الأولى من المادة المذكورة كي ينضم موكلاهم إليها وتنطبق عليها الفقرة الثانية ودافعوا بهذا الصدد مدللين أن موكليهم لم يلتحقا بحكومة الدفاع الوطني بل اشتركا في الوزارة بعد تعيين الوصي واستصدار الارادة بتشكيلها ولذا لا يعدا منضمين للعصابة.

وأما وكلاء المتهمين محمد علي محمود وموسى الشابندر فقد أبدوا دفاعاً متناقضاً فتارة دافعوا أن موكليهم دخلا الوزارة إكراهاً، وأن الوزارة غير شرعية، وطوراً دافعوا أن موكليهم لم يدخلا الوزارة الّا بعد نصب وصي، وصدور إرادة منه بتشكيل الوزارة فيعنون أن موكليهم لم يرتكبا جريمة بمجرد قبول الوزارة وأنه لا توجد عصابة بل توجد وزارة. فدفاعهم هذا مردود، لكون العصابة التي ترأسها رشيد عالي ورفقاؤه هي التي أكرهت وزارة طه الهاشمي المشروعة واغتصبت الحكم بالقوة والسلاح، وهي تعتبر قانوناً عصابة مستمرة بأعمالها الإجرامية حتى مغادرتها العراق، فمن انضم اليها إلى أن غادرت العراق تنطبق عليه الفقرة الثانية من المادة ٨٠ من ق.ع.ب.

[ان المحكمة المحترمة ضربت بالمنطق عرض الحائط من بادىء الأمر. اتباعاً لما قرره المدعي العام، والغريب انها لم تذكر اسم مجلس الأمة الذي اجتمع وصوت وخلع ونصب. فاذن هذا التمثيل وهذه الديمقراطية كلاهما مهزلة... وما قيمة الأمة ومجلسها اذا لم يعتبر ما أقره ولم يهتم بوجوده. وإذا كان هناك انضمام الى عصابة فمجلس الأمة يكون هو أيضاً منضماً ومن ورائه الأمة التي انتخبته. ولكننا أمام مجلس عرفي. وليس للعدل والمنطق هنا محل. بل الأصل ارادة الانكليز ومن اتبعهم].

وأما دفاع المتهمين ووكلائهما المحامين، حول عدم شمول نصوص مرسوم ذيل مرسوم الادارة العرفية رقم ٦٠ لسنة ١٩٤١ على المتهمين بخصوص التضمينات لصدوره بعد تاريخ ارتكاب الجرائم المسندة الى المتهمين المذكورين، فان دفاعهم هذا غير وارد قانوناً للأسباب الآتية:

أولاً - ان المادة الثالثة من المرسوم المذكور قد نصت بأن يحكم المجلس بالتعويضات حينما تجري المحاكمة غيابياً بحق المتهم ولا يقصد به تكوين حق جديد بمطالبة التعويض وأن المرسوم المذكور كله يتضمن الاجراءات في حالة صدور الاحكام الغيابية.

ثانياً - بما أن المتهمين المذكورين قد جرت المحكمة بحقهما وجاها، فإن المجلس له السلطة بالحكم بالتعويض بالنظر للمادة (٣١) من ق.ع.ب بدلاً من المادة ١٣ من مرسوم الادارة العرفية رقم ١٨ لسنة ١٩٣٨.

غير أن المجلس وجد أن المتهمين المذكورين محمد علي محمود وموسى الشابندر قد حاولا الهروب من العراق قبل هروب رشيد عالي ورفقائه الآخرين مما يدل على ندامتهما لانضمامهما إلى العصابة المذكورة، وأن تلك المحاولة لا شك أنها كانت مؤثرة ومربكة لاستمرار رشيد عالي بمركزه ومثبطة لعزائمه. فقد اعتبرها المجلس من الأسباب المخففة بحقهما. وعليه قرر المجلس بالاتفاق تجريم المتهمين الماري الذكر وفق المواد الآتية وتحديد عقوباتهما بمقتضاها كما يأتي:

أولاً - تجريم المتهم كامل شبيب وفق الفقرة الأولى من المادة (٨٠) ق.ع.ب بدلالة المادتين

٥٣ و٥٨ من القانون المذكور والمادة ٤٩ والفقرة الأولى من المادة ٦٠ من قانون العقوبات العسكري.

ثانياً ـ تجريم المتهمين الأربعة وهم الشريف شرف ومحمد علي محمود وموسى الشابندر ورؤوف البحراني وفق الفقرة الثانية من المادة (٨٠) من ق.ع.ب بدلالة المادة (٥٨) من القانون المذكور على أن تلاحظ أسباب الرأفة والتخفيف بحقهم كما سرد سابقاً. وأفهم ذلك علناً في ١٦/٨/١٩٤٤.

عبد الله رفعت النعساني المقدم ـ العضو	محمد علي سعيد العقيد العضو	خليل امين الحاكم العضو
عبد العزيز ماجد الحاكم العضو	مصطفى راغب الزعيم رئيس المجلس العرفي العسكري ببغداد	

وعلى هذه الأسس وذلك العدل وهذا المنطق حكم المجلس العرفي علينا بأحكامه باجماع الرأي وكانت المحكمة والمدعي العام ومن وراءهم كلهم متفقين ومغتبطين.. والمخالفة الوحيدة أتت من قبل الحاكم عبد العزيز ماجد فيما يتعلق بكامل شبيب حيث رأى أنه لا يستحق الشنق وفضل بأن تطبق بحقه المادة ١١ من ق.ع.ب بدلاً من المادة ٨٠ ـ ولكن هذه ملاحظة بقيت على الورق. فشنق كامل شبيب وسجنّا نحن، وصودرت أموالنا وأملاكنا، وتم للانكليز وأذنابهم النصر المبين في هذه المأساة وانتفخ عبد العزيز الخياط لأنه كان البوق الذي نفخت به «الحكومة» كما وصفه مصطفى راغب يوماً، وخرج أعضاء المحكمة المحترمة بيض الوجوه لأنهم قاموا بمهمتهم هذه بالشكل الذي يرضي السفير والوصي ونوري السعيد وخرجنا نحن من المحكمة، بعد صدور الحكم، ونحن لا نصدق ما سمعناه، وكانت الوجوه حائرة والقلوب واجمة أمام هذا النصر. نصر الباطل على الحق، والشر على الخير، والانتقام الرخيص على كرامة النفس.

«ذيول الحكم»

بعد أن لفظت المحكمة حكمها، أخذنا عبد القادر رئيس الحرس من قاعة المحكمة إلى الساحة الصغيرة أمامها، حيث تنتظرنا السيارات ومعها الجنود ومن هناك ركبنا السيارة المغلقة، وبعضنا ينظر إلى بعض متسائلين دون أن نتكلم هل نحن في عالم الخيال أم أننا في هذا العالم الحقيقي. جلسنا جنباً لجنب، ولأول مرّة لاحظت أن الابتسامة المعهودة قد غابت عن وجه كامل شبيب. فالمسكين كان دائماً يعتقد أن هنالك رحمة وفرجاً، ولم يصدق أن الجماعة كانوا يطلبون رأسه. أما الآن فقد سمع الحكم الصادر الذي يطلب شنقه حتى الموت. وفهم أن الجماعة لم يكونوا هازئين بل انهم يطلبون حقاً رأسه ولن يكفيهم منه أقل من الرأس...

ثم التفت الى رؤوف البحراني لأقول شيئاً. لأن ذلك السكوت كان ثقيلاً فقلت له ـ : أبو احسان هم **حسقلته**.. انت سنتين ونحن خمسة؟ فضحكنا وان كان الضحك لا يخرج من القلوب ولم يشترك كامل شبيب بهذه الضحكة، بل استمر يسبِّح ويتلو بعض الآيات.. وأخذ الشريف شرف يردد بيتاً من الأبيات بصوت منخفض حسب عادته.

وصلنا إلى «أبي غريب» متأخرين فوجدنا عائلاتنا بانتظارنا. وساعدهم الله على ذلك الانتظار. وجدت وداد في غرفتي تنتظرني وقد تجلدت واستقبلتني باسمة ثم سألتني. قلت لها «سنتين» لأني لم أرد أن أفزعها بكل القساوة مرّة واحدة. فتصافحنا وتعانقنا وأخذت هي تبكي وصرت أنا أضحك لأشجعها ولكن قلبي كان يقطر دماً. سأكون أنا سبباً لشقائها وشقاء أولادي مع أنني لم أرتكب جرماً ولم أقترف ذنباً. على أن ليس هذا الوقت وقت التذمر والتأسف. فصرت أشجعها قائلاً: لا بأس هذا نصيبنا ولا يصيب الانسان الاّ ما كتب الله. فلنحمد الله على ما كتب. والآن أنا جوعان لنأكل. وجلسنا الى المائدة وصرنا نأكل ونتحدث عن الأولاد. والغريب أنني لم آكل في «أبي غريب» بمثل هذه الشهية منذ وصولنا اليه. وكنت أشعر بأن شيئاً مزعجاً مبهماً قد زال عن مخيلتي. فالآن أنا أحمل حملاً ثقيلاً ولكنه أخف مما كنت أحمل خلال الخمسة أشهر التي قضت بالتوقيف والمحاكمة، والآمال، والآلام. فالآن أنا ضحية ظلم وانتقام صريحين. فلنصبر ولنؤمن بالقضاء والقدر. ونحن على الغداء أتى ابراهيم. انه كان معي في المحكمة وسمع الحكم وذاق الألم مثلي والآن أتى مشجعاً مطمئناً. فتعانقنا وتبادلنا ما يقول الأخ لأخيه في مثل هذه الحالة من كلمات. كلمات قليلة بسيطة ولكنها مندفعة من أعماق القلب. فهي السلوى وهي القوة وهي المصل ضد اليأس والفتور. ولم يبق ابراهيم الاّ قليلاً فتركنا وبقيت وداد معي حتى العصر. وكانت عائلة محمد علي محمود وأولاده وعائلة رؤوف البحراني في نفس الحالة وكان هنالك بكاء وتشجيع، وتوكل على الله الواحد القهار. وأتى يوسف الكيلاني وعائلة عبد القادر الكيلاني ليأخذوا عبد القادر لأن المحكمة حكمت عليه بثلاثة أشهر وقد قضى في السجن خمسة أشهر وقضي في النفي والاعتقال سنتين. فأتى عبد القادر زميلنا في المنفى والسفر والسجن، مودعاً متمنياً لنا الفرج القريب. وبقي الشريف شرف في غرفته يردد بيت الشعر لوحده. ذلك لأن

عائلته ليست في بغداد انما في صوفيا.. فبقي حسب عادته يـدور ويلوج ويجلس ويقـوم ويتحادث أحياناً مع علي محمود...

أما المسكين كامل شبيب فوضعوا حارساً اضافياً خاصاً له أمام غرفته.. لأنـه كان محكـوماً بـالاعدام فيجب المحـافظة عليـه ومراقبتـه. كي لا يهرب أو لا ينتحـر. وعند العصر سمعنـا بكاءً وعويلاً لنساء وأولاد. هذه عائلة كامل شبيب وأولاده وأمه وزوجته. أتوا ليقابلـوه بعد أن سمعـوا بحكم المحكمة. وكان منظـر تتفتت منه الأكبـاد. هذه الأم العجـوز تضرب على صـدرها ورأسهـا. وهـذه الزوجـة الحامـل تنظر إلى أولادهـا الستة المهـددين باليتم والفقـر وهؤلاء الأولاد والبنات المعصومين سيفقدون أباهم وحاميهم. لأن المحكمة العرفية أصـدرت حكمها بـالشنق حتى الموت. إنها مأساة تفوق كل ما ابتدعته البشرية الآثمة من شرور...

أنا لم أكن يوماً من أصدقاء كامل شبيب، وكنت دائماً أشعر بنفرة نحوه وأشمئز من كـلامه وابتسامته، وكان في نظري هو أحد المسببـين لهذه الأعمـال السخيفة التي لم تنفـع أحداً سـوى عناصر الشر، وأنه كان أحد موقدي هذه النار التي التهمت الأخضر واليابس دون فائـدة ما لهـذا الوطن. وكان من أهل النفاق والنميمة ولم أجد فيه ما يحببه أو يقربـه بل بـالعكس كل شيء فيـه كان ينفر ويبعد. ولكن مع ذلك كله فقد جعلني الحكم القاسي الذي أصدرته المحكمة أعطف عليـه وأحزن لحاله وحال عائلته وأولاده..

أما أن كامل شبيب مجرم يستحق الشنق، فهذا أمرٌ سيحكم التاريخ فيـه، وأما الشنق فهـو «جريمة» باردة بالرغم من كل ما قيل ويقال حولها من المبررات القانونية... وهنالك فرق كبـير بين القتل الاجرامي وبين هذه «الجريمة» الشرعية التي يلبسها الحكـام والحكومـات ثوبـاً من العدل. هذا وان هذا «الجرم المقدس» لأبشع البشاعات وأقسى القساوات في تاريخ البشريـة. وانه عـلامة فارقة تريك أن الانسان لم يزل وحشاً ضارياً بارداً وأن يوم الحضارة الحقيقية لم يزل بعيداً.

وأتانا المساء فخرجنا إلى الساحة الصغيرة أمام بنايـة السجن ولأول مرّة جلسنـا مجتمعين، وتحادثنا فيمـا بيننا دون أن نخشى من الحـراس. هذا لأن دور المحـاكمة قـد انتهى وانتهت معه القيود المفروضة علينا بأن لا يكلم بعضنا بعضاً، وأن لا يتصل أحدنا بالآخر، خوفاً عـلى سلامـة جريان المحاكمة... جلسنا نتحادث حول الحكم «القراقوشي» الذي أنزلته المحكمة فينا وكنا لم نزل غير مصدقين بما وقع وكان أكثرنا تألماً محمد علي محمود الذي خابت جميع آماله وفشلت نظرياته الحقوقية وذهب دفاعه الباهر أدراج الرياح،كما ذهبت محاولاته المتعددة لاظهار صداقته للانكليز بمخابراته من سالسبري وما كتبه للسفير ولنوري السعيد وبقيت الوعود الجذابة التي كان يسمع بها من هنا وهناك في عالم الخيال، وبانت الحقيقة بأبشع أشكالها: إننا الآن سجناء محكوم علينا بالحبس الشديد لعدة سنوات سنقضيها في هـذا السجن المخيف المريـع في هذه الحـالة التعسـة وأمامنا هذا علي محمود الشيخ علي مثالاً وقد قضى أكثر من سنتين في هذا المحل سجيناً اعتيادياً. انها فاجعة.. انها مأساة.. إنه ظلم صريح.. ولكن هذه هي الحقيقة المرّة. وهكذا كانت ليلتنا ثقيلة بسوادها كما كان نهارنا مفزعاً بوقائعه.

افقنا عند طلـوع الشمس، ودخلنا إلى غـرفنا لعمـل الشاي، وإحضـار الفطور لأن الحـرس الملكي الذي كان يحرسنا ويزودنا ببعض الطعـام والشاي صبـاحاً، قـد كف عن هذه المسـاعدة،

لأننا أصبحنا سجناء وعلينا أن يدبر كل منا أمره بنفسه أو يأكل من أكل الجنود. وانقطعت الخدمة كالتنظيف والكنس التي كان يقوم بها بعض الجنود وأصبح علينا أن ندبر هذه الناحية من حياتنا التعيسة أيضاً. لأن الجنود على قول العريف محمد، رئيسهم، أصبحوا غير راغبين في الاستمرار بخدمتنا...

وأتانا الرئيس عبد القادر مساءً، بعد أن غاب عنا منذ يوم الحكم وقال أنه لم يأتنا لأنه يصعب عليه أن يرانا في تلك الحالة، بعد أن كان هو أيضاً من المؤملين بالبراءة. هكذا قال والله وحده يعلم درجة الصدق في مثل هذا الكلام. وبعد هذه المقدمة أخبرنا بأن الوصي عاد من سرسنك ذلك اليوم وأن عائلة كامل شبيب حاولوا الذهاب الى قصر الرحاب لطلب الرحمة ولكن سموه أمر بطردهم. وأضاف عبد القادر أنه عندما رآه الوصي كان أول سؤال منه حولنا: «هل لبسوا ثياب السجن؟» وإذا صح كلام الرئيس عبد القادر هذا، فإنه يدل على درجة الانتقام التي كان يشعر بها الوصي نحونا... فإنه لم يكتف بما لاقيناه من عذاب في الاعتقال والمنفى في أفريقيا ولا بما ذقناه من مرارات في الطريق وفي «أبي غريب» ولا بحكم المحكمة القاسي الظالم، فيريد أن يرانا نلبس ثياب السجناء العاديين وأن نعامل كما يعامل الجناة وقطاع الطرق...

كيف يا ترى يجوز لشاب مثقف من أحفاد الحسين ومن سلالة النبي أن يحمل حقداً مثل هذا في صدره؟ لا سيما نحونا نحن الوزراء المعتدلين ولم يعمل أحد سوءاً موجهاً إليه وكان كل ذنبنا أننا اشتركنا أو أُشْركنا بوزارة رشيد وأردنا أن نخدم بلادنا بدفع الشر عنها أو على الأقل بتحديده؟ ثم ألا يجب أنَ يكون الملك أو الوصي فوق كل هذه الحزازات وأعلى من هذه الانتقامات الرخيصة؟ وماذا تستفيد البلاد أو يستفيد العرش والوصي من أن نلبس نحن ثياب السجناء؟ أما يكفي الظلم وحده؟ أمن الضروري أن يشركوا فيه ضيق الصدر وخسة النفس؟

يظهر أن المثلث لم يكتف بما تم على يد الانكليز ويد المحكمة حتى الآن وانه يتلذذ بالتعذيب البطيء وبالاساءات الصغيرة والوخزات اللئيمة. فليكن لهم ما يريدون. كنا بين أيديهم أسرى لمدّة ثلاث سنوات.. وسنبقى بين أيديهم سجناء لعدّة سنوات أخرى فليلعبوا بنا... ولينتقموا منا... وليسيئوا إلينا... إن هذا يومهم. ولكنّ للهِ أياماً أخرى! وللظلم نهاية سوداء. والله لا يهدي القوم الظالمين...

وأتى اليوم الثالث ـ يوم الجمعة ١٨ آب/ أغسطس وهذا يوم زيارة المساجين وكان يوم عزاء في أبي غريب إذ أتت عائلة كامل شبيب نساء وأولاداً ورجالاً وعلت أصوات البكاء والعويل في السجن وخارجه. لأن الوصي رفض الرحمة وطرد النساء اللواتي أردن الوصول إلى قصر الرحاب لطلب العفو والرحمة منه ومن نساء القصر، ولكن يظهر أن القلوب كلها كانت متحجرة ولم يبق فيها محل للرحمة والمروءة والعطف الانساني.

وفي صباح اليوم الرابع السبت ١٩ آب/ أغسطس أتانا الى سجن أبي غريب مدير السجن في بغداد السيد مرهون ومعه أحد الموظفين فسلّم علينا وجلس معنا معرباً عن أسفه ومعتذراً عن المهمة التي أُمر بأن يقوم بها وهي تسجيل أسمائنا وأوصافنا في سجل السجن حسب الأنظمة المتبعة. فقلنا له: تفضل وقم بواجب الوظيفة. فأتى الكاتب وأخذ يدون في السجل ما يلزم تدوينه من الأوصاف والأرقام والعلائم الفارقة.. وبينما نحن في هذه العملية أتى بعض جنود الحرس

يحملون البطانيات والثياب في معمولات ووضعوها أمامنا. كانت هذه ما يجب على السجين أن ينام عليها ويرتديها. فنظرنا إليها مبهوتين حائرين. وقال السيد مرهون: هذه حسب نظام السجون أيضاً أرجو المعذرة عن ازعاجكم بها. اتركوها في الغرف. وكان هذا الرجل منزعجاً وخجلاً من هذا العمل وكان يخاطبنا بكل رقة وأدب، وقال أمام الجنود والعريف محمد أنه لو ننتقل الى السجن المركزي فسيضعنا في عينيه. وفي وضعنا اذ ذاك كان لمثل هذا الكلام أثر في النفس. فشكرنا السيد مرهون على لطفه ومجاملته. وبعد أن ودعنا وانصرف أخذ العريف محمد يوزع علينا هذه «الخلعة» الملكية التي أنعم بها علينا سيد البلاد وأمر بايصالها إلينا وزراؤه ومدراؤه.

ومن الصعب جداً أن أصف شعوري أمام هذه المعاملات القاسية... ولكن كنت أقول أن العالم كله أصبح مصاباً بموجة من الهستيريا. ففي كل بقعة من الأرض قتال وسفك دماء وتهديم وتحطيم واحراق وسجون ومعتقلات ومظالم لا حد لها ولا نهاية.. وهذه حصة العراق منها. وهذه حصتي من بلادي. وهذا نصيبي. هذه أمور لا تفسر بالمنطق ولا تحلل بالعقل والادراك. هذه مصيبة علاجها الوحيد الصبر والتحمل..

بعد الظهر عندما كنا نتغدى رأينا بعض الاستعدادات وعدداً من الجنود في الممر أمام غرفنا. سألنا عن الأسباب. قالوا لنا انهم استلموا أمراً بنقل كامل شبيب الى السجن المركزي. وفهمنا معنى ذلك وتركنا الأكل.. والغريب أن كامل شبيب قد كان جاهزاً مستعداً، فقد حزم فراشه وملابسه وما لديه من حوائج وجعل منها رزمة فلو أتوا ليأخذوه، حمل الحزمة ودخل الى غرفة محمد علي محمود وسلمها له قائلاً انها أمانة ورجا منه أن يسلمها إلى أهله.. ثم عاد الى غرفته.. كأنه تذكر شيئاً. كانت ليفة قديمة معلقة بمسمار على الجدار أخذها ووضعها في جيبه لأن الجنود كانوا بانتظاره.. حالة غريبة فكان الرجل يتجول من غرفة إلى غرفة أخرى لا أكثر. فإنه في تلك الساعة الرهيبة لم ينس حوائجه البسيطة ولم ينس الليفة العتيقة مع أنه كان يدري إلى أين الذهاب. ومشى بقدم ثابتة وهو يدخن وسلم علينا باسماً ويقول: «**حالولني واهوبني...**» وتعجبنا وتعجب الجنود وكل من رأى كامل شبيب بهذه المتانة والجلد وهو الذي قال عنه المدعي العام عبد العزيز الخياط متهكماً أثناء المحاكمة بأنه ثائر وجبان. وبعد أن أخذوا كامل شبيب... استولى على سجن أبي غريب ومن فيه سكون غريب. ولم يتعش أحد في السجن ذلك المساء. ولم يتداعب أحدنا مع رؤوف البحراني حسب عادتنا. ولم يردد الشريف شرف «بيته» ذلك المساء، ولم يقرأ علي محمود قصائده.. ولم يغن الجنود ولم يمزحوا بينهم. كل ذلك ولم يكن بيننا أحد يعتبر نفسه صديقاً أو زميلاً لكامل شبيب، وفي الحقيقة لم يكن بيننا من لا ينفر منه ولكن كامل شبيب قابل الموت وجهاً لوجه كرجل، وقابل الظلم كمسلم مؤمن، ومشى مشية الجندي، ولم يظهر ما كان في قلبه وفي صدره...

وعاد الرئيس عبد القادر مساء ذلك اليوم بعد أن سلم كامل شبيب الى السجن، فأخبرنا بأن الوصي صادق على حكم الاعدام يوم عودته من سرسنك وأنه قال له: «لماذا لم يشنقوه وتأخروا حتى الآن؟» وبناءً على هذا الأمر السريع تم نقله ذلك اليوم.

في اليوم التالي عند الظهر، أتانا عبد القادر من بغداد، وأخبرنا بأن عملية الشنق قد نفذت ذلك الصباح الباكر في السجن، وأنه كان حاضراً مع مدير السجن والمقدم عبد الله النعساني

أحد حكام المجلس العرفي والطبيب وغيرهم. وقال ان كامل شبيب كان جلداً متيناً الى الأخير. فلما أتوا عليه ليشنقوه طلب كوباً من الشاي ودخن سيكاره. ثم تكلم مع عبد الله النعساني وقال ان حكم المحكمة أتى شديداً قاسياً وأنه لم يعمل ما يستوجب الشنق وأن الله سيأخذ ثأره وينتقم لأولاده وعائلته. ثم وضع الجلاد كيساً أسود على رأسه وشنقوه. وبقوا ينظرون الى جسده المعلق يتنفض حتى سلم روحه إلى خالقها. وكان الرئيس عبد القادر يتكلم وكأنه يقص علينا قصة سمع بها أو رآها في السينما كما قص علينا من قبل قصة شنق يونس السبعاوي ومحمود سلمان وفهمي سعيد.. ان هنالك جماعة من البشر لا يرون الفاجعة وما فيها من مآس كما يراها البشر الذين لا زالوا يتأثرون ويشعرون ويتحسسون. ويبدو أن الأحاسيس التي يجب أن تفرق بينهم وبين الحيوان، قد تخدرت أو أنها قد ماتت فصاروا ينظرون دون أن يتأثروا ويسمعون دون أن يتجاوز السمع ناحية الاذن.

سمعنا مساء ذلك اليوم، بأن جنازة كامل شبيب قد شيعت باحتفال كبير، يتبعها ستون سيارة من أقاربه وأصدقائه إلى الشيخ معروف وأن الفاتحة أقيمت في داره بالأعظمية، وأن عدد المعزين كان كبيراً. وهكذا انتهت صفحة مؤلمة من صفحات هذه المأساة، كان يمكن الاستغناء عنها بعد مرور سنتين على حوادث العراق وبعد أن أظهر الرجل ندمه وأعلن عدم رضاه عما وقع..

ومهما كانت الأسباب، فقد كان بالامكان أن تستبدل هذه الصفحة المؤلمة بعقاب آخر فيه شيء من المروءة والرحمة وشيَم الرجال... نعم إن حياة شخص واحد لا قيمة لها بعد أن وصلت أثمان الحياة في عالمنا إلى أبخس الأثمان وقد هلك ملايين من البشر، وينتظر الهلاك ملايين آخرون منهم. كل هذا يدلنا على همجية البشر وسخفهم ولكن «عقوبة الشنق» لا تدخل في هذه الهمجية العامة ولا تصنف في أصناف هذه الهستيريا. إنها تريك «قذارة» الانسان مجردة عن كل ستر وكل غلاف. كالشجاعة والجرأة والجنون والحماسة وغيرها من الظواهر التي اتخذت ستائر براقة خلابة تحيط بالقتل وسفك الدماء وزهق الأرواح. وهكذا كتب الله للعراق أن يكون له نصيب من هذه البشاعة. وكتب الله أن نرى تمثيلها عن قريب ونحن بين أبطالها وضحاياها...

يوم الاثنين ٢١ آب/ أغسطس أتتنا الجرائد البغدادية تحمل في أولى صفحاتها نص قرار المجلس العرفي وتبشر قراءها بتنفيذ حكم الاعدام بكامل شبيب ثم تبين تفاصيل الأحكام بحق المجرمين الآخرين ومدد المحكوميات وقرار مصادرة الأموال والأملاك.

وعلقت بعض الصحف تعليقات قاسية تبرر قرار المجلس وتسند إلينا الخيانة والجشع والطمع والاساءة الى الوطن. وعلى سبيل المثال أدون هنا ما كتبته جريدة العراق التي أسسها ذنب قبيح من أذناب الاستعمار منذ أيام الاحتلال واستمرت تبث سمومها حتى يومنا هذا. قالت جريدة رؤوف غنام:

«يذكرنا هذا البيان أو هذه الأحكام بتلك الفتنة الهوجاء التي أثارها أولئك المغامرون الذين دفعهم غرضهم الشخصي إلى زج العراق في غمرة من المخاطر كادت تودي باستقلاله وكيانه، لولا أن قيض الله له صاحب السمو الأمير عبد الاله الوصي المعظم، ولولا أن سلم من غدرهم رجال أبى اخلاصهم الوطني، السكوت على تصرف فئة شاعت اللعب بالنار، وأرادت أن تطوح بوطن عزيز على

أهله، الذين باعوا الأرواح رخيصة في سوح الجهاد لاعلاء شأنه وإقامة أركان الاستقلال. هذا الوطن كاد يروح ضحية لنفر كانوا لا يقيمون أي وزن لما تفرضه عليهم واجباتهم الوطنية في سبيل ما يطمعون فيه من جاه كاذب وعز زائف. هذا النفر هو الذي ساق العراق إلى لجة من النار كلفته غالياً في الأرواح والأموال. وهؤلاء هم الذين حاولوا تبديل اتجاه العراق التقليدي في سياسته الداخلية والخارجية وتوجيهه وجهة يستنكرها وفاؤه لتعهداته الدولية وتشجبها أحكام دستوره. وإذن ان هذا النفر المجازف قد ارتكب جريمة وطنية خطيرة وجب فرض العقوبة القانونية عليه جزاء تخليه عن الاخلاص للوطن والحرص على استقلاله وسيادته.

وليس أدل على ذلك من اجماع العراقيين، وفي طليعتهم رجال السياسة وممثلو الأمة في مجلس اعيانها ونوابها، على استهجان هذه الحركة الطائشة والتعوذ من عواقبها الوخيمة، وعقدهم الخناصر على ملافاة ما خلفته من الآثار السيئة، حتى عادت هذه المملكة الفتية الى استئناف نهجها الوطني الذي اختطه لها المغفور له فيصل الأول وسار على هديه رجال الوطن المخلصون».

هكذا كتبت جريدة العراق وعلق بأخف من هذا بعض الصحف ولم يعلق شيئاً أكثرها واكتفت بنشر بيان المجلس العرفي. وذكرت الجريدة الانكليزية الخبر وأشارت إلى أن الحكومة ستبيع أملاك المحكومين لقاء الأضرار التي حصلت من جراء الثورة.. وليس هذا محل تحليل الثورة وأسبابها وخيرها وشرها ونواقصها وأبطالها وخصومها. هذا عمل واسع يقتضي دراسة عميقة محايدة. فلنترك ذلك للتاريخ. ولكن لتكوين فكرة واضحة لدى من يقرأ هذه المذكرات أسجل ما قالته بعض الصحف من قبل، أي أيام الثورة ووزارة رشيد عالي الأخيرة، للقياس والتنوير فقط.

فقد قالت جريدة الزمان بعددها ١٠٨٦ الصادر في ١٤ نيسان/ ابريل ١٩٤١ بمقال افتتاحي تحت عنوان: «الوطن العربي يؤيد نهضة العراق الجبارة ـ ثقة العرب بالرئيس الكيلاني».

«ما اقتصر الابتهاج بنهضة العراق الجبارة، وحركته الوطنية المدهشة على أبناء العراق، بل عم السرور بلاد العرب قاطبة. سهولها وجبالها، بدوها وحضرها، وقد سارعت الشام الوفية، قبل غيرها من أقطار الدنيا العربية، فباركت للعراق بهذه الوثبة القومية العربية التي ثار فيها لكرامته وأثبت فيها رجولته... (هنا مدح وإطراء وآمال).. وقد آمن شباب العرب، بزعامة الاستاذ الكيلاني ووثقوا به منذ أن وقفوا على أعماله التي رأوها تمثل طموح العربي ونزعاته الحرة وزادتهم مواقفه المشرفة التي صان فيها كرامة الأمة وأثبت فيها رجولتها تعلقاً به وقد أكسبته الآفات الجسام التي تمرس بها مضاءً وعزيمة جعلت خصومه يتحدثون بها ولا يستطيعون انكارها وقد كان شعار سياسته وما زال «شدة من غير عنف ولين من غير ضعف» وهي السياسة الرشيدة التي تمشى عليها عظماء العرب وقادتهم حين فتحوا العالم ودوخوا الدنيا... الخ... الخ...».

ونشرت جريدة اللواء بعددها ٣ الصادر في ٣٠ نيسان/ ابريل ١٩٤١ مقالاً افتتاحياً جاء فيه: «الحركة المقدسة التي لم يساهم فيها أجنبي ـ إنها تمثل أمانينا الحلوة في هذه الحياة»:

«... (مقدمة عن القرارات)... ولقد رأينا من هذا الذي ذكرناه وعن كثب، مثالاً واضحاً كل الوضوح يؤيد ما ذهبنا اليه، إنما هو الحركة الكبرى التي اضطلع بها القادة والرجال المخلصون في غضون هذا الشهر. فإنه فضلاً عما اتصفت به هذه الحركة المباركة من تنظيم أثار الاعجاب ومن وعي لفت الانظار، وجاء برهاناً جديداً ناصعاً على يقظة صحيحة عميقة، فإنها كانت وليدة القوى

الذاتية، تتمثل في عبقرية القادة والأقطاب، وفي مزاياهم ومواهبهم التي استثمروها في سبيل الخير، ثم تتمثل في هذا التأييد الشامل الذي تبدى من الشعب شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. والتأييد الشعبي إنما هو مظهر من مظاهر القوة الصافية غير المشوبة لعنصر أجنبي يسبغ عليها لوناً باهتاً يدعو إلى الريبة ويدني من شأنها ويحط من مقامها، فالحركة الوطنية اذن في العراق إنما استمدت قواها من عناصر نقية ومن مواهب سامية، وتجردت عن كل صبغة لا تتمثل فيها العزة الوطنية والكرامة القومية، بأجلى معانيها وأوضح لونها. نقول ان حركة كهذه إنما هي حركة مباركة تتجسم فيها القداسة وتبعث التباهي في النفس وتهيب بكل فرد من أفراد هذا الشعب التواق الى المعالي، إلى أن يبذل كل مرتخص وغال في سبيل الضنّ بها فإنها وليدة يقظته، وممثلة أمانيه الحلوة وآماله الجميلة في هذه الحياة. انها الحركة التي لم يساهم فيها أجنبي وفي هذا كل الفخر.».

وقد كتب كثير من هذا أيام الحركة مثل ما كتب الكثير عكس هذا من بعدها.. يا ترى كيف يتمكن من يقرأ كل ذلك التناقض أن يحصل على فكرة واضحة حول ما حدث؟

ان الفرق بين ذاك وهذا، كالفرق ما بين الليل والنهار ولم يمض على الحوادث الا أسابيع وأشهر. إذن ما هي الحقيقة؟

هذه مسألة عويصة لم يحن وقت درسها. على أننا نحن الوزراء المعتدلين الذين حكم المجلس العرفي بادانتنا كنا في الحقيقة ضحايا هذا التناقض فاحترقنا بين النارين. ولذا أتى الحكم كما قلت حكماً «قراقوشياً» لا يستند الى حق ولا ينطبق إلى منطق. ومثلنا نحن دور كبش الخطايا ولم تكن لنا غاية في الموضوع كله سوى طلب الخير للبلاد ودفع الشر عنها.. اننا لم نكن أبطالاً وأنبياء كما وصفنا المتحمسون، ولكنا في نفس الوقت لسنا بمجرمين خائنين كما فرضت المحكمة وكما يصفنا بعض المنافقين من أمثال رؤوف غنام. اننا لا هذا ولا ذاك. كنا رجالاً مخلصين لهذا الوطن، أردنا انقاذه أيام المحنة، دون أن نشترك بحماسة المتحمسين أو بتساهل المتساهلين. لم نكن أعداء أشداء للانكليز ولا عبيداً أرقاء لهم. أردنا دفع شر الحرب، ولم يكن لبلادنا فيها مصلحة، وأردنا صيانة حقوقها واحترام عهودها دون أن نجعل منها آلة بأيدي الغير. ولكن فشلنا، فلم نستطع إقناع المتحمسين ولا المتساهلين بأن مصلحة الوطن فوق جميع المصالح وفوق جميع الأشخاص. فغضب علينا المتحمسون وانتقم منا المتساهلون. وهذه هي خلاصة وضعنا الحقيقي...

ما لنا وكل هذا؟ فنحن الآن سجناء معذبون، نسكن سجناً على طراز القرون الوسطى، محاطين بالأسلاك الشائكة والجنود والحراب وانتقام المنتقمين، وقد تفنن وأبدع هؤلاء بالتعذيب الرخيص، ولم يكتفوا بالسجن والمصادرة بل أخذوا يشفون غليل صدورهم بتطبيق نظام السجن فحددوا الزيارات وطلبوا منا رفع الأثاث، وحاولوا منعنا من الجلوس على الكراسي، وعرقلوا مسألة الخدمة ونقل الماء والتنظيف وغيرها من الأمور التي تنغص العيشة اليومية، وتجعل الإنسان متوتر الأعصاب طيلة الوقت. وكانت حالتنا أشبه بحالة جريح مصاب بجروح خطيرة مؤلمة يريد طاعنوه أن يزيدوا آلامه وعذابه فيعرضوه بصورة مستمرة للسع الذباب، ودبيب البراغيث، وقذارة الخنافس وغيرها من الحشرات الكريهة. وأخذ الجنود وعلى رأسهم العريف محمد طوراً جديداً وأصبحت المعاملات كلها ناشفة وباردة..

وأتوا بآية من الانتقام الرخيص. ففي صباح الأربعاء الموافق ٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٤ أتى

العريف محمد يخبرنا بأن الرئيس عبد القادر اتصل به تلفونياً وطلب إليه بأن يخبرنا أنا ومحمد علي محمود بأن المحكمة الكبرى تأمر بإحضارنا أمامها لتعيين قيّم لكل منا... ذلك لأننا حكمنا بمدة تتجاوز الثلاثة سنوات وبموجب القانون يتحتم تعيين قيّم لأن المجرم أصبح كالقاصر لا يستطيع أن يقوم بعمل ما. وأضاف العريف محمد بأن الرئيس عبد القادر يرجو بأن نرتدي ملابس السجن. وعبثاً حاولنا تدبر هذه المسألة بالكتابة، فالمحكمة كانت مصرّة على حضورنا شخصياً بملابس السجناء العاديين. فتصاعد الدم إلى رأسي، وشعرت بمرارة في فمي، وأدركت في تلك اللحظة كيف يندفع الإنسان الى ارتكاب الجرائم وسفك الدماء. وبعد لحظة عاودني الهدوء وان لم تفارقني المرارة. مرارة الاشمئزاز من هذه الدنيا، وما فيها من مخلوقات دنيئة منحطّة. كيف يصل المرء إلى مثل هذه الدرجة من الحقد والصلافة وقلة المروءة والحياء؟ نعم انه يصل.. ويصل إلى أدنى من هذا فقد يسبق الذئاب في شراهته وهمجيته، ويتفوق على القرود في وقاحته، ويبز الوحوش الكاسرة في وحشيته. هكذا كان البشر هنا وهناك وهكذا سيبقون!

لبسنا ثياب السجون الخشنة فوق ملابسنا، وركبنا السيارة مع الرئيس عبد القادر وتوجهنا إلى بغداد. كان عبد القادر في الطريق يسلينا ويواسينا. ولكن لا تنفع السلوى بعد أن وصلت الحال إلى ما هي عليه. نزلنا من السيارة أمام بناية المحاكم فأخذنا عبد القادر ومن ورائنا حارس إلى غرفة الانتظار. وجدنا هنالك بعض المحامين منهم كمال السنوي فاندهشوا من رؤيتنا بذلك المنظر ولكن بعد ذلك أتوا وصافحونا وجاءوا لنا بالقهوة والماء البارد، وأسمعونا بعض الكلمات الطيبة والتمنيات بالفرج القريب. وبعد مدّة قصيرة من الانتظار أخذنا الرئيس عبد القادر إلى غرفة المحكمة. وقفنا أمام الحكام. رئيس المحكمة الحاكم كامبل في الوسط، وعلى يمينه الحاكم عبد العزيز ماجد وهو أحد الحكام الذين حكمونا في المجلس العرفي وعلى يساره برهان الدين النقيب. وجه الكلام الينا عبد العزيز ماجد سائلاً إيانا من نريد أن نعينه قيماً لنا فقال محمد علي محمود أنه يوكل زوجته ووكلت أنا أخي ابراهيم ورفعت الجلسة. جلسة لا تتجاوز دقيقتين من الوقت. كان بالإمكان تدبّر الأمر تحريرياً. ولكن المقصود لم يكن إتمام هذه الشكليات إنما كان القصد الإهانة والانتقام.

أتوا بنا بثياب السجناء، أوقفونا أمام هذه المحكمة التي يترأسها انكليزي ليرانا الانكليز والعرب والناس بتلك الحالة. ليعلم الناس ويقدّروا عاقبة من يحاول الوقوف بوجه الاستعمار البريطاني. نحن وزراء الأمس الذين حاولنا كسر شوكة الانكليز في بلادنا وحاولنا التخلص من استعمارهم واستغلالهم. هذه عاقبتنا. ينتقم لهم منا وصي من أحفاد النبي وينفذ أوامرهم فينا رجال من أبناء جلدتنا واخواننا في الدين والوطن. لير العالم كيف يستطيع الانكليز إذلال الرجال واخماد الأنفس، وطمس الحقائق، وتخنيث الرجال، وتجبين الشجعان.

ونظر إلينا هذا الانكليزي دون أن يتكلم. لأنه فوق هذه الحاجة ولأن أشباه الرجال كانوا مستعدين ليتكلموا ويقوموا بكل أمر يأمرهم به. إشارة واحدة. كلمة واحدة. غمزة عين واحدة، من «الصاحب» تكفي لأن يتسابق أبناء هذا الوطن التعيس لتنفيذ أوامره وتطبيق مناهجه. تراهم ركعاً سجداً أمامه يطلبون الرضى، وتراهم تحت أقدامه يستلقون، ويحركون الأذناب، كالكلاب الجائعة، ثم بأمر منه واشارة منه ينقلبون كذئاب كاسرة ينهشون هذا وذاك ممن لم يرض عنهم

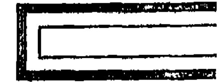
ولم يرضوا عنه. ونحن المساكين أردنا أن نخدم أمة كهذه لبست لباس المذلة والجبن ونـزعت من قلبها العزة والكرامة وخضعت للأجنبي الغاصب وجواسيسه وأذنابه.

ولما تركنا المحكمة وخرجنا إلى ساحة المحاكم رأينا الناس قد اجتمعوا لمشاهدتنا.. كان الناس واجمين حائرين متأثرين. ورأيت شاباً ينظر إلينا ونحن نصعد السيارة ودمعه يتساقط من عينيه. وهناك رجال ونساء اصفرت وجوههم، واحمرت عيونهم من هذا المنظر المؤلم. هذا ابن الشابندر وزير الخارجية السابق المثقف والكاتب الذي بقي يكتب لعدة سنين مدافعاً عن بلاده ومهاجماً الانتداب والاستعمار. وهذا محمد علي محمود وزير المالية والمواصلات. المحامي الشهير الذي كسب شهرة لمقدرته ونزاهته. رجلان لم يسرقا، ولم يقتلا، ولم يرتشيا، ولم يتجسسا، ولم يتساهلا في أمر من أمور الوطن، يلبسان ثياب المجرمين ومن ورائهم الحراس يقودهم رئيس من الحرس الملكي، ليأخذهم إلى سجن «أبي غريب» الذي سمع الناس بهوله وما يحيط به.

عدنا الى أبي غريب وأخذ التأثر مأخذه منا ولكن عضّيت لساني وتمسكت بالصبر، ونـزعت ملابس السجن وصرنا نضحك. نضحك لهذا الطالع السيء، وهذه المهازل التي كتبها الله لنا. يجب أن نصبر ونضحك ونتحمل. لأن أمامنا أياماً سوداء كثيرة، وذيول الحكم «القراقوشي» لا حد لها ولا نهاية. فطالما هنالك انتقام ومنتقمون سيكون لنا أنواع وأشكال من التعذيب وسيرافقنا الشرّ طالما أن منابعه تبقى فياضة. وطالما هنالك جماعة جرّدها الله من كل شيء يسمو بالإنسان ويرفعه من سوية الحيوان الناطق. ولا يضر الحيوان الصامت بقدر أخيه الناطق إذا تجرّد من المروءة والمنطق... ولذا لننتظر ولنتحمل ولنصبر. فالله الذي سلّط علينا البلاء هو وحده سيرفع ما سلّط متى يشاء، وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء.

وأخذت الأيام الثقيلة تمر ببطء، وأخذ اليأس والملل يدب في القلوب. وحياة هذا السجن لا يستطيع وصفها أحد. ولم يتركنا الجماعة من هذا العذاب لنتعود عليه وننسى، أو نحاول النسيان. ففي كل يوم تقريباً كان يتكرر فصل صغير من فصول هذه المأساة الكبيرة. فإذا مرت سيارة الوصي في طريق «أبي غريب» هرع الحراس ورئيس الزبانية العريف محمد البنا، يطلبون الدخول إلى الغرف ويرفعون الكراسي لأن الوصي حسب قولهم، لا يقبل بأن نجلس على كراسي، أو نتمشى خارج غرف السجن. وأخذوا يساوموننا حول الأثاث. وذات يوم جاءنا موظف من السجن، وسجل الأثاث «الزائد» فطلبوا منا رفع الكراسي والسجاد. والاكتفاء بسرير واحد، وبكرسي واحد. فكأنما الحكومة العراقية والبلاط العامر لا شغل لديهما الّا هذه السخافات. ماذا يحصل يا ترى لو كان هناك كرسيان بدل الواحد ولو فرشت الأرض الرطبة القذرة بسجادة.

يقولون هذا نظام السجن ويجب احترامه. ولكن أين القوانين، والدستور، والكرامة، والشرف؟ كلها ضربت بعرض الحائط وديست بالأقدام لسواد عيون المستعمرين وأذنابهم. ولكن نظام السجن بقي على قدسيته فيما يتعلق بنا. اللهم أن هؤلاء القوم يستحقون ما كتب لهم من ذل وهوان!



إلى مستشفى الكرخ

ومرت الأيام والأسابيع والأشهر. مضى شهر رمضان وأتى العيد. العيد السعيد لبعض الناس، وأتعس أيام الشقاء لنا نحن الساكنين في سجن أبي غريب.. فأتى لزيارتنا بعض الأهل والأصدقاء.. وكان أول المهنئين حراسنا الجنود. أتوا كلهم الواحد تلو الآخر يقبلون أيدينا ويدعون لنا بالفرج القريب. وبمضي أيام العيد الثلاثة عدنا الى حياتنا المملة ثم مضت أسابيع وجاء عيد الأضحى وتكررت نفس الأيام.. تمنيات، وتشجيعات.. وانقضى العيد الكبير وعدنا الى ما كنا عليه من ملل وضجر واشمئزاز من الحياة ومن هؤلاء البشر ودناءتهم.

وأتى يوماً (في ١١ تشرين الأول/ اكتوبر) عبد الرزاق جلبي الأمير وتكلمنا طويلاً حول قصتي وقال موكداً أنه قابل الأمير والسفير أكثر من مرّة وتكلم معهما بشأني وكانا يعدانه بالخير دائماً... فانه يتعجب من هذه النتيجة. ومن لا يتعجب من هذا الحكم «القراقوشي؟» أما المواعيد فكانت كلها لصرف الناس عنا وعن قضيتنا ولتخدير الأعصاب وتحديد المراجعات والتشبثات والآن انقضى كل ذلك وتم للجماعة ما يبتغون من انتقام وتعذيب.

المصيبة لا تأتي منفردة بل تأتي دائماً بشكل مصائب مجتمعة تتدافع وتتسابق لتقع على من كتب الله له أن يكون هدفاً لها. وبالنسبة لي كانت المقدمة على يد رشيد عالي الذي أدخلني وزارته دون موافقتي ثم اصراره عليَّ بالبقاء وبعد هذه المقدمة جاء الهرب الى ايران ثم الاعتقال في سجن الأهواز ثم النفي والاعتقال في افريقيا ثم العودة منها وعذاب الطريق في البواخر وفي السجون المختلفة ثم سجن أبي غريب وهذا الحكم القاسي وهذا العذاب المستمر في سجن مجرد من جميع أسباب الراحة وحاجيات الحياة الضرورية ومصادرة الأملاك والأموال... والتجريد من الحقوق المدنية ولبس ثياب المجرمين العاديين.

ان هذه المصائب تكفي لأن تنزع من صدر الإنسان إيمانه بالإنسان وهذا أتعس ما يشعر به المرء. وقد جعلتني هذه الأمور المتوالية، وهذه الضربات القاسية، لا أؤمن بإنسانية البشر، وكدت أنسى الضحك والسرور والتفكير بما يفرق بيننا وبين الوحوش والبهائم. قال تشرشل في كتابه عن حياته أنه لا يوجد شيء في هذه الدنيا أمرّ من السجن لا سيما إذا كان السجين مثقفاً. قال ذلك لأنه ذاق مرارة السجن لأيام معدودات عندما أسره البوير في حروب أفريقيا وكان اذ ذاك شاباً. فماذا أقول أنا وماذا يقول زملائي وقد رأينا أنواعاً وأشكالاً من العذاب، ونحن الآن في سجن يذكرنا بالقرون الوسطى ومحكوم علينا لمدّة سنوات بالحبس الشديد ومحكوم علينا بالجريمة وما تجره مدى الحياة؟ ولماذا؟ لا لأننا سرقنا أو قتلنا أو أسأنا إلى أحد. لا فهذا يعرفه حتى خصومنا. وإنما لأننا اعتبرنا أعداءً للانكليز وخصوماً لأصحاب الانكليز. وهذا اعتبار قدّره الانكليز أنفسهم وتصوره أصحاب الانكليز أنفسهم.. أما في الحقيقة فذنبنا الوحيد أننا لم نقبل أن نكون خدام الانكليز وفضلنا أن نكون أصدقاء متساوين. أردنا الدفاع عن كرامة بلادنا فغضب من ذلك الانكليز واعتبر أصحابهم ذلك اعتداءً عليهم وخروجاً وعقوقاً...

فمصيبتي إذن متنوعة ومتفرعة لها أوجه عديدة بعضها أبشع من بعض إذا نظر الإنسان إليها يفزع منها ويصاب بالدوار. ومع ذلك كله كنت دائماً أسعى لأنسي نفسي وأتوكل على الله وأترك له أمري وأمرها.. وسلواي الوحيدة في هذه الظلمة شعوري وإيماني بأنني بريء ولم ارتكب جرماً وأملي الوحيد في هذه الظلمات هو بصيص من النور يأتي من بعيد. لأنني كنت ولم أزل ضحية «جنون عالمي» إذ ما وقع في العراق إنما هو شرارة من لهيب واسع ترافع هنا وهناك في العالم ولولا هتلر والحرب لما حصل في العراق مثل تلك الحوادث.

هذه حقيقة وان حاول البعض انكارها وأراد أن يفسر حركات رشيد عالي بأنها جريمة موجهة ضد زيد أو عمرو. أما القول بأننا انضممنا الى عصابة أو جماعة. فهذه «لغوة» يتمسك بها الانكليز وأعوانهم لتشويه الحقائق وتحقيق الرغبات..

أقول كنت في سجن أبي غريب أروض نفسي على التعود على آلام المصيبة وبشاعتها وأعد الأيام وأقضي الساعات بالقراءة حيناً وبالتفكير المرير أحياناً أخرى. وليس للإنسان في مثل هذه الحالة الّا أن يتوكل ويصبر وينتظر.

وفي ليلة رأس السنة الجديدة. صرت أستعرض ليالي السنوات الماضية تلك الليالي الساهرة الصاخبة حيث يختلط الانس والفرح والشرب والرقص والحب والمغازلات والآمال وكل ما ينسي الإنسان مزعجات الحياة.. قضيت خمسة وعشرين «رأس سنة» في أجمل البلدان وفي أفخم الفنادق ومع أرقى الطبقات وفي صحبة أجمل المخلوقات.. منها في باريس ومنها في سان موريتز ومنها في برلين ومنها في جنيف ومنها على الجبال المكسوة بالثلوج. كانت أيام سرور وأيام شباب وبطر. صرت أستعرض ذلك وما جرى لي من قصص فرحة وما حدث من ذكريات ثم انظر إلى حوالي. هل أنا في عالم الخيال أم ماذا؟

أنا الذي كنت أجالس الملوك والأمراء والعظماء والزعماء، وأسامر الطبقات الراقية من رجال ونساء في أجمل البلدان وأرقى المجتمعات. أنا الآن في هذا السجن المرعب المظلم، محاطاً بأسلاك شائكة وبجنود مسلحين. لا أرى الّا ما يزعج النظر، ولا أشم الّا ما يؤذي من الروائح الكريهة، ولا أسمع إلّا عواء الكلاب من بعيد ترد على عواء الثعالب..

أنا الآن في سجن أبي غريب في هذه الغرفة الصغيرة. وهناك في غرف أخرى بعض زملائي من الوزراء وكل منهم يتذكر ما مضى ويقيس ويندب الحظ صامتاً ساكتاً.. إنه وضع يقتل الانسان ويرمي به الى أحضان اليأس.

نهضت وذهبت إلى غرفة علي محمود فوجدته جالساً في غرفته جنب السراج يطالع كتاب تشرشل عن الحرب الماضية ليقتل الوقت. وهكذا قضى لياليه منذ ثلاث سنوات. عرضت عليه أن نلعب الشطرنج فوافق. فلعبة الشطرنج كانت التسلية الوحيدة في ليلة رأس السنة هذه. كنا نريد أن ننسى. نريد أن ننسى السنة الجديدة والعالم كله. لعبنا مرةً وثانيةً وأخرى ثالثة. حتى الساعة الحادية عشرة. ثم عدت الى غرفتي ورميت بنفسي فوق السرير لأنام دون أن أفكر في نفسي وفي هذا الوضع وهذا المحل. ومضى ما يقارب الساعة من الزمن وأنا أطرد الأفكار السود وأتوسل بالنوم. ثم فجأة صرت أسعل وأتى شيء ثخين مالح إلى فمي فقمت الى حيث الفانوس وأخذت قطعة ورق

من جريدة وبصقت. ودهشت. وصرت انظر مرتجفاً إلى الورقة في يدي وعليها قطعة كبيرة من الدم الأسود المتخثر. وبصقت مرةً أخرى ثم أخرى. وفي كل مرة بصقت دماً. واعتراني في تلك اللحظة شعور غريب لا أستطيع وصفه. انه خوف من الموت، ويأس من الحياة، وحزن على حالة مؤلمة.

جلست على حافة السرير أفكر ماذا يجب أن أعمل؟

الخوف من الموت دفعني أن أتناول قدحاً من الماء المالح إذ انني تذكرت في تلك اللحظة أن الماء المالح يوقف النزيف. واليأس من الحياة أقعدني في غرفتي المظلمة دون أن أطلب الاسعاف. اذ ليس في الامكان طلب الاسعاف. فليس في سجننا طبيب ولا دواء، وماذا يستطيع هؤلاء الجنود ونحن بعيدون عن المدينة في وسط هذه «الصحراء». ثم ما الفائدة من ازعاج زملائي. بقيت مدّة في السرير لا أستطيع التفكير بشيء. ثم سمعت أن جاري رؤوف البحراني يتحرك في سريره ويئن أنين السجناء المعذبين. فناديته مرةً ثم أخرى... وقد سمع ندائي إذ لم يكن بيني وبينه الّا غرفة صغيرة واحدة. أتى رؤوف فقلت له يا عزيزي أبو احسان. المسألة كذا وكذا.. فإذا مت أرجو أن تسلّم على زوجتي وأولادي وأخي. فانذهل رؤوف وقال ما قال وأراد أن يطلب من الحرس الاتصال بالتلفون ببغداد وجلب طبيب. ولكن كلنا نعلم أن هذه قضية لا يمكن اجراؤها. لأن الطبيب يجب أن يستأذن من الوزير وهذا يأخذ رأي الأمير ونحن الآن في منتصف الليل. فطمأنني بكلمة ملائمة للوضع الذي كنا فيه وعاد إلى غرفته وبقيت حتى الصباح بين النوم واليقظة وبين الأمل واليأس.

وعند الصباح راجع اخواني في السجن العريف، واتصل هذا بالرئيس عبد القادر في بغداد وهذا الأخير اتصل بمدير السجن. وعند الظهر أتى طبيب السجن الدكتور محمد علي جواد البيرماني. وفحصني وأعطاني بعض الأدوية المسكنة وبعض الكلمات المطمئنة وانصرف.

هكذا كانت ليلة رأس السنة. وهكذا كان أول يوم منها. فكأنما الأقدار لم تكتف بما أصابني. فلم يكفها النفي والتشريد والاعتقال والسجن والمصادرة والمطاردة وكل شرور الإنسان لم يكفها ذلك، فأرادت أن تضربني بصحتي أيضاً، وانتخبت رأس السنة وقتاً مناسباً لتلك الضربة. أنزلتها بي ضربة قاسية مؤلمة وأنا سجين في غرفة تقبض الروح، بعيداً عن أهلي وجماعتي، وحيداً منفصلاً عن الاسعاف، وعن الطبيب، وعن الدواء.

قلت ان المصائب لا تأتي منفردة إنما تفضل أن تأتي أسراباً مجتمعة فتهاجم من الخلف والأمام ومن فوق وتحت. إنها كالذئاب الجائعة الكاسرة عندما تهاجم أعزل. ومثل هذا الأعزل كنت أشعر ليلة رأس السنة في أبي غريب.

وفي اليوم الأول من السنة الجديدة (١٩٤٥) أتت وداد وقت الظهر مع العائلات فوجدتني في السرير ولما أخبرتها بما حصل اندهشت وفزعت ولكنها سرعان ما أدركت الوضع فأخذت تتظاهر بالجلد وأمسكت بيديَّ وصارت تطمئنني وتشجعني. وكنت أعلم بما تشعر في قلبها من آلام وأوجاع من توالي المصائب ومن هذا الحظ الغريب العجيب. ولكنها بقيت ولم تزل حتى اليوم صامدة مؤمنة وكان إيمانها هذا يجدد في نفسي الأمل ويدفع عني اليأس. وأمسكت أنا أيضاً بيديها باسماً ومشجعاً. وصداقة وداد وحبها وايمانها كان ولا يزال نقطة لمّاعة في الظلمات المطبقة حولي...

وفي اليوم التالي أتى ابراهيم ومعه الدكتور نجيب محمود المتخصص بالأمراض الصدرية فأعطاني بعض العلاج وأوصاني بالراحة التامة والبقاء في السرير... ولكن ما معنى الراحة في السجن المظلم المرطب هذا دون خادم أو ممرض أو مساعد؟

أرسلت كلمة إلى الدكتور سندرسن قلت فيها بأنه اعتماداً على المساعدة والإنسانية اللتين لمستهما منه عندما كنت في المستشفى الملكي أثناء المحاكمة فإني أطلب اليه اليوم أن ينقذني مما أنا فيه. فأخذ كتابي الرئيس عبد القادر وجاء الدكتور سندرسن في اليوم التالي ففحصني وفحص الغرفة ورأى مياه الأمطار المتراكمة حول البناية المرطبة التي كانت اسطبلاً في السابق. ثم رأى الغرف المظلمة الصغيرة التي لا يدخلها النور والهواء. فوعدني بأنه سيجري ما يلزم من مراجعات وترتيبات لأجل نقلي من هذا المكان وأوصاني بالاستراحة التامة وصافحني بحرارة وانصرف تاركاً وراءه في قلبي شعوراً عميقاً من الامتنان والارتياح بأن المروءة لم تهجر البشر بالمرّة وهذا الرجل الانكليزي الخصم المباشر بسبب انتسابه الى القوم المستعمر، اثبت أن كرامة الإنسانية هي فوق الخصومات السياسية وغيرها من أسباب الاحتكاك والعداء بين البشر..

زيارة الدكتور سندرسن واهتمامه بأمري، ولطفه في محادثتي، ووعده بإنقاذي، جعلني أسترد بعض إيماني بالإنسان.. هذا المخلوق الذي فيه يتمثل الخير والشر والجمال والقبح والحب والكره وكل المتناقضات. ونمت تلك الليلة مرتاحاً إلى درجة ما. وبقدر ما يسمح به المكان والزمان من راحة..

أوصاني الأطباء بأن لا أترك السرير ولا أتحرك. ولكن كيف يمكن ذلك.. كان عندنا خادم واحد يقوم بالكنس والتنظيف ونقل المياه النظيفة والقذرة والقيام بجميع الأعمال الثقيلة التي لا نستطيع أن نقوم بها بأنفسنا نحن المساجين الخمسة. وفوق ذلك، فإن هذا الخادم لم يكن خادماً بمعنى الكلمة، إنما كان شاباً من القرويين أتى لزيارة خاله العريف محمد. فلما انقطع الجنود عن خدمتنا كلفه العريف محمد وهو ابن أخته ليخدمنا وربما يتجسس علينا. فلما مرضت صار هذا الشاب يخدمني ويسخن لي الطعام في غرفتي ويوفر عليَّ قسطاً من الحركة. وهذه كانت مساعدة عظيمة بالنسبة إلى وضعي وجزا الله العريف محمد وهذا الشاب كل خير...

أيام السجن في أبي غريب لا تطاق من جميع الوجوه، ولا يستطيع أن يتحملها حتى أقوى الأقوياء جسماً وأعصاباً فكيف يتحملها مريض مثلي يسعل ويبصق دماً وهو مهدد بالنزيف. ولكن ما العمل؟ هكذا كتب الله علينا أن نبتلي بظلم الظالمين. وأن نذوق على أيدي من جردهم الله من المروءة والانسانية مرارة الانتقام الرخيص والجبروت الخسيس.

كنت في حالتي تلك أعلل النفس بفائدة الصبر ومزايا التحمل. ولكن في بعض الأحيان لا ينفع الصابرين حتى الصبر فقد كان عذابي يزداد ويتضاعف خلال الليالي الباردة المطرة. فالرطوبة كانت تصل حتى العظام ورائحة نفط الفانوس تزيد في ضيق الصدر وفوق ذلك كله ينزل المطر إلى الغرفة من فطور السقف وشقوقه هنا وهناك فوق السرير. وكنت أضع هنا طشتاً وهناك صحناً وأزيد بعدد الطشوت والصحون كلما ازدادت خيوط المطر النازل من السقف. وكانت القطرات الساقطة تضرب في الطشوت والطوس والصحون فتحدث أصواتاً تتزايد وتنخفض وتعلو تبعاً لكثرة المطر وقلته و.. وهكذا كان عندي في ليالي المطر «سمفونية عذاب» لا مثيل لها. ما أدري، لو

كتب الله «لبيتهوفن» أن يذوق مثل هذا العذاب لكان قد سجل شعوره بألحان تهز القلوب وتمـزق الأعصاب وتحطم الرؤوس.

لم أكره المطر في حيـاتي مثلما كـرهته وأنـا فوق فـراشي لا أستطيع أن أزيـح السرير ولا أن أبدل وضعي خلال تلك الليالي السـود في سجن أبي غريب. فـالقطرات كـانت تنزل الـواحدة تلـو الأخرى بلا انقطاع ومنها ما يقع على رأسي ومنها ما ينزل على فراشي ومنها ما يضرب بـالأواني.. كـأن شيطان الشر كـان يتقصد هـذا التعذيب للجسم والأعصـاب. مرض ورطـوبة وظلمـة وبرد وقطرات المطر تزيد ساخرة في هذا العذاب.. وكانت القطرات تنقطع أحياناً فأحمـد الله وأستعـد للنـوم بالـرغم من الفراش المبلـول ولكن سرعان مـا تعود طق.. طق.. طق.. طق.. بق.. بق.. بق.. بق.. تك.. تك.. تك.. فتبدأ الموسيقى من جديد ويأتي العذاب مضاعفاً لتعب الجسم وضجر الـروح... وكانت تذكرني تلك الليالي «بحدائق التعذيب» الصينية فقطرات الماء كانت تستعمل هناك كإحـدى وسائل التعذيب. فهذا المطر وهو الحياة وفيه الجمال والخير والبركة في الحياة الاعتياديـة الحرّة. كان في أبي غريب عذاب عجيب لي ولاخواني السجناء. إذ كانت الحالة هذه عامة عنـدنا مـع فرق واحد بالنسبة إليَّ. فإنهم كانوا أصحاء قادرين عـلى اتقاء شر المطـر والابتعاد من تحت المـزاريب المتساقطة من السقف، بينما أنا كنت مضطراً أن أبقى في السرير تحت «الرحمة» المتقطّرة. لا مفرّ لي منها ولا قدرة عندي أن أبتعد عنها. ثم يأتي الصبـاح ويذهب الظـلام، ويأتي الخـادم حامـلاً الطشوت والصحون ويفرغ ما فيها من المياه. وينشر البطـانيات والأغطيـة في الشمس ـ ان كانت هناك شمس ـ ويتكرر مثل هذا العذاب عدة مرات فكأن السمـاء تريـد أن تتخلص من أمطارهـا كلها خلال الأسبوعين اللذين قضيتهما في تلك الحالة.

بعـد زيارة الـدكتور سنـدرسن ببضعة أيـام. أتاني الـرئيس عبد القـادر يخبرني بمـوافقة الحكـومة عـلى نقلي إلى مستشفى الكـرخ. وكانت هـذه مساعـدة عظيمة أسـداهـا إليّ الـدكتـور سنـدرسن لأن لولاه لمـا تيسر لي ترك السجن. وان كـان العالم المتمـدن يضمن صحة المسـاجين والعناية بهم. فاننا كنا ولا نزال في عالم خاص ومعرضين لمعاملة قاسية شديدة أملاها الانتقام.

ولكن حالتي الصحية لم تكن بدرجة تسمع لي ركوب السيارة خوفـاً من عودة النـزيف وعليه فقط اضطررت للبقاء في السجن حتى اليوم الرابـع عشر من كانـون الثاني/ ينـاير ١٩٤٥.. ففي ذلـك اليوم أتى الـرئيس عبد القـادر وركب معي بسيارتي وانتقلت الى مستشفى الكـرخ. وهناك استقبلني الدكتور صبيح الوهبي والدكتور خليل مصفى والممرضة السستر نجيبة. فوجدت نفسي من جديد أعيش بين البشر وكانت المعاملة في المستشفى من أطيب ما يعامـل به الإنسـان. وهكذا كانت العناية. فإني سوف لن أنسى لطف الأطباء والممرضات وحتى الخدم. فإنهم كـانوا ينظـرون إليَّ نظرتهم إلى الأخ أو الأب..

ومـرت أيام وأخـذت صحتي تتحسن بسبب استراحـة الجسم والأعصاب والتـداوي والابر وهنا يجب أن أسجل شكراً خاصاً بالسستر نجيبة لعنـايتها ومعـاملتها الطبيـة وكذلـك يجب أن أذكر اسم الخادم «حافظ» لما قام به من خدمات قلبية ومساعدات سيأتي ذكرها فيما بعد.

نصحني الناصحون بأن أقدم عريضة للحكـومة أطلب الافـراج عني للاستشفـاء وفي نفس الوقت أبعث بكتاب خـاص لسمو الـوصي أطلب منه أن يصـدر عفواً عني لابتـلائي بهذا المـرض

وضرورة استشفائي. فكتبت إلى وزارة الشؤون الاجتماعية طالباً تشكيل لجنة طبية لفحصي وبعثت مع سليمان فتاح بكلمة إلى الوصي. وبقيت انتظر أياماً وأسابيع. وكان الأطباء كلهم يساعدونني ويؤكدون لي بأن المساجين المصابين بأقل من مرضي كانوا يعفون من المدد الباقية عليهم بواسطة الكشوف الطبية ولذا كنت وكانوا من المتفائلين بأن سيحصل الخير من هذا الأمر.

وتشكلت اللجنة الطبية برياسة الدكتور سندرسن وعضوية كل من الدكتور ستيس والدكتور هاشم الوتري وجاء هؤلاء إلى مستشفى الكرخ في ١١ آذار/ مارس وفحصوني ودرسوا التقارير والتحليلات. ولاحظت أن الدكتور سندرسن كان مهتماً بالأمر فهو الذي أراد منا أن نستحضر تقريراً طبياً حول التحليل من الدكتور «بتي» وقد دبرنا ذلك وهنا كانت مساعدة الخادم حافظ ذات فائدة عظمى. اذ هو الذي أتى لنا بالميكروبات من مريض يعرفه وأتى تقرير الدكتور «بتي» مثبتاً وجود الميكروب بكثرة مما يدل على حدة المرض.. وتفلسف الدكتور هاشم الوتري حسب عادته، بأن وجود رئة سالمة لا يعني وجود الخطر فيظهر أن هذا الدكتور المحترم أشد انكليزية من الانكليز وكان هو الرجل الوحيد من بين الأطباء العراقيين الذي لم يظهَر عطفاً أو تساهلاً... ولله في خلقه شؤون...

وبعد انتظار طويل ومراجعات عديدة قررت الحكومة عدم الافراج ولكنها اقترحت عن طريق وزارة الشؤون الاجتماعية بأن أذهب الى شقلاوة للاستشفاء وبأن أسكن داراً مع عائلتي تحت مراقبة الشرطة. ومعنى ذلك نقل السجن من بغداد إلى شقلاوة. وأتاني الدكتور سندرسن يخبرني بأنه سعى كثيراً لأجل الافراج عني وقابل الجهات العليا، وأنه واجه موانع سياسية لا تسمح بالافراج.

وهنا ظهرت حقيقة الانتقام واضحةً جليةً. إذ كان يعفى عن المساجين من المجرمين العاديين كقطاع الطرق واللصوص، إذا ما ابتلوا بمثل مرضي وبأقل منه، بينما أنا تعارض المحافل السياسية العليا باطلاق سراحي لأجل الاستشفاء خارج العراق.

ولم يخف الدكتور سندرسن أسفه واستغرابه لرجحان كفة الانتقام السياسي على المروءة الإنسانية.. وعلى كل شكرت الدكتور سندرسن على ما قام به وقلت له أنني لن أذهب إلى شقلاوة لأن الاستراحة فيها غير مؤمنة ولا يوجد فيها أطباء وفوق ذلك أن شقلاوة موبوءة بالملاريا. فأعطاني الحق. وأخبرته أنني كتبت إلى وزارة الشؤون الاجتماعية بهذا الشأن ورجوتها اعادة النظر في قرارها. فوعدني بأنه سيقابل الوزير المختص ويسعى لأجل استبدال شقلاوة ببغداد فأكون بالقرب من أهلي ومن الأطباء.

وفي نفس ذلك اليوم بعد أن انصرف الدكتور سندرسن أبلغني الدكتور صبيح بجواب وزارة الشؤون على عريضتي الأخيرة بشأن شقلاوة فإذا به كتاب بارد وناشف يبدأ: «أخبروا السجين موسى بأن الوزارة لا ترى لزوماً لتبديل قرارها...». وقد وقّع الوزير عبد المجيد علاوي على الكتاب وهو نفس عبد المجيد الذي كان تحت إمرتي في وزارة الخارجية. ذلك الرجل الذي لم يجرؤ فيما سبق أن يجلس أمامي دون أن يستأذن. أما الآن فإنه هو وزير الشؤون وأنا سجين وعليَّ أن أخضع لمرؤوسي مرؤوسيه. انها عبرة مرّة.

تألمت بالطبع لهذا العمل ولكني قررت بأن لا أذهب إلى شقلاوة وإن كلفني ذلك العودة إلى

«أبي غريب». وكان من الواضح أن الوزير الموقر أرسل بخطابه هذا، قبل أن يعلم برأي سندرسن في الموضوع، وأنه لا يستطيع رد اقتراح يأتي من الدكتور سندرسن. فمعاليه يعد من الطراز الأول من السخفاء الذين يتذللون لمن فوقهم أو لمن هم أقوى منهم ويتفرعنون على من دونهم أو على المغضوب عليهم من قبل الأسياد. وصرت أستعرض تقارير عبد المجيد علاوي في مخيلتي تلك التقارير التي كان يرسلها من المحمرة عندما كان قنصلاً هناك والتي اشتهرت في بغداد لشدّة ولكثرة ما فيها من السخافات المضحكة. ولم يكن عبد المجيد علاوي في الخارجية الّا أضحوكة بين الموظفين صغارهم وكبارهم ولكن انتسابه للشيعة كان السبب الوحيد لستر نواقصه وهو السبب الوحيد لصيرورته الآن وزيراً من وزراء هذه الدولة الهازلة الهزيلة. ولم يكن عبد المجيد علاوي شاذاً أوحد. إنما رأى العراق من قبل ومن بعد مثله وأصغر منه بين الشيعة والسنة. ممن طفوا على وجه هذه البركة النتنة. بركة تنفجر مياها من الينابيع الاستعمارية فينمو فيها من يعيش في المياه الراكدة القذرة ويهلك فيها من تعود على العيش الطليق النظيف.

تألمت من عمل عبد المجيد علاوي الوزير وسامي شوكت المدير العام، ولكنني لم أستغرب عملهما... لأنني وجدت فيمن كان يتظاهر بالصداقة والولاء أيام الخير من هم أقل وفاءً وأكثر جبناً مما وجدت فيهما. فالأكثرية الساحقة من العراقيين المثقفين هم على هذا الطراز المخزي فأعضاء الحكومات التي دبّرت لنا مأساتنا أو نفذت فينا أوامر المنتقمين منا كانوا كلهم من أعز الأصدقاء وأصدق الخلصاء. أو هكذا كانوا يتظاهرون فلما حل بنا ما حل، نسوا الصداقة والخبز والملح فسكتوا وجبنوا ووافقوا وصدقوا. فلا يحق لي بعد هذا أن ألوم عبد المجيد علاوي أو سامي شوكت أو هاشم الوتري. إذ لم تكن بيني وبين هؤلاء إلّا رابطة المعرفة البسيطة. إنما ألمي كان منبعثاً من اشتراك أبناء وطني في تمثيل رواية لا تستحق كل هذا التلهف وهذه الاستماتة لإرضاء بعض المخلوقات.

وعبرة أخرى مرت بي عندما كنت في المستشفى. فقد أتى علي أبو المي للمستشفى لإجراء عملية وبقي ما يقارب الأسبوع في غرفة مجاورة لغرفتي... فصار يتردد عليه الزوار كل يوم وكل ساعة من النهار وأكثرهم من علية القوم ومن أصدقائنا القدماء.

وقد وقع بعضهم في حيرة بعد أن رأوني في الغرفة المجاورة أو سمعوا من «أبو المى» بأنني في جواره. هل يزورونه دون أن يسلموا عليّ؟ إنها مشكلة. ولكن بعضهم تشجع وتوكل على الله وأتاني خجلاً مستفسراً ومعتذراً بأوهى الأعذار. وكان من بين هؤلاء: فخري الجميل، وصادق البصام وصالح شكاره وعبد الهادي الجلبي وسعيد حقي ومحمود رامز، وابراهيم عاكف، وعباس مظفر، وغيرهم. اكتفي بهذه الأسماء لأن أصحابها كانوا ولا يزالون يدعون الصداقة والولاء لوالدي ولأخي ولي. ولكنهم لم يأتوا لزيارتي إنما أتوا لزيارة علي أبو المى ومروا عليّ من باب المجاملة فقط. مساكين هؤلاء الجبناء فانهم جبناء حتى في قلة الوفاء. وإلى جنب هؤلاء وجدت الوفاء في نفر قليل من معارفي وأصدقائي. فزارني يوماً كامل الجادرجي دون استئذان وجس النبض. فقد أتى الى المستشفى وسأل عن غرفتي ودخل عليّ مسلماً. وكانت مفاجأة لطيفة وعزيزة. كان كامل من أقدم أصدقائي ولكن حصلت بيننا برودة بعد حادث الأسلحة، عندما كان وزيراً في وزارة حكمت سليمان، وانقطعت بيننا الصلة منذ ذلك الحين. فلم أكن أترقب منه زيارة

مثل هذه. ولكنه أتى وملأ قلبي سروراً لأنه أتى يحمل الجرأة والوفاء بين ذراعيه دون أن يعتذر أو يتلعثم كما فعل الجبناء. وأتى لزيارتي يوماً الرجل العجوز حسـين الهذال ومعـرفتي به منـذ أيام بومباي ١٩١٩. فـأتى مسلماً داعيـاً. وأتى رئيس الفراشـين في وزارة الخارجيـة الخادم حسن.. يقبل يدي ويبكي ويسب ويشتم من كان السبب في محنتي وعاد بعد يومين يحمل هدية متواضعة ويصر علي قبولها. كم تأثـرت لابداء الشعـور بهذه البسـاطة والسـذاجة. نعم ان زيـارة الفراش حسن كانت ألذ من زيارة «الأصدقاء» الجبناء وعبـاراتهم المصطنعة. فـالوفـاء والجرأة كـانا ولم يزالا بين الطبقات الفقيرة من الناس أوفر منهما بين الطبقة «الراقية» المتمدنة.

العودة إلى البيت

مرت أيام وبقيت أنتظر خلالها نتيجة مراجعاتنا بشأن السكن في داري أو دار أخرى في بغداد. وأتاني يوماً الرئيس عبد القادر مبشراً بأن وزارة الشؤون وافقت على أن أذهب إلى بيتي وأبقى هناك للاستشفاء تحت مراقبة الشرطة...

وهكذا بر الدكتور سندرسن بوعده مجدداً فأنقذني من الذهاب إلى شقلاوة مثلما انقذني من قبل من سجن أبي غريب.. فهذا الرجل الانكليزي الذي أصابه ما أصابه من جراء حركة رشيد عالي والذي بقي لاجئاً في السفارة مدّة الثورة والذي نُهب ما في بيته وكسّر ومزق ما لم ينهب منه وأحس عن قرب بالتهديد وبالإهانة وبالسب والشتم لأنه انكليزي وأحد أركان الاستعمار البريطاني أقول هذا الانكليزي، بالرغم من كل ما حصل، كان يلقي درساً في الكرامة والمروءة والانسانية على أولئك الجبناء المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالحماسة والوطنية أيام الحركات والذين انقلبوا الآن نمارد وجبابرة لا يعرفون معنى الكرامة ومفهوم الإنسانية، لا اعتقاداً منهم بأننا كنا مجرمين أو مذنبين، بل تزلفاً وتملقاً لمن يرتاح للاساءة إلينا والانتقام منا...

ان قضية عودتي إلى البيت وخلاصي من سجن أبي غريب نعمة عظيمة بالنسبة إلى حالتي الصحية، وإني مدين بها إلى إنسانية الدكتور سندرسن الذي أقنع الوصي والسفير بلزوم اعتبار النواحي الإنسانية في هذه المأساة السياسية.

تركت مستشفى الكرخ في ٢٣ نيسان/ ابريل ١٩٤٥. فاستصحبني حسب العادة الرئيس عبد القادر، وبعد أن مررنا بمركز شرطة البتاويين لإجراء مسألة التسليم والتسلم رافقنا مفوض الشرطة وذهبنا كلنا إلى البيت. كان فرح عظيم عندنا في البيت وان كان فرحاً ناقصاً. ولكن الفرق بين البيت وأبي غريب كالفرق بين الجنة والجحيم.. وكان سرور الأطباء والممرضة والخدم وحتى أفراد الشرطة في المستشفى سروراً حقيقياً. فأتوا كلهم يودعونني ويتمنون لي الشفاء العاجل والفرج الكامل. ويجب عليّ أن أكرر القول هنا أنني قضيت أكثر من ثلاثة أشهر في مستشفى الكرخ وكنت طيلة تلك المدّة أشعر بأنني بين أهلي واخواني. اذ كان الجميع من المدير الدكتور صبيح الوهبي إلى الخادم البسيط كلهم يعتنون بي وبصحتي وراحتي كل الاعتناء. وبالطبع أن الفضل الأكبر يعود إلى الدكتور صبيح بصفته رئيس المستشفى والطبيب المسؤول. وهكذا يخلق الله الطيبين من البشر ويخلق الخبيثين منهم، إنه هو الخلّاق العظيم.

عدت إلى البيت. هذا البيت الذي تركته قبل أربع سنوات هارباً من الفوضى و «الخرابيط» التي أفرزها بدون لزوم ولا فائدة تصرفات القواد واذعان رشيد عالي الى آرائهم.

هارباً من أناس أعمتهم الحماسة فلم أستطع أنا واخواني من ردهم إلى رشدهم فزجوا البلاد، وزجوا أبناءها المخلصين، وزجوا أنفسهم، بثورة، لا هي ثورة، وحرب ليست بحرب، انما هي نوبة هستيريا وطنية، لا فائدة فيها ولا لزوم لها.

عدت الى زوجتي وأولادي بعد فراق طويل وأيام كلها عذاب وشقاء واضطراب. وتراني أجد

الآن بصحبتهم سلوىً وقوةً. تركت غيدة ومحمود طفلين لا يتكلمان ولا يفهمان الاّ القليل والآن عدت إليهما وهما يتكلمان ويسألان ويدركان. عدت إلى غرفتي، وفراشي، وكتبي، بعد أربع سنوات انقضت في الهرب والاعتقال والنفي والسجن والمحاكمات والمستشفيات وأنواع من العذاب رأيت خلالها العجب العجاب.. فكنت كالذي تاه في الصحراء فذاق مرارة الوحدة، ورأى شبح الهلاك ثم بقي هائماً، يائساً. ثم وجد نفسه من جديد في واحة خضراء. فعادت اليه الحياة وعاد إليه الأمل... وعاد إليه الإيمان...

هل صحيح أنني أجلس الآن في بيتي ومعي وداد وغيدة ومحمود؟

هل أصبح سجن الأهواز، ومعتقل مومباسه، ومعتقل سالسبري، وسجن العباسية، وسجن حيفا، وسجن أبي غريب، ذكريات من الماضي؟

هل انتهى عذاب وزارة رشيد عالي، وعذاب الفرار إلى ايران، وعذاب الأسفار في البواخر العسكرية المخفورة، وعذاب الأسر، وعذاب الكابتن سمارت والميجر «تريلينغ»، وعذاب الحرس الملكي والعريف محمد؟

إنه شعور غريب يعتريني كلما أستعرض ما مضى من المصائب وكلما أفكر بأن المأساة لم تنته.

نعم انطوت منها صفحات مؤلمة ومضى منها أدوار مظلمة ولكن للرواية فصولا أخرى ولها نهاية. وكيف ستكون النهاية؟

كنت سعيداً لأنني نجوت من سجن أبي غريب وعدت إلى بيتي ولكن هذه السعادة لم تكن كاملة. فأنا لم أزل سجيناً، ولم أزل محكوماً عليه لمدّة خمس سنوات وبالسجن وبالمصادرة والمطاردة. كنت أشعر كالغريق الذي وجد الخلاص من الهلاك بالصعود الى زورق صغير عائم. فإنه بلا شك سعيد ومسرور لنجاته. ولكن الزورق لم يزل في البحر الهائج. والسرور الحقيقي لا يأتي الاّ بعد الوصول إلى ساحل السلامة. وساحل السلامة هذا بعيد لا تراه العين.

هكذا كان سروري بالعودة إلى البيت مكدراً. واليوم وأنا أكتب هذه الأسطر في ١٦ آذار/ مارس ١٩٤٧ يكون قد مضى على عودتي إلى البيت سنتان وأنا ما زلت أشعر أنني في زورق عائم في بحر هائج مظلم. وساحل السلامة بعيد لا تراه العين.

ولكن من يدري؟ فلعل الساحل قريب، قريب جداً. ولكن هذه السحابة المظلمة الكثيفة التي تحيط بي هي التي تمنع الرؤية وتزيد في اليأس. فمتى هبت الريح وانزاحت السحابة وتمزقت، ظهر ساحل السلامة بأنواره وعادت الحياة إلى طبيعتها وزال الخوف والبأس والقلق وحل مكانها الأمان والأمل والاطمئنان من جديد. فليس هذا على الله بعسير، وليس فيما عملت ما يستوجب استمرار هذه التراجيديا المؤلمة. فالحالة التي أنا فيها الآن غير طبيعية إنما هي وليدة تفاعلات طارئة مصطنعة فلا بد للاندفاعات أن تنتهي ولا بد للزوابع أن تهدأ ولا بد للبراكين أن تخمد فيعود الهدوء والسكينة وراحة البال، وتعود الحياة الطبيعية إلى سيرها والمياه إلى مجاريها. ان إيماني بالله، وايماني ببراءتي، وثقتي في نفسي، تجعلني أعتقد بأن نهاية هذه النكبة ستكون قريبة إن شاء الله.

كنت أتألم بين عذابين، فأنا سجين ومحكوم عليّ بالحبس الشديد لمدّة خمس سنوات وبمصادرة جميع أموالي وأملاكي. وقد أعلنت المحاكم قوائم أملاكي بالصحف وبيعت كلها بإجراء المزاد العلني فكنت أقرأ هذه الاعلانات وأسمع أخبار البيع لمدة سنتين وقلبي ينفطر ألماً. هذه أملاكي ورثتها من آبائي وأجدادي وهذه الحكومة الجائرة أخذت في بيعها تعويضاً للخسائر التي سببتها حركة رشيد عالي... تلك الحركة التي أردت أنا وزملائي المعتدلون إيقافها عند حدها، وعدم التورط بحرب كانت نتائجها معلومة لدينا. ولكنا فشلنا في اقناع المتحمسين فكان جزاؤنا الحبس ومصادرة أملاكنا.

ومما زادني ألماً أنه عندما بدأت الحكومة ببيع الأملاك في صيف ١٩٤٥، سافر ابراهيم للاصطياف في لبنان تاركاً الوضع وراءه وأنا سجين في بيتي لا أستطيع عمل شيء. فاستغرب الناس من عمل أخي ابراهيم وتركه بغداد للاصطياف في ظروف حرجة كهذه. وانتقده حتى صيون.. ولكن ابراهيم سافر ليقضي فصل الصيف في لبنان ولم يرَ بأساً بهذا التصرف الذي لا يأتلف والاخوة...

وأخذت الأملاك تباع قائمة بعد أخرى طيلة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ وحرصت على الاحتفاظ ببعض أملاكنا الموروثة فراجعنا صالح جبر وزير المالية إذ ذاك بأن يسمح لنا بشرائها بدون مزايدة، فوافق الرجل وسجلت باسم أخي ابراهيم المسفاية والخان وبعض الأملاك الأخرى في بغداد. ولم تكتف الحكومة بكل ذلك. فحاولت بيع الدار الذي نسكنه. إذ أتت يوماً من الأيام لجنة خبراء ومعها ممثل المالية ابراهيم الراضي لتخمين الدار وللتحقق، مما إذا كانت أكثر مما أحتاجه وعائلتي. وقيل لي أن القانون يجيز بيع دار السكن إذ كان اكبر وأفخم من الحاجة. ولن أنسى الساعات التي قضيتها ذلك اليوم عندما أخذ الخبراء يطوفون البيت للتخمين وكان بين أعضاء اللجنة رجل مسن آثر أن لا يشترك في هذه العملية فجلس إلى جانبي ولم يشترك بالطواف مع زملائه فرفع يديه إلى السماء يدعو بالفرج عني ويدعو بهلاك هذه الحكومة والوصي، على هذه المعاملة الجائرة وهذا الظلم. ومرت أيام ونحن في عذاب شديد لأن المحكمة كانت تريد بيع دار السكن أيضاً ثم أخبرونا بأنها صرفت النظر عن ذلك بناءً على قرار وزير المالية وكانت تلك مساعدة من صالح جبر نذكرها له بالخير..

الأيام التي قضيتها في سجن أبي غريب والمحاكمات، وأيام المستشفى ثم أيام بيع أملاكي وأنا سجين في البيت منذ صيف ١٩٤٤ حتى صيف ١٩٤٧ كانت من اشقى ما عشت واتعس ما شعرت. ولكنني صبرت وتجرعت المرارات والاهانات والمرض والحبس وهذا المستقبل المظلم: لا مال ولا صحة ولا حقوق مدنية. صبرت على كل ذلك لأنني كنت أعلم بأنني لم أقترف جرماً ولم أخن أمانة إنما كنت ضحية أخطاء وانتقام وظلم عنيد لا سيما وأن أكثر أصدقائي وأقاربي تخلوا عني ولم يسألوا طيلة هذه السنوات ما عدا من بقيت فيهم بقية من الوفاء والمروءة. وكان أول الأوفياء الحاج عبد المحسن شلاشي ونوري وسليمان فتاح وهارون شماشي وعبد الرحمن ابن وكيلنا القديم عبد الوهاب وقليل من الأصدقاء الجدد. أما «الاخوان» القدماء فقد ذابوا كالملح في الماء. لا زيارة ولا سؤال بالتلفون ومنهم صادق البصام، وعبد القادر صالح وأكثرية الأصدقاء والأقارب.

كنت أفيق أيام الصيف مثقلاً بالهموم ومنزعجاً من الأحلام المخيفة التي صرت أراها دائماً وهي اعتقال وسجن ونفي وتشريد وهرب ومحاكمات وغيرها من المزعجات... وفي يوم الثلاثاء المصادف ٨ تموز/ يوليو ١٩٤٧ بينما كنت أقضي الصباح بين المطالعة والتفكير بأنواع المزعجات رن جرس التلفون. كنت وحدي في البيت. تركت مكاني ببطء. لعلها نمرة مغلوطة. ثم أخذت التلفون وقلت هالوا. فأجاب صوت أعرفه ولكنني لم أتذكره في تلك اللحظة. هالو! موسى! اشلونك. اشلون صحتك؟ فأجبته شاكراً متودداً.. فهم صاحب الصوت بأنني لم أعرفه.. فعاد قائلاً: اشلونك؟ «**يره ياط**»! وهنا عرفت الشخص وأجبته: أشكرك باشا. واستمر الباشا يقول: «المسألة تنتهي بعد يوم أو يومين.. وأنه يمكنك الذهاب إلى لبنان لقضاء الصيف».

كان ذلك نوري باشا السعيد! «يره ياط» سمعتها في أول مرة تقابلنا فيها في جنيف سنة ١٩٣١ أي قبل ١٦ سنة وهي كلمات أصبحت **باروله** بين الباشا وبيني وهي مأخوذة من مقال كتبته ضد المعاهدة في ١٩٣٠.

إنها مفاجأة لذيذة هذه الكلمات المبشرة بقرب الفرج. ونوري باشا أول المبشرين المهنئين وإن كان أحد العناصر الثلاثة التي طبخت هذه الطبخة لنا وصبوها على رؤوسنا. فالآن الباشا نفسه يبشر بالفرج ويعود إلى نغمته الأخوية: «يره ياط»! سررت بكلمات «أبي صباح» وقدرت له سرعة التطور والتبدل ومهارة الدخول والخروج من خرم الابرة بهذه السهولة واللياقة.

عادت وداد إلى البيت ظهراً فأخبرتها بما حصل وبما قاله نوري السعيد فأخذت تبكي من شدة الفرح كيف لا وهي التي ساهمت معي طيلة هذه السنين بكل العذاب والمرارات.

تعانقنا وفرحنا وحمدنا الله على مقدمة الفرج هذه. ولم ننم بعد الظهر من شدة الفرح. وجاءنا هاتف ثان عصراً، وكان من زوجة صالح جبر رئيس الوزراء يؤيد ما قاله نوري السعيد..

وفي اليوم الثاني عادت زوجة صالح جبر تؤكد خبر الافراج لوداد. وصارت تأتينا التلفونات للتهنئة من الأصدقاء وكان في الطليعة بيت نصرة الفارسي وبيت توفيق السويدي.

في يوم الخميس المصادف ٩ تموز/ يوليو ١٩٤٧ أذاع راديو بغداد مساءً الإرادة الملكية بالعفو عني وعن محمد علي محمود، عما تبقى من مدّة المحكومية وهكذا تحقق أمر الافراج رسمياً فحمدنا الله على ذلك، وصرنا نستقبل المهنئين شاكرين حامدين. ومساء ذلك اليوم جاء مفوض الشرطة وأخبرني رسمياً بأنني حر طليق وأخذ معه الشرطي الحارس. وهكذا انتهى الفصل الأول من المأساة.

في ١٠ تموز/ يوليو ١٩٤٧ خرجت مع وداد لأول مرة من البيت فذهبنا إلى نزهة في المسفاية، لأول مرّة منذ ثلاث سنوات وثلاثة اشهر قضيتها سجيناً في بغداد والآن أنا حر يمكنني الذهاب إلى أين أشاء.

لأول مرّة منذ ست سنوات قضيتها لاجئاً، هارباً، معتقلاً، سجيناً... مطارداً بين طهران والأهواز والبواخر والهند وومباسه ودوربان وسالسبري ثم القاهرة وحيفا وبغداد.

لأول مرّة منذ سنة ١٩٤١ إلى سنة ١٩٤٧ أجد نفسي حراً طليقاً عائداً من عالم غير هذا العالم. اللهم حمداً لكَ وشكراً عظيماً!

أخذ الأصدقاء يتوافدون عليّ مهنئين. ويوم الجمعة ١١ تموز/ يوليو ذهبت مع عباس مظفر الى الأعظمية لصلاة الجمعة، فحمدت الله على نعمته بإعادة الحرية وان كانت ناقصة إذ انني في نظر «الحاكمين» كنت مجرماً عادياً لا أتمتع بحقوقي السياسية والمدنية بينما كانت أموالي وأملاكي كلها مصادرة. ولم نزل نحن أعضاء وزارة رشيد عالي مدينين بأكثر من مليون دينار عراقي علينا تأديته. ذلك لأن العفو كان خاصاً بالعقوبة الجسمية أي الحبس وقد أعفينا من المدّة الباقية علينا وهي ما يقارب السنة ونصف السنة. ومع ذلك، فإن صدور العفو بهذا الشكل الناقص كان نعمة كبيرة بالنظر إلى ما قاسينا وهي مقدمة خير تستوجب الاغتباط، والفضل الأكبر في ذلك يعود إلى شخص صالح جبر رئيس الوزراء الذي ألح على الوصي بضرورة إصدار الإرادة الملكية، بالنظر إلى تطور الوضع وتبدل الحالة السياسية، إذ ان الحلفاء أنفسهم أخذوا يتظاهرون بالرحمة واللين تجاه الألمان والنازيين، وقد عفت المحاكم عن عدد كبير منهم فلم يكن من المعقول والمصلحة، أن يبقى العراق متبعاً طريق الشدة والانتقام. ولا شك أن لموافقة نوري السعيد تأثيراً كبيراً وإن لم يكن هو في الحكم، فلا شك أن الوصي تبادل معه الرأي قبل اصدار العفو.

ومن غرائب الصدف أني وجدت نفسي في جامع الامام الأعظم عند صلاة الجمعة في صف واحد مع عبد العزيز الخياط، المدعي العام، وبطل المحاكمات العسكرية في الوشاش، قبل ثلاث سنوات الظالم والمظلوم في صف واحد أمام الخالق القهار. وبعد الصلاة تلاقينا وجهاً لوجه أثناء خروجنا من الجامع فسلم عليَّ وكان لا بد أن أرد له السلام. ليت شعري ما كان يجول في صدره؟ أكان نادماً؟ لا أعتقد ذلك لأن هذا المخلوق الناقص ليس لديه ضمير ولا وجدان، ولا أعتقد أنه يخاف الله وأن عبادته وتقواه ما هي إلاّ مظاهر يصطاد بها البسطاء. كما انني أعتقد أن الله سوف يعاقبه على أعماله السيئة وظلمه وسيحاسبه يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه!

يوم السبت في ١٢ تموز/ يوليو ذهبت إلى البلاط وسجلت اسمي في دفتر التشريفات وكان ذلك بمثابة الشكر على اصدار العفو. كنت قد طلبت مقابلة الوصي لرفع الشكر شخصياً ولكن أحمد مختار رئيس الديوان الملكي أخبرني بأن سموه ليس لديه وقت بسبب قرب سفره وأنه أمر بإرجاء ذلك إلى ما بعد عودته. ففهمت المقصود وهو أن سموه لا يرغب في مثل هذه المقابلة، ولربما كانت قبل أوانها، وأن القلوب لم تزل تحمل الغضب.

ومن البلاط ذهبت إلى مجلس الأعيان لمقابلة الرئيس نوري السعيد فاستقبلني ببشاشة وترحاب مع لطفه ونكاته المعهودة وكلماته: «يره ياط». وكان عنده عدد كبير من الوزراء والأعيان فسلمت على بعضهم وتعانقت مع البعض الآخر وكان الجميع يهنئني ويظهر الفرح والسرور.

وفي يوم الأحد ٢٠ تموز/ يوليو ذهبنا، وداد وأنا، إلى دار رئيس الوزراء صالح جبر فرحب بنا هو وزوجته وبالغا باللطف والترحاب.. شكرت صالح جبر على فضله وسعيه لإقناع الوصي باصدار العفو، فكان الرجل متواضعاً وبعيداً عن حصر هذا المسعى في شخصه وقد ظهر لي مرّة أخرى أن هذا الرجل عاقل بعيد النظر ولم يكن بين المنتقمين الشامتين بالرغم من أنه كان أول ضحايا حركة رشيد عالي لموقفه المعلوم عندما كان متصرفاً في البصرة وهنا ينطبق المثل القائل: خصم عاقل خير من صديق جاهل!

القِسْمُ الخَامِسُ

الفَرَج بَعْدَ الشِّدَّة

السفر إلى بيروت

في نفس الوقت الذي كنت أستقبل الزائرين وأرد الزيارة كنت أهييء أمر سفرنا الى سوريا ومنها إلى لبنان كاحضار الجوازات وحجز أماكن في باصات «نيرن». وبعد أن تم ذلك تركنا بغداد في ٢٦ تموز/ يوليو ١٩٤٧ أي بعد أسبوع من صدور العفو وكان عدد المودعين قليلاً جداً: ابراهيم الواعظ وجلال خالد وبهاء عوني وابراهيم البسام وصيون وعلي أفندي وصبحي التيناوي.. وهذا ما ذكّرني بالسفرات القديمة حيث كان عدد المودعين كبيراً يشمل الوزراء وعظام الرجال وكبار الموظفين وجماعات من الأصحاب والأصدقاء. هذه هي الدنيا. لا بأس وستتبدل الأحوال.

عندما مرت السيارة أمام «أبي غريب» ورأيت الحقل الحيواني ومبانيه وبناية السجن الكئيب الذي أمضينا أياماً طويلة بائسة فيه. تبادلت النظرات مع وداد فشدت بيدها على يدي وقلنا لبعضنا ما نريد دون أن نتكلم. ففي ذلك المكان قضيت أياماً كانت كأنها أطول من العصور، أيام المحاكمات والقلق والخوف، والاهانات وتصرفات الحرس الملكي، وقائدهم عبد القادر حسين، والزباني والعريف محمد. ومرت تلك الساعات السود في مخيلتي خلال بضع ثوان. ثم صرت أنظر الى الطرف الثاني من الطريق حيث المزارع الواسعة والسماء والفضاء والحرية وقلبي يطير فرحاً. فأنا ذاهب خارج العراق.. ذاهب إلى سوريا ولبنان حيث أقابل غيدة ومحمود اللذين سافرا مع ابراهيم وعائلته قبل شهر في ٢٦ حزيران/ يونيو الى لبنان. سأقابل أخي ابراهيم وجماعته وأبا فؤاد والسباعية وسنفرح بهذا اللقاء بعيدين عن بغداد وخيرها وشرها. وكانت وداد تشعر بنفس الشعور وتحمد الله في قلبها وعلى لسانها حتى هذه الساعة.

هل صحيح، نحن الآن أحرار، نسافر إلى حيث نريد، دون مراقبة، ودون حراس، ودون خوف؟ قضينا ست سنوات بالخوف والقلق والحبس والمطاردة، والآن لأول مرة نحن أحرار أحرار... أحرار. نسافر بباصات «نيرن» كالسابق. ونذهب الى الشام ثم إلى بيروت وصوفر. سنجلس مع أهلنا وأصدقائنا. سنسكن في الفندق الكبير في صوفر كالسابق. سنذهب إلى السينما. وإلى أي مكان نشاء دون خوف ومن دون خشية مثل غيرنا من الناس وسننام كيفما نريد ونأكل ما نريد ونعمل ما نريد دون حراس ومن دون مراجعة عبد القادر حسين والعريف محمد.

هذه أمور لا يعرف قيمتها الاّ من ذاق عذاب السجن والاعتقال والمراقبة. وبعد مدّة وصلنا

إلى جسر الفلوجة.. فتذكرت كيف أتانا ضابط بريطاني قبل ثلاث سنوات وتسلمنا هنا أمام الجسر، من الضابط البريطاني الآخر الذي أتى بنا من القاهرة. كانوا يسلموننا من يد إلى يد ومن حرس إلى حرس آخر منذ تركنا المعتقل في سالسبري حتى وصلنا الفلوجة ومنها إلى سجن أبي غريب. عبرنا الجسر وبعد مدة مررنا أمام الحبانية وسن الذبان. سن الشر الذي سبب لنا كل هذه المتاعب وأنواع الشقاء ثم وصلنا الرمادي. وفي منتصف الليل وصلنا إلى الرطبة وكنت أتمنى أن نخرج من العراق بأسرع وقت ممكن للخلاص من هذا الجو. وهكذا كنت أشعر عندما تركت بغداد سنة ١٩٣٧ بعد قصة السلاح أيام حكم بكر صدقي وحكمت سليمان. كنت أريد أن أتخلص من محيط الشر!

في بلودان وصوفر وحمص

وصلنا الشام مبكرين في اليوم التالي وكان هناك في استقبالنا العم أبو فؤاد والعديل عبد الكريم ومعهما حياة. فركبنا السيارات وذهبنا إلى بلودان حيث التقينا بنور السباعي ومعه غيدة ومحمود. سررنا كثيراً وكانت قلوبنا تطير فرحاً بهذا اللقاء وأنا حر لأول مرّة منذ ست سنوات...

بعد بضعة أيام من وصولي إلى بلودان دعاني فخامة رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي إلى الافطار فذهبت مع الدكتور أحمد قدري الى الزبداني حيث كان يصطاف الرئيس واستقبلني محسن البرازي واجتمعت بالرئيس وبرياض الصلح رئيس وزراء لبنان الذي كان مدعواً. وكان الترحيب بي حاراً وصميمياً وجلست على المائدة عن يمين رئيس الجمهورية.

في هذا التكريم رمز، فقد كنت في بلادي سجيناً ومجرماً طريداً. وهنا في سوريا أحتل مكان الشرف على مائدة رئيس الجمهورية مع رئيس حكومة لبنان وعدد من كبار الزعماء. ان ظلم حكومة بغداد وحقد الحاقدين وما قاموا به من إجراءات ومصادرات وأحكام لم تبدل من مكانتي الأدبية والسياسية في العالم العربي بل ان ذلك الظلم وتلك الاهانات والاعتداءات قد رفعت من مقامي في نظر كبار العرب وزعمائهم. فحمدت الله في تلك اللحظة على رأفته.

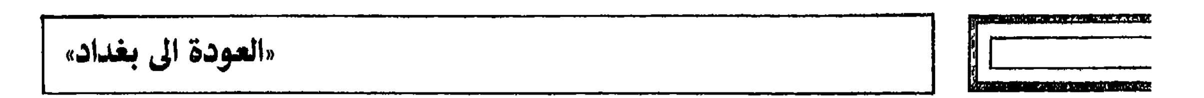
وبعد أيام أقام وزير الخارجية السورية جميل مردم بك حفلة عشاء كبيرة في الفندق دعاني إليها فتعرفت على عدد من الأجانب والسوريين وكنت ألمس دائماً عطفاً واحتراماً من جميع الناس وهذا ما زادني إيماناً بنفسي وسروراً على سروري. وفي الفندق تعرفت على هاشم بك الاتاسي رئيس الجمهورية السابق وأحمد الشرباتي وزير الدفاع ويوسف العيسى الصحفي الفلسطيني الشهير وغيرهم من الشخصيات وكنت دائماً أجد في اهتمام الناس بي واحترامهم لي سلوى عما قاسيته من عذاب وظلم في بلادي..

في ١٤ آب/ أغسطس ذهبنا إلى صوفر ونزلنا في بيت العم أبي فؤاد. وفي لبنان كان الترحيب والاهتمام لا يقلّ عنه في سوريا وقضينا أياماً لذيذة بين الأهل والأصدقاء وكانت هنالك دعوات وضيافات ومقابلات وخلال كل ذلك كان الناس ينظرون إلي كرمز للتضحية في سبيل خدمة بلادي، وكانوا لذلك يبالغون في الاكرام والاحترام... شعرت بذلك على الدوام من خلال جميع مقابلاتي ابتداءً من رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح، إلى خدم

الفندق في صوفر. وهكذا يظهر الله الحق ويزهق الباطـل ويبيض وجوه المخلصــين ويسود وجـوه الظالمين والمنافقين..

بناءً على دعوة هاشم بك الأتاسي ذهبنا وداد وأنا إلى حمص ونـزلنا عنـده في البيت بمناسبـة القربى بين الأتاسية والسباعية فكان فخامة الأتاسي يهتم بنا كثيراً ويعاملنا مثـل أولاده فقضينا أربعة أيام في حمص وكنا موقع الترحيب والتكريم من قبل السبـاعية والأتـاسية في هـذه المدينـة القـديمة. وهنـاك تأثـرت من زيارتي الى الجـامع الكبـير اذ وقفت أمام قبـر بطل الاسـلام الأول خالد بن الوليد وتساقطت دموعي عندما فكرت بحالة فلسطين والعـرب وتوسلت الى اللـه أن يمن علينا ببطل من طراز خالد ابن الوليد ليعيد الى العرب كرامتهم وللاسلام مقامه.

تـركنا حمص في أول تشرين الأول/ اكتـوبر متـوجهين الى طـرابلس ومنها إلى جبـال «سير» الجميلة وقضينا يومين في فندق بالاس ثم ذهبنا الى اهدن ونزلنا في فندق بالاس أيضاً وهكذا طفنا جبال لبنان الشمالية وتمتعنا بمناظرها الجميلـة وعدنـا إلى صوفـر في الرابـع من الشهر وسررنـا بالعودة إلى أهلنا وأولادنا.



«العودة الى بغداد»

قضيت أربعة أشهر كاملة في سوريا ولبنان وكانت هذه من أسعد الأيام إذ أتت بعد سنوات طويلة من الشقاء والعذاب، فكانت هذه الأشهر كدورة نقاهة لمريض قاسى عذاباً أليماً لست سنوات. كنت أشعر بضيق كلما أفكر بأمر العودة إلى بغداد. العودة الى الوطن عادة تكون من أطيب المشاعر ولكنني على العكس كنت أشعر بأنني عائد حيث كان الظلم والعذاب والسجن والمحاكمات والمصادرة والمطاردات. نعم أنا الآن حر ولكنني لم أزل «مجرماً» في نظر الجماعة الباغية. أملاكي وأموالي صودرت كلها فإني أعود لا أملك سوى دار السكنى. وسأرى في بغداد أبطال الظلم في رأس الحكم. نعم ان الناس يحترمونني ويعلمون حقيقة وضعي. ولكن الأمر ليس بأيديهم. فالأمر لم يزل بيد المثلث. وفي المثلث هذا حقد وظلم وفقدان المروءة ولكن مهما يكن الأمر، هذه بلادي وفيها مصالحي فيجب عليَّ أن أعود وأسعى لرفع الظلم الباقي والكابوس الدائم!

عدنا الى بغداد في ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر. وكان في الاستقبال ابراهيم وصيون...

صرت أقضي أوقاتي ببعض الزيارات والمراجعات لأجد طريقة جديدة لحياتي الجديدة اذ بموجب القانون لا يحق لي أن أمارس حقوقي المدنية.. فلا يجوز لي الاشتغال بعمل حر ولا يجوز لي أن أكسب مالاً لأننا لم نزل مدينين الى خزينة الدولة ولا يجوز لي أن أكون موظفاً أو تاجراً. انها مشكلة. نعم خلصنا من السجن والحراسة ولكننا لم نزل في «سجن وحراسة» لا حدود لهما. أجسامنا حرّة ننتقل الى حيث نريد ولكننا مقيدون بقيود لا تراها العين. هذه القيود التي تلاحق المجرم المحكوم عليه في جميع تصرفاته. فأمامنا إذاً أيام صعبة وعقبات لا تعد ولا تحصى. وإلى أن تعود حقوقنا وتعود أملاكنا، فعلينا إذاً أن نسعى ونصبر ونتحمل. نعم علينا أن نتحمل ظلم الظالمين وحقد الحاقدين وعقوق العاقين. نتحمل كل ذلك ونتظاهر بالحمد والرضا والحب والمجاملات... إلى يوم الفرج الحقيقي الشامل... إلى يوم الحرية المطلقة... فعلينا الصبر والتسهيل من الله..

هكذا انتهت سنة ١٩٤٧... وهي سنة غريبة وعجيبة. أضعنا فيها فلسطين وكسبت أنا حريتي الجسمية فقط... فالحمد لله وحده على كل حال.

جريمة سياسية أم عادية؟

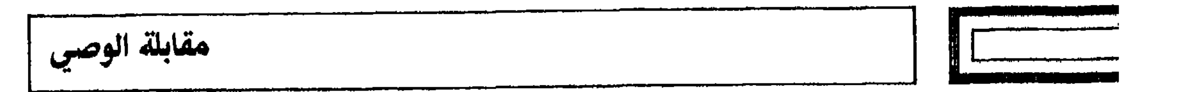
كان ظلمنا منذ البداية مزدوجاً ومضاعفاً فقد حرص الانكليز والوصي ونوري السعيد ومن اتبعهم من أمثال ابراهيم كمال والراوي وغيرهم. حرصوا على اعتبار ما قمنا به، وما حدث، جريمة عادية كجرائم القتل والنهب وقطاع الطرق وذلك ليتم لهم ما يريدون من انتقام ومصادرة ومطاردة كما مرّ ذكره.

وكنا بعد أن حل البلاء نحاول تخفيف المصيبة بتحويل الجريمة العادية إلى جريمة سياسية ولكن بدون جدوى وقد علمت بأساس الفتنة في ٧ حزيران/ يونيو ١٩٤٨ أثناء زيارتي لعبد القادر الكيلاني إذ اجتمعت هناك بروفائيل بطي، وكان نائباً أثناء حركة رشيد عالي، وعندما فتح حديث «الجريمة» قال ان رئيس الوزراء نوري السعيد أتى يوماً الى المجلس متحمساً في أوائل وزارته التي أعقبت وزارة المدفعي سنة ١٩٤١ وطلب من المجلس أن يقرر بأن الجريمة كانت عادية وطلب رفع الحصانة عن النائب الشيخ محمد حيدر وكان روفائيل بطي الشخص الوحيد الذي عارض في ذلك فأحيلت القضية الى اللجنة الحقوقية التي قررت باصرار من رئيس الوزراء بأن الجريمة هي عادية وقد وقع روفائيل بطي مخالفته على القرار وكان بعد ذلك نصيبه الاعتقال في العمارة لمدّة سنة لأنه أراد الدفاع عن الحق.

وقد اتخذت هذه الاجراءات لأن محمد حيدر ترأس الجلسة التي خلعت الوصي عبد الاله وانتخبت الشريف شرف، وصياً جديداً ولأن احالة الوزراء والقواد إلى المحكمة العسكرية بحاجة إلى ذلك التبرير لأن محاكمة يونس السبعاوي وعلي محمود الشيخ علي، واعدام الأول وتبديل حكم الاعدام، عن الثاني بسبع سنوات حبس شديد، ثم الأحكام التي صدرت في المحاكم العسكرية ضدنا، وأكثرنا نواب ووزراء كان يصعب تبريرها على أساس أن محاكمة الوزراء بموجب الدستور يجب أن تقوم بها محكمة خاصة يتم تشكيلها من قبل مجلس الأمة. ولذلك اختصاراً لكل هذه العقبات فقد قرر الانكليز وأعوانهم اعتبار الجريمة عادية فحصلوا بذلك على ما أرادوا وأكثر مما أرادوا!

بعد أن قضى علي محمود الشيخ مدّة محكوميته وهي سبع سنوات في سجن أبي غريب المخيف أخلي سبيله وصار يتشبث بشتى الوسائل فقدم بعد الوثبة طلباً إلى غرفة المحامين بإجازة لممارسة المحاماة. وكانت الظروف ملائمة فأعطيت له الاجازة ولكن وزارة العدلية وعلى رأسها نجيب الراوي اعترضت بسبب نظرية الجريمة العادية.. فرفع علي محمود قضيته إلى محكمة التمييز فأقرت هذه بأن الجريمة كانت سياسية وأيدت غرفة المحامين في ١٧ شباط/ فبراير ١٩٤٨. وكان لقرار محكمة التمييز ضجة شديدة في بغداد وسررنا بذلك كل السرور لأن مثل هذا الأمر يقلب الأمور رأساً على عقب ويجعل أحكام المحاكم العسكرية غير مشروعة ولا سيما بحق النواب منا، كناجي السويدي، ويونس السبعاوي، وناجي شوكت، وعلي محمود وبالتالي تشملنا كلنا. فتفاءلت خيراً من هذه العملية ولكننا، أنا ومحمد علي، قررنا عدم اعتماد الطريقة القانونية التي اتبعها علي محمود وسبب ذلك بالدرجة الأولى قضية الأمل باعادة أملاكنا المصادرة. وهذا لا

يتم الاّ بصدور عفو عن التعويضات فقررنا أن نصبر ونعالج الأمور بالتي هي أحسن وهكذا رأى أصدقاؤنا وبينهم صالح جبر وتوفيق السويدي والمحامي يوسف الكبير وغيرهم. إذ الحق وحده لا يكفي في بلادنا!



مقابلة الوصي

كان لقرار محكمة التمييز في قضية علي محمود الشيخ علي مغزى خاص يدل على تبدل الأيام وتغير الزمان في صالحنا ورجحان كفة العناصر الوطنية على جماعة الانكليز وأذنابهم، وما الوثبة وما تعلق بها من حوادث دامية الّا مقدمة عنيفة لذلك التطور وكنا نحن ضحايا الاستعمار نشعر بذلك التبدل في مقابلاتنا الرسمية منها والخصوصية.. من ذلك أنني كنت مدعواً على العشاء مع محمد علي محمود في بيت نوري السعيد.. عندما وصلنا وجدنا سامي شوكت وتوفيق النائب عند الباشا. فالباشا هو أبو قضيتنا وأمها وسامي شوكت صاحب الصولات والجولات ضدنا وقد تبرأ من أخيه ناجي وأعلن ذلك في الصحف وهددنا بالشنق أكثر من مرّة عندما كان مديراً للشؤون الاجتماعية وكان وزيره عبد المجيد علاوي أسخف منه وأظلم وأحقر نفساً في معاملتنا ونحن سجناء.. أما توفيق النائب فقد بنى مجده على قضيتنا إذ كان رئيس اللجنة التي قامت بالتحقيق والاتهام تحت امرة وزيره أحمد مختار بابان..

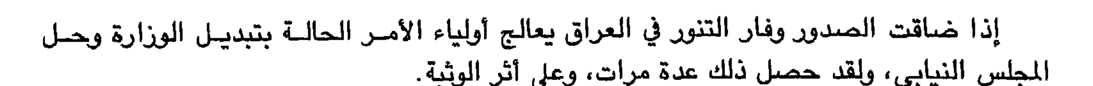
ثم أتى الى بيت الباشا اسماعيل نامق وزير الدفاع في وزارة حمدي الباجه جي التي تم الحكم علينا خلال أيامها السوداء. فكانت هذه التشكيلة غريبة عجيبة. هل كانت مصادفة أم مقصودة، لا ندري. وعندما جلسنا على سفرة الطعام، جلس محمد علي محمود على يمين السيدة أم صباح وجلست أنا على يسارها وتوزعت الجماعة الغريبة على السفرة من بعدنا. وكان الجميع يتسابق بالتودد الينا حتى أن نوري السعيد رافقنا حتى السيارة عند توديعنا.

منظر غريب لا يمكن أن يتصوره انسان قبل عام واحد! ولكن الدنيا أم الغرائب والعجائب. كان ذلك في ٧ آذار/ مارس ١٩٤٨ وفي ٧ نيسان/ ابريل أي بعد شهر واحد من هذه الدعوة، قابلت الوصي الأمير عبد الاله في البلاط بعد أن رتب هذه المقابلة أحمد مختار بابان رئيس الديوان وتحسين قدري رئيس التشريفات. وأسجل فيما يلي بعض انطباعاتي حول هذه المقابلة كما وردت في مذكراتي اليومية:

«... وكان الوصي واقفاً وبعد ان صافحته قال لي: تفضل وجلست إلى جنبه فدار بيننا حديث استمر عشرين دقيقة. بعد ان شكرت سموه على لطفه أكدت له بأنني بالرغم عما حصل لا أزال مؤمناً ومخلصاً إلى البيت الهاشمي الكريم. قال: إن البلاد خسرت خدماتكم وأن ما وقع كان خسارة للبلاد كلها... ثم سألته عن قضية كانت غامضة بالنسبة لي وهي عند تعييني وزيراً للخارجية في الوزارة المرقعة كان رشيد عالي قد اخبرني بأن سمو الوصي هو الذي اقترح اسمي. وسألته هل هذا صحيح؟ قال: لا أنا لم اقترح وانما اخبرني رشيد بذلك فقبلت اذ كنت مضطراً لقبول كل شيء. وبعد أن أتيت لزيارتي عند الظهر أتى رشيد يطلب حل المجلس وكان ذلك حوالي الثالثة بعد الظهر ثم تركت بغداد إلى الديوانية حوالي الساعة السادسة. قلت: اذن كذب عليّ. قال ضاحكاً الله يستر على رشيد.. كان يكذب يميناً وشمالاً».

ثم شكرت سمو الوصي وانصرفت.. وكان تحسين قدري ينتظرني في الخارج فشكرته على تدبير المقابلة. ثم ذهبت إلى أحمد مختار لنفس الغرض...

أعتقد أن هذه المقابلة كانت فاتحة خير... مع أنني لم أطلب شيئاً ولا قضاء حاجة إنما بينت فكري بصراحة بأن اشتراكي بـوزارة رشيد عـالي، لم يكن الاّ بدافـع الخدمـة الخالصـة لبلادي وللمليكي ولكن ما حدث كان لم يكن في الحسبان.



الانتخابات والنيابة

إذا ضاقت الصدور وفار التنور في العراق يعالج أولياء الأمر الحالة بتبديل الوزارة وحل المجلس النيابي، ولقد حصل ذلك عدة مرات، وعلى أثر الوثبة.

وأيام الوزارة الصدرية تقرر إجراء انتخابات وقيل لي أن هذه فرصة بالنسبة لي تؤيد استعادة حقوقي المدنية التي فقدتها بالحكم علي لمدّة خمس سنوات كمجرم عادي... وقيل أن الانتخابات ستكون حرّة بقدر الامكان. ومع ذلك رأيت من الأنسب أخذ رأي الوصي كي لا يفسر عملي هذا تحدياً.. وتم الاستفسار بواسطة أحمد مختار وتحسين قدري وأخبرت أكثر من مرّة بأن سمو الوصي لا يعارض وليس له مانع من ذلك. واعتماداً على هذه الأقوال صرت أشتغل بترشيح نفسي عن الفلوجة وذهبت إليها مع طالب مشتاق لأنه يعرف الجماعة ولا سيما بيت عريم المشتغلين بقضايا الانتخاب. في ١٤ نيسان/ ابريل ١٩٤٨ وكذلك في أول ايار/ مايو . وفي ٨ أيار/ مايو زرنا القائمقام نعيم ممتاز واجتمعنا بأقطاب الهيئة التفتيشية في دار وكيلنا خلف الحاج رميض. وفي ١٠ أيار/ مايو ذهبت مرّة أخرى للاشراف على انتخاب المنتخبين الثانويين وهناك تعرفت على المرشح عبد الوهاب الخطيب وفهمت منه أن «حليفي» عبد العزيز عريم قد نكث العهد وأحضر قوائم ليس فيها أحد من جماعتنا كخلف وعباس الرشيد وعندما سمعوا بذلك اجتمعوا بجماعة الخطيب واتفقوا معهم وأحضروا قوائم جديدة وهكذا شأن الحلفاء: خيانات على طول الحبل. وبعد أن بقيت ثلاث ساعات تركت علي أفندي في الفلوجة لإكمال هذه المهزلة. وبعد أيام التقيت بابراهيم الشابندر رئيس الاستئناف المشرف على الانتخابات وفهمت منه حقيقة الأمر... بأن لاحرية ولا بطيخ وقد أيد ذلك علي ممتاز الذي أخبره أخوه نعيم ممتاز من الفلوجة بأنه يسيطر تماماً على الوضع وأنه ينتظر تعليمات وزير الداخلية مصطفى العمري بشأن أسماء الذين يجب أن يفوزوا. وفي ١٦ أيار/ مايو أخبرني أخي ابراهيم بأن وزير الداخلية دعاه وطلب إليه ترشيح نفسه عن العمارة وعندما قال له بأنه يفضل أن يكون موسى مرشحاً أجابه بأن الوقت لم يحن لذلك ومعنى هذا أن الوصي لم يقتنع بعد بفائدة انتخابي. وبعد هذه المناورات صرفت النظر عن الاشتراك بالانتخابات وأخبرت قائمقام الفلوجة بذلك. ولما انتهت الانتخابات فاز بثقة الأمة عبد العزيز عريم من الفلوجة وأصبح أخي ابراهيم نائباً عن العمارة ولربما وجد الوصي بذلك نوعاً من التسوية بناءً على اقتراح مصطفى العمري.

كنت أشعر منذ البداية بعدم رغبة الوصي والذي لم ينس بعد الحوادث الماضية القريبة، ولكنها كانت محاولة إذ ان الموافقة على ترشيح نفسي تكفي لتأييد نظريتنا بأن الجريمة كانت سياسية ولم أكن أقصد من النيابة غير هذا. على أن المعارضين حول الوصي كانوا لا يزالون أقوياء... وكانوا يخشون عودتنا الى الحكم ولو من بعيد..

في تلك الأيام عندما كنت في دائرة ابراهيم الشابندر رئيس الاستئناف دخل علينا الحاكم خليل أمين فلم أقم ولم أسلم عليه وظن أبو خليل أن لا معرفة بيننا وأراد أن يعرفنا على بعضنا

فقلت له: كيف لا أعرفه وكان أحد الحكام «القرقوشيين» في المحكمة العسكرية. وأراد خليـل أمين أن يقدم بعض الاعتذار فقلت له لا حاجة لذلـك. انكم لم تحاكمـونا بـل طبقتم التعليمات! فسكت وأحنى رأسه مثل الكلب وانصرف!

قضية فلسطين وحواشيها

كانت ولا تزال مأساة فلسطين وراء جميع الثورات والحركات في العراق، وأسباب حركة رشيد عالي نفسها من الأساس هي قضية فلسطين. وعداء العراقيين للانكليز يرجع أكثره الى تصرفاتهم في فلسطين. فالعراقيون ربما يتساهلون في أمورهم الداخلية وعلاقاتهم بالانكليز بسبب المعاهدة وغيره ولكنهم كانوا ولا يزالون أشداء ومتحدين عندما تأتي قضية فلسطين. فهنا يتفق الجميع ما عدا عدد محدود من الخونة، خدام الانكليز واليهود. ولذا كان الاستياء عاماً شاملاً وقد جرت مظاهرات صاخبة في ١٣ نيسان/ ابريل ١٩٤٨ لما قام به الصهاينة من أعمال بربرية في دير ياسين. وتوترت أعصاب الناس في بغداد وأغلق اليهود حوانيتهم وبقوا في بيوتهم خشية أن تقع حوادث دامية.

وكانت الحوادث تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. ففي ٢٣ نيسان/ ابريل ١٩٤٨ سمعنا بتسليم حيفا لليهود وفي ٢٤ منه سافر الوصي ومعه رئيس الوزراء أرشد العمري وصادق البصام وأحمد مختار بابان وصالح صائب لدراسة الوضع في عمان مع عمه الملك عبد الله وكتبت في مذكرتي ذلك اليوم ما يلي:

«هكذا يشتغل العرب.. مؤتمرات ووفود وأسفار وخطب فارغة الى ما شاء الله.. ثم يضرب اليهود ضربتهم من دون اشعار ولا خطب ولا بطيخ.. فيضيِّع العرب بلادهم وكرامتهم وتفكيرهم ذلك لأنهم لم يسمعوا كلام الناصحين بل تمسكوا بوعود الحلفاء الفارغة واستسلموا لهم و«تشرفوا» بأن يكونوا خدماً ومنهم من كان من الجواسيس الحقيرين ويا للأسف».

قابلت ناجي شوكت اليوم فقال انه لم ينم الليل من تأثره على فلسطين.

مظاهرات صاخبة يقوم بها الطلاب طالبين تدخل الجيش العراقي لانقاذ فلسطين وغسل العار»..

ومن أمثلة المتناقضات لدى العرب شدة الحماسة من جهة وكثرة الاهمال من جهة أخرى واليك ما كتبت في مذكرتي في اليوم التالي ـ ٢٥ نيسان/ ابريل ١٩٤٨:

«حفلة استقبال في المفوضية اللبنانية.. الدار غاصة بالمدعوين من كل فج عميق، الأنوار في كل غرف البيت حتى في غرف النوم.. صفاقة تامة.. المدعوون غير متجانسين: أجنبي، قومي، شيوعي، وطني، صهيوني... لا يمكن انتخاب أسوأ وقت لاقامة مثل هذه الحفلة وفلسطين تلتهب والمذابح فيها على قدم وساق.. هناك يقتل الأولاد والنساء وتهتك الحرمات.. وهنا يجتمع قوم غير متجانس ليأكل ويشرب ويثرثر «في البيت اللبناني» هناك تسيل دماء الأبرياء وهنا يسيل الويسكي والخمر... لم يكن كاظم الصلح موفقاً لا في الوقت ولا في هذه الجماعة ولا في هذا البذخ بالأكل والشرب ولا بعرض الأثاث وغرف النوم... وعلى كل ليس من الهين أن يكون البعير خياطاً.. فالدبلوماسية فن لا يتقنه إلّا من كان له موهبة خاصة... والوطنية لا تأتي اعتباطاً... وهنا لا تجربة ولا موهبة ولا وطنية على ما يظهر».

ناجي شوكت لا ينام الليل من تألمه على فلسطين، وكاظم الصلح لا ينام الليل من تأثير حفلة

يقيمها للظهور بمظهر الدبلـوماسي الفـذ... ولمثل هـذه المتناقضـات في الشعور والأسـاليب أضاع العرب ما أضاعوا.

واليوم وبعد عشر سنوات لا يزال كاظم الصلح سفيـراً في بغداد ولا يـزال ناجي شـوكت من المغضوب عليهم في نظر بعض ولاة الأمر في العراق.

الملك عبد الله

ستبقى شخصية الملك عبد الله لغزاً من الألغاز للمؤرخين والمتابعين للقضايا العربية، فقد سمع العالم باسم الملك عبد الله أثناء الثورة العربية الكبرى من قبل الملك حسين بن علي عندما كان يشغل منصب شريف مكة ابان الحكم العثماني.. فكتب لورنس ما كتب عن الأمير عبد الله وبقي في ظل ذلك الوصف غير المشجع ثم ارتفع اسمه عندما أعلن أرباب الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ الملك عبد الله ملكاً على العراق وكان أخوه فيصل ملكاً في سوريا ثم انتهى الأمر به عندما نصب أميراً على شرق الأردن من قبل الانكليز وصار العرب ينظرون اليه غير نظرتهم الأولى بعد أن أصبح فيصل ملكاً في العراق.

وبقي الأمير عبد الله هدفاً لانتقادات الزعماء العرب لموالاته السلطات البريطانية وتساهله مع اليهود في فلسطين وسقطت أسهمه أثناء حركات العراق ١٩٤١ إذ اشتركت قوات من الجيش العربي الأردني تحت إمرة كلوب باشا مع القوات الانكليزية لمحاربة الجيش العراقي وإخماد ثورة ١٩٤١. وهكذا ظل اسمه مقروناً بالاستعمار وملوثاً بالصهيونية حتى وصفه البعض بالخائن وحشره البعض الآخر بعملاء الانكليز وسماسرة اليهود حتى لو أصبح ملكاً على الأردن بعد الحرب.

ولكن عندما قامت قيامة فلسطين وعمل اليهود ما عملوا صرّح الملك عبد الله تصريحاً قوياً كان له رد فعل في العالم العربي (في ٢٦ نيسان/ ابريل ١٩٤٨). اذ قال إنه سيدافع حتى النفس الأخير عن فلسطين وأنه سيقود الجيوش العربية بنفسه. وكانت الآمال معقودة على اجتماع الملوك والزعماء وأعلنت الأحكام العرفية في ١٤ أيار/ مايو ١٩٤٨، وبات منتظراً أن تدخل الجيوش العربية فلسطين لانقاذها وان اعترفت أمريكا باسرائيل في ١٥ أيار/ مايو واعترفت بها روسية في ١٧ أيار/ مايو. فاحتل الجيش المصري غزة في ١٦ أيار/ مايو ثم أتت الهدنة في ٢ حزيران/ يونيو ١٩٤٨. ثم مددت المدّة بواسطة برنادوت لمدّة أربعة أسابيع سافر خلالها الملك عبد الله الى الرياض حيث قابل الملك ابن السعود لتوحيد الكلمة.

وقد رفع هذا الأمر مكانة الملك عبد الله بين العرب فكتبت في «الزمان» مقالاً محبذاً ومشجعاً ومادحاً للملك عبد الله هذا الموقف المشرف الجديد.. وقد وصل الملك عبد الله بغداد في ٣٠ حزيران/ يونيو عائداً من الرياض وجرى له استقبال فخم. فذهبت مع عبد القادر الكيلاني لزيارته في قصر الحارثية فاستقبلنا مرحباً باسماً وكان معه ابراهيم الخظيري وابراهيم الآلوسي وابراهيم الراوي فأخذ يقص علينا قصة زيارته الى الرياض وأن الملك سعود عانقه وهو يبكي فتعانقا وتصافحا وتسامحا ونسيا الماضي في سبيل انقاذ فلسطين. ثم التفت الينا وقال أنه قابل في الرياض رشيد عالي الكيلاني وعرض عليه المجيء إلى عمان فقبل رشيد وأنه سيكلم الوصي في هذا الموضوع. فسرّ الحاضرون بهذه العواطف وبقي الملك يتكلم بحماسة وسلاسة ويمدح الجيشين العراقي والأردني.

وقد وجدت الملك عبد الله لطيف المعشر، خفيف الروح ومحبـوب الكلام ولطيف المجلس وهـو بأطواره وعباراته أقرب الى شيخ عشيرة منه إلى ملك.

بعد أن انصرفنا صرت أقيس بينه وبين الملك فيصل وفهمت لمـاذا فضل لـورنس فيصلاً عـلى عبد الله ومع ذلك فقد تركت هذه الزيارة أثراً طيباً في قلبي وأملاً بـأن العرب سـوف لا يخسرون فلسطين إذا كان شعور الملوك والرؤساء كما سمعنا ولسنا..

السفر إلى أوروبا

بعد اصدار الحكم علينا ومصادرة أملاكي، وفقدي الحقوق المدنية وقضاء سنين في السجن والمعتقلات والبيت، كانت الأفكار السوداء تخيم عليّ من وقت لآخر. ومن بين هذه أنني سوف لا أرى أوروبا من جديد، ولا أحضر الأوبرا ولن أشاهد التياتر (المسرح) ولا الحياة الطلقة الحرة السعيدة التي يتمتع بها الإنسان هناك. كنت دائماً ولا أزال أحياناً أرى أحلاماً مزعجة منبعثة من هذا القلق الروحي. أرى نفسي تائهاً في باريس لا أجد طريقاً يوصلني إلى «الكراند أوتيل» أو انني في الفندق لا أستطيع الوصول الى غرفتي. فأبقى متنقلاً من طابق الى آخر ومن اسانسور (مصعد) إلى آخر دون الوصول الى غرفتي... وكثيراً ما كنت ولا أزال أرى نفسي معتقلاً أو هارباً وخلفي جنود الحرس الانكليزي أو الحرس الملكي العراقي... فكأنما عذاب النهار لم يكن كافياً فتأتي الأحلام المزعجة علاوة لإكمال النواقص.

لنتخلص من كل ذلك، ومن حر بغداد وشرها، كنا قد قررنا السفر إلى أوروبا بأول فرصة. واستعداداً لذلك أرسلنا غيدة ومحمود في بداية الصيف الى لبنان ورتبت قضية تأسيس الشركة التجارية الصناعية مع سليمان ونوري وابراهيم ووقعت العقد بالنيابة عن محمود لأنني كنت لا أزال «مجرماً» لا يحق لي الاشتغال بالأعمال التجارية ومديناً للحكومة العراقية لا يحق لي أن أكسب مالاً واحتفظ به. وبعد إكمال هذه المعاملات الثقيلة تركنا بغداد أنا ووداد في ٣ تموز/ يوليو ١٩٤٨ بباصات «نيرن» متوجهين هاربين من الحر والقيود وضيق الحياة في بغداد إلى لبنان حيث المناخ اللطيف والوجوه الباسمة والشعور بالحرية والانطلاق. بقينا عشرة أيام في صوفر مع الأهل والأصدقاء والعزيزين غيدة ومحمود ثم أخذنا الباخرة «الملك فاروق» وسافرنا إلى الاسكندرية ـ وكان البحر هائجاً والباخرة صغيرة وكانت النتيجة إزعاجاً بازعاج ذكرني بسفرة شهر العسل قبل عشر سنوات. فقررنا تبديل الباخرة بالطائرة ونزلنا بالاسكندرية حيث بقينا أسبوعاً كاملاً ثم ذهبنا الى القاهرة فمكثنا فيها بضعة أيام تذكرنا خلالها أيام شهر العسل قبل عشر سنوات وقابلنا بعض الاصدقاء القدامى ومنهم طلعت راغب زميلي في كلية لوزان.. ومن المقابلات المهمة عائلة رشيد عالي الكيلاني والجنرال كلايتون أخو كلايتون المندوب السامي الذي توفي في بغداد من قبل. وقد قيل لي أن كلايتون هذا هو صديق العرب فرتب لنا جليل الراوي المقابلة في السفارة وقضينا ساعتين أتكلم ويتكلم وكان أكثر الكلام عن فلسطين طبعاً، والخلاصة أن هذا الجنرال البريطاني، صديق العرب، يعتقد بأنه لا مناص من تأسيس دولة يهودية في فلسطين وأن ليس باستطاعة بريطانيا مقاومة رغبة الولايات المتحدة المندفعة بالنفوذ الصهيوني، والمشكلة الآن هي كيف يتراجع ملوك ورؤساء العرب بعد كل تلك الحماسة؟ قلت له لو تحمس الملوك والرؤساء قبل عشر سنوات مثل اليوم لما ضاعت فلسطين ولكنهم لم يسمعوا إلى أصوات المنبهين المخلصين بل قاوموهم وطاردوهم وسجنوهم وعذبوهم بتهمة النازية والفاشية، فتم لليهود ما أرادوا. هذه نتيجة سياسة الانتداب والتساهل. ورأيت الجنرال كلايتون يوافقني ويهز برأسه.. ثم انتهت المحادثة فأوصلني بسيارته الى أوتيل شيبرد وشكرته وافترقنا...

سويسرا

لسويسرا علاقة طويلة بحياتي إذ قضيت أكثر من عشر سنوات من عمـري فيها. ٥ سنـوات مريضاً في دافوس وسنتين تلميذاً في كلية لوزان وثلاث سنوات في جنيف موظفاً في الوفـد العراقي لـدى عصبة الأمم... وبـالنظر لـموقع سـويسرا في وسط أوروبا ولجمـال مناظـرها وكثـرة أمـاكن الاستجمام في جبالهـا ووديانهـا وبحيراتهـا، فقد كـانت ممراً لي في سفـراتي بين الشرق والغـرب ومركزاً للاستراحة وقضاء العطـلات سواء كـانت شتويـة فوق الجبـال أو صيفية عـلى شواطىء البحيرات.

والآن وقد قررنا وداد وأنا أن نعيد شهر العسـل بعد عشر سنـوات فقد كـانت سويسرا أول مكان انتخبناه. فتركنا القاهرة صباح ٢٦ تموز/ يـوليو ١٩٤٨ ودخلنـا جنيف مساءَ نفس اليـوم بعد أن نزلت طائرتنا في أثينا ثم في روما.

هذه ثاني مرّة أركب الطائـرة وقد وجـدت السفرة مـريحة وان كـانت مخيفة أحيـاناً عنـدما ترتجف الطائرة. وقد كان شعورنا غريباً بأن نفطر في القاهرة ونتعشى في جنيف على ساحل بحـيرة ليمان..

نزلنا في فندق «ريتشموند» حيث كنت أسكن وحيث بدأت تـأسيس الوفـد العراقي قبـل ١٦ سنة. وقضينا أياماً طيبة في جنيف ومونترو وقمنا بجولة في البحيرة وأخرى على قمم الجبال في كو وكليون **وصخرة ني**.

والغريب أنني صرت أشعر بأنني أرى هذه المنـاظر الخـلابة لأول مـرّة مع أني رأيتهـا كلها فيما مضى ورأيت بعضها أكثر من مرّة. ربما سبب ذلك أنني قبـل ١٥ أو عشرين سنة كنت أنظـر الى الطبيعة بعين مختلفة، أما الآن ولا سيما بعدمـا قضيت أياماً طويلة في المنفى والسجـون وما مررت به من متاعب ومشاكل جعلني أنظر بعين راضية شاكرة.

وكانت وداد تشاركني هذا الاحساس، مما يزيد في جمال المناظر ويضـاعف الاطمئنان وكنا في الحقيقـة نظن أننا في بـداية حيـاتنا الـزوجية اذ قضينـا السنـوات العشر الأولى في الارتبـاكـات والحوادث التي سببت كثيراً من سوء التفاهم بيننا. أما الآن فقد كنا متفقـين سعيدين مشتـركين في الاحساس والشعور حامدين الله على نعمتـه بانقـاذنا ممـا كنا فيـه. كنا دائمـاً نتكلم ونتبادل الرأي حول ما نشاهد ونتمنى أن يكون معنا غيدة ومحمود وقد تركناهمـا في صوفـر عند «جـدو» و «تيته»...

انتقلنا من سويسرا الفرنسية الى المنطقة الألمانيـة وأجمل محـل فيها «انتـرلاكن» حيث بقينا عشرة أيام نتمتع بالراحة ومناظر البحيرتين وهيبة جبل «اليونكسفراو» الذي أشاهده لأول مـرّة إذ لم أكن في المنطقـة قبل ذلـك... ومع أن الأمطـار كانت مستمـرة لا تنقطع، فقـد كـانت الفنـادق مشغولة كلها بالسـواح ولم نجد مكـاناً إلا بعـد عناء طـويل.. فنـزلنا في فنـدق «فيكتوريـا» ومن الصدف أن يكون «اوتيل فيكتوريا» في القاهرة مسكننا في أشهر العسل الأولى قبـل عشر سنوات. ذهبنا الى «بيرن» عاصمة سويسرا حيث قضينا أكثر من أسبوع ثم عـدنا الى لـوزان وبقينا فيهـا عدة أيام.. أكلنا أكثر من مرة في مطعم «كافـه سانتـرال» حيث كنا نلتقي أيـام الكلية وذهبنـا الى

«اڤيان» وجلسنا على ساحل البحيرة في «اوشي» ومن الغريب أن يحن الانسان إلى رؤية الأماكن التي قضى فيها أيام الشباب والتلمذة وان لم تكن من أسعد الأيام.

وفي لوزان ذهبت لزيارة طبيبي الدكتور «بورنان» بعد ١٨ سنة ولم أجده فقد تغير كثيراً عدا بياض شعر لحيته وقد فحصني وطمأنني وتعرف بوداد.

أمضينا أكثر من خمسة أسابيع في سويسرا وكانت الأيام كلها لطيفة ومريحة وكنت أقيس بينها وبين ما كنت فيه في السنوات الأخيرة وأحمد الله على نعمته.

باريس ولندن

برغم ما هنالك من مزعجات ومعاملات سيئة ووقاحة افرنسية تجدها هنا وهناك وبالرغم من قلة النظافة التي تعلن نفسها في فرنسا عند حدودها وفي قراها وقطاراتها ومحطاتها هنالك طابع خاص في باريس يغفر لها كل تلك النواقص ويقربها الى القلب.

باريس كانت أول عاصمة أوروبية شاهدتها سنة ١٩٢٢ وها اني أعود اليها بعد مصائب الحرب ونكباتها بعد ٢٦ سنة.

هذه باريس التي كنت ولا أزال أحلم بأنني فيها لا أستطيع الوصول الى «الكراند أوتيل» وهو أول فندق كبير سكنته عند وصولي إلى أوروبا بعد مارسيليا.

عدت عدة مرات إلى باريس ما بين سنتي ١٩٢٢ و١٩٤٨ وآخر مرة كنت فيها سنة ١٩٣٤ ولكن شعوري الآن ليس كالماضي اذ ان المصائب والحرمان والمخاوف التي لازمتني أيام المنفى والسجن والاعتقال جعلتني أنظر الآن الى باريس وما فيها كمن نال مراده بعد طويل الصبر وكثير التمني...

نزلنا في فندق «ادوارد السابع» في شارع الأوبرا وقد سبق لي أن سكنت هنا سنة ١٩٢٦ أي قبل ٢٢ سنة. فالفندق والشارع والأوبرا والمناظر وباريس وأهلها لا تزال كما كانت فكأنما لم تحدث حرب ولم تقتل ملايين من الأنفس ولم تهدم ملايين من البيوت والمساكن.

خرجنا وداد وأنا نتمشى في البولفار وجلسنا في إحدى المقاهي وأكلنا في المطاعم وزرنا الأوبرا ودور التمثيل كالسواح وكأننا لم نرَ باريس من قبل ولم نقض أياماً طويلة فيها. صرنا نعيد ونكرر ما كنا نعرفه ونذهب كل يوم إلى مكان ونقضي كل ليلة في أحد «التياترات» (المسارح) شأننا في ذلك شأن الجائع أمام طعام لذيذ أو شأن الظمآن أمام منبع عذب. وقد صرت أشعر باطمئنان عجيب كمن ظفر بغاية منشودة وحصل على أمل مفقود.

وذهبنا الى فرساي وهي لم تتبدل ولكن نظري إليها تبدل.. كيف لا وقد مضى على ذلك ٢٦ عاماً فيها ما فيها... وزرنا «فونتبلو» وهذه أول مرّة أزورها. وحضرت مع وداد معرضاً للأزياء وهذا شيء جديد بالنسبة لي وكان ذلك باقتراح وداد فوجدت هذا الفن الخاص بباريس لطيفاً ومفيداً فيه الذوق والرقة والاغراء. فاستعرضنا نحو ٢٠٠ ثوب ورداء بأسماء جميلة مختلفة.. وكنت غير متضجر ولا مشمئز كما كانت عادتي حيال التوافه في الحياة... ولكني كنت أستعرض وأقيس بين جمال ورشاقة هذه التوافه وقباحة وثقالة بعض الحقائق في الحياة اليومية بين

سياسية واجتماعية. جمال ورقة وفتيات وفساطين. وحرب وحزب وسياسة وسجون وشجـون. أيها أقرب الى الحقيقة؟ أم أنها تكمل بعضها بعضاً؟

وزرنا الكنائس والمتاحف وركبنا بسيارة مع السواح الأمريكان وغيرهم نستمـع إلى تفاصيـل الدليل وان كنا نعرف أكثرها. وهكذا قضينا أسبـوعين كـاملين في بـاريس كلها نشـاط وسرور ثم سافرنا الى لندن في ١٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٨ عاصمة الحلفاء والأصدقاء الأعداء! وكـان سرورنا عظيماً عندما وجدنا في المحطة الأمير زيد ومعه كورجي سـالم وعبد الملـك الخظيري. وكـانت هذه لفتة سامية من الأمير زيد عم عبد الاله الوصي وفيصل الثاني الملك. وبهذه المعـاملة أثبت الأمـير زيد أن بإمكان الرجل «الجنتلمن» أن يكون فوق الامارة والملكية وضرب كورجي سالم مثالاً للوفاء بالرغم من يهوديته وقضية فلسطين.

قضينا في لندن عشرين يوماً كانت كلها مشمسة ومعتدلة ذكرتني بالأيام الممطرة باستمرار في أول زيارتي لها مع المرحوم والدي سنة ١٩٢٤ أي قبل ٢٤ سنة.

وفي لنـدن تأكـدت قناعتي السـابقة بـأن الرجـل الانكليزي يتـراوح بـين «الجنتلمن» وبـين «السـافل». وتـذكرت أسمـاء السير بـونهام كـارتر والميجـر صون في بغـداد في أوائـل الاحتـلال البريطاني ثم المستر فن والكابتن سمارت في روديسيا... وهكذا كل البشر. شرفـاء ولصوص. عـلى أنه في لندن يختفي الاشرار بالنسبة لنا. فلا تجد الاّ معاملة طيبة ولا تشعر الاّ باطمئنـان شامـل وراحة بال من جميع الوجوه خلافاً لما قد يحدث أحياناً في غير انكلترة كايطاليا وفرنسا مثلاً.

فسفالة الميجر صون وحماقة الكابتن سمارت لا تظهران الا في المستعمرات والنواحي البعيدة في الامبراطورية وقد يعود الصعلوك البريطاني جنتلمن اذا عاد الى بلاده اذ يذوب هو وسيئاته في تيار متانة الخلق وعلو نفس الشعب البريطاني...

وفي لندن نسيت مرارة أعمال الانكليز ومـا قاسيتـه على أيـدي بعض رجالهم من ظلم وجـور وحماقات وقد زادني نسياناً لطف الأمير زيد وزوجته فخر النساء وما غمرانا به من كرم وعناية.

ومن ذكريات أيام لندن هذه زيارة ألبرت هول مع الأميرة حيث استمعنا لسمفونيـات بتهوفن بقيادة فورت وانكلر والحماسة التي أبداها الانكليز لاستماع موسيقى بتهـوفن مع جـوقة المـانية يقودها الاستاذ المقرب الى هتلر. وهنا يظهر جلياً وحدة شعور البشر بالرغم مما يحدث من حـروب وحقد وكراهية... موسيقى بتهوفن تقرب القلوب وتوحد المشاعر وان فرّقتها مدافع هتلر وحمـاسة تشرشل إلى حين... ولو كان البشر كلهم من نوع بتهوفن وبونهام كارتر وفن وغـيرهما لكـانت هذه الدنيا جنة سعيدة للجميع ولكن مع الأسف فيهـا هتلر وتشرشـل وستالـين وبن غوريـون وغيرهم وهكذا تتراوح الأيام بين سعادة وشقاء وسلم وحرب وحب وحقد.. ولله في خلقه شؤون...

تركنا لندن في تشرين الأول/ اكتوبر ونحن آسفون إذ كنا نرغب في البقـاء أكثر وأتى الأمـير زيد الى المحطة لوداعنا. وعدنا إلى باريس إلى فندق «ادوارد السابع» وبقينا هذه المرة شهراً كاملاً حضرت خلاله اجتماعات هيئة الأمم المتحدة في قصر «شـايو» حـول مأسـاة فلسطين وكيف يقضي العرب أوقاتهم بالكلام والخطب بينما يحصل اليهود على مـا يريـدون بالقـوة واغتنام الفـرص... تركنا فرنسا في أول تشرين الثـاني/ نوفمبـر إلى سويسرا ثم ايطـاليا وكنـا في مصر في ١٢ تشرين

الثاني/ نوفمبر ثم في بيروت في ١٥ منه وسررنا كثيرا برؤية ولدينا بعد غياب استمر أربعة أشهر قضيناها بمرح وسرور ما عدا قضية فلسطين.

عدنا إلى بغداد ست البلاد في ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر وعاد انقباض الروح وضيق الصدر. لأنني لم أزل «مطارداً مصادراً» وقضية حقوقي وأملاكي المغتصبة لا تزال معلقة وان كانت المقابلات والدعوات والحفلات مع رجال الحكم في تقدم. وقد زرت الوصي في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر وقدمت له «سن فيل» هدية بمناسبة زواجه وقد قبل ذلك شاكراً وتحدثت معه مطولاً حول ما رأيت وسمعت في جولتي في أوروبا ولا سيما حول ضرورة تعاون الحكومات العربية مع بريطانيا لانقاذ ما يمكن إنقاذه من فلسطين وبينت له استعداد شكري القوتلي لقبول تلك الفكرة. ولكن مؤتمر «أريحا» وتصريحات الملك عبد الله الأخيرة أضعفت ساعد العرب وزادت الخلافات بينهم، وكان نوري السعيد أحد أبطال هذه الحركات الجديدة... اللهم أنقذنا من شر أنفسنا!

وفي ليلة رأس السنة الجديدة كنا وحدنا في البيت واستقبلنا العام الجديد أنا ووداد كغيره يحدونا الأمل بانتهاء أزمتنا الشخصية وأزمة العرب العامة!

١٩٤٩: بين الآلام والآمال

تمر الأيام والأسابيع والأشهر بل والسنوات وأنا لا أزال على هامش الحياة.. فهذه ثامن سنة أستقبلها بهذه الروحية وهذا الشعور. سنة ١٩٤١ بدأت بثورة وحركات خاطفة ومنذ ذلك اليوم مضت ثماني سنوات... تشريد ونفي وحبس ومحاكمات ومصادرة أملاك واغتصاب حقوق... دفعنا ثمن أيام معدودات في الحكم سنين من العذاب وتبدلت الدنيا وما فيها ولكننا لا نزال ندفع جزاء ما وقع، وان كان ذلك من دون رضانا.

كنت طيلة هذه السنوات محصوراً بين المين: حياتي الشخصية ووضع فلسطين إذ كان كلاهما مؤلماً كل الألم. في أوائل هذه السنة شكل نوري السعيد وزارة جديدة فدبّ بعض الأمل فينا: علّه ينهي حالتنا ويجد سبيلاً لإنهاء قضية فلسطين.. وصرت في هذه الأيام أراجع المراجع الرسمية للكف عن مطاردتنا في قضية ايجارات بعض الأملاك المصادرة التي كان يقبضها أخي ابراهيم وكنت أكتب في «الزمان» بعض المقالات حول السياسة العالمية وقضية فلسطين. وكانت الأيام تمر بين الآلام والآمال وأنا على هامش ما يجري.

في ٣١ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٩ زرت وزير شرق الأردن محمد علي العجلوني وأسجل هنا بعض ما سمعته منه والعهدة عليه حول بطل العروبة الملك عبد الله.

قال العجلوني: «لولا مقاومة الانكليز منذ عدة سنوات لعقد الملك عبد الله أنواع العقود مع اليهود ولتبادل معهم المنافع. وانه حتى اليوم لا يزال يتصل بهم سراً. إذ يأتون اليه بصفتهم صباغين أو نجارين يشتغلون في قصره فيتحدث اليهم ويسرّهم. ان حاشيته تقريباً كلهم من الجواسيس ويأتي سمير الرفاعي في الطليعة...».

ومثال أخر لمأساة فلسطين ما رواه لي الطبيب البيطري عبد الرزاق الحسن في ١٠ أيار/ مايو ١٩٤٩: «خلال الحرب الفلسطينية أرسلت الى شرق الأردن عشرات الآلاف من رؤوس الأغنام إلى الجيش العراقي وكان المتعهدان أحدهما أرمني والثاني يهودي وقد ثبت بأن أكثر الأغنام ذهبت الى فلسطين اليهودية»...

وذكر لي يوماً طالب مشتاق بأن الحكومة العراقية تحول نفقات الجيش العراقي في فلسطين بواسطة «بنك زلخا» في بغداد. وقد راجع هو وغيره واحتج إلى أن بدلت الحكومة خطتها وأخذت تحول المبالغ بواسطة بنك الرافدين... هذا، وأكثر من هذا الف مرّة، حصل في البلاد العربية كلها. ثم يتعجب العرب لماذا أضاعوا فلسطين ولماذا انتصرت شراذم اليهود على الجيوش العربية؟

تضافر الجهل والعجز والغطرسة الفارغة والخيانة... فضاعت فلسطين ومعها كرامة العرب وقد كتبت في مذكراتي بتاريخ ٣٠ نيسان/ ابريل ١٩٤٩ ما يلي:

«طلائع الجيش العراقي تعود الى بغداد بعد أن قضى سنة كاملة في فلسطين بالعطالة والكسل

او كما يدعي الداعون بالذود عن البلاد المقدسة... ولكن البلاد المقدسة قـد ذهبت بفضل الأخطـاء والخيانات ولم يسمح للجنود أن تقاتل الأعداء... وقد أثبت العرب بأنهم لا يستحقـون الاحترام ولا الحياة وباتوا ألعوبة بين أيدي اليهود ومن وراء اليهود..

ولكن أبطال الثرثرة في البلاد العربية لا تزال تتفاخر وتنتفخ.. وليت لصـلاح الدين عينـاً فترى الخزي والعار اللذين يفتخر بهما أحفاده أبناء العروبة والاسلام...».

خطوات نحو الفرج

يأتي الشر مرّة واحدة، وبسرعة البرق أحياناً، ولكن الخير يمشي الهوينا ويتدلل. وفي هذه السنة، كنت أحاول التخلص من الشر وذيوله بشتى الوسائل لعله ينجلي فيعود الخير والبركة. وكنت متمسكاً بالصبر مؤمناً بأن الحق سيظهر يوماً، وتجري المياه في مجاريها. وصرت أشتغل مديراً للشركة التجارية الصناعية وأمثل ابني محمود في ادارة شؤونها وكانت الأعمال جيدة والأرباح معقولة وقد مضى علينا سنة ونصف السنة بتلك الوضعية.

في أواخر تموز/ يوليو من سنة ١٩٤٩ سافرت بسيارتي إلى سوريا ولبنان للالتحاق بوداد والولدين وقد سبقوني بسيارات «نيرن» وقضينا الصيف حسب عادتنا في صوفر مع السباعية، ونحن هناك حصل انقلاب جديد في سوريا وقتل حسني الزعيم ومحسن البرازي وقامت جماعة أخرى تحكم الشام وأصبح الحناوي على رأس الحركة الجديدة، وعاد هاشم الأتاسي إلى الرئاسة. وتجددت آمال الاتحادمع العراق.

وفي ٤ أيار/ مايو لاحظت أول علامة للخير اذ وصلتني دعوة عشاء رسمية من قبل وزير الخارجية فاضل الجمالي في بهو الأمانة، تكريماً للوزراء المفوضين الايطالي والباكستاني والنروجي وكانت هذه أول دعوة من قبل الحكومة العراقية منذ أيام رشيد عالي أي منذ ثماني سنوات.

والعلامة الطيبة الثانية حصلت في ٥ تشرين الأول/ اكتوبر في مطار الشام حيث وصل الوصي، وأقيمت له حفلة افطار من قبل رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي فكنت بين المدعوين وجلست على السفرة تقريباً مقابل الوصي حسب البروتوكول وبصفتي وزير خارجية سابقاً ورأى الوصي هذه الوضعية وكان يتحاشى النظر إليّ ولربما تذكر بأنني كنت في نظره مجرماً عادياً قبل سنوات معدودات، وكان قد حرم علينا الجلوس على الكرسي في سجن أبي غريب. والآن أجلس وإياه على طاولة واحدة بصحبة رئيس الجمهورية السورية إلى جانب سامي الحناوي بطل الانقلاب الأخير. ولربما حفلة الافطار جعلته يفكر ملياً في قضية الاتحاد مع سوريا والعناصر التي يعتمد عليها من قبل الوطنيين. وقد عدت إلى بغداد بعد ذلك بقليل، ولما قابلت الوصي في ١٧ تشرين الأول/ اكتوبر في البلاط كان حديثنا حول الاتحاد وقد سبق له أن اطلع على مقال نشرته في «الزمان» عن ذلك الموضوع الهام.

وجاءت أخبار الجامعة العربية من القاهرة في ٢٢ تشرين الأول/ اكتوبر مهبطة للعزائم إذ وقف العرب كلهم ما عدا العراق وسوريا ضد الاتحاد بينهما وكانت هذه ضربة للعروبة من قبل الطغاة والراكضين وراء منافعهم الشخصية والزعامات الفارغة.

وابتكر العرب فكرة «الضمان الجماعي» للحيلولة دون الاتحاد العراقي السوري فاستبدلوا قوةً بضعف وحقيقة مفيدة بخيال وهاج لا يغني ولا يسمن. وعاد نوري السعيد من القاهرة حانقاً على هذه التصرفات..

وفي تلك الأيام بدأت فكرة تأسيس حزب قوي تختمر في الأذهان وألح نوري السعيد بأن

نشترك أنا ومحمد علي محمود بالحـزب الذي ينـوي تشكيله وكنـا نحن مترددين في الأمـر، ولكن اصراره وموافقة البلاط جعلانا نقبل بالأمر، وعليه فقد وقعنا عريضة طلب تأسيس حزب الاتحـاد الدستوري وانتخب نوري السعيد رئيساً وخليل كنّه سكرتيراً وأنا أميناً للصندوق.وهكذا أصبحت عضواً فعالاً في حزب نوري السعيد الجديد في ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٩ أي بعـد عودتي من لبنان ببضعة أسابيع وسبحان مبدل الأحوال.

القِسْمُ السَّادِس

النشاط الدِبْلوماسي

العودة للخارجية

كان دخولي حزب نوري السعيد داعياً للتأويل والتفسير وكان الناس حسب العادة، بين راضين وغاضبين.. فالراضون يعتقدون بأن اشتراك العناصر المعتدلة مع نوري السعيد سيحسن العلاقات وربما يؤدي الى حل كثير من المشاكل، والناقمون يرون في ذلك مناورة شيطانية سعيدية هدفها ذر الرماد في العيون، والوصول إلى الغايات الاستعمارية عن طريق الوطنية.

أما بالنسبة لي فكانت خطوة ايجابية تخدم مصالحي الشخصية واعادة حقوقي، وتخدم في نفس الوقت المصلحة العامة باتباع سياسة ايجابية واقعية تضمن حقوقنا من جهة، وتحد من تصرفات المشاغبين من شيوعيين وفوضويين.

في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٩ دعاني نوري باشا بعد الظهر الى بيته وفاجأني بأن الحكومة ترغب في ذهابي الى الشام لأن قضية الاتحاد دخلت في مأزق وانقلبت رأساً على عقب وأن وزيرنا المفوض في الشام ابراهيم عاكف الألوسي، بالرغم من حسن نيته وايمانه لم يوفق لتوحيد الكلمة بل وقع في بعض الأخطاء التي سببت البلبلة الخ... وأضاف الباشا أنه كلم الوصي في هذا الشأن وتم الاتفاق بينهما على اختياري لحل المشكلة.

شكرت نوري السعيد على اعتماده وصرنا نتداول في الأمر، ثم ذهبنا معاً الى طه الهاشمي فأكد هذا أن الوضع في سورية غير حسن وأن السعوديين والمصريين والفرنسيين واليهود قاموا بدعاية واسعة وصرفوا مبالغ ضخمة ضد فكرة الاتحاد مع العراق. وهنا سألني نوري السعيد فيما إذا كنت لا أزال مؤمناً بفكرة الاتحاد، وعندما أجبته بأنني لا أزال مؤمناً قال فما عليك إلّا أن تقبل باقتراحنا وتساهم في هذا المشروع القومي. فلم أستطع الرفض ولكن بينت أسفي للتأخر الذي حصل في معالجة هذا الأمر. وذكرت الباشا باقتراحي له على أثر انقلاب حسني الزعيم، وكنا قد اجتمعنا تلك الليلة في بيت نوري فتاح في حفلة ساهرة.. وكان جواب الباشا اذ ذاك أمام السويدي وحكمت وسليمان: «شوفوا «أبو شرارة» يريد يبلشنا بشغلة جديدة!» وكان هذا الجواب تلميحاً الى «بلشة» رشيد عالي.. ثم أرسل الى الشام جمال بابان وابراهيم عاكف وذهب بنفسه

ولكن كل ذلك بعد فوات الأوان. ثم ذهب أحمد مختار بابان وعمر نظمي والسيد عبد الهادي وكثر ملاحو السفينة وأوشكت أن تغرق.. وهنا انتبه الباشا وفكر بإرسالي إلى الشام.

وفي اليوم التالي طلبت وزارة الخارجية حضوري فذهبت إلى وكيل الوزارة شاكر الوادي ووجدت لديه نوري السعيد وصديق شنشل فكلفني رسمياً بأن أذهب بصفة وزير مفوض لمتابعة قضية الاتحاد، وأن أعضاء حزب الاستقلال سيذهبون كذلك إلى الشام للتعاون معي وهم صديق شنشل وعبد الرزاق شبيب ومحمد حسن سلمان وعبد القادر السياب. وعلى هذا الأساس صدرت الارادة الملكية بتعييني وزيراً مفوضاً في وزارة الخارجية في ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر، وهكذا حلت العقدة وتم الاعتراف ضمناً بأن «الجماعة» كانوا مخطئين ظالمين وكنا أبرياء لا نريد الاّ خدمة الوطن. وحمدت الله على ظهور الحق بهذا الشكل بعد ثماني سنوات قضيتها بالعذاب والمرارات. ومن «مجرم عادي» قبل بضع سنوات أصبحت من جديد وزيراً مفوضاً أمثل جلالة الملك وحكومته... والحمد لله على بياض الوجه!

السفر إلى الشام

سررت بالعودة الى الخارجية لأنها تزيل أثقال الماضي وأحكامه الجائرة... ولكنني لم أكن مرتاحاً بهذه المهمة الجديدة... مهمة الاتحاد العراقي السوري... بعد كل هذه الملابسات والارتباكات والمداخلات.. نعم انني كنت ولا أزال من المؤمنين باتحاد العرب عامة، واتحاد العراق وسوريا بشكل خاص، لأن قوة العرب ستأتي من ذلك الاتحاد، لا سيما بعد ما حل بفلسطين وما مرّ بالعرب.. ولكن غاية الاتحاد، وسبل الوصول إليه، لم تكن واضحة، وكانت سبباً للمقولات والادعاءات: ضم سوريا الى العراق، ايجاد عرش جديد للأمير عبد الاله. توسيع النفوذ البريطاني في منطقة الشرق الأوسط، إلى غير ذلك من الأمور التي لا يمكن أن أكون آلة لتنفيذها، ولا أرغب في حصولها، لإرضاء زيد أو عمرو. ولذلك رأيت من الضروري بأن أتصارح وأتفاهم مع رئيس الوزراء كي لا يحصل سوء تفاهم، وعندما كلمت نوري السعيد أمام وزير الخارجية شاكر الوادي أعلمني كل منهما بأن ليس هنالك ما يستوجب التردد، إذ أن العراق لا يريد الا صالح سوريا والعراق. وأن الاتحاد يجب أن يتم برضى الطرفين بواسطة المجالس التشريعية، على أن يبقى النظام العراقي الملكي والنظام الجمهوري السوري على حاليهما. ويشكل مجلس الاتحاد من وزراء الخارجية والمالية والدفاع للحكومتين، ويترأس الاتحاد بالمناوبة كل من ملك العراق ورئيس الجمهورية السورية للمدة التي يتفق عليها عند وضع أسس الاتحاد وفروعه، وقد زودني نوري السعيد بتعليمات خطية حول هذه الأسس والمبادىء. فالمسألة إذاً، كانت نظيفة وفوق ذلك فقد اتفقنا بأن المعاهدة البريطانية ـ العراقية لا تشمل سورية مهما كانت شروط الاتحاد.

بعد كل هذه التطمينات توكلت على الله وسافرت الى الشام في ٣ كانون الأول/ ديسمبر بسيارات «نيرن» وكان في المحطة لوداعي جماعة كبيرة يتقدمهم رئيس الوزراء نوري السعيد ووزير الخارجية شاكر الوادي، ورئيس الديوان الملكي أحمد مختار بابان، ورئيس التشريفات الملكية تحسين قدري، وجماعة من الأصدقاء والأقرباء. وهذه أول مرّة منذ عدة سنوات أودع بهذه الصورة، وتذكرت أسفاري في السنتين السابقتين، وكانت بلا وداع ولا رسميات. سبحان مبدل الأحوال.

وعندما مرّت السيارة بمزرعة أبي غريب شاهدت بناية السجن الذي قضينا أياماً وليالي سوداء فيه كالمجرمين العاديين، وقطاع الطرق، وتذكرت يوم سلمنا الانكليز إلى رئيس الزبانية أحمد الراوي وأعوانه قبل خمس سنوات. فسلمنا هو بدوره إلى السجّان الملكي عبد القادر حسين. أما اليوم فأحمد الراوي وهو مدير الخارجية كان في الصف الثاني من المودعين... يحاول اخفاء سواد وجهه عبثاً.

لكثرة الأمطار غطست بنا السيارة بعد الرطبة في الصحراء وبقينا ليلة كاملة غاطسين ولذلك تأخر وصولنا إلى الشام ٣٠ ساعة.

نزلت في الفندق الكبير، وهناك قابلت أقطاب حزب الشعب ومنهم وزير الخارجية ناظم القدسي، ورشدي الكيخيا رئيس المجلس النيابي،وغيرهما، كما قابلت أكثر من مرّة سامي الحناوي وأسعد طلس، وحسني البرازي، ومصطفى السباعي، وكنت ألتقي دائماً بالسيد عبد المهدي وهو رسول الاتحاد وابراهيم عاكف الألوسي والزعيم عبد المطلب الأمين وهما الوزير المفوض والملحق العسكري ولولبا جهاز الاتحاد من الجهة العراقية. فصرت أقابل وأدرس وأتكلم وأستمع. وقد ظهر لي بأن ليس هناك خطة مدروسة معينة لا لدى العراق ولا لدى سوريا، وأن المسألة، كما يقول المثل البغدادي، «شليله وضائع رأسها».

وزيرنا ابراهيم عاكف حسن النية ولكنه متحمس على طول الخط يصدق كل قول ويرقص لكل طبل. والسيد عبد المهدي يجلس في الفندق يقابل هذا وذاك وينتفخ كالطاووس أمام المدح والثناء الذي يكيله له بعض المنافقين، وعبد المطلب ناعم متين، يعظم الأمور ويركض وراء الشائعات ويغطي أكثرها بالأسرار حتى يقوي مركزه في بغداد، وطبقة المتطوعين أكثرهم من نوع «عباس سيفون» حماساً وتفاخراً و «لغوة» يابسة..

أما من الجهة السورية فقد كان المنافقون يحومون حول عبد المهدي، وابراهيم عاكف، وعبد المطلب، للحصول على بعض المبالغ وكان في مقدمتهم حسني البرازي وان كان رئيس حكومة سابق. أما سامي الحناوي فيمثل الرجل الطيب البسيط وقد ترك مقوده الى عديله أسعد طلس وهذا الرجل، هو مزيج من العناد والطموح. فهو يتكيء على اللواء الحناوي وعلى الوزير الألوسي وهما من أقربائه ويظن أن الاتحاد أصبح في جيبه. وأقطاب حزب الشعب مترددون خائفون مشتهون ومستحون. ويشاركهم في هذا الموقف أكثر أقطاب الحزب الوطني أمثال لطفي الحفار. ويمكن تقسيم الجماعة السورية إلى قسمين: أكثرية تريد الاصطياد وقبض بعض المبالغ، وأقلية مخلصة ولكنها مايعة ومترددة... كالقدسي وكيخيا. ولما رأيت أن العراقيين لا يجتمعون الاّ بهؤلاء سألتهم من هم المعارضون، قالوا: «الاخوان المسلمون، وعلى رأسهم مصطفى السباعي. وجماعة من الجيش يقودهم أديب الشيشكلي». وعلمت من السيد عبد المهدي، وابراهيم عاكف بأن الجهة العراقية، لا تريد أن نتصل بهؤلاء المعارضين.. فاستغربت كثيراً! إذ ما الفائدة في قضاء الوقت مع المؤيدين والأصدقاء؟ أما علينا أن نقنع المترددين ونطمئن الخائفين ونجلب الخارجين عن الطريق؟ وعليه قررت أن أترك الجماعة على حالهم وأقوم بعمل جدي سري منفرداً.. وقد ساعدني بذلك عديلي عبد الكريم السباعي. اذ دعا مصطفى السباعي وتقابلنا في الفندق لمدّة ساعتين، خرج من بعدها محايداً بعد أن كان من أشد المعارضين، وأرسلت عبد الكريم لمقابلة أديب

الشيشكلي، ومن حسن الصدف أن يكون الشيخ مصطفى السباعي من أبناء عمه والعقيد أديب الشيشكلي من أقدم أصدقائه. ولكن لسوء الحظ أتاني المرض بعد ثلاثة أيام من وصولي إلى الشام وألزمني الفراش مع حرارة مرتفعة وسعال قوي. واشتغلت بابر «البنسلين» والأطباء، وبقيت في غرفتي لا أرى أحداً ولا يراني الّا الأطباء والموظفون من المفوضية.. وبعد أسبوعين، اي في ١٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٩، حصل ما كنا نخشاه: انقلاب عسكري جديد يقوم به أديب الشيشكلي الذي يعتقل بدوره سامي الحناوي، وهرب أسعد طلس إلى لبنان بسيارة فرحان شبيلات الأردني، والتجاء الضباط الموالين للاتحاد الى المفوضية العراقية حيث سلموا أنفسهم ثم استقال ناظم القدسي من رئاسة الوزارة بعد مرور ٢٤ ساعة على تشكيلها، بينما رفض المجلس استقالة هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية.

أرسل لنا وزير الخارجية مزاحم الباجه جي برقية تدل على تبدل الموقف وتشير إلى تبدد الحماس وأخذت الدعاية ضد العراق ومهاجمته تتزايد وينهار كل شيء... فرأيت أمام هذه التحولات أن يسافر العراقيون وفي مقدمتهم السيد عبد المهدي... فاستقلوا الطائرة الخاصة بعد أن شحنوها بالخضار وخاصة الباذنجان وكان ذلك في ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر..

قابلت هاشم الأتاسي في ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر مسلّماً وقد أبدى أسفاً شديداً لما حدث على يد الجيش، ثم سافرت في ٣٠ منه متوجهاً إلى بغداد وقد رجعنا كلنا كما يقال «بخفي حنين»... وسيرجع غيرنا مثلنا في المستقبل إذا بقينا على هذه الحالة!

من الشام... لبغداد!

وصلت بغداد في الساعة العاشرة صباحاً من يوم ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٩ وكنت منهك القوى بسبب المرض وتعب الليل وسفرة «نيرن» وانقلاب الشيشكلي وآسفاً بأن أعود صفر اليدين في قضية الاتحاد فوجدت في المحطة أحمد مختار بابان وتحسين قدري وقد أخبراني بأن سمو الوصي ينتظرني في قصر الرحاب.. ذهبت معهما قبل الذهاب إلى البيت، كما انا بلا غسيل ولا تبديل ولا حلاقة.

قضيت ساعتين في القصر مع الأمير أقص عليه تفاصيل ما حصل وأبلغه تحيات وكلمات هاشم الأتاسي المشجعة بالرغم مما حصل.. وجدت الأمير صاغياً ومتفهماً ومشجعاً وإن كان في قلبه حسرة لهذه التطورات...

أخذني أحمد مختار من قصر الرحاب إلى البيت حيث اجتمعت بوداد والأولاد وحمدت الله على اجتماعنا بالخير وسررت كثيراً بذلك ناسياً الاتحاد والشام والشيشكلي...

قضيت في بغداد ستة أشهر في وزارة الخارجية والمقابلات وأكثرها مع رئيس الوزراء علي جودت، ووزير الخارجية مزاحم الباجه جي، ثم دخلت قضية الاتحاد مع سوريا في دور الاهمال من قبل الحكومة الجديدة الميالة إلى سياسة التقارب مع مصر، وكان بطل هذا التقارب مزاحم الباجه جي، الذي ذهب أكثر من مرّة إلى هناك واتهمه البعض بأنه قبّل يد الملك فاروق إلى غير ذلك من المشاغبات.

ولكن الأمير عبد الاله كان باقياً على رغبته ومنتظراً. وكان يستمع إلى أسعد طلس، والضباط اللاجئين، وقصص عبد المطلب وأمين المميز في الشام، بينما كانت مصر والسعودية تؤيدان حكم الشيشكلي وتبذلان المال في سبيل الدعاية ضد العراق.. وحدث خلاف بين البلاط، ومزاحم الباجه جي، أدى إلى استقالة الوزارة وتشكيلها من قبل توفيق السويدي في ٥ شباط/فبراير ١٩٥٠.

وفي ١٢ شباط/ فبراير حصلت محاولة انقلاب على يد مدير الشرطة العام علي خالد الحجازي، ولكنها انتهت بسلام بفضل مقاومة صالح جبر وزير الداخلية.

سافرت مع توفيق السويدي بالطائرة في ٢٣ آذار/ مارس ١٩٥٠ لحضور اجتماع مجلس الجامعة العربية، وقد افتتح حسب العادة والمراسم المألوفة في ٢٥ منه. وكانت مقابلتنا للنحاس باشا طريفة فقد كان مولعاً بالتصوير وكان اهتمامه بتصويرنا بأوضاع مختلفة غريباً عجيباً، وكان معنا في الوفد سعد عمر وفاضل وحيد وكانت الأحاديث والمجاملات والحفلات أهم ما عندنا، وبعد أن أكملنا مناقشة معاهدة الضمان الجماعي، عدنا إلى بغداد في ١٥ نيسان/ ابريل. وكان العالم العربي غير راضٍ على الجامعة العربية وانتقدت الصحافة السويدي واتهمته بالتساهل في قضية اسرائيل..

وفي ١٠ أيار/ مايو سافرت ثانية مع رئيس الوزراء توفيق السويدي، ومعنا عبد القادر الكيلاني، لحضور اجتماع اللجنة السياسية. وكانت أهم قضية مطروحة هي قضية الضفة الغربية من قبل الأردن، وأرادت مصر ومن معها طرد الأردن من الجامعة بسبب ذلك. ولكن توفيق السويدي استطاع إقناع عزام باشا والمصريين وعدنا إلى بغداد في ١٨ أيار/ مايو بعد أن أجّلنا موضوع الضمان الجماعي إلى أجل غير مسمى.

أما في الشام فقد كان الوضع لا يزال كما هو وقد وجدت الوصي غير مرتاح من «هوسات» أمين المميز وأبدى رغبته في عودتي إليها بأسرع وقت ممكن.. ولكنني كنت غير راغب في هذه المهمة لأن أمل الوصول إلى الغاية كان ضئيلاً جداً. ومع ذلك فقد جعلني إلحاح البلاط والخارجية أقرر العودة إلى سوريا من جديد.

وبما أن الصيف اقترب فقد رتبنا السفر بسيارات «نيرن» في ١٠ حزيران/ يونيو ١٩٥٠ ووصلنا الشام في اليوم التالي، وقد استلمت المفوضية من أمين المميز، وكانت أقرب إلى اصطبل منه إلى مفوضية حيث تدب فيها الفوضى. وقضية الاتحاد في عالم الخيال!

في ديار أمية

أنا الآن وزير مفوض في دمشق مهمتي تحسين العلاقات بين القطرين وايجاد منفذ جديد للوصول إلى الاتحاد أو إلى التقارب والتعاون بين البلدين الشقيقين.. كل هذا حسن ومرغوب فيه من قبل الجميع، ولكن بغداد كانت في واد ودمشق في واد آخر، الأمر الذي جعل حتى العلاقات الدبلوماسية البسيطة من أشق الأمور. وسبب ذلك عدم وجود سياسة ثابتة معينة في بغداد وعدم وجود حكومة شرعية مستقرة في الشام.

هاشم الأتاسي رئيس الدولة كان ولا يزال يؤمن بالاتحاد. ورئيس الجمعية التأسيسية رشدي الكيخيا يكتفي بالإيمان بالاتحاد دون الإقدام على التنفيذ.. ورئيس الحكومة خالد العظم فرنسي النزعة لا يؤمن ولا يرغب بالاتحاد. ووزير الخارجية ناظم القدسي يكتفي بالآراء الفلسفية التي لا تسمن ولا تغني عن جوع.. والشغل الحقيقي بيد العقيد أديب الشيشكلي معاون رئيس أركان الجيش، ويدعي هذا بأنه جندي لا يشتغل بالسياسة. وكانت الصحافة منقسمة على نفسها تؤيد من يدفع لها وتهاجم من لا يسكتها بالمال. والرأي العام حائر وسط هذه الفوضى فهو يوم مع الاتحاد ويوم عليه...

وأمام هذه العجائب كانت بغداد منكمشة لا تطلق يدها بالمال كالسعوديين ولا تقدم على عمل حاسم خوفاً من الانكليز والامريكان والأتراك.. واسرائيل، والسعوديين والأردن ومصر لا، بل خوفاً من جماعة كبيرة من الناس في نفس العراق، وأنا الوزير المفوض لا أستطيع أن أبدل كل هذا أو ذاك فقررت التمسك بالصبر وانتظار التطورات والفرص!

زرت قبل كل شيء وزير الخارجية ناظم القدسي ثم قمت بزيارة رئيس الدولة في ١٦ حزيران/ يونيو المصادف لأول يوم من رمضان مهنئاً بشهر الصيام بصورة شخصية، في ٢٧ منه قدمت أوراق الاعتماد. وبما أن المفوضية العراقية تقع إلى جانب القصر الجمهوري فقد تقرر بدء مهرجان المراسم من الفندق الكبير ذهاباً وإياباً حتى يمر الموكب في شوارع العاصمة ليراها الناس ويؤمنوا بعودة العلاقات الطيبة بين القطرين..

بعد هذا بأيام زرت رئيس الجمعية التأسيسية والوزراء، وكبار موظفي وزارة الخارجية، وقمت بزيارة الممثلين السياسيين وانقضت أسابيع عديدة بهذه البروتوكولات. ورتبنا قضية إدخال غيده ومحمود إلى المدارس في بيروت وصرنا نذهب تقريباً كل أسبوع إلى لبنان وكانت هذه ألذ مهمة في حياتنا الجديدة.

في ١٤ آب/ أغسطس تعرفت على أديب الشيشكلي في حفلة المفوضية الباكستانية فتبادلنا المجاملات بصورة مختصرة وقد وجدته ذكياً عفريتاً داهية كأكثر أهل الشام، ولا يقف على كلام كأكثرية أهل حماه!

في ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٠ تقلب الجمعية التأسيسية نفسها برلماناً وتنتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية وهذا أمر مسرّ بالنسبة لنا، إذ كان من الشائع أن يكون خالد العظم الرئيس المنتظر..

وفي ١٩ أيلول/ سبتمبر قابلت فوزي سلو وزير الدفاع وتكلمنا حول الاتحاد ووجدته مقتنعاً بذلك بشرط الاحتفاظ بالجمهورية السورية. ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك، إذ بعد أيام أوقف الجيش النائب منير العجلاني بتهمة التآمر على الدولة مع الحكومة الأردنية! وأخذت تدخلات الجيش تتزايد بشكل سافر. كما أخذ نفوذ الشيشكلي يزداد يوماً بعد يوم بعد أن أصبح رئيساً للأركان حيث دفع بفوزي سلو إلى وزارة الدفاع. وطلبتني بغداد للتداول والمشاورة، فسافرت في ٦ تشرين الأول/ اكتوبر حيث قمت بعدة زيارات إلى البلاط وإلى بيت نوري السعيد حضر قسماً منها نجيب الراوي وزيرنا في القاهرة وشاكر الوادي وزير الخارجية بالوكالة. وعدت إلى الشام بعد عشرة أيام!

فوضى واغتيالات

الأحوال في دمشق تزداد سوءًا ومما زاد في الطين بلّة محاولة اغتيال أديب الشيشكلي في تشرين الأول/ اكتوبر وقد أذيعت أسماء المجرمين المتهمين وكان بينهم طالب عراقي يدعى عباس الخرسان. وظهر أن الدافع لهؤلاء كان أمين رويحة عامل السعوديين، واتهم أحمد الشرباتي لأنه ساعد المتهمين الآخرين المصري والأردني. وفي حفلة في السفارة التركية بتاريخ ٢٩ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٠ قصّ عليّ الشيشكلي تفاصيل مؤامرة الاغتيال وكان يعتقد أن جبن عباس الخرسان أنقذ حياته لأنه كان مكلفاً باطلاق النار على راكبي السيارة أثناء الهجوم عليها، غير أنه ارتبك وأخذ يصوب النار على العجلات ثم فر هارباً مع الآخرين. فقلت إنه يسرني أن العراقي أنقذ حياته وضحكنا.. وفي ٣٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٠ اغتيل اللواء سامي الحناوي في بيروت من قبل شاب برازي انتقاماً لمقتل عمه محسن البرازي. وهكذا كانت الانقلابات والاغتيالات تتوالى مما يدلّ على توسع الفوضى وفقدان الاستقرار.. وقد أثبت التحقيق أن السعوديين كانوا يمولون العصابة بواسطة المشاغب الأكبر الدكتور أمين رويحه. ومع ذلك فقد ذهب رئيس الوزراء ووزير الخارجية ناظم القدسي إلى الرياض وعادا منها في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ثم سافرا الى بغداد مع وفد «مطنطن» في ١٨ منه وبصحبته فوزي سلو وعادا في ٢٣ منه، وقد أظهروا جميعهم سرورهم وابتهاجهم بهذه الزيارة.. وأخبرني القدسي بأنه مبسوط جداً من الوصي ولكنه لم يفهم تماماً غاية نوري السعيد.

في ٢١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٠ سمعنا بوفاة الملكة الوالدة في بغداد فأقمنا الفاتحة في دار المفوضية لمدة ثلاثة أيام.. وكان عدد المعزين يزداد يوماً بعد يوم مما يدل على ارتباط الناس بالعائلة الهاشمية وبذكرى مليكهم الأول المغفور له فيصل. وكان أول المعزين رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي إذ أرسل رئيس الديوان وكبار الموظفين...

ومن غرائب قضية الاغتيال تبرع زميلنا علي محمود الشيخ علي، بالدفاع عن أمين رويحة وزملائه. وقد أكد لي هو وزميله السوري فؤاد القضماني أن الجماعة أبرياء! وذلك بعد اعترافهم الصريح!

ونحن كنا محتارين بقضية العراقي عباس الخرسان وقد أتت شقيقته إلى الشام لأنها سمعت بأن المكتب الثاني والمحققين العسكريين أخذوا يعذبون المتهمين وأنهم عاملوا الدكتور أمين رويحة أسوأ معاملة وحبسوه في زنزانة وضربوه و... و... وقد يكون كل هذا صحيحاً ولكن أمين رويحة لا يستبعد عنه القيام بمثل هذه المؤامرة.

وعندما أرسلنا أحد موظفي سفارتنا لمقابلة الخرسان مع أخته أخبرنا بأن عباس اعترف له باشتراكه بالجريمة والمسألة لا تقبل الشك. ومع ذلك كنا نحاول مساعدة المتهم العراقي بقدر المستطاع...

إلى جانب هذه الارتباكات كانت حياتنا في الشام مملّة وكنا والمفوضية، محاطين بالجواسيس والعيون، وهكذا كان نصيب جميع موظفي السفارة وجميع العراقيين.. وكان المكتب الثاني يعقب تحركات الملحق العسكري العراقي الزعيم عبد المطلب وكان هذا بدوره حسب عادته يعظم الأمور

ويعقدها باحاطتها بهالة من الاسرار ثم يرسل البرقيات المخيفة إلى بغداد لتبرير مصاريفه وتثبيت مركزه وكان الوصي يعتمد عليه وكذلك نوري السعيد. وهكذا يعيش بعض الناس مفضلين الجحيم على النعيم.

عمان والقاهرة

في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٥١ اتصل بي نوري السعيد تلفونياً من عمان يطلب التحاقي به ثم السفر معه إلى القاهرة لحضور اجتماعات اللجنة السياسية للجامعة العربية، فسافرت بالسيارة الى عمان في ١٦ منه بعد أن استقبلت وودعت أعضاء الوفد العراقي في مطار الشام وهم رئيس أركان الجيش صالح صائب ويوسف الكيلاني وشاكر عبد الوهاب وبهاء الدين عوني وقد التحق بهم ملحقنا العسكري الزعيم عبد المطلب.

نزلت في عمان في فندق فلادلفيا حيث قابلت نوري باشا. وفي اليوم التالي تركنا عمان بطائرة صغيرة عراقية من طراز «Dove» متوجهين نحو القاهرة. طرنا جنوبياً بموازاة البحر الميت والوادي حتى العقبة وكانت مناظر مخيفة ولطيفة، ووصلنا القاهرة ظهراً حيث وجدنا نجيب الراوي وجماعته باستقبالنا في المطار. نزلنا في فندق سميراميس وفي اليوم التالي انتقلت الى فندق «شبرد» مع عبد القادر الكيلاني لأن نوري السعيد نزل في المفوضية.

افتتحت اللجنة السياسية للجامعة العربية في ٢٠ كانون الثاني/ يناير في وزارة الخارجية المصرية. وكان أعضاؤها من الوزن الثقيل: الأمير فيصل آل سعود، رياض الصلح رئيس وزراء لبنان، ناظم القدسي رئيس وزراء سوريا، سيف الاسلام الحسن عن اليمن، نوري السعيد عن العراق وصلاح الدين عن مصر.. مجاملات وتمنيات حسب الأصول.

قضيت يوماً ثلاث ساعات مع ناظم القدسي حول حديث الوحدة، انضم إلينا خلاله نوري السعيد. ولكن فلسفة ناظم لا تنتهي وأتى هذه المرّة بمشروع فيدرالي طويل عريض يحتم دخول العرب جميعهم إليه ولا يقبل بانضمام قسم منهم في بادىء الأمر خشية وقوع تفرقة على حد قوله. وعبثاً حاولنا، نوري السعيد وأنا، اقناعه بلزوم اتحاد المقتنعين كالعراق وسوريا والأردن ولبنان ثم اقناع اخواننا الآخرين فيما بعد. ولكن ناظم القدسي لم يقتنع ونشر مشروعه في ٢٦ كانون الثاني/ يناير في «الأهرام» واضطررنا لنشر تصريح نوري السعيد في جريدة «المصري»، وكانت المسألة دقّة بدقّة.. ونام المشروع، وهذا هو المقصود، بسبب فلسفة القدسي وحزب الشعب.. وعليهم تقع المسؤولية.

في ٢٩ كانون الثاني/ يناير افتتح الأمير فيصل آل سعود مجلس الجامعة ورحب مصطفى النحاس بالوفود وتبودلت الخطب والمجاملات وهي أهم أعمال الجامعة العربية.. وفي ٣١ منه دعانا صلاح الدين بك وزير الخارجية المصرية الى حفلة عشاء فخمة في قصر الزعفران... أكل وشرب وأحاديث... وأهم ما حدث أن نوري السعيد وقّع على معاهدة الضمان الجماعي في ٢ شباط/ فبراير وانتهت بذلك أعمال مجلس الجامعة... وقضى العرب ووفودهم أكثر من أسبوعين يأكلون ويشربون ويتجادلون دون أن يصلوا إلى نتيجة حاسمة وسياسة قوية موحدة، ذلك لأن الألسنة تتكلم بما لا تقول به القلوب. وكنت أشعر بألم لضياع الوقت في مثل هذه الاجتماعات

الخاوية وهـذه ثالث مـرّة كنت أحضر القاهـرة لأساهم بهـا... والعرب أمـام مستقبل مظلم ولكن الملوك والرؤساء والوزراء ومساعديهم بخير!

تركت القاهـرة صباح ٣ شبـاط/ فبرايـر ووصلت الشام بعـد ساعتـين وعدنـا الى أشغالنـا وحياتنا الدمشقية المملّـة سياسيـاً بعد أن عـرفت مقاصـد رئيس الوزراء السـوري من الوحـدة الفيدرالية... سامحه الله!

الملك والوصي في الشام

كانت قناعتي منذ وصولي إلى الشام قبل أكثـر من سنة أن الاتحـاد بين العـراق وسوريـا لا يمكن تحقيقه بالأساليب الملتوية ولا يتم على أيـادي كل هـذه الجماعـات المتباينـة في الآراء وهذه الفلسفة السقيمة التي يتبناها حـزب الشعب ويمثلها نـاظم القدسي رئيس الـوزراء، ولذا أرسلت عبد الكريم السباعي الصغير في حينـه لمقابلـة أديب الشيشكلي المعـارض الأول للاتحـاد إذ ذاك، فكان جوابه أنه لا يشتغل بالسياسة. وعندما التقيت بـالشيشكلي في بيت عبـد، في صوفـر صيف ١٩٥٠ وشربنا وتظاهرنا كلنا بالسكر ذكّرت الشيشكلي بجوابه الأول حول الاتحاد.. قال كنت عـلى وشك القيام بانقلاب عسكري ولم أستطع أن أقول غير ذلك لأبي رنده.. ثم أضـاف انكم (ويعني بذلك العراقيين) أسأتم انتخاب الأشخاص للتعاون في سبيل الاتحاد، وسلمتم الأمـر لأشخاص لا أتنازل أنا أن أسلم عليهم (ربمـا يعني السيد عبـد المهدي من العـراق وسامي الحنـاوي وأسعد طلس وصغار الضباط من الجهـة السوريـة) وكانت النتيجـة فاشلـة. ثم أكد وأقسم بـأنه يؤمن إيماناً صادقاً بالاتحاد ولكن لا يريد الحاق سوريا بالعراق فتكون منطقة نفوذ لبريطانيا.

سمعت مثل هذا الكلام أكثر من مرّة من أديب الشيشكلي وأكدت له بـالمقابـل بأنني كـوزير مفوض للعراق سوف لا أشتغل ضده بل أود التعاون معه في سبيل التقارب بيننا، وكان يصدقني وكنت صـادقاً في قـولي ونيتي. ولكن المكتب الثاني كـان يخشى من مناورات الـزعيم عبـد المطلب خاصة وأنه كان على علم باتصالات هذا الأخير ببعض الضباط والاشخـاص المناوئـين له، وكـان الوصي ونوري وأعوانهما يصدقون أقـوال عبد المطلب ويعقـدون الآمال عـلى تخيلاتـه. وأردت أن يتقابل الوصي بالشيشكلي يوماً لحل هذه العقدة، وحانت الفرصة واستفدت منها، اذ تقرر أن يزور الملك فيصل والأمير عبد الاله سوريا ولبنان في طريقهما إلى أوروبا مع العائلة المـالكة. وقـد وصل المـوكب الملكي دمشق في ٧ شبـاط/ فبرايـر ١٩٥١ واستقبلنـاهم في «أبـو الشـامـات» وجـرى الاستقبال الرسمي عنـد «جسر طورة» وكـان الرئيس هـاشم الأتاسي وأركـان الحكومـة في طليعة المستقبلين، وخلال حفلـة غداء أقيمت في القصر الجمهـوري جلس الشيشكلي، وكـان على سفـرة الطعام في آخر الطاولة ويتظاهر بالتواضع والاحترام أمام رؤسائـه الوزراء ولم يفتـح فمه طـوال الوقت، ولكن بعد الغداء سحبته من يده وقدمته إلى الملك والأمير ثم أخذت لنا الصور مجتمعـين، وهكذا ولأول مرة تعارف «الخصمان» عبد الاله وأديب الشيشكلي فتفاءلت خيـراً وان كان بعيـداً لأنني كنت مقتنعاً بأنه لا يمكن أن يتم التقارب أو الاتحاد الّا بواسطة الشيشكلي، ومـا عدا ذلـك فهو أوهام وكلام فارغ...

بعد الغداء جرت مراسم الوداع في «الربوة» علي طريق بيروت. وكان الأتاسي وأركان حكومته وكبار العسكريين في الوداع ورافقت المـوكب شخصياً حتى بـيروت، وعلى الحـدود اللبنانيـة جرت

مراسم استقبال مماثلة، وقد وجدنا رئيس الجمهورية اللبنانية بشارة الخوري، ورئيس الوزراء رياض الصلح، ينتظران في «عاليه» لاستقبال الملك. ركبنا السيارات اللبنانية حتى القصر الجمهوري حيث تناولنا الشاي ثم استأنفنا المسير إلى المرفأ. وكان العشاء في المفوضية العراقية بضيافة ابراهيم الخظيري وكانت السهرة مؤنسة. ثم قضينا النهار التالي في الباخرة سيبيريا برفقة الملك والوصي، وتغديت معهما، وكان عطفهما ولطفهما شاملاً وقد صورني الوصي على ظهر الباخرة التي سافرت في السادسة مساءً. وكانت هذه السفرة مفيدة جداً لتحسين العلاقات..

هل يصلح العطار؟

لقد أفسد الدهر الجو السياسي بين العراق وسوريا ومما زاد في إفساده حلقة «العطارين» من عراقيين وسوريين الذين كانت لهم غايات شخصية ومقاصد شتى، ولذلك فإنه كلما أراد المخلصون رتق فتق أو سد ثغرة أو تقريب وجهة نظر، شمر هؤلاء «العطارون» السواعد وتداخلوا في الأمر وكانت النتيجة اتساعاً في الفتوق وتضاعفاً في الثغرات وابتعاداً في الجبهات. وصرت أنا أتقدم خطوة وأرجع ثلاث خطوات في تلك الطريق الوعرة. وأذكر فيما يلي على سبيل المثال بعض هذه الأمور:

في ١٢ شباط/ فبراير ١٩٥١ أخبرني رئيس الوزارة السورية ووزير خارجيتها ناظم القدسي بما جرى له من حديث مع الجنرال البريطاني «روبرتسون» الذي كان قائماً بجولة في الشرق الأوسط لايجاد حل معقول لقضية فلسطين. وبعد كلام طويل عريض طلب القدسي من الجنرال: تجريد اسرائيل من السلاح مقابل تمديد الهدنة الحاضرة إلى أجل غير مسمى! هذا قطب من أقطاب حزب الشعب ورئيس وزراء قطر عربي، وبطل من أبطال الاتحاد السوري العراقي، يقترح مثل هذا الاقتراح... وغفر الله ذنوب «العطارين».

في ١٠ آذار/ مارس ١٩٥١ استقالت الوزارة السورية لكثرة الخلافات التي حصلت بينها وبين الجيش، مع أن القدسي أخبرني أكثر من مرّة بأن الجيش لا يتدخل أبداً في الشؤون السياسية، مع أننا كنا نعلم بخلاف ذلك.. وحصلت أزمة طويلة استمرت «١٤ يوماً» شكل بعدها القدسي وزارة جديدة. ولكن الجيش لم يوافق عليها لأن فوزي سلو لم يعين وزيراً للدفاع فاستقال القدسي من جديد أي بعد ١٢ ساعة من تأليف الوزارة. فهل هنالك ضعف وبلبلة وفلسفة سقيمة أكثر من هذا! وانتهت المهزلة بأن يطلب الجيش من خالد العظم أن يؤلف الوزارة الائتلافية وتم ذلك في ٢٧ منه، هل يقال بعد كل هذا أن ليس للجيش أي تدخل في الشؤون السياسية، وهل يجوز بعد كل هذا أن نحاول الاتحاد بالرغم من الجيش السوري وأديب الشيشكلي؟

خلال الأزمة الوزارية في الشام وصل الوصي عبد الاله قادماً من أوروبا إلى عمان فذهبت في ١٩ آذار/ مارس إلى العاصمة الأردنية وقابلت الوصي في «المقر» أي البلاط الملكي وعرضت عليه قصة الوزارة السورية وأسبابها وبعد ذلك تشرفنا بمقابلة الملك عبد الله وبقينا على العشاء معه. سفرة بسيطة وأكل بسيط وكلام بسيط وأنسنا كثيراً بكلام الملك عبد الله بعد العشاء وكنا جالسين في سهرة من غير تكلف... وهنا أتى أحد المرافقين بلباسه الرسمي ومسدسه، يحمل بين اصبعين مسوَاكاً (عودة أسنان) «كيردون» وبعد التحية العسكرية سلمها للملك وأخذ هذا ينظف أسنانه مستمراً بنكاته ولطائفه. وكل شيء في الأردن له مثل هذه المتناقضات!

وفي اليوم التالي بعد توديع الوصي، حضرت حفلة الاستعراض التدريبية استعداداً لاستقبال شاه ايران وكانت منظمة وكان الجيش الأردني يستحق التقدير والاعجاب. وبعد الانتهاء من الاستعراض ذهبت إلى الملك عبد الله أستأذن منه السفر، فصافحني وقبلني أمام القواد والوزراء والسفراء على الطريقة العربية البدوية، وهكذا اختلط القديم بالحديث والبروتوكول بالعنعنات وعدت بعد ذلك بسيارتي إلى الشام. وبعد يومين سافرنا إلى لبنان وقضينا بضعة أيام لطيفة مع غيده ومحمود في صيدا (٢٢ ـ ٢٥ آذار/ مارس) نسينا خلالها خرابيط الشام وهموم الاتحاد... ولكننا عدنا إليها مع الأولاد حيث قضينا عطلة الربيع معاً في الشام ـ وبدأت الحالة على الحدود الاسرائيلية تزداد سوءًا والاعتداءات اليهودية تأخذ شكلاً مروعاً فكأنما كان ذلك جواباً على طلب القدسي تجريدهم من السلاح!

وزارة خالد العظم

اعتبر تشكيل الوزارة من قبل خالد العظم ضربة مؤلمة لدعاة الاتحاد لما عرف عن خالد بك من ميول فرنسية ـ دمشقية ـ ارستقراطية ـ رجعية! ولكن تبدل الوزارة في الواقع لم يبدل كثيراً الأوضاع الراهنة لأن الحل والربط كان ولا يزال بيد أديب الشيشكلي...

وكان الرئيس الجديد بصفته وزيراً للخارجية قد استقبل رؤساء البعثات الدبلوماسية، في وزارة الخارجية للتعارف وكنت أحد أعضاء هذه الهيئة الدبلوماسية فلاحظت أن البروتوكول الناشف حل مكان «العروبة» والأخوة.. وكان خالد العظم ناشفاً حسب عادته كأنه نازل من السماء وليس مرسلاً من قبل رئيس الأركان الزعيم أديب الشيشكلي. كان ذلك في ٢ نيسان ابريل ١٩٥١. وبعد هذه الرسميات ببضعة أيام أي في ٤ منه زرت العظم منفرداً وتحادثنا بشأن خطورة الحالة على الحدود ولم نذكر «الاتحاد» لا من قريب ولا من بعيد. وكان قد وقع اشتباك في منطقة الحولة بين اسرائيل وسوريا وقصفت الطائرات اليهودية مخفرين في منطقة الحمه وطلب إليّ جمال الفرا الأمين العام لوزارة الخارجية ابلاغ بغداد بذلك، فأرسلت برقية فوراً مساء الخامس من نيسان/ ابريل، فكلمني صباح اليوم التالي نوري السعيد من بغداد وأخبرني باستعداده لمقابلة خالد العظم لمعالجة هذا الخطر وإسداء أية معونة عسكرية تطلبها سوريا... فأخبرت حالاً خالد بك بذلك.. ولربما استغرب من هذا الجواب السريع ولكنه لم يقرر واكتفى بالشكر وطلب تأجيل الأمر الى ما بعد حين.

بالطبع رئيس الوزراء لا يبت بأمر الاّ بعد مشورة الشيشكلي. وعندما قابلت دولته بعد يومين أي في ٧ نيسان/ ابريل كرر شكره قائلاً بأن سوريا لا تريد سوى النصرة المعنوية! فحمدت الله على هذه القناعة! ولكن بعد يومين تبدل رأي الجماعة... اذ في ١٠ نيسان/ ابريل أخبرني دولته بأن الجهات العسكرية تدرس الحالة التي يجب معالجتها بالاشتراك مع الجهات العسكرية العراقية. وانتهت كل هذه المناورات بطلب دولته في ٧ أيار/ مايو مساعدة الطائرات من العراق... وقد وصل الوفد العسكري العراقي في ١٠ أيار/ مايو برئاسة كاظم عبادي وقابل الشيشكلي ووزير الدفاع فوزي سلو.

بالنظر الى حوادث الحدود السورية ـ الاسرائيلية قرر العرب عقد اجتماع للجامعة العربية في دمشق وعليه تألف الوفد العراقي برئاسة توفيق السويدي وموسى الشابندر وابراهيم الخظيري

وأمين المميز... وافتتح مجلس الجامعة في ١٤ أيار/ مايو حسب العادة: خطب وترحيب وقهوة وشاي وكلام! وأهم قرار اتخذه مجلس الجامعة هو مؤازرة سوريا وجمع أركان الجيوش في دمشق لدرس الأمر. وتشكلت لجنة فرعية لمقاطعة اسرائيل وكنت عضواً فيها مع فريد زين الدين عن سوريا ووحيد رافت عن مصر. وانتهى الاجتماع في ١٩ أيار/ مايو وكان مفيداً إلى حد ما بالقياس إلى اجتماعات القاهرة. وسافر الجميع بعد ذلك إلى بيروت يطلبون الاستراحة والتغيير وكانوا مسرورين بنجدة العراق إلى سوريا.

في أول حزيران/ يونيو أقمنا حفلة استقبال تكريماً للبعثة العسكرية العراقية حضرها ٢٠٠ شخص يترأسهم خالد العظم وأديب الشيشكلي وكان الجو مؤنساً ومشجعاً، وفي ٤ حزيران/ يونيو أقام خالد العظم حفلة غداء في فندق بلودان على شرف الوفود العسكرية العربية وقدم لهم أوسمة عسكرية وكانت حفلة استقبال مساء نفس اليوم في القصر الجمهوري قلدني خلالها، مع الوزير المصري، رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة بمناسبة تقديم المساعدة العسكرية إلى سوريا.

وهكذا شاءت الصدف أن أحصل على وسام سوري من وزارة خالد العظم وأديب الشيشكلي!

مهازل ومآسي السياسة العربية

للعرب مزايا كثيرة تبرز على الأكثر في الأفراد دون الجماعات. ولكن كل يوم يمر يدل على أن الروحية البدوية والغريزة القبلية لا تزال هي المتحكمة في تسيير الجماعات والحكومات وأن الفردية المتطرفة زادت الطين بلّة حتى غدت السياسة العربية مجموعة مآسٍ ومهازل لا يحصى عددها ولا ينتهي أمرها...

في ١٨ نيسان/ ابريل ١٩٥١ زرت وزير المالية السوري الجديد عبد الرحمن العظم وتكلمنا عن هذا وذاك وتطرقنا إلى حديث الاتحاد وكم دهشت عندما قال لي إنه بلغه من مصدر موثوق بأن ناظم القدسي عند زيارته الأخيرة للملك ابن سعود أعطاه تعهداً خطياً ضد الاتحاد العراقي ـ السوري! وأنا شخصياً أميل إلى الاعتقاد بمثل هذا الأمر بالنظر إلى «جبن» القدسي وتردده وفلسفته السقيمة ونظرياته السلبية في مشروعه الفيدرالي. هذه احدى مهازل الاتحاد!

في ٢٧ حزيران/ يونيو ١٩٥١ زارني معروف الدواليبي رئيس مجلس النواب الجديد وأخبرني بأن الملك عبد الله حاول عقد صلح مع بن غوريون في مقابلة جرت بينهما سراً في العقبة سنة ١٩٥٠ ولم يتم شيء إذ ذاك لأن سوريا هددت بإقفال الحدود مع الأردن.. فإذا أضفنا هذا إلى ما قاله لي ـ العجلوني كما سبق ذكره ـ تظهر شخصية حفيد محمد! هذه إحدى مآسي فلسطين!

في ١٦ تموز/ يوليو ذهبنا إلى مطار خلده لاستقبال الوصي القادم من بغداد وفي طريقه الى لندن. كان في المطار عبد الله اليافي رئيس الوزارة اللبنانية وشارل حلو وزير خارجيتها وعدد كبير من الناس. والذهاب إلى لندن أصبح من الأمور المألوفة بالنسبة لنا والوصي والحكومة العراقية. في نفس ذلك اليوم عندما عدنا إلى الفندق في صوفر فوجئنا بخبر اغتيال رياض الصلح في عمان حيث كان يقوم بزيارة إلى الملك عبد الله.. دهشنا وأسفنا، لأن رياضاً كان نجماً يزداد بريقاً في

كل يوم في سماء العروبة بالرغم من «حنقبازياته»، فقد قتله بنو قومه لأنه قد قتل بعد محاكمة صورية أحد أبناء قومه من القوميين انطون سعاده. فكأنما مصائب العرب الخارجية قليلة فزادها أبناؤها! وبعد أيام معدودات أي في ٢٠ تموز/ يوليو اغتيل الملك عبد الله وهو يدخل المسجد الأقصى لأداء فريضة الجمعة. وهكذا طويت صفحتان عربيتان... صفحة رياض الصلح البراقة وصفحة الملك عبد الله الجائرة، الضيف والمضيف.

في ٩ آب/ أغسطس قام سامي الحكيم بتأليف وزارة جديدة وأكثرها من حزب الشعب وعاد أديب الشيشكلي من الرياض يحمل صكاً برصيد القرض السعودي وصندوقاً مملوءاً بالذهب لشخصه وعهداً جديداً من ابن سعود بعرقلة الاتحاد مع العراق.. مع أن سامي الحكيم معروف بولائه للهاشميين وعقيدته الخالصة في الاتحاد.

وهكذا كان الحكم في سوريا: قسم يبكي وراء الاتحاد والقسم الآخر يقبض على حساب عرقلته وقتله في مهده.

وبعد مدة عاد ناظم القدسي هذه المرّة رئيساً لمجلس النواب وتحادثت معه ومع غيره ومع الشيشكلي عدة مرات، فكان هنالك مماطلة وتسويف لا حد لهما.

في ١٨ تشرين الأول/ اكتوبر ذهبت إلى بغداد للمشاورة والتداول حول الدفاع المشترك الذي رفضته مصر أخيراً. وقد أيدت الحركات الشعبية في البلاد العربية ذلك الرفض واعتبرته مناورة استعمارية. بينما رئيس وزراء سوريا والحكومة العراقية كانوا يؤيدون ذلك مما أدى إلى استقالة سامي الحكيم. وبعد أزمة طويلة ألّف الوزارة الجديدة معروف الدواليبي في ٢٨ تشرين الثاني/ نوفمبر. ولكن في اليوم التالي ضرب أديب الشيشكلي ضربته فخرق المراسيم واعتقل أعضاء الحكومة الجديدة واستلم الجيش زمام الحكم علناً، وهو الأمّر الذي أدى إلى استقالة رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي في ٢ كانون الأول/ ديسمبر واعلان الشيشكلي نفسه رئيساً للدولة.

ثم ظهر بعد ذلك أن الجيش عين الزعيم فوزي سلو رئيساً للدولة ورئيساً للحكومة ووزيراً للدفاع! نظام قراقوشي ليس من بعده نظام!

هاجت بغداد وماجت لهذه التصرفات التي أوجدت لنا مشكلة الاعتراف بالنظام الجديد، وبعد تردد طويل قررت بريطانيا وفرنسا وتركيا الاعتراف بالحكومة الجديدة وبقينا نحن نتردد.. وقد قابلت الشيشكلي في بيته في ١٦ كانون الأول/ ديسمبر فوجدته حانقاً على معارضة العراق، واقترح ارسال وفد عسكري الى بغداد لتصفية الجو. فوافق العراق على ذلك فوراً وأعاد لي أديب الشيشكلي الزيارة في ١٩ كانون الأول/ ديسمبر وأخبرني بأن الوفد السوري يسافر في الغد الى العراق. وهكذا كانت أعمالنا أسفار وتنقلات وتصريحات وانقلابات إلى ما شاء الله والقضايا العربية في تقهقر مستمر والمهازل تزداد كل يوم.

لم تنفرد سوريا بالتبلبل السياسي، والحكم الاستبدادي، والفوضى الفردية والجماعية، إنما كان لجميع الأقطار نصيب من كل ذلك أو من قسم كبير منها. وإذا استثنينا اليمن والسعودية لأنهما بلدان متأخران يرضخان تحت حكم فردي ولأن العالم لا يسمع عنهما إلّا ما يريد الحاكمون اذاعته، فالبلاد الأخرى من المراكش الى العراق كانت تغلي كالمرجل. ولربما المرجل

السوري كان أكثرها غلياناً وصفيراً، إذ لم يكن فيه من المواد الغذائية المفيدة ما يمنع الجعجعة الفارغة.

وكان نصيبي بصفتي وزيراً مفوضاً للعراق أن ينتهي الأمر بالحصول على طبخة مفيدة لنا ولسوريا وللعرب أجمعين. ولذا كنت أتحمل التصرفات غير المألوفة دبلوماسياً والاعتداءات غير المحدودة الموجهة لنا بصفتنا أشقاء ودبلوماسيين، ذلك لأن الحكم العسكري في الشام كان أتعس مما مرّ به العراق أيام بكر صدقي. فأديب الشيشكلي شاب مغرور ومعجب بنفسه وقد زاده نجاحه غروراً وتكبراً حيث ألقى بسجن المزة جميع أفراد الحكومة ورئيس المجلس وكل من يجرؤ على معارضته. وكان العراق المعارض الشديد الوحيد لدكتاتوريته وتصرفاته ولم يعترف بحكمه حتى بعد تشكيله الحكومات الديمقراطية الكبيرة. وكان هذا خطأ من حكومة بغداد التي لم توافق على اقتراحي بعدم التمسك بنظرية «الحكم الديمقراطي» كأنما العراق خلق وعاش طول عمره ديمقراطياً صافياً. ولكن الأمير عبد الإله ونوري السعيد وصالح جبر وغيرهم كانوا يعتقدون بأن مقاومة العراق ستقضي على الشيشكلي ونظامه. وعبثاً حاولت أن أفهم بغداد بأن الاعتراف بالحكم القائم لا يعني الرضى به كما أنه لا يعني انتهاء محاولة قلبه ومعاكسة سيره، بل ربما سهل كل ذلك. إذ الظهور بهذا العداء وهذا العناد، يسبّب الانتباه المستمر، والمقاومة العنيدة في الجهة المقابلة. وكان نتيجة سياسة بغداد أن ازداد الشيشكلي ميلاً إلى السعوديين وحقداً على العراقيين بالرغم من أن مؤامرة الاغتيال كانت من تدبير السعوديين ومن أن العراقيين قدموا المساعدات بإرسال الطائرات والمساعدات العسكرية، وقد ثبت بذلك أن سياسة ابن سعود «البدوية» كانت أكثر مرونة من سياسة العراق الديمقراطية... واستمرت الحال هكذا إلى أن شلت أعمال مفوضيتنا وكادت تنقطع العلاقات بيننا لولا وجودي في الشام ووجود خليل مردم في بغداد. إذ تعاهدنا أن نعمل كعربيين ونتحمل كل أذى حتى تمر هذه السحابة. وكان نصيبي حصة الأسد لأن الجماعة في بغداد عاملوا شخص خليل مردم معاملة طيبة باستثناء وكيل الخارجية شاكر الوادي.

الثورات والانقلابات ـ ١٩٥٢

يمكننا أن نقول أن سنة ١٩٥٢ هي سنة الثورات والانقلابات في البلاد العربية...

صحيح أن البلاد العربية كلها كانت في دور النهضة منذ بداية القرن واستمرت الثورات والانتفاضات هنا وهناك بمختلف الأشكال والأسباب والأساليب. ولكن نكبة العرب في فلسطين، فتحت باباً جديداً وخلقت روحاً وشعوراً لم يكن معروفاً لديهم من قبل، إذ كان الكفاح في السابق ينحصر بينهم وبين الاستعمار الغربي، أما الآن فقد انضم الى خصومهم قوتان جديدتان هما التسرب الشيوعي والخطر الصهيوني وقد برز هذا الأخير بأبشع مظاهره بانكسار العرب وخيبتهم في انقاذ فلسطين.

أتت هذه الضربة كهزة عنيفة أيقظت الشعوب العربية قاطبة وأذهلتهم. وكان من جراء ذلك أن حصلت وثبة في العراق، وسلسلة من الانقلابات العسكرية في سوريا، واقالة الحكومات في الأردن ومصر وتنازل الملك في مصر وقيام ثورة عسكرية فيها واستقالة رئيس الجمهورية في لبنان وتخلي ملك الأردن عن العرش إلى ما هنالك من تبدلات وزارية مستمرة واضرابات وحركات تمرد

وعصيان، وسخط عامل شامل، ومرارة في القلوب تظهر على اللسان بجـرأة غير معـروفة من قبـل. فقد كانت الشعوب تلوم الحكومات، والحكومات تلوم الأحزاب وهذه تلقي بالـلائمة عـلى الرؤسـاء والملوك... وهكذا استقبل العالم العربي سنة ١٩٥٢ وهو في محنة وهيجان.. واستغلت الشيوعيـة العالمية هذه المرارة القومية وشجعتها لتعم الفوضى. ولعل أبرز مثال لذلـك ما حصـل في مصر يوم السبت الأسود في ٢٦ كانون الثاني/ ينـاير عـلى اثر حـوادث القنال بـين الانكليز والمصريـين... فقـامت الجماعـات والرعـاع بالتهـديم والاحراق ممـا سبب حصول خسـائر عظيمـة في الأنفس والأموال وانتهى الأمر بإقالة النحاس من رئاسة الوزارة وتعيين علي ماهر مكانه ولكن بعد خـراب البصرة، إذ بلغت الخسائر في القاهرة في ليلة واحدة حوالي ٤٠ مليون جنيهاً. وكان في مجيء عـلي ماهر للحكم أمل خير لأن الرجل مخلص، وبعيد النظر في نفس الوقت. بينما كان النحاس مخلصاً وكفى ذلك، لأن الاخلاص وحده لا يكفي لإنقاذ العرب مما هم فيه، واستبشر العرب بأن علي ماهر سيحـل مشكلة مصر، وهي عقـدة العقد بـالنسبة للعـرب، وصرح رئيس وزراء مصر الجديـد بما يطمئن ويؤيد التفاؤل إذ وجّه كلمة إلى أمريكا بالراديو في ١٧ شباط/فبراير يؤكد فيها رغبة مصر بالمساهمة في مساعي السلم في العالم، وبالمساهمة بـالدفـاع المشترك عن الشرق الأوسط، بميثـاق اقليمي في نطاق هيئة الأمم المتحدة. وكان هذا تطوراً جديداً مفيداً لمصر والعرب وأنهى علي ماهـر تصريحه بقوله أن ما تريده مصر في ١٩٥٢ هو ما طلبته أمريكا سنة ١٧٧٦. وهذا قول لم يعـرف النحاس أن يقول مثله، انما كان يتحمس ويركب برأسه ويصطـدم تارة بـالانكليز وطـوراً بالملـك حتى يرضى عنه الشارع.

وبقينا ننتظر التطورات الجديدة في مصر. ولكن كم كان أسفنا شديداً عندما سمعنا باستقالة علي ماهر في أول آذار/ مارس الذي لم يرتح الانكليز بعودته بعـد أن كان معتقـلاً بأمـرهم وأمر النحاس طيلة الحرب، لأن ماهر سيفتح باباً جـديداً يـدخل فيـه أمريكـا في الشرق الأوسط، وهذا مسرح خاص بهم. ولذا فهم يفضلون خصماً ثرثاراً أهوج كالنحاس على صديق عاقل قـوي كعلي ماهر. وقد قام حافظ عفيفي صديق الانكليـز المطيع بمنـاورة شيطانيـة أدت الى استقالـة الرجـل القـوي واستبدالـه بنجيب الهلالي المجـرب الأمين ودخلت القضيـة المصرية من جـديد إلى حيث كانت، ومعها القضايا العربية الأخرى.

بين القاهرة ودمشق وبغداد

بالنظر إلى مكانة مصر في العالم العربي خـاصة، والشرق الأوسط عـامة، فـإن الحوادث التي تجري هناك كان لها رد فعل ملحوظ في جميع العواصم العربية، ولم تمـر التبدلات الأخـيرة هناك كالسبت الأسود وإقالة النحاس وعودة علي ماهر ثم استقالته فجأةً وبدون سبب معقول، كـل ذلك كـان يشغل بـال المشتغلين بـالسياسـة في بغداد ودمشق وبـيروت، والريـاض. وكنا كلنـا نضرب أسداساً بأخماس ثم ننتهي بأن وراء هذه الأمور مناورات انكليزية لا ريب فيها..

العجرفة الانكليزية وحب السيطرة ليست بنت اليوم في البلاد العربيـة، بل كـانت قائمـة منذ أن دب النفوذ البريطاني فيها وكان يظهر بأشكال وألوان مختلفة وقـد قص عليّ يـوماً بـديع بـك المؤيد العظم وهو من شخصيات دمشق القديمة ومن أصدقاء المرحوم والدي ما يؤيد ذلك...

زارني بـديع بـك في المفوضيـة في ١٩ شباط/ فبـرايـر ١٩٥٢ وأخـذ يقص بعض القصص

القديمة التي تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، ومن ذلك أنه كان قبل أربعين سنة ناظراً للديون العمومية في الموصل وكانت علاقته مع القنصل البريطاني في الموصل سيئة بسبب مزاحمة حصلت بينهما على استئجار دار لأن صاحبها فضل ايجارها إلى بديع بك، وان كان القنصل مستعداً لدفع نفس المبلغ أي خمسين ليرة عثمانية لأن صاحب الدار كان لا يرغب في أن يرى العلم البريطاني مرفوعاً فوق داره. وكان القنصل المذكور المستر «يونك» متكبراً متعجرفاً فلم يعجبه ما حصل فازداد غروراً وكبرياء أدى به الى الفشل إذ مرّ يوماً في السوق أمام مقهى يجلس فيه عدد من الضباط الأتراك فأرسل اليهم قواصه (مرافقه) وأخبرهم بأنه يطلب اليهم الوقوف احتراماً إذا ما مرّ أمامهم مرة أخرى والّا فإنه يكسر رؤوسهم.. فغضب الضباط وهاجوا وماجوا ولكن قائدهم كان جباناً يخشى سطوة الانكليز فلم يفعل شيئاً وعليه راجع الضباط بديع بك فكتب هذا الى المشير فريد باشا في استانبول يعرض عليه هذه الحالة المؤسفة. وبعد بضعة أيام وردت برقية من السفارة البريطانية ونقل المستر يونك إلى ديار بكر..

وقصة هذا القنصل التي حدثت قبل أربعين سنة في الموصل كان يحدث مثلها وأكثر منها، كل يوم في مختلف أنحاء العالم العربي، إلى أن استحكم العداء وازداد الحقد وطغت المرارة وحدث ما حدث من أمور مؤسفة لعل آخرها قضية الهجوم على مصر بالاتفاق مع الفرنسيين والصهاينة، وهذه الذهنية الغريبة التي ظهرت لدى القنصل البريطاني المستر يونك في الموصل هي نفسها دفعت السير أنطوني ايدن رئيس الوزارة البريطانية اليوم بأن يرتكب خطأً قد يكون خاتمة العلاقات بين العرب والانكليز.

ان سلسلة الأخطاء التي ارتكبها الانكليز في العالم العربي وقصر نظرهم وشدة حرصهم على منافعهم ومسكنة أطماعهم وتفضيلهم المنافع المادية الحالية على المنافع الأدبية، كل ذلك سبّب لهم ضياع المكانة المادية والأدبية التي كانوا يتمتعون بها وأتى المستر ايدن الآن بمسك الختام وهو الاتفاق مع اسرائيل لضرب جمال عبد الناصر...

زرت أديب الشيشكلي في ٦ آذار/ مارس ١٩٥٢ وتكلمنا عن الأوضاع في مصر والعلاقات بين سوريا والعراق، ومما قاله لي إن الانكليز أنفسهم اعترفوا بالحكم القائم فهل أنتم أكبر ملكية من الملوك أنفسهم، ثم هدد بأنه سيقطع العلاقات الدبلوماسية معنا إذا أصرت حكومة بغداد على موقفها.

وهكذا كنت بين الشيشكلي ونوري السعيد، أحاول حل الأمر بما يعود على العروبة بخير، وكانت أنظارنا متجهة في نفس الوقت إلى ما يدور في القاهرة وقد ابتلانا الله بصداقة الانكليز وبدواليبهم.

إلى بغداد وسامراء

إحدى حسنات الوظيفة في دمشق هي وقوعها بين بغداد وبيروت.. في بغداد أهلنا وأشغالنا، وفي بيروت أهلنا وأولادنا فكنا نقضي العطل وأواخر الأسابيع في لبنان مع غيده ومحمود وبيت العم، وكنا على اتصال دائم تلفونياً مع بغداد بسبب الأشغال. ونزورها من وقت لآخر لنفس الغرض. وعليه فقد سافرنا وداد وأنا في ١٧ آذار/ مارس ١٩٥٢ بباصات «نيرن» إلى بغداد

للتداول مع الحكومة حول الأوضاع في مصر ودمشق ومراجعة الوزارة بشأن قضية أملاكي التي لا تزال مغتصبة وإنهاء وضعي لأنني كنت لا أزال مديناً لوزارة المالية بسبب الحكم علي بالتعويض عن حوادث سنة ١٩٤١.

وجدت رئيس الوزارة نوري السعيد لا يزال مصراً على رأيه بعدم الاعتراف بالحكم القائم في سوريا حتى تؤلف وزارة دستورية وينتخب مجلس نيابي، وتعود الحياة الديمقراطية إلى سوريا. وكان البلاط ومن فيه، ووزارة الخارجية ومن فيها، يؤيدون هذه الفكرة. وبالطبع لم أجد مبرراً للاصرار حتى لا يظن أنني لست ديمقراطياً ولا دستورياً ولا سيما بسبب وضعي الخاص واشتراكي بحركة رشيد عالي غير الديمقراطية، وغير الدستورية في نظرهم.، مما يجعلني حذراً من هذا الاصرار. وقضيتي الخاصة لا تزال مطروحة أمامهم تنتظر الحل الديمقراطي الدستوري! فانصرفت الى تعقيب اللائحة حول العفو العام عن المشتركين بحركات سنة ١٩٤١ وصرت أقابل الوزراء والأعيان والمحامين وأتكلم وأقنع، وقد وجدت نوري السعيد راغباً في العفو عن جماعة دون أخرى، أي أنه يعتقد أن الوصي لا يرغب شمول العفو لعلي محمود الشيخ علي وناجي شوكت. ولذا يجب أن اقترح بأن تشمل اللائحة كل من حكم عليه بخمس سنوات فما دون فيدخل بها الجميع ما عدا علي محمود وناجي شوكت. ولكن طبقة أخرى من الرجال كجميل المدفعي ومصطفى العمري وغيرهما كانوا يفضلون أن يدخل الجميع في اللائحة ولذا صرنا نكتب ونمحي للوصول الى حل يرضي الجميع. وأثناء اتصالاتي هذه وجدت رجالات العراق غير متفقين كذلك حول الأمور العامة والسياسة الخارجية، مثال ذلك ما قاله لي نائب رئيس الوزراء مصطفى العمري حول الاتحاد بعد انتقاد أعمال السيد عبد المهدي بأن هذا الأخير لم يشتغل في سبيل الاتحاد عندما كان في دمشق انما اشتغل في سبيل «العينية»، وهكذا كان كل منهم ينتقد الآخر ويلقي على سواه لائمة الفشل... والحقيقة أنهم كلهم، وقد لا أبالغ إذا قلت بلا استثناء، مشتركون ومساهمون بما حصل في فلسطين ودمشق وجميع القضايا.

بقيت في بغداد نحو أربعين يوماً، أقضي النهار بالمقابلات والمراجعات، ونقضي الأمسيات بين الأهل والأصدقاء والحفلات، وأكثرها عند آل فتاح.. وفي تلك الأيام في ١٨ نيسان/ ابريل ١٩٥٤ قمنا بزيارة سامراء بصحبة الوزير السوري خليل مردم بك ومساعده الدكتور جبر وكان معي عبد القادر رشيد صديقنا وجارنا. كانت السفرة ممتعة بالرغم من وعورة الطريق وكثرة الغبار. وصلنا سامراء بعد ثلاث ساعات واستقبلنا هناك القائمقام نعيم ممتاز واستضافنا على الغداء واستفدنا من الزيارة للخرائب والآثار التي تدل على عظمة سامراء عندما كانت عاصمة في أواخر أيام العباسيين.. أما المدينة الجديدة فهي قرية قذرة فقيرة لولا وجود مرقد الإمامين الهادي وابنه حسن العسكري وإلى جنبهما مرقد حليمة عمّة العسكري ومرقد نرجس خاتون زوجته الرومية، لما كان هناك في سامراء حياة. إن أولئك الأموات صاروا سبباً لحياة أهل سامراء اليوم لأنها أصبحت عتبة مقدسة لدى الشيعة يزورها آلاف من الناس وهكذا عاشت سامراء بين خرائب الماضي وخرافات الحال...

بين الشرعي وغير الشرعي

في أول آذار/ مارس ١٩٥٢ كنت أمارس أعمالي من جديد فعدت الى ذاك الطاس وذاك الحمام!

العراق لا يزال ينظر إلى الحكم في سوريا بأنه غير شرعي وحكومة دمشق تنوه بأن الوضع في العراق غير شرعي. وقد وصلت المساجلة بين الشرعي وغير الشرعي إلى حد السخافة في دمشق نفسها أيضاً: ففي ٧ آذار/ مارس أقامت المفوضية المصرية حفلة استقبال بمناسبة عيد تتويج الملك فاروق، حضرها عدد كبير من السوريين، الرسميين منهم وغير الرسميين، وقد تلاقى خلالها أديب الشيشكلي، الدكتاتور غير الشرعي، بمعروف الدواليبي الذي أطلق سراحه من سجن المزّة قبل بضعة أيام. وكان الشيخ معروف لا يزال يدعي ويصرح بأنه هو وحده رئيس الحكومة الشرعي ولما سألته عن الحال قال: «السجن أحب إليّ مما يدعونني اليه»... وصادفت عدداً من أعضاء الحكومة الشرعية الذين أخلي سبيلهم في هذه الحفلة، وكان الشيشكلي يسرح ويمرح بينهم، واختلط الحابل بالنابل، والشرعي بغير الشرعي. وكلمت الشيشكلي وهنأته بخطابه الذي ألقاه في حلب قبل بضعة أيام وأتى كله حماساً وعروبةً ووحدةً...

وقررت أن أقضي على الجفاء القائم بين العراق وسوريا فأقمت حفلة استقبال في ٢٢ أيار/ مايو ١٩٥٢ دعوت إليها كل أفراد الحكومة وعدداً كبيراً من الزعماء والسياسيين،وقد حضر ٢٠٠ شخص من أصل ٣٥٠ مدعواً ولم يحضر الشيشكلي ولا أحد من الوزراء أو الموظفين بينما حضر المعارضون والشرعيون والمحايدون. وقد بلغني أن هذه الخطة كانت مدبرة في آخر لحظة إذ اقترح أمين الخارجية جمال الفرا عدم تلبية الدعوة ووافق الشيشكلي على هذا الرأي وعمم بالتلفون على جميع الموظفين هذا القرار. وعندما قابلته بعد مدّة وعاتبته على ذلك قال لي: اني آتي إلى بيتك على رأسي ولكن وضع حكومة بغداد اضطرنا إلى مقاطعة حفلة المفوضية العراقية!. وهكذا كلما حاولت التقريب عرقله دعاة السوء وعناد المغرضين. وعندما حلّ رمضان أقام رئيس الدولة فوزي سلو وليمة افطار دعا اليها جميع الممثلين السياسيين من مسلمين وغير مسلمين وكنت أنا الوحيد الذي لم ادع اليها، لأن وزير خارجية العراق لم يدع الوزير المفوض السوري. هكذا كنا نشتغل نحن العرب في دمشق وبغداد. وكانت قضية العروبة كالكرة تتقاذفها أقدام أديب الشيشكلي وفوزي سلو في الشام وأقدام نوري السعيد وشاكر الوادي في بغداد... فإنهم لا شك ركبوا رؤوسهم وضلوا الطريق.

أما أنا شخصياً، فقد كنت غير مهتم «بشرعية» الحكم ولا بمواد البروتوكول الدبلوماسي، إنما كنت أشتغل كعربي في خدمة العرب سواء كانوا في بغداد أو في الشام أو في القاهرة. وعلى هذا الأساس عندما تشكلت الحكومة السورية الجديدة في ٩ حزيران/ يونيو ١٩٥٢ وعيّن للخارجية ظافر الرفاعي ذهبت لمقابلته في ١٩ حزيران/ يونيو وتكلمنا بالعربي الفصيح، فوجدته عربياً غيوراً. وقد سرّ بزيارتي غير البروتوكولية هذه. وعندما كلمت نوري السعيد في نفس ذلك اليوم في مطار دمشق وهو قادم من بغداد في طريقه إلى لندن، لم يهتم بالأمر بل كان مهتماً بقضية اطلاق سراح عباس الخرسان المحكوم عليه بسبب اشتراكه بمحاولة اغتيال أديب الشيشكلي. وكنت أستغرب من اهتمام الباشا بالخرسان كل هذا الاهتمام، واهمال العلاقات السورية العراقية لمجرد وجود أديب الشيشكلي في الحكم ـ وكان الشيشكلي وجماعته يضمرون نفس الشعور للوصي ولنوري السعيد وشاكر الوادي وجماعتهم الموالية للانكليز، وكل حزب بما لديهم فرحون!

لقاء بين نوري وأديب

اغتنمت فرصة عودة نوري السعيد من لندن ومروره بمطار الشام في ٦ تموز/ يوليو ١٩٥٢ فاقترحت عليه بأن الشيشكلي يرغب في مقابلته، وكان ذلك من عندي ودون أن يعرف الشيشكلي به. وكم كان سروري عظيماً عندما وافق الباشا مبدئياً على ذلك. وفي ٩ تموز/ يوليو ذهبت الى بناية الأركان لمقابلة الشيشكلي وبعد مقابلة دامت ساعة تبادلنا خلالها المجاملات والعتاب قلت له: إن نوري باشا مرّ من هنا قبل ثلاثة أيام وأبدى رغبة في مقابلتك؟ فاستغرب أديب من هذه المفاجأة ولكنه رحب بالفكرة على شرط أن تكون هناك نتيجة مرضية «لإنهاء الوضع الشاذ القائم بين سوريا والعراق» قلت: «يا أخي اجتمعوا وتكلموا وخلصونا من هذه الورطة!» وعند عودتي الى المفوضية أبرقت الى نوري السعيد حول مقابلة الشيشكلي وأتاني الجواب أن الباشا في لبنان ويجب تدبير الموعد مع ابراهيم الخظيري الوزير المفوض في بيروت.. ورد لي أديب الشيشكلي الزيارة في ١٣ تموز/ يوليو وتقرر أن تكون المقابلة بعد يومين في شتورة.. وفي ١٥ تموز/ يوليو ١٩٥٢ ذهبت الى شتورة وانتظرت نوري باشا في فندق مسابكي وبعد نصف ساعة وصل الباشا ومعه ابراهيم الخظيري فتوجهنا الى دار السيد محمود اليوسف حيث وجدنا العقيد الشيشكلي في انتظارنا حسب الموعد. وبعد اجراء التعارف اختلى الباشا بالدكتاتور لمدّة ساعة من الزمن ثم تناولنا الطعام على سفرة فاخرة وكانت الأحاديث كلها بلا تكلف وصريحة. بعد ذلك استأذنا وشكرنا الجماعة على ضيافتهم وعدنا إلى الفندق فقص علينا الباشا خلاصة ما دار بينه وبين الشيشكلي من ضرورة التعاون وغيره، أما فيما يتعلق بالاعتراف فان الباشا علق ذلك الى مقابلته للوصي واجراء الانتخابات في العراق ومعنى ذلك أن المقابلة لم تنه المشاكل، بل انما كانت خطوة مفيدة نحو حلّها. وفي اليوم التالي ١٦ تموز/ يوليو أتاني الشيشكلي مساءً الى البيت وجلسنا في الحديقة وشكرني على ترتيب المقابلة وأخبرني بأنه قد أعجب بشخصية نوري وان كان غير راضٍ على تأجيل الاعتراف، وهنا قررنا عدم كتمان المقابلة اذ أخذت الصحف والاذاعات في بيروت تشيرٌ اليها...

في نفس هذه الليلة استقبلت الوصي في مطار الشام في طريقه الى لندن أو عائداً منها وأخبرته بمقابلة نوري ـ أديب فوجدته مصراً على عدم الاعتراف اذا بقيت الحالة كما هي...

على أنني قررت إزالة الوضع بيني وبين الحكومة حتى وان لم تعترف بغداد بالوضع فقبلت دعوة ظافر الرفاعي في ١٧ تموز/ يوليو للسلك الخارجي وكانت هذه أول مرّة منذ عدة أشهر أحضر حفلة رسمية وكان الجميع مسرورين بذلك عدا الفرنسيين... وفي ١٨ منه حضرت ومعي الملحق العسكري عبد القادر سعيد مهرجان الطيران السوري دون استشارة بغداد.. لأن حكومة بغداد الجديدة كانت ماشية على خطة الوزارة السابقة ولكنها كانت تغض النظر. هذا ما شعرت به عند مقابلتي لمصطفى العمري الرئيس الجديد ـ ودخل أخي ابراهيم وزيراً للمالية فكان الوضع نظرياً لم يتبدل ولكن في الواقع كان الجميع يرغب في إنهاء الوضع المؤلم بيننا وبين سوريا وهكذا جاء الاعتراف تدريجياً دون اعتراف رسمي دبلوماسي.

الملك فاروق

كان الناس يلقبونه بالملك الصالح ولربما كان صالحاً في باديء الأمر.. تظهر صورته في الصحف وهو يسبّح في المساجد ويؤدي الفرائض أيام الجمعة بين وزرائه وحاشيته، ولكن كانت هناك حاشية سوء ومرتزقة تحيط به فدفعته الى الفساد والجبروت والتعجرف حتى صار يُضرب المثل بتصرفاته وبسفاهاته وخلاعته، ومع كل ذلك فقد بقي المصريون يحترمونه ويطيعونه ويقدسونه كما كان أجدادهم يحترمون ويطيعون ويقدسون الفراعنة ومن بعدهم الخلفاء والملوك.. ولم ينتبه الملك فاروق ولا حاشيته الى تبدل الزمن وتطور العالم وبقي راكضاً وراء الأبهة والخلافة في النهار ووراء طاولات القمار والغواني في الليالي الحمر. فحل به ما كان منتظراً منذ زمن بعيد. أي منذ انكسار الجيش المصري في فلسطين سنة ١٩٤٧ وظهور الفساد في الجيش والإدارة والحكم والبلاط. وكان الأمل أن ينقذ الموقف علي ماهر في بداية السنة، ولكن فاروق والانكليز وطبقة الانتهازيين والجواسيس لم يرق لهم ذلك فأطاحوا به وأتوا بالهلالي، ولم يقم هذا بعمل يذكر سوى الانتقام من بعض شخصيات حزب الوفد. وعندما سقط وتولى الحكم حسين سري حاول هذا الأخير انقاذ ما يمكن انقاذه واقترح تعيين الجنرالاي محمد نجيب لوزارة الدفاع ارضاءً للجيش. ولكن عجرفة فاروق لم ترض بذلك فأدى الأمر الى استقالة حسين سري وعودة الهلالي الذي عين صهر الملك اسماعيل شيرين وزيراً للدفاع فهاج الجيش وقام بحركته التي قضت على عرش فاروق وأجبر هذا الملك الطائش على التنازل لابنه وترك البلاد في اليوم نفسه ٢٦ تموز/ يوليو ١٩٥٢. واستلم الجيش زمام الحكم وعين علي ماهر رئيساً للوزارة في ٢٣ تموز/ يوليو. ولكن عودة علي ماهر كانت متأخرة فلم يستطع انقاذ الملك، وانتهى الأمر كما ذكرت.

أعتقد بأنه لو كان الانكليز والملك تركوا علي ماهر في الحكم في بداية السنة لكان أغناهم عن كل هذه التطورات ولتبدل تاريخ مصر لخير مصر والعرب، ولكن قصر نظر الانكليز وغرور فاروق مهدا السبيل للثورة والفوضى والدكتاتورية وتسرب الشيوعية. وسيلقي المؤرخون على أكتاف الاستعمار البريطاني مسؤولية ما حدث وما سيحدث في المستقبل في مصر والبلاد العربية كلها.

وقد رحب الشعب المصري والشعوب العربية الأخرى بحركة الجيش وأخذوا يقيسون بين الملوك والرؤساء والقواد. ودبت أفكار حماسية جديدة في الرأي العام العربي ضد الملوك ومفاسدهم وتصرفاتهم. وهكذا ثبّتت الحركة العسكرية المصرية، الحركة العسكرية في سوريا. لا سيما بعد اعتراف العالم والعرب كلهم بالحكم الجديد في القاهرة لأنه حافظ على الدستور.. ولكن بعد أيام معدودات أخذت الأخبار تتوالى لتدل على عدم الاستقرار اذ أخذت الحكومة تلقي القبض على السياسيين القدماء، الأمر الذي لم يرق لعلي ماهر فاضطر الى الاستقالة في ٧ أيلول/ سبتمبر، وتألفت وزارة برئاسة القائد العام اللواء محمد نجيب ولكن بقي علي ماهر مستشاراً له.. وبلغ عدد الزعماء المعتقلين ٧٧ شخصاً من بينهم أقطاب الأحزاب السياسية والزعماء. فالثورة إذاً لم تكن مجردة لخلع الملك، بل انها ترمي إلى تبديل الأوضاع وتطهير الإدارة. ولكن من يضمن حسن التصرف والاعتدال. وجماعة الجيش كلهم شبان تنقصهم الخبرة، وروح الاعتدال، وشعور التساهل والتسامح، وأكثر هؤلاء الضباط من الطبقة الفقيرة التي عانت ما عانت، من الملك فاروق والباشوات والأغنياء.. والانتقام من غرائز البشر القوية... ربنا يسلم مصر!

السفر الى مصر

في ١ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٥٢ أخبرني السيد يوسف الكيلاني تلفونياً من بغداد بأن مجلس الوزراء قرر إشراكي كعضو في الوفد العراقي لهيئة الأمم المتحدة.

في ١١ آب/ أغسطس ١٩٥٢ قرر البرلمان الأردني خلع الملك طلال ونصّب ولي عهده الأمير حسين ملكاً للأردن. وهكذا وفي خلال شهر واحد يخلع ملكان من ملوك العرب ويلحق طلال بفاروق. مما يدل على عدم الاستقرار في البلاد العربية. وكلما ضاقت بالعرب الأرض قرروا الاجتماع في القاهرة ودعوا لعقد مجلس الجامعة. وسمعت بالراديو في ٢٦ آب/ أغسطس أن مجلس الوزراء قرر اشراكي بعضوية الوفد العراقي. وفي ١٠ أيلول/ سبتمبر قالت الاذاعة بأن أمين الجامعة العام عبد الرحمن عزام قدم استقالته.. يظهر أن التطهير الذي أخذ مجلس الثورة القيام به تناول الجامعة العربية أيضاً...

سافرت مع فاضل الجمالي وزير الخارجية ورئيس الوفد، بطائرة فرنسية مساء اليوم العاشر من أيلول/ سبتمبر إلى القاهرة وكان معنا أيضاً بالطبع هاشم الحلي السكرتير العام ـ الخاص ورفيق الأسفار للجمالي. أخذنا نجيب الراوي من المطار رأساً الى قصر الزعفران حيث كانت الوفود العربية بانتظارنا. وافتتح الجلسة رئيس وفد مصر علي ماهر. ثم تليت استقالة عزام وقد تأجل البت بها لعدم حضور الأمير فيصل آل سعود. وبعد انتهاء الجلسة ذهبنا الى قصر عابدين لتسجيل أسمائنا حسب البروتوكول... ولكن القصر كان مظلماً كئيباً خلاف ما تعودنا رؤيته. فاستقبلنا بعض الجنود بجمود وبرودة. وعندما تناولنا العشاء على سطح فندق سميراميس وجدنا هناك الأمير فيصل الذي أخبرنا بأنه محجوز عليه في الفندق بسبب قدومه من الحجاز حيث ينتشر وباء الكوليرا!

استغربنا كثيراً من هذا التطور في العلاقات المصرية ـ السعودية... لأن الملك سعود وأولاده كانوا من المؤيدين لفاروق على طول الخط. وتبدل نظام الحكم خلق جواً جديداً...

يوم الجمعة ١٢ أيلول/ سبتمبر كنا في مجلس مع الوفد الأردني فأتى اللواء محمد نجيب رئيس الحكومة المصرية دون إشعار سابق لرد الزيارة للجمالي..فكانت مفاجأة جميلة، وقد وجدت محمد نجيب متواضعاً طيب القلب حلو الحديث. فقضينا معه نصف ساعة ثم أخذنا بعض الصور حسب العادة ثم ودعنا وانصرف بعد أن حصل على مكانة طيبة في قلوبنا..

في اجتماع ١٤ أيلول/ سبتمبر قبل مجلس الجامعة استقالة عبد الرحمن عزام واقترح الوفد العراقي تعيين عبد الخالق حسونة بعد أن بلغنا أن الجيش يرغب في تعيينه. وفي ١٦ منه زارنا الرئيس علي ماهر فتحادثنا مطولاً ووجدته موافقاً على «الدفاع المشترك» على أن يدمج بالضمان الجماعي فتصبح الحكومات العربية كلها أعضاءً فيه وهذه فكرة تعاون طيبة. ولكن «من يعلق الجرس في رقبة القط»؟

اقام علي ماهر حفلة عشاء على باخرته «ممنون» الراسية في الزمالك حضرها الوفود العربية ومحمد نجيب. كانت الحفلة جميلة جداً والجو الطبيعي والسياسي هادىء ومشجع. وأقام الأمير

فيصل حفلة عشاء على سطح فندق سميراميس حضرها الجميع مع محمد نجيب أيضاً. وأقام محمد نجيب في ٢٤ أيلول/ سبتمبر حفلة عشاء تكريماً للدكتور شاخت حضرها كبار القوم... وجلست أنا مع عبد القادر الكيلاني على نفس الطاولة. وكانت الموسيقى والأكل والشرب والأبهة ومنظر النيل.. تجعلنا نتصور كأننا نعيش ليالي ألف ليلة وليلة. وهنا تبادلنا الأنظار وابتسمنا وتذكرنا. فالمحتفى به الدكتور شاخت كان قبل بضع سنوات في زنزانة رهيبة في نورنمبرغ يحاكم بالخيانة العظمى ويدافع عن رأسه. وكنا أيضاً قبل بضع سنوات عبد القادر وأنا في زنزانة قذرة مظلمة مخيفة في السجن العسكري البريطاني في العباسية. ننام على الأرض ونقضي الليل بصيد «البق» الفتاك. ولا نتحرك الاّ محاطين بالحرس البريطاني المسلح كأننا من أخطر المجرمين... أما الآن.. فنحن على سطح فندق سميراميس معززين مكرمين ضيوفاً على رئيس الحكومة المصرية وقائد ثورتها في حفلة تقام تكريماً للدكتور شاخت! سبحانك اللهم يا مبدل الأحوال والحمد لك على نعمتك..

تركت القاهرة في ٢٥ أيلول/ سبتمبر عائداً إلى بيروت بعد قضاء ١٥ يوماً باجتماعات الجامعة وحفلاتها. وجدت ان الثورة المصرية قد خلقت جواً جديداً في القاهرة وأن الشعب بأكثريته كان ملتفاً حول الأبطال الجدد، ولكن الاستياء كان يدب دبيباً في صفوف الأحزاب والطبقات الارستقراطية والمثقفة. وعندما عدت الى بيروت لاحظت أن رغبة التغيير قد وصلت اليها أيضاً حيث استقال رئيس الجمهورية بشارة الخوري وتم انتخاب كميل شمعون رئيساً جديداً للجمهورية، وكانت أزمة الوزارة لا تزال قائمة والمحافل السياسية حائرة.

وبعد قضاء يومين مع وداد والأهل والأولاد عدنا الى دمشق الى الأعمال الاعتيادية. والمعاكسات والمجادلات.. التي لم تتبدل منذ سنتين كاملتين قضيتها في عاصمة الأمويين.

وهكذا انقضت الأشهر التسعة الأولى من سنة ١٩٥٢ كلها بسلسلة من الانقلابات والاستقالات والحركات التي تدل بوضوح على وجود هزات شعبية دفينة لدى الشعوب العربية حرّكتها حرب فلسطين وانكسار الجيوش العربية وانتصار شراذم الصهاينة عليها بشكل يدعو الى التفكير والنقمة... وكان ضحايا هذه الهزات العنيفة: شكري القوتلي وحسني الزعيم ومحسن البرازي وسامي الحناوي والملك فاروق وعزام والنحاس والشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح والملك عبد الله والملك طلال وعدد كبير من الوزراء والرؤساء والزعماء اخذ كل منهم نصيبه من اغتيال واقصاء وخلع وابعاد، وقد سبق للعراق أن قدم ضحاياه قبل الآخرين بعد فشل حركة ١٩٤١ وكنت أنا أحدهم. وسوف لا تنتهي قائمة الضحايا هذه، لأن الجدال بين العرب وخصومهم من مستعمرين وشيوعيين وصهاينة لا يزال على قدم وساق. اللهم يسر ولا تعسر!

أما الأشهر الثلاثة الأخيرة فكانت بمثابة عطلة وابتعاد عن هذه القلاقل إذ قضيتها في الولايات المتحدة كعضو في الوفد العراقي لدى هيئة الأمم المتحدة. ومع أنني اشتغلت في اللجنة الخاصة، فقد كنت أشارك رئيس الوفد فاضل الجمالي بأعمال اللجنة السياسية وفي الهيئة العامة، وكانت أهم الأعمال هناك قضية فلسطين بالنسبة لنا وكذلك قضايا شمال افريقيا: تونس ومراكش، على أن المسؤولية الأولى وأكثر الأعمال كانت على عاتق الدكتور الجمالي وزير الخارجية ورئيس الوفد، وكنت أنا الثاني في الوفد بعد الرئيس.

فهرس الاعلام

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الاماكن

فهرس المفردات البغدادية

الدكة : العتبة ٢٥
المجاز : مدخل البيت من الباب إلى الحوش ٢٥
الحوش : فناء وسط الدار ٢٥، ٢٧
ماكو : لا يوجد ٢٥
الأورسي أو الأرسي : غرفة ذات شبابيك مطلة على الحوش ٢٦
السعلوّه : أنثى الغول ٢٦
سالفه : (جمع: سوالف) حكاية عن الماضي ٢٦
الدنكجيّة : محلّة الدنكجية في بغداد القديمة، أصبحت فيما بعد تسمّى «جديد حسن باشا» والدنكجيّة هم من يعملون في «تهبيش» الرز ٢٦
تهبيش الرز : عمليّة فصل الحبّة عن قشرتها ٢٦
الأكراد الفيليه : جماعة من الأكراد من محافظة ديالى، وأغلبهم من الشيعة ٢٦
الديوانخانة : غرفة استقبال الرجال ٢٦
مابين : الممّر بين غرف النساء والديوان خانة ٢٦
الطارمه : البلكون (الشرفة) ٢٦
الخاندان : كبار القوم ٢٦
طابور اغاسي : قائد الفوج ٢٦
الخطار : الضيوف ٢٧
القهوة جاغ : موقد (وجاق) القهوة ٢٧، ٣٠
الطنطل : مخلوق من الجن يظهر في الظلام ٢٧
باجه : اقدام الذبيحة (الكراعين) ويضاف إليها عادة رأسها ٢٩
اللاله : معلّم الصبيان ٣١
استكان : كوب من الزجاج لشرب الشاي ٣١
الطهور : الختان ٣٢
ميدان عبيد : مكان يجتمع به السود للغناء والرقص ٣٢
كجرات : نوع من القماش يقال ان مصدره ولاية كجرات في غربي الهند ٣٢
هميان : نطاق أو كيس ٣٢
كلبدون : مطرز بالفضة ٣٢
بايدوس : الفرصة بين الدروس ٣٤
العلم حال : العلوم الطبيعيّة ٣٥
وكاحة : تحريف وقاحة، ويقصد بها الشقاوة ٣٦
الجرداغ : مكان على ضفة النهر يحيطه أصحابه أو مستأجروه بسياج من القصب أو الحصير ويستعمل لتبديل الملابس قبل النزول في الماء. يسمر فيه عادة أصحاب المحل مع اصدقائهم في ليالي الصيف ٣٦

بنغله : تعريب لكلمة (BUNGALOW) ٧٢
برا صاحب : السيّد الكبير (تعبير هندي) ٧٥
جوته : السيّد الصغير (تعبير هندي) ٧٥
بودا : السيّد العجوز (تعبير هندي) ٧٥
بير : كلمة فارسية تطلق على الرجل الحكيم أو الكبير السن ٧٥
السبيلخانه : موقع لإرواء المسافرين بالماء ٥٩
بيت اللنج : احد محلات بغداد وكان موقع وكالة شركة (LYNCH)، احدى شركات التجارة البريطانية منذ العهد العثماني ٨٠
الخربوطليه : ضاحية من ضواحي البصرة ٨٥
المغازات : (جمع مغازة) تعريب لكلمة (MAGASIN) (محل تجاري) ٨٧
ابو جاسملر : تعبير بغدادي للرجل القوي المسيطر ٩٤
عقد : زقاق مسقف بأقواس ٥٠
الصوب : أحد جانبي نهر دجلة ٥٠
الكفف : القفف(جمع قفّة) واسطة نقل في النهر ٥٠
خلفه : مساعد الأستاذ ٣٤
الفلقة : آلة من الخشب والحبال لمعاقبة التلاميذ ٣٤
التنك : جمع «تنكة»: إناء لحفظ الماء مصنوع من الفخار ٤٧
شخط : خط ٣٤
الصرفة : الإنصراف من المدرسة ٤٠
المشق : الكتابة
ترس : ملأ
الدربونة : الزقاق ٣١
الماطور : المحرك من كلمة (MOTOR) ٤٣
طرقات : كبريت ملّون أو فراقيع ٤٤
الماكينجي : العامل الذي يشغل الآلة ٤٣
جلوس : الزينات والاوراق الملونة والمصابيح الكهربائية التي كانت تعلق في المحلات العامة وعلى واجهات دوائر الحكومة في المناسبات العامة. ويبدو إنها اطلقت لأول مرة بمناسبة «جلوس» الملك على العرش ٤٤
مزنجرة : (زنجار) أصابها الصدأ ٣١
مخبّل : مجنون ٤٥
بالك، بالك : خذ الحذر وابعد عن الطريق ٤٥
المينه : السائل الأسود الذي ترسم به النقوش على آنية الفضة ٤٥
المسواق : الحاجات المشتراة من السوق ٤٦
صانع عربجي : مساعد سائق العربة التي يجرّها الخيل ٤٥
الحماميل : جمع «حمّال» باللغة المحلية ٤٧
كلبجة : قيد الحديد الذي يستعمله أفراد الشرطة (تعبير تركي) ٤٧
الشريعة : موقع على النهر تقف عنده الزوارق التي تستعمل لعبور النهر ٥٠
التتن : التبغ ٥٠

كركري	:	نوع من الحلوى الشعبية ٥١
يدردم	:	يتكلم بصوت منخفض غاضب ٥٢
زبون	:	رداء شعبي للرجال ٣٢
كرنتينة	:	تعريب لكلمة (QUARANTINE) (الحجر الصحي) ٥٣
البلاعيم	:	اللوزتين ٥١
تعدّد	:	تنتحب معددة مناقب الفقيد ٥٥
طمّاس بير	:	الرجل الذي ينزل إلى البئر لإنقاذ شخص أو استخلاص متاع سقط فيها ٥٩
القشلة	:	تحريف لكلمة قشلاق التركية وهي المخفر أو موقع الجند ٦٠
الدوب	:	جمع «دوبه» وهي الـ(BARGE) التي لا محرك لها وتلحق بالزورق البخاري محملة بالبضائع ٦٠
القره قوشيه	:	نسبة إلى قره قوش وهو أحد حكام المماليك، وتنتسب إليه إجراءات لا سند لها من القانون أو المنطق ٦٢
منقلة	:	موقد للتدفئة بواسطة الفحم (كانون) ٢٩
ابو شنبة	:	بشوش ٦٥
الحمال باشي	:	كبير الحمالين ٦٦
قماره	:	غرفة مسقوفة داخل الزورق البخاري تستعمل للراحة ٧٤
الدرد	:	فارسيّة بمعنى العلّة أو الهم

ذكريات بغدادية

انتقل موسى الشابندر من السلك الدبلوماسي الى الوزارة عندما عينه رشيد عالي الكيلاني وزيراً للخارجية في وزارته التي لم تعمر طويلاً، وكان ذلك منعطفاً اساسياً في حياته ادى الى اعتقاله ومحاكمته وسجنه ونفيه ومرضه ومصادرة املاكه!

ويروي موسى الشابندر في هذه الذكريات قصة حياته الصاخبة؛ باسلوب عفوي وصادق وامين مستعرضاً أدق التفاصيل التي عرفها او عاشها منذ نعومة اظفاره وحتى تقاعده من العمل الدبلوماسي والسياسي.

ويمكن وصف هذه الذكريات، بانها تاريخ فعلي لطبيعة المرحلة الزمنية التي نشا وترعرع فيها وعن عادات وتقاليد العراق واخبار العديد من الشخصيات السياسية والاقتصادية.



1855131994